المتلذذون بالعلم

سير ودرر

حصيلة تتبع وجمع على مدى ٢٤ عاما مضت



تأليف

راشد بن عبد الرحمن بن ردن البداح



المتلذذون بالعلم
سِيَرٌ ودُرَرٌ

ح راشد بن عبد الرحمن بن ردن البداح، ١٤٤٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البداح، راشد بن عبد الرحمن بن ردن
المتلذذون بالعلم./ راشد بن عبد الرحمن بن ردن البداح- ط١- الزلفي، ١٤٤٥ هـ.
١٠٠٠ص ؛ ١٨ x ٢٤ سم.
ردمك: ٥-٩٩٥٩-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

رقم الإيداع: ١٨٢٥٤ / ١٤٤٥
ردمك: ٥-٩٩٥٩-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق
الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦٥٦١١٥٠٥٨ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
القاهرة - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢ الإسكندرية - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
البريد الالكتروني: d.alhijaz@gmail.com

المتلذذون بالعلم

سير ودرر

حصيلة تتبع وجمع على مدى ٢٤ عاماً مضت

تأليف

راشد بن عبد الرحمن بن زيدان البداح

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

يشتمل على سبعة عشر بابًا

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

إهداء إلى أبَوَيَّ الراحِلَيْنِ
والـدِيْ وعـمِّي

إلى والدِيْ أبي راشد

عبد الرحمن -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨ / ٧ / ١٤٠٢هـ)

مُعلِّمِي الذي أذاقَني أول لَعْقةٍ من عَسَل العلم، يوم كان يَستعير لي مرارًا كُتُبًا مصوَّرة من مكتبة مدرستي «المحمدية» بالزلفي، ودرَّبَني على الخط بكثرة الكتابة، فكنتُ كما أراد.

وإلى عمِّي أبي بندر

سلمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣ / ١١ / ١٤٤٢هـ)

محفِزِي الذي بدأتُ تكوين مكتبتي من جزيلِ إهداءَاتِه، وقد شجع ذلك الصبيَ حينما كان في الصف الخامس الابتدائي أن يُشارك، ثم يفوز في مسابقة بحث (بر الوالدين).

وفاءً لأبَوَيَّ أُهدِيهِما كتابِيَ

ولكل مُتلذِّذٍ بالعِلم كذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة المقدّمة

الحمدُ لله وحدَه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله. أما بعدُ:

فإن في العلم لذةً لا تُدانِيها لذةٌ، فلا تُقارِبها لذةُ الآكِل أُكْلته، ولا الناهِل جُرعتَه، ولا النائم نَوْمتَه، ولا المُباشِر حَلِيلتَه.

والمتلذِّذون بالعلم يحسبهم الجاهل مجانين من التلذذ، حتى إنهم لما ذاقوا عُسَيلة العلم، صاروا يتعجبون من عقلٍ لا يَعْلَق به:

فَلَو قد ذُقـتَ من حَلواه طعمًا ... لآثــرْتَ الـتَّـعَـلُّـم واجـتـهـدتـا

وهذا الكتاب المُتْرَع سيُعَيِّشك سِيَرَ المتلذِّذين ولذائذَهم، لا أن يَسرد لك فضائل العلم، وآداب التعلم إلا تبَعًا! فهو يَحكي عنهم حالهم وحَلاهم في العلم، لا عن حال العلم ذاتِه.

أخوك: راشد بن عبد الرحمن بن رِدْن البِداح

السعودية - محافظة الزلفي

٢٦ ذو الحجة ١٤٤٤ هـ

المقدّمة

الحمدُ لله الذي أحلَى مَواردَ العِلم لأعلامِه، فرَضِيَ كلُّ منهم بوَصْلِه عن ملاذِّ طعامِه وشرابِه ومنامِه، وعَمَرَ باقتباسِه آناءَ لياليه وأيامِه. وأزكى صَلَواتِ الله، وأذكى سلامِه، على محمّد نبيّ الهُدى وإمامِه، الذي أشادَ بفضلِ التعلُّم والتعلِيم في جَلِيّ مقالِه بعليّ مَقامِه، ما انهلَّ غيثٌ من غَمامِه، وما اكتَمَلَ بدْرٌ بِلَيلِ تمامِه. أما بعدُ:

فإن الحديث في العلم ألذُّ من إغفاءة الفجر، وأشهى من غفلة الرقيب؛ لأن في تذوُّقه ثمراتٌ طيباتٌ، ويكفيه أنْ قد رفع الله أهله درجات، كما قال -سبحانه-: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۢ﴾ [المجادلة: ١١]

ومن الثمرات الدَّواني أن النهِمَ فيه يذوق لذةً لا تُدانِيها لذةٌ، فلا تُقارِبها لذةُ الآكِلِ أُكْلته، ولا الناهِل جُرعتَه، ولا النائم نَوْمتَه، ولا حتى المُباشِر حَلِيلتَه.

فالمتلذِّذون بالعلم يحسبهم الجاهل مجانين من التلذذ، حتى إنهم لما ذاقوا عُسَيلة العلم، صاروا يتعجبون من عقلٍ لا يَعْلَق به، ورُوح لا تَهُشُّ لسماعه، ونفْس لا تجِدُ حلاوتَه، وصدر لا يتصدّع طرَبًا به:

فَلَو قد ذُقــتَ من حَلواه طعمًا ... لآثـــرْتَ الــتَّــعَــلُّــم واجــتــهــدتــا

ومنهم فئام يعيشون بيننا، ويتلذَّذُون بما نتلذَّذ من المباحات، لكنهم انفردوا بلذةٍ؛ هي أمُّ اللذات.

وهذا الكتاب المُتْرَع بين يديك قد عنوَنْتُه بـ: «المتلذِّذون بالعِلْمِ».

والتعبير بالمتلذذين -في رأيي الشخصي- أبلغ من التعبير بـ «العاشقين» لأن العشق مرذول مبتذل، وأبلغ من «المتشوقين» فإن الشوق نار كاوِية، وقد ينحدر به المشتاق للهاوية، وأبلغ من التعبير بـ«الصابرين»؛ إذ الصبر تجلُّد، قد يُفقِد طعم التلذذ.

وأما نسبة التلذذ إلى العلم؛ فهو أبلغ من نسبته للقراءة، التي هي جزء من عشرين جزءًا من العلم. وقد أجملتُها، ثم بسطتُها في عامة صفحات هذا الكتاب المرقوم.

وهذا الكتاب سيُعَيِّشك سِيَرَ المتلذِّذين ولذائذَهم، لا أن يَسرد لك فضائل العلم، وآداب التعلم إلا تبَعًا! فهو يَحكي عنهم حالهم وحَلاهم في العلم، لا عن حال العلم ذاتِه.

وقد «سلكتُ فيه سُبُل ربي ذُلُلاً، فتبجَّسَتْ لي- بمَنِّ الله تعالى- من لذائذ العلم عُيونُها، وانْثالتْ عليَّ من لطائف السِيَر أبكارُها وعُوْنُها، وطفِقَتْ عقائل الكلِم يزدَلِفْنَ إليَّ، بأيتهِنَّ أبدأ، من نُكَتٍ لم أُسبقْ إليها، ونُقُولٍ لم أُزحَم عليها، كل ذلك بيُمْنِ الله»(١).

قصة التأليف:

وأما قصة تأليفه؛ فإن فِكرته قد بدأت عام ١٤٢٠هـ، على إثْر مُباحَثة مع شيخي وصاحبي الفقيه المفيد سليمان بن خالد الحربي -حفظه الله تعالى-، فقال آنَذاك: ليتَ أحدًا يَجمع ما قيل عن «لذة العلم»، فخطرتْ الفكرة في بالي، فبدأتُ أجمع الشيء إلى الشيء، وأضمُّ النَّظير إلى نظيره، لا قصدًا للتأليف، ولكن كلما وجدتُ شيئًا دوَّنْتُه الكترونيًا طيلة عِقدين من الزمان، ثم فكرتُ في طبعه في كتاب، وذلك قبل خمس سنين من طبعه، فاجتهدتُ في تقسيمه وتنسيقه، وتوجهت بكُلِّيتي لإنهائه، فمكثتُ -بفضل الله - آخر خمس سنوات سنِيَّات في «تلذذ» فريد متصل، وصار مجموع كل ذلك = ٢٤ سنة من الجمع والفَرْز والتعليق والتنسيق (١٤٢٠ - ١٤٤٤) وقد حشَوتُ حشوات لذيذات في هذا الكتاب -بفضل الله سبحانه- فاقت أربعة آلاف حاشية، ورجعت لأجله إلى مراجع كثيرة، وكتب متنوعة، جاوزت التسع مئة.

ولقد كثرتِ الكتب الحاثَّة على القراءة، وكيفية الطلب، ولكن أكثر كتابين رَواجًا ونفعًا هما:

١. «المشوِّق إلى القراءة وطلب العلم»، للشيخ المحقق علي العمران -حفظه الله تعالى-(٢).

---

(١) مستفاد من الروض الأنف للقاضي عياض (١/ ٣٥)

(٢) وقد هاتفتُ وشاوَرتُ الشيخ عليًا عند شروعي بهذا الكتاب، فأشار علَيَّ بما حمِدتُ عُقباه. فجزاه الله عني خيرًا.

٢. «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، للشيخ المفيد عبد الفتاح أبي غدة -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٧هـ).

ولما تأملتُ تلك الكتب الرائجة وغير الرائجة، وجدتُ أن عامَّتها تخاطب المبتدئ بطلب العلم، وترغِّبه، وتمهِّد له سبيل طلبه، بأسلوب أقرب إلى الاستجداء، ولكن يَندُر أن تجِدَ منها ما يُخاطب المنتهِي، ويقِلُّ أن تخاطب المتوسط.

فحاوَلتُ في هذه الصفحات أن يكون غالب الخِطاب، موجَّهًا للمنتهِي في طلب العلم، لا للمبتدئ، وأحيانًا للمتوسط بينهما.

فإن هؤلاء النخبة المنتهية، والمختطَّة طريقها قد تخَطَّوا مراحل في العلم، حتى صارت الأسياسيات لديهم كالأبجديات، كما أنهم ليسوا بحاجة للترغيب والتسهيل في أكثر الأحايين، وإنما يحتاجون جمع ما تفرق من النقولات المحفِّزات، وحشد النماذج من سِيَر العلماء في تلذُّذِهم بالعلم، وليس في تنظير وتقسيم طُرق طلب العلم.

فالكتاب -إذًا - فيه مَيزتان بارزتان، ربما لا تجتمعان في نظيره:

الأولى: حشد الأمثلة المتكاثرة المتناثرة في بطون الكتب.

والثانية: أنه يخاطب النخبة من طلاب العلم.

وقد هَدَاني الله - بحمده وفضله- وجنَيتُ ثمرات مختلفًا ألوانها وطُعومها، فاحترتُ فيما أُبقيه وما أُلغِيهِ، ولكن الكتاب تَضَخَّم جدًا، حتى فاقَ الأَلْف وخمس مائة صفحة! فرأيت -بعد مشورة واستخارة - انتزاع مباحث منه؛ ليكون كتابًا آخر قَسيمًا له.

فأجريتُ - بحمد الله تعالى- عملية «فصل السيامي» بنجاح فائق، وخرج من رَحِم مجموع هذا الكتاب الأم كتاب آخر، فكان اسم ذلك الكتاب الآخر: «إبداعات العلماء والمؤلفين»؛ ليعيش القارئ الكريم بين تلذذات، ثم إبداعات.

وقد انتهجتُ في هذا الكتاب وقَسيمِه «المتلذذِّون والإبداعات» ما ألزمتُ به نفسي وهو غير لازم، لكن لَذَّ لي عُقباه -برغم العَنَت لتحقيقه، ألا وهو أني الْتزمتُ الترحُّم على كل عَلَم مسلم، وفاءً لحقهم، ورجاء اللحاق بركبهم، ولو لمتلوث ببدعة، أو متلطخ بمظلمة؛ لأنهم برغم ذلك مسلمون. ثم ألحقْتُها بتاريخ وفاته حتى ولو تكررت،

لكن مع تباعُد ذِكر اسمه، فأرْبَت عدد الترحُّمات على العلماء على ثلاثة آلاف ترجمةٍ وترحُّمَةٍ(١).

ويَجدر التنبيه إلى أن العناية بضبط تواريخ الوفيات، يعتبر من مناقب نخبة العلماء.

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): معرفة السِّيَر، والوقوف على وفاة العلماء من عِلم خاصة أهل العلم، ولا ينبغي لمن وَسَم نفسه بالعلم جهْلُ ذلك(٢).

فيا فقيه! ويا محدث! ويا أديب! ويا قارئ، ويا كلَّ مثقف: أوصيك وأنت تلِجُ لُجَجَ العلم أن تقرأ بتلذُّذ كتاب: المتلذِّذون بالعلم.

وحين يبقى ثلث الكتاب الآخِر؛ فإن الكتاب سيُناديك: هل من قارئ فأُلهِمَه؟! هل من متأمِّل فأُعجِبَه؟!هل من متلذِّذ فأُذِيقَه؟!

وإني أشكر الله -تعالى- أن أكرمني في هذا الكتاب، إلى بلوغ مستوى لم أرَ مَن سبقني إليه، أقوله تحدثًا بنعمة الله، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ثم أشكر إخوة أحبَّةً، أكرموني بمراجعته، وإضفاء إضافاتهم اللذيذة، ألا وهم هؤلاء المشايخ الكرام الثمانية:

١. جاري الكريم أ.د. صالح بن فُريح البهلال.

٢. عبد الرحمن بن سعود الحمَد.

٣. عبد الرحمن بن إبراهيم الرِّزق.

---

(١) وفي هذا يقول ابن جماعة الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ): وربما يقرأ بعضهم الحديث بسنده، فيدعو لجميع رجال السند! فسبحان من اختَصَّ مَن شاء مِن عباده، بما شاء مِن جزيل عطائه. وقال مُوصِيًا: وكلما كتب اسم الله -تعالى- أتْبعَه بالتعظيم، مثل «تعالى» أو «سبحانه». وقال الكافِيَجي يجب أن يكتب «تعالى» عند ذكر الله -تعالى-. ويستحب أن يترحَّم عند ذكر خيِّر.
ومن القصص: أنه رؤي أبو جعفر الكاغذي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غَفر لي ولم يحاسبني. قيل: بماذا؟ قال: أما المغفرة؛ فإني كنت أقول في رواياتي لمشايخي: حدثني فلان رحمه الله. وأما ترك المحاسبة؛ لأني كنت أقول في كل حديث: ﷺ.
انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١١٦) وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٦٤) و (ص١٧٥) والمختصر في علم الأثر (ص: ١٨١)

(٢) الاستذكار (٥٤/٣)

٤. عبد العزيز بن محمد الحُبيشي.

٥. عبد العزيز بن موسى الموسى.

٦. عبد العزيز بن عبد المحسن الزُّنيدي.

٧. علي بن محمد الرومي.

٨. ريّان بن مُهنا المدالله.

وأشكر آخرين، أكرموني بملحوظات وتعديلات، وبفوائد وفرائد، وهم كثيرون ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾، فبارك الله في الجميع، وجزاهم الله عني خيرًا.

والأمر كما قيل: المتصفّح للكتاب أبصرُ بمواضع الخَلَل، من مُبتدِئ تأليفه[1].

أسأل الله الوهاب، أن يكون هذا الكتاب، لي ولمن قرأه مستلَذًّا شائقًا، وللعمل والدأَب سائقًا، وللثواب والجنة سابقًا.

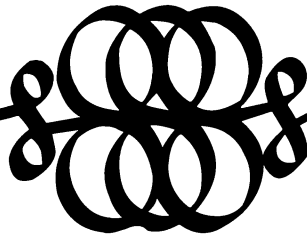
وأقول كما قال الأولون المتقون: نسألُ اللهَ ألا يَجعلَ ما عَلِمْنا وَبَالاً علينا[2].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

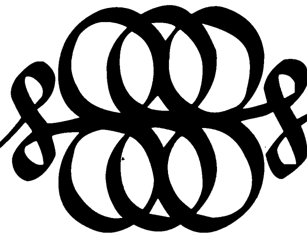


(١) الإعجاز والإيجاز للثعالبي (ص: ١١١)

(٢) سيأتيك بعد صفحات نبأ عشرة من العلماء، لهَجوا بهذا الدعاء العميق، ودوَّنوه في مطالع كتبهم.



الباب الأول:
تمهيدات للتلذُّذ بالعلم



١. أهمية التلذُّذ ومفهوم العلم؟

عنوان الكتاب يتألف من كلمتين:

أولاً: التلذذ:

اللَّذَّة واللَّذَاذَة واللَّذِيذ واللَّذْوَى واللَّذ؛ كلها تجري مجرى واحدًا في الوصف. يقال: شراب لَذٌّ ولَذِيذٌ. قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥][(١)].

واللذاذة: طِيب طَعم الشيء. لذَّ لَذاذة فهو لذيذٌ أي مُشتهَى[(٢)].

ومثل التلذذ التفكُّه، من التلذذ بالفاكِهة، أو من الفَكْهَة، وهي السرور[(٣)].

تساؤل: هل التلذُّذ باللذة هو إدراك حلاوتها وشهوتها، أو تستمر بعد ذلك؟

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): بل اللذة حال يَعقب إدراك المُلائم؛ فليست اللذة مجرد ذَوقه، بل أمر يجِده من نفسه يحصل مع الذوق[(٤)].

وقال: اللذة تابعة ولازِمةٌ للإدراك المُلائم.. فالعلم ملائم لبني آدم، فيكونون مُلْتَذِّين بذلك، بل يكون الْتِذاذُهم بذلك أعظم من غيره[(٥)].

ويلخصه تلميذه ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) حيث يقول: اللذة حالة تنشأ عن الإدراك، من الالْتذاذ والفرح والسرور[(٦)].

ولتصوُّر متعلقات اللذة؛ فههنا سؤالان وجوابهما:

١. ما الفرق بين التلذُّذ والتمتع؟

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ٢٩٤)

(٢) انظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٧٩٢) ومجمع بحار الأنوار - الفَتَّني الكجراتي (٤/ ٤٨٢)

(٣) تفسير ابن جزي (١/ ٤٠)

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٦)

(٥) بتصرف يسير من: الرد على المنطقيين (ص: ٤٢٤)

(٦) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٤٥٧)

الجواب: التمتع أعم، فكل تلذُّذ تمتع[١].

فالتمتُّع إمداد مدة مع راحة، أما التلذُّذ فهو تذوُّق حلاوة ولو قصُرَت، أو صاحَبَها تعب.

قال العلماء: الدنيا أربعة أشياء؛ الفرح والراحة والحلاوة واللّذّة، فالفرح بالقلب، والراحة بالبدن، واللذة بالحلق، والحلاوة بالعين[٢].

٢. هل يتأتَّى التلذذ من غير وجود تألُّمٍ معه أو قبله؟

الجواب: نعم قد يتأتَّى، كمَنْ وقف على مسألة علم، أو كنز مال فجأة، لكن الغالب أنه لا يكاد أن تكون لذة إلا يتبعها أو يصحَبها ألم. والمتقرر أن العلم لا يتأتَّى إلا على جسر من التعب، بل إن اللذة المشتملة على دفع الألم أحلى من اللذة الموجودة بدونه[٣].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): الاصطبار هو التلذذ بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى، وهو أبلغ من الصبر وأقوى[٤].

وسيأتيك الكثير من الأحوال والأقوال، التي تؤكد هذا المعنى العميق، وكيف استحال تعبهم لذات، لا سيما في الباب ذي العنوان: لذة العلم تُنسِي المَشَاق.

ثانيًا: العلم:

العِلم: هو الاعتقادُ الجازم المطابق للواقع.

العلمُ أخص في الإنسان، والمعرفةُ أخص في الحيوان[٥].

وقد تميَّز جنس البشر عن كل حيوان بهيم بأمرين: بنُطق يُفضي إلى الفهم، وعقل يؤدي إلى العلم[٦].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (٢/ ١٠٢)

(٢) الإمتاع والمؤانسة (ص: ٢٤٦)

(٣) انظر: غاية الوصول في شرح لب الأصول (ص: ١٧٢) وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١/ ٧٠٥) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٧٤)

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٦٥ و ٢٧٠)

(٥) انظر: التعريفات الفقهية للبركتي (ص: ١٥١) والفروق اللغوية للعسكري (ص: ٨٠)

(٦) أعلام النبوة للماوردي (ص: ١٥)

والعلم درجات ومراتب يترقى المتلذذ فيها صُعُدًا، وأعلاها العلم الشرعي، وهو ما عبَّر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) بقوله: العلم الأعلى هو العلم بالأعلى.. فالعلم به سيد جميع العلوم، وهو أصل لها[١]. يعني العلم بالله وبشرعه، المستمد من الوحيين.

وقال أيضًا: ليس في الدنيا من اللذات، أعظم من لذة العلم بالله، وذكره، وعبادته[٢].

إذًا؛ فمِن العلم ما هو نافع، لكن منه ما هو أنفع، ألا وهو العلم بالشرع.

قال أبو الحسين الوراق -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٩هـ): أنفع العلمِ العلمُ بأمر الله ونهيه، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه، وأعلى العلوم العلم بالله وصفاته وأسمائه[٣].

وهذا ينطبق على علم الفقه والتوحيد والوعظ خصوصًا.

وكذا خصَّ الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) علم التوحيد فقال: العلم لذيذ، وألذُّ العلوم العلم بالله -تعالى- وبصفاته وأفعاله، وتدبيره في مملكته[٤].

وهذا العلم بالشرع -على شرفه وعلوِّه- لا يناله ويتلذذ به إلا القليل من القليل.

ولأجل هذا يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): وهذه الأمة على قُرب عَهدها بنبيِها، في العلم الموروث عنه، ما لا يعرفه إلا الأفراد القليلون جدًا من أمته[٥].

هل للعلم لذة؟

إيْ نعمْ -واللهِ- بلا ريب، فله لذة لا تُسامَى، وحلاوة لا تُدانَى.

وهذا السؤال هو مَرْبَط الفرس، وبيت القصيد. وجوابه هنا مقتَضَب كالمتن، وما بعده من مئات الصفحات، هي كالشرح للمتن.

فيقال: الإنسان متقلب في اللذات بين ثلاث لذات، وأسماها العلم.

والإمام فخر الدين الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) قال في آخر كتبه -وهو

---

(١) جامع المسائل (٥/٢٦٨) والرد على الشاذلي (ص: ١٩٣) كلاهما لابن تيمية.
(٢) الصفدية (٢ / ٢٧٢)
(٣) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ٢٣١)
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٠٨)
(٥) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢/ ٤٥٩)

كتاب «أقسام اللذات» الذي صنفه في آخر عمره، وهو كتاب مفيد- ذكر فيه أقسام اللذات، وبيَّن أنها ثلاثة: الحسية، كالأكل والشرب، والنكاح، واللباس. واللذة الخيالية الوهمية، كلذَّة الرياسة. واللذة العقلية، كلذَّة العلوم والمعارف(١).

وتَكمن مواضع اللذة بالعلم خلال أطوار ثلاثة -أيضًا-: قبل تحصيله، وعند تحصيله، وبعد تحصيله.

وتتكرر تلك اللذة في محطات أربع: لذة الطلب - لذة التعب - لذة الذل - لذة البذل.

وضابطها: ألا تكون مُشغلة عن الأهم في العلم، وعن الأصول بالفروع.

وَمِنْ صِفاتِ أُولِي الإيمانِ نَهْمَتُهُمْ ... فِي العِلْمِ حتى اللَّقَى غِبْط بِذِي النَّهَمِ

العِلْمُ أغْلَى وأحْلى ما لَهُ اسْتَمَعَتْ ... أذْنٌ وأعْـرَبَ عنهُ نـاطِـقٌ بِـفَـمِ(٢)

وليُعلم أن العلم لذيذ في نفسه، فيُطلب لِذَاته، كما أنه لذيذ لغيره، فيُطلب لأجله.

قال ابن القيم (ت ٧٥١هـ): العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات(٣).

ولا يخفَى على أهله أنه لا لذةَ فوقها؛ لأنها لذة روحانية؛ فإنها أعلى وأشهى من اللذائذ الجسمانية. فتجِدُ المتلذِّذ بروحه ينافس في المعالي، ويسهر في طِلابها الليالي.

قال ابن القيم (ت ٧٥١هـ): وأما اللذة العقلية الروحانية؛ فهي كلَذَّة المعرفة والعلم ..فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات، وهو لذة النفس الفاضلة العلوية الشريفة(٤).

ومن لذته التابعة لعِزَّته: أنه لا يَقبل العزل والنصب، ومع دَوامه لا مزاحمةَ فيه لأحد؛ لأن المعلومات متسعة، مزيدة بكثرة الشركاء، ومع هذا لا ترى أحدًا من الولاة الجهال إلا يتمنى أن يكون عزُّه كعِزِّ أهل العلم، ألا أن الموانع البهيمية تمنع عن نَيله.

وأما اللذائذ الحاصلة لغيره، أما في الأخرى؛ فلِكَونه وسيلة إلى أعظم اللذائذ

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٣٠٤) وانظر: البحور الزاخرة في علوم الآخرة للسفاريني (٣/ ١٥٤٥)

(٢) البيتان للشيخ حافظ حكمي -رحمه الله تعالى- ضمن منظومته الميمية في الآداب الشرعية (ص١)

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٨٧)

(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ١٦٥)

الأخروية، والسعادة الأبدية، وأما في الدنيا فالعز، ولزوم الاحترام في الطباع، فإنك ترى أجلاف العرب، يصادِفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم[١].

وهذه اللذة العلمية لا يُمكِن أن يُعبَّر عنها، ولكن يقارَب إليها بوصفها فحسْب.

وتأمل -مثلاً - لذة العلم، حينما يطرحها مثل الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ). فهذا الإمام يقول عنه أحد تلاميذه: كأن العلم قد اختلط بلحمه ودمه وسائره؛ فإنه لم يكن له مستعارًا، بل كان له شعارًا ودثارًا[٢].

شيوخ العلوم الذائقون حلاوةً   من العلم لم تُطعَمْ لغير ذَويـــهِ[٣]

محبة العلم

إن لم تحصل اللذة بالعلم، فلتدرك المحبة للعلم على أقل الأحوال. وإياك أن تكون الثالثة فتَهلك! وهي ما أشار إليها الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) بقوله: مَن لا يحِبُّ العلم فلا خير فيه، ولا يكن بينك وبينه معرفة، ولا صداقة[٤].

ومحبة العلم -كما أشار ابن القيم أنها- من علامات السعادة، وبُغض العلم من علامات الشقاوة. وهذه السعادة لا يعرف قدرها، ويبعث على طلبها إلا العلم بها، فعادت السعادة كلها إلى العلم[٥].

لكن تلكم السعادة لا تتأتَّى إلا بشرط؛ ذكره الماوَردي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٠هـ) فقال: وإنما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم[٦].

فحقيقٌ بلذة هذا شأنها؛ أن تُنفَق عليها نفائس الأنفاس، ويسابق عليها السابقون من الناس.

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢١)
(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ١٨)
(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٨)
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٤)
(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٨ و ١٣٦)
(٦) أدب الدنيا والدين (ص: ٦٢)

نداء لكل طالب علم:

يا طالب العلم: لقد كنتَ من قبلُ تحمل اسمين جميلين؛ اسمك وكُنيتك، ووصفين جليلين؛ الإسلام والإيمان، ولكنك حينما دلفْتَ لأبواب العلم، أضفتَ وحملتَ وصفًا شريفًا، ألا وهو وصفك بـ «طالب العلم» أو على الأقلِّ فقُل: «طالب المعرفة».

فإذا خلَطنا معها التلذذ بالعلم صارت خَلطةً ما ألذّها، وما أحلاها!

فتذكَّرْ -يا طالب العلم- أن طلب العلم فضيلة ورفعة، وأن له لذة عجز عن وصفها العلماء، ولكنك ستتبيَّن فحواها بأقوالهم حين يَنطقونه علمًا، وبأحوالهم حين يُترجِمونه عملاً.

و «من قضى الله له بالعلم يسَّر له طلبه، وحُبه، وفهمه، ومن حُكم له بالجهل نُزِع حب العلم من قلبه»[1].

وهذا موجز الجواب باقتضاب، وأما تفصيله بإسهاب؛ فَلَتَرَيَنَّه مبسوطًا مضبوطًا في عامة مباحث الكتاب: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [سورة ص: ٨٨] لا سيما في المباحث القريبة القادمة.



(١) تلبيس إبليس (ص: ٣٢٢)

٢. مجالات التلذذ بالعلم

إنها مائدة مستديرة، فيها صنوف شهية مما لذ وطاب؛ لتعرف أنك تطوف بين تلكم اللذائذ. بينما أمم الغرب والشرق ليس يتلذذون إلا بالأولى منهن غالبًا.

وهذه المجالات عُدَّتها في عشرين مجالاً.

وفي عامة صفحـات هذا الكتاب «سأُنبيك عن تفصيلها بِبَيان».

فاعدُد لنفسك؛ كم لك من نصيب في تلك العشرين المسْرودة:

١. القراءة والجَرد.

٢. الدراسة والتدريس.

٣. الإفتاء والاستفتاء.

٤. المذاكَرة والمنافسة.

٥. المناظَرة والانتصار.

٦. الحفظ والمراجعة.

٧. الفهم والاستنباط.

٨. الإفادة والتقييد.

٩. المكث بالمكتبة.

١٠. الشراء والجمع.

١١. الدعم والوقف.

١٢. النظم للعلم.

١٣. النسخ والكتابة.

١٤. إهداء الكتب.

١٥. لقاء العلماء.

١٦. لقاء المتعلمين.

١٧. التأليف والجمع.

١٨. البحث والتنقيب.

١٩. الرؤى المبشِّرة.

٢٠. الانتساب للعلم.



٣. موقظة: الفرق بين العلم والمعلومات

إيقاظة مرتاضة:

لا تغترَّ بكثرةِ التكدُّس، أعني تكدُّس المعلومات الصغيرة في عقلك؛ فإنها توهمك بسَعَة الاطلاع، وهي خير، لكنها لا تدل على المضي في ترسيخ القدم في العلم، بل غاية ما تكون أنها تذوُّقات، من هذا ذَوقةٌ، ومن ذاك ذَوقةٌ أخرى، وأما الغذاء العقلي الصحي المتكامل فشيء آخر.

ولعله مرَّ بك من يحفظ مواضع الفوائد بصفحاتها من الكُتب، ويستعرض الفصول والأبواب، ولكنه إذا طُلب منه مناقشة فِكرةٍ لمؤلف خذَله ذِهنه!

قيل لأيوب السختياني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١هـ): العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر[١].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) معلِّقًا: ففرَّق هذا الراسخ بين العلم والكلام، فالكتب كثيرة جدًا، والكلام والجدال، والمَقْدِرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزِل عن أكثرها[٢].

فالعلم ليس بكثرة الرواية، ولا بتعداد المصنفات، ولا بكثرة الدروس، لكنه الإيمان والخشية، وثقوب الفهم الرباني الموهوب.

وتفكَّرْ بحال أعلم هذه الأمة بعد نبيِّها، ألا وهو الصِّدِّيق الأكبر أبو بكر ﷺ؛ فكم عدد الأحاديث التي رواها؟!

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٢٣٢)

(٢) الفوائد لابن القيم (ص: ١٠٤)

عددهنَّ (١٤٢) حديثاً فقط، وقد اتفق الشيخان على ستة منها، فيما انفرد البخاري بأحد عشر، وانفرد مسلم بحديث واحد، وله في السنن والمسانيد (١٢٤)(١).

ومع هذا فهو أعلم الصحابة على الإطلاق، ولذلك لما مرض النبي ﷺ قدَّمه للناس إمامًا، ولما مات جعله الله للناس خليفة رسوله ﷺ.

إذاً؛ فليس العلم بكثرة الرواية. وقد عقد ابن رجب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ) مقارنة جميلة، فقال: كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابِعُو التابعين؛ كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم. فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب، يفهم به العبدُ الحقَ، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة، محصلة للمقاصد.. وقد ابتلينا بجهلَة من الناس، يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين، أنه أعلم ممن تقدَّم(٢).

تساؤل:

كثرة المعلومات، وقلة العلم والعمل؛ هل هو عيب، ومؤْذِن خطر؟

وللجواب على هذا التساؤل تأمل هذا الحديث العجيب:

شَخَصَ النبي ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: **هذا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العلم من الناس حتى لا يَقدروا منه على شيء**. فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟! فوالله لنَقرَأَنَّه ولنُقرِئَنَّه نساءنا وأبناءنا، فقال: ثكلتْكَ أمك يا زياد، إن كنتُ لأَعُدُّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغْني عنهم؟!(٣).

فالأمر يستلزم ما قاله الفراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ): أدب النفس، ثم أدب الدرس(٤).

---

(١) هذا تحصل لي -بحمد الله - عن طريق الجَرْد والتتبع لدواوين السنة.

(٢) بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب (ص: ٥)

(٣) سنن الترمذي (٢٦٥٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ١١٧٣)

(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٦/ ٣٥٣)

وإلا صار تحصيل المعلومات بلا تزكية للنفوس وبالاً، يُنتِج غرورًا وضلالاً.

وبسبب تلك الضحالة العلمية العارمة، فقد تجد مَن يَجهَل ما يجب أن يُعلم من أحكام الشرع بالضرورة، لذا يجب شحن العقول، بالاستزادة من القراءة المؤصَّلة، والمعرفة الواسعة، القائدة للعمل.

قال رسول الله ﷺ: **يَدرُس الإسلام كما يَدرس وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدرَى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسكٌ ولا صدقة**[1].

إذًا: فلابد من مخزون ذهني وكتابي، يصحبه تزكية للنفوس؛ حتى يرسخ العلم وينفع.

قصة معاصرة تدل على الجهل بالدين:

قال الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) معلِّقًا على الحديث الآنف: سألني أحدهم هاتفيًا عن امرأة تزوجها، وكانت تصلي دون أن تغتسل من الجماع! وقريبًا سألني إمام مسجد، يَنظر إلى نفسه أنه على شيء من العلم، يُسوِّغ له أن يخالف العلماء! سألني عن ابنه، أنه كان يصلي جُنُبًا، بعد أن بلغ مبلغ الرجال واحتلم؛ لأنه كان لا يَعلم وجوب الغسل من الجنابة![2].

لكن هذا الجهل دواؤه السؤال، ولا يَثْنِيَنَّ جاهلًا جهلُه أن يَسأل عما جهِل؛ لئلا يقوده خجله إلى مصيبتين: الجهل، والتخبط بمقتضاه.

وتأمل حين قالت أم سليم ﷺ: يا رسول الله؛ إن الله لا يستحِي من الحق، هل على المرأة من غُسل إذا هي احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: **نَعَم إذا رأت الماء**[3].

وانظر إلى عائشة ﷺ حين قالت: نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهُنَّ الحياء أن يتفقهن في الدين[4].

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٠٤٩) وصححه الحاكم في المستدرك (٨٤٦٠) والبوصيري في مصباح الزجاجة (٢/٢٩١) والألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ١٤٥) وقال ابن حجر في فتح الباري (١٣/١٦): إسناده قوي.
يَدرُس: أي يُجهَل ويزول.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني (١٤٥/٧).

(٣) صحيح البخاري (٢٨٢).

(٤) صحيح مسلم (٣٣٢).

ومن علامة التهافُت على جمع نُتَفِ المعلومات، بعيدًا عن التأصيل والرسوخ العلمي: الإغراق في السؤال عن جزئيات الفقه وافتراضياته، والتنطُّع في الاستفتاء عن دقائق المسائل، على حساب كبارهن وأصولهن.

قال رجل لأحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): أتوضأ بماء النِّوَرَة؟ فقال: ما أُحب ذلك. فقال: أتوضأ بماء الباقلاء؟! قال: ما أُحب ذلك. فقال: أتوضأ بماء الورد؟! قال: ما أُحب ذلك. فقام الرجل، فتعلَّق بثوبه، ثم قال: إيشْ تقول إذا دخلت المسجد؟ فسكتَ. فقال: وإيشْ تقول إذا خرجتَ من المسجد؟! فسكتَ. فقال: اذهب، فتعلم هذا(١).

فعلى المرء الساعي لتأصيل وتحصين نفسه بالعلم الراسخ، وتحقيق التمكن العلمي؛ ألا يَنشغل بالقشور عن اللب، ولا يتلقَّف من العلم غرائبه، طارحًا غزائره، ولا يتشغَّفَ بمُلَحِه ومشهِّياته، مُعرِضًا عن مغذياته، فيكون غُفْلًا من التحقيق والبحث والحفظ، وثَنْي الرُّكَب لدى العلماء، ومُثافَنَة الألبَّاء الأذكياء.

وليُعلم أن النَهَم والشغَف العلمي لا تُشبِعه وسائل التواصل الاجتماعي، ولكن يُشبِعه جرد المطولات، وجثو الركب لدى الأشياخ، ومذاكرة باعثي الهمم، من رفقاء الدرب المثابرين؛ فإنهم خير معزِّز لمواصلة المسير في طلب العلم، حالِّين ومرتحِلين بين صفحات الكتب، وبين يدي مفاتيحها من العالِمين، ولكن لا يستعجلوا قطف الثمرة!

قال أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): كتبتُ في كتاب الحيض تسع سنين، حتى فهمتُه(٢).

نعم؛ تدوين اللطائف، وتقييد الفوائد شيء جميل، لكن الأجمل ترسيخ القَدَم بالعلم المؤصل، والحفظ المتقَن، والبحث المقنَّن. ومن بديع العبارات قولهم: العِلم دَرْسٌ وتَلْقِينٌ، لا طِرْسٌ وتَرَقْينٌ(٣).

---

(١) طبقات الحنابلة (٣٩/١).
(٢) طبقات الحنابلة (٢٦٨/١) وذيلها (٣٠٥/١).
(٣) الكلم النوابغ للزمخشري (ص: ٤٣) * تَرْقِين الكتاب تزيينُه. والطِّرْسُ الصحيفة.

وانظر مثالًا واحدًا على عالم إمام متفنن، كيف طُول باعِهِ بالعلم، وموسوعيتِهِ المُبْهِرة، وقوة حجته الناتجة عن فَطانة، وما كان هذا الثراء المعرفي الضخم ليتحصَّل لمن يجمع فُتات العلم، أو مُلَحِه، وفي كلٍ خير، ولكنه التحصيل والتأصيل، والهمة، والدأَب.

فتأمل هذا الجدول المُبهِر المختصَر للأرقام التي حققها ابن القيم:

المسألة المطروحة	عدد الأوجه أو الأمثلة أو الفوائد
١. فوائد قصة يوسف	١٠٠٠ ولم يذكرها = الجواب الكافي
٢. رد المجاز في القرآن	٢٤١ وجهًا = الصواعق
٣. فضائل العلم وأهله	٢٠٠ دليل = طريق الهجرتين
٤. تفضيل العلم على المال	١٥٣ وجهًا = مفتاح دار السعادة
٥. أمثلة لأنواع الحِيَل	١١٧ مثالًا = الإعلام والإغاثة
٦. الإنسان روح وبدن معًا	١١٦ وجهًا = الروح
٧. فوائد المرض	**١٠٠ فائدة = شفاء العليل**
٨. أمثلة على سد الذرائع	٩٩ مثالًا = إعلام الموقعين
٩. الاتباع ونبذ التقليد	٨٠ وجهًا = إعلام الموقعين
١٠. فوائد ذكر الله	٧٩ فائدة = الوابل

محصل ما في هذا الاستقصاء فائدتان:

- تفوق العالِم الموسوعية
- التمكن بالحُجة القوية

لماذا يتلذذون بالعلم؟

إنها لذات متنوعات، لكن الكثيرين عنها معرضون:

وبنشر حديثك يُطوَى الـ غم عن الأرواح ويندرجُ
لا أعتِب قلب الغافل عنـ ك فليس على الأعمى حرجُ[١]

١. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم به يتعزَّزون، وبأعظم رزق يتمتعون. وتأمَّلْ أن بعض الخلق لم يُرزق بأولاد، فهو يتمناهم، أو قد رُزق، لكن هذا قد أعْنَتَه، وذاك في بعثته، والآخر مع زوجته!

فمَن فاته لذة هبة الله بالأولاد، أو لذة شهودهم مَجالِسَه، أو لذة صلاحهم، فلا يفُتْه لذة العلم، فهي اللذة التي لا تُضاهَى، والحياة التي لا تَتناهَى. وقد قال ابن المعتز: عِلم الإنسان وَلَدُه المُخَلَّد[٢].

٢. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم قد وجدوا أن للعلم لذة تفوق سائر اللذات، ويَحقرون عندها لذة الملوك وسائر الطيبات، فيعكُفون على إدمان النظر فيه، ويأنَسون بالمذاكَرة فيه، وكثرة المراجَعات والمطالَعات، ويرَون أُنسهم بذلك خيرًا من أُنْس النديم، وألذَّ من الرحيق المختوم، الذي ختامه مِسك، ومِزاجه من تسنِيم[٣].

وقد ضرب وهب بن منبه -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤هـ) لهذه الحلاوة مثلًا فقال: العلم كالغيث، ينزل من السماء حلوًا صافيًا، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوِّله على قَدر طُعومها، فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال، فتحوله على قدر هِممها وأهوائها[٤].

---

(١) الكشكول (٦٣/١).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٨٠/٢).
(٣) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقِتِهم السخيف (ص: ٢١٤).
(٤) إحياء علوم الدين (٣٤٨/٣).

أما إنهم قد وجدوا بالعلم عوضًا عن كل لذة، ومَغنىً عن كل شهوة. وقد قال بعض البلغاء: مَن تفرَّد بالعِلم لم تُوحشه خَلوة، ومَن تسلَّى بالكتب لم تَفُتْهُ سَلْوة. وقال بعض العلماء: لا سميرَ كالعِلم(١).

٣. يتلذذون بالعلم، وإن كان طريق العلم محفوفًا بالصعاب؛ لأنهم يرجون تسهيل طريقهم الأكبر، بنَيل الفضل المذكور في قول رسول الله ﷺ: **مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَه بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**(٢).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): وإنما جُعل طلب العلم من سبيل الله؛ لأن قِوام الدين بالعلم والجهاد.. وهو أفضل الجهادين؛ لعِظم منفعته، وشدة مؤنته، وكثرة أعدائه(٣).

ولأجل هذا؛ يطرح العلماء موازنة بين مِداد العلماء ودم الشهداء، وأنهما يُوزَنانِ يوم القيامة، فيرجح مِداد العلماء على دم الشهداء. وأعلى ما للشهيد دمه، وأدنى ما للعالم مِداده، فإذا رجح الأدنى على الأعلى، فما الظن بالأعلى مع الأدنى؟!(٤).

ومن مسبوك الحِكم قولهم: صَرير الأقلام كصَليل الحُسام(٥).

٤. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم نالوا به أعظم كرامة من الله -تعالى-. ولذا قيل للحافظ عبد الغني المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ): هؤلاء المشايخ؛ يُحكى عنهم من الكرامات ما لا يحكى عن العلماء، إيش السبب في هذا؟ فقال: اشتغال العلماء بالعلم كرامات كثيرة - أو قال: تريد للعلماء كرامة أفضل من اشتغالهم بالعلم؟!(٦).

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٨٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

(٣) باختصار من مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٧٠/١).

(٤) الذخيرة للقرافي (٤٤/١) وهذه الموازنة بناء على آثار فيها ضعف، لكن يستأنس بها من باب لطائف العلم ومُلَحِه، لا متينِه.

(٥) التمثيل والمحاضرة للثعالبي(ص: ١٥٧).

(٦) ذيل طبقات الحنابلة (٢٠/٣).

سموت للعالم العلويّ حيث يرى   للنـيّرات بـه فخـــر وإعـــزازُ
في لذة العلم ما يعِني الأريبُ به   عن رَيبه غيركم ما إن بها فـازوا[١]

٥. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم وجدوا أن أحسن بما تقضى به الساعات هو العلم، فعاشوا مع العلم يومهم جُلَّه، بل ربما كله. وتأمل سيرة واحد منهم:

عبد الحق الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) صاحب «الجمع بين الصحيحين» كان برنامجه اليومي كالتالي: إذا صلى الصبح أقرأ إلى وقت الضحى، ثم ركع ثمانَ ركعات. ثم ينهض إلى منزله، ويشتغل بالتأليف إلى صلاة الظهر. وإذا صلى الظهر قرئ عليه إلى العصر. وبعد العصر يخصصه للناس للمشي في حوائجهم. وأما في الليل؛ فيقسمه أثلاثًا، ثلثًا للقراءة، وثلثًا للعبادة، وثلثًا للنوم[٢].

٦. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم وجدوا أن لذة أهل اللهو لا تُقارَن بلذتهم، فلازَموا العلم.

فهذا ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) يتحدث بنعمة الله عليه، فيقول: عصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة، وقصَر محبتي على العلم وأهله، فما خالطت مِلعابًا، ولا عاشرت إلا أمثالي من طلبة العلم[٣].

وهذا العلامة المحدث مُغَلْطاي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٢هـ) كان أبوه يرسله في صباه؛ ليرمي بالنُّشَّاب، فيخالفه ويذهب إلى حِلَق أهل العلم[٤]. والصبي قد يُعذر بالمخالفة حينَ يُهمل أمر أبيه أحيانًا، ومن فُطر على العلم في صِباه فحيهلًا بمحياه.

٧. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم يطلبون بطلبهم رِضَى الله -تعالى-﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وإذا كان نبيك ﷺ يقول: **إن اللهَ لَيرضَى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ؛ فيحمدَه**

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٧/٢٤٧).

(٢) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس(ص٣٩١) وفوات الوفيات(٢/٢٥٧) والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب(٢/٦١) وعنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية(ص٤٢) وقلادة النحر في وفيات أعيان الدهر(٤/٣١٣).

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/١٨١).

(٤) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ٩١). والنُّشاب: أعواد من قصب، تصنع للصيد والقتال.

عليها، أو يَشربَ الشَّربَة؛ فيحمدَه عليها[١]، فكيف بمن أصاب لذة العلم، التي هي أشرف من الطعام والشراب؟!

فلا تَقُم من مجلس علم إلا وأنت تحمد الله وتشكره، وتُثني عليه بما هو أهله، فإن الله يقول لنبيه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

٨. يتلذذون بالعلم؛ لأن العلم -كما قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١ هـ): حياة القلوب، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأُنس المستوحشين. وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام[٢].

مَعانٍ كِدْتُ أَشهدها عِيانًا ... وإن لم تَشهد المعنى العيونُ
وألفاظٌ إذا فكّرتُ فيها ... ففيها من محاسنها فنونُ[٣]

٩. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم حصلوا بالعلم سعادة حقيقية؛ سعادة نفسانية روحية قلبية، وهي سعادة العلم النافع وثمرته؛ فإنها المُصاحِبة للعبد في جميع أسفاره، وفي دوره الثلاثة؛ دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وبها يترقى معارج الفضل، ودرجات الكمال[٤].

فالسعادة هي: أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله، وما يقرِّب إليه، ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم[٥].

١٠. يتلذذون بالعلم؛ لأنهم علَوا بالعلم فوق السافلين، واستنارُوا فلا يحبون الآفِلين.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٤).
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٣٩/٢).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠/٣).
(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٠٨/١).
(٥) النبوات لابن تيمية (٤٠٩/١).

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المُضْنية، ومَطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس؛ لكان ذلك أعظم داعٍ إليه[1].

ولما أن سَموتُ إلى الثريا ... أنِفْتُ بأن أسيرَ على الثراءِ
وإني سوف أبتكِر المعالي ... وأبلغُ من نهايتها مُنائي[2]



(١) الأخلاق والسير (ص: ٢١).
(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ١٤٨٠). مُنائي: أي أمنيتي.

٤. عجائب من سِيَر أبرز المتلذذين بالعلم، من أئمة العلماء في وقتنا المعاصر

إليك ثلاثة قدوات معاصرة لأئمة العلماء من المتلذذين. والنفس تتأثر وتقتدي بالمعاصر أكثر من الغابر. وهؤلاء الأعلام الثلاثة كانوا ولا زالوا نجوما ومناراتٍ للناس في العالم كله. ولهم في التلذُّذ بالعلم عجائب من أحوال وأقوال. فإليك طرَفًا عَبِقًا يفتح شهيَّتك؛ لتُقبل على باقي صفحات الكتاب بنَهَم، فيكون ذلك كالمُقبِّلات للطعام الشَّهي، ولتعيش لذةً بإثْر لذة.

وسترى في بعض الفقرات الآتية حديثًا منهم عن أنفسهم، والحديث عن النفس شاقٌّ، لكن إذا صاحَبَه قصدُ الاقتداء به كان سائغًا مستساغًا. فكيف إذا كان المتحدثون عن أنفسهم هم بُدُور الزمان من العلماء الأجلاء. فلتذُقِ -الآن- شيئًا من حَلا حديثهم:

عجائب الأحوال والأقوال عن سماحة الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) في تلذُّذاته بالعلم:

١. يُمضِي في المكتبة الساعتين، والثلاث دون أن يشعر.. ويقول: الجلوس بين الكتب لا يُمَل، نتمنى أن نقرأ كل ما في هذه المكتبة، ولكن المشاغل لا تتركنا.

٢. في بعض الأحيان تُقرأ له المعاملات أو الكتب، وهو مضطجع على فراشه.

٣. أحد المسؤولين الكبار عرض على سماحته الخروج للنزهة في وقت الربيع، فقال: أنا لا أرغب الخروج، وليس من عادتي. فقال له المسؤول: النفس تحتاج إلى الراحة، وتغيير الجو، وشم الهواء. فقال الشيخ -ممازحًا-: الذي يرغب تغيير الجو، وشَم الهواء النظيف يخرج إلى السطح، ويكفيه ذلك.

٤. يقول الشيخ عمر الأشقر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٣هـ): جاءنا يوما على العشاء، فطلب مني أن لا أتعشى، وأن أقرأ من موضع في «البداية والنهاية» لابن كثير، فأخذه البكاء(١).

٥. كان يشتري كتب العلم، وبعض مؤلفات المعاصرين، ويوزعها على طلبة العلم. وإليك نَصًّا من مكاتبته -رحمه الله تعالى- لأحد العلماء عام ١٣٩٢هـ، حيث يقول:.. وما أشرتم إليه عن شرح الطحاوية.. ونخبركم بأنا قد اشترينا منه ألف نسخة ويمكن أن نشتري منه كمية أكثر في المستقبل -إن شاء الله-(٢).

٦. قال مدير مكتبه بمنزله، الشيخ محمد الموسى -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٢هـ): حَسَبتُ له يوما ستين إجابة لستين سؤالًا، كل ذلك في جلسة بعد المغرب، واثنان من الكُتَّاب يتعاقبان القراءة عليه، والناس يتوالَون للسلام عليه، والهاتف لا يقف رَنينه(٣).

٧. برغم شدة مرضه، وفي ليلة وفاته -رحمه الله تعالى-رد على المستفتين بالهاتف، وبلغ مجموع ما قُرئ عليه في تلك الليلة ثمان معاملات شرعية، كقضايا الطلاق(٤).

عجائب الأحوال والأقوال عن المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) في تلذُّذاته بالعلم:

١. لم يَدخل مِضمار علم الحديث إلا وعمره عشرون سنة. وقد اشتغل نجارًا، ثم ساعاتيًا يصلح الساعات، ولم يدَعْ طلب العلم والبحث حتى وهو يُزاول مهنته.

٢. بداية توجهه للحديث: حين قرأ مقالًا للشيخ رشيد رضا في مجلته «المنار» عن ثنائه على كتاب «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» للعراقي، ونقده أحاديث إحياء علوم الدين للغزالي. فذهب واستأجر الكتاب - إذ لم يكن بمقدوره شراؤه - ثم نسخ كل الأحاديث.

---

(١) صفحات من حياتي - عمر سليمان الأشقر - دار النفائس (ص٤٦).

(٢) مكاتبات الشيخ ابن باز - د. محمد الحمد (ص: ٩٣).

(٣) كل الأرقام السابقة من: جوانب من سيرة ابن باز للشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد (ص: ٧٤ - ٧٥ - ١٠٣ - ١٠٤).

(٤) جوانب من سيرة ابن باز (ص٣٨٤ و٣٨٩).

٣. كان يكتفي بعمل ساعة في اليوم أو ساعتين؛ ليُحصِّل قوته وأولاده، ثم ينطلق إلى المكتبة الظاهرية؛ لينكَبَّ على الكتب والمخطوطات، فربما قضى فيها خمس عشرة ساعة كل يوم، وربما بقي بعد انتهاء الدوام، فيطلب منه الموظفون أن يغلق الأبواب خلفه.

٤. من شدة لذته لا يشعر بنفسه إذا صعد على السُّلَّم في المكتبة الظاهرية؛ ليأخذ كتابًا مخطوطًا، فيبقي واقفًا على السُلَّم، يقرأ في الكتاب لساعات.

وقال عن نفسه: المكتبة الظاهرية استفدتُ منها ما لم يستفده أحد غيري -فيما أعلم. وقال: كنتُ ملازما لها أكثر من موظفيها[1].

٥. من الأمثلة العجيبة في انهماكه في البحث، واستقصاء تخريجات الأحاديث، أنه ألَّف كتابه النفيس «صفة صلاة النبي ﷺ» عام ١٣٨١هـ، وعند التأمل في فهرس مراجعه؛ تجد أنها أكثر من عدد الصفحات، فقد بلغت ١٧٢ مرجعًا! والأعجب من هذا أن سبعة وخمسين من مَراجعه ليست مطبوعة، بل نقل منها وهي مخطوطة!.

٦. كان الشيخ ناصر عندما تنتهي محاضرته بالجامعة الإسلامية بالمدينة، قلَّما يرجع إلى غرفة المدرسين، بل كان يقعد مع الطلبة في قاعة الدرس، فإن كانت مشغولة جلس على الرمل في ساحة الجامعة، والطلبة حوله[2].

٧. أصيب الشيخ في عينه، فطلب منه الطبيب أن يمكث شهرًا لا يقرأ شيئًا! فمكث أيامًا، ثم أصابه الملل، فطلب أن يُنسخ له من المكتبة الظاهرية كتاب «ذم الملاهي» لابن أبي الدنيا. فنسخ الناسخ، حتى وصل إلى مكان فيه ورقة ضائعة، قطعت اتصال الكلام، فطلب إليه الشيخ أن يستمر بالنسخ.

فلما فرغ الناسخ وانتهت مدة العلاج؛ ذهب الشيخ يبحث عن تلك الورقة الضائعة في المكتبة الظاهرية، ونسي أو تناسى مرضه، فلم يجدها، ولكنه في تلك الأثناء كان يدون الأحاديث التي يقف عليها في المخطوطات، حتى دوَّن أربعين مجلدًا

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٥٠٣/١٢) و(١٢٩٧/٧).
(٢) صفحات من حياتي - عمر سليمان الأشقر - دار النفائس (ص٤٨).

من الأحاديث بخط يده! وكان عدد المخطوطات آنذاك حوالي عشرة آلاف مخطوطة![١].

٨. لما ضعف عن الكتابة صار يُملي على أولاده وأحفاده ما يُخرِّجه من أحاديث، ولقد أملى مرَّة حول حديث ضعيف ثماني عشرة صفحة كاملة.

تقول ابنته أم عبد الله: قبل وفاته بيومين ما فَتِيء يحاول الاستفادة من أي سانحة، يجد فيها بعض النشاط- حتى لو كانت خمس دقائق، بل حتى لو كانت جملة، أو كلمة كان قد وقف عندها، فيجلس ليتمَّها- متحاملًا على أوجاعه..وسمعت منه مرات عدة، حين يصل إلى فكِّ رموز مسألة، أو حَل مُعضِلة، يقول وعيناه أدمَعهما الأسى والسرور معًا: الله أكبر! كيف يقول البعض: إن علم الحديث قد نضج واحترق؟![٢].

٩. كان وهو على فراش الموت -إذا صَحَا لحظات يقول: ناوِلوني الجرحِ الأول، أعطُوني الجرحِ الثاني. يعني كتاب الجرحِ والتعديل[٣].

يقول تلميذه الشيخ علي بن حسن الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ): اتصل بي قبل نحو ثلاثين يومًا من وفاته؛ ليسألني عن كتاب في التفسير.

ويقول صديقه القديم الشيخ زهير الشاويش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٤هـ): قبْلَ وفاته بثمان وأربعين ساعة، طلب إحضار كتابه: «صحيح سنن أبي داود»؛ لينظر فيه[٤].

عجائب الأحوال والأقوال عن شيخنا العلامة محمد العثيمين(ت ١٤٢١هـ) في تلذُّذاته بالعلم

١. أفادني تلميذه الشيخ المفيد د. أحمد القاضي -حفظه الله تعالى- فقال: كان شيخنا وهو شاب، يأتي إلى مكتبة أحد قضاة عنيزة آنذاك، فيبقى فيها إلى قريب الظهر.

٢. ألقى الشيخ درسًا بالحرم وعليه إحرامه، فلما سئل عن ذلك، قال: إني انتهيت

---

(١) محدث العصر للشيخ سمير الزهيري - دار المغني (ص١٦).

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٣/٦).

(٣) انظر: مقالات الألباني - جمع: نور الدين طالب (١٨١ - ٢٢٠). وقد وضعتُ من هذا الكتاب بين يديك عصارة أحسن الإفادات. .

(٤) من مقطع مرئي في اليوتيوب.

من العمرة، وأحببت أن لا يفوت هذا اليوم بلا درس[١].

٣. قبل عام ١٤٠٠هـأصيب بألم في ركبته، فلم يتمكن معه الذهاب إلى الجامع الكبير، فما كان منه إلا أن نقل الدرس إلى المسجد الذي في جوار بيته[٢].

٤. إذا دُعي شيخه ابن سعدي إلى وليمة؛ كان يمشي معه في طريقه، فيسأله طيلة الطريق، حتى يصل إلى بيت المدعو، ثم يعود الشيخ محمد[٣].

٥. حدَّث عن نفسه فقال: إنه كان لا يملك إلا «الروض المربع» يَقرأ فيه، في غرفة من طين تطل على «زَريبة بقر»![٤].

٦. كان الطلبة يقرؤون عليه الكتب، ويستفتونه أثناء ذهابه من المسجد إلى بيته، لكنه لا يسمح أبدًا بسؤاله أثناء خروجه من بيته إلى المسجد؛ لأنه وقت استغفاره وذكره، ومراجعته لكتاب الله![٥] وهذا حزم محمود، يبعث على الاتساء والتفرغ للتعبد.

ومن بركة ذلك؛ طَبعت مؤسسة الشيخ ابن عثيمين -مشكورة- مجلدًا ضخمًا؛ اسمه: «فتاوى على الطريق» يشتمل على أكثر من ألفَي فتوى؛ قد أجاب عنها في طريقه من مسجده لبيته.

٧. مكث رمضانات متوالية، وهي قرابة سبعة عشر رمضان، وطريقته أنه يُلقي بين التراويح والقيام، بأن يفسر آية مما قرأه الإمام، ثم يجيب عن الأسئلة بأسلوب جاذب، لا يخلو من الطَرافة واللَّطافة. وقد يَطرح مسابقة متنوعة، وربما اشتملت على أسئلة في الطب، وفي الفَلك والألغاز. وبعد الفجر يشرح أحاديث من عمدة الأحكام[٦].

٨. قال ابنه الأوسط الأستاذ إبراهيم: في أواخر أيامه، ألقى دروسه في العشر الأواخر من رمضان بحجرته بالمسجد الحرام، وهو تحت الأجهزة الطبية. وفي الليلة

---

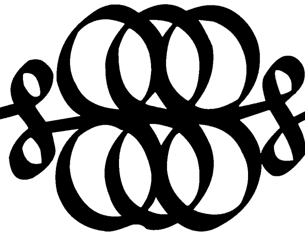
(١) ذكر ذلك الأستاذ أيمن أبانمي في جريدة الجزيرة - عدد: (١٠٣٣٤).
(٢) ذكر ذلك تلميذه الشيخ د. أحمد القاضي في مجلة الدعوة - عدد: (١٧٧٧).
(٣) من مقالة في مجلة الدعوة، عدد: ١٧٧٦- نقلاً عن: أ. عبد الرحمن ابن الشيخ العثيمين.
(٤) وقفات في حياة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (ص: ٢).
(٥) المصدر السابق (ص: ٢١).
(٦) وقد حضرتُ - بحمد الله تعالى- كثيرًا من تلك الدروس في بضع سنين.

التاسعة والعشرين من رمضان، نُقل من الحرم إلى مستشفى جدة، وأُدخل العناية المركزة قرابة الأربع ساعات، وبعد العصر تحسَّنتْ حالته شيئًا ما، فأصرَّ أن يذهب إلى مكة، رغم محاولاتنا ثَنْيَه عن ذلك، فقال: لا تَحرِمونا هذا الأجر، فهذه آخر ليلة في رمضان! وبالفعل ذهبنا إلى مكة، ومعنا الأطباء المرافقون، وأجلسناه في غرفة داخل الحرم.. ولما انتهى من الدرس قال للأطباء: لو جلسنا في جدة لَفَاتنا هذا الخير العظيم![1].

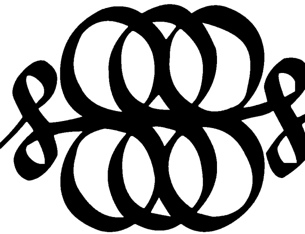


الفقيه الحنفي محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) كان إذا سهِر الليالي، وانحلَّتْ له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟! [تعليم المتعلم طريق التعلم (ص: ٤٩)]

(١) صفحات مشرقة -حمود المطر (ص١٤١).



الباب الثاني:
تقسيمات في اللذَّة والمتلذِّذين بالعلم



٥. علامات المُتلذذين بالعلم

لهذا المقام الشهي علامات يَعرِف المتلذِّذ بها حاله، فمنها:

١. انتفاعه بكل من يَلقاه معتنيًا بعلم، بل ربما انتفع بمن ليس من أهل فنِّه.

قال التابعي المحدث عبد الله بن عبيد -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣هـ): العلم ضالة المؤمن، كلما أصاب منه شيئًا حَوَاه، وابتغى ضالَّةً أخرى(١).

بل يُفيدُ المتلذذ بفطنته من كل من يلقاه ولو عاميًا، بل ولو عدوًّا.

قيل للحكيم لقمان: أي الناس أعلم؟ قال: من ازداد من عِلم الناس إلى عِلمه(٢).

ثم ألم يَصْدُقنا إبليس وهو كَذوب؟! كما في حديث فضل آية الكرسي.

٢. تغليب لذة العلم على ملذات الدنيا كافة:

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): ومن لم يُغلِّب لذة إدراكه العلم، وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه، لم يَنل درجة العلم أبدًا، فإذا صارت شهوته في العلم، ولذته في كل إدراكه، رُجي له أن يكون من جملة أهله(٣).

وقال بعض الحكماء: العلم يفتقر إلى خمسة أشياء، متى نقص منها شيء نقص من علمه بقدر ذلك، وهي: ذهن ثاقب، وشهوة باعثة، وعمر طويل، وجِدَة، وأستاذ(٤).

وأعرفُ قارئًا نِهما يَحكي عن نفسه أن يُجالِسه الناس بمجلسِه، وعينُه ترقُب كتابًا في متناول يده، فربما أخذه وتصفحه دون شعور، ثم يلوم نفسه أنهم قد يَعيبون فعله، ونفسه تنازعه المواصلة، فهو في مَدٍ وجَزْر، لا يلتفت للذات الجالسين.

٣. أنه يرى أن ما هو فيه أجمل حال، وأن أجمل المناظر لا يُقارِب حاله، فضلًا أن

---

(١) العلم لزهير بن حرب (ص: ٣٦).

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (٤٤٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (١٤٢/١).

(٤) المقدمات الممهدات (٥٠/١).

يكافئَه. قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: وأما عشاق العلم؛ فأعظم شغَفًا به؛ وعشقًا له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر[١].

وتأمل مقدار الفرحة بالعلم، والتي يعبر عنها الشيخ المفسر الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٣هـ) حيث يقول: وإني لأحمد الله على أن جعلني لا أتعلق بشيء من المناصب والمراتب، تعلّقي بطلب العلم، ولا آنَس برفقة ولا حديث، أُنْسِي بمسامرة الأساتيذ والإخوان في دقائق العلم، ورقائق الأدب، ولا حُبِّبَ إليّ شيء ما حُببتْ إليّ الخلوة إلى الكتاب والقرطاس[٢].

ولما طرَح شيخٌ مسألة لطالبٍ قال له: هل فهمتها الآن؟ فقال الطالب: نعم. فردَّ الشيخ قائلًا: لو فهمتَها لاتّسعتْ حدَقة عينك؛ لأن للعلم فرحة.

فمن لم يجِدْ من نفسه محبة العلم وأسبابه، ولا يجِدُ للعلم ومطالعة كتابه لذة، تغلب لذة نومه وطعامه وشرابه؛ فإنه ليس بفقيه، وإن تسمَّى به، ولا يَنْجُب فيه. وإنما يُعَدُّ من أهل العلم من استلذَّ الجوع لأجله والسهر؛ لأنه كلما دخل روضًا منه، تبدَّى له ما هو أحسن وأبرع، فهو في رياضه، وفنونه، وبساتينه، يرتع لا يَمَل منه، ولا يقنع، ولا يَروى، ولا يشبع.

٤. أنه يُفكر بالعلم أينما راح أو غدا، بل في جلوته وخلوته لا يغيب تحصيله عن باله.

ومن طريف ما يُحكى أن والد إمام الحرمين الجُوَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) كان يقول في دعاء قنوت الصبح: لا تُعِقْنا عن العلم بعائق، ولا تَمْنعنا عنه بمانع[٣].

فانظر كيف أن الصلاة كان لها نصيب من الدعاء، بإشباع نهمته من العلم.

لكل بَني الدنيا مراد ومقصدُ وإن مـرادي صحـة وفـراغُ

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٦٩).
(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية (١/٢٩).
(٣) طبقات المفسرين للداوودي (١/٢٦٠).

لأُبْلغ في علم الشريعة مبلغًا يكون به لي في الحياة بلاغُ[١]

٥. أنه لا يزداد له طلبًا إلا ازداد فيه رغبًا. ولا يقنع من العلم بما أدرك؛ لأن القناعة فيه زهد، وللزهد فيه ترك، والترك له جهل، فأما كثرته فإنها أمنية[٢].

ولذا قيل: طالب العلم كشارب البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا[٣].

يا نسيم الريح قل لي للرشا لم يزدني الرِّي إلا عطشا[٤]

وقيل: كل شيء يعز حين يَنزُرُ، والعلم يَعُزُّ حيث يَغْزُر[٥].

وقد قيل لأنوشروان: ما بالُكم لا تأخذون من العلوم شيئًا إلا زادكم عليه حرصًا؟ قال: لأنا لا نأخذ منه شيئًا إلا ازددْنا بعِظَم منفعته علمًا[٦].

وإن أنت لم تبغِ الزيادة في العلا فأنت على النقصان منهن حاصل[٧]

٦. أن المتلذذ ليس له طقوس يوفِّرها لنفسه؛ ليقرأ أو يكتب أو يبحث أو يَدرس، بل يكيِّف نفسه ولو في أضيق الظروف، حتى ولو مكث داخل سَمِّ إبرة لقرأ وانهمك![٨]

وقد ذكر أدباء القرن الثالث أنه ما رُئى أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) وكان إذا وقع بيده كتاب قرأه كله؛ وإسماعيل القاضي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٢هـ) ما دَخلوا عليه إلا وبيده كتاب ينظر فيه؛ والفتح بن خاقان -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٧هـ)، كان يحمل الكتاب في خُفِّه(!)[٩].

فإذا قام من بين يدي الخليفة لأمرٍ نَظَرَ فيه وهو يمشي، وكذلك في رجوعه[١٠].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٨٩/٥).
(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٧٥).
(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٨٩٧/٩).
(٤) نشر طي التعريف (ص: ٢١٣).
(٥) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٧٣/١).
(٦) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤٢/٤).
(٧) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٦٠).
(٨) سيأتيك مبحث عَجَب! جُلُّ أخباره طَرَافة وغَرَابة، تحت عنوان: طقوس المتلذذين بالعلم، وعاداتهم الغريبة والطريفة في القراءة!.
(٩) هكذا ضُبطت بالأصل! ولعل الصواب: في كُمِّه.
(١٠) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٠) وعنه الذهبي في: تاريخ الإسلام ت بشار (١١٩٤/٥).

ففي المشي يَقرؤون، وبين أهلهم يقرؤون، وحتى عند ذوي الأُبَّهة يقرؤون.

٧. انشراح صدره، وطِيب عيشِه؛ فإن العلم يشرح الصدر، ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع(١).

٨. أن المتلذذ ضَنين بوقته، نادم على ما فاته، ولا يبالي بما فاتَه من مالِه، ما دام مالُه قاطعًا له عن علمه: فإذا رأيت أنك ضَنين بوقتك، مُهتبِلٌ كل فرصة -ولو نزرًا- ألا تَفوت عليك بالعلم، فاعلم أنك على طريق المتلذذين، فامضِ بسلام، وستصل نعيمهم.

إذا عـدِم المرء الكمالَ فما لَه ... حياةٌ بها يَحيا ومـالٌ به يَبقَى(٢)

وفي زمننا الحاضر خَير وأخيار، ولا زال في الأمة مكافحون فالحون يتشبهون.

فهذا طالب علم يحدِّث عن صديقه: أنه نفض يديه من ضجيج التواصل الاجتماعي، فأنجز خلال فترة ستة أشهر: قراءة وتلخيص تفسير الإمام الطبري، المكون من أربعة وعشرين مجلدًا!

وفي زمن «كورونا» فاز الفائزون، ومن كل فراغ ينتهزون، وإلى مكتباتهم يأرِزون.

قال بقي بن مخلد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ) يوما لطلبته: أهكذا يطلب العلم؟ إنما أحدكم إذا لم يكن عليه شُغل يقول: أمضي أسمع العلم؟!(٣).

فليس للعلم فُضول وقتك، بل له أصلُه، وليس للعلم ذيلُ وقتك، بل له سَنامُه، وليس للعلم «وقت بدَل الضائع» بل للعلم الوقت كله، بلا ضائع!

وإنما يرجو العلم مَن انبعثت جمرةٌ في قلبه تُذكِّره ضياع أيامه، وتُنسِيه جميع أولاده وأمواله(٤).

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٢/٢٣).

(٢) تاريخ بيهق لابن فندامة (ص: ٩٣).

(٣) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٢/٧٤٨).

(٤) رسائل اليوسي (١/١٧٣).

فهذا الندم المنبعِث من القلب، وهذا التحسر على فائت الأيام والأعوام وقُود يُشعِل في نفس المتلذِّذ بالعلم شُعلةً لا تكاد تنطفئ، وتنير في دربه ضياءً لا يكاد يَعشو. ولذا تجده يُضاعِف فترات إقباله على العلم، ويعوض الفائت بأضعافٍ باللاحق.

وغيرُ خافٍ أن القضاء وظيفة شرعية جليلة القدر، مَهيبة الجَناب، وما يلقاها إلا الذين علموا. لكن هذا العلم يتباطأ نُموه بعد تولي القضاء، فمهنة القضاء مُشغِلة قاطعة، وهذا من البلاء.

ولذا قال أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ): لا ينبغي للقاضي أن يُترَك على القضاء أكثر من سنة؛ لأنه إذا كان أكثر من سنة ذهب فقهه(١).

ولكن الطامحين المكافحين يُقاوِمون البلاء، ويُقِيمون الشرع، ويعلِّمونه، وتراهم يسابقون ويسارِقون أُويقاتٍ للقراءة والتحصيل.

وتأمل كيف كان القاضي إسماعيل بن إسحاق -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٢هـ) في أكثر أوقاته، وبعد فراغه من الخصوم متشاغلًا بالعلم(٢).

وهذا الفقيه المالكي بهرامُ الدَّمِيري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) تولى القضاء دهرًا، فاستصحبه الخليفة في إحدى حروبه، فأصاب القاضيَ طعنتان، فاستمر عليلًا، فعُزِل، فاشتغل بالعلم، ففتح الله عليه فتحًا كبيرًا بالتدريس والتأليف(٣).

وكان الفقيه الشافعي أبو عبد الله بن النور القاياتي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٠هـ) كانت طريقته قبل القضاء أحسن؛ لأنه كان متصديًا للعلم ليلًا ونهارًا(٤).

٩. تفاعله مع ما يقرأ ويسمع أو يَشْهَد من العلم، وسروره بذلك، وربما طفح السرور عليه حتى يبكي، وربما بلَّلتْ دموعُه كتابَه؛ تفاعلًا مع ما يُلقَى على عقله، فيتأثر قلبه. والعلم إذا لم يُنتج الخشية فهو وَبَال.

---

(١) تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص: ٣٣٠).

(٢) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٦/٢٨٤).

(٣) انظر: رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ١٠٨).

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨/٢١٤).

وقد كان أبو إسحاق الحبال -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٢هـ) يقرأ الحديث بمصر، فلا تزال دموعه تجري، إلى أن يفرغ من القراءة[١].

وهذا ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) يحكي عن أنفع المشايخ الذين تأثر بهم، فيقول: وكان أنفعُهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه.. ولقيت عبد الوهاب الأنماطيَّ.. وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى، واتصل بكاؤه، فكان -وأنا صغير السن حينئذ- يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد[٢].

وأما الشيخ إبراهيم الجاسر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٨هـ) فقد كان يدرِّس للطلبة في «منهاج السنة» لابن تيمية، فقرأ القارئ شبهات ابن المطهر في الرفض والضلال، فما انتبه الطلبة إلا على بكاء الشيخ ونشيجه وترحُّمه على شيخ الإسلام، فلما سكن قال: أيها الإخوان! لو لم يقيِّض الله لهذا الطاغية وأمثاله مثل هذا الإمام الكبير، فمن الذي يستطيع الرد والإجابة عن هذه الحجج والشبهات؟![٣].

١٠. اعتزازه بعلمه الذي أتقنه:

واعلم أن أهل كل فنٍ تراهم يُفاخِرون بفَنِّهم، وينافِحون! وهذا نتاج عِزة العلم، والاعتزاز به، وأنعِم بها من صفة!

وثَمت تساؤل يطرحه أبو حيان التوحيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ) حيث يقول: لِمَ قال صاحب كل علم: ليس في الدنيا أشرف من علمي الذي أنظر فيه؟! هكذا تجد الطبيب، والنحوي، والفقيه..والمهندس، والكاتب، والشاعر. وأنا لمكاني من النحو أقول هذا.. ولولا أن عُمري يستهلكه النحو، لكنتُ ألبس لهذا العلم صِدار المنكمِش، وأصبغ نفسي صبغة المتحققين[٤].

ثم أجاب عن هذا التساؤل فقال: لأن صورة العلم في كل نفس واحدة، وكل أحد يجِدُ تلك الصور بعينها، فيمدح العلم بها، ويظن أن تلك الصورة إنما هي لعلمه وحده[٥].

---

(١) معجم السفر (ص: ١٣٩).

(٢) صيد الخاطر (ص: ١٥٨).

(٣) مشاهير علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (١/٢٨١).

(٤) الصِّدار قميص صغير يلي الجسد، والمنكمش السريع المشمِّر. كناية عن الجاد المستعد.

(٥) المقابسات (ص: ١٤٩).

وخذ جملة من أقوالهم في اعتزازهم بالعلوم التي أتقنوها، مؤيدًا وشاهدًا:

فالأدباء يقولون: إنفاق الفضة على كتب الآداب يَخْلُفك عليها ذهب الألباب[١]

وأديب آخر يَعتبِر فنَّ الأدب هو فن للكُبراء، حيث يقول: واعلم أن هذا الفن من العلم، ليس من بابة من يطلب العلم للمعاش، أو ليحصل الزينة والريَاش.. ولا هو مما يَنْفَق في المدارس، أو يناظَر به في المجالس؛ إنما هو علم الملوك والوزراء، والجِلَّة من الناس والكبراء، يجعلونه ربيعًا لقلوبهم، ونزهةً لنفوسهم[٢].

وهذا النحوي ابن عصفور الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٣هـ) كان أصبر الناس على مطالعة النحو، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو[٣].

وذاك الأديب ياقوت الحموِي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) متلذِّذًا بما جناه: ما زلتُ منذ غَذِيتُ بغرام الأدب، وأُلِهمتُ حب العلم والطلب، مشغوفًا بأخبار العلماء، متطلعًا إلى أنباء الأدباء، أسائل عن أحوالهم، وأبحث عن نكت أقوالهم، بحث المغرَم الصَّبِّ، والمحب عن الحب[٤].

وذَيّاك أديب الفقهاء ابن قتيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ) يحتدُّ، فيقول للمنكِر عليه اشتغاله بالأدب: واعلم أنك إن كنت مستغنيًا عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخّص فيما تشدّدت فيه محتاج إليه، وإنّ الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيّأ على ظاهر محبتك، ولو وقع فيه توقّي المتزمِّتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه، ولأعرض عنه من أحببنا أن يُقبل إليه معك[٥].

وذا الشيخ حماد الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) يقول: الأفارقة يتوغَّلون في علم النحو.. ومن أسباب خروجي من أفريقيا: خشية ألا أتعلم شيئًا في الدنيا إلا النحو[٦].

---

(١) يتيمة الدهر (٤/٤٥٢).

(٢) معجم الأدباء (١/١٥).

(٣) بغية الوعاة (٢/٢١٠) الوافي بالوفيات (٢٢/١٦٥).

(٤) معجم الأدباء (١/٥).

(٥) عيون الأخبار (١/٤٤).

(٦) المجموع في ترجمة الشيخ حماد الأنصاري (٢/٥١٤).

وبعد؛ فتلك عشرة كاملة، لمن كان أهله حافظي العلم الكرام، ومن لم يجد بعضها فلا يفتُر؛ فإنه على خير، وليتطلَّب الكمال. ومن لم يجد أكثرها فليكافح، وليَسِر بكل يُسر، ومن سار على الدرب وصل: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

هذا ما يظهر من تلذذُّاتهم أمام العِيان.

علامات تلذُّذَاتهم الخفِيَّة:

أما تلذذاتهم الخفية، فستعرفها بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن العلم. ومن علامات تلذُّذاتهم الخفية ما يلي:

١. يحب أن يسمع قائلًا: قرأتُ كتاب كذا، أو سائلًا عن كتاب يَهمُّه.

٢. يتابع مواقع وحسابات الكتب والمكتبات.

٣. يتحرى معارض الكتاب بشغف، ويُصادِق بائعيها، وموظفي الدُّور التي يرتادها.

٤. إذا وصف مكانًا أو طريقًا فبالمكتبات لا بالمطاعم، كما هو حال عامة شباب هذا الجيل.

٥. رفُّ سيارته أوراق فوائد، وكتيِّبات يَنُوء الرف عن حَملها.

٦. «تطبيقات جواله» فيما يَهُمُّ العلم والقراءة.

٧. مجتمع الاستراحات وأجواء السفْرات لا تناسبه؛ لأنها تقطعه عن قوَّته وقوُته.

٨. إذا سافر أو تنزَّه فلا يأنَس بنزهة ولا مطعم، وإنما كتابه أنيسُه، وما يتيسر يأكله.

٩. كثير من تسوقاته ومصروفاته على وسائل العلم وعلى الكتب، وربما أبلغته إفلاسَه!

١٠. هو مع أهله في عَناء! في ترتيب مكتبته، وتشتُّت كتبه وأوراقه، حتى في غرفة نومه.

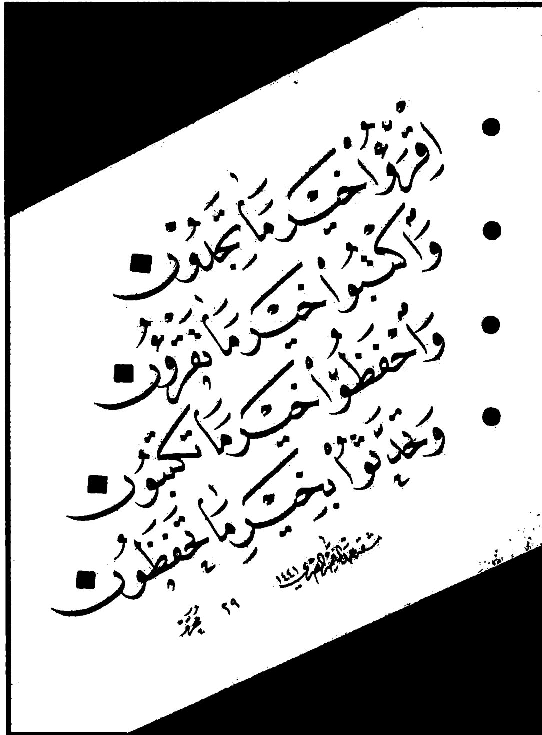
١١. وهو معهم -أيضًا- في هَناء! فيعِدُهم برحلة إذا أنجز بحثًا، وبهدايا إن أخرج تأليفًا.

١٢. إذا سمع أو تكلم عن بلد؛ فإنما يُعرِّفها بعلمائها، ومطابعها.

١٣. إذا بنى بيتًا أو استأجر شِقةً فهَمُّه تخطيط مكتبته.

١٤. قد يُسمِّي المتلذِّذ أولاده على علماء أو أعلام.





٦. أقسام المتلذِّذين بالعِلْمِ، ودرجات لذائذهم:

محبة العلم فِطرية، تميل إليها أكثر النفوس، ولذا يأنَفُ الإنسان أن يُقال له: يا جاهل، ويفتخر إذا نُسِب للعلم. ولكن هذا الانتساب فيه أدعياء ودُخلاء، وفيه نجوم لامعة، وشموس ساطعة، وفيه طائفة بين هؤلاء وهؤلاء.

تقسيم المتلذذين بالعلم:

يمكن أن يُقسَّم قُرَّاءُ الكتب ومحبُّو العلم إلى أربعة أقسام:

١-مُتكلِّف.

٢- مُتعوِّد.

٣- مُتلذِّذ.

٤- متسمِّم.

فهو يتدرج، فيتكلف امتهان القراءة والعلم، حتى يَقوَى فيعتاد ذلك، ثم يترقى حين يجد لذَّته في العلم. فإن زاد الأمر عن حدِّه انقلب إلى ضده، فصار الشراب اللذيذ سما ناقعًا.

وإنما مَثَل الكتاب المقروء، والدرس المطروح كمثل المائدة، تختلف فيها مذاقات الطعوم؛ لاختلاف شهوات الآكلين. فمنهم من يتجرعه ولا يكاد يُسيغه، ومنهم من يتناوله بمقتضى العادة؛ دفعًا لجَوعةٍ عارضة فحسب، ومنهم المتلذذ به وهو يطبخه، المتلذذ به وهو يقدمه، المتلذذ به وهو يأكله، المتلذذ به وهو يصِفه. فهو في كل آن في لذات.

آخر العلم لذيذ طعمه وبدء الذوق منه كالصبِرْ[1]

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٤٠٩/١).

وهذا المتلذذ يزداد شوقه، بل ربما شبَقُه للكتاب حينما يُحرم من مطالعته في سفر أو نزهة، أو عارض صحي، أو ابتلاء بظالم، أو باطش يزيده رهقًا. حتى إذا صافحت يده الكتاب بعد الإياب، فلا تسل عن حبيب عاشق لقي محبوبه ومعشوقه، فثَمَّ اللَّثم، والتقبيل، والضم، والعناق، والنجوى، وحديثٌ ليس باللسان، بل:

حديث الروح للأرواح يَسرِي ... فتدركه القلوب بلا عناءِ

فالمتكلف في العلم يأطُر نفسه أطرًا، ويُراغِم طبعه قَسْرًا، فهو يرى طلبة العلم يقرؤون وعلى حلق العلم يترددون، وفي المسائل يتناقشون، فيقول في نفسه: يا ليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزًا عظيمًا، ولكنه لا يلبث أن يخبو حماسه، وتنطفئ جمرة إحساسه؛ لأن جواذب اللهو تدعوه من كل جانب، فهذا صديق يريد أن يسيح معه في فجاج الأرض تنزُّهًا، وثانٍ يَثنيه عن أن يكبِت نفسه بين جدران أربع، فيدفِن وجهه بين أوراق الكتب، فيقول له: يكفي ما ندرُسه بالمدارس.

ويأتيه ثالث هو ثالوث الصدِّ، لكن بمكر خفي، فيقول له: نعم نقرأ، لكن خلال عشر دقائق، ومن كتاب قصصي أو شعري.

فتتصرم الأيام على هذا المسكين المتمنِّي، وهو بين مدِ وجزْر، وتأرجُح وتزحلُق.

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمدُ[1]

قال الفراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ): إني لأرحم رجلين، بَليدًا يَطلب، وذكيًا لا يَطلب[2].

وفي سيرة أحد محبي العلم من السابقين وصفه الذهبي بقوله: وكان- مع كثرة طلبه- مُزجَى البضاعة[3].

وإنك لَتَعجب لمن قرأ في دراسته مئات المقررات الدراسية، ثم لا تجده يعشق

---

(١) يتيمة الدهر (٤/٢٧٥).
(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/١٨٨).
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٦/٢٨٤).

الكتاب، ولا يجد لذة بالعلم! لكن يزول عجبك أن الأمر اصطفاء، وموهبة من الوهاب -سبحانه-.

ثم تجد هذا المتكلفَ يَنزوي سويعةً، ويجلس ليقرأ كتابًا بقدر جلسة خطيب الجمعة، فيقرأ مُراغِما نفسه، فما يلبث إلا ويسقط الكتاب على وجهه، فينام نومة المصدوع، فيقوم والكتاب أفْحَجُ أعرجُ، مُلقىً هناك!

ثم إنه ربما يجِد المخذِّلين، فيَنكُص على عقِبيه، وينقطع، أو أن ينتقل إلى طائفة المتعوِّدين، فيرتفع وينتفع.

ومُشَتَّتُ العزَمات يُنْفِقُ عمره   حيرانَ لا ظَفَرٌ ولا إخفاقُ[1]

فليُعلم أن العلم لا يَنْفَق إلا على من جُبِل على العلم طَبْعُه، وعَمر بحبّ الفضل رَبْعُه.. وأما أهل الجهل والغَي، والفَهَاهة والعِيّ، فليس ذا عِشُّك فادرُجي، ولا مَبيتُك فأَدْلِجي[2].

والعلم - كما قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): يَثقل على من أَلِفَ مخالطة الناس التشاغل بالعلم..ولا يزال يخالطهم حتى تضيع الساعات في غير شيء[3].

ثم لا يلبث أن يجالس من أولئك النهِمين، فيوقِدَ في رُوعه جذوة، قد يقبِس منه جذوةً تزيده إصرارًا ليَشُقَّ طريقه، فيَدلُف مع بوّابة القُرّاء قُدُمًا، فيسلك الطريق، ويجِدَّ ويجِدَ المحفِّزين ذات اليمين وذات الشمال.

وعلى هذا «المتكلف» ألا يكلِّف نفسه فوق طاقتها، وليعرف قُدُراته، وليَقدر همته قَدرها، وليأخذ بوصية الشيخ طاهر الجزائري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٨هـ) حيث يقول له، ولمن هو على شاكلته: تعلَّم كل يوم مسألة، واخرج للنزهة، ولا تُتعب نفسك كثيرًا، فلا خير للمرء بإكراهه مُعاطاةَ أمر تضيق به نفسه[4].

---

(١) المدهش (ص: ١٨٨).
(٢) معجم الأدباء (١١/١).
(٣) صيد الخاطر (ص: ٤٠٧).
(٤) المذكرات لمحمد كرد علي (٧١٩/٣).

والأمر يحتاج لمكابدة، ومزيد مصابرة، ومن سار على الدرب وصل:

فكابِدْ إلى أن تبلغ النفس عُذرَها ... وكن في اقتباس العلم طـلَّاع أنجُدِ
فمَن هجر الـلـذات نـال المُنى ... ومن أكبَّ على اللذات عضَّ على اليدِ[١]

فأما **المتعوِّد**؛ فإن له سويعات من نهار الصيف بصفاء ذهني، وفي ليل الشتاء يقطع شوطًا علميًا بعيدًا، ويَزبُر من الفوائد تَفْتَرَه[٢]، وتراه قد جعل له خطة لابد أن يُنهي كُتُبًا قد عيّنها، وأخذ على نفسه عهدًا أن لا يُساوِم في هذا الوقت، ولا يقتطع منه شيئًا لأحد، إلا ما لا يؤجل. فهذا المتعوِّد تجده متوازنًا في وقته، يبني نفسه، ويشارك لِداته بفوائد ما قرأ، إما عبر الأثير، أو عند اللُّقيا، ولو قلَّتْ، فإن طالت ما أملَّتْ.

هِمتي دونـهـا الـسُّـهـا والثريا ... قـد عـلَـتْ جَـهـدهـا فما تَـتَـدانَـى
فـأنـا مـتـعَـبٌ مُـعـنّـىً إلــى أن ... تَـتَـفـانَـى الأيـــام أو أتـفــانَــى[٣]

ومنهم اعتاد القراءة يوم كان شابًا فتيًّا فارغًا، ثم شيئًا فشيئًا يتردى به الحال، وتخطفه الأشغال، وتغتاله الغوائل، وتحول دونه الحوائل، فيهوِي إلى مكان سحيق، ويعود للمربع الأول «المتكلف».

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٦هـ): اعلم أن للاشتغال بالعلم آفات كثيرة، فمنها: الوقوف بالزمن المستقبل.. والإنسان كلما كبر كثرت عوائقه[٤].

وبعض الناس يظن في نفسه شيئًا من الحرص على القراءة، ويُشعِر نفسه أن وقته لا يكفي للقراءة، ودائما ما يَندب الزمن، وإذا نظرت إلى قراءته في اليوم الواحد، وعدد ساعات القراءة وجدتها لا ترتقي إلى المستوى الذي كان يتوقع منه، وإنما هي أوهام في رأسه، وإبر تخدير وضعها كعقبة عن الحرص والمثابرة.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/٥٨٩).
(٢) لُغةٌ في (دَفْتَر) بتاءَين، أو بِدال فَتَاءٌ.
(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٨/٣٧).
(٤) اللؤلؤ النظيم في رَوم التعلم والتعليم لزكريا الانصاري (ص: ٢١).

وبعض طلاب العلم قد تتقدم به السن، وقد يتصدر لتعليم وإرشاد الناس، ولو تسأله: هل قرأت تفسيرًا كاملًا؟ لربما يقول لك: لا! وهذه الـ «لا» مصيبة بالنسبة لحاله! والمصيبة تُدفع بالصبر والمصابرة، والتعويض، وملاحقة الزمن.

وهؤلاء المصابرون؛ منهم من يترقى به الحال، ليصعد عَتَبات المتلذذين، وما أدراك ما المتلذذون؟ أولئك الذين هم في واد، والناس في وادٍ آخر، إنهم قوم لا يجدون لذتهم إلا في العلم، وليس شيء غير العلم، فلا لهوَ يجذبه، ولا لعبَ يُطربه، وإنما ينادي في كل ساحٍ قائلًا:

ما لذة الخلق في الدنيا جميعهمُ ... ولا الملوك وأهــل اللهو والـطـربِ

كلَذَّتي في طِلاب العلم يا ولدي ... فالعلم معتَمَدي حقًّا ومكتَسَبي[(١)]

فهذا **المتلذذ** أطيب عيشًا، وأعز مكانًا.

قال ابن الجوزي: فليس في الدنيا أطيب عيشًا من منفرد عن العالم بالعلم، فهو أنيسه وجليسه، قد ارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها، والتحف بالقناعة باليسير[(٢)].

ولئن قال المتنبي: **أعزُّ مكان في الدُّنا سَرْج سابِحٍ**؛ فإن المتلذذ بالعلم يُعدِّل، ليقول:

أعز مكان في الدُّنا [دَرْس مسجدٍ] ... وخـيـر جليس فـي الـزمـان كتابُ

فمن وصل لهذه اللذة فقد بلغ السامق السابق من المراتب، وقد حاز لذتين لا واحدة:

لذةً حال تحصيله وطلبه، ولذةً بعد تحصيله وإدراكه. فهو عنده أعز من الكبريت الأحمر، والزمرُّد الأخضر، ونِثارة الدُّر والعنبر، ونفيس الياقوت والجوهر[(٣)].

وحتى المتلذذون؛ فإن بعضهم فوق بعض درجات، ومنهم المتفنن، ومنهم المتخصص، وفي كلٍ خير.

---

(١) طبقات صلحاء اليمن = تاريخ البريهي (ص: ٢٩).
(٢) صيد الخاطر (ص: ٣٨٤).
(٣) أصول السرخسي (١/٩).

قال ابن الجوزي: قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله، إلا أن طلاب العلم افترقوا، فكل تدعوه نفسه إلى شيء: فمنهم من أذهب عمره في القراءات؛ لأنه إنما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها، لا على الشاذ(١).

نعم؛ بين المتلذذين تفاوت، ولهم في ذات العلم مشارب، حتى إن هذا التفاوت كائن بين الصحابة الأجلاء. ولذا عقد ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) مقارنة بين الجبلين أبي هريرة وابن عباس، فأبدع -كعادته- فقال: وأين تقع فتاوى ابن عباس، وتفسيره، واستنباطه من فتاوى أبي هريرة، وتفسيره؟! وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق.. فكانت همته مصروفة إلى الحفظ، وبلغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها(٢).

وإذا قال لك أحدهم: إن هوايته المفضلة هي الأكل! أو قال لك: إن هوايته هي النوم! فبالتأكيد ستتعجب منه! أو قد تضحك. لماذا؟ لأنها ليست بهواية، بل هي عادة يومية مُلِحَّة.

أما من يقول: إن عادته هي القراءة فقد تَعْجَبُ منه؛ لأنه قد تطوَّر حاله، فما جعلها هواية كسائر الهوايات، بل جعلها عادة له كالنوم والأكل، فصارت القراءة لعقله رغيفًا، ولجسمه تخفيفًا.

وأما أن تكون لذة مبتغاة، فهذا هو مقصود هذا الكتاب، وهو الباب واللباب.

وعيَّرني بالعلم والحلم والنُّهى ... قبائل من أهل الهوى وشُعوبُ
فقلت لهم: لا تعذِلوني فإنني ... لصَفْوِ زُجاجات العلوم شَروبُ(٣)

قال الخطابي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٨هـ): مَن صدقتْ حاجته إلى شيء، كثُرت مسألته عنه، ودام طلبه له، حتى يدركه ويُحكِمه(٤).

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٣٢٢).
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٥٩).
(٣) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (١٧٦٦/٤).
(٤) معالم السنن (٢٨٨/٤).

إذًا فخلاصة الدرجات الثلاث الماضية: تكلُّفٌ حتى يكون هواية، ثم تعوُّدٌ حتى يكون عادة، ثم تلذُّذٌ حتى يصل لأعلى لذة.

وأما القسم الرابع -وأعيذ نفسي وإياك منه- فهو تسمُّم، وإن كان فيه نوع تلذُّذ؛ لأنه يشترط في اللذة أن تسيطر عليها، لا أن تسيطر عليك، وإلا صارت عشقًا مَقيتًا، وإن شئت فقل: سُما مُميتًا. فصاحبها كمن يأكل السم في العسل. على حد قول القائل:

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها[١]

فهؤلاء ضائعون أضيع من قمر الشتاء، وهم - كما قال عنهم ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): خاضوا بحار العلم لكن بالدعاوَى الباطلة وشَقاشِق الهذَيان، ولا والله ما ابتلَّت من وشَلِهِ أقدامهم، ولا زكَت به عقولهم وأحلامهم.. ولا ضحكت بالهدى والحق منه وجوه الدفاتر، إذ بُلَّت بمداده أقلامهم.. ضيَّعوا الأصول فحُرموا الوصول[٢].

ويدخل فيهم الذين اشتغلوا بعلوم أو كتب ضارة، فهؤلاء وكتبهم ينبغي عزلهم منعًا للعدوى، ومنع تداول كتبهم؛ خوفًا من التسمم.

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) حيث قال: كان المفسر الثعلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٧هـ) يعاني السحر والسيميا، وكان يشتري كتبًا كثيرة من كتب العلم، فشهدتُ بيع كُتُبه..فقلت لولي الأمر: لا يحل بيع هذه الكتب؛ فإن الناس يشترونها، فيعملون بما فيها..وأمرت المنادي، فألقاها ببركة كانت هناك، فألقيَتْ حتى أفسدها الماء، ولم يبقَ يُعرف ما فيها[٣].

والسؤال: هل يكون العلم وبالًا، وهل ينقلب شرًا؟

والجواب - كما قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): العلم خير، واللذة به خير، لكن قد يعارضها ما يَجعلها شرًا[٤].

(١) الشعر والشعراء (٧٤/١).
(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٣١/٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٧٨/٢٩).
(٤) الاستقامة (١٦٥/٢).

وهذا الذي جعل الإمام شعبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٠هـ) يقول لطائفة من أهل الحديث: إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله، وعن الصلاة، وعن صلة الرحم، فهل أنتم منتهون؟![١].

ذلك أن اللذة الطاغية تؤثر في النية، وتُقعِد عن العمل، وتبعث على التكاثر والتفاخر لا غير.

ولما قيل لأحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): كتبتَ الحديث بِنية؟ فقال: شرط النية شديد، ولكن حُبِّبَ إليَّ فجمعتُه![٢].

وقال ابن الجوزي: أخذت أنوحُ على تقصيري في شكر المنعم، وكَوْني أتلذَّذ بإيراد العلم، من غير تحقيقِ عملٍ به[٣].

وقال: رواية العلم آسِرَةٌ للمشاعر، فربما شغلته لذةُ ما وصل إليه عن كل شيء![٤].

وهذه النقولات تعطيك مؤشرًا أن بعض اللذة العلمية قد يزيد عن حَدِّها، وربما تنقلب إلى ضدها، وهذا مندرج تحت ما جرى تسميته بـ«التسمم».

قال بشر بن الحارث -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٧هـ): إنما أنت متلذِّذ، تسمع وتُملي، إنما يُراد من العلم العمل[٥].

فلابد -إذًا- أن يَلزَم المتلذذ، ويَزُمَّ نفسه بزمام المجاهدة على الإخلاص، وعلى قراءة ما ينفع، وإلا صار الأمر ميولًا نفسيًا، ولو كان بالعلم الشرعي. وسيأتي مزيد بسط لهذا في مبحث «هل اللذة في العلم تتعارض مع الإخلاص والعمل؟».

من عجائب المتلذذين وطرائفهم

ومن عجائب المتلذذين، وطرائفهم التي ربما تبعث على السخرية، أنهم ربما يَنسَون أنفسهم، فيفعلون ما يُزري بهم، بل بما يُنقص قَدرهم عند مَن يجهلهم، ولكنهم

---

(١) معجم ابن المقرئ (ص: ٤٠٣).
(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/٤٠).
(٣) صيد الخاطر (ص: ٤٧٤).
(٤) انظر: صيد الخاطر (ص: ١٩١).
(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/٣٤٧).

معذورون؛ لأنهم لا يشعرون، فعقولهم استغرقت بلذاذة ما يفهمون، فغرقت بمعاني ما يُدرِكون.

ولتأخذ شواهد تقرِّبُ لك هذا الأمر؛ لئلا تظنه مبالغة عريَّةً من الحقيقة، فاقرأ للأديب علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) حيث يقول: إذا شاهدتم رجلًا يعتزل في كوخ، أو ينفرد في غار، لا يقبل على الدنيا، ولا يكلم الناس قلتم إنه «مجنون»، ولكن «الغزالي» عاف الدنيا وقد اجتمعت له، وحبس نفسه في أصل منارة الجامع الأموي في دمشق، فهل كان «الغزالي» حجة الإسلام وعلم الأعلام مجنونًا؟!

وإذا بلغكم أن إنسانًا نسي اسمه قلتم إنه «مجنون»، ولكن «الجاحظ» نسي كنيته، وطفق يسأل عنها، حتى جاءه ابن حلال بالبشارة بلقياها، فقال له: أنت أبو عثمان؟ فهل كان «الجاحظ» عبقري الأدب، ولسان العرب مجنونًا؟!

وصديقنا الأديب العالم الراوية عز الدين التنوخي، وقد دعا للبحث في إعداد مهرجان المتنبي جمهرةً من أدباء البلد إلى المجمع العلمي، فلما جاءوا وجدوا المجمع مغلق الباب، فذهب بعضهم إلى دار الأستاذ يسأل عنه؛ خشية أن يكون به مرض، وإذا هو يشتغل بتحقيق كتاب أبي الطيب اللغوي، وإذا هو يحدثهم عن الكتاب، أما حكاية الدعوة، فقد نسيَها من أساسها!

إن العبقري شَغَل بالعلم فكره كله، فلم يبقَ منه شيء لفهم الحياة، فصار عند أهلها مجنونًا! وبين جنون العبقرية وجنون المارِسْتان نوع ثالث، ألا وهو جنون الغرام[١].

نعم؛ المتلذذون مجانين! لكنه جنون غرام البياطرة العباقرة، لا جنون هيام العقاقير.

طَوَيْتُ بإحرازِ العلومِ ونَيْلِها ... رداءَ شَبابي، والجنونُ فُنونُ

وحينَ تعاطَيْتُ الفنونَ ونَيلها ... تبين لي: أن الفنونَ جُنونُ[٢]

---

(١) من مقالة: مجانين! للأستاذ علي الطنطاوي في مجلة الرسالة (١٠/٦٧٦ - ١٢) والمارستان كلمة فارسية معرَّبة، ومعناها: المستشفى.

(٢) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٤٦٥).

ويقول الطنطاوي -أيضًا- عن شيخ له: شيخنا عبدالقادر المبارك؛ من أيسر محفوظاته «القاموس المحيط» حدثنا مرة أن إخوانه كانوا يعيبون عليه أنه: لاشتغال فكره بمسائل اللغة والأدب يُسَلِّمون عليه في الطريق، فلا يرد السلام، فعزم يوما على أن يكون متنبهًا، فسمع وهو خارج من بيته وطءَ خطوات جاره على بلاط الزُّقاق، فلما اقترب منه قال له بصوته الجهوري العجيب: وعليكم السلام. ثم التفت ليراه فإذا هو بغل الطاحون! أرسله صاحبه إلى البِرْكة ليشرب![1].

ومن سِيَر المتلذذين أنهم لا يَنفكُّون عن العلم لا في الطفولة ولا الشيخوخة.

وقد مرَّ معك كلام ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) حيث يقول عن نفسه: عصَمني الله من عنفوان الشبيبة.. وقصَر محبتي على العلم وأهله. وقال أيضًا: وإني لأجد من حرصي على العلم، وأنا في عشر الثمانين، أشد مما كنت أجِدُه وأنا ابن عشرين[2].

وأما ابن الجوزي؛ فإنه يُسهِب متحدثًا عن لذته، فيقول: إنني رجل حبب إلي العلم من زمن الطفولة، فتشاغلت به..والعمر أضيق، والشوق يقوَى؛ فإن الْتِذَاذِي بالعلم، وإدراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية. وقال: ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءًا، وأقعد حَجْرة من الناس، فأتشاغَل بالعلم. وقال: ليتني قدرت على عمر نوح؛ فإن العلم كثير، وكل ما حصَّل منه حاصل رفَعَ ونفَعَ[3].

أبعدَ هذا تلومهم؟! لا تَلُمهم؛ فإنه أتاهم ما أهمَّهم، فاصنعوا لعقول آلِ العلم طعامًا؛ فإنه أتاهم ما يَشغلهم.

بل قد يَبلغ الأمر بطائفة المتلذذين أن يلوم أحدهم نفسه، بأنه بلغ به الأمر أنه لا يؤجر على طلبه، وهذا خاطر قد يعرض لأولئك الأقوام، وهو دالٌّ على هضمهم

---

(١) فصول في الثقافة والأدب للطنطاوي - (ص ٧٣).
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/١٨٠ و١٨١).
(٣) صيد الخاطر (ص: ٥١ و٥٨ و١٢٤ و٥٠٣).

أنفسهم، وتجرد نياتهم؛ لأنه يَعدّ تلذذه من باب موافقة النفس مشتهاها، فكأنه يتلذذ بالعلم، كما يتلذذ الأكول بأُكلته، وعاشق التنزُّه بنُزهته.

لكن ثمت تساؤل مهم، ألا وهو:

كيف التوفيق بين ما استقر في النفس، من ترتُّب الأجر على العلم، وبين هذه النقولات التي تُساوِر في النفس التساؤلات، وتثير عليها الخَلَجات؟!

وإليك الجواب التَّيْمي المتين الرصين، حيث يقول شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فإن أكثر طلاب العلم يطلبونه محبةً.. وهذا حال أكثر النفوس، فإن الله خلق فيها محبة للمعرفة والعلم وإدراك الحقائق.. والمقصود هنا أن محبة هذه الأمور الحسنة ليس مذمومًا، بل محمودًا. ومن فعل هذه الأمور لأجل هذه المحبة لم يكن مذموما ولا معاقبًا.. وأما من فعلها لمجرد المحبة الفطرية فليس بمشرك، ولا هو أيضًا متقربًا بها إلى الله، حتى يستحق عليها ثواب من عمل لله وعبده، بل قد يثيبه عليها بأنواع من الثواب؛ إما بزيادة فيها في أمثالها، فيتنعَّم بذلك في الدنيا.. فقد يكون من فوائد هذه الحسنات، ونتيجتها وثوابها في الدنيا، أن يهديه الله إلى أن يتقرب بها إليه، فيكون له عليها أعظم الثواب في الآخرة.. لأن العلم هو الدليل المرشد، فإذا طلبه بالمحبة وحصَّله عرَّفه الإخلاصَ لله والعملَ له[1].

وهذا الكلام متين رصين؛ أدعوك للترسُّل في قراءته، وإعادته مرةً بعد مرة! فإن فيه تقعيدًا للإرادات الواردات على القلب، وفيه توازنٌ بين حظ النفس، وحق الحق -سبحانه-.

الجاهلون بلذّة العلم:

وبسبب الجهل بلذة العلم؛ فإنك واجِدٌ غير المتلذذين بالعلم قد يَنظرون للمتلذذين بعين الشفقة، ويرأَفون بحالهم، فتَرَاهم يعاتبونهم مرة، وينادونهم لِلهوِهم مرة أخرى، ويخوفونهم ثالثةً من إصابتهم بعُقد نفسية، أو أمراض عضوية -زعموا-!

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة الخامسة (ص: ١٩١ و١٩٦ و١٩٧).

ويحسَبون أن من لم يسافر، أو من لم يتنزَّه أنه لم يذق اللذات. وإنما حال هذا المحروم من هذا اللذائذ كقول القائل:

ومن يَعترض والعلم عنه بمعزِلٍ ... يرى النقص في عين الكمال ولا يدري[١]

ولذا قال ابن تيمية: فإذا كانت اللذات الباطنة أعظم من الظاهرة، وإن لم تكن عقلية، فما قولك في العقلية؟![٢].

وا لَهْفَ نفسي على شيئين لو جُمعا ... عندي لكنتُ بها من أسعد البشرِ
كفافُ عيشٍ يقيني ذُلَّ مسألتي ... وخدمة العلم حتى ينقضي عمُري[٣]

كيف أصِلُ لهذه اللذة وأنمِّيها؟

هذا السؤال مؤرِّق ومتكرر، وتكاد البدايات تتشابه، ويكاد يُجمِع كلُّ من أدمن القراءة، واحترف مطالعة الروايات، وكتب الأدب، على أنها بدأت بمجلات الأطفال، وكُتب الجيب، والقصص البوليسية، وبالاستعارة من مكتبات المدارس.

يقول أحدهم: دخلتُ على أحفادي بهدية ملفوفة، فاستقبلوني كلهم بالترحاب، ثم قاموا بكشف النقاب عن الملفوفة، فاذا بها كعكة كبيرة من الحلوى المزينة، وإذا بكل واحد منهم حريص على أن يُحصِّل على نصيبه منها، إلا واحدًا منهم كان قد نشأ في كندا، وجاء مع أمه؛ ليقضي إجازة الصيف، فجلس وانزوى، وعندما عرضت عليه قطعة الحلوى رفض، وقال: لا أريد الحلوى، وأريد كتابًا!.

فهذه الموقف يحمل مغزىً عميقًا، وهو أن المسألة ليست مسألة أن العرب لايقرؤون، وغير العرب يقرؤون! إنما هي مسألة تعويد وتربية، فأولئك الأطفال كلهم كانوا عربًا، فمنهم من تلهَّف على حلوى تُغذي معدته، وأما الذي نشأ على القراءة؛ فيَطلب كتابًا يُغذي عقله.

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣/٢٤٢).
(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص: ٤٢٤).
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة للشنتريني (ت ٥٤٢هـ) (٨/٥٢٤).

وغير خافٍ عليك -أخي القارئ- أن بعض المتعلمين من حفاوته بالعلم، لا يحتاج إلى محرِّض عليه؛ لأن هِمَّته تمشي به، وهو قاعد، بل وهو راقد.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) عن صنف من المتعلمين: ومنهم من يحتاج إلى محرِّض، وهم الأكثر، ومنهم من تُنبهه بأيسر تنبيه، ومنهم من يتعب معه الرائض، وجِبِلَّته لا تقبل الرياضة(١).

قال الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم؛ فإما لعدم الذوق، فمن لم يَذُق لم يعرف، ولم يشتق؛ إذ الشوق تبع الذوق، وإما لفساد أمزجتهم، ومرض قلوبهم؛ بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذى لا يدرك حلاوة العسل، ويراه مرًا.

وإما لقصور فِطنتهم؛ إذْ لم تُخلق لهم بعد الصفة التي بها يُستلَذ العلم، كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل، والطيور السِّمان، ولا يستلذ إلا اللبن، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء.

فالقاصرون عن درْك لذة العلم والحكمة ثلاثة: إما من لم يحْيَ باطنه كالطفل، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات، وإما من مرض..فإن القلب إذا كان صحيحًا لا يستلذ إلا بالعلم، فإذا كان مريضًا..استلذَّ بغيره، كما يَستلِذُّ بعض الناس أكل الطين(٢).

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍ مريضٍ ... يجِد مُرًا به الماء الزُلالا

وصايا لك يا من تَروم الوصول إلى لذة العلم:

١- الإخلاص لله في الطلب. والإخلاص لذة لوحده، فكيف إذا كان في العلم؟!(٣).

٢- العلم بمقدار هذه اللذة، وتذوق ذَوقة منها، ولَعْقِ لَعقة تُوقعك في شِباك تلك اللذائذ.

---

(١) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٣٧).

(٢) إحياء علوم الدين (١٠١/٤) وانظر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل (ص: ٤).

(٣) سيأتي لهذا بسط في المبحث الرابع عشر، تحت عنوان: هل اللذة في العلم تتعارض مع الإخلاص؟.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة، وعظم قدرها لتجالَدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بحجاب من المكاره، وحُجبوا عنها بحجاب من الجهل؛ ليَختص الله لها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم[١].

وحـيّ الـطـروس وروِّ النفوس ... بـلـفـظ يُـنـظَّـم أو يُـنـثَـرُ
فـعِـلـمـك ذا جـوهـر نـافِـقٌ ... ويـا ربـمـا كـسَـدَ الـجـوهـرُ[٢]

إذًا؛ فالمحكُّ لإدراك تلك اللذة العلم بها أولًا، ثم إدامتها ثانيًا، ثم إصحاحها إن مرضت، وإحياؤها إن ماتت.

لو يعلم العاشقون ما لذة العلْـ ... ـم ولـم يـعـرفـوه مـا نـصـبوا
مـن كـان يلهو وكان ذا أنس ... فالعلم لـهـوِي وأُنـسِـيَ الكتبُ
إن عجبوا مـن مقالتي فهمُ ... مـا عجبوا مـن مقالتي العجبُ[٣]

٣- سلوك جادة العلم المطروقة، من التدرج من الأصغر، فالأوسط، فالأكبر.

فاسلك درب العلم، ولا تَحِدْ عنه، فمن سار على الدرب وصل، ومن سلك طريقًا» حقيقيًا حسيًا بالمشي بالأقدام، أو معنويًا، مثل حفظ العلم، ومدارسته، ومذاكرته، ومطالعته، وكتابته، والتفهم له: سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة[٤].

وانظر هذا المثل الذي ينطبق على معاصرينا:

أحمد بن سهل البلخي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٢هـ) قال عنه مترجموه: كان معلمًا للصبيان، ثم رفعه العلم إلى مرتبة عليَّة[٥].

٤- يا راغب التلذذ: اسمُ بهِمَّتك سامقَ العلا، بأن تكون في العلم طَمِعًا لا قَنِعًا:

---

(١) مفتاح دار السعادة(١/١٠٨).
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٥).
(٣) المصدر السابق (ص: ١٢٩).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/٢٩٧)ومشارق الأنوار الوهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه (٤/٣٤١)ومرعاة المفاتيح (١/٣٠٨).
(٥) معجم الأدباء (١/٢٧٤).

ولذا لم يأمر الله بالزيادة من شيء، إلا من العلم. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقد قيل: من لم يكن في زيادة فهو في نقصان(١).

قال المؤرخ أبو شامة المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٥هـ): لا يجد لذة العلم إلا من كانت هِمَّته سامية إلى تحصيله كذلك. وأما من يقنع بأوائل الأشياء من كل علم.. فهو مثل جائع يقنع من الطعام بشم الرائحة، أو يأكل لقمة أو لقمتين! فما صفقته رابحة!(٢).

فأما من قنِع وما طمِع فهو متأخر. قال ابن القيم: ومن لم تكن هِمته التقدم فهو في تأخر ولا يشعر، فإنه لا وقوف في الطبيعة، ولا في السير، بل إما إلى قدام، وإما إلى الوراء، فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه(٣).

ومن روائع العبارات المحفِّزة وبدائعها تلكم العبارة التالية الحالِيَة:

قال العابد السَّرِي بن المُغَلِّس -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٣هـ): سمعتُ كلمة انتفعتُ بها منذ خمسين سنة، كنتُ أطوف بالبيت بمكة، فإذا رجل جالس تحت الميزاب وحوله جماعة، فسمعته يقول لهم: «أيها الناس؛ مَن علِم ما طَلَب هانَ عليه ما بَذَل»(٤).

٥- إعمال الذهن والعقل في العلم تفهمًا واستنباطًا، وذلك بتنمية ملكة الفهم والاستنباط، وإثارة العقل بـ: «القراءة النقدية»، بحيث يطرح إعجاباته وإشكالاته واعتراضاته، وكأنه يخاطب المؤلف، وإن غاب عنه شخصه. وهذا يجعل القارئ ذكيًا ضابطًا متيقظًا، لا يُسلِّم كامل عقله للمؤلف:

أين الهُمام الذي في العلم هِمتهُ ... تعلقت بعُرى الأفلاك والقطُبِ
أين التيقظ والإتقان يطلبهُ ... أين الذكاء الذي يُنشي عن اللهَبِ(٥)

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٨٩٧/٩).
(٢) كُرَّاسَةٌ جامعة لمسائل نافعة لأبي شامة المقدسي (المقدمة).
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٧٤/١).
(٤) شعب الإيمان للبيهقي (١٨٤/٣) وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٤/٢٠).
(٥) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ لابن فهد (ص: ١٨٠).

٦- استشعار فضل الله عليك، وتفضيله لك بالعلم، على كثير ممن خلق تفضيلًا.

قال الله -تعالى- عن طالوت: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

قال ابن القيم: الفضل بالعلم لا بالمال[١]. وقد فضَّله على المال من مئة وثلاثة وخمسين وجهًا - كما في مفتاح دار السعادة.

وكان الأعمش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٨هـ) يلبس فَرْوًا مقلوبًا، تسيل خيوطه على رجليه، ويقول: أرأيتم لولا أنني تعلمتُ العلم، من كان يأتيني؟ لولا العلم لكنت بقالًا[٢].

إذا ما فاخَرَ المُثْرُون يومًا ... بما حازُوه من مال ووفْرِ
فخرْتُ عليهمُ بالعلم إني ... وجُدْتُ العلم غاية كل فخْرِ[٣]

٧- يا متلذِذًا بالعلم: تحامَلْ على تدريب نفسك منفردةً، وتحمَّلْ اعتزال ملذَّاتك، وقلة مجالسة لِداتك، فإن الواصلين بهذا وصلوا، ومن سار على الدرب وصل.

قال أبو بكر الطُّرطوشي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٠هـ): لا يَذهبْ بكم الزمان في مُصاوَلة الأقران، ومُواصلة الإخوان[٤].

وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: عليك بالعزلة، والذكر، والنظر في العلم، فإن العزلة حِمية، والفكر والعلم أدوية[٥].

وقال: أما العالِم، فعِلمه مؤنِسُه، وكتبه محدِّثه، والنظر في سير السلف مقوِّمُه، والتفكير في حوادث الزمان السابق فُرجته، فإن ترقى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه، وتشبث بأذيال محبته: تضاعفت لذاته..فمن أراد أن يتشبه به، فليصابر

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٨٣).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤٧/٥) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٦٤/٣٨).
(٣) معجم الأدباء (٩٧١/٣).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢٤٥/٣).
(٥) صيد الخاطر (ص: ٥٤).

الخلوة، وإن كرهها؛ ليثمر له الصبر العسل.. فنسأل الله ﷻ خلوة حلوة، وعزلة عن الشر لذيذة(١).

نعم؛ تحتاج لمجاهدة ومصابرة: قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: ولا يُنال العلم إلا بهجر اللذات، وتطليق الراحة(٢).

وقال العلماء: من صبر على نصَب العلم في الابتداء، وجد عواقبه لذةً تفوق سائر لذات الدنيا(٣).

٨- يا ذائقًا لذة العلم: انشر بين جوانحك، وفيمن حولك مبدأ التعايش والتشاغل بالعلم، واجعله شعارًا ودثارًا ترتديه، ونداء تنادي به في نواديك، وعَلَما ترفعه في واديك. وافعل كهذا العالِم الذي وصفه مترجِموه بأن: هَمَّه ولذته من العيش أن يعثُر على كتاب جديد، أو بحث مفيد، أو أن يجِد حجة لمذهبه الذي ينصره(٤).

أو كذاك العالِم الشاعر الرادّ على لائمِيه، حين يقول:

أما سبيل اطراح العلم فهو على ... ذي اللب أعظم من ضرب على الراسِ
فانبذ مقالة من ينهاك عن نظر ... نبذ الطبيب لـداء القرحة الآسـي
والكتْب أحسن ممن تلك حالته ... حتى تـواصـل أجناسًا بـأجـنـاسِ(٥)

٩- يا متنعِما بالعلم: إن ضعف حفظك فلا تَعجَزنَّ، وإن تَباطأ فهمك فلا تيأسَنَّ، واطلبن العلم شيئًا فشيئًا ولا تَكسَلَنَّ، فالقليل مع القليل كثير.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: والعجز والكسل من أسباب الألم؛ لأنهما يَستلزِمان فَوات المحبوب.. فتتألم الروح لفواته، بحسب تعلقها به، والْتذاذِها بإدراكه لو حصل(٦).

---

(١) المصدر السابق (ص: ٢٧٦).
(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٤٢/١).
(٣) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقِتهم السخيف (ص: ١٨٨).
(٤) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (١٢١٩/٨).
(٥) المقفى الكبير (١٧١/٧).
(٦) بدائع الفوائد (٢٠٧/٢).

ومن جميل القصص أن: رجلًا كان يطلب العلم فلا يقدر عليه، فعزم على تركه، فمر بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة، قد أثَّر الماء فيها، فقال: الماء على لطافته، قد أثَّر في صخرة على كثافتها! واللهِ لأطلبن العلم. فطلَب فأدرَك![1].

١٠- أيا شَغوفًا بالعلم: تدرَّج بنفسك بحسب همَّتها، ولا تَنْبَتَّ بها؛ فإن المُنْبَتَّ لا ظهرًا أبقى، ولا أرضًا قطع. واعتبر بالصبي في أول حركته، فإنه تظهر فيه غريزة بها يستلِذُّ اللعب، حتى يكون ذلك -عنده- ألذُّ من سائر الأشياء، ثم يظهر فيه استلذاذ اللهو، ولبس الثياب الملونة، وركوب الدواب الفَرِهة، فيستخف معه اللعب، بل يستهجنه..ثم قد تظهر لذة العلم بالله -تعالى-..فيستحقِر معها جميع اللذات السابقة، ويتعجب من المنهمِكين فيها[2].

ومن سياسة المتلذذين المنطلقين بخُطَىً ثابتة: أنهم لا يُحَمِّلون أنفسهم فوق طاقتها؛ كيلا تسأم ويَمَلوا، فربما نفرت نَفْرة لا يمكنهم تداركها، بل يكون أمرهم في ذلك قصدًا، وكل إنسان أبصر بنفسه.

١١- أحِبَّ العِلم، وأظهِرْ حُبَّك له، ولو كان مبدؤه تكلفًا، فلعله يرتقي أن يكون تعوُّدًا، ثم تلذُّذًا.

قال ابن القيم: فكلما كان العلم به أكمل كانت محبته أقوى..وذلك أن اللذة تتبع المحبة[3].

وقال -أيضًا-: وكمال اللذة في العلم والحب.. وكمال العبد بحسب هاتين القوتين: العلم والحب، وأفضل العلم العلم بالله، وأعلى الحبِ الحبُّ له، وأكمل اللذة بحسبهما[4].

١٢- يا هانئًا بالعلم: اتخِذ لك شيخًا، أو حتى طالب علم حكيم متّزن، وإلا فتطلَّب

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (٢/١٧٩).

(٢) الكشكول (٢/١٦٢).

(٣) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/١٤٦٥).

(٤) الفوائد لابن القيم (ص: ٥٣).

طالبًا مثلك ينافسُك، وينهضُ بك وتنهضُ به، فذو الهمة العالية إذا وَجد من يرقى به، ويمشي معه في الطريق انتفع بمذاكرته، وزاده نشاطًا ومُضيًّا ومَضاءً.

قال الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) عن شيخه ابن تيمية: كان إذا رآني قال: أَيْش حِسُّ الإيرادات؟! أيش حِس الأجوبة؟! أيش حِسُّ الشكوك؟! أنا أعلم أنك مثل القِدْر التي تغلي تقول: بَقْ بَقْ، أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، لا زِمْني تنتفع[1]

وهذه فراسة وبَهَاسة تيمية، ورفق ونصح بطلابه الموهوبين، وخوف عليهم من الشبهات.

ومن العوائد المُجتناة لاتصال المبتدئ في دَرَج التلذذ بشيخ يختاره: أن ذلك يقِيه -إلى حدٍ كبير- من المشتِّتات، من الشهوات والشبهات.

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم[2].



(١) الوافي بالوفيات (١٤/٧). وانظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٣٧٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨٢/٧) و(٦٠٨/٢٢).

٧- أعلى درجات اللذات العلمية على الإطلاق

لذة تحصيل العلم الشرعي:

نعم؛ غير مجحود ولا مدفوع، أن لعموم العلم لذةً مُتناهية، خصوصًا دقائقَه المدرَكَةَ بالعقل. وكلٌ يحكي مقدار لذته التي يُعايِشها، ويجِدُها.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): اللذة العقلية هي..لذة العلم(١).

وقال تلميذه ابن القيم: العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات(٢).

وقال الفقيه الأصولي الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): في العلم بالأشياء لذة لا توازيها لذة، إذ هو نوع من الاستيلاء على المعلوم والحَوز له، ومحبة الاستيلاء قد جُبلت عليها النفوس، ومِيلَتْ إليها القلوب؛ فقد يُطلب العلم للتفكُّه به، والتلذُّذ بمحادثته، ولا سيما العلوم التي للعقول فيها مجال(٣).

فدَعْ عنك لذائذ القوم، وولِّ وجهك شَطْرَ اللذات الروحية، والكمالات العقلية، تجد المرء متى الْتَذَّ بشيء منها لا يقف عند منتهى؛ فهو كل الزمان مبتهج بما يعلمه من العلوم، ويستفيده من الآداب.

قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): الذي يمُنُّ الله عليه بالعلم فقد منَّ الله عليه بما هو أعظم من الأموال، والبنين، والزوجات، والقصور، والمَراكب، وكل شيء(٤).

---

(١) النبوات (٥١/١١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٨٧/١).

(٣) الموافقات (٨٦/١).

(٤) شرح رياض الصالحين (٤٤٤/٥).

واعتبِرْ بفعل العلم مع طالِبِيه، ولو كان يضرُّهم؛ لأن مقصود أولئك إشباع نَهَم عقولهم.

قال الطبيب الفيلسوف ابن سينا: قرأتُ كتاب ما بعد الطبيعة أربعين مرة، وصار محفوظًا، وأيِستُ مِن فهمه..فبينا أنا يوما بعد صلاة العصر في الوراقين، وإذا بدلّال ينادي على مجلد، فعرضه عليَّ، فرددتُه رد متبرِّم به، معتقدٍ أن هذا العلم لا فائدة فيه، فقال: اشترِه؛ فإني أبيعك إياه بثلاثة دراهم. فاشتريتُه، فإذا هو في أغراض ذلك الكتاب، فأسرعتُ قراءته، فانفتح عليَّ في الوقت الكتاب، وفهمتُه، وفرحتُ فرحًا شديدًا، وتصدقتُ ثانيَ يوم على الفقراء بشيء كثير[١].

وأما علم التاريخ فهو علم لذيذ ومستساغ، تغلب فيه الهشاشة والبشاشة على الملل والسأم؛..فكما أن كمال العين هو بالنظر إلى الوجوه الجميلة، فإن كمال السمع بالاستماع إلى التواريخ والأخبار[٢].

ولكن اللذة الكامنة الكاملة؛ إنما هي في تحصيل العلم الشرعي، فهي اللذة العلمية العالية التي لا يقاربها شيء مما يتلذذ بها أهل الدنيا، فضلًا أن يعادلها.

فإن العلوم وإن تباينتْ أصولها، وغربت وشرَّقت فصولها.. إلا أن أعلاها قدرًا، وأغلاها مهرًا.. وأحلاها لسانًا، وأجلاها بيانًا: العلوم الدينية. والفهوم اللدُنية. فهي شمس ضحاها، وبدر دُجاها، وخال وَجْنَتِها، ولَعَسُ شَفَتها، ودَعَجُ عيونها، وغَنَجُ جُفُونها[٣].

لا تَـجْـنَـحَـنَّ لعِلم لا ثـواب له ... واجْـنَـحْ لما فيه أجـرٌ غير ممنونِ
إن العلوم ثمار فاجْنِ أحسنها ... وأحسن العلم ما يَهدي إلى الدِّينِ[٤]

قال ابن القيم: أعلى الهمم في طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود المنزل[٥].

---

(١) المصدر السابق (١/١٠٣).
(٢) تاريخ بيهق (ص٩٨).
(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (١/٣).
(٤) نظم العقيان في أعيان الأعيان (ص: ٨٣).
(٥) الفوائد لابن القيم (ص: ٦١).

وقال: وأفضل العلم العلم بالله، وأعلى الحب الحب له، وأكمل اللذة بحسبهما[١].

وقال مخصِّصًا لنوع من العلوم الشرعية: وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله..وهذا هو الغاية التى تُطلب لذاتها[٢].

كل العلوم سوى القرآن مُشغِلة ... إلا الحديثَ وإلا الفقهَ في الدينِ[٣]

ومن عجائب القصص في التلذذ بالعلم الشرعي: أن ابن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ) خطب وهو على الموسم، فقرأ سورة البقرة، فجعل يُفسر ويقرأ.

قال تلميذه شقيق واصفًا مقدر لذته بما يُلقيه شيخه: فما رأيتُ ولا سمعتُ كلام رجل مثله، إني أقول: لو سمعته فارس والروم والتُرك لأسلمت![٤].

وليُعلم أن النصوص الشرعية الواردة في مدح العلم، والثناء على أهله، ونَيلِهم الأجور العظيمة؛ إنما هي خاصة بطلبةِ ومعلمي العلم الشرعي.

إن النهوض إلى العلياء مَكرمةٌ ... لها الْـتِـذاذانِ مشهودٌ ومرتقَبُ[٥]

وقد رُوي أن النبي ﷺ قال: **إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَق الذكر**[٦].

قال الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ): فرياض العلوم النافعة، فيها من المعارف من كل زوج بَهيج، وفيها أجل المعارف وأفضلها، وهو العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه. وفيها: علم الحلال والحرام[٧].

وتبلغ اللذة جمالها إذا كان العلم علما شرعيًا، وكان طالبه ذكيًا ألمعيًا، شغوفًا بتخصصه، فحينَها ستجده لا يَفرِي فَرْيه أحد، ولا يُوثِقُ وثاقَه للعلم أحد.

---

(١) المصدر السابق (ص: ٥٣).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١١٤).
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١/٢٩٧).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/٤٦٧).
(٥) معجم الأدباء (٥/٢٢٢٥).
(٦) سنن الترمذي (٣٥١٠) وقال: حسن غريب.
(٧) الرياض الناضرة لابن سعدي (ص٧٠ -٧٢).

ومن جميل الأوصاف ما وُصِف به الفقيه عمر بن أبي نصر السرخسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٩هـ) فقد كانوا يقولون عنه: لو فُصد عمر السرخسي لجرى منه الفقه مكان الدم(١).

وتبلغ اللذة العلمية الشرعية منتهاها، إذا انضاف إليها إعمال الذهن، وابتكار العقل.

قال الشيخ محمد الخضر حسين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ): والعبقري يَلَذُّ العلم، أكثر مما يَلَذه الناقلون، وإنا لنرى الرجل يرتاح للعلم، ينحدر من سماء فكره، أكثر مما يرتاح للعلم الذي ينساق إليه من فِكر غيره، ولا يزيد هو على أن يُوْدِعَه حافظته(٢).

اللذة حاصلة في غير العلوم الشرعية

لا يُفهَم من الإشادة الآنفة، أن اللذة لا تحصل في غير العلوم الشرعية. بل مشارب اللذات تتنوع، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وإن ما لا يتم العلم الشرعي إلا به، فهو تابع للعلم الشرعي، كالنحو والتاريخ.

نعم؛ الكمال إنما هو بالضرب من كل غنيمة بسهم تفنُّنًا بالعلوم، وإلا فإن التخصص في علم من علوم الآلة، قد جرى عليه الأوائل بلا نكير، بل هو من مقتضيات الحياة العلمية، والعلماء يكمِّل بعضهم بعضًا، وتحصيل العُلوم تكاملي.

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) حاكيًا بعض لذَّته في غير العلم الشرعي: خرجت إلى اليمن؛ في طلب كتب الفراسة، حتى كتبتُها وجمعتُها(٣).

وقال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) معتذرًا بتجرُّد- وما ألطف وأصدق ما قال-: ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه، ودرَس الذي

---

(١) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١١٨٦).
(٢) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٢٧٠/١/٥).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٤٤/٩).

يليه.. ولستُ أنكر أني لو لزمتُ مسجدي ومصلاي، واشتغلتُ بما يعود بعاقبة دنياي في أخراي لكان أولى.. ولكن طلب الأفضل مفقود.. وحسبك بالمرء فضلًا ألا يأتيَ محظورًا[١].

يقولون: قد أنفقتَ عمرك كلّه ... على أدب لم تحظَ منه بطائلِ
فقلت لهم: إذْ كان أُنسي وزينتي ... وكان إلى الصِّيد الكرام وسائلي
وميّزَني عن زمرة الجهل علمهُ ... فلست أبالي بالحطام المُزايِلِ[٢]

وإنك كلما استعرضت كتب التراجم وجدتَ العلماء قاطبةً، يأخذون من كل غنيمةِ علمٍ بسهم، حتى إن العالِم تجد له مؤلفات في بضعة فنون، بل تراهم يقولون عن بعض الأئمة الفطاحلة العباقرة: إذا تكلم في فن ظننتَ أنه لا يُحسِن غيره!.

وقد قال أحد أئمة اللغة عن الفقيه الحافظ إبراهيم الحربي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٥هـ): ما فقدتُه في مجلس نحو ولا لغة، نحوًا من خمسين سنة[٣].

ألا وإن الكتب الثقافية، والأدبية -خصوصًا - لها أهمية بالغة لطالب العلم، في تقويم لسانه، وجودة بيانه، لكن لا يجعل لها كثيرًا من سنام الوقت.

وانظر إلى قامات العلم؛ كيف يَعتَنون بسائر العلوم، ويَحتَفُون، ويُقرِّرون أن المسألة تكاملية.

قال حماد بن سلمة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٧هـ): مَثل الذي يطلب الحديث، ولا يعرف النحو، مَثل الحمار عليه مِخلاة بلا شعير[٤].

بل إن الإمام عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) يقرر أهمية الاعتناء والاشتغال بعلوم الآلة، فيقول: أنفقتُ في الحديث أربعين ألفًا، وفي الأدب ستين ألفًا،

---

(١) معجم الأدباء (٩/١).
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٣٣/٣).
(٣) تاريخ بغداد (٥٢٢/٦) وطبقات الحنابلة (٨٩/١).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٦/٢).

وليت ما أنفقتُه في الحديث أنفقتُه في الأدب، قيل له: كيف؟ قال: لأنّ النصارى كفَروا بتشديدة واحدة خفَّفوها، قال تعالى: يا عيسى إني ولَّدْتُك من عذراء بَتول، فقال النصارى: ولَدْتُك[١].

فإن أوتي المرء ذكاءً فلا يُقعِده كسله عن المضي في شتى العلوم، ولا يمكث في علم أدنى، وقُدراته تؤهله للأعلى.

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) مَن شَغل نفسه بأدنى العلوم، وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارع الذُّرة في الأرض التي يَجود فيها البُرُّ[٢].

ثم إن ما يُظن أنه أدنى هو - عند التأمل - مُوصِل للأعلى، ولا غنى عنه، فبعضهما مكمل للآخر، كالنحو مع الفقه، وكالتاريخ مع التفسير.

قال الشيخ ابن سعدي: ويُستدل بهذه الآية الكريمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤] على أن علوم العربية المُوصلة إلى تبيين كلام الله وكلام رسوله، أمور مطلوبة محبوبة لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها[٣].

وقال عند قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، فيها حثٌّ على عِلم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة، والدعاوَى التي تخالِف ما عُلِم من التاريخ[٤].

لكن على المشتغلين بعلوم الآلة، أو القضايا الفكرية والاجتماعية ونحوها، ألا ينسوا نصيبهم من علم الكتاب والسنة.

ولقد كان المحدث علي بن فرحون -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٩هـ) يتحسَّر على

---

(١) معجم الأدباء (١٩/١).
(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٢).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٢١).
(٤) السابق(ص ١٣٤).

كثرة ما أذهَبَه في علم الأدب من الأيام، ويقول: يا ليتني صرفتُ العمر أجمعَ في الكتاب والسنة، وأخبار الصحابة الكرام[١].

وكلما ازداد طالب العلم من علوم الآلة، فليزدد من علوم الغاية ضرورة، وإلا كان هذا خللًا بيِّنًا في المنهج والقصد.

وقد عاب ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) على طائفة من أهل اللغة والأدب انهماكهم، فقال: فأَذهبوا الزمان كلَّه فِي علوم لا تراد لنفسها، بل لغيرها.. فترى الإنسان منهم لا يكاد يعرف من آداب الشريعة إلا القليل[٢].

إذًا فالإشكال إنما هو بالانهماك الذي يطغَى على تحصيل القدر الكافي من العلوم الأهم.

قال ابن خَلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): وأما العلوم الّتي هي آلة لغيرها؛ فلا ينبغي أن يُنظر فيها إلّا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسّع فيها الكلام، ولا تفرّع المسائل؛ لأنّ ذلك مخرج لها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير.. وربّما يكون ذلك عائقًا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذّات..فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآليّة تضييعًا للعمر، وشُغلًا بما لا يغني..فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل؛ فمتى يظفرون بالمقاصد؟! فلهذا يجب على المعلّمين لهذه العلوم الآليّة أن لا يَستبحِروا في شأنها، ولا يستكثروا من مسائلها[٣].

أما الاشتغال بفضول العلم الذي لا يَنفع؛ فلَذَّةٌ وقتيةٌ، أو وهميةٌ، ووجبة غير هنيَّة.

والخلاصة: أن العلوم - كما قال ابن القيم- ثلاثة: علم أعلى، وعلم أوسط، وعلمٌ أدنى.

- فالعلم الأعلى: العلم بالله وأسمائه وصفاته، وشرعه ودينه.
- والعلم الأوسط: العلم بمصالح الدنيا، التي لا تتم إلا بها، كالعلوم التي هي

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٢/٢٩٧).
(٢) تلبيس إبليس (ص: ١١٣).
(٣) تاريخ ابن خلدون (١/٧٩).

أصولٌ لحفظ الأبدان، والبلاد، والمساكن.

○ والعلم الأسفل: كالعلوم التي لا تنفع في دين، ولا يُحتاج إليها في دنيا، كغالب علوم الناس وصناعاتهم.. وشر الأعمال في الغالب أعمال أهل العلم الأدنى(١).

فوَيحَها لــذةً كم أَعقبتْ ندمًا ... كـواجِـدٍ لــذةً من حِـكَّـةِ الـجَـرَبِ(٢)



قال محمد بن الفضل -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٩هـ): من ذاق حلاوة العلم لا يصبر عنه

[طبقات الصوفية للسلمي (ص: ١٧٤)]

---

(١) مجموع رسائل ومسائل للإمام ابن القيم ص٩٥ - طبع لأول مرة عام ١٤٤٣ بتحقيق عزير شمس وعبد الله آل غيهب.

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٧٧/١٩).

٨. وسائل وبدائل للوصول إلى اللذة العلمية وتنميتها

هذا الباب الآني يخاطب السالك، القاطع طريقًا آمنًا في بحر العلم يَبَسًا، لا يخاف دركًا ولا يخشَى.

ويمكن تلخيصه بأربع كلمات، أوجزَها ابن أبي زيد القيرواني المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٦هـ) حيث قال: العلم لا يأتي إلا بالعناية والمُباحَثة والمُلازَمة، مع هداية الله وتوفيقه[١].

وهذه الجملة بالصميم، وهي زبدة الوصايا في هذا الباب لمن تأملها.

أما بسط تلك الوسائل والبدائل؛ لمواصلة السير في تلكم اللذة العلمية المشتهاة؛ فيمكن تقسيمها إلى قسمين: التدليل للنفس، والتذليل للنفس.

بينَ التَّذَلُّل والتَّدَلُّلِ نُقْطَةٌ فيها يَتيهُ العالِمُ النِّحْريرُ[٢]

أما التلذذ بتذليل النفس؛ فيكون بأمور منها:

١- إلزام النفس بفطور روحي يحافظ عليه، كاهتمامه بالفطور المَعِدِي. من قراءة، أو إقراء، أو درس، أو بحث، أو تأليف، ونحوها، والمواظبة على ذلك يوميًا، بحسب خطة علمية يضعها لنفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): لابد للسالك إلى الله من همة تُسيِّره وتُرقِّيه، وعلم يُبصِّره ويَهديه[٣].

فهما اثنتان: همة وعلم. وقد بسطهما تلميذه، فجعلهما ثلاثًا. حيث قال ابن القيم: وأما سعادة العلم؛ فلا يورِّثك إياها إلا بذل الوسع، وصدق الطلب، وصحة النية[٤].

(١) النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات (٥/١).
(٢) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ١٦٥).
(٣) الرد الوافر (ص: ٦٩).
(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم ط عالم الفوائد (٢٩٩/١).

فاجهَدْ لتعلم ما أصبحت جاهلَهُ فــأول الـعـلـم إقــبـال وآخــــرهُ(١)

٢- الإلحاح بدعاء القرآن ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وتحرِّي مواطن الدعاء؛ للَحاق برَكْب السَّرَاة في الظُّلَم. والتقدمة بين يدي مشاريعهم العلمية، بأعمال تشفع وترفع مقامهم عند الله، وتزكي تلك المشاريع للقبول وللإخلاص.

وقد كان هَمُّ طلبِ ازدياد العلم حاضرًا في قلوبهم حين يَدْعُون. وفي قنوتهم يدعون، وفي الأسحار يَدعون. وإليك سبعة أمثلة في إلحاحهم؛ يَعضُد بعضها بعضًا:

• قال الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ): ما وضعتُ في كتابي الصحيح حديثًا، إلا اغتسلتُ قبل ذلك، وصليتُ ركعتين(٢).

• وقال المزني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ) تلميذ الشافعي: كنتُ في تأليف هذا الكتاب [مختصر المزني] كلما أردتُ تأليفه أصوم قبله ثلاثة أيام وأصلي كذا كذا ركعة، وما صليتُ لله في طول هذه المدة، فريضة ولا نافلة، إلا سألت الله ﷻ البركة لمن تعلمه، ونظر فيه(٣).

• وهذا النحوي أبو عمر الجرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٥هـ) صنف «مختصره» المشهور في النحو، وكان كلما صنف منه بابًا صلى ركعتين بالمقام، ودعا بأن ينتفع به، ويبارك فيه. قال أبو علي الفارسي: قَلَّ من اشتغل بـ«مختصر الجرمي» إلاّ صارت له بالنحو صناعة(٤).

• وعبد الرحمن بن إسحاق الزجّاجيَ، المنسوب لشيخه الزجَّاج -رحمهما الله تعالى- (ت ٣٤٠هـ) صنف «الجُمل» بمكة، ولم يضَعْ مسألة إلا وهو على طهارة وكان إذا فرغ من بابٍ طاف به أسبوعًا، ودعا الله أن يغفر له، وأن ينفع به قارئه؛ فلهذا انتفع به الطلبة، فصار كتابَ أهل مصر، والمغرب، والحجاز، واليمن، والشام(٥).

---

(١) معجم السفر (ص: ٣٩٣).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٢/٥٢).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٣٤٩/٢) وخطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول لأبي شامة (ص: ١٣٧).
(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ١١٥).
(٥) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٦١/٢) والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ١٨٠).

• وأما أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) فلم يَذكر مسألة في «المهذب في المذهب» إلا بعد أن صلى ركعتين، واستخار الله -تعالى- فيها[١].

• ونُقل أن الحافظ الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) لما فرغ من تصنيف «منظومته الشاطبية» طاف بها حول الكعبة مئات المرات، وكلما جاء في أماكن الدعاء دعا بقوله: اللَّهُمَّ فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، ربَّ هذ البيت العظيم، انفع بها كل من قرأها. يا رب إن كنتُ قصدتُ بها وجهك، فاكتب لها البقاء[٢].

• وهذا الحافظ شمس الدين البابلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٧هـ) رأى ليلة القدر، ودعا أن يكون مثل ابن حجر العسقلاني في الحديث[٣].

وأما دعاؤهم عند شرب زمزم فمُتكاثر متوارِد. وسأسرد في نهاية هذا الباب أخبارهم.

٣- ستَعجَب إذا قيل لك: اطلب قوة الحفظ في الصبر على المحن، وتطلَّب دقة الفهم في الإعراض عن الجاهلين، واكشف خفايا المسائل في اتقاء الحسد والحاسدين. وقد جرَّب الصالحون فوجدوه عِيانًا.

• قال البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ): من ابتلي بشماتة الأعداء، وملامة الأصدقاء، وطعن الجهلاء، وحسد العلماء، فصَبَر على هذه المحن، أكرمه الله في الدنيا بلذة العلم[٤].

٤- لا تيأس إذا تعسَّر عليك هضم بعض فنون العلم، ولا تتراجع إذا رأيت من يفوقك حفظًا وفهمًا، فالنيات والعزائم خافضة رافعة، بل ربما يفوقك أصغر تلاميذك في علم أنت لم تُتقنه. وتلك مواهب الوهاب.

قال أبو حيان التوحيدي -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٠٠هـ): لا نَجحد أن تكون النَّجابة

---

(١) معجم السفر (ص: ٢٩٦).

(٢) شرح الضباع على الشاطبية (مقدمة/ص٤٥).

(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٣٩).

(٤) الغنية في شيوخ القاضي عياض (ص: ٧١).

في بعض الخاملِين، والفَسَالة في بعض المُشرِفين.. ولكن الأَولى بالقياس على عادة الناس تقديم مَن له قديم[١].

وفي سيرة العلامة قراجه أحمد الرومي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٤هـ) أنه كان كثير الاشتغال بالعلم، لكنه كان بطيء الفهم، ولم يزل مع ذلك يدأب ويحصل، حتى بلغ بالتكرار، مبلغ الأفاضل الأخيار[٢].

وإليك هذه القصة المحفزة، التي يحكيها صاحبها، وقد كاد ألا يكون عالِمًا، لولا لطف الله وفضله، ثم حسن تعليم وتفهيم معلمه:

قال الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ): وقد وقع لي أني مكثتُ سنة ونصف سنة، لا أفهم شيئًا من «شرح الكفراوي على الآجرومية»، فحمَلني عدم الفهم على الهرب من طلب العلم؛ لتَمَكُّن اليأس من نفسي، ولكن -لأمرٍ أراده الله- قهَرني والدي على الرجوع إلى الطلب، فهربتُ في الطريق، ولكني صادفتُ في مَهربي مَن علَّمني كيف أطلب العلم من أقرب وُجوهه، فذُقت لذته، واستمررْتُ في طلبه.

فيجب على المدرس أن يتنزل مع المبتدئ إلى درجته، ثم يرتقي به شيئًا فشيئًا، حتى يصل إلى الدرجة التي يتمكن فيها من إدراك دقيق المعاني[٣].

٥- ربما تجد صعوبة في تلقي العلم، فتوصف ببلادة الفهم، أو تباطُؤ الحفظ، فلا يصدنك هذا عن المضي قُدُمًا، ولا تتعثر بالأحجار في طريقك، بل اصنع منها دَرَجًا تصعد به سامق القمم. فهذا أبو عاصم النبيل -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٢هـ) روى له أصحاب الكتب الستة، وكان في حداثته ضعيف العقل، يُزرَى عليه، ثم نَبُل، فكان هو يُزرِي على غيره[٤].

---

(١) البصائر والذخائر (١٧٦/٩).

(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص: ١٦١).

(٣) مجلة المنار (٦٢١/٦). وموقف له أيضًا في مجلة المنار (٢٧٦/١٩)، أو هو الموقف السابق ذاته. قال رشيد رضا: وأذكر مما وقع لي من ذلك في الصغر: أنني هربتُ مَرة من الكُتَّاب، واختبأتُ في بستان لجدتي أم والدتي!.

(٤) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٥٤).

٦- قاوِم فُتُورك وجدِّد نشاطك؛ لإنجاز أعمالك العلمية، ولو كانت مرهِقة، واقتنص كل فرصة تعوِّض ما يَنتقص عليك بسبب الموانع والقواطع والصوادف والصوارف. وإنما يرجو العلم مَن انبعثت جمرةٌ في قلبه، تُذكِّره ضياع أيامه.

ومما يَذكرونه عن الحافظ سراج الدين البُلْقيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) أنه قد نقص عما كان عليه قبل ولايته القضاء، حتى إنه قال مَرَّة: نسيتُ من العلم؛ بسبب القضاء والأسفار العارضة بسببٍ، ما لو حفظه شخص لصار عالِما كبيرًا(١).

٧- كلما استبطأتَ الطريق فخاطب نفسك بنداء حادي العلم، المنادي بأعذب صوت، إلى أعذب لذة! وتذكَّر تلك اللذة الشهيةَ كلما استثقلتَ المسير.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله(٢).

وقال المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٠هـ): طالب العلم المتلذِّذ بفهمه، لا يزال يطلب ما يزيد استِلذاذه، فكلما طلبه ازداد لذة، فهو يطلب نهاية اللذة، وهي لا نهاية لها، ومَن لا يبتغيه لا يلْتذُّ به، ولا يشتهيه(٣).

٨- لا تضيِّع نفسك، وقد قطعت في العلم شوطًا، فافترِضْ أن مدى العلم كألف كِيلٍ تقطعها لمكة، فهَبْ أنك قطعت مئة؟! أفتفرِّط، فتنكُص؟!

قال ربيعة الرأي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦هـ): لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم، أن يضيِّع نفسه.

وفسَّره ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) بأن: من كان فيه فهم، وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهمل نفسه، فيترك الاشتغال؛ لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم..أو مراده أن يشهر العالم نفسه، ويتصدى للأخذ عنه؛ لئلا يضيع علمه(٤).

العلم أنفَس شيء أنت ذاخرهُ ... من يَدرس العلم لم تَدرس مفاخرهُ

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٨٧/٤) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١١/٤).
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢٧٠/١).
(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير (٣٧/١).
(٤) فتح الباري لابن حجر (١٧٨/١).

فاجهَد لتعلم ما أصبحت جاهلهُ   فأول العلم إقبال وآخرهُ[١]

٩- لا تَغفَل عن كتب «أدب الطلب» فإنها لِلَذَّتك تَشحن، ولهِمَّتك تَشحذ. وإني لأعرف نَهِمًا من أحبائي، مكث زمانًا لا يمر عليه شهر، إلا وقد قرأ فيه كتابًا من كتب أدب الطلب! وقد تجاوز ما قرأه في هذا الباب أكثر من ثمانين كتابًا.

١٠- إذا قرأت كتابًا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره، وتملِك معناه، وأوهِم نفسك أن الكتاب قد عُدم، وأنك مستغنٍ عنه، لئلا تحزن لفقده.. ومراعاته بالمذاكرة، ومباحثة الأقران[٢].

١١- حتى ولو كُنتَ مِمن يَلْتَهم الكُتب التهامًا؛ إذا لم تكن تُعمِل عقلك فيما تقرأ، وتَصقل أداة التفكير بمناقشةِ مقروئك، فستجد نفسك بعدَ حقبةٍ زمنِية قد تقدمتَ خطوتين، ورجعتَ خطوة!.

١٢- عوِّد نفسك إتقان مهارة السرعة القرائية والكتابية، ولو أن تشارك في دورة متخصصة. قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): المحدث يجب أن يكون سريع المشي، سريع الكتابة، سريع القراءة[٣]. والناس في هذا درجات، وبعض الإنجازات كالخوارق للعادات!.

وفي سيرة أحمد بن الطيب الطبنداوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٨هـ) قال: طالعتُ جميع «الإيضاح شرح الحاوي» للناشري، في ليلة واحدة! وهو مجلدان ضخمان! قال: وعلقتُ من كل باب فائدة، وكانت الفوائد التي كتبتُها تلك الليلة ثلاثة كراريس! وهذا خرق عادة[٤].

١٣- كرِّر العلم مقروءًا ومحفوظًا، ولا تمل، فالتكرار للعلم قرار.

---

(١) معجم السفر (ص: ٣٩٣).
(٢) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٩١).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (١/١٣٣).
(٤) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٠٧).

قال أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ): كنت أُعيد كل قياسٍ ألفَ مرّة، فإذا فرغتُ منه أخذت قياسًا آخر، وهكذا. وكنتُ أُعِيد كل درس ألفَ مرّة[١].

لله مــا أحــلــى مــكــرره الــذي يحلو ويَعذب في مـذاق السامعِ[٢]

ومن المحاورات الرمزية ما يلي:

قال المَلول للراسخ: العلم أكثر من أن يُكرَّر منه شيء!.

فقال الراسخ للملول: العلم أمنعُ من أن يَثبت بلا تكرار!.

تمنيتَ أن تُمسي فقيهًا مُناظِرا بـغـيـر عـنـاء والـجـنـون فـنـونُ

وليس اكتساب المال دون مشقة تلقيتها، فالعلم كيف يـكـونُ؟![٣]

١٤- اكتب ثم اكتب ثم اكتب؛ فالعلم صيد، والكتابة قيْدُه، وترسيخه في الذهن، وأمانُه من الضياع.

ولما أقبل أصحاب الحديث بأيديهم المحابر، فقال أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): هذه سُرج الإسلام، يعني المحابر. وقال شيخه الشافعي: لولا المحابر، لخطبت الزنادقة على المنابر[٤].

قــل لــلــذيــن بِـجـهـلـهـم أضـحـوا يَـعـيـبـون الـمَـحـابـرْ

لــولا الــمــحــابــر والـمَـقـا لِـم والـصـحـائـف والـدفـاتـرْ

لــرأيــتَ مِــن شِـيَـع الـضـلا ل عـسـاكـرًا تـتـلـو عـسـاكـرْ[٥]

وبعد: فهذه أربع عشرة مسألة، تتعلق بـ: «تذليل النفس». وإليك مثلَها في «تدليل النفس».

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/٢١٨).
(٢) الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٧٩).
(٣) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٣/٣٧).
(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/٥٣).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (١/٢٣٦).

تدليل النفس

أما «تدليل النفس» -بالدال المهملة- فهو قَسِيم «تذليل النفس».

والمقصود بهذا أن تسعى لتذليل الصعاب؛ لأجل تدليل النفس، فتَنال لذَّتين متتاليتين، لذة تذليل الصعاب، ثم لذة الراحة بتدليل الروح.

ويكون «تدليل النفس» بوسائل تريح جسمك وذهنك، وذلك بأمور منها:

١- دلِّل عَينك بشراء الشاشة «المُفلتَرة» المكبَّرة، وإلا ضعُفَ بصرك وأجهدْتَه، ثم قلّلْتَ ساعات الاطلاع قَسْرًا. وكذلك دلِّلها -إن احتجت- لتعداد نظارات القراءة في أماكن مكوثك.

٢- متِّعْ يدَك بالأقلام الكثيرة المنوعة الملوَّنة، وبالأدوات المكتبية المريحة التي تحتاجها، وبلوحة المفاتيح السلِسة، وبحوامل الكتب المريحة المتعددة في كل مكان تقرأ فيه.

٣- أرِحْ رِجلك بالوِطاء المريح، لطول مدة جلوسك على الكرسي.

٤- دلِّل ظَهرك بشراء الكرسي المريح ولو غلا، فصِحتك وراحتك أغلى.

٥- دلِّل جسمك بشراء كرسي التدليك الكهربائي؛ لتُعاوِدَ الجلوس عليه كلما أُجهِدتَ.

٦- ضع لك «ختمًا» باسمك، وبأسفله تاريخ هجري مفتوح، واطبعه على كل كتاب يدخل مكتبتك؛ ليكون تاريخًا، وتوثيقًا، وتنظيمًا، وذكرى لا تغيب عن بالك.

٧- اكتب تواريخ قراءتك، وبحثك، وتأليفك، وتدريسك، وشرائك لكتاب، ووزمن قراءتك له.

٨- تعاهَد صفَّ كتبك، وإخلاء الأرض منها، وراعِ في صفها حسن الوضع، بأن تكون الكتب قائمة بلا اعوجاج، وإلا فيتعوج الصف ضرورة؛ لأن جهة اللسان من كل كتاب أعلى من جهة الحَبْكة؛ لأن جهة الحبكة مضغوطة مقموطة[1].

---

(١) انظر: العقد التليد في اختصار الدر النضيد = المعيد في أدب المفيد والمستفيد (ص: ٢٥٤).

٩- ابتكِر طُرُقًا تعوِّضك ما تفقده، ولتكن جامعة بين المتعة والمنفعة. ومن أعجب وأغرب القصص في ذلك قصة الكاتب والروائي الأرجنتيني «بورخيس» حين فقدَ بصره مع تقدم العمر، وإجهاد القراءة، فلازَمَه محبٌّ للقراءة، اسمه «مانغويل» قام بدور «القارئ الخاص» لـ«بورخيس» ولمدة عامين متواصلَين صار يقرأ المبصر على الكفيف! وقد وَصف هذه التجربة بـ:«الأَسْر السعيد»[١].

وقد أفاد من هذه التجربة: تهيئة نفسه لبوابة التأليف في فن لا يجيده غيره، ألا وهو «الكتابة عن الكتب». وكل هذا النتاج إنما خرج بسبب فكرة قراءة مبصر على كفيف!

١٠- ومن أفكار الذين لا يملكون مالًا، فيشترون من نفائس الكتب؛ ما إن رُفوفه لتَنوء بالعصبة أُولي القوة: استثمارهم لمكتبات المساجد حولهم، والمكتبات الخيرية والرسمية. وإنما برز المحدث الألباني بهذا، حيث عكف عقودًا على المكتبة الظاهرية بدمشق.

١١- اسمع دروس العلماء عبر التقنية الحديثة. وقد قال عنها شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): تكفي عن الحضور إلى أهل العلم، إذا كان لا يمكنهم الحضور، وإلا فإن الحضور إلى العلماء أفضل، وأقرب للفهم والمناقشة[٢].

وفي أزماننا جاء الله -تعالى- بخير عميم، ألا وهو هذه الدورات العلمية على الإنترنت، وهي كثيرة جدًّا، ومتنوعة في كل فن. فلا يَقُل أحدنا: لا يوجد مشايخ، أو المسجد الذي بجواري ليس فيه درس. فالآن صار يمكن تحصيل وتوصيل العلم عن بُعدٍ بالأزرار، ففتْحُ الدورة بالأزرار، ومتابعة الدرس بالأزرار، وسؤال الشيخ بالأزرار، فصار العلم مبذولًا وأنت بمكانك؛ لكن أين المنتفعون؟!

ومما يُعين على الانتفاع بالدورات الالكترونية العلمية: التعاهد والتواصي الجماعي؛ للالتحاق بها، والتدوين لفوائدها، وتنقيحها ثم نشرها.

---

(١) المصدر السابق (ص٦٢).
(٢) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١٥٠).

١٢- زاوِلِ السماع الصوتي للكتب المطبوعة، ولو كنت تزاول أعمالك، أو رياضتك.

ودول الغرب سبقونا في ذلك سَبقًا بعيدًا. فهم يسمعون وهم يَمشون، ويسمعون وهم يأكلون، ويسمعون وهم يعملون. ومن عجائبهم أن عُمالًا في إحدى الشركات انتهجوا طريقة السماع الصوتي للكتب المطبوعة، فأنهَوا كتبًا وهم مُنهمِكون في العمل! مما جعلهم يؤلفون - مستقبلًا- روايات أدبية اشتهرت وانتشرت![١].

١٣- ومن المستجَدات الجيِّدات في إدراك اللذة العلمية: تحصيل الكتب الالكترونية المصورة. وكم كنا نعاني قبل أن يَمُنَّ مولانا علينا بهذه النعم، أما الآن فالكثير يملكها على حاسوبه وجواله، بل حتى البحث عن المخطوطات تَسهَّل، ومع ذلك نَتَعلل!.

والكتب مطبوعة بالطبعات الفاخرة المذهبة الملونة، وأحاديثها مخرجة مخدومة مشكولة، وليست مخطوطات باليد، يفُكُّون رموزها، ومستغلق خط كاتبها.

والكتاب الورقي سيستمر برغم مستجدات الكتاب الالكتروني، وبرغم النشر الالكتروني، ومواقع التواصل. لكن الكتاب الالكتروني -بحمد الله- فرصة متيسرة، موفِّرة للوقت والمال، ويتوفر في التقنية التعليم بالشبكات، وسماع سلاسل الدروس موجود مبذول.

فمن قال لك: ليس عندي مال للحصول على الكتاب ورقيًا، فقل له: الجهبذ «جوجل» لم يترك لكسول حجة، ولا لفقير مَمطُولٍ تَرْحة، ولا لطموح سَؤول فسحة.

وإن من مَفاخِر العصر التقنية في خدمة السنة النبوية مشروع «الباحث الحديثي»[٢]، ففيه تحصيل أحكام المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين على مدى ثلاثة عشر قرنًا.

وخذ مثالًا على «حديث القُلَّتين»، ففي ثوانٍ معدودة يوقِفُك لهذا الحديث على

---

(١) انظر: شغف القراءة - إيهاب الملاح (ص٦٣).

(٢) هذا المشروع الحافل من آثار التقني الراحل قريبًا، ألا وهو الشيخ مشرف الشهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٣هـ).

مئة وثلاثة أحكام حديثية! ولو جلس الباحث في مكتبته (١٠٣) ساعات لأَعياه أن يُحِّصل نصف هذا العدد.

نماذج لأدعية العلماء عند شرب ماء زمزم:

من شدة لَهَجهم بالعلم صار يَصحبهم هاجِسُه في الحضر والسفر، ويَحضر في أذهانهم كلما دعَوا ربهم في أوقات الإجابة، لا سيما بمكة وهم محرمون، فكيف وهم لماء زمزم يشربون؟! إنه الماء الذي هو «**لما شُرِبَ له**».

فلماذا كل هذا؟! إنه هاجس العلم يا سادة!

وقد اجتمع لهم طِيب الوسيلة، مع طِيب الغاية، فصارت نورًا على نور:

وزمــزم فاقت كـل مــاء بطِيبها ولو أن ماء النيل يجري على المسكِ[١]

قال ابن الضياء -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٤هـ) في كتاب «تاريخ مكة»: وقد شرِبَه جماعة من العلماء والصالحين؛ لمقاصد جليلة، وحوائج جزيلة، فنالُوها[٢].

بل قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): ولا يُحصَى كم شَرِبه من الأئمة؛ لأمور نالُوها[٣].

وإليك عشرين نموذجًا، لهؤلاء الزمزمِيّين المتلذذين بالعلم:

١- كان ابن عباس ﷺ (ت ٦٨هـ) إذا شرب ماء زمزم قال: اللَّهُمَّ أسألك علما نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاءً من كل داء. فصار يلقَّب بالبحر؛ ببركة دعاء النبي ﷺ وببركة دعائه لنفسه بعد زمزم[٤].

٢- الإمام الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ) قال: رأيت في المنام أني أشرب ماء

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٣٤٠/١).
(٢) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف (ص: ١٤٣).
(٣) فتح القدير للكمال ابن الهمام (٥٠٧/٢) وقال ابن حجر في الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية (٢٩/٥): وقد ذكرت جملة كثيرة من ذلك في كتاب فضل زمزم، فمن أراد الوقوف على ذلك فليقف ثَمَّت عليه.
(٤) المستدرك على الصحيحين وصححه الحاكم (١٧٣٩) والدمياطي، وحسنه العراقي، كما في «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» للفاسي (٣٣٧/١).

زمزم، فقمتُ، فأسبغت الوضوء، وصليتُ أربع ركعات، ثم شربته للحفظ، فحفظتُ. فما سمعتُ شيئًا، فأُنسيته[١].

٣- سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) حدَّث بحديث «زمزم لما شُرب له» فقام رجل من المجلس، ثم عاد، فقال له: يا أبا محمد! أليس الحديث صحيحًا؟ فقال سفيان: نعم. فقال الرجل: فإني قد شربتُ الآن دَلوًا من زمزم، على أنك تحدثني بمئة حديث! فقال سفيان: اقعد. فحدَّثه بمئة حديث[٢].

٤- الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) شرِب زمزم للعلم، وللرمي، فكان يصيب التسعة من العشرة[٣].

٥- قيل للإمام ابن خزيمة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ): من أين أوتيتَ هذا العلم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: **ماء زمزم لما شُرِبَ له**[٤] وإني لما شَربت ماء زمزم، سألتُ الله علما نافعًا[٥].

٦- المقرئ ابن الغماز -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ) قال: حججتُ على شدة فقر، فوردْتُ زمزم، فكرَعْتُ حتى تضلعتُ، ثم دعوتُ الله بالغِنى، والعلم بالقرآن، ثم الشهادة في سبيله. قال: أما القرآن؛ فما أحسب أن بأرضي أعلم به مني، وأما الغِنى فقد نلتُ منه حاجتي، وإني لَمُنتظر الثالثة. ومات -نحسبه- شهيدًا[٦].

٧- قال الحافظ الحاكم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٥هـ) صاحب «المستدرك»: شربتُ ماء زمزم، وسألت الله -تعالى- أن يرزقني حسن التصنيف[٧].

---

(١) إكمال تهذيب الكمال (١٠/٣٥٥).
(٢) المجالسة وجواهر العلم (٢/٣٤٢).
(٣) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/٣٣٨).
(٤) سنن ابن ماجه (٣٠٦٢). وقد صححه ابن عيينة والمنذري وابن الملقن والدمياطي، وحسنه ابن القيم وابن حجر. انظر: الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة للكرمي (ص١٠٦) وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣/١٨٠) وزاد المعاد في هدي خير العباد (٤/٣٦١) والترغيب والترهيب (٢/١٣٦). والتوضيح لشرح الجامع الصحيح (١١/٤٥٤) والتنوير شرح الجامع الصغير (٩/٣١٧).
(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/٧٢١).
(٦) انظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ١٩٢).
(٧) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٨/١٢٩).

٨- الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) يقول: شربتُ زمزم لثلاث؛ على نية أن أدخل بغداد، وأروي بها التاريخ، وأن أموت بها، وأدفن جنب بشر الحافي. وقد أدرك الثلاث كلها(١).

٩- وفي ترجمة الشيخ يحيى بن أحمد الأنصاري القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٤هـ) أنه شرب ماء زمزم لحفظ القرآن، فتيسر عليه حفظه في أقرب مدة(٢).

١٠- ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) قال: ولقد كنتُ بمكة مقيمًا.. وكنت أشرب ماء زمزم كثيرًا، وكلما شربته نويتُ به العلم والإيمان، حتى فتح الله لي بركته، في المقدار الذي يسَّره لي من العلم، ونسيت أن أشربه للعمل! ويا ليتني شربتُه لهما؛ حتى يفتح الله عليَّ فيهما، ولم يُقدَّر! فكان صَغْوِي إلى العلم أكثر منه إلى العمل(٣).

١١- شمس الدين السَّرُوجِي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٠هـ) شرب ماء زمزم؛ لولاية القضاء، فحصل له(٤).

١٢- الحافظ سراج الدين البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) لم يكن له تقدم اشتغال في العربية، فحج، فشرب زمزم؛ لفهم هذا العلم. فلما رجع أدمن النظر فيه، فمهر في مدة يسيرة(٥).

١٣- المقرئ المشهور ابن الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) كان أبوه تاجرًا، ومكث أربعين سنة لم يُرزق ولدًا، وحج وشرب من ماء زمزم، وسأل الله أن يرزقه ولدًا عالمًا؛ فوُلِد له الناظم(٦).

١٤- ابن عُديس المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) قال: كنتُ إذا عسُر عليَّ

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٣٤/١٦).
(٢) التكملة لكتاب الصلة (١٨٨/٤).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٩٨/٣).
(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (ص: ٤١).
(٥) المصدر السابق (ص: ٢٢٧).
(٦) الغاية في شرح الهداية في علم الرواية (ص: ٥٨).

الحفظ شربتُ من ماء زمزم، وتوضأتُ، وصليتُ في الملتزم، ودعوتُ، فأحفظُ[١].

١٥- الإمام الشمس ابن عمار المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٤هـ) شرِبه لأمور بلَغها أو أكثرها[٢]. وهل الازدياد من العلم إلا رأسها وأُسُّها؟!.

١٦- ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) شرب ماء زمزم لما حجَّ؛ لينال مرتبة الحافظ الذَّهبي. قال: ثم حججتُ بعد مدة تَقرُب مِنْ عشرين سنة، فوجدتُ مِنْ نفسي طلبَ المزيدِ على تلك المنزلة، فسألت رتبةً أعلى منها. قال: فأرجو اللهأن أنال ذلك[٣].

١٧- قال السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) معلِّقًا على كلام شيخه: وشربتُه أيضًا لأشياء أرجو أن أنال سائرها[٤]. وجزما أن العلم ومتعلقاته أولها وأولاها.

١٨- قال الكمال ابن الهمام -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦١هـ) عن نفسه: العبد الضعيف يرجو الله -سبحانه- شربه للاستقامة، والوفاة على حقيقة الإسلام معها[٥].

١٩- قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): لما حججتُ شربت من ماء زمزم لأمور؛ منها أن أصِل في الفقه إلى رتبة البُلْقَيني، وفي الحديث إلى رتبة ابن حجر[٦].

٢٠- أبو الضياء الغيثي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٥هـ) قال: شربتُ زمزم لثلاث؛ لأرجعَ لبلدي، فأجتمعَ بوالدي، وأشتغل بالإفتاء، وليرضى الله عني! فوجدتُ خصلتين، وأرجو الثالثة[٧].

وكل هذه العشرين عجيبة، لكن الأخيرة أعجبُهن عندي؛ فإن أبا الضياء طالت غُربته في العلم، فزاد شوقه لأبيه، وأراد أن ينفع الناس بعلمه عن طريق إفتائهم. ثم دعا بالثالثة، التي هي الغاية التي يَنشُدها كل مؤمن همُّه الآخرة.

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٢٢/٥).

(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٦٦/١).

(٣) المصدر السابق (١٦٦/١).

(٤) المصدر السابق (١٦٧/١).

(٥) فتح القدير للكمال ابن الهمام (٥٠٧/٢) وفيض الباري على صحيح البخاري (٢٢٩/٣).

(٦) تاريخ الخلفاء (ص: ٦) وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٣٣٨/١).

(٧) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٧٣).

ولذا علَّق على الدعاء محمد أنور الكشميري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٣هـ) فقال: ياله من دعاءٍ سبقَ الأدعية كلها![١].

استراحة طريفة:

من الطرائف أن العلامة محمد التنبُكْتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٠٢هـ) كان ذا صبر عظيم على التعليم، وإيصال الفائدة للبليد، بلا مَلل ولا ضَجر، حتى يَمَلَّ حاضِروه وهو لا يُبالي، حتى قال بعض تلاميذه: أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم؛ لئلا يَمَلَّ من الإقراء![٢].



(١) فيض الباري على صحيح البخاري (٣/٢٢٩).
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج - أحمد بابا التنبكتي (ص: ٦٠٠) وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٢١١).

٩. المتشبِّعون والمحرومون من لذائذ العلم

التشبُّع: افتخار الإنسان بما لا يملكه. ومنه قول النبي ﷺ: **المتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابِس ثوبَي زُور**(١).

والتشبع بالعلم مَقيت جدًا؛ لأنه دعوى بلا حقيقة، وهو خِلْوٌ من اللذة المبتغاة! وقد قال العلماء: العلم أصْوَنُ لنفسه من أن يَتصدى إلا لعاشق له(٢).

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة ... حفظتَ شيئًا وغابت عنك أشياء(٣)

قال الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): العلم لا يستلِذه إلا عالم، والحكمة لا يستلِذها إلا حكيم، وما أقلَّ أهل العلم والحكمة! وما أكثر المتسَمِّين بِاسْمهم! والمترسِمين برسمهم!(٤)

فالقارئ لبضعة كتب قد يَتزيَّا بزِيِّ القارئ النَّهِم، وقد يجد شعورًا متعاليًا، حينما يستعرض مقروءاته، وقد يَنسب لنفسه قراءةَ ما لم يقرأه!

وهذا الحافظ السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) يَحكي عن نموذج للمتشبِّعين من معاصِريه، فيقول عنه: وكان يَتحامَق في قراءته ويتضايق، بحيث لم يكن يتمكن من حضر للمقابلة من سؤاله عن تحرير لفظة، ولا رَد لَحْنة، ونحو ذلك، بل يَحمرُّ وجهه، ولا يهتدي حينئذ لصواب، وقد حدث بالصحيحين مع كونه -فيما أظن- لم يَسمع واحدًا منهما بتمامه، ولستُ أعرفه بإتقان علم من العلوم، ولا أتى على طرَفي كتاب فيما

---

(١) صحيح البخاري (٥٢١٩) صحيح مسلم (٢١٢٩).
(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤١/٤).
(٣) الفهرست (ص: ٢١١).
(٤) إحياء علوم الدين (١٠١/٤).

أظن قراءة ولا إقراء. وهو في أكثر أوقاته راكن إلى البطالة والتنعم، والإدمان لِلَعِب الشطرنج[١].

وهذه النزعة قد تعتري القارئ المبتدئ، ولكن لا تَلبث أن تتلاشَى حينما يُصحِّح نيته، ويترقى في القراءة، ويُباحِث ويُذاكر غيرَه، و:

مَـن تحلّى بغير مـا هـو فيهِ ... فـضَـحَـتْـه شـواهـد الامـتـحـانِ[٢]

قال أبو إسحاق السَّبِيعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧هـ): المذاكرة تكشف عُوار من لا يَصْدُق[٣].

وهذا مؤلف قدير ظريف، يحكي عن بدايته بتجرد وصراحة، فيقول: حين قرأتُ أول كتاب انتفختُ كديك رومي، وحين قرأتُ ثلاثة كتب شرعتُ أنظر إلى الناس بسخرية، وأتحدثُ إليهم باستعلاء، وحين قرأتُ عشرة لم أعُدْ أرى أحدًا سِواي، وحين انتهيتُ من قراءة المئة بدأَتْ ترجع إليَّ فطرتي الهاربة رُوَيدًا رُوَيدًا، إلى أن قرأتُ المئات فعلمتُ أني كنتُ ظلوما جهولًا! ولا بد من ترميم ما أفسده التعالُم والغرور، ولا يكون ذلك إلا بحبس النفس على ألفِ كتاب، متبقية في الجانب الأيسر من مكتبتي!.

قـــومٌ فـعـلُـوا خـيــرًا فـعـلَـوا ... وعـلـى الـــدرَج الـعـلـيـا درَجـــوا
يـــا مُـــدَّعـــيًـــا لـطـريـقـهـمُ ... قـــوِّمْ فـطـريـقُـك مـنـعـرِجُ[٤]

وثمت أدعياء دُخلاء، وهم من دعواهم خَلاء، يتشبعون بأنهم قراء متلذذون، وإنما مزوِّرون على أنفسهم قبل الناس، وليس لهم من العلم إلا دعوى الانتساب، لا حقيقته. و«اخبُر تَقْلُه»[٥]

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٩/٢٤٩).
(٢) حياة الحيوان الكبرى (١/٤٩١).
(٣) تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (٣/١٠٩).
(٤) الكشكول (١/٦٣).
(٥) أي: اختبر من شئت تجدْه دون ما تظنه فيه، فتقْلِيه. والقِلى البغض. انظر: جمهرة الأمثال (١/١٠٥) وديوان المعاني (١/١٢٥).

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): لا آفةَ على العلوم وأهلها أضرَّ من الدُّخَلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يَجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويُفسدون ويُقَدِّرون أنهم يُصلحون[١].

ويحكي ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) عن نموذج لهؤلاء الأدعياء في العلم، فيقول عن أحدهم: كان أعجوبة في قلة العلم، والتلبيس في ذلك، تولى تدريس الحنفية، فكان لا ينطق بكلمة، بل إذا قرأ القارئ شيئًا استحسنه، وربما تكلم بكلام لا يُفهم منه شيء[٢].

ومن الطرائف المخزية ذلك الخنبشاري الدعِيُّ المتفاصح، الذي ما سألوه عن مسألة إلا أفاض في جوابها ارتجالًا، بما حيَّر ألبابهم، وأثار استغرابهم، فامتحنوه، وجمعوا أحرفًا عشوائية، فتألفتْ منها كلمة «خنبِشار» فقالوا: أيها الأديب! هل تعرف الخنبشار؟ فقال: نعم؛ هو نبات يوضع في الحليب، فيَحسن طعمه؛ وتَطيب رائحته، قال الشاعر:

لقد حلَّت محبتكم بقلبي ... كما نفع الحليبَ الخنبِشارُ[٣].

فيا للهِ العَجَب لهذه الدعوى الفجَّة! والانتساب للعلم، ولكنه انتساب عارٍ متوارٍ!.

وخنبِشاري آخر، قدِم يقود رجلًا إلى الوالي، قائلًا: أصلح اللهُ الأمير، هذا خصمي، ناصبيٌّ رافضيٌّ جَهمي مشبِّهي، يلعن معاويةَ بن أبي طالبٍ، ويحبُّ عليَّ بن أبي سفيان،

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٣).

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/٣٩٠).

(٣) صاحب القصة -التي صارت مثلاً على اختلاف سياقاتها- هو اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٧هـ) كان قوي البديهة في الشعر، يضع لسانه منه حيث يريد. وكان شديد البديهة في ادعاء الباطل. ومع ذلك فقد وصفه ابن بسام -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٢هـ) في فقال: وكان مع ذلك عالمًا، وكثيرًا ما تُستغرب له الألفاظ، ويُسأل عنها، فيُجيب عن ذلك أسرع جواب. وذكر ابن بسام فحوَى قصة (الخنبشار) بالباء، وبلفظ:.

لقــد عَقــدتْ محبتهــا بقلبــي ... كمــا عُقــد الحليــب بخنبِشــارُ

انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٧/٣٣)وتاريخ آداب العرب (١/٢٢٦) ونفح الطيب (٣/٨١). وبعد هؤلاء بقرون جاء العلامة تقي الدين الهلالي، فعرض القصة بأسلوب أدبي، في كتابه: «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية» (ص: ٧٨).

فقال له الوالي: ثَكِلتك أمُّك! ما أدري من أيِّ شيءٍ أعجب، من علمك بالمقالات أو من معرفتك بالأَنساب؟! فقال الرجل: ما خرجت من الكُتَّاب حتى تعلَّمتُ هذا كلَّه! فقال الوالي: لا جَرَم!(١).

وهؤلاء يحتاجون نُصحًا، فإن لم يُجْدِ ففَضحًا، كفضح الخليفة العباسي المأمون، حينما دخل عليه رجل بيده محبرة، فقال: يا أمير المؤمنين؛ رجل من أصحاب الحديث، قد انقطع به. فقال المأمون: أيش تحفظ في كذا؟ فسكت الرجل. فقال: أيش تحفظ في باب كذا؟ فسكت الرجل. فقال المأمون: أحدهم يكتب الحديث ثلاثة أيام، ثم يقول: أنا صاحب حديث..ثم قال: أعطوه ثلاثة دراهم(٢).

هذا وإني بعد ممتحن بأر ... بعة وكلهمُ ذوو أضغانِ
فظ غليظ جاهل متمعْلِمٌ ... ضخم العمامة واسع الأردانِ
متفَيْهِق متضلع بالجهل ذو ... صلَع وذو جَلَح من العرفان(٣)

إذًا فالعلم شَبَع لا تَشَبُّع، ورِفعةٌ لا صَنْعة، وحجة لا دعوى!

قال السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): ينبغي لكل ذي فنّ أن يتخذه سبيلًا إلى النجاة، ومِرْقاةً إلى الزُّلفى عند الله -تعالى-، لا صنعة يتهوَّس بها، بل مرقاة يتوصَّل بها إلى الملأ الأعلى(٤).

ومجرد الانتساب والتزيِّي بزي أهل العلم والإيمان، مع فقد الحقيقة لا يُجدي، كمن يتشبع بما لم يعط من العلم، ويَتزيَّا بزي أهل الذكاء والفهم، وليس له في ذلك ملَكة ولا تمكُّن.

والناس مشتبهون في إيرادهم ... وتفاضل الأقوام في الإصدار(٥).

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٤/١٣٣).
(٢) باختصار من تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٣/٢٩٠).
(٣) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ٣٦١).
(٤) معيد النعم ومبيد النقم (ص: ٨٠).
(٥) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٣/٢٣) و(٣/٢٣٨).

ولهم في ذلك مظاهر يفتضحون فيها، فإنك لَواجدٌ ذلك المتشبع يزيّن مكتبته، ويرصُّها بالكتب، ويحضر معارض الكتب، ليصوّر نفسه في مَقَاهيها، أو ليوقِّع له مؤلف الكتاب على طُرَّة كتابه، وربما يتكلف شراء ما لا يقرؤه، وغايته أن يحفظ عناوين الكتب، فإن تعنَّى فغايته قراءة المقدمات، وأما الصُّلب فعليه صعب، بل دونه خرَط القتاد، وطرح الوساد.

ومن التشبع المذموم صفُّ كتُبٍ لم تفتح تغليفاتها الشفَّافة، فصارت مجرد زينة للناظرين، لم يُخَطَّ بها قلم المهمّشين، ولم يختلط بها ريق المتصفِّحين(١). فصار المتشبِّع، كصابغ عُثنونه بكتَم؛ يرجو الشباب، وهيهات الشباب! وهل يُراد من الكتاب الكتْم والتلميع، أم الفتح والتقليب؟!

ويا تُرى؛ ما سبب وَلَع هؤلاء المغلِّفين لكُتُبهم، وما سر تعلُّقهم بهذا التشبع المزعوم؟!

الجواب أن السبب في كلمة واحدة: الاستعجال.

قال الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ): فكم رأينا نِزالًا في حلائب العلم، من رائمٍ للبروز قبل أن يَنضُجَ، فراشَ قبل أن يَبري، وتزبْزَبَ قبل أن يتحصرَم.. ظن المسكين أنه قد ركب نفسه، فسارت به إلى ساحة العلم ورياضِه، لكن واقع حاله أن نفسه قد ركِبَتْه ونازعته، فكلما أراد أن يسير إلى الأمام خطوة جرَّته إلى الوراء خطوات، فأضحى في رائعة النهار عُرْيًا عن الفضائل، واضمحل بين الملا كضرطةِ عَير في العراء! فما من فِرْية يقومّ متعالِم باختراعِها، إلا ويَبتدرها عالم لافتراعِها(٢).

وهؤلاء مساكين! ضلَّ سعيهم، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا، ومن مَسْكَنَتهم أنهم ينسبون أعمال غيرهم إليهم، فصاروا لكنوز العلم سُرَّاقًا، وفي طريق طلبه قُطَّاعًا.

ومن أجل هذا قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): اللصوص والسُّرَّاق أنواع لا تحصى؛ فمنهم السُّرَّاق بأيديهم، ومنهم السُّرَّاق بأقلامهم (!)(٣).

---

(١) عادة تقليب الورق ببَل الريق عادة قديمة مستقذرة عند الكثير، لا سيما مع المصحف.

(٢) التعالم للشيخ بكر أبو زيد (ص٥٢).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٢٥٨).

فإياي وإياك - أخي القارئ - أن تغترَّ بهم، فضلًا أن تقرَّ بِهِم أو تقرَبَهم!.

وقد نظر أحد العلماء إلى رجل في يده كتاب، فقال محذِّرًا: تزيَّنوا بما شئتم، فلن يزيدَكم الله إلا اتضاعًا(١).

فليس التلذذ تَمَظْهُر، وإلا كانت صفقة خسران:

وحصَّلتُ ما أدركتُ من طول لذتي فلم أُلْفِهِ إلا كصفقة خاسرِ
وما أنا إلا رهن ما قدمَتْ يدي إذا غادروني بين أهل المقابرِ(٢)

صور من أساليب المحرومين من العلم النافع:

١. اشتغال الطالب بفنونٍ ثانوية، وترك الفنون الأساسية الأصيلة ظِهريًّا، أو الاشتغال بمسائل فرعية جزئية في فنٍ ما، مع إهمال أصول ذلك الفن وكليَّاته.

ومن أمثلته مثال مر آنفًا، وهو سؤال الرجل للإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) قائلًا: أتوضأ بماء الورد؟ قال: ما أحب ذلك. فلما قام السائل تعلق بثوبه، ثم قال: إيشْ تقول إذا دخلتَ المسجد؟ فسكت، فقال: وإيش تقول إذا خرجت من المسجد؟ فسكتَ. فقال: اذهب فتعلم هذا(٣).

٢. وصورة هي أشد مقتًا وساءت سبيلًا، ألا وهي ما حذّر منها ابن القيم بقوله: وأخسُّ هِمم طلاب العلم، قَصْرُ هِمته على تتبع شواذ المسائل، وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف، وتتبُّع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقلَّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه(٤).

وكم جامع للعلم في كل مذهبٍ يزيد على الأيام في جَمعه عَمَى(٥)

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/٢٣٩).
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/٣٣٢).
(٣) طبقات الحنابلة (١/٤١).
(٤) الفوائد لابن القيم (ص: ٦١).
(٥) لوامع الدرر في هتك أستار المختصر للجندي (١/١٤٧).

٣. الوَلَع بالصعود إلى العلوم الكبار، قبل إتقان بدائيات العلم. وحتمًا؛ فإن متكلف هذا الصعود مآله للسقوط.

٤. ومن الأساليب المَقيتة التي يَحسُن بطالب العلم -وهو على نفسه بصيرة- أن يُحاذِرَها: إرسال رسائلَ خفيةٍ للمستمعين، يَفهمون منها أنك قد قرأتَ وتأهلتَ، وجردْتَ وجلستَ، وسردتَ. فالحذر الحذر؛ فإن الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الملساء.

٥. اتخاذ العلم سلعة؛ للارتزاق، واكتساب المعيشة فحسب!

قال رسول الله ﷺ: **من عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا، فليس له في الآخرة نصيب**(١).

وهذا النحوي الشَّلوبيني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٥هـ) وصَفُوه بأنه غير عاشق لعلم النحو، وإنما يريده للارتِزاق! واستدلُّوا بهذا؛ لأنه لما عزم على الخروج للحج ابتاع كتابًا في اللغة من أربعين مجلدًا! قالوا: والكتاب غريب عجيب؛ لا يَسوغ لعالم عاشق فى علم العربية أن يَخرج عن يده!(٢).

٦. والمتشبَّعون يَكثُرون في زمن، ويَقِلُّون في آخر، لكن المقت الكبير لمن يجعلها سُلَّما متهاويَ العتَبات، يرقى به مجدًا سافل الدرَكات، ولأجل أن يتخلص في وظيفته من التبِعات.

ومن الشواهد أنه في زمن الدولة العثمانية، كان بعض الناس يُقبِلون على طلب العلم؛ ليتخلصوا بالامتحان من القرعة العسكرية؛ لأن قانونهم يستثني الطالب من القرعة إذا أدى امتحان سنته. فلما كانت أيام السلطان عبد الحميد الثاني أصدر أمره، بأن يُكتفى ممن يدعي طلب العلم، بمجرد كونه مجاورًا في مدرسة ما، فيستثنى من القرعة، دون أن يؤدي امتحانًا! فزاد هذا الأمر تثبيطًا، والطينَ بِلةً، وأعطاهم من غائلة

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة (٢١٢٢٤).

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢/٣٣٣).

الجهل أمانًا وضمانًا..بل قد يكون أميًا، صارفًا من نقد عمره نحو ثلاثين سنة باسم طالب علم، وهو عنه بمعزل(١).

وكل هذه الصفات الفائتات هي من مِهَن المتشبِّعين المحرومين، ولكنهم عند التفحص يصيرون مفضوحين، مقبوحين. والموصوف بما سلف قد آض -كما يقول ياقوت- ضُحْكَةً، ويرى أَنه ضُحَكَة، وجُعل هُزْأَة، ويرى أَنه هُزَأَة(٢). ومن أمثال العرب: تَجَشَّأ لقمانُ من غير شِبَعٍ. أي تكلَّف الجُشاء. يضرب لمن يَدَّعي ما ليس يملك.

وليت هذا الدعيَّ بدل أن يَتعانَى هذا التمثيل المفضوح أن يجِدَّ؛ ليجِد العلم بكدِّه.

قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ): وغالب الناس؛ تراهم يحفظون أسماء أقاربهم ومعارفهم، ولا يحفظون إلا اليسير من العلم(٣).

ولما قال رجل لأبي هريرة ﷺ (ت ٥٧هـ): أريد أن أطلب العلم، وأخاف أن أضيِّعه، قال: كفاكَ بترك طلب العلم إضاعةً له(٤).

ولأختم هذه البُوَيبَ بهذه النصيحة الذهبية، من الحافظ الذهبي، إذ يقول: لا سبيل إلى أن يصير العارف جِهبذًا إلا بإدمان الطلب، والفحص عن هذا الشأن، وكثرة المذاكرة، والسهر، والتيقظ، والفهم مع التقوى، والدين المتين، والإنصاف، والتردد إلى مجالس العلماء، والتحري والإتقان. وإلا تفعل:

فدعْ عنك الكتابة لستَ منها ... ولو سوَّدتَ وجهك بالمِدادِ

قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فإن آنسْتَ يا هذا من نفسك فهما وصدقًا ودينًا وورعًا، وإلا فلا تتعنَّ! وإن غلب عليك الهوى والعصبية

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب (١/١٣٥).
(٢) معجم البلدان (١/٩).
(٣) تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي (١٩/٢٥٠).
(٤) العقد الفريد (٢/٨٠).

لرأي ومذهب، فباللهِ لا تتعب، وإن عرفتَ أنك مخلِّط مخبِّط مهمِل لحدود الله، فأرِحنا منك، فبَعْدَ قليل ينكشِف البَهْرَج، وينكَبُّ الزَّغَل[١].

دسائس نفوس المتلذذين:

احترِس من ألفاظك، واحترِز لأفعالك، ولا يلزم من إتيان شيء من تلكم الممارسات أن صاحبها مُراءٍ، «فلا يلزم من وجودهن وجود» -كما يعبِّر الأصوليون- ولكن الحذر واجب، لا سيما لما هو مدسوس بالنفوس:

١. القراءة في مجامع الناس.
٢. تأبُّط الكتاب كثيرًا.
٣. كثرة الحديث عن تجاربه في القراءة والجرد.
٤. الولع بالإخبار عما قرأه في زمن قياسي، أو عن زمن قراءته اليومية.
٥. الحديث عن زياراته للمكتبات، ومعارض الكتاب.
٦. صَولة التكاثر بالكتب والمكتبات، والمؤلفات.
٧. نشْر كتبه! فكتاب على رف السيارة، وآخر بالمجلس، وثالث على مكتب العمل!
٨. التغالي ببيع وشراء نفائس الكتب، والمخطوطات.
٩. تكلُّف الضَّنِّ بالوقت.
١٠. التعمق عند سؤال العلماء والمحققين.

إيقاظة:

ألا إن الاشتغال بالعلم، والانتساب الحقيقي له، لهو توفيق من الفتّاح الوهاب، يَدْلُف فيه، فيَدخل قلبَ المرحوم لا المحروم، كما قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ):

والعلم يدخل قلب كلّ موفقٍ   من غير بوَّاب ولا استئذانِ

---

(١) تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (١٠/١).

ويـــردُّه الـمـحـروم مـن خذلانهِ   لا تُـشـقِـنـا اللّٰهُمَّ بـالـحـرمـانِ[١]

فيا منصرفًا عن العلم أو مُدَّعِيَه: عُد، والعَودُ أحمدُ، واعلم أنك محروم، فإن عُدتَ فمرحوم، وتيقَّن أن ذنوبك هي التي حرَمَتْك من العلم.

ثم هل تعلم أن اشتغالك بالعلم من خير المكفِّرات للذنوب؟!

قال ابن القيم: فطلبُ العلم من أفضل الحسنات، والحسناتُ يُذْهبْنَ السيئات.. فقد دلَّت النصوصُ أنَّ إتْباعَ السيِّئة الحسنةَ تمحوها، فكيف بما هو من أفضل الحسنات، وأجلِّ الطَّاعات؟!.

وقد رُوِي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت ٢٣هـ) أنه قال: إنَّ الرجل لَيخرجُ من منزله، وعليه من الذنوب مثلُ جبل تهامة، فإذا سمعَ العلمَ خاف ورجعَ وتاب؛ فانصرفَ إلى منزله، وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالسَ العلماء[٢].



(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ١٦٥).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ط عالم الفوائد (١/٢١٢) وخبر عمر ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (١/٣٤٩) لكن بلا إسناد، ولذلك صدّره ابن القيم بصيغة التمريض.

١٠. وصايا لتسهيل توصيل العلم لغير طالبيه:

وهذه مسألة مهمة ينبغي إيلاؤها شأنها، ألا وهي تسهيل العلم لغير طالبِيه، لا سيما العوام الذين شَغَلتهم ملذات عن أعلى اللذات.

واعلم -أرشدني الله وإياك لطاعته- أنه لا يُرادُ منك أن تجعل من الناس علماء، ولكن انفعْهم بما يتعبدون الله به، ويحتاجونه يومَهم، واجعلهم يُحبون العلم وأهله.

نعم؛ العلم لذيذ لطالبِيه، ومحبَّبٌ لمن ذاقه، لكن من لم يَذُقه يحسبه عَلْقمًا، فعلينا أن نُذِيق الناس من حُلواه طعمًا:

فَلَو قد ذُقتَ من حُلواه طعمًا ... لآثَرْتَ التَّعَلُّم واجتهدتا

فالعلم كالرياض المونقة، وكالخمائل المورقة، فينبغي ألا يستأثر المرء لوحده بهذه الجنات، بل يَشْرَك فيها الناس، وليحبَّ لهم ما يحب لنفسه.

ولكن كثيرًا من الناس قد زهِدوا بتلك الرياض، وانصرفوا عن خمائل العلم، وظنوه طريقًا وَعِرًا وتعقيدًا، بل ربما اعتبروه سجنًا وتقييدًا!

وهذا الظن له أسباب متعددة، من أهمِّها: تعقيد بعض العلماء والمعلمين في طريقة عرض العلم، وقلة اعتنائهم بتسهيله، تقريبًا وترغيبًا.

وهذا التسهيل فنٌ لا يُجيده إلا البارِعون المتميزون، ولهم فيه أسلوب يمكن أن يُتَلقَّى، فيُمْتَهَن، وطريقة تُدْرَس فتُدَرَّس، أو مَوهبة تُوهَب من الوهاب -سبحانه- يُرافقها الرفق.

وفي سيرة ابن شافع الحِناوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٨هـ) ذكروا أنه كان نَصوحًا، حَسَن التعليم للعربية جدًا، وله فيها مقدمة سماها «الدرة المضية في علم العربية» كثر الاعتناء بتحصيلها، وحَرِصَ هو على إفادتها، بحيث كان يكتب النُّسَخ منها بخطه للطلبة، وحكى أن سبب تصنيفها: أنه بحث «الألفية» جميعها في مبدأ حاله، فلم يُفتح

عليه بشيء، فعَلِم أنه لا بد للمبتدئ من مقدمة يتقنها، قبل الخوض في الكتب الكبار أو الصعبة، ولذا لم يكن يُقرئُ المبتدِئَ إلا إياها(١).

وحُسن التعليم يحتاج إلى حسن إدارة، بما يسمونه في عصرنا بمهارة إدارة الصف.

وفي ترجمة الضرير النحوي المبارك بن المبارك الدهان، المعروف بالوجيه -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ) ذكروا أنه كان حسن التعليم، طويل الروح، كثير الاحتمال للتلامذة، لكن كان قليل الحظّ من التلامذة، يتخرجون عليه، ولا ينسبون إليه، ولم يكن فيه عيب، إلا أنه كان فيه لِين، وكان إذا جلس للدرس يقطع أكثر وقته بالأخبار والحكايات، وإنشاد الأشعار، حتى يسأم الطالب، وينصرف عنه وهو ضجِرٌ، ويَنْقِمَ ذلك عليه(٢).

وفي المقابل؛ فقد ذكروا في سيرة ابن حزم الظاهري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) أن أكثر معايبه جهله بسياسة العلم، التي هي أعْوَص من العلم نفسهِ(٣).

فالتمكن العلمي شيء، وحُسن إيصال المعلومة بأسلوب محبب للمتعلمين شيء آخر.

والعجيب أن عالِما كبيرًا قبل ثمان مئة سنة، يحكي عن الفتور في العلم في زمنه، ألا وهو ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) ويوصينا قائلًا: قد عُلم أن حرص الطلبة للعلم قد فَتَر، لا بل قد بَطَل، فينبغي للعلماء أن يُحَبِّبوا إليهم العلم(٤).

فما نحن قائلون، ونحن في زمن الصوادف والصوارف، والملهيات عن التلذذ بالعلم؟!

ومن الوصايا والأساليب لتسهيل العلم لغير طالبيه؛ بترغيبهم فيه، ما يلي:

١. **جمال الدعاية في جذب الأنظار إليه:** من حيث التصاميم، والنشر، وسهولة

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦٨/٢).
(٢) معجم الأدباء (٢٢٦٣/٥).
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٠١/١٨).
(٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١٥/١).

الانضمام إن كان درسًا، وإن لزم توفير الكتاب المشروح، فإن تيسرت الإعاشة والسكن للمغتربين خاصة؛ فذلكم الكمال.

٢. **التدرج في عَرْضه، والمرحلية في بَذْله**: بالبدء بأساسيات ذلك الفن، ومراعاة أعمار وأفهام المتلقِّين. بل في مجالس العوام اطْرح ما يحتاجونه، بأسلوب سلِس محبَّب لهم.

٣. **اختصار كتب أمهاته، وتهذيبها، وتبويبها، وتقريبها**: وحسن إخراجها وتصميمها، وتخفيض أسعارها، وحبذا وضع المسابقات لإنجازها، والمنافسات لإتقانها.

٤. **تقصير مدة عَرضه، وتحديد مدة ابتدائه وانتهائه**: ولذا فطريقة الدورات المكثفة، لا سيما الصيفية، أكثر جذبًا، وأقوى حضورًا، وإن كانت للمتقدمين أقل نفعًا.

قال العلماء: ينبغي في الفقه الاقتصار على بسط المسائل وفصولها، وتقريبها للفهم بتقرير أصولها، كما كان يفعل ذلك جهابذة العلم ونُقَّاده، فكانوا يسردون «خليل» في أربعين يومًا، والألفية في أقل من ذلك، ويحصل الطلبة في ذلك على علوم جمة، ومسائل مهمة، لا يحصلونها في هذا التماطل والتطويل(١).

٥. **تقريبه بالأمثلة الواقعية المشاهَدة**: ذلك أن كثيرًا من أمثلة المسائل، كالنحو والفقه خاصة، إنما كثير منها أمثلة باهتة بائدة، تناسب أزمانًا مضت، ولو جُدِّد كل فن بأمثلة واقعية تُناسب العصر، لكانت أدعى للتفاعل، ولمزيد الفهم، ورسوخ المسائل.

٦. **البدء والإعادة في شرح أصوله وتكرار مختصراته**: فلا يقولَنَّ طالب علم أو عالم: إلى متى نشرح «الأصول الثلاثة»، أو «الآجرومية»، أو «الأربعين النووية»؟ فإن تثبيت أصول كل علم أنفع من زيادة أطرافه، لاسيما زمن التلقي التأصيلي.

٧. **حسن خُلق مُلْقِيه مع مُتلقّيه، والصبر على مَلَلِهم وسوء خلقهم**: نعم؛ لابد لطالب العلم أن يصبر على (مُرِّ الجَفا من معلم)، لكن -أيضًا- على مُلقي العلم أن يكون أكثر صبرًا، وألطف نفسًا في تحبيب العلم، بكرمه بماله ووقته، وترحيبه ورحابته، وتواضعه(٢).

---

(١) انظر: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (١٤١/٥).

(٢) هذه النقطة جديرة بالبسط والعرْض. وقد جمعتُ فيها سِيَرًا عطرة، لعل الله أن ييسر إخراجها في رسالة =

٨. التحفيز والترغيب في طرحه، بل ومكافأة مَن أَنجز منه قدرًا: وهذا ما كان يفعله الطامحون من أكابر العلماء، كابن عباس، وعطاء، وابن المبارك، وأبي حنيفة، ثم ابن سعدي وابن عثيمين وابن باز -رحمهم الله تعالى-. ولَتعلمَن نبأَهم بعد حين، في تضاعيف مباحث الكتاب.

٩. توظيف التقنية، واستثمار البث المباشر، واقتحامه من لدُن أهل العلم؛ لنفع الناس، ومزاحمة أهل الباطل ببذل الحق الحلو اللذيذ.

ومن هذا القبيل تلكم المساعي المشكورة المباركة: قنوات الفتاوى الموثقة، خصوصًا إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية؛ فإن نَفْعها كبير، ذائع على مستوى العالم، لا سيما برنامج «نور على الدرب» الذي مضى عليه أكثر من أربع عقود.

ومن التقنية الفاعلة النافعة -وما أكثرها-: تلكم التطبيقات الالكترونية والمقاطع المجزأة للدروس والكتب، والفوائد.

١٠. استثمار دروس المساجد لما يناسب العوام من تفسير الآيات القرآنية، وشرح الأحاديث النبوية: ومن الجميل الذي يُذكر ويُشكر: دروس الحرمين الشريفين، التي تنظمها رئاسة الحرمين الشريفين، حيث تتوزع كراسي التدريس والإفتاء بين أروقة المسجدين، وكثير منها تخاطب العوام بصورة أكبر.

١١. تذكيرهم، وترغيبهم، من خلال تكرير فضائل طلب العلم، وفضل تبليغه وتعليمه: وما أجمل مخاطبتهم بمثل ما خاطَب به شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) بقوله: لا تظنوا أن فضل العلم لا يَحصل إلا لمن تفقَّه كثيرًا، فمن حضر منكم مجلسًا واحدًا من مجالس العلم، فاستفاد مسألة عمِل بها، وعلَّمها إخوانه، فإنه يُحصل خيرًا كثيرًا، ويجرى له أجرها، وأجر مَن عمِل بها إلى يوم القيامة[1].

١٢. طرح بعض هذا العلم للعوام في مجالسهم بما يناسب مَداركهم، وبما يفيد حوائجهم: وعدم قَصْر العلم على النهِمين الطالبين له، وإنما فليتذوقوا العلم مع طالبيه،

= خاصة - بإذنه تعالى -.

(١) الضياء اللامع من الخطب الجوامع (٨/١).

وليتفوّقوه تفوُّقًا، فإن أعرضوا عن العلم فليُترفق بهم، وليغْشَ طالب العلم والعالم مجالس العوام، وليُطعِمهم العلم كما يُطعَم الرضيع الذي لم يَعْتَد على العلم، فضلًا عمن لم يتلذذه.

ولتكن مجالسة العالِم للعوام -كما يقول ابن الجوزي- للتذكرة والتأديب فحسب[١].

فاطرح ما يناسبهم، وعلِّمهم ما يحتاجونه من دينهم، منذ يُصبحون إلى حين يُمسون. وكن حاذقًا في طرحك، مخففًا عليهم.

قال الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ): ينبغي إلقاء العلوم النافعة في النوادي الكبار والصغار، وفي المَجامع التي يجتمع فيها أهل العلم بالعوام؛ بإلقاء أمور تخِفُّ عليهم، ولا يستثقلونها.. والعالِم الحاذق يتمكن أن يَجري مع العوام في أحاديثهم العادية، ويُلقي ما شاء الله من المسائل التي تنفعهم في أثناء تلك الأحاديث[٢].

١٣. **الإحماض بطرائف المواقف، وأحداث التواريخ وأخبار العالَم، ومشاركة الناس في أشعارهم وآدابهم:** ولو حفظ من شعرهم النبطي، ومواعيد المطالع، وشيئًا من أنواع البهائم وطبائعها، وطرفًا من مواعيد المحاصيل، لكان القبول لما يلقيه من العلم قويًا، والأثر منه كبيرًا. بل ليزاوِل هذا «الإحماض» مع الجادين من طلابه، بل حتى مع نفسه.

قال ابن خَلكان -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨١هـ): لا بد في المَجاميع من الأحماض[٣].

ولذا كان سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤هـ) يَقُصُّ كل يوم مرتين؛ بعد صلاة الفجر، وبعد العصر[٤].

١٤. جالِسْ العوام، لا لتُفيدهم فحسب؛ بل لتُفيد منهم أيضًا. ولن تُعدم منهم فائدة

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٣٤٩).
(٢) الرياض الناضرة والحدائق النيّرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة لابن سعدي ط. رئاسة الإفتاء لعام ١٤٠٥ هـ(ص ١٠٢).
(٣) وفيات الأعيان (٦/١٠٢).
(٤) الطبقات الكبرى ط العلمية (٦/٢٧٠).

تنقدح بذهنك. وهذا الشعور يملأ النفس تواضعًا وتذللًا، ويزيد المجالِسين أُنسًا وتقبُّلًا.

وإليك ثلاثة شواهد تعزز هذه النقطة:

• تأمل موقف ابن عباس ﷺ حيث يحكي عن نفسه قائلًا: كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتى أتاني أعرابيان، يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها، يقول: أنا ابتدأتُها(١).

• وقال تلميذه عكرمة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥هـ): إني لأخرج إلى السوق، فأسمعُ الرجل يتكلم بالكلمة، فينفتحُ لي خمسون بابًا من العلم(٢).

• وقال أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ): أخطأتُ في خمسة أبواب من المناسك، فعلَّمنيها حجَّام، وذلك أني حين أردت أن أحلق رأسي وقفت على حجام، فقلت له: بكم تحلق رأسي؟ فقال: أعراقي أنت؟ قلت: نعم. قال: النسك لا يُشارَط عليه! اجلس. فجلست منحرفًا عن القبلة، فقال لي: حوِّل وجهك إلى القبلة. فحوَّلته، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر، فقال: أدِرْ الشِّق الأيمن من رأسك. فأدَرْتُه، وجعل يحلق وأنا ساكت، فقال لي: كبِّر، فجعلت أكبِّر، حتى قمت لأذهب، فقال: إلى أين تريد؟ قلت: رحلي. قال: صل ركعتين، ثم امضِ. فقلت: ما ينبغي أن يكون ما رأيت من عقل هذا الحجام. فقلت له: من أين لك ما أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا(٣).

١٥. إن لم يُدرِك العوام العلمَ فيكفيهم أن يتعلموا السمْت والأدب من مجالس العلم: والأدب خير لهم من العلم، لو كانوا يعلمون.

قال حبيب بن الشهيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٥هـ) لابنه: يا بني! إيْتِ الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم؛ فإن ذاك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث(٤).

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ٣٤٥).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٩٢/٤١).

(٣) البصائر والذخائر لأبي حيان (١٣١/٥) ومثير العزم الساكن لابن الجوزي (٣١٤/١).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٨٠/١).

وقال مخلد بن الحسين -رحمه الله تعالى- (ت ١٩١هـ): نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث[١].

فمن لم يُحصِّل العلم والأدب معًا، فالأدب أولى وأجدى!

قال إسماعيل بن عُليَّة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٣هـ): كان يجتمع في مجلس أحمد بن حنبل زُهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمس مئة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حُسن الأدب وحُسن السَّمْت[٢].

وإذا كان العوام ومحِبُّو العلم يحرصون على الأدب قبل العلم، فكيف بطلبة العلم؟!

قال الزُّهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): كنا نأتي العالم، فما نتعلم من أدَبِه أحب إلينا من علمه[٣].

وعند قول مغيرة بن مِقسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦هـ): لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما حدثتُ.

فعلَّق الخطيب البغدادي قائلًا: كان مغيرة -والله أعلم- قد رأى بعض أولئك في مجلسه، فشاهدَ من سوء أدبه، وقبح عِشرته ما أغضبه، فقال هذا القول. وليس تكاد مجالس العلم تخلو مِن حضور مَن ذكرنا وصفَه[٤].

وقال ابن وهب -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ): ما تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه[٥].

وقال أبو بكر بن المطَّوعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٧هـ): اختلفتُ إلى أحمد بن حنبل ثِنتي عَشرة سنة، وهو يَقرأ «المسند» على أولاده، ما كتبتُ منه حديثًا واحدًا؛ إنما كنتُ أنظر إلى هَديه؛ وأخلاقِه، وآدابه[٦].

---

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص: ٥٥٩).
(٢) مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٨٨).
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٤٠/٨).
(٤) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٢٢).
(٥) جامع بيان العلم وفضله (٥٠٩/١).
(٦) مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٨٨).

يـا مُـغـرِقًـا فـي أدب الـــدَّرْ س أحـسـن مـنـه أدب الـنـفـسِ(١)

١٦. طرح العلم بأسلوب تربوي فائق، ومنهج وعظي جاذب:

ولا تَسْتَهِن بمجالس الوعظ؛ فإن العلم إنما يُراد للعمل. والمواعظ -كما عبَّر عنها ابن رجب- بـ«سِيَاط القلوب» تأطُر القلب الغافل، وتَزُمَّ القلب المُقبِل.

قال أبو الدرداء ﷺ (ت ٣٢هـ): ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله من موعظة يعِظ بها قومًا(٢).

والعوام خصوصًا، ينتفعون بالوعظ المرقِّق أكثر من العلم المدقِّق.

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): الموعظة للعوَام فَرْضٌ، ولولا ذاك لبطلتْ السُّنة، وتعطّلت الفرائض(٣).

بل قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): فأنفع ما للعامي مجلس الوعظ، يردُّه عن ذنب، ويحركه إلى توبة(٤).

ويَحكي الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ) تجربته، فيقول: وقد جَرَّبْنَا وعظ العامة وتذكيرها، فرأينا من الاستعداد ما تجزم معه بأن إحياء سنة الوعظ، تحيي الدنيا، وتُصلح الأخلاق في زمن قليل(٥).

وليس الأمر مقتصرًا على مجلس العوام، بل حتى المجالس العلمية لابد أن تُطعَّم بمهيجات، تذيب قسوة القلوب.

قال ابن الجوزي: رأيت الاشتغال بالفقه، وسماع الحديث، لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يُمزج بالرقائق، والنظر في سير السلف الصالحين(٦).

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٢/٤٣٦).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٧/١٦٩).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/١٤٨).
(٤) المصدر السابق (ص: ١١٥).
(٥) مجلة المنار (١٠/٥٢٣).
(٦) صيد الخاطر (ص: ٢٢٨).

مجالس السيرة أنفع للعوام:

ومن المجالس النافعة للعوام والمقترحة على طلبة العلم: عقد مجالس في السيرة، ولو قراءة من كتاب، فإنها مما يرغِّبهم ويقرِّبهم، ويرقِّق قلوبهم، بالحديث عن سُنة وسيرة النبي ﷺ وإيلاؤه حظًا وافرًا في القراءة بالمساجد والمجالس، وتخصيص كتاب مشوِّق حول ذلك، أو استخراج القصص من السنة النبوية، والتي تزيد - عند الإحصاء - على أربع مئة قصة(١).

والعجيب الجميل أنهم في السابق يفعلون ذلك كثيرًا، حتى في رمضان شهر القرآن. وخذ ثلاثة أمثلة:

• في رمضان سنة ٩٠٠هـ خُتم «مسند الشافعي» بجامع نخلة بدمشق، وحضر الفضلاء، وكان مجلسًا حافلًا(٢).

• في ثاني عشرين من رمضان خُتم كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ» على الشيخ أبي الفرح الجلالي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩١هـ) بالقدس الشريف(٣).

• شرف الدّين الحوراني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠١هـ) كان يُقرئ «سيرة ابن هشام» كل يوم بعد العصر(٤).

• ومن عجائب السيَر أن: ابن زريق المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٨هـ) كان يجلس بالجامع يوم الجمعة قبل الزوال، وبيده كتاب من كتب الحديث، أو أخبار الصالحين، يقرؤه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة(٥).

• وأعجب من هذا أن ابن أبي مهدي البَستي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٩هـ) كان يعمل مجلس الوعظ، في شهر رجب وشعبان ورمضان من كل سبت، فيُرتبه ويكتبه

---

(١) يسَّر الله لراقم هذه السطور أن يجمعها، ويضع عليها فوائد مقتضبة برؤوس الأقلام، ثم يلقيها على جماعة مسجده طيلة ثلاث سنوات. أسأل الله أن ييسِّر - وهو الميسِّر المتفضل- إخراجها وطباعتها.

(٢) تاريخ البصروي (ص: ١٦١).

(٣) التاريخ المعتبر في أنباء من غبر (٢/٢٦٩).

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/١٩).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٣/٢٥٩).

نحوًا من سبع مئة سطر، وينظر فيه الأربعاء والخميس والجمعة، ثم يُمليه من صدره في يوم السبت[(١)].

• أما إقراء «صحيح البخاري» في رمضان أو الجمعة؛ فكثيرٌ شهير عندهم[(٢)].

وهل يَصلُح الزجُّ بالعامة في مجالس العلم دون تدرُّج؟

الجواب: لا يصلح بلا ريب!

وما أجمل كلامًا دبَّجه الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) حيث قال: لا ينبغي أن يُخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يُقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار.. وبالجملة لا ينبغي أن يُفتح للعوام باب البحث؛ فإنه يعطل عليهم صناعاتهم، التي بها قوام الخلق[(٣)].

فلا يأنَفِ العالِم وطالب العلم من تعليم العوام مبادئ العلم، ولا يترفع عنهم، وقد أعطاه الله ما لم يُدركوه، ولربَّما فاقُوه في العمل وهو الأساس، ثم هم إخوانه، يصيبهم من الفتور والغفلة ما يصيب غيرهم.

وإنما الأمر كما قال الأديب والمحقق محمود الطناحي-رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٩هـ): حال علمائنا وواعظِينا في كل الأزمان، كانوا يرَون أن للعامة حقًا ونصيبًا مفروضًا في هذه المعارف.. بل كانت حلقات الدرس بالجامع الأزهر إلى عهد ليس ببعيد؛ تجمع عوام الناس؛ يجلسون إلى كبار العلماء، كَتِفًا إلى كتف مع طلبة العلم من أهل الاختصاص[(٤)].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠٩/٤).

(٢) يسَّر الله جمع مبحث لطيف، عنوانه: إحصائية لمن قرؤوا أو درَّسوا أو ألفوا في رمضان وفي عصر الجمعة الذين درَّسوا وأقرَؤوا في رمضان. وهذا المبحث ضمن كتاب مستقل لراقمه -يسَّر الله طبعه-، وعنوان الكتاب: (عجائب وأسرار من سير العلماء مع العلم).

(٣) إحياء علوم الدين (٥٨/١).

(٤) مقالات الطناحي (٢٨٦/١).

ومن القدوات الجميلة أن المحدث أبا سعيد البحيري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠١هـ) كان يقرأ دائما «صحيح مسلم» للغرباء والرحالة[١].

ومن المتقرر في النفوس أن الناس يحبون ويدْعون للذي يعلمهم، ويصبر عليهم، أكثر من محبتهم لمن يمنحهم نَوالًا، أو يعطيهم مالًا، حتى ربما ذَكروه ودعَوا له، وإن تَقادَم العهد.

نماذج عجيبة لبذل العلم للعوام:

وإليك الآن جملة وافرة، من سِيَر العلماء الذين صبروا وبذلوا العلم للعامة، واقتطعوا من أوقاتهم، وخصصوها لهم في مجالسهم ومساجدهم ونوادِيهم، بل ربما في بَوَاديهم ومراعيهم.

أ- كان وكيع -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ) يصلي الظهر بطريق أصحاب رَوايا الإبل، فيأتيهم حين يَريحون نَواضحهم، فيعلمهم من القرآن ما يؤدون به الفرائض، ويبقى عندهم إلى حدود العصر[٢].

ب- النحوي أبو القاسم الثمانيني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٢هـ) كان يُقرئ العوام[٣].

ج- عبد الله الشارقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) كانت له مجالس كثيرة، يُعلِّم الناس أمر وضوئهم وصلاتهم[٤].

د- الوزير ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) جعل في قصره كل جمعة، مجلس علم ووعظ لابن الجوزي، وكان يأذن للعامة في الحضور[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٩/٢٧٣) والوافي بالوفيات (٩/١١٠) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٥/٤٢).
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (١٥/٦٤٧).
(٣) نكت الهميان في نكت العميان (ص: ٢٠٤).
(٤) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٦٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٢٨).

هـ- أبو بكر الدباغ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٩هـ) كان يجلس للعامة؛ يُعلمهم فقه الطهارة والصلاة[١].

و- الشيخ ابن معضاد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٧هـ) كان يجلس للعوام يُذكِّرهم[٢].

ز- موفق الدين الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٥هـ) كان يجلس يروي للعامة أحاديث من حفظه[٣].

ح- ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) يحضر درسَه خلق كثير، من علماء ورؤساء وفضلاء، وصغار وكبار من عوام المسلمين[٤]. وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس، يفسر القرآن العظيم، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه خلق كثير[٥].

ط- البزار -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) يحكي عن شيخه ابن تيمية أنه طلب منه أن يقرأ عليه «البخاري». قال البزار: ألزمني بقراءة «صحيح البخاري» بمجمع كثير من الناس، رجالًا ونساءً وصبيانًا. وكان قصدي قراءته منفردًا وقال: ما ينبغي إلا على صفة يكون نفعها متعديًا.. فحصل لي مُرادي وفوقه، من تحصيل قراءتي له في عشرين مجلسًا متواليةً، لم يتخللها سوى الجمعة[٦].

ي- الشيخ الأديب المالقي محمد العبدري اليتيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٥هـ) كان يَقرأ على العامة كتب الحديث والتفسير والرقائق بأعذب نغمة، مذ أزيد من ثلاثين سنة، لم يُخِلَّ منها وقتًا إلا ليلتين فقط[٧].

ك- عمر الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٢هـ) كان يُلقي على العامة دروسًا في الحديث، حتى إن كثيرًا من العوام انتفعوا به[٨].

---

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١١٦/٤).
(٢) الوافي بالوفيات (٩٥/٦).
(٣) تاريخ الإسلام (٢٧٥/٥٢).
(٤) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٢٩ و٤٠).
(٥) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٩).
(٦) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٥١).
(٧) الإحاطة في أخبار غرناطة (٦٩/٣).
(٨) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٠٥/١).

ل- ومن عجائب السير أن الشيخ أحمد الصفدي -رحمه الله تعالى-(ت ٧٩٩هـ) كان يُعرف بـ«شيخ الوضوء»؛ لأنه كان يُعلم العوام الوضوء[١].

م- عبد الكريم الحنبلي الكتبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٩هـ) كان يُلزِم الناس بالصلاة وتعليم الفاتحة[٢].

ن- ابن شعبان الكساني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٢هـ) كان يجمع عرب البوادي والقرى على الذِّكر؛ بسبب كَساد سوق العلم فترةً من زمانه[٣].

س- محمد بن أحمد الشمس -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ) كان يقرأ «البخاري» للعامة[٤].

ع- الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٦هـ) كان يرتِّب للعامة دروسًا كثيرة في الدرعية، ومن مؤلفاته «تلقين أصول العقيدة للعامة»[٥].

ف- الشيخ عبد العزيز الحصين -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٣٧هـ) له مجالس في التدريس للعامة وقت الظهر والعصر، وبين العشائين[٦].

ص- الشيخ رشيد الكنكوهي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٣هـ) كان يجلس للعامة بين العصر والمغرب[٧].

ق- عبد القادر بن بدران -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) كثير التنقل بين غوطة دمشق؛ لتبليغ العلم للعامة، وتعليمه للطلبة الذين لا يستطيعون الرحلة[٨].

ر- الشيخ عمر بن سليم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٣هـ) كان يصلي العصر، ثم يعقد

---

(١) المصدر السابق (٥٣٢/١).
(٢) المصدر السابق (١٠٩/٣).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣١٢/١).
(٤) المصدر السابق (١٢٣/٧).
(٥) الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته (ص: ٣٤).
(٦) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ١٦١).
(٧) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١٢٢٩/٨).
(٨) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٧٨١/٣).

مجلسًا للعامة في «رياض الصالحين» أو «مشكاة المصابيح»، ثم بعد أذان العشاء يعقد درسًا للعامة في التفسير إلى الإقامة(١).

وبرغم هذه النقول المتضافرة المتوافرة، والتأكيدات المتكاثرة للاشتغال بالعلم، إلا أنه لا ينبغي أن نَحمل كل الناس، ولا حتى جُلَّهم، على عِمران أوقاتهم بالعلم، ولكن ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤] وكيف تستقيم الحياة، وتقوم المعايِش لو أن كل الناس اشتغلوا بالعلم فحسب؟!

ولكن شيئًا فشيئًا، وما لا يدرَك كله لا يُترك جُلُّه، وابذر البذر، وتعاهَده بالسقيا، والرفق الرفق تبلغوا، والخلاصة: ليكن شعارك يا أيها العالم، ويا طالب العلم:

تسهيلُ العلم لا تَوْعِيرُه، وتَحبيبُه لا تَرهيبُه، وتَقريبُه لا تَبعيدُه.

بشارة للعوام الذين يجلسون مجالس العلم وإن لم يفقهوا كثيرًا من محتواها:

البشارة خُذها من الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) حيث ينقلها فيقول: إن من يجلس عند العالِم، ولا يقدر أن يحفظ من ذلك العلم شيئًا فله سبع كرامات:

أولها: ينال فضل المتعلمين.

والثاني: ما دام جالسًا عنده كان محبوسًا عن الذنوب.

والثالث: إذا خرج من منزله؛ طلبًا للعلم نزلت الرحمة عليه.

والرابع: إذا جلس في حلقة العلم، فإذا نزلت الرحمة عليهم حصل له منها نصيب.

والخامس: ما دام يكون في الاستماع، تكتب له طاعة.

والسادس: إذا استمع ولم يفهم ضاق قلبه؛ لحرمانه عن إدراك العلم، فيصير ذلك الغم وسيلة له إلى حضرة الله -تعالى-.

والسابع: يرى إعزاز المسلمين للعالم وإذلالهم للفساق، فيرد قلبه عن الفسق ويميل طبعه إلى العلم، فلهذا أمر ﷺ بمجالسة الصالحين(٢).

---

(١) المصدر السابق (١٨١٩/٣).

(٢) تفسير الرازي (٤٠٣/٢).

١٢. عبارات مثبطات عن الوصول لدرجة المتلذذين بالعلم:

نعم؛ هي عبارات بعضها متين المغزَى، وقد قالها أجِلَّة العلماء، ولكن السامع لها ربما جيَّرها لتثبيط نفسه، والجاهل بمَغزاها قد تَروقه فتَعوقه، وفي كثير منها تَحامُل أو تَجَنٍّ.

وإليك عشر عبارات مثبطات:

١. ما ترك الأول للآخِر شيئًا:

ولذا قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخِر شيئًا؛ فاعلم أنه ما يُريد أن يُفلح(١).

ونقل ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) أنه: لا كلمةَ أضرُّ بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من هذه الكلمة(٢).

وعلَّل حاجي خليفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٧هـ) وجه ضرر هذه الكلمة، بأنها: تقطع الآمال عن العلم، وتحمل على التقاعد عن التعلم، فيقتصر الآخِر على ما قدم الأول من الظواهر، وهو خطر عظيم، وقول سقيم، فالأوائل وإن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها، فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها(٣).

ولكن لتُعدَّل الكلمة، وليُقَل بدلَها: كم ترك الأول للآخِر من شيء(٤).

---

(١) معجم الأدباء (٢١٠٣/٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٤١٦/١).

(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٨/١).

(٤) أول مَن رأيته يقولها اليونيني في ذيل مرآة الزمان (٣٨٢/٢) ثم الصفدي في أعيان العصر وأعوان النصر (٥٥٩/٢) ثم عصريُّه الذهبي في كتابه: ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام (ص: ٥٥) ثم تلميذه عبد الوهاب السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢١٥/١) ثم تتابع الناس يردِّدونها جيلًا بعد جيل..
أما المحدث الألباني فكان كثيرًا ما يردد هذه العبارة، عندما يعثر على طريق لحديث أو فائدة لم يذكرها مَن قبله. ومن الأمثلة:. =

وقد ضمنَّها الشاعر، فأجاد حين قال:

فقُل لمن بالسبْقِ قد فُضِّلوا ... كم ترك الأول للآخِرِ(١)

ومن جميل النقول ومَتينها -في هذا المقام- ثلاثة نُقول تصبُّ في مَصَب واحد:

أحدهما لابن بسام -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٢هـ) إذ يقول: وكم من نكتة أغفلتها الخطباء، ورب متردِم غادرته الشعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور؛ وعَزيز على الفضل أن يُنكَر، تَقَدَّمَ به الزمان أو تأخر، ولَحَى الله قولهم: الفضل للمتقدم؛ فكم دَفن من إحسان، وأَخمل من فلان. ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير(٢).

والنقل الثاني الجميل: قول النحوي ابن مالك صاحب «الألفية» -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ): إذا كانت العلوم مِنحة إلهية، ومواهب اختصاصية؛ فغير مستبعَد أن يُدَّخر لبعض المتأخرين ما عسُر على كثيرٍ من المتقدمين - أعاذنا الله من حَسَدٍ يسدّ باب الإنصاف، ويَصُد عن جميل الأوصاف(٣).

والثالث البليغ للعلامة صِدِّيق خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ): ولا غَرْوَ في هذا؛ فرُبَّ حديث تَقدم على قديم وسبق وإن تأخر، فالرجال معادن، ولكل زمان محاسن،

= ١. (فتأمل كيف يقع الخطأ من الفرد، ثم يغفل عنه الجماعة ويتتابعون وهم لا يشعرون، ذلك ليصدق قول القائل: كم ترك الأول للآخر، ويظل البحث العلمي مستمرا، ولولا ذلك لجمدت القرائح، وانقطع الخير عن الأمة). السلسلة الضعيفة (١٨٠/٣).

٢. (ثم إن الطريق الأولى لهذا الحديث مما فات السيوطي والمناوي؛ مصداقًا لقول القائل: كم ترك الأول للآخر، وردًا على بعض المغرورين القائلين: إن علم الحديث قد نضج بل واحترق). السلسلة الضعيفة (١٦٠/٣).

٣. (واعلم أن هذا التخريج قد فات كبار الحفاظ المتأخرين فلم يقفوا للحديث إلا على مخرج واحد). إرواء الغليل (٢٩٣/٤).

٤. (هذه الطريق مع صحتها أغفلها كل من خرج الحديث.). السلسلة الصحيحة (٨٨/١).

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٩٨/٩).

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (المتوفى ٥٤٢هـ) (١٣/١).

(٣) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (ص: ٢).

والخواطر مَوارد لا تُنزح، والأفكار مصابيح لا تُطفأ، والأفهام مرايا لا تَتناهى صورها، والعقول سحائب لا يَنْفَد مطرها، والمعالي غير متناهية، والفضائل غير متوارية، وأُم الليالي وَلود، والفضل في كل حين مشهود، وإن الفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء[١].

توجيهٌ وجيهٌ:

ليس معنى هذا أن يهوَّن من علم السلف، وأن الخلَف فاقُوهم، حاشا وكلا!

فالقرون الثلاثة مفضَّلة ومقدَّمة في الجملة، فإن الله تفضل على القرون الأولى بفضائل لم تكن لمن بعدهم، وكلامهم قليل كثير البركة، وكلام مَن بعدهم كثير، وهو أقل بركة.

ولذا قال ابن رجب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ): فلا يوجد في كلام مَن بعدهم من حق، إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ، وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام مَن بعدهم من باطل، إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه، لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة، والمآخذ الدقيقة، مالا يَهتدِي إليه مَن بعدهم، ولا يُلِمُّ به[٢].

وقال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) مُنبهرًا ومتعجبًا: فلله دَرّ السلف! ما كان أوقَفَهم على المعاني اللطيفة، التي يدأَب المتأخرون فيها زمانًا طويلًا، ويُفْنُون فيها أعمارهم، ثم غايتهم أن يحوموا حول الحِمى[٣].

٢. العلم في الكِبَر كالنقش على الماء[٤].

وهذه العبارة المثبِّطة عن التدارك، والمُتجانِفة في المبالغة، سيأتيك ما يُفنِّدها، من نبأ الذين طلبوا العلم على كِبَر.

نعم؛ العلم في الصغر أقوى وأثبت، لكن ليس معناه أن من تعلم كبيرًا فلن يثبت حفظه، فضلًا عن أن يكون عالِمًا!.

---

(١) الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ٢٨).
(٢) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٥).
(٣) الإتقان في علوم القرآن (٣/٢٩١).
(٤) أدب المجالسة وحمد اللسان (ص: ١٠٣) وانظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/٢٢٥).

٣. من كان شيخُه كتابَه كان خطؤه أكثرَ من صوابِه.

وقد انتقد هذه العبارةَ شيخُنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) فقال: هذا ليس صحيحًا على إطلاقه، ولا فاسدًا على إطلاقه..أما الذي يعتمد في تعلمه على كتب رجال معروفين بالأمانة والعلم؛ فإن هذا لا يَكثر خطؤه، بل قد يكون مصيبًا في أكثر ما يقول[١].

وقال شيخُه الإمام ابن باز أيضًا-رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): أما كونُ خطئِه أكثرَ؛ فهذا محل نظر، لكن على كل حال أخطاؤه كثيرة؛ لكونه لم يَدرس على أهل العلم، ولم يَستفد منهم، ولم يَعرف الأصول التي ساروا عليها[٢].

٤. تَفَقَّهوا قبل أن تُسَوَّدُوا.

قالها الفاروق عمر ﷺ (ت ٢٣هـ) فأردفها الإمام البخاري قائلًا: وبعد أن تُسَوَّدُوا. فعلَّل ابن حجر: خشية أن يَفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه[٣].

٥. عبارة: كنتُ أقرأ أيام الطلب، أما الآن فلا أجد وقتًا.

قد يقولها العالِم مُخبرًا عن واقع أمره، وقد يتلقَّفها المبتدئ، فيوَقِّت لنفسه زمنًا للتعلم، مع ما فيها من الزَّهْو، ونفخ النفس.

ولما قيل لأبي عمرو بن العلاء -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٤هـ): أَيَحْسُن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن حَسُن بالشيخ أن يعيش فإنه يَحْسُن به أن يتعلم[٤].

وقيل لابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) إلى متى تكتب؟ قال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد[٥]. وقال -أيضًا-: إذا ظن الرجل أنه قد عَلِم فقد جَهِل[٦].

---

(١) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ٣٨ و٨٤ و٩٧).

(٢) مجموع فتاوى ابن باز (٧/٢٣٩).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١/١٦٦).

(٤) الطيوريات (٢/٥٨٧).

(٥) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/٢٨٠).

(٦) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقِتِهم السخيف (ص: ٢١٤).

وقد رأى رجلٌ مع الإمام أحمدَ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) مِحْبَرَةً، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغتَ هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين. فقال: مع المِحْبرة إلى المَقْبرة(١).

وقيل لبعضهم: مِن متى التعلم، وإلى متى؟ فقال: من المَهْد إلى اللَّحْد(٢).

٦. العلم إن أعطيتَه كُلَّك أعطاك بعضَه، وإن أعطيتَه بعضَك لم يُعطِك شيئًا.

وأهون منها: من لم يُسهِره العلم أياما أسهرَه الجهل أعوامًا.

وهذه العبارة تخاطِب نُخبة يتطلبون الكمالات، فلا يتكئ طويلب علم على هذه العبارة الداعيةِ لمعالي الطلب، فيدَع الطلب في أول سيرِه، فيَفتُرَ ويعجَز. وإنما العلم مواهبُ، كماء السماء ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

٧. ليس بعِلمٍ ما حَوَى القِمَطْرُ   ما العلم إلا ما وَعَاه الصَّدْرُ(٣)

يتردد هذا البيت كثيرًا، وفي معناه عبارات أخرى مُتوارِدة مُترادِفة، تَحثُّ على الحفظ، والحفظ أُعطيات من رب البريات، وليس معناه أن من لم يحفظ فلا يطلب العلم ولا يتعنَّى! لا وكلا! بل:

اليوم شيءٌ وَغدًا مثله   مِنْ نُخَبِ العلم التي تُلْتَقطْ
يُحصِّل المرء بها حِكْمَةً   وإنما السَّيْل اجْتِمَاع النُّقَطْ(٤)

بل في بعض الأحوال يكون الفهم مقدما على الحفظ. ومن أقوالهم المنصِفة في ذلك: حِفظ حَرْفَين خير من سَماع وِقْرَيْنِ، وفهْمُ حَرفين خير من حِفظ وِقْرين(٥).

٨. التزهيد في كتاب نفيس، عليه بعض الملحوظات، أو فيه محاذير، مع إمكان

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ٣٧).
(٢) نشر طي التعريف للوَصَابي الشافعي (ت ٧٨٦هـ) (ص: ٢١٤).
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه لأبي هلال العسكري (ص: ٦٧) والقِمَطْر: خزانةٌ لحفظ الكتب، بقَدر ما يَحمله الرجل.
(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي (٣٠٥/٢)وبغية الوعاة للسيوطي (١٤/١).
(٥) تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجي (ص: ٤١).

أن يقرأه المحترِز، ويُنهى عنه المبتدئ، كقولهم: تفسير الفخر الرازي فيه كل شيء إلا التفسير[١]!.

وهذه العبارة العائمة العائرة صَرَفت جَمعًا من طلبة العلم المتمكنين عن هذا الكنز، وزهَّدتهم فيه.

وقد نقل الصفدي نِسبتها لشيخه ابن تيمية، لكن النسبة فيها بُعد، بل لا تليق بمقامه؛ لأنه صاحب العدل والدقة في الوصف، والعبارة تنافي هذين، ويؤيده أن العبارة لا وجود لها في كتبه المطبوعة، كما أنه لم يتعرض للزمخشري -أيضًا- في مقدمة أصول التفسير.

وكذلك؛ فقد نُسبت تلك العبارة لأبي حيان الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) صاحب «البحر المحيط» ولكن عند الرجوع لموضعها، وُجد أنه نَقلها وما قالها، كما أنه إنما ساقها في مقام التفنيد، لا التأييد.

ولذا تأمل - أيها القارئ الحصيف - قول أبي حيان عن الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ): فإنه جمَعَ في كتابه **في التفسير** أشياء **كثيرة طويلة**، لا حاجة بها في علم التفسير. ولذلك حُكي عن بعض **المتطرِّفين** من العلماء أنه قال: فيه كل شيء إلا التفسير[٢].

وأما علي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) فقال مستنكِرًا للعبارة: ما الأمر كذا! إنما فيه مع التفسير كل شيء[٣].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ): هذه مبالغة! في الإنكار على ما هو الغرض، الذي امتاز به تفسيره، وهو نقل آراء الفلاسفة والمتكلمين، وحجج المعتزلة والأشاعرة[٤].

---

(١) من المواضع المؤثرة المتكررة في بضع مواضع من تفسيره طلَبُه الدعاء لولده. ومنها قول الفخر عن ابنه - رحمهما الله تعالى -: (وأنا أوصي من طالَعَ كتابي، واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية: أن يخص ولدي.فإني كنت أيضًا كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقي). تفسير الرازي (١٨/٥٢٣).

(٢) البحر المحيط في التفسير (١/٥٤٧).

(٣) الوافي بالوفيات (٤/١٧٩).

(٤) تفسير المنار (١١/٣٠٩).

وقال الشيخ محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٣هـ): وفي الحق؛ أنا لا أوافق هذا القائل؛ فإن فيه تفسيرًا كثيرًا(١).

وإليك هذه القصة البليغة، التي تشهد بقوة الحفاوة بتفسير الرازي:

كتب الملك المظفر الرسولي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٤هـ) بخطه في جزءٍ من تفسير فخر الدين الرازي ما نصه: طالعتُ هذا التفسير، من أوله إلى آخرهِ مطالعة محققة، ورأيتُ فيهِ نقصانًا كثيرًا، وجاءَني من الديار المصرية أربع نسخ، فرأيت فيها النقصان على حاله، فلم أَقنع بذلك، بل اعتقدتُ أنه من الناسخ فأرسلتُ رسولًا..فجاءَني بنسخة المصنف، وقد قُرئت عليهِ، فرأيتُ فيها النقصان على حاله.

فعلق مؤلف «العقود اللؤلؤية» ابن وهاس -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٢هـ) قائلًا: فانظر إلى هذه الهمة العالية، في مطالعة هذا التفسير الجامع للعلوم(٢).

ومما يدخل بالتزهيد الجانح: أن بعض طلبة العلم إذا استشير بشأن قراءة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه يقول: صعبةٌ عليك؛ ولا أنصح بها إلا للمتمكِّن!

فيقال: هذا تعميم ينبغي أن يُخصَّص؛ فهل يا ترى من صعوبة في «الكلم الطيب» أو «التحفة العراقية» أو «اقتضاء الصراط المستقيم» بل حتى جملة من مجلدات مجموع فتاواه لا تستدعي مزيد إفهام، ومنها: (١٠ - ١٤- ١٥- ١٦ - ١٧- ٢١ -٢٢ -٢٣ - ٢٤- ٢٥- ٢٦).

٩. العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطينِ(٣)

وهذه مجازَفة! أفيكون النحو وسواسَ الشياطين؟! أم بلاغة القرآن، أم تدبره؟!

١٠. من كانت له بداية مُحرِقة لم تكن له نهاية مُشرِقة!

نعم! العبارة مُلهِبة! وللجد محفِّزة، لكنها لا تناسب أكثر الناس، وهم مواهب وقدرات، وسيأتيك نبأ «علماء ما طلبوا العلم إلا على كِبَر»، ومع ذلك فقد أشرقت نهاياتهم أيما إشراق، والله هو الموفق، وهو الفتاح العليم، و﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

---

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص: ٧٥).
(٢) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (٢٣٤/١).
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٩٧/١).

فيقال لمن ليس من أهل تلك العبارة: ابدأ شيئًا فشيئًا، فإن لم تحترق بدايتك، فستُشرق نهايتك بقدر نيتك وقدرتك، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وإن لم تُحصِّل من العلم وابِلًا فَطَلٌّ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].



قال عبد الرحمن الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٤هـ): إن هذه الأوراق تَحُلُّ منا مَحَلَّ الأولاد.

[تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/ ١٩٨)].

١٣. جنون وفنون في لذَّات المتلذذين بغير العلم

اللذات متنوعة، وللناس فيما يعشقون مذاهب. فمنهم من يكافح لنَيل أعلى الرُّتب، ومنهم من يؤثِر العافية ويُخِلدُ إلى الأرض، على حد قول القائل:

لقد قنعتْ هِمَّتي بالخمو ... لِ وصَدَّت عن الرُّتَب العاليةْ
وما جهلتْ طعم طيب العُلا ... ولكنها تؤثر العافيةْ[١]

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فإن لذات النفوس أنواع، ومنهم من يلْتَذُّ بالشطرنج والنرد والقمار، حتى يُشغله ذلك عما هو أنفع له منه[٢].

وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): ويدل على تفاوت الهمم: أن في الناس من يسهر في سماع سمر، ولا يَسهل عليه السهر في سماع القرآن! والإنسان يُحشر ومعه تلك الهمة، فيعطَى على مقدار ما حصَّلت في الدنيا[٣].

وإذا خلا القلب من همة تُعلِيه، انحطَّ في أشغال تُهوِيه.

قال الإمام ابن باز -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): القلوب الخالية من العلوم النافعة تتقبَّل كل شيء، ويَعْلَق بها كل باطل، إلا من رحم الله[٤].

وحصَّلتُ ما أدركتُ من طول لذتي ... فلم أُلْفِه إلا كصفقة خاسرِ[٥]

وعلى من وَهَبه الله موهبةً يجِدُ فيها لذته، أن يستخدمها في مرضاة الله. فحينَها تتم اللذة، وإلا كانت وَبالًا عليه، كالموهوب صوتًا حسنًا، أو قدرة وقوة في ملذات الدنيا.

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٢/٣٣٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٩/١٣٠).
(٣) صيد الخاطر (ص: ٣٢١).
(٤) مجموع فتاوى ابن باز (٨/١٢٠).
(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/٣٣٢).

وعلى المتلذذ بصوت قارئ حسن الصوت أن يَلحظ هذا المَلحظ الذي أشار إليه ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) بقوله: الصوت إذا قوِيَ أسكر الروح، فتصير في لذة مطربة من غير تمييز.. فلا تقوم منفعته بتلك اللذة، بما يحصل من غَيبة العقل، التي صدَّت عن ذكر الله، وعن الصلاة، وأوقعت العداوة والبغضاء(١).

فيمَ يتلذذون؟

يتلذذون في مباحات، أو يُبالِغون فيها ويُكثِرون، أو ربما في مكروهات، أو في تُرَّهات، والمصيبة الكبرى فيمن يتلذذون بمحرَّمات.

تَغُرُّ حلاوات النفوس قلوبَها ... فتَستعْذِبُ اللذَّات وهْي حِمامُ(٢)

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ): طلبوا اللذة فأخطأوها، إنما اللذة هناك(٣).

وتأمل الحوارات الخاطفة الطريفة والغريبة الآتية:

قيل لمَلِكٍ: ما السرور؟ فقال: حِمىً ترعاه، وعدوّ تنعاه.

وقيل لورّاق: ما السرور؟ قال: جلود وأوراق، وحبر برّاق، وقلم مشّاق.

وقيل: لفتاة: ما السرور؟ فقالت؟ زوج يملأ قلبي جلالًا، وعيني جَمالًا، وفِنائي جِمالًا.

وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قوس مأطورة، وشرعة مشزورة، ونبال مطرورة.

وقيل لعاشق: ما السرور؟ فقال: لَقْيةٌ تَشفي من الفُرقة، واعتناق يداوي من الحُرقة(٤).

وهكذا يصِفون شهوات زائلات، وملذات متنوعات.

فهذا شاعر مِغوار يقارن بين لذتين:

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٥٩٤).

(٢) الشعور بالعَوَر للصفدي (ص: ٣٩).

(٣) الهم والحزن لابن أبي الدنيا (ص: ٩٩).

(٤) المحاسن والمساوئ لإبراهيم البيهقي (ص: ١٢٨).

لَسلُ السيوف وشقُّ الصُّفوف وخوضُ الحُتوف، وضربُ القُلَلْ
ألذّ من المسمِعاتِ القِيان وشُربُ المُدامة في يومِ طَلْ(١)

وذاك حمّال ألْويةٍ، للجيش جرَّار، يحكي لذته الوحيدة قائلًا:

ما لذة العيش إلا صوت مَعْمَعةٍ تُنال فيها المُنَى بالبِيض والأسَلِ(٢)

عجيب أمر هؤلاء الوالِهين العاشقين، حتى إنهم من عُظم عِشقهم لربما ألحقوا بطائفة المجانين، والجنون فنون. حتى قال أحد مجانينهم:

قالوا جُننتَ بمن تهوى فقلت لهم ما لذة العيش إلا للمجانينِ(٣)

وإليك الآن سَرْدًا لنماذج من المتلذذين بغير العلم، وبعض شأنهم:

١- عمر بن عبد العزيز الشطرنجي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٨هـ) لُقِّب بذلك؛ لغلَبَتها عليه(٤).

٢- الخليفة العباسي الراضي بالله -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٢هـ) خرج إلى النزهة، فأتى بستانًا مونِقًا مزهرًا، فقال لمن حضر: هل رأيتم منظرًا أحسن من هذا؟ فكلٌّ أثنى بما حضره، ووصف محاسنه، فقال الراضي: لعب الشطرنج أحسن من هذا، ومما وصفتم(٥).

٣- الملك ملكشاه السلجوقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٥هـ) كان مُولَعًا بالصيد الجائر، حتى إنه صاد بيده عشرة آلاف، حتى بنى من حوافر الحُمر وقرون الظِباء منارة، ولكنه ندم، فتصدق عن كل نسمة صادها بدينار، وقال: إني أخاف الله -تعالى- من إزهاق النفوس بغير مأكلة(٦).

---

(١) المنصف للسارق والمسروق منه لابن وكيع الضبي (ص: ٣٧٦).

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي (١٤٤/٣).

(٣) عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري (ص: ٢٨).

(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٦٧/٢٠) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٨٤/١٠).

ومن بليغ أبيات هذا الشطرنجي قوله:

فكن مستعدًا لداعي الفَنا فإن الذي هو آت قريبُ
يخاف على نفسه من يتوب فكيف ترى حال من لا يتوبُ

(٥) معجم الأدباء (٢٦٧٧/٦).

(٦) وفيات الأعيان (٢٨٣/٥) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٦٦/٥).

٤- ابن قُتُلْمِش الحاجب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٠هـ) كان مغرىً بالقمار والنرد، لا يكاد يفارقهما، إلا إذا لم يجد من يساعده على ذلك(١).

٥- الوزير تاج الدين ابن حنّا -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ) كان كثير الاقتناء للخيول الجياد(٢).

٦- الأمير محمد ابن ملك المغرب أبي فارس -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٥هـ) كان مُغرَما بالجواري، وكان أبوه يقول له: إياك والنساء. ويكرر ذلك في المجلس، حتى يُخجله، ولا يرتدع، وكان حدث له وَرْم في ركبتيه. فقُدِّر أن وفاته كانت بسبب كثرة الجماع(٣). ومثل هؤلاء كأن الشاعر يعنيهم:

ومن كان غير العشق يطلب لذّة ... فـذاك جـنـون والـجـنـون فـنـونُ(٤)

٧- نائب الشام طوغان السيفي تَغْري برَدَى -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) كان مُغْرَمًا باقتناء الخيول الجيدة، إلى الغاية ويُبالغ من أثمانها، ويَتغالَى في مدحه، حتى يصاب الفرس المذكور من عينيه(٥).

٨- الأمير خليل بن إبراهيم -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٦هـ) له ألف مملوك؛ لحمل طيور الصيد بين يديه(٦).

٩- الأمير حسن باشا الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٤هـ) كان مُغرمًا بنكاح النساء، ورُزق منهن نحو الخمسة وثمانين ولدًا(٧).

---

(١) فوات الوفيات (٣٧١/٣).

(٢) المقفى الكبير (٦١/٧).

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٨٨/٣) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥٩/٨).

(٤) مجمع الآداب في معجم الألقاب (١٩٦/٣).

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢/٤) والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (٢٥/٧).

(٦) الضوء اللامع (١٨٩/٣) .

فائدة: من لطائف المسائل أن الإمام مالك قال: لا يَقصُر الصلاةَ الصائد المتلذِّذ. انظر: البناية شرح الهداية (٣٦/٣).

(٧) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٦/٢). ومن الطرائف أن هذا الأمير حسن: كان إذا حضر أحد أولاده لديه يسأله عن اسمه. واتفق أنه مات أحدهم، فلم يعرفه حتى عرفوه له بوالدته، وقالوا له: هذا ابن فلانة.

وفي الـغـرامِ لَـذَّةٌ لـو سَلِمْت مـن الـهَـوانِ والـمَـلامِ والـنَّـوَى(١)

١٠- وهذا خيَّال يتعشق الركوب، فيقول:

من كان لا يعشق الأجياد والحَدَقَ ثم ادعـى لـذة الدنيا فما صـدقَ(٢)

١١- ومن الطرائف الغرائب أن أحد أمراء القرن الثامن كان مغرمًا بالرقص، حتى إنه كان يركب في الأمر المهم، فإذا نزل ليستريح قام يرقص، إلى أن يركب(٣).

١٢- ومن فساد القلوب التعلق بالغناء، ومما يذكر أن أحد أمراء الدولة الأموية بالأندلس كان مغرمًا بالنبيذ والغناء، فترك النبيذ؛ لبُغض أخيه للنبيذ، فقال أخوه: لو ترك الغناء لكمُل سروري. فقال: والله لا تركتُه حتى تترك الطيور تغريدَها(٤).

وأما جنون عُشاق الحِسان؛ فباب يطول ويَقبُح، وإليك أربعة أمثلة:

١٣- قيل لرجل يعشق قينة: لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها فقال: كيف لي إذ ذاك بلذة الخِلسة، ونيل المُسارَقة؟!(٥).

١٤- عاشق مجنون مُستهام بمحبوبته سوداء البشرة، ومن حُبها يقول:

أحـب لحُبها الـسـودان حتى أحـب لحُبها سُـودَ الـكـلابِ(٦)

١٥- رأى مجنون ليلى ذات يوم كلبًا، فمدَّ له من الإحسان ذيلًا، فلامُوه وعنفوه، فقال لهم:

دعـوني إنَّ عَـيـنـي رأتـــ ـه مــرة بـفـنـاء لـيـلـى(٧)

١٦- ورابع يقول:

أحببتُ مِن أجله مَن كان يشبهه وكلّ شيء من المعشوق معشوقُ(٨)

---

(١) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة (٢/٣٠).

(٢) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية - عمارة المذحجي اليمني (ت. ٥٦٩هـ) (ص: ٢٩٤).

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢/٣٧٣).

(٤) الوافي بالوفيات (١٨/٣١٧).

(٥) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص: ٦٨٨).

(٦) الوافي بالوفيات (١٩/٣٦٥).

(٧) التحبير لإيضاح معاني التيسير للصنعاني (١/٢٤٦).

(٨) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٣/٢٩٦).

الاعتبار بحال المتلذذين بالمباحات والمحرمات

والآن حنانَيكَ أيها القارئ الكريم: قبل أن تتَّهِم أو تتهكَّم بهؤلاء، وتتندَّر بهم، أو تَمقُتَ حالهم، لنعتبِر سويًا بمصير لذَّاتهم، وما أكثر العِبر، وما أقل الاعتبار، فمن العِبر ما يلي:

أ- لنعرِف ولنعتَرِف أن هؤلاء يتلذذون، وأنهم يُدافعون عن لذتهم، ويتعصبون لها، حتى لقد قال الإمام ابن تيمية: المتمكن من غلبةٍ ما، ولو في أمر خسيس، كالشطرنج والنرد، قد يَعرِض له منكوح ومطعوم فيَرفُضه؛ لما يَعتاضه من لذة الغلبة الوهمية[1]. وافطِن لقوله: «الوهمية»! فإنها من تحصيل اللذة الصادقة خُواء.

وقال الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): فالعالِم باللعب بالشطرنج -على خِسَّته-..ينطلق لسانه بذكر ما يَعلمه، وكل ذلك لفرط لذة العلم[2]. وافطن للعبارة الأخيرة؛ فهي مربط الفَرَس.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): من خُلق فيه قوة واستعداد لشيء، كانت لذته في استعمال تلك القوة فيه، فلذَّة من خُلقت منه قوة واستعداد للجماع استعمال قوته فيه.. ومن خُلقت فيه قوة الأكل والشرب، فلذَّتُه باستعمال قوَّته فيهما، ومن خُلقت فيه قوة العلم والمعرفة، فلذَّتُه باستعمال قوته، وصرفها إلى العلم[3].

ب- أن ثمت لذات محمودة غير العلم، وهي من معالي الأخلاق، ومكارمها، وقد لا ينالها، ولا يستطيعها حتى كبار العلماء، مثل الكرم، ومثل الشجاعة.

قال ابنُ القيِّم: الجواد من الخلق يَحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يعطيه[4].

---

(١) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص: ٤٣١).

(٢) إحياء علوم الدين (٣٠٨/٤).

(٣) الفوائد لابن القيم (ص: ٧٤).

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢٢٨/١).

وقال شيخه ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): النفوس الكريمة تفرح وتسر وتلتذُّ بالخير الذي يحصل منها إلى غيرها[١].

بل حتى الحيوانات تلْتذ بتلك اللذات المعنوية. قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ): اللذات الباطنة مستعلية على اللذات الحسية، وليس ذلك في العاقل فقط، بل وفي العُجْم من الحيوانات؛ فإن من كلاب الصيد ما يقنص الصيد على الجوع، ثم يمسكه على صاحبه، وربما حمله إليه. والإنسان، بل الحيوان يلتذُّ بالحمد والثناء، ويلتذ بالغلبة، ويلتذُّ بالإنعام والإحسان والرحمة أعظم من التذاذهِ بالأكل والشرب[٢].

ومن جميل المواقف أنه: جلس الإسكندر يومًا، فلم يسأله أحد حاجة، فقال لأصحابه: واللهِ ما أعُدُّ هذا اليوم من أيام عمري في ملكي. قيل: ولِمَ أيها المَلك؟! قال: لأن المُلك لا يوجد التلذذ به، إلا بالجود على السائل، وإغاثة الملهوف[٣].

ج- تفكَّرْ بين الفينة والأخرى في لذائذ هؤلاء الخلق، وقارِن بينها؛ فإن ذلك خليقٌ أن يجعلك تَقْدُر كل لذة قَدرها، وتتجلى لك حقائقها.

وقد اختصَرَ علينا هذا التفكرَ ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) فقال: فكرتُ فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد، وإن اختلفتْ طرُقُهم في تحصيله، رأيتُهم جميعهم إنما يَسْعَون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطرِبة، وهذا باللهو واللعب، فقلتُ: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده، ولم أرَ في جميع هذه الطرق طريقًا موصلة إليه إلا الإقبال على الله وحده، ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/٨٩) وبنحوه في منهاج السنة النبوية (٣/١٩٢).

(٢) الرد على المنطقيين (ص: ٤٣٢).

(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان - سبط ابن الجوزي (٢/٣٩٤).

(٤) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ١٥). وهذا الكلام التأملي قد نقله ابن القيم في الجواب الكافي (ص: ١٩٣) غير منسوب لقائله.

لـذَّة الحرِّ في اكتسابِ المعالي ... لا افتراشِ الدُّمى وحسوِ الكُمَيتِ[١]

وهذا الاختلاف يدعو للمراجعة والتعجب. فيا عجبًا لقوم يقادون بالحَكَمَةِ إلى الحِكْمَةِ، وإلى العلم بالسلاسل، وآخرين مهمِلِينَ بالعدل على الاسترسال في الشهوات[٢].

وهذا شاعر يُفطِّننا إلى حسرةٍ أخرى أشدُّ، فيقول:

مـا عجَبي مـن بـائعٍ دينه ... بـلـذة يـبـلـغ فـيـهـا هـواهُ
وإنـمـا أعـجـب مـن خـاسـر ... يـبـيـع أُخـراه بـدنـيـا سـواهُ[٣]

د- أن يَحمد الله مَن عافاه الله من لذائذ الحرام، وليَسَلِ الله الثبات حتى الممات، فلا ضمانَ ولا أمان حتى تفارق الروحُ الجسدَ.

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الخزي والعارُ
تبقى عواقب سوء في مَغَبَّتها ... لا خير في لـذة من بعدها النـارُ[٤]

قال ابن القيم: فلا تبِعْ لذة الأبد التي لا خطَرَ لها بلذة ساعة تنقلب آلامًا.. وتزول الشهوة، وتبقى الشِّقْوة[٥].

فـلـرُبَّ لـذةٍ ليلة قـد نلتُها ... وحـرامـهـا بـحـلالـهـا مـدفـوعُ[٦]

هـ- أن يندم الوالِغ في شيء من ذلك، وليتدارَك، وليتعوَّض باللذات الحقيقية الرفيعة. وليوقن أنه صحا من سَكْرته:

ما كـان ذاك العيش إلا سَكرة ... رحلتْ لـذاذَتُـهـا وحـلَّ خُمارها[٧]

(١) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة (٧٠/١).
(٢) قانون التأويل (ص: ٤١٤).
(٣) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب - المقّري (١٠٣/٤).
(٤) الغرباء للآجري (ص: ٦٨) ونُسِب البيتان لسفيان الثوري، وقيل لمسعر بن كدام.
(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٥١/٤).
(٦) المجالسة وجواهر العلم (٢٩٢/٧).
(٧) يتيمة الدهر (١٨٧/٢).

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): والبكاء ينبغي أن يكون على خَساسة الهِمم[١].

دع التشاغُلَ بالغِزلان والغَزَلِ يكفيك ما ضاع من أيامك الأُولِ[٢]

نعم؛ في الذنوب لذات، لكنها كما قال ابن رجب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ): وما في الذنوب من اللذات كما في الطعام الطيب المسموم من اللذة، فهي مغمورة بما فيه من المفسدة، ومؤثِرُ لذة الذنب كمؤثِر لذة الطعام المسموم[٣].

فمَن هجر اللذات نالَ المُنى ومن أكبَّ على اللذات عضَّ على اليدِ[٤]

وليُعلم أن الانهماك بهذه اللذات وإن كانت مباحات مَدعاة للأحزان والحسرات.

قال ابن القيم: ومما يدل على أن هذه اللذات ليست خيرات وسعادات وكمالًا؛ أن العقلاء من جميع الأمم مُطْبِقون على ذم من كانت هي نَهمته وشغله.. ومما يدل على ذلك أن القلب الذي قد وَجَّه قصده وإرادته إلى هذه اللذات، لا يزال مستغرقًا في الهموم والغموم والأحزان، وما يناله من اللذات -في جنب هذه الآلام- كقطرة في بحر[٥].

و- أن يوقِن المتلذذ بالعلم أنه في لذة أعظم من المتلذذين بالمباحات، ومن المتلذذين بالمحرمات، ولا ينبغي أن يُخالِجه شكٌ في هذا، ولكن الجهل بهذه اللذات الحقيقية قد يغطي العقل، فلا يستشعرها.

إنما القُنْية علم نافعٌ لا العِتاق الجُرْد والخُور الصَّهَبْ[٦]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): إنما يقع غلط أكثر

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٣١٣).
(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٥٢/٤).
(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (١٢٨/٢).
(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٥٨٩/٣).
(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٣٥/١).
(٦) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٣١٧) العِتاق أكرم الطير، وكأنها عتُقت أن تُصاد. والخُور الصهب: الإبل التي في شعرها حُمرة. انظر: مقاييس اللغة (٢٢٠/٤).

الناس؛ أنه قد أحسَّ بظاهر لذات أهل الفجور وذاقها، ولم يَذُق لذات أهل البر، ولم يَخْبُرها[١].

ومن نوادر أبيات ابن تيمية التي لا يعرفها أكثر الناس:

بِالْعلمِ يُحيى الله قلبًا مَيِّتًا يَسري كنورٍ ضاءَ حِين سطوعِهِ[٢]

الانهماك بالتلذُّذ لا يعني ترك التمتع بالمباحات:

من صفات طالب العلم النَّهِم التوازن في مطالبه واحتياجاته. ومن احتياجاته الترفيه عن النفس بالمزاحات والمباحات.

وقدوتنا في ذلك رسولنا ﷺ. ولما دخل نفَرٌ على زيد بن ثابت رضي الله عنه قالوا: حدِّثنا بعض حديث رسول الله ﷺ قال: وما أُحدثكم؟! كنت جارَه، وكان إذا نزل الوحي أرسل إليَّ، فكتبتُ الوحي، وكان إذا ذكَرْنا الآخرة ذكرَها معنا، وإذا ذكَرْنا الدنيا ذكرَها معنا، وإذا ذكَرْنا الطعام ذكرَه معنا، فكل هذا أحدثكم عنه؟! رواه الطبراني، وحسَّن إسنادَه الهيثمي[٣].

قال الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ): كان رسول الله ﷺ يَشرع الشيء على غير جهة التلذذ، ولكن على جهة الإحلال والاستِنان، ألا ترى أنه لَبِس حُلة كسرى التي اشتراها له الأنصاري، فخطب فيها، ثم نزل فوهبها لأسامة[٤].

وتأمل موقف ابن الجوزي مع زائريه من العوام؛ كيف يستثمر زيارتهم بتوظيفهم في حوائجه للكتابة والتأليف، ولعلهم من خاصة جلسائه، حيث يقول -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) عن الذين يكثرون زيارته، فيقطعونه عن التأليف والاطلاع: وبقيتُ معهم بين أمرين؛ إن أنكرت عليهم وقعت وحشة! وإن تقبلته منهم ضاع الزمان!.. فجعلت

---

(١) قاعدة المحبة(ص٢٥٠).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٣٣).

(٣) المعجم الأوسط (٨٦٩٧) والكبير للطبراني (٤٨٨٢) انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٧/٩).

(٤) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤٣٠/٤). والحديث رواه مسلم (٢٠٦٨).

من المستعد للقائهم: قَطْع الكاغِد، وبَرْي الأقلام، وحَزْم الدفاتر.. فأرصدتها لأوقات زيارتهم؛ لئلا يضيع شيء من وقتي(١).

وحتى التلذذ بالعلم والعبادة؛ قد يزيد عن حدِّه، فيَنقلب إلى ضدِّه، فيُهلك الجسم. وقد نهى ﷺ عن ذلك فقال: **اكْلَفُوا مِنْ الأَعْمَالِ ما تُطِيقُونَ**(٢).

وقد سبق معك قول الشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ) لما مزح في بيته، فقيل له: يا أبا عمرو وتمزح؟! قال: قُرَّاء داخل! وقراء خارج! نموت من الغم؟!(٣).

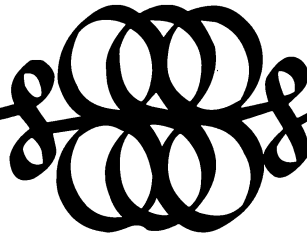
إذًا؛ فللنفس حظوظ، ولا بد من إجمامها، لا التزمُّت بزَمِّ زِمامها.

واعتبر بقول عمر ﷺ (ت ٢٣هـ): اللَّهُمَّ إنك ذكرتَ هذا المال فقلتَ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ اللَّهُمَّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيَّنتَ لنا، اللَّهُمَّ فاجعلني أُنفقه في حق، وأعوذ بك من شره(٤).

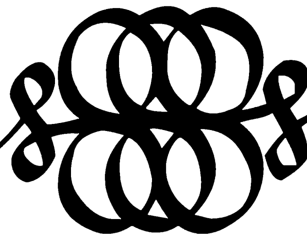


---

(١) صيد الخاطر (ص: ٢٤١). والكاغد: الورق.
(٢) صحيح البخاري (٦٤٦٥).
(٣) حلية الأولياء (٤/٣٢٤).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٧٨٢).



الباب الثالث:
مسائل ومفاضَلات متعلقة بالتلذُّذ بالعلم



١٤. أحكام فقهية متصلة بالتلذذ بالعلم

هذه الأحكام المبثوثة في كتب فقهاء المذاهب، تعطيك توثيقًا على توثيق أن المجتمع بأسْره، لا بد أن يُسانِده ويسايره العلم؛ ليُوليَه مكانته المَكينة، وأنه يُغتفَر لأجل سامِق مقصده نقائص ورذائل، لو استقلَّت لاستُقبِحت. فإليكَها مَسرودة مجرودة، عَريَّة من التعليقات:

١- ليس المَلَق من أخلاق المؤمن، إلا في طلب العلم[١].

٢- الفضول نعمة وحسنة؛ حين يوضعُ في موضعِهِ، كعشق العلم، والوصول للحقائق. وهو نقمة وسذاجة؛ حين يوضع في مواضع التطفّل، والأسئلة التي لا غاية تُرجى وراءَها.

٣- الشكوى كلها مذمومة إلا لثلاثة: طالب علم يشكو إلى عالم داء فهمه، وعليل يشكو إلى طبيب داء جسمه، وتائب يشكو إلى شيخه داء قلبه[٢].

٤- قال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): لو أن أهل كُورةٍ اجتمعوا على ترك طلب العلم، لرأيتُ للحاكم أن يُجبرهم على طلب العلم[٣].

٥- له الخروج لطلب العلم بدون إذن الوالدين، أما الأمرد فلا[٤].

٦- من فروض الكفاية: الاشتغال بعلم الطب، والفلك، ومنه: تعلُّم أدلة القبلة. قال النووي: المختار أنه إذا أراد سفرًا ففرض عين؛ لكثرة الاشتباه عليه، وإلا ففَرْض كفاية[٥].

٧- مَن تعذَّر عليه الجمع بين العلم والتكسب أعطي من الزكاة لحاجته[٦].

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٢٥/٤). والمَلَق هو: الود واللطف الشديد. انظر: العين (١٧٤/٥).
(٢) بتصرف من: المدخل لابن الحاج (١٣٤/٤).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (المقدمة/٢٠) والكُورة هي: القُرى المجتمعة.
(٤) بذل المجهود في حل سنن أبي داود (٣٧٧/١١).
(٥) المنثور في القواعد الفقهية (٣٥/٣).
(٦) كشاف القناع عن متن الإقناع (٢٧٣/٢).

٨- سئل ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) عمَّن ليس معه ما يَشتري كُتبًا يَشتغل فيها؟ فقال: يجوز أخذه من الزكاة؛ ليَشتريَ ما يحتاج إليه من كتب العلم، التي لا بدَّ[١] لمصلحة دينه ودنياه[٢].

٩- طالب علم مستحق للزكاة، ولكن عنده في مكتبته من كل تصنيف نسختان، فإنه يُعطى من الزكاة؛ لأن النسختين يَحتاج إليهما، لتصحيح كلٍ مِن الأخرى[٣].

١٠- طالب العلم إذا مات على طلبه؛ فحُكمه أنه شهيد في حُكم الآخرة[٤].

١١- «مضت السنة، بأن الشروع في العلم يلزم، كالشروع في الحج».

هذه العبارة المتينة لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيمية تحتاج لتفسير. ويُفسِّرها هو بقوله: فالمُرصِدون للعلم عليهم للأمة حفظ علم الدين وتبليغه؛ فإذا لم يُبَلِّغوهم علم الدين، أو ضيعوا حفظه؛ كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] فإن ضرر كتمانهم تعدَّى إلى البهائم وغيرها، فلعَنَهم اللاعنون، حتى البهائم، كما أن معلم الخير يستغفر له الحِيْتان في جوف البحر، والطير في جو السماء[٥].

١٢- الأَولى ترك السلام على من كان مشتغلًا برواية الحديث، ومذاكرة العلم[٦].

١٣- مذاكرة العلم في الطريق: كرِهَها بعضهم، والصحيح الجواز[٧].

١٤- نُهي عن التحلُّق قبيل صلاة الجمعة؛ لمذاكرة العلم، فأما في فجر يوم الجمعة فيجوز[٨].

---

(١) هكذا! بدون «منها».
(٢) الفروع وتصحيح الفروع (٢٩٧/٤).
(٣) فتح القدير للكمال ابن الهمام (١٦٣/٢).
(٤) تحفة المحتاج في شرح المنهاج (١٦٦/٣).
(٥) مجموع الفتاوى (١٨٦/٢٨ و١٨٧).
(٦) تفسير الرازي (٥٤٤/١) وتفسير الزمخشري(١٦٥/١٠).
(٧) فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٣٢/١).
(٨) بذل المجهود في حل سنن أبي داود (٩٤/٥).

١٥- يكره لمن صلى العشاء الآخرة أن يتحدث، وأما في مذاكرة العلم فلا كراهة فيه، بل هو مستحب(١).

١٦- الجدال في مذاكرة العلم لا نهي عنها. قاله ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد(٢).

١٧- قال ابن عقيل -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ): لا بأس بالمناظرة في مسائل الفقه، والاجتهاد في المساجد، إذا كان القصد طلب الحق، فإن كان مغالَبة ومنافَرة دخل في حِيِّز المُلاحاة(٣).



(١) الأذكار للنووي ت مستو (ص: ٥٧٤).
(٢) البحر المحيط في التفسير (٢/٢٨٠).
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/٣٨٢) .

فائدة: بعض الطلاب في مذاكرة العلم يقولون: من يخطئ بمسألة يطالَب بشراء كتاب لمن أصاب، فهل هذا جائز؟ قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: يجوز الرهان في مسائل العلم الشرعي؛ لأن الجهاد يكون إما بالعلم، وإما بالسلاح. لقاءات الباب المفتوح (٥٩/٢٦).

١٥. مسائل فقهية في المفاضلة

بين العلم الشرعي وفضائل الأعمال في مواسم الطاعات:

لعظيم مكانة طالب العلم؛ فقد طرح علمَاء المذاهب عنه مسائل، في العبادات والمعاملات والسلوك. وكلها قد رجحت كِفَّتها في صالحه، وجنحت جادَّتُها نحوه. فإليك بضعًا وعشرين مسألة فقهية، ولا يلزم أن تكون هي القول الراجح:

١- قال أبو هريرة رضي الله عنه (ت ٥٧هـ): لأنْ أعلم بابًا من العلم في أمر أو نهي، أحب إليَّ من سبعين غزوة في سبيل الله. فعلَّق عليه ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) بقوله: وهذا إن صح.. فيريد: علما يتعلَّمُه ويُعلِّمُه، فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة، وهذا لا يحصل في الغزو المجرد[١].

ويؤيده قول الزاهد الفقيه المالكي البهلول بن راشد -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٣هـ): ما أعمال البر كلها في الجهاد إلا كبَصقة في بحر، وما أعمال البر كلها والجهاد في طلب العلم إلا كبَصقة في بحر[٢].

٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ): مذاكرة العلم ساعة من الليل، خير من قيام ليلة[٣].

٣- رجل خرج في طلب العلم الشرعي بغير إذن والديه، فلا بأس به، ولا يكون عقوقًا إذا كان مُلْتحيًا[٤].

٤- رجل تعلم بعض القرآن، ثم وجد فراغًا، فتعلُّمه الفقه أفضل من تعلم باقي القرآن[٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/١١٨).

(٢) طبقات علماء إفريقية (ص: ٥٤) والبيان والتحصيل (١/٣٤٦).

(٣) المدخل إلى علم السنن للبيهقي ت عوامة (٢/٧٢٢).

(٤) الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار (ص: ٦٦٥) ودرر الحكام شرح غرر الأحكام (١/٣٢٣).

(٥) المحيط البرهاني في الفقه النعماني (٥/٣١٥).

٥- رجل تعلم علم الصلاة -مثلًا- ليُعلِّم الناس، وآخر ليَعمل به، فالأول أفضل؛ لأن منفعة تعليم الخلق أكثر(١).

٦- التصدق على العالم الفقير أفضل من غيره(٢).

٧- ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠] قال العلماء: الأَولى الصدقة على طلبة العلم الفقراء(٣).

٨- إذا دُعِيَ طالب علم لوليمة عرس، فلا يجب عليه الحضور إذا دُعِيَ معه طلبة، قد ظهر عليهم طلب العلم؛ لأجل الدنيا، والترفع على الأقران(٤).

٩- طالب العلم إذا مات على طلبه ولو على فراشه، فهو شهيد في حكم الآخرة فقط، فيُغَسَّل ويكفن، ويصلى عليه ويدفن، بل الموت في طلب العلم أولى بالشهادة ممن مات في الحج(٥).

١٠- المعتكف إذا خرج لطلب علم، فيبطل اعتكافه بذلك، إلا أن يشترطه(٦).

١١- إن سافر الزوج وجب عليه الرجوع لوطء زوجته، إلا إن كان سفره لعذر؛ كطلب علم؛ فلا يلزمه القدوم ولو طال السفر(٧).

١٢- رفع الأصوات في المسجد على وجهين؛ أحدهما: أن يكون بذكر الله، وقراءة القرآن، والمواعظ، وتعلم العلم وتعليمه، فما كان من ذلك لحاجة عموم أهل المسجد إليه؛ فهذا حَسَنٌ مأمور به(٨).

---

(١) درر الحكام شرح غرر الأحكام (٣٢٣/١).
(٢) الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار (ص: ١٣٨).
(٣) درر الحكام شرح غرر الأحكام (١٨٩/١).
(٤) كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار (ص: ٣٧٥).
(٥) انظر: تحفة المحتاج في شرح المنهاج (١٦٦/٣) وإعانة الطالبين (١٢٤/٢) وكشاف القناع (٤١٣/١).
(٦) الدلائل والإشارات على أخصر المختصرات (٥٩٧/١).
(٧) المصدر السابق (١٢٣/٣).
(٨) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٥٥٤/١) والآداب الشرعية والمنح المرعية (٣٨٢/٣).

١٣- من انقطع خبره؛ لطلب علم، فلا تُقسم تركته، بل يُنتظر به تتمة تسعين سنة منذ وُلد[١].

١٤- إذا خرج العالِم طالبًا لدرجة الفتوى، وفي البلد من يشتغل بالفتوى، فلا يجب عليه استئذان والديه[٢].

١٥- قوله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فيها إشارة إلى أنه يجب تعليم الكافر إذا طلب، وتعليم المؤمن أولى[٣].

١٦- من أراد أن يصوم تطوعًا، فأفطر لطلب العلم، قال أحمد: إذا احتاج إلى طلب العلم فهو أحب إليَّ[٤].

١٧- إذا تعذر الجمع بين طلب العلم والتكسب، فيُعطى من الزكاة، لا إن تفرغ للعبادة؛ لقصور نفعها[٥].

١٨- ليست السياحة من الإسلام في شيء، وأما السياحة لطلب العلم؛ فهي مطلوبة شرعًا[٦].

١٩- قيل للإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): أي شيء أحب إليك؛ أجلس بالليل أنسخ، أو أصلي تطوعًا؟ قال: نَسْخُك؛ تَعْلَمُ بها أمر دينك أحب[٧].

٢٠- وقيل له: رجل له خمس مئة درهم؛ ترى أن يصرفه في الغزو، أو يطلب العلم؟ قال: إذا كان جاهلًا يطلب العلم أحب إليَّ. وقال: عجبت لمن يتثبَّط[٨].

٢١- سئل الفقيه الحنفي محمد بن مقاتل المروزي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٦هـ) عن النظر في العلم؛ أهو أفضل أم الصلاة؟ قال: إن أمكنه أن يصلي بالليل، وينظر بالنهار

(١) غاية المنتهى في جمع الإقناع والمنتهى (١١٣/٢).
(٢) كفاية النبيه في شرح التنبيه (٣٦٨/١٦).
(٣) الكسب لمحمد بن الحسن (ص: ٦٦).
(٤) الفروع وتصحيح الفروع (٣٤٥/٢).
(٥) كشاف القناع عن متن الإقناع (٢٨٧/٢).
(٦) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٧١٧/١).
(٧) المجموع شرح المهذب (٢١/١).
(٨) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٤٠/٢).

في العلم فعل، وإن لم يمكنه النظر فيه إلا ليلًا، وكان له بذلك ذهن، ويعرف الزيادة في نفسه، فلينظر إلى العلم؛ فقد جاء في الأثر أن: مذاكرة العلم ساعة خير من إحياء ليلة(١).

٢٢- رجل تعلم بعض القرآن، ثم وجد فراغًا، فتعلُّم الفقه أفضل من تعلم باقي القرآن(٢).

٢٣- تعلُّم العلم بعد طلوع الفجر حتى تقام الصلاة، أولى من الاشتغال بالذكر. قال الفقيه المالكي ابن ناجي القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٧هـ): وهو الصواب، ولا سيما في زماننا اليوم؛ لقِلَّة الحاملين له على الحقيقة. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به بعد موته..**» فتعليم العلم مما يبقَى بعده(٣).

أمثلة لجلوسهم للعلم من بعد صلاة العشاء حتى أذان الفجر:

أ. قال عبد الله بن عمر ﭬ (ت ٧٣هـ): كان نبي الله ﷺ يحدثنا عن بني إسرائيل ليلةً حتى يصبح، ما يقوم فيها إلا إلى عُظْم صلاة(٤).

ب. أبو موسى ﭬ (ت ٤٢هـ) أتى عمرَ بنَ الخطاب ﭬ بعد العشاء، فقال: ما جاء بك؟ قال: الحديث. فتحدثنا حتى طلع الفجر، فقال له أبو موسى: الصلاة، قال عمر: أوَلَسنا في صلاة؟!(٥).

ج. علي بن أبي طالب ﭬ (ت ٤٠هـ) صلى إماما صلاة العشاء، وقعدوا يستفتونه، فلما كثُروا قال: ليَجلسْ كل نَفَر منكم في مجلس، ثم ليُلْقوا رجلًا منكم حاجتهم،

---

(١) عيون المسائل للسمرقندي الحنفي (ص: ٤٧٩).
(٢) المحيط البرهاني في الفقه النعماني (٣١٥/٥).
(٣) شرح ابن ناجي التنوخي على متن الرسالة (١٥٧/١) والحديث رواه مسلم (٤٣١٠).
(٤) سنن أبي داود (٣٦٦٥) وصححه ابن خزيمة (١٣٤٢) والإشبيلي في الأحكام الكبرى (٣١٣/١) .
(٥) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: ١١٧).

ثم يبعثوه إليَّ، فلمْ نَزَلْ نسأله ويُفتِينا، حتى أُذِّن بصلاة الصبح، فقال: قوموا، فأوتِروا؛ فإنا لم نُوتر[١].

د. كان كثير من التابعين، كالحارث بن يزيد العكلي، وابن شبرمة، والقعقاع بن يزيد، ومغيرة -رحمهم الله تعالى-: إذا صلوا العشاء الآخرة، جلسوا في الفقه، فلم يفرِّق بينهم إلا أذان الصبح[٢].

٢٤- أيهما أفضل: قراءة القرآن وصلاة الضحى، أم حضور مجلس العلم؟

الجواب: مجلس العلم أفضل. وطلب العلم أفضل من قيام الليل، ولهذا كان أبو هريرة يسهر في الليل، يتحفظ الأحاديث ولا يتهجد، فقال له الرسول ﷺ: **أوتِر قبل أن تنام**. ولم يقُل: اترك العلم وتهجد، وعلى هذا فطالب العلم في مناقشته ومراجعته ومذاكرته وتَحَفُّظه أفضل من القائم الصائم[٣].

٢٥- أيهما أفضل: التفرغ للدعوة إلى الله ﷻ أم التفرغ لطلب العلم؟

أجاب الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) قائلًا: طلب العلم أفضل وأولى، وبإمكان طالب العلم أن يدعو وهو يطلب العلم[٤].

ولكن الأمر كما قال الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): أرجو أن يكون كلانا على خير. قالها حين جاوَب به العمري العابد لما كتب إلى مالك، يَحضُّه على التعبُّد، ويَرغب به عن العلم، فكتب إليه مالك: إن الله ﷻ قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُب رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة، ولم يُفتح له في الصيام، وآخر فُتح له في الجهاد، ولم يُفتح له في الصلاة، ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فَتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، **وأرجو أن يكون كِلانا على خير**[٥].

---

(١) المصدر السابق (ص: ١١٧).
(٢) سنن الدارمي (٦٣٥) [تعليق المحقق]: إسناده صحيح.
(٣) انظر: لقاء الباب المفتوح (٢٠/١٠٢) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١٠٠).
(٤) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ٩٢).
(٥) سير أعلام النبلاء ط. الرسالة (١١٤/٨).

وعبارة «**أرجو أن يكون كِلانَا على خير**» عبارة متينة، كأنما خرجت من مشكاة النبوة، وهي تصلح أن تكون قاعدة منهجية في الإعذار، والترابط للتكامل العلمي.

٢٦- أيهما أفضل في رمضان؛ مذاكرة العلم، أم كثرة قراءة القرآن؟

فيها قولان للمالكية[١]. وروي القولان -أيضًا- عن مالك نفسه.

وثمت مسألة بارقة، هي بين ذوي العلم فارقة، ألا وهي أن عامَّة طلبة العلم في رمضان يقطعون وعظهم للناس، وتعليمهم، ويحتجُّون بأن الإمام مالك كان إذا دخل رمضان، يفر من قراءة الحديث، ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف[٢].

والعجيب أن مالكًا -كما سلف- له قول آخر بخلافه، ولكن اشتهر عند الناس قوله الأول.

فيقال: كما أن قراءة القرآن في رمضان عبادة؛ فإن تدريس العلم، وتأليف الكتب عبادة أيضًا. والتنوع في العبادات مطلب، وهو داخل تحت «الجود في رمضان».

والعلماء في هذا الباب على قسمين:

- فمنهم من يقول: رمضان شهر القرآن، وعصر الجمعة ساعة إجابة، فلا يشتغل المرء عن هذين بسائر الأعمال الصالحة[٣].
- ومنهم من أظهرت لنا كتاباتهم أنهم مشتغلون بالتصنيف، وبالتدريس، وبالإقراء، حتى في بعض أعصر الجمعة، بل يتلذذون بالعلم حين تتضيَّف الشمس للغروب، وفي جملةٍ من نهارات رمضان، بل في العشر الأواخر منها. وهم -مع ذلك- غير مفرطين بالختمات والصدقات[٤].

---

(١) الشامل في فقه الإمام مالك (١٤٩/١)، الذخيرة للقرافي (٤٠٨/٢).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ١٧١).

(٣) ومن القائلين بهذا الإمام ابن القيم، حيث يقول: والأفضل في العشر الأخير من رمضان، لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف، دون التصدي لمخالطة الناس، والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء. انظر: مدارج السالكين (١١٠/١).

(٤) جمعت -بحمد الله- بحثًا يشتمل على قائمة سبعة وسبعين، ممن ألَّفوا أو درَّسوا في رمضان، أو عصر الجمعة، أو بعد صلاة الجمعة. يسر طباعته؛ ليكون كتابًا يشتمل على لطائف من نظائره.

وقد بوّب الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»: يستحب للمحدِّث أن يجعل تحديثه في المسجد، وألا يُخلي يوم الجمعة من الإملاء في مسجد الجامع(١).

ولذا قيل للإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): إن رجلًا يُقرئ في المسجد، ويريد أن يعتكف، لعله أن يختم في كل يوم؟ فقال: إذا فعل هذا كان لنفسه، وإذا قعد في المسجد كان له ولغيره. يُقرئ أحب إليَّ(٢).

قال العلماء:مذاكرة العلم والعلماء مستحبة للمعتكف وغيره، وقد قال الله -تعالى-: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦] وقال رسول الله ﷺ عن المساجد: **إنما هي لذكر الله ﷻ والصلاة، وقراءة القرآن**(٣).

قال القاضي أبو يعلى -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ): لا يستحب للمعتكف أن ينقطع للاعتكاف عن الإقراء، فالإقراء أفضل من الاعتكاف؛ لأن منفعة ذلك تتعدى(٤).

بل إن من هو أعلم وأحرى بالاتباع، ألا هو ابن عباس ﭭ (ت ٦٨هـ) كان يجعل للتعليم قسطًا، حتى في عشر رمضان. فلقد كان يَغشَى الناس في رمضان، وهو أمير البصْرة: فما يَنقضي الشهر حتى يُفَقِّهَهم، وكان إذا كان آخر ليلة وعَظَهم(٥).

إنه علم ووعظ، مع اهتبال الإقبال على القرآن والدعاء.

فيا أيها الدعاة السَّراة: ألا فلتأتَسوا بالحَبر البحر.



(١) (٦٠/٢).

(٢) الكافي في فقه الإمام أحمد (٤٦٢/١).

(٣) الحاوي الكبير (٤٩٣/٣) الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز (ص: ٢١١). والحديث رواه مسلم (٢٨٥).

(٤) اختلاف الأئمة العلماء (٢٦٧/١).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٥/٧٣).

١٦. أيهما أولى بالتفضيل؛ الاشتغال بنوافل الطاعات، أم الانكباب على العلم؟

فيقال: العلماء مُتَضافِرون على القول بأن الانكباب على العلم أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات، وهو قول الأئمة الأربعة. والعلم هو الذي يتعدى نفعه، ويخلِّد صاحبَه.

ولا يختلفون أن الجمع بينهما بتوازن هو الفقه والتوفيق، وأن كل واحد منهما معين على الآخر.

قال أبو الخير التيناتي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٩هـ): عليكم بالمحاريب، والوقوف بين يدي الله؛ فإن الفوائد لا تؤخذ إلا من المحاريب[١].

لكن عند المزاحمة والاضطرار للتقديم؛ فالعِلْمَ العِلْمَ.

من لم يَرَ العلم أغلى ... من كل شيء يصابُ
فليس يفلح حتى ... يُحثى عليه الترابُ[٢]

وتأمل هذه المقارنة بين عمَلينِ جليلَين للفاروق عمر رضي الله عنه:

قارِن بين صدقة عمر بخيبر، وبين روايته حديث: «إنما الأعمال بالنيات» -وفي كلٍ خير- لكن أيُّهما الذي بقي نفعهُ إلى يومنا هذا؟! العلم أم المال؟!

قال ابن رجب الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ): وقد نص الأئمة الأربعة، على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة؛ فإن العلم مصباح يُستضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سار في طريق على غير مصباح لم يأمَنْ أن يقع في بئر بَوَارٍ؛ فيَعطَب[٣].

---

(١) الطيوريات (١٠١٣/٣).
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢٣٣/٢).
(٣) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ١٢٥).

ومن دلائل هذا التفضيل:

١. أن نفع العلم يعُمُّ المسلمين، والنوافل مختصة بالمتنفَّل.

٢. العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتعبدون بذلك.

٣. العابد تابع للعالِم، مقلِّد له في أحكام عبادته.

٤. العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها(١).

وقد طرح الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) نفس التساؤل الذي في هذا المبحث، فقال مُتسائلًا ومُجيبًا: هل طلب العلم أفضل، أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر؟ فأما مَن كان مخلصًا لله في طلب العلم، وذهنه جيد، فالعلم أولى، ولكن مع حظ من صلاة وتعبُّد، فإن رأيته مُجِدًّا في طلب العلم، لا حظَّ له في القربات، فهذا كسلان مَهين، وليس هو بصادق في حسن نيته، وأما مَن كان طلبُه الحديث والفقه غِيَّةً ومحبة نفسانية، فالعبادة في حقه أفضل، بل ما بينهما أفعلُ تفضيل(٢).

ومن الأمثلة المعاصرة الواقعية، والتطبيقات المطابقة الواقعة لهذه المسألة:

- تفويت الجنازة؛ لحضور درس علمي لا يمكن تَدارُكه.
- تأجيل العمرة؛ للمشاركة في دورة علمية.
- ترك قيام الليل أحيانًا؛ لمذاكرة علمية طويلة بعد العشاء.
- التأخر عن التبكير للمسجد؛ لمتابعة درس عن بُعد.
- مراجعة محفوظ علمي بين الأذان والإقامة.
- ترك السنن الرواتب لحاقًا لعالِم، أو إدراكًا لدرسه.

وإليك هذين الموقفين لإمامين؛ مالكي وشافعي:

١- قال عبد الله بن وهب -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ): كنت بين يدي مالك بن أنس، فوضعت ألواحي، وقمت إلى الصلاة، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضل من الذي تركته(٣).

---

(١) باختصار وتصرف من المجموع شرح المهذب للنووي (٢٢/١).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٦٧/٧).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٢٢/١).

إذًا: الاشتغال بالتعليم أفضل من نوافل الصلاة.

٢- كان المزني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ) يصلي بحضرة أصحابه وهم يتناظرون، فقالوا: إن اشتغالك بتعليمنا أفضل لك من الصلاة النافلة. قال: وكيف؟ قالوا: لأن تعليمك العلم يَعدُوك، وصلاتك لا تعدوك. فترَكَ الصلاة، وأقبل على تعليمهم[1].

بل حتى زمن العبادات يستحبون مذاكرة العلم والفتيا فيه.

ولذا فقد بوَّب البخاري: «باب السؤال والفتيا عند رمي الجمار». قال ابن حجر: مراده أن اشتغال العالِم بالطاعة لا يمنع من سؤاله عن العلم، ما لم يكن مستغرقًا فيها[2].

وقد كان الجمع والتفضيل بين العلم والعبادة قضية مؤرِّقة لبعض العلماء.

قال المؤرخ عفيف الدين اليافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٨هـ): ولقد وقع بي -في ابتداء اشتغالي بالعلم- خاطِران، ألقَيَاني في مجاذبتهما: أحدهما يجذبني إلى العلم؛ طلبًا لفضله، والآخر إلى العبادة؛ لوجود حلاوة فيها..واشتعل في باطني مثل النار في القريحة المحرورة؛ للمجاذبة المذكورة، ولم أستطع نوما ولا قرارًا، ثم حصلت والحمد لله إشارة أذهبت عني ذلك الاحتراق.. ومعي كتاب أطالعه ليلًا ونهارًا، ففتحته في ذلك الوقت، فرأيت فيه ورقة قابلَتني أول ما فتحته، ولم أرَها قبل ذلك مع طول ما طلبته، وفيها أبيات ما كنت سمعتها، وهي:

كن عن همومك معرضًا ... وكِلِ الأمور إلى القضا
ولرب أمر متعب ... لك في عواقبه رِضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا

فلما قرأتُها كأنما صُبَّ ماء على تلك النار، فردَّ ذلك الاحتراق، وذهبت تلك الأكدار، ثم استمريت في مدة يسيرة، بشيء من الأشغال، والاشتغال بالعلم[3].

وهذه المفاضلة تحتاج إلى توازُن، وفقه نفْس وحال، وإلا فأفضل التعبد العلم[4].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/٣٥٠).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/٢٢٣).

(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣/١٥٨).

(٤) ومن التوازن أن يَقضيَ العالِم وطالب العلم حوائج المسلمين التي لا تقطعه عن العلم كثيرًا. ومن الأمثلة=

وهذا التوازن قد يكون فيه حَيف وهوى، فلابد من استشارة أهل المشوار الطويل في هذا الباب، والله هو العاصم.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): مِن خفيّ مكايد الشيطان أن يزين في نفس الإنسان التعبد؛ ليُشغله عن أفضل التعبد، وهو العلم. وقال: ربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم والصلاة والحج والغزو(١).

فيا طالب العلم العاكف عليه: أنت في محراب العبادة والتبتل، ولذا قال العلماء: صرير القلم تسبيح، وكتابته تسبيح(٢).

فإذا قال قائل: أيهما أنفع لي؛ الانكباب على العلم، أم الإكثار من نوافل العبادات؟

فيقال: هذا فيه تفصيل أشار إليه أبو الوليد ابن رشد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٠هـ) بقوله: طلب العلم أفضل من الصلاة، لمن تُرجى إمامته، وكان من أهل الذكاء والفهم، والصلاة أفضل من طلب العلم لمن لا ترجى إمامته، إذا كان عنده منه ما يَلزمه في خاصة نفسه، من صفة وضوئه، وصلاته، وصيامه(٣).

وقد أكَّد هذا المعنى أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) فقال: فإن ظهرتْ رغبتك في تحصيل العلم النافع، ولم تُرِدْ به إلا وجه الله -تعالى- والدار الآخرة، فذلك أفضل من نوافل العبادات(٤).

ثم جاء الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) فبسَط الأمر ومثَّل عليه، فقال: إذا جاءنا طالب علم، وقال: إنني إذا صُمْتُ قصَّرت عن طلب العلم، وصار عندي

= أن الشيخ العلامة المصري أحمد المنيري -رحمه الله تعالى- (ت قبل ١٠٠٠هـ) كان كثيرًا ما يأتيه الفقير وهو يدرِّس، فيترك الدرس، ويقضي حاجته. ويقول: هذه ضرورة حاضرة، وضرورة الحاجة إلى العلم متراخية. انظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١١٧/٢).

(١) صيد الخاطر (ص: ١١٢ و١١٣).

(٢) الخامس والثلاثون من المشيخة البغدادية لأبي طاهر السلفي (ص: ٣١).

(٣) البيان والتحصيل(٣٣٩/١٧) و(٥٨٥/١٨).

(٤) بداية الهداية (ص: ٣٩).

ضعف وتعب، وإذا لم أصُم نشِطت على العلم، فهل الأفضل أن أصوم، أو أطلبَ العلم؟ نقول: الأفضل أن تطلب العلم(١).

وقال: رجل ليس عنده تلك القوة البدنية أو الشجاعة القلبية، لكنَّ عنده حِفظًا وفَهما واجتهادًا؛ فهذا طلب العلم في حقه أفضل. فإن تَساوَى الأمران، فإن من أهل العلم من رجَّح طلب العلم؛ لأنه أصل، ولأنه ينتفع به من كان حيًا، ومن يولد بعد(٢).

جمعوا بين لذَّتَي العلم والعبادة:

لقد كان السابقون الأولون يرتَعون بين جَنَّتَي ولذَّتَي العلم والعبادة، فمُقِلٌ ومُستكثر. والموازنة تتأكد في شأن المُقِلّ من أحدهما.

كان إسماعيل بن عياش -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ) يحيي الليل، وربما قطع ثم رجع، فسئل عن ذلك، فقال: أذكرُ الحديث في الباب، فأقطعُ الصلاة، وأعلِّقه(٣).

بل جعلوا العلم ذاتَه عبادة، يتقربون إلى الله بها.

قال سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ): لا أعلم من العبادة شيئًا أفضل من أن يُعَلِّم الناس العلم(٤).

وعند المقارنات يُقدَّم العلم غالبًا.

قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): رتَّب الله -تعالى- على هذه المعارف، والأحوال والطاعات، من لذات الآخرة وأفراحها بالنعيم الجثماني والروحاني.. وإن كثُرت طاعات أحدهم، وقلَّتْ معارف الآخر وأحواله؛ قُدِّم شرف العلم والأحوال على شرف الأعمال والأقوال(٥).

---

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٤٧٣/٦).
(٢) شرح رياض الصالحين (ص: ١٥٧٨).
(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٨٦/١).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٢٤/١).
(٥) الحبائك في أخبار الملائك (ص: ٢٢٧ و٢٣٠).

أمثلة على التلذذ بالتأليف وقت العبادة والنسك:

كانوا يختارون للعلم أوقاتًا أكثر وأطول، فأما انهماكُهم بالعلم في وقت سكون النفس والناس؛ فَبَابٌ يَطول ويَجمل. وخذ على ذلك سبعة أمثلة عجيبة، لمؤلفات فرغوا منها في مواسم عبادة ونسك وفرح:

١. الحافظ الِمزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ) انتهى من «تهذيب الكمال» في عيد الأضحى سنة (٧١٢هـ)[١]. حتى في العيد علم وتأليف!

٢. «تهذيب سنن أبي داود» لابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) مكث في تأليفه أربعة أشهر، وكان الفراغ منه في الحِجْر تحت الميزاب، وكان عُمُر ابن القيم إحدى وأربعين سنة[٢].

٣. «التمهيد في علم التجويد» قال مؤلفه ابن الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ): فرغت من تحريره آخر ثلث ساعة مضت من نزوله -تعالى-[٣].

٤. قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) في ختام «تهذيب التهذيب»: فرغتُ منه يوم النحر[٤].

٥. قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): فرغت من تبييض «الدر المنثور» يوم عيد الفطر سنة ٨٩٨هـ[٥].

٦. «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» لمؤلفه كاتب جلبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٧هـ) انتهى من تأليفه في ليلة القدر سنة ١٠٥٣هـ[٦].

---

(١) مقدمة تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٧٧/١).

(٢) تهذيب السنن لابن القيم (٥١٩/٤).

(٣) التمهيد في علم التجويد (ص: ٢٢٤).

(٤) تهذيب التهذيب (٤٩٣/١٢).

(٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٨٢٤/١٥).

(٦) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٤١٧/٥). وأما الجزم بأنها ليلة القدر ففيه نظر! لكن لعله قالها لأجل الاستفاضة لدى عموم المسلمين أنها ليلة سبع وعشرين.

٧. المقَّري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤١هـ) فرغ من كتابه «نفح الطيب» عشية ليلة السابع والعشرين لرمضان، بالقاهرة المحروسة[١].

الخلاصة المستفادة: أرأيتَ كيف يتعبَّدون الله بعبادة العلم في أشرف مواسم العبادة؟!

أرأيت كيف أن العلماء جعلوا العلم يستغرق أكثر الأوقات، حتى أوقات المواسم الفاضلة؟! وإذا رأيتَ تقريراتهم ثَمَّ؛ رأيت نعيما من العلم، والتذاذًا كبيرًا.

تنبيه مهم

لا يذهبنَّ وَهْلُك أن في ذلك تزهيدًا بنوافل العبادات، أو مَدعاة لتركها، بل من الفقه الموازنة والمفاضلة، ومن لم يكن له حظٌّ من ليل وقرآن وذِكر فيوشِك أن يتأخر، فيتبخَّر!

وقد بات رجلٌ ليلةً عند أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) فجاءه بالماء، فلما أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له وِرد من الليل![٢].

والمقصود حث طالب العلم؛ لتحصيل لذتَي العلم والعبادة معًا.

قال الزاهد أحمد بن أبي الحوَّاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٠هـ): لا يكون العبد تائبًا، حتى يتشعب له من الذكر الحلاوة والتلذذ، ثم بعد التلذذ الأنس[٣].

وقال ابن القيم: فإن الدرس والمذاكرة، كما أنه باب العلم؛ فالذكر باب المحبة، وشارِعها الأعظم، وصراطها الأقْوم[٤].

وأما المتلذِّذون الموَفقون المتفوِقون؛ فتجِدُهم قد جمعوا بين لذة العلم ولذة

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٥١٩/٧).

(٢) مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٧٣).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/١٠).

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٤٢).

العبادة، فصاروا علماءَ عُبّادًا بخفاء، وذلك الكمال المنشود. ولذا تراهم يتفكرون في أسرار وتدبرات الآيات وهم يصلُّون.

قال ابن القيم: التفكر في معاني القرآن، واستخراج كنوز العلم منه في الصلاة.. جَمع بين الصلاة والعلم، فهذا لونٌ، والتفاتُ الغافلين اللاهين وأفكارِهم لونٌ آخر(١).



(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٤٣/١).

١٧. هل اللذة بالعلم تتعارض مع الإخلاص والعمل؟

الإخلاص يحتاج لمجاهدة مستمرة، وهو في العلم أشق وأحق.

وما أجمل ردَّ الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) لما قيل له: كتبتَ الحديث بنية؟ فقال: شرط النية شديد، ولكن حُبِّبَ إليَّ فجمعته![١].

وتفسير كلام هذا الإمام خُذه من إمام آخر، ألا وهو الإمام ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى-حيث قال: من فعل هذا أو غيره، مما هو خير في نفسه؛ لما فيه من المحبة له، لا لله ولا لغيره من الشركاء فليس مذمومًا، بل قد يثاب بأنواع من الثواب، إما بزيادة فيها وفي أمثالها، فيتنعم بذلك في الدنيا، وقد يكون من فوائد ذلك وثوابه في الدنيا، أن يَهديَه الله إلى أن يتقرب بها إليه. وهو معنى قول بعضهم: طلبهم له نية. يعني نفس طلبه حَسن ينفعهم[٢].

وقال: وهذا قيل في العلم لخصوصيته؛ لأن العلم هو الدليل المرشد، فإذا طلبه بالمحبة، وحصَّله عرَّفه الإخلاص لله، والعمل له[٣].

فيا لله! ما أعظم فضل الله! وما أكثر بركة هذا العلم!

نعم؛ النية تتعكر، والقلب يتقلب، فيَطلب العلم مائلًا إليه ميلًا نفسيًا، ثم تصح النية مع المجاهدة. كما قال أحد الحفاظ تواضعًا:

وما ليَ فيه سوى أنني ... أراه هوى وافق المقصدا[٤]

وفي سيرة أحمد بن عميرة الضبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٧هـ) أنه رحل في طلب العلم إلى قرطبة ومالقة، ثم انصرف إلى وطنه، وظنَّ أن الناس عند دخوله سيعظِّمون

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (٢/٤٠).

(٢) كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي (١/٤١٢).

(٣) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة الخامسة (ص: ١٩٧).

(٤) إرشاد الساري للقسطلاني (١/٣).

العلم وأهله، وتخيَّل أنهم سيَلْقَونه على مسيرة يوم. قال ابن عميرة: فلما وصلتُ لم يَلْقَني أحد، ولا رأيت من الناس ما عهدتُ! فكان لي في ذلك موعظة، ورجعتُ إلى نفسي، فقلت: يا أحمد! فكأنك إنما رحلتَ في طلب العلم، وسهرتَ الليل؛ ليُعظِّمَك الناس؟! لقد خِبْتَ وضلَّ سعْيُك! فعكفتُ على ما ينفعني، ولزمتُ بيتي، ولم أتعرض لعرَض دنيوي، وسلكتُ سبل القوم؛ لعل الله أن يجعلني وبكتبهم انتفعت(١).

من أجل ذلك كان السلف وعلماء الخشية يتعاهدون نياتهم، ولا يَضمنون عند الله قبول دروسهم، ومؤلفاتهم، وطلبهم للعلم. فكانوا لخوفهم من الرياء، يدْعون ربهم خوفًا وطمعًا.

دعاء يردِّده العلماء:

دعاؤهم كثير، لحماية علمهم من الدَّغَل والدَّخَن.

وثمتَ جملة واحدة من الدعاء، عميقة المعنى، كانوا يردِّدونها في ختام مؤلفاتهم، فاحفظها وردِّدها كلما خالجَ نفسك دَخَنٌ من دَغَل الإرادات الشخصية، والحظوظ النفسية.

أتدري ما ذلكم الدعاء؟! إنه قول: **نسألُ اللهَ ألا يَجعلَ ما عَلِمْنا وَبَالًا علينا**(٢).

وقد أحصيتُ عَشَرةً من العلماء أثبتوه في ختام بعض مؤلفاتهم، وهم:

١. الترمذي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٩هـ) في «العِلل الصغير» (ص٧٦٣).

٢. والبشاري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٠هـ) في «أحسن التقاسيم» (ص٤٩٦).

٣. والقُشيري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٥هـ) في «الرسالة القشيرية» (٥٨٥/٢).

٤. والغزَالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) في «الاقتصاد في الاعتقاد» (ص١٣٨).

٥. والقَرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ) في «الفروق» (٣٠٤/٤).

٦. وابن فرْح -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٩هـ) في كتابه: «الإعلام» (ص١٠٣).

---

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص: ١٩٤).

(٢) هذا الدعاء - وإن كان غير وارد- إلا أنه يَجمل الدعاء به؛ لأنه مطلق، ولم يُتخذ سُنَّة راتبة، ولا محذور في ألفاظه. انظر للاستزادة: تصحيح الدعاء للشيخ بكر أبو زيد (ص:٤٢).

٧. وابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) في «بيان تلبيس الجهمية» (١٤٥/٢).

٨. وابن رجب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ) في «شرح العِلل» (٨٩٥/٢).

٩. والعِراقي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٦هـ) في «التقييد والإيضاح» (ص١٢).

١٠. وابن حَجَر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) في «بلوغ المرام» (ص٤٦).

ولقد كانوا يَبتهلون ويُصلُّون؛ أن يَهَبهم الله القبول في تعليمهم وتصنيفهم.

فهذا شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ): لا يتكلم في مسألة إلا قدَّم الاستعانة بالله ﷻ، وأخلص القصد في نصرة الحق، ولا صنَّف مسألة إلا بعد أن يصلي ركعتين[١].

ولذا كانوا يُتبِعون جديد التعلم بمزيد التعبد.

قال أبو قلابة -رحمه الله تعالى- (ت١٠٤هـ): إذا أحدث الله لك علما فأحدِث لله عبادة، ولا تكوننَّ إنما همُّك أن تُحدِّث به الناس[٢].

بل لقد كانوا يطلبون العلم للعمل. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت٥٩٧هـ): ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه؛ زلّت موعظته عن القلوب، كما يزل الماء عن الحجر. فلا تعِظَنّ إلا بنية، ولا تمشيَنّ إلا بنية، ولا تأكلَنّ لقمة إلا بنية[٣].

ومن جميل الأقوال قول أبي عمر المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢١هـ): الناس يقولون: لا عِلم إلا ما دخل مع صاحبه الحمَّام. وأنا أقول: لا عِلم إلا ما دخل مع صاحبه القبر[٤].

وإنما لم تَكثر رواية بعض العلماء العابدين؛ بسبب اشتغالهم بمقصد العلم، ألا وهو العمل. وهذا العابد الزاهد مُرَّة الطيِّب الهمْداني -رحمه الله تعالى- (نحو ٨١هـ) كان قليل الرواية في الحديث. فقال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) معلِّقًا ومعتذِرًا:

---

(١) طبقات الشافعيين (ص: ٤٢٧).

(٢) الطبقات الكبرى ط دار صادر (١٨٣/٧).

(٣) لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي (ص: ١٣).

(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٧٠/٤٣).

ما كان هذا الوليُّ يكاد يتفرغ؛ لنشر العلم، ولهذا لم تَكثر روايته، **وهل يُراد من العلم إلا ثمرتُه؟!**(١). حقًا: إنها عبارة تهزُّ القلب هزًّا.

وإنَّ فَنًا من العلم أنت به جاهل، خير من علم أنت عن العمل به ذاهِل. وكأين من فن يغنم كل فَيء، وليس هو من الآخرة في شيء(٢).

قال الفقيه عبد الرحمن بن قدامة -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٢هـ): وأنت تجِدُ الفقيه يتكلم في الظهار واللعان والسبق والرمي، ويفرِّع التفريعات التي تُمضي الدهور، ولا يحتاج إلى مسألة منها، ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يَحذر من الرياء، وهذا عليه فرض عين؛ لأن في إهماله هلاكَه(٣).

فالكمال والجمال هو الجمع بين العلم والعمل. وسعادة الإنسان مقسومة على اقتباس العلم، والتماس العمل، حتى يكون بأحدهما زارعًا، وبالآخر حاصدًا، ويكون بالأول تاجرًا، وبالآخر رابحًا(٤).

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): لا تأنَسْ بالعلم ما كنت مقصرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما(٥).

فليس العلم معلومات جامدة، ومقروءات، لا تنفخ في روحك المثابرة في عمل الخيرات.

قال السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) عن طائفة من المنتسبين للعلم، قد فرطوا في العمل: ومنهم طائفةٌ لا تترك الفرائض، ولكنَّها أحبَّت العلم والمناظرة، وأن يُقال: فلان اليوم فقيه البلد، حبًّا اختلط بعظمها ولحمها، فاستغرقت فيه أكثر أوقاتها، واستهانت بالنوافل، ونسيَتِ القرآن بعد حفظه، وشمخت بآنافِها مع ذلك، وقالت: نحن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧٤/٤).
(٢) أطواق الذهب في المواعظ والخطب للزمخشري (ص: ٢٤).
(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص٢٧).
(٤) الإمتاع والمؤانسة (ص ٣٤٠).
(٥) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص١٤).

العلماء. وإذا قامت لصلاة الفريضة، قامت أربعًا لا تذكر الله فيها إلَّا قليلًا، مزجت صلاتها بالفكر في باب الحيض، ودقائق الجنايات. وربَّما جاء ليقول: إيَّاك نعبد وإياك نستعين، فسبق لسانه إلى ما هو مفكِّر فيه من جزئيات الفروع، فنطقَ به. ثم إذا سألت واحدًا من هذه الطائفة: أصلَّيتَ سُنَّة الظهر؟ قال لك: قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. أو قلت له: أخشعتَ في صلاتك؟ قال: ليس الخشوع من شرائط صحة الصلاة. أو قلتَ له: أنسيتَ القرآن؟ قال لك: لم يَقُلْ إن نسيانه كبيرة إلَّا صاحب «العدة»[1].

فاحذر مسالك الحيل النفسية هذه، وعليك بالعلم المتعدي لا القاصر، واعقد عليه الخناصر.

قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كَلًّا على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كَلًّا، وأورث ذُلًّا، وصار في رقبة صاحبه غِلًّا[2].

فإياي وإياك أن نكون من الذين يكنزون ما هو أغلى من الذهب والفضة، ولا ينفقونها في نفوس عباد الله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): تجد بعض الناس قد أعطاه الله علما كثيرًا، لكنه بمنزلة الأمي، فلا يَظهر أثر العلم عليه.. ولم يَنتفع الناس بعلمه، لا بتدريس ولا بتوجيه، ولا بتأليف، بل هو منحصِر على نفسه، لم يبارك الله له في العلم! وهذا بلا شك حرمان عظيم، مع أن العلم من أبرْك ما يعطيه الله العبد. وقال: أنا لا أريد من طلبة العلم أن يكونوا نُسَخًا من كتب، ولكني أريد منهم أن يكونوا علماء عاملين[3].

أوَليس قد حكى الله لنا حال مخذول آتاه الله العلم بالوحي، ولكنه انسلخ منها

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم (ص: ٦٨).
(٢) معجم الأدباء (١٩٣٠/٥).
(٣) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١٨ و١٧٦).

وغوى! قال الله عنه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): معلِّقًا على الآية: لم يشأ -سبحانه- أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه.. فلو لم يكن عالما كان خيرًا له، وأخفَّ لعذابه(١).

وقال البقاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) معلِّقًا -أيضًا- على الآية: فلا يغتر أحد بما أوتي من المعارف، وما حاز من المفاخر واللطائف؛ فإن العبرة بالخواتيم(٢).

ومن الفقه الدقيق في باب النية استحضار جملة من النوايا في آنٍ واحد؛ ليَعظم الأجر، وينمو العلم.

وقد ذكر العلماء -مثلًا- في قضاء حاجة الإنسان، من النوايا نيفًا وسبعين خصلة، فإذا نواها حين خروجه للخلاء يحصل له نيِّف وسبعون حسنة(٣). وهذه - وإن كان فيها نوع تكلف ومبالغة- إلا أن المقصود هو استحضار نوايا متعددة.

ولقد كانوا يُخفون أعمالهم كما يُخفي المرء سيئاته، ويتعاهدون نياتهم.

قال أبو العالية -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠هـ): تعلمتُ الكتاب والقرآن، فما شعُر بي أهلي، ولا رئي المداد في ثوبي قط(٤).

وقال الزاهد بشر الحافي (ت ٢٢٧هـ): إن الرجل يتكلم بالكلمة من العلم؛ ليَصرِف بها وجوه الناس إليه، يهوِي بها في جهنم، فكيف بمن كان ذلك نيته من أول جلوسه إلى أن فرغ؟!(٥).

وهذا الفقيه النحوي أحمد بن علي الشعراوي (ت ٩٠٧هـ) صنف عدة مؤلفات، فنُهِبت مؤلفاته كلها، فلم يتغيَّر وقال: قد أَلَّفْناها لله، فلا علينا ألا يَنْسِبها الناس إلينا(٦).

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ١٠١).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦٠/٨).
(٣) لوامع الدرر في هتك أستار المختصر (٨٦/١).
(٤) تاريخ دمشق (١٧٤/١٨).
(٥) الطبقات الكبرى للشعراني (ص: ٣٩).
(٦) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١٤١/١).

ومن دقيق إخلاصهم أنهم كانوا لا يتكثرون بالمسائل وبالمصنفات، ولا يُقارِنون أنفسهم بغيرهم.

قال ابن القيم: مَن يُلهيه التكاثر بالعلم أسوأ حالًا عند الله ممن يُكاثر بالمال والجاه؛ فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها، وكاثَر بأسبابها(١).

وقال الذهبي: فإن تكثَّر بعلمه، أو قال: أنا أعلم من فلان، فبُعدًا له(٢).

وهذا العالم النحوي المغربي عيسى الجزولي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٠هـ) نُسب إليه كتاب «الجُمل». وكان من تجرُّده يقول: هي ليست من تصنيفي؛ لأني استفدتُها من شيخي ابن بري. وإنما نُسبتْ إليه؛ لأنه انفرد بترتيبها(٣).

ومن أعظم ما يحكى من المكارم التي لم نسمع لها أختًا: أن أبا غالب اللغوي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٦هـ) ألَّف كتابًا، فبذل له تاجر ألف دينار، ومركوبًا، وكساء، على أن يجعل الكتاب باسمه، فلم يقبل ذلك أبو غالب، وقال: كتاب ألَّفْتُه؛ لينتفع به الناس، وأخلد فيه همتي أجعل في صدره اسم غيري، وأصرف الفخر له؟! لا أفعل ذلك!. فلما بلغ هذا التاجر استحسن أنَفَتَه وهمته، وأضعف له العطاء، وقال: هو في حِل من أن يذكرني فيه؛ لا نَصُدُّه عن غرضه(٤).

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) معلِّقًا على القصة: فاعجبْ لهمة هذا الرئيس وعلُوِّها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها(٥).

إذًا: اثنان لا يجتمعان؛ ضعف المقصد مع لذة العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): العالِم لما لم يكن مقصوده إلا الدنيا بما علمه من العلم وبما يعلمه، وذلك مما يُبتغى به وجه الله، لم يكن

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٧١).
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٧/٧).
(٣) وفيات الأعيان (٤٨٩/٣) وشذرات الذهب لابن العماد (٢٥/٥).
(٤) فضائل الأندلس وأهلها (ص: ٣٢).
(٥) رسائل ابن حزم (١٨٢/٢).

له عند الله قيمة، ولم يكن للعلم في قلبه حلاوة، ولم يرتَعْ في رياض الجنة في الدنيا، وهي مجالس الذكر[١].

وبحسب تجرُّد النية تقوَى محبتك للعلم.

قال الحافظ الذهبي: فإن العلم قد يُحَبُّ محبة لا توصف، مع قطع نظر محب العلم عن الرياسة والمال..ويليه رجل طلب العلم محبة فيه، ممزوجة بشهوة رياسة، ونيته حسنة..فإن جاءه رزق وولاية فرح بها لشدة فاقته، وليتوسع من الدنيا، ويعمل غالبًا بما ينبغي، ويستغفر الله من تقصيره، فهذا داخل في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[٢].

ومن عميق إخلاصهم، وشدة افتقارهم، أنهم كانوا يهضِمون أنفسهم، ويَحقرونها في ذات الله. وخذ خمسة أمثلة:

١- دعا ابن عقيل -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) فقال: اللّٰهُمَّ توبة خالصة من هذه الأقذار، وقد جئتك بعد الخمسين، وأنا من خَلَق المَتاع، وأبَى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم[٣].

٢- قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): أفٍ لنفسي! وقد سَطرتُ عدة مجلدات في فنون العلوم، وما عبِق بها فضيلة، إن نُوظِرتُ، شمَختُ، وإن نُوصحتُ؛ تعجْرَفتُ، وإن لاحَتِ الدنيا سقطتُ عليها سقوط الغراب على الجِيَف[٤].

٣- قال ابن قيم الجوزية في هضم نفسه وذمها:

بُنيُّ أبي بكر جَهول بنفسه ... جهول بأمر الله أنَّى له العلمُ
بُنيُّ أبي بكر غدا متصدِّرًا ... يُعلِّم علما وهو ليس له علمُ
بُنيُّ أبي بكر وأمثاله غدَوا ... بفتواهمُ هذي الخَليقة تأتمُّ

(١) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة الخامسة (ص: ٢٦٦).
(٢) مسائل في طلب العلم للذهبي (ص٤٠).
(٣) صيد الخاطر (ص: ٤٧٦).
(٤) المصدر السابق (ص: ٤٧٥).

وليس لهم في العلم باعٌ ولا التُّقى ... ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهمُّ[١]

٤- فعارَضه ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) ذاما نفسَه فقال:

بُـنَـيٌّ عـلـيٍّ قـد تَـفـاقَـم وِزْرُه ... فليس على مَنْ خاض في عِرضِهِ وِزْرُ
بُنَـيُّ عليٍّ صـار مِـنْ بعدِ ذُلِّـهِ ... عزيزَ أُنـاسٍ دأبُـه الـبَـأْوُ والفَخْرُ
بُنَيُّ عليٍّ ما الذي ترتجيه مِنْ ... سوى الله هيهات انقضى الأمَلُ الغِرُّ
إلهي فما قابَلْتُ بالشُّكْر نِعْمَةً ... ولكني بجَهْلٍ لاحَ للنِّعَمِ الكُفْرُ[٢]

٥- المحدث الهندي الحنفي محمد عبد الحي اللكنوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٤هـ) قال في مقدمة كتابه «الفوائد البهية في تراجم الحنفية»: وليس غرَضي من ذلك أن يُدرَج اسمي في المؤلفين، ويشتهر ذكري في العالمين، بل مقصودي به وبسائر تصانيفي أن يُحصَّل العلم لمن لا يعلم، ويكون وسيلة لي إلى دار النِّعم[٣].

فاللَّهُمَّ علما نافعًا؛ يقرِّبُنا إليك، وعملًا صالحًا يكون شكرًا للنعمة؛ فإن العلم إذا لم يُدعَ به، ويُعمل به انقلب وبالًا، وصارت حلاوته نكدًا.

خبيئة خبيثةٌ

لكن ثمت خبيئة خبيثةٌ من تسويل الشيطان، وهي أن يقول قائل بأول الطريق: لماذا أطلب العلم، وأنا لم أعمل بما علمتُ، فيزداد إثمي، بتجميع علم لم أعمل به؟! هكذا يزعم!.

ولكن هذه الخبيئة لم تخفَ على أطباء القلوب.

ويكفي أن أُورِد لك كلاما نُورانيًا لأبي هريرة ﷺ (ت ٥٧هـ) حيث يقول: لأن أَخرج في شيء من طلب العلم، أريد صلاحي، وصلاح من أعود إليه، أحب إلي من صيامِ حولٍ، وقيام حولٍ؛ لأن الشيطان قال لابن آدم: ليتك تعمل، فيما علمتَ! فيبطِّئه عن

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر (٤/٣٦٩).
(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٢/٨٨٦).
(٣) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ٥) وانظر: الأعلام للزركلي (٦/١٨٧).

العلم، ولو كان يكتفى بعلم لاكتفى كليم الله، وعنده الألواح فيها تفصيل كل شيء، قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[١].

ثم إن كثيرًا من الأعمال قد يؤجر الإنسان على الدلالة عليها بعلمه، وإن لم يعملها بنفسه.

ولذا قال رسول الله ﷺ: **يا أبا ذر! لأن تغدو فتعْلَم بابًا من العلم، عُمِل به أو لم يُعمل، خير من أن تصلي ألف ركعة**[٢].

فإن كسلت عن العمل الصالح، فجاهد نفسك، وادعُ غيرك إليه، حتى وإن ضعفت عن بعض الصالحات.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه (ت ٣٢هـ): إني لآمركم بالأمر وما أفعله، ولكن لعل الله أن يأجُرَني فيه[٣].

والخلاصة أن يقال: اطلب العلم، فسيقودك للعمل إن صحَّت نيتك، واعلم أن طلَبَه عمل صالح بذاته. ودع عنك المثبطات.



(١) شعب الإيمان (٣/٢٣٧).
(٢) سنن ابن ماجه (٢١٩) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٥٥) والمناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٤٣١) والعزيزي في السراج المنير (٤/٣١١).
(٣) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص: ٤٤٥).

١٨. لذة الإيمان والعمل الصالح

بعضنا يلتذُّ بتحصيل العلم؛ لمجرد انكشاف المجهول، وحصول المعلوم، وهذة لذة دنيوية لا نفع فيها، ما لم تكن مسبوقة ومصحوبة بنية العمل والبذل.

والتلذُّذ بالعلم من لذَّات الجنة المعجلة، ولكن لا تجعله هوايتك، بل ليكن هدايتك.

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): لذة القلب بالعلم والإيمان أعظم اللذات، وحلاوة ذلك أعظم الحلاوات[١].

فلتكن النية في تحصيل العلم جامعةً بين التلذذ والتقرب إلى الرب -سبحانه-.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): ولما كان طلب العلم والبحث عنه، وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح، كان من أفضل الأعمال، ومنزلته من عمل الجوارح، كمنزلة أعمال القلب من الأعمال الظاهرة[٢].

فـ: «ما أحسن الإيمان بِزِينة العلم، وما أحسن العلم بزينة العمل»[٣].

أفللعمل لذة أيضًا؟

نعم؛ إي والله! ألستَ إذا صلّيت صلاة يحضر بها قلبك وتخشع جوارحك، تلتذّ بذلك غاية الالتذاذ؟! ولهذا قال النبي ﷺ: **جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصلاة**[٤].

قال سهل التستري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٣هـ): العلم أحد لذّات الدنيا، فإذا عُمل به صار للآخرة[٥].

---

(١) الاستقامة (٣٤٢/١) بتصرف يسير.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٧٨/١).

(٣) معجم ابن المقرئ (ص: ٣٤١).

(٤) السنن الكبرى للنسائي (٨٨٣٦) وصححه ابن حجر في فتح الباري (١٥/٣) وجوَّده ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣٩٦/٢).

(٥) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٢٩).

وفوات لذة العمل الصالح خسارة وحسرة كبيرة.

ولذا قال أبو سليمان الداراني -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٢هـ): لو لم يَبْكِ العاقل فيما بقي من عمره حتى يخرج من الدنيا؛ إلا على ما فاته من لذة طاعة الله ﷻ فيما مضى من عمره، لكان ينبغي له أن يُبكيه ذلك حتى يخرج من الدنيا(١).

والواجدون لذة العمل بالعلم زاهدون فيما يلهث الناس وراءه.

قال الفقيه الزرنوجي -رحمه الله تعالى- (بعد ٦٤٠هـ): من وجد لذة العلم والعمل به، قلَّما يَرغَبُ فيما عند الناس(٢).

وما أجمل تعليقة ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) حينما قال: فمن تنوعت أعماله المرضية لله، المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذَّذ بها في تلك الدار.. ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة..فليست لذةُ مَن ضرب في كل مرضاة الله بسهم، وأخذ منها بنصيب، كلذَّة من أنمَى سهمَه ونصيبَه في نوع واحد منها(٣).

وهذا الذي جعل إبراهيم بن أدهم -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٢هـ) يقول وهو يَغُطُّ كُسَيرات يابسات في النهر: لو علم الملوك وأبناء الملوك، ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالَدُونا بالسيوف(٤).

وهو -أيضًا- الذي جعل ابن بطة العكبَري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٧هـ) لما رجع من الرحلة لازَمَ بيته أربعين سنة، فلم يُرَ يوما منها في سوق، ولا رئيَ مفطرًا إلا في يوم الأضحى والفِطر(٥).

وإنما الغاية من تحصيل كل العلوم هي بلوغ لذة الإيمان بالله، وتحقيق العمل الصالح.

قال الله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (٣٧٤/٢).
(٢) تعليم المتعلم طريق التعلم (ص: ١٦).
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (٨٣/٢).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٦٦/٦).
(٥) تاريخ بغداد ت. بشار (١٠٠/١٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): الهدى يتضمن كمال القوة العلمية، ودين الحق يتضمن كمال القوة العملية[١].

وقال -أيضًا وما أجمل ما قال-: طالب الهدى يكون عنده شوق، وطلب وحرارة، حين يكون طالبًا، فإذا أتاه الهدى، وأحيا قلبه بحياة العلم والإيمان، رَوِيَ بذلك، ووجد له اللذة[٢].

هَبِينِيَ امْرأً قصَّرتُ في نَيل لذَّتي فحقَّيَ في الطاعات أوفى وأجْنَبُ[٣]

ولما تلهف أحد المتلذذين على بعض الشيوخ قال له عبد الله بن إدريس -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٢هـ): مهما فاتَكَ من العلم، فلا يفوتنَّك العمل[٤].

ولأجل هذا ارتفع مقام العاملين العالِمين، حتى بلغوا درجة الصِّدِّيقية، وضُوعِف أجرهم، حتى صارُوا كالشهداء.

ولابد للعالِم من العبادة، وللعابد من العلم.. كيف والعلم مقدِّمة للعمل؟! وصحة العمل متوقفة على العلم[٥].

فيا سامعًا ليس السماع بنافع إذا أنت لم تعمل بما أنت سامع[٦]

قال النجم الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦١هـ): فالناشئ في العلم والعبادة.. إنما ضوعف أجره؛ لثباته ورسوخه على الحق، منذ نشأته إلى آخر أمره، بخلاف غيره ممن لم ينشأ على ذلك، فتأمله! وروى الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **مَنْ جَاءَهُ أَجَلُهُ وَهُوَ يَطْلُبُ العِلْمَ، لَقِيَ اللهَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَه وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ إِلاَّ دَرَجَة النُّبُوَّةِ.. وهذه مرتبة الصِّدِّيقين؛ لأنها بين النبوة والشهادة**[٧].

(١) جامع المسائل (٥/٢٨٣).
(٢) جامع المسائل - المجموعة السادسة (١/٨٣).
(٣) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبِّي (ص: ٩٥).
(٤) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٤٥).
(٥) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٢/٦٧٥) والتنوير شرح الجامع الصغير (٧/٤٨٩).
(٦) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (١/٦١).
(٧) حسن التنبه لما ورد في التشبه (٤/١٢٠) وأما الحديث؛ ففي المعجم الأوسط للطبراني (٩٤٥٤) وقد ضعَّفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥١٥٦).

أقوال العلماء بشأن التأكيد على ضرورة العمل بالعلم:

١. سئل سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ): طلب العلم أحب إليك أو العمل؟ فقال: إنما يُراد العلم للعمل، لا تدَع طلب العلم؛ للعمل، ولا تدَع العمل؛ لطلب العلم[١].

٢. قال الزاهد بشر الحافي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٧هـ): يا طالب العلم؛ إنما أنت متلذذ، تسمع وتُملِي، إنما يُراد من العلم العمل، وإذا لم يُعمل به فتركه أفضل. وقال: إنما فُضِل العلم على غيره؛ ليُتَّقى به[٢].

٣. قال ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ): دخلت يوما على بعض الأشياخ، وعلى كُمِّي أوراق قد قيَّدتُها، وكراريس قد استحسنتُها، فقال لي: أراك تستكثِر منها! واعلم أنك لا تقيد حرفًا، ولا تضبط كلمة، إلا وأنت مطلوب على العمل بها، ويكون يوم القيامة حجة عليك، وأنَّى تطيق ذلك؟! فانظر لنفسك[٣].

٤. قال الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): السعادة في الدنيا والآخرة لا تُنال إلا بالعلم والعمل[٤].

٥. قال العالم الوزير ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ): يُحَصَّل العلم بثلاثة أشياء:

أحدها: العمل به، فإن من سأل عن المشكلات؛ ليعمل فيها بمقتضى الشرع تعلم.

والثاني: التعليم، فإنه إذا علَّم الناس كان أدعى إلى تعلُّمه.

الثالث: التصنيف، فإنه يُخرجه إلى البحث[٥].

وقال: لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله -سبحانه- أحبار أهل الكتاب[٦].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٢/٧).

(٢) المصدر السابق (٣٣٧/٨ و٣٤٠).

(٣) قانون التأويل (ص: ٦٦١).

(٤) معيار العلم في فن المنطق (ص: ٣٤٨).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (١٥٧/٢).

(٦) الفوائد لابن القيم (ص: ٣١).

٦. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): لقيتُ مشايخ، أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه. ولقيت عبد الوهاب الأنماطي، فكان على قانون السلف، وكنت إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى، واتصل بكاؤه، فكان -وأنا صغير السن حينئذ- يعمل بكاؤه في قلبي(١).

وقال: فاللهَ اللهَ في العمل بالعلم، فإنه الأصل الأكبر. والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة(٢).

٧. قال ابن القيم: فنعمة الله بالإسلام والإيمان، والتنعم بذكره، والتلذذ بطاعته هو أعظم النعم(٣).

فاعمل ولو بالعُشر كالزَّكاةِ ... تخرجْ بِنور العلم من ظلماتِ
فعالمٌ بِعِلْمِهِ لم يعملنْ ... معذَّب مِن قبلِ عُبَّاد الوَثَنْ(٤)

ولِسائل أن يتساءل: **كيف جمعوا بين العلم والعمل؟!**

فيقال: جمعوا بينهما بتوفيق الله، ثم بفعل الأسباب التالية:

١- التنشئة منذ الصغر على العبادة أولًا، قبل الخوض في غمار العلم ودقائقه ومُتونه.

قال سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ): كان الرجل إذا أراد أن يطلب العلم تعبَّد قبل ذلك عشرين سنة(٥).

وهذا القول العجيب، يلفت انتباهك إلى عنايتهم بغذاء القلوب، والاتصال بالله، قبل أن يسْعَوا في تحصيل المعارف وتدوين العلم، وإنما العلم ما قرَّب للرب.

---

(١) صيد الخاطر (ص: ١٥٨).
(٢) المصدر السابق (ص: ١٥٩).
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٦٤).
(٤) الزبد في الفقه الشافعي (ص: ٤).
(٥) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/٩٥) والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: ٥٤).

٢- المواظبة على العمل بالعلم، والمداومة على الأعمال الصالحة المرقِّية للدرجات العلا، وعدم تفويتها.

وقد كانت عائشة رضي الله عنها (ت ٥٨هـ) تصلي الضحى ثماني ركعات، ثم تقول: لو نُشِرَ لي أَبَوايَ ما تَركتُهن(١).

وقال بشر بن الحارث -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٧هـ) لأهل الحديث: أتؤدون زكاة الحديث؟ قالوا: وللحديث زكاة؟! قال: نعم؛ إذا سمعتم عملًا أو صلاة أو تسبيحًا استعمِلوه(٢).

٣- اللَّجَأُ إلى الله عند تعسُّر المسائل والعلوم، وكثرة الاستغفار.

وهذا ما يعبِّر عنه ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) بنفسه بقوله: إنه ليقِفُ خاطري في المسألة..التي تُشكِل عليَّ، فأستغفر الله -تعالى- ألف مرة، أو أكثر أو أقل، حتى ينشرِح الصدر، وينحلَّ إشكال ما أشكل، وقد أكون إذ ذاك في السوق، أو المسجد، أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار، إلى أن أنال مطلوبي(٣).

٤- مراقبة أعمال المَلِك! نعم الملك! ألا وهو القلب، الذي هو محطُّ نظَر الرب.

قال الله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: رفْعُ الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان؛ فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقلُّ عبادة منهم، وأرفع قدرًا في قلوب الأمة(٤).

وهذا أديب الفقهاء ابن قتيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ) يتجرد لَيوصَينا بهذه الوصية الذهبية، فيقول: وكان طالب العلم فيما مضى يسمع ليَعلم، ويعلم ليَعمل، ويتفقه في دين الله لينتفع وينفع، فقد صار طالب العلم الآن يَسمع ليَجمع، ويجمع ليُذكر، ويحفظ ليُغالِب ويَفخر(٥).

---

(١) موطأ مالك (٣٠).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨٥/١٠).

(٣) لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية (١٠٩/٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٨/١٦).

(٥) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة (ص: ١٨).

وذاك أبو حيان التوحيدي -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٠٠هـ) يعاتب طلبة العلم الجمَّاعين للمسائل للتكاثر، دون العناية بصلاح قلوبهم، فيقول بنبرة حادة: يتكلم أحدهم في مئة مسألة، ويُورِد مئة حُجّة، لا ترى عنده خشوعًا ولا رِقة، ولا تقوى ولا دمعة، وإن كثيرًا من الذين لا يكتبون ولا يقرؤون، ولا يحتجّون ولا يناظرون، ولا يُكرَمون ولا يُفضَّلون، خير من هذه الطائفة، وألين جانبًا، وأخشع قلبًا، وأتقى لله ﷻ وأذكَر للمعاد[1].

٥- اهتبال مواسم مضاعفة الحسنات، ومحاسبة النفس على التفريط فيها:

ولنكن كجمال الدين الشريشي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٥هـ) الذي قال: لما أتى شهر رمضان أردت أن أريح نفسي من كَدِّ المطالعة والتكرار، وأصرف هِمتي -إذ كنتُ كثير البَطالة- إلى المواظبة على نوافل الصلوات والأذكار، فحين شرعْتُ في ذلك وجدتُ في قلبي قسوة، ورأيت في صارم عزيمتي عن المَضاء فيها نَبْوة، وقُدْتُ نفسي إلى العبادة بزمام الحرص، فحرَنَتْ وما انقادت، فلما رأيتُ ذلك منها، علمتُ أن داءَها صار عُضالًا[2].



(١) الإمتاع والمؤانسة (ص: ١٠٨).
(٢) ذيل مرآة الزمان (٢٩٢/٤).

١٩. لذة رؤية الله والجنة

ألا وإن هاتين لأعظم لذّتين في الآخرة - فاللّهُمَّ بفضلك أنِلْنا إياهما-.

قال رسول الله ﷺ: **إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله -تبارك وتعالى-: تريدون شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهَنا؟ ألم تُدخلنا الجنة، وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم** (١) ﷻ.

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فما لذّتْ أعينهم بأعظم من لذّتها بالنظر إليه.. وكانت لذّته أعظم من كلّ لذّة. وقال: ورؤيته -سبحانه- هي أعلى مراتب نعيم الجنة. وقال: ولا نسبة لنعيمِ ما فى الجنة، إلى نعيم النظر إلى وجه الأعلى -سبحانه-(٢).

لكن ما مقدار لذة رؤية ربنا -تعالى - في الجنة؟

قال رسول الله ﷺ: **إن الناس يجلسون من الله يوم القيامة، على قدر رَواحهم إلى الجُمُعات، الأول والثاني والثالث**(٣).

قال ابن تيمية: هم في الرؤية على درجات، على حسب قُربهم من الله، ومعرفتهم به(٤).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): لذة النظر إلى الله بعد لقائه، بحسب قوة حبه وإرادته، وذلك بحسب العلم به، وبصفات كماله(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٧).
(٢) النبوات لابن تيمية (٣٤١/١) ومجموع الفتاوى (٤٨٥/٦) وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٣٣/١) بتصرف يسير.
(٣) سنن ابن ماجه (١٠٩٤) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٠/١) والبوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (١٣١/١).
(٤) مجموع الفتاوى (٤٨٥/٦).
(٥) مفتاح دار السعادة (٨٧/١).

لقد كانت هُجِّيرى الصالحين والعلماء العاملين اللهَج بتمنِّي رؤية الله في الآخرة.

ولما كان الحافظ عبد الغني المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ) في مرض الموت، قال له ابنه: هاهنا دواء قد عمِلناه تشربه؟ فقال: يا بُني ما بقي إلا الموت. فقال له: ما تشتهي شيئًا؟! قال: أشتهي النظر إلى وجه الله -تعالى-[١].

وقد نقل ابن القيم: أن أهل الشوق إلى لقاء الله، يَتحسَّون حلاوة القُرْب عند وروده أحلى من الشهد، فهم في أعظم لذة وحلاوة.

إذا اشتاقت الخيل المناهلَ أعرضَتْ   عن الماء فاشتاقتْ إليها المناهلُ[٢]

ولما قدم غائب من السفر فرح به أهله وأقاربه، وقعدت عجوز تبكي. فقيل لها: ما يبكيك؟ فقالت: ذكَّرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله ﷻ[٣].

وأكثر الخلق لا يفهمون لذة النظر إلى وجه الله ﷻ، وإنما إيمانهم بذلك من حيث النطق باللسان، فأما بواطنهم فإنها مائلة إلى التلذذ بلقاء الحور العين، ومصدِّقة به فقط[٤].

قال الزاهد أبو يزيد البَسطامي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦١هـ): نظرتُ فإذا الناس في الدنيا متلذِّذون بالنكاح والطعام والشراب، وفي الآخرة بالمنكوح والملذوذ، فجعلتُ لَذتي في الدنيا ذكر الله، وفي الآخرة النظر إلى الله ﷻ[٥].

ومن عجائب التلذُّذات في الجنة التلذذ بذِكر الله -تعالى-؛ فإنهم يُلْهَمونه كما يُلهَمون النفَس، وقولهم عند دخول الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

قال بعض العلماء: هذا الحمد على طريق التلذُّذ، لا التكليف؛ لانتهائه بالآخرة[٦].

---

(١) طبقات الحفاظ للذهبي (١١٦/٤) طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي (١٥٥/٤).
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٥٥/٣).
(٣) المرجع السابق (٥٥/٣).
(٤) المقصد الأسنى (ص: ٨٤).
(٥) صفة الصفوة (٣٠٧/٢).
(٦) بيان المعاني (٣٩٣/٢).

وقد وصف الله -تعالى- لذة شراب أهل الجنة فقال: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦] ووصفُها بلذة؛ إما للمبالغة، فكأنها نفس اللذة، أو لأنها تأنيث اللَّذ، بمعنى اللذيذ(١).

ألا إن المتلذِّذين بالعِلْمِ ينتقلون من أطيب لذّات الدنيا إلى أطيب لذّات الآخرة.

وقد رئي محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) في المنام فقيل: يا أبا عبد الله! إلامَ صِرتَ؟ قال: قال لي ربي: إني لم أجعلك وِعاء للعلم، وأنا أريد أن أعذبك(٢).

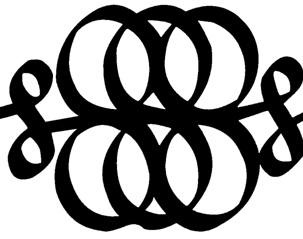


قال الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ): من اشتغل بالعلم فقد خاض في جنة حاضرة، فكل من اختار العلم يقال له: تعودتَ المقام في الجنة، فادخل الجنة.

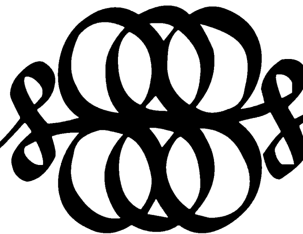
[تفسير الرازي (٢/ ٤٠٥)].

(١) تفسير أبي السعود (٧/١٩١).

(٢) الموطأ - رواية محمد بن الحسن (١/٣٦).



الباب الرابع:
نماذج المتلذِّذِين بالعلم رغم المُلْهِيات



٢٠. نماذج لخلفاء وملوك وأمراء ووزراء تلذَّذوا بالعلم:

هذا العلم مَواهب من الرب الواهب. قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): إنما العلم مواهب، يؤتيه الله مَن أحب مِن خلقه، وليس يناله أحد بالحسَب، ولو كان لعلةِ الحسب لكان أولى الناس به أهل بيت النبي ﷺ[١].

فالعِلم ليس حِكرًا على أحد دون أحد، وإنما كما قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ):

والعلم يدخل قلب كل موفقٍ ... من غير أبواب ولا استئذانِ
ويردُّه المحروم من خذلانه ... لا تُشْقِنا اللَّهُمَّ بالحرمانِ[٢]

ثم إن العلم شرف، يريد أن يتشرَّف به كل أحد، فلا يَرضَى أحد أن يقال له: يا جاهل.

قال علي رضي الله عنه (ت ٤٠هـ): كفى بالعلم شرفًا أن يدَّعيَه مَن لا يُحسنه، ويفرح إذا نسب إليه[٣].

قال الأمير الشيخ صدِّيق حسن خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ): لا ترى أحدًا من الولاة الجهال إلا يَتَمنَّون: أن يكون عزهم كعز أهل العلم، إلا أن الموانع البهيمية تمنع عن نَيله[٤].

فالعلم مُطَّلب الملوك والجهال والوجهاء؛ لأنه لذة من اللذات المعنوية، وجاهٌ ووجاهةٌ.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٠/٣٩٣) وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/٧٤ و٣٢٣).
(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ١٦٥).
(٣) اللطائف والظرائف للثعالبي (ص: ٤٨).
(٤) أبجد العلوم (ص: ٦٥).

قيل لأبي جعفر المنصور -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٨هـ): هل من لذات الدنيا شيء لم تَنَلْهُ؟ قال: بقيتْ خصلة؛ أن أقعد في مصطَبَّة، وحولي أصحاب الحديث، فيقول المستملي: مَن ذكرت رحمك الله؟ فغدا عليه الندماء، وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر، فقال: لستم هم، إنما هم الدنِسة ثيابهم، المتشقِّقة أرجلهم، الطويلة شعورهم، بُرُدِ الآفاق، ونَقَلة الحديث(١).

ألْهَى عن العلم أقواما تَطَلُّبُهم ... لـذات دنيا غَـدَوا منها على غَـرَرِ(٢)

أرأيت كيف يتمنى أهل الوجاهة والأبَّهة لذة أهل العلم؟!

قال المأمون -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٨هـ): ما طلبتْ مني نفسي شيئًا إلا وقد نالتْهُ، ما خلا هذا الحديث، فإني كنت أحب أن أقعد على كرسي، ويقال لي: من حدثك؟ فأقول: حدثني فلان. قيل له: يا أمير المؤمنين؛ فلِمَ لا تحدِّث؟ قال: لا يَصلح المُلك والخلافة مع الحديث(٣).

ودخل أحد الخلفاء المسجد الحرام، فرأى أصحاب الحديث يمشون خلف رجل من المحدثين، ملازمين له، فالتفتَ إلى مَن معه، فقال: لأنْ يطأَ هؤلاء عَقِبي كان أحب إليَّ من الخلافة(٤).

ولذا تجِد أصحاب المناصب والجاه، الذين عندهم أثارة من علم، يأنَسون بالعلماء في مجالسهم، ويَطرَبون لتَباحُث مسائل العلم.

قال الأحنف بن قيس -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧هـ): رأس مروءة الوالي خصالٌ ثلاثٌ؛ حُبُّ العلم والعلماء..(٥).

وإليك شاهدًا على أن الملوك والأمراء يأنسون بالعلماء في مجالسهم:

قال أبو بكر بن عبد الرحمن -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤هـ): سمعت أبا هريرة ﷺ

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢/٣٣٠).
(٢) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (ص: ٤٠٦).
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/١٤٠).
(٤) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٠٢).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤/٣٤٧).

يقصُّ، يقول في قصصه: من أدركه الفجر جُنُبًا فلا يَصُم.. فسألت عائشة وأم سلمة عن ذلك، فكلتاهما قالت: كان النبي ﷺ يصبح جنبًا من غير حُلم، ثم يصوم. فانطلقنا، حتى دخلنا على مروان، فذكرنا ذلك له. فقال مروان: عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة، فرددت عليه ما يقول. فجئنا أبا هريرة، فقال أبو هريرة: أهما قالتاه لك؟ قال: نعم. قال: هما أعلم[١].

قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): في هذا الحديث دخول الفقهاء على السلطان، ومذاكرتهم له بالعلم، وفيه ما كان عليه مروان من الاهتبال بالعلم، مع ما كان فيه من الدنيا[٢].

هل يكون المرء مشغولًا بلهوِه أو بجاهه، ثم يتحول متلذذًا بالعلم؟!

نعم واللهِ؛ فإنه قد يكون سادرًا في غيّه، ثم يبعثه الله من مرقده، كما بعث أهل الكهف من مرقدهم، وأيقظهم من سُباتهم، أو يكون جاهلًا منهمكًا في تحصيل معاشه، لا يلوِي على شيء من العلم، ثم يقذف الله في قلبه حب العلم، والتلذذ به، فينتفع ويرتفع.

جهلتُ العلم في زمن التَّصَابي ودمتُ على البطالة والتَّوَاني[٣]

وإليك عشرةً من النماذج مؤكِّدة، والقصص المحفزة، لمن يزعم أن قطار العلم فاته، ولمن يتحسر على ضياع عمره:

١. أبو عِقال غَلْبُون بن الحَسَن -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) نشأ ماجنًا خليعًا، ثم أقبل على العلم والتعليم، والإفتاء، والعبادة، واستقر بمكة، ومات ساجدًا خلف المقام أثناء التراويح[٤].

---

(١) صحيح البخاري (١٩٣١) وصحيح مسلم واللفظ له (٢٦٤٥).
(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٢/٤٠).
(٣) تاريخ إربل (١/٢٧٧).
(٤) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (١/٥٢٧) وذيل طبقات الحنابلة (٥/٧٧).

٢. أبو طالب الكرخي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٥هـ) كان يضرب بالعود، فبرع حتى صار يُضرب به المثل، ثم تركه وأقبل على العلم، فسادَ وأفاد[١].

٣. أبو الطاهر الجابري الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٣هـ) كان أول أمره شَرابيًا يعمل الشراب، ثم انتهت به الحال، إلى أن صار شيخ الديار المصرية[٢].

٤. أحمد بن إبراهيم القنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) اشتغل برعي الغنم، ثم اشتغل بالعلم وهو ابن ثلاثين، وتفقه، وقرأ النحو وغيره، حتى شغل الناس ببلده، وكان ذكيًا، يحفظ أربع مئة سطر في يوم واحد[٣].

٥. ابن الخطيب القطيعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٩هـ) اشتغل في أول عمره في الشؤون الكتابية للأمير، ثم ترك ذلك، وأقبل على العلم، ولازَمه مطالعةً وكتابةً، وتصنيفًا وتدريسًا.

٦. إبراهيم ابن أيبك الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ) أخو صلاح الدين المؤرخ المشهور، مضت عليه برهة مشغولًا باللعب، غير منقلب إلى العلم، ثم أقبل إقبالًا كليًا على الطلب، لما بلغ ثلاثًا وعشرين سنة[٤].

٧. ابن الرسام الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) كان أبوه جنديًا، ونشأ هو فتعلم الرسم على القماش، ثم رغَّبه الشيخ النجم الصفدي في الاشتغال بالعلم، فاشتغل وحفظ «التعجيز» وتفقه[٥].

٨. شيخ الإسلام محمد بن عِراق القاياتي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣٣هـ) كان لاهيًا بالتنعم، وغافلًا بالصيد، وبالشطرنج والنرْد، وقد انفرد بالفروسية، ثم انقطع إلى العلم، حتى صار يلقب بـ«شيخ الإسلام»[٦].

---

(١) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٣٢٧).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤٩/٨) وتوضيح المشتبه (١٢٧/٢).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٩٥/١).
(٤) الوافي بالوفيات (٢١٦/٥).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٢٤/٤).
(٦) الأعلام للزركلي (٢٩٠/٦).

٩. مخلوف البلبالي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤١هـ) اشتغل بالعلم على كِبَر، وترك التجارة، وحفِظ «صحيح البخاري»[1].

١٠. وإليك هذه القصة العجيبة العاشرة، المحفزة لمواصلة طلب العلم، وقد ساقها ابن بطال -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ) بإسناده، فقال: قال يحيى بن يحيى الليثي: أول ما حدثني مالك بن أنس، في أول يوم جلست إليه قال لي: يا يحيى، اللهَ اللهَ، عليك بالجدِّ في هذا الأمر، وسأحدثك في ذلك بحديث يرغِّبك فيه، ويزهِّدك في غيره. قال: قدم المدينة غلام من أهل الشام بحداثة سِنِّك، فكان معنا يجتهد ويطلب، حتى نزل به الموت، فلقد رأيت على جنازته شيئًا لم أرَ مثله على أحد من أهل بلدنا، لا طالب ولا عالم، فرأيت جميع العلماء يزدحمون على نعشه، فلما رأى ذلك الأمير أمسك عن الصلاة عليه، وقال: قدِّموا منكم من أحببتم، فقدَّم أهل العلم ربيعة، فألحده في قبره ربيعة، وزيد بن أسلم، ويحيى بن سعيد، وابن شهاب، وصفوان بن سليم، وأبو حازم وأشباههم، وكلهم يناولونه اللَّبِن. قال مالك: فلما كان اليوم الثالث من يوم دفنه، رآه رجل من خيار أهل بلدنا، في أحسن صورة غلام أمرد، وعليه بياض، متعمم بعمامة خضراء، وتحته فرس أشهب، نازل من السماء، وهو يقول: هذا بَلَّغني إليه العلم. فقال له الرجل: وما الذي بلَّغك إليه؟ فقال: أعطاني الله بكل باب تعلمته من العلم درجة في الجنة، فلم تبلغ بي الدرجات إلى درجة أهل العلم، فقال الله تعالى: زِيدوا ورثة أنبيائي، فقد ضمنتُ على نفسي أنه: من مات وهو عالم أو طالب لذلك أن أجمعهم في درجة واحدة.. وليس بيني وبين رسول الله ﷺ إلا درجتان، درجة هو فيها جالس وحوله النبيون كلهم، ودرجة فيها جميع أصحابه، وجميع أصحاب النبيين الذين اتبعوهم، ودرجة مَن بعدهم، فيها جميع أهل العلم وطلبته، فسيَّرني حتى استوسطتُهم فقالوا لي: مرحبًا، مرحبًا! سوى ما لي عند الله من المزيد. فقال له الرجل: ومالَكَ عند الله من المزيد؟ فقال: وعدَني أن يحشر النبيين كلهم، كما رأيتهم في زمرة واحدة.. ليرى عبادي كرامتكم عليَّ،

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٦٠٨).

ومنزلتكم عندي. فلما أصبح الرجل حدَّث أهل العلم، وانتشر خبره بالمدينة. قال مالك: كان بالمدينة أقوام بدؤوا معنا في طلب هذا الأمر ثم كفوا عنه، حتى سمعوا هذا الحديث، فلقد رجعوا إليه، وأخذوا بالحزم، وهم اليوم من علماء بلدنا! الله الله يا يحيى! جُدَّ في هذا الأمر(١).

فهذه الرؤيا حفَّزت أقواما فَتُروا عن العلم، فرجع من رجع، فلتكن -أيضًا- محفزة لنا نحن. فاللَّهُمَّ أقبِل بقلوبنا للعلم النافع اللذيذ، والعمل الصالح الرشيد.

ومن لطائف أقدار الله أنه قد يكون الفاتر عن العلم معذورًا؛ بسبب كونه لاهثًا بتحصيل لقمة العيش، فيسوق الله له عاميًا، يحثه على الإقبال على العلم، فيكتب الله للاثنين صلاحًا وفلاحًا.

يقول الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) عن بداية طلبه للعلم: كنتُ أعمل في مزرعتنا في بلدتنا «البير» وقد نصحني عدة مرات «إبراهيم بن محمد اليحيى» وهو يراني أعمل في المزرعة: هذه ليست مهنتك، اذهب لطلب العلم. ولا أنسى له هذه الوصية(٢).

ولا مقارنة بين نَكَدِ عِيشة المرء جاهلًا، وبركة عِيشته عالمًا. ومن اضطرته الحياة للكد لتحصيل لقمة العيش، فإن لذة العلم تُنسية ذلك الكَدَّ والكَبَد.

قال أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): لذة العلم دائمة لا تنقطع، وباقية لا تسرق، ولا تُغصَب، ولا ينافَس فيها، وصافية لا كُدُورة فيها، ولذات الدنيا كلها ناقصة، مكدَّرة مشوَّشة، لا يَفِيْ مَرْجُوُّها بمَخُوفها، ولا لَذَّتها بألَمِها، ولا فرحها بغَمِّها(٣).

ومن التفت إلى طلب العلم -برغم انهماكه باللهو- فهو امرؤ شريف، يتطلب المعالي، وقد غَلب بعقله هواه، ولعله يكون أعظم أجرًا ممن لا نَوزاعَ تَصُدُّه عن العلم.

---

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال (١/١٣٤).
(٢) العالم العابد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم - تأليف ابنه الشيخ عبد الملك (ص٢٢).
(٣) إحياء علوم الدين (٤/١٢٦).

وعلى اللاهي الذي تعلَّق من العلم عِلْقًا نفيسًا، أن يتشبَّث به، فإن فرَّط فرَّ، وربما دون رَجعة، وليَعلم: أن العلوم تغُور، ثم تفورُ في زمان، بمنزلة النبات، أو عيون المياه، وتنتقل من قوم إلى قوم، ومن صِقع إلى صقع[1].

لا تـــدَعْ لـــذةَ يـــوم لـغـدٍ ... وبِـــعِ الـغَـيَّ بتعجيل الـرَّشَـدِ[2]

ومما يعينك على استئثار لذات العلم على لذات الدنيا: أن تستمتِع بأخبار مَن تلذذ باللهو، ثم حباه الله اللهو الحقيقي، ألا وهو ذوق لذة العلم، فترَك ما هنالك، أو كان مُنهَكًا مُنهمِكًا بتحصيل معيشته، ثم عَشِق العلم، فأنساه نفسَه.

ومن طريف المواقف ما جرى لابن السرَّاج النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٦هـ) حيث قرأ على المبرِّد «كتاب سيبويه»، ثم اشتغل بالموسيقى، فسئل عن مسألة بحضرة الزجاج، فأخطأ في جوابها، فوبَّخه الزجاج وقال: مِثلُك يخطىء في مثل هذه المسألة؟! واللهِ لو كنتَ في منزلي لضربتُك! ولكنّ المجلس لا يحتمل ذلك. فقال: قد ضربْتَني يا أبا إسحاق!. وكان عِلم الموسيقى قد شغله عن هذا الشأن، ثم رجع إلى كتاب سيبويه، ونظر في دقائقه، حتى قيل: ما زال النحو مجنونًا، حتى عَقَلَه ابن السراج بأصوله. وإليه انتهت الرئاسة في النحو بعد المبرد[3].

إذا جُلْتُ فِكرًا في العلوم عَويصِها ... ومـــادَتْ بـيَ الأفـــراح كـل مميدِ
تصاغرت الدنيا لـــديَّ وأهلها ... وجـئـتُ بما يَشفي غليل مريدِ
ونلتُ لذيذ العلم بالذوق وحده ... وكل لــذيــذ غــيــره كـهَـبـيــدِ[4]

ولا ريب أن البيئة المحيطة تؤثر على توجُّه الناشئ فيها، فمَن كانت بيئته محضن علم قادته لتلك المعالي، ومن كانت بيئته تعجُّ بالطرب مثلًا، فَشِيمة أهلها الطرب.

وقد جرت مناظرة بين ابن رشد الحفيد القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٥هـ)

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٩٢).
(٢) معجم الشعراء (ص: ٤٦٤).
(٣) معجم الأدباء (٦/٢٥٣٥).
(٤) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٢٤). والهبيد هو الحنظل.

والوزير ابن زُهر الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٥هـ) فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: ما أدري ما تقول! غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية، فأُريدَ بيع آلاتِه حُملت إلى قرطبة، وإن مات مطرب بقرطبة، فأُريدَ بيع آلاته وكتبه، حُملت إلى إشبيلية، حتى تُباع فيها(١)!.

ولذا يقول بعض علماء قرطبة مفاخِرًا:

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قرطبةٌ ... منهنّ قنطرة الوادي، وجامعها
هاتان ثِنتان، والزهراء ثالثةٌ ... والعلم أعظم شيءٍ، وهو رابعها(٢)

خلفاء وملوك وأمراء ووزراء تلذَّذوا بالعلم:

يا عجبًا لهذا العلم! ما ترك أحدًا تذوَّقه إلا تلذَّذه، وما ترك لذة إلا غلبها بلذته!

وإليك فيما يلي مَسْردًا لأكثر من أربعين، من الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء، الذين جمع الله لهم بين لذتين، لذة المنصب، ولذة العلم، ولكنهم وجدوا لذتهم في العلم أكثر من لذتهم في المنصب والجاه:

١. الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﵁ (ت ١٣هـ): فهو أعلم الصحابة، ففي «الصحيحين» قال أبو سعيد الخدري ﵁: كان أبو بكر هو أعلمَنا بالنبي ﷺ(٣).

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وقد ذكر غير واحد، الإجماع على أن أبا بكر أعلم الصحابة كلهم؛ فإنه لم يكن أحد يقضِي ويخطب ويفتي بحضرة النبي ﷺ إلا أبو بكر.. ولم يُحفظ لأبي بكر فتيا تخالف نصًا(٤).

٢. الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﵁ (ت ٢٣هـ): هو ثاني أعلم الصحابة، ففي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ رأى في الرؤيا أن أُتِيَ بقدح لبن. قال: فشربتُ، حتى

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٢/٢٠١).
(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/١٥٣).
(٣) صحيح البخاري (٣٩٠٤) وصحيح مسلم (٢٣٨٢).
(٤) منهاج السنة النبوية (٧/٥٠٠ و٥٠٢) وانظر: جامع المسائل لابن تيمية - المجموعة الثالثة (ص: ٢٤٧) وإغاثة اللهفان (٢/١٧٣).

إني لأرى الرِّيَّ يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فَضْلِي عمر بن الخطاب. قالوا: فما أوَّلته يا رسول الله؟ قال: العلم(١).

٣. خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ): فقد قال عمر عن نفسه: خرجتُ من المدينة، وما من رجل أعلم مني. قال مجاهد -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ): أتيناه نعلِّمه، فما برِحنا حتى تعلَّمنا منه(٢).

وكذا قال عنه ميمون بن مهران -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧هـ): أتيناه ونحن نرى أنه يحتاج إلينا، فما كنا معه إلا تلامذة، وكان معلِّم العلماء(٣).

٤. أمير خراسان، خالد الذهلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٠هـ) أنفقَ على طلب الحديث مليون درهم(٤).

٥. الوزير الحاكم السلمي المروزي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ) اختلف إلى الأمير، فأقرأه العلم، ثم قلده الوزارة. وكان لا ينهض بأعباء الوزارة، بل نهمته في العلم، وثار عليه بعض الجيش. وقد صلى يوما صلاة الصبح، والكتب بين يديه، وهو يصنِّف بضوء الشمع، فقُتل وهو على هذه الخاتمة الحسنة(٥).

٦. الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر بالله -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ) كان مشغوفًا باقتناء دواوين العلوم، حقِّها وباطلِها، بحيث قارَبَتْ مئتي ألف سِفر، وعدد الفهارس بأسماء الكتب أربعة وأربعون، في كل فهرست منها عشرون ورقة، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفَسَ الأثمان. وصنف الفضلاء في دولته بدائع المصنفات في فنون العلم، وتقربوا بإهدائها إليه، ولم يُسمع في الإسلام بخليفة بلغ مَبْلغه في اقتناء الكتب، والبذل لها(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٨٢) وصحيح مسلم (٢٣٩١).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٥١/٤٥ و١٧٠).
(٣) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ص: ٣٤٠).
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٨٤/٢٠).
(٥) المصدر السابق(١١٣/٢٥) والروض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم (١٢٠٧/٢).
(٦) المغرب في حلى المغرب (١٨٦/١) والحلة السيراء (٢٠١/١) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٣٠/١٦) وفوات الوفيات (١٧٠/٤).

٧. الوزير ابن خنزابة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٢هـ) كان -وهو وزير- يُملي الحديث بمصر، وقد سمع من عبد الله البغوي مجلسًا، ولم يكن عنده، فكان يتمنى تحصيله، حتى إنه لَيُساوِم على قيمته ويقول: من جاءني به أغنَيْتُه![١].

٨. الوزير أبو القاسم بن المغربي -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٨هـ) يقول عن نفسه وقد نشأ بمصر: فإني نشأت وغذيت بكتب الحديث وحفظ القرآن ومناقبة الفقهاء ومجالسة العلماء، ووالله ما رأيتُ قط بتلك البلاد مأدبة ولا وليمة إلا لعرس، ولا كنت متشاغلًا إلا بعلم أو دين؛ فإنه ليس كتاب من كتب السنة إلا وقد أحطتُ به[٢].

٩. ابن حزم الظاهري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) وَزَرَ بعد أبيه، ثم ترك الوزارة، وأقبل على التصنيف ونشر العلم[٣].

١٠. الحسن بن مسعود، حفيد الوزير تتش بن ألب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) تزيًا بزِي الجُند مدة، ثم اشتغل بطلب الفقه والحديث، وتزيًا بزِي أهلهما[٤].

١١. أمير دولة الموحدين، يوسف بن عبد المؤمن -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ) كان ذا إيثار للعلم شديد، وتعطُّش إليه مفرط، ولم يَزَلْ يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، وكان يحفظ «صحيح البخاري»[٥].

١٢. الوزير العالم العادل ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) كان عالما جليلًا، ومؤلفًا متفننًا مؤلفًا، ومُكرِما لأهل العلم، ويُقرأ عنده الحديث، ويُجري من البحث والفوائد. وكان يتأسف على ما مضى من زمانه، ويندم على ما دخل فيه[٦].

١٣. الوزير العلّامة المتفنن أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٥هـ) له مؤلفات في التفسير، والفقه، والأصول، والسيرة، والبلاغة، والطب،

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (١٥٦/٨) ومعجم الأدباء (٧٨٢/٢).
(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب (٢٥٣٦/٦).
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٥٣/٨) والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ٢٠١).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٩٣/١٣).
(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ١٧٦) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١٥٦/٢).
(٦) المقصد الارشد (١٠٦/٣).

وله كتاب «تفاسير العقاقير» مجلدة ضخمة، وكتاب «معرفة ذات الحلق والكرة والاصطرلاب» مجلدة[١].

١٤. الأمير الفقيه علاء الدين الكاساني الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) تفقه على علاء الدين السمرقندي صاحب «التحفة». وكانت زوجته وبنته فَقِيهتين، وقد حفظتا «التحفة»[٢].

١٥. السلطان صلاح الدين الأيوبي، فاتح بيت المقدس -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٩هـ) يواظب على سماع الحديث، حتى إنه سمع جزءًا وهو بين الصفين في المعركة، فكان يتبجَّح بذلك ويقول: هذا موقف لم يَسمع أحد في مثله حديثًا[٣].

١٦. الملك الفقيه النحوي: عيسى الأيوبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٤هـ) أمر الفقهاء أن يجرِّدوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه، فجرَّدوه في عشر مجلَّدات، وسماه «التذكرة»، فكان لا يفارقه سَفَرًا ولا حضرًا، يطالعه دائمًا، فكتب على ظهر كل مجلدة: أنهاه حِفْظًا عيسى بن أبي بكر بن أيوب.

وكان الملك عيسى عالما بعِدّة علوم، وكان يَقرأ على أبي اليُمْن الكِنْدي دائما «كتاب سيبويه» نصًّا وشرحًا، وشيئًا كثيرًا من كتب اللغة والحديث، وكان يمشي راجلًا من القلعة إلى دار شيخه الكندي، والكتاب تحت إبطه[٤].

١٧. الأمير التركي علاء الدين آي طغرل -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٠هـ) حفظ «كتاب القدوري» وصار يفتي[٥].

١٨. الملك المظفر اليمني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٤هـ) قال يوما لجلسائه: أذكر بيتين، كنت أحفظهما، لا أذكر منهما غير: «حُضْنَي» أو «حُضْنَا»، وأريدهما ولو بمال، فقال له بعض الحاضرين: يا مولانا! هنا فقيه فاضل حصل به جِنَّان، يُفيق في بعض

---

(١) معجم الأدباء (١٧٦٣/٤).

(٢) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٨٩/١) وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤٣٤٨/١٠).

(٣) البداية والنهاية ط هجر (٦٥٧/١٦).

(٤) الكامل في التاريخ (٤٢٥/١٠) ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٨٥/٢٢).

(٥) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٢٨٨/٢).

الأحيان[(١)]، فأمر بإحضاره في وقت الصحو بين المغرب والعشاء، فسئل عن البيتين، فقال الفقيه:

راحة الإنسان حيًّا بين حُضنَي والديهِ
فإذا ماتا أحالا بِشَقَا الدنيا عليهِ

فقال السلطان: هما والله البيتان!. وسرَّ بهما سرورًا عظيمًا، وأمر أن يُخلع عليه[(٢)].

١٩. ذو الوزارتين أبو عبد الله اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٨هـ) لم تُشغله السياسة عن النظر، ولا عاقَه تدبير المُلك عن السماع، وأفرط في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها[(٣)].

الْملك فِي طيّ الدفاتر فتخلّ عَن قَوَد العساكر[(٤)]

٢٠. السلطان الملك المؤيد -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢١هـ) كان يحفظ «مقدمة طاهر بن بابشاذ»، و«كفاية المتحفظ» في اللغة، وأخذ «التنبيه» للشيرازي قراءة محققة[(٥)].

٢١. ملك مالي بإفريقيا مانسا موسى -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٧هـ) انطلق برحلة حج، بأكثر من ستين ألفًا من البشر، وبألفٍ من الجِمال المحمَّلة بالذهب والهدايا. وبعد الحج رجع مانسا بالجِمال محمَّلة بالكتب؛ ليجهز بها مكتبته العظيمة[(٦)].

٢٢. بيدمر البدري، أمير حلب في الدولة الناصرية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) كان يحب العلماء، وينسخ بيده كُتبًا عِدَّة[(٧)].

---

(١) هذا العالم هو العلامة ابْن الْحطاب الزوقري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٥هـ) وقد كان من عادته الإقراء، فأصابه مس من الجن، فصار أهله يربطونه بالحبال، وفُسخ نكاحه من زوجته، ثم كان الطلبة يقرؤون عليه في أوقات يكون فيها متعافيًا. وللقصة بقية عجيبة، فانظرها.

(٢) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٤٧٩/١).

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة (٣١١/٢).

(٤) الحلة السيراء (٧٥/٢).

(٥) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (٣٥٩/١).

(٦) موقع ويكيبيديا.

(٧) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥٦/٢).

٢٣. الأمير علاء الدين أيُدُغدي الظهري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) كان يحفظ كتاب «كفاية المتحفّظ في اللغة» لابن الأجدابي، وتزيد صفحاته على مئتين[١].

٢٤. الوزير لسان الدين ابن الخَطِيب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٦هـ) يُلقَّب بـ: ذي العُمْرَين؛ والسبب؛ لأنه يصنف ليلًا، ويدبِّر وزارة مملكته نهارًا[٢].

٢٥. الملك الأشرف بن الأفضل المؤيد الغساني اليمني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) كان في ابتداء أمره طائشًا، ثم توقَّر وأقبل على العلم والعلماء، وأحب جمع الكتب[٣].

٢٦. الأمير العالم موسى باشا ابن السلطان محمود الرومي -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٨١٥هـ) لما سمع صِيتَ العلم في بلاد العجم، عزم أن يذهب إليها؛ لتحصيل العلم، لكنه كتم العزم عن أقاربه، وفطِنت لذلك أخته، فوضعت بين كتبه شيئًا كثيرًا من حُلِيِّها؛ ليستعين في ديار الغربة، فارتحل، وقرأ على مشايخ خراسان، وما وراء النهر[٤].

٢٧. أمير سمرقند ألوِغ بك -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥١هـ) جَدُّه تيمور التتاري، يشارك في علوم كثيرة. سأل بعض حواشيه: ما تقول الناس عني؟ وألَّح عليه، فقال له: يقولون إنك ما تحفظ القرآن الكريم. فدخل من وقته، وحَفِظه في أقل من ستة أشهر حفظًا متقنًا[٥].

٢٨. السلطان الأشرف قايتباي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠١هـ) كتَب ثلاث مئة سؤال، فوجّهها إلى العلماء، فأجاب عنها الفقيه الحنفي أحمد العباسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٠هـ): في «تحفة السائل إلى أجوبة المسائل -مخطوط-» كتبه إجابة على سؤالات السلطان[٦].

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر (١/٦٥٢).
(٢) الأعلام للزركلي (٦/٢٣٥) ويقال له -أيضًا- ذو الوزارتين: القلم والسيف. ومؤلفاته تبلغ نحو الستين.
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/١٥٨) قال عنه ابن حجر: امتدحتُه لما قدمتُ بلده، فأثابني -أحسن الله جزاءه-! مات بمدينة تعز، ودفن بمدرسته التي أنشأها بها، ولم يكمل الخمسين.
(٤) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ٢١١) والشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ١٣).
(٥) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (٣/٩٢).
(٦) الأعلام للزركلي (١/٢٣١).

٢٩. أحمد بن سليمان بن كمال باشا -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٠هـ) كان جدُّه من أمراء الدولة العثمانية. يقول: كنتُ جنديًا لدى الأمير، إذ جاء رجل من العلماء، رثُّ الهيئة، فجلس فوق الأمير، فتفكرتُ في نفسي، فقلت: إني لو اشتغلتُ بالعلم يمكن أن أبلغ رتبة العالم المذكور. فنويتُ أن أشتغل بعد ذلك بالعلم الشريف(١).

٣٠. السلطان أبو عبد الله المهدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٩هـ) حفظ «صحيح البخاري»، و«ديوان المتنبي» عن ظهر قلب(٢).

٣١. الملك همايون شاه التيموري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٣هـ) كان شَغوفًا بالعلم. وقع من مكتبته التي كان يُطالع فيها، وقد سمع الأذان، ومات(٣).

٣٢. أمير المؤمنين محمد بن القائم بأمر الله السعدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٤هـ) كان يحفظ «صحيح البخاري»، ويستظهر «ديوان المتنبي»(٤).

٣٣. السلطان الناصر ابن السلطان الغالب -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٠٤هـ) كان في شهر رمضان يختم «صحيح البخاري»، مع القاضي وأعيان الفقهاء، حتى يتعالى النهار(٥).

٣٤. الملك الأندلسي المنصور -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٢هـ) صنف عدة تصانيف، منها كتاب «طبقات الشعراء»، وكتاب «مضمار الحقائق في التاريخ»(٦).

٣٥. السلطان الهندي أورنك زيب بن شاهجهان -رحمه الله تعالى- (ت ١١١٨هـ) كان موزِّعًا لأوقاته، فوقتٌ للعبادة، ووقتٌ للتدريس، ووقتٌ لمصالح العسكر، ووقتٌ للشكاة، ووقتٌ لقراءة الكتب، والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته، لا يخلط شيئًا بشيء(٧).

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٢٦).
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٣٥/٥).
(٣) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٤٤٤/٤).
(٤) درة الحجال في أسماء الرجال (٢٠٤/٢).
(٥) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١٤٥/٥).
(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٧٨/٤).
(٧) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١١٣/٤).

٣٦. السلطان سيدي محمد المراكشي (ت ١٢٠٤هـ) كان يجالس العلماء؛ للمذاكرة في الحديث، وكان كثيرًا ما يتأسف أثناء ذلك، ويقول: واللهِ لقد ضيّعْنا عُمرنا في البطالة(١).

٣٧. الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود -رحمه الله تعالى- (ت ١٢١٨هـ). قال عنه العلامة الأمير صديق حسن خان: وكان من أكابر العلماء وأعيانهم(٢).

٣٨. الأمير العالم صدِّيق حسن خان القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) تزوج بأميرة مملكة الهند، فقام مقامها، وأصبح حاكما للإمارة نيابة عنها. وكان مُكبًا على تأليف العلم ليلًا ونهارًا، فبلغت مؤلفاته -رحمه الله- أكثر من مئتي كتاب في اللغة العربية والفارسية والهندية، وكان يطبعها ويوزعها مجانًا(٣).

٣٩. القاسم ابن أمير اليمن المتوكل على الله -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٢٨هـ) قال عنه الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ): أسمعَ عليَّ «بلوغ المرام»، من حفظه من أوله إلى آخره والكتاب بيدي، فسبحان الفاتح المانح. وهو الآن -وعمره سبع عشرة- يسمِّع عليَّ «صحيح البخاري ومسلم» يفِدُ إليَّ في بعض أيام الأسبوع، ويواظب على ذلك مواظبة عظيمة، ويفهم فهما جيدًا(٤).

٤٠. العالم الأديب المؤرخ الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٦هـ) فإنه عند زيارة أخيه المؤسس الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) إلى مصر عام ١٣٦٥ هـ، قابَل وفدًا من علماء الأزهر، وعُرضت مسألة فقهية، انفرد بها مذهب الإمام أحمد، فسألوه عنها، فقال لهم: إن الحروب لم تدَعْ لي وقتًا للتبحر في العلوم، ولكن الذي تبحَّر فيها هو أخي، هذا فقيه آل سعود وعالِمُهم. يشير

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٦٦/٣).
(٢) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٢٩٣) انظر: الأعلام للزركلي (٢٧/٤).
(٣) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٢٧٤ و٢٧٩) وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ٧٤٥).
(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤٠/٢).

إلى أخيه الأمير عبد الله. وقال لهم الملك عبد العزيز: اضربوا معه موعدًا للحديث؛ فإنه أعلمُ مني بما تَذكرون[١].

٤١. الأمير مساعد بن عبد الرحمن آل سعود -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٧هـ) أخو الملك عبد العزيز، وهو أول من أنشأ مكتبة عامة للقراء بالسعودية. وقد كان عيَّن لها موظفًا يداوِم فيها، ويُقدِّم الضيافة لروَّادها، ووضع في مَدخلها لوحة بأسماء الكتب الجديدة الواردة للمكتبة[٢].

٤٢. خادم الحرمين الشريفين، الملك سلمان بن عبد العزيز - حفظه الله تعالى- له مكتبة ضخمة بأنواع الفنون، لا سيما التاريخ والأنساب. وهو قارئ نهِم، وناقد فَطِن. كما أنه يرأس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز.

أرأيت كيف جمع الله لهؤلاء لذتين عظيمتين؛ لذة الملك أو الإمرة أو الوزارة؟! وأعظم منها لذة العلم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن هنا تتذكر مقولة ذلك المتلذذ بالعلم، حين قال: أين أبناء الملوك عن لذة العلم؟[٣].

وحينها ستعرف أن الله قد يجعل لذة العلم في نفوس الملوك وأصحاب المناصب، فيَرزق من شاء منهم أمنيتين جليلتين، يندُر اجتماعهما:

فقد يجمع الله الشَّتِيتَينِ بعدما ... يَظنّان كل الظن أن لا تَلاقيا[٤]

---

(١) انظر: مجلة دارة الملك عبد العزيز - العدد ١ (١٣٩٧ هـ) ص ٢٢٠ - مقالة بعنوان: مات أمير العلم والأدب، فقيه آل سعود.

(٢) ويكيبيديا عن: شبه الجزيرة للزركلي (١٠٤٣/٣).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢٨/١).

(٤) التلذذ بالعلم من الملوك، يشمل حتى الملوك الكفار؛ ففيهم تلذُّذ وتولُّع بالكتب شراءً واقتناءً. ومن الأمثلة أنه قد أنشأ الإمبراطور يوليان دار كتب في القسطنطينية، فكتب على بابها هذه العبارة: لبعض الناس صَبابة بالخيل، ولبعضهم ولَعٌ بالطير، ولآخرين غرام بالوحش، وأما أنا فقد تدَلَّهْتُ منذ نعومة أظفاري بشراء الكتب واقتنائها!. انظر مجلة المقتبس (٤١/٥٣).

٢١. نماذج لعلماء تجار وأثرياء تلذذوا بالعلم والمال جميعًا:

العلماء كغيرهم، هم درجاتٌ في الغِنى والفقر، ولهم مع المال أحوال:

• فمنهم -والله المستعان على مواصلة طلب العلم- من تركه؛ بسبب التجارة -وقليلٌ ما هم-. وخذ أربعة أمثلة فحسْب:

١. عبد الجبار بن العلاء البصري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٨هـ) سأل عنه أحمد بن حنبل، فقالوا: اشتغل بالتجارة عن الحديث. فقال أحمد: قد كنتُ أَراه عند سفيان بن عُيينة جَيِّد الأَخْذ(١).

٢. أبو بكر ابن باذان الخشنامي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٠٠هـ) كان من أولاد المحدثين، وكان مشتغلًا بالعلم في أيام شبابه، ثم اختل حاله في آخر عمره، حتى اشتغل بالاكتساب، ونسج الثياب(٢).

٣. الفقيه محمد بن عبد الرحمن الإسنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٩هـ) وصَفُوه بأنه كان ذكيًا جدًا، حتى كان شيخه يقول له: إن اشتغلتَ ما يقال لك إلا الإمام. ولكنه ترك الاشتغال، وأقبل على تحصيل المال، ففاته هذا، ولم يظفر بذاك(٣).

٤. محمّد الحنبلي المعروف بابن المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) كان من نُبَهاء الحنابلة، يحفظ «المقنع» ثم ترك العلم، وصار يتكسّب في حانوت بالصّاغة(٤).

• ومنهم ترك التجارة لأجل العلم؛ لأنهم لما ذاقوا حلاوة العلم لم يُبالوا ما فاتَهم

---

(١) سؤالات السلمي للدارقطني (ص: ٢٥٧).

(٢) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٧١٦).

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/٢٤٨).

(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٣٤٩).

من متاع الدنيا. لكن ليس هذا هو الكمال الموافق للشرع؛ لئلا يكون عالة يتكفف الناس. فهم اكتفوا ولكن لم يتكففوا.

ومن الأمثلة: ابن الأخشيد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٦هـ) فقد كانت له ضَيعة منها معيشته، وكان من محبته للعلم يقول لوكيله: لا تحدثني بشيء من أمر ضَيعتي، وتعمَّد ما يُقيم رمَقي، دعني أتوفَّر على العلم، وعلى أمر الآخرة[١].

• ومنهم من يقدر على الجمع بين العلم والتجارة بمهارة، ويُعِفُّ نفسه وأهله، بل وأصحابه، بل وشيوخه عن مسألة الناس. بحيث يُوازِن بين الوقتين.

فهذا أبو المظفر الشهرزوري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٠هـ) كان يبيع العطر في دكان، عند مسجد شيخه أبي محمد المقرئ، ويَقرأ عليه هنالك[٢].

وربيع القطان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ) كان عالما بالقرآن والتفسير والحديث والفقه. وكان مع ذلك ملتزما في حانوته، يبيع القطن، وفيه يأتيه من يطلب منه ويسأله[٣].

• ومنهم من أثرى، فصرف ثروته للعلم. وخذ على ذلك سبعة أمثلة:

١. خيثمة بن عبد الرحمن -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٠هـ) ورث مئتي ألف درهم، فأنفقها على الفقراء والفقهاء[٤].

٢. عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) لما بلغ دفع إليه أبوه خمسين ألف درهم يتَّجر بها، فطلب العلم حتى أفقدَها، فلما رجع قال له أبوه: ما جئت به؟! فأخرج إليه الدفاتر، فقال: هذه تجارتي. فدخل أبوه المنزل، فأخرج له ثلاثين ألف درهم أخرى، وقال: هذه تمِّم بها تجارتك. فأنفَقها على العلم والعلماء الفقراء[٥].

٣. أبو حاتم السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) قد خلَّف له أبوه وعمّه مئة

---

(١) الفهرست (ص: ٢١٠).
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠٤/١٨).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣١٠/٥).
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١١٣/٤).
(٥) بتصرف من ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣٨/٣).

ألف دينار، فأنفقها في طلب العلم وعلى العلماء. ولما مات بلغت قيمة كتبه أربعة عشر ألف دينار[١].

٤. أبو بشر البندنيجي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٤هـ) كان له ضِياع كثيرة وبساتين، خلّفها له أبوه، فباعها، وأنفقها في طلب العلم وعلى العلماء[٢].

٥. ابن خضير البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ) كانت له حال واسعة من الدنيا، فأنفقها في طلب الحديث وعلى أهله، إلى أن افتقر[٣].

٦. الطِّيْبي صاحب «شرح المشكاة» -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٣هـ) كان ذا ثروة، من الإرث والتجارة، فلم يزل ينفق ذلك في وجوه العلم والخيرات، إلى أن كان في آخر عمره فقيرًا[٤].

٧. المحدث التركي الكُمُشْخَانَوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١١هـ) له نحو خمسين كتابًا، وكانت له مطبعة تطبع بها كتب السنَّة، وتوزّع على فقراء العلماء مجانًا. وأنشأ ثلاث مكتبات؛ لمطالعة الجمهور في بلاده[٥].

• وأكثرهم يتعيَّش من قوت يومه، وهو مقتصد بكسبه، مقتصر على درسه، أو يجوع يوما ويشبع يومًا.

ولذا قال ابن خَلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): وأهل الصّنائع الدّينيّة.. لا يسعُهم ابتذال أنفسهم لأهل الدّنيا؛ لشرف بضائعهم، فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تَعْظُم ثروتهم في الغالب[٦].

ولما ترجم الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) لأبي نعيم صاحب «الحلية» قال:

---

(١) معجم الأدباء (١٤٠٦/٣) والدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ٣٨٧).
(٢) معجم الأدباء (٢٨٤٤/٦).
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤٨٧/٢٠).
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٨٥/٢).
(٥) الأعلام للزركلي (٢٥٨/١).
(٦) تاريخ ابن خلدون (٤٩٣/١).

كان في حانوت بالكوفة، يبيع المُلاءَ وغير ذلك، وكان كذلك غالب علماء السلف؛ إنما يُنفقون من كسبهم[١].

وفي زماننا هذا كان الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) يمكث في دكانه، يتقوَّت من تصليح الساعات، ويحكي مناقشةً له مع صوفي حول الغناء. قال: فأنكرت ذلك عليه أشد الإنكار.. ورجع بعد أسبوع؛ ليأخذ ساعته بعد تصليحها، وجاء معه طالب أقوى منه، فتكلم في الموضوع مؤيدًا لصاحبه.. فأجبتُه، فانقطع الرجل![٢].

أرأيت كيف كانوا يشتغلون بالعلم، وبالتكسب معًا؟! ولكنهم يجعلون نصيب الأسد للعلم.

قيل لأحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): إني أطلب العلم، وإن أمي تمنعني من ذلك، تريد مني أن أشتغل بالتجارة. فقال: دارِها وأرضِها، ولا تدَعِ الطلب[٣].

وقائلةٍ ما لي أراك مُجانِبًا ... أمورًا وفيها للتجارة مَربحُ
فقلت لها: ما لي بربحك حاجة ... فنحن أناس بالسلامة نفرحُ[٤]

والجمع بين التجارة والعلم مطلبٌ صعب المنال، وإن كان سهل بالمقال، ولكن لا يناله إلا نوادر الرجال؛ ليُعِفَّ أحدهم نفسه، ويدعم العلم وأهله، وليعيشوا أعزةً لا يتكففون الناس.

ولكن البائس هو من ترك العلم للتجارة، فلا حصل هذا ولا ذاك! أو من سوَّف طلبه، ففاته الأمران.

ومن لطيف الأخبار: أن حكيما كان يؤدب أولاد الملك، فاجتمع له تسع مئة دينار، فقال: إن بلغ المال ألف دينار انزويتُ، وأقبلتُ على العلم، وأعرضتُ عن مخالطة أبناء

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٤٢/١٠). المُلاء جمع مَلاءة، وهي العباءة.

(٢) تحريم آلات الطرب (ص: ١٧٦). وتفصيل المناظرة هناك.

(٣) طبقات الحنابلة (١٤٠/١).

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦٥/١).

الدنيا. فلما بلغ المال تسع مئة وتسعين دينارًا مات ذلك الحكيم حتف أنفه، وكان ذلك المال رزق غيره(١).

وإنك لَواجِدٌ من ثلة المتلذذين مَن يكون تاجرًا لا منهمكًا، فلا تصدُّه تجارته عن النهَم العلمي عمومًا، والقرائي خصوصًا. نعم؛ قد تقطعه، لكن لا تمنعه. وهؤلاء نوادر أفذاذ.

ولئن كان شأن الفارغ الشاغل نفسه بالعكوف على كتبه ومكتبته عجيبًا؛ فإن أعجب منه اللاغِب في معيشته، وهو لا يدَع طلب العلم.

قال النحوي الطبيب عبد اللطيف ابن اللبَّاد (ت ٦٢٩هـ): قلَّما يتعمق في العلم ذو الثروة، إلا أن يكون شريف الهمة جدًا، أو أن يُثري بعد تحصيل العلم.. وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج إلى فراغ، وحِذْق فيها، وصرف الزمان إليها، والمشتغل بالعلم لا يسَعُه شيء من ذلك. ولكن إذا تمكن الرجل في العلم، وشُهِر به خُطِبَ من كل جهة، وعُرضت عليه المناصب، وجاءته الدنيا صاغرة، وماء وجهه مَوفور، وعِرضه ودِينه مَصون(٢).

والكثيرون في طريق طلب العلم يسيرون، ولكنَّ القليلين هم الذين يواصِلون، والأقل هم الذين يصِلون فيُفلِحون.

ومن جميل النقول أن الأعمش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٨هـ) كان طلابه كثيرون جدًا، فقيل له: يا أبا محمد، ما ترى؟ ما أكثرَهم! فقال: لا تنظروا إلى كثرتهم، ثُلثهم يموتون، وثُلثهم يَلحقون بالأعمال، وثُلثهم من كل مئةٍ يُفلح واحد(٣).

ولذا فالكمال عزيز، لكنه مجال يُبتغى، ومَنال يُرتقى، ففي العلماء قديما وحديثًا تجار، بل أثرياء.

---

(١) تتمة صوان الحكمة (ص: ٢٧).
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٩٢).
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١/١١٤).

علماء تجار:

إليك سبعين مثالًا رائعًا رائقًا، لأولئك الجامِعِينَ بين الخيْرَينِ، خير العلم، وخير التجارة:

ولأبدأ بعلماء الصحابة، ثم بالعلماء عبر القرون، ثم بالمعاصرين:

١. أبو بكر ﷺ (ت ١٣هـ) وهو أعلم الصحابة. قال عنه رسول الله ﷺ: **ما نفعَني مال قط، ما نفعَني مال أبي بكر**(١).

٢. عمر بن الخطاب ﷺ (ت ٢٣هـ) كان يتَّجر وهو خليفة، وجهَّز عِيرًا إلى الشام(٢).

٣. عثمان ﷺ (ت ٣٥هـ) جهَّز جيش العُسرة، بتسع مئة وخمسين بعيرًا، وبخمسين فرسًا(٣).

٤. عبدالله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا (ت ٧٣هـ) ربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفًا(٤).

٥. يزيد بن عطاء اليشكري -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٧هـ) مولى أبي عوانة، كان تجارًا في البَزّ(٥).

٦. عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) كانت له تجارة واسعة، مع إمامته في العلم. وكان يقول: لولا خمسة ما اتجَّرت؛ سفيان الثوري، وابن عُيَينة، والفضيل، وابن السماك، وابن عُلية. وكان يخرج إلى خراسان فيتَّجر، فما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج، والباقي يَصِل به إخوانه الخمسة(٦).

٧. قال البهلول بن راشد -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٣هـ): كنت عند معلمي أخيط، فيمر علي الواعظ بالجامع، والقراء يقرؤون عليه، فأقف إليه وأستحلِي ذلك، ثم حاسبت

---

(١) سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط (٩٤).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٤٥/٤٤).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٣٢٣/١).
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٩٥/١).
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٠٢/١١).
(٦) العبر في خبر من غبر (٢١٧/١) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٢٦/٩).

نفسي وقلت: أنا مستأجَر. فصرت آخذ من معلمي طُريحة معلومة، فإذا فرغت منها مضيت إلى مجلسه، فانتفعت به، وبقيت حلاوة ذلك في قلبي، ومنفعتها إلى الآن(١).

٨. أبو عاصم النبيل الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٢هـ) التاجر في الحرير(٢).

٩. أبو علي البارباباذي، جد أبي يعلى الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٣هـ)(٣).

١٠. علي بن الجَعْد الجوهري-رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٠هـ) كان يتَّجر بالجواهر(٤).

١١. يوسف بن عدي الكوفي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٢هـ) حدَّث عنه البخاري(٥).

١٢. أبو الحسن الزعفراني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٩هـ) أكثر عن الخطيب البغدادي(٦).

١٣. الحافظ الكبير يعقوب بن شيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٢هـ)(٧).

١٤. أبو الحسين التاجر -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٧هـ) روى عن أبي زرعة(٨).

١٥. المحدث أبو جعفر الجمَّال -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٦هـ) سمِّيَ بذلك؛ لأنه كان صاحب جِمال(٩).

١٦. دِعْلِج بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥١هـ) من العلماء الأثرياء، سمع ما لا يوصف كثرةً من كتب الحديث. وكان يبعث بمسنده إلى ابن عُقدة؛ ليَنظر فيه، فيجعل بين كل ورقتين دينارًا. وحدَّث عنه: الدارقطني، والحاكم. وله وُقوف أوقَفَها

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/٩٦).
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٥/١٩٢).
(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٣/١٧٢).
(٤) الأعلام للزركلي (٤/٢٦٩).
(٥) العبر في خبر من غبر (١/٣٢٤) وتاريخ الإسلام ت تدمري (١٧/٤٢٠).
(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/٩٢).
(٧) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٠/٢٠١).
(٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٣/١٩٠).
(٩) المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة (المقدمة/٢٧) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥/٣٦٢).

على مصالح أهل الحديث، فلله دره! وصدق ﷺ في قوله: **نِعْم المال الصالح للمرء الصالح**[١].

١٧. محدث الأندلس ابن الأحمر -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٩هـ) روى عن النسائي[٢].

١٨. ابن الزغوري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٩هـ) كان من أولاد الثروة[٣].

١٩. ابن شاذان البزاز -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٣هـ)[٤].

٢٠. الحافظ أبو الحسن التنيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٣هـ)[٥].

٢١. الكرماني الأصبهاني التاجر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ)[٦].

٢٢. ابن ريذه الأصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٠هـ) مسنِد العصر[٧].

٢٣. الحافظ ابن شاذان البجلي الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ)[٨].

٢٤. أبو الحسن الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ) من أولاد التجار[٩].

٢٥. أبو إسحاق الْحَبَّال -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٢هـ) كان يتَّجر بالكتب[١٠].

٢٦. أبو الفتح التنكتي الشاشي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٧هـ)[١١].

٢٧. المقرئ أبو الفتح الحداد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٠هـ) سبط ابن منده[١٢].

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (٣٥٣٥/٧) والحديث رواه أحمد (١٧٨٠٢) والبخاري في الأدب المفرد واللفظ له (٢٩٩).

(٢) العبر في خبر من غبر (١٠٣/٢).

(٣) الأنساب للسمعاني (٣٠٧/٦).

(٤) الأعلام للزركلي (٨٦/١).

(٥) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٦٠٦).

(٦) المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة (المقدمة/٢٧).

(٧) المصدر السابق (المقدمة/٦٣).

(٨) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٢١/٣٠).

(٩) التفسير البسيط (٤١٧/١).

(١٠) الأعلام للزركلي (٤٠/١).

(١١) العبر في خبر من غبر (٣٥٣/٢).

(١٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣١١/٣٤).

٢٨. المحدث أبو سعيد البحيري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠١هـ)[١].

٢٩. محمد بن عبدويه -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٥هـ) انتُهب ماله، ثم أخلف الله عليه أموالًا، فكان ينفق على طلبة العلم منها[٢].

٣٠. أبو الفضل الصائن -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٢هـ)[٣].

٣١. ابن أبي الفتح الحَلْواني؛ نسبة إلى بيع الحلوى -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٦هـ)[٤].

٣٢. أبو البقاء الدميري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٦هـ) تكسَّب بالخياطة، ثم طلب العلم[٥].

٣٣. ابن تغلب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٧هـ) التاجر، السفَّار[٦].

٣٤. عيسى بن معبد الموصلي-رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٨هـ)[٧].

٣٥. عمارة الحكمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ)[٨].

٣٦. ابن حوائج كش -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٤هـ)[٩].

٣٧. المحدث المؤرخ ابن الفضيلي الحنبلي التاجر السفار -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٨هـ)[١٠].

٣٨. علي الجرجاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٤هـ) كان كثير الأسفار للتجارة في الصين[١١].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٩/٢٧٣) والوافي بالوفيات (٩/١١٠) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٥/٤٢).
(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣/١٨٥).
(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٥٠٥) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٧/٢٠٦).
(٤) الأعلام للزركلي (٣/٣٢٧).
(٥) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٣٤٨).
(٦) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٨/٢٣٦).
(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/٥).
(٨) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٤/٢٥٦).
(٩) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٥/٢٨٥) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/٥٠).
(١٠) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/٥٤٥).
(١١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٣/١٥٦).

٣٩. أبو محمد الأموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٤هـ) التاجر، البزاز[١].

٤٠. المؤرخ ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ)[٢].

٤١. الشيخ المسنِد مكرم بن أبي الصقر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٥هـ)[٣].

٤٢. محمد بن مَمِيل الشيرازي-رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٢هـ)[٤].

٤٣. ابن قاضي بِبا -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٩هـ) كان أذكى الموجودين بمصر آنذاك. وكان يتكسب بالتجارة، فيسافر إلى الإسكندرية مرتين في السنة[٥].

٤٤. عبد الكريم بن علي الوَجِيي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٧هـ) كان عارفًا بالقراءات، وكان في أول أمره ناسج ثياب، ثم في آخر أمره ترك النسج، واشتغل بالخياطة، فكان القارىء يقرأ عليه وهو يشتغل بالخياطة، فلا يفوته شيء من غلطه، ولم يزل كذلك حتى توفي[٦].

٤٥. علي بن داود بن جبارة القحفازي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) قال لأحد تلاميذه التجار: هذا أَوَان الحُجاج، اشترِ لك منهم مئتي جراب، وارمِها خلف ظهرك إلى وقت موسمها؛ تكسب فيها جملة، فقال له: واللهِ الذي يشتغل عليك في العلم، يحفظ منك حرفًا قدُره عشر مرات[٧]. فيا لله ما أعظم هِممهم، وما أَنْبلهم مع شيوخهم!.

٤٦. المحدث محمود المنبجي التاجر -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ)[٨].

٤٧. القطب التحتاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٦هـ) شارك في العلوم الشرعية والعقلية، وكان يتوقد ذكاءً. وله مال وثروة[٩].

---

(١) المصدر السابق (١٩٩/٤٤).
(٢) المصدر السابق (١٦٩/٣٧).
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٤/٢٣).
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٢٥/٥١).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٧٥/٦).
(٦) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٣٩٤/١).
(٧) أعيان العصر وأعوان النصر (٣٦٠/٣).
(٨) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٨٠/٦).
(٩) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١٣٦/٣).

٤٨. الفقيه المحدث ابن الجابي الياسوفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٧هـ) كان فقيرًا، ثم ورِث هو وابنه مالًا من جهة زوجته، فاتسعت عليه الدنيا، وسافر للتجارة، وكان يتوقد ذكاء وفهمًا. قال ابن حجي: ما كنتُ أحب مناظرة أحد سواه[١].

٤٩. التاجر المحدث ابن زعيب الرحبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) لما كبر دفع ماله لولده محمد، وأقبل على الإسماع، وأصيب في رجليه بالمفاصل، ولكنه للعلم مواصل[٢].

٥٠. ابن مقبل الحنفي التاجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) كان في أول أمره سِمسارًا، فخسر مالًا كثيرًا، فترك صناعته، واشتغل بالعلم[٣].

٥١. الفقيه جمال الدين البريهي السني -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٠هـ)[٤].

٥٢. الشهاب ابن ظهيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ)[٥].

٥٣. ابن هبة الله البارزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ) حفظ «الحاوي الصغير» وتخرَّج في مدة يسيرة، وجمع مالًا كثيرًا جدًا. يتوقد ذكاءه، ويُنشِد القصيدة الطويلة، التي حَفِظها من عشرين سنة؛ لا يتلعثم فيها[٦].

٥٤. ابن عرفات القمني الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ)[٧].

٥٥. ابن عذيبة التبريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٥هـ) كان ذا ثروة طائلة[٨].

٥٦. محمد البيجوري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٣هـ)[٩].

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (١٤٧/٣).
(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٤٩/١).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٧٩/١١).
(٤) طبقات صلحاء اليمن = تاريخ البريهي (ص: ٢٠١).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٧٨/٢).
(٦) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (١٠٨/٤).
(٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٩٣/٩).
(٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٠١/٦).
(٩) المصدر السابق (٢٤٤/٦).

٥٧. أبو الصدق المنبجي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٢هـ)[١].

٥٨. محمد بن يحيى اليمني، المعروف ببهران -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٧هـ)[٢].

٥٩. ابن الطباخ الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٠هـ) كان والده طباخًا ثريًا[٣].

٦٠. الحسين الديلمي الذماري -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٥٠هـ)[٤].

٦١. شيخ الأزهر محمد الأَنبَابي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١٣هـ) كان يتَّجر بالأقمشة[٥].

٦٢. الشيخ أحمد بن عيسى -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٧هـ) شارح «نونية ابن القيم». وغالب تجارته الأقمشة القطنية[٦].

٦٣. فَوْزان السَّابق -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) اشتغل بتجارة الخيل والإبل، وكان سفير السعودية بمصر. وله مؤلفات، وجهود مباركة في استخراج كنوز كتب الإمامين: ابن تيمية وابن القيم[٧].

٦٤. محمد نَصِيف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩١هـ) عالم «جدة» وتاجرها ومضيافها. أُولِع بالكتب، فجمع مكتبة عظيمة، ونشر كتبًا سلفية. قال عنه أمين الريحاني: هو دائرة معارف ناطقة[٨].

وأما من المعاصرين؛ فمن أمثلتهم أولئك الستة التالية أسماؤهم:

٦٥. الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٩هـ).

٦٦. الشيخ حمود بن عبد الله التويجري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٣هـ).

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٠٠/٩) وتسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٤٠٤/٣).
(٢) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٤٦٠).
(٣) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٣٠/٢).
(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢٣٢/١).
(٥) الأعلام للزركلي (٧٥/٧).
(٦) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ١٨٥).
(٧) بتصرف من الأعلام للزركلي (١٦٢/٥).
(٨) الأعلام للزركلي (١٠٧/٦).

٦٧. شيخ الحنابلة في عصرنا عبد الله بن عقيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٢هـ).

٦٨. الشيخ عبد القادر شيبة الحمْد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٠هـ).

٦٩. الشيخ عبد الله بن حمد الجلالي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤١هـ).

٧٠. وتاجر حي معاصر أعرفه -بارك الله في عمره-، وهو طالب علم متفنن، وقارئ نَهِمٌ مغمور، لكنه باقتناء الكتب مشهور، وبالتأليف خائض غِماره بعشرات المؤلفات، وقد عوَّد أولاده على القراءة، فصاروا من مرتادي المكتبات. ومن عجائب مواقفه أنه كان في المطار ينتظر رحلته، وبينما هو منهمك بكتاب ضخم معه، وإذ به تفوته الرحلة من شدة انهماكه، فلا يَلوي على شيء، بل يمضي لقراءة كتابه ليلته، حتى أُعلنت الرحلة البديلة قُرب الفجر، ويركب الطائرة وقد أنهى ألفَ صفحة، برغم الإزعاج والترقُّب والسهر!



قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ):

لذة القلب بالعلم والإيمان أعظم اللذات، وحلاوة ذلك أعظم الحلاوات.

[الاستقامة (١/ ٣٤٢) بتصرف يسير]

٢٢. نماذج لعلماء ما تلذَّذوا بالعلم إلا وهم كبار في السن

هذا التبويب المعَنْوَن أعلاه؛ إنما هو لأناس فاتَهم قِطار العلم في الصِغَر، ولكنهم ما استسلموا، ولا توَانَوا، بل كافحوا، وأصروا ليعوِّضوا ما فاتهم.

وغير مجحودٍ أن طلب العلم في الصغر أقوى وأبقى.

قال ابن الجوزي-رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): من أنفق عصر الشباب في العلم؛ فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جَنْي ما غَرس، ويَلْتذُّ بتصنيف ما جَمع، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئًا، بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم، هذا مع وجود لذاته في الطلب[١].

يقول أحد من لم يطلبوا العلم إلا بعد الكبر:

طلب العلم فاتَ أولَ عمري ... في زمانٍ بالكسب كان اشتغالي
فتسلَّيتُ بالمجاميع عنه ... وتنزَّهت في عقول الرجالِ[٢]

وما أبلغ وصية المعافى بن زكريا -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ) حيث قال: إن الرجل قد يبلغه الكِبَر، فتَكَلُّ أدواته، وتضعف آلاته، وتنقطع لذاته، فلا يَحْفَل بشيء من أمر الدنيا، إلا بأن يُثنَى عليه بالعلم والحكمة، فجِدُّوا في طلب العلم، ولا تيأسوا من إدراكه[٣].

وأيضًا- هذا ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) يوصيك قائلًا: ولا يُؤْيِسْك -يا بني- من الخير ما مضى من التفريط؛ فإنه قد انتبه خلق كثير بعد الرقاد الطويل[٤]. ثم ذكر مثالين يعرف أصحابهما، وسأذكر المثالين ضمن النماذج الآتية بعد قليل.

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٢٤٧).
(٢) تاريخ إربل (٢٧٧/١).
(٣) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ٢٠٣).
(٤) صيد الخاطر (ص: ٥٠٦).

وإن الذي يتدارك عمره بانتهاز الوقت، وبانتهاب العلم، يجد غِبَّ ذلك إذا احدودب الظهر، وارتعشت اليدان، فسيكون العلم سلوته، والحفظ مخزونه، برغم الأوجاع التي تَعتريه، والأحزان التي تَنتابه، مثلما قال متحسرًا ذلك الشاعر العالم:

عجزتُ عن حمل قرطاس وعن قلمِ — من بعد إلفي بالقرطاس والقلمِ
كتبتُ ألفًا وألفًا من مجلدةٍ — فيها علوم الورى من غير ما ألمِ
ما زلتُ أطلبه دهري وأكتبهُ — حتى ابتُليتُ بضعف الجسم والهرمِ[1]

ألا ما أطيب سَيْرَ كبارِهم وصغارهم، وليس فيهم صغير!

ولعل سيرتهم تُمَثِّل خير مثال مقنع، لأولئك الشباب أو الكهول الذين يتحجَّجون بأن رِكاب العلم قد فاتهم. ففي أفعال أولئك المكافحين وأقوالهم ما يرُدُّ تلك الحُجج.

بل لعل تلذذهم بالعلم أقوى من تلذذ الشباب، وعزيمتهم أشد؛ لأنهم يسابقون الزمان، ويتداركون الفوات.

نعم؛ طلبوا العلم على كِبر؛ لأنهم قد كانوا قَبلُ في كَدْح الدنيا، أو في علم ضئيل.

نعم؛ لم يطلبوا العلم إلا بأخَرَة! ولكن ما زادهم تأخرهم إلا إصرارًا وانتصارًا، حتى فاقوا كثيرًا ممن رضعوا لُبان العلم. وإليك الموجز، ثم بعض الأنباء بالتفصيل.

موجز بمَسْردٍ لمن طلبوا العلم على كِبَر[2]:

قد استقصيتُ - بحمد الله تعالى وفضله- طوائف عبر القرون، من الذين ما منعهم كِبَر سِنّهم أن يخوضوا غِمار العلم، وأن يُثبِتوا لمَن وراءهم أن تقدُّم العُمر ليس عَيبًا ولا عائقًا.

---

(١) نكت الهميان في نكت العميان (ص: ٧٧).

(٢) يوجد من الأعلام الكبار من اتجه للعلم صغيرًا، لكنه لم يتخصص في العلم الذي برع فيه إلا بمنتصف شبابه، ومنهم على سبيل المثال الإمام أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ) فقد بدأ طلب الفقه وعمره عشرون سنة. وكذلك ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) أقبل على الحديث وعمره عشرون سنة. انظر: مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث (ص: ١٥٢)ومقدمة الإصابة في تمييز الصحابة (١٠٢/١).

فإليك الآن بضعًا وثمانين اسمًا، ما بين عالم لامِعٍ وغير لامِع، كبروا وما تكبروا على التعلم[١]:

١. حَكيم بن حزام (ت ٥٤هـ) كان يقرأ على معاذ بن جبل ﷺ ، فقيل له: تقرأ على هذا الغلام الخزرجي؟! فقال: إنما أهلكَنا التكبُّر[٢]. وبعد حساب أعمارهما، تبين أن التلميذ أكبر من شيخه بثمان وأربعين سنة!.

٢. عبد الرحمن بن عوف ﷺ (ت ٣٢هـ) قال عنه ابن عباس ﷺ: كنتُ أُقرئُ رجالًا من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف.. رواه البخاري[٣]. وبعد حساب أعمارهما، تبين أن التلميذ أكبر من شيخه بثمان وثلاثين سنة!.

٣. زاذان الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢هـ) تلميذ ابن مسعود[٤].

٤. العابد الزاهد مالك بن دينار -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠هـ)[٥].

٥. أبو غياث التميمي العنبري -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ)[٦].

٦. صالح بن كيسان المدني -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ)[٧].

٧. موسى بن عقبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ)[٨].

٨. زُفَر تلميذ أبي حنيفة -رحمهما الله تعالى- (ت ١٥٨هـ) حفظ القرآن في سنتين من آخر عمره، فرُئِيَ بعد موته في المنام، فسئِل: ما حالُك؟ فقال: لولا السنَتين لهلك زُفَرُ[٩].

---

(١) هؤلاء الأعلام الستة والثمانون يستحقون أن يُفرَدوا بكتاب، ويُبسط أثرُهم، فلعل أحدًا يَنتدب لذلك بشيء من البسط، فدونَه المادة الخام بين يديه.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٦٣/١).

(٣) صحيح البخاري (٦٨٣٠).

(٤) التوابين لابن قدامة (ص: ١٢٢).

(٥) المصدر السابق (ص: ١٢٤).

(٦) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٣٤/٩).

(٧) المصدر السابق (١٧٨/٩). وأما أنه طلب العلم وهو ابن سبعين سنة؛ فهذا قاله الحاكم! لكن عقَّب ابن حجر قائلًا: هذه مجازفة قبيحة، مقتضاها أن يكون صالح بن كيسان وُلد قبل بعثه النبي ﷺ. تهذيب التهذيب (٤٠٠/٤).

(٨) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٠٠/٩).

(٩) شرح مسند أبي حنيفة (٤٥/١).

٩. العالم الزاهد ابن أبي ذئب -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٩هـ)(١).

١٠. العابد التابعي الفضيل بن عياض -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٧هـ)(٢).

١١. غنجار أبو أحمد البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٧هـ)(٣).

١٢. المقرئ النحوي الكسائي -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ)(٤).

١٣. الإمام أبو عبد الله العتقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩١هـ) صاحَبَ مالكًا وله ستون سنة. وقد أنفق أموالًا كبيرة في طلب العلم(٥).

١٤. أصبغ تلميذ الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٠هـ)(٦).

١٥. اللغوي ابن الأعرابي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ)(٧).

١٦. الحافظ المحدث عبيد الله القواريري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٥هـ)(٨).

١٧. الحافظ هارون الحمال -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٣هـ) كان حمَّالًا، ثم عالمًا(٩).

١٨. الفقيه، المحدث الحارث بن مسكين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٠هـ)(١٠).

١٩. واصل بن عبد الله الجمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٢هـ) - تلميذ سحنون(١١).

٢٠. عبد الملك بن قطن المهري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٣هـ)(١٢).

٢١. أبو عِقال غَلْبُون بن الحَسَن -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) نشأ ماجنًا خليعًا، ثم

---

(١) تاريخ بغداد (٥١٥/٣) وفيه: كان ابن أبي ذئب يتشبَّب في حداثته، حتى كبر وطلب الحديث، وقال: لو طلبتُه وأنا صغير كنت أدركت مشايخ فرطت فيهم، وكنت أتهاون بهذا الأمر حتى كبرتُ وعقلتُ.

(٢) الطبقات الكبرى ط العلمية (٤٣/٦).

(٣) العبر في خبر من غبر (٢٢٧/١).

(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٣٣/٩).

(٥) العبر في خبر من غبر (٢٣٨/١).

(٦) تاريخ الإسلام ت تدمري (٩٧/١٦).

(٧) طبقات النحويين واللغويين (ص: ١٩٦).

(٨) سير أعلام النبلاء (٤٤٢/١١).

(٩) المقصد الارشد (٧٢/٣).

(١٠) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥٤/١٢).

(١١) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (٤٣٢/١).

(١٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢١٠/١) وطبقات النحويين واللغويين (ص: ٢٣٢).

أقبل على العلم والعبادة(١).

٢٢. أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ)(٢).

٢٣. أبو علي الثقفي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ)(٣).

٢٤. الوزير القاضي شيخ الحنفية الحاكم السلمي-رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ)(٤).

٢٥. سعيد بن مُخَارق الإلبيري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤١هـ)(٥).

٢٦. الإمام ابن إسحاق الصبغي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٢هـ) اشتغل بالفروسية، فلم يَطلب العلم، حتى بلغ اثنتين وعشرين سنة(٦).

٢٧. خيثمة الأَطرابلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٣هـ) سمع الحديث بعد الأربعين(٧).

٢٨. أبو بكر البَهْرامي الدِّينَوَرِيّ-رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٩هـ)(٨).

٢٩. الرحالة محمد البشاري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٠هـ) كان تاجرًا، ثم جغرافيًا(٩).

٣٠. إمام الشافعية القفال المروزي -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٧هـ)(١٠).

٣١. الفقيه سُليم بن أيوب الرازي-رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٧هـ) تفقه بعد الأربعين(١١).

٣٢. الفقيه أبو عمر البسطامي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٨هـ)(١٢).

٣٣. ابن حزم الظاهري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) أقبل على العلم بعد أن الْتحى، وصار وزيرًا(١٣).

---

(١) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (١/٥٢٧).

(٢) لسان الميزان (١/٢٧٥).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/١٩٢).

(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥/١١٣)الروض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم (٢/١٢٠٧).

(٥) بغية الوعاة (١/٥٩٠).

(٦) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/١١).

(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧/٧٢).

(٨) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥/٤١٣).

(٩) انظر: الأعلام للزركلي (٥/٣١٢).

(١٠) وفيات الأعيان (٣/٤٦).

(١١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٢/٢٥٩).

(١٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥/٥١).

(١٣) لسان الميزان (٥/٤٩١) وفي تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/٢٢٨): نبذ الوزارة، وأقبل على العلم، وبرع في

٣٤. خلف الأخفش -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٦٠هـ) تعلم العربية وهو في عشر الأربعين[١].

٣٥. ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) أقبل على العلم بعد بلوغه ثلاثًا وعشرين سنة[٢].

٣٦. أبو الحسن الدامغاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) قال: كنت في صَبْوتي متشاغلًا بالبطالة، غير ملتفت إلى العلم، فأحضَرَني أبي، رحمه الله وقال لي: يا بني! لستُ أبقى لك أبدًا، فخذ عشرين دينارًا، وأفتح لك دكان خباز وتكسَّبْ، فقلت له: ما هذا الكلام؟! قال: فافتح دكان بزّاز بالعلم. واجتهدتُ، ففتح الله -تعالى- عَلَيَّ[٣].

٣٧. النحوي عبد الله بن السّيد البطليوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢١هـ).

٣٨. المحدث أبو الحسن الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٤هـ)[٤].

٣٩. أبو محمد الحلواني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٦هـ) قال: مات أبي وأنا ابن إحدى وعشرين سنة، وكنت موصوفًا بالبطالة، فأتيتُ أتقاضى بعض سكان دار قد ورثتُها؛ فسمعتُهم يقولون: جاء المدبَّر[٥]، فقلت لنفسي: يُقال عني هذا؟! فجئتُ إلى والدتي فقلت: إذا أردتِ طلبي فاطلبيني من مجلس الشيخ أبي الخطاب. ولازمتُه؛ فما خرجتُ إلا إلى القضاء، فصرتُ قاضيًا مدة[٦].

٤٠. الطبيب المحدث الحسن بن علي البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٨هـ)[٧].

٤١. الفقيه الحنبلي الأعزّ البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كان مغنِّيًا ثم تاب، وأقبل على العلم، وحفظ «مختصر الخرقي»[٨].

المنطق، ثم أعرض عنه.

(١) بغية الوعاة (٥٥٥/١).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٥٤/١٨).

(٣) صيد الخاطر (ص: ٥٠٦).

(٤) التحبير في المعجم الكبير (٥٨٨/١).

(٥) أي: الذي يعيش بمال غيره.

(٦) صيد الخاطر (ص: ٥٠٦).

(٧) تاريخ الإسلام (٣٠١/٣٧).

(٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٨٦/٦).

٤٢. أبو العلاء الهمذاني العطار -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ)[١].

٤٣. أبو طالب الكرخي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٥هـ) كان بارعًا في ضرب العود، ثم تركه وأقبل على العلم، فسادَ وأفاد[٢].

٤٤. مجير الدين ابن بقيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٢هـ) كان خياطًا، ثم عالِمًا[٣].

٤٥. أبو إسحاق العراقي الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ) كان يعمل النُّشّاب في القاهرة، ثم اشتغل بالعلم[٤].

٤٦. تاج الدين أبو اليمن الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ).

٤٧. ابن الفراء المعروف بالقُوما -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٣هـ) كان صاحب لهو ولعب، ثم تاب، وانقطع للحديث[٥].

٤٨. ابن نصر التنوخي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٤هـ) أقبل على العلم والحديث بعد الأربعين[٦].

٤٩. المحدث يوسف بن خليل بن قراجا -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٨هـ)[٧].

٥٠. سلطان العلماء العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ)[٨].

٥١. ابن شيخ السلامية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٩هـ) زهِد في المناصب، وأكبَّ على العلم، وشرح «مراتب الإجماع» لابن حزم، في عشرة أسفار، واستدرك عليه[٩]. وحسبُك علما بمن يستدرك على ابن حزم.

٥٢. الفقيه أبو علي ابن العُمُك -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٥هـ) [١٠].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٧٥) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/٢٠٤).

(٢) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٣٢٧).

(٣) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٤/٥٨٣).

(٤) المقفى الكبير (١/١٩٦).

(٥) إكمال الإكمال لابن نقطة (٤/٦٦٥).

(٦) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام لابن دُقْماق (ت ٨٠٩ هـ) (ص: ١٦٦).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢٣/١٥١).

(٨) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٢١٢) وطبقات المفسرين للداوودي (١/٣٢١).

(٩) الوافي بالوفيات (١٣/١١١).

(١٠) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/٣٦١) والعقود اللؤلؤية للزبيدي (١/١٦١).

٥٣. يحيى بن زعيب الرحبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) كان تاجرًا، فلما كبر دفع ماله لولده، وأقبل على الإسماع، وكان يُقصَد لسماع الصحيح، وله به نسخة قد أتقنها[١].

٥٤. الفقيه النحوي عز الدين القوّاس -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٦هـ) كان يعمل صنعة القِسِيّ، ثم اشتغل، وحصّل على كِبر سِنّه[٢].

٥٥. محمد بن مسلَّم الدمشقي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٦هـ) مشيخته نحو أربع مئة شيخ، وكان قد تعلم الخياطة، ثم اشتغل، وحفظ القرآن[٣].

٥٦. عالم بغداد صفي الدّين عبد المؤمن ابن شمائل -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٩هـ) اشتغل أول عمره بالأعمال الدّنيوية، ثم أقبل على العلم، وعدد شيوخه ثلاث مئة شيخ[٤].

٥٧. ابن النجار الحلبي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) كان أبوه نجارًا، فنشأ في صناعته، ثم اشتغل بالعلم، فمهر وتميز، إلى أن أفتى ودرَّس[٥].

٥٨. ابن الهليس المهجمي -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٠٠هـ) نشأ في حال بزَّة وترفُّه، ثم اشتغل بالعلم بعد أن جاوز العشرين، ولازَمَ الشيوخ[٦].

٥٩. الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل اليمني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) وليَ السلطنة، وكان طائشًا، ثم توقّر وأقبل على العلم والعلماء، وأحبَّ جمع الكتب[٧].

٦٠. القاضي شمس الدين النابلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) كان خياطًا، ثم عالمًا[٨].

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٤٩/١).
(٢) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٢٢٨/١).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠/٦).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٧٨/٥).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٦/٦).
(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر (٥٥٦/٣).
(٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٥/٩).
(٨) تاريخ ابن حجي (٥٥٤/٢).

٦١. علاء الدين أبو الحسن الخوارزمي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٦هـ) كان أبوه من الأجناد، وأكبَّ هو على الاشتغال بالعلم، ثم طالَع في كتب ابن حزم، فهَوِيَ كلامه[1].

٦٢. الأمير العالم موسى باشا ابن السلطان محمود الرومي-رحمه الله تعالى- (بعد ٨١٥هـ)[2].

٦٣. محمد ناصر الدين ابن البيطار -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢١هـ) كان يَتعانَى صناعة البيطرة، ثم أقبل على الفقه، ففاقَ أقرانَه[3].

٦٤. شهاب الدين أحمد ابن القاضي تاج الدين -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ)[4].

٦٥. ابن زكنون الحنبليّ -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٧هـ) كان جمّالًا، ثم عالمًا، وقد شرح «مسند أحمد» ورتّبه على أبواب «البخاري» في مئة وعشرين مجلدًا[5].

٦٦. شهاب الدين القرداح -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤١هـ) تَعَانَى الاشتغال بصناعة الإنشاد، فكان فائقًا فيها، ثم اشتغل بالعلم، وحضر مجالس الحديث، وخلّف كتبًا كثيرة جدًا، تزيد عن ألف مجلد[6].

٦٧. المقرئ أحمد الحناوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٨هـ)[7].

٦٨. شيخ الحنابلة ابن قندس -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦١هـ) تَعانَى الحياكة كأبيه، ثم حفظ القرآن في زمن يسير، مع استمراره لمعاونة أبيه في الحياكة، ثم حفظ «المقنع» و«الطوفي» في الأصول، و«ألفية النحو»[8].

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩١/٩).
(٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ٢١١) والشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ١٣).
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (١٨٨/٣).
(٤) الدارس في تاريخ المدارس (٢٨١/١).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢١٤/٥) ونيل الأمل في ذيل الدول (٣٤٩/٤).
(٦) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٧٧/٣).
(٧) المصدر السابق (٦٩/٢) وفيه قصة الحِناوي أنه جوَّد بقلمه الخط فأجاد، فقال له بعضهم: اترك الاشتغال بالكتابة، وأقبِل على العلم؛ فقُصارى أمرك في الكتابة أن تبلغ مرتبة شيخك؛ فقيه كتاب! فنفعه الله بنصيحته، وأقبل على العلم مِن ثَمَّ.
(٨) المصدر السابق (١٤/١١).

٦٩. اللغوي الفقيه محمد بن مبارك القسطنطيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٨هـ)(١).

٧٠. الفقيه الشافعي ابن الفألاتي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٠هـ)(٢).

٧١. القاضي ابن الجليس الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ) كان في ابتداء أمره يتَّجر، ثم أحب العلم، وحفظ «مختصر الخرقي»(٣).

٧٢. أحمد بن زكري التلمساني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٩هـ) كان حائكًا، فدفع له شيخه ابن زاغو غزْلًا ينسجه له، وقال له: مثلك يشتغل بالعلم لا بالحياكة. ثم ذهب ابن زاغو إلى أمه، وحضَّها أن يطلب ولدها العلم، فنفع الله بنصحه(٤).

٧٣. عبد القادر الأبَّار -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٤هـ) كان يصنع الإبر، ثم اشتغل في العلم، ورحل في طلبه، ومن تلاميذه السخاوي(٥).

٧٤. الواعظ المحدّث ابن الكيّال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٩هـ) كان تاجرًا، ثم ركِبَتْه ديون كثيرة، ولازَمَ العلم والعلماء(٦).

٧٥. أحمد بن سليمان بن كمال باشا -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٠هـ)(٧).

٧٦. مخلوف البلبالي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤١هـ) ترك التجارة، وحفظ «البخاري»(٨).

٧٧. محب الدين ابن الزّرخوني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٤هـ)(٩).

٧٨. المفسر الفقيه التركي دَدَه خليفة -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٣هـ)(١٠).

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٥٧٢/٢).

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٣٤٩/١٦).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٣٦/٩).

(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٢٩).

(٥) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢٤٢/١).

(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٢٧/١٠).

(٧) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٢٦).

(٨) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٦٠٨).

(٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٩٨/١٠).

(١٠) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٣٧٤).

٧٩. درويش الأرتقي الدمشقي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٤هـ)[١].

٨٠. محمد بن عتيق الحمصي الشافعي (ت ١٠٨٨هـ)[٢].

٨١. محمد ميرزا السروجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٨هـ) كان يبيع السروج، ثم عالِمًا[٣].

٨٢. عثمان بن حمودة الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٢٠هـ)[٤].

٨٣. أبو عبد الله محمّد كمّون -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٣هـ) كان أول حياته من صيادي السّمك، ثم مَنّ الله عليه بالعلم في كِبَر سنّه[٥].

٨٤. الشيخ علي بن محمد طامِش الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٩هـ) اشتغل بادئ أمره بالتجارة، ثم انكسر عليه مال، فمالَ إلى الاشتغال بالعلم[٦].

٨٥. المختار بن بون الجكني -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٠٠هـ)[٧].

٨٦. عبد الله بن فايز أبا الخيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥١هـ) طَلَبَ العلم بعد بلوغه ثلاثين سنة[٨].

فهؤلاء ستة وثمانون عالِمًا، ما ردَّهم كِبَر سنُّهم، أن يخوضوا غِمار العلم، فيسبقوا من قبلهم، ويَفوقوا من معهم، ويكونوا قدوة لمن بعدهم. ألا يكفيك ستة وثمانون مثالًا؟!

وهذا الاستعراض فيه مَسْلاة للمرء في نفسه، أن في العمر فسحة للتعلم، بل

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٤٩/٢).

(٢) المصدر السابق (٣٤/٤).

(٣) المصدر السابق (٢٠٢/٤).

(٤) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١٧٢/٣).

(٥) نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار (٣٧٦/٢).

(٦) الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - محمد بن يحيى زبارة الصنعاني (ت ١٣٨١هـ) (١٧٥/٢).

(٧) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٢٧٨).

(٨) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٦٤١/٢).

للتقدم في العلم، والإمامة فيه. وهذا يقطع الطريق على من يقول: فاتَنَي قطار العلم. أو من يقول: شغَلَتْني التجارة عن العلم!.

كما أن فيه مَسْلاةً للأب، ألا يَيْأس من ولده الزاهد بالعلم، وتحفيزًا للعالِم مع تلميذه العازب عن الفهم أو الحفظ: أن الله قد يتفضل بعد زمان، فيَقذِف في قلب هذا العازب همةً وقَّادة، ونية صادقة، فيلحق بركب العلماء الذين سبَقوه، بل يسبقهم سَبْقًا بعيدًا.

وما مضى هو الموجز، وإليك الآن بعض التفصيل، وتسليط الأضواء على أخبار الأحبار الكهول:

لم يزوِّجوه لأنه لا يطلب العلم!

الفقيه البارع أبو علي ابن العُمُك -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٥هـ): كان في أول أمره رئيسًا على قومه، ولا يشتغل بشيءٍ من طلب العلم. وكان خطب ابنة فقيه البلد، فامتنع من تزويجه إياها، وقال لهُ: لستَ كفؤًا لها؛ فإنك رجل جاهل! فأنِفَ من قولهِ، فاشتغل بطلب العلم، حتى صار إمامًا. ثم خطبها فزوَّجوه[1].

لا تيأس: اطلب العلم ولو كبرتْ سنُّك:

قصة عجيبة لأبي بكر القَفّال المروزي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٠هـ) أحد أركان مذهب الشافعي، وكان ابتداء اشتغاله بالفقه على كِبَر السن.

وقد كان القفّال الشاشي صنع قُفلًا ومفتاحًا وزنه خفيف جدًا، فأعجب الناس به جدًّا، وبلغ خبره إلى القفّال المروزي، فصنع قفلًا مع مفتاحه وزنه رُبْع وزن الأول، وأراه الناسَ فاستحسنوه، ولكن لم يشِعْ له ذِكْر، فقال يوما لبعض من يأنَس إليه: ألا ترى كلّ شيء يفتقر إلى الحظ؟ عمل الشاشي قفلًا وزنه دانَق، وطنّت به البلاد، وعملتُ أنا قُفلًا بمقدار رُبعه؛ ما ذكَرني أحد! فقال له: **إنما الذِّكر بالعلم لا بالأقفال.** فرغب في العلم، وقد بلغ من عمره أربعين سنة، فجاء إلى شيخ من أهل مرو، وعرّفه رغبته فيما رغب فيه،

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٣٦١/٢) والعقود اللؤلؤية للزبيدي (١٦١/١).

فلقّنه أول كتاب المزني، وهو: «هذا كتاب اختصرتُه». فرقِيَ إلى سطحه، وكرّر على نفسه هذه الكلمات الثلاث، من العشاء إلى أن غلبته عينه، فنام، ثم انتبه وقد طلع الفجر وقد نسيَها، فضاق صدره وقال: أَيْش أقول للشيخ؟!

وخرج من بيته، فقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر! لقد أسهرتنا البارحة في قولك: هذا كتاب اختصرته! فتلقَّنها منها، وعاد إلى شيخه، وأخبره بما كان منه، فقال له: لا يصدّنّك هذا؛ فإنك إذا لازمتَ الحفظ صار لك عادة. فجَدَّ حتى كان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة؛ أربعين جاهلًا، وأربعين عالمًا، وشرح «مختصر المزني» شرحين، وانتهت إليه رياسة هذا المذهب بالعراق[1].

لو كان حيًا لكفَّر عن يمينه:

كان أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) يقرأ على خاله المزني، فمرت مسألة دقيقة، فلم يفهمها أبو جعفر، فبالغ المزني في تقريبها له، فلم يتفق ذلك، فغضب المزني متضجرًا، فقال: واللهِ لا جاء منك شيء! فقام أبو جعفر من عنده، وتحوَّل من المذهب الشافعي إلى الحنفي! إلى أن صار إمامًا، حتى إنه لما صنف مختصره في الفقه قال: رحم الله المزني؛ لو كان حيًا لكفَّر عن يمينه![2].

والعبرة بإيجاز: لا تحقر بَليدًا!

عيَّروه: يا جاهِل:

المختار بن بون الجكني -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٠٠هـ) كان في أول أمره يضرب أقرانه من الصبيان، وينزع منهم ما بأيديهم: فاتفق إنه سطا ذات يوم على صبي فضربه، فسبَّت أم المختار سبًا قبيحًا، وعيرته بالجهل، فأنِف لذلك، وسار من غير علم أبويه، يريد العلم، وشرع في قراءة «الآجرومية»، فلم يفهمها، ثم فتح الله عليه[3].

---

(١) معجم البلدان (١١٦/٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (ص: ٤٥٩).

(٢) معجم السفر (ص: ١٦) وانظر: لسان الميزان (٢٧٥/١).

(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٢٧٨).

والعِبرة بإيجاز: رب تحطيم نفَع!.

نصحَه فتاب فصار عالِمًا:

مر عبد الله بن مسعود ﷺ (ت ٣٢هـ) ذات يوم في نواحي الكوفة، فإذا فتيان فُسَّاق قد اجتمعوا يشربون، وفيهم مُغَنٍ يقال له: «زاذان» -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣هـ)، وكان له صوت حسن، فلما سمع ذلك عبدُ الله قال: ما أحسنَ هذا الصوتَ لو كان بقراءة كتاب الله! وجعل الرداءَ على رأسه ومضى، فسمع زاذانُ قولَه فقال: مَن كان هذا؟ قالوا: ابن مسعود، صاحبُ رسول الله ﷺ قال: وأي شيء قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت! لو كان بقراءة كتاب الله -تعالى-. فقام وضرب بالعود على الأرض، فكسَره، ثم أسرع فأدركه، ووضع المنديلَ في عُنق نفسه، وجعل يبكي بين يدي ابن مسعود، فاعتنقه، وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبدالله: كيف لا أحب من قد أحبه الله ؟! فتاب، ولازَم ابنَ مسعود حتى تعلم القرآن، وصار إماما في العلم(١).

والعبرة بإيجاز: رب كلمةٍ لم تُلْقِ لها بالًا صادَتْ وصارتْ للعلم حِبالًا.

أنِفَ من قولهم: لحنتَ!

الكسائي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) تعلم النحو على كِبَر سِنِّه؛ وسببه أنه مشى يوما حتى أعيا، فجلس وقال: عَيِيْتُ. فقيل له: لحنتَ! قال: كيف؟! قيل: إن كنت أردت التعب فقل: أعييتُ، وإن كنت أردت انقطاع الحيلة فقل: عيِيتُ. فأنِفَ من قولهم: لحنتَ! واشتغل بالنحو حتى مَهَر، وصار إمام وقته(٢).

والعبرة بإيجاز أن: العمر مجرد رقم!.

نكحها قبل العدة جاهلًا:

أبو إسحاق العراقي الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ) كان يعمل النُّشّاب في القاهرة، ثم اشتغل بالعلم. وذلك أنه اشترى جارية، فبات معها، ثم أصبح في دكّانه، فقال

---

(١) التوابين لابن قدامة (ص: ٢٠١).

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٥٩).

له بعض جيرانه: كيف تجتمع معها قبل أن تستبرِئَها؟ فقال: وما الاستبراء؟ قال: أن تحيض في مُلكك. فتجرّد لطلب العلم[١].

أبوه يمنعه من العلم:

ذكر خليل بن أيبك الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) عن نفسه: أن أباه لم يُمَكِّنه من الاشتغال بالعلم، حتى استوفى عشرين سنة، فطلب العلم بنفسه[٢].

والعبرة بإيجاز: طلب العلم ليس له عمر محددا.

احتلم مرتين، واغتسل في شدة البرْد مرتين:

سلطان العلماء العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ) لم يشتغل بالعلم إلا على كِبَر. وله قصة طريفة ثم عجيبة، فقد احتلم ذات ليلة شديدة البرْد، فاغتسل في البِركة، ونام، فاحتلم ثانيًا، فعاد فاغتسل، فأغمي عليه من شدة برد الماء، فسمع نداء: يا ابن عبد السلام، أتريد العِلم أم العمل؟ فقال: أريد العلم؛ لأنه يَهدي إلى العمل. وأصبح فأخذ كتاب «التنبيه» في الفقه، فحفظه في مدّة يسيرة، وأقبل على العلم، حتى صار إلى ما صار[٣].

والعبرة بإيجاز: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.

أحرَجوه فطلب العلم:

شهد ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) جنازة، فدخل المسجد، فجلس قبل أن يصلي، فقيل له: قم فصلِّ تحية المسجد، ففعل، ثم حضر أخرى، فبدأ بالصلاة، فقيل له: اجلس؛ ليس هذا وقت صلاة! وكان بعد العصر، فحصل له خِزْيٌ. فقال: دُلُّوني على دار الفقيه. ثم جدَّ في الطلب، إلى أن صار منه ما صار[٤].

والعبرة بإيجاز: اصنع من الأحجار التي تتعثر بها سُلَّمًا، ترتقي به للأمجاد.

---

(١) المقفى الكبير (١/١٩٦).
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢/٢٠٨).
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٢١٢) وطبقات المفسرين للداوودي (١/٣٢١).
(٤) لسان الميزان (٥/٤٩١).

طلب علم ثم انقطع ثم رجع:

سعيد بن مُخَارق الإلبيري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤١هـ) عُني بعلم اللغة والإعراب، ثم تطلع للرياسة، فخرج عن طبقته، ثم انقبض وعكف على العلم[١].

والعبرة بإيجاز: الخبيئة الصالحة تُنْجِيْكَ!.

مخالطته للأعراب رفعت علمه:

ابن الأعرابي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ) لم يَزَل مُرمِدًا في علمه، لا مزيد عنده، وكان غير مفارِق للناس، حتى قدِم أعراب من اليمامة، فأخذ عنهم غريب اللغة خلال شهر، فتفتَّق لسانه منهم، ففاقَ في الغريب[٢].

والعبرة بإيجاز: الخِيَرة خفية!.

ترك العلم عشرين سنة ثم عاد:

محمد بن عتيق الحمصي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٨هـ) برع في سائر الفنون..ثم عرض له قاطع عن العلم، ففتح حانوتًا للبيع، وكثرت دنياه، بحيث أعرض عن النظر في كتب العلم نحو عشرين سنة، ثم طرَقه طارق الخير، فرجع إلى ما كان عليه، إلى أن مات.

فرآه بعض إخوانه في المنام بعد موته، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غَفَر لي، وكتَبَني عنده من العلماء. قيل له: كيف، وقد كنتَ انقطعتَ عن العلم مدة؟! فقال: الفضل أوسع، وما رأيتُ إلا كل خير، وإن أردتَ النجاة في الآخرة، فعليك بالاشتغال بالعلم؛ فإنه من أعظم أسباب المغفرة عند الله -تعالى-[٣].

والعبرة بإيجاز: الأعمال بالخواتيم!.

---

(١) بغية الوعاة (١/٥٩٠).

(٢) طبقات النحويين واللغويين (ص: ١٩٦).

(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٣٤).

جندي ذاق حلاوة العلم:

درويش الأرتقي الدمشقي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٤هـ) كان جنديًا، فلما ذاق حلاوة العلم ترك زِيَّ الجُند، ولبس زِي العلماء، وبنَى قُبيل وفاته في داخل بيته غرفة لكتبه، ولاستقبال المستَفْتِين، وسماها: بيت الفتاوى والكتب[1].

والعبرة بإيجاز: حلاوة العلم تُنسي كل المرارات!.

عجزوا عن الجمع بين العلم والتجارة، فآثَروا العلم:

• الحافظ النحوي المقرئ أبو العلاء الهمذاني العطار -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كان من أبناء التجار، فباع جميع ما ورِثه، فأنفقه في طلب العلم، وسافر مرّات ماشيًا، وكان يحمل كتبه على ظهره[2].

• قال تاج الدين أبو اليمن الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): كنتُ وقت اشتغالي بالعلم أُبغض إخوتي إلى أبي؛ لأنه كان يريدني أشتغل بالمتجر، وكنت أنا أشتغل بالعلم.. فاستغنيت عن حقوقي المالية لهم؛ ليتركوني أطلب العلم، حتى إن الدار التي أنا مقيم فيها كتبتُها لهم[3].

قالوا له: يا جاهل، فغضب، فطلب العلم!

المفسر الفقيه التركي دده خليفة -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٣هـ) كان في أول الأمر مشتغلًا بصنعة الدباغة، حتى أناف عمره على عشرين، وما قرأ حرفًا من العلوم، فاتفق أنه جاء لبلده مفت، فأضافوه، فطلبوا من يجمع لهم الحطب للطبخ، فقال المفتي: ليذهب إليه هذا الجاهل. فذهب إلى جمع الحطب، وفي نفسه تأثر عظيم. فلما بعد عنهم نزل على ماء هنالك، وتوضأ منه، وصلى ركعتين، ثم ضرب وجهه على الأرض، وتوجه

(١) المصدر السابق (١٤٩/٢).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢٧٥/٢) وغاية النهاية في طبقات القراء (٢٠٤/١).
(٣) انظر: معجم الأدباء (١٣٣٣/٣).

بكمال التضرع والابتهال؛ ليكون عالمًا. ثم أخذ الحطب، وجاء وفي وجهه جراحات؛ من شدة مسح وجهه بالتراب، فتَضاحَك القوم منه، فقام وقبَّل يد المفتي، وقال: أريد الدخول في طلب العلم، فقال المفتي: أبعد هذا تطلب العلم؟! فلما أصبح باع ما في حانوته، واشترى مصحفًا، وذهب إلى باب المفتي، وبدأ في القراءة، حتى منَّ الله -تعالى- عليه بأكبر آلائه، فصار من أعيان عصره وعلمائه[1].

أمه تريده عَطّارًا، والله يريده عالمًا:

يقول عالم الاجتماع علي الوردي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٥هـ): رحم الله أمي، وغفر لها؛ فإنها كانت تشتهي أن أكون عطارًا.. فقد كانت معجبة بعطارٍ غنيٍ من معارفها.. وكنت مولَعًا منذ طفولتي بقراءة الكتب، ولكن العطار -أستاذي المحترم- كان يعتقد بأن الكتب هي شر ما يُبتلى به كاسب..فالكتب في نظرِه لا تعطي خبزًا، ولا تشبع جائعًا.. وكنت أنتهِز غياب أستاذي عن الدكان؛ لأنهمك في مطالعة الكتب، ولا أبالي آنذاك بمن يأتيني؛ أو يذهب عني من المشترين. وكانت العاقبة أن طردني الأستاذ شر طِردة من دكانه، أحمد اللهَ على هذه الطردة؛ فقد استطعتُ أن أتفرغ إلى كتبي الحبيبة إلى قلبي.. فإني لو بقيتُ عطارًا لكنتُ بعد سنوات في دار المجانين -والعياذ بالله!-[2].

اشترى كتبًا لا يَفهمها، فكانت فاتحةَ خير له:

قال النحوي عبد الله بن السّيد البطليوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢١هـ): كان سبب طِلْبتي للعلم، أن والدي كان له ثروة، فسلَّم إليَّ مالًا؛ لأدخل به إلى للتجارة، فاتفق أني اجتزتُ في السوق، فوجدت حلقة تباع فيها الكتب، فاستحسنتُ الكتب، وشريتُ منها.. فلما خلوت بها جعلت أتفقدها، وأقول: هذا جيد لا ينبغي أن يباع، وهذا جيد. إلى أن اخترت لنفسي أكثرها، ثم جعلت أطالعها، فلا أفهم معانيها، فيضيق صدري.. ثم

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٣٧٤).

(٢) أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع - خليل مردم بك.

لم تمضِ لي شهور حتى حفظت كتاب «العين» ولذَّ لي العلم(١).

استفزَّه أخوه فطلب العلم:

عبد الملك بن قطن المَهْري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٣هـ): سبب طلبه للعلم أخوه العلامة إبراهيم، وذلك أن عبد الملك مدَّ يده إلى كتاب لأخيه ينظر فيه، فجذَبَه إبراهيم من يده، ووبَّخه بالجهل به، فغضب أبو الوليد، وأخذ في طلب العلم حتى علا عليه(٢).

وقصة أخرى في أن الاستفزاز أَزَّازٌ: قال الإمام مالك: ألقى أبي علينا مسألة، فأصاب أخي، وأخطأتُ، فقال لي أبي: ألهتْك الحمَام عن العلم. فغضبت، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين، وكنت أجعل في كفي تمرًا، وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا: مشغول(٣).

أخطأ في صلاته، فكان سببًا في طلبه للعلم:

واصِلُ بن عبد الله الجمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٢هـ): صلى إلى جانب سحنون، فسلم الإمام، وأطال واصَل الدعاء بعد سلام الإمام، فقال له سحنون: يا واصل، اطلب العلم خير لك. فلزم طلب العلم من ذلك الوقت(٤).

أشار عليه ناصح:

المقرئ أحمد الحناوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٨هـ): كان ناسخًا للكتب، ولم يشتغل بالعلم، فرأى بعضهم حسنَ تصوره للمسائل، فقال: اترك الكتابة، وأقبِل على العلم؛ فقُصارى أمرك في الكتابة أن تبلغ مرتبة شيخك. فنفعه الله بنصيحته، وأقبَل على العلم(٥).

(١) معجم الأدباء (١٥٢٩/٤).
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢١٠/١).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٣١/١) والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٩٨/١).
(٤) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (٤٣٢/١).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦٩/٢).

سؤال متبادر:

وبعد هذا السرد الممتع لهذه السلسلة الذهبية، من كوكبة المكافحين المبادرين أعمارَهم، فثَمَّت سؤال متبادر:

الأول: هل للعلم سِنٌّ معينة؟

وهذا السؤال تَرَدَّد على مَسمع جبال العلم، فدونَك بعض جواباتهم -وقد مرَّ ذِكرها-:

ولما قيل لأبي عمرو بن العلاء -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٤هـ): أيَحْسُن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن حَسُن بالشيخ أن يعيش فإنه يَحْسُن به أن يتعلم[١].

ولما قيل لابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) إلى متى تكتب؟ فقال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد[٢].

ورأى رجلٌ مِحْبَرَةً مع الإمام أحمدَ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) فقال له: يا أبا عبد الله؛ أنت قد بلغتَ هذا المَبْلغ، وأنت إمام المسلمين. فقال: مع المِحْبرة إلى المَقْبرة[٣].

وقيل له: إلى متى يكتب الرجل؟ قال: حتى يموت[٤].

وإليك هذا الاستدراك النفيس للبخاري، عند قول عمر ﷺ (ت ٢٣هـ): تفقَّهوا قبل أن تَسُوْدُوا. فعلَّق البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) مستدرِكًا بقوله: وبعد أن تَسُودُوا. وقد تعلَّم أصحاب النبي ﷺ في كِبَرِ سِنِّهم[٥].

---

(١) الطيوريات (٢/٥٨٧).
(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/٢٨٠).
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ٣٧).
(٤) طبقات الحنابلة (١/١٣٨).
(٥) صحيح البخاري (١/٢٥).

قال ابن المنيِّر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٣هـ): أوصَى الطالب باغتنام الزيادة، قبل بلوغ درجة السيادة[١].

وإن لَترى المتلذذين بالعلم يمتدُّ تلذذهم ولو وَهَن العظم، واشتعل الرأس شيبًا.

ودونَكَ أربعة أمثلة لعلماء، كبرت سِنُّهم، فكبرت هِمَّتهم لنيل العلم بنَهَمٍ:

١. أبو طاهر السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) قرأ «الموطأ» على عبد المعطي القمودي، فلما طعن الشيخ في السن صار يتردد إلى تلميذه أبي طاهر، ويسمع ما يُقرؤه[٢].

٢. ابن العماد الأفقهسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) كان حريصًا على الجمع والمطالعة والكتابة، فكان عَجبًا في ذلك، مع كِبَرِ سِنه[٣].

٣. الشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن السقاف -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦١هـ) كان برغم كِبَر سِنه، وتبحره في العلوم، حريصًا على طلب الفوائد. وكان صاحب له يقول: ما رأيت عاشقًا للعلم، أي نوع كان مثلَه..وإذا سئل لا يجيب على البديهة، بل يقول: افتح كتاب كذا، وعُدَّ من الصفحة الفلانية كذا؛ تجد المسألة[٤].

٤. والرابع شهير ونحرير، وصاحب تفنن وتحرير، ألا وهو الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) حيث ترجم لنفسه، فقال في آخر حياته: وقد أزِف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر! ولو شئتُ أن أكتب في كل مسألة مصنفًا، بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومَداركها ونُقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدِرْتُ على ذلك -من فضل الله، لا بحولي ولا بقوتي[٥].

وبعدَ هذا التطواف المُمتِع، والربيع المُمْرِع: اعلم يقينًا أن العمر مجرد أرقام، وإنما البركة من الله، فقد يطول عمر الرجل بلا بركة، وقد يَقصُر، ولكن يمتلئ من البركات.

واعتبر بهذا الجدول الآتي:

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/١٦٦).
(٢) معجم السفر (ص: ٢٢٦).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٧/٢٥).
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/٨٥).
(٥) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/٣٣٩).

علماءُ مَشاهيرُ، كِبارٌ في العِلم لا العُمُر(١)

م	اسم العالم	عام وفاته	عمره
١	معاذ بن جبل رضي الله عنه	١٨ هـ	٣٦
٢	عمر بن عبد العزيز	١٠١ هـ	٤٠
٣	سيبويه	١٨٠ هـ	٤٠
٤	ابن عبد الهادي	٧٤٤ هـ	٤٠
٥	النووي	٦٧٦ هـ	٤٥
٦	الإمام الشافعي	٢٠٤ هـ	٥٤
٧	أبو حامد الغزالي	٥٠٥ هـ	٥٥
٨	ابن مفلح الحنبلي	٧٦٣ هـ	٥٦
٩	الإمام مسلم	٢٦١ هـ	٥٧
١٠	أبو المعالي الجُويني	٤٧٨ هـ	٥٩
١١	ابن رجب	٧٩٥ هـ	٥٩
١٢	ابن القيم	٧٥١ هـ	٦٠

(١) وللشيخ البحاثة المحقق علي العمران - وفقه الله- كتاب فريد في بابه، اسمه: العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد. وقد أحصَى في كتابه ١٤٧ عالمًا، ولكن فاتَه بعضهم، وقد قيَّدتُ غيرَهم عِدَّةَ ٢٧ عالما شابًا، ممن فات المؤلفَ.

المَغْزَى من هذا الجَدول:

١. الاستعدادُ للموت؛ اقتفاءً بجبال العلم والسابقين. فالبِدارَ البِدارَ!.

٢. أن ذَوي الهِمم لا يرتفعون بمجرد طول الأعمار، بل بجلائل الأعمال، وأعلاها العلم الشرعي.

٣. الإشارة للاعتناء بتواريخ وفيات العلماء. قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): معرفة السيَر، والوقوف على وفاة العلماء من عِلم خاصة أهل العلم، ولا ينبغي لمن وَسَم نفسه بالعلم جهْلُ ذلك[١].



(١) الاستذكار (٥٤/٣).

٢٣. لذة العلم تُنسي لذة الأكل:

لذة الأكل من عيوبها: أن الإنسان إذا أكل وشبع لم يبقَ فيه الالتذاذ بالأكل، والأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع، والجوع نقص وآفة(١).

أما المنهوم بالعلوم والكتب فلذَّته دائمة، وجوعه محمود دائم، ولسان حاله يقول:

بها أُجَلِّي همومي مستريحًا ... إذا جلَّى همومهمُ الشرابُ(٢)

والمتلذِّذ بالعلم يتَّقي كثرة الأكل، ويُقلل مدة أكله؛ لئلا يحجِبه عن مواصلة التلذذ.

وقد أُتي رسول الله ﷺ ذات مرة بتمر، فجعل يأكل منه أكلًا ذريعًا(٣). يعني: سريعًا.

فعلق الوزير ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) قائلًا: وإنما استعجل؛ لئلا يضيع الزمان في الأكل(٤).

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): ما شبعتُ منذ ست عشرة سنة؛ وسبب ذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، وكثرته جالبة للنوم والبلادة، وقصور الذهن، وفتور الحواس، وكسل الجسم(٥).

وهذا لا يختلف عليه اثنان، لكن لكل قاعدة شواذ! فهذا العلامة الحسن بن رحال التدلاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٠هـ) كان قليل النوم، وكثير الأكل، فكان كلما أدام الأكل زادت قُوَاه في المطالعة! وذلك أمر عجيب؛ لمخالفته للعادة، فقد اتفق الأطباء على أن كثرة الأكل تورث النوم، والعكس بالعكس، والله على كل شيء قدير. ومستند

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١٣٩/٢).
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٩٣/٤).
(٣) صحيح مسلم (٢٠٤٤).
(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح (٤٠٢/٥).
(٥) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٧٤).

ما اتفق عليه الأطباء هو العادة؛ لأن كثرة الأكل ينشأ عنها السِمَن، وكثرة الدم، وهما يقتضيان كثرة النوم.

والمقصود أنه لا مقارنة ولا مقاربة -إذًا- بين اللذتين، لذتَي العلم والأكل. وتأمل هذه المقارنة الرائقة الفائقة:

آبار المياه تُحفر للأسفل، وآبار العلم تُبنى للأعلى؛ فإن سُقيا الأرواح وإرواؤها يرتفع بسببها من تأنس به؛ لأن العلم رواء الروح، كما أن الماء رواء الجسد.

فقوتُ الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعِمتَ وأنْ شربتَ

قال حكيم: قوت الأجساد المطاعم والمشارب، وقوت العقل الحكمة والعلم[١].

وقال الحسن بن صالح -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٧هـ): إن الناس لَيَحتاجون إلى هذا العلم في دينهم، كما يحتاجون إلى الطعام والشراب في دنياهم[٢].

بل قال عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ): الرجل إلى العلم؛ أحوج منه إلى الأكل والشرب[٣].

ولذا قيل: لذة العِرفان تُنسي لذة الأبدان[٤].

ومُذ عرفنا لذة العلم لا ... يعجبنا الحلو ولا العذْبُ[٥]

وفي أثر لابن عباس -وله طرق حسنة-: مَنْهومان لا يَشبعان: طالب علم، وطالب دنيا[٦].

قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): هذا يدل على الخروج عن العقل؛ لأن النهِم تجاوز القَدر[٧].

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/٢٥).
(٢) سنن الدارمي (٣٣٦).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/٤).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (١/٣٢٨).
(٥) ديوان المعاني (٢/٧٨).
(٦) أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل (ص: ٣١٢) والأثر في مصنف ابن أبي شيبة (٢٦١١٨).
(٧) الرسائل للجاحظ (١/١٥٧).

فليس للراغب في العلم قناعة ببعضه، فهو يشتهي الاطلاع على العلوم كلها.

وعند «الترمذي» وصححه السيوطي -ومعناه صحيح-: **لن يَشبع المؤمن من خيرٍ يسمعه، حتى يكون مُنتهاه الجنة**(١).

فقد شبَّه استلذاذَه بالمسموع باستلذاذه بالمطعوم؛ لأنه أرغب وأشهى، وأكثر إتعابًا لتحصيله.. فمن شبع فليس بمؤمن كامل، وكفى به مُنفِّرًا عن القناعة من العلم(٢).

فما هـذه الدنيا بطِيب نعيمها ... لأيسرِ ما في العلم من لذةٍ عِـدلا(٣)

ولربما تقول: هذه مبالغة، وليست حقيقة!.

فيقال: هذه مقامات عليَّة، لا يصل إليها أكثرنا، بل لا نتصوَّرها فضلًا أن نتمثلها؛ بسبب دنو البيئة المحيطة بنا.

ولذا قال اللغوي الحافظ النضر بن شميل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٣هـ): لا يجد الرجل لذة العلم حتى يجوع، وينسى جوعه(٤).

ولكن للتشبُّهْ؛ فالتشبُّه بالكرام فلاح. وهلمَّ الآن لمَواقفهم إذا اجتمع لديهم لذيذان؛ مطعوم ومعلوم، فالثاني حتمًا عندهم هو المَروم:

١. كان أبو الدرداء ﵁ (ت ٣٢هـ) يأتي المسجد، ثم يصلي الغداة، ثم يقرأ في الحلقة ويقرئ، حتى إذا أراد القيام قال لأصحابه: هل من وليمة نشهدها، أو عقيقة، أو فطرة؟ فإن قالوا: نعم؛ قام إليها. وإن قالوا: لا؛ قال: اللَّهُمَّ إني أشهدك أني صائم(٥).

٢. قال الشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ): ربما حدَّثتُ عبد الملك بن مروان،

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٨٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. وانظر: التنوير شرح الجامع الصغير (١٢٢/٩).

(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦٨٠/٢) والتنوير شرح الجامع الصغير (١٢٢/٩).

(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب (٣٣٧٦/٧).

(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤١٣/١٤) ولكن لكل قاعدة شواذ. فهذا علي بن إسكندر الحنفي الضرير -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٨هـ) كان عجيبًا في الحفظ والذكاء.وكان كثير الأكل، ضخم البدن، ويقول عن نفسه: أنا آكلُ كثيرًا، وأحفظ كثيرًا. انظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي (٢٣٢/١).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢٨/١).

وفي يده اللقمة، فيُمسكُها، فأقول: يا أمير المؤمنين! أسِغْ طعامك؛ فإن الحديث من ورائه، فيقول: ما تحدثني به أوقَعُ بقلبي من كل لذة، وأحلى من كل فائدة[١].

٣. قال الخليل بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ): أثقل ساعات عليَّ ساعة آكُلُ فيها[٢].

٤. قال عبيد بن يعيش -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٩هـ): أقمت ثلاثين سنة ما أكلتُ بيدي بالليل، كانت أختي تُلقمني، وأنا أكتب[٣].

٥. ابن سحنون المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) كانت له سُرِّيَّة يقال لها «أم مدام». فقال لها: ما عندك الليلة يا أم مدام؟ فقالت: زوج فراخ. فقال: اصنعيهما لنا الليلة. ففعلت ذلك، وقد أخذ فيما هو فيه من التأليف، في كتاب يَرُدُّ فيه على بعض المخالفين، فاشتغل في ذلك إلى الليل، فلما حضر الطعام استأذنَتْه، فقال لها: أنا مشغول الساعة. فلما طال ذلك عليها أقبلت تُلقِّمه الطعام، إلى أن أتى على الفرخين، ثم تمادَى فيما هو فيه، إلى أن أُذِّن في الجامع لصلاة الصبح، فقال لها: يا أم مدام، شُغلنا عنك الليلة، قرِّبي ما عندك من الطعام. فقالت: قد -واللهِ يا سيدي- أطعمته لك. فقال: ما شعرتُ بذلك! لشغله وتعلُّق قلبه بما كان فيه من التأليف[٤].

٦. أحمد بن عبد الله المهدي القيرواني -رحمه الله تعالى- (بعد ٣٠٠هـ) لا يدَع الكتاب، حتى عند طعامه[٥].

٧. النحوي ابن الأنباري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) حضر بين يديه رطب، فجعل يقلِّبه ويقول: إنك لطيب، وأطيب منك حفظ ما وهبه الله لي من العلم[٦].

---

(١) معجم الأدباء (٣٣/١).

(٢) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٨٧).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١٧٨/٢).

(٤) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (٤٤٨/١) لأبي بكر المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٣هـ).

(٥) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢٧٣/٦).

(٦) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٧٢/١٧).

٨. قال أبو الفضل بن المتوكل -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٣هـ): مكثت ثلاثين سنة، أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق، فلا أقدر على ذلك؛ لأجل البكور إلى سماع الحديث[1].

ما لذةُ التمر والحُلواءِ والضرَبِ ... ولا عِناق الغَواني الخُرْد والعُرُبِ
كلذَّتي في انتخاب العلم أجمعهُ ... من المحابر بالأقلام في الكتبِ[2]

٩. شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) قال: كنتُ أيام اشتغالي أشتهي ثريدًا بماء الباقِلاء، فما صحَّ لي أكله؛ لاشتغالي بالدرس[3].

١٠. إمام الحرمين أبو المعالي الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) كانت لذته، ولهْوِهِ، ونُزهته في مذاكرة العلم، وطلب الفائدة من أي نوع كان. وقال عن نفسه: أنا لا أنام، ولا آكُل عادةً، وإنما أنام إذ غلبَني النوم، ليلًا كان أو نهارًا، آكل إذا اشتهيتُ أي وقت كان[4].

١١. قال يوسف الشيرازي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٥٣هـ): رحلتُ إلى شيخنا أبي الوقت السِّجزِّي في آخر بلاد كرمان. فقدَّم لي شيئًا من الحَلْواء، فقلت: يا سيدي! قراءتي بـ«جزء علي بن الجهم» أحب إليَّ من أكل الحَلْواء. فتبسَّم. وحدَّثني ثم أطعمَني[5].

١٢. السَّمَوأل بن يحيى المغربي -رحمه الله تعالى- (ت نحو ٥٧٠هـ) قال عن نفسه: كان لي من الشغَف بهذه العلوم، والعشق لها ما يُلهيني عن المطعم والمشرب، إذا فكرتُ في بعضها. فخلوتُ بنفسي في بيت، وحللتُ جميع تلك الكتب وشرحتُها، ورددتُ على من أخطأ فيها، وأظهرتُ أغلاط مُصنفيها. كل ذلك في السنة الثامنة عشرة من مولدي![6].

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (١٢/٥١٣).
(٢) نشر طي التعريف (ص: ١٩١).
(٣) طبقات الشافعيين (ص: ٤٢٧).
(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣/٩٧) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥/١٦٥).
(٥) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٠/٣٠٧).
(٦) بذل المجهود في إفحام اليهود (ص: ١٢) وغاية المقصود في الرد على النصارى واليهود (ص: ٩٦).

١٣. برهان الدين المرغيناني صاحب «الهداية» -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٣هـ) كان يأتيه الخادم بالطعام، فيضعه بين يديه ويمضي، وهو مشغول بالمطالعة، فإذا مضى دفع الطعام إلى سائل[١].

١٤. اشتهى أحد التلاميذ قطائف، ولم يكن عنده مال، فخرج لصاحب القطائف، فبينما هو واقف عليه، والشهوة تبعث على الطلب، والنفس تأبَى، وإذا بشيخه أبي إسحاق العراقي الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ) يناوله كاغِدةً، ويقول له: اللطائف أحلى من القطائف![٢].

١٥. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين هِمَّتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم[٣].

١٦. قال ابن مُسْدَى الغرناطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٣هـ): كنت أكتب قبل أن أتغدى كراسين[٤].

١٧. كان الحافظ النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) لا يأكل في اليوم والليلة سوى أكلة بعد العشاء، ولا يشرب شربة إلا في وقت السحر[٥].

١٨. شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) كان يغيب في لذة العلم عن حِسِّه، وما رئي ولا سُمع أنه طلب طعامًا قط، ولا غداءً ولا عشاءً، ولو بقي مهما بقي؛ لشدة اشتغاله بما هو فيه من العلم والعمل، بل كان يؤتى بالطعام، وربما يترك عنده زمانًا، حتى يلتفت إليه، وإذا أكل أكل شيئًا يسيرًا[٦].

(١) الدرر المباحة للنحلاوي (ص: ٩٢).
(٢) المقفى الكبير (١/١٩٥).
(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١/١٦).
(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢/٤٣٤).
(٥) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٤/١٣٨).
(٦) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٥٣) وأعيان العصر وأعوان النصر (١/٢٣٦).

١٩. وأيضًا: كان يومًا في بستان الأمير، وكان قد عمل وليمة، وقرؤوا على الشيخ في ذلك اليوم أربعين حديثًا.. وأخذ الشيخ بعد ذلك في الكلام في أنواع العلوم، فبُهت الحاضرون لكلامه، واشتغلوا بذلك عن الأكل(١).

٢٠. أبو الثناة الأصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) كان يُلازم الجامع الأموي ليلًا ونهارًا، مُكبًا على التلاوة، وشغل الطلبة، وكان يمتنع كثيرًا من الأكل ليلًا؛ لئلا يحتاج إلى دخول الخلاء، فيضيع عليه الزمان(٢).

٢١. قال ابن قاضي الجبل -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): كنت في حال الشبوبية ما أتغدَّى إلا بعد عشاء الآخرة؛ للاشتغال بالعلم(٣).

٢٢. الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) في حال أكله لا يُخليه عن المطالعة والإفادة. وقد قال غير مرة: إنني لأتعجب ممن يجلس خاليًا عن الاشتغال(٤).

٢٣. الشهاب البلقاسي الزواوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) كان يطالع في مَشيه، ويُقرئ القراءات في حال أكله؛ خوفًا من ضياع وقته في غيره(٥).

٢٤. يوسف بن زكريا الأنصاري السنيكي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٧هـ) كان لا ينفكُّ عن مطالعة العلم والتأليف يوما واحدًا، فرأى الكُنافة، فصار يتعجب ويقول: ما كنتُ أظن أن الكُنافة تُعمل إلا في رمضان(٦).

٢٥. منصور بن عبد الرزاق الطوخي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٠هـ) إمام الجامع الأزهر، تصدر للإقراء بالأزهر، وصرف فيه جميع أوقاته، حتى كان يأتيه غداؤه وعشاؤه في مكان درسه، ولا يذهب إلى بيته إلا بعد العشاء بساعة، ويغدو إلى الجامع قبل الفجر، واستمر على هذه الحالة إلى أن توفي(٧).

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٣٤٣).
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٨٦/٦).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (١٨٠/٥).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٧٠/١).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣١١/١).
(٦) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١٩٧/٣).
(٧) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤٢٣/٤).

٢٦. العالم الهندي نواب تفضُّل اللكهنوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢١٤هـ) كان من عادته أن لا يأكل الطعام في اليوم والليلة إلا مرة واحدة، وأن لا ينام إلا في ساعات معدودة من النهار، من الفجر إلى الضحى، وكان يخلو ويشتغل بمطالعة الكتب، ولا يزال مشتغلًا بها إلى الصباح، ثم يصلي الفجر(١).

٢٧. وقف متعلم بباب عالِم فقال: واسُوْنا مما رزقكم الله. فأخرجوا له طعامًا، فقال: فاقَتي إلى كلامكم أشد من حاجتي إلى طعامكم؛ اعلموا أن فلانًا طالب هدى، لا سائل ندى. فأذِن له، وأوسعه فوائد، فخرج وهو يقول: عِلمٌ أوضَحَ لَبْسًا، خير من مال أغنَى نفْسًا(٢).

٢٨. المحقق محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨هـ) كتبت عنه ابنة أخيه أ.د. نعمات أحمد فؤاد -رحمهما الله- تصوِّر حياة عمها بقولها: وحياة الرجل الخاصة تدخل في باب الغرائب، فنحن نسميه «صائم الدهر»، فكان لا يُفطر فيه إلا عيدي الفطر والأضحى، وطعامه نباتي، وكان يصوم بغير سحور.. أي أنه يتناول وجبة واحدة كل أربع وعشرين ساعة(٣).

تلك مواقفُ عِدَّتُها ثمانية وعشرون موقفًا، تصِف انهماكهم بالعلم عن الأكل، ولو أردتُ المزيد لزدْتُك، لكن يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

فلتَقْدُر -يا طالب العلم- قَدر ما وهبك الله، ولتُقَدِّر مقدار ما حُرمه أكثر الخلق عن هذه اللذة العليا، بلذات هي أسفلُ منها، وربما أفْسَلُ وأرذل وأذلّ.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها، وما اللذة فيها إلا شرف العلم..فأما الالتذاذ بالمطعم فشغل جاهل باللذة؛ لأن ذاك لا يراد لنفسه، بل لإقامة العوض في البدن.. وأي لذة في المطعم، وعند الجوع يستوي خَشِنه وحسنه؟! فإذا ازداد الأكل، خاطَر بنفسه(٤).

---

(١) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٩٤٠/٧).

(٢) البصائر والذخائر (٨/٥).

(٣) نعمات أحمد فؤاد - مجلة العربي - السنة ١٩٦٨م - العدد (١١٨).

(٤) صيد الخاطر (ص: ٢٨٠).

لَمِحبرة تجالسني نهاري ... أحب إليَّ من أُنس الصديقِ
ورُزْمة كاغدٍ في البيت عندي ... أحب إليَّ من عِدل الدقيقِ[1]



(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١٠٦/١).

٢٤. لذة العلم تُنسي لذة النكاح(١)

إي والله تنسيهم لذة النكاح، وسائر المشتهَيات!.

قال الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): فينبغي أن يُعلم أن لذة المعرفة أقوى من لذة الشهوات، ولذة سائر الحواس الخمس(٢).

بل أشد منه وأعجب، في قول العلامة الأمير صديق حسن خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) عن نفسه: وكثيرًا ما يتفق لي إلى الآن، أني أمتنع عن الستة الضرورية للإنسان، عند غَوصي في بحار العلوم(٣).

ولعله يقصد ضرورات الأكل والشرب، والنكاح، والمخالطة، والمنام، والكلام.

فأما النكاح؛ فهو شهوة غريزية، وفيها مع الأكل لذة مقدمة عند كافة البشر. ولذا تقول العرب عن كبير السن: ذهب منه الأَطيَبانِ: الطعام والنكاح(٤).

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): نهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح، وغاية اللذات العقلية العلم، فمن حصلت له الغايتان في الدنيا، فقد نال النهاية(٥).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): لذتا الأكل والجماع، هاتان اللذتان هما آثرُ اللذات عند الناس، ولا سبيل إلى نَيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما، من مباشرة القاذورات، والتألم الحاصل عَقِبيهما؛ فإن العاقل لو نظر إلى طعامه حال

(١) ثمت كتاب لطيف بعنوان: «العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة -رحمه الله تعالى-. وقد جمعتُ جملة منهم، غير ما ذكر أبو غدة.

(٢) باختصار من إحياء علوم الدين (٣٠٨/٤).

(٣) الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ٢٧٠).

(٤) العين للفراهيدي(٤٦١/٧).

(٥) صيد الخاطر (ص: ١٩٠).

مخالطته ريقه، وعجنه به، لنفرت نفسه منه.. وأما لذة الوِقاع؛ فإن أعضاء هذه اللذة هي عورة الإنسان، التي يُستحيا من رؤيتها وذكرها..ولا تتم لذة المواقَعة الا بالاطلاع عليها، وإبرازها، والتلطخ بالرطوبات المستقذرة..فصعوبة تلك المزاوَلة، والمحاوَلة، والمطاوَلة، والمراوَضة، والتعب؛ لأجل لذة لحظة كَمَدِّ الطرْف.. فأين المقايسة بين هذه اللذة، وبين التعب في طريق تحصيلها[١].

ولذلك فالتوازن مطلوب، وتقديم أعلى اللذات على أدناهما هو عين العقل وعلامة التوفيق:

ليس شيء ألذ عندي ولا آنَس لي من تأمل في كتابِ
هو أشهى من ارتشافِ رِضابٍ من حبيب من بعد طولِ اجتنابِ[٢]

وإليك الآن جملة من المواقف على إيثارهم للعلم على النكاح:

١. الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) اشترى أصحابه له جارية، فلما كان الليل أقبل على الدرس، والجارية تنتظر اجتماعه معها، فلم يلتفت إليها! فلما أصبحت سارت إلى النخَّاس وقالت: حبَسوني مع مجنون! فبلغ الشافعيَ قولها، فقال: المجنون من عرف قدر العلم ثم ضيَّعه، أو تَوانَى فيه حتى فاته[٣].

٢. الزبير بن بكار -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) قيل لزوجته: زوجك خير رجل لأهله، لا يتخذ ضرة ولا يشتري جارية، فقالت: واللهِ لهذه الكتب أشد علَيَّ من ثلاث ضرائر[٤].

٣. أبو بكر الأنباري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) رأى جارية تباع، فوقعت في نفسه، فدخل إلى الخليفة الراضي بالله، فقال: أين كنت؟ فأخبره برؤية الجارية، فاشتراها الخليفة، وبعثها إلى منزله، فلما دخل رآها فقال: اصعدي إلى فوق لأستبرئك. ثم جلس يطلب مسألة، فاشتغل قلبه، فقال للخادم: امضِ بها إلى النخَّاس. فقالت:

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٣٤).
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٤).
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه للعسكري (ص: ٧٨).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب (١/١٠١).

عرِّفْني ذنبي؟ فقال: ما لَك ذنب، غير أنك شغلتِيني عن علمي. فبلغ ذلك الراضي، فقال: لا ينبغي أن يكون العلم في قلب أحد أحلى منه في صدر هذا[١].

أفتأُ الدهرَ هاجرًا للغَواني ... ووَصولًا للكُتْب والألواحِ[٢]

٤. ابن محرم الجوهري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٧هـ) أحد تلامذة ابن جرير الطبري، قال: تزوجتُ، فجلستُ على العادة أكتب، فجاءتْ أم الزوجة في بعض الأيام، فرَمَتْ بالمِحبرة فكسرَتْها، وقالت: هذه شرٌ على بنتي، من ثلاث مئة ضَرَّة[٣].

٥. أبو نصر السجزي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٤هـ) يقول عنه أحد تلاميذه: كنت عنده ببيته، فدُق الباب فقمت ففتحته، فرأيت امرأةً فقالت: أريد أن أسال الشيخ عن مسألة. فاستأذَنَتْه فأذن لها، فلما دخلت عليه أخرجت ألف دينار، ووضعتها بين يدي الشيخ، وقالت: هذا يكون بحكم الشيخ، ينفقه كما يرى. فقال لها: المقصود ماذا؟ قالت: تتزوجني، ولا حاجة لي في الزوج، ولكن رغبتي في خدمته. فأمرها بأخذه والانصراف. فلما انصرفت نظر إليَّ وقال: خرجتُ من سجستان بنية طلب العلم، ومتى تزوجتُ سقط عني هذا الاسم، وما أؤثر على ثواب طلب العلم عرَضَ الدنيا[٤].

فاعتذر له الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) وعلَّق على القصة قائلًا: كأنه يريد متى تزوج للذهب نقص أجره، وإلا فلو تزوج في الجملة لكان أفضل، ولما قدح ذلك في طلبه العلم، بل يكون قد عمل بمقتضى العلم، لكنه كان غريبًا، فخاف العَيلة، وأن يتفرق عليه حاله عن الطلب[٥].

٦. ابن رُشد الفيلسوف - برغم انحرافه عفا الله تعالى عنه - (ت ٥٩٥هـ) لم يصرف ليلةً من عمره بلا درس أو تصنيف، إلا ليلة عرسه، وليلة وفاة أبيه[٦].

---

(١) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٩٥).
(٢) مجلة المنار (٢/٣٠٣).
(٣) طبقات الشافعيين لابن كثير (ص: ٢٨٩).
(٤) المنثور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي (ص: ٢٦).
(٥) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٧/٦٥٦).
(٦) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٢٩٠).

٧. عيسى اليونيني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٤) عقد على عجوز تخدمه؛ ليشتغل بالعبادة والمطالعة[١].

٨. القاضي برهان الدين الزرعي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كان ذهنه يتوقد ذكاءً، وكان كثير التسرِّي بالأتراك، وتعلم منهم لسان التُّرك، وتحدث به جيدًا، وكان يكون جُمعة في سوق الجواري، وجُمعة في سوق الكتب[٢].

٩. التاج ابن المكين النطوبسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٨هـ) أقام أعزبَ نحو أربعين سنة؛ بسبب الاشتغال بالعلم، حتى استعمل ما ينفعه في كسر الشهوة، إلى أن أُلزم بالتزويج، واضطر لاستعمال نقيضه[٣].

شيئان أحسن من عِناق الخُرَّدِ ... وألذُّ من شُرب القَراح الأسودِ
وأجلُّ من رُتَب الملوك عليهمُ ... وشْيُ الحرير مطرَّز بالعَسْجَدِ
سُودُ الدفاتر أن أكون نَديمَها ... طولَ النهار وبَرْدُ ظل المسجدِ[٤]

١٠. العالم العثماني علاء الدين علي العربي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠١هـ) كان يجامع جواريه كل ليلة، ويغتسل أيام الشتاء، ثم يصلي مئة ركعة، ثم ينام ساعة، ثم يقوم للتهجد، ثم يطالع إلى الصبح[٥].

١١. الشيخ أبو بكر الأهدل -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٥هـ) قال عن نفسه: إن الوالد أراد تزويجي، مع ما ذُقته من لذة العلم، فلما تزوجت اشتغل خاطري بأمر مراعاة حقوق الزوجة الواجبة.. فاشتغلت عن الطلب نحو ست سنين، لكنني في هذه المدة لم أترك التحصيل، والتعليق، والمطالعة، ومذاكرة مَن ألقاه من الطلبة[٦].

ولم تُلْهِهِ عن لذة العلم إمْرة ... ولا عن طِلاب المجد خَود ولا قصرُ[٧]

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٣/٣٠٠).
(٢) الوافي بالوفيات (٥/٢٠٤).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥/١٠٥).
(٤) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/١١٨).
(٥) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٩٥).
(٦) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/٦٥).
(٧) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٥/٣٠٧).

١٢. إلياس الكردي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣٨هـ) آثَرَ لذة العلم على اللذات المألوفة، فلم يتخذ ولدًا، ولا عقالًا، ولا زوجة، بل تزوج في ابتداء أمره امرأة، ثم طلقها(١).

يقولون: ذِكر المرء يَبقى بنسله وليس له ذِكـر إذا لم يكن نسلُ
فقلت لهم: نسلي بدائع حكمتي فمَن سـرَّه نسلٌ فإنا بـذا نسلُو(٢)

١٣. الفقيه الحنبلي عبد الوهاب بن فيروز الأحسائي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٥هـ) كان ذا حرص واجتهاد إلى الغاية، حتى إنه اتفقت له سبع سنين، لم يخرج من المدرسة إلا لصلاة الجمعة، وأما الجماعة ففي مسجدها، والأكل يأتيه من بيت والده مع الطلبة.. ولما تزوج بأمر والده وإلزامه، أخذ السراج ليلة الدخول، وقعد يطالع دروس الغد، فاستغرق في المطالعة إلى أذان الصبح، ونسي المرأة، فتوضأ وخرج إلى الصلاة، وحضر دروس والده، وبارك له من حضر، وفي الليلة الثانية فعل كفعله بالأمس، فأخبرتِ المرأة بذلك، فدعاه والده فعاتبه(٣).

وجليس كتْب ماخِضٌ لعلومها ليجيْ بزُبدتها له التمخيضُ
سُود الدفاتر عنده معشوقة عشقًا تمنَّته الحِسان البِيضُ(٤)

١٤. الأديب البحاثة أحمد تيمور -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٨هـ) توفيت زوجته وهو في التاسعة والعشرين من عمره، فلم يتزوج بعدها مخافة أن تسئ الثانية إلى أولاده. وانقطع إلى خزانة كتبه(٥).

١٥. قرأ رجلٌ في صحيفة أنه: «من أراد شيئًا، وسعى في طلبه نالَه، أو شيئًا منه». فقال في نفسه: أريد أتزوج الملكة فلانة. فتوجه إلى بلادها، وأتى قصرها، وصار بينه وبين الحاشية بعض الأنس لكثرة ترداده، وكانت الملكة تُشرِف على فناء قصرها، فأرسلت بعد سنة إلى من بالباب: فأمرت بإدخاله إليها، وسألته عن حاجته، فقال:

---

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٢٧٢/١).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٨٠/٢).
(٣) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٦٨١/٢) وتسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٦٣٩/٣).
(٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣٧/٢).
(٥) الأعلام للزركلي (١٠٠/١).

قصدتُ الملكة خاطبًا لها؟ فقالت: وما الذي جرَّأك على أن خاطبتني بهذا؟ فأخبرَها بما خطرَ له حين قرأ الصحيفة. فقالت له: فإنني أرى أن تتعلم العلم، حتى تصيرَ رأسًا فيه، فإذا صرتَ فردًا فيه حَسُن منك أن تخطبني، وحَسُن بي أن أتزوجك، فلا ينكِر ذلك أحد من رعيتي، فاجتهِد في التعلم، واقطع ليلك ونهارك باقتباسه. ففعل ذلك، وكان يأخذ في المدة اليسيرة ما يأخذ غيره في المدة الطويلة، إلى أن عظَّمه الناس؛ لسعة علمه. فسألتْ عنه الملكة، فأُخبرتْ بما انتهى إليه أمره، فأَمرت باستدعائه، فحضر، فقالت له: قد بلغني ما أصبته من العلم، فهل لك فيما كنتَ سألتَنِيه؟ فقال: لا حاجة لي في ذلك، فقالت: ولِمَ، وقد كنتَ حريصًا عليه؟ فقال: **رأيتُ أن أفانينَ العلم أفضل ما يَبلغه الإنسان في دنياه**، فرغبتُ بعلمي عن مُلك الدنيا، فقالت له: لهذا أمرتُك بما أمرتُك به، ورأيتُ أنك إن تبلغ الغاية في العلم لم تعُد إليَّ. وصرفَتْه، ولم تزل مُكرمة له[1].

١٦. مما يساق من الطرائف: أن أحد أهل زماننا انشغل عن زوجته بمخطوطته، فوضعت له مع فنجان القهوة بطاقة فيها:-

يا ليتني عندكم يا حِبُّ مخطوطة … تسعى إلى نَيلها سعْيَ ابن بطوطة
غبطتُ أوراقها إذ أنت تعشقها … فهل أكون كذي الأوراق مغبوطة؟!

فكتب إليها:-

شتان بينكما فالرقُّ موضعها … وأنت يا مُهجتي في القلب «محطوطة»
وأنت مُطْلقة ما شئت فاعلةً … وتلك بالجِلد والخيطان مربوطة

وبعد: فهؤلاء بالعلم متلذذون، عن أعلى الملاذّ مشغولون، ولسان حالهم يقولون:

ولي عُرس جديد كل يومٍ … بطرح الهمِّ في أمر العروسِ[2]

وقفة:

هل ترك الزواج إيثارًا للعلم محمود؟

---

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ٢٠٣).
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٤).

والجواب أن يقال: أما المتزوج الذي ترك الوطء أحيانًا؛ إيثارًا للعلم، دون إهمال لأهله، فذاك مستساغ، وهو -أيضًا- منه عجَب يُحفِّز للعلم.

أما تارك النكاح إيثارًا للعلم فحسبْ؛ فذلك خلاف هَدي النبي ﷺ الذي قال: **أَما وَاللهِ إِنّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**(١).

فالفعل مخالف للسنة، وإنْ فعله بعض الأكابر، لكن لا يُظَنُّ بأمثالهم أنهم تركوا النكاح؛ تبتُّلاً أو تفرغًا للعلم فقط، بل لعل لهم أسبابًا لم يَطَّلع عليها إلا علاّم الغيوب.



قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ):

العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات ..فمع صاحب العلم من أسباب اللذة، ما هو أعظم وأقوى، وأدْوَم من لذة الغنى.

[مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٨٧ و ١٣١)].

(١) صحيح البخاري (٥٠٦٣) وصحيح مسلم (١٤٠١).

٢٥. لذة العلم تُنسي لذة النوم

إن عشاق الكتب لا يذهبون للنوم لوحدهم! وتراهم يستدينون من ساعات الليل للنهار، لكن بلا وفاء ولا سداد!.

فأما الجاهل السادر، الذي يغط في نومه العميق، وكان أمره فُرُطًا فهو:

ينام إذا ما استيقظ الناس بالضحى   فـإنْ جَـنَّ ليل فهو يقظان حـارسُ
وذاك كمثل الكلب يسهر ليلَه   فإن لاحَ صبح فهو وَسْنان ناعسُ[١]

وإن كثيرًا من السهر؛ ربما كان ضرره أقرب من نفعه، إلا في العلم والخير، ففي العلم يطيب السهر وينفع، ويحسن ولا يَقبُح. وقد بوَّب البخاري: «باب السمَر في الفقه والخير بعد العشاء». ثم ساق حديث أنس قال: انتظرنا النبي ﷺ ذات ليلة، حتى كان شطر الليل يبلغه، فجاء فصلى لنا، ثم خطبنا، فقال: **ألا إن الناس قد صلَّوا ثم رقدوا، وإنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة، وإن القوم لا يزالون بخير ما انتظروا الخير**[٢].

ويا لله! ما أجمع وأجمل هذه العبارة الأخيرة: **وإن القوم لا يزالون بخير ما انتظروا الخير**.

هذا وهو ينتظره، فكيف إذا عاشه؟! بل كيف إذا كان علما شرعيًا؟!.

وللمتلذذين بالعلم مع الليل شؤون وشجون، لا يعلم بلذتها إلا من ذاقها:

لكنهم جـهـلـوا لـــذاذة حبّـهِ   وعلمتُها فـلـذا سـهـرتُ ونـامـوا
لو يعلمون كما علمتُ جميعهُ   جنحوا إلـى ذاك الجناب وهـامـوا[٣]

---

(١) يتيمة الدهر (٤/٩٣).
(٢) صحيح البخاري (٦٠٠).
(٣) المقفى الكبير (٧/١٥٦).

وإنما اختاروا الليل؛ لأنه أصفى وأبقى وأفرغُ.

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): أفضل مذاكرة العلم مذاكرة الليل، وكان جماعة من السلف يبدؤون من العِشاء، فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح(١).

فعلق ابن عابدين -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٢هـ) قائلًا: وإنما خُص الليل؛ لكونه محل الأفكار غالبًا، وفيه يزكو الفهم؛ لقلة الحركة فيه. وعادة العلماء يتلذَّذون بالسهر في التحرير للمسائل(٢).

أحوال المتلذذين بالعلم أكثر من تلذذهم النوم

أتريد طائفة من أحوال الساهرين البحَّاثين للمسائل والجرَّادين للكتب، والكتَّابين للفوائد؟!

إذًا؛ فإليك حالهم مع سويعات النوم؛ ينهبونها نهبًا من اليقظة، ولليقظة نصيب الأسد:

١. قال أبو موسى الأشعري ﷺ: أتيتُ عمر أكلِّمه فى حاجة بعد العشاء، فقال: هذه الساعة؟! فقلت: إنه شيء من الفقه. قال: نعم. فكلَّمتُه، فذهبت لأقوم، فقال: اجلس. فقلت: الصلاة، فقال: إنَّا في صلاة. فلم نَزَلْ جلوسًا حتى طلع الفجر(٣).

٢. كان محمد بن شهاب الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ) يسهر على العسل، كما يسهر أصحاب الشراب على شرابهم، ويقول: اسقُونا وحدِّثونا، فإذا رأى بعض أصحابه قد نعَس يقول له: ما أنت من سُمَّار قريش، الذين قال الله -تعالى-: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧](٤).

٣. جاء عيسى بن عمر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٩هـ) إلى أبي عمرو بن العلاء

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص ١٤٤).
(٢) حاشية رد المحتار (١/٣٣).
(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (١/١٩٢).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٥/٣٤٢) والمعرفة والتاريخ (١/٦٢٤). وقد سبق ذِكر طرف هذا الأثر.

فقال: يا أبا عمرو، ما شيءٌ بلغني أنك تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني أنك تجيز: «ليس الطيب إلا المسكُ» بالرفع. فقال له أبو عَمرو: نمتَ يا أبا عُمر وأدلَجَ الناس![١] يعني أن العلم فاتَه، يوم أن لم يُجدد معلوماته ويسهر في التحصيل.

٤. محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) كان يضع عنده الدفاتر، وإذا مَلَّ من نوعٍ ينظر في نوعٍ آخر، وكان يزيل نومه بالماء[٢].

٥. الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) توالّت عليه أمراض، فكانت أمه وبنته تخدمانه في سبيل التأليف. قالت عنه أمه: ربما قدَّمنا المصباح ثلاثين مرة في ليلة واحدة، إلى بين يدي الشافعي، وكان يستلقي ويتفكر، ثم ينادي: يا جارية هلُمِّي المصباح. فتُقدمه، ويكتب ما يكتب، ثم يقول: ارفعيه. وقالت ابنته فاطمة: أسرجت لأبي في ليلةٍ سبعين مرة[٣].

وهو القائل:

بقدر الكَدِّ تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي
تروم العلم ثم تنام ليلًا ... يغوص البحر من طلب اللآلي[٤]

٦. الحافظ ابن ديزيل الهمداني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) يقول: كتبتُ في بعض الليالي ما لا أحصيه حتى عَيِيْتُ، ثم خرجت أتأمل السماء، فكان أول الليل، فعُدْت إلى بيتي، وكتبت إلى أن عَييتُ، ثم خرجتُ فإذا الوقت آخر الليل، فأتممتُ جزئي، وصليتُ الصبح، ثم حضرتُ عند تاجر يكتب حسابًا له، فوَرَّخه يوم السبت، فقلت: سبحان الله! أليس اليوم الجمعة؟! فضحك، وقال: لعلك لم تحضر أمس الجامع؟ قال: فراجعتُ نفسي، فإذا أنا قد كتبتُ لليلتين ويومًا[٥].

---

(١) مجالس العلماء للزجاجي (ص: ٣).
(٢) تعليم المتعلم طريق التعلم (ص: ٥١).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠٤/٩) والحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٧٣).
(٤) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقِتهم السخيف (ص: ١٨٨).
(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٩٠/١٢) وسير أعلام النبلاء (١٨٤/١٣).

حقًّا! من طلب العلا سهر الليالي! وحين يسهر العالِم بالبحث، يَغط الجاهل في نوم عميق. فلا مقارنة أصلًا، ولكن سبحان من فاوَتَ الهمم.

٧. كان الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) بمنزله ذات ليلة، فأحصَوا عليه أنه قام في ليلة وأسرج ثمانيَ عشرة مرة؛ يستذكر أشياء يعلِّقها[(١)].

وقال البخاري ذات صباح: ما نمتُ البارحة حتّى عددتُ؛ كم أدخلتُ في مصنفاتي من الحديث، فإذا نحو مئتي ألف حديث مُسْنَدة[(٢)].

٨. قال الأديب ابن الجهم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ): إذا غشيَني النعاس في غير وقت النوم، تناولتُ كتابًا، فأجد اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني من السرور.. أشد إيقاظًا من هدَّة الهدم[(٣)].

٩. قال أبو حاتم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ): ضاقت بي الحال أيام طلبي العلم، فكنت أخرج بالليل إلى الدرب الذي أنزله، وأرتفق بسراج الحارس، وكان ربما ينام الحارسَ، فكنت أنوب عنه[(٤)].

١٠. قال الفَسَوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ): كنت أُكثِر النسخ بالليل، وقلَّتْ نفقتي، فجعلتُ أستعجل، فنسختُ ليلة حتى تصرَّم الليل، فنزل الماء في عيني، فلم أُبصر السراج، فبكيتُ على انقطاعي، وعلى ما يفوتني من العلم، فاشتد بكائي، فنمتُ، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فناداني: يا يعقوب بن سفيان؛ لِم بكيت؟ فقلت: يا رسول الله! ذهب بصري، فتحسرتُ على ما فاتَني من كتب سُنَّتك، وعلى الانقطاع عن بلدي. فقال: ادنُ مني. فدنوت منه، فأمرَّ يده على عيني، كأنه يقرأ عليهما، ثم استيقظتُ، فأبصرتُ، وأخذتُ نُسَخي، وقعدت في السراج أكتب[(٥)].

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٢/٣٣٣).
(٢) تاريخ الإسلام ت بشار (٦/١٤٩).
(٣) الحيوان (١/٤٠).
(٤) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٨٠).
(٥) المصدر السابق (٦/٦٤٢).

١١. من لطائف الألقاب أن الطبيب العالِم يوسف الساهر -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٥هـ) لُقِّب -على ما قيل- بالساهر؛ لكثرة سهره في طلب العلم، وتحصيل الفوائد[١].

١٢. اجتمع المتنبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) بأبي علي الفارسي، فقال له أبو علي: كم جاء من الجمع على وزن فَعْلَى؟ فقال: حَجْلَى، ظَرْبَى، جمع حَجَل وظَرِبان. قال أبو علي: فسهرتُ تلك الليلة ألتمسُ لها ثالثًا، فلم أجِد[٢].

١٣. أبو محمد ابن التبّان المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧١هـ) قال: كنتُ أولَ ابتدائي أدرس الليلَ كلَّه، فكانت أمي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنتُ آخذُ المصباح، فأجعله تحت الجَفْنة، وأتعمّد النوم، فإذا رقدَتْ أخرجتُ المصباح، وأقبلتُ على الدرس[٣].

أعـاذِلـتـي على إتـعـاب نفسـي ... ورعيي في الدجى روض السُّهادِ
إذا شـامَ الفتى بـرق المعالي ... فـأهـونُ فـائـتٍ طِـيْـب الـرقـادِ[٤]

١٤. أبو عبد الله ابن البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٤هـ) كان لا يزال يخرج إلى أصحابه، وقد انشق رأسه، وانفتحت جبهته، فقد كان لا ينام إلا عن غلبة، ولم يكن يخلو أن يكون بين يديه محبرة، أو قدح، أو شيء من الأشياء موضوعًا، فإذا غلبه النوم سقط على ما يكون بين يديه، فيؤَثِّر في جبهته أثرًا[٥].

١٥. من الطرائف العجيبة أن أبا بكر ابن الخاضبة -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ) كان ليلة من الليالي قاعدًا، ينسخ شيئًا من الحديث، بعد أن مضى قطعة من الليل. قال: وكنت ضيق اليد، فخرجت فأرتان تعدوان بين يديّ عند ضوء السراج، وكانت بين يديّ طاسة فأكببتُها عليها، فغابت صاحبتها، وإذ بعد ساعة قد خرجت، وفي فيها دينار صحيح،

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص: ٢٩٠) كان طبيبًا. وكان يقول: إنما ينال من النوم ما يحصل منه راحة الجسم، وهو مقدار ثلاث ساعات.
(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٢٢).
(٣) ترتيب المدارك للقاضي عياض(٦/٢٤٩).
(٤) يتيمة الدهر (٥/٢٨).
(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٥/٩٩).

وتركَتْه بين يدي، واشتغلتُ بالنسخ، ثم جاءت بدينار آخر، وأنا ساكت أنظر وأنسخ، إلى أن جاءت بأربعة دنانير أو خمسة، ثم دخلت سَرَبها وخرجت، وإذا في فيها جُليدة كانت فيها الدنانير، فعرفت أنه ما بقي معها شيء، فرفعت الطاسة، فقفزتا فدخلتا البيت، وأخذتُ الدنانير، وأنفقتها في مهمّ لي(١).

١٦. المفسر المشهور ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) يقول عنه أحد طلابه: كان لا ينام إلا إذا غلبه النوم، فمهما استيقظ مدَّ يده إلى كتاب، والمصباح لا يُطفأ(٢).

١٧. الحافظ النحوي المقرئ أبو العلاء الهمذاني العطار -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كان يبيت في المساجد، ويكتب وهو قائم على رجليه بالمسجد؛ لأن السراج عالية(٣).

فإذا اللَّيْل جَنَّهمْ كتبوهُ   وإذا أصبحُوا غدوا للسماعِ(٤)

١٨. قال ابن قُرقول -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ): لما أجمعَ عزمي على التفرغ له [تأليف كتابه] وقتًا من نهاري وليلي، قسمتُ له حظًّا من تكاليفي وشغلي، بالجلوس للعامة للتذكير والتعليم، ثم للخاصة للرواية والتسميع(٥).

١٩. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) مستلذًّا أيامه الخَوالي: قال لي إبليس: أنسيتَ تعبك وسهرك؟! فقلت له: أيها الجاهل! تقطيع الأيدي لا وقْعَ له عند رؤية يوسف، وما طالت طريقٌ أدَّت إلى صديق(٦).

---

(١) معجم الأدباء (٢٣٥٧/٥).قال ياقوت معلقًا على الحكاية: وهذه حكاية على ما يرى من الاستحالة، وقد أوردتها أنا لثقة موردها وتحريه في الرواية، فان صحّت فقد فزت بحظّ من العجب، والا فاجعلها كالسمر تستمتع به.

(٢) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص: ٩٤) والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص: ٢٤).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢٧٥/٢) وغاية النهاية في طبقات القراء (٢٠٤/١).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١٠/٥) والوافي بالوفيات (٢٣٠/٧).

(٥) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (١٥٦/١).

(٦) صيد الخاطر (ص: ٢٤٧).

٢٠. ابن الحبراني النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٨هـ) يقوم زمن الصيف في الليل الأخير في سطحه، ويوقد سراجًا في موضع خال من الهواء، ويقعد للمطالعة طويلًا كل ليلة، لا يُشغله الحر ولا القَر عن المطالعة(١).

٢١. ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ) ربما استوعب ليله بالسهر، فطالَع المجلد، أو المجلدين(٢).

٢٢. الحسن بن علي الحِمْيري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ) أقام سَنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان يبيت يطالع الكتب، ولا يسأل عن طعام ولا شراب حتى يؤتَى به، ولا يشتغل بأهل ولا ولد(٣).

سهَري لتنقيح العلوم ألــذُّ لي ... مـن وَصْـل غـانـيـةٍ وطِـيـب عِـنـاقِ
أأبـيـتُ سهران الـدُّجـى وتبيتُه ... نوما وتَبغي بعد ذاك لحاقي؟!(٤)

٢٣. البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) قال عن نفسه: أبقَى ثلاث ليال، وأربع ليال ما أنام؛ أُطالع على المكان الذي يدرَّس فيه(٥).

٢٤. قال محمد بن يوسف السنوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٥هـ) عن شيخه ابن توزت التلمساني: لازمتُه كثيرًا، وكنت أقرأ عليه جلّ الليل(٦).

٢٥. العالم المتفنن علي الفناري الرومي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٣هـ) لشدة شغفه بالعلم، لا ينام على فراش، وإذا غلب عليه النوم استند إلى الجدار، والكتب بين يديه، فإذا استيقظ نظر فيها(٧).

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٤/١٦٥).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٩/٢١١).
(٣) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٥/٣٢٠).
(٤) غرائب الاغتراب للألوسي (ص: ٢٩).
(٥) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ١٣٩).
(٦) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٥٤).
(٧) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/٢٧٩) والبدر الطالع (١/٥٠٤).

أيــهــا الـــراقـــد فـــي لـــذتـــهِ نَـــمْ هنيئًا إنَّ عينيْ لـم تَـنَـمْ(١)

٢٦. محمد بن عادل باشا المشتهر بالمولى حافظ -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٧هـ) لم ينفك قلمه عن الكتابة، ولسانه عن المذاكرة، وربما يطالع الليل بطوله، وليس له اشتغال في النهار إلا بالعلم(٢).

٢٧. المحدث الفقيه الهندي عبد الحق الدهلوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٢هـ) كان مكِبًا على المطالعة في دياجير الليالي، حتى أنه قد احترقت عمامته -غير مرة- بالسراج، الذي كان يجلس أمامه للمطالعة، فما كان يتنبه له، حتى تتصل النار ببعض شعره(٣).

٢٨. العلامة الشريف التلمساني العلوني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧١هـ) لازَمَه أحد تلاميذه أربعة أشهر، فلم يره نزع ثوبه ولا عمامته؛ لشُغله بالنظر والبحث، فإذا غلبه النوم نام نومًا خفيفًا، فإذا أفاق يتوضأ ولا يرجع إلى النوم ويقول: أخذت النفس حقها(٤).

نعيم ذوي الألباب برهان صدقهم ولي حـالـة لـم يُـنـعـم الله بالها
كأني ونفسي بين حرب وهدنةٍ إذا ساعدتني في السُّهاد بدا لها(٥)

٢٩. العالم علي البرطي الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١١٩هـ) كان له شغَف بالعلم شديد، وكان يُقطِّع الليل جميعًا في المطالعة بالمسجد، وإذا غلبه النوم اغتسل بالماء(٦).

٣٠. الشيخ ابن الطباخ الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٠هـ) كان يُخبر عن نفسه: أنه أكثر لياليه لا يضع جنبه على الأرض للنوم، بل يتكئ في زاوية البيت، والمصباح عند رأسه، ويطالِع، فإذا غلب عليه النوم وضع الكتاب، ونام على حالته هذه، فإذا

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ٦٠٩).
(٢) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٦٨).
(٣) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (٥/٥٥٤).
(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٣٣).
(٥) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (١/٥٤٣).
(٦) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٥٠١).

استيقظ تناول الكتاب، ويقول: إن هذه الكيفية في المطالعة مفيدة؛ لأن الإنسان إذا نام عقب المطالعة، وأعادها حين استيقاظه، علِق ذلك في ذهنه، بحيث إنه لا يزول[١].

وإذا سهرتَ الليل في طلب العلا فحذار ثم حذار من خِـدَع الكَرَى[٢]

٣١. العلامة الحسن بن رحال التدلاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٠هـ) كان يُدعى بـ: «صاعقة العلوم والتدريس» وكان يبيت يُطالع إلى أن يَطلع الفجر، ثم يجلس بعد الفجر للمطالعة، إلى أن يخرج للتدريس، وكان يجلس للدرس عند طلوع الشمس، ويتمادَى إلى الزوال، من غير مَلل ولا ضجر، وهذا -لا ريب- تأييد إلهي[٣].

٣٢. قال الفقيه الشافعي العلوي الحضرمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٦٥هـ): كنتُ في أيام الصغر أُدِيمُ المطالعةَ في الليل، حتى أَسْتَوعِب الليلَ فيها، وقد تجيءُ بعض الأحيان الوالدةُ -رحمها الله - فتأخذ السراجَ من عندي قهرًا؛ شفقةً منها عليَّ من كثرةِ السهرِ ومواصلتِهِ[٤].

٣٣. قال الشيخ أحمد بن مصطفى المَراغي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧١هـ) في ختام «تفسيره»: وكم سهرت الليالى الطوال في أيام القرّ، وإبّان الحرّ، لا تؤنسني إلا معونة الله وجميل توفيقه، وما أشعر به من لذة تخفف عنى ما أنقض ظهرى.. فلا أجد مع ذلك الجهد إلا انشراحًا وسرورًا.. وقد أعاننى الله على إتمامه بعد سبع سنين، دائبًا العمل ليل نهار، صباح مساء[٥].

٣٤. العلامة عبد الحي الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٢هـ) لا ينام إلا وقلمه بيده.. وربما طالَع الليل بطوله، لا ينام إلا غَلَبةً، وكراسته في يده، ولم يُرَ في زمانه أحدٌ بمثل شَغَفه بالمطالعة، لا يَمَلُّها وإن مَلَّتْه، وهي أول أعماله صباحًا، وآخرها مساء[٦].

---

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٣٠/٢).
(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٢٠٧/٨).
(٣) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (١٥/٣).
(٤) السيوف البواتر لمن يقدم صلاة الصبح على الفجر الآخر للعلوي الحضرمي (ص: ١٠).
(٥) تفسير المراغي (٢٧٣/٣٠).
(٦) فهرس الفهارس (١٦/١) والشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٦٨).

٣٥. الأديب العلامة محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) يقول عنه أخوه المحدث شاكر - وقد اشتركا في تحقيق «لباب الآداب»: وأعانني في تصحيحه شقيقي الأصغر، السيد محمود محمد شاكر. وكثيرًا ما سهر الليالي في تحقيق بيت شعر، أو تصويب جملة[١].

سَهِرَ اللّيالي باحثًا ومُفَكرًا وأنيسُهُ فيها كتابٌ مُنْبَلِجْ[٢]

٣٦. المحدث البحاثة محمد الأثيوبي الهرري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤١هـ) كان لا ينام غالبًا إلا أربع ساعات، من أربع وعشرين ساعة؛ لكثرة اجتهاده في مذاكرة العلم[٣].

٣٧. وبقيَتْ أعجب قصة؛ أخَّرْتُها لغرابتها، وهي أن مفتي الدولة العثمانية عبد الرحيم بن محمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٢هـ) امتحنه أحد شيوخه بعبارة في التفسير، وقال له: اذهب هذه الليلة إلى حجرتك، ودقِّق النظر في هذا المحل، وفي غد أتكلم معك فيه. قال: فذهبت إلى حجرتي، فوضعت الكاغد قدامي، وجلست أنظر فيه، وكان الخادم يأتيني بالمأكل والمشرب، وحررتُ على ذلك المحل رسالة من أنفَس ما يكون، ثم جاءني الرجل، وقال لي: حسبُك من هذا النظر، فسألته عن الوقت، فقال لي: اليوم كذا، وأنت لك الآن عشرة أيام على هذه الحالة. قال: فقمت وأنا متعجب في ذلك!.

وهذا عجيب جدًا! لا يكاد يُصَدّق. لكن قال ناقله العلامة المحبي -رحمه الله تعالى- (ت ١١١١هـ): ومثل هذا لا يُستبعد عن مثله[٤].

وليس «السهر العلمي» مقصورًا على علماء المسلمين، بل حتى مثقفي النصارى، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

فهذا الأديب النصراني سَلِيم عَنْحُوري (ت ١٣٥٢هـ) كان قليل النوم، يقول عن

---

(١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ (المقدمة/٥).
(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٢/٢٤٢).
(٣) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (المقدمة/٧).
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/٤١١).

نفسه إنه: منذ ثلاثين عامًا، لم يَنَمْ أكثر من ثلاث ساعات في اليوم، تتناوب بَناتُه السهر معه، يخدِمْنه ويكتبنَ ما يُملي، من نظم وغيره[١].

نعم؛ للنوم لذة جائرة، لكن أولئك يُغالِبون لذةً؛ لنَيل لذة أعلى منها.

فــذُدْ عــن الـعـيـن بإسهارها ... فـي طـلـب الـعـلـم، لـذيـذ الـكـرى
وامــشِ بـه نــورًا فما مــن يُـرى ... ممـشـاه بـالـنـور كـمـن لا يــرى[٢]

وهؤلاء المتلذذون يأتيهم من العتاب واللوم من أهليهم وذويهم، على سهرهم، فيكون ردُّ أحدهم أن يتمثل قول القائل:

يقول مالكَ قد أفنيتَ عُمْرك في ... حِبر وطِـرْس عن الأعصار والخَبَرِ
وظَلْتَ تسهر طول الليل في تعب ... ولا تُــرَى أبَــدَ الأيــام فـي ضَجَـرِ
أقصِرْ فإنيَ أدرَى بالذي طمحَتْ ... لأُفْــقِــهِ هِـمَّـتـي واســأل عـن الأثـرِ
جَمَال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم ... بعد الممات جَمال الكُتْب والسِّيَرِ[٣]



(١) الأعلام للزركلي (٣/١١٨).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤/١٣٢).
(٣) المغرب في حلى المغرب (٢/١٧٠).

٢٦. لذة العلم تُنسي لذة التنزُّه والسياحة

نعم؛ النفس تحتاج إلى استجمام، ولا يُراد من طالب العلم أن ينقطع عن اللذات، ولكن كما قال النبي ﷺ: **ساعةً وساعةً**(١).

كما لا يُراد منه أن يقلب نزهة رفقته تنكيدًا، ولا يَحمِلهم على الجِدَّ تشديدًا، فإنه يَقبُح به أن يلبس عباءة التمشيُخ في فترة التنزُّه.

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): الوقار في النُّزْهَة سُخْف(٢).

وقال تلميذه محمد بن عبد الحكم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٨هـ): التوقُّر في النزهة مثل التبذُّل في الحَفلة(٣).

ولما مزح الشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ) في بيته، فقيل له: يا أبا عمرو وتمزح؟! قال: قُرَّاء داخل! وقراء خارج! نموت من الغم؟!(٤).

ولكن هذا لا يعني تساقط الآداب، أو تضييع الأوقات سَبَهْللًا؛ لأنه يقع عند بعضنا ترهُّلٌ في مسألة بذل الوقت، ثم إهداره في المباحات، بحجة الترفيه عن النفس، بينما صرَف المتلذذون الوقت الفارغ للعلم والقراءة!

ومن تكُ نزهته قَينةٌ ... وكأس يُحَثُّ وكأس يُصَبُّ
فنُزهتُنا واستراحتنا ... تَلاقي العيون ودَرْس الكُتُبْ(٥)

فإذا رأيت يا طالب العلم: أنك تُزجي وقتك كيفما اتفق، فيوم في رحلة، وبعده على جلسة، ثم تأتي تسارق الوقت مسارقة لقراءةٍ ساعةً، أو درسًا متقطِّعًا، فلا تصنِّف

(١) صحيح مسلم (٢٧٥٠).
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/٢١٢).
(٣) طبقات المفسرين للداوودي (٢/١٨٠).
(٤) حلية الأولياء (٤/٣٢٤).
(٥) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٥٦).

نفسَك أنك طالب علم مُجِدٌّ، بل أنت من المتكلفين، الذين لو قيل لأحدهم: ادفع مئة ريال؛ لشراء كتاب لَفَكَّر وقدَّر. لكن لو قيل له: ابذل يومًا لنزهة لما تَردَّد!.

ولكلِّ طالب لذةٍ متنزَّهٌ　　　وألذُّ نزهةِ عالمٍ كُتُبُهْ[١]

وقد رأيتَ في مبحث «لذة الرحلة في طلب العلم» ما يقطع الشك باليقين، في أنهم لا يرحلون إلا للعلم فحسب، ولا يخالط نياتهم طلب التنزُّه أو السياحة؛ لتزجية الوقت.

وهذا أبو الحسن الصيرفي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٩هـ) قال له ابنه: أريد أن أخرج إلى النزهة. فقال: مَن عُدم النزهة من قلبه، لا تزيده النزهة إلا وحشة[٢].

وربما يكون الواحد منهم مشتغلًا بلذة مباحة، أو هواية جاذبة، فإذا خالط العلم بشاشة قلبه زهِد بتلك المباحات أو الهوايات.

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): كانت نَهْمَتي في شيئين؛ في الرمي وطلب العلم، فنِلْتُ من الرمي، حتى كنت أصيب من العشرة عشرة[٣].

وتأمل في زماننا، خبر أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم، وزادهم الله هدى، حيث يهتبلون أوقات الاستجمام؛ ليَثنوا رُكَبَهم لدى الأئمة الأعلام، عبر الدورات الصيفة، بل والربيعية منتصف العام الدراسي؛ ذلك أنهم ذاقوا لذةً، ما ذاقها المترددون على صالات المطارات، والمتنزهون أمام الشلالات. وقديمًا قيل: العطلة سكون، والعمل حركة[٤].

وإليك الآن نماذج من الغابرين، فخُذْ منها عبقًا طيبًا فيما يلي:

١. هل تعرف «الحديث المسلسل بالعيد»؟! هذا حديث في إسناده ستة عشر رجلًا؛ كلهم يقول في روايته: حدثنا فلان في يوم عيد بين الصلاة والخطبة. حتى ينتهي الإسناد إلى ابن عباس[٥]. فيا لله العجب! انهمكوا بالعلم حتى في الوقت الضيق القصير!.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٣٩٢/٢) والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٤٩/٢).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٨٨/٤١) وطبقات الصوفية للسلمي (ص: ٣٧٥).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧٧/٩).
(٤) يتيمة الدهر (٤٣/٥).
(٥) الأحاديث العيدية المسلسلة للسلفي (ص: ١٩).

٢. ابن جريج هذا -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) يقول عن نفسه: لقد أقمت على عطاء إحدى وعشرين حِجة، يخرج أبواي إلى الطائف، يتردّدان بها، وأقيم أنا على عطاء؛ خوفًا أن يفجعني عطاء بنفسه(١).

٣. أبو عاصم النبيل -رحمه الله تعالى- (ت ٢١١هـ) إنما قيل له النبيل؛ لأنه جاء إلى ابن جريج، ليستفيد منه العلم، فقدم فيلٌ إلى البصرة، فخرج الناس يتفرجون، فقال له ابن جُرَيْج: ما لك لا تنظر، فقال: لا أجد منك عوضًا، فقال: أنت نبيل(٢).

٤. قال ابن الطباع -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٤هـ): كنا ببغداد، فقدِمها الأشجعي ويحيى بن يمان، فدعوناهما إلى البستان، فأجابا، وحملا معهما كُتُبًا، وانتخبنا عليهما(٣).

٥. خرج الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) يوما لنزهة، إذ عارضته امرأة معها أوراق مقطعة، فعرضتها عليه، فوَزَن لها شيئًا، وأخذ الأوراق، فأخذ رفقاؤه يهزؤون به، ويقولون: فزتَ بقطعة من العلم وافرة، وضحكوا. فقال: أنتم جهال، لا تعرفون النفيس من الخسيس(٤).

٦. كان أبو سهل الصعلوكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٩هـ) إذا دخل الحمام سمعت له همْهَمة بالقراءة(٥).

حبيبي من الدنيا الكتاب فليس لي   إلى غيره ما بي إليه من الفقرِ
كِلانا لضيق الروح بالروح مانح   دُنُوًّا بلا بُعد ووصلًا بلا هجرِ(٦)

٧. قال ابن يونس الكُدَيمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٦هـ): خرجت أنا وعلي بن المديني وسليمان الشاذَكُوني؛ نتنزَّه في بستان الأمير، فلما قعدنا وافَى الأمير، فقال: خذوهم. فبطَحُوني -وكنت أصغرهم- وقعدوا على أكتافي. قلت: أيها الأمير! اسمع مني.

---

(١) إكمال تهذيب الكمال (٨/٣٢٣).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي(٢/٢٥٠) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي (١٣/٢٨٧).
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (١٦/١٨٣).
(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٣٧).
(٥) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٦٧).
(٦) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/٤٥).

قال: هات. قلت: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، [وساق الإسناد] عن النبي ﷺ قال: **الراحمون يرحمهم الله، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.** قال: أعِدْه علي، قال: فأعدتُه عليه، فقال لي: أنت تحفظ مثل هذا وأنت تخرج تتنزَّه؟! فكان الشاذَكُوني يقول لي: نفعَك حديث الحميدي(١).

٨. قال المحدث أبو العباس الدغولي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٦هـ): لا يفارقني أربع مجلدات، في البلد، وفي الخروج إلى ضِياعي: «كتاب المزني»، وكتاب «العين»، وكتاب «التاريخ» للبخاري، وكتاب «كليلة ودمنة»(٢). وتأمل أنها أربعة كتب في أربعة فنون!.

٩. الحافظ ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) لم يشتغل منذ أربعين سنة، إلا بالجمع والتصنيف، والمطالعة والتسميع، حتى في نُزَهِه وخَلَواته(٣).

١٠. أبو طاهر السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) يحكي عن نفسه أن المناظر المَشُوْقة للناس لا تَشُوْقُه، فيقول: لي ستون سنة؛ ما رأيت منارة الإسكندرية إلا من هذه الطاقة(٤).

يا من غدا نحو أشجار البساتينِ ... يبغي التنزه في تلك الميادينِ
الكُتْب عنديَ أسرى نزهة خُلقت ... سائلْ بذلك أهل العلم والدينِ(٥)

١١. أبو السعادات ابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) صنف كُتُبه كلها في مدة العطلة؛ فإنه تفرغ لها، وكان عنده جماعة يعينونه في الاختيار والكتابة(٦).

وحُلة العلم أغنَتْنِي مَلابسها ... وحلية الفضل زانَتْنِي لدى العُطَلِ(٧)

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٦٨٨/٤).
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٠).
(٣) معجم الأدباء (١٧٠٢/٤).
(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي (٦٥/٤).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٢٨/٧).
(٦) التاريخ المعتبر في أنباء من غبر (١٣٦/٣).
(٧) أعيان العصر وأعوان النصر (٥٠٨/٣).

١٢. ومن لطيف الأخبار أن ابن مالك صاحب «ألفية النحو» -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ) ذهب به رفقته إلى مكان للفُرجة، فغفلوا عنه لحظة، فوجدوه منكبًا على أوراق(١).

١٣. شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) في صباه؛ سأله أبوه وأهله أن يروح معهم يوم سبت؛ ليتفرج، فهرب منهم، وما ألْوَى عليهم ولا عرَّج. فلما عادوا آخر النهار لاموه على تخلُّفه. فقال: حفظت في غَيبتكم هذا المجلد. وهو «جَنة الناظر وجُنة المُناظر»(٢).

١٤. إسماعيل بن الفراء الحراني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٩هـ) لا ينقطع يوم بَطالة ولا غيرها، بحيث كان يتصدى يوم العيد للإقراء، فإن حضر أحد أقرأه(٣).

١٥. مؤلف «مختصر خليل» وهو المحدث الفقيه خليل بن إسحاق الجُندي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٦هـ) كان عالمًا مشتغلًا بما يعنيه، حتى إنه أقام بمصر عشرين سنة لم يرَ النيل(٤).

١٦. ابن هبة الله الزبيري -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٣هـ): كتب في أيام عطلته كثيرًا من كتب العلم، كـ«الروضة» و«المهمات» ولضيق حاله عن شراء الورق، كان يكتب في أوراق قد كُتب بها(٥).

١٧. العالم غداري الكرمياني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠١هـ) كان إذا جاء يوم العطلة، يذهب مع الطلبة إلى بعض المتنزهات في أيام الصيف، ويباحث معهم إلى وقت حضور

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٢/٢٢٩).

(٢) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٣٥٠).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٥٣٤).

(٤) شفاء الغليل في حل مقفل خليل (١/١١٣)ونيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٧٠). ويبدو أن مقصودهم بالعطلة ما يشبه في زمننا بالإحالة على التقاعد. ويؤيده أن ابن حجر في رفع الإصر (ص: ٢٣٥) ترجم لرجل فقال: واستمر معزولًا ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، ولازَمَه كثير من الناس في هذه العطلة. وأيضًا- في يتيمة الدهر (٥/٤٣): كتب رجل إلى صديق له: يا أخي! العطلة سكون، والموت سكون، والحياة حركة، والعمل حركة.

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/١٣٩).

الطعام، وبعد الطعام يشتغلون باللطائف. قال بعض طلبته: إنه ينحلُّ في أثناء تلك المباحثات من المواضع المشكِلة، مالا ينحلُّ في الدرس[١].

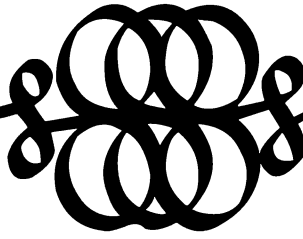
١٨. السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) ثارَ به الصوفية، وحملوه وألقَوه في مجمع ماء بجُبَّته وعمامته، فكتم مظلمته هذه، وقرر هجر البلدة إلى بلدة مقابلة لنهر النيل، حتى إنه أغلق النافذة التي تجاه النيل، فلا يريد أن يُلهيَه مَرأى النيل عن نَيل العلم ولو لدقائق، وألَّف كتابه «تأخير الظُلامة إلى يوم القيامة»، وانقطع بعدها هناك إلى التأليف حتى وفاته[٢].

١٩. يوسف بن زكريا الأنصاري السُّنيكي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٧هـ) كان لا ينفكُّ عن مطالعة العلم والتأليف يومًا واحدًا، ولما مرض قال: مقصودي أرى البحر؛ فإني ما رأيته في عمري ولا المراكب! فخرج، فصار يتعجب من منظرهما[٣].

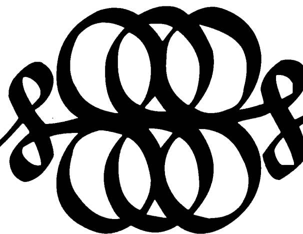
٢٠. مفتي الشام ابن قباد السكوتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٣هـ) كان لا يَفتُر عن المطالعة، ولو كان ماشيًا في طريق[٤].



(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ١٧٢).
(٢) تأخير الظلامة إلى يوم القيامة (ص: ٥).
(٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١٩٧/٣).
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٢٣/٤).



الباب الخامس:
نماذج لمتلذِّذِين بالعلم رغم العَقَبات



٢٧. متلذذون بالعلم رغم الإعاقة

العجيب أن كثيرًا من النابغين معوَّقون جسديًا؛ لأن الإعاقة ليست في الجسد، بل في الروح، فكم من أعرجٍ في درَج المعالي أعرجَ، ومن صحيح القدم ليس له في الخير قدم(١).

إذًا فالعاهة ليست عَيبًا، بل كثيرًا ما تكون عونًا، وليست مانعًا، بل دافعًا للمضي قُدُمًا، للمنافسة، بل للمسابقة. بل إن بعضهم يكون مبرّزًا بعدما يصاب بهذه الإعاقة، وحاله قبلها لم يكن شيئًا مذكورًا، فلا تكون الإعاقة عائقًا بل دافعًا ورافعًا.

ومن لطيف التسميات في زماننا أن يُسمى أولئك المعوَّقون بـ «أصحاب الهمم» فإن لكثير منهم هِمَمًا في العلم، لم تَعُقْها الإعاقة(٢).

ومن عجائب الموافقات، أن حديثًا اجتمع في إسناده أحد عشر راويًا، كلهم ذوو إعاقة، وهم على تسلسل الإسناد: حدثنا المزكوم، قال: حدثنا الزمِن، قال: حدثنا المفلوج، قال: حدثنا الأثرم، قال: حدثنا الأحدب، قال: حدثنا الأصم، قال: حدثنا الضرير، عن الأعمش، عن الأعور، عن الأعرج، عن الأعمى، أن النبي ﷺ توضأ مرةً مرةً(٣).

ومن غرائب القصص، قصص لمن ضعفت مدارِكُهم، فكانوا محتقَرين لا يؤبَه

(١) الكلم النوابغ للزمخشري (ص: ٢٦).

(٢) وإن سُمِّيَ الواحد منهم بصريح العبارة بالمعاق، أو بذي الإعاقة؛ فلا ضيرَ عليه، ولا على القائل، لا سيما وقد صدر مرسوم ملكي، يقضي باعتماد هذه التسمية في المخاطبات الرسمية.

(٣) مشيخة قاضي المارستان (١١٠٥/٣) وأما تفصيل أسمائهم -رحمهم الله تعالى- فكما يلي: المزكوم أبو علي الصولي، والزمِن أحمد بن محمد بن سليمان، والمفلوج محمد بن محمد الطوسي، والأثرم الحسن بن مهران، والأحدب عبد الله بن الحسين قاضي المصيصية، والأصم عبد الله بن نصر الأنطاكي، والضرير أبو معاوية، والأعمش سليمان بن مهران، والأعور إبراهيم النخعي، والأعرج الحكم بن مروان، والأعمى عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

لهم، بل قد يُرى نقص عقولهم، لكن الله رفعهم بالعلم، فأراد بهم خيرًا، فجَرت عليهم حوادث من أقدار الله، فصارت سببًا في تحولهم للعلم، وتفتُّق أذهانهم للحفظ.

وإليك الآن نماذج فائقة رائقة، لمن لديهم بطء في التعلم، أو لمعاقين، أو مُقعدين، لكنهم ما انقطعوا عن لذة العلم، برغم وطأة الوجع، وحبس الجسد أو الفهم:

١. الإمام التابعي الكبير عطاء بن أبي رباح -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤هـ) كان -في ابتداء أمره- ضعيف العقل[١].

٢. عمرو بن دينار -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٦هـ) قال عنه تلميذه سفيان بن عيينة: كان عمرو لا يدَعُ إتيان المسجد، وكان يُحمل على حمار، وما أدركته إلا وهو مُقْعَد، فكنت لا أستطيع أن أحمله من الصغر، ثم قوِيْتُ على حمله، وكان منزله بعيدًا[٢].

٣. حسين بن علي الجعفي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٣هـ) كان رأسًا في إقراء القرآن، روى عنه سفيان بن عيينة حديثين، ولم يره إلا مُقْعَدًا، كان يُحمل في مِحَفَّة على مقعد، في مسجد على باب داره، وربما دعا بالطشت، فبالَ مكانه[٣].

٤. أبو عاصم النبيل -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٢هـ) روى له أصحاب الكتب الستة. وكان في حداثته ضعيف العقل، وكان اسمه الضحاك، فيقال له: كيف تصغير الضحاك؟ فيقول: ضُحَيْكِيك! فكان يُزرَى عليه، ثم نَبُل، فكان هو يُزرِي على غيره[٤].

٥. العالم النحوي ابن الخَرَّاز -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٩هـ) أُقعد في آخر عمره، فَلَزِم داره نحوًا من سبعة أعوام، فسمع منه الناس، وانتفعوا منه في بيته[٥].

٦. ابن الخراز القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٩هـ) كان عالمًا بالنحو، وأُقعد في آخر عمره، فلزم داره نحو سبعة أعوام، وسمع منه الناس كثيرًا[٦].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٠/٤٠٤).
(٢) الطبقات الكبرى ط دار صادر (٥/٤٨٠).
(٣) الثقات للعجلي ط الباز (ص: ١٢٠).
(٤) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٥٤).
(٥) بغية الوعاة (١/٢٦٣) وتاريخ علماء الأندلس (٢/٨٢).
(٦) بغية الوعاة (١/٢٦٢).

٧. العلامة ابن فطيمة البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) فقد كان مقطوع أصابع يديه العشر؛ لِعِلَّةٍ لحِقَتْها، فكان يأخذ القلم بكفيه، ويترك الورق تحت رجليه، ويكتب بكفيه خطًّا مَليحًا، من أسرع ما يكون، وكان يكتب كل يوم خطًا واسعًا مقروءًا(١).

٨. الطالقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) حكى عن نفسه أنه: كان بَليد الذهن في الحفظ، وأنه كان عند شيخه، وكان من عادة شيخه أن يستعرض الفقهاء كل جمعة، ويأخذ عليهم ما حفظوه، فمن وجده مقصرًا أخرجه، فوجد الطالقاني مقصرًا، فأخرجه فخرج في الليل، وهو لا يدري إلى أين يذهب، فنام في أَتُون حمَّام، فرأى النبي ﷺ، فتَفَلَ في فمه مرتين، وأمره بالعَود إلى المدرسة، فعاد ووجد الماضي محفوظًا، واحتدَّ ذهنه جدًا(٢).

٩. الخطيب ابن المظفر الطوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠١هـ) كان مُقْعَدًا من فالج، عرض له في آخر عمره، فلا يقدر على النهوض، ومع ذلك فلم يزل يُقرأ عليه الحديث إلى أن توفي(٣).

١٠. ابن عبدربه التجيبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٢هـ) أُقعد من شِكاية بقدميه، منعَتْه من القيام والتصرف، فعكف على النظر والمطالعة، فانتفع بذلك(٤).

١١. كان ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) مَحْظيًا عند الملوك، وتولى لهم المناصب الجليلة، فعرض له مرض في كَف يديه ورجليه، فانقطع في منزله، وترك المناصب، فحضر إليه بعض الأطباء، والْتزم بعلاجه، فلما قارب البُرء دفع إليه شيئًا من الذهب، فلامَه أصحابه على ذلك، وقالوا: هلّا أبقيته إلى حصول الشفاء؟! فقال لهم إنني: متى عوفيتُ طلبت المناصب، ودخلت فيها، وكُلِّفتُ قبولها،

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤١٠/٣٦) وطبقات الشافعيين (ص: ٥٩٥).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٩/٦) والأَتُون: مُستوقد النَّار تَحت الحمَّام، كما في تهذيب اللغة (٢٢٢/١٥).
(٣) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي (١٦٣/١).
(٤) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٥٣٢/٤).

وأما ما دمتُ على هذه الحالة، فإني لا أصلح لذلك، فأصرف أوقاتي في تكميل نفسي، ومطالعة كتب العلم، ولا أدخل معهم فيما يغضب الله ويرضيهم، والرزق لابد منه. فاختار عُطلةَ جسمه؛ ليحصل له بذلك الإقامة على العطلة عن المناصب. وفي تلك المدة ألَّف كتاب «جامع الأصول»، و«النهاية» وغيرهما[١].

١٢. المقرئ ابن الشريك الضرير -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٩هـ) كان في صباه نجارًا، فلما أضرَّ أقبل على العلم، وبلغ في الذكاء والتفهيم الغاية[٢].

١٣. المقرىء النحوي اللغوي خزعل بن عسكر الشنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٣هـ) أُقعد في آخر عمره، وازدحم عليه الطلبة[٣].

١٤. زين الأمناء الحسن ابن عساكر الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٧هـ) أصابته زَمَانة في آخر حياته، فكان يُحمل في مِحَفَّة إلى الجامع، وإلى دار الحديث النورية، فيُسْمِعُهم الحديث[٤].

١٥. ابن عبد الدائم المقدسي الفندقي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٨هـ)

١٦. شيخ القراء جمال الدين الفاضلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٢هـ) أصيب بطرف من الفالج، قبل وفاته بسنتين، فكان يقرئ في بيته برغم الآلام، وقد انتهى الذهبي عليه إلى أواخر سورة القصص، فلما ازداد الفالج على الشيخ مُنع الطلبة من الدخول عليه حتى مات[٥].

١٧. الفقيه الشافعي المصري نجم الدين ابن الرفعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٠هـ) كان مُكِبًا على الاشتغال، حتى عرَض له وجع المفاصل، بحيث كان الثوب إذا لِمس جسمه آلَمَه، ومع ذلك معه كتاب ينظر إليه، وربما انكبَّ على وجهه وهو يطالع[٦].

---

(١) الكشكول (٢٦/١).
(٢) بغية الوعاة (٢١٤/٢).
(٣) الوافي بالوفيات (١٩١/١٣).
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٨٦/٢٢).
(٥) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص: ٣٧٧).
(٦) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣٣٩/١).

١٨. المحدث علاء الدين أبو الحسن بن العطار تلميذ النووي -رحمهما الله تعالى- (ت ٧٢٤هـ) وأصابه فالج آخر ثلاث عشرين سنة من عمره، فكان يُحمل في مِحَفَّة. ومع ذلك لم يدَعِ الدرس والتأليف. ومن تصانيفه «حكم البلوى وابتلاء العباد»(١).

١٩. علي بن عبد الله التبريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٦هـ) مِن أعرفِ الناس بالفقه الشافعي، وحصل له في آخر عمره صَمَمٌ، بحيث إنه كان يُقرئ والكتاب بيده، ويشير إلى طلابه: هل فهمتم؟(٢).

٢٠. ابن جابر الأندلسي الهواري الأعمى -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٠هـ) له رفيق اسمه أبو جعفر الرُّعيني، وهما المشهوران بالأعمى والبصير. وكان ابن جابر يؤلف ويَنظم، والرعيني يكتب، ولم يزالا هكذا على طول عمرهما خمسين سنة(٣).

٢١. شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٦هـ) سقط من عليَّةٍ، فكان لا يمشي إلّا على عصا مدة خمس وثلاثين سنة(٤).

٢٢. المحدث جمال الدين العلوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٢هـ) ابتلي بداء الجذام، فصبر على ذلك، ولم تنصرف الطلبة عنه، بل قصدته للتدريس والفتوى وهو بهذا المرض(٥).

٢٣. أبو عبد الله العثماني المراغي المدني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩١هـ) عرَضَ له عارض من صغره، بحيث أُقعد، حتى صار يمشي أولًا على عكازين، ثم بأخَرةٍ صار يوضع على تَكَّةٍ، لها بَكَرٌ، تسحب بها إلى باب المسجد، ويحمله مِن ثَم حامل إلى الروضة، فيجلس بها في أيام الجُمَع، وأشهُر الحديث(٦).

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/٤).
(٢) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٤١٥).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٧١/٥) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٦٢/٨).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢٩٩/١).
(٥) تاريخ البريهي (ص: ٢٩٨).
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥٧/٩).

٢٤. زكريا الأنصاري السنيكي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٢هـ) أُقعد في آخر عمره، وانقطع في بيته، فكانت الطلبة تأتيه، وتأخذ عنه(١).

٢٥. الشيخ سليمان بن سحمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٩هـ) طرأ عليه نقص بصره، عند بلوغه خمسة وستين سنة، فبعثه الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالى- لعلاج عينيه في البحرين، فلم يُقدَّر له الشفاء، ورجع بلا فائدة، فعاد إلى التأليف والردود بحماس.. فألَّف قبل ذهاب بصره، وبعدما طرأ عليه ضعف البصر ستة وعشرين من المؤلفات(٢).

٢٦. ومن عجائبهم في الصمود برغم الإعاقة، أن الشيخ الهندي آصف القدوائي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٩هـ) مكث ثلاثًا أربعين سنة على السرير مشلولًا، يُقلِّبه الممرِّض، ومع ذلك فقد ألِفَ المرض، وألَّف عشرات الكتب، وتُرجمت لعدة لُغات(٣).

٢٧. شيخ الحنابلة العلامة المعمر عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٢هـ) عاش ثمانيًا وتسعين سنة، كانت معمورة بالتدريس والتأليف والإفتاء، حتى سنة وفاته، برغم الهرم والشيخوخة، والأمراض والضعف، وكان مجلس ختم البخاري قبل وفاته بسنتين، ومجلس حديثي بعنوان (النجم البادي) كان قبل وفاته بسنة(٤).

عشرة صحابة ذهبت أبصارُهم بعدما كبِرَتْ أعمارُهم

١. عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

٢. سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٣. جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

٤. حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٥. كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/٢٢٣).

(٢) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٢٠٢).

(٣) تتمة الأعلام للزركلي - محمد خير رمضان (٧/١).

(٤) الشيخ عبد الله بن عقيل سيرته الذاتية، وأهم مراسلاته (٥٤١/١ و٥٤٥).

٦. حارثة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٧. خوَّات بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٨. صخر بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٩. أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

١٠. جَدها: أبو قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ



بيان بأسماء بعض العلماء ذوي الاحتياجات الخاصة (الإعاقات)[١]:

اسم العالم	نوع الاحتياج (الإعاقة)
١- الصحابي معيقِيب الدّوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	مجذوم
٢- الحسن بن قحطبة	أبرص
٣- المحدث عبد الله بن داود	أبرص
٤- المحدث عبد الوارث بن سعيد	أبرص
٥- عمرو بن عمرو بن عدس	أبرص، أبخر
٦- مسروق بن الأجدع	أحدب، أشلّ وفلج أيضًا
٧- إمام اللغة ابن الأعرابي	أحول أعرج
٨- الرافعي	أصم
٩- الفقيه مطرف صاحب الإمام مالك	أصم
١٠- قالون	أصم
١١- محمَّد النَّيْسابُوري الكارَزي	أصم
١٢- محمد بن سيرين	أصم
١٣- المقرئ يحيى الجذامي	أصم
١٤- المؤرخ الجزري	أصم

(١) وقد ألف بعض العلماء في إحصائهم: ككتاب «الضَّبط والتَّبيين لذوى العاهات من المحدثين» لابن المِبْرَد الحنبلي (ت ٩٠٩ هـ)، وللجاحظ كتاب: البرصان والعرجان والعميان والحُولان.

اسم العالم	نوع الاحتياج (الإعاقة)
١٥- أبان بن عثمان بن عفان	أصم أبرص مفلوج أحول
١٦- ثعلب إمام النحو واللغة	أصم صمما شديدًا
١٧- ابن النحاس الصممأصم	أصم: صممٌ مفرطٌ
١٨- عبيدة السّلماني	أصمّ، أعور
١٩- أحمد بن عبد الله ابن الناصح الحنبلي	أصم
٢٠- عبد الله ابن الناصح الحنبلي	وكذا أبوه أصم
٢١- سعيد بن أبى عَروبة	أعرج
٢٢- سلمة بن دينار (ت ١٤١هـ)	أعرج
٢٣- علقمة بن قيس، صاحب ابن مسعود	أعرج
٢٤- معاذ بن جبل	أعرج
٢٥- يزيد بن عبد الله بن الهاد الليثي	أعرج يخْمَع من رجله
٢٦- أبو الأسود الدّؤلى	أعرج، مفلوجٌ، أبخر
٢٧- عروة بن الزبير	قُطعت رجله من الآكلة
٢٨- عبد الرحمن البراك	أعمى
٢٩- المفتي عبد العزيز آل الشيخ	أعمى
٣٠- شيخهما ابن باز	أعمى

اسم العالم	نوع الاحتياج (الإعاقة)
٣١- شيخه محمد بن إبراهيم	أعمى
٣٢- ابن سِيده اللّغويّ	أعمى
٣٣- أبو القاسم السّهيلي صاحب الروض الأنف	أعمى
٣٤- أبو القاسم الشاطبيّ	أعمى
٣٥- الترمذي	أعمى
٣٦- الشَّبْرامَلسي صاحب حاشية نهاية المحتاج	أعمى
٣٧- عليّ بن زيد بن جدعان	أعمى
٣٨- قتادة بن دعامة	أعمى
٣٩- المقرئ ابن القَبَاقِبي (٨٤٩هـ)	أعمى
٤٠- التابعيّ رِبعيّ بن حِرَاش (ت ١٠١هـ)	أعور
٤١- سُفْيَان بن عُيَيْنَة	أعور
٤٢- النحوي أبو الفتح ابن جني	أعور
٤٣- إبراهيم الحربي	أعور - صداع دائم
٤٤- داود الأنطاكي	أعور أعرج
٤٥- الأحنف بن قيس	أعور وأحنف، مائل الذقن

اسم العالم	نوع الاحتياج (الإعاقة)
٤٦- عطاء بن أبى رباح	أعور، أعرج، ثم عمى
٤٧- شيخ الربوة محمد بن أبي طالب (ت ٧٢٧هـ)	انفتاق أنثييه- أعور-أصم
٤٨- شهاب الدين الغزي (ت ٨٢٢ هـ)	ربو مستمر وأوجاع كثيرة
٤٩- المؤرخ إبراهيم العياشي	شلل
٥٠- آصف القدوائي	٤٠ سنة مشلولًا
٥١- ابن الأثير صاحب جامع الأصول	شلل رباعي
٥٢- ابن المَرْزُبان (ت ٣٣٠هـ)	شلل: أشل اليد
٥٣- أبو قلابة	مجذوم
٥٤- ابن فطيمة	مقطوع الأصابع
٥٥- الزمخشري	مقطوع الرجل
٥٦- ابن فَضْلان الشافعي (ت ٥٩٥هـ)	مقطوع اليد
٥٧- النحوي أبو بكر الشنواني (ت ١٠١٩هـ)	الفالج
٥٨- عبد القادر بن بدران الحنبلي (ت ١٣٤٦هـ)	الفالج
٥٩- العالم النحوي محمد ابن الخَرّاز	مشلول آخر ٧ سنوات
٦٠- أبو الضياء الغيثي المقصري	عميَ آخر تسع سنوات
٦١- مهدي حسن الشاه جهانبوري مرض الفالج	أصيب بالفالج

اسم العالم	نوع الاحتياج (الإعاقة)
٦٢- ابن فَرْحُون (ت ٧٩٩هـ)	فلج
٦٣- أبو الحسن بن العطار	الفالج أكثر من ٢٠ سنة
٦٤- قوام السنة (ت ٥٣٥هـ)	الفالج



قال العلامة الحبيشي الوَصَابي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٦هـ) مُوْصِيًا ولدَه:

ما لذَّة الخلق في الدنيا جميعِهمُ ... ولا الملوك وأهل اللهو والطربِ

كلذَّتي في طِلاب العلم يا ولدي ... فالعلم معتمَدي حقًّا ومكتسَبي

[تاريخ البريهي (ص: ٢٩)]

٢٨. متلذذون بالعلم رغم المرض

لو مرض أحدنا بأدنى صداع أو زكام، لما وجد نفسه متهيئًا لأي جهد بدني أو ذهني.

أما طائفة المتلذذين، فلا مرض يمنعهم من التذوق للعلم بنَهَم، ولا إعاقة تردُّهم عن همِّهم.

ألم تقرأ خبرهم آنفًا وهم معاقُون؟! بل قرأتَ -سلفًا- أنهم يتناقشون بالعلم عند الاحتضار، وما من مرض أشد من لحظة توديع الدنيا.

إذا اعتللتُ فكُتْب العلم تَشفيني ... فيها نزاهة ألحاظي وتزييني
إذا اشتكيتُ إليها الهمَّ من حزَنٍ ... مالَتْ إليَّ تُعزِّيني وتُسْليني
حسبي الدفاتر من دنيا قنعتُ بها ... لا أبتغي بدَلًا منها ومن ديني[١]

لقد أنهَك المتلذِّذون بالعِلْمِ عيونهم من كثرة القراءة، وأجهدوا أجسادهم من طول السهر والعكوف على الكتب، بل وتَمْرض فَيُدَاوُونها بالقراءة، ويستثمرون عزلتهم بجرد المطولات.

وكان بعضهم لا يترك الاشتغال بالعلم؛ لعُروض مرض خفيف، أو ألم لطيف، بل كان يَستشفي بالعلم. كما قيل:

إذا مرضنا تَداوَينا بذكركمُ ... ونترك الذكر إخلالًا فننتكِسُ[٢]

إذًا فهات لنا خبرهم؛ لننظر كيف يعملون حين يمرضون، ولأنفسهم المنهَكة كيف يروِّضون! إليك إليك:

١. أبان بن عثمان بن عفان -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥هـ) كان به صَمَمٌ كثير، وأصابه

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٣).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٢٧).

الفالج قبل أن يموت بسنة، وهو راوي حديث: **من قال: بسم الله الذي لا يَضر مع اسمه شيء..لم تُصِبْهُ فَجأةُ بلاءٍ.** فجعل الرجل الذي سَمِعَ منه الحديث ينظرُ إليه، فقال له: ما لك تنظر إليَّ؟ فواللهِ ما كذبتُ على عثمانَ، ولا كذَبَ عثمان على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني، غضبتُ، فنسيتُ أن أقولها، ولا زلت أقولها منذ ثلاثين سنة، حتى كانت هذه الليلة[1].

٢. جاء شعبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٠هـ) إلى خالد الحذَّاء، فقال: يا أبا مُنازل! عندك حديث، حدِّثني به. وكان خالد عليلًا، فقال له: أنا وجِعٌ. فقال: إنما هو واحد، فحدِّث به. فلما فرغ قال: مُتْ إذا شئتَ![2].

٣. الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) أصيب بالبواسير، فلا يبرح الطَّست تحته، وما لقيَ أحدٌ من السُّقم ما لقي، بحيث ربما اجتمع فيه ثلاثون مرضًا، حتى ساء خلُقه، فكان يقول: إني لآتي الخطأ وأنا أعرفه. أراد به ترك الحِمية. وقيل: ما كان يتحفظه من مكارم الأخلاق. قال أحد تلاميذه: دخلت يومًا على الشافعي، وكان يصنّف كتابًا، فقلت له: رحمك الله! إن أصحاب مالك وأصحاب أبي حنيفة صنَّفوا الكتب الكثيرة، ويجتهدون في العلم أكثر من اجتهادك! فقال: أليس ترى ما نحن فيه؟! -وكان يتأذى بالبواسير- ثم قال: نُصَنِّف ويُصَنِّفُون، وما كان لله -تعالى- يبقى إلى الدهر[3].

٤. ابن الأنباري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) لما مرض جاءه الطبيب، فقال له: تكلفتَ أمرًا عظيمًا؛ لا يُطيقه الناس. فقيل لابن الأنباري: ما الذي كنتَ تفعله؟ فقال: كنتُ أَدْرُس في كل أسبوع عشرة آلاف ورقة[4].

٥. الحسن بن محمد البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٧هـ) أصيبت عينه في آخر عمره بالضعف؛ لكثرة الدرس والمطالعة[5].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٤٩/٦) والحديث في سنن أبي داود ت (٥٠٨٨).
(٢) الكامل في ضعفاء الرجال (١٥٣/١) وشرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١١٦).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (١٧٧/١ و٢٩٢/٢) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٤٢/٢).
(٤) طبقات الحنابلة (٧٢/٢) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣٩٧/١٣).
(٥) تاريخ بيهق/تعريب (ص: ٢٢٣).

٦. أبو محمد إسماعيل القارئ الرمجاري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣١هـ) قال عنه تلميذه أبو سعد السمعاني: كنت إذا مضيت إليه لأقرأ عليه، قال: اقعد من الجانب الآخر؛ فإن إحدى أذنيَّ بها ثِقَل. ورأيته يومًا في الحر الشديد وبيده العصا، وهو يكبو ويقعد، ويستريح ويقوم[١].

٧. أبو المعالي أحمد العلوي الحسيني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٤هـ) كان مريضًا متأخرًا في بيته، صاحب فراش، فقرؤوا عليه أحاديث[٢].

٨. ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) لما ختم كتابه: «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» قال في آخره: وقد انتزعنا هذا الإملاء مع شُغوبٍ وأمراض[٣].

٩. قال نصر بن بركات -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٦٣هـ): آلَمَتْني رِجلي، وانقطعتُ عن مجالس الحديث أيامًا، وضاق صدري لذلك، فأتاني آتٍ في المنام، وقال: مالَك يا أبا القاسم؛ انقطعتَ عن مجالس الحديث؟ فقلتُ: رِجلي تؤلمني. فقال: قد فاقَتْ. فانتبهتُ، وقمتُ -واللهِ- كأن لم يكن بي ألمٌ قط[٤].

١٠. علاء الدين الكاساني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) كان كثيرًا ما يعرض له النقرس في رجليه والمفاصل، فكان يُحمل في مِحَفَّة من منزله، ويخرج إلى الدرس، ولا يمنعه ذلك الألم من الاشتغال[٥].

١١. عبد الغني المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ) قد ضعف بصره؛ من البكاء، ومن النسخ والمطالعة[٦].

١٢. عبد البر ابن الحافظ أبي العلاء الهمذاني العطار -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٤هـ) تغير أكثر من عشر سنين، ثم ثاب إليه عقله قبل وفاته بقليل، وحدَّث[٧].

---

(١) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ٣٩٩).
(٢) المصدر السابق (ص: ٢٢١).
(٣) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص: ١٢٠١).
(٤) معجم السفر (ص: ٣٩٣). وقد مرَّ ذكر هذا الخبر.
(٥) بغية الطلب في تاريخ حلب (٢٩٠/٤) والمِحَفَّة: سرير له ذراعان من كلّ ناحية، يستلقي فوقه العاجِز عن المشي. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٥٢٦/١).
(٦) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤٤٦/٢١).
(٧) تاريخ الإسلام ت بشار (٧٦٧/١٣).

١٣. أبو محمد طلحة بن الأسعد الأموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ) قطع به عن الاستكثار من العلم زَمانةٌ لزِمته أيام شبابه، ثم إن الله -تعالى- مَنَّ عليه بالصحة، فأخذ نفسه بالجد في طلب العلم، فلم يمر عليه إلا عامان حتى بذَّ أقرانه، وكثيرًا من أشياخه، وألَّف معجم شيوخه بمئات من الرجال والنساء[١].

١٤. قال الأديب ابن الفوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٣هـ): عرض لي مرض.. وأحضروا لي من الكُتُب العربيّة والفارسيّة، ما كنت أستريح إلى مطالعته[٢].

١٥. قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك، وكلامك في العلم يزيد المرض. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمُك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعة، فدفعت المرض؟ فقال: بلى. فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوَى به الطبيعة، فأجدُ راحة. فقال: هذا خارج عن علاجنا[٣].

١٦. قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ)- وأظنه يقصد نفسه-: وأعرف مَن أصابه مرض من صداع وحمى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غُلب وضعَه، فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك، فقال: إن هذا لا يحل لك؛ فإنك تعين على نفسك، وتكون سببًا لفوات مطلوبك[٤].

١٧. أبو المعالي عبد الله بن عمر الحلاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٧هـ) من مشايخ ابن حجر. قال عنه: كان صبورًا على إسماع الحديث..حتى إنه مرض مرة، فصعدنا إلى غرفته عائدين، فأذِن لنا في القراءة.. فمر في الحال حديث أبي سعيد في رُقية جبريل، فوضعت يدي عليه في حال القراءة، ونويتُ رقيته، فاتفق أنه شفي، حتى نزل إلينا في الميعاد الثاني معافَى[٥].

---

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٤٩/٢).
(٢) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٨٥/٥).
(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٧٠).
(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٧٠).
(٥) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٢٧/٢).

١٨. الفقيه الشافعي ابن ناجية الطائي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٣هـ) زاره أحد العلماء في مرضه، وفي يديه «صحيح مسلم» فقال له: إلى أي مكان وصلت في قراءة «مسلم» بالجامع؟ فقال له: إلى صلاة الخوف. وكان متكئًا فجلس، وتكلم على كيفيات صلاة الخوف. وأطال الكلام جدًا. فقالوا له: أنت ضعيف، وفيما ذكرتَ كفاية. فسكت.

١٩. ابن المغيزل -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) كان عظيم الهمة في تحصيل الفوائد والعلم، مثابرًا على ذلك، مع تعلُّله بالربو وضيق النفَس، حتى لقد كان من ضعف جسمه، يلبس الفروة في أغلب الأوقات[١].

٢٠. ابن خلفون المنهلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) ابتدأ الفالج معه سنتين، ولم يمنعه عن الإقراء والإفتاء.. وهو مع ذلك صابر شاكر حتى مات[٢].

٢١. المقرئ أبو الفتح السنهوري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ) تجرع الفاقة، وعرض له رمَدٌ بعينيه، وفالِجٌ، ومع ذلك لم ينفكَّ عن الكتابة والاقراء[٣].

٢٢. العالم الرومي الحنفي بالي الأيديني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٩هـ) سقط مرة عن فرسه، فانكسرت رجله، فاستمر ملقىً على ظهره أكثر من شهرين، ولم يترك الدرس[٤].

٢٣. الأصولي ابن نجيم -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٠هـ) صاحب «الأشباه والنظائر» قال: وكانت مدة تأليفه ستة أشهر، مع تخلل أيامٍ توعَّك الجسد[٥].

٢٤. أبو الضياء الغيثي المقصري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٥هـ) كُفَّ بصره قبل وفاته بتسع سنين، فاحتسب ورضي، واستمر على تدريسه، وألَّف مؤلفاته وهو على حالة العمى[٦].

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٤٨/٩).
(٢) المصدر السابق (٨٠/٤).
(٣) المصدر السابق (٦٩/٣).
(٤) شذرات الذهب لابن العماد (١٦٢/٨) والكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١٦٥/١).
(٥) الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ٣٧٣).
(٦) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٧٦).

٢٥. الشيخ النحوي أبو بكر الشنواني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٩هـ) ابتلي بالفالج، فمكث فيه سنين، وألَّف المؤلفات المقبولة(١).

٢٦. عبد الرؤوف المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٠هـ) كان قليل الطعام، كثير السهر، فمرِضَ وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تآليفه. وله نحو ثمانين مصنفًا(٢).

ومما يَكسر الخاطر، ويجلب الرأفة والأسى قوله في ختام كتابه «فيض القدير»: علَّقته باستعجال، في مدة الحمل والفصال، والخواطر كسيرة، وعين الفؤاد غير قريرة، والقرائح قريحة، والجوارح جريحة، من جنايات..الأنام؛ تأديبًا من الله عن الركون إلى من سواه(٣).

٢٧. حكى الحسين بن المنصور بالله اليمني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٠هـ) أن: بعضهم كان لا يترك الاشتغال؛ لعُروض مرض خفيف، وألم لطيف، بل كان يستشفي بالعلم، ويشتغل بقدر الإمكان(٤).

٢٨. أبو الضياء الشبراملسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٧هـ) كان إذا أتى إلى الدرس في آخر عمره، يجلس وهو في غاية التعب من الكِبَر، بحيث إنه لا يستطيع النطق إلا بصوت خفي، ثم يقوى في الدرس شيئًا فشيئًا، حتى يصير كالشاب. ويتجلد للبحث، وكان كثير المطالعة، وإذا تركها أيامًا تأتيه الحمى(٥).

٢٩. من طريف ما يُذكر أن الأمير الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٢هـ) أصابه داء أعيا الأطباء، فجيء له بكتاب «الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجيلي، وكتاب «المضنون به على غير أهله» لأبي حامد الغزالي. قال الصنعاني: فطالعتُ الكتابين،

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٧٩/١).
(٢) الأعلام للزركلي (٢٠٤/٦).
(٣) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية ومعه النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية (ص: ٣)فيض القدير (٢/١).
(٤) آداب العلماء والمتعلمين (ص: ٥).
(٥) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٧٦/٣).

ورأيتُ فيهما ما هو واللهِ كفر، لا يتردد فيه إيمان، فحرقتهما، ثم جعلتُ أوراقَهما في التنور، وخُبِز لي على نارهما خبزٌ نضيج، وأكلته بنية الشفاء من ذلك الداء، فذهب بحمد الله ذلك الألم، ونمت الليل أو أكثره، وحمدتُ الله على نصرة دينه، وعلى العافية(١).

٣٠. الشيخ محمد الكزبري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٢١هـ) أقرأَ ثلثي «صحيح مسلم» ثم قطع؛ لضعف عرَض له في بصره، ثم أتمه في داره(٢).

٣١. الزّاهد الفقيه محمّد بن حمد الهُديبيّ -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٦١هـ) قال: سألت الله -تعالى- ألا أقطع الدّروس إلّا لمرض الموت. فما قطع الدّرس إلّا لمرض موته(٣).

جعلت في كتب العلوم أُنْسِي ... وعن سوى العلم صرفتُ نفسي
والآن وقد نبذتُ عيني شغُلي ... وصار نَيل العلم أقصى أمَلي(٤)

٣٢. قال المفسر محمود الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٠هـ): وعادتي أنه إذا ألَمَّ بي ألمٌ، أتداوى منه بعقاقير أرقام القلم، وأسترقي برُقى بحثه من شياطين الهموم(٥).

٣٣. حرم بن عبد الجليل العلوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٧هـ) من عجيب أمره، إنه لما كبر أصيب ببصره، فكان لا يميز الناس ولا الدواب، ولكنه يقرأ الكتب! بل كان يكتفي في الليل بضوء قليل؛ يقرأ الكتب عليه:

أغناه نور القلب عن نور البصر ... يطالع الكتْب ولا يرى البشر(٦)

٣٤. صِدّيق حسن القِنوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) اشتد به المرض، وأعياه العلاج، وكانت أنامله تتحرك لا إراديًا، كأنه مشغول بالكتابة(٧).

(١) مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني - عبدالرحمن بعكر (ص٩٢١).
(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ١٢٢٩).
(٣) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٩١١/٢).
(٤) الموافقات (مقدمة/٢٨).
(٥) غرائب الاغتراب (ص: ١).
(٦) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٢٦).
(٧) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١٢٤٨/٨).

٣٥. الشيخ أحمد الكانبوري الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٢هـ) كان يُدرِّس خمسة عشر درسًا في كل يوم، وفي أثناء ذلك عرضت له البواسير، فيهرق الدم الكثير، وهو لا يتعطل معه عن التدريس، حتى غلب عليه الهزال، ومنعه الأطباء عن التدريس قاطبة، ولكنه ما ترك حتى توفي[١].

٣٦. أرسل الشيخ جمال الدين القاسمي(ت ١٣٣٢هـ) رسالة للشيخ الألوسي (ت ١٣١٧هـ) -رحمهما الله تعالى- لما أهداه كتابه «غرائب الاغتراب» فقال: صادف ليلة جاءني أن كُنتُ في صُداع، وأنا أقاسي من الآلام ما يمنعني من الكلام، فلما ناولنيه شقيقي بعد العشاء رأيتني وقد سرى إليّ نسيم النشاط والشفاء، فغالبت نفسي..وقلت: لأتأسين بشيخ الإسلام الأنصاري؛ فقد كان يستشفي بمطالعة العلم، ومذاكرة أُولي الفطنة والفهم، وبقيت أُسامرُه معظم الليل وهو يرِقُّ لي، ويُنيلني من منادمته أعظم النيل، وقد أصبحت -بحمد الله- وما بي ألَمٌ[٢].

والقاسمي -أيضًا- قد أنهى أحد مؤلفاته وهو مريض مسافر في تنزهاته، والكتاب هو «الوعظ المطلوب من قوت القلوب» فقد قال: إنه أتمَّه أيام تجوُّله؛ ترويحًا للنفس من مرض ألمَّ به[٣].

٣٧. رفيق بك العظم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٣هـ) كان شديد الميل إلى التاريخ والأدب سكن مصر، إلا أنه لكثرة المطالعة والسهر أصيب بمرض العصب، فاضطر إلى ترك المطالعة، وسافر إلى الشام؛ لأجل تبديل الهواء، ولما عوفي عاد إلى مصر، فعاد للقراءة[٤].

٣٨. المفسر الأصولي الدمشقي عبد القادر بن بدران الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) أصيب بداء الفالج في آخر عمره، حتى خدرت يمناه عن الكتابة، واستعان عليها باليسرى[٥].

(١) المصدر السابق (١١٨٠/٨).
(٢) الرسائل المتبادلة بين القاسمي، والألوسي، للشيخ محمد العجمي (ص١٢١).
(٣) انظر كتاب: جمال الدين القاسمي سيرته الذاتية بقلمه - جمع وتعليق محمد ناصر العجمي (ص١١).
(٤) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ٦٣٠) والأعلام للزركلي (٣٠/٣).
(٥) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٧٨١/٣).

٣٩. كتاب «السيف المجلَّى على المحلَّى» مؤلفه: مهدي حسن الشاه جهانبوري -رحمه الله تعالى-، قال في آخره: فرغت من تسويده سنة ١٣٨٨هـ، وأنا مريض بمرض الفالج من خمسة أعوام، عاجز عن القيام والقعود إلا بمعين[١].

٤٠. مرض الشيخ عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٢هـ) وهو يجمع فتاوى ابن تيمية، فسافر للعلاج إلى بيروت، ثم باريس عن طريق القاهرة. يقول ابنه الشيخ محمد: وصلنا القاهرة، وقمنا بزيارة دار الكتب المصرية، ثم تصفحنا ما فيها من المجاميع..فتحصل من الجميع مجلد متوسط. وبينما هو يعالج في بيروت، ضحَّى براحته وحاجته، وضحى بمرافقة ابنه له؛ ليأمره بالسفر من بيروت إلى دمشق؛ للتنقيب والنسخ. فسبحان الفاتح المانح.

يقول الابن: كنت أتصفح المجلد، فأجد فيه مسائل ونقولًا عن شيخ الإسلام أستغربُها، وأستعذبُها.. فأخذت أتابع المطالعة والتصفح لجميع الموجود فيها؛ وهو بضع وأربعون مجلدًا.. ففرحت فرحًا عظيمًا؛ بالتوفيق للعثور على هذه الكنوز العلمية[٢].

٤١. المفسر المقرئ عبد الفتاح المرصفي المصري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٩هـ) رغم مرضه الشديد- كان يُقرئ الطلاب، ولا يمنع أحدًا، وكان بعضهم يقرأ عليه أثناء تناوله الطعام[٣].

٤٢. شيخنا محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) في آخر شهر من حياته، ألقى دروسه الرمضانية بالمسجد الحرام، وهو بحجرته تحت الأجهزة الطبية. وفي آخر ليلة من رمضان أدخل العناية المركزة بمستشفى في جدة قرابة الأربع ساعات، ثم تحسَّنتْ حالته شيئًا ما، فأصرَّ أن يذهب إلى مكة، وقال: لا تَحرِمونا هذا الأجر، فهذه آخر ليلة في رمضان! ولما انتهى من الدرس قال للأطباء: لو جلسنا في جدة لَفَاتنا هذا الخير العظيم![٤].

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٣٢٦/١١).
(٢) مقدمة مجموع فتاوى ابن تيمية (١/هـ).
(٣) الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (١٢٦٢/٢).
(٤) صفحات مشرقة -حمود المطر (ص١٤١).

٤٣. المؤرخ حمد الجاسر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) يقول عن نفسه: كنت أقرأ في كل وقت، بل إنني قد أكون مستغرقًا في النوم، ثم أذكر مسألة بحثت عنها في النهار، فأتذكر المصدر، فأقوم في الليل وأبحث، وحين أوفق في ذلك أحس أنني قد نلتُ شيئًا عظيمًا. والآن حدد الطبيب لي ألا أقرأ أكثر من ثلاث ساعات في اليوم، حيث قال: إن العمل يرهقك. فَعُدْتُ أحس بالإرهاق(١).

فكرسيُّه حِجري إذا كنت قاعدا   وإنْ أضطجع أفرشْه مستلقيًا صدري(٢)

٤٤. الشيخ عبد الله بن عبد العزيز الجبرين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٨هـ) لما قطع مشوارًا في تأليف كتابه، الذي هو مشروع عمره: «تسهيل الفقه ١٢ جزءًا» أصيب بمرض السرطان، فأكمله وهو يعالج بأمريكا، ثم أخبروه بأن المرض قد انتشر في جزء كبير من جسمه، فما زاده هذا الخبر إلا إصرارًا على المُضي في بحث مسائل الكتاب، وتحرير مواضع الخلاف بتأنٍ، لا بِروح العَجِل الذي أنهكتْه الآلام. ولقد أخبر خاصَّته أنه كان يعاني لمدة طويلة من بعض الأمراض المزمنة، مثل آلام الركبة، وآلام القرحة، وآلام الرقبة، وآلام في مفاصل اليد؛ من كثرة الكتابة على الحاسوب، إلى أن اشتدت به الآلام، وأُدخل المستشفى للمرة الأخيرة(٣).

٤٥. الأديب الشاعر د. عبد الله بن سُلَيم الرُّشَيد -شفاه الله وحفظه- أُجريَ له عمليات لزراعة النخاع، أقعدته في المستشفى والفراش لسنوات، ولكنه خلالها ما جفَّ قلمه عن الكتابة ولا يراعه عن التأليف، بل صار المرض سببًا للتفرغ للقراءة، وإخراج أحد عشر مؤلَّفًا! وكان إذا عرض عليه الطبيب إجازة مرضية يرفضها؛ ليستمر في الإشراف على الأطاريح العلمية، ومناقشتها، وإقامة محاضراته، وطرح مشاركاته الثقافية والأدبية.

---

(١) في مقابلة شخصية معه في اليوتيوب.

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/٤٥).

(٣) من مقدمة تسهيل الفقة، بقلم أحد ملازميه (لم يذكر اسمه) (١/١٣).

لفتة:

ليُعلم أن اللذة العلمية برغم المرض، ليست قاصرة على علماء الإسلام، الذين هم المتلذذون حقًا.

فهذا الأديب اللبناني، والشاعر النصراني بولس سلامة (ت ١٣٩٩هـ) أجرى اثنتين وعشرين عملية جراحية، ثم أصيب بالشلل النصفي، وبقي طريح فراشه ربع قرن من الزمان. وبرغم رحلته الشاقة من الآلام، المصحوبة بعواصف نفسية جائحة وساخطة، إلا أنه استعصم بالقلم، يبثُّه لَواعِجَه، وبالأوراق يُودِعُها مشاعره، ولا يدَعُ القراءة أشد من حرصه على دوائه، حتى إنه يستقبل ضيوفه في غرفة نومه، وفي يده أوراقه وأقلامه، وبقية الفراش مغطىً بالكتب والدواوين والمعاجم[1].

أرأيت كيف أنهم يتداوون بالعلم عند المرض؟! على حدِّ قول القائل:

إذا مرِضنا تَداوَينا بذِكرِكمُ ... فنترك الذكر أحيانًا فننْتكِسُ



(١) وديع فلسطين يتحدق عن أعلام عصره (١٣٦/١).

٢٩. متلذّذون بالعلم رغم الفقر

من جمع بين غنى المال واللذة بالعلم فقد ارتاح وتفرغ، وتكاملت لذته. لكن من حصل لذة العلم مع الفقر فلا يأسَى على ما فاته؛ فقد حاز أعلى اللذتين. كما أن الفقر ليس عَيبًا، بل العيب في الجهل، علما أن أكثر العلماء عاشوا على الكفاف.

ومن وصايا أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) لتلميذه أبي يوسف: اشتغِل بالعلم في عُنفوان شبابك، ووقت فراغ قلبك وخاطرك، ثم اشتغل بالمال.. وإن بقيت عشر سنين بغير كتب ولا قوت، فلا تُعرض عن العلم، فإنك إن أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكًا[١].

ولذا قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): ربما زَوَى عنك من لذات الدنيا كثيرًا، ليؤثرك بلذَّات العلم، فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع، فهو أعلم بما يُصلحك[٢].

شُغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى ... كما شُغلوا عن مكسب العلم بالوفرِ
فصار لهم حظ من الجهل والغنى ... وصار لنا حظ من العلم والفقرِ[٣]

فلتَسعد -طالب العلم الفقير- بما أعطاك الله، وقد حُرِمه الأكثرون، وإياك أن تندُب حظك، فأنت فوقَهم، وسوقك يغلبُ سوقَهم.

قال الماوَردي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٠هـ): العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قلَّ معهما المال، وضاقت معهما الحال[٤].

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص: ٥٢).
(٢) صيد الخاطر (ص: ١٩٠).
(٣) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢/٣٧٤).
(٤) أدب الدنيا والدين (ص: ٤٦).

قلت للفقر: أين أنت مقيم؟ قال لي: في محابر العلماءِ
إنّ بيني وبينهم لإخاءً وعزيزٌ عليّ قطع الإخاءِ(١)

واعلم أن درجة فقَر العلماء آنذاك أضعاف درجات الفقر الآن، فلا مقارنةَ في وسائل المواصلات، ولا في أدوات العلم، ولا في سُبُل تحصيله، ولا في التواصل مع العلماء.

والعجيب أن السابقين لا يَملك أحدهم إلا قلما واحدًا، فإذا ملَكَ قَلَمين عَدُّوه مُوسِرًا: وهذا محمد بن نمير -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٤هـ) قال لمن حوله: معكم قلمُ فَضْلٍ؟ فقالوا: نعم، قال: أنتم مَيَاسِير(٢).

واعلم -أيضًا حفظك الله- أن مِن المتلذذين مَن منَّ الله عليه، فوسَّع عليه في رزقه، كابن الجوزي، الذي قال متحدثًا بنعمة الله عليه: ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي، الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقتُ زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتُني لم يَفُتْنِي مما نالُوه؛ إلا ما لو حصل لي ندمت عليه. ثم تأملت حالي، فإذا عَيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وَجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نِلْتُه من معرفة العلم لا يقاوَم(٣).

أَلَا إن المتلذذ بالعلم أرْبَت لذته به على كل اللذائذ، مع أنه كثيرًا ما يُعوِزه المال، ولذلك إذا جالَس أهل العقار فلا يفهم تعبيرهم، وإذا حادَث أهل الشاء والبعير فلا يُحسِن أن يخوض معهم، إلا أن يلجأ لطرح السؤالات. فما أشبهه بقول العرب: «ما لَه ثاغِيَةٌ ولا راغِية»(٤).

فلا تلُمْ مولعًا بلذته فإنها عِلة يُعانيها(٥)

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٢٣٦).
(٢) معجم ابن المقرئ (ص: ٢٧٢).
(٣) صيد الخاطر (ص: ٢٤٧).
(٤) أدب الكاتب لابن قتيبة (ص: ٤٨). الثاغية: الشاة، والراغية: الناقة.
(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/٨٨٤).

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): لا يبلغ هذا الشأنَ رجلٌ، حتى يُضِرَّ به الفقر، أن يؤْثِره على كل شيء[١].

حسبي الدفاتر من دنيا فُجعتُ بها   لا أبتغي بدلًا عنها ومن ديني[٢]

وعند المقارنة بين لذة العلم ولذة المال؛ فإن البَون شاسع.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): لذة العلم تشبه لذة الملائكة وبهجتها..وعقلاء الأمم مطبقون على ذم الشَّرَه في جمع المال.. ومُطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله، ومدحه، ومحبته، ورؤيته بعين الكمال..فمع صاحب العلم من أسباب اللذة، ما هو أعظم وأقوى، وأدْوَم من لذة الغنى[٣].

ومتلذِّذو العلم الفقراء قد يأسَى الناظر لهم، ويُشفِقُ لحالهم، وقد ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

ما ضرَّهم ما فات من دنياهمُ   فلَذيذ عيشهمُ الهَنيء مؤخرُ[٤]

فإنهم يصبرون، بل يستلذّون هذا الشظف، بل يتلمحون الحكمة الربانية من وراء إفقارهم.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم في زمان الصبا عن المعاش، فيحتاجون إلى ما لا بد منه، فلا يصلهم من بيت المال شيء، ولا من صِلات الإخوان ما يكفي، فيحتاجون إلى التعرض بالإذلال! فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سببين؛ أحدهما: قمع إعجابهم بهذا الإذلال. والثاني: نفع أولئك بثوابهم[٥].

وإليك الآن بضعة وثلاثين شاهدًا، من أقوالهم وأفعالهم، دالّة على صبرهم وتوكلهم ولذّتهم معًا:

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١١٩/٩).

(٢) التدوين في أخبار قزوين (٢٧٤/٣).

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٣١/١).

(٤) الروض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم (١٤/١).

(٥) صيد الخاطر (ص: ١١٠).

١- أبو هريرة ﷺ (ت ٥٨هـ) كان عليه ثوبان ممشَّقان من كِتّان، فتمخّط، فقال: بخٍ بخٍ! أبو هريرة يتمخط في الكتان! لقد رأيتُني وإني لأخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة، مغشيًا عليَّ، فيجيء الجائي، فيضع رِجله على عنقي، ويرى أني مجنون، وما بي من جنون ما بي إلا الجوع(١).

٢- أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) يوصي تلميذه أبا يوسف -وقد أخذ التلميذ بالوصية كما سيأتيك بعد سطور-. قال أبو حنيفة: وإن بقيتَ عشر سنين بلا كسب ولا قوت، فلا تُعرِض عن العلم؛ فإنك إذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكًا(٢).

٣- قال شعبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٠هـ): من طلب الحديث أفلَسَ، لقد أفلستُ حتى بعتُ طستًا لأمي بسبعة دنانير(٣).

٤- قال الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ): لما أردتُ أن أطلب العلم رأيت العلم يَدْرُس، فقلت: أفرِّغ نفسي لطلَبه، وقلت: يا رب إنه لابد لي من معيشة. وسألت ربي الكفاية، والتشاغل لطلب العلم، فما رأيت إلا ما أُحب إلى يومي هذا(٤).

٥- الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) أفضى به طلب العلم، إلى أن نقض سقف بيته، فباع خشبه(٥).

٦- أبو يوسف - (ت ١٨٢هـ) تتلمذَ على أبي حنيفة -رحمهما الله تعالى-، على فقر وشدة، وكانت أمه تحتال له فيما يتقوَّته يومًا بيوم، فطلب يومًا ما يأكل، فجاءته بغَضارة مُغطاة، فكشفها، فإذا فيها دفاتر! فقال: ما هذا؟! فقالت: هذا الذي أنت مشتغل به نهارك أجمع، فكُلْ منه! فبكى، وبات جائعًا، وتأخر عن المجلس من الغد(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٧٣٢٤).
(٢) الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ٣٦٩).
(٣) الكامل في ضعفاء الرجال (١/١٥٣).
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/٣٧٠).
(٥) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١/٩٨).
(٦) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٢/٣٨٧).

٧- قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): كنت أتلقَّط كَرَب النخل، وأكتاف الجِمال؛ أكتب فيها الحديث، حتى كانت لأمي جَرَّةٌ، فملأتُ الأكتاف والكَرَب حديثًا[١].

وقال: أفلستُ من دهري ثلاث إفلاسات، فكنت أبيع قليلي وكثيري، وحُليَّ ابنتي وزوجتي[٢].

٨- قال الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ): كنت بالبصرة أطلب العلم، وأنا مُقِلٌّ، وكان على باب زِقاقنا بقَّال، إذا خرجت باكرًا يقول لي: إلى أين؟ فأقول: إلى فلان المحدث، وإذا عُدت مساءً يقول لي: من أين؟ فأقول: من عند فلان الأخباري، أو اللغوي. فيقول: يا هذا، اقبل وصيتي، أنت شاب، فلا تضيع نفسك، واطلب معاشًا يعود عليك نفعه، وأعطني جميع ما عندك من الكتب، حتى أصب عليها من الماء، وأنبذه! واللهِ لو طلبتَ مني بجميع كتبك جزرة بقل ما أعطيتك. فيضيق صدري بمداومته هذا الكلام، حتى كنت أخرج من بيتي ليلًا، وأدخله ليلًا، وحالي - في خلال ذلك- تزداد ضيقًا، حتى أفضيت إلى بيع آجُرِّ أساسات داري، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي، وطال شعري، وأَخْلَق ثوبي، واتسخ بدني.

فبينا أنا كذلك متحيرًا في أمري، إذ جاءني خادم أمير المؤمنين هارون الرشيد، فقال: أجب الأمير؛ لتؤدب وتعلم ابنه محمدًا. فسررت سرورًا شديدًا، وأُجريَ عليَّ في كل شهر عشرة آلاف. فأقمت معه، حتى قرأ القرآن، وتفقه في الدين، وروى الشعر واللغة.. وأتتني الجوائز والصِلات من كل ناحية، فجمعت مالًا عظيمًا.

وانحدرت إلى البصرة، فإذا البقال، وعليه عمامة وسخة.. وهو بلا سراويل. فقال: كيف أنت يا عبد الملك؟ فاستضحكت من حماقته، وخطابه لي بما كان يخاطبني به الرشيد. وقلت: بخير، وقد قبلتُ وصيتك، وجمعتُ ما عندي من الكتب، وصببتُ عليها من الماء كما أمرتَ، فخرج ما ترى. ثم أحسنتُ إليه بعد ذلك، وجعلتُه وكيلي[٣].

---

(١) معجم الأدباء (٢٣٩٥/٦).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧٧/٩).
(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي (١٦١/٣).

٩- قال أبو الوليد الطيالسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٧هـ): كتبتُ عن قيس بن الربيع ستة آلاف حديث؛ هي أحب إليَّ من ستة آلاف دينار(١).

١٠- قيل لأحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): إني أطلب العلم، وإن أمي تمنعني من ذلك، تريد مني أن أشتغل بالتجارة، قال: دارِها وأرضِها؟ ولا تَدَعِ الطلب(٢).

وقال أحمد: في سبيل الله دراهم أنفقناها، في الذهاب إلى عدن - يعني إلى إبراهيم بن الحكم-(٣).

١١- الحارث بن أبي أسامة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٢هـ) كان يأخذُ مالًا على الرِّواية؛ لأنَّه فقير كثير البنات. وما زوَّج واحدة منهن لفقره، وقد علَّق كفنه ببيته؛ خوفًا أن لا يجدوا له كفنًا(٤).

١٢- قال المحدث إبراهيم الحربي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٥هـ): ضِقت مرةً، حتى عدِمْنا القوت، فقالت امرأتي: إن الصَبِيَين لا يصبران على ما نصبر عليه، فأعطِني شيئًا من كتبك نَبِعْه، فشحَّت نفسي بالكتب، وقلت لها: أمهليني بقية اليوم، فالله مرجوٌّ الفرج، فما دخل الليل حتى دق الباب، فإذا رجل، فدخل، وقال: أطْفِ السراج. فوضع شيئًا إلى جانبي، وانصرف. فإذا هي أطعمة، وخمس مئة درهم، فقلت للمرأة: أنبهِي الصبيَين ليأكلا، وأوفِي ما علينا من دَين(٥).

١٣- الحسن بن سفيان النسوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٣هـ) اجتمعَ إليه طائفةٌ من طلابه، فأوصاهم قائلًا: قد علمنَا أنَّكم طائفةٌ من أبناء النِّعم، هجرتُم أوطانَكم، وفارقتم ديارَكم وأصحابكم في طلب العلم، فلا يخطرنَّ ببالكم أنَّكم قضيتم بهذا

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٤٦٩/١٤).

(٢) طبقات الحنابلة (١٣٨/١).

(٣) سؤالات الأثرم لأحمد بن حنبل (ص: ٢٦).

(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢١٤/٨) وطبقات علماء الحديث (٣٢١/٢) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٨٩/١٣).

(٥) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٩١/١).

التجشُّم للعلم حقًّا، ولا أدَّيتم له من المشقَّة فرضًا، وأنا أحدِّثكم ببعض ما تحمَّلتُه من المَشَقَّة:

ارتحلنَا إلى شيخٍ من أهل مصر، فأقمنَا نسمعُ عليه الحديثَ، فنَفِدَت نفقاتُنا، وبعنَا جميع ثيابنا، وأفضَى بنا الحالُ إلى أنْ طوينَا ثلاثةَ أيامٍ بلياليهن، وأصبحنَا في اليوم الرابع وليس بنا حَرَاكٌ من الجوع، ولم يبقَ حيلةٌ إلَّا الخروج إلى سؤال الناس، فكتبنا رقاعًا فيها أسامينا، واقترعنَا على من يتولَّى السؤال، فخرجتِ القرعةُ على اسمي، فتحيَّرتُ ولم تسمح نفسي بذلك، فعدلتُ إلى زاويةٍ في المسجد الَّذي كنَّا فيه، وصلَّيتُ ركعتين، وسألتُ الله بأسمائه العظام، فلم أستتمَّ دعائي حتَّى دخل المسجدَ خادمٌ في يده منديل، فقال: من منكم الحسن بن سفيان؟ فرفعتُ رأسي من السجدة وقلت: أنا، فقال: إنَّ الأمير أحمد بن طولون يقرئكُم السلام. ووضع بين يدي كلِّ واحدٍ منَّا صُرَّةً فيها مئة دينار، وكنَّا ثلاثة، فقلت له: فما سببُ هذا؟ ومن أين يعرفنا الأمير؟! فقال: حدَّثني أنَّه أتاهُ البارحة في المنام فارسٌ وبيده رمحٌ، فوضعه على خاصرته، وقال: قم فأدرك الحسنَ بن سفيان وأصحابَه، فإنَّهم منذ ثلاث ما أكلوا، وهم في المسجد الفلانيّ(١).

١٤- الزّجّاج النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ) قال: كنتُ أخرط الزُّجاج، وكسْبي كل يوم درهم ونصف، فاشتهيتُ النحو، فلزمتُ المبرّد، وكان لَا يُعَلّم مَجَّانًا، فقلت له: أريد أن تُبالغ في تعليمي، وأعطيك كل يوم درهمًا. وكنت أُنْفِذ إليه في الشهر ثلاثين درهمًا(٢).

١٥- الدارَقطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) جاءه أحد الغرباء، وسأله أن يُمليَ عليه أحاديث، فأملى عليه أبو الحسن مِن حِفظه مجلسًا، يزيد عدد أحاديثه على العشرة؛ متونُ جميعها: **نِعْم الشيء الهدية أمام الحاجة.** وانصرف الرجل، ثم جاءه بعد وقد أهدى له شيئًا، فقرَّبه، وأملى عليه مِن حفظه بضعة عشر حديثًا؛ متونُ جميعِها: **إذا أتاكم كريم قوم فأكرِموه**(٣).

(١) باختصار من تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠٣/١٣).
(٢) تاريخ بغداد (٦١٣/٦).
(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٣٨/١٢).

فعلَّق الذهبي معتذرًا له بثلاثة أعذار (التورية - التسويغ الفقهي- الفقر) قائلًا: لوَّح بطلب شيء، وهذا مذهب لبعض العلماء، ولعله كان إذ ذاك محتاجًا[(١)].

١٦- المعافَى بن زكريا -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ) نام في جامع الرصافة، مستدبر الشمس في يوم شاتٍ، وبه من أثر الفقر والبؤس والضرّ أمر عظيم، مع غزارة علمه، ومعرفته بصنوف العلم. فقيل له: مهلًا أيها الشيخ وصبرًا؛ فإنك بعين الله، ومرأى منه ومسمع، وما جمع الله لأحد شرف العلم وعزّ المال. فقال: ما لا بدّ منه من الدنيا فليس منه بُدٌّ[(٢)].

١٧- النحوي يحيى الأرزني -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٥هـ) يخرج إلى سوق الكتب، فلا يقوم حتى يكتب كتابًا، ويبيعه بنصف دينار، ويشتري به لحمًا وفاكهة، ولا يَبيت حتى ينفقه[(٣)].

١٨- قال البرقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٥هـ): دخلت إسْفَرَايين.. وبقي معي درهم، فدفعته إلى بقَّال، وكنت آخذ منه في كلّ يوم رغيفين، وآخذ من بشر بن أحمد جزءًا من حديثه، وأدخل مسجد الجامع فأكتبه، وانصرف بالعشي، وقد فرغت منه، فكتبت في مدة شهر ثلاثين جزءًا، ثمّ نفِد ما كان لي عند البقال، فخرجت عن البلدة[(٤)].

١٩- عبد القاهر بن طاهر البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٧هـ) درَّس في سبعة عشر نوعًا من الفنون، كان ذا مال وثروة ومروءة، وتفقه على أهل العلم والحديث، وأنفق ماله على العلم، حتى افتقر[(٥)].

٢٠- أبو الغنائم الدجاجي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) كان له مال، فافتقر، فجمع له أهل الحديث شيئًا، فلم يَقبل، وقال: وافضيحتَنا! آخذ على حديث رسول الله ﷺ؟! لا والله![(٦)].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤٥٦/١٦).
(٢) معجم الأدباء (٢٧٠٢/٦).
(٣) بغية الوعاة (٣٤٣/٢).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٩/٥) وطبقات الفقهاء الشافعية (٣٦٥/١).
(٥) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور للصَّرِيْفِيْنِيّ الحنبلي (المتوفى: ٦٤١هـ) (ص: ٣٩٤).
(٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٣٦/١٦).

٢١- أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) كان لا يملك شيئًا من الدنيا، فبلغ به الفقر أنْ كان لا يجد قوتًا ولا ملبسًا، فيأتيه طلابه، فيقوم لهم نصف قَوْمَة، ليس يعتدل قائمًا من العُري؛ كيلا يظهر منه شيء[١].

٢٢- عبد السّلام القَزْوينيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) شيخ المعتزلة. مَلَكَ من الكُتُب ما لم يَملكه أحدٌ، وقد ابتاعها من مصر بالخبز وقت القحط، وكانت أزْيَدَ من أربعين ألفِ مجلد. وكان يقول: ملكتُ ستين تفسيرًا، وقد بِعتُ رَحلي، وما في بيتي[٢].

٢٣- قال ابن طاهر القيسراني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٧هـ): ضاق بي الحال، ولم يبقَ معي غير درهم، وكنت في ذلك أحتاج إلى خبز، وأحتاج إلى كاغد، فكنت أتردد؛ إن صرفته في الخبز لم يكن لي كاغد، وإن صرفته في الكاغد لم يكن لي خبز، ومضى على هذا ثلاثة أيام ولياليهن لم أطعم فيها، فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت في نفسي: لو كان لي اليوم كاغد لم يمكن أن أكتب فيه شيئًا؛ لما بي من الجوع، فجعلت الدرهم في فمي، وخرجت لأشتري الخبز، فبلعته، ووقع عليَّ الضحك، فلقِيَني صاحب لي وأنا أضحك، فقال لي، ما أضحكك؟! فأخبرته. وأخذ بيدي، وأدخلني منزله[٣].

٢٤- الفقيه زيد بن عبد الله اليَفاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٤هـ) حضر مجلس علم، وكانت عليه أطمار رثّة، فأقامه رجل من المجلس احتقارًا له، فقال: لا تُقِمْني؛ فإني أحفظ مئة ألف مسألة بعِلَلِها[٤].

٢٥- ابن الحطيئة الناسخ المقرئ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) علَّم زوجته وابنته الكتابة، فكانتا تكتبان مثل خطه سواء، فإذا شرعوا في نسخ كتاب أخذ كل واحد جزءًا وكتبوه، فلا يفرِّق بين خطهم إلا الحاذق. واتفق بمصر مجاعة شديدة، فسأله المصريون قبول مالٍ فامتنع، فأجمعوا على أن خطب أحدهم ابنته، فتزوجها، وسألوا أن تكون

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/٢١٩).
(٢) تاريخ الإسلام ت بشار (١٠/٦٠٢) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٨/٦١٨) وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (٢/٢٧٩).
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٥/١٧٨).
(٤) معجم البلدان (٥/٤٣٩).

أمها عندها، فأذن له في ذلك، وقصدوا بذلك تخفيف العائلة عنه، وبقي منفردًا ينسخ ويأكل(١).

٢٦- أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة، الخزرجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٢هـ) كُفَّ بصره، ولم يُنقِص من حفظه وذكائه شيئًا، ونُكِب نكبات. وحضر مجلسَه يوما أحدُ الوجهاء، فأُعجب به، وسأل عن مؤونته، فأُخبر أنها من تفقد الإخوان وإحسانهم، فسأله تعيين ما يحتاج إليه عن نفقة كل سنة، فقال له: ثلاث مئة وستون دينارًا. فدفع له ثمان مئة دينار، وقال له: هذه جِراية عامين لك، دون ما تحتاج إليه من كسوة، ومُؤَنِ مواسم. ورتَّب له هذه الجِراية، ولم يقطعها عنه مدة تسعة أعوام، جزاه الله أفضل جزاء المحسنين(٢).

٢٧- الحافظ ابن بصيلة المسكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٨هـ) جمع تاريخًا، ومات وهو مسودة؛ لأنه عجز عن تبييضه لفقره. فبِيع على العطارين لصَرِّ الحوائج! كأن لم يكن بمصر مَن يُعِينه على تبييضه، ولا ذو همة يشتريه فيبيِّضه! والله المستعان(٣).

٢٨- قال أبو محمد المرجاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٩هـ): كنت في حال الطلب أنسخ كتاب «الإكمال» للقاضي عياض، وكنت في حال فاقة شديدة، وكنت إذا نسخت الكراس أَعرض على نفسي: أيما أحب إليك؛ هذا الكراس أو وزنه دراهم؟! فكنت أجد عندي أن الكراس أحب إليَّ من ذلك(٤).

٢٩- قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٤هـ): ذهبت لابن تيمية بالمدرسة الحنبلية، فرأيت بيته فيه أثاث يسير، وله منارة من طين فيها سراجه، فخطر في سرِّي علماء الزمان، وما هم عليه من البَسط في الدنيا. فناداني الشيخ: يا إسماعيل! لا تُكثر الفضول، أولئك لم يذوقوا حلاوة العلم(٥).

---

(١) الوافي بالوفيات (٧/٨٠).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١/٤٢٠).
(٣) توضيح المشتبه (٨/١٦٠) ونسبة ومنسوب (ص: ٧٥٦) ومعجم البلدان (٥/١٢٨). والمعنى اتُخذ الورق كالحِبال لربط الحوائج!.
(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢/٣٧٣).
(٥) محنة ابن ناصر الدمشقي (ص: ٤٤٠).

٣٠- قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري-رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٦هـ): كنتُ أجوع كثيرًا، فأخرج بالليل إلى قشر البطيخ، فأغسله وآكله، إلى أن قيَّض الله لي شخصًا، فصار يتفقدني، ويشتري لي ما أحتاج إليه من الكتب والكسوة[1].

٣١- أبو الضياء الغيثي المقصري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٥هـ) كان يصبح وليس عنده قوت يومه، وهو مع ذلك لا يترك التدريس، ويسعى بعد تمام الدرس في تحصيل قوت يومه[2].

٣٢- الشيخ الشريف أبو عبد الله التلمساني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧١هـ) سأله السلطان يوما عن مسألة، فقال له: إنما يَفهم هذه المسألة الطالب الفلاني. وكان محتاجًا، فطلبه السلطان، فبيَّن الطالبُ المسألةَ بين يدي السلطان، فسئل عمن استفادها؟! فقال: مِن سيدي الشريف التلمساني[3]. فيا للجَمال! من أيهما تَعجَب: من العالم المربي المتفقِّد، أم من الطالب الوفي الفطِن؟!

فعلًا: قد ترثي لحالهم من جهة، وكيف أن الأغنياء لم يُغنوهم، وتُكبِر لهم همتهم، كيف لا يتذمَّرون، ولا عن العلم ينقطعون! ولكن خذ هذا المثال المُفرح المُسعِد:

٣٣- الفقيه المؤرخ محمود بن سعيد مَقْدِيش -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٢٨هـ) كان مدةَ مجاورته بالأزهر ينسخ الكتب الثمينة، ثم يؤوب إلى بلده صفاقس، ويبيع ذلك إلى علماء المدينة، ويترك محصول ذلك لزوجته وذريته، ويرجع إلى القاهرة؛ لاستكمال قراءته[4].

٣٤- قال العلامة صِدِّيق خان القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) الذي كان فقيرًا، ثم زوجًا لملِكة: فإني كنت امرأً فقيرًا في أول أمري، وواحدًا من الخدم الرياسية.. ثم في نظارة المدارس، إلى أن اقتنتِ الرئيسةُ إيايَ من بينهم، لهذا الشأن الذي تراه،

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (ص: ٣٥١).
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٧٥).
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٣٤).
(٤) نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار (مقدمة/١٣).

وعملتُ في هذه الحالة تفسيرًا في أربع مجلدات، وأنفقتُ عليه ما بلغ خمسًا وعشرين ألفًا(١).

وقال -أيضًا-: فما دخلتُ سوقًا لبيع ولا شراء..بل اشتغلت بالعلم وطلَبه، وأفنيتُ أيامي بالعلم وكتبه، فأتاني الله برزقي من حيث لا أحتسب.. ولما رزقني الله -سبحانه- محبة العلم والعلماء، وجدت ذلك أبرَدَ على قلبي من الماء على الظمأ، وحَبَّب إليَّ العلم، حتى لا أحب من الدنيا سواه(٢).

فجزى الله زوجَهُ الملكةَ الصالحة، الداعمة لرجل صار عالِمًا، حتى طُبع له -بفضل الله ثم بفضلها - مئتان وعشرون كتابًا.

٣٥- الشيخ الفقيه المصلح الجزائري عمر العرباوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٥هـ)
كان شغوفًا بطلب العلم، فاضطر إلى بيع غُنيمات كان يملكها؛ من أجل شراء نسخة من كتاب «مختصر خليل في الفقه المالكي»(٣).



(١) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ١٩٠).
(٢) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف (ص: ١٨٩).
(٣) لمحات من حياة الشيخ عمر العرباوي (ص: ٤٦).

٣٠. متلذذون بالعلم رغم السفر

يا عجبًا لهؤلاء المتلذذين! لا يَثنِيهم عن لذتهم سفر ولا إقامة، فيؤلِّفون وهم مسافرون، ويقرؤون وهم مسافرون، ويشترون كُتُبًا وهم مسافرون.

حَطُّوا رحالهم، وجمَّل الله حالهم، وغدا كل منهم بالعِلْم مُكرَمًا ومُجتبى، فقد أذاقهم حلاوة إحكامه، فما وجدوا في سفرِ طلَبِهِ تعبًا، حتى يقول قائلهم: وحطَّمني طول ممارسة الأسفار، وكثرة مدارسة الأسفار[١].

إذًا فتلذذ بأسفارهم مع أسفارهم، وخذ طرفًا عَبِقًا من سيرتهم وأسرارهم، من خلال خمسة وثلاثين موقِفًا موفَّقًا:

١. ابن القاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٩١هـ) تغرّب بضع عشرة سنة، قادمًا من مصر إلى المدينة؛ ليطلب العلم بين يدي الإمام مالك، وكان ترك زوجته حاملًا. ويحكي موقفَه العجيب قائلًا: بينما أنا عند مالك؛ إذ أقبل حاج مصر، فإذا شاب مُتلثِّم دخل علينا، فسلَّم على مالك. فقال أفيكم ابن القاسم؟ فأشير إليَّ، فأقبلَ يُقبِّل عيني، فإذا هو ابني![٢].

٢. الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) ألَّف كتابه العظيم «الرسالة» وهو في سفرته الطويلة بمصر، فقال معتذرًا، بل مفتخرًا: وغاب عني بعض كتبي، وتحققتُ بما يعرفه أهل العلم مما حفظتُ، فاختصرتُ خوف طول الكتاب، فأتيتُ ببعض ما فيه الكفايةُ دون تقصِّي العلم في كل أمره[٣].

٣. اللغوي الشاعر إسحاق بن إبراهيم الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٦هـ) قيل له وهو في سفر: كم حملت معك من كتبك؟ فقال: خففتُ، فحملتُ ثمانية عشر

(١) انظر: شرح البخاري للسفيري (١٩٢/٢) وأساس البلاغة (٤٣٠/١).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢٥٠/٣).
(٣) الرسالة للشافعي (٤٣١/١).

صندوقًا، فقالو له: أوَهذا تخفيف؟! هذا نهاية التثقيل!. وقد سئل عما عنده من الكتب؟ فقال: عندي مئة قمطر![١].

٤. الصاحب بن عباد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) كان في أسفاره وتنقلاته، يستصحب حِمْل ثلاثين جَمَلًا من كتب الأدب؛ ليطالعها[٢].

٥. سلمة بن سعيد -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٦هـ) ساق من المشرق ثمانية عشر حِملًا مشدودة من كتبٍ[٣].

٦. قال الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) عن نفسه: حطَّمني طول ممارسة الأسفار، وكثرة مدارسة الأسفار[٤].

٧. المفسر المشهور ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) كانت له خزانة كتب، يحملها معه في الأسفار، وكان بعض تلاميذه يخدمه في حَزْم الكتب ورفعها، ومما يصطحبه معه كتابه الضخم المسمى «أنوار الفجر في تفسير القرآن» والذي ألَّفه على مدى عشرين سنة، ويقع في ثمانين مجلدًا[٥].

٨. ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) خرج شريدًا طريدًا إلى مرو، فوجد بها من كتب العلوم والآداب، ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل خِل صفي وسكن، فأقبل عليها إقبال النهِم الحريص، وقابَلها بمقام لا مُزْمَع عنها ولا محيص، فجعل يُسرِّح طَرْفه في طُرَفها، ويتلذذ بمبسوطها ونُتَفِها، واعتقد المُقام بذاك الجناب، إلى أن يجاور التراب[٦].

٩. الكتب التي ألَّفها ابن القيم في سفره، بلغت ستة كتب: مفتاحُ دارِ السعادة

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١/٢٥٢) وتاريخ بغداد ت بشار (٧/٣٥٤).
(٢) وفيات الأعيان (٣/٣٠٧).
(٣) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٢٠).
(٤) أساس البلاغة (١/٤٣٠).
(٥) طبقات المفسرين للداوودي (٢/١٧٠). وهذا الكتاب في عداد المفقودين، ويقال: إن تفسيره المطبوع مختصر منه!.
(٦) وفيات الأعيان (٦/١٣٤).

-روضةُ المحبين ونزهةُ المشتاقين - بدائعُ الفوائد - تهذيبُ سننِ أبي داود - الفُروسية- زادُ المعادِ في هدي خيرِ العِبادِ[١].

فأما هذا الأخير «زاد المعاد» فهو أضخم كتبه حجمًا ومعلومات، وأنفعها محتوى -وفي كلٍ خير-. وانظر كيف يحكي بنفسه عن حاله في تأليفه «للزاد»، بتواضع واعتراف. قال: مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلب بكل وادٍ منه شُعبة، والهِمة قد تفرقتْ شذَرَ مذَرَ، والكتاب مفقود. وقال: وإنما ذكرنا هاهنا كلماتٍ يسيرةً اقتضَتْها حال المسافر[٢]. ولما مرَّ على حديث فيه قال: ولا أحفظُ الآن ما قيل فيه[٣].

١٠. الشيخ جمال الدين ابن هشام -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦١هـ) له «المسائل السفرية» ويقول في مقدمتها: سألني بعض الإخوان -وأنا على جناح السفر- عن توجيه النصب في نحو قول القائل: فلان لا يملك درهمًا، فضلًا عن دينار[٤].

١١. وفي مؤلف آخر يقول ابن هشام -أيضًا-: فإني ذاكر في هذه الأوراق مسائل، سُئلتُ عنها في بعض الأسفار، وأجوبة أجبتُ بها على سبيل الاختصار، ومسائل ظهرت لي في تلك السَّفرة[٥].

١٢. ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) وهو يلخص أحكام الذهبي في «المستدرك»، فيقول: فكتبت حال تعليقي مواضع من ذهني. والعذر في عدم استيفائها عدم الكتب؛ فإنها ببلدي مصر -حماها الله، وسائر بلاد الإسلام، وأهلها، وردَّني إليها سالمًا في خير وعافية[٦].

١٣. قال العراقي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٦هـ): فلما أكملتُ كتابي المسمى بـ«تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» وحفظه ابني أبو زرعة المؤلف له، وطلب حمله

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية حياته وموارده للشيخ بكر أبو زيد.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٦٩ و٩١).
(٣) الزاد (١/١٧١).
(٤) المسائل السفرية (ص: ١١).
(٥) أسئلة وأجوبة في إعراب القرآن (ص: ٣).
(٦) مختصر تلخيص الذهبي (٧/٣٥٨٤).

عني جماعة من الطلبة الحمَلة، سألني جماعة من أصحابنا في كتابة شرح له.. فتعللتُ بقصور من المجاورة بمكة عن ذلك، وبقلة الكتب المعينة على ما هنالك، ثم رأيت أن المسارعة إلى الخير أولى وأجل، وتلوتُ ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ﴾(١).

١٤. اللغوي المتفنن الفيروزآبادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ) حصَّل دنيا طائلة، وكتبًا نفيسة، وكان لا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكُتُب، ويُخرج أكثرَها في كل منزلة، يَنظر فيها، ويُعيدها إذا رحل(٢).

١٥. قال النحوي بدر الدين ابن الدماميني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٧هـ): استصحبتُ من «تسهيل الفوائد» في السفر نسخة واحدة تَخِذْتُها رأس مال للنظر، وكانت بالفوائد عليَّ عائدة..فسألني بعض الطلبة أن أشرح هذا الكتاب..وهموم الحوادث والغربة قد أجلبت عليَّ بخَيلها ورَجِلها، وحمَّلتني جبال أنكاد، تُفَتِّتُ حصاة القلب من أجلها(٣).

١٦. وقال ابن الدماميني -أيضًا- عن «شرحه لصحيح البخاري» في عشرة مجلدات: وسيعرف قدرَه مَنْ تصفَّحَه، وينظر المنصفُ بعين الاستحسان إذا لمحه، ويعذرني حيث كتبتُه وجناحُ السفر يحثُّني على الطيران، ومشقةُ الغربة، وركوب البحر، قد استقبلني منهما خطَران(٤).

وفي ختامه يحكي حجم الغربة والكربة، فيقول: والآلام قد ألَمَّت بالجسد من كل مكان، وأَجْلَبَتْ فيه بَخْيلِها ورَجِلِها بحسب الإمكان، والله المسؤول أن يطوي شُقَّةَ البَيْن، ويُرينا بعدَ أهوال البحر ما تَقَرُّ به العينُ -بمنِّه وكرمِه-(٥).

١٧. عبد الغني ابن المرشدي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٢هـ) قرئ عليه «معجم

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب (١/١٤).
(٢) بغية الوعاة (١/٢٧٤) والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ٢٨).
(٣) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد (١/١٩).
(٤) مصابيح الجامع (١/١١).
(٥) المصدر السابق (١٠/٢٨٠).

الطبراني الصغير» على ظهر البحر، في حال المسير من جدة إلى زبيد، في تسعة مجالس[١].

١٨. سبط ابن العجمي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤١هـ) سمح لتلميذه ابن حجر أن ينتقي من كتبه الفوائد في «سفرته الحلبية»، فازدانت كتب ابن حجر رونقًا، وحفلت بفوائد عفوًا بلا تعب[٢].

١٩. الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) انتقى «فهرست» الحافظ السِلفي، وهو متوجة إلى مكة حال ركوبه سائرًا. وكان يكتب وهو على الناقة[٣].

٢٠. وأقام ابن حجر بدمشق سبعين يومًا، قرأ فيها قريبًا من مئة مجلد، وأملى نحو مئة مجلس[٤].

٢١. القاضي عمران السلامي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٣هـ) حصَّل كتبًا كثيرة، وإذا سافر حملها معه، وقد ضبطها أحسن ضبط[٥].

٢٢. ناصر الدين ابن السابق -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٧هـ) اقتنى من نفائس الكتب، وكان زائد الضِنَّة بها، لا يفارقها غالبًا حتى في أسفاره[٦].

٢٣. علاء الدين القوشجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٩هـ) جمع عشرين متنًا في مجلدة واحدة، كل متن من علم، وسماه «محبوب الحمائل» يحمله حضرًا وسفرًا، ولا يفارقه أبدًا، وكان ينظر فيه كل وقت، فحفِظ كل ما فيه من العلوم[٧].

٢٤. ابن الجُرَيش الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٠هـ) كان مغرمًا بتحصيل الكتب، وإذا حجَّ يحمل معه جلَّ كتبه[٨].

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٥١/٤).
(٢) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ١٧٦).
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٦٨/١).
(٤) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ٢١٤).
(٥) تاريخ البريهي (ص: ١٦٨).
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٠٦/٩).
(٧) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٩٩).
(٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٣/٦).

٢٥. شهاب الدين الكوراني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٣هـ) صنَّف كتابه الأصولي المتميز «الدرر اللوامع» في أربع مجلدات بين عدة أسفار، ولذا قال: وكان يعوقني عن ذلك اشتغال البال، واضطراب الحال، إذ التقدير كان يسيِّرني تارة إلى الغرب، وأخرى إلى الشرق، وآونةً إلى الطول، وأخرى إلى العرض:

كأنما أنا من حِلٍّ ومرتَحَلٍ   موكَّل بفضاء الأرض أذرَعُهُ[1]

٢٦. قال الفقيه المالكي، المعروف بـ زَرُّوق -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٩هـ) لما شرح «رسالة أبي زيد»: قصدتُ لتصحيح المتن، وبيان المشكل وتتميم الناقص، فلم يتيسر؛ لما عليَّ من كلفة السفر، وعدم العدة في فرعه وأصله، مع ما اعتراني من الأعراض والأمراض[2].

٢٧. أبو العالي مجلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٠هـ) له كتاب «الجهر بالبسملة»، صنفه في طريق سفره للحجاز[3].

٢٨. السيد الأشل الهادوي العلوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤٨هـ) كان يلازم في أسفاره وجهاداته القراءة على الشيوخ، والمطالعة لكتب العلم[4].

٢٩. مُفتي أَسْكِيشهر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١٥هـ) له كتاب «روح كلمة التفريد شرح كلمة التوحيد» ألَّفه وهو مسافر في اسطنبول[5].

٣٠. محمد بن يوسف أطفيش الهنتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) سافر إلى الديار المقدسة مرتين، وكان يؤلِّف وهو في السفينة[6].

٣١. الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) قبل بلوغه سن الأربعين كان

---

(١) الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع (١/١٦٦).
(٢) شرح زروق على متن الرسالة (١/١٠).
(٣) المهمات في شرح الروضة والرافعي (١/٢١٤).
(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٢٠٧).
(٥) الأعلام للزركلي (٣/١٤٣).
(٦) معجم أعلام الجزائر (ص: ٢٠).

حاجًّا، وذلك بعد إتمامه أكثر «تفسيره»، فكان في خيمة لوحده بمنى، يُراجِع تفسيره، ويُضيف عليه(١).

٣٢. اللغوي محمد بن الطلب الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت قرن ١٤هـ) كان مولَعًا بالعربية، وكان إذا سافر ونزل بحيّ نهارًا، أول ما يسألهم عنه «القاموس» للفيروز آبادي، فإن كان موجودًا عندهم، طلب منهم الإتيان به؛ لينظر إليه يومه. فإن لم يكن فيهم، ارتحل عنهم، ولا يترك يومه ضائعًا(٢).

٣٣. قال الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): وابتدأت العمل في اختصار «العلو للعلي» من نسخة سقيمة الطبع والتحقيق، لم يتيسر لنا يومئذ غيرها، إذ كنا على سفر [في طريق العمرة في رمضان عام ١٣٩١]. حتى إذا رجعت إلى دمشق انكببتُ عليه، تحقيقًا وتخريجًا وتعليقًا(٣).

٣٤. وكتاب آخر يحققه الألباني في سفر مَشُوبٍ بخوف، ألا وهو «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني. وإليك القصة يرويها بنفسه فيقول: سافرتُ بعد الاستشارة والاستخارة إلى بيروت، مع كثير من الحذر والخوف؛ لما هو معروف من كثرة الفتن، والهرج والمرج القائم فيها، والوصول إلى بيروت محفوف بالخطر.. قاصدًا دار أخ لي قديم، وصديق وفيٍ حميم.. فلما استقر في منزله قراري، وارتاح من وعثاء السفر بالي، كان من الطبيعي جدًا أن أهتبِل فرصة هذه الغربة الطارئة، فأتوجه بكُلِّيتي إلى الدراسة والمطالعة، في مكتبته العامرة، الزاخرة بالكتب المطبوعة منها، والمخطوطة النادرة..حتى وقعت عيني على رسالة الإمام الصنعاني تحت اسم «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار»(٤).

---

(١) من لقاء مرئي في اليوتيوب مع الشيخ المؤرخ: إبراهيم الجطيلي. وكان معايِشًا لأُخريات حياة الشيخ ابن سعدي، ويضبط ما يَسمعه من الناس.

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٩٤).

(٣) مختصر العلو للعلي العظيم (ص: ٦).

(٤) رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار (ص: ٧).

وفي أثناء الرسالة يقول: واللهَ -تعالى- أسأل أن يكشف عني ما أهمَّني، ويرفع عن المسلمين جميعًا ما هم فيه من البلاء، وتسلط الأعداء[١].

حقًّا؛ لقد كانوا يستعذِبون العلم، برغم عذاب السفر، الذي وصفه رسول الله ﷺ بقوله: **السفر قِطعة من العذاب**[٢].

٣٥. قال الشيخ الرحالة محمد بن ناصر العبودي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٣هـ): كان في مكتبة الجامع الكبير بعنيزة نسخة مخطوطة من «الإنصاف» فعزمنا على أن نسافر إلى عنيزة؛ لرؤية ذلك الكتاب، ولكن الطريق المألوفة للسفر إلى عنيزة في ذلك الوقت، هي استئجار حمار؛ نتعاقب على ركوبه، أو استئجار حمارين يكون معهما صاحبهما، وهذا يكلفنا مالًا لسنا مضطرين إلى بذله.. فقررنا أن نسافر إلى عنيزة، مشيًا على الأقدام؛ من أجل رؤية ذلك الكتاب «كتاب الإنصاف» وكان ذلك صيف عام ١٣٦٤هـ، وكان عمري تسع عشرة سنة[٣].

أربع إشارات:

الإشارة الأولى: عبارة «أَلَّفَ كتابه وهو في سفره» لا يلزم منها أنه ابتدأ الكتاب وأنهاه في سفره، فقد يكون ابتدأه في سفره، وأكمله في إقامته، أو العكس.

الإشارة الثانية: التعبير بالسفر لا يلزم منه أن يكون التأليف حال الظَّعَن، بل ربما حال الإقامة والاستقرار في البلد المسافَر إليه، ولا حال الترحال، بل ربما حال الحِلّ.

الإشارة الثالثة: قد يأوي العالِم إلى عالِم مثله، فيُمكِّنه من كتب مكتبته، فيجد فيها ما ليس عنده. أو قد يصطحب معه في سفره ما يحتاجه من مراجع.

الإشارة الرابعة: التأليف في حال الغُربة فيه خلاء جسدي، وصفاء ذهني، فقد

---

(١) المصدر السابق (ص: ٥٢).

(٢) صحيح البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٩٢٧).

(٣) معجم أسر بريدة للعبودي (ص: ٣٠١).

يكتب كتابًا في غُربته، فيكون خيرًا من كتاب يؤلفه في بلدته، حيث الانشغال بالأهل وبالتلاميذ والمستفتين.



٣١. متلذذون بالعلم رغم المَشاق

هذا العلم صعب المَنال، لكنه ليس بمستحيل. قال ابن تيمية: بعث الله الرسل بتعليم ما تَقْصُر عقولهم عن دَرْكِه، لا ما تَقضي عقولهم بإحالته(١).

ومن عدَّ تعبَه في تحصيل العلم عبئًا فما تلذذ، فالتعب في تحصيل العلم راحة، بل التعب ذاته يستحيل لذة:

وليس محبًا من يَـعُـدُّ شقاءَهُ عـذابًـا إذا مـا كـان يُـرضـي حبيبهُ

بل إذا كانت اللذة حاصلة في استفراغ المؤذي؛ فكيف باستقبال العلم الذي لا أذى فيه؟! ففي الدعاء المَرْوِي عند الخروج من الخلاء: «**الحمد لله الذي أذاقَني لذَّتَه**»(٢).

والمتلذذون عموما تعبهم راحة، وكدَرُهم لذة، بل يتلذذون مرتين، لذة مع التعب، ولذة بعد التعب. ولا يغِب عن بالك تقريرٌ مرَّ أول الكتاب، وهو أن بعض العلماء يرى أن اللذة لا تكون إلا مع الألم.

سـعِـد الـمـتـعَـبـون بالأسفـا ر ورواة الـعـلـوم والآثـارِ
ورأوا كل ما سوى العلم والبحـ ث إذا مـيّـزوا خفيف الـعـيـارِ(٣)

ولما قيل للطبيب جالينوس: بِمَ كنت أعلمَ قُرنائِك بالطب؟ قال: لأني أنفقتُ في زيت المصابيح لدرس الكتب، مثلما أنفقوا في شرب الخمر(٤).

---

(١) جامع المسائل (٤٥/٥) (٢٦٢/٢) ومجموع الفتاوى (٢٤٤/١١) (٤٤٤/١٧) ودرء التعارض (٣٨٤/١-٥٤/٣-٣٥/٤).

(٢) عمل اليوم والليلة لابن السني (ص٢٤). وسنده ضعيف، كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني (٢٠٢/٩).

(٣) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٢٨٨/٢).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٤٢٩/١).

قال يحيى بن أبي كثير -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٩هـ): لا يُنال العلم براحة الجسم[١].

وهذا الأثر الجميل ليحيى؛ أدخله الإمام مسلم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦١هـ) في صحيحه، بعد أحاديث مواقيت الصلاة، مع أنه لا يَذكر في كتابه إلا أحاديث النبي ﷺ مَحْضة، فكيف أَدخل هذا الأثر بينَها؟!

قالوا: ربما أن مسلمًا -رحمه الله تعالى- أعجبه حُسن سياق هذه الطُرق التي ذكرها، وكثرة فوائدها، ولا يُعلم أحدٌ شارَكه فيها، فأراد أن ينبِّه مَن رغِب في تحصيل هذه الرتبة، فطريقُه أن يُكثِرَ اشتغالَه، وإتعابَه جسمَه، في الاعتناء بتحصيل العلم[٢]. ولسان حاله يقول:

أتتبّع العلماء أكتب عنهمُ ... كَيما أحدّث من لقيت فيضحكا[٣]

فلا علمَ إلا بتعب، وليس صحيحًا أن نسهِّل العلم -دَومًا- لمريديه، ولا أن نكرر في رُوعهم أنه سهل المأخذ، قريب الحصول! بل إن مريديه حقًّا:

كابَدوا المجد حتى مَلَّ أكثرهم ... وعانَقَ المجد من أوفَى ومن صبَرا
لا تحسبِ المجد تمرًا أنت آكلُه ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبِرا[٤]

ومن العجيب الطريف، أن ابن الجوزي يوصينا عند التعب، بما يراه راحة في ميزانه، فيقول: ينبغي للعاقل أن يجعل أوقات التعب من الإعادة للنسخ، ويَحذر من تفلُّتها إلى النسخ عند الإعادة فيقهرها، فإنه يَحمد ذلك حمْد السُّرى وقت الصباح[٥].

وتأمل هذه العبارات الثلاث الرصينة؛ لتدرك ضخامة وفخامة المَطالب الغوالي، لتحقيق الأماني العوالي:

- ✓ من لم يَعرَق جَبينه إلى أبواب العلماء لم يُعرِق في الفضيلة، ومن لم يُخجلوه لم يبجِّله الناس، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم[٦].

---

(١) صحيح مسلم - المقدمة (١٤٢١).
(٢) هذا الاستنباط منسوب للقاضي عياض، عمن سبقه من العلماء. انظر: شرح النووي على مسلم (١١٣/٥).
(٣) العقد الفريد (٧٨/٢).
(٤) أمالي القالي (١١٣/١) والصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٦٢١).
(٥) صيد الخاطر (ص: ١٩٩).
(٦) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٩٢).

✓ يأبى العلم أن يضع كنفه، أو يخفض جناحه، أو يُسفر عن وجه، إلا لمتجرد له بكليته، ومفتِّقٍ معانيَ بالقريحة الثاقبة، والروية الصافية[١].

✓ كل علم من العلوم بحر زاخر، ولا يحصل على دُرره إلا كل سابح غواص ماهر، قد مرت عليه أزمنة في ملازمة الطلب، وطول النصب والتعب، من التكرار، والبحث، والشرح، والمراجعات، ومذاكرة العلماء، وكثرة المطالعات[٢].

وهؤلاء النجوم اللَوامع في سماء مجد الإسلام؛ ما نال الواحد منهم لقب «الحافظ» أو لقب «الإمام» أو لقب «المحدِّث» أو لقب «الأديب» أو «النحوي» إلا بعد لأيٍ وكفاح، وتذلُّل ثم تلُّذذ.

وإذا ما جئتَ تُقارِن بين مشاقِّنا ومشاقِّ الأوائل، قبل الكهرباء ووسائل المواصلات والتقنية، وجدت أنهم قديمًا: أوتوا هِمَما مع نُدرةِ وسائل، لكن بلا صوارف. والآن: ضعف هِمم، وتوفُّر وسائل، لكن بصوارف.

نعم؛ لن نصِل تحقيقَهم، لكن لنسِر طريقهم، ولعلنا نُزاحمهم! فكم ترك الأول للآخر.

وتأمل بعدَ أقوالِهم أفعالَهم؛ لتدرِك قَدْرَ تعبهم، ونصَبهم، بل لذَّتهم التي آنَسَتْهم، فأنْسَتْهم التعب والنصَب. ودونَك أربعةً وأربعين فِعلًا يُحتذى، أو حكاية حال تُقتفَى:

١. قال ابن عباس ﷺ (ت ٦٨هـ): إن كنت لأَقِيلُ عند باب أحدهم، ولو شئتُ أن يؤْذَن لي عليه لأَذِن، ولكن أبتغي بذلك طِيْبَ نفسه[٣].

٢. قال الحر بن عبد الرحمن -رحمه الله تعالى- (بعد ٦٩هـ): طلبتُ إعراب القرآن خمسًا وأربعين سنة[٤].

٣. عن أبي قلابة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ): قال: أقمتُ بالمدينة ثلاثة، وما لي

---

(١) البدء والتاريخ (٤/١).
(٢) خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول (ص: ٩٤).
(٣) العلم لزهير بن حرب (ص: ٣١).
(٤) التاريخ الكبير للبخاري (٨٢/٣).

بها حاجة، إلا رجل كان في ضَيعة له، وبلغني عنه حديث، انتظرته أن يَقدم، فأسأله عنه[١].

٤. قال ابن القاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٩١هـ): أنختُ بباب مالك سبع عشرة سنة، وكنت آتيه غَلَسًا، فأسأله عن مسألتين وثلاث وأربع، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فتوسّدتُ مرة عَتَبَتَه، فغلبتني عيني، فنمت وخرج مالك إلى المسجد، فلم أشعر به، فركضَتْني جاريته برِجلها وقالت لي: إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت. ظنت أنه مولاه؛ من كثرة اختلافه إليه[٢].

٥. الشاعر المشهور أبو تمام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٨هـ) حبسه هطول الثلج وهو بهمذان، وقطع الطرق، فأكرمه رئيس همذان، وقال له: أقم عندنا حتى يذهب الشتاء. وأحضر إليه خزائن الكتب يطالعها، وبسبب الثلج صنف كتاب، «الحماسة» و«الوحشيات». وكان العلماء يَرَون أن اختياره «الحماسة» أحسن من شعره. فلما ارتفع الثلج سأله المقام، فأبى[٣].

٦. كان بعض العلماء لا يبذل العلم إلا باختبار شاق قبله، ليَمِيز الجاد من الهازل. وإليك هذا المثال الطريف العجيب: فقد طُبع مؤخرًا جزء حديثي اسمه «البيتوتة» للحافظ للسَّرَّاج الثقفي-رحمه الله تعالى- (ت ٣١٣هـ) وقد كُتب على صفحة غلاف المخطوطة: سُمِّي هذا الجزء بـ«أحاديث البيتوتة»؛ لأن السرّاج ما كان يقرؤها إلا لمن ينام على باب داره ليلةً واحدة! وهي من العوالي؛ كان يَقصد بذلك إعزاز الحديث[٤].

٧. جَمعَتِ الرحلة والسُكنى بين محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ومحمد بن خزيمة (ت ٣١١هـ) ومحمد بن نصر المروزي (ت ٢٩٤هـ) ومحمد بن هارون الرَّوياني -رحمهم الله تعالى- (ت ٣٠٧هـ) بمصر، لم يبقَ عندهم ما يَقُوتهم، فاتفق رأيهم على أن

---

(١) المعرفة والتاريخ (٦٦/٢).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢٥٠/٣).
(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٤٣٥/١٤).
(٤) جزء البيتوتة للسراج. تحقيق أبي الأشبال الزهيري (مقدمة ص٩).

يستهموا، فمَن خرجتْ عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهِلوني حتى أصلي صلاة الخِيَرة. فاندفع في الصلاة، فإذا هم برجُلٍ من قبل الوالي يدُقُّ الباب، فدفَع لكل واحد صَرَّة فيها خمسون دينارًا. ثم قال: إن الأمير كان قائلًا بالأمس، فرأى في المنام خيالًا قال: إن المَحامد طَوَوا كَشْحَهم جياعًا، فأَنْفَذَ إليكم هذه الصِّرار، وأَقْسَمَ عليكم إذا نفدِت، فابعثوا إليَّ أُمِدُّكم[1].

٨. سقط ببغداد ثلج كثير عام ٣١٤هـ فأفرط البرْد في الشدة جدًا، وجمَدَ نهر دجلة، حتى عبرت الدواب عليه! وبرغم هذه الشدة إلا أن أبا زكرة المحدث -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ) جلس وطلابُه في وسط دجلة على الجَمْد، وكُتب عنه الحديث[2]. أرأيت كيف يتلذذون بالعلم برغم المشاق؟!.

٩. النحوي أبو نصر القيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠١هـ) قال: كنا نختلف إلى أبي علي البغدادي، فبينما أنا ذات يوم من بعض الطريق؛ إذ أخذتني سحابة، فما وصلت إلى مجلسه إلا وقد ابتلَّت ثيابي كلها؛ فقال لي أبو علي: مهلًا يا أبا نصر! لا تأسف على ما عَرَض لك؛ فذا شيء يضمحلّ عنك بسرعة، ولقد عرض لي ما أبقى بجسمي نُدُوبًا، كنت أختلف إلى ابن مجاهد، فأدلجتُ، فلما انتهيت إلى الدرب رأيته مغلقًا، فقلت: أُبكِّر هذا البكور وتفوتني النَّوبة؟! فنظرت إلى سَرَب هناك، فاقتحمته، فلما أن توسطته ضاق بي ونشبتُ، فاقتحمته أشد اقتحام، فنجوت بعد أن تخرقت ثيابي، وأثَّر السرَب في لحمي، حتى انكشف العظم، ومنَّ الله عليَّ بالخروج، فوافيتُ مجلس الشيخ على هذه الحال. فأين أنت مما عرض لي؟! وأنشدنا:

دبَبْتُ للمجد والساعون قد بلغوا ... جَهْدَ النفوس وألقَوا دونه الأُزُرا
وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم ... وعانَق المجد من أوفَى ومن صبَرا
لا تحسبِ المجد تمرًا أنت آكلُه ... لن تبلغ المجد حتّى تلعق الصبِرا[3]

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٥٤٨/٢) وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٣/٥٢).
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٥٥/١٣).
(٣) أمالي القالي (١١٣/١) والصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٦٢١).

١٠. قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) وهو يَسرد المشاق المرهِقة المجتمِعة عليه في حِقبة سلفت له: ذهني متقلب، وبالي مهصَّر؛ بما نحن فيه من نُبوِّ الديار، والجلاء عن الأوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدُّل الأيام، وذهاب الوفْر، والخروج عن الطارِف والتالِد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار[(١)].

١١. كَتَبَ الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) جوابًا عن كتاب، فصار كتابًا مؤلَّفًا، وقال في مقدمته: ألفاني كتابك عليل اللحم والقلب، قليل النشاط، مشغول الفكر؛ ولكنّي مع ذلك لم أرَ أن أُخليَك من الجواب بما أمكن وحضر[(٢)].

١٢. سافر أبو الفضل المراغي -رحمه الله تعالى- (ت نحو٥٠٠هـ) لطلب العلم، فكانت الكُتُب المرسلة تأتي إليه من بلده، فيضعها في صندوق، ولا يقرأ منها واحدًا مخافة أن يطَّلع فيها على ما يقطعه عن طلبه، فلما كان بعد خمسة أعوام عزم على الرحيل، وشدَّ رحله، وأخرج تلك الرسائل، وقرأ منها ما لو أن واحدة منها قرأها في وقت وصولها ما تمكن بعدها من تحصيل حَرفٍ من العِلْم[(٣)].

١٣. أبو الفتيان الرواسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٣هـ) سقطت أصابعه في الرحلة؛ من شدة البرد[(٤)].

١٤. أبو بكر الأنصاري المعروف بالأبيض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٠هـ) سئل عن لغة غريبة، فعجز عنها، بمحضر من خجل منه، فأقسم أن يقيد رجليه بقيد حديد، ولا ينزعه حتى يحفظ «الغريب المصنف» فدخلتْ عليه أمه في تلك الحال، فارتاعَتْ، فقال:

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم (ص: ٣٠٩).
(٢) الأجوبة عن المسائل المستغربة من كتاب البخاري (ص: ٩٢).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (١٥٤/٢).
(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي (٢٥/٤).

رِيعَتْ عجوزي أن رأتني لابسًا   حِـلَـقَ الحديد ومثل ذاك يَـرُوعُ
قالت: جُنِنتَ فقلت: بل هيَ هِمّةٌ   هـي عنصر العلياء والـيـنـبـوعُ[١]

١٥. الحافظ المحدث البغدادي عبد الوهاب الأنماطي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) كان صبورًا على القراءة عليه، يقعد طول النهار لمن يطلب العلم[٢].

١٦. الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) قال في فاتحة كتابه «الكشاف»: ورأيتُنى قد أخذت منى السنّ، وتَقَعْقَعَ الشنّ، وناهزت العشر التي سمَّتها العرب دقَّاقة الرقاب..وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم[٣].

١٧. ابن زريق القزاز -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٨هـ) سمع جميع كتاب «تاريخ مدينة السلام» من مصنفه الخطيب البغدادي، إلا الجزء السادس والثلاثين؛ فإنه قال: توفيت والدتي، واشتغلتُ بدفنها، والصلاة عليها، ففاتَني هذا الجزء وما أعيدَ لي؛ لأن الخطيب كان قد شرط في الابتداء ألا يُعاد الفَوت لأحد، فبقي الجزء غير مسموع[٤].

١٨. ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) قال عن نفسه: ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقَى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل؛ لأجل ما أطلب وأرجو.. وعين هِمتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم[٥]. وقال: ولقد كان يجلس إليَّ أخي، وهو عامي فقير، فأقول في نفسي: قد تَساوَينا في هذه اللحظة، فأين تعبي في طلب العلم؟ وأين لذة بطالته؟[٦].

---

(١) الغريب المصنف لأبي عبيد (٢٨٢/١) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّري (٤٨٩/٣).
فائدة: التعبير عن الأم بالعجوز يبدو من السياق أنه ليس من العقوق، بل هو مما جرت به عادتهم من غير نكير. وفي الصحيحين أن أنسًا ﷺ قال: صففتُ أنا، واليتيم وراءَه، والعجوزُ من ورائنا (يقصد جدته مُليكة).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤٥٧/١).
(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (المقدمة/٣).
(٤) معجم الأدباء (٣٩٠/١).
(٥) صيد الخاطر (ص: ٢٤٨).
(٦) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢٢٩/٢).

وقال: لذة العلم تزيد على كل لذة، وأما ضُرُّهم إذا جاءوا، أو ابتلوا بأذى، فإن ذلك يزيد في رفعتهم[١].

١٩. الفقيه عبد الرحمن القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٥هـ) أخو عبد الكريم. كان مُعْظم أُنسه بالتكرار، وإدمان مطالعة الكتب، وقلَّما كان يخالط الناس، فكأنه أثر ذلك في دماغه، وأفضى الأمر به إلى بعض الاختلال، في أقواله وأفعاله، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وبقي على ذلك الاختلال ثلاثًا وعشرين سنة، فصاعدًا[٢].

٢٠. أبو عمر المقدسي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٧هـ) تزوج امرأة كانت أسنّ منه، وكَبِرَتْ، وأُقعدت، وماتت قبله بأعوام، ووَلدت أولادًا أكثرهم ماتوا صغارًا، وتزوج أخرى، ووَلدت له ابنتين، فماتت هي وبنتاها في حياته، ثم تزوج فوَلدت له، وماتت[٣].

٢١. الفقيه عبد العزيز القروي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) دخل عليه بعض الفقهاء، وهو محتزِم في كسائه، وكُتُب الفقه مبسوطة بين يديه، وأعراقه تقطر عليه، وكساؤه في غاية ما يكون من الوسخ، فقلت له: ارفق بنفسك، واغسل كساءك، فقال: لي ستة أشهر نَرُوم غسلها، وما وجدت سبيلًا لذلك؛ من أجل هذا الشغل[٤].

٢٢. الحافظ المنذري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ) كان ملازمًا لمدرسة دار الحديث، فلا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة، حتى إنه كان له ولد نجيب محدث فاضل توفاه الله، فصلى عليه الشيخ داخل المدرسة، وشيَّعه إلى بابها؛ لئلا ينقطع عن الدرس، ثم دمعت عيناه، وقال: أودعتك يا ولدي لله. وفارَقَه![٥].

٢٣. النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) كان يكتب حتى تَكَلَّ يده، فيضع القلم ثم ينشد:

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٣٠٠).
(٢) التدوين في أخبار قزوين (٣/١٦٠).
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٣/٢٧٤).
(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٢٧٠).
(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٢٦٠).

لئن كان هذا الدمع يجري صبابةً ... على غير ليلى فهو دمع مضيعُ(١)

٢٤. قال جمال الدين الإسنوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٢هـ) في مقدمة كتابه «المهمات في شرح الروضة» معتذرًا عن أوهام الرافعي: وقع من الأغلاط العجيبة والأوهام الغريبة في نقل الرافعي عن الإمام.. وقد كنت أفكر في سبب ذلك، إلى أن ظهر لي بحكاية سمعتها..أن «النهاية» التي هي بخط الإمام كانت بقزوين، لِنِسوة ورِثْنَها، وكنَّ لا يسمحنَ بإخراجها، وكان الرافعي يأتي إلى مسجد قريب من منزلهن، فيطالِع منها وينقل، ثم يضع ذلك في كتابه، فيَحصل الخلل والتعبير من عدم استقراره حالة النقل، ونظرُه منها مستوفزًا(٢).

٢٥. كتب ابن بهادر الزركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) مئة صفحة في «معنى لا إله إلا الله» ثم قال: علَّقتُها في ليلة؛ أقلقني فيها رائد الفكر، وتشعُّبات النظر، ليس لي فيها سمير غير المحبرة والسراج، ولا أنيس غير الفكر الوهاج(٣).

٢٦. ابن الملقِّن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) امتُحن، فلزِم داره، وأكبّ على التصنيف، حتّى صار أكثر أهل زمانه تصنيفًا، وبلغت مصنّفاته نحو ثلاث مئة مصنّف(٤).

٢٧. ابن نور الدين الموزعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٥هـ) قال: وإني في خير حالاتي؛ بل في جميع أوقاتي، قد امتلأ القلب والقالَب شغلًا وهمًّا، ودَينًا وغُرمًا، وظلمًا وهضمًا:

خليلَيَّ رفقًا رَيْـثَ أقضي لُبانةً ... من العَرَصات المُذْكِرات عهودا(٥)

٢٨. قال الكمال ابن الهمام -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦١هـ) في ختام كتابه «فتح القدير»: أَلَّفْتُه مع توزُّع الخاطر، وتشتُّت البال من تراكُم الهموم، وكثرة البلبال(٦).

---

(١) المنهل العذب الروي (ص: ١٥).
(٢) المهمات في شرح الروضة والرافعي (١/١٠١) .
(٣) معنى لا إله إلا الله - الزركشي (ص: ٥٩).
(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩/٧٢).
(٥) تيسير البيان لأحكام القرآن - ابن نور الدين الموزعي (١/٥).
(٦) فتح القدير للكمال ابن الهمام (١٠/٥٢٨).

٢٩. قال البرهان البقاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) واصفًا مقدار تعبه في «مصاعد النظر» بأسلوب بلاغي شائق: ركبت إلى بيدائه، وفسيح أرجائه وفنائه، مطايا ليال حالفت فيها السهاد، وخالفت وطِيئ المهاد، وشهي الاضطجاع والرقاد، أدرس مسائل العلوم، وأسرد وسائل الفنون والرسوم، وأمنع جلائل الهموم، وأمعن النظر في دقائق الفهوم.. حتى انجاب عن قلبي دَيجور الشكوك..ففاضت عليَّ جواهر المعاني[١].

٣٠. العلامة ابن أخي المنوفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٩هـ) كتب بخطه الكثير جدًا، كـ«فتح الباري» غير مرة، و«الإصابة»..ثم لا زال أمره في انخفاض، وعيشه في ضيق، وبدنه في تناقُص، مع استمرار تكدره من جهة أم أولاده وولدَيه، بحيث باع ما كان عنده من كتب، ومعظم دار سكنه، وجلُّ ثياب بدنه، كل هذا مع عدم انفكاكه عن الاشتغال والمطالعة والكتابة[٢].

٣١. قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) وهو يكتب «معترك الأقران»: ولَعمري لو علم ما أنا فيه من شغل البال، وتغيّر البِلبال لالْتَمس لي عُذْرًا، وصفح عما يرى فيه من التقصير سترًا[٣].

٣٢. قال أبو العباس الونشريسي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٤هـ) لما شرح «قواعد المالكية»: وصادفتُ الوقت في تقاسُم بال، وتمانع أحوال، وتعذُّر آمال؛ وملازمة أفكار وتوفُّر أنكاد، تذهب الرأي السديدَ أو تكاد! إلى الله منها الشكوى والمفزَع.. فجمعت لك -هنا- هذا النزْرَ الَّذي سمح به الفكر الموزع، والقلب الكسير المجزع[٤].

٣٣. قال الأديب المِقَّري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤١هـ) لما اختتم كتابه «نفح الطِيب من غصن الأندلس الرَّطيب»: وضعته والقلب حليف شَجَنٍ وغربة، والفِكر أليفُ حزن وكربة[٥].

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١٠٢/١).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٨١/٥).
(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٥٢٢/٣).
(٤) إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك ت بو طاهر (١٣٣/١).
(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ت إحسان عباس (٥١٨/٧).

٣٤. وقال المقَّري -أيضًا- في مقدمة «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»: والقلب حليف أشجان وأوصاب، والفكر أليف غصص تجرع منها جنى حنظل أو صاب.. ولا أفكر إلاّ في هم أو هول؛ إلى ما دهم من الفتن، التي محت ما بالدهر من ازديان؛ وطرق من المحن، التي يغنى عن خبرها العيان.. وما حال من قرت المصائب عيونه دموعًا، وجوانحه جَوًى، ورَمَتْه النوائب عن قَسِيّ النَّوَى[1].

٣٥. الشريف أبو عبد الله التلمساني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧١هـ) بقي بعض الأزمنة ستة أشهر، مشتغلًا بالعلم، لم يَرَ فيها أولاده؛ لأنه يقوم صُبحًا وهم نائمون، ويأتي ليلًا وهم نائمون[2].

٣٦. قال الحَصْفَكي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٨هـ) مؤلف «الدر المختار»: قد بيَّضْته وفي قلبي من نار البِعاد، عن البلاد والأولاد، والإخوان والأحفاد، ما يفتت الأكباد[3].

٣٧. قال الفقيه المحدث البغدادي عبد الله السويدي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٤هـ) عن معاناته في تحصيل العلم: كانت نساء المحلة يقلن لوالدتي-رحمها الله-: إيش ينفعك العلم، وأنت امرأة أرملة، وابنك الكبير لا يساعدك في شيء؟!.. وقد تحولت أيام الطلب إلى أيام معاناة وألم، بحيث لم يجد ما يشتري به شمعًا لمطالعة دروسه، فكان يطالعها على ضوء القمر، أو على سرج السوق. قال: وجدت أيام الطلب من الجوع، والسهر، والعري، والإفلاس ما لا طاقة به، لولا إسعاف الله ولطفه، وكنت مع هذه المشاق أجد للطلب لذة عظيمة، حتى إني- واللهِ- إذا رأيت أبناء الملوك وأهل الرفاهية أقول في نفسي: هؤلاء لا لذة لهم في حياتهم[4].

٣٨. قال السفاريني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٨هـ) لما ختم شرح «ثلاثيات أحمد»: وهذا آخر ما قصدنا إيراده مع اشتغال البال بالبِلبال، وتكدُّر الأحوال بالأحوال، وفقد

---

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (١/١٢).
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٣٩).
(٣) الدر المختار للحصفكي (٦/٨١٢).
(٤) النفحة المسكية في الرحلة المكية (ص: ٦٩).

المَواد، وعزة الخل المُواد.. فلو سافرت في تحصيله لأرض خراسان، لكانت سفرتك الرابحة، ولو بذلت في حفظه وإتقانه وتعليله أعز من العمر المُنصان، لكانت صفقتك الراجحة[١].

٣٩. الشيخ يحيى المزوري العمادي (ت ١٢٤٥هـ) لما قُتل ولده، وأتى خبر قتله إليه وهو يدرِّس العلم، قال: حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل. ولم يترك الدرس![٢].

٤٠. الحافظ الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) انثالَ الناس عليه من كل محل؛ لمباشرة الخصومات، فاستغرقت في ذلك جميع أوقاته؛ يقول: إلا لحظات يسيرة، قد أفرغتُها للنظر في شيء من كتب العلم، أو لشيء من التحصيل، وتتميم ما قد كنت شرعت فيه، واشتغل الذهن شغلة كبيرة، وتكدر الخاطر تكدرًا زايدًا[٣].

٤١. سئل رجل عن العلم: بمَ أدركتَ العلم؟ قال: طلبته فوجدته بعيد المَرام، لا يصطاد بالسهام، ولا يُرى في المنام، ولا يُورَث عن الأعمام، فتوسلت إليه باستناد الحجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، فوجدته شيئًا لا يصلح إلا للغرس، ولا يُغرس إلا في النفس، وطائرًا لا يخدعه الا قنص اللفظ، ولا يعلَقه إلا شَرَك الحفظ، فحملته على الروح، وحبسته على العين[٤].

٤٢. الشيخ القاضي الهندي صديق خان القنوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) يقول عن نفسه: وكنت كثير الاشتغال بمطالعة الكتب.. وابتليتُ بقدر الله وقضائه، بفصل الخصومات، وسماع المنازعات، من غير اقتراح مني ولا اختيار.. ومع ذلك لم أدَعْ جَهدي الاشتغال بالعلم[٥].

٤٣. الشيخ المؤرخ صالح العثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٠هـ) كان يعاني الضيق في المعاش، فسافر لعُمان والإمارات والكويت والهند، فكان يطلب العلم، ويباشر

---

(١) شرح ثلاثيات مسند أحمد - للسفاريني (٢/٩٣٤).
(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (٢/١٨٦).
(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٤٦٥).
(٤) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف (ص: ١٨٧).
(٥) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٥٤١).

الغَوص لسداد العيش. ثم بمكة باشر مهنته، وهي إصلاح الساعات. قال عن كتابه الفذ «تسهيل السابلة»: إني في وقت تأليفه كنت مجاورًا بمكة المكرمة، غريبًا نائيًا عن الوطن، ويتعذر عليَّ وجود آلة الكتب..وتشتت البال من همِّ العيال، وكسب المعيشة التي هيجت أليم البِلْبال..ولقد أسهرتُ بهذا العمل ليلِي والناس نيام[١].

٤٤. معالي الشيخ يعقوب الباحسين (ت ١٤٤٣هـ) توفيت زوجته قبله بعشرين يومًا -رحمهما الله تعالى- وجاء الناس لبيته يُعزُّونه، فوجدوه -رغم الأحزان والأوجاع- بين كتبه وأبحاثه، فكان في مجلس العزاء مُنْكبًا على القراءة؛ لأنه يجِد سلْوَته في العلم، ولذته في البحث.

إيقاظة:

وبعد: فما أقسى ما يَبُثُّون من أشجان، ولكنهم يستسهلون كل صعب؛ ليبلغوا المُنى.

لكنْ ذهب التعب، وابتلَّت العروق بالعلم، وثبت الأجر -إن شاء الله-، وذهبت التبِعات، ولكن بقيت القدوات والمصنفات.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): أين تعب عالم قد درَّس العلم خمسين سنة؟! ذهب التعب، وحصل العلم، وأين لذة البطّال؟! ذهبت الراحة، وأعقبت الندم[٢].

وقال: واللهِ ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغًا من اللذات ما لم يبلغ غيره؛ إلا العلماء المخلصين؛ فإن لذة العلم تزيد على كل لذة، وأما ضرهم إذا جاعوا، أو ابتلوا بأذى، فإن ذلك يزيد في رفعتهم[٣].

وقال: أَخَوان، طلب أحدهما العلم من صغره، وآثر الآخر البطالة، فاجتمعا عند

(١) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (مقدمة/٤) و(٦/١).
(٢) صيد الخاطر (ص: ٤٤٠).
(٣) المصدر السابق (ص: ٣٠٠).

علو السن، فلاح على هذا أثر التعب وقد حصل العلم والتقوى، وليس بيد ذاك من آثار الراحة شيء، بل إن تفكر تحسر، فأفٍ لعاقل يستعجل البطالة، ويَنسى ما يَجني(١).

إذًا؛ فالنصَب في ابتغاء المجد الرفيع أشهى، والفقر في طِلاب الحق أحلى.

قال الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ) في ختام تفسيره: وقد كنت تعبت دهرًا طويلًا من عُنفوان صباي، إلى أن تناهَى أيام شبيبتي في إحكام مقدمات هذا العلم.. فحقق الله بفضله ذلك الرجاء، وأتمَّ بإتمامه عليَّ النعماء(٢).

قال أبو هلال العسكري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ): اجتهِد في تحصيل العلم لياليَ قلائل، ثم تذوَّق حلاوة الكرامة مدة عمرك.. واستبقِ لنفسك الذكر به بعد وفاتك(٣).

ولكن قد تبقى لدى العلماء أمنيات تعوقها المعوقات آخر المطاف:

قال الحافظ الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) متمنيًّا أمنية: لعل الله يقيض لهذا الديوان العظيم [مسند أحمد] من يرتبه ويهذبه.. ولولا أني قد عجزت عن ذلك؛ لضعف البصر، وعدم النية، وقُرب الرحيل، لعملتُ في ذلك(٤).

ومن الشدائد التي قد تتفطر لها الأكباد، لولا كمال عقول المتلذذين بالعلم، ما حكاه ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) حينما قال: وأي عيش ولذة، لمن علم أن أعداءه وحساده لا يَفتُرون عن سعيهم، في التفريق بينه وبين معشوقه؟! وإن لم يظفَروا هم به دونه..ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه، ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلْب علمه، عمدوا إلى جحده وإنكاره؛ ليُزيلوا من القلوب محبته.. وهذا القدر

---

(١) حفظ العمر لابن الجوزي (ص: ٦٤).

(٢) التفسير البسيط (٤٧٥/٢٤).

(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه للعسكري (ص٥).

(٤) سير أعلام النبلاء ط. الرسالة (٥٢٥/١٣).

وقد تولى الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله تعالى- تحقيق ثلث «المسند»، فمات قبل أن يكمله. ثم تولاه تولِّيًا محمودًا مسددًا معالي الشيخ عبد الله التركي -حفظه الله تعالى-، فانتدب له الشيخ شعيبًا الأرناؤوط -رحمه الله تعالى- والفريق الذي معه، فأنهَوه في ٥٠ مجلدًا.

من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء، مثل الحر والبرد، لا بد منه. فلا ينبغي لمن له مَسْكة عقل أن يتأذى به؛ إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال، فليوطِّن نفسه عليه، كما يوطِّنها على برْد الشتاء وحر الصيف(١).



قال المُناوِي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٠هـ):

طالب العلم المتلذِّذ بفهمه، كلما طلَبَه ازداد لذة، فهو يطلب نهايةَ اللذة.

[التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٣٧)].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٣٢).

٣٢. متلذذون بالعلم رغم المَخاوِف

المخاوف مُقْلِقة مُشغِلة، وللأذهان مشتِّتة، ولكن المتلذِّذين عن هذا بعيدون! وفي لذتهم منهمكون:

إنِّــي إذا آنــسْــتُ هما طَــارِقًــا   عجَّلت باللذات قطع طَـرِيـقـهِ[١]

قال الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): مَن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظَلَمة، وطلب قُوْته من وجوه الغَلَبة، متى يتفرغ للعلم والعمل؟! وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة[٢].

إنهم يُقاوِمون الصعاب، ويُغالِبون الأتعاب، ويتناسَون مرارة الأوصاب.

أَقَـيْـدًا وسجنًا واغترابًا وفُرقةً   وذكــرى حبيب إن ذا لعظيمُ[٣]

كان عُبيد الله بن العباس ﷺ (ت ٨٧هـ) يقول- إذا لامُوه في طلب العلم: إذا نشطتُ فهو لذَّتي، وإذا اغتممتُ فسَلْوتي[٤].

ولذا ينبغي على المتلذذ حقًا أن يصنَّع من الليمونة الحامضة شرابًا لذيذًا، بحيث يتكيف مع الظروف العصيبة، ويستثمرها بما يعود عليه بالمنفعة، ولا يتذمر كما يتذمر سائر الخلق.

واعتبر بما وقع للحكيم بزرجمهر، حيث كتب له كسرى متهكِّمًا به وهو في الحبس قائلًا: كانت ثمرة علمك أن صرتَ بها أهلًا للحبس والقتل! فكتب إليه بزرجمهر: أما ما كان معي الجدّ فقد كنت أنتفع بثمرة العلم، فالآن إذ لا جِدّ، فقد صرت أنتفع بثمرة الصبر[٥].

---

(١) الوافي بالوفيات (١/٢٣٩).
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ١٢٨).
(٣) البيان والتبيين (٣/٢٨٥).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٧/٤٩١) والإصابة في تمييز الصحابة (٤/٣٣٢).
(٥) عيون الأخبار (٢/١٤٢).

وإنه لتمُرُّ على طالب العلم أزمنة ذهبية، باطنها فيها الرحمة، وظاهرها من قِبلها العذاب، فيتهيأ له فيها -برغم المخاوف - من سعة الوقت، وانصراف الشواغل ما يكون عونًا له على الخطو واسعًا، في طريق تحصيله.

وهذه الأزمنة تُبرهن لطالب العلم المتلذذ صدق طِلْبته، إن هو استثمرها، وإلا كانت طعنًا في جِدِّيَّة مسيرته إن هو ضيَّعها.

ومن أمثلة استثمار الأزمنة الذهبية، بل هنَّ أغلى من الذهب:

١. الانتقال من بلده لعمل أو دراسة، والانعزال ببلد لا عارفًا ولا معروفًا، ولا قواطع ولا موانع.

٢. تقصُّد السفر؛ لأجل العزلة العلمية، وهذه أغلى من الذهب لمن قدر عليها.

٣. الأقدار والجوائح الطارئة على بعض البلدان، أو بعض الأزمان، كزمن الأوبئة والحروب.

وعلى الحصيف الموفق في هذه الأزمنة القاطعة، أن يحولها إلى نافعة، وأن يسعى في تكثيف تحصيله، وسداد ديونه العلمية، ويُنجِز المتراكم منها، وأن يُقلِّب دفتر المهام، ويقيد ما عسى أن ينجزه من مشاريع وأعمال، ثم يبسط سجادة قراءته، ويبريَ قلمه، ويبدأ في تسجيل أرباحه العلمية دون فتور، حتى إذا انجلَتِ المحنة تجلَّت له شذا رَياحينِها، وعَبَقتْ له أريجًا بالفوائد والعوائد العلمية.

ومن الأمثلة الحاضرة: تلك الأيام العصيبة التي عشناها بفشو وباء «كورونا»، فقد امتدت شِدَّتها أزيَدَ من سنة، فكفى الله -بلطفه - المسلمين شره تدريجيًا، حتى اضطررنا للزوم بيوتنا أسابيع، وتجرع الناس مرارة هذا الاضطرار، وامتحن صبرهم، وكاد ينفَد.

ففي الشدائد عوائد وفوائد، فأما الموفق؛ فهو من يقرأ في صفحات هذه المحنة نصوص المنحة، ويبحث في فجواتها عن مسالكَ يَنفُذُ من خلالها إلى مدارج الرقي والرفعة، ويَهتبِلُها بتحصيل العلوم، ناويًا بذلك التقرب إلى الله -تعالى- ومدافعة البلاء بصالح العمل، ونافع العلم.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): ما يتناهَى في طلب العلم إلا عاشق العلم، والعاشق ينبغي أن يصبر على المكاره.. والفضائل تنادي:﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾(١).

وقال الخليل بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ): إني لأغلق عليَّ بابي، فما يجاوزه همِّي(٢).

والعزلة عن الناس بالعلم هي السلوة، وهي المنجاة من القيل والقال، ومن تزجية الوقت كيفما اتفق.

وقد أشار العلامة الملك الصالح صِدِّيق القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) إلى: أن طالب العلم عليه أن ينوي بعُزلته المواظبة على العلم والعمل، والفكر، والذكر، والخلاص عن استماع أخبار الناس، وأراجيف البلد، اللذَين يشوِّشان القلب(٣).

وهذا حق واقع في زماننا، فليَذر المتلذذ بالعلم كثيرًا من وسائل التواصل، وأخبار السياسة، ولا يخُضْ كالذي خاضوا، وإلا كدَّر صفوَ لذَّاته، وشوَّش على ذاته.

وإليك الآن عرضًا مثبِّتًا، وإن كان مُوجِعًا، من عجائب صمودهم أمام المخاوف، وتَسَلِّيهم بالعلم، الذي يخفف عنهم تلك المخاوف والمواجع الفواجع. وهذه خمسون قصة وعبرة:

١. أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣هـ) أرسلوا إليه وهو في السجن، فجاء يَرسُفُ في قيوده، فسألوه عن رجل له قُبُلٌ وذَكَرٌ، لا يُدرَي كيف يورَّث؟ فقالوا: ما ترى في هذا؟ فقال: تسألوني وأنا في قيودكم؟! قالوا: قُل فيه. قال: ألزِقوه في الحائط، فإنْ بالَ فيه فهو ذَكر، وإنْ بالَ في رجليه فهو أنثى(٤).

٢. أبو حمزة السكري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٧هـ) قال: اختلفت إلى إبراهيم

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٤٥٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٣١/٧).

(٣) أبجد العلوم (ص: ٢٥٨).

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٤٢/١) والمحن لأبي العرب (ص: ٤٠١).

الصائغ نيفًا وعشرين سنة، ما علم أحد من أهل بيتي أين ذهبتُ، ولا من أين جئتُ. قال الذهبي: لأن إبراهيم الصائغ كان في السجن، ولا يذهب أحد إليه إلا مختفيًا[(١)].

فمن أيهما تعجب! من التلميذ، أم من شيخه؟!

٣. حُبس البويطي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ) في فتنة القول بخلق القرآن، فكان وهو في الحبس، يغتسل كل جمعة ويتطيب، ويغسل ثيابه، ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء، فيردُّه السَّجَّان ويقول: ارجع -رحمك الله-، فيقول البويطي: اللَّهُمَّ إني أجبت داعِيَك، فمنعوني!.

وكَتب إلى أحد أصحابه كتابًا فيه: أسألك أن تعرض حالي على إخواننا أهل الحديث، لعل الله يخلصني بدعائهم؛ فإني في الحديد، وقد عجزت عن أداء الفرائض، من الطهارة والصلاة. فضج الناس بالبكاء، والدعاء له.

قال السبكي معلِّقًا: انظر إلى هذا الحَبر -رحمه الله- لم يكن أسفه إلا على أداء الفرائض، ولم يتأثر بالقيد، ولا بالسجن! فرضي الله عنه، وجزاه عن صبره خيرًا[(٢)].

٤. موسى بن إبراهيم المروزي -رحمه الله تعالى- (بعد ٢٢٩هـ) روى وهو سجين أحاديث عن موسى الكاظم[(٣)].

٥. أبو يعقوب البويطي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ) توفي في القيد والسجن، وقد كتب من السجن إلى صاحبه الفقيه الربيع بن سليمان، يوصيه بالتحبُّب لطلابه، لا سيما الغرباء؛ ليُرغبهم في العلم، فيقول: فإذا قرأت كتابي هذا؛ فأحسِن خلقك مع أهل حلقتك، واستوصِ بالغرباء خاصة خيرًا، فكثيرًا ما كنت أسمع الشافعي يتمثل بهذا البيت:

أهينُ لهم نفسي لأكرِمَها بهم ... ولن تكرَم النفس التي لا تُهينُها[(٤)]

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/٣٨٦).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/١٦٥).
(٣) الأعلام للزركلي (٧/٣١٩).
(٤) وفيات الأعيان (٧/٦٣).

٦. أدخَلوا أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) على الخليفة، لضرب عنقه في فتنة خلق القرآن، وعنده ابن أبي دؤاد وفقيه شافعي، فقال للفقيه: أيُّ شيء تحفظ عن الشافعي في المسح؟ قال ابن أبي دؤاد: انظروا رجلًا، هو ذا يقدم لضرب العنق؛ يناظِر في الفقه!(١).

وقد مكث في السجن نحوًا من ثلاثين شهرًا، فكانوا يأتونه ويقرؤون عليه كتاب «الإرجاء» وغيره في الحبس(٢).

٧. القاضي بكار بن قتيبة الثقفي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٠هـ) بقي مسجونًا مدة سنين، وكان يحدِّث في السجن من طاقٍ فيه؛ لأن أصحاب الحديث شَكَوا إلى السلطان أن يأذن له في الحديث، ففعل، فكان يُكتَب عنه وهو في السجن، وتوفي مسجونًا(٣).

٨. موسى القطان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٦هـ) تولى قضاء طرابلس، فنفّذ الحقوق، وأخذها للضعيف من القوي، فبُغِي عليه وحُبس شهرًا، ثم أُطلق، وكان سبب إطلاقه أن رجلًا اشترى حوتًا فوجد في بطنه آخر، فاختلفوا؛ هل هو للبائع أو للمشتري؟ فأفتى القطان: إن كان الشراء على الوزن فهو للمشتري، وإن كان على الجُزاف فهو للبائع، فقال الوالي: مثل هذا لا يُحبس. وأطلقه(٤).

٩. الزاهد بَنان الواسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٦هـ) أمَرَ ابنَ طولون بالمعروف، فأمر أن يُلقَى بين يدي السَّبُع، فجعل السبع يَشمُّه ولا يضره، فلما أُخرِج من بين يدي السبع، قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شمَّك السبع؟ قال: كنت أتفكر في اختلاف الناس في سؤر السباع ولُعابها(٥).

١٠. الحكيم الترمذي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٠هـ) هُجِرَ بتِرْمِذ في آخر عُمره؛

---

(١) طبقات الحنابلة (٩٤/١).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤٤/٢).
(٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي (ص: ٣٤٠) ووفيات الأعيان (٢٨٠/١).
(٤) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٣٣٦/٢).
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٧٨/٤).

لمعتقداتٍ خاطئة نُسبت إليه. يقول: ولكنْ كان إذا اشتدّ عَليّ وقتي، كنت أتسلّى بمصنَّفاتي[١].

١١. اللغوي الأزهري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٠هـ) صاحب «التهذيب» في اللغة، يقول: وكنت امتُحنت بالإسار..في بادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجْع، ويرجعون إلى أعداد المياه، ويرعَون النَّعم، ويعيشون بألبانها، ويتكلمون بطباعهم البدوية، وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن، أو خطأ فاحش. فبقيت في إسارهم دهرًا طويلًا. وكنا نتشتَّى الدهناء، ونتربَّع الصمان..واستفدت من مخاطباتهم، ومحاورة بعضهم بعضًا ألفاظًا جمة، ونوادر كثيرة، أوقعتُ أكثرها في مواقعها من الكتاب[٢].

١٢. قال المعافَى بن زكريا -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ) عن كتابه «الجليس الصالح»: وقد تجشمتُ إملاء هذا الكتاب، على ما خلَّفته ورائي من طول السنين، حصَّلت فيه من عشر التسعين، مع ترادف الهموم، وتكاثف الغموم، ومشاهدة ما أزال مُرتمِضًا به، ومُمتعِضًا منه[٣].

١٣. عبد الملك أبو مروان ابن غصن الخُشَني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٤هـ) ألَف في السجن ثلاثة كتب: «رسالة السجن والمسجون»، و«الحزن والمحزون» و«العشر كلمات» و«السر المكنون في عيون الأخبار وتسلية المحزون»[٤].

١٤. «المبسوط» للسرخسي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٣هـ) قد أملاه وهو رهن السجن، حيث يقول: سؤال بعض الخواص زمن حبسي، أن أُملي عليهم ذلك فأجبتهم إليه. وأسأل الله -تعالى- أن يجعل ما نويتُ فيما أمليت سببًا لخلاصي في الدنيا، ونجاتي في الآخرة[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٧٨/٢١).
(٢) تهذيب اللغة (٨/١).
(٣) الجليس الصالح والأنيس الناصح للمعافى (ص: ٣).
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٣٣٢/٥) والتكملة لكتاب الصلة (٧٠/٣).
(٥) المبسوط للسرخسي (٤/١).

○ ثم يختم المجلد الرابع قائلًا: أملاه المحبوس عن الجُمَع والجماعات[١].

○ ولما بلغ المجلد السابع قال بحسرة: أملاه المحصور عن الانطلاق، المبتلى بوحشة الفراق[٢]. وقال: أملاه المستقبِل للمحن بالإعتاق المحصور في طرف من الآفاق[٣].

○ وفي آخر الثامن قال -وقد مضت سَنَتان محبوسًا-: إملاء المحصور المعاتب، والمحبوس المعاقب، وهو منذ حولين على الصبر مواظب[٤]. وقال: الممتحن بأنواع البلاء، يسأل من الله -تعالى- تبديل البلاء، والجلاء بالعز والعلاء؛ فإن ذلك عليه يسير[٥].

○ وفي آخر العاشر يقول: بإملاء المتكلم بالحق المنير، المحصور لأجله، شبه الأسير، المنتظر للفرج من العالم القدير[٦].

○ وعند ختم الكتاب بالمجلد الثاني عشر يقول -وقد قارب الحزن منتهاه-: بإملاء الملتمس لرفع الباطل الموضوع، المنفي لأجله، المحصور الممنوع، عن الأهل والولد والكتاب المجموع، الطالب للفرج بالدعاء والخشوع، في ظُلَم الليالي بالبكاء والدموع[٧].

١٥. وللسرخسي -أيضًا- مجلد في أصول الفقه، اسمه «النكت» أملاه وهو مسجون، وقال في ختام «النكت»: أمليتُها وأنا في السجن محبوس، وعن أسباب الخلاص في الدنيا مأيوس، بسبب كلمة كنت فيها من الناصحين، سالكًا فيها طريق الراسخين[٨].

---

(١) المبسوط (١٩٢/٤).
(٢) المصدر السابق (٥٩/٧).
(٣) المصدر السابق (٢٤١/٧).
(٤) المصدر السابق (٨٠/٨).
(٥) المصدر السابق (١٢٥/٨).
(٦) المصدر السابق (١٤٤/١٠).
(٧) المصدر السابق (١٠٨/١٢).
(٨) النكت للسرخسي وشرح النكت للعتابي (ص: ١٧٨).

١٦. أبو الأَصْبَغ -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٦هـ) يقول متألمًا في مقدمة كتابه، ومنصرفًا عن الهم بلذّة العلم: وإن كان الذهن كليلًا، والنشاط قليلًا، والجسم عليلًا، من بلايا ومحن تتوالَى، إلى الله منها المفزع.. ولكن رجوت باشتغالي بهذا بعض السكن، في أوَانٍ يكون فيه الأُنس للنفس[1].

١٧. وعالم آخر كبير، يصير راعي إبل، إنه أبو المظفر السمعاني الحنفي ثم الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ) وقصته العجيبة: فقد حج على البرية، فأُخِذ من الأعراب، وجعلوه يرعَى جِمالهم، فاتفق أن أميرهم أراد أن يزوِّج بنته، فقالوا: نحتاج أن نرحل إلى الحضر؛ لأجل من يعقد لنا. فقال رجل: هذا الذي يرعى جِمالكم فقيه! يقول: فسألوني عن أشياء، فأجبتهم، وكلمتهم بالعربية، فخجلوا واعتذروا، فعقدتُ لهم العقد، وقلتُ الخطبة، ففرحوا، وسألوني أن أقبل منهم شيئًا، فامتنعتُ، فحملوني إلى مكة وسط العام[2].

١٨. الأديب الطبيب أبو الصَّلْت الدَّاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٩هـ) صنف وهو في الاعتقال أربعة كتب، وهي: رسالة العمل بالإسطرلاب، وكتاب «الأدوية المفردة» وكتابًا في المنطق سماه «تقويم الذهن» وكتابًا في الطب سماه «الانتصار»[3].

١٩. أحمد بن أبي عَبِيدة الخزرجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٢هـ) نُكِب نكبات، وامتُحن بالأَسر، وألَّف وهو مأسور كتابه المسمى بـ «مقامع هامات الصلبان ورواتع رياض الإيمان» وكان عمره إحدى وعشرين سنة، يرد به على بعض القسيسين، وتركه في نُسَخ بأيدي جماعة من المسلمين، المبتلَين بالأَسر هناك، لما يسر الله في تَخلُّصه[4].

٢٠. اللغوي أحمد بن علي بن المأمون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٦هـ) قال عن نفسه: كتبت في الحبس ثمانين مجلدة، منها «الجمهرة» لأبي بكر ابن دريد مجلدتان، «وشرح سيبويه» ثلاث مجلدات، و«إصلاح المنطق» مجلدة واحدة، و«الغريبان» للهروي مجلدة واحدة، و«أشعار الهذليين» ثلاث مجلدات، و«شعر المتنبي» مجلدة، و«غريب الحديث»

(١) ديوان الأحكام الكبرى = الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام (ص: ٢٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (١١٤/١٩) وطبقات السبكي (٣٣٦/٥).
(٣) وفيات الأعيان (٢٤٧/١).
(٤) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤٢٠/١).

لأبي عبيد مجلدتان، وأشياء يطول شرحها، وحفَّظتُ أولادي الختمة، وأيضًا حفَّظتهم كتبًا كثيرة، وجمعت لهم كتابًا سميته «أسرار الحروف»(١).

٢١. ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) سُجن ظلمًا، وقد قارب الثمانين عامًا، وظل في سجنه خمس سنوات يغسل ثوبه، ويطبخ الشيء بنفسه.. ويدخل عليه بعض الناس، ممن يستمعون منه العلم، أو يُملي عليهم مسائله، فيجد بذلك أُنس قلبه، وسلوَى نفسه(٢).

٢٢. الأديب ابن البحتري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) يحكي بَلايَاه فيقول: ولما امتحنتُ بالمحن، واعتُقل مخدومي الذي نشأتُ في حِمى إحسانه وكرمه، وأُصبتُ بوفاة الوالد والأخ، وذهاب المال..وتواترت علَيّ محن تُشيب الوليد.. وأصبح السّجن لي رَبْع أُنس؛ رأيت أن أجمع تذكرة..ووسمتها بـ«أنس المسجون وراحة المحزون»(٣).

٢٣. الفقيه المالكي الرجراجي -رحمه الله تعالى- (بعد ٦٣٣هـ) يقول في مقدمة كتابه: فصادف قلبًا منا قريحًا..مع تبلُّد الخاطر؛ لكثرة ما يرد عليه من الخواطر، لسبب فتنة المغرب..وقد منَّ الله عليَّ بالخلاص؛ لطفًا منه وبرًا ونعمة لا أحيط بها شكرًا(٤).

٢٤. شهاب الدين القوصي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٣هـ) خرَّج لنفسه معجما هائلًا، في أربع مجلدات ضخمة، صنفه وهو في سجن بعلبك(٥).

٢٥. أسد الدين ابن رسول -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٧هـ) لما صار بالسجن اشتغل بقراءة كتب العلم، وكان يستدعي بالفقهاء إلى موضعه، فيقرأ عليهم، ويُحسن إليهم(٦).

٢٦. عبد الحليم بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٢هـ) والد ابن تيمية، سافر بأسرته إلى الشام عند جَور التتار، فساروا بالليل، وبرغم المخاوف فقد حملوا

(١) معجم الأدباء (٤٥١/١).
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣٤/١).
(٣) أنس المسجون وراحة المحزون (ص: ٢٩).
(٤) مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها (٣٦/١).
(٥) الوافي بالوفيات (٦٥/٩).
(٦) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٤٠٤/١).

معهم الكتب، وركبوا على عجلة؛ لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهلوا إلى الله، واستغاثوا به، فنجوا وسلموا[١].

٢٧. لما أودِع شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) السجن:

بعث كتابًا إلى أهله، يذكر ما هو فيه من نعم الله وخيره الكثير، ويطلب منهم جملة من كتب العلم التي له، ويستعينوا على ذلك بجمال الدين المزي؛ لأنه يدري كيف يستخرج له ما يريده من الكتب التي أشار إليها.

ومما جاء في الكتاب قوله، حالفًا على صدق مقاله: فإني - واللهِ العظيم الذي لا إله إلا هو- في نِعَمٍ من الله، ما رأيتُ مثلها في عمري كله، وقد فتح الله ﮔ من أبواب فضله، ونعمته، وخزائن جوده ورحمته، ما لم يكن بالبال؛ ولا يدور في الخيال، ما يصل الطرْف إليها يسرها الله -تعالى-[٢].

لما دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب، وتضييع الصلوات، فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشد الإنكار، وعلّمهم ورغبهم، حتى صار الحبس -بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين- خيرًا من المدارس، وصار خَلْق من المحابيس إذا أُطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه، حتى كان السجن يمتلىء منهم[٣].

وفي سَجنة أخرى: صار الناس يدخلون إليه، ويقرؤون عليه، ويتحدثون معه، ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء، يقرؤون عليه، ويبحثون معه، ويستفيدون منه، وكان الموضع الذي هو فيه فسيحًا متسعًا[٤].

ولما كان معتقلًا بالإسكندرية، الْتمسَ منه صاحب سِبتة أن يُجيز لأولاده، فكتب لهم في ذلك نحوًا من ست مئة سطر، منها سبعة أحاديث بأسانيدها، والكلام على صحتها ومعانيها. عمل ذلك كله من حفظه[٥].

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ١٨).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/٣٠) والبداية والنهاية لابن كثير (١٨/٩٥).

(٣) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٨٣).

(٤) المصدر السابق (ص: ٢٨٨ و٢٩٣).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٥٠١).

ومن أعجب الأشياء أنه لما أُخذ وسجن، وحِيل بينه وبين كتبه، صنَّف عدة كتب، صغارًا وكبارًا..بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه، بل إن كثيرًا من تصانيفه صنَّفها في الحبس[١].

وآل الأمر إلى أن مُنع من الكتابة والمطالعة، وما تركوا عنده كراسًا ولا دواة، وبقي أشهرًا على ذلك؛ فأقبل على التلاوة، وبقي يختم في ثلاث وأكثر، ويتهجد ويعبد ربه، حتى أتاه اليقين؛ فإنه كان لا لذة عنده توازي كتابة العلم وتأليفه، فمُنع أطيب غاية[٢].

والكتب التي ألفها بالسجن ستة كتب، هي: ١- «الاستقامة» مجلدان ٢- «جواب الاعتراضات المصرية على الفتاوى الحموية» أربع مجلدات ٣- «تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» في ست مجلدات كبار ٤- «المحنة المصرية» مجلدان ٥- «المسائل الإسكندرانية» مجلد ٦- «الفتاوى المصرية» سبع مجلدات[٣].

٢٨. زين العرب المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٨هـ) قال: وبقيتُ بأَرْزَنْجَان مدة مديدة، وسنين عديدة، مرفَّه الحال، مجموع البال، إلى أَوَان ظهور الاحتلال، وزمان تغيُّر الأحوال، بسبب ما طَرق الأسماعَ من وقوع الحصار بتلك الديار، فانتقلت منها إلى مدينة سيواس، حُمِيَت عن شِرار الناس، وأَلقيتُ فيها عصا التسيار، وأزمعتُ على ترك الأسفار، وشرعتُ في شرح آخر على طريقة أبسطَ من الطريقة الأولى. ويقول: فكيف والخاطر عليل، والذهن كليل؟![٤].

٢٩. ويرحم الله التاج السبكي (ت ٧٧١هـ) فإنه بعد أن أورَد طرَفًا من أخبار التتار، وجناياتهم على أهل الإسلام قال: ومن الناس من أفرد التصانيف لأخبارهم، ويكفي الفقيه ما أوردناه، فأوقات طالب العلم أشرف أن تضيع في أخبارهم، إلا للاعتبار بها[٥].

---

(١) المصدر السابق (ص: ٤٢) والأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٢٢).
(٢) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٥١١)وتكملته (٥١/١).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٥٢١/٤).
(٤) شرح المصابيح للبغوي - زين العرب المصري (٦/١ و١٠).
(٥) طبقات الشافعية الكبرى (٣٤٢/١).

ثم هذا التاج السبكي -رحمه الله تعالى- نظم وهو في السجن أرجوزة في اختيارات والده، حيث قال:

الـحَـمْـدُ لله وقَـدْ تَـنَـجَّـزا ... نَـظْـمـي هَـذا واضِـحًـا مُـرَجَّـزا
في السِّجْنِ والتَّضْييقِ والتَّرْسيمِ ... أَتْـمَـمْـتُ ما حَـرَّرْتُ مِـن مَنْظومي
ورُبْـمـا أَهْـمَـلْـتُ أو غَـفِـلْـتُ ... فالحَبْسُ قد يُنْسي الّـذي عَلِمْتُ
ولـيَـس عِـنْـدي كُـتُـبُ أُطـالِـعُ ... والحِفْظُ يَـأْلَـمُ جُـهْـدَ ما يُـراجِـعُ[١]

٣٠. ابن الشهيد النابلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٣هـ) جرت له محنة؛ اختفى بسببها مدة، فنظم فيها السيرة في بضعة عشر ألف بيت[٢].

٣١. ابن البرهان الشافعي الظاهري التيمي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) أملى وهو في الحبس بغير مطالعة: «مسألة رفع اليدين في السجود»، و«مسألة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة»، و«رسالة في الإمامة»[٣].

٣٢. ابن قاضي سِمَاوْنَة -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ) له «لطائف الإشارات» في فقه الحنفية، ألَّفه ثم شرحه وهو حبيس السجن[٤].

٣٣. وقع للمقرئ ابن الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) قريبًا مما وقع للسمعاني، قد وصف محاولة الاختطاف التي وقعت له في مطلع منظومته الشهيرة بـ: «الدرة المضية» حيث يقول:

---

(١) منهج الإمام تاج الدين السبكي في أصول الفقه لأحمد الحسنات (ص: ٤٣) عن: ترشيح التوشيح للتاج السبكي ص١٦٥ والقلائد الجوهرية لابن طولون (٢/٣٧٢).
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/٢٢).
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٣٣٢) والمجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣/٧٣) والضوء اللامع (٢/٩٧). ومن عجائب سيرة ابن البرهان أنه تنقّل بالفقه على ثلاث مراحل، فقد اشتغل أولًا على مذهب الشافعي، ثم صحب شخصًا ظاهري المذهب، فجذبه إلى النظر في كلام ابن حزم، فأحبه، ثم نظر في كلام ابن تيمية، فغلب عليه حتى صار لا يعتقد أن أحدًا أعلم منه!.
(٤) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٣٤) وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (٣/٣٠٨) وكشف الظنون (٢/١٥٥١).

غَرِيْبَةُ أَوْطَــانٍ بِنَجْدٍ نَظَمْتُهَا ... وَعُظْمُ اشْتِغَالِ الْبَالِ وَافٍ وَكَيْفَ لاَ
وَطَوَّقَنِي الأَعْـرَابُ بِاللَّيْلِ غَفْلَةً ... فَما تَـرَكُـوا شَيْئًا وَكِــدْتُ لأُقْـتَـلَا
فَأَدْرَكَنِيْ اللُّطْفُ الْخَفِيُّ وَرَدَّنِـي ... عُنَيْزَةَ حَتَّى جَاءَنِي مَـنْ تَكَفَّلَا
بِحَمْلِي وَإِيْصَالي لِطَيْبَةَ آمِنًا ... فَيَا رَبِّ بَلِّغْنِي مُــرَادِيْ وَسَــهِّـلَا(١)

٣٤. المهدي ابن المرتضى الزيدي اليمني (ت ٨٤٠هـ) له كتاب «الغيث المدرار في شرح مسائل الأزهار فقه الأئمة الأطهار» وفيه تسعة وعشرون ألف مسألة. وقد تم تأليفه حين لبث في السجن سبع سنين، وقد كتبه بالجص(٢).

٣٥. أبو بكر التقي الحصني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨١هـ) رجع من الحج، وهو يحمل نفائس الكتب، فاعترضه قطاع طريق، وأخذوا راحلته وجميع ما معه من كتب وغيرها، فألقَوا الكتب بالبرية؛ لعدم التفاتهم إليها، ولكنه لم يجد محملًا لها، فأخذ اليسير مما أمكنه منها، ونجا بنفسه، وتأسف كثيرًا بسببها، حتى أنه صار كلما تذكرها يتألم وينشد:

يـا نفس لا تجزعي مما جرى ... وارضـــي بتقدير الـعـزيـز الغفورْ
واتلي على الطاغين في ظلمهمْ ... (ألا إلـــى الله تصير الأمـــورْ)(٣)

٣٦. قال جلال الدين الدَّوَّاني، -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٨هـ): ابتُليتُ عند الرافضة بالأَسْر، ومكثت عندهم قريبًا من ثماني سنين، وذلك عند سياحتي لطلب العلم. وعَلِم الله -وكفى به عليمًا- أني لا أستعين في ذلك بكتاب، بل بَديهةً(٤).

٣٧. المؤرخ ابن القاضي المكناسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٢٥هـ) رجع من الحج قافلًا لمصر؛ لأجل أخذ العلم عمّن فاته بمصر، فأسَرَه الأسبان بالبحر، ولقي منهم البلاء العظيم؛ تجويعًا وتعذيبًا، وبقي أحد عشر شهرًا مأسورًا، حتى افتداه الخليفة -آنذاك-

---

(١) الدرة المضية في القراءات الثلاث المتتمة للعشر (ص: ٤٠).
(٢) الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (٣/١٣٩٤) عن مطلع البدور (٢/١٠١).
(٣) باختصار من: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١/٧٦).
(٤) الحجج الباهرة في إفحام الطائفة الكافرة الفاجرة (ص: ٦٨).

بمبلغ كبير جدًا من الذهب. وبالرغم من هذا البلاء؛ فقد كان ذلك سببًا في تأليفه أكثر كتبه واحدًا بعد الآخر[١].

٣٨. الشيخ العلامة عبد الحكيم السيالكوتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٦هـ) إذا كان على ظهر الفرس، وقت طعنةٍ أو نهضةٍ، رأيت الأجزاء في يده، وإذا كان يغتسل رأيت الأجزاء في يد خُدَّامه، يحاذونه وهو يطالعها، ويغتسل[٢].

٣٩. السيد الحسين بن الإمام القاسم بن محمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٠هـ) ألَّف كتابه «الغاية» وهو يقود الجيوش، وله ملاحم تذهل المشاهد لبعضها، عن النظر في كتاب من كتب العلم، فكيف به وهو قائد الجيوش، وأمير العساكر؟![٣].

٤٠. القاضي علي أبي الرجال -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥١هـ) كان يقرأ أثناء مجاهدة الأتراك على شيخه في الأصول[٤].

٤١. البحاثة المفهرِس التركي حاجي خليفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٧هـ) صاحب «كشف الظنون» قضى عمره في تحصيل العلم ونشره؛ في الحضَر والسفر، وفي الحرب والسِلم. وبعد أن قضى قدر عشر سنوات يصاحِب الجيش في الحروب، عاد إلى إستانبول؛ للانتقال من«الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» - كما يُعبِّر- وأنفق على شراء الكتب إرثًا كبيرًا، حتى وافَتْهُ المنية وهو منكَبٌّ على الكتب[٥].

٤٢. عبد القادر الجبالي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٢٢هـ) في «تحفة الحبيب على شواهد المغني اللبيب». قال: واتفق الفراغ منه سنة ١١٠٢هـ، وكان الابتداء فيه سنة ثمان وتسعين، ولكن عاقت العوائق.. من كثرة الأفتان، وانقطاع السبل بين البلدان، حتى انقطعت المتاجر، وبلغت القلوب الحناجر. فمدة التأليف دامت أربع سنوات[٦].

---

(١) درة الحجال في أسماء الرجال (المقدمة/٢٥) و(٤/١) و(٢٠٩/٢) وإتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس (٣٢٦/١ - ٣٣٧).

(٢) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٥٦١/٥).

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢٢٦/١).

(٤) الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١٥٤/٢).

(٥) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (مقدمة/٩ و١٥).

(٦) تراجم المؤلفين التونسيين (١٢/٢).

٤٣. الحسن بن إسحاق بن المهدي الزيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦٠هـ) اعتُقل في السجن سبع سنين، ثم أُخرج، ثم تجدد اعتقاله، فأقام نحو عشرين سنة، ومات سجينًا. له تصانيف، قد كتب أكثرها في السجن، منها «نظم العبادات» يزيد على ألف بيت، و«شرح نظم العبادات» في مجلدين، و«حاشية على الشمائل للترمذي»[١].

٤٤. أخوه محمد بن إسحاق المهدي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦٧هـ) من أئمة العلم المجمَع على جلالتهم وإحاطتهم. وله وهو في السجن:

حُبستُ عن أهلي وصحبي وعن ... فوائد العلم التى تُجتَنَى[٢]

٤٥. ابن القاسِم الشهاري الزيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٠هـ) ألَّف بعض كتبه في السجن، ومنها «بلوغ الأرب وكنوز الذهب في معرفة المذهب الّذي عزب فهمه عمن ذهب» و«الأصول الأربعة» و«النور المتلالي في الرد على الغزالي»[٣].

٤٦. محمد الخضر حسين شيخ الأزهر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ) سُجن ظُلمًا، وحزَّ في نفسه وهو سجين أن يُمنع من المطالعة والكتابة، وقال في هذا:

غَلّ ذا الحبسُ يدي عن قلم ... كان لا يصحو عن الطرس فناما
هل يذود الغمضَ من مُقلته ... أو يُلاقي بعده الموت الزُؤاما
أنا لولا همة تحدو إلى ... خدمة الإسلام آثرت الحِماما[٤]

٤٧. المفسر أبو الكلام آزاد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ) الهنديّ الأب، العربيّ الأم: أمضى في السجن أحد عشر عامًا، وصنف وهو مسجون كتابه «التذكرة» وألف تفسيرًا للقرآن الكريم في ١٥ جزءًا بالأردية. وأنشأ من معتقله مجلة «البلاغ»[٥].

٤٨. د. محمد عبد الله درَّاز -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٨هـ) ألَّف كتابه الفذ «دستور الأخلاق في القرآن» طيلة أحد عشر عامًا، وقد قاسَى معاناةً فترةَ تأليفه، حيث اكتنفها

(١) الأعلام للزركلي (٢/١٨٤).
(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/١٢٩).
(٣) الأعلام للزركلي (٤/٣٠٧).
(٤) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (١٤/١/٢١٢).
(٥) الأعلام للزركلي (١/١٢٢).

سنوات حرب عصيبة، وما أثارته هذه الحرب من مشكلات مادية ونفسية، كان يتحمل عِبئها، واضطر لقضاء أيام طويلة مع أسرته، في مَخبأ تحت الأرض، وكان يجمع أوراقه، ويشتغل بالبحث وسط صوت القنابل التي تدوِّي فوقه، وكان يقرأ على ضوء شمعة، أو مصباح خافِت[١].

٤٩. قال عبد الفتاح أبو غدة -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٧هـ): فرغتُ من خدمةِ كتاب «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي» والمقابلةِ بين نُسَخِه، والتعليقِ عليه بما تيسَّر، في سنة ١٣٨٦هـ، معتقَلًا في سبيل الله والإسلام.. ولما أُودِعتُ في المعتقل قرأتُه قراءة بحث، ودرس لنصوصه، ومغايراتِ نُسَخِه، وعلَّقتُ عليه بما يُستطاع لمثلي في تلك الحال. ثم فرَّج الله عني بعد سنةٍ إلا شهرًا[٢].

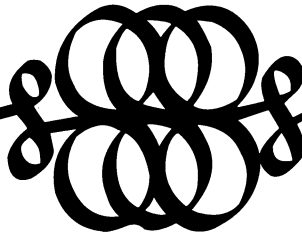
٥٠. قال الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): قُدّر عليَّ أن أُسجن في عام ١٣٨٩هـ من غير جريرة اقترفناها، سوى الدعوة إلى الإسلام، وتعليمه للناس.. وقد قدّر الله ألا يكون معي فيه إلا كتابي المحبَّب: «صحيح الإمام مسلم»، وقلم رصاص وممحاة.. وفرغت من ذلك في نحو ثلاثة أشهر، كنت أعمل فيه ليل نهار، ودون كلل ولا ملل[٣].

وبعد: فإنهم قوم عظماء الهمم، وإن تكالبت عليهم الهموم، فلا يجدون إلا العلم متنفَّسًا، ولا يبغُون عن لذّته بدلًا، وتراهم يتكيّفون مع الظروف القاسية، فيُحِيلونها نعيما مقيمًا:

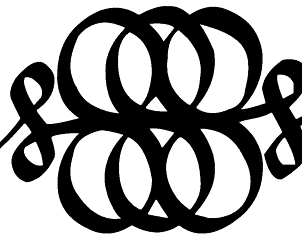
إذا استوقفَتْني في الديار عشيةٌ   تلذذتُ فيها جَيَّةً وذهابا[٤]



(١) مقدمة كتاب: دستور الأخلاق في القرآن (ص٦).
(٢) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ت. عبد الفتاح أبو غدة (ص: ٢٦٩).
(٣) مختصر صحيح الإمام البخاري (٨/١).
(٤) قلائد العقيان (ص: ٢٣٥).



الباب السادس:
نماذج لمتلذِّذين بالعلم من وراء حجاب



٣٣. نساء متلذِّذات بالعلم:

نعم هن بالعلم متلذذات! يوم تلذَّذ غيرهن بالملهيات.

أوليست النساء شقائق الرجال؟! أوليس طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟!

أليس الواقع يشهد أن البنات أكثر حرصًا واجتهادًا من الأولاد؟!

إذًا: فلا عَجَبَ أن يكون من الأئمة تلاميذ على عالِمات فاضلات، ولا عجَب أن ترى عند النساء نماذج مشرفة في النهَم بالعلم.

قال الشيخ عطية سالم -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): رأيت بنفسي وأنا مدرس بالأحساء، نسخة لـ«سنن أبي داود» عند آل المبارك، وعليها تعليق لأخت صلاح الدين الأيوبي.. وكنا في بعثة الجامعة الإسلامية لأفريقيا، وعلى مَقْرُبة من مدينة شنقيط، سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقًا مئتا فتاة، يحفظن «المدونة» كاملة(١).

وكتاب «المدونة» متن في الفقه المالكي، وتبلغ صفحاته أكثر من خمس مئة وخمسين صفحة! فيا لله العَجَب من هذه الهِمم النسائية!.

وقد حفلت دواوين السنة بنماذج متكاثرة في رواية النساء عن النساء وعن الرجال، وإليك أعجب ما عثرتُ عليه من تلك النماذج:

الرواية عن الجَدّات الصحابيات -رضي الله عنهن-:

١. سعيد بن خثيم الهلالي، قال: سمعت جدتي ربيعة ابنة عياض، قالت: سمعت جدي عبيدة بن عمرو الكلابي، يقول: رأيت رسول الله ﷺ..(٢).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢١/٩).

(٢) مسند أحمد ط الرسالة (١٥٩٥٠).

٢. القاسم بن غنام، عن جدته أم أبيه، عن جدته أم فروة- وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ[١].

٣. عاصم بن عمر بن قتادة، عن جدته رميثة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: -ولو أشاء أن أقبِّل الخاتم الذي بين كتفيه، من قُربي منه، لفعلت-[٢].

رواية البنات عن آبائهن الصحابة:

١. عائشة بنت سعد، روَتْ عن أبيها.

٢. حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيها.

٣. فاطمة بنت الحسين، عن أبيها.

٤. ميمونة بنت كردم، عن أبيها.

٥. ضباعة بنت المقداد بن الأسود، عن أبيها.

٦. حبيبة بنت العرباض، عن أبيها.

٧. رباح بن عبد الرحمن بن حويطب يروي عن جدته، عن أبيها.

شَيخات الأئمة الكبار -رحمهن الله تعالى-:

- ابن عساكر له ثمانون شيخة.
- ابن الجوزي له ثلاث شيخات.
- ابن تيمية له أربع شيخات.
- للسخاوي خمس وثمانون شيخة.
- السيوطي له ثنتان وأربعون شيخة.
- وذكر ابن حجر في تقريب التهذيب ترجمة ثمان مئة امرأة ممن لهن رواية في الحديث.
- وترجم السخاوي في الضوء اللامع لألفٍ وسبعين امرأة.

---

(١) مسند أحمد (٢٧١٠٥).

(٢) المسند (٢٦٧٩٣).

• وأما ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) فيقول: رُبِّيْتُ في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالستُ الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وحين تبقَّل وجهي؛ وهن علمْنني القرآن، وروَّيْنني كثيرًا من الأشعار، ودرَّبْنني في الخط(١).

• وأما الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) فقد تلهّف للُقيا الشيخة سيدة بنت موسى بن درباس المصرية، فرحل من دمشق إلى مصر؛ ليأخذ عنها، ولكن الحسرة بلَغته بأن سيدة ماتت. قال الذهبي: وقد رحلتُ إلى لُقياها، فماتت وأنا بفلسطين(٢).

فهيا يا بنات المسلمين المثابرات؛ فالميادين مفتوحة، والطاقات ممنوحة، والقدوات كثيرة. وإليكن ستًا وأربعين نموذجًا، لنسوة متلذذات بالعلم:

١- ابنة الإمام مالك -رحمهما الله تعالى- (بعد ١٥٠هـ) كانت تحفظ «الموطأ»، وكانت تقف خلف الباب، فإذا غلط القارىء نقَرَت الباب، فيفطن مالك، فيَرد عليه(٣).

٢- أم الواحد بنت القاضي الحسين المحاملي -رحمها الله تعالى- (ت ٣٧٧هـ) درَّست في دارها النساء المخدَّرات، قرأ عليها كثير من النساء، وكان في عصرها وقُطرها لا تحتاج النساء إلى سؤال مسألة لأحد من العلماء؛ لأنها كفَتِ الجميع ما يحتاجون إليه(٤).

٣- إشراق السويداء العَروضية -رحمها الله تعالى- (ت ٤٥١هـ) أخذت العربية واللغة والآداب، عن مولاها أبي المطرف ابن غلبون، حتى فاقَته في كثير مما أخذته عنه، وكانت تحفظ «النوادر» لأبي علي، و«الكامل» للمبرد، وتتكلم عليهما(٥).

٤- أسماء بنت المقرىء أبي داود بن نجاح -رحمهما الله تعالى- (بعد ٥٠٠هـ) روَتْ عن أبيها كثيرًا، وشاركته في بعض شيوخه، وزوَّجها من فتى فاضل، كان يقرأ عليه،

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم (ص: ١٦٦).
(٢) معجم الشيوخ الكبير للذهبي (١/٢٩٤).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/١١٦). ولهذا الخبر الجميل تتمة عجيبة، فإن للإمام مالك ولدًا اسمه محمد؛ منصرف عن العلم، ومشغول بالصيد، وقد أرخى سراويله، فيلتفت مالك إلى أصحابه، ويقول: إنما الأدب مع الله: هذا ابني وهذه ابنتي. ويقول: إن مما يهوِّن عليَّ أن هذا الشأن لا يورَّث!.
(٤) الروضة الفيحاء في أعلام النساء - ياسين بن خير الله العمري (المتوفى: بعد ١٢٣٢هـ) (ص: ٨٣).
(٥) التكملة لكتاب الصلة (٤/٢٥٠).

فأعجبه سمته، وقال له يومًا: أتحب أن أزوِّجك بنتي؟ فخجل الفتى، وذكر حاجة تمنعه. فزوّجها منه، وأسكنه في دار له، وزفَّها إليه(١).

٥- العالمة المقرئة، بنت زعبل أم الخير فاطمة بنت علي بن مظفر البغدادية -رحمها الله تعالى- (ت ٥٣٢هـ) تُعلم الجواري القرآن، سمعَتْ جميع «صحيح مسلم»، و«غريب الحديث» للخطابي. وحدَّث عنها: السمعاني، وابن عساكر(٢).

٦- فاطمة بنت الأمير الفقيه علاء الدين الكاساني الحنفي -رحمها الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) صاحب «تحفة الفقهاء»، كانت فقيهة جميلة، وقد حفظت «التحفة» وخطبها غير واحد من الملوك، فامتنع والدها، ولما فاق الكاساني عنده، وصنَّف «البدائع شرح التحفة» زوَّجه ابنته، وجعل مهرها منه ذلك، فقالوا: شرح «تحفته» وتزوج ابنته. وكانت تنقل المذهب، وربما وهِم الشيخ في الفتوى، فتنبُّهه على وجه الصواب، فيرجع الى قولها، وكانت الفتوى تأتي، فتخرج وعليها خطها، وخط أبيها، فلما تزوجت بـ«صاحب البدائع»، كانت الفتوى تخرج وعليها خطها، وخط أبيها، وخط زوجها(٣).

٧- والدة الأمير المفسر زين الدّين ابن نجيَّة الأنصاري -رحمهما الله تعالى- (ت ٥٩٩هـ) كانت صالحة حافظة. قال ابنها: كنا نسمع من خالي التفسير، ثم أجيء إليها فتقول: إيش فسّر أخي اليوم، فأقول: سورة كذا وكذا، فتقول: ذكر قول فلان؟ ذكر الشيء الفلاني؟ فأقول: لا، فتقول: ترك هذا. وكانت تحفظ كتاب «الجواهر» تأليف والدها(٤).

٨- كما وُجِدَت نُسخة من «صحاح الجوهري» بخط جميل لامرأة، وفيه: تقول كاتبته مريم بنت عبد القادر في أواخر القرن السادس للهجرة: أرجو مَن وجد فيه سهوًا أن يغفر لي خطئي؛ لأني بينما كنت أخط بيميني، كنت أهزُّ مَهْد ولَدي بشمالي(٥).

---

(١) المصدر السابق (٢٥٤/٤).
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٦٢٥/١٩).
(٣) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ١٥٨) وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (٨٩/١) وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤٣٤٨/١٠).
(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٥٥/٦).
(٥) مجلة لغة العرب العراقية (٧١٧/٦).

٩- زينب أم المؤيد الجرجاني -رحمها الله تعالى- (ت ٦١٥هـ) حدَّثت أكثر من ستين سنة(١).

١٠- الشيخة المعمرة المسندة العابدة، أم محمد البطائحية البعلية -رحمها الله تعالى- (ت ٦٢٥هـ) سمعتْ «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم». وروَت «الصحيح» مرات(٢).

١١- والدة ابن يمن التاهرتي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٦هـ) تحفظ القرآن، وكتاب «الجُمل في النحو» للزجاجي، وكتبتِ «المدونة» بخطها، وتقول لي: يا بُني! لا تحتقر من الخير ولا من الشر شيئًا، فقد قال الله -تعالى-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] قال: فانتفعتُ بكلامها ووصيتها(٣).

١٢- أسماء بنت ابن هبة الله بن محفوظ -رحمهما الله تعالى- (ت ٦٣٨هـ) قال البرزالي عنها: قرأتُ عليها في رمضان سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، وقرأتُ عليها قبل موتها بأربعة أيام. فبيْنَ التاريخَين أكثر من خمسين سنة(٤).

١٣- بنت الحافظ سراج الدّين ابن شحانة الحنبلي -رحمهما الله تعالى- (بعد ٦٤٣هـ) وهي بنت عمياء، أعجوبة تحفظ كثيرًا، إذا سئلت عن باب من الكتب الستة ذَكَرَتْ أكثرَه، ولم تَبلغ أَوَان الرواية(٥).

١٤- أسماء بنت أبي بكر الدمشقية -رحمها الله تعالى- (ت ٦٩١هـ) من تلاميذها ابن تيمية والمِزي(٦).

١٥- فاطمة ابنة جمال الدين سليمان بن عبد الكريم الأنصاري -رحمها الله تعالى- (ت ٧٠٨هـ) روت عن أكثر من مئة شيخ، وقرأ عليها الذهبي قبل موتها بيوم(٧).

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٣٩/٤٤) والعبر في خبر من غبر (١٦٦/٣).
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٢٦/٤).
(٣) معجم السفر (ص: ١٧٢).
(٤) المصدر السابق (٤٩١/١).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٥٢٣/٣) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٨١/٧).
(٦) تاريخ الإسلام ت تدمري (١١٢/٥٢).
(٧) أعيان العصر وأعوان النصر (٢٧/٤).

١٦- الشيخة المفتية العابدة، فاطمة بنت عباس البغدادية الحنبلية الواعظة -رحمها الله تعالى- (ت ٧١٤هـ) كانت تحضر مجلس ابن تيمية، وكان يتعجب من عملها، ويثني على ذكائها وبكائها. وكان يذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من «المغني» أو أكثره، وأنه كان يستعدُّ لها من كثرة مسائلها، وحسن سؤالاتها، وسرعة فهمها.

وكانت تنكر أحوال أهل البدع، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال، فكانت تصعد المنبر وتعظ النساء. قال ابن تيمية: بقي في نفسي منها شيء؛ لأنها تصعد المنبر، وأردت أن أنهاها، فنمتُ ليلة، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فسألته عنها. فقال: امرأة صالحة[1].

١٧- نُضَار ابنة الشيخ العلامة أثير الدين أبي حيان -رحمها الله تعالى- (ت ٧٣٠هـ). وكان والدها يُثني عليها ثناء كثيرًا. وكان يقول دائمًا: ليت أخاها حيّان مثلها. وتوفيت في حياة والدها، فوجد عليها وجدًا عظيما وعمل فيها كتابًا سماه «النَّضار في المَسْلاة عن نُضار». فدفنها في بيته، ولازَم قبرها سنة[2].

١٨- أم الحسن ابنة علم الدين البرزالي -رحمهما الله تعالى- (ت ٧٣١هـ) ماتت وعمرها أربع وعشرون سنة. وعدد الشيوخ الذين سمعت منهم مئة وخمس وثمانون نفسًا. كتبت كتاب «الأحكام» لابن تيمية، و«صحيح البخاري»، وكمّلته قبل موتها بأيام قليلة[3].

١٩- أسماء بنت ابن صَصْرَى -رحمها الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ) حدثت أكثر من خمسين سنة[4].

٢٠- زينب المقدسية، المعروفة ببنت الكمال -رحمها الله تعالى- (ت ٧٤٠هـ) قال الذهبي: تفرَّدت بقَدر وِقْر بعير، من الأجزاء بالإجازة، وتزاحَم عليها الطلبة، وقرؤوا

---

(١) البداية والنهاية (٨٢/١٤).

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٥٢١/٥). تنبيه: دفن الميت بالبيت وملازمته؛ كلتاهما بِدعتان لا أصل لهما.

(٣) المصدر السابق (٣٠/٤). وبِنتا البرزالي وابن الجزري: سأعيد سيرتهما الأولى ببعض البسط؛ لارتباطهما بمبحث قادم، ألا وهو: فرحهم بإقبال أولادهم على العلم.

(٤) الوافي بالوفيات (٣٦/٩).

عليها الكتب الكبار، وكانت طويلة الروح، ربما سمعوا عليها أكثر النهار، ولم تتزوج قط[١].

٢١- الشيخة العابدة أم فاطمة -رحمها الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) زوجة الحافظ المزي، كانت عديمة النظير في نساء زمانها، في إقرائها القرآن العظيم بفصاحة وبلاغة، وأداء صحيح يعجز كثير من الرجال عن تجويده، وختَّمت نساء كثيرًا، وكان الشيخ محسنًا إليها مطيعًا، لا يكاد يخالفها؛ لحبه لها طبعًا وشرعًا[٢].

٢٢- ستّ العرب بنت محمد بن الفخر بن البخاري -رحمها الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) الشّيخة الحنبلية المسنِدة المكثرة. حضرت على جدّها كثيرًا، وحدّثت، وانتشر عنها حديثٌ كثير، وسمع منها العراقي والهيثمي وابن رجب[٣].

٢٣- ست الركب، أخت ابن حجر العسقلاني -رحمهما الله تعالى- (ت ٧٩٨هـ) قال عنها ابن حجر: كانت أعجوبة في الذكاء..وهي أمي بعد أمي، أكثرت من مطالعة الكتب، فمهرت في ذلك جدًا، بحيث كان يَظن من يراها تقرأ من الكتاب أنها تحفظه؛ لجودة استخراجها[٤].

٢٤- فاطمة بنت عم ابن عبد الهادي -رحمها الله تعالى- (حدود ٨٠٠هـ) أسمعَتْ الكثير. قال ابن حجر: قرأتُ عليها من الكتب والأجزاء بالصالحية، ونِعم الشيخة كانت![٥].

٢٥- زين خاتون ابنة ابن حجر العسقلاني، وبِكر أبيها -رحمهما الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) أحضرها أبوها عند العراقي والهيثمي، وأسمعها على ابن الكويك، واستجاز لها خلقًا. وماتت شهيدة في الطاعون حاملًا، فجُمعت لها شهادتان -رحمها الله تعالى-[٦].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢/٢٤٨).
(٢) البداية والنهاية ط هجر (١٨/٤٢١).
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨/٣٥٧).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١/١١٥).
(٥) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/١٨٠).
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢/٥١).

٢٦- سلمى بنت شيخ الإقراء ابن الجزري -رحمهما الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) عرضت القرآن حفظًا بالقراءات العشر..وقرأت بنفسها الحديث، وسمعت من أبيها وعليه كثيرًا[١].

٢٧- ست القضاة ابنة ابن زريق المقدسي -رحمها الله تعالى- (ت ٨٦٤هـ) سمع منها الفضلاء. قال السخاوي: ولقيتُها، فحملتُ عنها أشياء، وأهلها من بيت رواية وعلم[٢].

٢٨- أُنس خاتون زوجة ابن حجر -رحمهما الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) كانت مِنْ بيت رئاسة وحشمة. حدَّثَتْ وقرأ عليها الفُضلاءُ. وأسمعها زوجُها مِنْ شيخه العراقي.

قال السخاوي: وقد خرَّجتُ لها «أربعين حديثًا عن أربعين شيخًا»، قرأتُها عليها بحضورِهِ أيضًا. وكان يقول لها على سبيل المُداعبة: قد صِرْتِ شيخةً[٣].

٢٩- أم هانئ ابنة العلامة نور الدين علي بن القاضي -رحمهما الله تعالى- (ت ٨٧١هـ) أجاز لها العراقي والهيثمي وابن الملقن. وهي امرأة صالحة، كثيرة البكاء عند ذكر الله ورسوله. حفظت القرآن في صغرها، و«مختصر أبي شجاع» في الفقه، و«الملحة في الإعراب». قال السخاوي: وسمعنا من لفظها وحِفظها سورة الصف، بفصاحة، وحسن تلاوة[٤].

٣٠- المُسنِدة الشيخة مريم ابنة هاني الهورينيّ-رحمها الله تعالى- (قبل ٨٨٠هـ) سمعت كثيرًا، وساوَتْ الحافظ ابن حجر في سنده، وعلَتْ عليه في غير «الصحيحين». وكان لها أربعة من الأولاد، أقرأَتْهم على المذاهب الأربعة[٥].

٣١- زينب ابنة علي الديروطي -رحمها الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ): حفظتِ «الحاوي»، و«مختصر أبي شجاع»، و«المُلحة»، وقرأت غالب «الصحيحين»[٦].

(١) غاية النهاية في طبقات القراء (١/١٣٦).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢/٥٦).
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/١٢٠٨ - ١٢١١).
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢/١٥٦).
(٥) نيل الأمل في ذيل الدول (٦/٢٦٨).
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢/٤٥).

٣٢- بَيرم الديروطية المالكية -رحمها الله تعالى- (بعد ٨٩٦هـ) تلَتْ بالسبع على ابن الصائغ، وأكملت الجمع على ابنته فاطمة، ومن محافيظها «العمدة»، و«أربعيُّ[١] النووي»، و«الشاطبيتان»، وأكثرَتْ من مطالعة «رياض الصالحين»، و«رسالة ابن أبي زيد». وتزوجها شيخ البلد، فتغيَّر حالها بمخالطته[٢].

٣٣- فاطمة ابنة ابن الصائغ الديروطي-رحمها الله تعالى- (بعد ٨٩٦هـ): حفظت القرآن، و«أربعيُّ النووي»، و«نونية السخاوي»، و«مختصر أبي شجاع»، و«الشاطبيتين».. وبرعت في القراءات.. وقد انتفع بها في ذلك جماعة من الرجال والنساء[٣].

٣٤- أمَة الخالق ابنة الزين العقبي -رحمها الله تعالى-(قبل ٩٠٠هـ): أجازت للسخاوي، وحفظت بعض «المنهاج الفرعي»، وجميع «ألفية ابن مالك»[٤].

٣٥- كلثوم ابنة أحمد الأسيوطية-رحمها الله تعالى- (قبل ٩٠٠هـ)حفظت «العمدة» و«أربعيَّ النووي» و«الشاطبية»، و«التنبيه»، و«المنهاج الأصلي» وغيرها، وعرضتها[٥].

٣٦- الشيخة أم الزين المدنية -رحمها الله تعالى- (بعد ١٢٠٠هـ) أبرز شيوخها زوجها. قال عنها ولدها الشيخ إسماعيل: هي شيخة مشايخ الحرمين، حفظت القرآن بالعشر، وخمسة وعشرين متنًا من سائر الفنون، وهي بنت سبع سنين، وجاء بها والدها إلى والدي محمد سعيد، فقال له: أقرئها الكتب الستة والبيضاوي والكشاف[٦].

٣٧- الشيخة حصة المنيف -رحمها الله تعالى- (ت ١٣٣٦هـ) زوجة قاضي الزبير، فقد رحلت بعد وفاة زوجها للتعليم في أقاصي الدنيا، فقد كان يقيم بالهند أحد تجار اللؤلؤ من أهل الزبير، فطلب منهم أن يختاروا امرأة طالبة علم؛ لكي تُدرِّس الصغار من أولاد التجار العرب في مبادئ العلوم الشرعية، والقراءة، فرشَّحوا الشيخة حصة،

(١) هكذا يضبطها السخاوي مرارًا في «ضوئه».
(٢) انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢/١٥).
(٣) المصدر السابق (١٢/١٠٦).
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢/٩).
(٥) المصدر السابق (١٢/١١٨).
(٦) فهرس الفهارس (٢/٩٠٤).

فاشترطت أن تذهب مع طفلها الوحيد، فرحَلَتْ، ومكثتْ تسع سنوات، ودرَّست ونفعَت أولاد المسلمين هناك[١].

٣٨- خديجة العمودي -رحمها الله تعالى- (بعد ١٤٠٠هـ) نسخَتْ كتاب «النهاية» للرملي، ثمانية أجزاء. وقالت في آخر الثامن: فليعذُرني مَن وقف على هذا الكتاب؛ فإني كتبتُه وأنا أُرضع ولدي[٢].

أما المتلذذات من النساء المعاصرات؛ فإنهن كثير -بحمد الله- لأن وسائل التواصل قد أخرجت ثلة طيبة منهن، ولكنهن في الغالب يختفين أو يخرجن بلا أسماء صريحة، والدوافع على الخفاء؛ إما خوف الرياء، أو خوف العين - زعمن-! أو حياءً - والحياء لا يأتي إلا بخير-، أو هروبًا من الشهرة، أو أن المجتمع المحيط لم يُبرِزْهن، فبقِين في محيطهن.

وعلى كل الأسباب المذكورة وغيرها؛ فإن المؤشر يعطيك تفاؤلًا مبشرًا: أن في الأمة خيرًا كثيرًا، وهذه الكليات الشرعية، وهذه المحاضن القرآنية والعلمية الخيرية، التي تُخرِّج من بنات المسلمين طالبات علم لَهِي منطلَق رْحبٌ، للسير في طريق العلم قُدُمًا، وليست الكليات والمحاضن هي النهاية ولا الغاية، لكنها ميدان فسيح، يَهَبُك للعلم مفاتيح.

وإليك الآن سبع نماذج للمتلذذات من المعاصرات:

٣٩- الشيخة موضي بنت عبد الله الجلهم -رحمها الله تعالى- (ت ١٤٣٧هـ) ولدت في عنيزة، ومات والداها قبل أن تتزوج، فتولت رعاية إخوتها السبعة الصغار، وبعد أن تزوجت بزمن يسير تعرضت لحريق؛ احترق على أثره جزء كبير من جسدها، ورقدت في المستشفى عدة أشهر. وعلى رغم توالي تلك المصائب والمصاعب، إلا أنها واصلت مشوارها في الدراسة وبتفوق.

وقد حفظت القرآن والصحيحين. ثم صارت تتابع دروس كبار العلماء، كابن باز

---

(١) النجديون في الهند - إبراهيم المديهش (ص٣١٢).

(٢) تاج الأعراس في مناقب الحبيب صالح العطاس (٢/٥٦٣).

وابن عثيمين والفوزان. كما أوتيت ذكاء حادًا، فربما نقلَتْ من ذاكرتها عن ابن تيمية أو ابن القيم بالجزء والصفحة.

ثم صارت تلقي الدروس النسائية يوميًا إلا يوم الجمعة، طيلة اثنين وعشرين عامًا، حتى في أيام مرضها، ففي سنة ١٤٣٤هـ أصيبت بـ«الغرغرينا» في قدمها، ثم بُترت إلى منتصف الساق، ثم ضعف بصرها شيئًا فشيئًا، ومكثت في المستشفى عدة أشهر، ولم يَثْنِها ذلك عن إلقاء دروسها، فقد كانت تخرج من المستشفى كل يوم أحد؛ لإلقاء درس العقيدة ثم تعود.

وقد أحصي ما شرحَتْ من الكتب، فبلغت خمسة وسبعين كتابًا ومتنًا، ومنها: شرح أبواب من «صحيح البخاري» و«كتاب التوحيد» مرارًا، وشرحت «الواسطية» ثلاث مرات، و«شرح السنة» للبربهاري، و«شرح الطحاوية»، وكتاب «الإيمان» من فتاوى ابن تيمية، و«حائية ابن أبي داود»، و«نونية ابن القيم» وفتح المجيد، و«تيسير العزيز الحميد»، و«القواعد المثلى» لابن عثيمين.

وقبيل وفاتها بشهرين مكثت بالمستشفى، ومع ذلك لم تتوقف عن الإجابة على أسئلة المستفتِيات. وقد توفيت ولم تبلغ الستين عامًا.

٤٠- بدرية الخراشي -رحمها الله تعالى- (ت ١٤٣٩هـ) طالبة العلم المشلولة؛ بسبب حادث أصيبت به أول شبابها عام ١٤٠٥هـ، ولكن ذلك لم يَعُقْها ذلك عن مواصلة طلب العلم، وخدمته.

يحدثني المؤلف الشيخ د. خالد السبت فيقول: «إنها فرَّغَتْ بخط اليد كثيرًا من دروسي الصوتية، وكتبتْ بيدها كتابَيِّ الاثنين: «العذب النمير» للشنقيطي (٧ مجلدات) و«سلسلة أعمال القلوب» (مجلدان). فقلنا لها: نحتاج الكتابة بالحاسب. فراحت تتعنَّى، وتتعلم الكتابة عليه، حتى أتقنت وأنجزتْ كلَّ ما طُلب منها».

٤١- الشيخة المقرئة المعمَّرة المصرية تناظر مصطفى النجولي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ) جلست مدة سبعين عامًا للإقراء بالقراءات العشر، وتوفيت عن سبعة وتسعين عامًا.

٤٢- د. هداية الله الشاش -وفّقها الله-: طالبة علم متخصصة في القرآن وعلومه، وهي مؤلِفةٌ لقرابة خمسين كتابًا، منها: القراء والقارئات في حلب منذ بداية القرن الرابع عشر هجري، وشاركت في تحقيق: «حاشية ابن عابدين» و«إحياء علوم الدين» وفي مراجعة «موسوعة الحديث النبوي». وقد شاركتْ بأبحاثها العلمية في تسعة عشر مؤتمرًا علميًا دوليًا، وحضرتْ أكثر من خمسين مؤتمرًا وملتقى علميًا، في العديد من الدول العربية والإسلامية.

كما أنها تقيم دورات نسائية علمية كثيرة، وتقيم مشاريع تُعنى بالتأصيل العلمي.

٤٣- أُنَيسة بنت الشيخ الألباني: وهي تبلغ الآن سبعين عامًا -حفظها الله تعالى-. وقد برَّت أباها برًا علميًا كبيرًا ونادرًا، وكان أبوها لها شاكرًا. وقد سمَّاها مرارًا في «السلسلة الصحيحة»؛ ممتنًا لله بها. فمن ذلك قوله: لا بد لي من أن أشكر ابنتي أنيسة أم عبد الله -جزاها الله خيرًا، وبارك فيها وفي زوجها وذريتهما- فإنها ساعدتني كثيرًا في تصحيح التجارب، وكتابة بطاقات الفهارس، فوفَّرت عليَّ بذلك وقتًا كثيرًا، وجهدًا عظيمًا[1].

وقال: لا يفوتني أن أقوم بواجب الشكر لابنتي الكبرى «أم عبد الله»؛ فإن لها الفضل في تيسير تصحيح تجاربِ هذا المجلد، ولَفْتِ النظر إلى كثير من الأمور التي قد يسهو عنها أي مؤلف؛ فضلًا عمن بلغ الثمانين من العمر.. فجزاها الله عني خير الجزاء[2].

ومن ثقته بها؛ فقد قال: وقد كلفتُ ابنتي أم عبد الله -بارك الله فيها وفي زوجها وذريتها- أن تتولى بيان ذلك، في كلمة لها تكون ختامًا لهذه المقدمة[3].

وفي مقدمتها على «مختصر صحيح البخاري» وقد فهرستْه وراجعتْه، قالت بعد

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (م ٤/١٥).

(٢) المصدر السابق (٦/٨).

(٣) المصدر السابق (٥/٥).

وفاة أبيها بسنة ونصف: أودّع آخر عمل لي عملت به مع والدي.. وعزائي أن له في ذاكرتي مشكاةً هو مصباحها، تضيء حياتي[١].

٤٤- طالبة علم في السعودية -وفّقها الله-: تحفظ عددًا من المتون، فقد حفظت «عمدة الأحكام» ثم «بلوغ المرام» ثم «الجمع بين الصحيحين» لشيخنا يحيى اليحيى، واجتازت مستويات في الدورات العلمية المكثفة في الحرم النبوي، وقد حضرت عن بُعد عددًا كبيرًا من الدورات الشرعية، ولديها تزكيات من بعض كبار المشايخ بالسعودية، كالبراك والقاسم، وحصلت على عدة إجازات في عشرات الكتب الشرعية في العقيدة والفقه والآداب. ولها مشاركات ومداخلات وندوات علمية وثقافية عبر الإذاعة السعودية، ومن خلال الجمعيات التطوعية النسائية. ولها مكتبة متنوعة من العلوم، وتعكف عليها بضع ساعات يوميًا.

٤٥- طالبة علم أخرى في السعودية -وفّقها الله-: عاشت بين لذات العلم المتنوعة، ومنها: ملازمتها لحلقة القرآن في الدار النسائية، وكثرة سؤالاتها لأهل العلم، ولها مكتبة شخصية، وبرنامج في القراءة، فإذا بدأت كتابًا لم تَدَعْه حتى تُتِمَّه! وهي -إضافة إلى ذلك- ترْأَس لجنة تطوعية تُعنَى بالتعليم والتحفيظ، وقد دخلتْ مضمار الدراسة العلمية العالية في التفسير، كما أنها تشارك في بعض مواقع التقنية العلمية، وتُراجع ما يُعرَض عليها من بحوث ومؤلفات، بل وتكتب -أحيانًا- مقالات تصلح أن تكون خُطَبًا للجمعة، وتنشرها في مواقع التواصل. ومن جِدِّيَّتها في برنامجها العلمي أنها حذفت من جوالها برامج التواصل، لمدة أربع سنوات متواصلة، فانتفعتْ وارتفعتْ.

٤٦- ولأختم ببُشرى كبرى، عن نموذج جماعي ضخم: حيث احتفل «وقْفُ تحفيظ السُّنة بمكة المكرمة» آخر عام ١٤٤٢هـ بتخريج (٣٠٠) حافظة لكتاب «الجمع بين الصحيحين» أو بعضه، وأما (٤٢) منهن؛ فقد حفظْنَ محصَّل دواوين السُّنة الثمانية عشر، ومجموع عدد أحاديثها (٥٣٢٥) حديثًا، وهذه الدواوين قد جمعها شيخنا الحافظ

---

(١) مقدمة مختصر صحيح البخاري للألباني (ص٦).

يحيى بن عبد العزيز اليحيى - حفظه الله تعالى-. حيث تقام لأجلها دورات مباركة، للحفظ بالحرمين الشريفين، تحت إشراف الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام، والمسجد النبوي.

إلماحة:

كان الطرح ولا يزال عن معايب ومثالب المرأة [المرأة والتبرج - المرأة والمعاكسات- المرأة والإعجاب- المرأة وكثرة الخروج إلى الأسواق] في قائمة طويلة لظواهر سلبية.

ولا أحد ينكر وجود هذه الظواهر، ولكن الذي لا يُرتضَى أبدًا أن تُقدَّم المرأة من خلال هذه الصورة القاتمة، ويُنسى الوجه المشرق لها.

وبعضنا لا يعرف من المرأة إلا أنها ناقصة عقل ودين، لا شيء غير ذلك!

أفلا يعلمون أن كثيرًا من علماء الأمة إنما هم نتاج لتربية أمهات؟!

أوَلا يرون النماذج المشرِّفة للعالِمات، والحافظات والمتفوقات؟!

فلننظر بعين الإنصاف والافتخار، ولا نكن متشائمين، وظانين ظن السوء بأننا في زمن مليء بالظلمات، فنيأسَ من التفوق والإصلاح، فندخلَ تحت نهي النبي ﷺ حينما قال: **إذا قال الرجل: هَلَكَ الناس فهو أهلَكُهُمْ**. رواه مسلم(١).



(١) صحيح مسلم (٢٦٢٣). ويُروى بفتح الكاف، ولكن رواية رفع الكاف أشهَرُ. قاله الحميدي والنووي. شرح النووي على مسلم (١٦/١٧٥).

٣٤. ملائكة متلذذون بالعلم:

هذا العنوان العجيب، يُفيدك أن طائفة من الملائكة اصطفاهم ربهم؛ ليكونوا علماء، ومحبّين للعلم، وقريبين من المتلذذين من بني آدم، وشبيه الشيء منجذِب إليه. وإليك إقامةَ البينات على هذه الدعوى من عشرة أوجه:

١. ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحج: ٧٥] ففيها بيان أن المسألة اصطفاء، واجتباء لمن يَصلح للرسالة، ولن يصلح لها إلا عالِم، وأن رسل الله على ضربين: ملَك وبشر[١].

وكذا قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] والملائكة من جملة العالمين؛ لأنك إن اشتقَقْتَ العالَم من العِلم فالملائكة من العلماء[٢].

٢. ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] فقَرَن اسم العلماء باسم الملائكة، كما قَرَن اسم الملائكة باسمه[٣]. كما اختارهم ليكونوا شهداء على أعظم مشهود به، وهو توحيده -سبحانه-. وقد قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾ [النساء: ١٦٦] قال قتادة: شهودٌ والله غير مُتَّهمة[٤].

٣. ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠-٣١] فقد أراد -سبحانه- أن يُظهِر لملائكته أن علمهم شرف لهم، ولكن آدم أشرف منهم بعلمه، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان.

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/٤٥٥).
(٢) الحبائك في أخبار الملائك (ص: ٢٣١).
(٣) شعب الإيمان (٣/٢١٧).
(٤) تفسير الطبري (٩/٤١٠).

وقد جعلهم الله وسائط بينه وبين عباده، في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته، وأفعاله، وأحكامه..وخصهم بوحيه، واختصهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى العالمين نفوسًا، وأشرفهم أخلاقًا، وأكملهم علومًا وأعمالًا(١).

٤. كما أن آدم علَّم الملائكة، فكذلك الملائكة علمت آدم، فالعلم رحِمٌ بين أهله، يتبين لك ذلك في قول النبي ﷺ: **خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَما خَلَقَه قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ**(٢).

ففيه الأمر بتعلم العلم من أهله، والقصد إليهم فيه؛ لأن آدم أمره الله أن يأخذ عن الملائكة ما يُحيُّونه(٣).

٥. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]

فقد تأدبتِ الملائكة، وتذللتْ إعظامًا للعلم وأهله، ورضىً منهم بالطلب له، والشغل به، فشَكر الله لهم تسليمهم، واعترافهم بالجهل بما لا علم لهم به(٤).

ولما قيل للشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ): أما تستحي من كثرة ما تُسأل، فتقول: لا أدري؟ قال: لكن ملائكة الله المقربين لم يستحيوا، حيث سُئلوا عما لا يعلمون، أن: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٥).

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٧٨/١).

(٢) صحيح البخاري (٦٢٢٧).

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٤/٢٩).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٩٢/١٠) وبحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص: ٣٢٨).

فائدة: قال مالك: إذا ذهب الإنسان يريد أن يُعلِّم ما لم يُعَلَّم، فيوشك أن يخسر، وقد أُدِّبْنا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾. تاريخ أبي زرعة (ص: ٤٤٠).

فائدة أخرى: كان شخص يدَّعي المشيخة، فرُفع أمره للقاضي، أنه قال: الأنبياء عرايا عن العلم! لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾. إنباء الغمر بأبناء العمر (٢٢٦/٣).

(٥) أخبار القضاة (٤٢٢/٢).

٦. ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] فالعلم والقوة هما قطب السعادة، وقد وصف بهما -سبحانه- المعلم الأول جبريل -عليه السلام-[١].

قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): جبريل عالِم بكل الشرائع الماضية والحاضرة.. فثبت أن جبريل أعلم، فوجب أن يكون أفضل[٢].

٧. لو لم يكن في العلم إلا القُرْب من رب العالمين، والالتحاق بعالَم الملائكة، وصحبة الملأ الأعلى لكفى به فضلًا وشرفًا[٣].

قال النبي ﷺ: **يَقُولُ اللهُ -تَعَالَى-: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي.. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**[٤].

٨. التشابه والتشاكُل والمحبة بين أهل العلم، وطائفة من الملائكة الموكَّلين بمجالس العلم والذكر: قال رسول الله ﷺ: **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله** -وفي رواية-: **لا يَقعد قوم يذكرون الله ﷻ يتلون كتاب الله، ويَتدارَسُونه بينهم** -يذكرون الله-؛ **إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيَتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**[٥].

(وحفَّتهم الملائكة) أي أحدقوا وأحاطوا بهم؛ تعظيمًا لصَنيعهم[٦].

وقال رسول الله ﷺ: **طَالِبُ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا؛ مِنْ حُبِّهِمْ لِما يَطْلُبُ**[٧].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٢٨/١).

(٢) باختصار وتصرف من: الحبائك في أخبار الملائك (ص ٢٢٠ و٢٢٦).

فائدة: سئل ابن تيمية -رحمه الله تعالى- عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب: قد ذكر جماعة من المنتسبين إلى السنة، أن الأنبياء وصالحي البشر أفضل من الملائكة. وقال: صالحو البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية. قال ابن القيم: وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل. انظر: مجموع الفتاوى (٣٤٤/٤ و٣٥٦) وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤٧٥/٦)وبدائع الفوائد لابن القيم(١٦٣/٣).

(٣) مفتاح دار السعادة (١٠٤/١).

(٤) صحيح البخاري (٧٤٠٥) صحيح مسلم (٢٦٧٥).

(٥) صحيح مسلم (٢٦٩٩ و٢٧٠٠).

(٦) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٠٨/١).

(٧) المعجم الكبير للطبراني (٧٣٤٧) وقد صححه الحاكم، وجوّده المنذري في الترغيب(٥٤/١/٤) وحسنه =

وقال رسول الله ﷺ: **وإن الملائكة لَتَضَعُ أجنحتَها؛ رِضًى لطالب العلم**(١).

قال مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): **يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم، بدلًا من الأيدي**(٢).

ففي هذين الحديثين:

• حَفُّ الملائكة، ووضعها أجنحتها، فالوضع تواضع وتوقير، بترك الطيران لأجل العلم، والحَف حفظ وحماية.

• أن طالب العلم فيه شبه من الملائكة، وبينه وبينهم تَناسُب؛ فإن الملائكة أنصح خلق الله، وأنفعهم لبني آدم.. فأي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء؟!.

• التوقير من الملائكة لطلاب العلم، والاستشعار في أنفسهم تعظيًما لهم، والنظر إليهم بعين المهابة والجلال؛ فضرب المثل بما ضرب؛ تحقيقًا لتلك المعاني!(٣).

٩. حضور الملائكة لخطبة الجمعة ومجالس العلم والذكر، وفرحتهم بمن يتقدَّم في الخير، وبمن يزداد إيمانًا:

قال رسول الله ﷺ: **إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة، يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طَووا الصحف، وجاؤوا يستمعون الذكر**(٤).

وقال رسول الله ﷺ: **إن لله ملائكة [سَيَّاحين في الأرض فُضُلًا]** (٥) **يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادَوا: هلِموا إلى حاجتكم. فيَحُفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا**(٦).

= الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٧٦/٧).

(١) سنن أبي داود (٣٦٤١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٦٤/١).

(٣) الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربشتي (١٠٣/١).

(٤) صحيح البخاري (٩٢٩) وصحيح مسلم (٨٥٠).

(٥) سنن الترمذي (٣٦٠٠).

(٦) صحيح البخاري (٦٤٠٨) وصحيح مسلم (٢٦٨٩).

١٠. فرحة الملائكة بمن يتقدَّم في العلم، وبمن يزداد إيمانًا:

ولذا لما قال رجل بعد ركوع النبي ﷺ: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه. قال: **رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يَبتدِرونها، أيُّهم يكتبها أولُ**(١).

وفي صلاة أخرى قال رجل مستفتِحًا: الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: **لقد رأيتُ اثني عشر ملكًا يبتدِرونها؛ أيهم يرفعها**(٢).

وفي ثالثة دخل رجل الصلاة، فقال: الحمد لله ملءَ السماء. وسبَّح، ودعا، فقال رسول الله ﷺ: **لقد رأيتُ الملائكة تَلَقَّى به بعضهم بعضًا**(٣).

وكما أنهم بالتقدُّم بالعلم يفرحون؛ فكذلك لِفقد العالِم يحزنون. وفي سيرة فخر الدين محمد بن الخضر بن تيمية الحراني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٢هـ) أن امرأة رأته بعد موته في منامها، وكأنها سمعت صوت ضَجَّة من السماء. فقالت: ما هذا الصوت والضجة؟ فقيل: هذا ضجيج الملائكة؛ لأجل انقطاع التفسير، وتعطُّله بالجامع(٤).

ومن المرائي المبشرة بأن الملائكة تتلذَّذ بالعلم هاتان:

١. يعقوب الفَسَوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) رُئِي في النوم، فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وأمرني أن أحدِّث في السماء، كما كنت أحدث في الأرض! فحدَّثتُ في السماء الرابعة، فاجتمع علَيّ الملائكة، واستملى علَيّ جبريل، وكتبوا بأقلام من ذهب(٥).

٢. المؤرخ المحدث شهاب الدين ابن حجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦١هـ) قال: رأيت أبي في النوم، فقال: إنهم يشكرونك، فقلت: من؟ قال: الملائكة، فقلت: بالله! قال: نعم، قال: فاستيقظتُ مسرورًا(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٧٩٩).
(٢) صحيح مسلم (٦٠٠).
(٣) مسند أحمد (٦٦٣٢) وحسنه الأرناؤوط.
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٣/٣٣٣).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/١٦٥).
(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/١٩).

٣٥. جن متلذّذون بالعلم:

هذا العنوان أعجب مما قبله!

وأكثرنا يخاف من مجرد ذِكر اسم الجن، ولِخَفائهم تأتي عنهم العجائب، والواقع أنه ينبغي ألا نخافهم، فهم إخواننا -كما سمَّاهم النبي ﷺ حيث قال: **إخوانُكم من الجن**(١). وهم قد وَصفوا أنفسهم قائلين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾.

هل الجن يطلبون العلم؟!

في الجن علماء، وطلبة علم، وعندهم قدرة على تعلم وإتقان العلوم الحِرَفية، كما قال -سبحانه- عنهم: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: ١٣].

بل يضرب بهم المثل في التيقظ والفطنة، حتى قيل عن الأثرم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٣هـ) أن أحد أبوَيه كان جِنيًا!(٢) وذلك لقوّة حفظه، وسرعة فهمه، وحذقه، وتيقظه العجيب(٣).

وقد كان أربـاب الفصاحة كلما   رأوا حَسَنًا عَـدُّوه من صنعة الجنّ(٤)

ومن الطريف أن ابن كيسان النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٩هـ) قيل عنه: ما رئي مجلس أكثر فائدة، وأجمع لأصناف العلوم من مجلس ابن كيسان، حتى قالوا: هذا الرجل من الجن، إلا أنه في شكل إنسان(٥).

---

(١) سنن الترمذي ت بشار (١٨).

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٦/٢٩٥).

(٣) طبقات الفقهاء (ص: ١٧٠) وتذكرة الحفاظ (ص: ٤٠) والبداية والنهاية ط هجر (١٤/٧٥١) ومغاني الأخيار (١/٣٨).

(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (١/٢٢٢).

(٥) معجم الأدباء (٥/٢٣٠٦).

هل بُعث للجن رسُلٌ منهم، كما للبشر؟

هما قولان لأهل العلم، والراجح أنه: لم يكن لله من الجنّ قطُّ رسول مرسَل، وإنما الرسل من الإنس خاصَّة، فأما من الجن فالنُّذُر(١).

قال مجاهد: الرسل من الإنس، والنُّذُر من الجن(٢).

وفي قصةٍ عجيبةٍ، أن بعض الجن كان له دور في هداية الإنس، ففي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب ﷺ يقصُّ قصة قبل إسلامه، قال: بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعِجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخًا قط أشد صوتًا منه، يقول: يا جَليح، أمرٌ نَجيح، رجل فَصيح، يقول: لا إله إلا الله.. فقمتُ، فما نشِبْنا أن قيل: هذا نبي(٣).

قال ابن حجر: هذه القصة كانت سبب إسلام عمر، فروى أبو نعيم في الدلائل.. وفيه: قال عمر: فقلت في نفسي: إن هذا الأمر؛ ما يُراد به إلا أنا(٤).

هل في الجن صحابة؟

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): يدخل في الصّحابة من رآه ﷺ أو لقيَه مؤمنًا به من الجن(٥).

وقد قرر ابن حجر بتعدد وفود الجن على النبي ﷺ. قال: فأما ما وقع في مكة؛ فكان لاستماع القرآن..وأما في المدينة؛ فلِلسؤال عن الأحكام(٦).

وكل واحد من هذين الحالين مختلف عن الآخر.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (١٢/١٢١). وأما قول الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فقد ذكر الطبري: أن هذه الآية تُشبِه قوله -سبحانه-: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يَخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح، دون العَذْب منهما، وإنما معنى ذلك: يخرج من بعضهما، أو من أحدهما.

(٢) تفسير البغوي (٢/١٦٠).

(٣) صحيح البخاري (٣٨٦٦).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٧/١٨١).

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة (١/١١).

(٦) الفتح (٧/١٧١).

قال ابن تقي الدين الشبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٩هـ): ولا شك أن الجن تعددت وِفادتهم على النبي ﷺ بمكة والمدينة[١].

وقد قابلهم النبي ﷺ مرارًا، فهو الذي أرسل للثقلين الجن والإنس؛ فقد كان لبعضهم معه سيرة عطرة. وخذ أربعة أمثلة نبوية مسرودة:

١- **أتاني وفد جن نَصِيبين، ونِعْمَ الجن**[٢].

٢- **هؤلاء جنُّ نَصيبِين، جاؤوا يختصمون إليّ في أمورٍ كانت بينهم**[٣].

٣- **إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا**[٤].

٤- سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[٥].

وقد مدح الله ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قدموا على النبي ﷺ بمدائح متوالية، تدل على أن فيهم طلبة علم متأدبين بآدابه، ومتلذذين بلذيذ خطابه، كطلبة العلم من إخوانهم الإنس.

فإليك تلك المدائح لإخواننا طلبة العلم من الجن، كما جاءت في سورة الأحقاف والجن:

١. تأدبهم مع الله تعالى- في اختيار الألفاظ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فالشر نسبوه لمجهول، والخير نسبوه لله، والله خالق الخير والشر.

٢. مدَحهم الله، لتعظيمهم للقرآن: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ ولتأدبهم مع القرآن استماعًا، وليس سماعًا ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وتواصيًا، وليس اقتصارًا ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وردًا وليس صمتًا، فقد قرأ ﷺ سورة الرحمن وقال: **لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن**

---

(١) آكام المرجان في أحكام الجان (ص: ٧٧).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦٠).

(٣) مسند أحمد ت شاكر (٤٣٨١).

(٤) صحيح مسلم (٢٢٣٦).

(٥) صحيح البخاري (١٠٧١).

مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمك ربَّنا نكذب، فلك الحمد[١].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم، ومعرفتهم بمؤونة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به[٢].

٣. تتويج هذا الإنصات بالعمل الفوري بلا توانٍ: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وبالدعوة الفورية بعد تلقي هذا العلم الشريف، مولِّين إلى عشائرهم الأقربين: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾. ولاحِظْ بلاغة كلمة ﴿وَلَّوْاْ﴾ وليس ذهبوا!. وأيضًا فهم يكررون الدعوة، كما في قوله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

٤. هؤلاء المستمعون للقرآن في سورة الأحقاف مؤمنون من قبل، وهم علماء متمكنون، حيث انطلقوا من منطلق عقدي وتاريخي، ومن مقارنة تتبُّعية سليمة: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠] قال ابن القيم: وهذا يدل على تمكُّنهم من العلم، الذي تقوم به الحجة[٣].

٥. اعترافهم على أنفسهم، ولو كان به غضاضة عليهم، حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ

---

(١) سنن الترمذي ت بشار (٣٢٩١).
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٢٢).
(٣) المصدر السابق (ص: ٤٢١).

فائدة تأملية:.
قد يقال: إن نفَرَ الجن الذين في سورة الجن يختلفون عن النفر الذين في سورة الأحقاف، ففي سورة الجن كفار أسلموا واهتدوا، كما في قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ٢].
وأما في سورة الأحقاف؛ فهم طلبة علم، ارتحلوا في طلب العلم، قاصدين استماع القرآن من النبي ﷺ على موعد مُبرم، وليجددوا إيمانهم، وليتواصوا الدعوة لقومهم. ويدل عليه قولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٠] ويؤكد هذا لفظة صحيح مسلم (٤٥٠): «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن».

هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ وهكذا طالب العلم الحق؛ يقول الحق ولو على نفسه.

٦. تحصيل العلم عن طريق السماع، وتثبيته عن طريق المبادرة بالعمل به: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

٧. تنافُسهم، بل وتزاحمهم لتلقي العلم من مصدره: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: بعضُهم على بعضٍ.

أحوال الجن مع الأحكام الشرعية:

وهم يحاسَبون يوم القيامة، ويجازَون بجنة أو نار، ولذلك ترجم البخاري في صحيحه فقال: «باب ثواب الجن وعقابهم» لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] أي: ستحضُر للحساب(١).

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): والجن مكلفون كتكليف الإنس.. وأما مؤمنوهم؛ ففيهم قولان، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضًا، ويدخلون الجنة(٢).

وقال: الجن أحياء عقلاء، مأمورون منهيون لهم ثواب وعقاب..فالواجب على المسلم أن يستعمل فيهم ما يستعمله في الإنس، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله(٣).

وقال ابن مفلح -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٣هـ): وتجري على الجِنّي الأحكام

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٨٥).

فائدة: في صحيح البخاري (٣٨٤٩) عن عمرو بن ميمون، قال: رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدة، قد زَنَتْ، فرَجَموها، فرجمتُها معهم. قال الدَّميري في النجم الوهاج في شرح المنهاج (٩/١١٤): وهذا عند العلماء منكر؛ إضافةُ الزنا إلى غير مكلف، وإقامة الحدود على البهائم، ولو صح. لكانوا من الجن؛ لأن العبادات والتكليفات في الجن والإنس، دون غيرهما.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩/٣٩).

الشرعية كالإنسي. ولذا قرر الفقهاء أنه: يُعتبر لصحة صلاته ما يعتبر لصحة صلاة الآدمي، وفي الزكاة والصوم والحج كالآدمي(١).

بل قد سئل أبو البقاء العكبري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٦هـ) عن الجِني: هل تصح الصلاة خلفه؟ فقال: نعم؛ لأنهم مكلفون، والنبي ﷺ مرسَل إليهم(٢).

والجن المسلمون يستمعون للأذان، ويَشهدون للمؤذن على أذانه. قال ﷺ: **لا يَسمع مَدَى صوت المؤذن جن، ولا إنس، ولا شيء، إلا شَهد له يوم القيامة**(٣).

وقد يشربون من ماء السبيل. قال ﷺ: **من حفر ماءً لم يشرب منه كبِد حرَّى؛ من جن؛ ولا إنس؛ ولا طائر إلا آجَره الله يوم القيامة**(٤).

وهل يقع النكاح من رجال الإنس بنساء الجن؟!.

هذا محل اختلاف ونظر. وفي آية الرحمن احتمال قوي، كما في قول ربنا: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤].

ومن الوقائع العجيبة الغريبة ما قاله الدميري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): قد رأيت أنا رجلًا من أهل القرآن والعلم، أخبرني أنه تزوج أربعًا من الجن، واحدة بعد واحدة!.

قال: لكن يبقى النظر في حكم طلاقها، ولِعانها، والإيلاء منها، وعِدتها، ونفقتها، وكسوتها، والجمع بينها وبين أربع سواها، وما يتعلق بذلك. وكل هذا فيه نظر لا يخفى!(٥).

هل الجن يكتبون كما نكتب؟!

قال ابن تيمية: وقد رأيتُ خط الجن غير مرة(٦).

---

(١) انظر: الفروع وتصحيح الفروع (٤٦٥/٢).
(٢) آكام المرجان في أحكام الجان (ص: ٩٩).
(٣) صحيح البخاري (٦٠٩).
(٤) صحيح ابن خزيمة (١٢٩٢).
(٥) حياة الحيوان الكبرى (٣٠٤/١).
(٦) مجموع الفتاوى (٩٤/١٣).

وابن تيمية له في شأن الجن تصانيف عديدة، وعنده في ذلك حكايات عن هذا الضرب؛ لو جمعت لبلغت مجلدات، وهي من أعجب العجب[١].

مربط الفرس: هل في الجن متلذّذون بالعلم؟

نعم، بل وفيهم مُجالِسون لأهل العلم، حتى إن ابن المِبْرَد -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٩هـ) له جزء في الرواية عن الجن، لكنه مخطوط أو مفقود[٢].

فاحتسب وأنت تلقي درسًا أو تخطب خطبة أو خطابًا أن إخواننا الجن يستمعون، وأن أحبابنا الملائكة يتنزَّلون، وللدعاء يؤمِّنون.

ولذا استحبَّ أهلُ العلم لطالب العلم وغيره، أن ينوِي حين سلامه كل عبد صالح، في السماء والأرض، من الملائكة والإنس والجن[٣].

فأما روايتهم للعلم؛ فقد قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): لا شك في جواز رواية الجن عن الإنس ما سمعوه منهم، أو قرئ عليهم وهم يسمعون، سواء علِم الإنسي بحضورهم أم لا، وكذا إذا أجاز الشيخ من حضر أو سمع، دخلوا في إجازته، وإن لم يعلم به[٤].

وإليك ستًا وأربعين قصة من الغابر والحاضر، لمتلذذي الجن بالعلم؛ لبيان نَهَمِهم في العلم والعبادة، وتأدبهم بآداب طالب العلم، ومجالستهم لأهل العلم، وتحاكُمِهم بالشرع:

١. عن عائشة ﵂ (ت ٥٨هـ) أنها ترى جِنَّانًا في بيتها، فأمرت به فقُتل. فأُتيَتْ في النوم، فقيل: قتلتِ عبدَ الله المُسْلِم، فقالت: لو كان مسلمًا لم يطلع إلى أزواج النبي ﷺ

---

(١) المسائل والأجوبة لابن تيمية (ص: ٢٤٧).

(٢) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٦٤/١) فائدة: ابن المِبْرَد قد بلغت مؤلفاته ٦٣٤ ولم يطبع منها إلا ١٨ كتابًا!.

(٣) انظر: معالم السنن للخطابي (٦١/١) ومفتاح دار السعادة لابن القيم (٦٤/١)المسالك في شرح موطأ مالك (١٦٠/٣) الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربشتي (١٠٣/١).

(٤) الأشباه والنظائر للسيوطي (٤١٤/١).

فقيل لها: ما كان يطلع حتى تَجمعي عليكِ ثيابك، وما كان يجيء إلا يستمع، وقيل لها: إنه من النفر الذين استمعوا الوحي من النبي ﷺ فلما أصبحت أمرت باثني عشر ألف درهم، فقُسِّمت في المساكين(١).

٢. التابعي صفوان بن محرز -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤) كان إذا قام إلى التهجد، قام معه سكان داره من الجن، فصلَوا بصلاته(٢).

٣. كان وهب بن منبه -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤هـ) يلتقي هو والحسن البصري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ) في الموسم في كل عام في مسجد الخيف، إذا هدأت الرِّجل، ونامت العيون، فبينا هما ذات يوم يتحدثان مع جلسائهما، إذ أقبل طائر له حَفيف، حتى وقع إلى جانب وهب في الحلقة، فسلَّم، فرد وهب عليه السلام، وعلم أنه من الجن من مُسْلميهم. قال وهب: فما حاجتك؟ قال: أَوَتُنكر علينا أن نجالسكم، ونحمل عنكم العلم؟! إن لكم فينا رواة كثيرة، وإنا لنحضركم في أشياء كثيرة، من صلاة، وجهاد، وعيادة مريض، وشهادة جنازة، وحج، وعمرة، ونحمل عنكم العلم، ونسمع منكم القرآن. فقال له وهب: فأيُّ رواة الجن عندكم أفضل؟ قال: رواة هذا الشيخ. وأشار إلى الحسن(٣).

٤. خرج شيخ في نزهة، ومعه صاحب له، فبعثه في حاجة، فأبطأ عليه، فلم يَرَه إلى الغد، فجاء إليه وهو ذهِلُ العقل، فكلموه، فلم يكلمهم إلا بعد وقت، فقالوا له: ما شأنك؟ وما قصتك؟ فقال: إني دخلت إلى بعض الخراب؛ أبول فيه، فإذا حيةٌ، فقتلتُها، فما هو إلا أن قتلتها حتى أخذني شيء، فأنزلني في الأرض، واحتوَشَني جماعة، فقالوا: هذا قتل فلانًا فلنقتله! فقال بعضهم: امضوا به إلى الشيخ. فإذا شيخ حسن الوجه، كبير اللحية، أبيضها، فقال: ما قصتكم؟! فقصوا عليه القصة، فقال: في أي صورة ظهر؟ قالوا:

---

(١) مسند الحارث (٤٨٥/١) والعظمة لأبي الشيخ (١٦٥٥/٥). قال محققو المطالب العالية (٦٦٩/١٠): إسناده صحيح. وانظر: آكام المرجان في أحكام الجان (ص: ١٠٣). والجِنَّان الحية الصغيرة.

(٢) تهذيب التهذيب (٤٣٠/٤).

(٣) الهواتف = هواتف الجنان لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٠).

في حيةٍ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ليلة الجن: **ومن تصوَّر منكم في صورة غير صورته، فقُتل، فلا شيء على قاتله. خلُّوه فخلَّوا سبيل الرجل**(١).

٥. قال محمد بن أبي كبشة -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٠هـ): كنت في سفينة في البحر، فسمعت هاتفًا يهتف وهو يقول: لا إله إلا الله! كذب المريسي على الله(٢).

٦. قال الأعمش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٨هـ): تروَّح إلينا جِنِّي، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز. فأتيناه به، فجعلتُ أرى اللُّقَم تُرفع ولا أرى أحدًا! فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضة فيكم؟ قال: شرُّنا(٣).

٧. كانت الجن تقرأ على المقرئ حمزة الزيات -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٦هـ) وذكروا أن حمزة قال: بينا أنا ذات ليلة أقرأ، إذ سمعت هاتفًا يقول: ناشدتك الله يا أبا عمارة! إلا أنصَتَّ إليّ حتى أقرأ عليك، فقرأ عليَّ سورة النجم، فلما فرغ قلت: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا وَرْدان؛ رجل من الجن، كنت آتيك بالكوفة، فأجلس عن يمينك، فأتعلَّم(٤).

٨. خرج إبراهيم بن أدهم -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٢هـ) إلى مكة، ومعه أربعة رفقاء، فاكترَوا بيتًا بالمدينة ونزلوا فيه، فقال إبراهيم: خدمة البيت وما يصلحنا لمعاشنا كل يومٍ على رجل منا، والثلاثة يذهبون إلى المسجد، فرجع إبراهيم وبصحبته رجل معه مِزْوَد على عنقه، فكان معهم في البيت أيامًا، فإذا حضر غداء أو عشاء تنحَّى ناحية، وخلا بمِزْوَدِه، وإبراهيم في كل ذلك لا يدعوه، ولا يسأله أن يأكل معهم، فقال بعض أصحابنا: واللهِ لأفتحن هذا المِزْوَد، فأنظر أي شيء فيه، ففتحته، فإذا فيه عظام، فأخبروا إبراهيم، فغضب وقال: ما أحسبك تصحبني في سفر بعد هذا، ذاك رجل من

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/٢٢)، والحديث لا يصح بلا شك.
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٨/٢٠).
(٣) تفسير ابن كثير ت. سلامة (٨/٢٤٢) وآكام المرجان في أحكام الجان (ص: ١٠٩) قال المِزي: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش.
(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦/٢٨٥٦).

الجن، وأخانا في الله، فليس من بلد أدخله إلا جاءنا، فكان معي فيه يؤنسني ويعينني، ثم ينصرف. فمات الرجل الذي نظر في مِزْوَدِه بالمدينة[١].

٩. محمد بن عبد الله بن علاثة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٨هـ) يقال له: قاضي الجن؛ وذلك أن بئرًا كان من يشرب منها خبَطَته الجن، فوقف عليها، فقال: أيها الجن! إنا قد قضينا بينكم وبين الإنس، فلهم النهار ولكم الليل. فكان الرجل إذا استسقى منها بالنهار لم يُصبه شيء![٢].

١٠. كان عبد العزيز بن سلمان العابد -رحمه الله تعالى- (بعد ١٧٠هـ) إذا قام من الليل ليتهجد، سُمعتْ في الدار جَلَبة شديدة، واستقاء للماء الكثير، فكانوا يرَوْن أن الجن يستيقظون للتهجد، فيصلون معه[٣].

١١. محمد بن سلَام البيكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٥هـ) كان في منزله، فدُق بابُه، فخرج فقال: يا أبا عبد الله، أنا جِني رسول ملك الجن إليك، يسلم عليك ويقول: لا يكون لك مجلس، إلا يكون منا في مجلسك أكثر من الإنس. قال الراوي: هذه حكاية عندنا مُسْتفيضة مشهورة[٤].

١٢. قال أحمد بن نصر الخزاعي-رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ): وقع مصابٌ بالصرع، فقرأت في أذنه، فكلمتني الجِنِّية من جوفه، فقالت: يا أبا عبد الله! دعني أخنقه؛ فإنه يقول القرآن مخلوق[٥].

١٣. عون الخزاعي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٩هـ) قال: كنت أجهر بالقراءة في الليل، فسمعت قراءة جار لي من الجن، يقرأ معي في سورة الرعد[٦].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٩٤/٧).
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٣٧٩/٣).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٤٥/٦).
(٤) تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للذهبي (١٢٧/٨).
(٥) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٣٨٣/٥) وطبقات الحنابلة (٧٩/١).
(٦) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٩٠/٤).

١٤. قال أبو عمران التمار -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٦هـ): غدوت يومًا قبل الفجر إلى مجلس المقرئ الحسن الحفري -رحمه الله تعالى- وإذا باب المسجد مغلق، وإذا الحسن جالس يدعو، وقوم يؤمنون على دعائه. قال: فجلست حتى جاء المؤذن، فأذن وفتح باب المسجد، فدخلت؛ فإذا الحسن جالس وحده، وَجهه إلى القبلة، فجلست حتى صلى الصبح وتفرق الناس عنه، فقلت له: رأيت عجبًا اليوم! فقال: وما الذي رأيت؟ قلت: جئت قبل الفجر وأنت تدعو، وقوم يؤمِّنون على دعائك، ثم دخلت؛ فما رأيت في المسجد غيرك. فقال: أولئك جنٌ من أهل نصِّيبين، يشهدون معي ختمة القرآن كل ليلة جمعة، ثم ينصرفون(١).

١٥. كان فتى يغشى مجلس سحنون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) ذو سكينة وصمت، لا يتكلم. فإذا كان آخر المجلس سأله عن ثلاث مسائل أو نحوها، ولا يعرفه أحد من الطلبة، فشغل أحد الطلبة نفسه به، وأتبعه حتى خرج. فسأله: من أنت؟ فقال: ها هنا قوم من صالحي الجن، فهم يرسلونني أسأل عن دينهم، وما يحتاجون إليه، وكنت أغشى مجلس سحنون أسأله، فقد حرمتني المسائل. ثم غاب عن المجلس بسبب ذلك(٢).

١٦. قال رجل: لي جار من الجن -جزاه الله عني خيرًا- إني لأقوم من الليل أقرأ، فيُسايرني بالقراءة. فقال سحنون: وأنا أجد ذلك آخر الليل(٣).

١٧. قال سلمة بن شبيب النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٧هـ): بعتُ داري بنيسابور، وأردت أن أتحول إلى مكة بعيالي؛ أجاور بها، فلما فرغت الدار قلت: أصلي ركعات، وأودع عُمَّار الدار، فصليت ركعات، ثم قلت: يا عُمار الدار! سلام عليكم، فإنا خارجون إلى مكة، نجاور بها. فسمعت هاتفًا من بعض البيوت: وعليك

(١) المجالسة وجواهر العلم (٢/٢٦٠) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/١٤٠).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/٨٣).
(٣) المصدر السابق (٤/٩١).

السلام يا سلمة! ونحن -واللهِ- خارجون منها؛ فإنه بلغنا أنه اشتراها رجل يقول: القرآن مخلوق! ونحن لا نقيم في مكان يُقال فيه: القرآن مخلوق[١].

١٨. قال الزاهد الجنيد بن محمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٩هـ): أدَّيتُ وِرْدي، ووضعت جنبي لأنام، فرأيت كأن هاتفًا يهتف بي: إن شخصًا ينتظرك في المسجد. فخرجت فإذا شخص واقف في سواء المسجد، فقال لي: يا أبا القاسم، متى تصير النفس داؤها دواؤها؟ قلت: إذا خالفت هواها صار داؤها دواءها، قال: قلت هذا لنفسي، فقالت: لا أقبل منك حتى تسأل عنه الجنيد، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان الجِني، وقد جئت إليك من المغرب[٢].

١٩. من العجائب المُبْهِرة أن الجن لهم اعتناء بكتاب سيبويه! فقد مرَّ آنفًا قصة رؤيا ابن كيسان -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٩هـ) حيث قال: رأيت جماعة من الجن يتذاكرون الفقه، والحديث، والحساب، النحو، والشعر، فقلت لهم: أفيكم علماء؟ قالوا: نعم، فقلت -من همي في النحو-: إلى من تميلون من النحويين؟ قالوا: إلى سيبويه[٣].

٢٠. إبراهيم بن نصر الكرماني -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٨هـ) دخل عليه سبعة أنفس، ثيابهم شعورهم، وعيونهم مشقَّقة بالطول حُمر، فسلموا، فقرأ واحد منهم عليه سورة طه، والآخر سورة الفرقان، وتلقَّن منهم الآخر شيئا من سورة الرحمن، ثم مضوا، فسأله تلميذه عنهم. فقال له: لا تخفْ! هؤلاء الجن جاؤوا من الرومية[٤].

٢١. قال محمد بن مخلد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣١هـ): قدمت من مكة، فدعَتْني نفسي إلى أمر سوء، فسمعتُ هاتفًا من ناحية البيت: ويْلَكَ؛ ألم تحجَّ؟! فعصمني الله ﷻ إلى الساعة[٥].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٨/٢٢).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٧٤/١٠).
(٣) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري (ص: ٥٦). وقد مرت هذه القصة لمناسبة أخرى.
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣٩/٧).
(٥) الهواتف لابن أبي الدنيا (ص: ١٣٦).

٢٢. أبو الحسن الخِلَعي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٥هـ) قال عنه أحد تلاميذه: كنت أتردد إلى الخِلعي، فقمت في ليلة مقمرة، فإذا على باب مسجده فرس حسنة، فصعدت، فوجدت بين يديه شابًا لم أرَ أحسن منه، يقرأ القرآن، فجلست أسمع إلى أن قرأ جزءًا، ثم قال للشيخ: آجرك الله. قال: نفعك الله. ثم نزل، فقال: هذا من مؤمني الجن، يأتي في الأسبوع مرة، يقرأ جزءًا، ويمضي[1].

وكان الجن يأتون إلى الخلعي، ويقرؤون عليه، فأبطؤوا عنه جمعة ثم أتوه، فسألهم عن ذلك، فقالوا: كان في بيتك شيء من الأترُجّ، وإنا لا ندخل بيتًا هو فيه[2].

٢٣. الفقيه الفرضي إسحاق الصروفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٠هـ) كان يقرأ عليه رجل من الجن، فلما كان ذات يوم أتاهم رجل محنِّش -وهو الذي يُمسِك الحنشات والحيات بيده فلا تضره- فقال الجني للشيخ إسحاق: أتمثَّل لهذا ثعبانًا، وانظر ما يكون منه، فكرِه الشيخ ذلك منه، فلم يَقبل منه، فتصوَّر الجني ثعبانًا، فعزم الراقي عليه حتى أمسكه في جُونته، فطلب الشيخ منه أن يطلقه، فتعسر عليه ساعة، فأطلقه من جونته، فغاب الجني، ومكث خمسة عشر يومًا، فعاد إلى الشيخ وفيه آثار من نار، فسأله عن ذلك فقال: إنه لما عزم عليَّ أردت أن أخرج، فكانت نار تلفحني من كل جهة، ولا أرى موضعًا خاليًا من النار، فدخلتها كارهًا، فهذه الآثار من تلك النار[3].

٢٤. سلمان الأنصاري النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٢هـ) زاره أحد تلاميذه، فإذا الباب مردود، وهو يتحدث مع واحد. قال التلميذ: فوقفت ساعة، وفتحت الباب؛ فما كان في الدار أحد غيره، فقلت: مع من كنت تتحدث؟ فقال: كان هنا واحد من الجن كنت أكلمه[4].

٢٥. حكى ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) فقال: كان عندنا دار؛ كلما سكنها ناس أصبحوا موتى! فجاء -مرة- رجل مقرئ، فقال: أَكْرُوني إياها. فقالوا: قد

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧٦/١٩).

(٢) حياة الحيوان الكبرى (٣٠٧/١).

(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١٢٨/٣) والسلوك في طبقات العلماء والملوك (٢٤٦/١).

(٤) طبقات الفقهاء الشافعية (٤٧٨/١).

عرفتَ حالها؟ قال: قد رضيت. فبات بها وأصبح سالمًا. فعجِب الجيران، وأقام بها مدة ثم انتقل، فسئل عن ذلك، فقال: لما دخلتُها صليت العشاء، وقرأت شيئًا، وإذا بشاب قد صعد من البئر، فسلَّم عليَّ، فبُهِتُّ، فقال: لا بأس عليك، علمني شيئًا من القرآن. فشرعتُ أعلمه، فلما فرغتُ قلت: هذه الدار كيف حديثها؟ قال: نحن قوم من الجن مسلمون، نقرأ ونصلي، وهذه الدار ما يَكتريها إلا الفساق، فيجتمعون على الخمر، فنخنقُهم(١).

٢٦. أبو الحسين يحيى الملحمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٨هـ) اشتهر عنه أنه كان يُقرىء الجن، فكان إذا تهوَّر الليل يخرج عن القرية، فيتوضأ بماء، ثم يصِلُه جماعة من الجن، فيقرؤون عليه(٢).

٢٧. حسن بن علي المسيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) كانت الجن تقرأ عليه(٣).

٢٨. الفقيه أبو محمد ابن أبي حسان الشيباني -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٨١هـ) كان يصحب الجن، ويقرؤون عليه، وله معهم أخبار يتناقلها أهل قريته(٤).

٢٩. الفقيه محمد بن الهرمل -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٨هـ) كان وقت القراءة يرفع رأسه إلى السقف، إلى حنشٍ مخرِج رأسه شبه المستمع، وهذا دأبه حتى تنقضي القراءة، فيدخل رأسه، ولما طال ذلك أُخبر به الفقيه فقال: هذا رجل من فقهاء الجن، قرأ عليّ «المهذب» و«التنبيه»(٥).

٣٠. الفقيه أبو شعبة الحضرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) أتاه تلميذه ليقرأ عليه، فلما صار على باب المسجد سمع متحدثين يتحدثون مع الفقيه، فتنحنح، فلما دخل لم يجد أحدًا غير الفقيه، فقال: يا سيدي! سمعت معك مراجعة حديث. فقال

---

(١) تاريخ الإسلام (٣٥/٣٥٥).
(٢) السلوك في طبقات العلماء والملوك (١/٢٩١).
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٥٥).
(٤) السلوك في طبقات العلماء والملوك (١/٣٢٩).
(٥) المصدر السابق (٢/١٥٧).

له: أو قد سمعت ذلك؟ قال: نعم. فقال: عندي جماعة من إخوانكم الطلبة من الجن، يسألوني عن مسائل، ويراجعوني وأراجعهم(١).

٣١. المقرئ محمد بن عبد الله اليعلوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٨هـ) اشتهر عنه أنه كان يُقرئ الجن(٢).

٣٢. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) عن أحد أمراء الترك: إنه قد انقطع عن أصحابه وعطش، وخاف الموت، فأتاه جِنِّي في صورة إنسي! وسقاه ودعاه إلى الإسلام، ودلَّه على الطريق، وقال له ذلك الشخص: أنا ابن تيمية. فلم يشكَّ ذلك الأمير أني أنا هو.. وكنت في الحبس؛ فاستعظموا ذلك، وأنا لم أخرج من الحبس، ولكن كان هذا جِنِّيًا يحبنا، فيصنع بالتُرك التتر مثل ما كنت أصنع بهم، لما جاءوا إلى دمشق: كنت أدعوهم إلى الإسلام، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتُهم ما تيسر، فعمل معهم مثلما كنتُ أعمل، وأراد بذلك إكرامي؛ ليظن ذاك أني أنا الذي فعلتُ ذلك(٣).

فيا عجبًا لابن تيمية! حتى الجن تحبه، وتقترب منه، وتقتدي به! أتلومهم؟!

فيا أيها العالِم: احتسب عند الله، أنه ليس الإنس -فحسب- يهتدون بهدْيِك، بل حتى الجن! فاقْدُرهم قَدْرهم، وانوِ أن تعلمهم؛ فإنهم يرَونك من حيث لا تراهم، ويتعلمون وأنت لا تشعر.

٣٣. المقرئ ابن عبد الصمد اليماني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٢هـ) أقرأَ الناس، حتى إن الجن كانوا يقرؤون عليه(٤).

٣٤. إمام الأزهر عثمان بن عبد الرحمن البلبيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) قال ابن حجر: سمعت منه أن الجن يقرؤون عليه، من حيث لا يراهم(٥).

---

(١) المصدر السابق (٢/٤٢١).
(٢) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (١/٣١٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٩٢).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/٢٣٠) وغاية النهاية في طبقات القراء (٢/٢٩).
(٥) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣/١٧٣).

٣٥. إبراهيم بن موسى المصمودي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) قال بعض صالحي أصحابه: كنت جالسًا معه في بيته، ليس معنا أحد، وهو يقرأ القرآن، ويشير بقضيب في يده إلى محل الوقف ضاربًا، على عادة أشياخ التجويد، فقلت في نفسي: لِمَ يفعل هذا؟ أتراه يقرأ عليه أحد من الجن؟ فأشار إليَّ أن الجن يجوِّدون عليه القرآن(١).

٣٦. ذكر السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) قصة غريبة جدًا، رواها أحد شيوخه مرارًا، وأردف قائلًا: واللهُ أعلم بصحتها. قال: إن شيخًا بالصالحية اختطفه الجن؛ بسبب أنه قتل وزغةً بجامع الصالحية، فاختطفه جماعة من الجن، كلٌّ يدعي أنه قاتل قريبه، فلقَّنه شخص طلب شرْعَ الله، فصاح بقوله: شرْعُ الله! شرْعُ الله! فأُحضر إلى قاضيهم، جالسًا على كرسي، وعلى رأسه بُرْنُس، فسأل القاضي المدعي: في أي صورة ظهر قريبك؟ فقال: في صورة وزغة. فالتفت إلى مَن عنده، وقال: ألَمْ يخبرنا علي -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: **من تزيَّا بغير زَيِّه، فقُتل، فدمه هَدَرٌ**؟! دعُوه. ثم سأله: هل تُحسن قراءة القرآن؟ فقال: نعم. فعرض عليه أن يقِيم عندهم؛ ليعلِّمَهم، فأبى(٢).

٣٧. ابن أبي الحمائل السروي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣٢هـ) يُذكر أنه اجتمع بجنِّي تابعي، من أصحاب بعض الجن، من الصحابة الذين اجتمعوا بالنبي ﷺ وأقرأهم بعض القرآن، وكان يقول لمن يعتني به من أصحابه: أجزتك بما أجازني به فلان الجني التابعي، بما أجازه به شيخنا فلان الجني الصحابي، وكذا تلقَّينا عنه(٣).

٣٨. الوزان الكمادي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٠هـ) كان يُقرىء الجن(٤).

٣٩. الشيخ ياسين المالكي -رحمه الله تعالى- (نحو ١٠٦٠هـ) اشتهر أنه يُقرئ الجن(٥).

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٥).

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١/٢٦).

(٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/٢٩) فهرس الفهارس (١/٣٣٧). قال الكتاني: وهذا وإن لم يَثبت به حكم عند المحدثين، لكن يُتبرك به (!) من مثل هذا العارف.

(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٠٧).

(٥) مشيخة أبي المواهب الحنبلي (ص: ٤).

٤٠. محمد السروري المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٩هـ) كان تأتي إليه الجن وقت الاضطجاع، تأخذ عنه العلم، فأقلَقوه، فذكر أمره لأحد الصالحين، فأمره أن يطلب منهم شيئًا من أمر الدنيا، فلما فعل ذلك انكفُّوا عنه، ولم يعودوا إليه[١].

٤١. من العجائب هذان المصنَّفان في استفتاءات طلبة العلم من الجن لعلماء الإنس:

- كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، للشعراني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٣هـ) ذكر فيه: أن حامل الأسئلة، دخل عليه في صورة كلب، في فمه ورقة، مكتوب فيها ثمانون مسألة، سألني عنها مؤمنو الجان، وطلبوا مني الجواب[٢].
- عمر الحسيني السلقاني (ت. بعد ١١٠٧هـ) من تصانيفه: مرشد الحيران في حلّ مشكلات إخواننا علماء الجان[٣].

٤٢. الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) نقل عن أحد معاصريه نقلًا قال عنه: خبر عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه وجد في جبل قيسون من جبال الشام رجل من الجن، يقال له قاضي الجن، واسمه شمهورش، وأنه أدرك الإمام البخاري وأخذ عنه، وأن الجن بالشام حنفية، وأن اعتمادهم في الفقه على مؤلَّفَين هما «الدرر والغرر» و«الدر المختار»[٤].

٤٣. محمد عبد الرزاق الفرنكي -رحمه الله تعالى- (نحو ١٣٠٠هـ) من غرائبه روايته لنيِّف وأربعين حديثًا، عن القاضي «مهنية الجني»! وقال: هو من جن نصيبين، عن النبي ﷺ[٥].

٤٤. المحدث اليمني أبو عبد الرحمن مُقبل بن هادي الوادِعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٢هـ) وجَّه نصيحة لأهل السنة من الجن، فقال: ننصح أهل السنة من الجن

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤١٤/٣).
(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١٤٨٨/٢).
(٣) معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (٢٢٦٧/٣).
(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤٠٧/١).
(٥) فهرس الفهارس (٧٤٢/٢).

بالتفقه في دين الله، وننصحهم أن يحضروا دروس العلم، ولعل بعض الناس يظنون أنهم لا يحضرون دروس العلم، ولا يَمنع أن يحضر الجن حلقات العلم. وقد أخبرني أخ أنه عالج شخصًا مصروعًا، فقال له: أنت تقرأ علي، وأنا من تلاميذ مقبل الوادعي؟! ونقول لهم: مرحبًا بهم، فالذي يحضر من الجن يكون متأدبًا، ويستفيد، ويرجع ويبلِّغ قومه، ولا يؤذي إخوانه فلا بأس، ويتعلم علما يَعمل به، ويدعو إلى الله[1].

ثم ذكر الوادعي قصَّتين عنهم، فقال:

٤٥. رجل كان يدرِّس في الرياض، وتأتيه فتاة جِنِّية، حفظتْ عليه القرآن، فكانت تجلس خلفه[2].

٤٦. الشيخ عبد الله بن محمد الدخيِّل -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٤هـ) كان يُدرِّس في حلقات العلم، فما شعر ذات يوم إلا وصوت يقول: يا شيخ! يا شيخ! والحضور لا يدرون مَن المتكلم، فقال الشيخ: نعم؛ ماذا تريد؟ فقال الجني: أصحابك هؤلاء، من أتى منهم رمى بعصاه، وهي لا تقع إلا علينا[3].

وبعد هذه القصص الست والأربعين المستجِنَّة المذهلة، والمواقف المحفِّزة لمن اختفَوا عن أنظارنا:

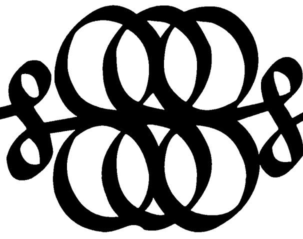
فإني أدعو إخوانيَ طلبةَ العلم من الجن، أن يجتهدوا بتحصيل العلم ونشره؛ فهو خير مشتغَل، فإن تلذذوا به فسيَنْسَون كل لذة بعده. وعليهم أن يُنشِّئوا شبابهم على العلم؛ فإنه خير عاصم من الفتن والأهواء والأدواء.



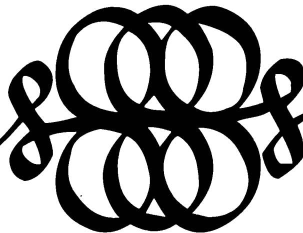
(١) تحفة المجيب على أسئلة الحاضر والغريب للشيخ مقبل الوادعي (ص: ٣٦٥).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣٦٦).

(٣) المصدر السابق (ص: ٣٦٦). وتسمية الشيخ باسمه أفدتُها من مقطع مرئي لأحد طلبة العلم.



الباب السابع:
لذة القراءة والإقراء والسماع والجرْد والتكرار للعلم



٣٦. لذة قراءة وإقراء القرآن الكريم

قراءة القرآن هي أصل ومبدأ كل قراءة تقرؤوها، وأسبق وأنفع من سائر الكتب.

قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): وإن كتابنا القرآن لهُوَ مفجِّر العلوم، ومَنبعها، ودائرة شمسها، ومَطلعها[١].

نُـور العلوم من القرآن والخبرِ الأصـل هـذان وهي الفرع فاعتبرِ[٢]

وحال سابقينا مع القرآن مثل حال غالبنا مع الجوال؛ لأنهم وَجَدُوه:

نِعْـمَ السَّمِير كتاب الله إن له حـلاوة هي أحلى من جَنى الضَّرَبِ

لطائفٌ يَجتلِيها كل ذي بصر وروضـةٌ يَجتنِيها كل ذي أدبِ[٣]

فاستعاضوا بكلام الملِك العلّام عن كلام عامة الأنام، فأغناهم وأشبعهم وأرواهم.

قال عثمان بن عفان ﷺ (ت ٣٥هـ): لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا[٤].

وهو لذة في قربة، فأي شيء يريد العبد إلا أن يجتمع له هذان؟!

وقال خباب بن الأرت ﷺ (ت ٣٧هـ): تقرَّبْ إلى الله بما استطعت؛ فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحبَّ إليه من كلامه[٥].

وهو أحد اللذات الثلاث للعابدين.

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ): تفقَّدوا الحلاوة في ثلاث؛ في الصلاة، وفى القرآن، وفى الذكر، فإن وجدْتُموها فامضُوا وأبشِروا، فإن لم تجِدوها فاعلم

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/١٦).

(٢) معجم الشيوخ الكبير للذهبي (١/١٢٣).

(٣) تفسير الألوسي (١/٤).

(٤) شعب الإيمان (٣/٥٠٩).

(٥) معجم الصحابة للبغوي (٢/٢٧٣).

أن بابك مغلق[١].

إنْ كــنــتَ تــزعُــم حُــبّــي فــلِــمْ هــجــرتَ كــتــابــي
أمــا تــأمّــلــتَ مــا فيــهِ مِــن لــذيــذِ خــطــابــي[٢]

والتلذذ بالقرآن درجات متفاوتات.

قال سالم الخوَّاص -رحمه الله تعالى- (بعد ٢١٣هـ): كنت أقرأ القرآن، ولا أجد له حلاوة، فقلتُ لنفسي: اقرئيهِ كأنكِ سمعتِيه من رسول الله ﷺ، فجاءت حلاوة قليلة! فقلت لنفسي: اقرئيهِ كأنكِ سمعتِيه من جبريل -عليه السلام- حين يُخبِر به النبي ﷺ. فازدادت الحلاوة، ثم قلتُ لها: اقرئيهِ كأنكِ سمعتيه حين تكلم به. قال: فازدادت الحلاوة كلها[٣].

فإن قلتَ: أعطني ميزانًا أزِنُ به مقدار تلذُّذي القرآني.

فيقال: هذا ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) يعطيك ميزانًا تزِن فيه مقدار لذَّتك بكتاب ربك، فيقول: انظر إلى محبة القرآن من قلبك، والتذاذكِ بسماعه أعظمَ من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أنّ من أحبّ محبوبًا كان كلامه وحديثه أحبَّ شيءٍ إليه. وكيف يشبع المحِبُّ من كلام محبوبه، وهو غاية مطلوبه؟! فلمُحبّي القرآن من الوَجد والذوق، واللذة والحلاوة، والسرور أضعافُ ما لمُحِبِّي السماع الشيطاني[٤].

والموفق هو من وفَّقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكره، فهو يرتع منه في رياض، ويكرع منه في حياض. يملأ القلوب بِشرًا، ويبعث القرائح نَشرًا.

قال الزركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ): من لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يُدرِك من لذة القرآن شيئًا[٥].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٧١/٦).
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص: ١٥٤) للكلاباذي (ت ٣٨٠هـ).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٧٩/٨).
(٤) الجواب الكافي ط. عالم الفوائد (٥٤٩/١ و٥٥١).
(٥) البرهان في علوم القرآن (١٥٥/٢).

لذة تعلُّم القرآن الكريم وتعليمه وتلاوته وحفظه:

على المتلذِّذين بالكتب أن يكون لهم حزب يومي، من تلاوة كلام رب العالمين، الذي هو أم الكتب، وأبو العلوم كلها.

قيل لمحمد بن وضاح -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٦هـ): أوصِني -رحمك الله-. فقال: أوصيك بتقوى الله ﷻ، وبر الوالدين، وحزبك من القرآن؛ فلا تَنْسَه(١).

فمن انشغل بالقراءة عن القرآن فسيؤثر ذلك على قلبه وإقباله.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): مَن أكثرَ مِن سماع القصائد؛ لطلب صلاح قلبه، تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما يَكرهه(٢).

وإذا كان الكفار يتلذذون بقراءة وسماع القرآن؛ فكيف بالمسلم الموحد، بَلْه طالب العلم المتدبِّر؟!

ومن القصص العجائب في قراءة هذا القرآن: أني قرأت في الشبكة العنكبوتية، أن أعجميًا فرنسيًا ملحدًا يقول: «تضم مكتبتي آلاف الكتب، التي لم أقرأها أكثر من مرة واحدة، ولكن هناك كتاب واحد تؤنِسُني قراءته دائمًا، هو كتاب المسلمين القرآن، فكلما أحسست بالإجهاد طالعتُ القرآن».

ومستشرق نصراني لبناني شهير، اسمه «سمير عطا الله» قال في مقابلة مرئية: إنني يوميًا أقرأ القرآن، فأجِد الراحة، وأكثر مسموعاتي في سيارتي وبيتي؛ إنما هي للقراء المشهورين، لا سيما المنشاوي، وأحفظ الكثير من الآيات؛ لتعلقي القديم بالقرآن منذ الصِبا(٣).

أما المكثرون من ختمات القرآن على أنفسهم طيلة أعمارهم؛ فهم العَجَب العجاب، وقبل أن أسرد لك بعض نبأهم، فتأمل هذه المحصلة الحسابية، حتى تستوعب الأرقام الألفية لختمات الصالحين السالفين.

---

(١) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ١٢).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢١٧).
(٣) رأيته يقوله في مقطع مرئي متداول.

- من يختم كل أسبوع فإنه سيختم سنويًا ٥٢ ختمة، وخلال خمسين سنة سيختم ٢٦٠٠ ختمة.
- من يختم كل ثلاثة أيام فسيختم سنويًا ١٢١ ختمة، وخلال خمسين سنة سيختم ٦٠٠٠ ختمة[١].

نماذج عجيبة مختارة للمكثرين من الختمات القرآنية، والقراءة بالإجازة على المقرئين:

١- لما نزل بابن إدريس -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٢هـ) الموت بكت ابنته، فقال: لا تبكي، فقد ختمتُ في هذا البيت أربعة آلاف ختمة[٢].

٢- نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب -رحمها الله تعالى- (ت ٢٠٨هـ) قرأت ستَّة آلاف ختمة[٣].

٣- الولي الشيخ علي بن الحسن الواسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٧هـ) تلا أزيد من أربعة آلاف ختمة[٤].

٤- المقرئ محمد بن غالب الأنماطي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٤هـ) أخذ القراءة عرضًا عن شجاع، عن أبي عمرو، قرأ عليه عشر ختمات؛ ثلاثًا بالإدغام، وسبعًا بالإظهار[٥].

٥- أبو الفضل صالح بن محمد الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٣هـ) يقول: قد ختمتُ أربعة آلاف ختمة[٦].

---

(١) وما زاد عن هذا العدد، فالظاهر أنه من المبالغات - والله أعلم-. وفي كتب التراجم شيء من هذا، ففي تاريخ بغداد (١٢٢/١٥) أن أحمد الدارقَزّي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) ختم ١٠٠٠٠ ختمة، وفي التحبير في المعجم الكبير (٣٩٠/١) أن أبا الفضل الخمقري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) ختم ١٤٠٠٠ ختمة!.

(٢) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٤٢٦/٩) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٠٥/٩).

(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٩٤٩/٢).

(٤) العبر في خبر من غبر (٩٧/٤).

(٥) غاية النهاية في طبقات القراء (٢٢٦/٢).

(٦) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٣٢١/٩) وفي المنتظم (٣٦٢/١٢): الشيرازي.

٦- قال أبو يحيى الناقد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٥هـ): اشتريت من الله حَوراء بأربعة آلاف ختمة![١].

٧- حمدان بن عون الخولاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٠هـ) قال: قرأت على ابن هلال ثلاث مئة ختمة[٢].

٨- الخمقري الشرافي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٠٠هـ) قال: كتبت بيدي سبعًا وتسعين مصحفًا، وقال: سافرت عشرين سنة أتَّجر، فما أعرف منزلًا نزلته إلا وختمت فيه القرآن، غير منزلين؛ ختمت فيهما القرآن نوبتين[٣].

٩- المقرئ جعفر الدرزيجاني الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٦هـ) له ختمات كثيرة، يختم كل ختمة منها في ركعة[٤].

١٠- أبو طالب بن أبي عَقِيل الصُّوريّ، المعروف ببهجة الملك -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٧هـ) يقول: قرأت أربعة آلاف ختمة[٥].

١١- المقرئ ابن أبي الأزهر اللاحمي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٧هـ) كان لا يَلحقه أحد في سرعة القراءة، ولقد قرأ في يوم واحد أربع ختمات إلا سُبُع! وهذا ثبت بمحضر جماعة من القراء، أُخذت خطوطهم بتلاوته، وهذا أمر عجيب جدًا![٦].

١٢- المكين الأسمر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٢هـ) ابتدأ على شيخه الختمة بالقراءات السبع، من بعد صلاة المغرب، وعند طلوع الفجر إذ به يقول: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] فختم عليه الختمة، جَمْعًا بالقراءات السبع في ليلة واحدة[٧].

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٤٧٧/٩).
(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (٢٦٠/١).
(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ٩٧٩).
(٤) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٥٢٤/٢).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٦/٤٣)وتاريخ الإسلام ت تدمري (٤٤٣/٣٦).
(٦) غاية النهاية في طبقات القراء (٥٢٦/١) وفي تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني (ص: ٢٧) قال: ولم يُخفِ شيئًا من قراءته، ولا فَتَر! وما سمعنا أن أحدًا قبله بلغ هذه الغاية.
(٧) غاية النهاية في طبقات القراء (٢٥/١).

١٣- ابن المؤذن الحلفاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٥هـ) كان يختم في رمضان فقط مئة ختمة[(١)].

لفتة:

لعلك - أخي القارئ الحصيف - لاحظتَ أن غالب الأسماء المذكورة آنفًا، إنما هي أسماء مغمورة، لا تَطْرُق الأسماع، ولا تتكرر على الأنظار. وهذا يدُلّك على دلالتين:

• تأكيد معنى قوله ﷺ: **إن الله لا يَنظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوَرِكم، ولكن يَنظر إلى قلوبكم**[(٢)]. وأن العبرة بثمرة العلم، وأن المقياس بالمَخابِر لا المَظاهِر.

• أنه ما عَلا مَن عَلا إلا بقوة علاقته بكلام ربه، فإنه المَدد الأعظم؛ لتحصيل اللذة العظمى، والغذاء الروحي الذي يعينك على الإقبال على العلم بنَهْمة وبِهِمة، وبِنِيَّة خالصة. فاقرأ وارتقِ وتلذَّذ.

مسألة تُراوِدُ ذهن المتلذِّذ بالقرآن:

يقول المتلذذ: في كم أختم؟ وأنا أريد أن أنهمِك في جرْد كتب الأمهات، وحضور الدروس في عدة فنون، وسأنشغل بالبحث، وربما بالتأليف؟

والجواب إليكَهُ من الحافظ النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) حيث يقول: والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص..فمن كان مشغولًا بنشر العلم، أو غيره من مهمات الدين، ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدرٍ لا يحصل بسببه إخلال بما هو مُرْصِدٌ له[(٣)].

ويؤكد الجوابَ ابنُ الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) حيث يقول: ومنهم من كان يختم في كل أسبوع؛ اشتغالًا بنشر العلم، ومنهم من كان يختم كل شهر؛ إقبالًا على التدبر[(٤)].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤٤٩/٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٦١).

(٤) التبصرة لابن الجوزي (٢٦٧/٢).

٣٧. لذة القراءة وجرْد مطوَّلات الكتب

وهذا المبحث هو المَحَكُّ والمِفَكُّ، وهو بيت القصيد، ومَرْبَط الفرس؛ لأن دروس العلم قد يتعذر حضورها، وملاقاة العلماء قد يَبعد أمَدها، فتبقى القراءة هي البديل الأنسب والأوسع، والكتب للمتلذذين هي رَوحهم وراحهم وريحانهم.

ولما قيل للإمام البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ): البَلاذُر[١] يقوي الذاكرة، وينشط الذهن على الحفظ. فأجاب، صارفًا أذهانهم إلى ما يقوِّي الحفظ حقًا، قائلًا: يقوي الذاكرة إدامة النظر في الكتب[٢].

والقراءة يحسب مَن يَكرَهُها أن المتلذذ يُكرهها، وما علم المسكين أن متلذذ القراءة في نعيم أعظم من نعيم أهل الشهوات، بل هم في جنة معجَّلة.

أيا حائرًا ما بين علم وشهوةٍ ليتَّصلا ما بين ضِدَّين من وصْلِ[٣]

ولقد كانوا يقرؤون ويعكُفون، فيَراهم الرائي، ويظنُّهم حبسوا أنفسهم وأنفاسهم، حتى يختموا ما بأيديهم من جرد مجلدات!.

فهذا ابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) كان يُكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟![٤].

وقد عُوتِب المُعافَى بن زكريا -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ) على ملازمته المنزل، وقيل له: أما تستوحش الوحدة؟ فقال: أنا في منزلي، أنظرُ في آثار الأئمة والعلماء، وخواص الأعلام الحكماء، وكأنني مُجالسٌ لهم[٥].

---

(١) نوع من المكسرات، وهو المسمى عندنا بـ: الكاجو.

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم٢٤١٤). والبلاذر نوع من المكسرات، هو المعروف عندنا بالكاجو. يظنونه يقوّي الذاكرة. وهو يُضِرُّ بها!.

(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢١/٢١).

(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/٤٢).

(٥) الجليس الصالح والأنيس الناصح (ص: ٢).

ودخلوا على الشيخ أبي نصر السجِزّي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٤هـ) فقالوا: أيها الشيخ! أنت جالسٌ وحدك! فقال: لستُ وحدي؛ أنا بين عشرين ألفًا، من الصحابة، والتابعين وأئمة المسلمين، أتحدث معهم وأحكي عنهم[١].

والقراءة كالرياضة؛ تحتاج لياقة وجلَدًا، تتزايد مع الزمن؛ لأن الكتاب لذة، وقوت ووقود، وحياة وحباء.

بل إن ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) جعلها عبادة جليلةً، أفضلَ من نوافل كثير من العبادات، حتى لقد قال: وربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم، والصلاة، والحج، والغزو[٢].

وقال: واعلم أن القلوب لا تبقَى على صفائها، بل تصدأ، فتحتاج إلى جَلاء، وجلاؤها النظر في كتب العلم[٣].

حقًا: إن القراءة لذة لا تعدِلها لذائذ كثيرة، حتى لقد قال الأديب علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) ولقد جربتُ اللذائذ كلها، فما وجدتُ أمتعَ من الخلوة بكتاب[٤].

ولا تعجَبْ حينئذ من قارئ عاشق يقول: أسهل وسيلة للانتحار: هي ألا تقرأ!.

نعم؛ ربما في العبارة تهوُّر؛ لكنه يَرمي إلى أنه حينما لا تزوِّد نفسك بالمعرفة، ولا تتسلح بالعلم، فكأنك تموت ضِمنيًا؛ لأن الجهل كالموت!.

حنانَيك! ليسوا يُبالغون، ولا يتصنَّعون! بل يُخبرون ببعض ما يشعرون!.

وهذا عاشق آخر يغرِّد، فيقول: قبل سنة قرأتُ تغريدة لأحدهم فاستغربتُها، فبحثت في المصدر الذي ذكر، وكان أحد عشر مجلدًا قرأتها كلّها، ولم أجدها، لكن الكتاب عرّفني بكِتاب، والكِتاب بكِتاب، ولا زِلت حتى الساعة أقرأ بسبب تلك التغريدة!.

كتابي عَشيقي حين لم يَبْقَ مُعْشَقٌ أُغازِلُه لو كان يدري غَزاليا

---

(١) المنثور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي (ص: ٤١).
(٢) صيد الخاطر (ص: ١١٣) وقد مرت هذه المقولة.
(٣) تلبيس إبليس (ص: ٢٩٠).
(٤) فصول في الثقافة والأدب للطنطاوي (ص١٧٩).

إن لذّة القراءة الجردية البحثية -رغم عَنَتِها وتعبِها- لا يعرفها ويستلذها إلا من جرّبها.

وثالث تألَّق، فقال: أؤمن بأن الإعراض عن القراءة أكبر من مشكلة البطالة، إدمان المخدرات، الطلاق؛ لأن الجهل هو الطريق الأسرع لذلك.

ورابع شَغوف، لكنه جَنَح شيئًا، ليقول: لو صحَّ القول بأن إدمان القراءة مرض! فهي المرض الجميل، بل هي الإدمان الأجمل في حياة الإنسان. فيا مُدمني القراءة: لا شفاكم الله منها!

هل القراءة وسيلة أم غاية؟!

الجواب: هي وسيلة طيبة المجتبَى، ثم تستحيل ثمرة لذيذة المجتنَى.

وحقًا: حب القراءة من لذات الجنة المعجلة، ولكن لا تجعلها ترَفًا، بل اجعلها شغفًا.

ومن يقول: القراءة هوايتي، يقال له: بل قل: القراءة هدايتي.

وأيضًا: فليس كل مقروء لذيذ، فبعض السموم فيها لذات. كما القراءة لروائيين ومفكرين لا تَبني طالب علم، ولكن قارئًا مثقفًا. والثقافة شيء، والعلم شيء آخر.

جرد المطوَّلات:

لئن كان في القراءة لذة عظيمة، فإن في جرد المطوَّلات لذة أعظم، لا يعرفها إلا مهَرة السبَّاحين في بحار الكتب؛ ففاكهتهم النظر في الزُّبُر والأسفار، والمطالعة عندهم أعذب من نسمات الأسحار.

ليس المُدامة مما أستريح له ... ولا مجاوبة الأوتار والنغمِ
وإنما لذَّتي كُتْب أطالعها ... وصارمي أبدًا في نصرتي قلمي[1]

ولكن ثمَّت تنبيه مهمان:

• مَن كان مبتدئًا في العلم والقراءة فلا يُنصَح أن يقرأ في تلك المطوَّلات؛

---

(١) المغرب في حلى المغرب (١/٣٩٩).

لئلا يمَلَّ، أو يُشوِّش ذهنه. وانظر إلى فقه شيوخ شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) حيث يقول هو عنهم: عندما كنا في زمن الطلب، كان مشايخنا يَنْهَوننا عن مطالعة «المغني»، و«شرح المهذب»، والكتب التي فيها أقوال متعددة[١].

ولذا فقد قالوا: إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتيحه بأيدي الرجال[٢].

وهذه وصية أخرى من الحافظ الذهبي للمبتدئين والمتوسِّطين، حيث قال: فعليك يا أخي بتدبر «كتاب الله»، وبإدمان النظر في «الصحيحين» و«سنن النسائي»، و«رياض النواوي» و«أذكاره» تُفلح وتُنجح[٣].

• أثناء قراءاتك اعمل بوصية الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٨هـ) حيث قال: لا ينبغي لمن يقرأ كتابًا أن يتصور أنه يريد قراءته مرة ثانية؛ لأن هذا التصور يمنعه عن فهم جميع الكتاب، بل يتصور أنه لا يعود إليه مرة ثانية أبدًا[٤]

جَلَدُهم في جرْدِهم

والآن عِش بروحك مع عَطِر سِيَرِهم في جرْدِهم، وكأنك معهم في جَلَدهم، بل في خَلَدهم:

١- كانوا إذا وقعوا على كتاب نفيس لم يدَعوه حتى يُكملوه، ولو كثرت مجلداته:

• كان الشيخ العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ) يخرج إلى المسجد يوم الأربعاء، ومعه كتاب «نهاية المطلب في دراية المذهب» في فقه الشافعية، للجويني، وهو اثنا عشر مجلدًا، فيمكث العز بالمسجد يوم الأربعاء، ويوم الخميس، ويوم الجمعة إلى قبيل الصلاة، فيُنهِي في هذا الوقت النهاية.

وهذه الحكاية العجيبة الآنِفة حُكِيَت لعالِمَين اثنين، فانظر تعليقهما عليها:

(١) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ٦٦).
(٢) البيان والتحصيل (٢٥٠/١٨) المقدمات الممهدات (٥٠/١) كلاهما لابن رشد الجد (المتوفى: ٥٢٠هـ) وعنه الشاطبي في الموافقات (١٤٠/١). وكثيرون ينسبونها للشاطبي من مَقوله، وإنما هي من مَنقوله.
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٤٠/١٩).
(٤) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد لابن بدران (ص: ٤٨٨).

• قال البُلقيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ): ولا أَستبعِد؛ لأن الشيخ عز الدين لا يُشكِل عليه منها شيء، وأنا أنظر مجلدًا في يوم واحد. فالبلقيني يحكي عن نفسه، أنه يُنجِز قراءة «النهاية» في اثني عشر يومًا!

• وعقَّب بعدها ابن الملقِّن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) عن إنجاز باهِرٍ له: أنا نظرتُ مجلدين من «الأحكام» للمحب الطبري في يوم واحد(١).

• علي بن محمد بن عمر الخولاني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٢هـ) قرأ «منهاج النووي» فسأله والده عما قرأ من الكتب، فقال له: قرأت «منهاج النووي»، فأنكر عليه، وقال له: عليك بـ«الروضة»، فقرأه حتى أتقنه، فامتحنوه على الكتاب بحضرة الناس بعد الجمعة، فكان يجيب عن كل مسألة بفرع من «الروضة» حتى جاء على أربعين مسألة، فأذن المؤذن للعصر(٢).

• قال أبو العباس الطبنداوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٨هـ): طالعت جميع «الإيضاح شرح الحاوي» للقاضي الطيب الناشري في ليلة واحدة، وهو مجلدان ضخمان، وعلقت من كل باب فائدة، وكانت الفوائد التي كتبتها تلك الليلة ثلاثة كراريس(٣).

• وحدثني أحد كبار طلبة العلم: أنه لما طُبع كتاب «فتح الباري» لابن رجب، فرح به كثيرًا، فقرأ في كل يوم مجلدًا، فأنهاه بعد أسبوع من شرائه!

• وحدثني -أيضًا-: أنه وجد في فترةٍ فراغًا، فاستعار «المنتظم» لابن الجوزي، فقرأ كل مجلد في يوم، حتى أنهاه.

٢- حتى الليل لا يفوِّتونه للقراءة، برغم ضعف الإضاءة، مع الانكباب طول النهار:

• أبو حامد الإسفراييني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٦هـ) في أول أمره كان يحرس في درب، فكان يطالع الدرس على زيت الحرس(٤).

---

(١) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ١٣١).

(٢) انظر: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٦/٣٩٥).

(٣) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٠٧).

(٤) تاريخ الإسلام ت بشار (٩/١٠٢).

=

• القاضي عبد الجبار المعتزلي -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٤هـ) ابتاع ليلةً دُهنًا؛ ليداويَ به جَرَبًا كان عليه، فلما أظلم الليل تفكر؛ هل يَطلي الجرب، أو يشعل به السراج، ولا تفوته مطالعة الكتب؟! فرجح عنده الإشعال للمطالعة(١).

• الحافظ النسابة أبو بكر الحازمي الهمذاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٤هـ) كان يدخل بيته في كل ليلة، ويطالع ويكتب إلى الفجر، فقالوا لخادمه: لا تدفع إليه الليلة نورًا للسراج؛ لعله يستريح الليلة، فقال: فلما جَنَّ الليل اعتذر إليه الخادم؛ لانقطاع النور، فدخل بيته وصفَّ قدميه، ولم يزل يصلي، ويتلو إلى أن طلع الفجر(٢).

ما تطعَّمتُ لـذة العيش حتى صـرتُ للبيت والكتاب جليسا(٣)

• عبد الكريم الرافعي القزويني الشافعي صاحب «الشرح الكبير» -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٣هـ) لم يجِدْ زَيتًا للمطالعة في ليلة، فتألَّم، فأضاء له عِرق كَرْمة، فجلس يطالع، ويكتب على ضَوئه(٤).

٣- أما نهارهم؛ فله نصيب الأسد، بل والضبُع أيضًا. وسيرتهم في نهارهم متشابهة متكررة، يفعلون كفعل ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) فقد كان إذا صلى الصبح يشتغل بأذكار الصباح، أو بالتلاوة، ثم يأخذ في المطالعة والتصنيف، إلى وقت صلاة الضحى فيصليها، ثم إن كان بالباب من يستأذن للقراءة، ظهر إليهم إلى قريب الظهر، ثم يدخل إلى منزله فيستريح، ثم يطالع أو يصنف إلى أذان العصر، ثم يجلس للإقراء. ولا ينتهي غالبًا إلا عند الغروب، ثم يصلي ويتنفل، أو يطالع إلى أن يسمع العشاء، ثم يجلس للقراءة غالبًا، أو للمذاكرة أكثر من ساعة(٥).

= إضافة: أبو نصر الفارابي -برغم ضلالاته وضعف حاله إلا أنه- كان في الليل يسهر للمطالعة والتصنيف، ويستضيء بقنديل الحارس. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٠٣).

(١) الوافي بالوفيات (٢١/١٨).

(٢) طبقات المفسرين للداوودي (٢/٢٦٢).

(٣) معجم الأدباء (١٧٩٨/٤).

(٤) طبقات المفسرين للداوودي (٣٤١/١). عِرْق كَرْمة: عود من أسفل شجرة العِنب.

(٥) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٠٥٠/٣).

وإذا أردت مُنادما لم تُلفِني إلا على غُررِ العلوم حريصا
فترى الكتاب مُجالِسًا ليَ مُودِعًا سمعي فصولًا تُنتقى وفُصوصا
لا مفشيًا سرِّي ولا متنمِّرا جهم اللقاء ولا عليَّ خروصا[1]

٤- يُوصون بمطولات الفقه والحديث، وبسط متونها:

• قال أبو العباس بن سريج -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٥هـ): يَخرج«مختصر المزني» من الدنيا عذراءَ لم تُفتَضَّ. وهو أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعي[2]. بل قال «المزني» نفسه: لو أدرَكَني الشافعي لسمِع مني هذا المختصر[3].

• وقال العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ): ما رأيتُ في كتب الإسلام في العلم مثل «المحلى» لابن حزم، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين، وما طابت نفسي بالفتيا حتّى صار عندي نسخة «المغني».

• فأضاف الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ) اثنين قائلًا: قلت: لقد صدق الشيخ عز الدين. وثالثهما «السنن الكبير» للبيهقي. ورابعها «التمهيد» لابن عبد البر.

أ- فمن حصل هذه الدواوين. ب- وكان من أذكياء المفتين. ج- وأدمن المطالعة فيها = فهو العالم حقًا[4].

فالمعادَلة عند الذهبي باختصار: [أربع دواوين + ذكاء + إدمان = عالم]

٥- كانوا يَجعلون بعض الكتب الأدبية أو الشارحة كطبق الحلوى، أو كالفاكهة:

• محمد البساطي المالكي، قاضي مصر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) قال لتلميذه سبط ابن العجمي: تتفكه قبل أن تتغدى؟ فقال له: ما معنى هذا؟ فقال: طالِع «الروضة» و«الشرح»؛ فإنها بمنزلة الخبز واللحم، وأما شروح «المنهاج» فإنما هي بمنزلة الفاكهة[5]

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٤).
(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١٣٢/٢).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٣٤٦/٢).
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٩٣/١٨) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٦١/٧).
(٥) كنوز الذهب في تاريخ حلب (١٥٣/٢).

• كان القاضي أبو السرور المُزَجَّد -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣٠هـ) إذا سئم من القراءة والمطالعة، استدعى بـ«مقامات الحريري» فيطالع فيها، ويسمِّيها «طبق الحلوى»[(١)].

• بعض العلماء في عصور سلفت: يرَون أن اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات، وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة، تضييع للأعمار في غير طائل! وبعضهم يبالغ في التشنيع على من يقرأ «مختصر خليل».. وإنما كانوا يَحُضُّون على كتاب «الرسالة» و«التهذيب» وأمثالهما[(٢)].

• الأمير النيجيري محمد بن يوسف السنوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٥هـ) كان ربما طالع سِفرًا ضخما لا يمكن مطالعته إلا في ثلاثة أيام، فيطالعه يومًا واحدًا[(٣)].

٦- من نَهَمِهم أنهم يقرؤون، ولا يتوقفون، حتى في غير تخصصهم:

• كان الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) لا يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، حتى إنه كان يكتري دكاكين الكتبيين، ويبيت فيها للمطالعة[(٤)].

• قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): واعلم أن القلوب لا تبقى على صفائها بل تصدأ، فتحتاج إلى جلاء، وجلاؤها النظر في كتب العلم[(٥)].

• الأديب عباس العقاد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٣هـ) مِن شغَفه بالقراءة وُجد على مكتبه مجلدات، في غرائز الحشرات وسلوكها، فسئل عنها، فأجاب: لأقيسَ عليها دنيا الناس والسياسة[(٦)].

• والعقاد نفسه يقول في كتابه «أنا»: يقول لك المرشدون: اقرأ ما ينفعك، ولكني أقول: بل انتفع بما تقرأ[(٧)].

---

(١) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ١٣٠).
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٦٧/٣).
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٦٣).
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥٢٧/١١).
(٥) تلبيس إبليس (ص: ٢٨٩).
(٦) المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين (ص: ١٤٦).
(٧) ضمن مقال بعنوان: «لماذا هويت القراءة؟» (ص١٠٢) وهذه العبارة قد يخاطَب بها المتمكن المنتهِي، لا القارئ المتوسط ولا المبتدئ.

٧- كانوا منذ طفولتهم يقرؤون، ومع ما يقرؤون يتفاعلون:

• يقول مُغَلْطاي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٢هـ): ولقد عهدتُني وأنا ابن دون عشر سنين، قرأت مقتل الحسين ﷺ من كتاب استُعير لي، فحصل لي منه بكاء عظيم، أزعج أعضائي كلها، لم أبِتْ إلا محمومًا[١].

• النحوي الخِدَبُّ الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) قال: كنت في صباي أربط شعري بالحائط؛ حتّى لا أنام، إيثارًا لطلب العلم[٢].

٨- وكانوا إذا قُطعوا عن لذة القراءة، فكأنهم على الجمر يتمَلْمَلُون:

• كان الليث بن المظفر -رحمه الله تعالى- (بعد ١٧٠هـ) صاحب الخليل بن أحمد -رحمهما الله تعالى- يغدو ويروح على البَرامِكة، فكأنه على الرَّضْف حتى يرجع إلى الكتاب، كتاب العين[٣]

• كان ابن المَكْوِيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠١هـ) يتَّجر في سوق البزَّازين، لا يفارق أثناء ذلك المطالعة في جلوسه وحركته[٤].

٩- والمتلذذون يُشفِقون عند ختام أوراق ما يقرؤون، والقارئ كالمسافر، والمَقاطع التي ينتهي إليها القارئ كالمَنازل، التي يَنزلها المسافر[٥].

• قال ابن الجهم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ): فإني إذا استحسنتُ كتابًا واستجَدْتُه، ورجوتُ فائدته لم أُوثِر عليه عِوضًا، ولم أبغ به بدلًا، فلا أزال أنظر فيه ساعةً كم بقي من ورقِهِ؛ مخافة استنفادِه[٦].

ماذا لو حَكَمَ القُرَّاء العالمَ؟

هذا السؤال الغريب الطريف، طُرِح في وسائل التواصل الاجتماعي، وجاءت الردود إيجابية، وأكثر طَرافة، فمنها ما يلي:

---

(١) التراجم الساقطة من كتاب إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (ص: ١٣).
(٢) المقفى الكبير (١٠٣/٥).
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ٩٧).
(٤) جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (٢٣١/١).
(٥) المقصد لتلخيص ما في المرشد (ص: ٤).
(٦) الحيوان (٤٠/١).

١. كل يوم ممطر سوف يخصَّص للبقاء في المنزل، وقراءة كتاب أثناءه.
٢. سيكون هناك مكتبة، في كل زاوية في الشوارِع.
٣. سنحصل على نسخة الكتاب الالكترونية مجانًا عند شراء النسخة الورقية منه.
٤. ستخصص في العمل ساعة للقراءة، بالإضافة إلى ساعة الغداء كل يوم.
٥. سيُحدد مسارات خاصة للقُراء المشاة.
٦. سنكون بالقراءة مشغولين جدًا عن خوض الحروب.
٧. سيكون لدينا عذر للحصول على يوم إجازة من العمل، لو سهرنا لإنهاء كتاب.

قُراء كتب الروايات وكتب الفلسفة هل يتلذذون؟

بعض الكتب أنفع من بعض، والكتب الأمهات الكبار أنفع من الصغار والقِصار.

قال ابن الجهم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ): ما قرأت قطّ كتابًا كبيرًا؛ فأخلاني من فائدة، وما أُحصي كم قرأت من صغار الكتب، فخرجتُ منها كما دخلتُ[١].

وقُراء الروايات هم كغيرهم من القراء الراغبين، وربما المتلذذين، فما قرؤوه مما لا يضرهم في دينهم يُدخِلهم في جَنة معنوية غَنَّاء، ويَزيد من توسعهم المعرفي، بحسب نوعِ ورُقِيّ المقروء، فمن الروايات ما لا ضرر فيه، فبابه واسع، ومنها ما فيه الضرر، وهذا الذي يُجتنَب.

قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): قَلَّ رجل يأخذ كتابًا ينظر فيه، إلا استفاد منه شيئًا[٢].

ومن اللطائف في اقتناء الكتب المشبوهة: أن الفقيه الشافعي القونوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ) كان يكتب بخطه على ما يقتنيه من الكتب التي تخالف السنة ما نصه:

عرفت الشر لا للشـ ـر لكن لتوقِّيهِ

---

(١) الحيوان (٤١/١).

(٢) العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (٣١٤/٢).

ومــــن لا يــعــرف الـشـر   مــن الـخـيـر يـقـع فــيــهِ[1]

ومَن كانت هوايته القراءة فليكن صاحب مبدأ سامٍ لا سامٍّ! ذلك أنه ارتقى بفكره؛ ليُنمي عقله، لا بدنه فحسب، ولذلك تجده يرتاد المكتبات، ويتحرى معارض الكتاب، ويُحمِّل في جهازه ما لذ وطاب من الكتب، ويتابع المؤلفين ودور النشر، والمهتمِّين.

والسؤال هل كل كتاب مطبوعٍ يكون صالحًا؟!

قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): احذر أن تضمَّ مكتبتك الكتب التي ليس فيها خير، لا أقولُ التي فيها ضرر، بل أقولُ التي ليس فيها خير؛ لأن الكتب تنقسم إلى ثلاثة أقسام: خير، وشر، ولا خير ولا شر، فاحرص أن تكون مكتبتك خالية من الكتب التي ليس فيها خير، أو التي فيها شر، فهناك كُتُبُ يقالُ لها كتب أدبٍ، لكنها تقطع الوقت وتقتله في غير فائدة، وهناك كتب ضارة، ذات أفكار معينةٍ ومنهج معين، فهذه -أيضًا- لا تدخل المكتبة، سواء كان ذلك في المنهج، أو كان في العقيدة ككتب المبتدعة التي تضرُّ العقيدة، والكتب الثورية التي تضرُّ المنهج، فكل كُتُبٍ تضرُّ فلا تدخل مكتبتك؛ لأن الكتب غذاء للروح، كالطعام والشراب للبدن، فإذا تغذيت بمثل هذه الكتب صار عليك ضرر عظيم[2].

نعم؛ هناك كتب فلسفية، وكتب فكرية، وكتب ثقافية، وكتب أدبية؛ من قصص وروايات وأشعار، محتواها لا خير فيه، وفي بعضها الضر، والداء العضال[3]، ومع ذلك يقرؤها البعض، ويجد لها لذة، ولكنها لذة تشبه أكل الطعام الشهي المسموم، فقد يأكل الإنسان طعاما شهيًا، يتلذذ بأكله، وفيه حتفه وموته.

ويعود السبب في إحساس البعض بهذه اللذة مع أن الهلاك فيها: أنّ من أحبّ أيّ شيء يرى أن فيه أُنسه وسروره ولذته، فإن عيناه تعمى عن النظر إلى مساوئه، وأذناه تصمُّ

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣١/٤).
(٢) شرح حلية طالب العلم (شريط مفرَّغ).
(٣) كثير منها فيه خير كثير، لكن الشيخ لم يعمِّم، بل قيَّد بقوله:(هناك كتب.).

عن سماع العذل فيه، وقلبه مُقفل عن تصور وجود شيءٍ يَعيبه، فهو مُغيّب عن رؤية ما به من عيوب، ولو كانت هذه العيوب فيها حتفه. واعتبر بهذين المثالين:

○ النحوي عبد الله بن حمود الزبيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٢هـ) كان مغرىً بكلام الجاحظ؛ وكان يقول: رضيتُ في الجنة بكتب الجاحظ، عِوضًا عن نعيمها![١].

○ الصوفي إسماعيل الجبرتي الزبيدي - عفا الله عنه - (ت ٨٠٦هـ) كان داعيًا إلى نِحلة ابن عربي، حتى صار من لا يُحصِّل نسخة من «الفصوص» تنقص منزلته عنده! واشتد البلاء على العلماء الصادعين بالحق بسببه[٢].

ويضاف إلى هذا سبب ثانٍ، وهو استخدم مؤلفي تلك الكتب لسحر البيان، فيقلب الحق باطلًا، والباطل حقًا، فيأسر القلوب، ويسحر النفوس.

ولقد استغل أهل الأهواء والبدع والضلال، وأصحاب المناهج المحرفة، ما منحهم الله -جل جلاله- من نعمة البيان؛ لترويج زندقتهم؛ ومذاهبهم الباطلة؛ وأفكارهم الباطلة، في كتب ألّفوها، أو قصائد نظموها، فتجد القارئ العادي لا يستنكر سمومها، ولا ينفر منها، بل إنه يستلذُّها، بسبب سحر البيان فيها.

وخذ مثالًا على منظومة صوفية، انتشرت واشتهرت في قرون مضت، وشرحت وعُظِّمت عند الأدباء، فضلًا عن المتصوفة، ولكن في خباياها السم، حتى سماها ابن تيمية بـ:«نظم الشكوك».

قال -رحمه الله تعالى-: وابن الفارض، صاحب القصيدة التائية المعروفة «بنظم السلوك» وقد نظم فيها الاتحاد نظمًا رائقَ اللفظ، فهو أخبث من لحم خنزير، في صينية من ذهب. وما أحسن تسميتها بـ:«نظم الشكوك»[٣].

واعتبِرْ بحال أديب ومؤلف مشهور، وقد بلغت مؤلفاته قرابة مئة عنوان، واحتفل

---

(١) بغية الوعاة (٤١/٢).
(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١٣٩/١).
(٣) مجموع الفتاوى (٧٣/٤).

بالنسخة المليونية لأحد كتبه، وبالرغم من ذلك فإنه في النهاية يعترف بحَيرتِه، وعدم انتفاعه هو بما كتب!

أتدري من هو؟! إنه المؤلف والرحالة المشهور أنيس منصور -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣١هـ) فتأمل ماذا يقول عن نفسه: إن كل ما قرأتُ لم يكن ينفعني في الإجابة على شيء، ولم أجد من كل ألوف الكتب التي أمضيتُ فيها عمري، وأطفأت فيها نور عيني، وأوجعت فوقها رأسي وظهري، لم أجد فيها شيئًا يريحني.

وقال حين طلب حرْق كتبه: إن حرصي على احتراق كتبي؛ فلأنها لا تساوي شيئًا، فلا هي أشبعتني، ولا هي روَّتني، ولا أراحتني، ولذلك يجب أن تكون ترابًا أدوسها بترابي[1].

احذر تلك المقولة الخادعة:

فعلًا إنها مقولة خُدِعَ بها الكثيرون، وهي «أنا واثق من نفسي»!.

ومن وثق بنفسه، فقد استغنى عن ربه، ومن استغنى عن ربه، فقد أضاع نفسه، وأورَدها المَهالك، ولقد حفلت كتب السير والتراجم، بذكر أخبار لأناس هلكوا؛ بسبب قراءتهم للكتب المسمومة الضارة، وبعضهم كانوا من الأذكياء، فالعاقل من اعتبَرَ بغيره.

واعتبِرْ بالإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) فقد تأثر بكُتب الفيلسوف «ابن سينا» وكاد أن يَهلك بسببها، لولا أن تَدارَكه نعمة من ربه.

والمنهج الشرعي، والمسلك النظامي هو حماية العقول والأفكار، وحجب هذه السموم عنها، وإن اغتر بها بعض الأغرار؛ ففي الدسم دَسُّ السم الزُّعاف.

قال ابن خَلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): ولما فُتحت أرض فارس، ووجدوا فيها كتبًا كثيرة، كتب سعد بن أبي وقّاص إلى عمر بن الخطّاب؛ ليستأذنه في شأنها، وتنقيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر: أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى

---

(١) أعلام وأقزام في ميزان الإسلام - حسين عفاني (٥٢٨/١).

فقد هدانا الله بأهدى منها، وإن تكن ضلالًا فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء، أو في النّار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصِل إلينا[١].

ولما بِيعت كتب ضلال وزندقة زمن ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) فجاء واشتراها بألف درهم، ورمى بها في بركة، وغسلها، وقال: هذه كانت تُضِل الناس، وتضيع أموالهم[٢].

ومن المحاسن التاريخية التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٤هـ) حينما قال: ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومئتين.. وفيها نُودي ببغداد ألا تُباع كُتب الكلام[٣].

وليُعلم أن قراءة الكتب ليست هدفًا لذاتها، وإنما هي وسيلة لتحقيق الهدف، ألا وهو إرادة الآخرة، والسعي لها سعيها. فاعتنِ بجدوى المحتوَى، أكثر من سعر المشترَى.



(١) تاريخ ابن خلدون (٦٣١/١).
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٣٢٩/٣).
(٣) البداية والنهاية ط. هجر (٦٤٢/١٤).

٣٨. لذة الإقراء والقراءة الجماعية

عَقْدُ مجالس سماع الحديث، أو الإقراء الجماعي، من السنن العلمية التي ضعُف وهَجُ نورها، ولاسيما في بلاد الحرمين.

وتتمحور فكرة مجالس السماع الحديثي، على قراءة كتاب بأكمله، من كتب السنة النبوية خصوصًا، كـ«صحيحَي البخاري ومسلم»، بصوت مسموع على شيخ من أهل الحديث والإسناد، بحضور جمع من الرجال والنساء في الغالب، وتتخلل القراءة تعليقات يسيرة جدًا من الشيخ المسنِد، تتضمن فوائد، أو ضبط لفظ مشكل، أو بيان تصحيف وتحريف.

وتُضبط أسماء الحضور في كشوف مكتوبة، بهدف حصول الحضور على إجازة، بسماع تلك المجالس عند ختمها، مُسْنَدة إلى رسول الله ﷺ بإسناد ذلك الشيخ.

قال مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) وسفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ): القراءة على العالم وقراءته سواء[١].

وقال مالك -أيضًا-: السماع عندنا على ثلاثة أضرُب: أولها قراءتك على العالِم، والثاني قراءة العالِم عليك، والثالث أن يدفع إليك العالِم كتابًا قد عرفه، فيقول لك: اروِه عني[٢].

وثمت طريقة رابعة، ذكرها وفعلها الإمام مالك نفسُه، وهي الإحالة على أحد التلاميذ المُتقِنين. فإن مالكًا لما جاءه تلميذه الإمام الشافعي وقع هذا الموقف اللطيف المليئ بالعَجب:

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): قدمتُ على مالك، وقد حفظتُ الموطأ

(١) صحيح البخاري (٦٣).
(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: ٣٢٣).

ظاهرًا، فقلت: إني أريد أن أسمع الموطأ منك. فقال: اطلب من يقرأ لك. قلت: لا عليك أن تسمع قراءتي، فإن سَهُل عليك قرأتُ لنفسي. قال: اطلب من يقرأ لك. وكررتُ عليه، فقال: اقرأ. فلما سمع قراءتي قال: اقرأ. فقرأتُ عليه، حتى فرغتُ منه(١).

وخذ -أيضًا- هذا الأنموذج الفائق المتقدم للإقراء، والذي فيه مراعاة الفروق الفردية، التي ينادي بها رجال التعليم، وخبراء صنع المقررات الدراسية:

قال أبو بكر البرقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٥هـ): كان أبو بكر الإسماعيلي يقرأ لكل واحد ممن يَحضره ورقةً بلفظه، ثم يقرأ عليه، وكان يقرأ لي ورقتين، ويقول للحاضرين: إنما أُفضله عليكم؛ لأنه فقيه(٢).

ومع التطور التقني يمكن تنفيذ الإقراء الجماعي تقنيًا عن بُعد، فتكون الفائدة أعم، والعدد أكبر، والحفظ والتوثيق أقوى، وإن كان الأثر أقل أحيانًا. فما عذركم يا أهل العلم طلبةً ومعلِّمين؟!

وتَعْلَق بالأسماع من لفظ أهلها ... شُنوفُ مَعانٍ صَوغهن عجيبُ
وتسري إلى الأفكار منه رسائلٌ ... لها نفَحات عَرْفُهن يطيبُ(٣)

والمتلذذون يجعلون من المحن مِنَحًا، ويطمحون ولا يقنعون، ويستثمرون الأيام العصيبة بما ينفعهم ويرفعهم، والأيام حُبلى، يلِدْنَ كل عجيب وعجيبة.

وقد شهِد الناس أيام جائحة كورونا -والحمد لله الذي جلَاها- طرحًا وإقبالًا جيدًا على تلك الدورات والإقراءات الالكترونية، فنفع الله بها نفعًا ظاهرًا - بحمده تعالى- فحفِظ من لم يظنَّ أنه سيحفظ، وقرأ في شهور من أعدَّ مقروءاته لسنوات: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

تنويهات لإنجاح مجالس الإقراء الجماعية:

١. الحرص على القارئ حَسَن الصوت، المرتِّل المترسِّل بعض الشيء.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/٢٩٥).
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٦/٢٦).
(٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٢/١٥٥).

٢. عدم تطويل المجالس اليومية تطويلًا يقطع الناس عن مشاغلهم، أو يُمِلُّهم.

٣. اختيار المسجد المناسب، أو المنصة المناسبة؛ لاستيعاب الأعداد الكثيرة.

٤. حضُّ طلاب وطالبات كليات التخصصات الشرعية على حضور هذه المجالس، وإن أمكن فلتحتسب من درجات مادة الحديث وعلومه، فهذا سيُحفزهم على الرجوع الكثير لكتب السنة، والقراءة فيها، ومطالعة شروحها.

ومن الخلل الكبير أن يحصِّل متخصص في السنة وعلومها على الشهادات العليا، وهو لم يقرأ الصحيحين، فضلًا عن الكتب الستة.

بينما يوجد من هو في عمر أولاده، من يحفظها عن ظهر قلب، وهم كُثُرٌ في أزماننا - بحمد الله تعالى- ويزخر بهم الحرمان الشريفان وبقاع شتى.

ولمجالس السماع فوائد لا تخفى منها:

١- إحياء سنة العلماء التي تكاد تندثر.

٢- تعويد اللسان على كثرة الصلاة على النبي ﷺ.

٣- التدريب على جرد المطولات وقراءة دواوين الإسلام في أوقات يسيرة.

٤- مقابلة النسخ، وتصحيحها.

٥- تدريب اللسان على ضبط النطق.

٦- ربط الخلف بالسلف، بسماع أسماء من حفظوا لنا الدين وتترحم عليهم.

٧- تطلُّب أجر المرابطة في سبيل الله؛ لانتظارهم الصلاة بعد الصلاة، ويتخللها العلم.

هامَ قلبي على السماع وأمسى ... ذِكرها لذَّتي وفيها نعيمي
حلية لعقول لا حلية الوشـ ... ـيي وكنز المنطوق والمفهوم[1]

طائفة من سيرهم السارّة في مجالس السماع، وسرعة سردهم مع التمكن، واستثمارهم كل الأوقات:

عجبًا لأولئك المتلذذين! أوقاتهم ما ضاعت ولو ضاقت!

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص: ٣٠٤).

فتأمل هذه السير العطِرة، والأخبار النضِرة، ولاحِظ الكلمات المظللة بالأسود:

١- كانوا يقرؤون على مجاهد بن جبر -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ) **في الطواف**[١].

٢- كان الربيع بن سليمان -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) في جنازة شهدها، فجلس في مسجد المقابر ينتظر دفن الميت، وقال: هاتوا ما معكم! **فقرؤوا عليه كتابًا وهم بالمقبرة**[٢].

٣- محمد اليعقوبي النسفي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٩هـ) سمع منه أهل بخارى جامع الترمذي **ست مرات**[٣].

٤- عبد السّلام القَزْوينيّ (ت ٤٨٨هـ) شيخ المعتزلة. ألّف تفسيرًا من ثلاث مئة مجلد! وكان يقول: من **قرأ عليَّ تفسيري** وهبتُ له النسخة. فلم يقرأه عليه أحد![٤].

٥- المقرئ الضرير ابن قيراط (ت ٥٠٨هـ) كان يُقرئ من ثلث الليل، إلى قريب الظهر، **مع طعنِه في السن**[٥].

٦- أبو محمد العصاري الطوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٧هـ) قرئ عليه تفسير الثعلبي **[١٠ مجلدات] مرات عدة**، وفي إحداهن خُتم الكتاب عليه **عند قبر مصنفه**. قال السمعاني: وحضرت الختم، وسمعت المجلس الأخير[٦].

٧- أبو طاهر محمد ابن هاجر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٩هـ) كان أكثر الأوقات فارغًا قاعدًا في الجامع بأصبهان، **مستعدًا للقراءة عليه**، حتى كنا نقول له: الفارغ[٧].

٨- ابن ذي النون الحجري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩١هـ) قرأ على شيخه أبي بكر بن العربي كتبًا كثيرة، **تزيد على المئة**[٨].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٤/٤٨٠).

(٢) المقفى الكبير (٥/٢٠٩).

(٣) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ٣٤).

(٤) تاريخ الإسلام ت بشار (١٠/٦٠٢) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٨/٦١٨) وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (٢/٢٧٩).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠/١٣٩).

(٦) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٢٧٨) لكن القراءة عند القبر فيها نظر!.

(٧) المصدر السابق (ص: ١٣٤٩).

(٨) التكملة لكتاب الصلة (٢/٢٨٠).

٩- أبو البقاء العكبري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٦هـ) كان **لا يَمضي عليه ساعة** إلا وواحد يقرأ عليه، أو يطالع له، حتى إنه بالليل تقرأ له زوجته في كتب الأدب وغيرها(١).

١٠- بهاء الدين ابن شداد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٢هـ) كان **عَقيب صلاة الجمعة** يُسمِّع المصلون الحديث عليه(٢).

١١- ابن عبد الهادي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٤هـ) كان يَقرأ **على أهلِ بيتهِ** مصنفاته، ويُثبِت ذلك بخطٍّ يده عليها، بسماعهم منه، وإجازته لهم. وكانَ يَجمع زوجاته في بيتٍ واحدٍ، لاسيما عند القراءةِ عَليه. وزوجته «بُلبل» أسمَعَها أكثرَ مصنَّفاته، **وكتب عنها كتابًا** بعنوان «لقط السُنبل في أخبار البلبل».

١٢- السراج البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) كان يُقرئ الحاوي **في ثمانية أيام** بالجامع الأزهر(٣).

١٣- شمس الدين البكري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨١هـ) يُقرأ عليه بعد صلاة العشاء، **إلى ثلث الليل**(٤).

لعلها هالَتْك السيَر التلذذية! فلو أعدْتَ قراءتها مع التركيز على المظلَّل بالأسود.

نماذج خارقة للسرعة الهائلة في القراءة الجماعية لدواوين السنة الطويلة بطريقة الحَدْر:

١. إسماعيل الحيري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٠هـ) يقول عنه تلميذه الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): لما كان قبل خروجه بأيام، خاطبته في قراءة «صحيح البخاري»، فأجابني إلى ذلك، فقرأتُ جميعه عليه في ثلاثة مجالس (!) اثنان

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٣/٢٣١).
(٢) وفيات الأعيان (٧/٩١).
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٢٤٥).
(٤) برنامج المجاري (ص: ١٥٧).

منها في ليلتين، كنت أبتدئ بالقراءة وقت صلاة المغرب، وأقطعها عند صلاة الفجر، ثم من ضحوة النهار إلى المغرب، ثم من المغرب إلى وقت طلوع الفجر، ففرغت من الكتاب، ورحل الشيخ في صبيحة تلك الليلة مع القافلة[1].

قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) وهذا شيء لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه[2].

وبالرجوع لمشروع القراءة الصوتية لـ«صحيح البخاري» كاملًا في (اليوتيوب) فقد حسبت مجموع الساعات، وقد كان الأداء بطريقة الحَدْر، فكانت النتيجة التالية الهائلة:

يكون معدل ما يُقرأ في كل مجلس ٢٥٠٠ حديثًا، بقرابة ٢١ ساعة يوميًا!! فيتبقى من اليوم ٣ ساعات فقط، موزعة للصلاة والنوم والأكل!!

٢. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) قرئ عليه «المعجم الصغير» للطبراني، في مجلس واحد بين الظهر والعصر! وهذا أسرع ما وقع له[3].

٣. قرئ «صحيح البخاري» على القسطلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٣هـ) في خمسة مجالس[4].

٤. طلحة بن مظفر العلثي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٣هـ) قرأ «صحيح مسلم» في ثلاثة مجالس[5].

٥. وخُتم «صحيح البخاري» على ابن طولون الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٣هـ) في خمسة مجالس، وكان في المجلس أطفال كثيرة[6].

فيكون معدل ما يُقرأ في كل مجلس ١٥٠٠ حديثًا، بقرابة ١٣ ساعة يوميًا.

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٣١٧/٧).

(٢) تاريخ الإسلام (٩٩/٣١).

(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٧٣/١).

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٦٩/١٠).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٤٣٠/٢).

(٦) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص: ٣٠٢).

ولو تأملت في هذا الخبر -أيضًا- كيف أنهم يَعْتَنون بالأطفال؛ ليُذيقوهم لذة العلم منذ سنٍ مبكرة.

اعتراض وجوابه:

وقد يعترض معترض بأسىً، ويقول: ليس في بلدنا عالم نقرأ عليه!

فيقال: ثمَّت بدائل - بفضل الله - ومنها:

١- سلاسل الدروس والدورات العلمية، عبر وسائل التواصل المختلفة.

٢- الإقراء عبر الدورات المباشرة عن بُعد، وما أكثرها -بحمد الله-.

٣- الإقراء الالكتروني، عبر المقاطع والسلاسل والتطبيقات الالكترونية.

٤- الإقراء عبر المجموعات القرائية، بحيث يتفقون على كتاب، ثم يتناقشون في محتواه.

٥- مجالس الإقراء الحضورية، لا سيما بين العشائين؛ لخفته، وقلة كلفته، وهذا شائع ذائع.

وفي هذا امتثال لقول النبي ﷺ: **أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**[١].

إن لم يكن نسب يؤلِّف بيننا ... فالعلم قام لنا مقام الوالدِ

عذُبتْ موارده لنا فكأننا ... إخوان إرضاع بثدي واحدِ[٢]

مثال معاصر للإقراء الحضوري:

إليك مثالًا معاصرًا، لمجلس علمي إقرائي أعرفُ مُرتاديه، وقد تعاهده جُلّاسه، وتعاقدوا لحضور هذا المجلس مغرب كل يوم، بالتناوب في بيت أحدهم، فخصصوه لجرد الكتب، فيقرأ واحد، والباقون يستمعون، فإن أشكل شيء بحثوه، وبهذه الطريقة سَرَدوا وجَرَدوا جملة وافرة من الكتب والمطوّلات، **خلال ثلاث وثلاثين سنة** متواصلة، لا يقطعها حَرٌ ولا قَرٌّ، ولا سفر ولا عارض.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨١٨).

(٢) معجم السفر (ص: ٤٠٨).

وإليك جدولًا ببعض كتبهم المقروؤة في ذلك المجلس البيتي، خلال هذه العقود الثلاثة:

١. تفسير ابن كثير
٢. البداية والنهاية لابن كثير
٣. صحيح البخاري
٤. شرح رياض الصالحين
٥. السيرة لابن هشام
٦. اقتضاء الصراط المستقيم
٧. التوحيد - محمد بن عبد الوهاب
٨. منهج السالكين للسعدي
٩. فتح المجيد - عبد الرحمن بن حسن
١٠. أدب الدنيا والدين للماوَردي
١١. الواسطية لابن تيمية
١٢. زاد المعاد لابن القيم
١٣. تفسير ابن سعدي
١٤. مختصر السيرة -محمد بن عبد الوهاب
١٥. تيسير العلام للبسام
١٦. كشاف القناع
١٧. فتاوى اللجنة الدائمة
١٨. تفسير أبي بكر الجزائري
١٩. الرحيق المختوم للمباركفوري
٢٠. الممتع لابن عثيمين
٢١. تفسير ابن عثيمين
٢٢. العدة شرح العمدة
٢٣. تهذيب سير أعلام النبلاء
٢٤. شرح الحموية -صالح الفوزان
٢٥. التذكرة للقرطبي
٢٦. صحيح مسلم

٣٩. طقوسهم وعاداتهم في القراءة

عالَم القُراء يَشوبه شيء من الغرائب والعجائب، ويُصاحِبه بعض الحرية والمزاجية، ويكتنفه فوضىً خلّاقة، ولذا تجد عندهم رغبات جامحة، وأحيانًا جانحة، وفي بعضها تكون غريبة عجيبة.

فلنَخُضْ إلى شيء من عالَمِهم، حسبما كَتبوا، أو غرَّدوا، أو أخبر عنهم جُلّاسُهم:

لا تحديث إلا بعسل: كان ابن شهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ) يَسهر على العسل، كما يسهر أهل الخمر. فكان يُحدِّثهم ثم يقول: اسقونا، حدثونا[١].

قَيظٌ ودخان وضيق: الحافظ محمد الذُّهلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٨هـ) قال عنه ابنه الحافظ يحيى -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٧هـ): دخلت على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في بيت كتبه، وبين يديه السراج، وهو يصنف، فقلت: يا أَبَة! هذا وقت الصلاة، ودخان هذا السراج بالنهار، فلو نفَّست عن نفسك، قال: يا بُني! تقول لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين؟![٢]

قراءة أثناء المشي: سليم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٧هـ) كان لا يدَع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة، ونزل يوما إلى داره ورجع، فقال: قد قرأتُ جزءًا في طريقي[٣].

عادة قبيحة: قال ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٣هـ): اعتاد كثير من الناس إذا أرادوا أن يقرؤوا في مصحف أو كتاب، يطرقون البزاق عليهم، ويلطخون صفحات الأوراق؛ ليسهل قلبها! وهذه قذارة كريهة! وإهانة قبيحة، ينبغي للمسلم أن يتركها ديانةً[٤].

التأنق بالملبس: محمد بن خليفة (ت ٧١٧هـ): ربما بلغ درجة الاجتهاد، وكان

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي (٦٢٦/١).
(٢) تاريخ بغداد (٤١٩/٣).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٦٠/٧٢).
(٤) عارضة الأحوذي (٤٠٨/٥).

يلبس الثياب الفاخرة، ويقول: قصدي تعظيم العلم[١].

بمجلس السلطان يقرأ: الفقيه الفرضي محمد بن سليمان السطي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) لا تراه إلا مكبًا على النظر والقراءة والتقييد، حتى في مجلس السلطان[٢].

غرفة خاصة: درويش الأرتقي الدمشقي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٤هـ) عمَر في داخل بيته بيتًا صغيرًا وكان يقول هذا البيت بيت الفتاوي وموضع الكتب[٣]

القراءة في جوف الكعبة: ابن عَلَّان الصديقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٧هـ) من عجائبه: أنه خَتَمَ «صحيح البخاري» في جوف الكعبة، حين ترميمها، لما انهدَمَتْ بسبب السيل.

وله كذلك قصة طريفة وغريبة: فقد اتفق أنه قارَب خَتْمَ «الصحيح»، وكان البنَّاؤون قد جعلوا لهم سِترًا حال التعمير، فخَطَر له أن يَدخله، ويَختِم فيه، ويشرب فيه القهوة، ففعل، فوشَى بعض أعدائه إلى الشريف، وقالوا: إنه قد جَعل بيتَ الله حانةً للقهوة، فأغضبوا الشريف عليه، فأرسل في الحال، وأَحضره، وحبسه[٤].

وقبله العالم ابن غلام الفرس الداني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٦هـ) قرأ من سورة الصف، إلى أن ختم داخل الكعبة[٥].

قراءة بأصعب الظروف: الشيخ عبد الله بن محمد الدويش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٨هـ) كان في سفر راكبًا في حوض السيارة، فكان إذا رأى ضوء سيارة قادمة رفع كتابه، وقرأ على ضوئه، وكان يقرأ على ضوء النار، إذا نزلوا في السفر[٦].

ممنوع التجاوز:

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٣٠٨/٢) والعطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية للملك الأفضل (ت٧٧٨هـ).
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٠٩).
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٥٥/٢).
(٤) المصدر السابق (١٨٦/٤).
(٥) المقفى الكبير (١٨٠/١).
(٦) المحدث الشيخ عبد الله الدويش - نواف الرعوجي (ص ٦٨ و٦٩).

حين يُساق لنا خبر أولئك المكافحين رغم العقبات، كمن يقرأ على ضوء القمر أو النار، أو وهو يمشي في الطريق، أو الذي يُقرأ عليه وهو يأكل الطعام، أو من سقط في جُرْفٍ أو خبَطته دابة وهو يقرأ، فإن هذه الطقوس كلها ليست دعوة إلى أن نسلك هذا السلوك؛ فذاك مسلك مَن اضطروا لعِوَزهم، وضيق بِيئتهم، وهو - كذلك- منهج مَن عَمروا أوقاتهم بالقراءة والعلم والتحصيل، حتى لم يتركوا هذه الأوقات العابرة، أما نحن فنملك رصيدًا هائلًا من الأوقات، التي نستطيع أن نقرأ فيها، ونحن مرفَّهون مطمئنون، دون أن نُصابَ بأدنى حر أو قَرٍّ، فضلًا أن بجرح، أو نخبط جدارًا أو دابة.

القراء المعاصرون؛ ماذا يقولون عن طقوسهم وعاداتهم أثناء تلذذهم بالقراءة؟

١. أقرأ الروايات المرعبة والبوليسية على الفراش!.

٢. يتناقض عندي فحوى الكتاب مع طبيعة المكان، فالمطاردات -مثلًا- للمكان الهادئ.

٣. أمام البحر ذي الموج الهادئ.

٤. الأشعار في المتنزهات، وتحت ظلال الشجر.

٥. لا يَعنيني المكان، الأهم أن أقرأ ثلاثة كتب فأكثر، في جلسة واحدة.

٦. قلم رصاص ومشروب.

٧. أقرأ أثناء رياضة المشي.

٨. أضمُّه، ثم أضع داخله بعض الورود، وعند انتصافه أودعه الوداع الأول.

٩. أَخرج من بيتي بكتابي، فيُلازمني الكتاب في كل مكان، كملازمة الطفل كَفَّ أبيه في شارع مزدحم.

١٠. لا أقرأ إلا عن طريق القراءة الجماعية.

١١. أقرأ في كل مكان إلا في مكتبتي؛ فإنها تسرق تركيزي من جمالها.

١٢. تعطير المكان قبل القراءة.

١٣. المؤلف والصحفي الشهير: حسنين هيكل -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٧هـ) إذا

أراد أن يمكث في مكتبته يلبس أحسن ثيابه الرسمية، كأنما يريد الدخول على رئيس دولة.

١٤. ويقارِبُه الروائي فؤاد قنديل -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٦هـ) فإنه يلبس أجمل ثيابه ويتعطر، ويمكث في مكتبته بهذه الهيئة أربعَ عشرة ساعة.

١٥. أحد أصحابي من طلبة العلم يخبرني أنه يعطِّر الكتاب الذي سيقرؤه.

١٦. أجمل طقوس القراءة عندي، هي أن تكون بلا طقوس.

١٧. قال نهمٌ: أنهيتُ كُتبًا كثيرة خلال انتظاري في دوائر حكومية أو موعد إقلاع طائرة، أو في المستشفيات. فالقراءة عندي لا تشترط أن أجد زمانًا أو مكانًا.

١٨. مثلث السعادة عندي: كتاب، وقهوة، وهدوء.

١٩. القراءة بالمقاهي. ويقول روّادها عن السبب: أنهم يحبون الضوضاء الخفيفة![(١)]



قال الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): في العلم بالأشياء لذة لا تُوازِيها لذة، فقد يُطلب العلم للتفكُّه به، والتلذُّذ بمحادثته.

[الموافقات (١/ ٨٦)].

---

(١) ربط القراءة بالمقاهي والقهوة تقليد أجنبي حادث، واقتران رِخوٌ باهتُ الأثر، يحوّل القراءة إلى وسيلة للترف والتشبع، والتباهي، والولَع بالتصوير! فكثير من هؤلاء -لا كلُّهم- متشبِّعون، بل بعضهم لا يقرأ أصلًا، إنما قصارَى شغَفهم تصوير القصة الروائية بجانب كوب قهوة، أو بمقهى.

٤٠. لذة تكرار قراءة نفائس الكتب

كرر عليَّ حديث البان والسمَرِ إن الحديث عن أهل الحمى سَمَري[١]

يكررون من وَلَهِهِم، ولكن هذا الوَلَهُ لا ينطبق على كل الكتب ولا أكثرها، ولكن:

والكتب كالناس، منهم من تريد أن تراه كل يوم مرات، ومنهم من لا تريد أن تراه إلا لِمامًا، ومنهم من لا تودُّ أن تراه بعد أول رؤية.

وكذلك الكتاب المحبوب المَشُوق أحرى أن تعاوِد النظر إليه كرَّة بعد أخرى. وما دون ذلك فبحسبه، حتى تنتهي إلى كتاب تقرؤه مرة واحدة، ويبقى حبيس الأرفف، وربما يُهدد بالطرد!

أما الكتب الأمهات فحقُّهن كالأمهات، لا تقطعهن، بل تصاحبهن دهرَك.

قال العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ): مَن لا يَختم «المدونة» في كل سنة، لا تحل له الفتوى منها[٢].

ولذا فهذا علي بن اللبان -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٩هـ) سمع «سنن أبي داود» بقراءته ست مرات[٣].

وقال النحوي أبو الفضل الرِّياشي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٧هـ): حفظتُ كتب الأصمعي؛ لكثرة ما كانت تتردَّد على سمعي[٤].

وقال شيخ البلاغيين في عصرنا محمد أبو موسى -حفظه الله تعالى-: لا تسألني:

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (ص: ٤٢).

(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢/٣٢).

(٣) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ٤١٥).

(٤) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٩٧).

كم مرة قرأت كتاب «إعجاز البلاغة» للجرجاني، ولكن قل: كم نسخة بلِيَتْ بين يديك؟!

وفي تكرار قراءة الكتب الأمهات مَيزة تَرُوقك، ففيها مزيد تفتق للأذهان بفهوم جديدة.

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): ما نظرتُ في «موطأ مالك» إلا ازددتُ فهمًا[١].

وليُعلم أن من الكتب ما يُقرأ مرةً فحسب، ومنها ما يكفي أن يُفهم فَحواه، ولو قُفزت بعض مَقاطِعه، ومنها ما لابدَّ له من استظهار صفحاته، وعليه -إذًا- أن يكرر قراءته كلما أبطأ عنه، وإن كتابًا كهذا تُعيد قراءته مرتين أنفع لك من قراءة كتابين مرة واحدة.

ومن العجائب أن أحمد بن الطيب الطبَنْداوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٨هـ) يحفظ كتاب «الإرشاد». ومع ذلك يقول: قرأت «الإرشاد» سبع مرات، وما صح لي إلا في المرة السابعة[٢].

قالوا تُكرّر فيه   قلت المكرّر أحلى[٣]

والسؤال المتبادِر يقول: لماذا هم يُكرِّرون؟

والجواب المتسارِع أن يُقال: يكرِّرون لأمور:

١- تثبيت العلم واستذكاره.

٢- تحصيل بركة المجلس وتعطيره.

٣- استثمار الوقت وحفظه.

٤- إتقان المكتوب ومقابلتُه.

٥- نَفاسَة الكتاب المقروء، وكثرة ثمراته.

---

(١) معجم ابن المقرئ (ص: ٤٠٩).

(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٠٧). ولكن لم أتبين ما مقصوده بكتاب الإرشاد!.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٦٣/١٠).

٦- التلذذ بالعلم بترديده:

أقول لهم كُرُّوا الحديث الذي مضى	وذِكـــراك مــن بـيـن الأنـــام أريــدُ
أنـــاشـــده إلا أعـــاد حـديـثـهُ	كأني بطيء الفهم حين يُعيدُ[١]

وبعض القراء يتضايق، ويشتكي أنه يقرأ كثيرًا، ولم يثبت معه من معلومات الكتاب إلا القليل، فيقال له: إن تكرار قراءة الكتاب الواحد مرات هي الحل المضمون.

فهذا ابن فرحون اليعمري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٩هـ) يقول: لازمتُ تفسير ابن عطية [١٠ مجلدات] حتى كدتُ أحفظه![٢].

وهذا أبو بكر بن خالص الحكمي -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٢٧هـ) أكبَّ على مطالعة «شرح مختصر الكرخي» عشر سنين، فكان لا يُسأل عن مسألة إلا أجاب منه[٣].

ويقال أيضًا: إن المدارك تختلف، والأذهان في ثبات فهم المقروء تتفاوت. ولذا قال الإمام النحوي أبو علي الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٧هـ): الذكاء على أربع طبقات؛ فأولها الذكاء الكبريتي؛ فإنه يفهم سريعًا، وينسى ذريعًا[٤]، وثانيها: طبقة أهل العلم، وهم يفهمون على بطءٍ ما، ولا يكادُون ينسَون سريعًا، وثالثها: الذي يفهم سريعًا ولا يَنسى، ورابعها: الذي لا يكاد يفهم إلا بعيدًا، وينسى قريبًا[٥].

والعَجب أن الواحد منا قد يطالع الكتاب مرة أخرى، وقد قيَّد عليه بخطه الفوائد النفسية على عادته، ثم يقف عليه بعد دهر، فيُعيد نظره فيه؛ لظنه أنه ما رآه قبل، فيزداد شوقًا لإعادة قراءته.

والطريف أنه إذا طال العهد، فربما توهم طالب العلم أن تعليقاته على كتاب له ليست بخطه، بل ظن أنها بخط غيره.

---

(١) المنتحل للثعالبي (ص: ٢١١).
(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١/٤٥٥).
(٣) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/٣٨٠).
(٤) أي: كثيرًا.
(٥) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ (٢/٢٩٥) والأعلام للزركلي (٢/١٧٩).

وقد وقع مثل ذلك لابن حجر؛ فإن أحد تلاميذه أوقفَه على كتاب غريب، فأخذه منه، واستغربه. قال التلميذ: فصرت في نفسي مسرورًا؛ من أجل أنني أوقفتُه على كتاب لم يقِف عليه، وهو يبالغ في تصفُّحه وتأمُّله، فلم ألبثْ أن قال: وهذا خطِّي عليه![1].



قال المفسر محمود الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٠هـ):

سهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وَصْـل غانيةٍ وطِيب عِناقِ
وتَمَايُلي طرَبًا لحل عَويصةٍ ... أشهى وأحلى من مُدامة ساقي
وصَريرُ أقلامي على أوراقها ... أحلى من الـدُّوْكـاة والعُشاقِ

[غرائب الاغتراب للألوسي (ص: ٢٩). والدُّوكاة: لحن من ألحان الموسيقى. وهذه الأبيات ينسبها بعضهم للشافعي، وبعضهم للزمخشري. ويرجِّح بعض الباحثين أنها متأخرة جدًا عن هذين. وأول من ذكرها محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ). ولذا يرجِّح أنها للألوسي].

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣٧٦/١).

٤١. إحصائية لطائفة ممن كرّروا قراءة كتاب معين

سبعة وسبعون نموذجًا مختارًا، للعلماء الذين كرَّروا قراءة كتاب معين[(١)]

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرَّره	كم كرره؟
١. الرسالة للشافعي = ١	المزني	٧٠
٢. الرسالة للشافعي	الربيع بن سليمان	نيف و٣٠
٣. الرسالة للشافعي	عبد الغني عبد الخالق	٥٠
٤. الوسيط للغزالي = ٧	النووي	٤٠٠
٥. الوسيط للغزالي = (كتابة بيده)	ابن عساكر القوصي	٤٨
٦. كتاب سيبويه=٣	ابن عيسى الأندلسي	٢٤
٧. الموطأ لمالك =٢	أبو بكر الأبهري	٤٥
٨. مختصر ابن عبد الحكم	-رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٥هـ)	٥٠٠
٩. الأسدية		٧٥

(١) ثمت كتب فلسفية فيها خطورة، لم أذكرها. وقد كرر قراءتَها المهتمون بها كثيرًا. وعلى سبيل المثال إليك هذين: أدب النفس لأرسطو، كرَّره الفارابي مئة مرة!. وأيضًا كتاب ما وراء الطبيعة لأرسطو، كرَّره ابن سينا أربعين مرّة!.

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرَّره	كم كرره؟
١٠. التوضيح	ابن محرز الأبناسي	٧٠
١١. الجامع الكبير لمحمد بن الحسن	أبو سعيد البردعي	٤٠٠
١٢. جزء البانياسي	ابن البطّيّ البغدادي	٢٠٠
١٣. الكافي للصردفي	ابن عطيف (ت ٨٨٦هـ)	٨٠
١٤. المغني لابن قدامة = ١٠	فقيه العراق الزريراني	٢٣ (٢)
١٥. شرح صحيح مسلم للنووي= ٩	ابن باز	٦٠
١٦. إحياء علوم الدين للغزالي = ٤	أحمد بن محمد الهادي (١٠٤٥هـ)	١٤
١٧. إحياء علوم الدين للغزالي	عبد الرحمن العيدروس(٩٢٣هـ)	٤٠
١٨. إحياء علوم الدين للغزالي	علي بن عبد الرحمن الحسيني	٥٠
١٩. إحياء علوم الدين للغزالي	عبد الرحمن بن علي الحسيني	٢٥
٢٠. الأغاني للأصفهاني = ٢٤	معالي الشيخ صالح اللحيدان	٧

(٢) وفي كل مرة يكتب حاشية عليها، فصار له على «المغني» ثلاث وعشرون حاشية. انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٥/٢).

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرَّره	كم كرره؟
٢١. الأغاني للأصفهاني	الأديب علي الطنطاوي	٣
٢٢. الأغاني للأصفهاني	شكيب أرسلان	٥
٢٣. آثار البشير الإبراهيمي = ٥	بكر أبو زيد	٥
٢٤. أعلام الموقعين لابن القيم = ٤	ابن باز	٤٠
٢٥. أعلام الموقعين لابن القيم	مشهور حسن سلمان	٣٠ (٣)
٢٦. الأعلام للزركلي = ٨	أحمد العلاونة	١٠٠
٢٧. الإعلام للزركلي	بكر أبو زيد	٥
٢٨. ألفية ابن مالك	ابن هشام	١٠٠٠
٢٩. الأيام - طه حسين	عبد الكريم الخضير	٥
٣٠. البداية والنهاية = ١٥	عبد الله بن سعدان	٧
٣١. البداية والنهاية لابن كثير	ابن باز	٧
٣٢. تفسير ابن كثير = ٨	عبد العزيز بن مقيرن	١٠
٣٣. تفسير الإيجي = ١	عبد الله بن عقيل	١٠٠

(٣) وسبب تحقيق الشيخ مشهور للكتاب كلمة مباركة، نقلها له الشيخ بكر أبو زيد، عن الشيخ ابن باز أنه قال: كتاب الإسلام إعلام الموقعين! قال ابن باز: قد درّسْته أربعين مرة! فمن أي الثلاثة تَعجَب؟! (من مقطع مرئي للشيخ مشهور في اليوتيوب).

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرَّره	كم كرره؟
٣٤. تفسير القرطبي = ١٠	عبد الرحمن بن معاضة الشهري	٥
٣٥. تفسير الكشاف = ٤	ابن السراج السجلماسي(١٠٥٧هـ)	٣٠
٣٦. التنكيل للمعلمي = ١	أبو إسحاق الحويني(٤)	٧٠
٣٧. تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون	عبد الله اللغبي العبدلي(٥)	٥٠
٣٨. جزء ابن عرفة	ابن الرفاء الشافعي	٦٠
٣٩. حياتي لأحمد أمين	عبد الكريم الخضير	٦
٤٠. الحيوان للجاحظ = ٧	عبد السلام هارون	٧
٤١. الروض المربع = ١	علي السالم آل جليدان	٤٠
٤٢. الروض المربع	وليد السعيدان	٤٩
٤٣. سير أعلام النبلاء للذهبي = ٢٣	أبو إسحاق الحويني	٢٤

(٤) وأخبر الحويني عن نفسه في مقطع مرئي: أنه نَسخ التنكيل بيده كاملاً! فيا لله ما أعظم تلك الهمم! وما أجلَّه من جَلَدا!.

(٥) هذا الشيخ النهِم المعاصر -في مقطع له- يُخبر عن نفسه أنه: قرأ مسند الإمام أحمد في مجلس سماع، وكانت مدة القراءة ١٧ يومًا، بواقع ١٤ ساعة يوميًا! ويُخبر أنه اشترى المسند وهو في الصف السادس الابتدائي!.

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرَّره	كم كرره؟
٤٤. سير أعلام النبلاء للذهبي	عبد العزيز العويّد	٥
٤٥. العلل لابن أبي حاتم = ٧	أبو إسحاق الحويني	١٠٠
٤٦. علماء نجد للبسام	عبد العزيز العويّد	٣
٤٧. فتح الباري لابن حجر = ١٣	أحمد معبد	١٨
٤٨. فتح الباري لابن حجر	حماد الأنصاري	٢٠
٤٩. فتح الباري لابن حجر	محمد الغلاوي	٣
٥٠. الفرج بعد الشدة = ٥	علي الطنطاوي	٣٠
٥١. الكافي للصروفي	علي الكريدي(٨٨٦هـ)	٨٠
٥٢. لسان العرب = ١٥	محمود شاكر	٣
٥٣. مختصر خليل	محمد الجمني (١١٧٠هـ)	٦٠
٥٤. مذكرات الشاذلي في حرب أكتوبر	أبو إسحاق الحويني	٩٠
٥٥. مسند الإمام أحمد	الألباني	٦
٥٦. معجم البلدان للحموي	بكر أبو زيد	٤
٥٧. المغني لابن قدامة = ١٠	أحمد حطيبة	٨
٥٨. مقامات الحريري	أبو سعيد الحلي	٦٠

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرَّره	كم كرره؟
٥٩. المهذب للشيرازي = ٣	محمد الغيثي التباعي	٩
٦٠. المهذب للشيرازي	ابن العجمي الكلبي	٢٥
٦١. ميزان الاعتدال للذهبي = ٤	حماد الأنصاري	١٠٠
٦٢. النظرات للمنفلوطي	علي الطنطاوي	٣٠
٦٣. الهداية = ٢	المَرْغِيناني (٥٩٣ هـ)	١٨
٦٤. الكتب الستة	الشيخ عابد السندي	ختمة شهرية
٦٥. صحيح البخاري	غالب بن عطية المحاربي	٧٠٠
٦٦. صحيح البخاري	أبو عبد الله اليونيني(٧٠١هـ)	شهريًا
٦٧. صحيح البخاري	سليمان العلوي اليمني	٢٨٠
٦٨. صحيح البخاري	نفيس الدين العلوي(٨٢٥هـ)	١٥٠
٦٩. صحيح البخاري	المسنِد/مساعد بشير	١٣٠
٧٠. صحيح البخاري	أصيل الدين الهروي	١٢٠
٧١. صحيح البخاري	محمد بن مقبل التاجر	٩٥

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرَّره	كم كرره؟
٧٢. صحيح البخاري	الحجّار ابن الشحنة	٧٠
٧٣. صحيح البخاري	برهان الدين الحلبي	٦٠
٧٤. صحيح البخاري	ابن الكلوتاتي (٨٣٥هـ)	٦٠
٧٥. صحيح البخاري	الكرماني	٦٠
٧٦. صحيح البخاري	سبط ابن العجمي	٦٠
٧٧. صحيح البخاري	موسى بن سعادة (٥١٤هـ)	٦٠

وبعد؛ فاعلم وتأمل -وقد انبهرتَ بهذه الأرقام-:

- أن الكتب المتميزة لا تكفيها قراءة لمرة واحدة، فكرِّر لتُقرِّر.
- أن هذا يُحدوكَ لتسير على طريقتهم وطريقهم، ومن سار على الدرب وصل.
- أن من يقول: أقرأ ولكن لا يرسخ في ذهني من الكتاب شيء، أن يقال له: كرِّر كما كرَّروا.

• انظر إلى أواخر هذا الجدول الحافل، في كثرة تكريرهم لقراءة الصحاح والصحيحين خصوصًا؛ لأنهما أفضل وأصح الكتب بعد القرآن. ولكن اعلم أن حُفاظ الصحيحين في زماننا من طلبة علم قد كرروا أحاديث الصحيحين مئات المرات؛ لأجل الحفظ والمراجعة، بل ربما آلاف المرات. وقل مثل هذا في شأن من يحفظ مَتنًا، ثم تَراهم يُحفِّظونها لطلابهم ويُسمِّعونها منهم، فيَتضاعَفُ العددا! ومثله من يُحقق كتابًا؛ فإنه سيقرؤه حتما عدة مرات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

• مع ذلك كله؛ فاعمل بما قد قاله بعض العلماء: لا ينبغي لمن يقرأ كتابًا: أن يتصور أنه يريد قراءته مرة ثانية؛ لأن هذا التصور يمنعه عن فهم جميع الكتاب، بل يتصور أنه لا يعود إليه مرة ثانية أبدًا(١).



(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد لابن بدران (ص: ٤٨٨).

٤٢. اللذة عند العثور على الفائدة النفيسة، والحَفاوة بها، والضَّنّ بها إلا على أهلها:

للمُكِب على كتب العلم فرحتان: فرحة عند انكبابه على العلم والفائدة، وفرحة بعد حصوله على الفائدة النفيسة، وتبليغه تلك الفائدة.

أردّد في ليلِي فرائد فِكرتي ... صحبي بليلَى مُوَلَّعا[١]

وعكسه مَن فاتته فائدة، أو نَسِيَها؛ فإنه يجِدُ في نفسه حسرة لا يُعبَّر عنها، وكَدَرًا لا يُصفِّيه إلا أن يُحصِّل مطلوبه، أو نظِيرَه.

وتأمل حسرة الإمام الفرّاء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) حينما قال: أموت وفي نفسي شيء من «حتى»! قال ذلك؛ لأنّها تَخفض وتَنصِب وتَرفع[٢].

فهذا العنوان أعلاه مشتمل على نقطتين؛ كلتيهما لذيذتان:

١. لذة لحظة العثور على الفائدة النفيسة.

٢. لذة بَذلِها لمن يستحقها، ثم تراه يحتفي بها، ويضِنُّ بها عمَّن ليس كذلك.

قال أبو حيان -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) عند قوله -سبحانه-: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ٣] وليس وراء التكرُّم، بإفادة الفوائد العلمية تكرُّم[٣].

فإذا رأيتَ من نفسك إقبالًا على نفائس الفوائد فاحمد الله -تعالى- أن فتح شهيتك لها دون من حولك، واعلم أن ذلك إكرام من ربك الأكرم. وكلا هاتين إكرام من الله -تعالى- لمن نالَهُما.

---

(١) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن لابن الأحمر (ص: ٨٢).

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٥/٤) ووفيات الأعيان (١٨٠/٦).

(٣) البحر المحيط في التفسير (٥٠٧/١٠).

فأما الأولى: **لذة لحظة العثور على الفائدة النفيسة.** فإن تلك اللحظة ألذ عنده من رِيق المُزن.

وهذه ينشطِر منها شطيرتان لذيذتان: لذة العلم على وجه الإبهام، ولذة العلم على وجه الإيضاح[١].

وإن لِلحظة عُثورك على نفيس الفوائد لذةً، كلذة إغفاءة الفجر. وهي وإن كانت قصيرة، لكنها تفتح شهيتك لما تستقبل من أيامك.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): من ذاق لذة شيء قويَتْ هِمته في تحصيله[٢].

وقال: كلما كانت شهوة الظَّفَر بالشيء أقوى؛ كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل[٣].

ذلك أن في حصول العلم بعد التشوق لذة مستقلة، وفيه دفع ألم التشوق، واللذة المشتملة على دفع الألم أحلى من مجرد اللذة الحاصلة بدونه.

العلم آنَسُ صاحب ... أخلو به في وِحدتي
فإذا اهتممتُ فسَلْوتي ... وإذا خلوت فلذَّتي[٤]

قال بعض الحكماء: من أخذ من العلوم نُتَفَها، ومن الحِكَم طَرَفَها، فقد أحرز عيونَها، وحاز مَكنونَها[٥].

وخذ الآن عشرات الأمثلة اللذيذة والطريفة، والسيَر السارّة واللطيفة؛ لمعايشتهم لذة لحظة العثور على الفائدة النفيسة، وهي لذة تأتي على أحد شطرين؛ لذة على وجه الإبهام، أو لذة على وجه الإيضاح:

---

(١) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٨٢/٢).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٥٨).
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٣٤/١).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٢٣٠/٢).
(٥) الأمالي الشجرية (٤٥/١).

١. تأمل مدى تحسُّر ذلك الصحابي النهِم على فوات فائدة، ثم مقدار فرحته لما أدركها: فإنه لما توفي رسول الله ﷺ قال عمر بن الخطاب لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما: ما لي أراك قد شعثتَ واغبررتَ؟! لعلك ساءَتْك يا طلحة إمارة ابن عمك؟ - يعني أبا بكر رضي الله عنه فقال: لا، مَعاذَ الله [وأثنى على أبي بكر] ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إني لأعلم كلمةً لا يقولها عبد عند موته إلا وجد رُوحه لها رَوحًا حين تخرج من جسده، وكانت نورًا لصحيفته**. فلم أسأل رسول الله ﷺ عنها، ولم يخبرني بها، فذلك الذي دخلني. قال عمر رضي الله عنه: فأنا أعلمها. قال طلحة: فلله الحمد! فما هي؟! قال: هي الكلمة التي أراد عمَّه عليها عند الموت؛ لا إله إلا الله. فقال طلحة: صدقتَ، هي واللهِ هي! لو علِم كلمةً هي أفضل منها لأمَرَه بها(١).

٢. قال أبو الدرداء رضي الله عنه (ت ٣٢هـ): لولا ثلاث خِلالٍ ما أحببتُ أن أبقى في الدنيا -وذكر منها-: ومُقاعَدة أقوام، يَنتقون الكلام كما تُنتقَى الفواكه(٢). وبنحوه عن حذيفة رضي الله عنه (ت ٣٦هـ) بلفظ: ومزاحمة العلماء بالرُّكَب(٣).

٣. كان ابن الحنظلية رضي الله عنه (ت ٤١هـ) يمرُّ على أبي الدرداء رضي الله عنه، فكلما مرَّ قال له أبو الدرداء: كلمة تنفعنا ولا تضرك. وفي إحدى الفوائد يقول الراوي: فرأيت أبا الدرداء سُرَّ بذلك، وجعل يرفع رأسه إليه، ويقول: أنت سمعت ذلك من رسول الله ﷺ؟ فيقول: نعم، فما زال يعيد عليه، حتى إني لأقول: ليَبْرُكَنَّ على ركبتيه(٤).

٤. قال أبو عمرو بن العلاء -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٤هـ): خرجتُ هاربًا من الحجاج إلى مكة، فبينا أنا أطوف بالبيت، إذا أعرابي ينشد:

ربما تَجزع النفوس من الأمْـ ... ـر لـه فَـرْجـةٌ كَـحَـلِّ الـعِـقـالِ

فقلت: مَهْ؟ فقال: مات الحجاج. قال: فلا أدري بأي القولين كنت أُسَرُّ؟! بقوله: فَرْجة، بفتح الفاء، أو بموت الحجاج(٥).

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٩٥) وأحمد (٢٥٢). وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٩٢).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٠/٤٧).
(٣) المصدر السابق (٢٩٩/١٢).
(٤) سنن أبي داود ت الأرنؤوط (١٨٧/٦).
(٥) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٦٩/٤).

فلا تُضِع في سوى تقييد شاردهِ عمرًا يفوتك بين اللحظ والنفَس[١]

٥. شعبة بن الحجاج -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٠هـ) روى حديثًا عزيزًا، عن عبد الله بن دينار، ومن فرحته بهذا الحديث قال: لوددتُ أن عبد الله بن دينار أذِن لي؛ حتى كنت أقوم إليه، فأقبِّل رأسه[٢].

٦. كان إسماعيل بن عياش -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) يُحْيي الليل، فكان ربما قطع، ثم رجع، فقرأ من الموضع الذي قطع.. فسئل عن سبب قطعه، فقال: إني أصلي، فأقرأ، فأذكر الحديث في الباب من الأبواب، فأقطع الصلاة، فأكتبه فيه، ثم أرجع إلى صلاتي، فأبتدئ من الموضع الذي قَطعتُ منه[٣].

٧. كان الفقيه الحنفي محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) إذا سهر الليالي، وانحلت له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟![٤].

فاشدُدْ يديك بحبل العلم معتصمًا فالعلم للمرء مثل الماء للسمكِ[٥]

٨. النضْر بن شُميل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٣هـ) ردّ على لحنةٍ؛ وقعت من الخليفة المأمون، في لفظة من حديث: **أَيُّما رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لِدِينِهَا وَجَمَالِهَا كَانَ ذَلِكَ سِدَادًا مِنْ عَوَزٍ**. ففَتَح السين، فقال: يا نضْرُ؛ أَوَ تُلَحِّنُني؟! فما الفرق بينهما؟ فقال النضْر: السّداد بالفتح القصد في الدِّين والسبيل، والسِّداد بالكسر البُلغة.. فأمر له الخليفة بخمسين ألف درهم، ثم وزيره بثلاثين. قال النضر: فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف استُفيد مني[٦].

٩. سئل الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): كيف شهوتك للأدب؟ قال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه، فتودُّ أعضائي أن لها أسماعًا تتنعم به، مثل ما تنعمت

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٥/١).
(٢) الكامل في ضعفاء الرجال (١٥٣/١).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/٩).
(٤) تعليم المتعلم طريق التعلم (ص: ٤٩).
(٥) مجاني الأدب في حدائق العرب (٢٢/١).
(٦) مجالس العلماء للزجاجي (ص: ١٥٢) ونزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٧٤) ومعجم الأدباء (٢٧٥٩/٦).

الأذنان. قيل: وكيف حرصك عليه؟ قال: حِرص الجَموع المَنوع، على بلوغ لذَّته في المال. قيل: وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المُضِلَّة ولدَها، وليس لها غيره[١].

وكانت أمه وبنته تخدمانه في سبيل التأليف. قالت عنه أمه: ربما قدَّمنا المصباح ثلاثين مرة في ليلة واحدة، إلى بين يدي الشافعي، وكان يستلقي ويتفكر، ثم ينادي: يا جارية هلُمِّي المصباح. فتُقدمه، ويكتب ما يكتب، ثم يقول: ارفعيه. وقالت ابنته فاطمة: أسرجت لأبي في ليلةٍ سبعين مرة[٢].

١٠. المؤرخ الشهير الواقدي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) رفع إلى المأمون رقعة، فذكر فيها غلبة الدَّين، وغَمَّه بذلك. فوقَّع المأمون على ظهر رقعته: أمرنا لك بكذا وكذا. وقال: أنت حدثتني بالفائدة الفلانية. وذكَرَها المأمون. قال الواقدي: وكنت أُنسيتها، فكانت مذاكرته إياي بها أعجب إليَّ من الجائزة[٣].

١١. قال الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ): سمعت أعرابيًا يقول: عطس فلان، فخرج من أنفه جُلُعْلُعَة. فسألته عن الكلمة، ففسرها، فلا أنسى فرحي بهذه الفائدة[٤].

١٢. قال المحدث الفقيه الأديب أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٤هـ): كنت في تصنيف هذا الكتاب -كتاب غريب الحديث- أربعين سنة، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال، فأضعها في موضعها من هذا الكتاب، فأبيت ساهرًا فرحًا مني بتلك الفائدة[٥].

١٣. قال أبو الصلت الهروي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٦هـ) محتفيًا بإسناد حديث؛ كله من آل البيت: لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق[٦].

---

(١) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/١٤٣-١٤٤).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/١٠٤) والحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٧٣).
(٣) مشيخة قاضي المارستان (٢/٦٦٦).
(٤) وسرُّ فرحه أنه لم يأتِ على وزن فُلُعْلُعَة إلا كلمة جُلُعْلُعَة، وهي خنفساء؛ نصفها طين، ونصفها حيوان. انظر: جمهرة اللغة (٢/١٢٢٣).
(٥) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/٢٦١).
(٦) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (١/٣١).

١٤. اللغوي المشهور المبرد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٦هـ) لما سمع فائدة نفيسة، أرجعته عن رأي رآه، فقال حينها: حسبك، فما سرني بهذه الفائدة حمر النَّعم[١].

يا جامع العلم نِعم الذُّخر تجمعه لا تـعـدِلـنَّ بـه دُرًا ولا ذهـبًـا[٢]

١٥. أبو جعفر النسفي -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٤هـ) قد بات ليلة مهمومًا من الضيقة وسوء الحال، فوقع في خاطره فرع من فروع مذهبه، فأعجب به، فقام قائما يَرقص في داره، ويقول: أين الملوك وأبناء الملوك؟! فسألتْه زوجته عن ذلك، فأخبرها، فتعجبتْ[٣]

١٦. قال ابن البَاذِش -رحمه الله- (ت ٥٤٠هـ): فدونَك فائدة تُشَدُّ الرحال فيما دونه، ويَلْقاها الرجال ولا يعدونها يتيمة فارِدة، وغنيمة باردة، لم تُنادِك من وراء حجاب، ولا أُوجِف عليها بخيل ولا ركاب[٤].

١٧. قال عبد الكريم السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ): كنتُ قاعدًا في الجامع، أنسخ شيئًا من الحديث، فدخل شيخ ذو هيئة رثة، فسلم وقعد، فقال لي: إيْش تكتب؟ فكرهتُ جوابه. ثم قلتُ متبرمًا: الحديث، فقال: من أين أنت؟ قلت: من مَرْو، قال: عمَّن يروي البخاري الحديث من مَرْو؟ قلت: عن عَبْدان وجماعة، قال لي: لمَ قيل له عبدان؟ فوقفتُ فتبسم، فنظرت إليه بعين أخرى، وقلت: يذكره الشيخ، فقال: كنيته أبو عبد الرحمن، واسمه عبد الله، فاجتمع في اسمه وكنيته العَبدان، فقيل له عبدان. ففرحتُ بهذه الفائدة[٥].

١٨. أبو القاسم السهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) لما توصَّل لمسألة حسابية عجيبة قال: ولو لم يكن في هذا المختصر إلا هذه الفائدة، لكانت تساوي رحلة، فالحمد لله الذي وفق إليها، وأعان عليها بعد قرع طويل لِبابها[٦]

---

(١) البصائر والذخائر (١٤٢/٦).
(٢) منتقى من العشرين جزءًا المنتخبة (الخلعيات) (ص: ٤٧).
(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٦٢/١٥) والجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢٥/٢).
(٤) الإقناع في القراءات السبع (ص: ٩).
(٥) التحبير في المعجم الكبير (٢٤٨/٢) والمنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٦٤٢). والشيخ هو محمد بن هبة الله بن العلاء البروجردي.
(٦) الفرائض وشرح آيات الوصية (ص: ٨٨).

١٩. ومن بديع الأبيات قول الأمير أسامة بن منقذ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٤هـ):

قالوا نهاهُ الأربعون عن الصِّبا ... وأخو المشيب يجور ثُمَّتَ يهتدي
كم حار في ليل الشباب فدلَّه ... صبح المشيب على الطَّريق الأقصدِ
وإذا عددتُ سِنِيِّيْ ثم نقصتُها ... زمن الهموم فتلك ساعة مولدي(١)

وهذه الأبيات قال عنهن العماد الأصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): لولا أن المِداد أفضل ما رُقم به صحائف الكتب، لحررتُ هذه الأبيات بماء الذهب(٢).

٢٠. قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ): جاءني بخوارزم أحد أعيان أدبائها وقال لي: قد أطلتُ السؤال والتفتيش عن معنى قولهم: «تغافُل واسطي» فلم أظفر به. ولم يكن لي في ذلك الوقت به علم، حتى وجدته بعد ذلك، فأخبرته(٣).

٢١. الأمير الأندلسي والعالِم موسى بن سعيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٠هـ) علِم أن لدى بعض المنسوبين إلى العلم كراريس تاريخية وأدبية، وأنه حلف ألا تخرج من منزله، وإن من أراد الاطلاع عليها فليأتِ على رأسه. فلم تأخذه عِزة الإمارة، بل سار إليه، وقال: إني لا أمشي إليه، ولكن أمشي إلى الفضلاء، الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم! أتُراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أَنِفْتُ أن أمشي إليهم؟! فإن الأثر يَنوب عن العين. فمشى إلى منزل الرجل، فلما قضى نَهْمته شكره، وقال: هذه فائدة لم أجِدْها عند غيرك، فجزاك الله تعالى خيرًا، بل إنني سُررتُ بهذه الفائدة أكثر من الولاية(٤).

٢٢. قال التُّورِبِشْتِي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦١هـ) محتفيًا بفائدة طال بحثُه لها: ولقد استَبْهَمَ عليَّ وجه قوله ﷺ: بنت لبون أنثى. ففتشتُ منه بطون الدفاتر، وفاوضتُ

(١) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة (٣٣/١).
(٢) خريدة القصر وجريدة العصر (٣٤٢/٢).
(٣) معجم البلدان (٣٥٠/٥).
(٤) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٣٢٩/٢).

فيه من صادفته بصدد الفهم من أهل العلم، فلم أَصدُر عن تلك الموارد بِبِلَّة، ثم إن الله- تعالى- ألهمني فيه وجه الصواب.. وبعد برهة من الدهر، كنت أتصفح كتابًا لبعض علماء المغرب، فوجدته قد سبقني بالقول فيه، عن نفسه أو عن غيره، على شاكلة ما جئت به، ولو اطلع مطلع على القولين، لقضى عليَّ بالانتحال[١].

٢٣. الطبيب ابن النفيس -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٧هـ) دخل إلى الحمام، فلما كان في بعض تغسيله خرج، واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض، إلى أن أنهاها، ثم عاد، وكمَّل تغسيله[٢].

٢٤. الفقيه الحنبلي سليمان الطوفي الصرصري -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٦هـ) من شدة لذته بالعثور على الفائدة يهدي ثواب عمل لمن أفاده بها، فيقول: ولقد طالما نظرت في كتب الفضلاء، فإذا رأيت فائدة مستغربة، أو حل أمر مشكل، أقرأ لمصنف الكتاب شيئًا من القرآن، وأجعل له ثوابه، على مذهبنا في ذلك[٣].

٢٥. قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ) ومن كلام أبي يوسف، الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله: مَن تَتَبَّع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تَزَنْدَقَ[٤].

يحثه الْحِرْص على نُكْتَةٍ ... يَكْتُبهَا عَنهُ بِمَاء الذَّهَب[٥]

٢٦. الزركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) أشار لأسلوب قرآني، يعين فهمه على تدبر القرآن، فقال: وهذا الباب يُطلعك على سر عظيم من أسرار القرآن، فاشدد يديك به[٦]

---

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة للتُوْرِبِشْتِي (١٣٦٢/٤).
(٢) الوافي بالوفيات (١٨٤/٢٠).
(٣) شرح مختصر الروضة للطوفي (١٠٩/١) والصرصري هذا قال عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (٤٠٩/٤): وكان مع ذلك كله شيعيًا منحرفًا في الاعتقاد عن السنة، ووجد له في الرفض قصائد.
(٤) البداية والنهاية ط هجر (٦١٧/١٣).
(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤٠٧/١).
(٦) البرهان في علوم القرآن (٧٩/١).

٢٧. قال ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ): وهذا الأثر لم أظفر به إلا بعد عشرين سنة من تبييض هذا الكتاب، فاستفِده -ولله الحمد-[١].

٢٨. الحافظ سراج الدين البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) قال عنه ابن حجر: ما رأيت أحدًا ممن لقيته أحرص على تحصيل الفائدة منه، بحيث إنه كان إذا طرق سمعه شيء لم يكن يعرفه، لا يقر ولا يهتدي ولا ينام، حتى يقف عليه، ويحفظه[٢].

وإذا المسائل أحجمت وتمنعت ... وأبت مشاكلها على الحُذَّاق
أعملت سيف الفكر نحو عويصها ... فحنَت علىَّ خواضع الأعناق[٣]

٢٩. قال الدَّمِيري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) وهو يذكر فائدة حسابية عجيبة جدًا: وكنت قد بخلت بهذه الفائدة أن أُوْدِعَها هذا الكتاب، ثم رأيت إثباتها فيه[٤].

٣٠. قال ابن الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) لما ابتهج بذِكْر فائدة جليلة، من فوائد اختلاف القراءات: فلو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة الجليلة لكَفَتْ، ولو لم يكن من الخصائص إلا هذه الخَصِيصة النبيلة لَوَفَتْ[٥].

تجِدْ غررًا حَوَتْ دُرَرًا ... عليها تكثر الغَوصا[٦]

٣١. قال البقاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) محتفيًا بقاعدة قرآنية نفيسة: فدونَك قاعدة نفيسة طالما تطلبتُها، وسألتُ عنها الفضلاء فما وجدتُها، وضربت بفكري في رياض الفنون، ومهامِهِ العلوم حتى تصورتُها، ثم بعد فراغي من تفسيري رأيت الكشاف أشار إليها[٧].

---

(١) البدر المنير (٨/٦٦٢).
(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (ص: ٢٢٧).
(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٣٦).
(٤) شرح لامية العجم للدميري (ص: ٧٧) وحياة الحيوان الكبرى (٢/٤٨٢).
(٥) النشر في القراءات العشر (١/٥٣).
(٦) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٣/٢١٥).
(٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/٣٦٧).

٣٢. وقال -أيضًا- لما جمع مبحثًا أضناه جمعُه: فدونَك جمعًا طالما دارت فيه الرؤوس، وحارت فيه الأفكار في المحافل والدروس[(١)].

٣٣. قال الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) عن شيخه محيي الدين الكافِيَجِي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٩هـ): ولزمتُه أربع عشرة سنة. قال لي يومًا: أعرب: «زيد قائم» فقلت: قد صِرنا في مقام الصغار، ونُسأل عن هذا! فقال لي: في «زيد قائم» مئة وثلاثة عشر بحثًا، فقلت: لا أقوم من هذا المجلس، حتى أستفيدها[(٢)].

٣٤. قال المُحبي -رحمه الله تعالى- (ت ١١١١هـ): سألت كثيرًا ممن لقيته من أهل مصر وأهل بلدتنا، عن وفاة أبي السماع، فلم أظفر بها[(٣)].

٣٥. أبو البركات السويدي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٤هـ) في مباحثة علمية يقول: وهذه العبارة، ما رأيت أحدًا أجاب عنها، بل غالبهم يقول: إنها سهو، ولما فتح الله لي بحلِّها سجدتُ لله شكرًا[(٤)].

٣٦. قبل بضعة عقود، كان فقيه يسكن بفاسٍ بالمغرب، وله مكتبة فوق السّطوح، فيظل فيها الليل كلّه يقرأ ويبحث، وكان إذا فتح الله عليه في مسألة من المسائل، يأخذ دُفًا كان يعلِّقه في حائط غرفته، ويبدأ في الضرب عليه بسعادة وفرح، وكان الناس إذا سمعوا ضرب الدف، يقولون: ها هو الشيخ قد فَهِم![(٥)].

٣٧. قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ): فاشدُد يديك على ما ذكرناه ها هنا، من الجواب على المحتالين؛ فإنك إن جاوبتهم به ألقَمْتَهم حَجَرًا، وقطعتهم قَطعًا لا يجدون عنه محيصًا[(٦)].

---

(١) المصدر السابق (١٢٥/٢).
(٢) بغية الوعاة (١١٨/١).
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٣٠/١).
(٤) النفحة المسكية في الرحلة المكية (ص: ١٤٢).
(٥) نبضة قلم/ربيع السملالي (ص٧٢).
(٦) قطر الولي على حديث الولي (ص: ٣٦٠).

٣٨. قال المفسر الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٠هـ): وقد ألف شيخنا علاء الدين رسالة في هذه الآية الكريمة [آية ٤١ هود] فبلغ مئة وخمسين مزية، وقد تطلبتُ هذه الرسالة؛ لأذكر شيئًا من لطائفها، فلم أظفر بها[١].

٣٩. من أروع الأبيات الواصفة لذة تحصيل الفائدة بعد تعب، وينسب للألوسي:

سهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وَصْل غانيةٍ وطِيب عِناق
وتَمَايُلي طرَبًا لحل عَويصة ... أشهى وأحلى من مُدامة ساقي
أأبيتُ سهران الدُّجى وتبيتُه ... نوما وتَبغي بعد ذاك لحاقي؟![٢]

٤٠. صُلاَّحي بن المامي -رحمه الله تعالى- (بعد ١٣٠٣هـ) كان مولَعًا بتحرير المسائل، وكان له طبل يحمله معه أينما توجَّه! فإذا عنَّت مسألة عويصة وفُهمت، ضرب ذلك الطبل![٣].

٤١. قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٦هـ): ومن لطائف التعليقات على إشكالات الفوائد: أن بعضهم سمع خبرًا فيه ذكر أبي الحَوراء -بالحاء والراء- فكتبه، وخاف أن يلتبس فيما بعد بأبي الجَوزاء، فلم يكتفِ بعدم النقْط، ولا بوضع العلامات، حتى كتب تحت الكلمة «حُور عِين»[٤].

٤٢. قال المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): وأما الحسَن بن ثواب؛ فقد أضناني البحث عنه حتى وجدته، فسجدت لله؛ شكرًا على توفيقه - فأساله المزيد من فضله-[٥].

٤٣. والألباني -أيضًا- وجد فائدة عزيزة في مخطوطة فقال: وهذا من النفائس التي وقفت عليها - بفضله تعالى- في بعض المخطوطات المحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق الشام -حرسها الله تعالى-.. وهذه فائدة عزيزة، فشُدَّ يديك عليها[٦].

---

(١) تفسير الألوسي (٦/٢٦٥).
(٢) غرائب الاغتراب للألوسي (ص ٢٩).
(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٢٢٢).
(٤) انظر النكت الجياد المنتخبة من كلام شيخ النقاد (٤/٥٣٢).
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/١٠٠٥).
(٦) المصدر السابق (٦/٦٥٧).

٤٤. مفتي اليمن محمد بن إسماعيل العمراني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ) مكث أربعين سنة، يبحث عن اسم المدينة الحبشية، التي هاجر إليها الصحابة، وراسَل مراكز متخصصة بأوروبا وأمريكا، فلم يظفَر بجواب، حتى هداه الله إلى موضعها، وأنها في أرتيريا، وليست في الحبشة؛ لأن أرتيريا كانت جزءًا من الحبشة، واسم المدينة: «ميكيلي العلّامة» بمقاطعة «تيجراي»[١].

وأما النقطة الثانية: لذة بَذلِ الفائدة لمن يستحقها، الذي يحتفي بها، والضَنُّ بها عمن ليس كذلك.

فإن العلماء يسمون من يجمع نفائس الفوائد بالمُغْرِب، والإغراب هو أن يجمع ويدوِّن من الروايات والفوائد والنُّكات العلمية ما ليس عند الآخرين.

وتَكمُن وتكمُل اللذة فيها باثنتين:

١- بالفرح بمشاركة غيرك لها، ممن يَقْدُر العلم قَدره.

واعتبِر بشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) كيف أنه يتمنى أن يتلذذ الناس بما يعرفه هو من العلم، حيث قال: فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تَقَرُّ به أعينهم، وأن يُفتح لهم من معرفة الله وطاعته، والجهاد في سبيله، ما يَصِلون به إلى أعلى الدرجات[٢].

٢- بالضنِّ بها لغير أهلها المحتفِين بها؛ لأن الراغبين بها قليل، والراغبين عنها كثير، ولا ضَير؛ فالعلم نَفيس، ومقامه عزيز، فلتُعطَ مسائله إعزازًا وإبرازًا.

قال عمر ﷺ (ت ٢٣هـ): ما ضرَّت حكمةٌ قطُّ ليس لها خَوَاطب[٣].

والفائدة المحفوظة بالصدر أكثر نفاسة من المحفوظة بالسطر. والعلم ما دام في صدور الرجال؛ فإنهم لا يمنحونه غير أهله، فإذا صار إلى الصُّحف وقع عليه مَن ليس من أهله[٤].

---

(١) من مقطع مرئي للشيخ نفسه.

(٢) مجموع الفتاوى (٤١/٢٨).

(٣) أخبار وحكايات للغساني (ص: ١٦).

(٤) لوامع الدرر في هتك أستار المختصر (١٥٤/٤).

ومع ذلك؛ فعلى المرء أن يُقدِّم فائدته بطبق من ذهب، لا بطبق مكسور مُهْترئ. وليطرحها للطالب بأسلوب جاذب. وليفعل كفعل الصحابي الجليل كعب بن عُجرة ﷺ (ت ٥٢هـ) كيف يمهِّد ويرغِّب بالفائدة التي سيلقيها بأسلوب جاذب. فقد قال التابعي عبد الرحمن بن أبي ليلى: لقَيني كعب بن عُجرة، فقال: ألا أُهدي لك هدية سمعتُها من النبي ﷺ؟ فقلت: بلى، فأهدِها لي، فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت، فإن الله قد علَّمنا كيف نسلِّم عليكم؟ قال: «**قولوا: اللَّهُمَّ صل على محمد..**»(١).

ومن حَدَبِهم على بذل الفائدة، ونُصحهم للمستفيد أنك ترى الواحد منهم يدُلُّ التلميذ على ما هو أحسن من مسألته.

فهذا أبو طالب المكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٦هـ) سئل عن مسألة، فقال للسائل: ألا أعلمك دعاء، هو خير لك من جواب مسألتك؟ فقال: بلى. قال: قل: اللَّهُمَّ اجعلني لك خالصًا، واجعل لي منك نصيبًا(٢).

وتجِدهم يبذلون فرائد الفوائد لمن يسترخص المال في سبيل تحصيلها، أو ربما يحتالون لإحرازها، ومن كان له حيلة فليَحتلْ.

قال أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) لخلائق مجتمعين من أصحابه في طلب العلم: مَن أغربَ عليَّ حديثًا غريبًا مسندًا صحيحًا لم أسمع به، فله عليَّ درهم يَتصدق به. قال: وكان مُرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي، فأذهب فأسمع، فما تهيَّأ لأحد منهم أن يُغْرِبَ عليَّ حديثًا(٣).

هكذا يتطلبون الفائدة جهدَهم، ويبذلونها من مُهجِهم، لكنهم إذا وجدوا قَبيلَهم ليس أهلًا لبذل الفائدة، فإنهم يشِحُّون بها؛ صيانة للعلم وأهله.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٧٠) وصحيح مسلم (٤٠٦).
(٢) الطيوريات (١٣٤٤/٤).
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٤١٤/٢).

وقد قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): المسألة الدقيقة اللطيفة التي تُبذَل لغير أهلها، كالمرأة لحسناء التي تُهدَى إلى ضريرٍ مُقعَد[١].

وقال القِفْطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ) -معتذِرًا-: النفوس بخيلة بالنفائس، شحيحة بإبراز العرائس..فلِمَ أُلامُ إذا أخفيتُه عن طالبِيه، وحجبتُه عن خاطِبيه؟![٢].

قال إبراهيم النخعي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦هـ): كانوا يَكرهون إذا اجتمعوا أن يُخرج الرجل أحسن حديثه، أو أحسن ما عنده[٣].

وكأنهم يريدون ألا تُبذلَ إلالمستحقها، وفي وقت مستَحقها، قياسًا على الزكاة: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وإلا ففي النفس فرائدُ، يَهِيمُ الفَهِمُ إذا سمعها طربًا، وينطق شاكرُها ملءَ فيه، ومباحث ما البدورُ الكواملُ إلا ما تطلع، ولا العُرُبُ الأترابُ إلا ما تَفُوهُ به بنات فِكرها وتسمع[٤].

نعم؛ لا يُجحد أن بعض الناس بخيل بالفائدة، وإذا طُلبت منه فبشِقِّ الأنفس تُستخرج منه، فلا هو يبذلها، ولا يفرح أن غيره يبذلها.

ولذا فقد فسَّر سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥هـ) قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٧] قال: (هذا في العلم؛ ليس للدنيا منه شيء)[٥].

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): الباخِل بالعلم ألأَمُ من الباخل بالمال؛ لأن الباخل بالعلم بخِل بما لا يَفنى على النفقة[٦].

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٣٠٦).
(٢) معجم الأدباء (١/١٤).
(٣) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص: ٥٦١).
(٤) الإبهاج في شرح المنهاج (٧/٢٩٦٧).
(٥) العلم لزهير بن حرب (ص: ١٣) وتفسير ابن أبي حاتم(٣/٩٥١).
(٦) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٢).

ومما وَصفوا به الأديب المؤرخ ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) أنه كان ضَنينًا بما يجمعه، لا يحب إطلاع أحد على ما يؤلف، شديد الحرص عليه، لا يُفيد لمخلوق فائدة ألبتَّة. وكان ربما سُئل عن شيء وهو به عارف فلم يُجِب عنه؛ شحًا وجفاءَ طبع[١].

وأيضًا فإنهم -والتاريخ مكشوف لا يَرحم- وَصَفُوا المقرئ الفقيه عمر بن فتوح الدمنهوري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٢هـ): أنه كان ضَنينًا بعِلمه، وقد خلَّف جملة من الكُتُب، وهلكت بعده، فلم يُنتفع بها، ولم يُعمل فيها خيرًا[٢].

قال الأمير الأديب عبد الله بن طاهر (ت ٢٣٠هـ): لا تمنعوا العلم طالبَه؛ فإنه أوحشُ جانبًا من أن يستقر إلا عند أهله[٣].

ومن غرائب المواقف في هذا الباب: أن ابن القطاع السعدي اللغوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٥هـ) سئل عن معنى الجيم، فقال: من أراد عِلم ذلك فليعطني مئة دينار؛ حتى أفيده ذلك. فما في القوم من نَبَس بكلمة. ومات ابن القطاع، ولم يُفِدها أحدًا!

قال القِفْطي: ولما سمعتُ ذلك؛ اجتهدت في مطالعة الكتب والنظر في اللغة، إلى أن عثرتُ على الكلمة، في مكان غامض من أمكنة اللغة، فكنتُ أُذاكر الجماعة، وأقول: من أراد عِلم ذاك فليُعطِ عشرة دنانير. فيسكت الحاضرون عند هذا القول! فانظر إلى قلة همة الناس، وفساد طريق العلم، ونقض العزم! فلعَن الله دنيا تُختار على استفادة العلوم[٤]!.

لكن بذل العلم بلا مقابل أكثر بركة، لا سيما إذا كان تبادلًا للفوائد.

---

(١) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (١٩٨/٧).

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (٥٩٧/١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٣٥٣/٢).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٧٣/١٢).

(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢٦٠/١). قال عمر تدمري محقق «تاريخ الإسلام» (٥٥/١٤) وما أحسن ما قال: رحم الله القِفطي؛ فهو لم يُفصِح -أيضًا- عن معنى «الجيم»! ولكن يقال: معرفة معنى الجيم مسألة في العلم لا يضر الجهل بها، بل قد يضر العلم بها، ولو كان فيها خير لنشر الله ذكرها.

قال ابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ): أولى منفعة للعلم أن يُفيد بعضكم بعضًا[١].

فينبغي لمن وهبه الله علما يُنتفَع به؛ أن يفرح بنقل ونشر أي فائدة ينفرد بها، وأن يفرح بانتشارها، وأن يبذلها بلا مشارطة أو مقايظة، أسوةً بقول أبي العالية -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠هـ): عَلِّم مَجانًا كما عُلِّمْتَ مَجانًا[٢].

بل إن بعض المتلذذين كريمٌ بمعلومته، يتهلل وجهه حين بذلها، فتراه: يُبادِهُك بما رقَّ وراقَ، ويجلب لك الغصن من ثمرات الأوراق، ويجود على السمع من راحِ مُلَحِه ما يوجب لك الارتياح[٣].

في كل يوم يُريك فائدة	أحسن منها بما يفيد غدا
ومن تكن هذه خلائقه	فأنت منه في نعمة أبدا[٤]

هدي النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في بذل العلم والتشويق له:

فأما هدي النبي ﷺ في بذل العلم، والجود بأكثر مما سأل السائل فدُونكَ الأمثلة، متبوعة بتطبيقات الصحابة للهدي النبوي:

١) المبادرة ببذل الفائدة دون طلبٍ من المُتتلمِذ والمُجالِس:

وهذا من مبدأ النصح لطالب العلم، لئلا يستهين بنفائس الفوائد دون أن يُنْعِمَ النظرَ فيها. فكم من فائدةٍ يمرّ عليها الطالبُ دون شعوره بنفاستها العلمية إلا بلفت انتباهٍ من شيخ أو عالم.

قال أبو سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه (ت ٧٣هـ): كنتُ أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ..ثم قال لي: **لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن**.. الحديث[٥].

---

(١) مجالس من أمالي أبي عبد الله بن منده (ص: ٣٤٤).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨/١٧٩).
(٣) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (١/١٠٩).
(٤) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٤٩١).
(٥) صحيح البخاري (٤٤٧٤).

وقصة كعب بن عُجرة ﷺ (بعد ٥٠هـ) فيها مبادرة جميلة من كعب لتلميذه -وقد مرَّت آنفًا-(١).

٢) حسن البيان للفائدة المبذولة، ومزيد إيضاحها بأمثلة، وطرح متعلقاتها:

قال رسول الله ﷺ: **الذهب بالذهب وزنًا بوزن، مِثلًا بمِثل، والفضة بالفضة وزنًا بوزن، مِثلًا بمِثل، فمن زاد أو استزاد فهو ربا**(٢).

قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): فإذا قال قائل: ما مناسبة ذكر الميزان في هذه الصورة؟ فالجواب: أن رسول الله ﷺ كان من حُسن تعليمه، إذا ذكر الشيء ذكر ما يمكن أن يَحتاج إليه السائل، وإن لم يَسأل عنه(٣).

قال زاذان -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣هـ): سألت ابن عمر عما نهى عنه رسول الله ﷺ من الأوعية، وأخبِرناه بِلُغتكم، وفسِره لنا بِلُغتنا، فقال: نهى رسول الله ﷺ عن الحنْتمة، وهي الجرَّة، ونهى عن الدباء، وهي القرعة، ونهى عن النقير، وهو أصل النخل، يُنقر نقرًا أو يُنسح نسحًا، ونهى عن المزفَّت، وهي المقيَّر، وأمر أن يُنبذ في الأسقية(٤).

٣) الفرح بمن يطلب الفائدة، بل والاستبشار بغدوِّ طلبة العلم النهِمين، والترحيب بهم:

ولما قال أبو هريرة ﷺ (ت ٥٧هـ): يا رسول الله، مَن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: **لقد ظننتُ، يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيتُ من حرصك على الحديث..**(٥)

وقال صفوان بن عسال المرادي ﷺ (ت ٣٥هـ): أتيت رسول الله ﷺ وهو متكئ

(١) صحيح البخاري (٣٣٧٠) وصحيح مسلم (٤٠٦).
(٢) صحيح مسلم (١٥٨٨).
(٣) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام ط المكتبة الإسلامية (٢٥/٤).
(٤) سنن الترمذي (١٨٦٨). وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأصله في صحيح مسلم (٢٨).
(٥) صحيح البخاري (٦٥٧٠).

في المسجد على بُرْد له، فقلت له: يا رسول الله، إني جئتُ أطلب العلم، فقال: **مرحبًا بطالب العِلم**[١].

وكان أبو سعيد الخدري ﷺ (ت ٦٣هـ) إذا رأى طلبة الحديث قال: كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم[٢].

٤) إجابة الطالب والمستفيد بأكثر مما سأل عنه، مما يفيده. وإليك ثلاثة أمثلة نبوية:

• سئل رسول الله ﷺ عما يَلبس المحرم، فأجاب عما لا يَلبس، وتضمن ذلك الجواب عما يَلبس؛ فإن ما لا يَلبس محصور، وما يَلبسه غير محصور[٣].

• سأل الصحابة ﷺ النبي ﷺ عن التوضؤ بماء البحر؟ فقال: **هو الطهور ماؤه، الحل ميتتُه**. فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

• كانوا إذا سألوه ﷺ عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: **أيَنقص الرطب إذا جَفَّ؟** قالوا: نعم. قال: **فلا إذًا**. ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جدًا في أجوبته ﷺ[٤].

• قال أنس بن سيرين -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨هـ): سألتُ ابن عمر، قلت: أرأيتَ الركعتين قبل صلاة الغداة، أأطيلُ فيهما القراءة؟ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل مثنى مثنى، ويوتر بركعة، قال: قلت: إني لستُ عن هذا أسألك، قال: إنك لَضخم!

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٧٣٤٧) وقد صححه الحاكم والذهبي(٣٤٠) وجوّده المنذري في الترغيب(٥٤/١/٤) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٧٦/٧).

(٢) صححه الحاكم في المستدرك، ووافقه الذهبي (٢٩٨) والألباني في السلسلة الصحيحة (٥٦٥/١). وقال العلائي: «إسناده لا بأس به».

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٢١/٤).

(٤) مدارج السالكين (٢٨١/٢).

ألا تدَعُني أستقرئُ لك الحديث؟! كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل مثنى مثنى، ويوتر بركعة، ويصلي ركعتين قبل الغداة، كأنّ الأذان بأُذُنيه(١).

الجود بالعلم من أعلى أنواع الجود:

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال. والناس في الجود به على مراتب متفاوتة.. ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة؛ استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا: نعم، أو لا. مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- في ذلك أمرًا عجيبًا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته.

وكان خصومه يَعِيبونه بذلك. ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر -مثلًا- فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند. وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟!.

ولَعَمْرُ الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر. وهذا موضع المثل المشهور:

لـقَّـبُـوهُ بـحـامـض وهـو خَـلٌّ ... مِثل مَـن لم يَصِلْ إلـى العنقودِ(٢).

وهكذا منهج بعض العلماء البسط في الجواب.

قال الشيخ خالد الخراز: سافرتُ يومًا إلى شيخنا العلامة الألباني، وعندي أسئلة على أصابع اليد، وكان جوابه فيها من بعد صلاة المغرب إلى أن دخل وقت العشاء.. فمن جاد بعلمه نال ثلاث فضائل: الثواب، وإتقان وزيادة العلم، ونقل علمه لمن يَخلفه(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٩٩٥) وصحيح مسلم (٧٤٩).
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٢٧٩ - ٢٨١).
(٣) موسوعة الأخلاق - الخراز (ص: ٣٠٩).

ومن كمال نصح المفتي وعلمه: أن يجيب السائل بأكثر مما سأله عنه.

ومن جميل تبويبات الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) قوله: «باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله». ثم ساق تحته حديث الرجل الذي سأل النبي ﷺ: ما يَلبس المحرم؟ فقال: **لا يَلبس القميص، ولا العمامة، ولا السراويل، ولا البُرنُس، ولا ثوبًا مسّه الوَرْس أو الزعفران، فإن لم يجد النعلين فليلبس الخُفين، وليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين**[١].

أمثلة لذيذة ونماذج نفيسة من لطائف النُّكات العلمية، وحفاوة العلماء بها، وفرَحهم بطرحها:

يعثر القارئ المتلذذ على فائدة نفيسة في كتاب، ويفرح بها فرحًا شديدًا، ويقول في نفسه: لولا أن المداد أفضل ما رُقم به صحائف الكتب، لحررتُ هذه الفوائد النفائس بماء الذهب، بل بماء العيون.

وكان الأخفش -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٥هـ) يسمي نفائس الفوائد باسم عجيب وخطير، فكان إذا سمع شيئًا فاستحسنه، يقول: هذا يُكتب بالخناجر في النواظر[٢].

والآن خذ كنوزًا ثمينة، لأمثلة رصينة، لحفاوة العلماء بلطائف النُّكات العلمية، وباستخراجهم لدقائق المسائل الاستنباطية، وتأمل تعبيراتهم التي تدل على حفاوتهم بها، وحُسن عرضهم في تشويق القارئ بها. وقد ذكرت عباراتهم دون المسائل عليها؛ إيثارًا للاختصار، فإن أردتَ رؤوس تلك المسائل بعَينِها، فدونَك مَراجعَها بالحاشية:

١. سأل رجل من مصر أبا الدرداء، عن قول الله تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقال: ما سألني عنها أحد غيرك، إلا رجل واحد، منذ سألت رسول الله ﷺ.. رواه الترمذي وحسنه[٣].

---

(١) صحيح البخاري (١٣٤).
(٢) فوائد عبد الغني بن سعيد الأزدي (ص: ٥٤).
(٣) سنن الترمذي (٢٢٧٣).

٢. عن أمية، أنها سألت عائشة، عن قول الله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ فقالت: ما سألني عنها أحد، منذ سألت رسول الله ﷺ.. رواه الترمذي وحسنه واستغربه[١].

٣. قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن؛ ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلِمَها الناس، فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها، فيسألوا عنها؟!.. ثم ذكرها[٢].

٤. قدِمَ نفر من أهل العراق على عمر، فسألوه عن صلاة الرجل في بيته، فقال عمر: ما سألني عنها أحد، منذ سألت رسول الله ﷺ عنها..[٣].

٥. سئل الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ) عن مسألة في الخُلع، فقال: إن عندي فيها ثلاثون حديثًا؛ ما سألني عنها أحد قط[٤].

٦. قال ابن حبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ): في أربع ركعات يصليها الإنسان، ست مئة سُنة عن النبي ﷺ أخرجناها بفصولها، في كتاب «صفة الصلاة»[٥].

٧. مسألة عويصة قال عنها الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): غلِطَ فيها أربع مئة قاضٍ، فضلًا عن غيرهم[٦].

٨. قال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ): مسألة نفيسة! وقد تطلَّبتُها سنين حتى وجدتُها، ولله الحمد[٧].

٩. قال السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): لم أرَ من ذكر المسألة غيرهم، مع كثرة المطالعة[٨].

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٩١).
(٢) مسند أحمد ط الرسالة (٢٩١٨).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٦٤٦٠).
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي (٥٠٢/١).
(٥) صحيح ابن حبان (١٨٤/٥).
(٦) الوسيط في المذهب (٤٨٨/٧).
(٧) كفاية الأخيار في حل غاية الإختصار (٢٠٦/١).
(٨) تحرير الفتاوى (٣١٣/٢).

١٠. قال البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ): لم أرَ من تعرض لذلك، وهو من النفائس[١].

١١. فتفطن لها؛ فإنها مسألة نفيسة عزيزة الوجود، يعجز عنها كثير من الفقهاء، ولم أرَ لها مدركًا[٢].

١٢. وهي فائدة حسنة ولم أرَ من نبَّه عليها[٣].

١٣. فاغتنم هذه الفائدة الجليلة؛ فإني لم أرَ من نبَّه عليها[٤].

١٤. وهذا من جملة المواضع التي لم أرَ من نبَّه عليها، ولله تعالى الحمد[٥].

١٥. ينبغي التفطن لدقيقة يُغفل عنها، ولم أرَ من نبَّه عليها[٦].

١٦. وهذه فائدة جليلة قلَّ من نبَّه عليها[٧].

١٧. هذه مسألة حسنة نفيسة، قلَّ من يعرفها على وجهها، فينبغي الاعتناء بها[٨].

١٨. ضابط: كل محرم فحريمه حرام إلا صورة واحدة، لم أرَ من تفطن لاستثنائها[٩].

١٩. إمرار السواك على فم من ذهبت أسنانه: لم أرَ من تعرض له من الفقهاء[١٠].

٢٠. وهذا معنى دقيق، لم أرَ من نبه عليه، فليُتأمل، وليحرر[١١].

٢١. لم أرَ من نبَّه على شيء من ذلك، مع مَسيس الحاجة إليه..فإنه نفيس مهم[١٢].

---

(١) المصدر السابق (٨٦٠/٣).
(٢) حاشية البجيرمي على الخطيب (٤٤٥/٧).
(٣) النهر الفائق شرح كنز الدقائق (٣٤١/٣).
(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٣٣٩/١).
(٥) الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٨٣/٥).
(٦) شرح مختصر خليل للخرشي (٣٧/١).
(٧) حاشية البجيرمي على الخطيب (١٦٥/٢).
(٨) كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار (١٥٣/١).
(٩) الأشباه والنظائر للسيوطي (ص: ٢٤٠).
(١٠) المصدر السابق (ص: ٦٣٨).
(١١) تحفة المحتاج في شرح المنهاج (١٣٢/٦).
(١٢) المصدر السابق (٩٠/٢٠).

٢٢. لم أرَ من صحَّحه في شيء مما وقفت عليه من الكتب، وهي أكثر من خمسة عشر مصنفًا(١).

٢٣. ولا تستطِلْ كلامي في هذا الفصل..فإنك إذا راجعته، وأنعمتَ تأمله، علمت أنه مَنْبَهة للحِسِّ، مَشْجَعة للنفس(٢).

٢٤. حالة خفية جدًا، قلَّ من نبه عليها، بل لم ينبِّه عليها أحد من المصنفين في علوم الحديث، مع شدة الحاجة إليها(٣).

٢٥. هذه فائدة نفيسة، قَلَّ من نبَّه عليها(٤).

٢٦. هذه فائدة نفيسة جدًا(٥).

٢٧. هذه فائدة نفيسة، وبشرى عظيمة(٦).

٢٨. هذه فائدةٌ نفيسة، خَلَتْ منها كتب التراجم، فاهنأ بها!(٧).

٢٩. هذه فائدة نفيسة، قلَّ من يعلمها، حتى إن سيادتكم -مع اعتقادي أنكم أحفظ أهل العصر على الإطلاق- ما قرع سمعكم بها(٨).

٣٠. هذه فائدة نفيسة، طالَما غفل عنها كثيرون، وقلَّ من نبَّه عليها من أهل العلم، فكُن منها على ذُكْر(٩).

٣١. لم أرَ من سبقني إلى استنباطه(١٠).

٣٢. لم أجِد من سبقني إلى تصنيفه وجمعه(١١).

---

(١) تحرير الفتاوى (٤٧٢/١).

(٢) الخصائص (٧٨/١).

(٣) النكت على ابن الصلاح (٥٨٦/٢).

(٤) فتح الباري - ابن حجر (٥٦٧/٢).

(٥) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات (ص: ٨٧).

(٦) الحاوي للفتاوي (١٨٧/٢).

(٧) نثل النبال بمعجم الرجال (٢٤١/١) و(١٣٢/٣).

(٨) فهرس الفهارس (٧٢٦/٢).

(٩) بلوغ الغاية من تهذيب بداية الهداية (ص: ٣٠).

(١٠) فتاوى السبكي (١٠٢/١) والإكليل في استنباط التنزيل (ص: ٢١٨).

(١١) نزهة الحفاظ (ص: ٣٢).

٣٣. هذه الخاتمة؛ ما علمتُ مَنْ سبقني إليها[١].

٣٤. الكبيرة التاسعة والستون، والثانية والسبعون: عدُّهما كبيرة؛ لم أرَ من سبقني إليهما[٢].

٣٥. وهذه النكتة والتعليل لم أرَ من سبقني إليها، والظاهر أنَّهم تكلَّموا، وإنْ لم أره[٣].

٣٦. وقد سُقنا على هذه المسألة المعضلة أبحاثًا، لا تجدها في غير هذا الكتاب، ولعلك لا تحتاج -بعد إمعان النظر فيها- إلى غيره[٤].

٣٧. وهذه النكتة النفيسة في التضلع من علم الآثار والإمامة فيه[٥].

٣٨. فتأمل هذه المعاني التي لا تجدها في كتاب، وإنما هي روضة أُنُف، منح العزيز الوهاب فهمها[٦].

٣٩. هذا ما ظهر لي في تقرير هذا المحل، فاغتنمه؛ فإنك لا تظفر به في غير هذا الكتاب، والحمد لله الملك الوهاب[٧].

٤٠. ولعلك لا تظفر بها في غير ذلك الكتاب، ولا بقريب منه[٨].

تلك أربعون مسألة نفيسة، ونكتة ثمينة؛ احتفى بها الذين يعرفون قَدْرها، ويستسهِلون الصعب والتعب في تحصيلها. فارجع إليها؛ لتحوزَ على تلك النكات اللذيذات.

وإن الفوائد الفرائد تترَى، والعلماء يعرضونها بصورة مشوقة، وبطريقة جذابة، من حفاوتهم بها، وترغيبًا للقارئ أن يُقبِل عليها بنَهَم.

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٢٧٨/٣).
(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢٠٢/١) و(٢٠٩/١).
(٣) البحور الزاخرة في علوم الآخرة (١٠٤٠/٣).
(٤) نيل الأوطار (١١٠/١).
(٥) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١٠٣/٤).
(٦) بدائع الفوائد (٨٩/٢).
(٧) الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٥٧٨/١).
(٨) إعلام الموقعين عن رب العالمين ت مشهور (١٦/١).

وخذ في الهامش -أيضًا- تتمة الخمسين، بعشر مسائل مجموعة لعالِمٍ واحد، عجيبٍ في تذوُّقه للعلم، ولعله أكثر عالِم تحدث عن العلم، إنه ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) وتعبيراته تشوِّقك لقراءتها، فمنهنَّ قوله: وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب - فافهم هذه النكتة التي لا يُسمح بمثلها كل وقت - ولا تستطِلْ هذا الفصل المعترض في أثناء هذه المسألة؛ فلعله أهم منها وأنفع[١].

يمدحون فوائد كتبهم ولا ضَيرَ:

وتأكيدًا لهذا المقام الشهي: تأمل في هذه العبارات المدبَّجة من مؤلفين؛ بحيث يمدح الواحد منهم فوائد من كتبه، ويرغِّبك في احتوائها، واحتفائك بها، وما هو على العلم بضَنِين. فإلى بعض أقوال المادحين الباذلين المحتفِين:

١. قال المقريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٥هـ): فدونَك -طالبَ العلم- تناوُل ما قد بذلتُ فيه جهدي، وأطلتُ بسببه سهري وكَدِّي، في تصفُّح دواوين الإسلام، وكتب الأخبار، فقد وصل إليك صفوًا، ونلتَه عفوًا بلا تكلف مشقة، ولا بذل مجهول، ولكن الله يمُنُّ على من يشاء من عباده[٢].

٢. وقال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): فإن وجدتَ له حلاوة فلا تنسَ أخاك الغريق بدعوة، أن يتفضل عليه -سبحانه- في دار كرامته[٣].

٣. وقال السفاريني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٨هـ): وكانت قد علقت فوائد، كاللآلئ الفرائد في خَلَدي، ودقائق حقائق أشهى من القَنْد في فهمي.. فعلقتها في هذا الشرح.. فجاء هذا الشرح كما أمَّلتُه، بل فوق ما تخيلته[٤].

---

(١) ارجع -غير مأمور- لهذه النفائس العشر بمراجعها التالية: عدة الصابرين (ص ١٨٧) ومفتاح دار السعادة (٢٦٣/١) ومدارج السالكين (٤٩٦/١) وزاد المعاد (١٨٠/٤) والتبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٢٥) وخمسة مواضع في بدائع الفوائد (٢٤/١) و(٥٨/١) و(٧٣/١) و(١٥٢/١) و(١٦٠/٢).

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (١٩٣/٤).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١١/١).

(٤) شرح ثلاثيات مسند أحمد - للسفاريني (٩٣٤/٢). والقَنْد: عُصارة قصَبِ السكّر إذا جَمَد. وَمِنْه تُتَّخذ الحَلواء. تهذيب اللغة (٤٩/٩).

وفي المقابل؛ فإن من الصوارف عن الإقبال على نفائس الفوائد: سوء عرض الفائدة النفيسة، بالإطناب في طرحها، والإسهاب في تصويرها، فيَخفَتُ وهَجُها، ويخِفُّ قَدْرها.

قال السرخسي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٣هـ): إني رأيت في زماني بعض الإعراض عن الفقه من الطالبين؛ بسبب تطويل بعض المدرسين للنُكات الطردية، التي لا فِقه تحتها[١].

ومما يَجدر التنبيه والتنبُّه له مسألتان:

١. أن مَن أفاد فائدة من عالِم أو مؤلِّف، فليُظِهر حفاوتَه بذلك، واعترافَه بالفضل له، لا سيما عند لُقياه أو مكاتبته؛ فإن ذلك من الوفاء الخَليق بأهل العلم، ومن جمال التواصل العلمي، وهو مما يُثبِت الود في صدر شيخك أو أخيك، كما أن يُذهب العُجب، ويخفف حِدَّةَ صَولة العِلم.

ومن اللطائف أن علِيًا الجُرْجَاني (ت ٨١٦هـ) جاء إلى سعد التَّفْتَازاني -رحمهما الله تعالى- (ت ٧٩١هـ) وقَبَّل يده، وقال له: أنت شيخي بالمعنى؛ لأني ما استفدتُ العلم إلاّ من تصانيفك[٢].

٢. أنه لا ضَير ولا عَيب على المؤلِّف نفسِه، أن يُحيلَ إلى فائدة من كتاب له، أو يمدح كتابًا له. ولم يزَلِ العلماء يَفعلونه، ولا يأنَفُونه[٣].

قال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ): وربما أحلْتُه على كتاب صنفتُه أنا، ولا أقصد بذلك -إن شاء الله تعالى- التبجُّح والافتخار، ولا إظهار المصنفات والاستكثار.. وإنما نبهتُ على هذه الدقيقة؛ لأني رأيت مِن الناس مَن يَعيب سالِك هذه؛ وذلك لجهالته، وسوء ظنه وفساده، ولحسده، وقصوره وعناده[٤].

---

(١) المبسوط للسرخسي (٤/١).
(٢) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٤٥٥/٥).
(٣) قد بسطتُ -بحمد الله - في كتابي (إبداعات العلماء والمؤلفين) مبحثًا ممتعًا، يفوح بالأفانين، وستدلُف مع بابه المنيف بمبحث مرقوم بـ: علماء مَدَحوا كُتُبًا لهم أو احتفَوا بها.
(٤) بستان العارفين للنووي (ص: ٩).

٤٣. لذة الكتابة والتقييد على الكتاب[١]

إنها رياض مُوْدَعة في بطون الدفاتر. فمتى رأيت بستانًا يُحمل في رُدْن، وكَفًا يبسط روضة عدْن؟!

وهذه اللذة لها مَيزة مستقلة بذاتها، وأمَدُها أبعد، فالخط يبقى زمانًا بعد كاتبه؛ ولأجل هذا فضَّلُوا سواد الحِبر على كل لون، وجعلوا سَواده كأنصع بياض.

قال الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ): تسويدٌ بخط الكاتب أملحُ من توريدٍ بخدِّ الكاعِب[٢].

والتعليق على الكتاب ليس تشويهًا له، بل هو التجميل الجميل، والإضاءة النافعة.

قال أبو زيد النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٤هـ): لا يُضيء الكتاب حتى يُظْلِم[٣].

فاكتب العلم بجهدِ ثم قيِّده بقيدِ[٤]

لأنه إن لم يقيده بقيد هرب كالصيد. وقيْدُه الأوثق كالخطام، هو الكتابة بالأقلام.

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) اعلموا -رحمكم الله- أن هذا العلم ينِدُّ كما تنِدُّ الإبل، فاجعلوا الكتب له حُماة، والأقلام عليه رُعاة[٥].

---

(١) من الكتب المَليحة التي جمعت تقييدات فريدة على طُرَر الكتب النادرة والمخطوطات ما يلي:.
الصُّبابات فيما وجدتُه على ظهور الكتب من الكتابات - الأديب جميل مصطفى بك.
التقييدات الشهية من ظهور وغواشي وحواشي النسخ الخطية - صالح بن محمد الأزهري.
تقييدات النجديين على المخطوطات - د. نادية اليحيا.
الغُرَر على الطُّرَر.
وفوائد حاضرة من طُرَر المخطوطات والكتب النادرة - كلاهما لمحمد خير رمضان يوسف.
(٢) الكلم النوابغ للزمخشري (ص: ٥٢).
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٧٧/١).
(٤) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٤٩٨/٢).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١٠/٥١).

ومن طرائف التقييدات الغريبة، ما وقع لعبيد بن عبد الواحد بن شريك -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٥هـ) حيث يقول: حضرت مجلسًا كثر ازدحام الناس فيه، فأحسست في قفاي بحكة وحركة، فلما هممت بالانصراف إذا برجل يُجلسني، فقلت: ما لك؟! فقال: اجلس؛ فإني قد كتبت المجلس في قفاك! فانتظرني حتى أقابل به(١).

وأيضًا؛ تمتاز هذه اللذة لذة تقييد العلم- بشموليتها، بحيث يشترك فيها أهل العلم مع أهل الأدب وسائر الفنون. ويمتاز مُمتهِرُها ومُمتهِنها بالجودة والجِدَّة.

وقد رأى أبو زيد الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢١هـ) رجلًا جيّد الحفظ لمُلَح الأخبار.. فقال: كأنَّ -واللهِ- عِلْمَه من ظهور الدفاتر! يريد أن ظهور الدفاتر لا يُكتب عليها إلا الأحسن(٢)

ومن لطيف الألقاب أن إسماعيل الصفار -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤١هـ) يلقَّب بالمُلَحي؛ لروايته مُلَح العلم، ونوادر الفوائد(٣).

وأيضًا؛ عثمان الحراني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٣هـ) يلقب بالطرائفي؛ لأنه يتتبع طرائف الحديث وطُرَفَه، ويطلبها(٤).

فأنت -أيها القارئ الفطن- من كتابك المزبور بالنفائس، كمن هو بحضرة ملَك كريم، أجنحته تلك الصحائف المنقوشة، المنبوشة من بطون الكتب وصدور المجالس. فاكتب وقيِّد ولا تستهِن بما قيَّدتَ.

قال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها، في أي فن كانت، بل يبادر إلى كتابتها، ثم يواظب على مطالعة ما كتَبَه(٥).

أتـاك الـجـواب فـقُـمْ فاقتنصه   فـصَـيْـدُك للعلم أعـلـى قَـنَـصْ(٦)

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء (ص: ١٦٥).
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤١).
(٣) نزهة الألباب في الألقاب (٢/ ٣١١).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨/ ٤٣٣).
(٥) المجموع شرح المهذب (١/ ٣٩).
(٦) السفر الخامس من كتاب الذيل (٢/ ٥٥٦).

ومن جميل السِّيَر أن الراوي المشهور عبد الله بن لهيعة (ت ١٧٤هـ) كان يلقَّب بأبي خريطة؛ لأنه يعلقها في عنقه ليَكتب العلم، وليكون ذلك أسرع في التقييد[١].

أرأيت كيف أنهم بتقييد فوائدهم يَفُوقون، وبسهام أقلامهم يُفوِّقون: فلا بِدْع أن ابيضت اللِّمم في تسويد القراطيس لتحصيلها، أو انتقصت اللذائذ في صرف نقد العمر النفيس نحو تكميلها؛ فنفعها كثير، وفضلها كبير[٢].

الـمُـلـك فـي طـيِّ الـدفـاتـرْ ... فـتـخـلَّ عـن قَـوَدِ الـعـسـاكـرْ
واطـعـن بـأطـراف الـيَـرَا ... ع نُـصـرت فـي ثـغـرِ الـمـحـابِـرْ[٣]

ومن شدة لذتهم **يتكيَّفون مع ظروف المناخ**؛ ليغِيبوا عن شهودها، إلى معاينة متعةِ ما يزاولون. فهذا الحميدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) من حرصه على السماع، كان ينسخ بالليل في حر بغداد، فكان يجلس في إجانة، فيها ماء يتبرد به، وينسخ وهو على تلك الحال[٤]

وكانت كتبهم مليئة بالتعليقات، ولا يكاد يخلو كتاب لهم إلا ولهم فيه تعليق:

فهذا الأديب أبو بكر الصولي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٥هـ) له بيت عظيم مملوء كتبًا، وكان يقول: كل هذه الكتب سماعي[٥].

وهذا السلطان المستنصر بالله -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ) برغم انشغاله بمملكته، إلا أنه قَلَّما يوجد كتاب من كتبه، إلا وله فيه قراءة، أو نظم، أو مكتوب على هوامشه خطه[٦].

---

(١) المجروحين لابن حبان (١١/٢).
(٢) غرائب الاغتراب (ص: ٧٤).
(٣) قلائد العقيان (ص: ٣٤).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٩/٥٥). الإجانة: وعاء يُغسل فيه الثياب.
(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٦٨/١٤).
(٦) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١٤٦/٢).

وحتى في أُوَيقات ضائعة، لا يُضيِّعون التلذذ بلذَّتهم:

فهذا عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) كان يُماشي أصحابه، فيُذاكرهم بالحديث، فيقول لمن يُماشيه: لا تبرح حتى أكتبه(١).

وهذا الفقيه المغربي محمد بن سليمان السطي -رحمه الله تعالى-(ت ١٠٥٠هـ) لا يُرى إلا مُكبًا على النظر والقراءة والتقييد، حتى في مجلس السلطان(٢).

كانوا في التقييد ينهَمِكون، ولأجسادهم يُنهِكون، ولِما كتبوا يُقْبِلون ويُقابِلون:

وقد كان أبو بكر الباقلاني الأشعري (ت ٤٠٣هـ) كل ليلة إذا صلى العشاء، وقضى وِرده، وضع الدواة بين يديه، وكتب خمسًا وثلاثين ورقة، تصنيفًا من حفظه، فإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه في ليلته، وأمره بقراءته عليه، وأملى عليه الزيادات فيه(٣).

وكانوا يجمعون ويكتبون، ويقيِّدون ما يسمعون، ويدَّخرونه ولو لم ينشَطوا لنشره:

وتأمل هذا المثال: فقد أشار أبو العباس السراج -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٣هـ) إلى كُتُب على مِنْضَدة عنده فقال: هذه سبعون ألف مسألة لمالكٍ، ما نفضتُ التراب عنها منذ كتبتُها(٤).

قال ابن جماعة الكناني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ): ولا يؤخِّرْ تحصيل فائدة تمكَّن منها، أو يشغله الأمل والتسويف عنها؛ فإنه إذا حصَّلها في الزمن الحاضر، حصَّل في الزمن الثاني غيرها(٥).

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/٩).
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٠٩).
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٣/٣٦٤).
(٤) المصدر السابق (٢/٥٦).
(٥) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص١٣٤).

وكانوا يَنتقون أحسن ما يسمعون ليُقيدوه، فيحفظوه:

ولذا اعتبر بأبي عبد الله الفاسي الصدفي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥١هـ) فإنه إمام في العربية، أصولي فقيه متقن، حافظ ماهر. ومع ذلك فقد كان يقول: ما سمعتُ شيئًا من نُكَت العلم إلا قيدتُه، وما قيدتُ شيئًا إلا حفظتُه، وما حفظت شيئًا فنسيتُه(١).

ومن أساليبهم للتقييد توفير مساحة لها في الكتاب المنسوخ:

فهذا العلامة محمد الغلاني الدانرانكوي السوداني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٥٤هـ) يقول عن نفسه: إذا حاولتُ قراءة كتاب لم يكن موجودًا عندي، أكتب مَتْنَه موسّع السطور؛ لأقيِّد فيه ما أردتُه من شروحه، أوْ ما سمعتُه من تقريرات(٢).

ولذا؛ فلقد صارت حواشيهم المتقَنة مرجعًا للطابِعين والمحققين:

فهذا الفقيه الفرَضي غنام بن محمد بن غنام -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤٠هـ) كان في أيام طلبه قد كتب «شرح المنتهى» وملأ حواشيه بالفوائد، حتى لم يترك فيه موضعًا خاليًا، فكانت هذه النسخة مشهورة بين الطلبة بدمشق، يحضرونها وقت مطالعتهم، ويستفيدون مما عليها(٣).

وهذا فقيه حنبلي مغمور، ألا وهو حسن بن عبد الله الأشيقري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٢٤هـ) له كتب كثيرة، على كل كتاب منها خطه بتهميش، وتصحيح، وإلحاق فوائد وتنبيهات(٤).

وكانت لهم ضوابط في التقييد والمقابلة والتحشية والتصحيح، فمنها أن يكتب إذا كمل: «تمَّ الكتاب الفلاني» ففي ذلك فوائد كثيرة..وإذا صَحح الكتاب بالمقابلة

---

(١) بغية الوعاة (٢٦٦/١).
(٢) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢٣٦/١).
(٣) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٦٦٥/٣).
(٤) المصدر السابق (١٥٩٠/٣).

على أصله الصحيح، أو على شيخ، فينبغي له أن يُشكِل، ويُعجِم المستعجِم، ويضبط الملْتَبِس، ويتفقد مواضع التصحيف[١].

ومن طريف أقوالهم: الكتاب كالمكلَّف، لا يَسلم من المؤاخذة، ولا يرتفع عنه القلم[٢]

إنما الزعفران عِطر العَذارَى ومِداد الدُّوِيِّ عِطر الرجال[٣]

ومما يتصل بهذا الأمر أنك واجِدٌ أنه إذا أُعلن عن بيع مكتبةٍ لعالِم ما، فإنه يتنافس على شرائها المتنافسون؛ لحدَبهم على نفاسة التعليقات على الكتب التي دوَّنها ذلك العالِم، ولطَرَافة الإهداءات التي على طُرَّة بعضها.

قال أبو عبيد -رحمه الله تعالى-(ت ٢٢٤هـ): من شُكر العلم أن تقعد مع كل قوم، فيذكرون شيئًا لا تُحسنه، فتتعلّمه منهم، ثم تقعد بعد ذلك في موضع آخر، فيذكرون ذلك الشيءَ الذي تعلّمته، فتقول: واللهِ ما كان عندي في هذا شيء، حتى سمعتُ فلانًا يقول: كذا وكذا، فتعلّمته، فإذا فعلتَ ذلك فقد شكرتَ العلم، ولا تُوهِمهم أنك قلتَ هذا من نفسك[٤].

وقال النووي -رحمه الله- (ت ٦٧٦هـ): ومن النصيحة أن تُضاف الفائدة التي تُسْتغرَب إلى قائلها، فمَن فعل ذلك بورك له في علمه وحاله.. ولم يزل أهل العلم والفضل على إضافة الفوائد إلى قائلها[٥].

وثمت تساؤلان مفيدان عارضان، ألا وهما:

التساؤل الأول: ما طريقة المتلذذين في تقييد الفوائد من الدروس والكتب؟

---

(١) آداب العلماء والمتعلمين (ص: ٢٣).

(٢) صبح الأعشى (٣٦/١).

(٣) المصدر السابق (٥٠٢/٢).

(٤) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص: ٣٩٦) والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١٥٤/٢).

(٥) بستان العارفين للنووي (ص: ١٦).

وجوابه: لكلٍ طريقته، ولكن أسعد الناس حظًا بتقييد الفوائد المزبورة في كتبه ودروسه: هو من يخطط لمشاريع علمية متنوعة، فيضع كل نص مفيد في مكانه الذي ينتظره في مؤلفاته وإفاداته.

ويمكنك أن تكلف أهلك، أو ورَّاقًا، أو من طلابك النشطاء: يكتبها ويفرِزها.

وقد كان الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ) يكلف بعض أبنائه بجرد الفوائد المقيدة على أغلفة الكتب، وكل فائدة مقابلها ريال![١].

ومن الطرائق المجرَّبة والوسائل المقترحة ما يلي:

✓ التحديد أولًا على الفوائد المنتقاة، بوضع خط بالقلم، أو تحديدها بالأقلام الشفافة التي تشِفُّ عما تحتها.

✓ بعد التحديد يكون التقييد للاستنباطات أو التعقبات أو الإضافات على المقروء في الهوامش، أو بين الأسطر، أو في الصفحات الفارغة بين الفصول، مع عزو كل فائدة إلى الصفحة التي استقيتَها منها.

✓ إذا كانت تعليقات طويلة، فالأوراق الصغيرة اللاصقة نافعة، ويَسهل رفعها عند القراءة.

✓ استشفاف طريقة المؤلف والعالِم، ومنهجه، ومواقفه الشخصية من كتابه، وتدوين المُلَح واللطائف.

✓ ستكتشف بعد سنوات أنك خلَّفت كنزًا من الدرر، بل ستستغرب من نفسك كما استغرب الكثيرون؛ كيف نسيتَ هذه النفائس، بل كيف حصَّلتها، وستستمتع بذلك كثيرًا. وحينها قد تعزم على إخراجها مؤلفًا، أو مادة تطرحها في مجلس أو مجمع.

✓ إن كنت ارتحتَ لأن تقرأ كتُبًا من الأجهزة الآلية، فالمجال رحب وخصب، وهو أسرع في النسخ والاقتباس والتقييد، بل والتعليق. وإلا فالكثير لا يروق له إلا الكتاب الورقي، وفي كلٍ خير.

---

(١) اقرأ وارق للعمران (ص٦٨).

التساؤل الثاني: أين كانوا يضعون الخطوط، ويحددون بأقلامهم على ما يعجبهم من فوائد الكتب؛ هل يضعونها فوق السطور أم تحتها؟

وجوابه:

أن طريقة الأوائل وضع الخط في الأعلى، ومما جرى على العهد الأول، وضع الخط أعلى آيات السجود، كما تراه في مصحف مجمع الملك فهد.

وقد كان الأوائل -أيضًا- يضعون الخط في الأعلى للكلمات الخاطئة.

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) عن طريقة الناسخين الأوائل في الضرب على الكلام الخاطئ دون طَمسه: يَخط من فوقه خطًا جيدًا بيِّنًا، يدل على إبطاله، ويقرأ من تحته ما خط عليه(١).

والأمر في هذا واسع، لكن يرى بعض المحققين أن وضع الخط **فوق** الكلمات المراد لَفْتُ النظر إليها هو صنيع علمائنا، تبعًا لطريقة المحدثين، وأما وضع الخط **تحت** الكلمات فقد بدأ منذ بداية القرن الخامس عشر الهجري، فصاروا يقولون: أعرب ما تحته خط!(٢)



(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١/٢٧٨).

(٢) انظر مقدمة الشيخ زهير الشاويش في إرواء الغليل(١/٢٢).

٤٤. لذة الفهم والاستنباط، وتقييد الخواطر التي من إملاء الذهن

قوة الفهم هِبة جليلة من الوهاب الجليل، وقد تفاوتتْ لأجلِهِ مراتب العلماء.

وقد سئل علي رضي الله عنه: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ فقال: والذي فلَق الحبة وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهما يُعطى رجل في كتابه.. أي: إنْ أعطى الله رجلًا فهما في كتابه، فهو يقدر على الاستنباط، فتحصل عنده الزيادة بذلك الاعتبار[١].

وبقدر فهمك يكون تحصيلك، و«فَهْمُ كلمتين من المتن، خير من فَهْم سطرين من الشرح»[٢].

فوائد قد أتَتْك على ارتجالِ　　　سلبْتُ بهنَّ ألباب الرجالِ[٣]

قال العيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٥هـ): الحريص على العلم يَبلغ بحرصه إلى البحث عن الغوامض، ودقيق المعاني؛ لأن الظواهر يستوي الناس في السؤال عنها، لاعتراضها أفكارهم، وما لُطف من المعاني لا يَسأل عنه إلا الراسخ[٤].

ولذا وصفوا ابن خزيمة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ) بأنه: يَستخرج النُّكت من حديث رسول الله ﷺ بالمنقاش[٥].

وهذا الاستخراج مِنّة ربانية، ويمكن أن تزيد بالمِران والدَّربة.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢٠٤/١) والحديث في صحيح البخاري (٣٠٤٧) ومسلم (١٣١).
(٢) ترتيب العلوم للمرعشي (ص: ٢٠٥).
(٣) معجم السفر (ص: ٢٨).
(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٢٨/٢).
(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي (٢١٢/٢).

وخُـذِ الـعُـلُـومَ بِـهِـمَّـةٍ وتَفَطُّنٍ وقَـريـحـةٍ سَـمْـحَـاءَ ذاتِ تَـوَقُّـدِ
واسْتَنْبِطَ المكْنُونَ مِنْ أَسْرارها وابْحَثْ عن المعنى الأَسَـدِّ الأَرْشَـدِ[١]

وقد بيَّن الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) بعض تجربته في الاستنباط واستخراج دقائق المسائل، فقال: وكثيرًا ما نبحث عن مسألة من المسائل في الكتب في مظانِّها، ولا نجدها، ثم إذا فكرنا في آية من كتاب الله - سبحانه - أو في حديث من سنة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- وجدنا الحل؛ لأن بركة القرآن والسنة لا يُضاهيها أي بركة![٢].

وملتقَطات من فـؤاديَ تُجتنَى أحاديث أحلى مجتنىً من جَنى الشَّهْدِ[٣]

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): الرياضة ثلاثة أنواع؛ رياضة الأبدان، ورياضة النفوس.. ورياضة الأذهان؛ بمعرفة دقيق العلم الغامضة[٤].

ودقائق العلم هي نُخَبُ فوائده، ونوادر ملتقطاته، وجواهر مكنونات أسفاره ومدوناته، يوقَف عليها بالغَوص في الأسفار الكبار، وطول التأمل والافتكار.

و«من خاض لُجة بحار مطولات الأسفار، أمكنه اقتناص لآلئ ودرر دقائق العلم»[٥].

خذ من فنون العلم كل عَويصٍ فالعلم يُعلِي قَـدْر كل رخيـصٍ[٦]

والخواطر في الذهن كالطير بالنسبة للصياد، إن لم يقتنصها بالكتابة وإلا طارت، وربما يعتمد على ذاكرته، فيريد استدعاءها فلا يمسك لها بطرف، فيندم ندامة الكُسَعِي، ولاتَ ساعة مَنْدَم.

---

(١) وصية تقي الدين السبكي لولده محمد (ص: ١٥).
(٢) شرح حلية طالب العلم للشيخ محمد العثيمين (ص١٠٣).
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/٢٠٧).
(٤) الرد على المنطقيين (ص: ٢٥٥).
(٥) سلوة الطالب (ص٩٢).
(٦) تراجم المؤلفين التونسيين (١/٦٨).

واعتبِر بأسلوب الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) فقد كان حريصًا على تدوين الفوائد واللطائف التي يسمعها أو يقرؤها، فقد كان بحوزته مفكرة بالجيب، وربما كتب الفائدة بظاهر الرسائل التي ترد إليه أو على أغلفة كتبه، أو على أي شيء قريب يمكن الكتابة عليه، ومن نتاجها كتَبَ كتابه المعروف «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد»[(١)].

فما دفاتره إلا خواطرُهُ   منها بلا ريب ولا نصَبِ[(٢)]

ويوصَى المتلذذ بأن يبذل مالًا ليُقيِّد علمًا. والكتابة التقنية قد أبحرت بنا، ويسرت تقييدنا، فلنذلِّل التقنية لها، لنتلذَّذ بها، والحمد لله على ما وهب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ): قيِّدوا العِلم بالكتاب، من يشتري مني عِلمًا بدرهم؟!

يقصد: أن يشتريَ صحيفة بدرهم؛ يكتب فيها العلم[(٣)].

إن الغريب إذا ما كان ذا قلم   فليس سلوته إلا بقرطاس
فيه يقيِّد ما يلقاه من نكت   ومن طرائف يُبديها من الراس[(٤)]

والأفكار رزق من الله يسوقه إليك، وليس من العقل والذكاء التفريط في هذا الرزق، فرُب فكرة زارتك اليوم، جاء أوَان تنفيذها بعد سنين، فإذا لم تكن ساكنة في دفتر يُقيِّدها، أوتقنية تحفظها، فستعض سبابة المتندم، حين تطلبها فلا تجدها. وكما أن في تقييد الشاردة لذة؛ ففي فواتها حسرة.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): وإذا لاحَتِ الحقائق؛ فكن أسعد الناس بها، وإن جفاها الأغمار!![(٥)].

---

(١) مواقف اجتماعية من حياة الشيخ عبد الرحمن السعدي - ابنه محمد وحفيده مساعد (ص١٩٧).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨/٢١).
(٣) العلم لزهير بن حرب (ص: ٣٦).
(٤) رحلة الشتاء والصيف (ص: ٥).
(٥) بدائع الفوائد ط عالم الفوائد (١/٣٦١).

فاكتب خاطرتك بجوالك، ولو أن تسجلها صوتيًا، ولو أن تفعل كفعل الشعبي، الذي قال: إذا سمعت شيئًا فاكتبه، ولو في الحائط[١]

أو افعل كفعل الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) الذي كان كثير التدوين لكل ما يسمعه، لا يفوِّتُ ولا يؤجل، حتى قال عن نفسه: وقد أكتب على يدي؛ لتعذُّر الورق[٢].

جَنة في يَراعِك الخَصْبِ تُؤتي أُكْلَها طيِّب الجَنْي كل حينِ[٣]

نعم! يكتبون على باطن أيديهم؛ حذرًا من أن ينفلت الصيد من أيديهم. بل قد يجمعون بين مهمَّتين في آن واحد؛ توفيرًا للوقت.

قال التابعي المحدث عبد الله بن حنش -رحمه الله تعالى- (ت ١١١هـ): لقد رأيتُهم يكتبون على أكفِّهم بالقَصَب عند البِراء[٤].

لا تحقر فائدة تسمعها من عامي أو جاهل:

فهذا المحدث المؤرخ أبو القاسم النصر آباذي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٧هـ) كان لا يفارقه المحبرة والمقلمة والبياض، فقيل له في ذلك، فقال: ربما سمعتُ شيئًا، من حمال أو غيره حكمة، فأُثبِتُه[٥].

بل قد تربط شيئًا دنيويًا بمسألة دينية، فينتج منها فهم جديد، أو ترجيح كان مرجوحًا.

وقد سبق قول عكرمة مولى ابن عباس -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥هـ): إني لأخرج إلى السوق، فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة، فيَنفتح لي خمسون بابًا من العلم[٦].

---

(١) العلم لزهير بن حرب (ص: ٣٤).

(٢) من كتاب: العالِم العابد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم - ابنه الشيخ عبد الملك (ص٢٥). وفيه يقول ابنه: ولما مات وجدوا عند تغسيله أثر القلم، في باطن أصبعه السبابة، كأنه لحمٌ ميت!.

(٣) مجلة الرسالة (٣٥/٣٨٥).

(٤) العلم لزهير بن حرب (ص: ٣٦).

(٥) طبقات الأولياء لابن الملقن (ص: ٢٨).

(٦) الطبقات الكبرى ط العلمية (٢/٢٩٤).

لتوقن أن اقتناص شرائد الفرائد لذة لا تضاهَى، ومفخرة لا تُباهَى:

فهذا أبو المعالي الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) لما سَرَدَ فصلًا فأبدعَ، وبحَثَ فأَمتعَ، استروَح من نفسه أن الله قد ألهمَه بما لم يُسبق إليه، فقال -ممتنًا بفضل الله عليه، ومبتهجًا بما وصل إليه-: لو وجدتُ في اقتباس هذا العلم من يَسردُ لي هذا الفصل لكان - وحقِ القائمِ على كل نفس بما كسبَتْ - أحبَّ إليَّ من مُلك الدنيا بحذافيرها، أطولَ أمَدِها[١].

ومن بليغ ما يقولون: دِينُهم اقتناصُ الشواردِ ودَيدَنُهمُ افتضاضُ أبكارِ الفوائد. يَروُون فيُروُون ويَقدَحُون فيُورُون[٢].

ولذلك كانت وصيتهم بملازمة الكتاب والقلم: جاء رجل إلى سهل التستري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٣هـ) وبيده مِحبرة وكتاب، فقال: أحببتُ أن أكتب عنك شيئًا ينفعني الله به. قال: نعم؛ اكتب: إن استطعت أن تلقى الله ومعك المحبرة والكتب فافعل[٣].

قيِّد بخطك ما يُبديه فِكرُكَ من ... نتيجةٍ تُعجِب الحُذّاق والفُضَلا
فما نتائج فِكر المرء بارزةً ... في كلّ وقت متى ما شاءَها فَعَلا[٤]

وبمثل هذا تفاضَل العلماء. وقد سئل الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ): بِمَ نِلْتَ ما نِلْتَ؟ فقال: بكثرة سؤالي، وتَلَقُّفِي الحكمة الشَّرود[٥].

وأثمرت الأزهار زهر فوائد ... يَلَذُّ جَنَىً معنىً لهنَّ غريبُ[٦]

---

(١) الإيمان بالقدر للجويني (ص١٣٦).
(٢) تفسير الألوسي (٤/١).
(٣) التدوين في أخبار قزوين (٤٦٥/٢).
(٤) رحلة الشتاء والصيف (ص: ٩٤).
(٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١٨١/١).
(٦) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٥٥/٢).

وفي سيرة الفقيه المزني تلميذ الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ) أنه كان غوّاصًا على المعاني الدقيقة(١).

وكذا ابن الموصول -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٣هـ) قالوا عنه: كان جمَّاعًا لدفاتر العلم من لدُن صِباه، مؤثرًا لها على كل لذة، حتى اجتمع منها عنده مالم يجتمع مثله لأحد بالأندلس(٢).

ومن متواتر الحِكَم: مَن خَدم المَحابر خدمته المَنابر(٣).

وقال حكيم آخر: خَطُّ الأقلام صُوَرٌ، هي في الأبصار سُود، وفي البصائر بِيض(٤).

ومن المشوِّقات لتقييد الإملاءات والإفادات أن تعلم أن كثيرًا من مؤلفات السابقين، إنما كانت خواطر من إملاء الذهن، فاجتمعت الخواطر المتراكمة على مرِّ السنين، حتى صارت كتابًا يفخر به مؤلفه، ويتلذذ به كلما أجالَ به ناظره؛ لأن نتاج الفكر له لذة خاصة، ونكهة متميزة؛ لاستقلال الذهن بابتدائه، واستجماع الجهد بإنشائه.

أهزُّ إليَّ منك بجذع علم ... فوائده تَسَاقط لي جَنِيَّةْ(٥)

وإليك الآن مَسْرَدًا لشواهد حافلة، من إفادات ومقالات لعلماء أجلاء، عن عجائب قصصهم، وتعبهم في جمعهم لاستنباطات متكاثرة، أو إفادات نفيسة، عصروا فيها أذهانهم، حتى تفتَّقت بعجائب الفرائد اللذيذة:

١- قال ابن العربي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ): قصة نوح في خمس وعشرين آية، أملينا عليكم فيها خمس مئة مسألة، وقصة موسى في تسع آيات، أملينا عليكم فيها ثمان مئة مسألة، وسورة يوسف أملينا عليكم فيها ألف مسألة(٦).

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٥٨/١) وسير أعلام النبلاء (٤٩٢/٢٣).

(٢) التكملة لكتاب الصلة (٣١٢/١).

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٩٤/٤).

(٤) البصائر والذخائر (١٠٧/٦).

(٥) أعيان العصر وأعوان النصر (٥٢٤/٤).

(٦) العواصم من القواصم (ص: ٢٣٥).

٢- وقال -أيضًا- عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]: هذه أربع كلمات، وستة عشرة حرفًا، تتضمَّن ما ينيِّف على ألف ألف مسألة[1] قد تصدَّى لبيانها علماء الشريعة، وفقهاء الإسلام في مصنفاتهم؛ حتى بلغوا أُلوفًا من المجلدات، ولم يبلغوا بعدُ كنهَها وغايتَها[2].

٣- وقال عند سورة التكاثر: قد كنا أملينا فيها مئة وثمانين مجلسًا[3].

٤- وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال بعض العِلْماء: إن فيها ألف مسألة. واجتمع أصحابنا بمدينة السلام، فتتبعوها، فبلَّغوها ثمان مئة مسألة[4].

٥- قال ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) عن جمعه للفنون: فما أزال أعلِّق ما أستفيده من ألفاظ العلماء، ومن بطون الصحائف، ومن صيد الخواطر، التي تنثرها المناظرات والمقابسات في مجالس العلماء، ومجامع الفضلاء[5].

نظرتُ لما سطَّرتَه مِـنْ فوائدٍ ... لها الفضلُ إذ راقت محاسنُها يُعزَى
وقد لذَّ ما أبديتَ منها بخاطري ... ولم يكفِ طرفي منه جزءٌ ولا أجزا[6]

٦- قال ابن عطية -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٢هـ) عن تفسيره: نكتُهُ وفوائده تغلب قوة الحفظ وتفدح، وتسنح لمن يروم تقييدها في فكره وتبرح، وقد أخذت بحظها من الثقل، فهي تَتَفصَّى من الصدر تَفَصِّي الإبل من العُقُل..[7].

٧- قال السهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) عند قول الله -تعالى-: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ

---

(١) مبالغة لا تَخفى! ولعل الرقم غير مقصود لذاته.
(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٦٩/١).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤٤٢/٤).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤٧/٢).
(٥) كتاب الفنون لابن عقيل (٧/١).
(٦) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي (٢٢٨/٢) والجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٧٣٣/٢).
(٧) تفسير ابن عطية (٣٣/١).

ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]: قد أملينا في إعراب هذه الآية نحوًا من كراسة(١).

٨- الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) فسَّر الفاتحة في مجلد كامل، وقال: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات، أن سورة الفاتحة يمكن أن يُستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحُساد.. فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب، قدَّمتُ هذه المقدمة؛ لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه، أمر ممكن الحصول، قريب الوصول(٢).

ثم قال: قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] إشارة إلى مسائل المعاد، والحشر والنشر.. وهذه المباحث لا تتم إلا بما يقرب من خمس مئة مسألة، من المباحث الدقيقة العقلية(٣).

٩- كان التاج الأرموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٥هـ) يحفظ ألف نكتة في الجدل، وكان أستاذه الفخر الرازي يحفظ عشرة آلاف نكتة في الجدل(٤).

١٠- ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ) شرَح حديث البَراء بن عازِب: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع. واشتمل الشرح على أربع مئة فائدة(٥).

١١- عبد الله المغربي الشارمساحي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٩هـ) ألقى عليه بعض العلماء مسألة بيوعِ الآجال، فقال: أَذكرُ فيها ثمانين ألف وجه!(٦) فاستغرب الفقهاء من ذلك، فشرع يَسردها عليهم، إلى أن انتهى إلى مِئَتَي وجهٍ، فاستطالوها، وأضربوا عن سماعها، واعترفوا بسعة علمه(٧).

---

(١) الروض الأنف ت السلامي (٧٨/٣).
(٢) تفسير الرازي أو التفسير الكبير (٢١/١).
(٣) تفسير الرازي (٢٥/١).
(٤) المنثور في القواعد الفقهية (٤٠٦/٣).
(٥) رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ٣٩٥).
(٦) مبالغة ظاهرة! ولعله يقصد: ثمان مئة.
(٧) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٤٤٨/١).

١٢- فوائد «حديث بَريرة» بلَّغوها نحو مئة وجه. بل قال الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٢هـ): والحديث فيه فوائد تزيد على أربع مئة[١].

١٣- حديث: «**ركعتان بالسواك خيرٌ من سبعين ركعة بلا سواك**» استخرجوا منه مئة فائدة[٢].

١٤- القاضي عز الدين الهكاري الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ) له تصنيف في مجلدين، على حديث «المُجامِع في رمضان» استنبط فيه ألف فائدة وحكم[٣].

١٥- القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ) أورَدَ إشكالًا لُغويًا قال عنه: إشكال عظيم صعب لي نحو عشرين سنة، أُورده على الفضلاء والعلماء بالأصول والنحو، فلم أجد له جوابًا يُرضيني، وإلى الآن لم أجِدْه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فقالوا: كيف جمع بين لفظ الثلاثة التي هي دون العشرة، وبين لفظ القُرء، الذي هو من جموع الكثرة. وقال بعد ست صفحات من طرح جوابات لم تُقنعه: فيبقى الإشكال على حاله[٤].

١٦- والقرافي -أيضًا- أورد مسألة، قال: إنها أشكلت على جماعة من الفقهاء -رحمهم الله تعالى- في أخوين ماتا عند الزوال، أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب؛ أيهما يرث صاحبه؟! فأفتى الفضلاء من الفقهاء بأن: المغربي يرث المشرقي؛ لأن زوال المشرق قبل زوال المغرب[٥].

١٧- ثم القرافي -أيضًا- استنبط شيئًا يبهر العقول من بيت أنشده بعض الأفاضل، وهو:

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١١٠/٥) والتنوير شرح الجامع الصغير (١٧٤/٤).

(٢) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (٤٠١/١). والحديث رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٥/٦) وضعفه البيهقي في السنن الكبرى (٦٢/١) وابن القيم في المنار المنيف (ص: ٢٣).

(٣) البداية والنهاية ط هجر(٢٨٥/١٨) وفتح الباري لابن حجر(١٧٣/٤) والبلدانيات للسخاوي (ص: ٢٥٤) وإرشاد الساري للقسطلاني (٣٧٩/٣).

(٤) العقد المنظوم في الخصوص والعموم (٦٩/٢ - ٧٥).

(٥) الفروق للقرافي (١٨٢/٢).

مـا يـقـول الفقيه أيــده اللـــــه ولا زال عــنــده إحــســان
فــي فتى علق الـطـلاق بشهر قــبــلَ مــا قــبــلَ قــبــلَــه رمــضــان

فقال العبقري القرافي: والبيت الثاني -وإن كان بيتًا واحدًا إلا أنه- من نوادر الأبيات.. فيكون مشتملًا على سبع مئة وعشرين مسألة، من المسائل الفقهية!![1] أما كيف ذلك؛ فاسأل القرافي، ولا تسألني!

١٨- ورابعة للقرافي، حيث قال: أقمتُ أطلب الفرق بين الشهادة والرواية نحو ثمان سنين، فلم أظفر به، وأسأل الفضلاء عن الفرق بينهما[2].

١٩- قال ابن سيد الناس -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٤هـ): فكنتُ أرى مِن ذلك تقييد ما أَسْتحسِنُه.. فكثيرًا ما تمر الفائدة بمن يسمعها أو يطلبها، فينْأَى عنها مغزاها، ومَن قَيَّد العلم بالكتاب أمِنَ مِن هذا اللّبس والارتياب[3].

٢٠- قال ابن جُزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ): ذكر نُكَت عجيبة، وفوائد غريبة، قلما توجد في كتاب؛ لأنها من بنات صدري، وينابيع ذكرى، ومما أخذته عن شيوخي رضي الله عنهم أو مما التقطته من مستظرفات النوادر، الواقعة في غرائب الدفاتر[4].

به الله أحيا ما انطوى من معارف رفــاتًــا غــدت أجداثهن الــدفــاتــر[5]

٢١- ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) ذكر بيتًا من الشعر لزين الدين المقري، وقال: إنه يشتمل على أربعين ألف وثلاث مئة وعشرين بيتًا من الشعر، والبيت هو:

لقلبي حبيب مليح ظرِيف بــديــع جــمــيــل رشــيــق لــطــيــف[6]

٢٢- استنبط ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ) من قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ

---

(١) المصدر السابق (٦٢/١) وقد ذكر ابن القيم بعض تلك المسائل، كما في بدائع الفوائد (٢٤٤/٣).
(٢) الفروق للقرافي (٤/١).
(٣) النفح الشذي شرح جامع الترمذي (٩/١).
(٤) تفسير ابن جزي (١٠/١).
(٥) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤٧٧/٤).
(٦) بدائع الفوائد (٢٤٤/٣).

أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أربعة وعشرين وجهًا من المبالغة(١).

٢٣- ابن الصباغ الخزرجي المكناسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) أملى في درسه على حديث «**يا أبا عُمير ما فعل النُّغَير**» أربع مئة فائدة(٢).

٢٤- قال الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ): والذي وقفت عليه في «مجموعٍ»: للأسد خمس مئة اسم، ولولده الشبل ثلاث مئة اسم؛ الجملة ثمان مئة اسم(٣).

٢٥- قال أبو عمرو بن الصلاح -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ) عن لفظة فارسية: تعِبَ بعضهم في طلبها من كتب اللغة ولا يجِدُها، وهي البَرْتَّاب ومعناه: الإبعاد في الرمي. وهذه اللفظة قد أشكلت على من لا يعرف الفارسية(٤).

٢٦- قال القاضي الحسين المروذي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٢هـ): أشكلت علَيَّ مسألة نقض الاجتهاد بالاجتهاد، منذ نيِّف وعشرين سنة.. ثم استقر رأيي على أنه لا ينقض(٥).

٢٧- قال الأصولي الرهوني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ): وإن لي في هذا العلم إصابة غرض أرميه، وإضاءة سقط أريه، واستخراج نُكت يلطف مسلكها، ومستودعات لطائف يدِق سَلْكها، وغوامض أسرار كانت عن الشُراح وراء أستار(٦).

٢٨- قال الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): لم أزَلْ أقيِّد من أَوابده، وأضم من شوارده تفاصيل وجملًا..ثم استخرت الله -تعالى- في نظم تلك الفرائد، وجمع تلك الفوائد(٧).

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢٣١/٢).
(٢) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٦٧١/٣) والتراتيب الإدارية (٩٨/٢).
(٣) أعيان العصر وأعوان النصر (١٧/٥).
(٤) شرح مشكل الوسيط (٢٥٨/٤).
(٥) المنثور في القواعد الفقهية (٩٦/١).
(٦) تحفة المسؤول في شرح مختصر منتهى السول (١٢٧/١).
(٧) باختصار من الموافقات للشاطبي (٩/١ - ١٣).

٢٩- قال ابن الملقِّن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ): وكنتُ ممن أنعم الله -سبحانه وتعالى، وله الحمد والمنة- عليه محبة العلوم الشرعية، خصوصًا هذا العلم الشريف، فكنت أعلق فوائده، وأضبط شوارده، وأقيِّد أَوَابده(١).

٣٠- قال البقاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ): كان قلبي فيه مُدَدًا طِوالًا أسيرَ الواردات، وسمير الخفايا الشارِدات، بينتُ فيه سرائر آيات، ما بيّن أحد ظاهر تفسيرها، وأبديتُ أسرار سورٍ ما كشف أحد خفي ضميرها، وعلَيَّ عند المحاقَقَة البيان..وأتقي دسائس اللذاذة والسرور(٢).

٣١- قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): مناسبات ترتيب السور.. أكثره من نتاج فكري، ووِلاد نظري. وقال: وكله من مستنبَطاتي، ولم أعثر فيه على شيء لغيري، إلا النزر اليسير الذي صرحت بعَزْوِي له(٣).

٣٢- وقال السيوطي -أيضًا-: استخرجت من آية واحدة مئة وعشرين نوعًا من أنواع البلاغة، وهي قوله تعالى:﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧](٤).

٣٣- ابن نجيم الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٨هـ) قال: أَلَّفْتُ الفوائد على سبيل التعداد، حتى وصلت إلى خمس مئة فائدة، ولم أجعل لها أبوابًا، ثم رأيت أن أرتبها أبوابًا، على طريق كتب الفقه(٥).

٣٤- قال الأمير الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٢هـ): معتذرًا ومفتخرًا: ولم يكن عند حصول المذاكرة لدينا شيء من شروح هذا الجامع التي حلَّت عن ألفاظه ومعانيه كل عقال، فكتبت من ذلك المطلوب شيئًا لنفسي، أرجع إليه في بعض الأحوال.. فالتقطت من دُرَرِه ما ضممته إلى ما جمعته من المقال؛ لأنفع به نفسي أولًا، ومن شاء الله من الناظرين في هذا الكتاب(٦).

---

(١) البدر المنير (٢٧٩/١).
(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١٠٢/١).
(٣) أسرار ترتيب القرآن (ص: ٣٩) و(ص: ١٧٣).
(٤) الخصائص الكبرى (١٩٧/١).
(٥) الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ١٣٧).
(٦) التنوير شرح الجامع الصغير (١٥٣/١).

٣٥- قال ابن عابدين -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٢هـ): اقتنصت بشبكة الأفهام أجلَّ شوارده، وقيدت بأوتاد الاقلام جُلَّ أوابده.. فطفقت أوشِّي حواشي صفائح صحائفه اللطيفة، بما هو في الحقيقة بياض للصحيفة: ثم أردت جمع تلك الفوائد، وبسط سِمْط هاتيك الموائد، من متفرقات الحواشي والرقاع؛ خوفًا عليها من الضياع[1].

سِحْرٌ من الفكر لو دارْت سُلافَتُه ... على الزمانِ تمشَّى مِشية الثَّمِلِ[2]

٣٦- الأديب المؤرخ أحمد بن الأمين الشّنْقِيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣١هـ) كتَبَ كتابه الحافل: «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» كتبه وأملاه من ذاكرته، وهو يقارب ست مئة صفحة. والكتاب يتضمن قرابة ٤٥٠٠ بيت من الشعر، ومع ذلك فهو يقول في ختامه: لم أُترجم في هذا الكتاب، إلا من رَوَيتُ له من الشعراء الأموات[3].

الماعة:

فعلًا؛ العلماء قنّاصون ماهرون في صيد شرائد الفوائد، وثاقبو النظر عند استنباط المسائل والتفريع عليها. وبداهةً؛ فالمبتدئ في الاقتناص ليس كالقناص الماهر.

وما أجمل ما حكاه الذهبي عن نفسه فقال: كل من يكون مبتدئًا لا يُحسن الانتخاب! فَعَلنا نحو هذا، وندِمْنا بعد[4].

ولكن لا يغِبْ عن بالك أن الفائدة التي يحتفي بها عالِم ما قد لا تكون ذات شأن عند عالِم آخر، فضلًا عن غيره.

والأمر كما قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ): رُبّ راغبٍ عن كلمةٍ؛ غيرُه متهالكٌ عليها، وزاهدٍ عن نكتة؛ غيرُه مَشعوفٌ بها[5].

---

(١) حاشية رد المحتار (٣/١).

(٢) المحمدون من الشعراء (ص: ٤٠).

(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٥٧٨).

(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٩٠/١١).

(٥) معجم البلدان (١٤/١).

سبع وصايا على رأس القلم، عند إرادة نشر الفوائد النفيسة:

١. تقديم مشوِّقات تجذب القارئ؛ للاطلاع عليها.

٢. تتويج الفائدة ببيان نَفَاستها بحفاوة ولذة.

٣. حسن إخراجها، وتصميمها. والأمر أوكد ونحن في الزمن التقنية.

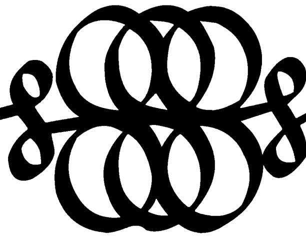
٤. إيقاف المطَّلِع على «مَرْبط الفرس» فيها، والشاهد من إيرادها.

٥. ربطها بنص شرعي، أو بما يطابقها من الواقع.

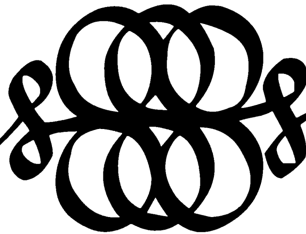
٦. كثرة طرحها، مع تنويع نشرها.

٧. تقليل كلماتها، وسبك عباراتها.





الباب الثامن:
لذة الرحلات والدروس العلمية والإفتاء والتعليم



٤٥. لذة الرحلة في طلب العلم

استحب السلف التغرُّبَ عن الأهل؛ لأجل طلب العلم، والبُعدُ عن الوطن يقلِّل من العلائق؛ لأن الفكرة إذا توزّعت قصُرتْ عن دَرْك الحقائق، وغموض الدقائق.

والرحلة في طلب العلم عبَّر عنها القرآن بالسياحة، كما في قوله -سبحانه-: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

قال عكرمة: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾: هم طلبة العلم[١]. أي: يَسيحون في الأرض، يطلبونه مظانَّه.

والسياحة العلمية أمرها عظيم في تكميل النفس؛ لأنه يَلْقَى أفاضل مختلفين، فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة، وقد يلقَى الأكابر من الناس، فيستحقر نفسه في مقابلتهم، وقد يصِل إلى المدارَسة الكثيرة، فيَنتفع بها[٢].

والراحل في طلب العلم يتلذذ لذة تطغى على مفسدة التغرب، ولا يزال يترقى في مدارج الكمال صُعُدًا.

قال محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ): ليس يَبلغ هذا الشأنَ إلا من أحرق قلبَه البَيْنُ في طلب العلم[٣].

ويكفي من فوائد الترحال في طلب العلم، ما قاله ابن خَلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): الرحلة لا بدّ منها في طلب العلم؛ لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال[٤].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم - محققا (١٨٩٠/٦) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٣٥/٣).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٧١) والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٦٥٣/١).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١١٩/٩).

(٤) تاريخ ابن خلدون (٧٤٥/١).

بل إن قوله -تعالى-: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] المراد به الرِّحلة في طلب العلم، وليس للجهاد فيها أَثَرٌ(١).

واعلم أنه لا يتأتَّى جمع العلم في كثير من الأزمان إلا لذي رحلة واسعة، وجوَّابِ بلاد شاسعة، قد قطع الفراسخ، وأنفق الأموال في لقاء المشايخ، واستهان الشدائد، وانتهز الفوائد.. والله يعصمنا من المباهاة، ويعيذنا من المنافسة والمُراءاة(٢).

ولذا ثمت وصف يُطلقه الذهبي، على من كثرت رحلاته في طلب العلم، لا سيما علم الحديث والإسناد. والوصف هو «الجوَّال» وقد أطلقه في «سير نبلائه» على قرابة خمسين عالِمًا.

وإذا الدِّيار تَنكَّرتْ سافرتُ في ... طلب المعارف هاجرًا لدياريْ
وإذا أقمتُ فمؤنِسي كُتبي، فلا ... أنفَكُّ في الحالين مِن أسفَارِيْ(٣)

وقد كانوا لا يحملون همَّ الرحلة، ما داموا يطمعون بفائدة أو مُفيد.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (ت ٣٢هـ): لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني أعلَمهم بكتاب الله، ولو أعلم أن أحدًا أعلم مني لرحلتُ إليه(٤).

فعلق النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) قائلًا: فيه استحباب الرحلة في طلب العلم، والذهاب إلى الفضلاء حيث كانوا(٥).

وقد قيل في قوله -تعالى- حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] جمع حَقَب وهو ثمانون سنة(٦).

وقد عقد البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ): «باب الرحلة في المسألة النازلة».

---

(١) المسالك في شرح موطأ مالك (١٠/٥) والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص: ٥٨٠) كلاهما لابن العربي.
(٢) بتصرف من الأربعون البلدانية لابن عساكر (ص: ٢٠).
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٤٢/١).
(٤) صحيح مسلم (٢٤٦٢).
(٥) شرح النووي على مسلم (١٧/١٦).
(٦) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٤٠٥/٣).

ثم أدرج تحته حديث عُقبة بن الحارث ﷺ: أنه ركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فسأله عن مسألة في رضاع زوجته، فأفتاه، وسمع الجواب المباشر من النبي ﷺ[١].

وهو دالٌّ على حرصهم على العلم وإيثارهم ما يُقربهم من الله -تعالى- والازدياد من طاعته؛ لأنهم إنما كانوا يرغبون في العلم للعمل به[٢].

قال أنس بن مالك ﷺ (ت ٩٣هـ): كان يُعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ﷺ ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: صَدَقَ..[٣] الحديث.

فاستنبط الرحَّالة الحافظ الحاكم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٥هـ) من هذا الحديث: أنه دليل على الرحلة في علو الإسناد، إذْ لم يَقنع هذا البدوي ما سمعه عن رسول الله ﷺ وما بلغه، حتى رحل بنفسه إليه، وسمع منه[٤].

وإذا كثرت شيوخ العالِم كثُرت رحلاته، وليس مَن شيوخه مئةً كمَنْ شيوخه ألف[٥].

ومن رَحلَ رُحِل إليه. وقد قالوا: «مَن لم يكن رُحْلةً؛ لن يكون رُحَلَةً»[٦]. ولذا تكررت في تراجمهم عبارة: «إليه كانت الرحلة في وقته» أو «كان يُرحل إليه»، فإذا ما مدحوا عالما مدحًا خاصًا قالوا ذلك.

طائفة من سيَر الراحلين المتلذذين في تحصيل العلم:

فاقرأ الآن خَبَرهم، وتلذَّذ بخُبْرهم، وتأمل واعتبر من مقاصدهم في رحلاتهم:

---

(١) صحيح البخاري (٨٨).
(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٤٤٣/٣).
(٣) صحيح مسلم (١٢).
(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢٢٠/١).
(٥) ذكرتُ في كتابي الجديد (إبداعات العلماء والمؤلفين) تعدادًا لخمسين من العلماء الأجلاء، الذين بلغ مشايخهم ألف شيخ فما فوق. والحمد لله المتفضّل.
(٦) هذه العبارة قد أعياني تطلُّب مصدرها، أو الاهتداء لقائلها، غير أن الشيخ بكر أبو زيد في كتابه: «حلية طالب العلم» أحالها من غير رقم صفحة إلى «تذكرة السامع والمتكلم» للكتاني. وقد مررت على الكتاب ورقيًا، وبحثت فيه الكترونيًا، فلم أجِد لها ذِكرًا.

قدوة الراحلين لطلب العلم:

إنه كليم الرحمن موسى بن عمران ﷺ حيث رحل في طلب العلم هو وفَتاه، حتى مسَّهما النصَب في سفَرهما في سبيل العلم، لكن نسي التعب في مقابل أنه ظَفِر بثلاث مسائل(١).

صحابيان يرحلان؛ لأجل حديث واحد:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (ت ٧٤هـ): بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريتُ بعيرًا، ثم شددتُ عليه رحلي، فسِرتُ إليه شهرًا، حتى قدِمتُ عليه الشام، فإذا عبد الله بن أُنيس..(٢)

وأتى عقبةُ بن عامر (ت ٦٠هـ) مَسلمةَ بن مخلد رضي الله عنه وهو أمير على مصر، فسمع صوته فأذن له، فقال: إني لم آتِك زائرًا، ولكني جئتك لحاجة..(٣)

ارحل مع ثلة من الجادِّين:

كفعل الصحابي مالك بن الحويرث رضي الله عنه (ت ٧٤هـ) الذي رحل إلى النبي ﷺ مع شَبَبَة متقارِبين، فأقام عنده عشرين يوما وليلة، وتفقَّه في أمور دينه، ثم رجع يعلِّم أهله وقومه(٤).

يَرحلون ولا يستمر في الطلب إلا المتلذذون:

قال عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) متحدِّثًا بنعمة الله عليه: خرجتُ من خراسان، ونحن ستون فتىً نطلب العلم، ما منهم آخِذٌ غيري(٥).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٤٤١) وحديث رحلة موسى في صحيح البخاري (١٢٢).
(٢) مسند أحمد ط الرسالة (١٦٠٤٢).
(٣) المصدر السابق (١٦٩٦٠).
(٤) صحيح البخاري (٦٣١).
(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/٣٦٩).

الفقر أكبر عائق عن الرحلة:

قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): لو كانت عندي خمسون درهما كنتُ قد خرجت إلى الري، إلى جرير بن عبد الحميد[١].

وقيل لسفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ): ما منعك من الزهري؟ قال: قِلة الدراهم. ثم استدرك وقال مُعزِّيًا نفسه: وقد كفانا مَعمر[٢].

الرحلة في لُقيا الشيوخ توسِّع مداركك، وتضخِّم فوائدك

ابن المؤيد الهمذاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٣هـ) كتب في آخر جزء إجازة بخطه: «وذكر سماعاتي يطول جدًا، والزمان على ضِيق، وما كل ما سمعتُ يَحضرني إسناده، فمشايخي- بحمد الله- قد جاوزوا الألْف، فلو شرعتُ أذكر عن كل شيخ ولو جزءًا واحدًا لملَّ الناظر فيه»[٣].

انوِ الرحلة؛ فقد تبلغ نيَّتك ما لم يَبلُغه عملك:

كان برهان الدين ابن الفِركاح -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٨هـ) يقول: أشتهي أن أروح إلى حماة، وأقرأ التنبيه على القاضي شرف الدين[٤].

ارْعَ وصية ثمينة يوصيكَها عالم مُكثِر:

إنه المحدث المؤرِخ السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) يوصيك، فيقول: وحيث رحلتَ فبادر فيها للقاء من يُخشى فوته، ولا تتوانَ فتندم، واقتد بالحافظ السِّلَفي؛ فإنه ساعة وصوله إلى بغداد، لم يكن له شغل إلا المضي لشيخه ابن البطر، هذا مع عِلَّته بدَمَاميل في مقعدته من الركوب، بحيث صار يقرأ عليه وهو متكئ؛ للخوف مِن فَقْده[٥].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٣٣).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٩/٤٠٤).

(٣) تاريخ إربل (١/٣٥٧).

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٦/١٦٨).

(٥) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٣/٢٧٩).

مدة الرحلة سبع سنين، والعمر عشرون:

أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) قال: أول ما رحلت أقمت سبع سنين، ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العَدد، وخرجت من البحرين إلى مصر ماشيًا، ثم إلى الرملة ماشيًا، ثم إلى طرسوس ولي عشرون سنة(١).

يَرحل لمسألتين مسافة (٤٥٠ كلم):

الشيخ الفقيه محمد بن الفتوح التلمساني -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٨هـ) سبب ارتحاله لفاس مسألتان من الفقه؛ سئل عنهما، فلم يحضره فيهما شيء(٢).

وأعجب منه من يَرحل (٢٨٠٠ كلم) لأجل نسخة:

قال ابن المقرئ -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨١هـ): مشيتُ بسبب نسخة مفضل بن فضالة سبعين مرحلة، ولو عُرضت على خباز برغيف لم يَقبلها(٣).

يمكث ثلاثين عامًا في رحلته:

الحافظ الفسوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) عاش بعيدًا عن وطنه في طلب الحديث نحو ثلاثين سنة، وروى عن أكثر من ألف شيخ(٤).

رغم شوقهم لأهلهم؛ فإن العلم عندهم أشد شوقًا: قال القيسراني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٧هـ): كنتُ يوما أقرأ على أبي إسحاق الحبَّال جزءًا، فجاءني رجل من أهل بلدي، وأسرَّ إليَّ: إن أخاك قد وصل من الشام. فأخذتُ في القراءة، فاختلطتْ عليَّ السطور. فقال أبو إسحاق: ما لَك؟ فقلت: أخي لم أرَه من سنين. فقال: ولِمَ لا تذهب إليه؟ قلت: حتى أُتمَّ الجزء. فقال: ما أعظمَ حرصَكم يا أهل الحديث! قد تمَّ المجلس، وصلى الله على محمد. وانصرَفَ(٥).

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٥٩/١).

(٢) انظر المسألتين في: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٩٨).

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٢١/٣).

(٤) تاريخ الإسلام ت بشار (٦٤١/٦).

(٥) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٦٧/١٩).

يتحسرون على فوات الرحلة، لولا البر بآبائهم: كان الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) يتمنى كثرة الرحلة، إلا أن والده يمنعه في بعض الأحيان؛ خوفًا عليه أو لحاجته له، أو هو يمتنع بِرًا بأبيه الطاعن.

قال الذهبي في ترجمة شيخ المستنصرية الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وقد هممت بالرحلة إليه، ثم تركته؛ لمكان الوالد، وكنت أتحسر على الرحلة إليه، وما أتجسر خوفًا من الوالد؛ فإنه كان يمنعني، وما يمكنني الرحلة إليه، لمكان الوالد ثم الوالدة. وقال: ولما مات شيخنا الفاضلي، فازددت تلهفًا وتحسرًا على لقيه، ولم يكن الوالد يُمَكِّنني من السفر[١].

وأيضًا- هذا خرزمة الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٩هـ) كان يقول: لم يمنعني من الأخذ عن العلّامة خواجا زاده، إلا عدم رِضا والدتي بسفري إليه[٢].

وأحد التلاميذ المتلذذين بالعلم يرحل إلى شيخه، ويمكث عنده ستة أشهر، فيستأذنه قائلًا: طال مقامي عندك، ولي والدة[٣].

ومن القصص العجيبة ما قاله أبو العباس بن مسروق -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٩هـ): أردت السفر، فودَّعْتُ والدتي، وخرجت ومضى لي أيام، فلما كان في يوم من الأيام وقفت وقفة، فلم يكن لي قَدَمٌ إلى قُدَّامَ، ولم أدرِ ما العِلة! فرجعت، فجئت باب الدار، ففتحت الجارية الباب، فرأيت والدتي في بيت الدِّهْلِيز وقد لبستْ سوادًا، فهالَني ذاك منها! فقلت لها: يا أمي أيشَ الخبر؟ فقالت: يا بني! اعتقدتُ من وقت خرجتَ أن ألزم هذا البيت، وأصوم، ولا أدخل الدار حتى تجيء! قال أبو العباس: فعلمتُ أن رجوعي وتلك الوقفة كان لأجلها[٤].

مَن يُغلِق جوَّاله للتفرغ العلمي هل له أسوةُ بهذا العالِم: كان الفقيه الأديب سليم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٧هـ) ببغداد، وكانت ترِدُ عليه الكتب من بلده الري

---

(١) معجم الشيوخ للذهبي (٧٤/١) ومعرفة القراء للذهبي: (ص ٥٥١ و٥٥٦) وتاريخ الإسلام ت بشار (٨٥٨/١٥).
(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية للتقي الغزي (ص: ١٨٥).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٣/٧٤).
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٢٧٩/٦).

فلا يقرؤها؛ إلى أن استكمل ما أراد من أنواع العلم، ثم فتحها، فوجد فيها من موت أهله، وحدوث ما يشغل خاطره؛ أمرًا لو قرأه لاشتغل به عن الطلب(١).

يَرحل (١٠٠٠ كلم) لأجل حديث واحد:

المحدث الرحالة ابن طاهر القيسراني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٧هـ) يقول عن نفسه: رحلتُ من طُوس إلى أصبهان، لأجل حديث أبي زرعة الرازي، الذي أخرجه مسلم عنه(٢)، ذاكَرَني به بعض الرَّحَّالة بالليل، فلما أصبحتُ، سِرْتُ إلى أصبهان، ولم أحْلُلْ عني حتى دخلت على الشيخ، فقرأته عليه، ودفع إليَّ ثلاثة أرغفة وكُمِّثراتَيْنِ، فما كان لي قُوت تلك الليلة غيره(٣).

وأيضًا- يقطع ٣٥٠٠ كيلو، ويرى أنه لم يجد حلاوة لهذه الرحلة القصيرة!

قال ابن طاهر القيسراني: رحلت من مصر إلى نيسابور، لأجل أبي القاسم الفضل بن المحب، فلما قرأت عليه أول مجلس جزأين، لم أجِدْ لذلك حلاوة، فإني نِلتُه بغير تعب؛ لأنه لم يمتنع عليَّ، ولا طالَبَني بشيء، وكل حديث من الجزأين يَسْوَى رحلة(٤).

حكايته ذكريات رحلاته أحلى عنده من الشهد:

قال الأديب العلامة شهاب الدين الخفاجي-رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٩هـ): كنت في رحلتي متَّجرًا في بضائع الفوائد، مغرمًا بصيد الشوارد، وقيد الأوابد. هذا وإني كنت قبل أن تُشيب مني الخطوبُ الذوائبَ، وتصبح أحشائي بلظَى النوائب ذوائب، أُنفِقُ نقد عمري في اقتناء الأدب، واقتناص شوارده، وأملأ صَدف المسامع، مما يَستخرج غواص الأفكار من فرائده(٥).

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٧٠/٢).

(٢) والحديث الذي ارتحل من أجله هو: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**. صحيح مسلم(٧١٢٠).

(٣) تاريخ الإسلام -بتصرف- (١٧٨/٣٥).

(٤) المصدر السابق (٩٦/١١).

(٥) ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا (ص: ٣٦٢).

رحلة لمسألة واحدة:

القاضي اليمني عامر الصباحي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤٧هـ) رحل إلى شيخ في صنعاء؛ لأجل مسألة واحدة أشكلت عليه، فلم يبت إلا في الطريق[١].

يرحل لأنه لا يجد ببلده عالِمًا:

الشيخ الجزائري عبد الرحمن بن عمر التنلاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٩هـ) قال عن نفسه: كنتُ في حال صغري مشتغِلًا بقراءة الشيخ خليل، وألفية ابن مالك، متشوفًا إلى شيخ يحل لي ألفاظهما، ويوقفني على معانيهما، فلم يتفق لي ذلك؛ لكون البلد شاغرة من العلماء، إلى أن شرح الله صدري، وتوجهت هِمتي للسفر لسجلماسة[٢].

يا ساكني الحرمين! فترة الحج لكم فرصة ذهبية:

ابن سُكَّر البكري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨١هـ) سبب كثرة مروياته وشيوخه، أنه كان إذا قدم الركب مكّة طاف على الناس في رحالهم، يسأل من له رواية أو حظ من علم، فيأخذ عنه[٣].

ينام من الفقر في المسجد لا الفندق:

محمد بن جرير الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) أقام ببيروت أيامًا، منها تسع ليال، يبيت في مسجدها الجامع، حتى ختم القرآن[٤].

يتغرَّب خمسين سنة، ولا يُعرف:

أبو العباس السراج -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٣هـ) خرج من بغداد ثم قال: وا أسفَا على بغداد! فقيل له: ما الذي حملك على الخروج منها؟ قال: أقام بها أخي إسماعيل خمسين سنة، فلما توفي ورُفعت جنازته، سمعت رجلًا يقول لآخر: من هذا الميت؟! قال:

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤٨٦/١).
(٢) الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن التنلاني (ص: ٩).
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٤/٩).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩١/٥٢).

غريبٌ كان هاهنا! فقلت: إنا لله! بعد طول مقام أخي بها، واشتهاره بالعلم والتجارة، يقال: غريبٌ كان هاهنا؟! فحملتني هذه الكلمة على الانصراف إلى الوطن(١).

يبيع ثيابه، ويجوع، ولا يقطع رحلته:

قال أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) عن رحلته للبصرة- وكان عمره تسع عشرة سنة فقط-: بقيتُ بالبصرة ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيمَ سنة، فانقطعتْ نفقتي، فجعلتُ أبيع ثيابي شيئًا بعد شيء حتى بقيتُ بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشْيَخة، وأسمع منهم إلى المساء.. وجعلتُ أشرب الماء من الجوع، حتى مضى يومان ما طعِمتُ فيهما. فقال لي رفيقي: معي دينار، فأنا أواسِيك بنِصفه(٢).



(١) تاريخ بغداد ت بشار (٧/٢٨٤).
(٢) المصدر السابق (٢/٤١٤).

٤٦. لذة نشر العلم

لقد أمر نبينا ﷺ بتبليغ العلم عنه، ففي الصحيحين قال: **بلِّغوا عني ولو آية**(١). وقال: **ليبلغ الشاهد منكم الغائب**(٢). وقال: **نضَّر الله امرأً سمع مقالتي، فوَعاها، وحفظها، وبلَّغها**(٣).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): هذه النُّضرة في وجه مَن سمِع سنة رسول الله، ووعاها، وحفظها، وبلغها؛ هي أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه. وكلما كَثُرَ التبليغُ عنه تَضاعَفَ له الثواب. ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصولُ ما يحبُّه ﷺ لكفى به فضلًا.. فهو أقربُ الناس منه، وأحبُّهم إليه، وهو نائبُه وخليفتُه في أمَّته، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم وأهله(٤).

ولذة نشر العلم وتبليغه؛ ليست مقصورة على من له باع في التعليم والتأليف، بل يدخل فيها من بلَّغ ولو مسألة، أو أهدى لهم ما يَهديهم، ونعمت الهدية كلمة حكمة تسمعها، أو مسألة علم تفهمها، ثم تحملها، لتنشرها إلى أخ لك مسلم، ينتفع بها.

فما أجمل تذكير النفس والناس! من خلال تكرير فضائل تبليغ العلم وتعليمه، وما أجمل مخاطبتهم بمثل ما خاطَب به شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) بقوله: لا تظنوا أن فضل العلم لا يَحصل إلا لمن تفقَّه كثيرًا، فمن حضر منكم مجلسًا واحدًا من مجالس العلم، فاستفاد مسألة عمِل بها، وعلَّمها إخوانه، فإنه يُحصِّل خيرًا كثيرًا، ويجرى له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٦١).
(٢) صحيح البخاري (٦٧) وصحيح مسلم (١٣٥٤).
(٣) سنن أبي داود (٣٦٦٢) وسنن الترمذي ت بشار (٢٦٥٨) واللفظ له.
(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٧٣/١).
(٥) الضياء اللامع من الخطب الجوامع (٨/١).

وأما كتم العلم، أو البخل في بذله، أو التكاسل عن نشره؛ فقد «مضت السنة، بأن الشروع في العلم يلزم، كالشروع في الحج».

وهذه العبارة المتينة؛ قالها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) ولكنها تحتاج لتفسير. فلنأخذ تفسيرها منه هو بقوله: فالمُرصِدون للعلم عليهم للأمة حفظ علم الدين وتبليغه؛ فإذا لم يُبَلِّغوهم علم الدين، أو ضيعوا حفظه؛ كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] فإن ضرر كتمانهم تعدى إلى البهائم وغيرها، فلعَنَهم اللاعنون، حتى البهائم[(١)].

ولذا ورد عن سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤هـ) في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧] قال: هذا في العلم؛ ليس للدنيا منه شيء[(٢)].

وقد تأوَّلوا قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] بالنفقة من المال والنفقة من العلم[(٣)].

ولذا فإن من تلذذات العلماء بالعلم، أنهم يتذكرون الأجور المضاعفات لنشرهم العلم، فيتجدد نشاطهم، وتزيد رغبتهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: **إن مما يَلحق المؤمن من حسناته بعد موته علمًا نشره**[(٤)].

قالوا: وهو شامل للتصنيف والتعليم، وهو في التصنيف أظهر؛ لأنه أطول استمرارًا، وأكثر انتشارًا[(٥)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨٦/٢٨ و١٨٧).

(٢) العلم لزهير بن حرب (ص: ١٣) والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٣٢٤/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١٢/١٤).

(٤) رواه ابن ماجه (٢٤٢) وابن خزيمة (٢٤٩٠)وحسنه ابن خزيمة وابن الْمُنْذر كما في حاشية السندي على ابن ماجه (٢٢٣/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٢٣) وابن الملقن في البدر المنير (١٠٢/٧) والمناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٧١١/١) والعجلوني في كشف الخفاء (٣٠٨/٢) والألباني في أحكام الجنائز (ص ١٧٧).

(٥) كشف الخفاء ت هنداوي (١١/١).

فإن مؤلفي الكتب - كما يعبر عنهم أحد المفكرين- بأنهم أنتجوا أولاد العقول، لا أولاد الظهور. فإنما بقاء العلم وتخليده بالكتب، فالخلود للمكتوب أكثر من المسموع.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): تصنيف العالِم ولدُه المخلَّد[١].

وأيضًا- ألم يَقُلِ النبي ﷺ: **إن الله وملائكَتَهُ، وأَهْلَ السمواتِ والأَرَضِينَ، حتى النملَةَ في جُحْرِها، وحتى الحُوتَ لَيُصَلُّون على معلِّم الناس الخير.** وهذا الفضل والتفضيل يناله مَن أفاض بنفائس علوم الدين على العباد، وشملت بركة علمه الحاضر والباد[٢].

وثمَّت لَفتةٌ جميلةٌ لابن جماعة الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ) عند قول النبي ﷺ: **إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو عِلم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**[٣].

قال الكتاني: وأنا أقول: إذا نظرتَ وجدت معاني الثلاثة موجودة في معلم العلم؛ أما الصدقة فإقراؤه إياه العلم، وإفادته إياه، وأما العلم المنتفع به فظاهر.. وأما الدعاء الصالح له؛ فالمعتاد المستقرَأ على ألسِنة أهل العلم والحديث قاطبةً، من الدعاء لمشايخهم[٤].

وإن ناشر العلم لَينال بركته وعائدته، بالثبات في الحياة وبعد الممات.

قال الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): كان من مضى من علمائنا يقولون: نشر العلم ثبات الدين والدنيا[٥].

قال أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ): نشر العلم حياته[٦].

كما أن ناشر العلم يرتفع قَدره عند ربه، بقدر نشره للعلم.

ولذا لما سئل ابن تيمية عن «خديجة وعائشة»: أمَّي المؤمنين؛ أيتهما أفضل؟

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٣٤).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٤٩٠/٧). والحديث رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) صحيح مسلم (١٦٣١).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٦٤).

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٦٩/٣).

(٦) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٧).

فأجاب: بأن تأثير عائشة في آخر الإسلام، وحمل الدين، وتبليغه إلى الأمة؛ وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها، مما تميزت به عن غيرها[١].

ومن لذائذ نشر العلم: أن صاحبه موعود بالمزيد، فالعلم يزيد بكثرة الإنفاق، وينقص مع شدة الإشفاق:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص أن به كفًا شددتا[٢]

قال ابن القيم: العالِمُ كلَّما بذل علمَه للناس، وأنفقَ منه تفجَّرت ينابيعُه، وازداد كثرةً وقوَّةً وظهورًا، فيكتسبُ بتعليمه حفظَ ما عَلِمَه، ويحصلُ له به علمُ ما لم يكن عنده، وربَّما تكونُ المسألةُ في نفسه غيرَ مكشوفةٍ ولا خارجةٍ من حَيّز الإشكال، فإذا تكلَّم بها وعلَّمها اتضحت له وأضاءت، وانفتح له منها علومٌ أُخَر. وأيضًا؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما عَلَّمَ الخلقَ من جهالتهم، جزاه اللهُ بأن علَّمه من جهالته؛ كما في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: **وأنَّ الله قال لي: «أَنفِقْ أُنفِقْ عليك»** وهذا يتناولُ نفقةَ العلم؛ إما بلفظه، وإما بتنبيهه وإشارته[٣].

وقال: ولزكاء العلم ونموِّه طريقان: أحدُهما: تعليمُه. والثاني: العملُ به[٤].

ومن لذائذ نشر العالِم للعلم أن يَصدُر الناس عن فتواه الموافقة للحق، فيعملوا بها، وكفى بالمرء لذة ورفعة؛ أن يؤخذ عنه العلم، ويُستفتَى في دين الله، ويكون واسطة أحكام الشرع بين الله وبين عباده، فليشكر الله -تعالى- وليزدَدْ من تلكم اللذات، ولا يُتْبِعها بالمَنِّ والأذى.

ومن لذائذ نشر العلم الاعتناء بإخراج أمهات الكتب في العلوم النافعة، ويدخل في هذا المحقِّقون والمؤلِّفون، والمعتنون بالمخطوطات، والنُّسَّاخ والكُتَّاب، وأصحاب المطابع ودُور النشر، وواقفو الكتب والمكتبات، وداعمو الدروس والمدارس.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٩٣/٤).
(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ص: ٢٦).
(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ط عالم الفوائد (٣٦٣/١).
(٤) المصدر السابق (٣٦٤/١).

قال جمال الدين الإسنوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٢هـ) مبتهجًا بإنجازات في إخراج ونشر مؤلفات المذهب الشافعي: وقد تيسر لي مع ذلك بحمد الله -تعالى- من مؤلفات الشافعي والأصحاب -خصوصًا الأقدمين- ما لم يطرق اسمه بالكلية أُذُنَ أكثر المكثِرين.. واعلم أني لم أزَلْ من زمن الطلب إلى الآن، قائما بدعوة ما غَبَر من التواليف، ودَثَر من التصانيف، معتنيًا بإظهار خفاياها، وإبراز زواياها، حتى أحياها الدهر وأنشرها، بعد أن أماتها فأقبرها(١).

ألا إن المتلذّذين بنشر العلم في جَنَّة معجَّلة، وفي لذة مبجَّلة، لا يوازيها لذة المقاتل الشجاع المنتصر:

فدَعْهُم لضرب الهامِ بالسيف ينعَمُوا ... ودعني لنشر العلم في الناس أنعَمُ(٢)

وإليك الآن مواقف فائقة، ومقولات رائقة، تؤكد لك تلذُّذهم بنشر العلم وتبليغه:

١. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه (ت ١٨هـ): تعلموا العلم؛ فإن..تعليمه لمن لا يَعلم صدقة، وبَذْلَه لأهله قُربة(٣).

٢. من لذتهم بنشر العلم؛ قد يقطعون ليلهم كله سهرًا. تَواعَد الناس ليلة من الليالي، فقام فيهم أبو هريرة رضي الله عنه (ت ٥٨هـ) يُحدِّثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح(٤).

٣. كان أبو أمامة رضي الله عنه (ت ٨١هـ) يُحدِّثهم فيُكثر، ثم يقول: عقلتم؟ فيقولون: نعم. فيقول: بلِّغوا عنا؛ فقد بلغناكم. يرى أن حقًا عليه أن يحدِّث بكل ما سمع(٥).

٤. عروة بن الزبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤هـ) اجتمع في الحِجر مع أخويه؛ مصعب وعبد الله، فقالوا: تمنوا. فتمنى أحدهم الإمارة، وآخر الخلافة. فقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم(٦).

---

(١) المهمات في شرح الروضة والرافعي (٩٤/١).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٠/٥٥).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٣٩/١).
(٤) العلم لزهير بن حرب (ص: ١٤).
(٥) جامع بيان العلم وفضله (٤٩٥/١).
(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٦٧/٤٠).

٥. قال سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى- (تِ ٩٤هـ): وددتُ أن الناس أخذوا ما عندي من العلم؛ فإنه مما يهمني(١).

٦. قال قتادة السَّدوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧هـ): بابٌ من العلم يَحفظه الرجل؛ لصلاح نفسه، وصلاح مَن بعده؛ أفضل من عبادة حَول(٢).

٧. قال ابن شهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): ما صبَرَ أحد على العلم صبري، ولا نَشَرَه أحد نَشْرِي(٣).

٨. قال عطاء الخراساني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥هـ): أوثَقُ عمل في نفسي نشر العلم(٤).

٩. قال هشام بن حسان -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٧هـ) لأصحاب الحديث: لوددتُ أني قارورة، حتى كنت أقطر في حلق كل واحد منكم(٥).

١٠. كانوا إذا ودَّعوا مالكًا -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) يقول لهم: اتقوا الله، وانشروا هذا العلم، وعلِّموه، ولا تكتموه(٦).

١١. ابن وهب -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ) عابد متألِّه، وقد رؤيت له رؤيا عجيبة، فأرعِ لها مشاعرك: اجتمع الناس على ابن وهب؛ يسألونه نشر العلم، فترك الجلوس لهم، وأقبل على العبادة، ثم أتاه إنسان، فأخبره أنه رأى ابن وهب في المنام بالمسجد الحرام، والنبي ﷺ فيه، وأبو بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وأنت بين يديه، وفي المسجد قناديل، تُزهر أحسن شيء وأشدها ضياء، إذ طفَّيتَ منها قنديلًا فانطفأ. فقال لك رسول الله ﷺ: قُم يا عبد الله أوقِده، فأوقدتُه، ثم آخر كذلك. ثم رأيت القناديل كلها همَّت أن تُطفأ، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما ترى هذه القناديل؟! فقال ﷺ: هذا عمل

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٨٣/٤).
(٢) مسند ابن الجعد المتوفى ٢٣٠هـ(ص: ١٦٣).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٤٩٨/١).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٣١/٤٠).
(٥) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٦١/٦).
(٦) جامع بيان العلم وفضله (٤٩٢/١).

عبد الله، يريد أن يُطفيَها. فبكى ابن وهب، وقال له الرجل: جئتُ لأبشرك، ولو علمتُ أنه يَغُمُّك لم آتِكَ. فقال: خير. هذه الرؤيا وعظْتَ بها نفسي؛ ظننتُ أن العبادة أفضل من نشر العلم. فترك كثيرًا من عمله للعلم، وحبس نفسه لهم، يقرؤون عليه، ويسألونه[١].

١٢. قال ابن عيينة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ): وددتُ أني وجدتُ لهذا العلم أهلًا، فأُكثِرُ عليهم منه[٢].

١٣. قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): وددتُ أن الخلق يتعلمون هذا العلم، ولا يُنسب إليَّ منه شيء. وقال: لَوَدَدْت أنه يُعمل بحديث رسول الله ﷺ ولا أُعَدُّ من أهل العلم[٣].

١٤. يزيد بن هارون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٦هـ) رئي في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. فقيل: بأي شيء؟ قال: بهذا الحديث الذي نشرته في الناس[٤].

١٥. قال الزعفراني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٠هـ): وددت أن الناس يفهمون ما في كتبي، من معاني الكتاب والسنة، وينشرون ذلك، وإن لم ينسبوه إليَّ[٥].

١٦. أبو مسلم الكجي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٠هـ) من فرحته لما حدَّث أول يوم حدَّث، قال لابنه: كم حصل عندنا من أثمان غلاتنا؟ قال: ثلاث مئة دينار. فقال: فرِّقها على أصحاب الحديث والفقراء شكرًا! إن أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقُبلت شهادته[٦].

١٧. ابن حبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) بوَّب بابًا، فقال: باب الحث على نشر العلم؛ إذ هو من خير ما يُخَلِّف المرء بعده[٧].

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/٢٣٥).
(٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص: ٥٧٦).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/١١٨) ومنازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد للسلماسي (ص: ٢٢٥).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/٥٠٠).
(٥) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر (ص: ٨٤).
(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٣/٢٨٠).
(٧) الثقات لابن حبان (١/٨).

١٨. ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) بثَّ أغلى أمانيه بهذا البيت:

مُـنَـايَ من الدنيا علومٌ أَبُثُّهَا   وأَنْـشُـرُهـا فـي كـل بـادٍ وحـاضـرِ[١]

١٩. ومن بعده قال تلميذه الحميدي صاحب «الجمع بين الصحيحين» -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ):

ومـا لذتي إلا الحديث وجمعَهُ   وتبليغَه حسبي به لـذةً حسبيْ[٢]

٢٠. قال أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): التلذذ بجاه الإفادة، ومنصب الإرشاد، أعظم لذة من كل تنعُّم في الدنيا[٣].

٢١. جلس ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) مجلس علم، بعدما اقتربت منيته، فتذكّر سجنه في محنته، فأنشد أبياتًا أثناء المجلس يتوجد على مجالس العلم، ويتمنى أمنية غالية، فيقول:

اللهَ أسـأل أن يـطـوِّل مـدَّتـي   وأنـال بـالإنـعـام مـا فـي نيتي
لي همة في العلم ما من مثلها   وهْـيَ التي جَنَتِ النُّحول هي التي
كم كان لي من مجلس لو شُبِّهتْ   حـالاتـه لـتـشـبّـهـت بـالـجـنـةِ[٤]

٢٢. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وصفه تلميذه الذهبي بقوله: لا لذةَ له في غير نشر العلم، وتدوينه، والعمل بمقتضاه[٥].

٢٣. المفسر أبو زيد الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٥هـ) قال: رأيت النبي ﷺ وأنا في تأليف هذا التفسير، وقراءة «البخاري»، وأنا في موضع عال مع أناس كثيرين، وهو يفرِّق طعامًا، وخشيت نفاده قبل وصوله إليّ؛ لكثرة الناس، فسألته أن يطعمني من الطعام، فناولني من يده، وأكلت منه ﷺ ونظر إليّ قائلًا: أليس إذا أَطعم النبي أحدًا

---

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة (ص: ٤١٧).
(٢) إثارة الفوائد (٢/٦٦٦).
(٣) إحياء علوم الدين (١/٦١) وانظر: فيض القدير (١/١١٩).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٥٠٧).
(٥) المعجم المختص بالمحدثين (ص: ٢٥).

شيئًا يتقيؤه؟! فقلت له: أفأتقيؤه؟ وتهيأت للقَيء، فقال لي: ليس هذا أريد. ففهمت أنه لم يُرِد القيء بظاهره، وأوّلته على نشر العلم وبثِّه، وفرحتُ(١).

٢٤. اقدُر لناشِرِي العلم قَدْرهم؛ فإنهم مِلحُ البلد الذي يسكنونه، بل نُوره ونَوره وسروره. وتأمل قصة العالم عبد الله بن عضيب -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦١هـ) حين رغِب أمير عنيزة وكبار أهلها في استجلابه إلى بلدهم للفتوى والتدريس، فركبوا إليه، وأتوا به، فأوقَفَ أحد الراغبين في الخير بيته؛ ليُدَرّس فيه الشّيخ، فنشر العلم في عنيزة، وأعان الطلبة بماله وبكتبه، حتى لقد قال له الأمير وأكابرُ بلده: كنّا أمواتًا، فأحيانا الله بك(٢).

٢٥. قال محمود الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٠هـ) -وما أبلغ ما قال-: وأنا أحمد الله -تعالى- على أن خلصني من نصَب منصب الإفتاء، وشغَلني برشْف رِضاب فتاة التدريس في الإصباح والإمساء(٣).

٢٦. عبد القادر بن بدران الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) قد سبق أنه كان كثير التنقل بين غوطة دمشق؛ لتبليغ العلم للعامة، وتعليمه للطلبة الذين لا يستطيعون الرحلة(٤).

٢٧. عندما أحسَّ الشيخ عبد العزيز آل مبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٩هـ) بدنوِّ أجَله قال: ما أسِفْتُ على شيء، أسفي على علم بين جنبيَّ؛ لم أستطع أن أورِّثه لأحد بعدي(٥).

٢٨. الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) تعاهَد تلميذه الشيخ الشاب عبد الله بن عقيل، بالوصية بنشر العلم، ويُظهر فرحه بكل ما يُحقق هذا المقصد الشريف. فإليك أربع مقتطفات متفرقة، من مراسلات الشيخ لتلميذه لما توجَّه قاضيًا بمنطقة جازان:

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٢٦١).
(٢) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٦٠٦/٢).
(٣) غرائب الاغتراب (ص: ٢٩).
(٤) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٧٨١/٣).
(٥) علماء نجد للبسام (٢٦٩/٣).

- ولابد وصيَّتُنا على بالِكُم، وهي جدك واجتهادك في كل ما تقدر عليه من الإصلاح، لا سيما الإصلاح العلمي؛ فإنه أعلى فضيلة حصَّلها العبد.. وهذا أكبر أمنيتي.
- أخذني من السرور والاغتباط ما الله به عليم؛ لِما اشتمل عليه كتابك، من الرغبة التامة في العناية بالعلم، والحرص على تحصيله بكل طريق، وترتيبكم للدروس النافعة.
- الأمل أنك ما تدَّخر من الجد والاجتهاد، وفي نفع مَن تظن فيه أهليته للطلب، فهذا هو المكسب الرابح.
- ولا يُحتاج مَن يحثُّك على ملازمة مطالعة كتب الفقه، خصوصًا شرح «الزاد» لأنها أعظم عَون لك على ما أنت بصدَده[١].

٢٩. الشيخ سليمان المشعلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) نقل عن بعض العلماء أنه قال: لو وجدتُ من يتعلم مني بأجرة لَبَذلتُها[٢].

٣٠. محمَّد نجيب خياطة الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٧هـ) كثيرًا ما كان يقول: إننا خُلقنا؛ لكي ننشر العلم في صفوف الناس، فوَقْتُنا وعِلمنا مُلك لهم، وليس لنا[٣].

إيقاظة[٤]:

هذه الإيقاظة تفتح لك أبوابًا من الأجور والحسنات العظيمة. فتأملها -رحمك الله-.

صحيح أن بقاء العلم وتخليده بالكتب، فالخلود للمكتوب أكثر من المسموع.

لكن لا يلزم أن تكون ذا قلم سيّال بالكتابة الرصينة، أو أن تكون متمكنًا من التأليف؛ بل أمامك مجالات يمكن أن تشارك التلذذ بالعلم من خلالها، فاضرب من

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة للشيخ السعدي (ص ٣٥ و٥٤ و٩١ و ١٠٦).

(٢) تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان (١٦٨/٥).

(٣) إمتاع الفضلاء بتراجم القراء فيما بعد القرن الثامن الهجري (٣٦٤/٢).

(٤) مستفاد أكثرها من مدارسات مع صاحبي الشيخ: ماجد السلمان، وقد نقلها عن شيخنا وصاحبنا الفقيه: سليمان الحربي -حفظني الله وإياهما-.

كل غنيمة بسهم، والناس طاقات وقدرات، لكن اعمل بالوصية النبوية المتينة: احرِصْ على ما يَنفعُك ولا تعجَزْ[١].

والأمر كما قال خالد بن معدان -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣هـ): إذا فُتح لأحدكم باب خير فليُسرع إليه؛ فإنه لا يدرِي متى يُغلَق عنه[٢].

فعلك - أيها الموفق للعلم- أن تشارك في تبليغ العلم، بمجالات متنوعة متاحة، ولا يلزم أن تكون عالما نحريرًا، أو مؤلفًا شهيرًا. ولكن ابحث عن باب تقدر أن تشارك فيه، بنشر العلم، ونفع المسلمين.

فمن مجالات المشاركة في نشر العلم وتبليغه:

١- **صنِّف ولو لم تَطبع تصنيفك!** ولعل الله يبعث من يَطبع لك، فيُنشر علمك ولو بعد رحيلك، ولذلك وُجد في تراجم بعض العلماء وطلبة العلم، من اختطَّ طريقه في تأليفٍ ما ولما يُتمه، فأتمّه مَن بعده.

قال التاج السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): ينبغي للمرء أن يتخذ كتابة العلم عبادة، سواء توقع أن يترتب عليها فائدة أم لا[٣].

٢- **اشتغِل بإيضاح وشرح كتب المتقدمين، وفك عباراتها، وفتح مستغلِقها:** فهذا ابن علاء الدين البابلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٧هـ): إن الإنسان إذا فهم كلام المتقدمين الآن، واشتغل بتفهيمه؛ فذاك من أجلِّ النعم، وأبقى لذكر العلم ونشره[٤].

٣- **انظِم العلم:** كما فعل العمريطي -رحمه الله تعالى- (بعد ٩٨٩هـ) فإنه لم يُفتح عليه في تدريس العلم، لكن فُتح عليه في النظم، وحُفظ علمه؛ بسبب نظمه.

٤- **اختصِر الكتب:** فكم من كتاب فُقِدَ وبقي مختصَره، وقد يكون المختصِر لا يُعرف، مثل كتاب الأحكام للطحاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) فالكتاب مفقود، ولكن بقي المختصَر للشاشي، والشاشي لا يُعرف له كتابٌ غيرُه.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢١١/٥).

(٣) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٤١/٣).

(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤٢/٤).

ومن بركات التأليف أنه ربما تلخِّص كتابًا في أوراق لنفسك، أو تنتقي أو تعلِّق بقلمك على كتاب؛ لتقريب فهم ذلك الكتاب، فيبعث الله له من ينفخ فيه الروح، فيَحيا ليُنير لصاحبه في قبره. فلا تَستهِنْ بمجاميع العلم، وإنما السيل اجتماع النُّقَط.

٥- **شارِكْ في جمع المتفرق من كتُب العالِم الواحد**: وانظر مثلًا إلى ابن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٢هـ) في جمعه لـ«فتاوى ابن تيمية»، وكيف بارك الله فيه؛ مباركة لم تَحْفَل بها كتبُه.

٦- **اجمع فوائد ومسائل من مجالس أو كتب علمية:**

كفعل علي بن عمر الحربي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٦هـ) في كتابه «الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي». وكفعل الردواني المغربي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٤هـ) في كتابه «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزَّوائِد».

فاكتب أحسن ما تسمع وما تقرأ، واجمعه في كناشات، ورتِّبه حسب الفنون، ومما يدخل في هذا المضمار إنشاء حسابات لك في الوسائل التقنية للتواصل الاجتماعي، وضعْ فيها أحسن ما يمر عليك من مَقولات ومنقولات.

٧- **استحثَّ عالِمًا للتأليف**: وما أكثر الكتب التي يكون سبب تأليفها طلبٌ من طلابه أو مشايخه. وافعل كما فعل قاضي واسط، في الإلحاح على شيخ الإسلام -رحمهما الله تعالى- حتى كتب «العقيدة الواسطية».



٤٧. لذة الدرس (دراسةً وتدريسًا):

قد تكون طالب علم يُنتفع بمذاكرتك، وبنَقْلِك الفتاوى، ولكنك لم تتهيأ بعدُ للعكوف للتدريس، أو كنتَ مؤلِّفًا بارعًا أو متحدثًا بليغًا، لكن لم يُفتح لك في باب التدريس، فاعرف مواهبك، ولكن اطمحْ واطمعْ، ولا تَقنَعْ، وكن كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اغدُ عالِمًا أو متعلمًا، ولا تَغْدُ بين ذلك(١).

وفي كلا الحالين أنت مأجور، بل المتعلم والعالم قد يستوي أجرهما، وفضل الله واسع. وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: العالِم والمتعلم في الأجر سواء(٢).

وقد كان السابقون الأولون؛ لا يخلو أحدهم من هذين الحالين. وخذ هذا الموقف الجميل:

قال أبوبكر الأبهري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٥هـ): دخلت جامع طرسوس، وجلست لسارية من سوارِيه، فجاءني رجل، فقال لي: إن كنت تقرأ فهذه حلقة القرآن، وإن كنت مقرئًا فاجلس يُقرأ عليك، وإن كنت فقيهًا، فاجلس يحلَّق إليك، وإن كنت متفقِّهًا فهذه مجالس الفقه، قُم إليها؛ فإن أحدًا لا يجلس في جامِعنا دون شغل(٣).

فيا طلاب العلم: إن الجُثوَّ بالرُّكَب لدى الأشياخ له لذة لا مثيل لها، فَسَلُوا السابقين المكثرين ينبئوكم، وعن حلو تَرْدادهم يحدثوكم، فإن دمعت عيونهم من التذكار فلا تعجبوا؛ لأنهم فقدوا معينًا كانوا يَرِدونه، ثم صاروا يرَون أناسًا في دَياجِير الجهل والظلمات، والله قد فضَّلهم، وعلَّمهم ما لم يعلموا، وكان فضل الله عليهم عظيمًا.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦١٢٠).
(٢) المصدر السابق (٢٦١٢١).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٩٠/٦).

يَرَون مرضى وعاجزين يتمنَّوْن أن يجلسوا مجلس العلم، والله أمدَّهم بالصحة والشباب والفراغ، وصاروا يأتون مجالس العلم لا تَكرُّهًا، بل أُنسًا، ولذةً تنسِي كل لذة.

قال وهب بن منبه -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤هـ): مجلس يُتنازَع فيه العلم أحب إليَّ من قَدْره صلاة، لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة، أو ما بقي من عمره[١]

ألا فاحضروا مجالس العلم مستمعين ومستفيدين، واسألوا أهل العلم مسترشدين مستبصرين.

قال الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ): مجلس علم تجلسه خير لك من الدنيا وما فيها، وفائدة تستفيدها وتنتفع بها، لا شيءَ يزِنها ويساويها[٢].

يا متردِّدين على دروس العلم: إن ورَدَ على أحدكم واردٌ مُشكلٌ، بأن تقول: لماذا حضور الدروس، وهذه الكتب مبسوطة، ولماذا تكرار دراسة المتن الواحد، والشروح الورقية مبذولة؟!

فيقال: خذ الجواب على هذا الإشكال من عالم محقق وأصولي مدقق، ألا وهو الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ) حيث يقول: خاصية جعلها الله -تعالى- بين المعلم والمتعلم، يشهدها كل من زاوَل العلم والعلماء؛ فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتاب، ويحفظها، ويرددها على قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهِمها بغتة![٣].

ويا أيها العلماء: تدارَكوا أعمارهم، وضاعِفوا جهودكم في التدريس والتعليم، فما أعظم أثركم على الناس، وما أجلَّ سعيَكم في بناء معالم الشرع وحمايته، فأنتم تنفردون بعبادة جليلة.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): تعليم الطالبِينَ، وهداية المريدِينَ عبادة العالِم[٤].

ومن مبشرات المَرائي المحفِّزة للتدريس: أنه رُئي سحنون -رحمه الله تعالى-

---

(١) سنن الدارمي (٣٣٤) [تعليق المحقق] إسناده صحيح.
(٢) الفواكه الشهية في الخطب المنبرية والخطب المنبرية على المناسبات (ص: ١٧٩).
(٣) الموافقات (١٤٥/١).
(٤) صيد الخاطر (ص: ٥٦).

(ت ٢٥٦هـ) في النوم كأنه يبني الكعبة، فغدا الرائي إليه، فوجده يقرأ للناس «مناسك الحج» الذي جمعه(١).

المتلذِّذون تدريسًا

إليك مشاهد مرغبات، وشواهد مؤكِدات، تؤكد أن المدرِّسين للعلم متلذذون أيُّما تلذذ:

١- منبر التدريس مهيب، ومنصب مُنيف، ولا يُصعَد إليه إلا بعد تمكُّن علمي، وتقدُّم عُمري، ما عدا النوادر من أذكياء العالم، فلهم استثناؤهم، ولتعلمن نبأهم بعد حين، بمزيد من الصفحات. ولكن إليك ثلاثة نماذج مبهِرة، لصغار وهم كبار:

• شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) فإنه لما كان عمره اثنتان وعشرون سنة، جلس بجامع دمشق، على كرسي أبيه يوم الجمعة، وشرع في تفسير القرآن من الفاتحة، وألقى درسًا حسنًا، وكان يومًا مشهودًا(٢).

• جلال الدين السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) فقد أجازه شيوخه بالتدريس والإفتاء منذ بلغ السابعة والعشرين من عمره، ومكث خمسة وثلاثين عامًا(٣).

• بدر الدين الغزيري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٤هـ) اجتمعَتْ عليه الطلبة وهو ابن سبع عشرة سنة(٤).

٢- مما يحدوك للتلذذ بالتدريس: أنه أكثر منفعة تحصيلية للمدرس من التأليف، في كثير من الأحيان، وقد تتباين وجهات النظر، وفي كلٍ خير. لكن من المعلوم أن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء؛ لأن نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته جاذبة في الكلام. والسامع يفهم من كلام المتكلم قرابة ثمانين في المئة، والقارئ لكلامه يفهم العشرين في المئة على ما أراد الكاتب.

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٨٦/٤).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٤٧٩/١٢).

(٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٣٣٧/١).

(٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٥/٣).

• قال العلماء: العلم ميت، وإحياؤه الطلب، فإذا حيَّ بالطلب فهو ضعيف، وقوَّته الدرس[١].

• وقال شيخ الرباط إبراهيم التادِلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١١هـ): العلم لا ينتشر بقوة التأليف، وإنما ينتشر بقوة التدريس، وكثرة المذاكرة الشفوية[٢].

٣- أما العلماء الذين جمعوا بين لذتي التأليف والتدريس، فإنهم يتنازعون فيها كأسًا ممزوجة بين لذَّتين. و«رُب صدقة من بين فكَّيك، خير من صدقة من بطن كفَّيك»[٣].

• فهذا سراج الدين البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) السبب في عدم إكماله لغالب مصنفاته؛ اشتغاله بالتدريس والإفتاء[٤].

وإن أخـذوا أقـلامـهـم لكتابةٍ ... فأحسَنُ من وَشْـيِ الطروس ونَمْنَمَا
بأقوالهم قد أوضح الدر واغتدَى ... بأحكامهم علم الشـريعة مُحْكما[٥]

٤- العالِم المعلِّم لما عظَّم العلم عظَّمتْه النفوس، بل عظمته العجماوات، بل واستلذَّت مجالستَه، ودَعَتْ له، وسَعَتْ لنفعه:

وحضْرَتُه روضٌ من الجنَّة التي ... زَهَـتْ بضجيعٍ كان بالعلْم مُغرَمَا[٦]

• ومن عجائب المواقف في تعظيم الناس للعالِم أن الفقيه الحنبلي البربهاري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٩هـ) عطس يومًا وهو يعِظ الناس، فشمَّته الحاضرون، ثم شمَّته مَن سمِعهم، حتى شمَّته أهل بغداد، فانتهت الضجَّة إلى دار الخلافة[٧].

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/٨).
(٢) آثار ابن باديس (١/٤٤).
(٣) الكلم النوابغ (ص: ١٦).
(٤) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٤/٤٣).
(٥) معجم الأدباء (٥/٢٠٩٠).
(٦) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة (١/٣٠٠).
(٧) البداية والنهاية (١٥/١٣٧).

• وكان يحيى القطان -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٤هـ) يصلي العصر، ثم يستند إلى أصل منارة مسجده، فيقف بين يديه علي بن المديني، والشاذَكوني، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم، يسألونه عن الحديث وهم قيام على أرجلهم، إلى أن تحِين صلاة المغرب، لا يقول لأحد منهم: اجلس، ولا يجلسون هَيبة وإعظامًا(١).

٥- من تلذذهم وتعظيمهم للعلم أنهم كانوا لا يحدِّثون إلا على وضوء، كمن سيقرأ بالمصحف، ولعلهم يفعلونه؛ لأنهم بعد الدرس ستحضر صلاة، فيستعدون لها وللعلم:

- المحدث المفسر ابن الفراء البغوي (ت ٥١٠هـ) كان لا يُلقي الدرس إلا على الطهارة(٢).

- عز الدين ابن جماعة (ت ٧٦٧هـ) كان لا يحدِّث إلا متوضئًا(٣).

- قال الحافظ المفسر أبو عثمان الصابوني النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ): ما قعدت للتدريس قط إلا على الطهارة(٤).

٦- المتلذِّذون بالتدريس تجِد هُجَّيراهم الحديث عن تلكم اللذة، فهم يفضلونها على كل لذة:

• قال أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعُّم في الدنيا(٥).

• ومر معك قول محمود الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٠هـ) -وما أبلغ ما قال-: وأنا أحمد الله -تعالى- على أن خلصني من نصَب منصب الإفتاء، وشغَلني برشْف رِضاب فتاة التدريس في الإصباح والإمساء.. فأُقسِم بمن أخرج العِذق من الجريمة، والنار من الوَثيمة؛ أني لفي نعمة من فضل ربي -عزَّ شأنه- جليلة عظيمة(٦).

---

(١) مناقب الإمام أحمد (ص: ٧١).
(٢) وفيات الأعيان (١٣٦/٢).
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٠٤/٩).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٩/٩).
(٥) إحياء علوم الدين (٦١/١) وانظر: فيض القدير (١١٩/١).
(٦) غرائب الاغتراب (ص: ٢٩) الجَرِيمة هي النواة، والوَثِيمة هي الصخرة. انظر: متخير الألفاظ (ص: ٦٩).

وتَعْلَق بالأسماع من لفظ أهلها شُنوفُ مَعانٍ صَوغهن عجيبُ
وتسري إلى الأفكار منه رسائل لها نفَحات عَرْفُهن يطيبُ[١]

٧- يدرِّسون ويُقرئون في أي مكان، ولو في السوق أو المزرعة، ولا يقتصرون على المساجد، وهي أكثر خيرًا، وفي كلٍ خير.

• محمد الحرفوشي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٩هـ) له تصانيف كثيرة. وكان لا يَشغله شاغل عن العلم، فكان كثير من الطلبة يقصدونه وهو في حانوته، فيقرؤون عليه[٢].

• الأديب ابن الصائغ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٠هـ) كان يُقرئ في حانُوتِه «ديوان المتنبي» و«المقامات» و«الحماسة»[٣].

• المقرئ ابن هذيل البلنسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٤هـ) كانت له ضَيعة يخرج لتَفَقُّدها، فتصحبه الطلبة، فمِن قارئ، ومن سامع، وابن هذيل منشرح لذلك، طويل الاحتمال على فرط ملازمتهم ليلًا ونهارًا[٤].

• أبو الحسن البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٥هـ) ينظم دروسه الأسبوعية، ويوزعها بين المساجد، فيقول عن نفسه: كنت أعقد المجلس في يوم الجمعة بجامع نيسابور القديم، ويوم الأربعاء في مسجد المربّع، ويوم الاثنين في مسجد الحاج[٥].

٨- إذا بلغت لذة التدريس مبلغها بُذلت الأوقات للتدريس كلها، حتى استغرق ذلك سحابة يومهم. ومن عباراتهم المعبرة قولهم: لا يُدَرِّسُ النهارَ كلَّه، إلا من يَدْرُس الليلَ كلَّه[٦].

---

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٥٥/٢).
(٢) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤٩/٤).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٥٨/٥).
(٤) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص: ٢٨٤).
(٥) معجم الأدباء (١٧٦٢/٤).
(٦) معجم السفر (ص: ١٤٨).

• كان ابن رشد الحفيد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٥هـ) مُكبًا على الدرس، ومنهمكًا فيه، حتى إنه لم يترك الدرس إلا ليلتين في حياته: ليلة عرسه، وليلة وفاة والده(١).

• الشيخ شهاب الدين الصنهاجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٧هـ) كان منتصبًا لإقراء الناس جميع نهاره وأكثر ليله، لا يَمَلُّ من ذلك(٢).

• أحمد بن أبي سليمان القروي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) كان يصبر على السماع، فقد أسمعَ الناس عشرين سنة، وكان يقول: أنا حَبْسٌ(٣). يعني وقف على العلم.

• العالم علاء الدين اليتيم -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٠هـ) ربما يُدرِّس في يوم واحد عشرين درسًا؛ ما بين صرف ونحو وحديث(٤).

• جمال الدين أبو علوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٣هـ) يقول عن شيخه البابلي: لازمته في دروسه كلها، وقت الضحى، وبعد العصر، وبعد المغرب، وبعد العشاء(٥).

• الشيخ الهندي مرزا الأصم اللكهنوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٦٢هـ) كان لا يغيب عن أوقات الدرس وإنْ طلبه الملوك والأمراء(٦).

• الشيخ الأديب محمد القبرستاني الشافعي (ت ١٢٨٠هـ) كان في كل يوم يحضر؛ لأجل الدرس، ولا يقطع في صيف ولا في شتاء ولا في خريف ولا في ربيع، حتى أنه ربما يكون في بعض أيامه منحرف المزاج، ولا يترك الدرس(٧).

• الشيخ عبد الرحمن الأفريقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ) يجلس للإقراء وللتدريس من بعد الفجر، إلى أذان الظهر جلسة واحدة، لا يتخللها كَلَل ولا مَلَل، ثم يعود بعد صلاة الظهر ليعقد درسًا لبعض الطلاب الذين يشغلهم الضرب في الأسواق

(١) قادة فتح الأندلس (٢٠٠/١).
(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣٣٢/٣).
(٣) التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة (مقدمة/٨٥).
(٤) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٠٣).
(٥) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣٣٨/٣).
(٦) المصدر السابق (١١٠١/٧).
(٧) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (٥٠/٢).

صباحًا، وبعد صلاة العصر يرتاد بيتَه طلاب آخرون؛ للتحصيل والتعلم، وبعد صلاة المغرب يقوم بالدرس العام بالمسجد النبوي[١].

• سماحة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٩هـ) من لذته بتدريس العلم؛ يُقرأ عليه قرابة عشر ساعات يوميًا، من بعد الفجر إلى قبل الظهر بساعتين، ثم من بعد الظهر يُقرأ عليه ساعة، وبعد العصر يُقرأ عليه إلى قبل أذان المغرب بنصف ساعة، ثم بعد المغرب حتى أذان العشاء، وقبل الإقامة يُقرأ عليه في «تفسير ابن كثير»، وقد استمر على هذا الترتيب ناشرًا للعلم إحدى وأربعين سنة[٢].

٩- من لذائذ التدريس أن تُرزق بتلميذ عبقري لَوذعي، وقد يجاريك، بل قد يفوقك، فيزيد ذلك سرورًا، وربما يكون سببًا في تأليفك بعض مؤلفاتك، وهذه الأخيرة ما أكثرها!

• فهذا الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) ألقى «الكشاف» قبل أن يؤلفه، وكان يحكي تشوقهم للدرس، ثم لجمعه مصنَّفًا: يقول: ولقد رأيتُ إخواننا.. كلما رجعوا إليَّ في تفسير آية، فأبرزتُ لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستُطيروا شوقًا إلى مصنف يضم أطرافًا من ذلك، حتى اجتمعوا إليَّ، مقترِحِين أن أُمْليَ عليهم «الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» فاستعفيتُ، فأبَوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين[٣].

• ابن المقري الشغدري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٧هـ) قال عنه السخاوي: قرأ عليَّ «ديوان المتنبي»، فاستفدتُ بفهمه وذكائه أكثر مما استفاد مني[٤].

• وقال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) مُثنيًا على أحد النُّبَهاء من تلاميذه: لازَم مجالس تدريسي دهرًا طويلًا.. ويستخرج بفكرته الصافية ما لا يستخرجه من هو فوقه..وله ملكة في المباحث الدقيقة مع سعة صدر[٥].

---

(١) ترجمة الشيخ عبد الرحمن الأفريقي (ص: ١٧٧).

(٢) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ١٣٥).

(٣) تفسير الزمخشري (المقدمة/٣).

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢/٢٩٣).

(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/٦٩).

١٠- من لذائذ التدريس المستقبلية التي تُجنى ثمرتها بعد عقود من الزمن أن يَكْبُر طلابك، فيكونون مُفتِين، وقضاةً مباركين:

• قالوا في التراجم: ما بُورِك لأحد بعد النبي ﷺ في أصحابه ما بُورِك لسحنون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) في أصحابه، فإنهم كانوا في كل بلد أئمة[١].

• قال أبو إسحاق الشيرازي إمام الشافعية -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ): لما خرجت إلى خراسان، لم أدخل بلدًا ولا قرية إلا وجدتُ قاضيها، أو خطيبها، أو مفتيها من تلاميذي[٢].

• أبو الفتح ابن حفصويه الصدقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٧هـ) رُزق من التلامذة والتلقين لهم ما لا يوصف، وصار أكثر أولاد الأئمة ببلده تلاميذه[٣].

• أبو النجاة سالم البنيلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٢هـ) شيخ جامع الزيتونة، لما تقدم به السن لا تجد طالبًا إلا وله عليه شيخوخة، فالزيتونيون عيالٌ عليه[٤].

١١- ومن لذائذ التدريس المستقبلية -أيضًا- أن يمتد بك الزمن، فيعود مشايخك طلابًا بين يديك:

• قال الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): قَلَّ رجل كنتُ أتعلم منه، ما مات حتى يجيئني ويستفتيَني[٥].

• فعلق اليافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٨هـ) على كلمة مالك قائلًا: قلتُ: وقد -والحمد لله- وقع لي ذلك! فبعض شيوخي الْتَمَس مني أن يقرأ عليَّ بعض العلوم، وبعضهم سألني عن بعض الأحكام الفقهية، وبعضهم رجع عن بعض ما أفتى به، لما وقف على ما أفتيتُ به، مخالِفًا لفُتياه، وبعضهم جاء بمسائل عديدة من بلاد بعيدة، أشكلتْ عليه[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/٦٥).

(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/٢٣٩).

(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٤٠١).

(٤) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/٦٠٥).

(٥) طبقات الفقهاء (ص: ٦٨).

(٦) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١/٢٩٠).

١٢- من تلذذ العلماء بإلقاء الدروس أنهم يصابرون على عَنَت طلابهم، بالرغم من تزايد الأعداد، وتزاحم الأنفاس، والحاجة لرفع الصوت، مع انعدام مكبرات الصوت.

• فهذا أبو بكر بن عياش -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٤هـ) قال له رجل: يا أبا بكر! ألا تحدِّث الناس؟ قال: قد حدثتُ الناس خمسين سنة. ثم قال أبو بكر للرجل: اقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقرأ، ثم قال الثانية: فقرأ حتى بلغ عشرين مرة. فكأن الرجل وجد في نفسه من ذلك، فقال: أنا لا أضجر، وقد حدثتُ الناس خمسين سنة، وأنت في ساعة تضجر؟!(١).

• والحافظ الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) يحكي عن معاناته من تكالُب طلابه المُجِدِّين، يحكيها وهو لم يبلغ الأربعين من عمره، فيقول: كنت أدرِّس الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درسًا.. فانثال الناس من كل محل، فاستغرقتُ في ذلك جميع الأوقات، إلا لحظات يسيرة، قد أفرغتُها للنظر في شيء من كتب العلم، أو لشيء من التحصيل، وتتميم ما قد كنت شرعتُ فيه، واشتغل الذهن شَغلة كبيرة، وتكدر الخاطر تكدرًا زايدًا(٢).

الأعداد الألفية لحضور الدروس العلمية:

خذ الآن نماذج رقمية مبهرة، لحضور الدروس ذات الأعداد الألفية من الطلاب، المستعذِبة للعلم، المتكالِبة على الأشياخ:

• الحافظ الفريابي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٠هـ) يحضر دروسه نحو ثلاثين ألفًا، وكان الواحد يحتاج أن يَبيتَ في المجلس، ليجِدَ له مع الغد موضعًا(٣).

• كان عدد الحضور في مجلس يزيد بن هارون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٦هـ) يُحْزَر بسبعين ألفًا. فحضر المأمون مرة، فالتفت إلى أصحابه وقال: هذا المُلك(٤).

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (١٦/٥٤٢).
(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٤٦٤).
(٣) أدب الإملاء والاستملاء (ص: ١٧).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/٤٦٩) وانظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/١٣٩) .

• إمام النحو الفَرّاء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) ابتدأ يُملي كتابه «المعاني». فاجتمع خَلْقٌ كثير، فأرادوا أن يَعُدُّوا الذين اجتمعوا لإملاء الكتاب، فلم يُضبطوا. فعَدُّوا القضاة، فكانوا ثمانين قاضيًا(١).

• عاصم بن علي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢١هـ) من شيوخ أحمد والبخاري، قدم بغداد، فحدث بها، فاجتمع خلائق لا يُحصون، فبلغ المعتصمَ كثرةُ الجَمع، فأمر بحزْرهم، فحُزِروا عشرين ومئة ألف. وكان المُستملي يصعد نخلة معوجَّة؛ يَستملي عليها(٢).

• جلس عُثمان بن أبي شَيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٩هـ) في عهد المتوكل، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفًا.

• الحسن ابن ماسرجس -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٠هـ) قد عُدَّ في مجلسه اثنا عشر ألف مِحْبرة(٣).

• درْسُ الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) يَحضره عشرون ألفًا(٤).

• الحافظ البصري أبو مسلم الكجي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٠هـ) أملى الحديث، وكان في مجلسه سبعة مستمْلِين، يبلغ كل واحد منهم الذي يليه، وكتب الناس عنه قياما بأيديهم المحابر، وحسب من حضر بمِحْبرة، فبلغ ذلك نيِّفًا وأربعين ألف مِحبرة(٥).

• حُزِروا في مجلس أبي بكر النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٤هـ) ثلاثين ألف محبرة.

• ومثل هذا العدد -أيضًا- في درس أبي بكر بن أبي شَيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٥هـ)(٦).

---

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٥٤/١٤).
(٢) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: ٤٧٦) وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢٩١/١).
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٣٣٢/٨).
(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١٣٩/٢).
(٥) تاريخ بغداد ت بشار (٣٦/٧).
(٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٠٧/١١).

• وفي مجلس أبي بكر النجاد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٨هـ) يُحْزَر عددهم عشرة آلاف محبرة، حتى يُغلق البابانِ من أبواب الجامع، مما يَلِيان حلقته[١].

• وعدُّوا في مجلس الحافظ النيسابوري محمد بن الحسين العلوي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠١هـ) ألف محبرة[٢].

إنـي إذا حضرَتْني ألـف محبرة ... يـقـول أنـشـدنـي شيخي وأخـبـرني

نـادت بإقليمي الأقــلام ناطقة ... هذي المكارم لا قَعْبانِ من لبنِ[٣]

• المقرئ أبو بكر الإسكاف -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٣هـ) مَن يَقرأ عليه في مجلسه أكثر من عشرة آلاف رجل، ممن يتلقَّن أو يلقِّن[٤].

• وفي مجلس الإملاء لأبي يعلى ابن الفرّاء -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ) سجدوا على ظهور الناس؛ لكثرة الزحام، وقد حُزر العدد بالألوف[٥].

• إمام الحرمين أبو المعالي الجُويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) كان يقعد بين يديه كل يوم نحو ثلاث مئة، من الطلبة والأئمة[٦].

• أبو الوقت السجزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٣هـ) أحضره الوزير ابن هبيرة في مجلسه، وسمع عليه «الصحيح» في مجلس عام، وأذن فيه للناس، فكان الجمع يفوت الإحصاء[٧].

• أبو الطاهر الأخوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) له من الطلبة نحو ألف طالب نبلاء أذكياء[٨].

---

(١) المصدر السابق (٣٦٤/١٣) وطبقات الحنابلة (٨/٢).

(٢) أدب الاملاء والاستملاء للسمعاني (ص: ١٨).

(٣) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٣٤٤) والقَعْب: القدح الكبير.

(٤) بغية الطلب في تاريخ حلب (٤٣٥٩/١٠). وفيه: أن في حلقته أكثر من عشرة آلاف رجل، يتلقَّن ويلقِّن.

(٥) طبقات الحنابلة (٢٠٠/٢).

(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٣٨/٥).

(٧) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٠٩/٢٠).

(٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٩٤/٢).

وهذه الأعداد الألفية لا يُعنى منها اللهو بالتكاثر، واللهَث وراء تزاحُم الطلاب؛ حاشا! فمِن علامة إخلاص العالِم أنه لا يبالي أحَضر واحد أم ألف. ولكن تزايد الأعداد توفيق من الله وفتح، والغالب أنه نتيجة حتمية لمواظبة العالِم، ونَفاسَة علمه، وطريقة طرحه.

لفتة:

وقد يبدأ الشيخ بطالب واحد لمدة سنوات، ثم يتوافدون مع إصرار الشيخ ومصابرته.

وقد قال الشيخ عبد الكريم الخضير - حفظه الله تعالى-: عاد الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله - للرياض سنة ١٣٩٥هـ، عندما ترك رئاسة الجامعة الإسلامية، وكان عدد الحضور في درسه خمسة طلاب فقط، وما كثروا إلا بعد سنة ١٤٠٠هـ.

يقول الشيخ عبد الكريم: أنا أعرف شخصًا يَحضر دروسه بعد الفجر -فضلًا عن المغرب- ما يقرب من ألف طالب، وأنا أدركته قبل ثلاثين سنة، ما عنده إلا طالب واحد، ثم صبر إلى أن أقبل الناس عليه. والشيخ ابن جبرين بقي سنوات طويلة لا يحضر عنده إلا طالب واحد في المواريث، وقد حضر الشيخ مرة ولم يجد إلا هذا الطالب، فقال له: أنا وأنت وبرّاد الشاي ثالثنا!.

وقال الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ): كنت أقرأ على الشيخ ابن باز «صحيح البخاري»، بالحرم المكي عام ١٣٨٥هـ، ولم يكن معي غيري. وقال: كنت أُدرِّس «سنن ابن ماجه»، فلم يستفد مني غير طالب واحد، أفريقي الجنسية[١].

وأما الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) فيقول عن نفسه: دخلتُ المسجد مرة، فوجدتُ كتابًا موضوعًا في موضع الدرس، وما وجدت طالبًا بقربه. يقول: فجلستُ أقرأ؛ منتظرًا هذا الطالب، فجاء - وأنا أقرأ - فأخذ كتابه، ومشى![٢]

---

(١) مقال بعنوان: العلامة المفكر أبو عبد الله بكر أبو زيد، كتبه يحيى الثمالي. والمقال موجود في موقع: أرشيف ملتقى أهل الحديث.

(٢) من مقطع صوتي بصوت الشيخ نفسه.

١٣- العلماء كغيرهم، تصيبهم الأوجاع والمصائب والمصاعب، ولكنهم يَنْسَونها إذا تذوقوا لذائذ التدريس[١]:

• كان الأمير الحنفي علاء الدين الكاساني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) كثيرًا ما يعرض له النقرس في رجليه والمفاصل، فكان يُحمل في مِحَفَّة من منزله، ويخرج إلى الفقهاء بالمدرسة، ويذكر الدرس ولا يمنعه ذلك الألم من الاشتغال، ولا يخل بذكر الدرس[٢].

• علاء الدين ابن العطار (ت ٧٢٤هـ) فُلِجَ وعمره ٤٧ سنة، وأصابه فالج أزيد من عشرين سنة، فكان يُحمل في مِحَفَّة، وبقي يكتب بشماله، ويُلخِّص كتب النووي، حتى لُقِّب بمختصِر النووي[٣].

• الشيخ يحيى المزوري العمادي (ت ١٢٤٥هـ) لما قُتل ولده، وأتى خبر قتله إليه وهو يدرِّس العلم، قال: حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل! ولم يترك الدرس[٤].

١٤- مِن استغراقهم بلذة التدريس ارتجالهم في الشرح، وإسهابهم في ذكر الفوائد والدرر، وتطويلهم في تفسير الآية الواحدة، أو في شرح الحديث الواحد - مثلًا، بل من العجائب أنك قد تجِدهم لا يَمَلُّون، فيُمْلُون لأكثر من علم في آنٍ واحد؛ لأنهم قد الْتَهَموا العلم التِهامًا، فانهضم انهضامًا:

• قال ابن الأكفاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٤هـ): لم تَزَلْ سُنة العلماء القدماء جارية، في تعليم العلم مشافهة دون كتاب.. فلما ضعُفت الهِمم وقصُرت..أخذ مَن بقي من العلماء في تدوين العلوم في الكتب؛ لتَبقَى ولا تَبيد[٥].

---

(١) سيأتيك عشرات الأمثلة تحت عنوان: لذة اعلم برغم المرض.

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب (٤/٢٩٠) والمِحَفَّة: سرير له ذراعان من كلّ ناحية، يستلقي فوقه العاجِز عن المشي. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١/٥٢٦).

(٣) العبر في خبر من غبر (٤/٧١) وانظر: الأعلام للزركلي (٤/٢٥١).

(٤) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (٢/١٨٦).

(٥) بدائع السلك في طبائع الملك (٢/٣٣٦).

• الشيخ الفقيه أبو الحسن التجيبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٨هـ) كان لا يفتقر في دروسه إلى مطالعة، أو مراجعة شيء؛ لإحاطته وتحصيله، وجميع ما صنَّفه من الكُتُب ما كان يراجع فيه كتابًا، ولا يطالع فيه سوى مجرد فكرِه، وتسديد نظرِه. وقد زهد في الكُتُب، حتى لم يكن عنده منها شيء(١).

• أبو عبد الله المرجاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٩هـ) ربما فسَّر في الآية الواحدة ثلاثة أشهر(٢).

• كان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - (ت ٧٢٨هـ) يفسِّر الكتاب العزيز أيام الجُمَع على كرسي من حفظه، ولا يتلعثم(٣).

• ضياء بن سعد الله القِرْمي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٠هـ) كان يُدرِّس دائما بغير مطالعة(٤).

• الحافظ سراج الدّين البُلقيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) يقرِئ «مختصر مسلم» للقرطبي، فيتكلم على الحديث الواحد، من بكرة إلى قريب الظّهر، وربما أذّن الظّهر، ولم يفرغ من الحديث الواحد(٥).

• ابن بركات الكوافي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٦هـ) اتفق له من العجائب: أنه أقرأ النحو، وسمَّع القرآن، وكتب الفقه في آنٍ واحد. وكان يكتب الصحيفة من الورق بغَطَّة واحدة للقلم بالحبر(٦).

المتلذّذون دراسةً:

للدراسة على الأشياخ خاصية، لا تكاد توجد في أساليب التعلم الأخرى.

قال الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): خاصية جعلها الله -تعالى- بين المعلم

---

(١) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية (ص: ١٤٨).
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٥٢/٤٦٦).
(٣) تاريخ ابن الوردي (٢/٢٧٧).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/١٨٣).
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩/٨١).
(٦) مشيخة أبي المواهب الحنبلي (ص: ٤).

والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء؛ فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتاب، ويحفظها ويردِّدُها على قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهِمها بغتة[١].

وأما لذتها فلا تضاهى. وسيعرفها من يفقدها، إما بموت شيخه، أو بانشغاله عن العلم.

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ): قد كان الرجل يسمع بالباب من أبواب العلم، فيتعلمه، ويعمل به، فيكون خيرًا له من الدنيا وما فيها. وقال: لَبابٌ واحد من العلم أتعلمه، أحب إليّ من الدنيا وما فيها[٢].

وأما مجالات التلذذ لدى الدارسين فمتعددة؛ وإليك بعضها:

١- فالمتلذذون دراسةً: يتلهفون لمواعيد الدروس، ومن لهفتهم لها يبكرون، وعليها يواظبون، وللمشاق منها يتصبَّرون:

• الحافظ ابن الأخرم الربعي الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤١هـ) قال أحد تلاميذه: قمتُ ليلة المؤذن الكبير؛ لأخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئًا، ولم تدركني النوبة إلى العصر[٣].

• ومن فرائد النقول قول ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): البُكور إلى مجلس العالِم كالبكور إلى الجمعة في الفضل -إن شاء الله-[٤].

• وكانوا يتسابقون، فيأخذون مقاعدهم في مجلس علي بن المديني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٤هـ) من وقت العصر، لمجلس صباح غد، فيقعدون طول الليل؛ مخافة أن لا يَلحقوا من الغد موضعًا يُسمِّعون فيه، حتى لقد رأوا شيخًا في المجلس يبول في طَيلسانه، ويُدرِج الطَيلسان؛ مخافة أن يؤخذ مكانه إن قام للبول[٥].

(١) الموافقات (١/١٤٥).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢١٢ و٢١٧).

(٣) طبقات المفسرين للداوودي (٢/٢٦٤).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١/٣١٦).

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/١٣٩) والطيلسان هو الطُّرحة التي توضع على الرأس والكتفين، وهو من ألبسة أهل العلم. انظر: المعجم العربي لأسماء الملابس (ص: ٣٠٦).

• قال أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): كنت عند ابن عيينة في دِهْلِيزه، فزحَمني الناس، فأُغمي عليَّ[١].

أما الموقف التالي؛ فما أدري؛ من أيِّهما تَعجَب؛ من الشيخ، أم من تلميذه؟!

• أحمد بن عامر الحدائي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٧هـ) من شيوخ الشوكاني. وترجم له فقال: كان مواظبًا على التدريس، لا يمنعه منه مانع. ولقد استمر انصباب المطر في بعض السنين، من قبل الفجر إلى قريب الظهر، وكان معنا درس عليه وقت الشروق، فما تركت الذهاب إلى الجامع، فانتظرت له في المكان المعَدَّ للدرس، فلم يأتِ هو ولا أحد من الطلبة، فجاء اليوم الثاني، وقال لي: هل أتيت؟ قلت: نعم قال: لو علمتُ أنك أتيتَ ما تخلفتُ! ثم تأسف كثيرًا على فوت الدرس[٢].

٢- يجِدُّون في دراسة كل ما يجِدُون، ويتلذذون وهم يُعانون، فيتصبرون فيُعانُون:

• قال الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ): لازمتُ الشيخ أبا الفضل العروضي سنين، أدخُل عليه عند طلوع الشمس، وأخرج لغروبها[٣].

• قال أبو بكر محمد بن عبد الباقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ): أسَرَتْني الروم، وبقيتُ في الأسْر سنة ونصفًا، والسلاسل على يديَّ ورجليَّ. وكان ثَم معلم يعلم الصبيان الخط بالرومية، فتعلمتُ في الحبس الخط الرومي[٤].

• ابن عبد القوي الإسنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٣هـ) كان يبحث في اليوم والليلة على المشايخ نحو اثني عشر درسًا، في عدة من العلوم، ويحرر في باقي الليل ما كان قد بحثه في ذلك اليوم[٥].

• قال الأديب علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): كنا نجد في المطالعة

---

(١) رياضة المتعلمين لابن السني - تحقيق نظام يعقوبي (ص٣٤٤).
(٢) البدر الطالع (٦٣/١).
(٣) التفسير البسيط (٤١٩/١).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٤٣٨/١).
(٥) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢٤/٢).

لذة، وفي الحفظ مسرَّة، وفي التعب راحة، فنطالع الدرس قبل أن نقرأه، ونطالعه بعد أن نقرأه، ونحقق مسائله، ونحفظ شواهده، ونفتش عن الشروح له، والحواشي عليه(١).

٣- يَنْسَون مستلذَّات الحياة عند الدرس:

• علي بن حرزهم الفقيه المحدِّث -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ) ترك والده مالًا عريضًا فقال لأخيه: تركت لك حقي منه. فأبى، فعزم عليه وقال: إن لم تقبله تصدقتُ به على الجَذْمَى! فقبِله، فخرج عن أسباب الدنيا.

• علي بن عبد الكافي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) قال والده لجدَّته: هذا الشاب ما يطلب قط درهمًا ولا شيئًا، فلعله يرى شيئًا يريد أن يأكله، فضعي في منديل درهما أو درهمين، فوضعت نصف درهم. فاستمر نحو جمعتين وهو يعود، والمنديل معه، والنصف فيه، إلى أن رمى به إليها، وقال: أيش أعمل بهذا؟! خذوه عني(٢).

٤- يكتبون كل ما يسمعون، ولا يُفَوِّتون، وإن منهم لفريقًا يحفظون، وكأنهم من كتاب يقرؤون:

• قال سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥هـ): ربما أتيت ابن عباس، فكتبت في صحيفتي حتى أملأها، وكتبت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي(٣).

إذا ما غدت طُلَّابة العلم ما لهم ... من العلم إلا ما يُخلَّد في الكتبِ
غـدوتُ بتشميرٍ وجـدٍ عليهمُ ... ومحبرتي أذنـي ودفـترهـا قلبي(٤)

٥- قد يُلاقُون من زملائهم استهزاءً، أو من أهلهم صدودًا، ولكنهم يصبرون ويواصِلون:

• وقد كانوا في مجلس سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) فنظر إلى صبي دخل المسجد، فتهاوَنوا به لصغر سنه، فقال سفيان: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ

(١) مجلة الرسالة (رقم العدد ٧١٢).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠/١٤٤).
(٣) الطبقات الكبرى ط دار صادر (٦/٢٥٧).
(٤) معجم الشعراء (ص: ٣١٤) ولسان الميزان ت أبي غدة (٦/٣٣٦).

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٩٤] ثم قال لي: لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار، محبرتي كالجَوزة، ومِقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلتُ المجلس قالوا: أوسِعوا للشيخ الصغير. ثم تبسم ابن عيينة وضحك(١).

• قال أبو عبد الله بن خفيف -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧١هـ): كنت أخبِّئ محبرتي، والكاغد(٢) في حَجرة سراويلي، وكنت أذهب خَفِيًا إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصَموني، وقالوا: لا يُفلح. ثم احتاجوا إليَّ بعد ذلك(٣).

٦- يتطلَّبون من العلماء الأعلم، ولا يُجامِلون، والنابهون منهم لا يَقْنَعون بل يَطْمَعون:

• أبو علي الدينوري النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٩هـ) تزوج ابنة إمام النحو ثعلب، وكان أبو علي يخرج من منزله، وثعلب جالس على باب داره، فيتخطّاه ويمضي ومعه دفتره ومحبرته، فيقرأ على أبي العباس المبرد «كتاب سيبويه»(٤).

• القاضي اليمني عامر الصباحي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤٧هـ) طلب من شيخ له لا يعرفه، أن يقرأ عليه كتابًا، فأجابه الشيخ ولم يستعد لتدريسه؛ لظنه أنه من عامة الطلبة، فلما رأى في القاضي عامر حافظة، ومعرفة كاملة، فقال له: يا ولدي؛ لستُ بصاحبك اليوم، فاترك القراءة. ثم استعدَّ لها، واستخرج القاضي ببحثه نفائس وذخائر(٥).

٧- يُقَلِّلون من لقاءات التزجية، التي بضاعتها مُزجاة، وإذا حضروها استثمروها:

• عبد الجبار البصري الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٨٥هـ) عكف على التعلم

---

(١) معجم الشيوخ للسبكي (ص: ٣٢٦).
(٢) الكاغد هو القرطاس الذي يُكتب فيه. وعن صنوفه والعنَت والعجَب في طريقة صنعه؛ انظر في: عمدة الكتاب لابن بادِيس (ص: ٨٩) وصبح الأعشى للقلقشندي (٢/٥٠٥ و٥١٤).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/٤١٤).
(٤) معجم الأدباء (٢/٥٤٢).
(٥) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/٤٨٦).

ليلًا ونهارًا، لم يشتغل بغيره، ولا يجتمع بأحد إلا في حال الدرس والمطالعة(١).

• عن أبي سعيد ﷺ (ت ٦٣هـ) قال: أصحاب النبي ﷺ إذا جلسوا كان حديثهم الفقه، إلا أن يقرأ رجل سورة، أو يأمر رجلًا بقراءة سورة(٢).

• قال فقهاء الشافعية: يستحب افتتاح مجلس العلم، بقراءة قارئ بشيء من القرآن(٣).

وصايا للطلاب مع شيوخهم:

١- حضور الدروس نعمة جُلّى، وانشراح الصدر لها بالمواظبة ألذ لذةً وأحلى، فينبغي أن يُحسِن المرء سياسة نفسه؛ لئلا يَمَلَّ. ومن وصاياهم أنه ينبغي أن يؤخر الإنسان درْسَه للأخبار والأشعار لوقت مَلَلِه(٤)

٢- اعرِف قدر شيخك، الذي أنت من بحاره مغترِف، ومن ثماره مخترِف. وصِلْه بالزيارة حينًا، وبالاتصال والإرسال أحيانًا. وشيوخك في قلبك على درجات، فاعرف لكلٍ درجته.

وما أجمل ما قاله الحافظ ابن الصلاح -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ): والعالِم بالنسبة إلى مقتبِس علمه بمنزلة الوالد، بل أفضل، فإذا كان جاهلًا به فهو كالجاهل بوالده، بل أضل! ولَعمري! إن من يُسأل من الفقهاء عن المزني والغزالي مثلًا، فلا يهتدي إلى بُعد ما بينهما من الزمان والمنزلة؛ لمنسوب من القصور إلى ما يَسؤوه، ومن النقص إلى ما يَهيضه(٥).

٣- راجع نيَّتك، وجاهد نفسك على التصحيح: وليُعلم الطالب أن شهوة السماع

---

(١) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٧٠٧/٣).

(٢) المستدرك (٣٢٢) وصححه الحاكم، وقال: وله شاهد موقوف عن أبي سعيد. قال الذهبي: على شرط مسلم.

(٣) النكت على مقدمة ابن الصلاح (٦٥١/٣).

(٤) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٦٦).

(٥) طبقات الفقهاء الشافعية (٧٥/١).

لا تنتهي، والنهمة من الطلب لا تنقضي، والعلم كالبحار المتعذر كيلها، والمعادن التي لا ينقطع نيلها، فلا ينبغي له أن يشتغل في الغربة إلا بما يستحق؛ لأجله الرحلة(١).

٤- لتُكْثِر من مجالسة العلماء -سواء فُتح عليك بالعلم، أوْ لا -؛ فإنك إذا داومْتَ على مُجالستهم يوشك أن يفتح عليك شيء من العلم، وإلا تخلقْتَ بمثل أخلاقهم، وإلا رُحمت معهم، ونلت الشرف بمجالستهم، وسَلمت بها من الآثام(٢).

٥- اكتب أحسن ما تسمع، وانقل أحسن ما تكتب، واعمل بوصية ابن عرفة المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) في حضور مجالس التدريس، حيث قال: إن لم يكن فيها التقاط زيادة من الشيخ، فلا فائدة في حضور مجلسه، بل الأَولى لمن حصلت له معرفة بالاصطلاح، وقدِرَ على فهم ما في الكتب، أن ينقطع لنفسه، ويلازم النظر.

ونظم ذلك في أبيات فقال:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتةٌ ... وتقرير إيضاح لمشكل صورةِ
وعزْوُ غريب النقل أو فتح مُقْفَل ... أو اشكالٌ ابْدَتْه نتيجة فكرةِ
فدعْ سعيه وانظر لنفسك واجتهد ... ولا تتركنْ فالترك أقبح خَلةِ(٣)

٦- حافظ على كناشاتك، ودفاترك، وملخَّصاتك؛ فإنها كنوز تعادل كنوز الدنيا. فمنها تَصْدُر، وعليها ترِد، ولربما تفعل كفعل ذلك النهِم المتشوق، الذي يقول: فطالما تشوقت النفس لجمع ما كان عندي في كناش الطلب، وما هو مستطَرٌ به أيام الأخذ عن الشيوخ من فوائد العلم والأدب، وما حصلته من مسائل متفرقة في فنون شتى، يعسر الوقوف عليها، ولا تدرك بإلى وحتى، فرأيت كتاب «الكشكول» الحاوي لفوائد من علمي(٤).

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٤٤/٢).
(٢) حسن التنبه لما ورد في التشبه (١٠/٤).
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٦٥) وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٣٣/٣).
(٤) كتاب الجراب الجامع لأشتات العلوم والآداب - عبد الصمد التهامي كنون (ص٤).

٧- يا متردِّدين على حلقات العلم المسجدية، أو المنصَّات الالكترونية: الفقهَ الفقهَ تَرشُدوا!

إذا ما اعتزَّ ذو علم بعلم ... فعلم الفقه أولى باعتزازِ
فكم طِيب يفوح ولا كمسكٍ ... وكم طير يطير ولا كبازي

ولماذا الفقه؟ لأنه الفهم!

الفقه أنفس كل شيء أنت ذاخرهُ ... من يَدرس العلم لم تَدرس مفاخرهُ
فاكسب لنفسك ما أصبحت تجهلهُ ... فأول العلم إقبال وآخرهُ

وكفى بلذة العلم والفقه والفهم داعيًا وباعثًا للعاقل على تحصيل العلم[1].

٨- ما درَستَه، فانشره، ولا تكتمه؛ ليبارك الله لك فيه، وليزيدك من علم ما لم تعلم، ولا تركُنه، ولا يبْقَ حبيس الأدراج، رهين الأذهان:

قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) لن يُصان العلم بمثل بذله، ولن تُستبقَى النعمة فيه بمثل نشره[2].

لا تمنعنَّ العلم طالبَهُ ... فسِواكَ أيضًا عنده خبرُ
كم من رياض لا أنيسَ بها ... هُجرتْ لأن طريقها وعِرُ[3]



(١) تعليم المتعلم طريق التعلم (ص: ٣٧).
(٢) الحيوان (٥٨/١).
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢٧٧/٢).

٤٨. لذة إفتاء الناس في دينهم احتسابًا، والجلوس الطويل للفتوى:

وقد كثرت عبارات الوصف بالإفتاء في تراجم العلماء، تدور حول ما يلي:

تصدى للإفتاء - اشتغل بالإفتاء - جلس للإفتاء - أُذن له بالإفتاء - كان كثير الإفتاء - لازَم الإفتاء - انتهى إليه الإفتاء - أوقاته مصروفة للإفتاء - تصدر للإفتاء - انقطع للإفتاء.

وهذا يدلك دلالة وثيقة أن مقام الإفتاء مقام رفيع، لا يناله إلا أهل الرفعة، وهو مقام فيه لذة رفيعة، من حيث تحصيل قدر عالٍ من العلم؛ للتصدر لنفع الناس، وإجابة مستفتيهم وجاهلهم.

ومن اللفتات العميقة التي دوَّنها ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) فقال: الفتوى هي الرياسة الحقيقية.

وقد أصاب العسقلاني كبد الحقيقة، فقد اقتنصها من حديث:.. **حتى إذا لم يُبقِ عالما اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسُئلوا فأفتَوا بغير علم، فَضَلُّوا وأضلُّوا**[1].

نعم؛ مقام الإفتاء مَهيب! والمفتي معبِّر عن شرع الله -تعالى- أمام المستفتين! ولذا كانوا أشد رهبًا، ولولا أمانة التبليغ لكانوا أشد هربًا.

ولذا قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): لولا معرّة كتم العلم، وخوف عقاب الله -تعالى- ما أفتيتُ أحدًا، ولكني أُفتي أرجو أن أَسْلَمَ من ذلك[2].

إذًا فكيف يكون الإفتاء لذيذًا؟!

أما المهابة فمعلومة، وكانت ولا زالت للعلماء مرهوبة.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/١٩٥) والحديث رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٢٦/٤١٩).

وتأمل حال جلال الدين السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) فإنه قد ترك الإفتاء، وأقبل على التعبد، فرأى منامًا يقتضي ذمَ النبي ﷺ له، وأمْرَ خَلِيفتَه الصديق بحبسه سنة؛ لتَركه الإفتاء. فاستغفَر الله، وَأقْبَلَ على الإفتاء، بحيث لو جيء إليه بِفُتْيَا، وهو مُشرِفٌ على الغرَق لأخذَها؛ ليَكتب عليها[١].

قال بعض الحكماء: إخفاء العلم هلَكَة، وإخفاء العمل نجاة[٢].

ولذا تجدهم إذا وجدوا مَن يَكفيهم مؤونة الفتوى فرِحوا وربحوا.

وفي ترجمة ابن روزبة الكازروني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٣هـ) أنه تصدى للإفتاء في بلده دهرًا، حتى كان علماء عصره يقولون: إنه قام عنا بفرض كفاية[٣].

فالعالِم إذًا يتنازعه أمران، فيُحجِم حينًا، ويُقدِم أحيانًا:

١- فأما الإحجام، فلرهبة مقام التوقيع عن الله، وخوف القول على الله بلا علم.

٢- وأما الإقدام، فلِلَذَّة تبليغ العلم للناس، وتعليم الجاهل أمر دينه؛ ليكون وَريث الأنبياء حقًا.

فهي مناقب محفِّزة من هذا الوجه، وأنعِم بها من مناقب؛ لتُخفف عنهم تذكُّر تبِعات الإفتاء ومقامه، وليدَّخروا أجره في القبر والقيامة، فتجري لهم أجور من إفتائهم بعد وفاتهم. ويتسلسل الأجر في فتوى طلابهم للناس، تقليدًا منهم لشيوخهم.

يقول الشيخ ابن سعدي (ت ١٣٧٦هـ): وقد أخبرني صاحب لي، قد أفتى في مسألة في الفرائض، وكان شيخه قد توفي، أنه قد رآه في المنام يقرأ في قبره، فقال: المسألة الفلانية التي أفتيتَ فيها؛ وصلني أجرها[٤].

وتأمل الموقف التالي؛ لتعرف مقدار سرور العالم إذا أصاب الحق:

فقد وردت فتوى في مسألة مشكلة في المناسخات، فتصدى لقِسْمَتها جماعة من العلماء، وتعبوا فيها يوما وليلة، حتى حرَّروها على الوجه المَرْضي، ثم قالوا: لنكتبها

---

(١) انظر: البدر الطالع للشوكاني (٣٣٤/١). وللسخاوي وجهة نظر حول هذه الرؤيا. انظر الضوء اللامع (٦٩/٤).
(٢) الاستذكار لابن عبد البر (١٤٣/٢).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٩٧/٧).
(٤) الفتاوى السعدية (ص١٠٢).

في سؤال، ونرسلها للمتصدرين للإفتاء، وننظر ماذا يقولون في الجواب. فأرسَلوها للشيخ الفرَضي عبد الباسط السنديوني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠١هـ) وهو لا يعلم بشيء مما عانَوه، فحضر الجواب سريعًا، فقضَوا عجبًا من جَودة استحضاره[١].

ولأجل هذا الفضل؛ فقد كان بعض الطلاب يُفتون بمحضر شيوخهم، إذا تيقنوا الجواب.

قال عكرمة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥هـ) تلميذ ابن عباس ﷺ: كنت أفتي بالباب، وابن عباس في الدار[٢].

وربما فعل هذا عكرمة تخفيفًا على شيخه؛ فالمُفتون يصيبهم من جرَّاء الجلوس للإفتاء رَهَقٌ، ومن كثرة وإلحاح المستفتين عَنَتٌ، لا سيما في مواسم العبادة، كالحج ورمضان، وفي النوازل كالكسوف والحروب؛ فإنه يكثر احتياج الناس لاستفتائهم. وخذ على ذلك أربعة أمثلة بديعة:

• ابن رسلان الخوارزمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٣هـ) ربما يُسأل عن مئة مسألة فقهية في مجلس واحد، فيجيب عن الكل على الفور، من غير تردد ولا تخبيط، ويذكر ما فيها من القولين والوجهين[٣].

• قال المفتي أحمد بن كمال باشا -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٠هـ): جلستُ يوما بعد صلاة الصبح، أكتب على الأسئلة التي اجتمعتْ عندي، فكتبتُ إلى وقت العصر، على ألف وأربع مئة واثنتي عشرة فُتيا! ما تخلل كتابتي غيرُ صلاة الفرض وسُنته.

• قال: ووقع لي مرة أخرى، أني كتبت كذلك على ألف وأربع مئة وثلاث عشرة فُتيا! وما حصرتُ الذي كتبتُ به في غير هذين اليومين!.

وهذا - كما قال حاجي خليفة رحمه الله تعالى (ت ١٠٠٤هـ)-: إمداد إلهي! وأما القُوَى البشرية فلا تستطيع ذلك[٤].

---

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/٣٦).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/٨٢).
(٣) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٢/٢٠).
(٤) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٥/٤٦٣).

• قال أحد المشايخ المعاصرين: في فترة الحج لإحدى السنوات، أحصيتُ الفتاوى التي أجبتُ عنها خلال شهر ذي القعدة ومنتصف ذي الحجة، فقدِّرت بأحد عشر ألف سؤال.

ولا يَغِب عن بالك؛ أن العالِم قد يُسأل عن مسألة بذاتها عدة مرات في اليوم الواحد، ويكررها في عمره آلاف المرات، وهذا يُزيل الاستغراب عن مقدار ضبط ذلك العالِم لأطراف تلك الفتوى بأدلتها، وأسماء القائلين بها. وخذ هذين المثالين:

• قيل لسالم بن عبد الله بن عمر -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦هـ) عن مسألة: أسمعت أباك يقول هكذا؟ فقال: ربما سمعته يقول الشيء أكثر من مئة مرة. فقالوا متعجبين للإمام مالك: مئة مرة؟! قال: نعم، وألف مرة؛ لكثرة السنين، قد أقام ابن عمر بعد النبي ﷺ ستين سنة، يفتي الناس في الموسم(١).

• سئل إبراهيم الحربي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٥هـ): كيف سمعتَ أحمد يقول في القراءة خلف الإمام؟ فقال: إما ألف مرة، إن لم أقُل، فقد سمعته يقول: يقرأ فيما خافتَ، ويُنصت فيما جهر(٢).

فإن وُفِّق العالِم لطلبة نشيطين، يدوِّنون فتاويه فذلك خير على خير، وإرث يمتد ما تعاقبت الأجيال، وتقلبت الأيام. وخذ أربعة أمثلة لأئمة المفتين:

• قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): وجمعتُ فتاوي ابن عباس في سبعة أسفار كبار(٣).

• الأوزاعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٧هـ) أجاب في سبعين ألف مسألة من العلم(٤).

• أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) سئل عن ستين ألف مسألة، فأجاب فيها بأن قال: أخبرنا وحدثنا(٥).

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٣/٣١).
(٢) طبقات الحنابلة (٩٢/١).
(٣) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٥٩).
(٤) المعرفة والتاريخ (٤٠٨/٢) وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٢/٣٥).
(٥) طبقات الحنابلة (٦/١).

• ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) فتاويه ونصوص أجوبته على المسائل، دوِّن منها على أبواب الفقه فقط سبعة عشر مجلدًا، بأكثر من أربعين ألف مسألة(١).

ومن شدة تلذُّذ العلماء بتعليم المتعلمين، وإجابة المستفتين الذين قد يحتاجون للفتوى عاجلًا: أن بعضهم قد يجعل وقت وجبة الغداء؛ للرد على طالبي الفتوى، فيردُّ مرة على الهاتف، ومرة يتحدث مع أهله.

ومن اللذائذ التي يعيشونها: طُروق الدعوات المباركات على أسماعهم من المستفتين. كقول: أحسن الله إليك - غفر الله ذنبك - حفظكم الله - جزاك الله خيرًا.

وما يَخفى عليهم من دعوات الناس لهم، وحبهم لهم أكبر وأكثر؛ لأن إحسانهم على الناس أعظم من إحسان التجار المُنفقين، والكرماء الباذلين.

ومن اللذائذ النوادر: أن يعود المفتون لك مستفتين منك، وهذه «لا ينالها في الألف إلا واحد لا اثنان» وهم أفراد في العالَم، ولابد أن يجتمع فيها صفتان: رسوخ العالم، وطول عمره.

قال الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): قَلَّ رجل كنت أتعلم منه، وما مات حتى يجيئَني ويستفتيَني(٢).

تساؤل: هل السائل المستفتي يجد لذة السؤال، وفهم الجواب؟

نعم يجِدها، حتى ولو لم يكن يزاول العلم، حتى وإن كان عاميًا. فإن أعياه فهم الجواب، أو كسِل عن تطلُّب الفتيا فاتته اللذة بحسبها.

قال الغزالي: فإن لم يكن السائل قد ذاق حلاوة شيء أصلًا تعذر جوابه، وتفهيم ما سأل عنه، وكان كالعِنِّين يَسأل عن لذه الجماع، وقَطُّ ما أدركه، فيَمتنع تفهيمه(٣).

ومن علامة تلذذ السائل بسؤالاته: تحضيرها، وترتيبها، وحسن تقييدها، ثم نشرها.

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٢٦).

(٢) وفيات الأعيان (١٣٥/٤).

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٧١).

وقد كان ابن عباس ﷺ (ت ٦٨هـ) يأتي أبا رافع مولى رسول الله ﷺ فيقول: ما صنع النبي ﷺ يوم كذا وكذا؟ ومع ابن عباس ألواح؛ يَكتب ما يقول[١].

حقًّا! إن طرح السؤالات على الأشياخ وتدوينها؛ له لذة مشتركة بين الشيخ وتلميذه.

سأل الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) شيخه محمد بن الحسن، فأجابه، فاستحسن الجواب، وأخذ شيئًا وكتب فيه، فوهب له محمد بن الحسن مئة درهم، وقال له: الْزَمْ إن كنت تشتهي العلم[٢].

المُفتون المتلذذون بالسُّم الزُّعاف

إنهم الذين يُفتون بغير علم، فيا ويلهم يوم تبلى السرائر!

أوَلا تردَعُهم هذه الآية المخيفة: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وإن مما يُذهب لذة الفتيا من مستفتٍ: أن يطلبها من غير أهلها الثاقبين في فهم النصوص، وفي تنزيلها على الوقائع. ويظن المفتي الجاهل أنه ينال لذةً، ولكنها السم الزُّعاف؛ لأنه وقع في مَهلكة التوقيع عن الله -تعالى- وبئس المصير!

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): إنما يُفسِدُ الناسَ نصفُ متكلم، ونصف فقيه، ونصف نحوي، ونصف طبيب؛ هذا يُفسد الأديان، وهذا يُفسد البلدان، وهذا يُفسد اللسان، وهذا يُفسد الأبدان[٣].

ومن المخازي المتناسلة فتاوى أهل البدع، كالخوارج وأشباههم -قطع الله قرنهم- ونشرُهم لها بين أهل السنة، وذلك عندما تنزل بالأمة الفتن والهرْج، فتَرَاهم يَشقُّون الصف، بجهلهم وعدوانهم، فيَضِلُّون ويُضِلُّون بفتواهم الآثمة.

---

(١) مسند الروياني (١/٤٦٣).
(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ١٢٨).
(٣) الرد على البكري (٢/٧٣٠).

ومن أمثلة نسْلِهم المخزي في زمن مَضَى، ذلك الرجل الذي رأى رجلًا يأكل في رمضان، فهمَّ بقتله! وما عَلِم أنه مسافر. فعلَّق ابن مُفلح -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٣هـ) قائلًا: فالويلُ للعلماء من مُقاساة الجَهَلة[١].

ومن دسائس الشيطان المكدِّرة لصَفْوِ الإخلاص: ما قد يقع في إجابات بعض المفتين للمستفتين، بسبب كثرة تردد المسائل عليهم، تراهم قد يَشرَعون بالجواب قبل إتمام السؤال!

وهذه مَزِلة نوايا، ومَضِلة شيطانية خفية، تستدعي من المفتي كثرة الاستغفار، واللجوء إلى الله، والاستعاذة به من الشيطان؛ لطرد العُجب والغرور.

ولقد كانوا يَحرسون أقوالهم من خَطف الشيطان، كحراسة السماء بالنجوم.

ولذا قيل لسحنون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ): تأتيك المسائل مشهورة مفهومة، فتأبَى الجواب فيها. فقال سحنون: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنةً من فتنة المال[٢].

وإن الاصطفاء الكبير من الله للعالم، أن يرزقه الله علما راسخًا، يجنِّبه الخطأ الكثير، ويهبَه دينًا وتقوىً تمنعه من الإفتاء بهوىً، فإذا أمضى على ذلك عقودًا؛ فإنما هي كنوز حسنات، يجمعها ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

ومن المواقف المؤثرة أنه لما احتُضر ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) بكى نساء أهله، فقال: قد وقَّعْتُ خمسين سنة عن الله، [يعني بالفتاوى] فدَعُوني أتهنأ بلقائه[٣].

فهنيئًا للعلماء الموقعين عن الله بالجواب الصواب، وهنيئًا لهم الأجور الجارية لهم في بث العلم، وإفتاء المتعلم والجهل بأحكام الله.



(١) الآداب الشرعية (٢/٨٧).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/٧٦).
(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/١٨٢).

٤٩. لذة تعليم الجاهل، واهتداء المبتدع

إذًا هما نقطتان: تعليم الجاهل، واهتداء المبتدع، وصاحب البدعة جاهل مركب. فكيف لو انقلب الجاهل إلى عالم كبير؟!

فأما النقطة الأولى؛ ففي تعليم العوام العلم، وترغيبهم وتقريبهم لذة خاصة.

وقد مرَّ عليك مبحث مستقل تحت عنوان: **تسهيل العلم**. فارجع إليه واربطه مع ما يلي:

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): أنفع الناس لك رجل مكَّنك من نفسه، حتى تزرع فيه خيرًا، أو تصنع إليه معروفًا، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك، فانتفاعك به -في الحقيقة- مثل انتفاعه بك أو أكثر(١).

فإذا ظفرت بهذا الرجل الذي هو كالأرض الخصبة، فاستمسك بغَرْزِه، ولا تفرِّط فيه.

قال الحكماء: كلمة لك من أخيك، خير لك من مال يعطيك؛ لأن الكلمة تنجيك، والمال يطغيك(٢).

وهذه الكلمة قد لا تُلقي لها بالًا، ولكنها ربما تكون سببًا في إقبال مُعرِض، أو تذكُّر غافل، أو جلب موهوب لم يُفطن له، أو غرس قِيم تربوية في قلب ناشىء.

يحدثني أحد أصدقائي الكرام أن أباه -رحمه الله تعالى- لما كان طفلًا قطع طريقًا في شدة الصيف اللاهب، فدخل الطفل مسجدًا، فوجد رجلًا معه ماء. فلم يتكلم الطفل، فسأله الرجل: أتريد ماءً؟ فهزَّ الطفل رأسه. فسقاه الرجل، فلما ارتوَى قال له الرجل مُوصيًا ومُعلِّمًا: يا بُنيَّ! أخطأتَ ثلاثة أخطاء؛ دخلتَ ولم تُسلِّم! وشربتَ ولمْ تُسمِّ الله! ورَوِيتَ ولم تحمد الله!.

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٢) شعب الإيمان (٣/٢٦٤).

ويقول هذا الطفل بعدما اشتعلَ رأسه شَيبًا: صِرتُ كلما شربتُ ماءً ذكرتُ ذلك الرجل، فدعوتُ له.

أرأيت كيف أن الهدية القولية قد تكون أعظم وقعًا من الهدية الحسية؟!

قال ابن القيم: وإنما الهدية النافعة كلمة يُهديها الرجل إلى أخيه المسلم[1].

وخذ هذا المثال العجيب:

محمد أفندي المعروف بشيخ كمال -رحمه الله تعالى- (ت ٩٩٠هـ) لما كان صبيًا رآه أحد الشيوخ يعبث بكتاب، بحيث يحذفه إلى أعلى، ثم يأخذه بفمه! فقال له: يا محمد! ما هذا؟! إن هذا لا يليق بأمثالك، إنما يليق بأولاد السفهاء. قال: فأثَّر ذلك في قلبي، ونفعني الله -تعالى- بتربيته، حتى صرتُ إلى ما صرتُ إليه ببركته[2].

وأما النقطة الثانية؛ فهي: **تَوْبات علماء من البدعة للسنة، أو من المعصية للطاعة**[3]:

فيا عظيم لذة من دعاهم، وهداهم، ويا جزيل أجره عند الله؛ لأنهم بذلك حوَّلوه من جاهل في ظلمات، إلى عالِم يُنير الحوالك، ويُبصِّر القلوب الهوالِك.

و«**توبات العلماء**» تستحق أن يُكتب فيها مصنَّف مستقل. ولأُشِرْ من سماء العلم ببعض الأسماء اللامعة التائبة، المتحوِّلة إلى علماء هُداة عبر القرون. فَخُذ بضعة وثلاثين مثالًا:

١. قصة إسلام العالِم اليهودي، الذي صار من علماء الصحابة، ألا وهو عبد الله بن سلام ﵁ فقد ناقَش النبيَّ ﷺ وقال: إني سائلُك عن ثلاث لا يَعلمُهن إلا نبي.. الحديث[4].

٢. قصة الشاب سعد بن هشام بن عامر -رحمه الله تعالى- (بعد ٨١هـ) ورجوعه عن

---

(١) الرسالة التبوكية (ص: ٧٤).

(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/٤٤).

(٣) ارجع لمبحث سابق بعنوان: «نماذج لعلماء ما تلذَّذوا بالعلم إلا وهم كبار في السن» فستجد مزيد بسط فيه.

(٤) صحيح البخاري (٣٣٢٩).

رأي متعجل متحمِّس، وانتقاله من شاب عاطفي إلى عالِم مسنِد في الحديث؛ بسبب نُصح أعلم نساء العالمين عائشة رضي الله عنها[(١)].

٣. قصة توبة يزيد الفقير -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠هـ) وتوبة طائفته، الذين قد شغَفَهم رأيٌ من رأي الخوارج، وقد تابوا على يد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما[(٢)].

٤. رجوع طائفة كبيرة من الخوارج، بمناظرة دامغة على يد الحبر البحر ابن عباس رضي الله عنهما[(٣)].

٥. علماء كانوا على جانب من المعاصي ثم تابوا، فصاروا أئمة هدى، كالفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك[(٤)]، ومالك بن دينار، وزاذان -رحمهم الله تعالى-.

٦. أبو الوليد الكرابيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٤هـ) من عِلم الكلام إلى الحديث[(٥)].

٧. نعيم بن حماد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٩هـ) من الجهمية إلى السنة[(٦)].

٨. إسماعيل بْن سعيد الكسائي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٠هـ)كان ينتحل مذهب الرأي، ثم هداه الله. قال: كنت أربعين سنة على الضلالة، فهداني الله[(٧)].

٩. موسى بن حزام الترمذي -رحمه الله تعالى- (بعد ٢٥١هـ) كان في ابتداء أمره

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٦).

(٢) المصدر السابق (٣٢٠).

(٣) سنن أبي داود ت الأرنؤوط (٤٠٣٧).

(٤) أما قصة توبة ابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) فعجيبة، ومجهولة لدى الكثيرين، فقد سئل عن ابتداء طلبه العلم، فقال: كنت شابًا أشرب النبيذ، وأحب الغناء، وأطرب بتلك الخبائث، فدعوت إخوانًا إلى بستان لي، فأكلنا وشربنا، حتى ذهب بنا السُّكْر، فانتبهت آخر السحر، فأخذت العود أعبث به. فلما تكررتُ عليه بذلك، وإذا هو ينطق كما ينطق الإنسان: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] قلت: بلى يا رب!. فكسرت العود، وأهرقت النبيذ، وجاءت التوبة بفضل الله بحقائقها، وأقبلتُ على العلم والعبادة. انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤٣/٣).

(٥) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٥٦).

(٦) تاريخ بغداد ت بشار (٤١٩/١٥).

(٧) تاريخ جرجان (ص: ١٤١). وَوَصْفُه بأنه على الضلالة؛ هذا فيه نظر، إن كان يقصد مذهب أبي حنيفة في الفقه. أما إن كان يقصد الأخذ بالرأي دون الأثر؛ فنعم.

ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله بأحمد بن حنبل، وانتحل السنة، وذب عنها، وقمع من خالفها[١].

١٠. مَوَالي العلماء الذين أسلموا، أو اتجهوا للعلم، بسبب أسيادهم العلماء الذين قَوْلَبُوهم، وقلَّبُوهم أحسن تقليب؛ ليكونوا ناشرين لعلمهم، بل أئمة كبارًا، ومرجعًا إذا اختلف الناس حول مَقول أو منقول لهم. وفي «البخاري»: مولَى القوم من أنفسهم[٢].

ومنهم على سبيل المثال:

أ- قال سالم بن أبي الجعد -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٠هـ): اشتراني مولاي، وأعتَقَني، فقلت: بأي شيء أحترفُ؟! فاحترفتُ بالعلم، فما تمَّت لي سنة، حتى أتاني أمير المدينة زائرًا، فلم آذَنْ له[٣].

ب- البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) جَدُّه كان مجوسيًا، فأسلم على يد اليمان الجعفي[٤].

ج- الحسن الماسرجسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٠هـ) مولى عبد الله المبارك، كان نصرانيًا، فأسلم على يديه[٥].

د- أبو زرعة الثقفي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٢هـ) كان جَدُّه يهوديًا[٦].

فإن أُصبح بلا نسبٍ ... فعِلمي في الورى نسبي[٧]

١١. الإمام أبو الحسن الأشعري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٤هـ) ويا سُعدى من توَّبه! ويا بركةَ مَن دلَّه على السنة وأوَّبه؛ فقد كان مدة أربعين سنة رأسًا في البدعة، ثم صار رأسًا في السُّنة[٨]!

---

(١) الثقات لابن حبان (١٦٣/٩).

(٢) صحيح البخاري (٦٧٦١).

(٣) إحياء علوم الدين (٨/١).

(٤) تاريخ بغداد (٣٢٢/٣).

(٥) تاريخ بغداد (٣٣٢/٨).

(٦) تاريخ دمشق (١٩٠/٥٤).

(٧) معجم الأدباء (١٥٨٦/٤).

(٨) يروى أن أبا الحسن الأشعري سئل عن سبب توبته؟ فأخبر أنه رأى النبي ﷺ في رمضان، وأمره بالرجوع إلى الحق ونصره. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٩٦/٢).

١٢. الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) من مذهب المتكلمين إلى مذهب السلف(١).

١٣. أبو المظفر السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ) من علم الكلام إلى الحديث(٢).

١٤. ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) من أذكياء العالَم، كما وصفه ابن تيمية(٣). ولكن الذكاء لا يكفي، حتى يكون عَون من الله للفتى، والمثبَّت من ثبَّته الله(٤).

وما أجمل ما كتبه عنه الموفق ابن قدامة -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٠هـ) حيث قال: قد عاد بعد توبته بأحسن كلام، وأبلغ نِظام .. وقد أراكم الله عبرةً في هذا الرجل الذي اعتقدتُم غزارةَ علمه؛ كيف قد زلَّ هذه الزلة القبيحة، فلا تغترُّوا بأحد(٥).

١٥. علي بن الحسن العطار (ت ٥٢٢هـ) اشترى له أبوه جارية مغنية، فتعلم منها الغناء، ثم افتقر، فكان يغني في مجالس الشرب، ويشرب الخمر، إلى أن كبر وضعف،

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٤٥/١٦). وقد قال: عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطف بره، وإلا فالويل لابن الجويني!

(٢) المصدر السابق (٣٧/١٧).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٦٠/٨).

(٤) وقصته في ذيل طبقات الحنابلة (٣٢٢/١ - ٣٢٤): فحينما كان عمره أربعًا وثلاثين عامًا كان له جلساء وأشياخ من المعتزلة، يتأوَّلون الصفات على مذهبهم. فقامت في قلوب أصحابه الحنابلة من الحَمِيَّة، التي جعلت بعض متحمَّسيهم يهدِّدونه بالقتل! وليتهم ما فعلوا، واقتصروا على الدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.
ثم تاب وكتب رسالة ومما جاء فيها: إني أبرأ إلى الله تعالى من مذاهب مبتدعة الاعتزال وغيره، ومن صُحبة أربابه. وإخواني -حرسهم الله تعالى- مصيبون في الإنكار عليَّ؛ لما شاهدوه من الكتب، التي أبرأ إلى الله تعالى منها، وأتحققُ أني كنتُ مخطئًا غير مصيب. وأشهدت الله وملائكته وأولي العلم، على ذلك غير مجبر، ولا مكرَه، وباطني وظاهري - يعلم الله تعالى - في ذلك سواء ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝﴾ [المائدة: ٩٥].

(٥) تحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة (ص: ٣١ - ٧٠).

وساءت حاله، فرغبه تلميذه ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) في التوبة، فتاب، وترك الغناء، فصار يَسمع منه الحديث، وبعض الكتب[١].

١٦. علي الجيبري النوقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ) علِق فتاة تُغَني، وصار يسمع غناءها، ويسأل الناس أن يضيفوه بسماعها والاجتماع والقعود معها، ثم تاب وأعرض عنها، ورجع إلى ما كان عليه من الزهد، وكان يبكي على الواقعة التي وقعت له، ومات على ذلك[٢].

١٧. أبو الحسن المربدي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٥٠هـ) اهتدى على شيخه السِّلَفي، فيقول الشيخ عن تلميذه: كان من أذكى البرية عُطارِديًا، ما رآه عمِلَه باليد مثله، وكانت له صبوة، ثم تاب على يدي، ويجلب إليَّ واحدًا بعد واحد، فيتوبون عن الشرب وغيره[٣].

١٨. الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٥هـ) من مذهب أهل الكلام لمذهب أهل السنة[٤].

١٩. عبد الرحمن بن النفيس بن الأسعد الأعز -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كان مغَنِّيًا، ثم تاب، وحفظ «مختصر الخرقي»، وصار عالمًا[٥].

٢٠. شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٥هـ) كان في أول أمره مغنيًا، يعلم الجواري الغناء، ثم تاب، ووقف على قراءة «البخاري»[٦].

٢١. قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ): فإني في أيام الطلب، وعنفوان الشباب، شُغلت بهذا العلم، الذي سمَّوه تارة علم الكلام، وتارة علم التوحيد، وتارة علم أصول الدين، وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة..فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/٣٣٠).
(٢) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٢٣٤).
(٣) معجم السفر (ص: ٢٧٥). والمراد بالعُطاردي: أي الفطن الذكي.
(٤) قال ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٤/٧٢): بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث وصنف «إلجام العوام عن علم الكلام».
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٨١).
(٦) الدارس في تاريخ المدارس (١/١٧٥).

والحيرة، وكان ذلك من الأسباب التي حبَّبَتْ إليَّ مذهب السلف، على أني كنت قبل ذلك عليه، ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة، وبه شغفًا:

على أنني قد خُضت منه غماره وما قنعَتْ نفسي بغير التبحرِ[1]

٢٢. عبد القادر بن بدران -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) من علم الكلام إلى السُّنة[2].

٢٣. محمد حامد الفقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٧هـ) من الكلام إلى السنة[3].

٢٤. الفقيه الحنبلي الكويتي عبد العزيز بن أحمد بن رشيد البداح (ت ١٣٥٧هـ) من منهج العقلانيين، إلى مذهب أهل النقل. وسبب توبته الملك عبد العزيز -رحمهما الله تعالى-[4].

٢٥. أبو الفضل البرقُعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٣هـ) من التشيع إلى السنة.

٢٦. الأديب علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) من الأشعرية إلى السنة[5].

٢٧. الشيخ عبيد الله الأفغاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٣هـ) من الصوفية للسلفية[6].

٢٨. المفكر عبد الرحمن بدوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٢هـ) من الوجودية إلى الإسلام.

٢٩. بُدَّاه البوصيري الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٠هـ) من الصوفية والأشعرية إلى السنة والسلفية.

---

(١) التحف في مذاهب السلف (ص: ٢٥).
(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد لابن بدران (ص: ٤٣).
(٣) المجموع في ترجمة الشيخ حماد الأنصاري (٢٩٥/١).
(٤) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٨٠٩/٣).
(٥) رجال من التاريخ للطنطاوي (ص٤١٣).
(٦) في مقطع صوتي يذكر أن سبب توبة الشيخ: قراءته لكتاب ابن تيمية «اقتضاء الصراط المستقيم»!.

٣٠. الشيخ محمد جميل زينو -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣١هـ) من الصوفية إلى السلفية[١].

٣١. شعيب الأرناؤوط -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٨هـ) من الأشعرية إلى السلفية.

• وخذ الآن ثلاثة من العلماء تلطّخوا بشيء من البدعة، ثم تأثروا بكتب الإمامين ابن تيمية، وابن القيم، فتَركوا ما هُنالك. فما أعظم بركة هذين الإمامين على الأمة:

٣٢. الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) يقول: لا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل، من كتب شيخي الإسلام ابن تيمية، وابن القيم -رحمهما الله -تعالى-. وإنني أقول عن نفسي: إنني لم يطمئن قلبي بمذهب السلف تفصيلًا، إلا بممارسة هذه الكتب[٢].

٣٣. الشيخ عبدالرحمن الوكيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٠هـ) يقول عن نفسه: كنتُ مِن قبلُ أرى ابن تيمية ضالًا مضلًا. وكانت عندي له كتب، بيد أني كنت أرهب مطالعتها؛ خشية أن أضل ضلال ابن تيمية! ثم ينعم الله عليَّ بصبح مشرق، يهتك عني حجب هذا الليل[٣].

٣٤. ويكفي من حسنات ابن تيمية أن الله هدى به تلميذه ابن القيم، الذي كان في مبتدأ حياته مائلًا لأهل التصوف شيئًا يسيرًا، فأنقذه الله بشيخه الذي يقول عنه:

يا قومِ واللهِ العظيمِ نصيحةٌ ... من مشفق وأخ لكم مِعْوانِ
جربتُ هذا كلَّه ووقعْتُ في ... تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني
حبر أتى من أرض حرانٍ فيا ... أهلًا بمن جاء من حران

(١) العائدون إلى الله للمسند (١/٦).
(٢) تفسير المنار (١/٢١١).
(٣) باختصار وتصرف من: مصرع التصوف للبقاعي -المحقق: عبدالرحمن الوكيل (١/٦).

فـالله يجزيه الـذي هـو أهله ... مـن جنـة المـأوى مـع الـرضـوان
أخـذت يـداه يدي وسـار فلم يرِمْ ... حـتـى أرانـي مطلع الإيـمـان[١]

ولا يذهب وَهْلُك أن هذا الإمام الجبل قد تلطخ بشيء من البدعة، حاشا وكلا! وإنما هي مخالطات عابرة، لا تلطخات عالقة، تقع لمن هو في بداية الطلب، ثم تمحوها أنوار النبوة.

وهذا يقع حتى لمن هو أعلى كعبًا من ابن القيم، بل وقع يسيرٌ منه لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث يقول عن نفسه: وقد ذكر طائفة من المصنفين في المناسك استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها، وكنتُ قد كتبتُها في منسك؛ كتبتُه قبل أن أحج في أول عمري.. جمعته من كلام العلماء، ثم تبيَّن لنا أن هذا كُّله من البدع المحدثة[٢].

وبعد؛ فكلُّ ما مرَّ بك فهو لعلماء تابوا، فازدادوا علما وهدى[٣].

أما من أسلموا على يد عالم، فصاروا علماء؛ فهذا سبيلٌ يَطول إحصاؤه، لكن يكفيك مثال واحد، وهو ما تفضَّل الله به على يدي الصدِّيق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه، حيث أسلم على يديه خمسة من الأئمة العشرة المبشَّرين بالجنة: عثمان، وسعد، وطلحة، وعبد الرحمن[٤] و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهذه فتوحات ممنوحات، وهدايات من رب البريات ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وإنما المصيبة فيمن جرى عليه العكس، بأن كان ساعيًا في طلب العلم، ثم تركه وراءه ظِهريًا! فاللَّهُمَّ إنا نعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر، ونسألك أن تجعل العلم حجة لنا لا علينا.

---

(١) نونية ابن القيم (ص: ١٤٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/٣٣٩).

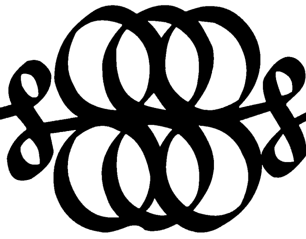
(٣) وأما قصص موالي الصحابة، الذين انقلبوا إلى علماء أئمة في الدراية والرواية؛ فهم كثيرون. ولا يندرجون تحت هذا المبحث. ومن أمثلتهم: (عكرمة - عطاء - نافع - كاتب الليث - سليمان بن يسار- طاوس- أفلح مولى أبي أيوب - ندبة مولاة ميمونة - حبيب مولى عروة - عبد الرحمن الأعرج - سهيل بن صالح).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/٣٦).

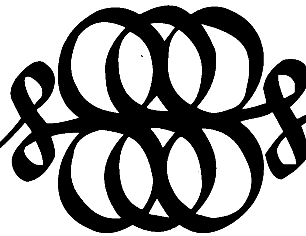
فهذا تلميذ عبقري للحافظ السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) اسمه ابن النطاع. قال عنه السلفي: كان يحضر عندي في المدرسة؛ لتعليق الدروس الفقهية، وكتب الأمالي الحديثية، وهو من أذكى الناس.. وعَمَلُ الشعر قد كان أسهل عليه من شُرب الماء. ثم دخل فيما لا يَعنيه من الفضول، وقُرْب مَن لا يُرتضى، وفي الجملة؛ قد كان مسيئًا إلى نفسه -والله يتغمده بفضله، ويتجاوز عن سيئاته-(١).



(١) معجم السفر (ص: ١٦٣).



الباب التاسع:
لذَّة المذاكَرة والمناظَرة



٥٠. لذة المذاكرة في العلم:

أما مذاكرة العلم مع النابِهين؛ فهي إن لم تكن ألذُّ لذائذ العلم، فهي من ألذِّها، لا سيما المطارحة بالمسائل ذوات المآخذ المؤتلفة، والأجوبة المختلفة؛ فإنها مما يثير لدى المتلذذين الأفكار، ويبعثها على «اقتناص» الشرائد الأبكار، ويميز مواقع أقدار الفضلاء، ومواضع مجال العلماء.

والمذاكرة اصطلاح يستخدمه المحدثون وغيرهم، يَعْنون بها مطارحات علمية، ومساجلات في دقائق ولطائف العلم، يسأل بعضهم بعضًا عن ذلك، ويفيد الواحد منهم الآخر ما غاب عنه(١).

والمذاكرة في الحديث خاصة، هي أن يجتمع محدثان أو أكثر، فيستذكِرا الأحاديث فيما بينهما، من غير قصد روايتهما، ولا تَقَصِّي الإتقان والضبط فيها.

وكثيرًا ما كانت تعقد مجالس المذاكرة، وتقام المناظرات بين أصحاب الحديث؛ لتعرف طرقه، ويكشف عن القوي والضعيف منها، وفي هذا يقول يزيد بن هارون: أدركت الناس يكتبون عن كلٍ -من المشايخ الأقوياء والضعفاء -، فإذا وقعت المناظرة حصَّلوا(٢).

قال عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ): حرام عليكم أن تأخذوا عني في المذاكرة حديثًا؛ لأني إذا ذاكرتُ تساهلتُ في الحديث. وكذا قال عبد الله بن المبارك وأبو زرعة(٣).

ولذا احترزوا، فاستحبوا لمن أراد روايةً عنه في المذاكرة أن يقول: حدَّثَناه في المذاكرة(٤).

---

(١) انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم (١٤٠-١٤٦) والجامع للخطيب (٢/٤٠٤-٤٢١).

(٢) السنة قبل التدوين (١/١٦٢) والأثر في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٢٠).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٣٧).

(٤) المصدر السابق (٢/٣٧).

وقد كان من عادة نخبة المحدثين التباهي بالإغراب، بأن يحرص كل منهم على أن يكون عنده من الروايات ما ليس عند الآخرين؛ لتظهر مزيته عليهم.. ولم يكونوا يبالون؛ أكان الخبر عن ثقة أو غيره، صحيحًا أو غير صحيح؟[١].

والمذاكرة باعتبار الأشخاص نوعان:

النوع الأول: مذاكرة مع نفسك، بأن تجلس وحدك، ثم تعرض مسألة، ثم تأخذ في محاولة عرض الأقوال، والترجيح.

النوع الثاني: مذاكرة مع غيرك، بأن تتذاكرا في مسألة من المسائل، بالمراجعة، أو بالمفاهمة؛ فإن هذا مما يُنَمِّي العلم، ويزيده[٢].

وباعتبار آلية المذاكرة تنقسم -أيضًا- إلى قسمين:

- مذاكرة شفوية كلامية، وهي المعهودة، والأكثر استعمالًا.
- مذاكرة تحريرية كتابية، وقد زادت في ازماننا، مع وجود وسهولة وسائل التواصل الاجتماعي.

ومن جميل الأمثلة للمذاكرة الكتابية، ما جرى بين العالِمَين المعاصرين: ابن باز (ت ١٤٢٠هـ) وعبد الرحمن المعلمي -رحمهما الله تعالى- (ت ١٣٨٦هـ) في مسألة سماع ابن جريج من عطاء. والمراسلة جرت عام ١٣٧٨هـ، وصورتها متداولة في وسائل التواصل.

ومن المذاكرة النافعة المذاكرة بين يدي العالِم، وتكرار المسائل لضبطها، وورِدّ محترزاتها.

كان فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - (ت ٥٨هـ) إذا أتاه أصحابه قال: تَدارَسوا وأبشروا، وزيدوا -زادكم الله خيرًا، وأحبكم، وأحب من يحبكم-، رُدُّوا علينا المسائل؛ فإن أجر آخرها كأجر أولها[٣].

ومن المراسلات المشتملة على المذاكرات العلمية، ما جرى بين الشيخين السعدي وتلميذه ابن عقيل، وبين ابن عقيل وجمعٍ من أقرانه. وقد جُمعت وطبعت كلها.

---

(١) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (٤٧٥/١).
(٢) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١٧٢).
(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد(١٩٥/١) رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

قال العسكري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ): وإذا لم يكن مذاكرة قلّت منفعة الدرس، ومن عوّل على الكتاب، وأخل بالدرس والمذاكرة، ضاعت ثمرة سعيه واجتهاده في طلب العلم(١).

ولهذا كان أحدهم يفاخِر بقومه المَنْهُومين بالعلم، ويصِفُهم بأنهم ركْبٌ، مواظِبون على مذاكرة العلم، لا يمنعهم منه حِل ولا ترحال

قد اتخذنا ظهور العِيس مدرسةً   بها نُبيِّن دين الله تِبيانا(٢)

فيا طالب العلم النهِم: عليك بالمذاكَرَة، وإياك والتِّناوَة(٣) وتمتع مع المتلذذين بالمذاكرة والمدارسة، ملتزمًا الإنصاف والملاطفة، مبتعدًا عن الشغَب والمجازفة. فإن جَرَتْ مع قاصر في العلم، بارد الذهن، جرَّتْ الفتور والوهن.

وتتلخص فوائدها بأربع كلمات: الضبط - التذكير - التنافس- التلذذ.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): فالتفكر والتذكر بِذار العلم، وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقيحه(٤)

أقوالهم الحاثّة على مذاكرة العلم:

ولأجل عظيم عوائد المذاكرة؛ فقد توارَدت كلمات العلماء على ممارستها والإكثار من طرحها. وخذ بضع عشرة كلمة؛ من كلماتهم الحاضَّة الحاثَّة:

١. قال علي بن أبي طالب ﷺ (ت ٤٠هـ): تداوَرُوا وتذاكروا هذا الحديث، إن لا تفعلوا يَدْرُس(٥).

٢. قال ابن مسعود ﷺ (ت ٣٢هـ): تَذاكَروا الحديث، فإن حياته مذاكرته(٦).

---

(١) الحث على طلب العلم (ص٦٧).

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف (٣٠/١).

(٣) التِّناوَة هي ترك المذاكرة، كما في تهذيب اللغة (٢٣١/١٤).

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٨٣/١).

(٥) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص: ٥٤٥).

(٦) السابق (ص: ٥٤٦).

٣. قال أبو هريرة ﷺ (ت ٥٨هـ): جلوس ساعة عند مذاكرة العلم، أحب إلى الله ﷻ من أن يُتصدق على المساكين عشرة آلاف دينار(١).

٤. قال ابن عباس ﷺ (ت ٦٨هـ): تَدارُس العلم ساعة من الليل، خير من إحيائها(٢).

٥. وقال -أيضًا-: إذا سمعتم مني حديثًا، فتَذاكروه بينكم(٣).

٦. قيل لدِغْفل نسَّابة العرب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥هـ): بمَ ضبطت العلم؟ قال: بمُفاوَضة العلماء. أي بمذاكرتهم، كأن كل واحد منهما ردَّ ما عنده إلى صاحبه(٤).

٧. الْتقى ابن أبي ليلى (ت ٨٣هـ) وعبد الله بن شداد بن الهادِ -رحمهما الله تعالى- (ت ٨١هـ) فتَذاكَرا الحديث، فقال أحدهما للآخر: يرحمك الله! فربّ حديث قد أحييتَه في صدري(٥).

٨. قال إبراهيم النخعي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦هـ): اذكر الحديث عند من يشتهيه وعند من لا يشتهيه؛ حتى تدرُسَه، ثم تحفظه كأنه إمام(٦).

٩. قال الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): إنما يُذْهِب العلمَ النسيانُ، وترك المذاكرة(٧).

١٠. سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) يوصينا بالحرص على الإفادات العلمية، فيقول: يا معشر الشباب، تَعَجلوا بركة هذا العلم؛ فإنكم لا تدرون لعلكم لا تبلغون ما تؤمِّلون منه، ليُفِد بعضكم بعضًا(٨).

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب (٢/١٠٩).
(٢) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: ١١٧).
(٣) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص: ٥٤٧).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧/٢٩٣) والغريب الحديث لابن الجوزي (٢/٢١١) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٤٧٩).
(٥) المدخل إلى علم السنن للبيهقي (٢/٧١٠).
(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٦٨).
(٧) التاريخ الكبير = تاريخ ابن أبي خيثمة - السفر الثالث (٢/٢٥٣).
(٨) المدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ١٤٩٣) والجامع للخطيب (رقم ١٤٩٤).

١١. قال مطرف بن عبد الله -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٠هـ): التنازع في العلم مذاكرة جميلة[١].

١٢. قال جعفر بن محمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): القلوب تُرْبٌ، والعلم غَرسها، والمذاكرة ماؤها، فإذا انقطع عن التُّرب ماؤها جفَّ غرسها[٢].

١٣. قال الأمير الأديب عبد الله بن المعتز -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٦هـ): مَن أكثر مذاكرة العلماء لم ينسَ ما علِم، واستفاد ما لم يَعلم[٣].

١٤. قال عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٤هـ): نوصيكم بالمذاكرة في كل أوقاتكم؛ فإنكم في زمنٍ قُبض فيه العلم[٤]. وقال متحسرًا متذكِّرًا: واللهَ أسأل أن يعيد أوقاتًا سلفت، بمذاكرة العلم الشريف[٥].

١٥. كان يُقال: عليكم بمذاكرة العلم، فإنها مَنْبَطة للعلم، ومَيْقَظة للفؤاد، ومَجْلاة للبصر[٦].

هذه بعض أقوالهم تَتايَعت وتَتابَعت، على التحضيض على لذيذ زمن المذاكرة.

أفعالهم الحاثّة على مذاكرة العلم:

فأما أفعالهم وأحوالهم وحدَبهم على المذاكرة العلمية، فمتكاثرة متوافرة، فإليك جزاء الضِعف من أقوالهم، والفِعال أبلغ من المقال:

١. سَمَر حذيفة (ت ٣٦هـ) وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (ت ٣٢هـ) عند أمير الكوفة، فلما أصبحا أوتر كل منهما بركعة[٧].

---

(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ص: ٥٤٠).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٧٨).

(٣) المصدر السابق (٢/٢٧٦).

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٣/١٨٥).

(٥) المصدر السابق (٥/٥٥٢).

(٦) المدخل إلى علم السنن للبيهقي ت عوامة (٢/٧١٠). ونَبْطُ العلم: إظهاره وإفشاؤه. انظر: النهاية لابن الأثير (٥/٨).

(٧) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: ١١٧). وهما - كما ترى- يَرَيان أنه يجوز الوتر بين =

٢. المسور بن مخرمة (ت ٦٤هـ) سمَر ليلة عند ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حتى طلعت الزهرة، فوضع ابن عباس رأسه، فما انتبه إلا بأصوات أهل السوق، فقال: أتروني أصلي الوتر، وركعتي الفجر، وأصلي المكتوبة قبل طلوع الشمس؟ قالوا: نعم. ففعل ذلك(١).

٣. جلس طالبو الحديث إلى أم الدرداء -رحمها الله تعالى- (ت ٨٢هـ) فقالوا: أَمْلَلْناكِ؟ فقالت: ما أملَلْتُموني؛ لقد طلبتُ العبادة في كل شيء، فما أصبتُ لنفسي شيئًا أشفَى من مجالسة العلماء، ومذاكرتهم(٢).

قال ابن حجر: يؤخذ منه المذاكرة بالعلم، وإلقاء العالم المسألة على نظيره؛ ليستخرج ما عنده من الحفظ(٣).

٤. قال إبراهيم النخعي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦هـ): إنه لَيَطولُ عليَّ الليل، حتى ألقى أصحابي، فأُذاكرَهم(٤).

٥. التقى الإمامان عمر بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف (ت ١٠١هـ) وطاووس -رحمهما الله تعالى- (ت ١٠٦هـ)، فتقاوَما في ناحية مسجد الحرام، حتى أصبحا(٥).

٦. كان أبو مُجْلِز -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦هـ) في مجلس يتذاكرون فيه الفقه والسنن، فقال رجل: لو قرأتم سورة، فقال أبو مجلز: ما نرى أن قراءة سورة أفضل مما نحن فيه(٦).

٧. كان ابن عون (ت ١٥١هـ) يَلقى أيوب -رحمهما الله تعالى- (ت ١٣١هـ) في السوق، فيذهبان فيصليان في بعض مساجد القبائل، ثم يجلسان فيَتذاكران الحديث(٧).

= أذان وإقامة صلاة الفجر. وهو قول جمع من الصحابة، يَبلغون العشرة أنفُس. وانظر -أيضًا- أثر ابن عباس الذي بعده.

(١) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: ١١٧).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٠/١٥٦).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٩/٥٠٣).

(٤) المصدر السابق (٢/٧١٠).

(٥) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: ١١٧).

(٦) خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول (ص: ٥٤).

(٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٧٤).

٨. كان الإمام أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) يصلي الغداة، ثم يجلس في مذاكرة العلم إلى العصر، ثم يجلس بعد صلاة العصر إلى المغرب، ثم إلى عشاء الآخرة[١].

٩. في «صحيح البخاري»: قال معمر -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٤هـ) قال لي الثوري: هل سمعت في الرجل، يجمع لأهله قوت سَنَتِهم أو بعض السنة؟ قال معمر: فلم يحضرني، ثم ذكرت حديث عمر: أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سَنتهم[٢].

١٠. لقي الإمام الأوزاعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٧هـ) الإمام مالكًا بالمسجد النبوي، فجلسا من بعد صلاة الظهر يَتذاكرَان العلم، ثم حضرت العصر فصلَّيا، ثم جلسا، وعاوَدا المذاكرة، حتى اصفرت الشمس[٣].

١١. قام سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) يصلي من الليل، ثم قعد فجعل يقول: الأعمش والأعمش والأعمش ومنصور ومنصور ومنصور ومغيرة ومغيرة ومغيرة فقيل له: يا أبا عبد الله ما هذا؟ قال: هذا جزئي من الصلاة وهذا جزئي من الحديث[٤]

١٢. قال الفضيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٧هـ): كنا نجلس أنا وابن شبرمة، والحارث العكلي، والمغيرة، والقعقاع بن يزيد بالليل نَتذاكَر الفقه، فربما لم نقُمْ حتى نسمع النداء لصلاة الفجر[٥]

١٣. اختلف الكسائي (ت ١٨٩هـ) واليزيدي -رحمهما الله تعالى- (ت ٢٠٢هـ) بين يدي الخليفة في بيت شعر، فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض، وقال: أنا أبو محمد! الشعر صواب، فقال له يحيى بن خالد: أتتكَنَّى بحضرة أمير المؤمنين، وتكشف

---

(١) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ٥٣).
(٢) برقم(٥٣٥٧).
(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/١٨٥).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٦٥).
(٥) العلم لزهير بن حرب (ص: ٢٧).

رأسك؟! والله لخطأ الكسائي مع أدبِه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلتك، فقال: لذة الغلَب أنسَتْني مِن هذا ما أُحسِن[١].

١٤. تَذاكَر الإمامان الكبيران وكيع (ت ١٩٧هـ) وعبد الرحمن بن مهدي -رحمهما الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) ليلة في المسجد الحرام، فلم يَزالا حتى أذَّن المؤذن أذان الصبح[٢].

١٥. كان وكيع إذا صلى العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل، فيقف على الباب، فيذاكره وكيع، فأخذ وكيع ليلة بعضادتي الباب، ثم يأخذ في حديث شيخ شيخ، فلم يزل قائما حتى تجيء الجارية، فتقول: قد طلع كوكب الزهرة[٣].

١٦. قال رجل لابن مهدي: إنك تقول: هذا ضعيف، وهذا قوى، وهذا لا يصح، فعمَّ تقول ذاك؟ فقال ابن مهدي: لو أتيتَ الناقد، فأريتَه دراهم، فقال: هذا جيد، وهذا بَهْرَج، أكنتَ تسأله عمَّ ذاك أم تُسلِّم الأمر إليه؟ فقال: بل كنتُ أسلِّم الأمر إليه، فقال ابن مهدى: هذا كذاك، هذا بطول المجالسة والمناظرة والمذاكرة[٤].

١٧. قال أسد بن الفرات -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٣هـ): كان ابن القاسم يختم كل يوم وليلة ختمتين، فنزل لي حين جئتُ إليه عن ختمة؛ رغبة في إحياء العلم[٥].

١٨. قال علي بن الحسن بن شقيق -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٥هـ): كنت مع عبد الله بن المبارك في المسجد، في ليلة شتوية باردة، فقُمنا لنخرج، فلما كان عند باب المسجد ذاكرَني بحديث، أو ذاكرته بحديث، فما زال يُذاكرني وأذاكره، حتى جاء المؤذن، فأذن لصلاة الصبح[٦].

١٩. قال علي بن المديني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٤هـ): ستة كادت تذهب عقولهم

---

(١) معجم الأدباء (١٧٤٢/٤).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٧٤/٢).
(٣) مناقب الإمام أحمد (ص: ٧٦).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٣٠٥/١). البَهْرَج: المزيَّف.
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٧٦/١٣).
(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٧٦/٢).

عند المذاكرة؛ من شدة شهوتهم لها: يحيى، وعبدالرحمن، ووكيع، وابن عيينة، وأبو داود، وعبد الرزاق[١].

٢٠. أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) كان يقتصر على أداء الفرائض حينما ينزل عنده أبو زرعة؛ حرصًا على مذاكرته. وكان أحمد يقول: اعتضْتُ بمذاكرته عن نوافلي[٢]. وهذا عجيب، والأعجب منه أن الإمام أحمد أكبر منه بستٍ وثلاثين سنة!

٢١. قال المحدث أحمد بن صالح المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٨هـ): لقيت أحمد بن حنبل، فقال لي: تعال؛ حتى نذكر ما روى الزهري عن أصحاب رسول الله ﷺ فجعلا يتذاكران، ولا يُغرِبُ أحدهما على الآخر[٣]، حتى فرغا. فقال أحمد بن صالح: لو لم أستفد بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيرًا. ثم ودعه، وخرج[٤]

٢٢. عُقد لمسلم بن الحجاج -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦١هـ) مجلس المذاكرة، فذُكر له حديث لم يَعرفه، فانصرف إلى منزله، وأوقَد السراج، وقال لمن في الدار: لا يَدخُلنَّ أحد منكم هذا البيت، فقيل له: أهديَتْ لنا سلَّة فيها تمر؟ قال: فقدِّموها إليَّ. فجعل يطلب الحديث، ويأكل تمرة تمرة، يَمضغها، فأصبح وقد فنيَ التمر، ووَجد الحديث، ومات منها[٥].

٢٣. دخل المحدث أبو زرعة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ) بغداد، فاجتمع إليه الحفاظ يذاكرونه، وهو يجيب ويغلبهم في المذاكرة، حتى عجزوا، فقام أحدهم، فقال في أذنه: يا داماما [كلمة شتم بالفارسية]، فتبسم أبو زرعة، وقال له: يا هذا اشتغل بالعلم؛ فإن هذا بعيد مما نحن فيه[٦].

---

(١) علل الحديث لابن أبي حاتم (٨٠/١).
(٢) المصدر السابق (٢١١/١)وتاريخ بغداد (٣٢٦/١٠) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٩٣/١٢).
(٣) الإغراب هو: الإتيان بحديث غريب يرغب الناس فيه. انظر: شرح نخبة الفكر للقاري (ص: ٤٤٩).
(٤) الأحاديث المختارة = المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (١١٨/٣).
(٥) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ٤٤٩).
(٦) الضعفاء لأبي زرعة الرازي في أجوبته على أسئلة البرذعي (٧٠/١).

٢٤. كان القاضي ابن طالب التميمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٥هـ) يجمع في مجلسه المختلِفِين في الفقه، ويُغري بينهم؛ لتظهر الفائدة، ولم يكن شيء أحب له من المذاكرة في العلم(١).

٢٥. قال أبو أيوب الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٩هـ): بلغني ورود هذا الغلام الرازي - يعني أبا زرعة- فدرسْتُ للقائه ثلاث مئة ألف حديث(٢).

٢٦. ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) حضر جنازة، فأخذ ابن البهلول يعظ صاحب المصيبة ويسليه، فداخَله الطبري في ذلك ودأب معه، -ولم يعرفه ابن البهلول-ثم اتسع الأمر بينهما في المذاكرة، وتعالى النهار، وافترقا. فلما خرج الطبري سأل: من هذا الذي ذاكَرَني؟ فدُهش جدًا، وتندم أن لم يكن عرفه، وقال لابنه: ألا قلتَ لي في الحال، فكنتُ أُذاكرُه غير تلك المذاكرة(٣).

٢٧. كان أبو العباس الإبياني المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٢هـ) يحب المذاكرة في العلم، ويقول: دعُونا من السماع، ألقُوا علينا المسائل. وربما دخل عليه أصحابه وهو مُلْتاثٌ(٤). فإذا أخذوا في المذاكرة زال الْتِيَاثُه، وظهر نشاطه(٥).

٢٨. الحافظ ابن مهران البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٥هـ) ذكره الحافظ الحاكم وقال: جالسته مرارًا، واشتفينا من المذاكرة، ثم ودعته، فقال: يجمعنا الموسم. ثم حج(٦).

٢٩. المنذر بن عبد الرحمن الأندلسي المرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٣هـ) لُقِّب بالمذاكِرة؛ لأنه كان إذا لقي أحدًا قال له: هل لك في مذاكرة باب من العربية؟!(٧)

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣٠٩/٤).
(٢) الضعفاء لأبي زرعة (٧٦/١).
(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢٥٢/٤).
(٤) أي: متضايق مهموم.
(٥) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٢/٦).
(٦) طبقات علماء الحديث (١٦١/٣).
(٧) نزهة الألباب في الألقاب (١٦٥/٢).

٣٠. سافَر الحافظ الحاكم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٥هـ) من مكة إلى بغداد؛ لمقصد واحد، ألا وهو مذاكرة الحافظ ابن مهران -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٥هـ) يقول: فقام إليَّ، وشكا شَوقه، وشكوتُ مثله، فاشتَفَينا من المذاكرة، وجالستُه مرارًا، ثم ودعته يوم خروجي، فقال: يجمعُنا موسم الحج[١].

٣١. أبو المظفر السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ) تَباحَث مع أحد العلماء في مسألة «البيع الفاسد»، فجرى بينهما تسعة عشر مجلسًا في هذه المسألة[٢].

٣٢. قال ابن العربي المفسِّر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال بعض العِلْماء: إن فيها ألف مسألة. واجتمع أصحابنا بمدينة السلام، فتتبعوها، فبلَّغوها ثمان مئة مسألة، ولم يقدروا أن يُبلغوها الألف، وهذا التتبع إنما يليق بمن يريد تعريف طرق استخراج العلوم من خبايا الزوايا[٣].

٣٣. وقال -أيضًا- عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]: كان بمدينة السلام إمام تكلم يوما على يوسف وأخباره، حتى ذكر تبرئته من مكروهٍ ما نُسب إليه، فقام رجل من آخر مجلسه.. فقال له: يا سيدي، فإذًا يوسف هَمَّ وما تَمَّ. فقال: نعم؛ لأن العناية مِن ثَمَّ!. فانظر إلى حلاوة العالِم والمتعلم! وانظر إلى فطنة العامي في سؤاله، وجواب العالم في اختصاره، واستيفائه[٤].

٣٤. الفقيه الشافعي يحيى بن أبي الخير -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٨هـ) إذا مضى عليه وقت من غير ذكر الله -تعالى-، أو مذاكرة العلم، حَوْقَل واستغفر، وقال: ضيَّعنا الوقت[٥].

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١١٩/٣).
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٩٩/٣٦).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤٧/٢).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤٧/٣).
(٥) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢٩٦/١).

٣٥. المجد ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٣هـ) أورَدَ أحد العلماء عليه نكتة، فقال المجد: الجواب عنها من ستين وجهًا، الأول كذا، والثاني كذا، وسرَدها إلى آخرها. ثم قال للعالِم: قد رضينا منك بإعادة الأجوبة! فخضع وانبهر[١].

٣٦. ومن اللطائف أن كتاب «أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل» لمؤلفه اللغوي المفسر محمد بن أبي بكر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٦هـ) وقد أفصح عن سبب تأليفه بأنه: لِمُذاكرةِ أخٍ في دين الله، وقَّاد الذهن.. فحملتنى فكرته القادحة ونيته الصالحة على جمع هذه الصبابة، وهى تزيد على ألف ومئتي سؤال[٢]

٣٧. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) في رسالته إلى ملك قبرص النصراني: ولما كان أمر الدنيا خسيسًا؛ رأيتُ أن أعظم ما يُهدَى لعظيم قومه المُفاتَحة في العلم والدين، بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله.. وإن رأيتُ من الملِك رغبة في العلم والخير كاتبتُه، وجاوبتُه عن مسائل يسألها[٣].

٣٨. البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) وابن قاضي الجبل -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) تذاكرا ليلةً حتى طلع الفجر، في أحاديث معلَّلة من أول أبواب الفقه، حتى بلغا كتاب النكاح، فقام ابن قاضي الجبل، وقبَّل بين عَيني البُلْقَيني؛ إعجابًا به، وتلذُذًا بما أنجزاه[٤].

وهذا التلذذ شيء عجيب، ولكن الأعجب الذي سيَبهَرُك، هو إذا علمْتَ أن ابن قاضي الجبل أكبر من البُلْقَيني بإحدى وثلاثين سنة! فأي تواضع تتحدث عنه؟! وأي تذوق وتداوُل منهم للعلم بغض النظر عن الأعمار؟!

٣٩. ابن خطيبِ الناصرية -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٣هـ) إذا جلس عنده أحد يذاكره، فإنْ نقله إلى غير العلم أظهر الصَمَم، وعدم السماع، وثقُل عليه ذلك[٥].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٥).
(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل (ص: ١).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٦١٦).
(٤) انظر: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ١٣٩).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥/٣٠٧).

٤٠. قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) عن شيخ له: تَرَافَقنا في سفرة إلى حلب، فعلقت عنه في المذاكرة فوائد[١].

٤١. كان من يصلي بجانب ابن حجر التراويح، يستخبِر منه عن المتشابه في القرآن، حتى لا يخلوَ جلوسه بين الترويحتين من فائدة[٢].

٤٢. قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ): استمر الاتصال بيني وبين السيد القاسم المهدوي، زيادةً على خمس عشرة سنة، قَلَّ أن يَمضيَ يوم من الأيام لا نجتمع فيه، ويجري بيننا مطارحات أدبية في كثير من الأوقات، ومراجعات علمية فى عدة مسائل[٣].

أسهر الليل في مذاكرة العلـ ... م لـذي فِطنة وفهم مصيبِ
وأهجر النوم فيه إلا قليلا ... إنما النوم نصف موت اللبيب[٤]

وبعد: فهذه مجموع سبع وخمسين سيرة منوعة، منها خمس عشرة من أقوالهم، ثم اثنان وأربعون من أفعالهم، وكلهنَّ يجعلنك تُوقِن أن مذاكرة العلم من ألذ ما يُستَلَذ.

ولذلك كانوا يتمنونها، ويحِنُّون لمجالسها، حتى إذا تغربوا أو كبرت سنهم تراهم يتذكرون ما مضى لهم من تلك المجالس العلمية.

تحسراتهم على مجالس المذاكرة:

لقد هاجت الذكرى على أحد النابِهين في العلم، فتذكَّر أياما خواليًا، فعبَّر عنها بقوله: فلقد مضى لي أوقات مُذهَبات، كانت للأتراح مُذهِبات؛ أدرنا فيها كؤوس المذاكرة، وفتَقْنا نوافِج المحاورة، وجاذَبنا أهداب المناقشة، وجُلنا في ميادينها خيل المحادثة، وتذاكرنا غُررًا من أصناف الفوائد، ما لو كنَّ حُلِيًا كانت في نحور الحسان الخرائد، فوا أسفي على ذلك الزمن النضِر![٥].

---

(١) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣/٢٦٦).
(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١/١٧١).
(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/٣٢).
(٤) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٢/٢٢٢).
(٥) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (٥/٣٨).

وآخر ينثر أشواقه قائلًا: ولعمري! مهما نسيت؛ فلا أنسى طيب أيامي في التقاطي أفخر الدر من بحار مذاكرته، فطالما جنيت من محاضرته ثمار فوائد مانسات الأعطاف، وقطفت من مذاكراته أزهار فرائد مستعذبات الجنى والقطاف(١).

وهذا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) لما مات جعل أحد تلاميذه يستذكر أجمل أيامه عنده، ويتوجَّد على مجالسه العلمية الجوينية، فيقول بلسان زملائه: كم من مجلس في التذكير للعوام، مسلسل المسائل، مشحون بالنكت المستنبطة من مسائل الفقه، مشتملة على حقائق الأصول، مبكية في التحذير، مفرحة في التبشير، مختومة بالدعوات، وفنون المناجاة حضرناه، وكم من مَجمع للكبار من الأئمة، وإلقاء المسائل في غَورها رأيناه، ولم نقدُر ما كنا فيه من نضرة أيامه، وزهرة شهوره وأعوامه حق قدره، ولم نشكر الله عليه حق شكره، حتى فقدناه وسُلبناه(٢).

وأما البكاء تحسرًا؛ فقد بلغ ببُندار محمد بن بشار -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٧هـ) حيث قال: ما بكيتُ على أحد من المحدثين ما بكيتُ على أبي داود الطيالسي؛ لِما كان من حفظه، ومعرفته، وحسن مذاكرته(٣).

كما كانت تلك الأشواق والحسرات تعاوِد أهل العلم، كلما وجدوا عزوفًا عن مذاكَرة العلم، وصارت نوادي العلم قَفْرًا مُوحِشًا.

قال العابد الزاهد يوسف بن أسباط -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٥هـ): ما ظنك بزمان؛ مذاكرة العلم فيه معصية؟! قيل: ولِمَ ذاك؟ قال: لأنه لا يجِدُ أهلَه(٤).

وانظر لابن القيم وهو يتحسر ويتعذر، فيقول: الكتاب مفقود، ومن يَفتح باب العلم لمذاكرته معدوم غير موجود، فعُود العلم النافع الكفيلِ بالسعادة قد أصبح

---

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٢/٢١).
(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣/٩٧) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥/١٦٥).
(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٩/٢٨).
(٤) قوت القلوب لأبي طالب المكي(١/٢٧٦).

ذاويًا، وربعه قد أوحش من أهله، وعاد منهم خاليًا.. فليس له معوَّل إلا على الصبر الجميل[١].

أما في أعصُرِنا؛ فكما قال العلامة المعلِّمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٦هـ) بأنه: قد تمر على العالِم شهور، بل سنون، لا يجتمع بعالِم آخر، وربما يكون معدودًا من جيرانه! وإذا جمعَتْهما الجماعة أو الجمعة أو العيد، فقد يرجعان عن المصلى ولم يلتقيا! وإذا التقيا ربما تجنب كل منهما فتح باب المذاكرة، إما رغبة عنها، وإما تخفيفًا منها، وإما أنَفَة، وإما خوفًا من أن تجُرَّ المذاكرة إلى المنازعة!

وقد يتفق لأحد طلبة العلم سفر إلى بلد، فيمكث فيه مدة، ولا تجده يسأل عمَّن به من العلماء، ولا يتعنَّى أن يجتمع بأحد منهم. وهكذا يحج كل سنة جماعة من العلماء، ويرجع كل منهم، ولم يفكر أن يجتمع بأحد من علماء الحرمين، أو العلماء الذين حجوا في ذلك العام. وهذا غَبن فاحشٌ! ولقد كان بعض العلماء يحج، وأعظم بَواعِثهم مع الحج الاجتماع بالعلماء. ولقد كان العالِم يبيع ضَنائنه، وبعض ضرورياته؛ لكي يتزود لسفر بعيد، ليجتمع بعالم آخر، وربما يُعرِّضون أنفسهم للمهالك؛ كل ذلك من شدة لذتهم للعلم[٢].

المذاكرة وحظ النفس وضبطها:

والمذاكرة قد يَشوبها شيء من حظ النفس، والرغبة اللَّحوح في الانتصار الشخصي، فلابد من مراقبة الإخلاص، وزَمِّ النفس بالتجرُّد للحق:

- فقد كان الوزير العالم ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) يكثر من مذاكرة الفقيه المالكي عبد الله الأشيري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦١هـ) وكان قد بحث يومًا معه، فردَّ عليه، وأغضبه بين الجماعة، فقال له الوزير: تَهذي؟! ليس كلامك بصحيح. فمضى الأشيري، ولم يَعُد إلى مجلسه، فندم الوزير، فأرسل إليه، فرفض، ثم ألَحَّ عليه، وقال له:

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٧٠/١).
(٢) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٤١٩/١٥).

لا بد أن تقوم بين الجماعة، وتخاطبني بما خاطبتك به، وحلف على ذلك، فلم يفعل، فألزمه، ففعل، واعتذر الوزير إليه، ووصَلَه(١).

- وقال أبو علي النيسابوري الصايغ -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٩هـ): وردتُ على عبدان الأهوازي، وذاكرته غير مرة، واستقصيت عليه في المذاكرة والمطالبة، فتغير لي(٢).

كما تحتاج المذاكرة لضبط الانفعال، والتحلي بهدوء النفس، فهي فن وذوق وأخلاق:

- فهذا الفقيه الشافعي محمد ابن القطان -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٩هـ) لم تكن له مَلكة في المباحثة؛ لسرعة انحرافه، وغضبه، المؤدي إلى اختلال تصوره، مع وفور ذكائه(٣).

وتحتاج المذاكرة -أيضًا- لطول باع في العلم؛ لأن الرد ينبغي أن يكون حاضرًا، والحجة لابد أن تكون دامغة، والفطنة قوية سريعة.

- فهذا النحوي ابن مالك الأندلسي، صاحب «الألفية» المشهورة في النحو -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ) وصَفُوه بأنه كان لا يَحتمل المباحثة، ولا يثبت للمناقشة؛ لأنه إنما أخذ هذا العلم، بالنظر فيه بخاصة نفسه(٤).

- وكان أحمد الصقلي-رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٨هـ) عالمًا، لكنه يفر من المذاكرة مع الأقران؛ لأنه كان لا يَستحضر(٥).

وأما المُهاتِرون لا المُذاكِرون؛ فلا يخفَون على نبهاء العلماء، فليَعرفُنَّهم في لحن القول!

---

(١) الوافي بالوفيات (١٧/٢٨٩).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٤/٢٧٦).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٩/٢٥٠).
(٤) بغية الوعاة (١/١٣١).
(٥) إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع (٢/٥٩٤).

وهؤلاء يحتاجون تأديبًا؛ للتخلُّق بأخلاق طلبة العلم، فإذا ما اقتحموا هذه العقبة ارعَوَوا، وقد تتنزل عليهم سكينة العلم، وحينَها يُجابون للمذاكرة.

ولذا سئل عالِم سؤالًا دقيقًا، فقال للسائل: وأيش غرضك في هذا؟ فقال: المذاكرة، فقال العالِم: بل المهاتَرة(١).



(١) معجم الأدباء (٦/٢٥١٨).

٥١. لذة المناظرة في العلم:

وجه كون المناظرة لذة، أن فيها إحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل، ونشرًا للعلم بالحجة، وإنقاذًا وهدايةً لأناس ضلُّوا، سواء كانوا معارضين أو مشككين، فإن غلَبَتُهم بالعلم تُضْعِف باطلهم، ثم يميلون للهداية، فيهتدون ويكونون في ميزان حسناتك، كما اهتدى سحرة فرعون، وصاروا في ميزان حسنات نبي الله موسى -عليه السلام -.

والمناظرة تشبه المجادلة التي أمر الله بها في القرآن، فالمجادلة هي المخاصمة بالتي هي أحسن، فيما وقع فيه خلاف بين اثنين. والمناظرة هي ما يقع بين النظيرَين[1].

ومن أنواع المناظرة: أن يكون اثنان أو طائفتان على الحق، لكن أحدهما إلى الحق أقرب، كالمناظرة في المسائل الفقهية. فلا يقع في القلوب كَدَر بعدها؛ لأن المقصد بينهما شريف.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): كانوا كلٌ منهم؛ يجتهد في نصْر قوله، بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الأُلفة، والمحبة، والمُصافاة، والموالاة، من غير أن يُضمر بعضهم لبعض ضِغْنًا.. فهذا الاختلاف؛ أصحابه بين الأجرَين والأجر[2].

ولذا قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): ما ناظرتُ أحدًا وأحببت أن يخطيء إلا صاحب بدعة؛ فإني أحب أن ينكشف أمره للناس)[3].

إذًا فالمقصد إيصال الحق، وقد لا يصل الحق إلا بتبكيت المعاند أو المعادي.

(١) انظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٤٨٨).
(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/٥١٨).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/٢٤٩).

وقال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وتنفع في المناظرة؛ لقطع المعاند، وتبكيت الجاحد[١].

وأثرها في العدو أقوى -أحيانًا- من أثر المقاتلة المحسوسة.

قال القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧١هـ): النِّكاية في العدو بالبرهان واللسان، أوقع من نكاية السيف والسِّنان[٢].

والمناظرة تحتاج إلى تجرُّد، وتصحيح للنية، وحراسة مقاصد، بألا يخطفها الشيطان، لئلا تكون انتصارًا للنفس.

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): ناظرتُ رجلًا من أصحابنا في مسألة، فعَلَوْتُه فيها؛ لِبُكُوءٍ[٣] كان في لسانه، وانفصل المجلس على أني ظاهِرٌ، فلما أتيت منزلي حاكَ في نفسي منها شيء، فتطلَّبتُها في بعض الكتب، فوجدت برهانًا صحيحًا يبين بطلان قولي، وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا، ممن شهد ذلك المجلس، فعرَّفته بذلك، ثم رآني قد علَّمت على المكان من الكتاب، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أريدُ حمل هذا الكتاب، وعرضه على فلان، وإعلامَه بأنه المحِق، وأني كنت المبطِل، وأني راجع إلى قوله. فهجم عليه من ذلك أمر مُبهِت، وقال لي: وتسمح نفسك بهذا؟! فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخَّرته إلى غد!.

يقول ابن حزم تعليقًا: واعلم أن مثل هذا الفعل يُكسبك أجمل الذكر، مع تحلِّيك بالإنصاف الذي لا شيء يعدله. ولا يكن غرضك أن توهم نفسك أنك غالب، أو توهم من حضرك ممن يغتر بك ويثق بحكمك أنك غالب، وأنت بالحقيقة مغلوب[٤].

قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): أنا أرى أن الرجل إذا خالفَكَ بمقتضى الدليل عنده، لا بمقتضى العِنادِ أنه ينبغي أن تزداد محبةً له؛ لأن الذي يخالفُكَ

---

(١) الرد على المنطقيين (ص: ٣٢٩).
(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (ص: ٤٦).
(٣) أي: بطء وتأخر في كلامه. انظر: كتاب الأفعال لابن القوطية (ص: ٢٨٢).
(٤) التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية (ص: ١٩٤).

بمقتضَى الدليل لم يُصانعْك ولم يُحابِك، بل صار صريحًا مثلما أنك صريحٌ، أما الرجل المعانِدُ فإنه لم يُرِد الحق(١).

ومن علامة سلامتها من انتصار النفس: ألا تنقلب إلى عِداء شخصي، وهجران، وتصفية حقوق، بل إلى تصافُح وتصافٍ للقلوب إذا كانت مع باحث عن الحق لم يُصِبْه.

وقد ناظَر رجلٌ الشافعيّ يوما في مسألة، فافترقا. ولقيَه فأخذ بيده وقال له: ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتّفق في مسألة؟!(٢)

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى-: ناظَر الإمام أحمد أقوامًا من أهل السنة في «مسألة الشهادة للعشرة بالجنة» حتى آلَتِ المناظرة إلى ارتفاع الأصوات، وكان أحمد وغيره يرَون الشهادة، ولم يَهجروا من امتنع من الشهادة(٣).

ومن اللذات المغفول عنها للمُناظِر، ولحاضِر المُناظِر: تحصيل وتدوين ما جرى في المناظرة من المباحَثات النفيسة، والحجج المتينة، والإشكالات الشائكة.

قال ابن العربي المفسِّر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وردَ علينا بالمسجد الأقصى فقيهٌ من عظماء أصحاب أبي حنيفة، يعرف بالزَّوزَني..وجرت في ذلك مناظرة عظيمة، حصَّلنا منها فوائد جمَّة، أثبتناها في «نزهة الناظر»(٤).

وقال ابن تيمية بعد مناظرته عن رسالته «العقيدة الواسطية»: وقف على حكاية هذه المناظرة أحد الفضلاء المبرِّزين، والنبلاء المتبحرين، ومن تتبين الفوائد بمذاكرته، وتستفاد المقاصد بمناظرته، فعلق عليها من الأسْوِلة ما التَمس حلَّها، ومن المَباحِث ما اقتضى فرعَها وأصلَها(٥)

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٨٠/٢٦).
(٢) انظر: المقفى الكبير (١٨٥/٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٥٠٢/٦).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٩٠/١).
(٥) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة الخامسة (ص: ٦٢).

هل المناظرات محمودة أم مذمومة:

تختلف أحكام وآثار المناظرات، بحسب أمرين: قوة الحجة والمُحاجّ، وبحسب خلوص النية.

قال الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) لتلميذ له: لا تُعلِّق كثيرًا مما تسمع مني في مجالس الجدل؛ فإن الكلام يجري فيها على خَتْل الخصم، ومغالطته، ودفعه، ومغالبته، فلسنا نتكلم لوجه الله خالصًا، ولو أردنا ذلك لكان خَطْوُنا إلى الصمت أسرعَ من تطاوُلنا في الكلام، وإن كنا في كثير من هذا نَبُوء بغضب الله -تعالى-، فإنا مع ذلك نطمع في سعة رحمة الله.

فعلق السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) على كلامه معتذرًا فقال: وهو طمع قريب، فإن ما يقع في المغالطات والمغالبات في مجالس النظر، يحصل به من تعليم إقامة الحجة، ونشر العلم، وبعث الهمم على طلبه؛ ما يَعظم في نظر أهل الحق، ويقِلُّ عنده قلة الخُلوص، وتعود بركة فائدته وانتشارها على عدم الخلوص، فقَرُب من الإخلاص -إن شاء الله تعالى-.(١)

قال ابن تيمية: جنس المناظرة والمجادلة، فيها محمود ومذموم، ومفسدة ومصلحة، وحق وباطل.. وقد يَنْهَون عن المجادلة والمناظرة، إذا كان المُناظِر ضعيف العلم بالحجة، وجواب الشبهة.. كما يُنهَى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل عِلْجًا قويًا من عُلوج الكفار؛ فإن ذلك يضره، ويضر المسلمين بلا منفعة(٢).

وخذ مثالًا على المناظرة الضعيفة بهذه القصة التالية:

أحد تلاميذ محمد بن سحنون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) دخل حمامًا بمصر، وكان يتولاه رجل يهودي، فتَناظَر معه التلميذ، فغلبه اليهودي. فلما حج ابن سحنون صحِبه التلميذ، فلما دخل مصر أنشب الرجلُ المناظرةَ مع اليهودي، حتى حانت صلاة

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/٦٢).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/١٧٤).

الظهر، ثم رجع معه الى المناظرة حتى كانت العصر، ثم إلى المغرب، ثم إلى العشاء، ثم إلى الفجر، وقد اجتمع الناس وشاع الخبر بمصر: أن الفقيه المغربي يُناظِر اليهودي! فلما كانت صلاة الفجر انقطع اليهودي، وتبين له الحق وأسلم. فكبّر الناس، وعلَتْ أصواتهم. فخرج محمد وهو يمسح العرق عن وجهه، وقال لصاحبه: لا جزاك الله خيرًا! كاد أن يجريَ على يديك فتنة عظيمة! تُناظِر يهوديًا، وأنت بضعف؟! فإن ظهر عليك اليهودي لضعفك، افتُتن مَن قدَّر الله فتنتَه[1].

أما المناظرة في العلم خصوصًا؛ فصاحبها منتفع بكل الأحوال.

قال ابن القيم: فالمناظرة في العلم نوعان؛ أحدهما: للتمرين والتدرب على إقامة الحجج، ودفع الشبهات. والثاني لنصر الحق، وكسر الباطل. والأول يشبه السباق والنِّضال. والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار[2].

وقال ابن تيمية: وأما المناظرة المذمومة من العالِم بالحق، فأن يكون قصده مجرد الظلم والعدوان لمن يناظره، ومجرد إظهار علمه وبيانه؛ لإرادة العلو في الأرض[3].

إذًا؛ فخلاصة هذه النقول الخمسة السالفة تتمثل بخمس وصايا:

- تُذم المناظرة من ضعيفِ علم أو ضعيف حجة، وتذم من مُعتدٍ ومُتباهٍ مُتعالٍ.
- وتُمدح للتدرب، أو لنصر الحق من عالِمٍ، قوي الحجة، متجرِّدِ النية.
- وصاحب الحق ينتصر بسداد نيته وقوله وفعله، فـ«الصَّوابَ مع الأسَدِ، لا مع الأشَدِّ»[4].
- وأن المناظِر يحتاج لمجاهدة نيته، ومراجعة مقصده، ونبذ حظ نفسه بانتصارها فحسب.
- ويوصَى المناظِر بالحق أن يأخذ بوصية الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) حينما سئل للشافعي: مَن أقدرُ الفقهاء على المناظرة؟ فقال: من

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/٢١٥).
(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/١٢٧٥) والفروسية (ص: ١٨٥).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/١٦٨).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/١٠٣١).

عوَّدَ لسانه الركض في ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ[١].

وإليك ثلاثين مناظرة، جرت من الأئمة الأعلام، مع المعاندين أو المعادين.

المناظرات المَهيبة ابن تيمية:

هذا الإمام المَهيب؛ يقول عنه مترجِموه: لا يُعرف أنه نَاظَر أحدًا، فانقطع معه[٢].

حتى إنه من شَغَفه بالمناظرات، وقوة سلطانه، لَيقول عن نفسه: وعندي من الرغبة في طلب العلم..ما أوجبَ أني كنت أرى في منامي ابن سينا وأنا أناظره[٣].

وإليك ثلاثَ عشرة مناظَرة له، مع المارِقين والمبتدعين، وانظرها من مَراجعها:

١. مناظرته مع فرقة البَطائحية في أحوالهم الشيطانية[٤].

٢. مناظرته مع الفلاسفة في «مسألة حدوث العالَم»[٥]

٣. مناظرته مع كثير من نفاة الرؤية ومحرفيها، من شيعي ومعتزلي وغيرهما[٦].

٤. مناظرته مع رُؤَسَاء المنجِّمين الْكُهَّان[٧]

٥. مناظرته مع الذين آذوه بعد كتابته للعقيدة الواسطية[٨].

النتيجة: أسكتَهم، حتى إنه لَيقول: قد قلتُ لهم غيرَ مرة: أنا أُمْهِلُ من يُخالفني ثلاث سنين، إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة، يُخالف ما قلته، فأنا أقرُّ بذلك[٩]. ويقول: وقد علموا أنهم عند المُحاقَّة مقهورون متهوِّكون[١٠].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١٠/٥١).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٣).

(٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢٦٣/٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٦١/١١).

(٥) المصدر السابق (٥٩٢/١٢).

(٦) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (ص: ٤٧٦) ومنهاج السنة النبوية (٣٤٩/٢).

(٧) مختصر الفتاوى المصرية (ص: ١٥١).

(٨) انظر بسط ماجِريات المناظرة في قرابة سبعين صفحة، كما في مجموع الفتاوى (٣/٦٠ - ٢٢٩) وجامع المسائل - ج. الثامنة (ص١٨١ - ١٩٨).

(٩) مجموع الفتاوى (٢٢٩/٣).

(١٠) المصدر السابق (٢٤٣/٣). والمتهوِّك: الأحمق.

٦. مناظرته مع رأس من رؤوس المتعاملين بالكيمياء.

النتيجة: لما ظهرتُ عليه الحجة أخذ يَستعفي عن المناظرة، ويَذكر أنه منقطِع بالجدال[١].

٧. مناظرته مع طوائف الصوفية أصحاب المكاشَفات والأحوال[٢].

٨. مناظرته مع معظَّمي النصارى من الرهبان[٣].

٩. مناظرته مع القدرية في مسألة القدر[٤].

١٠. مناظرته مع بعض النصارى في مسألة تعذيب الروح[٥].

١١. مناظرته مع الرافضة في مسألة خلافة أبي بكر[٦] رضي الله عنه.

١٢. مناظرته مع أهل عقيدة وحدة الوجود[٧].

١٣. مناظرته مع نُفاة الجهة والمكان.

النتيجة: يقول: ولقد خاطبتُ بهذا طوائف، مع ذكائِهم، وصحة فطرتهم، فلم يكن فيهم مَن يَتصور ذلك، أو يَعقله[٨].

وأما تلميذه ابن القيم؛ فإليك ثلاث مناظرات له:

١٤. جرت له مناظرة مع أكبر مَن تشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة.

النتيجة: فأمسك، ولم يحِر جوابًا[٩].

١٥. مناظرته مع أحد أكابر متعصبة المذاهب.

النتيجة: وضع إصبعه على فيه، وبقيَ باهِتًا متحيرًا، وما نطق بكلمة[١٠].

---

(١) المصدر السابق (٣٧٥/٢٩).

(٢) المصدر السابق (٢٤٣/١١) والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: ١١٥).

(٣) المصدر السابق (٤٦١/٢٧).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٢٥١/٥).

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٣٢٨/٣).

(٦) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥٠٠/٦).

(٧) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣٥٩/٢).

(٨) المصدر السابق (٢١/٥).

(٩) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٣٨٥/٢).

(١٠) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣٦٦/٢).

١٦. مناظرته مع بعض علماء أهل الكتاب في مَسَبَّة النصارى لرب العالمين.

النتيجة: قال: فلم يحِرْ جوابًا[١].

مناظرات متنوعة لأئمة الإسلام، ومقارعتهم لأرباب الضلال:

١٧. مناظرة ربيعة بن أبي عبد الرحمن -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦هـ) لغَيلان، حين قال له غيلان: نشدتُك الله؛ أتَرى الله يحب أن يُعصَى؟ فقال: نشدتُك الله! أترى الله يُعصَى قَسرًا؟! يعني: قهرًا.

النتيجة: كأنما ألقَمَه حجرًا[٢].

١٨. المناظرة الحاسمة المباغتة من الأوزاعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٧هـ) في مسائل في القدَر، لمبتدع مغرور متعالِم، بمشهد من الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد كان التحدي مصيريًا، فإن خصم الأوزاعي قال واثقًا: إن هو غلَبني بالحجة فاضرب عنقي!

النتيجة: ضُربَتْ عنق الرجل من بعد الحُجة الثالثة! وقد بقيتْ حجةٌ رابعة، ألقاها الأوزاعي لهشام بعد ضرب عنق الرجل![٣].

١٩. مناظرة عبد العزيز الكناني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٠هـ) لبشر المريسي، بحضرة المأمون. وقد أثبتها الكناني في كتابه: «الحَيْدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن».

النتيجة: فَسُرَّ المسلمون جميعًا بما وهبه الله لهم من إظهار الحق، وقمع الباطل[٤].

٢٠. ناظَرَ الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) أقوامًا من أهل السنة في «مسألة الشهادة للعشرة بالجنة»[٥].

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١/٣٢٧ - ٢٢٩).
(٢) المصدر السابق (١٨/١٤٠).
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/٧٩٤).
(٤) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن (ص: ١٣).
(٥) سبق بيانها قبل سطور. انظر: مجموع الفتاوى (٦/٥٠٢).

٢١. مناظرة الإمام أحمد، في محنة القول بخلق القرآن، وقد مرت أطوارها على أربعة من خلفاء الدولة العباسية، وعلى مدى تسع عشرة سنة (٢١٨ - ٢٣٧هـ).

النتيجة: انتصر الحق، وظهرت السنة على يد إمام السنة[١].

٢٢. مناظرة الإمام الدارمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٠هـ) لبشر المريسي[٢].

٢٣. المناظرة العجيبة بين القاضي الباقلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٣هـ) مع النصارى بالقسطنطينية.

النتيجة: فأُبهِت النصارى[٣].

٢٤. قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): ومما عرف بالتجربة، أن مَن باهَل وكان مبطلًا، لا تمضي عليه سنة من يوم المباهَلة. وقد جرى بين ابن حجر وبعض المحبّين لابن عربي منازعة كثيرة في أمرِ ابن عربي، فهدَّده الرَّجُلِ المنازِع له بأن يُغْرِيَ به السُّلطان. فقال له ابن حجر: ما للسُّلطان في هذا مدخَلٌ، لكن تعالَ نتباهَل، فقلَّما تباهَلَ اثنان، فكان أحدهما كاذبًا إلا وأصيب، فأجاب لذلك: وعلَّمه ابن حجر أن يقول: اللّٰهُمَّ إن كان ابنُ عربي على ضلال، فالعَنّي بلَعْنَتِكَ، فقال ذلك: وقال ابن حجر: اللَّهُمَّ إنْ كان ابنُ عربيٍّ على هُدى، فالْعنّي بلعنتك، وافترقا.

٢٥. مفتي القدس محمد بن الطيب التافلاتي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩١هـ) ناظرَتْه رهبان النصارى مناظرة واسعة، يوم كان عمره تسع عشرة سنة. وكانت مدة المناظرة ثمانية أيام.

النتيجة: أخرسَهم الله وأكبَتهم، ووقعوا في حَيص بَيص، وأُلجِموا بلجام الإلزام[٤]

٢٦. مناظرة بين الشيخ أحمد بن عيسى -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٧هـ) -وهو شارح نونية ابن القيم- جرت بينه وبين أشعريٍ تاجرٍ من جدة، واسمه إسماعيل التلمساني،

(١) المصدر السابق (١٥٩/١٧).
(٢) رد الإمام الدارمي على بشر المريسي (ص٢٢).
(٣) منهاج السنة النبوية (٥٦/٢).
(٤) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١٠٣/٤).

وكانت المناظرة حول عقيدة المجدد محمد بن عبد الوهاب. وقد دامت المناظرة خمسة عشر يومًا.

النتيجة: اقتنع التلمساني -رحمه الله تعالى-، وصار من دعاة العقيدة السلفية، وطَبع على نفقته كتبًا كثيرة، ووزعها مجانًا[١].

النتيجة: ما مضى شهران إلَّا وقد عَمِيَ، وما أصبح إلا ميتًا[٢].

٢٧. قال العلامة صدِّيق حسن خان -رحمه الله تعالى- **(ت ١٣٠٧هـ): أردت المباهلة** في باب صفات الله -تعالى- مع بعضهم.

النتيجة: لم يَقُم المخالف غير شهرين، حتى مات[٣].

٢٨. العلامة الهندي ثناء الله الأَمْر تُسُرِّي -رحمه الله تعالى- **(ت ١٣٦٧هـ)** صاحب المصنفات والمناظرات للوثنيين والنصارى والمبتدعين، وأشهرها مناظراته لمدعي النبوة غلام أحمد القادياني، ومباهلتهما على أن الكذاب منهما في دعوته يموت قبل الآخر.

النتيجة: اندحر القادياني، ومات في الكنيف شر مِيتة! وبقي «ثناء الله» أربعين سنة حيًّا، قائما على المبطلين يناظرهم، ويكسر شوكتهم[٤].

٢٩. قال الألباني -رحمه الله تعالى- **(ت ١٤٢٠هـ)**: جرى بيني وبين بعض أتباع القادياني مناظرة شفهية، في جلسات تبلغ العشر، **كان نتيجتها** أن انسحب منها مذمومًا مدحورًا. وانهزموا شر هزيمة، بعد أن امتنعوا امتناعًا باتًا من المناظرة الشفهية[٥].

٣٠. وقال الألباني: ناظرتُ شيخًا متخرجًا من الأزهر، في مسألة لا أذكرها الآن، فاحتدَّ في أثنائها، فأنكرت عليه حِدَّته، فاحتج علَيَّ بحديث: «**خيار أمتي أحِدَّاؤهم،**

---

(١) مشاهير علماء نجد وغيرهم(٢/٧٨).

(٢) الجواهر والدرر للسخاوي (٣/١٠٠١) وفتح الباري لابن حجر (٨/٩٥) وذكر المناظرةَ تلميذه البقاعي في مصرع التصوف (١/١٥٠).

(٣) عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري (٤/٥٦٢).

(٤) مجلة المنار (٣٣/٦٣٩) والأعلام للزركلي (٢/١٠١).

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٢٥٢) وأصل صفة صلاة النبي ﷺ (٣/١٠٠٥) كلاهما للألباني.

الذين إذا غضبوا رجعوا»[١]. فأخبرته بأنه ضعيف، فازداد حِدة، وافتخر علَيَّ بشهاداته الأزهرية، وطالَبني بالشهادة التي تؤهِّلني لأن أنكر عليه! فقلت: قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا..**» الحديث! رواه مسلم[٢].

فهذه ثلاثون مناظرة متنوعةً، متسلسلة عبر القرون، وتَكمُن لذّاتُها في نصر الحق، وإزهاق الباطل، وزوال اللَّبس، وظهور سلطان العلم، وفرح العالِم بأن كان ظهور الحق على يده، ثم تمكُّنه بعد النصر من النشر، ومن آثارها اشتهارُه وزيادة أعداد طلابه، لا تكثُّرًا، ولا فخرًا! حاشا وكلا! بل انتفاعًا وارتفاعًا.



(١) قال عنه الذهبي: خبر باطل. وأقره العسقلاني. وكذا قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠٣/١). ورواه العقيلي في «الضعفاء».
(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١٠٤/١).

الباب العاشر
لذة حِفظ العلم

٥٢. لذة حفظ العلم وترديده

العلم الباقي هو حصيلة محفوظاتك. ومن منتخب كلام العرب قولهم: حرْفٌ في تَامُورِكَ خير من أَلْفٍ في وِعائك[١].

وقالوا -أيضًا-: مسألة تَدْرِيها خيرٌ من ألف تَرْوِيها[٢].

والحفظ كما أن فيه لذةً؛ فإنه موهبة تُكتَسب، وتتزايد بفضل الوهاب -سبحانه-. والعلماء درجات في ذلك. وسيأتيك بعض نبأ نوادر الحفاظ.

وهذه الملَكة الهائلة تمتاز بها أمة محمد ﷺ فهي أمة الحفظ عبر القرون، وليسوا كأمة اليهود، الذين لم يحفظ علماؤها حتى التوراة، وإنما عرفوه واستظهروه ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): كل من استقرأَ أَحوال العالم، وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلًا، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال، أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال[٣].

ولكن لا يغِبْ عن بالك؛ أن حُفاظ تلك الأزمان الزاهرة ليسوا كحُفاظ أزماننا الحاضرة.

قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ): وأين من أضنَى عمره في الرحلة والفن خاصة، وسمع من أربعة آلاف شيخ.. وسمع في أكثر من مئة مدينة.. إلى من لم يسمع إلا ببغداد، ولا روى إلا عن بضعة وثمانين نفسًا؟! فأنت لا ينبغي أن يطلق عليك اسمة الحفظ باعتبار اصطلاحنا، بل باعتبار أنك ذو قوة حافظة، وعلم واسع، وفنون كثيرة، واطلاع عظيم. فغفر الله لنا ولك[٤].

---

(١) المنتخب من كلام العرب (ص: ٥٢) القلب يقال له: التَّامُورُ.

(٢) حديث السلفي عن الأبهريين (ص: ٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٤).

(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٠٧/٣٧).

وقد كان العلم في الصدر الأول خزائنه الصدور، ولم تكن كتب، وصار في آخر الزمان أكثره في الكتب، وأقله في الصدور[١].

أين محل حلول العلم؟

قال ابن فارس -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٥هـ): إن للعلم محلَّين: أحدهما: القلوب الواعية الحافظة. والآخر: الكتب المدوَّنة[٢].

والمتلذذ حقًا، ليس هو الذي يبتلع مئات الكتب قراءةً فحسب؛ بل هو الذي اختزن العلم في ذاكرته، ولم يكتفِ بمجرد الفهم، بل أضاف إليه حفظ الأصول؛ ليضمن الوصول.

العلم في القلب ليس العلم في الكتب ... فلا تكن مغرمًا باللهو واللعبِ
فاحفظه وافهمه واعلم كي تفوز به ... فالعلم لا يجتنى إلا مع التعبِ[٣]

قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) أراد بعض الناس أن يمكروا بنا، قالوا لنا: إن الحفظ لا فائدة فيه، وإن المعنى هو الأصل. ولكن الحمد لله أنه أنقذنا من هذه الفكرة، وحفظنا ما شاء الله أن نحفظ، من متون النحو، وأصول الفقه، والتوحيد[٤].

فإذا تقادَم عمرك عادت إليك لذة حفظك، فأي لذة أعظم من علم ثبت في ذهنك عقودًا؟!

وليس بغريب أن لذة الحفظ تُنسِي صاحبها نفسه، وتُذهِله عما بيده.

ومن الطرائف أنه قد وُضع طستٌ لوضوء ابن شهاب الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ)، فتذكر حديثًا، فجعل يردِّده، ولم تزل يده في الطست، حتى طلع الفجر[٥].

---

(١) انظر: النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات (٨/١).
(٢) مأخذ العلم لابن فارس(ص: ٢٨).
(٣) الوافي بالوفيات (٢٠٢/٣).
(٤) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١١١).
(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٦٦/٢).

فكيف لا يكون بهذه اللذة الجليلة، وجامعه في ذهنه قد تعب وتعانَى في تحصيله؟!

وكيف لا يجد حلاوة أجره، وهو قد أمضَّ جسده، وأضنَى عمره في جمعه؟! فسيردده كأعذب قصيدة، ويحوطه كأغلى كنز، ويتعاهده حتى لا يفرَّ من ذهنه ويتبدد.

وحُقَّ للدارَ قطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) أن يفخر ويتمطَّق[1] حينما جمع أحاديث في الوضوء من مس الذكر، حتى يقول: لو كان أحمد بن حنبل حاضرًا لاستفاد هذه الأحاديث[2].

وهذا ابن منتيل السرقسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٥هـ) كان يحفظ «التلقين» في المذهب المالكي، للقاضي أبي محمد عبد الوهاب، ويَشْغُف به، وكان ينشد:

سأقطع نفسي عن علائق جمةٍ ... وأُشغل بـ«التلقين» نفسي وباليا
وأجعله أُنسي وشُغلي وهِمتي ... وموضع سري والحبيب المناجيا[3]

إن هؤلاء الحَفظة لَيَلتَهِمون العلم في صدورهم، فيَفُوقون العابدين في محاريبهم.

قال قتادة السَّدوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧هـ): باب من العلم يَحفظه الرجل؛ لصلاح نفسه، وصلاح مَن بعده أفضل من عبادة حَول[4].

ومن أغرب وأعجب الأقوال في وَلَعهم بالحفظ: أنه قيل للإمام عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ): أيما أحب إليك، يغفر لك ذنبًا، أو تحفظ حديثًا؟ قال: أحفظ حديثًا![5]. ولعل مقصوده أن العلم الشرعي كفارة للذنوب، ورفعة للدرجات.

لكن ليُعلم أن الحفظ وحده ليس بكافٍ أهله، وإنما الكمال في الحفظ والفهم، والمدارك والهمم تتفاوت: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) تمطّقَ الرجل كأنه يتطعّم شيئًا.فَتسمع له صوتًا. قال الأعشى:.. إذا ذاقها من ذاقها يتمطَّقُ. انظر: جمهرة اللغة (٢/٩٢٤).

(٢) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٢/٣٧).

(٣) الغنية في شيوخ القاضي عياض (ص: ١٦٧).

(٤) مسند ابن الجعد المتوفى ٢٣٠هـ(ص: ١٦٣).

(٥) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٧٧).

وانظر إلى أبي القاسم السهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) - لما شاهد من كثرة حفظ قرينه ابن الفخار- قال: كيف أُسُودُ مع هذا؟! يقول: فرزقني الله من الفقه ما قصُر عنه وسواه، والحمد لله على ذلك كثيرًا(١).

وإنما النقص الظاهر بطالب العلم أن يحفظ دون أن يفهم.

ومن طرائف ما يُروى في هذا الباب واقعتان غريبتان:

الأولى: قال عنها نجم الدين الغَزي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦١هـ): كان بعض الطلبة بمصر يقال له: «حمار الروضة»؛ لأنه يحفظ كتاب «الروضة» عن ظهر قلب، ولا يكاد يفهم مسائلها، فإذا احتاج الطلبة محلًّا منها وهو حاضر قيل له: اقرأ من موضع كذا، ومن باب كذا، فيقرأ حتى يقال له: قف. فيقطع القراءة(٢).

الثانية: ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٦هـ) حيث قال: رجل يسمى عندنا «حمار الفروع»؛ لأنه يحفظ «الفروع» ولا يفهمه، وقد قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥](٣).

ولكن ليُعلم أن الفهم يتنامى مع الحفظ، بل كلما كثر الحفظ زاد العلم والفهم، فالمعادلة طردية أغلبية.

ولذا قال الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): إن الرجل ليطلب وقلبه شِعْب من الشعاب، ثم لا يلبث أن يصير واديًا، ولا يوضع فيه شيء إلا الْتَهمه(٤).

قال الحافظ المِزّيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ) عن الحافظ عبد الغني المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ): لعلّ المتون التي يحفظها أكثر من التي لا يحفظها(٥).

وهذا العلامة ابن المرحل العثماني (ت ٧١٦هـ) حفِظ كتبًا كثيرة؛ حتى إنه إذا وضع بعضها على بعض كانت طول قامته. وقد حفظ «ديوان المتنبي» في جُمعة(٦).

---

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٩٧/٤).
(٢) حسن التنبه لما ورد في التشبه (٤٥٩/١٠).
(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢٢/١٣).
(٤) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٧١).
(٥) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٩٢/١).
(٦) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢٣٣/٢) والدارس في تاريخ المدارس (٢٢/١) والبدر الطالع للشوكاني (٢٣٤/٢).

والحافظ ينتفع بذاكرته عند ضعف أو تعطُّل حاسة البصر، وغير الحافظ يفقد علما كثيرًا إذا ضعف بصره أو فَقَدَه.

وانظر للحافظ شمس الدين البابلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٧هـ) حصل له قبل موته بثلاثين سنة عارض في عينيه أذهب بصره، وكان إذا قرأ له أحد، وتوقف القارئ في محل سابَقَه بالفتح عليه، حتى كأنه يحفظ ذلك الكتاب عن ظهر قلب[١].

وقد يعترض للذهن من أقدار الله ما يُفقد الحافظَ محفوظاته، ويفقد موهبته، وهذه مصيبة شديدة. وقد يعوضه الله بعودة بعض حافظته، لكن بعد زمان، وقد لا تعود له.

فهذا اللغوي عبد الملك بن طريف -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ) كان ذا حظ من الحفظ عظيم، لا يكاد يمر على سمعِه شيء يحتاج إلى استعادته، ولكنه ركب البحر، فمر به فيه هول شديد، أنساه أكثر ما كان يحفظ، وأخلَّ بقوة حفظه إخلالًا شديدًا، لم يُعاوِده ذلك الذكاء بعدُ.

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) تعليقًا: وأنا أصابتني علة، فأفقتُ منها وقد ذهب ما كنت أحفظ، إلا ما لا قُدِّر له، فما عاودتُه إلا بعد أعوام، واعلم أن كثيرًا من أهل الحرص على العلم، يجِدُّون بالقراءة والإكباب على الدروس والطلب، ثم لا يُرزقون منه حظًّا، فليعلم ذو العلم، أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه، فصحَّ أنه موهبة من الله -تعالى-، فأي مكان للعُجب ها هنا؟! ما هذا إلا موضع تواضع، وشكر لله -تعالى-، واستزادة من نِعمه، واستعاذة من سَلْبها..فاجعل مكان العُجب استنقاصًا[٢].

والحافظ يبني طلابه على أساس من الحفظ متين:

فهذا أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه، معظمهم يستظهر «المدونة»[٣].

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٤١).
(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ٦٨).
(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/٣١٤).

وكان دأبهم التكرار حتى تفنى الأعمار، والتكرار وليس شيء غير التكرار.

- قال الحسن بن ذي النون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٥هـ): الشيء إذا لم يُعَدْ سبعين مرة لا يَستقر(١).
- سئل شيخ الحنفية العلامة بكر البخاري الزرنجري -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٢هـ) عن مسألة فقال: هذه المسألة أعدْتُها في حصن بخارى أربع مئة مرة(٢).
- أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) كان يعيد الدروس بعدما يُحضِّرها مئة مرة(٣).

ومن طرقهم في ترديد المحفوظ إسماعه لأهل البيت، ولو لمن لا يعقله.

ومن الطرائف أن ابن شهاب الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): كان يسمع العلم من عروة، فيأتي إلى جارية له وهي نائمة، فيوقظها فيقول: اسمعي؛ حدثني فلان كذا، وفلان كذا، فتقول: مالي وما لهذا الحديث! فيقول: قد علمتُ أنك لا تنتفعين به، ولكن سمعته الآن، فأردتُ أن أستذكره(٤).

ومن طرقهم في ترسيخ الحفظ: المشي مع التكرار الكثير.

قال شيخ الشافعية إلكيا الهراسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٤هـ): كانت المدرسة لها سبعون درجة، وكنتُ إذا حفظتُ الدرس أنزل وأعيده في كل درجة؛ مرة في الصعود، ومرة في النزول(٥).

---

(١) لسان الميزان (٢/٢٠٥).
(٢) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٦١).
(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٩/٣٧٧).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٦٨).
(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٧/٢٣٢).

والعلامةِ المتفنن ضياء الدين القِرْمي العفيفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٨هـ) لازَمَ الاشتغال والإفادة؛ حتى في حال مشيه وركوبه، وحفظ «الكشاف» و«الحاوي»[١].

والأمَد في مراجعة المحفوظ إن طال طار لامحالة، ولو كان كثيرًا.

وهذا التابعي الكبير، أمير المؤمنين في الحديث؛ عامر الشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ) يقول: لقد نسيتُ من العلم؛ ما لو حفِظه أحد لكان به عالمًا[٢].

وكذا قال الحافظ سراج الدين البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ): نسيت من العلم؛ بسبب القضاء، والأسفار العارضة، ما لو حفِظه شخص لصار عالما كبيرًا[٣].

والحفظ يحتاج لياقة ذهنية، فلابد من تعويد تدريجي، وتدريب يومي:

قال الفيروز آبادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ) عن نفسه: ما كنتُ أنام حتى أحفظَ مئتي سطر[٤].

وكان سليمان الياسوفي المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٩هـ) يتوقد ذكاءً، حفظ «مختصر ابن الحاجب» في كل يوم مئتا سطر.

وهذا محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) قال ابنه لما ترجَمَ له: سمعته -رحمه الله- صبيحة يوم كان قد سهر ليلتها. يقول: كنت أريد أن أشغل نفسي عما كان يسهرني، فتذكرت ما يَعْلَق بحفظي من الأشعار، فبلغ كذا ألف بيت[٥].

وبكلٍ؛ فإن الحفظ كما أن له لذة إذا ضُبط، فإن له معاناة ومعايَاة إذا تُرك وأُهمل.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): النفس تهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار؛ لأن ذلك أشهى وأخلَفَ عليها. وقال: ما رأيت أصعب

---

(١) بغية الوعاة (١٣/٢).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥١/٢٥).
(٣) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٨٧/٤) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١١/٤).
(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٤٢٥/٢ - ٤٣١).
(٥) التدوين في أخبار قزوين (٣٣٥/١).

على النفس من الحفظ للعلم والتكرار له. وخصوصًا تكرار ما ليس لها في تكراره وحفظه حظ، مثل مسائل الفقه..فإنه يلْتذُّ بالجِدَة، ويستريح من تعب الإعادة(١).

يلوم على أن رُحت في العلم طالبًا ... أجـمِّـع مـن عند الـرجـال فنونهُ
وأملك أبكار الكلام وعُونه ... وأحـفـظ مـمـا أسـتـفـيـد عـيـونـهُ
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يُحسنونهُ(٢)

إسراجَتان

الأولى:

تنويرًا لما سبق آنفًا؛ أن الحفظ موهبة تزداد وتزدان بالتدرب، والمِران الذهني.

وهناك نوادر يكونون مواهب خارقة، فالحفظ عليهم كشرب الماء، فإن وجدوا من يرعاهم كانوا نوابغ في الأمة، وإلا صاروا من سَقَط المتاع. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾ [القصص: ٦٨].

وثَمَّت علماء وأذكياء فُتح لهم في الفهم باب واسع، ولكن قد أعياهم الحفظ، فلم يُفتح لهم فيه باب، وربك هو الفتاح الوهاب.

وقد ذَكروا في سيرة جلال الدين المحلّي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٤هـ) أنه كان يقول: أنا فهْمِي لا يقبل الخطأ! لكنه لم يكن يَقدر على الحفظ، وحفِظ كُراسًا من بعض الكتب، فامتلأ بدنه حرارة؛ من شدة ما عانَى(٣).

الثانية:

ثمت عبارتان متقابلتان، تتكرران في كتب تراجم رجال الحديث، والعبارتان هما: «كان لا يحدِّث إلا من كتابه» أو «كان يحدِّث من حِفظه».

والسؤال: هل هما صفتان للمدح، أم للذم؟!

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٢١٩ و١٩٨).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٤١٧).
(٣) بتصرف من: سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٣/٨٨).

والجواب: أن الأولى للمدح، والثانية للاعتذار غالبًا، ولذلك يُردِفونها بمثل قول: «ولذلك كثر خطؤه».

وقد كان الائمة الكبار لا يحدِّثون غالبًا إلا من حفظهم.

فقد كان مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) لا يحدِّث إلا من كتابه؛ فإن الحفظ خَوَّان(١).

وقال علي بن المديني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٤هـ): أحفظُ أصحابنا أحمد بن حنبل، ولا يكاد يحدِّث إلا من كتاب، ولنا فيه أسوة حسنة(٢).

فعلَّق الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ): قلت: لأن ذلك أقرب إلى التحري والورع، وأبعد عن العُجب(٣).

بل قال أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): من حدَّث من كتاب لا يكاد يكون له سَقْط كبير(٤).

وكذا قال ابن حبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ): الغالب على من يحفظ، ويِّحدث من حفظه أن يَهِمَ(٥).

وخلاصة الجواب كما قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): فالورع أن المحدِّث لا يحدِّث إلا من كتاب(٦).



(١) أدب الإملاء والاستملاء (ص: ٤٦).
(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢٩٥/١).
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٨٩/١٢).
(٤) المصدر السابق (١١/٢).
(٥) الثقات لابن حبان (٩٧/٧).
(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١١/٢).

٥٣. لذة حفظ وترديد الوحيين

الوحيان - القرآن وصحيح السنة- هما العلم حقًا، وهما نور الكتب المؤلَّفة صدقًا، وهما عِطر الدروس المُلقاة، وبهجة المجالس المزجاة. وسيندم -لا محالة - من لم يأخذ بحظه منهما.

جميعُ العلمِ في القرآنِ لكنْ   تَقاصَرُ عنه أفهامُ الرجالِ(١)

وتأمل مقدار هذا الندم الواقع من أحد أساطين الأدب في القرن السالف:

قال الأديب محمد كرد علي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٢هـ): إن حسرةً في قلبي، لا أبرَح أُحسُّها، وهي أني لم أوفَّق إلى استظهار الكتاب العزيز برُمَّته أول حياتي، وندمتُ أن شَغلتُ نفسي بمحفوظات من الأدب، شوَّهت مَلَكتي لأول نشأتي. وإني لأعتقد أن المصريين ما تفوقوا ببلاغتهم على سائر الشعوب العربية، إلا لأن أكثر الخاصة يحفظون القرآن(٢).

ولأجل أن تتبين جانبًا من هذه اللذة؛ فانظر إلى حال إمام المتعلمين والمعلمين، حيث حكى الله عنه، فقال - سبحانه-:﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: ١١٤].

قال ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ): عجَلَتُه ﷺ على تلقُّف الوحي، ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه(٣).

ذلك أن أدلة الوحيين كالغذاء اللذيذ، وكالماء الفُرات، ولا غنى للعبد عنهما.

قال أبو المظفر السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ): فالماء النازل من السماء

---

(١) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٤٢٧).
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي - في مقالة (في سبيل العربية) لمحمد كرد علي (المجلد ١٧) لعام ١٣٦١هـ.
(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥١٤).

على طعم واحد من اللذة والطيب، وعلى لون واحد من الصفاء والنقاء، وعلى جوهر واحد من الطهارة والنظافة، كذلك العلم النازل من السماء كالوحي[١].

وقال ابن الوزير -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ): فأدلة القرآن والسنة مثل الغذاء، ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي يَنتفع به الصبي، والرضيع، والرجل القوي. ولهذا كانت أدلة القرآن سائغة جلية[٢].

ولذلك يُوصَى من يريد أن يترقَّى درجاتٍ في تلذذه بكتابة العلم، أن يعتنيَ بألفاظ الوحيين، ويتشرَّبها بذهنه، وفكره.

قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ): ولقد مارَسْتُ الكتابة ممارسةً كشفتْ لي عن أسرارها.. فما وجدتُ أعْوَن الأشياء عليها إلا حَلَّ آيات القرآن الكريم، والأخبار النبوية، وحَلَّ الأبيات الشعرية[٣].

ولذا فإن ابن خلدون قد قرّر وأظهر سرًا خفيًا، حول التساؤل التالي: ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين، في منثورهم ومنظومهم؟!

فأجاب بجواب حقُّه أن يُنحت بالذهب، حيث قال: والسبب في ذلك؛ أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام، سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث.. فنهضت طباعهم، وارتقت ملَكاتهم في البلاغة، على ملَكات مَن قبلهم من أهل الجاهلية[٤].

ويشير ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) إلى أن ذلك المقام هو أعلى مراتب العلم، فيقول: وكان الصحابة ﷺ أحرص شيء على استنباط أحاديث رسول الله ﷺ من القرآن.. وهذا أعلى مراتب العلم، فمَن ظفِر به فليحمد الله، ومن فاتَه فلا يلومَنَّ إلا نفسَه وهِمَّتَه وعجْزَه[٥].

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: ١١).
(٢) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير اليماني (ص ٢٤).
(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي (١٠١/١).
(٤) تاريخ ابن خلدون (٧٩٨/١) وهذا الكلام النفيس قد علَّق عليه أحد شيوخ ابن خلدون فقال له: يا فقيه! هذا كلام من حقّه أن يُكتب بالذّهب!.
(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد (١١٦/٥).

والاستكثار من ذلك له لذة عذبة طيبة، قال عنها الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ): من استكثر من تتبع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وجعل كل ذلك دأبه، ووجّه إليه همّته.. وجد فيهما ما يطلبه، فإنهما الكثير الطيب، والبحر الذي لا ينزف، والنهر الذي يشرب منه كل وارد عليه، العذب الزلال، والمعتصَم الذي يأوي إليه كل خائف، فاشدُد يديك على هذا.. وإنما تنشرح لهذا الكلام صدور قوم موفقين، وقلوب رجال مستعدين لهذه المرتبة العلية:

لا يَعرف الشوق إلا من يُكابدهُ ... ولا الصَبابةَ إلا من يُعانيها[1]

إنها سلسلة ذهبية من اللعلماء، اتفق كلامهم، وهي تمتد إلى عصرنا للمتلذذين بتلاوة وتفسير القرآن الكريم.

قال الأديب مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٦هـ): إن لكلام الله -تعالى- أسلوبًا خاصًّا يعرفه أهله، ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه.. وإني عندما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أني في زمن الوحي، وأن الرسول ﷺ ينطق به كما أنزله عليه، أو نزل به عليه جبريل عليه السلام[2].

وقال الشيخ محمد عبد اللطيف بن الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٢هـ) لما فرغ من تفسيره «أوضح التفاسير»: وأُقسِمُ أنني لو خُيِّرت بين الاستمرار في تفسير آي الذكر الحكيم، وبين السعادة لاخترتُ الأولى، وذلك لِما كنت أجِدُه من تذوق حلاوة القرآن، وفتح مُغلق معانيه![3].

عجائب أخبار المتلذذين بتلاوة أو ختم القرآن، أو إقرائه:

الأخبار في ذلك كثيرة وفيرة، ولذا قال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ): أما الذين يختمون في ركعة فلا يُحصَون؛ لكثرتهم![4].

---

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (٢/٢٢٦).
(٢) مجلة المنار (٢٧/٦٧٣).
(٣) أوضح التفاسير (المقدمة/١٩).
(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٩).

وخذ على ذلك عشرين مثالًا:

١- عثمان بن عفان ﷺ (ت ٣٥هـ) كان يُحيي الليل بركعة، يجمع فيها القرآن(١).

٢- تميم الداري ﷺ كان يختم في ركعة(٢).

٣- شقيق بن سلمة -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣هـ) حفظ القرآن في شهرين(٣).

٤- مجاهد بن جبر -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ) قرأ القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة(٤).

وقال عنه النووي: روى أبو داود بإسناده الصحيح أن مجاهدًا كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء(٥).

٥- الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ) حفظ القرآن في ثمانين ليلة(٦).

٦- الأعمش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٨هـ) قال: قرأت القرآن على يحيى بن وثاب ثلاثين مرة(٧).

٧- قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): لما أردت إملاء «أحكام القرآن» قرأت القرآن مئة مرة(٨).

٨- قال أحمد بن نصر القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٥هـ): قرأتُ على خالي القرآن زيادة على سبعين مرة(٩).

٩- اللغوي أبو حاتم السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) ختم القرآن على المقرئ المشهور يعقوب الحضرمي سبع ختمات، فأعطاه خاتمه، وقال: أقرِئ الناس(١٠).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٩٠).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٩).

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء (١/١٤٥).

(٤) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص ٣٧).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٩).

(٦) تهذيب الأسماء (١/١١٤) قال النووي: إسناده في نهاية من الصحة.

(٧) تاريخ بغداد ت بشار (٦/٧٨).

(٨) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/٣٦٣).

(٩) المصدر السابق (٦/٤٨).

(١٠) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١/٢٨٣).

١٠- محمّد بن البراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) ختم على شيخه خلف البزّاز تسع ختمات[١].

١١- مقرئ المسجد الحرام إسحاق الخزاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٨هـ) قال: قرأتُ على ابن فليح نحوًا من عشرين ومئة ختمة[٢].

١٢- المقرئ أبو منصور الخياط -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٩هـ) بلغ عدد من أقرأهم القرآن من العُميان سبعين نفسًا، دون مَن عَداهم، وقد مكث يُقرئ بضعًا وستين سنة[٣].

١٣- المقرئ ابن النّادر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٦هـ) يقول: كتبتُ القرآن بخطّي مئة وإحدى وعشرين مرّة، منها ختمة تحت ميزاب الكعبة[٤].

١٤- مكي الماكسيني الضرير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٣هـ) كان يجلس للإقراء من السحَر إلى صلاة العشاء[٥].

١٥- المقرئ رَضِيُّ الدين المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٥هـ) يُلَقِّنُ احتسابًا نحو أربعين سنة[٦].

١٦- المُقْرئ ركن الدين الإربلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٣هـ) ختم عليه أربعة آلاف نفس[٧].

١٧- ابن القمَّاح المصري الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كان متى سئل عن آية ذكر ما قبلها، ولعل بعضنا ما يقدر يفعل هذا في الفاتحة[٨].

١٨- بدر الدين بن بصخان -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٣هـ) شيخ القراءات السبع: قرأ على شيخه سبع ختمات، لكل إمام ختمة، ثم قرأ عليه السبع جَمعًا مرتين[٩].

---

(١) انظر طبقات القراء للجزري (٥٦/٢).
(٢) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص: ١٣٢).
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٣٠٤/٣٤) وذيل طبقات الحنابلة (٢٢٥/١).
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥٥/٤١).
(٥) معجم الأدباء (٢٧١٥/٦).
(٦) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٤٥/٤٦).
(٧) المصدر السابق (١٢٦/٥٠).
(٨) أعيان العصر وأعوان النصر (٢٤٤/٢).
(٩) طبقات القراء السبعة وذكر مناقبهم وقراءاتهم (ص: ٢٠٧).

١٩- الصَّدْر بن الشّرف السفطي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) قَرَأَ على شيخه سبع ختمات للسَّبْعَة[١].

٢٠- زين الدّين أبو النّعيم العتبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) تلا بالسبع على شيخه سبع ختمات[٢].

مجالات اللذة في القرآن:

أما اللذة في القرآن فهي كامنة في عدة نَواحٍ، منها:

١. لذة إتمام حفظه، وضبط حروفه.
٢. لذة نيل إجازة فيه، بقراءة ورواية فأكثر.
٣. لذة ترديده بلا مصحف، وإسماعه للناس في المحاريب.
٤. لذة تكرار ختماته، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار.
٥. لذة تدبره، وفتح أقفال القلب لعجائبه.
٦. لذة الاستماع والإنصات عند تلاوته. وهذه نغفل عنها كثيرًا.
٧. لذة معرفة تفسيره، وفهم معانيه.
٨. لذة تعليمه، وإلقاء الدروس عن علوم القرآن.
٩. لذة تحفيظه، وتخريج طلاب على يديك، يكونون معلمين بعدك.
١٠. لذة حفظه من أهل بيتك؛ رجاءَ التتويج بتاج الكرامة.

التلذذ بالحديث النبوي:

فأما أهلُ الحديث؛ فيكفيهم شرفًا جَرَيان ألسنتهم بلذة جوامع الكلم، وأجر التصلِية والتسليم على النبي الكريم ﷺ.

قال المحدث أبو اليُمن ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٧هـ): ليَهْنَ

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٩/٢٢٧).
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩/٤٠١).

أهل الحديث -كثَّرهم الله تعالى-.. فإنهم يُخلدون ذِكره ﷺ في طُروسهم، ويجدِّدون الصلاة والتسليم عليه في تحديثهم، ودروسهم(١).

شيوخ حديث المصطفى ومعادن الـ ... تـقـى وبُـدور نـورهـم غـيـر آفِـلِ
شَفَوا عِلل الأكباد منه فأصبحوا ... وقـد لبسوا منه نفيس الغلائلِ(٢)

إذًا: فالعلم الأحلى والألذّ هو العلم بما يدور في فلَك الوحيَين.

ولذا نوَّه بهذا ابن حبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) حيث قال: العلماء الذين لهم الفضل هم الذين يعلمون عِلْم النبي ﷺ دون غيره من سائر العلوم، ألا تراهُ يقول: «**العلماء ورثة الأنبياء**»؟! والأنبياء لم يورِّثوا إلا العلم، وعِلم نبينا ﷺ سنته، فمن تعرَّى عن معرفتها لم يكن من ورثة الأنبياء(٣).

تعبيره كـعَـبـيـرٍ والأداءُ له ... حـلاوة الشهد فيه للقلوب شِفا(٤)

إنها حلاوة الإسلام، التي قال عنها أبو سعد بن السمان إمام المعتزلة (ت ٤٤٥هـ): من لم يكتب الحديث لم يتغَرْغَر بحلاوة الإسلام(٥).

حقًا: لقد اختلط حب حديث رسول الله ﷺ بلحومهم، وجرى في عروقهم، فالتقَى الحُب على أمر قد قُدِر.

ولذا كان أبو بكر البرقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٥هـ) يقول لصاحبه: ادعُ الله أن ينزِع شهوة الحديث من قلبي؛ فإن حُبَّه قد غلب عليَّ، فليس لي اهتمام في الليل والنهار إلا به(٦).

ولعله يقصد بذلك؛ أن هذه الشهوة قد خالَطها من حظوظ النفس في حب

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/٦).
(٢) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم - ﷺ - (٢/٥٩٥).
(٣) صحيح ابن حبان (١/٢٨٩).
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/٤٢٠).
(٥) تاريخ الإسلام للذهبي (٣٠/١١١) ولكن الذهبي بآخر ترجمته ختمها بهذه الكلمة المخيفة: ومع براعته بالحديث ما نفعه الله به! فالأمر لله.
(٦) تاريخ بغداد (٦/٢٦).

التكاثر بالأحاديث وأسانيدها[١]، أو أنها قد أثّرت على الموازنة بينها وبين مقدار حِزْبه من القرآن.

ولأجل هذا كان أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) قد جعل على نفسه لكل ليلة جزءًا من القرآن، وجزءًا من الحديث، ثم ينام[٢].

والحديث النبوي وحي، والوحي يستدعي التفكر والتأثر، حتى يبلغ إلى درجة البكاء من قراءته أو سماعه.

ولذا كان سحنون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) إذا قرئت عليه «مغازي ابن وهب» تسيل دموعه، وإذا قرئ عليه «الزهد» لابن وهب يبكي[٣].

وقد كان طلحة بن مظفر العلثي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٣هـ) يقرأ الحديث فيبكي، ويتلو القرآن في الصلاة ويبكي[٤].

وهذا العالم الملك ابن قايتباي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٤هـ) قرئ عليه «صحيح البخاري» إلى آخره، وكان حال الإقراء يبكي، حتى تسقط دموعه[٥].

وأيضًا- أرأيت هذه الأحاديث «الأربعين النووية» فإنها نموذج منتقىً من جوامع الكلم النبوية، فهل وجدتَ في نفسك خشوعًا أو دموعًا عند تلاوة أو سماع ألفاظها؟!

قال المفسر عبد الرحمن الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٥هـ) عن شيخه أبي عبد الله بن مرزوق: ختمتُ عليه «أربعينيات النووي» قراءةً عليه في منزله قراءة تفهُّم، فكان كلما قرأت عليه حديثًا يعلوه خشوع وخضوع، ثم أخذ في البكاء، فلم أزَل أقرأ وهو يبكي حتى ختمتُ الكتاب[٦].

---

(١) سيأتيك بعد عدة سطور ما يَعضُد هذا الاحتمال، في عبارة لبشر الحافي.
(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/١١٦).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/٧٧).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٣٠).
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٣٥).
(٦) تفسير الثعالبي (١/١٧).

ومن أحاديث الأربعين التي تهز القلب هزًا: حديث «**يا عبادي! إني حرمت الظلم..**»، فقد كان راويه أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث، جثا على ركبتيه(١).

هذا في حديث واحد، فكيف بمن قرأ كتاب الرقاق من «صحيح البخاري»، أو كتاب الفتن من «صحيح مسلم»، أو صفة الجنة والنار من «سنن الترمذي»؟!

فإن قلتَ: ما حالهم أثناء مجلس التحديث وقراءة الحديث النبوي؟

فيقال: كانت تعلو مجالسَهم المهابة، فتُغض الأبصار، وتُطأطأ الرؤوس، وكأن عليها الطير، ولا يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، ويتلقّون القول بشغف، ويستمعونه بلهف. وقد مرَّ آنفًا أنهم يبكون في مجالس الحديث؛ تأثرًا وتلذذًا:

مجالس أصحاب الحديث حدائق ... تَـنَـزَّه فـيـهـا أعـيـن وقـلـوبُ
فللفكر قطفٌ ثم للنفس نَعْشَةٌ ... وللعين من حُسن الجميع نصيبُ(٢)

وخذ أمثلة تصف لك شيئًا من هيبة مجالسهم، وتلذذهم بقراءتهم الحديثية:

١- كان قتادة -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧هـ) إذا سمع الحديث لم يحفظه، أخذه العَوِيل والزَوِيل حتى يحفظه(٣).

٢- قال يحيى بن حسن -رحمه الله تعالى- (بعد ١٥٠هـ): كتبتُ يومًا عن مالك ثمانية أحاديث، فسررتُ بها سرورًا كثيرًا(٤).

٣- أنشد عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ):

مـا لـذَّتـي إلا روايــة مُسنَدا ... ت قُـيِّـدت بـفـصـاحـة الألـفـاظِ
ومـجـالـسٌ فيها تـحُـل سكينةٌ ... ومـذاكـراتُ مَـعـاشرِ الـحُـفـاظ(٥)

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٥٥/٢).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٣٥/٢) والمعرفة والتاريخ (٢٨٢/٢). وقد بوَّب عليه الخطيب البغدادي في الجامع (٢٣٤/١) بقوله: «باب إعادة المحدث الحديث حال الرواية ليحفظ». والزَّوِيل: القلق والانزعاج.
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣٥/٢). ولم أجد له ترجمة!.
(٥) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص: ٥٤٧).

٤- قال إسحاق بن راهويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٧هـ): كنا عند عبد الرزاق، أنا وأحمد بن حنبل، فمضينا معه إلى المصلى يوم عيد، فلم يُكبِّر هو ولا أنا، ولا أحمد. فقال لنا: لِمَ لَمْ تكبِّرا؟ قلنا: نحن نرى التكبير، ولكن شُغِلنا بأي شيء نبتدئ من الكُتُب[١].

٥- الحافظ أبو طاهر السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) حضر عنده سلطان مصر للسماع، فجعل يتحدث مع أخيه، فزبرهما وقال: أيش هذا؟! نحن نقرأ الحديث، وأنتما تتحدثان؟![٢]

٦- كان عبد الغني المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ) يفضِّل الرحلة للسماع على الغزو، وعلى النوافل، وكان يَقرأ الحديث، ويَبكي ويُبكي الناس[٣].

وليست هذه اللذة قاصرةً على القرون المتقدمة، الذين عايَشوا تنَزُّل الوحي، أو الذين تلقَوا الأحاديث رواية، وإسنادًا، بل تمتد إلى قيام الساعة، لمن شرح الله صدره، فيتصل حديث المتلذذين بالوحيين، من الأزمان الغابرة بأزماننا هذه الحاضرة، وفي الأمة خير كثير، برغم الصدود عن العلم، بفعل الصوارف والصوادف.

٧- قال أبو الفيض البَرْبِير الحسني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٢٦هـ): رأيتُ هذا الحديث قد فعل بي ما لا يفعله الشراب القديم، من النشوة والطرب بالنديم[٤].

٨- قال العلامة الأمير الصالح صديق حسن خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ): وإني أقول - والله شهيد على ذلك - إن في نفسي وَجْدًا بألفاظ القرآن، وكلمات الحديث، وطرَبًا بالكلام الإلهي، والمعاني السَّنية، لا أتمكن من بيانه، ولا أقدر على كشفه لغيري، ليس بي وَجْدٌ مثله، ولا طرَب في شيء من هذه المنكرات، أو المشتبهات.. وإذا تلوتُ آية، وخُضتُ في لُطف مبانيها، وحسن معانيها، أسْكَرُ سَكَرَ الشارب بلا مبالغة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١/١٩٣).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/٣٨).

(٣) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٢٠٤).

(٤) الفصيحة العجما في الكلام على حديث «أحبب حبيبك هونا ما» (ص: ٣٤).

وإذا وقفتُ على حديث، واستلذذتُ بفصاحة عباراته، وبلاغة إشاراته، أطرَبُ طَرَب السامع، ولم أجِدْ قطُّ ذاك الحال في غيرهما من المقال، وإن كان بليغًا في نظمه ونثره[١].

تَرى طالبيْ الآثارِ في رَغْدِ عَيْشِهِمْ ... جَـنَـابٌ رحـيـبٌ والـمـحـلُّ خَصيبُ
فلِلفِكرِ قَطْفٌ ثم للنفْسِ نَعْشَةٌ ... وللعينِ من حُسْنِ الجميع نَصيبُ[٢]

٩- قال الشيخ الأديب عبد الله كنون -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٩هـ): في كلام النبوة من الحلاوة والقبول..وروح الطمأنينة، كما قال القائل:

ومـا سمعتْ أذن كلامًا ونغمةً ... ألــذ وأشـهـى مـن حـديـث محمدِ

وإني لأعرف أبوابًا في «صحيح البخاري»، كلما قرأتها أبكي؛ وأخرى تضحكني، وأخرى تهدئ أعصابي، ولو كانت في أشد الاضطراب، وأخرى تبعثني على الرجاء، ولو كنت في أشد حالات القنوط[٣].

١٠- قال الشيخ مقبل الوادعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٢هـ): والقراءة في «الصحيحين» عندي أحلى لذة في الدنيا! وإني إذا فتحت «صحيح البخاري» أو فتحت «صحيح مسلم» أنسى جميع مشاغل الدنيا ومشاكلها[٤].

حقًا! إنها لذة لا يعبَّر عنها بألفاظ، ولا يُحيط بها أوصاف.

١١- وهذا شيخنا المحدث الشيخ يحيى بن عبد العزيز اليحيى - حفظه الله تعالى- صاحب «الجمع بين الصحيحين»، والذي حَفِظه أكثر من عشرين ألف حافظ وحافظة. يقول في مقابلة معه: واللهِ إني وجدتُ حَلاوة النص، وطَعم الحديث، فعشتُ في رحاب الوحي، وذُقت في سهري لذة حفظ السنة، حتى حفظتُ -بحمد الله- أكثر من عشرة آلاف حديث عن ظهر قلب، ألقيتُها في الدروس على كرسي الحرم المكي والمدني، وذاكرتُ بها الطلاب.

---

(١) الدين الخالص (٤/٤٢٥-٤٢٨).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٥٧/٢).
(٣) واحة الفكر للأديب عبد الله كنون (ص: ١٨٩).
(٤) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين للوادعي (٩/١).

ولأجل تلك اللذة الموصوفة؛ صار أهل هذا العلم الموروث عن الرسول ﷺ كما قال عنهم ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا[1].

وجوه التلذذ بالحديث النبوي:

ما أعجب التلذذ بالوحي الثاني! ألا وهي الأحاديث النبوية؛ فإن لها مذاقًا خاصًا، ولنأخذ لذائذ حفظ الصحيحين خصوصًا، ويمكن أن تتلخص في عشر، هُن ما يلي:

١- لذة الرحلة إلى مكان إقامة مجالس الحفظ.

٢- لذة الإسماع من الطالب، والسماع من المحفِّظ.

٣- لذة التكرار لتثبيت الحفظ وضبطه.

٤- لذة المجاورة بالحرمين، إن كانت الدورة فيهما، وإلا فالمُكث بأي مسجد خير.

٥- لذة الأداء والتسميع مضبوطًا متقنًا.

٦- لذة الفهم، والاستنباط للمعاني الدقيقة.

٧- لذة المذاكرة والمدارَسة للألفاظ والرواة والمخرِّجين.

٨- لذة المنافَسة في تحصيل الامتياز، والمسابقة بين الأقران في كمال ضبط الحفظ.

٩- لذة إسعاد الوالدين والأهل والأقربين، في نيل هذه المرتبة العليَّة.

١٠- لذة طول بقاء الحفظ في الذهن، كلما استدعاه وجَدَه.

هل يُراد من الأحاديث النبوية حفظُها عن ظَهرِ قلب؟

هذا التساؤل مَطروح بإلحاح.

فيقال: نعم؛ ولذا تكاثرت الأحاديث الحاثة على الحفظ، بل وإتقانه.

---

(١) زاد المعاد (٢/٢٢).

١. قال رسول الله ﷺ: **نضّر الله امرأً سمع منا حديثًا فحفِظه؛ حتى يبَلِّغه. وفي لفظ: سمع مقالتي، فَوَعاها، وحفظها، وبلَّغها**[١].

٢. وفي حديث وفد عبد القيس قال: **احفظوه، وأخبروه مَن وراءكم**[٢].

٣. وفي حديث الرؤيا قال: **إنها حق، فادرسوها، ثم تعلموها**[٣]. ادرسوها أي: احفظوها.

٤. وفي حديث أبي كبشة، أنه قال: **وأحدِّثكم حديثًا، فاحفظوه**[٤]

٥. وروي أنه قال: **إني محدِّثُكم بحديث، فاحفظوه، وعُوْهُ، وحدِّثوا به مَن بعدكم**[٥].

٦. وكان ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن[٦].

٧. وكان يعلمهم الدعاء بعد التشهد، كما يعلمهم السورة من القرآن[٧].

٨. وقالوا: كان يعلمنا التشهد، كما يعلمنا السورة من القرآن[٨].

٩. وعن الأسود، قال: كان ابن مسعود يعلمنا التشهد في الصلاة، كما يعلمنا السورة من القرآن، يأخذ علينا الألِف والواو[٩].

١٠. قال الشعبي: ما بلغكم مَن حَفِظَ عن أصحاب رسول الله ﷺ فاحفظوه[١٠].

فهذه نبذة من الأدلة المأثورة، المؤكدة على أهمية إتقان حفظ الحديث النبوي غَيبًا.

ثم إن حِفْظَها في الصدور مَدعاة لحفظها في السطور، ومَنجاة من سَطو أهل الفجور. وإنما وَضَع الأئمة دواوين السنة لمقاصد، منها هذا المقصد الآنف الذِكر.

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٦٠) وسنن الترمذي (٢٦٥٨).
(٢) صحيح البخاري (٨٧).
(٣) سنن الترمذي ت بشار (٣٢٣٥).
(٤) سنن الترمذي ت بشار (٢٣٢٥).
(٥) المعجم الكبير للطبراني (٥١٤٦).
(٦) صحيح البخاري (٧٣٩٠).
(٧) صحيح مسلم (٥٩٠).
(٨) صحيح البخاري (٦٢٦٥) وصحيح مسلم (٤٠٣).
(٩) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٠٧).
(١٠) جامع بيان العلم وفضله (١٠٤٧/٢).

وانظر -مثلًا- للإمام ابن حبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) حيث يقول في مقدمة صحيحه: معرفة السنن من أعظم أركان الدين، وحفظُها يجب على أكثر المسلمين..وَلزِمَ سلوك الاختصار؛ ليَسهل على الفقهاء **حفظها**، ولا يصعب على الحافظ وعْيُها.

ثم ختم كتابه قائلًا: جعلنَا الله مِمَّن تكلّف الْجهد فِي: ١. **حفظ السّنَن**. ٢. ونشرها.

٣. وتمييز صحيحها من سقيمها. ٤. والتفقه فِيهَا. ٥. والذب عَنْهَا(١)

نماذج للتواصي بحفظ الحديث النبوي:

وقد كان الأئمة المتقدمون خالِفًا عن سالِف، وكابِرًا عن كابِر، يَتواصَون بحفظ الأحاديث النبوية، ويستوثقون من طلابهم مزيد إتقانها بصدقِ نية. وإليك أربعة أمثلة شاهدة على ذلك:

١. بكر بن حماد التاهَرْتي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٦هـ) كان يَكتب لأحد تلاميذه كل يوم أربعة أحاديث، ويُلزِمُه حِفظَها، ويقول له: لا تأتِني إلا وقد حَفِظتَها(٢).

٢. قال أبو سعد السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ) عن شيخه أبي صالح المؤذن -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٠هـ) كان يحثُّني على معرفة الأحاديث، والاعتناء بعلمه وحِفظه، ويوصيني بذلك(٣).

٣. وقال السمعاني -أيضًا- عن شيخه أبي عبد الله الزاغولي: كان يحثني على سماع الحديث وكتبته، ثم على الجمع والتصنيف(٤).

٤. قال أبو شامة -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٥هـ) عن شيخه خزعل بن عسكر الشنائي: كان يحثُّني على حفظ الحديث، والتفقُّه فيه، خصوصًا «صحيح مسلم». ويقول: إنه أسهل من حفظ كتب الفقه وأنفع. - وصدق- قالها الذهبي(٥).

---

(١) الثقات لابن حبان (٣/١) و(٢٩٧/٩).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٣٥/٥).
(٣) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص: ١١٣).
(٤) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٤٣٨).
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٥٢/٤٥).

وأما حفظ الصحيحين خصوصًا؛ فهو مِنحة من الله لمن سمعها فوَعاها، وليُبْشر بالنضارة التي في دعوة المستجاب دعوته ﷺ حيث قال: **نضّر الله امرأ سمع منا حديثًا، فحفِظه**[١].

فهنيئًا لكم يا حفاظ الصحيحين: بعظيم اللذات، وبركة الأوقات، وسُعدى لكم يا ضابِطِي الحِكمة بعد الكِتاب، ومن لم يَذُق لذَّتكم وهناءَكم لم يتعنَّ عَناءَكم.

قصص تدُلُّك على عظيم مِنَّة الله -تعالى- على حافظي أحاديث السنة:

قد يظن الظانُّ أن ضبط حفظ الأحاديث النبوية دون نَيله خرَط القتاد، ولكنه يسيرٌ على من يسَّره الله عليه. ويشهد لذلك أن طائفة من وِلدان المسلمين وأطفالهم، قد قطعوا شوطًا كبيرًا في هذا المضمار، وابتدأ الحفظَ متوسطو الملَكَة، فحصلوا منه قدْرًا طيبًا.

وخذ هذه القصص الشاهدة على ذلك، والتي أصابت كبد الحقيقة:

جرَتْ قصة لطيفة لبديع الزمان الهمذاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٨هـ) صاحب «المقامات» فإنه كان ذكيًا عبقريًا، فأُعجب بنفسه؛ إذ كان يحفظ المئة بيت إذا أُنشدتْ مرة، ويُنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة.

فأنكر على الناس قولهم: فلان الحافظ في الحديث. ثم قال: وحفظ الحديث مما يذكر؟! فسمع به الحاكم صاحب «المستدرك» -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٥هـ) فوجَّه إليه بجزء حديثي، وأجَّل له أسبوعًا في حفظه. فردَّ إليه الجزء بعد الجمعة، وقال: من يحفظ هذا؟! محمد بن فلان، وجعفر بن فلان، عن فلان؟! أسامي مختلفة، وألفاظ متباينة! فقال له الحاكم: فاعرِف نفسك، واعلم أن هذا الحفظ أصعب مما أنت فيه[٢].

ولقد صارت هذه اللذة الكامنة تلاحقهم، فلا يَنفَكُّون عنها، حتى صاروا يَذْهَلون عن أنفسهم في صلاتهم.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسُبكي (١٦٠/٤) وسِيَر أعلام النبلاء للذهبي (١٧٣/١٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (٩٧/٩).

ومن القصص الطريفة أن الباغندي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٢هـ) افتتح صلاته، ثم قال سهوًا: حدثنا محمد بن سليمان لُوَين. فقيل له: سبحان الله! فقال: حدثنا شيبان بن فروخ. فقيل له: سبحان الله! فقال: بسم الله الرحمن الرحيم[١].

وموقف آخر طريف للدارقطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) حينما صلى يومًا، والقارئ يقرأ حديثًا فيه نُسير بن ذُعلوق، فقال القارئ: كُشير بْن ذعلوق، فقال الدارقطني: سبحان الله! فقال القارئ بُشير بْن ذعلوق فقال الدارقطني: سبحان الله! فقال القارئ يُسير بْن ذعلوق، فقال الدارقطني: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١][٢].

وموقف ثالث: ففي ذات مرة؛ كان الدارقطني قائما يتنفّل، فقرأ القارئ إسنادًا فقال: عمرو بن سعيد، فقال: سبحان الله، فأعاد الإسناد وقال: عمرو بن سعيد، ووقف، فتلا الدارقطني: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٨٧] ففطِن القارئ، وقال: عمرو بن شعيب[٣].

ومن علامة حبِّهم الشديد للحديث والتحديث: أنك تجِدُهم يكرِّرونه دهرَهم، بل إن طائفة منهم يخصُّون به شهر رمضان، الذي هو شهر القرآن؛ لأنهم يعُدُّون الحديث هدىً وموعظة كالقرآن، فكلاهما وحي يُسمع فيَنفع. وعلى هذا جرى المغاربة إلى يومنا.

وخذ على هذا الحُب شواهد قليلة من قائمة حافلة طويلة:

كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ يحدِّث، فيَكثر الناس عليه، فيصعد فوق بيت، فيحدثهم[٤].

تَواعَد الناس ليلة، فقام فيهم أبو هريرة ﷺ يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح[٥].

---

(١) البدر المنير (١/٢٦٧).
(٢) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٢/٣٨).
(٣) السابق(١٢/٣٨).
(٤) العلم لزهير بن حرب (ص: ٢٨).
(٥) المصدر السابق (ص: ١٤).

هذا بعض حال الذين عايَشوا الذي نطق بالوحيين بنفْسه. فأما الذين صحِبوا نفَسه فإليكهم:

١- قيل لعبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ): أيما أحب إليك، يَغفر لك ذنبًا، أو تحفظ حديثًا؟ قال: أحفظ حديثًا[١].

٢- قال أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) لخلائق مجتمعين من أصحابه في طلب العلم: مَن أغربَ عليَّ حديثًا غريبًا مسندًا صحيحًا لم أسمع به، فله عليَّ درهم يَتصدق به. قال: وكان مُرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي، فأذهب فأسمع، فما تهيَّأ لأحد منهم أن يُغْرِبَ عليَّ حديثًا[٢].

٣- من عجائب الأخبار أن أبا بكر الميمني المروزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٠هـ) أملى مئة وأربعين مجلسًا على الأحاديث بالأسانيد، فاعترض عليه بعض المنازعين، فأراد أن يثبت لهم قوة حافظته، وتحرّيه لصحيح الأحاديث، فروى لهم حديث: «**من كذب علي متعمدًا**» بنيف وتسعين طريقًا[٣].

٤- النحوي المقرئ أبو العلاء الهمذاني العطار -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كان يُقرئ نصف نهاره الحديث، ونصفه القرآن والعلم[٤]. وكان يقول: لو أن أحدًا أتاني بحديث واحد، من أحاديث رسول الله ﷺ لم يَبلغني لملأتُ فاه ذهبًا[٥].

٥- ابن الفخار الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) ختم ليلة ودعا، فتوهَّم أهله أنه ختم القرآن، فسألوه فقال: ختمت «الموطأ»[٦].

---

(١) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٧٧). وقد مضى ذكر هذا النقل، والاعتذار عنه ٢باحتمال مقصوده.

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٤١٤/٢).

(٣) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١١٨).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢٧٥/٢).

(٥) معجم الأدباء (٨٢٥/٢).

(٦) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٩٧/٤).

٦- السلطان الناصر ابن الغالب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٦هـ) ختم «البخاري» في رمضان مع أعيان الفقهاء(١).

٧- ابن السراج الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٢هـ) كان يقرأ «البخاري» في كل سنة بالجامع في رمضان، ويجتمع عنده الجمُّ الغفير(٢).

٨- ابن الكلوتاتي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٥هـ) حُبِّب إليه طلب الحديث، فقرأ «البخاري» أكثر من ستين مرة(٣).

٩- القاضي اللدِّي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٠هـ) يختم «صحيح البخاري» كل سنة، في رمضان، بالجامع الأقصى(٤).

١٠- بركات الأذرعي (بعد ٩٠٢هـ) يختم «البخاري» كل سابع عشر من شهر رمضان(٥).

١١- أبو القاسم بن علي الشاطبي (ت ٩٥٠هـ) له إقراء سنوي رمضاني في «صحيح البخاري»(٦).

١٢- الشيخ أبو الغيث المعروف بالقشاش التونسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣١هـ) كان في شهر رجب وشعبان ورمضان يعقد مجلسًا سنويًا؛ لقراءة «التفسير والبخاري»(٧).

١٣- المحدث ابن ناصر الدرعي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٢٩هـ) كان يَعْمُر ما بين الظُّهرين دائما في أيام السنة، بقراءة الكتب الستة درايةً، فكلما ختم واحدًا ابتدأ آخر، وفي رمضان يعود لسرْد «البخاري»(٨).

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١٤٥/٥).
(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢٢٢/١).
(٣) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٥٠/٣ و٥٢) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٠٩/٩).
(٤) الأنس الجليل (١٩٦/٢).
(٥) تاريخ البصروي (ص: ٢١٤).
(٦) درة الحجال في أسماء الرجال (٢٨٥/٣).
(٧) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٤١/١).
(٨) فهرس الفهارس (٦٧٩/٢).

١٤- أحمد بن زيني دحلان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٤هـ) أدمَنَ تدريس «البخاري»، فحَفِظَه كالفاتحة(١).

١٥- العالم الهندي قاضي الملك ابن صبغة -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) كان يُدرِّس الكتب الستة عن ظهر قلب(٢).

ختَمات البخاري:

لقد أجرى الله عادته في علماء الإسلام، أن يبارك لأحدهم في قراءته، والآخر في إلقائه وتفهيمه، والآخر في نسخه وجمعه، والآخر في عبادته.

ومن ذلك هذا الكتاب الذي هو أصح كتاب بعد القرآن الكريم، حيث تلقَّته الأمة بالقبول، فصحَّت كل أحاديثه، وتداولته الأيدي، وتناولته الأفهام.

وخذ هذه الآية العجيبة، التي قالها أشهر رواة «صحيح البخاري»، ألا وهو محمد بن يوسف الفربري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٠هـ) فقد قال: سَمع كتاب «الصحيح» لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل(٣).

الله أكبر! هذا العدد الضخم، سمعه ورواه في عصر البخاري، فكيف مع امتداد القرون والأجيال؟! أليست هذه كرامة عظيمة، وآية عجيبة في حفظ الله للوحي الثاني؟!

وختمات «البخاري» لم تشتهر كما اشتهرت بالمغرب، ولم تكن مشهورة لدى المشارقة، ولا مألوفة. ويشبه صنيع المغاربة في مجلس الختمات، بمجالس الإملاء الحديثية التي عرفها الشرق.

وقد عُرف منذ تلك الأزمان نوعان من الختم:

الأول: ختم السرد بالإسماع فحسب، وهو الأكثر، ويكون غالبًا في الأشهر الثلاثة؛ رجب وشعبان ورمضان من كل عام، وكأنهم يفعلون ذلك كنوع من استقبال رمضان.

---

(١) المصدر السابق (٣٩١/١).
(٢) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١٢٩٩/٨).
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٣٢٨/٢).

والنوع الثاني: ختم الإقراء، بالشرح المقتضب، كتصحيح نسخة، أو بيان أغرب الغريب، أو إيضاح إشكال، أو ضبط بالشكل.

وخذ استعراضًا لستة وعشرين نموذجًا لختماتهم للبخاري:

١. ابن عطية المحاربي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٨هـ) ختم «البخاري» سبع مئة مرة[١].

٢. الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) كان إذا قرئ عليه «الصحيحان» يصحح النسخ مِن حِفظه[٢].

٣. قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ): توقّف المطر بالشَّام عام ٦٩٥هـ، وفزع النّاس، واجتمعنا لسماع «البخاري»، ففتح الله بنزول الغيث[٣].

٤. عثمان التوزري المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٣هـ) يقول: قرأت «البخاري» ثلاثين مرة[٤].

٥. الحجَّار ابن الشحنة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٠هـ) حدث بـ«الصحيح» أكثر من سبعين مرة، وحضر في إحدى المرات جمع كبير، يزيدون على ألفي نفس، وحصل له جملة من المال والذهب[٥].

٦. كانت العادة أيّام الأشرف شعبان بن حسين -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٨هـ) أن تبدأ قراءة «البخاري» في أول يوم من شهر رمضان، ويحضر القاضي، والشيخ البلقيني وطائفة للسماع، ويختم فى سابع عشرينه[٦].

٧. عماد الدين بن السراج -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٢هـ) يقرأ «البخاري» كل سنة بالجامع في رمضان[٧].

---

(١) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٤٣٣).
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٦٤/٢١)وقد سبق.
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٩/٥٢).
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٦٢/٣).
(٥) المصدر السابق (١٦٥/١) ومعجم الشيوخ للسبكي (ص: ٦٤).
(٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٢٦٧/١٤).
(٧) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢٢٢/١).

٨. جلال الدين الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٣هـ) قرأ على الكرماني «صحيح البخاري» أكثر من عشرين مرة[١].

٩. عبد الله ابن العلامة مغلطاي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩١هـ) بكّر به أبوه، فأسمعه «صحيح البخاري» على الحجّار وهو في الخامسة[٢].

١٠. التاجر ابن مقبل الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) قرأ «البخاري» أكثر من مئة مرة[٣].

١١. وُجد بخط الفيروز آبادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ) أنه قرأ «صحيح البخاري» أزْيَدَ من خمسين مرة[٤].

١٢. ابن الشرائحي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٩هـ) نشأ أُميًا؛ لا يقرأ ولا يكتب، وكان حافظًا لا يُدانَى؛ وكان آخر ما حدث به «صحيح مسلم»، عاش بعد ختمه يومًا وليلة[٥].

١٣. أبو الربيع العلوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٥هـ) مر على «البخاري» مئة وخمسين مرة، ما بين قراءة، وسماع، وإسماع، ومقابلة[٦].

١٤. ابن المحب الصالحي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٨هـ) كان يقرأ «الصحيحين» على العامة[٧].

١٥. عبد الرحيم الجُرَهي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٨هـ) سمع «البخاري» على نيِّف وسبعين شيخًا[٨].

١٦. أبو عثمان القجطوخي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٥هـ) قرأ «البخاري» أكثر من ستين مرة[٩].

---

(١) المصدر السابق (١٥٧/٢).
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٩١/٣).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٧٩/١١).
(٤) فهرس الفهارس (١٠٤٤/٢ - ١٠٤٧).
(٥) المصدر السابق (١٠٨٨/٢).
(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢٨٦/٣).
(٧) المصدر السابق (٣٦٢/٣).
(٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٨١/٤).
(٩) المصدر السابق (٣٧٨/١).

١٧. سبط ابن العجمي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤١هـ) قرأ «البخاري» أكثر من ستين مرة، ومسلمًا نحو العشرين، سوى قراءته لهما في الطلب، أو قراءتهما من غيره عليه[١].

١٨. في سنة ٨٥١ هـ خُتم «البخاري» على العادة، وفرّقت الصُرَر والخِلَع[٢].

١٩. الشمس التاد الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٠هـ) قرأ «البخاري» وغيره على العامة[٣].

٢٠. السراج العمريطي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٠هـ) داوَم على قراءة «البخاري» دهرًا في الأشهر الثلاثة (رجب- شعبان- رمضان)[٤].

٢١. أصيل الدين الهروي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٣هـ) قال: قرأت «صحيح البخاري» نحو مئة وعشرين مرة.

٢٢. ابن صِدّيق الشافعي مؤذن الجامع الأموي -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٩٦هـ) قرئ عليه «البخاري» خمسًا وعشرين مرة[٥].

٢٣. الشيخ محمد عابد السندي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٧هـ) كان يختم الكتب الستة في ستة أشهر، بل سمَّع عليه أحد طلبته الكتب الستة في شهر، وأخذها عنه دراية في ستة أشهر! وهذا الصبر عجيب منهما! وكان الشيخ عابد يقول: لمثلي فلْيُسْعَهْ؛ لأن بيني وبين البخاري تسعة![٦].

٢٤. الشيخ جعفر الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٣هـ) ختَمَ «البخاري» ما بين سماع وإسماع أكثر من عشرين مرة.

٢٥. الشيخ عبد الكبير الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٣هـ) ختم «صحيح البخاري» خمسين مرة، ما بين سماع وإسماع وإقراء[٧].

---

(١) المصدر السابق (١/١٤١).
(٢) نيل الأمل في ذيل الدول (٥/٢٣٩).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٧/٢١٧).
(٤) المصدر السابق (٦/٧١).
(٥) المصدر السابق (١/١٤٧).
(٦) فهرس الفهارس (٢/٧٢٢).
(٧) المصدر السابق (٢/٧٤٥).

٢٦. محمد بن جعفر الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٥هـ) ختَمَه عشرين مرة[١].

معكِّرات ومكدِّرات:

وإن لهذه اللذة الفريدة لمعكِّرات، ولصفو مَشربها لمكدِّرات، وإنهن كما يلي:

١- لكلمة «حدَّثَنا» صَولةٌ، ولمَسارِب علوم الحديث جَولة، وهذه الصولة والجولة لا بدَّ أن تُزَمَّ بزمام المراقبة والمحاسبة؛ لتحقيق الإخلاص. كما قال الزاهد بشر الحافي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٧هـ) لمحدِّث: احذر حدَّثنا؛ فإن لحدَّثنا حلاوة. وقال -أيضًا-: حدثنا مالك -وأستغفِر الله- إن من زينة الدنيا أن يقول الرجل: حدثنا مالك[٢].

٢- دواوين السنة؛ إنما جاءت لتحقيق أحد شرطَي قبول العمل، وهو الاتباع للرسول ﷺ، فإذا وقع الابتداع محل الاتباع فقد سقطت اللذة، وحلَّ محلَها الكدَر والنَّكَد.

قال الحافظ الثبت أحمد بن سنان الواسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ): إذا ابتدع الرجل بدعة؛ نُزعت حلاوة الحديث من قلبه[٣].

٣- إعمال الأقيسة في مقابل النصوص و«إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل»[٤].

قال شيخ الشافعية إلكيا الهراسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٤هـ): إذا جالَت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهابِّ الرياح[٥].



---

(١) المصدر السابق (١٨٨/١) و(٥١٥/١).

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٥٤٥/٧) وترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣٥/٢).

(٣) طبقات علماء الحديث (١٩٨/٢).

(٤) مجمع الأمثال (٨٨/١) ونهر الله معناه البحر، ونهر معقل نهرٌ بالبصرة. انظر: مفيد العلوم ومبيد الهموم (ص: ٤٨٣).

(٥) وفيات الأعيان (٢٨٧/٣).

٥٤. لذة حفظ الكتب المقروءة لا المتون المحفوظة

نعم؛ حفظوا كتبًا مطوَّلة وليست متونًا مختصرة. فهم يحفظون ما تَعسُر قراءته على أكثر الناس.

فثَمَّت عبر القرون حفاظ يلتهمون الكتب المقروءة الْتهامًا، فيحفظون سطورها ضبطًا وإتقانًا.

فهذا - على سبيل المثال- سيد القراء الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) يقال: إنه يحفظ وِقْر بعير من العلوم، وكان إذا قرئ عليه «الموطأ» و«الصحيحان» يصحح النُّسخ مِن حِفظه[١].

ولقد كان بعض العلماء الغابرين يؤلف الكتاب ذا المجلدات، قاصدًا أن يحفظه مَن بعده عن ظهر قلب. وخذ على ذلك ثلاثة أمثلة:

١. قال الإمام ابن حبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) عن مقصده في جمع صحيحه: لزِمَ سلوك الاختصار؛ ليسهل على الفقهاء حِفظها[٢]. والكتاب ضخم يتعسر البحث فيه، فجاء ابن بلبان -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٩هـ) فقرَّبه وهذَّبه، وسماه: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، فجاء بعد التقريب والتهذيب في ثمانية عشر مجلدًا.

٢. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) عن كتابه ذي الثمان مجلدات «زاد المسير في علم التفسير»: وقد بالغتُ في اختصار لفظه، فاجتهِد- وفّقك الله- في حِفظه[٣]. فيا عجبًا للجملتين! فأين من يحفظه، ثم أين المبالغة في الاختصار، وهن ثمان مجلدات؟! لكنها الهمم العاليات تريد أهلَها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/٢٦٤).
(٢) الثقات لابن حبان (١/٣).
(٣) زاد المسير في علم التفسير (١/١١).

٣. من الأمثلة العجيبة أن علماء لا يُحصَون كثرةً حفظوا «منهاج الطالبين» للنووي، وهو متن معتمد في الفقه الشافعي، ومقدار صفحاته تبلغ ضعفَي زاد المستقنِع ونيِّف، ويكفي أن تعرف أني أحصيتُ عِدَّة الحافظين له المذكورة أسماؤهم في «الضوء اللامع» للسخاوي، فبلغوا مئة وأحد عشر عالمًا (١١١)؛ كلهم يحفظونه عن ظهر قلب.

التلذذ بكتاب سيبويه في النحو:

خذ مثالًا يستنهِض الهمم، ويعرّفك بمبدأ من مبادئ السابقين في الحفظ، ألا وهو كثرة تكرار القراءة والتدريس في كتب أمهات العلوم، وذلك في كتاب هو أصل ومنبع النحو، ومؤلِفه إمام النحاة، ألا وهو كتاب «الكتاب لسيبويه».

وقد كان سيبويه -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٠هـ) يَستملي من حماد بن سلمة يومًا: قال رسول الله ﷺ: **ما أحدٌ من أصحابي إلا وقد أخذت عليه، ليس أبا الدرداء.** فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء»، فقال: لحنتَ يا سيبويه، فقال سيبويه: لا جرم! لأطلبن علما لا تُلحِّنني فيه أبدًا. فطلب النحو، فصار إمامَ النحو، وكتابه إمامَ كتب النحو[1].

ومن شدة حفاوة العلماء بكتاب سيبويه، فقد كان طائفة منهم يَحفظونه عن ظهر قلب. فإليك خمسة وعشرين عالِمًا صاروا ذوي سيبويه[2]، وهم -بالتتبُّع- كما يلي:

١- حمدون المعروف بالنعجة -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٢٠٠هـ)[3].

٢- إبراهيم بن الوزان القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٦هـ)[4].

٣- عبد الله الأسلمي -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٤٢٠هـ) يختمه كل خمسة عشر يومًا[5].

---

(١) مجالس العلماء للزجاجي (ص: ١١٨) وإنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٥٠/٢). والحديث ذكره الزجاجي بلا إسناد، فلا يصح إذًا.

(٢) هكذا يُجمع لفظ: «سيبويه» بتقديم «ذوي» عليه.

(٣) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٢٣٥).

(٤) معجم الأدباء (٨٩/١).

(٥) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٥٣).

٤- غالب القيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٥هـ)[١].

٥- أبو عبيد الله الطليطلي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٥٠٢هـ)[٢].

٦- ابن أبي كدية التميمي القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٢هـ)[٣].

٧- ابن فرتون الأبرش النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٢هـ)[٤].

٨- محمد ابن برنجال -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ)[٥].

٩- نائت أبو الزهر الضرير -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٤٠هـ)[٦].

١٠- ابن الأديب السعدي اليحصبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ)[٧].

١١- ابن طاهر النحوي الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٠هـ)[٨].

١٢- ابن سيد الكناني الإشبيلي المعروف باللص -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ)[٩].

١٣- عبد الله بن بري النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٢هـ)[١٠].

١٤- أبو إسحاق الضرير الملقب بالوجيه الذكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ)[١١].

١٥- جابر بن نام الحضرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ)[١٢].

١٦- تاج الدين أبو اليمن الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ)[١٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٢٦/١٨).

(٢) الاعتبار لأسامة بن منقذ(ص: ٢٠٩). يقول أسامة عن الطليطلي: أخذت جزءًا، وفتحته، وقرأت منه سطرًا، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظًا.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨٨/٥٤).

(٤) تحفة القادم (ص: ٢٢) وبغية الوعاة (٥٥٧/١).

(٥) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٥٥٣).

(٦) نكث الهميان في نكت العميان (ص: ٢٨٥).

(٧) بغية الوعاة (٣٨/٢) قيل عنه: كان يحفظ كتاب سيبويه كحفظه للقرآن.

(٨) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٩٤/٤).

(٩) بغية الوعاة (٣٤٤/١).

(١٠) طبقات الشافعيين (ص: ٧١٥).

(١١) الوافي بالوفيات (٩٤/٦).

(١٢) بغية الوعاة (٤٨٤/١).

(١٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٤٤/٤٤).

١٧- أبو جعفر أحمد الحميري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٠هـ)[١].

١٨- المبارك ابن الدهان الوجيه -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ)[٢].

١٩- ابن الخير الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٨هـ)[٣].

٢٠- ابن أبي عمران المزالي الفاسيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٣هـ)[٤].

٢١- الوزير ابن مطرف الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٦هـ)[٥].

٢٢- محمد القللوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ)[٦].

٢٣- ابن عبد المنعم الحميري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ)[٧].

٢٤- شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ)[٨].

٢٥- محمد بن إبراهيم البعقيلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٢هـ)[٩].

والسؤال: لماذا كل هذا؟! والجواب: انظره ضمن النماذج التالية:

نماذج لحفاوتهم بكتاب سيبويه:

١. كان العلماء إذا ذَكروا عالِمًا يقولون: هل يقرأ كتاب سيبويه؟ فيقال: لا، فيقولون: لا يعرف شيئًا. وفي سيرة أبي جعفر المالقي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٢هـ) قالوا: كان عالمًا بالنحو، لكنه لا يُقرئ «كتاب سيبويه»[١٠].

٢. مات الفراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) وتحت رأسه «كتاب سيبويه»[١١].

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٢٢١).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨٦/٢٢).

(٣) الوافي بالوفيات (٩٢/٦).

(٤) المقفى الكبير (١٢٤/٧).

(٥) بغية الوعاة (٧٤/١).

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة (٥٣/٣) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤٣٣/٥).

(٧) الإحاطة في أخبار غرناطة (١٠١/٣) والدرر الكامنة (٢٨٢/٥).

(٨) في تاريخ ابن الوردي(٢٧٦/٢) قالوا: أَخذ يتأمَّله حتَّى فهمه. وكلمة (يتأمله) هل تعني أنه تلقَّنه بلا شيخ؟! هذا خليق بهذا الجبل الأشم، والبحر الخضم.

(٩) سوس العالمة (ص: ٤٠).

(١٠) بغية الوعاة (٣٣١/١).

(١١) معجم الأدباء (٢١٢٦/٥).

٣. قال أبو عمر الجرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٥هـ): أنا مُذ ثلاثون سنة أُفتي الناس في الفقه من «كتاب سيبويه». فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا رجل مكثر من الحديث، و«كتاب سيبويه» يعلمني القياس، وأنا أقيس الحديث، وأفتي به.

ويوضحه المبرد بقوله: كان ذلك يتعلم منه النظر والتفتيش[١].

وقال الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): والمراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو، فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان[٢].

٤. قال أبو عمر الجرمي: نظرتُ في «كتاب سيبويه»، فإذا فيه ألفٌ وخمسون بيتًا، فأما الألف فعرفتُ أسماء قائليها، وأما الخمسون فلم أعرف قائليها[٣].

٥. أبو عثمان المازني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٨هـ) قال: من أراد أن يعمل كتابًا كبيرًا في النحو بعد سيبويه فليستحي[٤].

٦. جاء يهودي ليقرأ على المازني «كتاب سيبويه» فبذل له مئة دينار، فامتنع، وقال: هذا الكتاب يشتمل على ثلاث مئة آية ونيف، فلا أمكِّن منها ذميًا[٥].

٧. ومن العجائب أن المازني تخرَّق كتاب سيبويه في كُمِّه نيفًا وعشرين مرة[٦].

٨. قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): أتيتُ الوزير الزيات، فقلت له: أردتُ أن أُهديَ إليك شيئًا، ففكرتُ فإذا كل شيء عندك دونه، فلم أرَ أشرف من «كتاب سيبويه»؛ اشتريته من ميراث الفراء. فقال: والله ما أهديت إليَّ شيئًا أحب إليَّ منه[٧].

٩. أبو حاتم السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) قرأ «كتاب سيبويه» على الأخفش مرتين[٨].

---

(١) مجالس العلماء للزجاجي (ص: ١٩١) ومعجم الأدباء (١٤٤٣/٤).

(٢) الموافقات (٥٤/٥).

(٣) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٧٥).

(٤) تاريخ العلماء النحويين للتنوخي (ص: ٦٨).

(٥) معجم الأدباء (٧٥٩/٢) وسير أعلام النبلاء (٢٧١/١٢).

(٦) البصائر والذخائر (١٢٨/٦) وربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤٧/٤).

(٧) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٥١/٢).

(٨) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٦٨/١٢).

١٠. كان المبرد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٦هـ) إذا أراد مريد أن يقرأ عليه «كتاب سيبويه»، يقول لَهُ: هل ركبتَ البحر؟ تعظيمًا له، واستصعابًا لما فيه(١).

١١. أبو الفهد البصري -رحمه الله تعالى- (بعد ٣٠٠هـ) قرأه على الزَّجّاج مرتين(٢).

١٢. أبو سعيد السيرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٨هـ) يشرح كتابه «المدخل إلى كتاب سيبويه» ويقول لتلميذه: علّق عليه، واصرف همتك إليه؛ فإنك لا تدركه إلاّ بتعب الحواسّ، ولا تتصوّره إلاّ بالاعتزال عن الناس(٣).

١٣. ابن المَكْوِي الإشبيلي (ت ٤٠١هـ) كان في أول حاله يَلْحَنُ في فتاويه، ففطِن لنفسه، فأشاع ذِكر مرضه، وحبس نفسه فيه شهرًا، عاكفًا على «كتاب سيبويه»، فخرج مكتفيًا من علم النحو(٤)

١٤. سراج بن عبد الملك القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٨هـ) أكثرَ أخذَه عن أبيه، وقرأ عليه «كتاب سيبويه» ثلاث مرات، قراءةَ تفقُّه وتفهُّم(٥).

١٥. يقول ابن فرتون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٢هـ) مفتخرًا بحفظه لـ«كتاب سيبويه»:

لو لم يكن لي آباء أسود بهم ... ولم يثبت رجال العرب لي شرفًا
ولم أنَلْ عند مَلِك العصر منزلة ... لكان في سيبويه الفخر لي وكفى(٦)

١٦. النحوي أبو بكر الخِدَبُّ الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) كان قائما على «كتاب سيبويه» يَشرحه، وبضعة كتبٍ أصولٍ، ويرى أن ما عداها في الصناعة مُطَرَّحٌ.. ثم ارتحل يريد الحج، فأَقسَمَ أن يُقرِىءَ بالبصرة، حيث وَضع سيبويهُ كتابَه، فأقرأ بها، وكرَّ راجعًا(٧).

---

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٥٥).
(٢) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (١/١٠١).
(٣) معجم الأدباء (٢/٨٧٩) والدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ٣٣٣).
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٧/١٢٨).
(٥) معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي (ص: ٣٠٦).
(٦) تحفة القادم (ص: ٢٢) وبغية الوعاة (١/٥٥٧).
(٧) التكملة لكتاب الصلة (٢/٥٦) وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٠/٣١٣).

١٧. ابن خروف الأندلسي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٩هـ) شرح «سيبويه»، فأعطاه الأمير ألف دينار(١). وكان ابن خروف لا يقريء أحدًا «كتاب سيبويه» إلا بمئة دينار(٢).

١٨. قال أبو جعفر أحمد الحميري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٠هـ): يَعجَب أحدكم من حفظ «ديوان المتنبي»؟! والله لقد أدركتُ أقواما لا يعُدُّون مَن حفِظ «كتاب سيبويه» حافظًا، ولا يَرَوْنه مجتهدًا!(٣).

١٩. لازَم النحوي ابن عُصفور -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٩هـ) أبا علي الشَّلُوبِين -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٠هـ) نحوًا من عشرة أعوام، إلى أن ختم عليه «كتاب سيبويه» في نحو السّبعين طالبًا(٤).

٢٠. النحاس النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٨هـ) له كتاب في تفسير «أبيات سيبويه»، ولم يُسبق إلى مثله(٥).

٢١. محمد القللوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ) تكلم في مسألة في العربية، نقلها عن سيبويه، فقال له القاضي: أخطأ سيبويه! فكاد يُجَنُّ، ولم يقدر على جوابه؛ لمكان منصبه! فجعل يدور في المسجد ودموعه تنحدر، وهو يقول: أخطأ من خطّأه. ولا يزيد عليها(٦).

٢٢. قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): كتاب سيبويه مما لا يَقدر على مثله عامة الخلق(٧).

وقال -أيضًا-: «كتاب سيبويه» في النحو؛ إذا فهمه الإنسان، كان لسيبويه في قلبه من الحُرمة، ما لم يكن قبل ذلك(٨).

---

(١) البداية والنهاية ط هجر (٧/١٧).
(٢) الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ١١٥).
(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٢٢١).
(٤) تاريخ الإسلام (٢٨٩/٤٩) وفوات الوفيات (١٠٩/٣) والوافي بالوفيات(١٦٥/٢٢).
(٥) وفيات الأعيان (٩٩/١).
(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة (٥٣/٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤٣٣/٥). واسمه بِلامين اثنتين.
(٧) النبوات لابن تيمية (١٧٢/١).
(٨) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣٣٣/٨).

وقال: ليس في العالَم مثل «كتاب سيبويه»، وفيه حكمة لسان العرب[١].

٢٣. أبو حيان النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) التزم أن لا يُقرئ أحدًا، إلا إن كان في «سيبويه»، أو في «التسهيل» لابن مالك[٢].

٢٤. قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ) عن سيبويه: صَنَّف في النحو كتابًا لا يُلحَقُ شأْوُه، وشرحه أئمة النحاة بعده، فانغمروا في لُجَجِ بحره، واستخرجوا من جواهر حاصِلِه، ولم يبلغوا إلى قَعْره[٣].

٢٥. ومن العجائب المُبْهِرة أن الجن لهم اعتناء بـ«كتاب سيبويه»! بل يَميلون لمذهب سيبويه من بين النحويين! وسيأتيك تفصيل هذا الخبر العجيب، وذلك في موضعه بعد صفحات[٤].

٢٦. ومن الطرائف قول المازني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٨هـ): قرأ عليَّ رجل «كتاب سيبويه» في مدة طويلة، فلما بلغ آخره قال لي: أما أنت؛ فجزاك الله خيرًا، وأما أنا فما فهمتُ منه حرفًا![٥].



(١) مجموع الفتاوى (٩/٤٦).
(٢) الوافي بالوفيات (٥/١٧٥).
(٣) البداية والنهاية ط هجر (١٣/٦٠٧).
(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري (ص: ٥٦).
(٥) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١/٢٨٣).

٥٥. نماذج للمتلذِّذين من حَفَظة الكتب لا المتون

إليك مئة وواحد وعشرين نموذجًا لمتلذذين بالعلم، يحفظون كُتُبًا لا مُتُونًا

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
١. ابن النحاس البياسي (٦٥٣هـ)	الحماسة وديوان أبي تمام والمتنبي	٤٠٠٠ بيت -٩٠٠ ص ٣٢٢ قصيدة
٢. الشاعر ابن منير الاطرابلسي	الجمهرة لابن دريد	٣ مجلدات
٣. ابن طُعَيمة الجراحي	«الشفا» لعياض	مجلدان
٤. محمود شاكر (ت ١٤١٨هـ)	ديوان المتنبي[1]	٣٢٢ قصيدة
٥. إبراهيم ابن الوزان القيرواني(٣٤٦هـ)	العين للخليل	٨ج
٦. الكمال البسطامي الحنفي	كتاب الهداية في الفقه	٤ مجلدات
٧. ابن أبي كدية التميمي (ت ٥١٢هـ)	كتاب الهداية في الفقه	٤ مجلدات
٨. ابن السّيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ)	العين للخليل	٨ مجلدات
٩. خلف الله المجاصى (ت ٧٣٢هـ)	المقدمات والبيان والتحصيل لابن رشد	٣ج + ١٨ج
١٠. ظهير الدين النعماني (ت ٥٩٨هـ)	لباب التفسير والوجيز للغزالي والإيضاح لأبي عليّ وجمهرة ابن دريد[2]	٤ ج - ١ج ٢ج -٢ج

---

(١) ظل النديم - جواد العلي (ص ٩٩). وقد قال محمود شاكر عن نفسه: حفظتُ ديوان المتنبي، وأنا في الرابعة الابتدائية، من أول حرف فيه إلى آخره.

(٢) وصفُوه فقالوا: يسرُدها كما يسرد الفاتحة. وقال عن نفسه: كتبتها وحفظتها في مدة أربع عشر سنة. انظر: أعيان العصر وأعوان النصر (٣/٢٥).

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
١١. الشهرزوري (ت ٦٨٢هـ)	المهذب لأبي إسحاق	٣ مجلدات
١٢. محمد المنير البلبيسي	الروضة للنووي عن ظهر قلب	١٢ مجلد
١٣. فرج الصفدي (ت ٧٥١هـ)	يسرد الروضة، كأنها مرآته	١٢ مجلد
١٤. ابن الفخار الأنصاري (ت ٥٩٠هـ)[٣]	مسلم وأبو داود -مقدمات ابن رشد[٤]	٣٠٣٣حديثًا ٥٢٧٤حديثًا -٣ ج
١٥. عبد اللطيف ابن اللباد (ت ٦٢٩هـ)	أدب الكاتب لابن قتيبة[٥]	٦٠٠ص
١٦. صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ)	كتاب الحماسة لأبي تمام	٤٠٠٠ بيت
١٧. الأديب الخضر بن ثروان التومائي	مجمل اللغة وشعر الهذليين	٢ج -٣ج
١٨. ابن عبد المنعم الحميري (٧٢٧هـ)	«الصحاح» في اللغة للجوهري	٦مجلدات
١٩. بو جعفرك البيهقي (ت ٥٤٤هـ)	«الصحاح» في اللغة للجوهري	٦مجلدات
٢٠. أبو العلاء الهمذاني (ت ٥٦٩هـ)[٦]	جمهرة ابن دريد ومجمل ابن فارس	٣ج -٨٥٠ ص
٢١. ابن فرتون الأبرش(ت ٥٣٢هـ)	أدب الكتاب والمقتضب والكامل	٦٠٠ص ٤ ج - ٤ج
٢٢. بَشِير الغَزِّي (ت ١٣٣٩هـ)	الأمالي للقالي+الكامل للمبرد	٤ج+٤ج
٢٣. إبراهيم المازِني (ت ١٣٦٨هـ)	«الكامل» للمبرد[٧]	٤ج
٢٤. محمد الفارقي (ت ٥٦٤هـ)	نهج البلاغة	٧٠٠ ص

---

(٣) ومن شدة ضبطه له قال بعض أصحابه: لو أضيف هذا الكتاب إليه فقيل: كتاب ابن الفخار، لكان أحق بالإضافة إليه منه إلى مسلم. انظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٩٥/٤).

(٤) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة(٩٧/٤) قال ابن الفخار: ثلاثة كتب هي عندي كسورة من القرآن: كتاب مسلم والمقدمات والتقصي.

(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٨٤).

(٦) معجم الأدباء (٨٢٥/٢) وقد حفظ «كتاب الجمل» في النحو، في يوم واحد من الغداة إلى وقت العصر. .

(٧) قال الزركلي في الأعلام (٧٢/١):حفِظ «الكامل» للمبرد في صِباه غَيبًا.

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
٢٥. عبدالرحمن بن عبدالغني المقدسي (٦٤٣)	كتاب الكافي	٤ مجلدات
٢٦. أحمد بن محمد المقدسي (ت ٦٤٣هـ)	كتاب الكافي	٤ مجلدات
٢٧. أحمد الوجيزي (ت ٧٢٩هـ)	الوجيز للغزالي - فعرف به	٢ج
٢٨. يوسف الوجيزي (ت ٦٦٧هـ)	الوجيز - فعرف به	٢ج
٢٩. إبراهيم الجعبري (ت ٧٣٢ هـ)	التيسير في القراءات	٦٠٠ص
٣٠. صالح بن عمر العسقلاني (٨٦٨ هـ)	منهاج الأصول	٥٠٠ص
٣١. عبد الله بن عيسى الشيباني السرقسطي (ت ٥٣٠هـ)	صحيح البخاري وسنن أبي داود بالإسناد	٧٥٦٣ حديثًا ٥٢٧٤ حديثًا
٣٢. أبو عبد الله بن الفخار القرطبي	المدونة والنوادر لابن أبي زيد	٤ ج - ١٤ ج
٣٣. ابن أبي الخير العمراني اليماني	المهذب	٣ مجلدات
٣٤. علي بن إبراهيم البجلي (ت ٧١٥هـ)	المهذب والوسيط	٣ج +٧ج
٣٥. أحمد بن قطب الدين الصفوري	صحيح البخاري	٧٥٦٣ حديثًا
٣٦. ابن عروس الضيروطي الشافعي	كتب كثيرة يسردها عن ظهر قلب	(لم تذكر لكثرتها)
٣٧. السلطان أبي عبد الله المهدي	صحيح البخاري وديوان المتنبي	٧٥٦٣ حديثًا
٣٨. أحمد المرجولي	المدونة	٤ مجلدات
٣٩. علي بن عبد الله المتيوي	المدونة[٨]	٤ مجلدات
٤٠. شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ)	الجمع للحميدي المحلى[٩]	مجلدان+١٢ج

(٨) عرض المدونة يومًا واحدًا عن ظهر قلب، ثم صار يُلقي مِن حفظه. انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٢٣).

(٩) مما قالوا عنه: لو شاء أورد «المحلى» عن ظهر قلب! انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٣٤٩).

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
٤١. الفخر الرازي المفسر (ت ٦٠٦هـ)	المعتمد	مجلدان
٤٢. أحمد بن مغيث الصدفي(ت ٤٥٩هـ)	صحيح البخاري - ويعرف رجاله	٧٥٦٣ حديثًا
٤٣. محمد بن عبد الملك الأيادي(٥٩٥هـ)	صحيح البخاري أسانيد ومتونًا	٧٥٦٣ حديثًا
٤٤. محمد بن يخلفتن الفازازي(٦٢١هـ)	صحيح البخاري	٧٥٦٣ حديثًا
٤٥. الأمير يوسف بن عبد المؤمن	صحيح البخاري	٧٥٦٣ حديثًا
٤٦. علي بن عبد الكافي السبكي	المحصول والأربعين في الكلام للرازي والمهذب والوسيط[١٠]	٦ج -٢ج ٣ج-٧ج
٤٧. أبو القاسم ابن الحرستاني	الوسيط للغزالي	٧ج
٤٨. مخلوف بن علي البلبالي (٩٤٠هـ)	حفظ صحيح البخاري على كبر	٧٥٦٣ حديثًا
٤٩. الفقيه أبو المطرف	الموطأ والمدونة حرفًا حرفًا	١٩٤٢ ح-٤ مج
٥٠. أبو الرشيد ابن هاني الأندلسي	الموطأ	١٩٤٢ حديثًا
٥١. أبو الفضل بن الأمير نيكبي	الحاوي للقزوينيّ	٥٠٠ ص
٥٢. الفقيه نجم الدين الخبوشاني	كتاب المحيط	٥٠٠ ص
٥٣. محمد ابن بدادة المالقي	صحيح مسلم سندًا ومتنًا	٣٠٣٣ حديثًا
٥٤. محمد السَّرقسطيّ (ت ٤٧٣هـ)	صحيح البخاريّ والموطّأ	٧٥٦٣ حديثًا
٥٥. أبو القاسم بن علي الشاطبي (٩٥٠هـ)	البخاري من تكراره في رمضان	٧٥٦٣ حديثًا
٥٦. ابن قطب الشيشيني الحنبلي	الفروع لابن مفلح	١١ مجلد

(١٠) قالوا: في الغالب ينقل عبارة المهذب والوسيط بالفاء والواو. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠/١٩٩).

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
٥٧. أبو بكر الدلجي الشافعي	ألفية ابن مالك وشرح الأشموني	٤ مجلدات
٥٨. حسام زاده الرومي(ت ١٠٨١هـ)	أكثر الكشاف	٤ مجلدات
٥٩. ابن علوان الأسود (ت ١٠٧٤هـ)	الجامع الصغير للسيوطي نَسَخَه ٢١ نُسخة فحفظه	١٤٥٨٧ حديثًا
٦٠. القاسم ابن أمير اليمن المتوكل(١١)	بلوغ المرام والبخاري ومسلم	١٤٦٩ +٧٥٦٣+ ٣٠٣٣ حديثًا
٦١. قاضي الملك بدر الدولة ابن صبغة	يُدرِّس الكتب الستة عن ظهر قلب	قرابة ١١ ألف
٦٢. أبو عبد الله ابن الحنبلي	«المنتخب» لابن الجوزي	٥٣٠ ص
٦٣. المفسر ابن عَطِيّة (ت ٣٨٣هـ)	يحفظ في الاستشهاد على معاني القرآن	٥٠ ألف بيت
٦٤. ضياء الدين ابن الأثير الجزري	ديوان أبي تمام والمتنبي	٩٠٠ص ٣٢٢قصيدة
٦٥. عمر بن أحمد العمري (٦٢٨هـ)	الموطأ	١٩٤٢ حديثًا
٦٦. علي ابن سعدوك (٥٧٨ هـ)	صحيح مسلم	٣٠٣٣ حديثًا
٦٧. محمد بن سيمون (ت ٣٥٨هـ)	المدونة كما يحفظ القرآن	٤ مجلدات
٦٨. علال بن الفقيه الثغراوي	مختصر خليل وشروحه	١٠٠٠ ص
٦٩. موسى بن يلكحت المعمودي (٧٣٠)	صحيح البخاري لقب بالبخاري	٧٥٦٣ حديثًا
٧٠. إسحاق الجابري (ت ٦٠٩هـ)	المدونة	٤ مجلدات

(١١) قد سبق قول الشوكاني في البدر الطالع (٤٠/٢): أسمع عليَّ بلوغ المرام من حفظه من أوله إلى آخره والكتاب بيدي، فسبحان الفاتح المانح، وهو الآن يسمِّع عليَّ «صحيح البخاري ومسلم»، يفِدُ إليَّ في بعض أيام الأسبوع ويواظب على ذلك مواظبة عظيمة، ويفهم فهمًا جيدًا.

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
٧١. أحمد بن محمد النفزي	الموطأ والبخاري[١٢]	٧٥٦٣ حديثًا
٧٢. أبو زيد ابن عفان الجزولي	المدونة[١٣]	٤ مجلدات
٧٣. أحمد بن أبي مروان الأنصاري	صحيح مسلم[١٤]	٣٠٣٣ حديثًا
٧٤. ابن الأديب السعدي (ت ٥٥٩هـ)	«كتاب سيبويه» كسورة من القرآن	٤ مجلدات
٧٥. محمد بن زهر ابن الحاج الإشبيلي	البخاري بإسناده والنبات لأبي حنيفة	٧٥٦٣ ح-٦ج
٧٦. محمد بن إبراهيم بن غصن(٧٢٣هـ)	«موطأ» مالك	١٩٤٢ حديثًا
٧٧. أحمد المزجلدي (ت ٨٦٤هـ)	المدونة وكلام شارحيها بألفاظهم	٤ مجلدات
٧٨. الأمير محمد بن القائم(ت ٩٦٤هـ)	ديوان المتنبي	٣٢٢ قصيدة
٧٩. أبو الخير عبدالرحيم الأصبهاني (٥٦٨)	صحيح البخاري[١٥]	٧٥٦٣ حديثًا
٨٠. عبد الرحمن بن الفحام (٥١٦هـ)	يحفظ القراءات كالفاتحة	١٠ قراءات
٨١. برهان الدين ابن الفركاني	يورد مسائل الرافعي كالفاتحة	١٠ مجلدات
٨٢. أحمد بن زيني دحلان	أدمن تدريس البخاري كالفاتحة	٧٥٦٣ حديثًا

(١٢) قال في الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٢٣١/١): يقرأ من كل واحد منهما نحو عشرة أوراق، عرضًا بلفظه، كل يوم لا يتوقف.

(١٣) قال في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٣١٤/١): يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه؛ معظمهم يستظهر «المدونة».

(١٤) قال في الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤٤٣/١): حتى إنه نسخ منه نُسخًا من حفظه، ذاكِرًا لأسماء الرجال.

(١٥) وكان يقول: من أراد أن يقرأ المتن أقرأ له الإسناد، ومن أراد أن يقرأ الإسناد أقرأ له المتن. سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥٧٤/٢٠).

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
٨٣. عم حماد الأنصاري الملقب بالبحر	يسرد البخاري كالفاتحة وعمره ٩٥	٧٥٦٣ حديثًا
٨٤. الفقيه قطب الدين اليونيني الحنبلي	الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو ومسلم، وغالب مسند أحمد(١٦)	٣٠٣٣ حديثًا
٨٥. الزاهد أبو القاسم بن منصور القباري	الجمع بين الصحيحين - باختلاف الطرق والألفاظ، وبالفاء والواو	٣٥٧٤ حديثًا
٨٦. محمد البشير الإبراهيمي (ت ١٣٨٥هـ)	ألفية ابن مالك وابن معطي وألفيتا العراقي وديوان الحماسة(١٧)	٤٠٠٠ + ٤٠٠٠
٨٧. فرج المغربي الصَّفَدِي(٧٥١هـ)	يسرد الرَّوْضَة كأنها مرآته	١٢ مجلد
٨٨. ابن الصَّيْرَفِي (ت ٨٤٤هـ)	الروضة+ القوت للأذرعي	١٢ج+١٢ج
٨٩. أبو زرعة - (ت ٢١١هـ)	كتب أبي حنيفة يسردها كالماء	٣ كتب
٩٠. يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني	عشرة آلاف حديث	يسردها سردًا
٩١. ابن باز (ت ١٤٢٠هـ)	تقريب التهذيب لابن حجر	٧٦٢ ص
٩٢. أبو الذكاء القرشي (٦٨٧هـ)	تفسير الثعلبي	١٠ مجلدات
٩٣. ابن رسلان الخوارزمي (ت ٥٠٣هـ)	تفسير الثعلبي	١٠ مجلدات

(١٦) قرئ عليه «مسند الإمام أحمد»، فكان يُعلِّم على أحاديث تمر به، فلما انتهى سئل عن ذلك فقال: هذه لا أحفظها، فأنا أعلِّمها؛ لأحفظها. فاعتبروها، فكانت مقدار مُجيليد صغير. انظر: ذيل مرآة الزمان (٣٨/٢) والبداية والنهاية ط هجر (٤١٦/١٧).

(١٧) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢٧٣/٥) ويقول عن محفوظاته المذكورة أعلاه: ما بلغتُ تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظها، مع حفظ القرآن، مع فهم مفرداته وغريبه!!.

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
٩٤. شمس الدين أبو عبد الله البعلبكي (ت ٨٠٠هـ)	مختصر مسلم للمنذري والمنتقى للمجد ابن تيمية	٢١٧٩حديثًا ٣٩٢٦حديثًا
٩٥. ابن هبة الله الأسنائي (ت ٧٠٧هـ)	منتخب الرازي+مختصر مسلم للمنذري	٧٢٣ص +٢١٧٩ح
٩٦. الفيلسوف ابن رشد الحفيد	ديوان أبي تمام والمتنبي	٩٠٠ص ٣٢٢قصيدة
٩٧. أبو الفضل الرياشي النحوي	كتب الأصمعي	١٢ كتابًا
٩٨. أحمد بن قتيبة	تصانيف أبيه ابن قتيبة	٢١ كتابًا
٩٩. نجم الدين أحمد بن الشهاب المقدسي	الجمع بين الصحيحين للحميدي	٣٥٧٤ حديثًا
١٠٠. يحيى بن معط الزواوي النحوي	من محفوظاته صحاح الجوهري	٦ مجلدات
١٠١. أبو العباس القدسي (ت ٨٧٠هـ)	صحاح الجوهري	٦ مجلدات
١٠٢. محمد بن صدقة الغنوي	حماسة أبي تمام وأدب الكاتب ابن قتيبة	٤٠٠٠ بيت–٦٠٠ص
١٠٣. أحمد القدومي النَّابُلُسي(١٣٢٣هـ)	تفسير الجلالين	٨٠٠ صفحة
١٠٤. أحمد ابن المطارحي (ت ٧٢٤هـ)	حلية الأولياء لأبي نعيم	١٠ مجلدات
١٠٥. موسى الحازمي(ت ٥٨٤هـ)	«الإكمال» لابن ماكولا	٧ مجلدات
١٠٦. ابن عَبْدُون الأندلسي(٥٢٩هـ)	«الأغاني» لا يخطئ فيه واوًا ولا فاءً	٢٤ مجلدًا
١٠٧. ابن كاتب قطلوبك (ت ٧٥١هـ)[١٨]	المنتخب	٧٠٠ص

(١٨) أعيان العصر للصفدي (٦٥٤/٤). قال: وحفظ مختصر ابن الحاجب في مدة تسعة عشر يومًا، وهذا أمر عجيب باهر إلى الغاية، فإن ألفاظ المختصر غلِقة عقِدة، ما يرتسم معناها في الذهن، وحفظ «المنتقى» في الأحكام، وقال: أحفظ منه في كل يوم خمس مئة سطر.

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
١٠٨. ابن الديري (ت ٨٦٧هـ)	الكنز للنسفي +المشارق لعياض	٧٠٠ص+٢ج
١٠٩. أبو إسحاق الغرافي (ت ٧٣٨هـ)	الوجيز للغزالي(١٩)	٢ج
١١٠. ابن مشمعل (ت ٧٤٥هـ)	الوجيز	مجلدان
١١١. ضياء القِرْمي (ت ٧٨٠هـ)	الكشاف والحاوي(٢٠)	٤ج - ٥٠٠ص
١١٢. طاهر النجار (ت ٥٧٥هـ)	أدب الكاتب وعشرات الدواوين(٢١)	٦٠٠ص -٢٠٠٠٠٠بيت
١١٣. السروجي (ت ٦٩٣هـ)	المتنبي والمفصل والمقامات(٢٢)	٣٢٢قصيدة ٥٧٠-٥٦٠
١١٤. الحسين الهذباني الإربلي (ت ٦٥٦هـ)	المقامات والمتنبي	٥٦٠-٣٢٢ قصيدة
١١٥. ابن القماح (ت ٧٣٣هـ)	مقامات الحريري وديوان المتنبي	٥٦٠-٣٢٢ قصيدة
١١٦. والدة الأمير المفسر ابن نجيَّة	تفسير «الجواهر» لوالدها(٢٣)	٣ مجلدات
١١٧. ابن فرحون اليعمري (٧٦٩هـ)	تفسير ابن عطية(٢٤)	١٠ مجلدات
١١٨. أبو بكر با فقيه (ت ١٠٠٥هـ)	فتح الجواد للهيثمي بالفاء والواو	٣ مجلدات
١١٩. سيدي المختار الشنقيطي(١٣٩٧هـ)	الإتقان للزركشي+فتح الباري	٢+١٣

(١٩) معجم الشيوخ الكبير للذهبي (١/١٢٨).
(٢٠) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/١٨٣).
(٢١) التدوين في أخبار قزوين (٣/٩٧).
(٢٢) الوافي بالوفيات (١٧/١٨٣).
(٢٣) الأنس الجليل (١/٢٩٧) وذيل طبقات الحنابلة (٢/٥٣٧).
(٢٤) يقول: لازمت تفسير بن عطية حتى كدت أحفظه! الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١/٤٥٥).

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	صفحة - مجلد
١٢٠. ابن المُغْلِي الحنبلي (ت ٨٢٨هـ)	يحفظ لكل مذهب وفن مَتنًا	المحرر-الفروع-التمييز-القانون
١٢١. ابن المرحل العثماني (ت ٧١٦هـ)	كثيرة إذا وضعها على بعض كانت =	طول قامته

جدول لعلماء لُقِّبوا بأسماء كتب حفظوها وأتقنوها

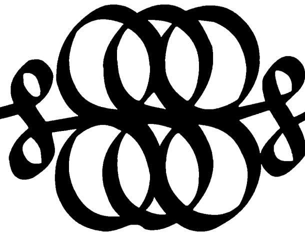
العالِم	اللقب والكتاب
١. مُصْلح الدين الأماسي(ت ٩٣٦هـ)	اشتهر بلقب «حافظ الكتب»(١)
٢. محمدبن علي الحاتِمِي القُشَيْري	لإكبابه على قراءة «رسالة القُشيري»(٢)
٣. الحارث بن سريج النقال(٢٣٦هـ)	لأنه نقل رسالة الشافعي إلى ابن مهدي(٣)
٤. الإمام الزركشي (٧٩٥) المنهاجي	لعنايته بمنهاج الطالبين للنووي
٥. علي بن دقيق المحبِّري	لحفظه كتاب «المحبّر»(٤)
٦. أحمد الواسطي الوجيزي(٧٢٩هـ)	لحفظه كتاب «الوجيز»(٥)
٧. ابن الصارم الوجيزي(٦٦٧هـ)	لحفظه كتاب «الوجيز»(٦)
٨. الأشمومي الوجيزي (٧٢٩)	لحفظه كتاب «الوجيز»

(١) الأعلام للزركلي (٧/٣٢٩).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤/٥٣٩).
(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٤/٥٠١).
(٤) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٥/٢٨٣).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١/٢٨٨).
(٦) تاريخ الإسلام ت بشار (١٥/١٤٩).

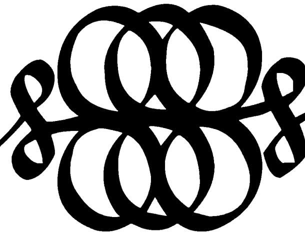
العالِم	اللقب والكتاب
٩. محمد البقال الآدمي	لحفظه كتاب «الآدمي» في النحو(٧)
١٠. مظفر بن الحسين المقترح	لحفظ كتاب المقترح في المصطلح(٨)
١١. الملا محمد الأخلاقي (ت ١٠٢١هـ)	لأنه كتب كتاب أخلاق علائي في ٤٠ مجلدًا(٩)
١٢. ابن فارس الحنفي (ت ٨٢٦هـ)	الشهير بقارئ الهداية(١٠)
١٣. النحوي علي بن أبي زيد	الفصيحي؛ لكثرة إعادته ودرسه «الفصيح»(١١)
١٤. محمد الرومي الكافيجي(٨٧٩هـ)	لكثرة اشتغاله بكتاب«الكافية» في النحو(١٢)
١٥. علاء الدين التعجيزي (٧٦٤هـ)	لأنه حفظ التعجيز لابن يونس(١٣)
١٦. محمد المغربي(١١٤٠هـ)=قارئ الدرر	لأنه مَهَرَ في أبحاثها(١٤)



(٧) تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص: ٢٧١).
(٨) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٢٨/٤٤).
(٩) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢٩٤/٤).
(١٠) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٤١٩/٢).
(١١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٧٤) المقتبس من أنباء الأندلس (ص: ١٧٢).
(١٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٨٨/٩).
(١٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠٨/٤).
(١٤) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١٢٣/٣).



الباب الحادي عشر:
لذَّة نظم العلم



٥٦. لذة نَظْم العلم، وتوظيف الشعر لخدمة العلم؛ فهمًا أو حِفظًا(١):

من الاستمتاع الذي يجمع بين اللذة والرفعة، نظم العلم، والاشتغال بالشعر الخادم للعلم؛ لأجل تسهيل فهمه أو تسهيل حفظه، فهو باب يقرِّب العلم، ويحقق حفظ قواعده ومسائله:

لا شيء أحلى في مسامع مغرَمٍ ... يلهو به سوى الأشعارِ
فَطُروسها تحكي الرياض وإنها ... لذوي المعاني لذة الأبصارِ(٢)

ومن طرائف الولَع بالمنظومات: أن الشيخ عبد الرحمن النعسان -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٣هـ) كان مُغرَمًا بـ«ألفية ابن مالك»، حتى قال: لو سألني الملَكان في القبر: مَن ربك، ومَن نبيك؟ لأجبتُهما من الألفية:

.... أحمد ربي الله خير مالكِ
مصليًا على النبي المصطفى ... وآله المستكمِلين الشُّرَفا(٣)

والمنظومات والأراجيز هي ضرب من ضروب الشعر الموزون والمقفَّى، ومنها ما كان بين العشرة ودون المئة، ومنها ما يبلغ الألف، بل الآلاف.

---

(١) ثمَّت مبحث لطيف، ولَصِيق بهذا المبحث، وليت أحدًا يجمعه، ألا وهو: الشعراء العلماء. فكثير من مشاهير الشعراء هم علماء فطاحلة، لكن طغى الشعر عليهم، فغطى من العلم ما لديهم! وسيمرُّ بك في ثنايا الصفحات طائفة من هؤلاء الشعراء العلماء، كالمتنبي، وأبي تمام، وأبي نواس، وكشاجم، والمعرّي، والصرصري.

(٢) رحلة الشتاء والصيف للحمزي= كبريت (ص: ١٠٣).

(٣) معجم الشيوخ د. صفوان داودي (ص: ١٧٣).

وهذا النظم في العلم صاغه علماء الأمة؛ ليكون سبيلًا لتسهيل العلوم وضبطها. ويجِد حافظه لذة في العلم كبيرة. وهو سلِس على نفس القارئ، محبَّب للمتعلم، وحفظه يَحول بين طالب العلم وبين الوقوع في الخطأ؛ وذلك لالتزامه بميزان النظم وزنًا ورويًا.

ومن غرائب النظم أن حنفيًا شرح قصيدةً في الفقه لحنبليٍّ!

فهذا الزريراني الحنبلي -رحمه الله- (ت ٦٥٦هـ) له نظم لـ«مختصر الخرقي»، وقد شرح نظمَه هذا ابن الحنبلي التاذفي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧١هـ) معَ أنّه كان حنفيًا، ولكن جده كان حنبليًا[١].

والمنظومات التعليمية تدل على أن ناظمها متمكن علميًا، وموهوب في نظم الشعر والحبك والسبك والبناء العروضي، وخزينته اللغوية متنوعة.

أخرجتَ دُرَّ البحر من أصدافهِ ونظمتَه في كل معنىً مبدعِ[٢]

ومن النوادر العجيبة في التمكن من النظم الشعري: أن حافظ إشبيلية، الأديب الهيثم بن الهيثم -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٠هـ) كان يُملي على شخص شعرًا، وعلى ثانٍ موشحة، وعلى ثالث زَجَلًا، وكل ذلك ارتجالًا دون توقف[٣].

ومن النوادر -أيضًا- أن يَنظم العالِم منظومة، مشتملة على عدة فنون من العلم، وخذ على لك ثلاثة أمثلة:

١. عبد العزيز بن عبد الواحد اللمطي -رحمه الله تعالى- (بعد ٩٥٦هـ) له منظومة، فيها نيف وعشرون فنًا[٤].

٢. عفيف الدين اليافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٨هـ) له منظومة من ثلاثة آلاف بيت، وتشتمل على عشرين علمًا[٥].

---

(١) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٧٩/١).

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين (٣٩٧/٣).

(٣) المغرب في حلى المغرب (٢٦٣/١).

(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٢٧٦).

(٥) الوفيات لابن رافع (٣١٣/٢) والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (٧٥/٧) وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٩٥/٣).

٣. عَلَوي السَّقَّاف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٥هـ) له منظومة، لخَّص بها ثلاثين علمًا[١].

ومن الطرائف الغرائب في التمكن العلمي في المنظومات: منظومة للسيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) وعنوانها «التبرِّي من معرَّة المَعَرِّي». وترجع تسمية هذه المنظومة بهذا الاسم، إلى ما رواه السيوطي في مقدمتها، من أن أبا العلاء المعري عثر برَجُل، فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسمًا!

فانقطع السيوطي لبحثها وجمعها. قال السيوطي معلقًا: وقد تتبعتُ كتب اللغة، فحصلتُها ونظمتُها[٢].

ومن أطول ما وقفت عليه من النظم، ما نظمه الفقيه الشاعر الصرصري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ) حيث بلغت مدائحه في النبي ﷺ عشرين مجلدًا[٣].

وأطول منها ما جمعه الأمير علاء الدين علي بن أمير -رحمه الله تعالى- (نحو ٧٣٦هـ) فقد اعتنى بجمع المدائح النبوية في مئة وخمسين مجلّدة، وعدّة القصائد ثمانية آلاف ومئتا قصيدة[٤].

ومن شدة تلذُّذ العلماء بالنظم لمن أجاده أنك تجدهم:

أ- ينظِمون العلم وأعمارهم صغار. ومن الأمثلة:

منظومة في المواقيت ٣٦٨ بيتًا	محمد بن أحمد الشاطري	وعمره ١٨ عامًا
منظومة حافظ حكمي	شرحها وعمره ٢١	ونظمها وعمره ١٩
ألفية في السيرة النبوية	أبو بكر الحبشي (ت١٣٧٤)	وعمره ٢٠ عامًا

(١) الأعلام للزركلي (٤/٢٤٩).
(٢) جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي - طاهر حمودة (ص: ٢٠٧).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٣٢).
(٤) كنز الدرر وجامع الغرر (٣/١١٢).

ب- ينظِمون العلم في أوقات قِصار. ومن الأمثلة:

نظم فصيح ثعلب ٨٠٠ بيت	ابن أبي الحديد	في يوم واحد
نظم نخبة الفكر	الصنعاني	في يوم واحد
ألفية المصطلح	السيوطي	في خمسة أيام

ومن جميل القصيد المَصيد أن ينظم العالِم قصيدةً يوصي بها ولده بطلب العلم، ليذوق من لذة العلم ما ذاقه أبوه، وإليك أربعة أمثلة بديعة:

١. قصيدة فائقة مشهورة، لأبي إسحاق الإلبيري -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٥٩هـ) كتبها إلى ابنه أبي بكر؛ حاثًا له على طلب العلم، وفيها عتاب لاذِعٌ! ومما قال فيها:

أَبَا بكر دعوتُك لَو أجبتا ... إِلَى ما فِيهِ حظك إن عقلتا
إِلَى علم تكون بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إن نهيتَ وَإِن أمرتا
فَلَو قد ذقتَ من حَلواه طعما ... لآثرتَ التَّعَلُّم واجتهدتا
وَلم يُشغلكَ عَنهُ هوى مُطَاع ... وَلَا دنيا بزخرفها فُتنتا
وَلَا ألهاكَ عَنهُ أنيق روض ... وَلَا خدر برَبْربِهِ كلِفتا
وَإِن جَلس الْغني على الحشايا ... لأَنْت على الْكَوَاكِب قد جَلستا
وَإِن ركب الْجِيَاد مسوماتٍ ... لأَنْت مناهج التَّقْوَى ركبتا
وَمهما افتضَّ أَبْكارَ الغوَاني ... فكم بِكْر من الحِكَمِ افتضَضْتا[1]

٢. منظومة للعلامة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦هـ) كتبَها لأكبر أولاده محمد، ومطلعها:

أُبنيَّ لا تُهمِلْ نصيحتيَ التي ... أُوصيكَ واسمعْ مِنْ مقالي تَرْشدِ

---

(١) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقِتِهم السخيف للوصابي (ص: ١٧٦).

٣. قصيدة طويلة في الحث على طلب العلم للعلامة جمال الدين الحبيشي الوَصَابي (ت ٧٨٦هـ) كتَبَها إلى ولده عبد الرحمن، وأولها قوله:

ما لذة الخلق في الدنيا جميعهم ... ولا الملوك وأهــل اللهو والطرب
كلذَّتي في طِلاب العلم يا ولدي ... فالعلم معتمدي حقًّا ومكتسبي(١)

٤. قصيدة في الأخلاق، وشرحها للأديب كامل الغزي (ت ١٣٥١هـ) نظمَها لابنه.

المنظومات والناظمون:

والمنظومات كثيرة، منها مندثر، ومنها ما طرح الله له القبول والانتشار، ومن أشهر المنظومات منظومة المقرئ الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) وقد نُقل أنه كان يقول عن منظومته «الشاطبية»: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلّا وينفعه الله ﷻ؛ لأنني نظمتها لله -تعالى- مخلصًا في ذلك(٢).

ولذا يُذكر أن أبا حيان التوحيدي -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٠٠هـ) نظم قصيدة على وزن «الشاطبية» في القراءات بغير رموز، وهي أخصر، وأكثر فوائد، ولكن ما رُزقت حظ الشاطبية(٣).

وهذا المقرئ الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) نظم قصيدة دالية، من خمس مئة بيت، مَن حفِظها أحاط علما بكتاب «التمهيد» لابن عبد البرّ(٤).

ومن جميل الصنيع أن يُلهِم الله صاحب منصب أو مال، فيدعو ويدعم انتشار متن منظوم، فيبارك الله للناظم وللداعم وللحافظ.

فهذا ابن مكي الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) نظم قصيدة في العقائد، وسماها «الصلاحية»؛ لأنه أهداها للسلطان صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله تعالى-، فأمر بتعليمها حتى الصبيانَ في المكتب(٥).

---

(١) تاريخ البريهي (ص: ٢٩).
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٦١/٤) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٩٤/٦).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٦١/٦).
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٦١/٤) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٩٤/٦).
(٥) تراجم المؤلفين التونسيين (٢٠٥/٤).

وقد يرى الناظم إخفاء منظومته؛ ثم يندم على الإخفاء.

فهذا المفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٣هـ) له منظومة في «نسب بني عدنان» كان ألَّفها في شبابه، ثم دفنها؛ لأنه كان يقول: إنما ألفتُها للتفوق على الأقران، ولو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لصححتُ النية، ولم أدفنها[١].

وإليك الآن استعراضًا لخمسين عالِمًا ناظِمًا، نظَموا مسائل العلم، أو كتب العلم نظمًا، ليس بألف بيت -كما هو معهود-، لكن بآلاف الأبيات، بل بعشرات الألوف! وهو جهد جبار، وأصحابه ذوو ذائقة فائقة، وستجد في ثنايا الاستعراضات عَجَبًا! فإلى الاستعراض:

١. أبان بن عبد الحميد اللاحقي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٠هـ) نظَم كتاب «كليلة ودمنة» أرجوزة في أربعة آلاف بيت[٢].

٢. أبو العباس الناشي الشاعر -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٣هـ) له قصيدة في «فنون العلوم» تبلغ أربعة آلاف بيت[٣].

٣. موسى بن أصبغ المرادي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) نظم «المبتدأ» في ثمانية آلاف بيت[٤].

٤. أبو القاسم الطوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٩) له منظومة تاريخية فارسية، اسمها «شاه نامه» نظمها في مدة ثلاثين سنة، في ستين ألف بيت[٥].

٥. الفقيه أبي الرجاء الأسواني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٥هـ) صاحب القصيدة الأطول في عدة فنون في «أخبار العالم». سئل قبيل موته: كم بلغت قصيدتك؟ فقال: مئة وثلاثين ألفًا، وبقي عليَّ أشياء تحتاج إلى زيادة[٦].

---

(١) طبقات النسابين (ص: ٣٥).
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٣/٨٦).
(٣) البداية والنهاية ط هجر (١٤/٧٣٣).
(٤) تاريخ علماء الأندلس (٢/١٤٧) وبغية الوعاة (٢/٣٠٦).
(٥) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/١٠٢٥).
(٦) المنتظم لسبط ابن الجوزي (١٤/٦١) وكشف الظنون (٢/١٣٤٢) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٢٣١).

٦. أبو عمرو الداني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٤هـ) له كتاب «الأرجوزة في أصول السنة» نحو ثلاثة آلاف بيت[١].

٧. المقرئ أبو داود بن أبي القاسم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٦هـ) له كتاب «الاعتماد» الذي عارض به المقرئ أبا عمرو، في ثمانية عشر ألف بيت وأربع مئة وأربعون بيتًا[٢].

٨. منظومة «الصادح والباغم» على أسلوب «كليلة ودمنة» في ألفي بيت، لابن الهبارية -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٩هـ)[٣].

٩. ابن عيذون الهذلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٩هـ) كان إمامًا في اللغة، حافظًا لها، ومن جملة شعره قصيدة في «الرد على المرتد البغدادي» فيها أحد عشر ألف بيت على قافية واحدة[٤].

١٠. الفقيه النَّسَفي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٧هـ) صنَّف «الجامع الكبير المنظوم» وعدد أبياته (٥٥٥٥) بيتًا[٥].

١١. الفقيه ابن المناصف -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢١هـ) له منظومة «الدرة السنية في الفروع والأدلة الشرعية» وعدد أبياتها سبعة آلاف[٦].

١٢. كمال الاصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٥هـ) له منظومة فارسية، في خمسة عشر ألف بيت[٧].

١٣. أبو نصر نجم الدين القصري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٣هـ) نظم سيرة رسول الله ﷺ في اثني عشر ألف بيت، كلها على حرف الراء[٨].

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٠/١٠٠).
(٢) المصدر السابق (٣٤/٢٣٥).
(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/١٠٦٩).
(٤) معجم السفر (ص: ٢٨١).
(٥) المصدر السابق (١/٥٧٠).
(٦) تراجم المؤلفين التونسيين (٤/٣٨٩) وهدية العارفين (٢/١٠٩).
(٧) هدية العارفين (١/٢١٢).
(٨) ذيل مرآة الزمان (٢/٣٢٨).

١٤. جمال الدين ابن مالك -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ) له «الكافية الشافية» ثلاثة آلاف بيت[١].

١٥. أبو محمد الدّميري الدّيريني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٨هـ) نظم أرجوزة في التفسير، تزيد على ثلاثة آلاف ومئتي بيت، وفي الفقه تزيد على خمسة آلاف بيت[٢].

١٦. محمد بن عبد القوي بن بدران الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٩هـ) نظم قصيدة دالية في المذهب، وأبياتها ثمانية عشر ألف بيت[٣].

١٧. عبد الرَّحمن بن إبراهيم الحلبيُّ -رحمه الله تعالى- (ت القرن ٧هـ) له أرجوزة تاريخية عن مدة ستين سنة هجرية، عدد أبياتها أربعة آلاف وسبع مئة بيت[٤].

١٨. الأديب ابن الصائغ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٠هـ) له قصيدة في نحو ألفَي بيت، في «الصنائع والفنون»[٥].

١٩. الفقيه الأديب علي بن سليم الأذرعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣١هـ) نظم «التنبيه في الفقه» في ستة عشر ألف بيت[٦].

٢٠. نظم القَصْري -رحمه الله تعالى- «سيرة ابن هشام» في أكثر من ثمانية آلاف بيت[٧]

٢١. ابن الوردي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) نظم «الحاوي الصغير» في فقه الشافعية في خمسة آلاف بيت[٨].

٢٢. محمد الحامدي الماسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) له منظومة في «السيرة

---

(١) الوافي بالوفيات (٢٨٦/٣) وفوات الوفيات (٤٠٨/٣).
(٢) الوافي بالوفيات (٢٨٤/١٨) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٧٨٥/٧).
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٤٧/٥٢).
(٤) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (٣٤٩/٢).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٥٨/٥).
(٦) تاريخ ابن الوردي (٢٨٥/٢) والمختصر في أخبار البشر (١٠٢/٤).
(٧) الأعلام للزركلي (١٣٤/٥).
(٨) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٤٥/٣) وإمتاع الفضلاء بتراجم القراء فيما بعد القرن الثامن الهجري (٢٨٣/٢).

النبوية» فيها ثلاثة آلاف بيت[١]. وله منظومة في «الفقه» قال عنها ابن حجر: وأُقسم بالله! لم يَنْظِم أحد بعده الفقه إلا وقصَّر دونه[٢].

٢٣. أحمد المستوفي القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) نظم تاريخًا في نحو خمسين ألف بيت[٣].

٢٤. ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) نظم «الكافية الشافية لانتصار الفرقة الناجية» في ستة آلاف بيت[٤].

٢٥. الفقيه النحوي أبو الحسن ابن العوينة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٥هـ) نظم «الحاوي الصغير» في قرابة خمسة آلاف بيت[٥].

٢٦. عفيف الدين اليافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٨هـ) له «نزهة الألباب في اللغة» وعددها ثلاثة آلاف وست مئة بيت، وتشتمل على قريب عشرين علمًا. والعجيب أن كثيرًا من تصانيفه نظم[٦].

٢٧. عبد الرحمن بن عمر الحُبَيشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٧هـ) نظم «التنبيه وزياداته» في عشرة آلاف بيت[٧].

٢٨. الفقيه الزيدي إبراهيم البوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩١هـ) له «الزهرة الزاهرة في فقه العترة الطاهرة» نظمها في أربعة آلاف وخمس مئة وثمانين بيتًا، على رَوِي واحد[٨].

---

(١) سوس العالمة (ص: ١٩٦).
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤/٢٢٩).
(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/١٤٧٤).
(٤) أعيان العصر وأعوان النصر (٤/٣٦٩).
(٥) المصدر السابق (٣/٣٤٥).
(٦) الوفيات لابن رافع (٢/٣١٣) والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (٧/٧٥) وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٣/٩٥).
(٧) الأعلام للزركلي (٣/٣١٩).
(٨) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٢٣١) ومطلع البدور ومجمع البحور (١/٩٤) وأعلام المؤلفين الزيدية (ص: ٧٧).

٢٩. فتح الدين ابن الشّهيد الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٣هـ) نظم «السيرة النبوية» لابن هشام، في خمسين ألف بيت(١).

٣٠. بهرام الدميري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) له «الدرة الثمينة» نحوًا من ثلاثة آلاف بيت وشرحها(٢).

٣١. نصر الله التستري -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٢هـ) نظم كتابًا في الفقه، في ستة آلاف بيت(٣).

٣٢. ابن الشحنة الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٥هـ) نظم ألف بيت في عشرة علوم، واختصر «منظومة النّسفي» في ألف بيت، مع زيادة مذهب أحمد.

٣٣. ابن أَجَا القُونَوِي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨١هـ) ترجم «فتوح الشام» للواقدي نظمًا إلى التركية، في اثني عشر ألف بيت(٤).

٣٤. الفقيه الحنفي ابن عَرَبْشَاه -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠١هـ) له منظومة في «الخلافيات» زاد على خمسة وعشرين ألف بيت، وأيضًا «كتاب التعبير» نحو أربعة آلاف بيت(٥).

٣٥. علاء الدّين البكري الصّدّيقي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٢هـ) له «تائية» في التصوف نحو خمسة آلاف بيت، ثم إنه غسلها(٦).

٣٦. أبو البركات الغزّي العامري ابن رضي الدين الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٤هـ) له «فصل الخطاب لوصل الأحباب» في اثني عشر ألف بيت(٧).

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/١٢٥).

(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/٣٤٤) ونيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٤٩).

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٤٤٤) والمجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣/٣٥٥)والجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد (١/١٧١) .

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٠/٤٣).

(٥) المصدر السابق (٥/٩٧).

(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٤١٩).

(٧) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/١٢٦٠).

٣٧. وللغزي -أيضًا- تفسير منظوم اسمه «المنظوم الكبير» في مئة ألف وثمانين ألف بيت(١).

٣٨. إبراهيم الجمل الصفاقسي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠٧هـ) له «نظم النشر» لابن الجزري، وصل فيه إلى ثلث القرآن، نحو الثلاثة آلاف بيت(٢).

٣٩. أبو المكارم الغزي العامري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٣هـ) شرح «منظومة في النحو» في أربعة آلاف بيت(٣).

٤٠. عبد الغني النابلسي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٣هـ) له منظومة «بواطن القرآن ومواطن العرفان» وصل فيها إلى سورة براءة، فبلغ نحو الخمسة آلاف بيت(٤).

٤١. أبو الفيض ابن الحاج المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٣٢هـ) له «منظومة في السيرة» على نهج البردة، في أربعة آلاف بيت(٥).

٤٢. عثمان بن سند النجدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) نظم «مغني اللبيب» على ترتيب عجيب، ينيِّف على خمسة آلاف بيت(٦).

٤٣. محمد البحري التونسي-رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٥هـ) نظم فيما به العمل من مذهب مالك في أربعة آلاف ومئتي بيت من الرجز، سماه «لقط الدرر»(٧).

٤٤. محمّد بن إبراهيم بن عريكان -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٧٠هـ) نظم «دليل الطالب» في ثلاثة آلاف بيت(٨).

٤٥. محمد أطفيش الهنتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) له أرجوزة في النحو في خمسة آلاف بيت، نظم بها «المغني» لابن هشام(٩).

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٥٩٤).

(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/٤٦١).

(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/١٩٢).

(٤) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٣/٣٠).

(٥) الأعلام للزركلي (٢/٢٧٥).

(٦) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ٤٠٧).

(٧) مسامرات الظريف بحسن التعريف(ص: ٣٠١) لمحمد بن عثمان السنوسي (المتوفى: ١٣١٨هـ).

(٨) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٢/٨٣٤).

(٩) معجم أعلام الجزائر (ص: ١٩).

٤٦. سعد بن عتيق -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٩هـ) له منظومة ناقصة في نظم «زاد المستقنع»، في ألفين ومئتي بيت، وتتمَّتها في ألفين وست مئة بيت ونيِّف، لعبد الرحمن بن سحمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣١هـ).

٤٧. سليمان بن عطية المزيني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٣هـ) نظم «زاد المستقنع مختصر المقنع» في ثلاثة آلاف بيت[١].

٤٨. محمد البشير الإبراهيمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٥هـ) له «ملحمة في تاريخ الإسلام والمجتمع الجزائري» في ستة وثلاثين، ألف بيت[٢].

٤٩. الشيخ العُماني محمد بن شامس البطَّاشي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) له أطول منظومة في التاريخ، وسماها «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب» وهي تقع في مئة وأربعة وعشرين ألف بيت، تيمُّنًا بعدد الأنبياء والرسل، وهي مطبوعة في عشر مجلدات!

٥٠. محمد علي الأثيوبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ) له منظومة: «التحفة المرْضية في نظم المسائل الأصولية على طريقة أهل السُّنة السَنِيَّة» في ثلاثة آلاف وأربعة وسبعين بيتًا.

الجهابذة المتلذذون بحفظ القصائد الكثيرة والدواوين الكبيرة

أما حفظ العلماء للقصائد والدواوين؛ فهو باب واسع عُجاب، دخلَوه وأتقَنوه وأفاضوا فيه، وقد مرَّ في ثنايا الكتاب شوارد من عجائبهم.

وإليك عشرين نموذجًا لجهابذة متلذذين، يلْتَهِمون الشعر التِهامًا، حتى إن بعض أخبارهم لا يكاد يصدَّق؛ لضعف هِمَمِنا:

١- عائشة ﵂ (ت ٥٨هـ) قال عنها ابن أختها عروة بن الزبير: كانت عائشة أروَى الناس للشعر، وما كان ينزل بها شيء إلا أنشدتْ فيه شِعرًا[٣].

---

(١) الأعلام للزركلي (١٣٠/٣) ومشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٢٣٧).
(٢) الأعلام للزركلي (٥٤/٦).
(٣) الزهد لأبي داود (ص: ٢٧٧) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥٩/٤٠).

٢- ابن عباس ﷺ (ت ٦٨هـ) حَفِظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة «أمن آل نُعْم أنت غادٍ فمُبْكِرُ» في سَمْعةٍ واحدة، وهي ثمانون بيتًا. وقد كان يدخل عليه أصحاب القرآن يسألونه، حتى يملؤوا البيت والحجرة عنده، ثم يخرجون، فيدخل أصحاب العربية والشعر يسألونه، ثم أصحاب الفقه يسألونه، كلهم يُصْدِرهم في وادٍ واسع(١).

٣- قال الشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ): ما أروي شيئًا أقلَّ من الشعر، ولو شئت أَنشدتُكم شهرًا، لا أُعيد(٢).

٤- الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ) حفِظ ست عشرة ألف أرجوزة، فقيل له: أفيها شيء هو بيت أو بيتان؟ فقال: فيها المئة والمئتان(٣).

٥- أبو القاسم التنوخي القاضي من بحور العلم والأدب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٢هـ) حفِظ قصيدة لدِعْبِل، من ست مئة بيت، في ليلة واحدة(٤).

٦- الأديب الوزير أبو الفضل ابن العميد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٩هـ) كان فى حداثته يخاطر رفقاءَه، والأدباءَ الذين يعاشرهم، على حفظ ألف بيت في يوم واحد! يقول: أحفظ عشرين عشرين، وثلاثين ثلاثين، أعيدها، ثم اشتغل بغيرها، حتى أفرغ من الجميع في اليوم الواحد(٥).

٧- أبو السمح الطائي -رحمه الله تعالى- (قبل ٣٩٥هـ) قال: حفظتُ قصيدة رؤبة «وقاتم الأعماق خاوي المخترق» في ليلة، وهي قريب من مئتي بيت(٦).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٩٦/١) وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٩١/٧٣) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٤٥/٣).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥٢/٢٥).

(٣) تاريخ بغداد ت بشار (١٥٧/١٢).

(٤) المصدر السابق (٥٥٠/١٣) وفيها قصة عجيبة مع أبيه، فانظرها -إن شئت-. وفي آخر القصة يقول التنوخي عن أبيه: فهالَه ما رآه من حُسن حِفظي، فضمَّني إليه، وقبَّل رأسي وعيني، وقال: بالله يا بني! لا تخبر بهذا أحدًا؛ فإني أخاف عليك العين.

(٥) تجارب الأمم وتعاقب الهمم (٣١٦/٦).

(٦) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٧١).

٨- الفقيه أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) قال متحدثًا عن نفسه: إذا كان في المسألة بيت يُستشهد به؛ حفظتُ القصيدة(١).

٩- محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) قال عن نفسه: كنت أريد أن أشغل نفسي عما كان يُسهرني، فتذكرت ما يَعْلَق بحفظي من الأشعار، فبلغ كذا ألف بيت(٢).

١٠- الأديب الحافظ الهيثم بن أحمد بن أبي غالب بن الهيثم -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٠هـ) من أعجب عجائبه: أنه حضر ليلةً عند أحد رؤساء إشبيلية، فقال لهم: إن شئتم تختبروني أجبتكم؛ اختاروا أي قافية شئتم، لا أخرج عنها. فتعجبوا، واختاروا القاف، فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر، وهو ينشد وزن: أرَق على أرقٍ ومثلي يأرق... وسُمَّاره قد نام بعض وملَّ بعض، وهو ما فارَق قافية القاف.

ومن المواقف المُبْهِرة: أن ابن الهيثم كان حوله أدباء، ينظرون في «ديوان ذي الرمة» فمدَّ الهيثم يده إلى الديوان المذكور، فمنعه منه أحد الأدباء، فقال: أيَمنعه مني وما يحفظ منه بيتًا، وأنا أحفظه؟! فأكذبَتْه الجماعة، فقال: اسمعوني وأمسِكوه. فابتدأ من أوله حتى قارَب نصفه، فأقسَموا عليه أن يكُفَّ، وشهدوا له بالحفظ(٣).

١١- ابن ناهض الضرير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦١هـ) كان يحفظ كثيرًا من الأشعار، حتى الْتزمَ مرة أنه يُنشد عشرة آلاف بيت من حفظه، على رَوِيٍ واحد(٤).

١٢- ابن قاضي الجبل المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) قال لصاحب له: كم تقول إني أحفظ بيت شعر؟ فقال الصاحب: عشرة آلاف. فقال: بل ضِعفها. وشرع يعدِّد قصائد للعرب(٥).

(١) طبقات الفقهاء (ص: ٢).
(٢) التدوين في أخبار قزوين (١/٣٣٥).
(٣) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٣/٣٧٧).
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١/٧٧).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٥/١٨٠).

١٣- ابن قرقين الحراني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ) كان يتوقد ذكاء. حفِظ «ألفية العراقي» في يوم واحد(١).

١٤- البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) حفظ قصيدةً مِن مرةٍ واحدة! وهو نادر جدًّا(٢).

١٥- ابن هبة الله البارزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ) كان يُنشِد القصيدة الطويلة التي حفِظها من عشرين سنة؛ لا يتلعثم فيها(٣).

١٦- ابن تقي الدميري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) كان في صِباه آية في سرعة الحفظ، فقد أنشد رجل قصيدة مطوَّلة من إنشائه، وكرَّرها مرة أو مرتين، فأحبَّ إخجاله فقال له: أنها قديمة! فأنكر السراج ذلك، فبادر ابن تقي وسرَدَها حفظًا(٤).

١٧- ابن المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٧هـ) حفظ قصيدتَي «البردة» و«بانت سعاد» في ثلاثة أيام، فأعطاه والده جائزته ذهبًا(٥).

١٨- المحب ابن الشحنة الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٠هـ) حفظ «ألفية الحديث» في عشرة أيام، وحفظ نصف «ألفية النحو» في خمسة أيام(٦).

١٩- محمد الرمكي الأيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨١هـ) حفظ «ألفية ابن مالك» في يومين(٧).

٢٠- الأديب ابن السمان الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٧هـ) كان يحفظ من أشعار العرب شيئًا كثيرًا، فربما يسرِد بالمجلس من أشعارهم ألف بيت أو أكثر(٨).

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٥١/٤).
(٢) الجواهر والدرر للسخاوي (٨٥/١).
(٣) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١٠٨/٤).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١٢١/٤) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٧٩/٢).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٦٩/٥).
(٦) المصدر السابق (٢٩٦/٩).
(٧) درة الحجال في أسماء الرجال (٥١/٢).
(٨) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢٧٠/٢).

طائفة من الذين يحفظون «ديوان المتنبي» -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ):

اعلم أن «ديوان المتنبي» ليس كأي ديوان، في بلاغته وجزالته، وفخامته، وثروته. حتى إن كثيرًا من الأدباء يقدِّمون شعر المتنبي على كل الشعر، ويدعون لحفظ أكبر قدر من أبياته.

قال بعض شُراح الديوان: لم يُسمَعْ بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شُرِحَ هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان، ولا تداوَل على ألسنةِ الأدباء في نظم ونثر، أكثر من شعر المتنبي[١].

وقد اجتهدتُ في البحث والإحصاء لمن حفظوا «ديوان المتنبي» عبر القرون، فاجتمع - بفضل الله - حصيلة واحد وعشرين شخصًا، وهم:

١. ابن جِنّي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٢هـ) وكان المتنبي يقول: ابن جِنّي أعرفُ بشِعري مني[٢].

٢. ابن الطراوة السبائي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٨هـ)[٣].

٣. الفيلسوف ابن رشد الحفيد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٥هـ)[٤].

٤. النحوي الطبيب الأديب عبد اللطيف ابن اللبَّاد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٩هـ)[٥].

٥. الأديب الأندلسي إسماعيل بن محمد الشقندي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٩هـ)[٦].

٦. ضياء الدين ابن الأثير الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ)[٧].

٧. ابن النحاس البياسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٣هـ)[٨].

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (٤٢٧/١).

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٩٤/٤).

(٣) التكملة لكتاب الصلة (٩١/٤).

(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٠٨/٢١).

(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٨٣).

(٦) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٢٢٢/٣). وفيه قصة لطيفة، فانظرها.

(٧) وفيات الأعيان (٣٨٩/٥).

(٨) المصدر السابق (٢٣٨/٧).

٨. شرف الدين الإربلي الهذباني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ)[١].

٩. علي بن زيد البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٥هـ)[٢].

١٠. تقي الدين السروجي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٣هـ)[٣].

١١. العلامة ابن المرحل العثماني -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٦هـ) حَفِظَه في جُمُعة![٤].

١٢. الأديب ابن الصائغ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٠هـ)[٥].

١٣. الفقيه النحوي ابن القماح السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ)[٦].

١٤. السلطان أبو عبد الله المهدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٩هـ)[٧].

١٥. أمير المؤمنين محمد بن القائم بأمر الله السعدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٤هـ)[٨].

١٦. محمد السروري المقدسي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٩هـ)[٩].

١٧. إسماعيل العجلوني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦٢هـ) صاحب «كشف الخفاء»[١٠].

١٨. الأديب محمد محمود بن أحمذيه الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٢هـ)[١١].

١٩. أبو العباس ابن مخلوف الشريف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٣هـ)[١٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٥٤/٢٣).

(٢) معجم الأدباء (١٧٥٩/٤).

(٣) الوافي بالوفيات (١٨٣/١٧).

(٤) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢٣٣/٢) والدارس في تاريخ المدارس (٢٢/١) والبدر الطالع للشوكاني (٢٣٤/٢).

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٥٨/٥).

(٦) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٢١٥/٤).

(٧) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٣٥/٥).

(٨) درة الحجال في أسماء الرجال (٢٠٤/٢).

(٩) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤١٤/٣).

(١٠) النفحة المسكية في الرحلة المكية (ص: ٢٥٥).

(١١) بلاد شنقيط المنارة والرباط - الخليل النحوي (ص: ٢٣١).

(١٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٥٩٦/١).

٢٠. الأديب زكي مبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧١هـ)[١].

٢١. الأديب محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ). حَفِظه ولم يبلغ العاشرة[٢].

٢٢. الأديب عبد العزيز الربيعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ)[٣].

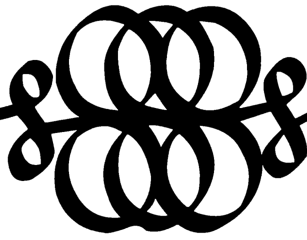




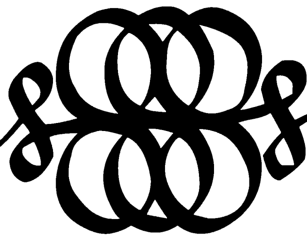
(١) مجلة الرسالة (العدد ٢٥٠ ص٢٥). وهو أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي.

(٢) ظل النديم - جواد العلي (ص: ٩٩). وقد قال عن نفسه: حفظتُ ديوان المتنبي وأنا في الرابعة الابتدائية، من أول حرف فيه إلى آخره!.

(٣) هذا الأديب الربيعي -رحمه الله- ليس له إلا كتابان، كلاهما عن المتنبي! ومن حُبه للمتنبي فقد سمى أحد أبنائه بـ: محسَّد، على اسم ابن المتنبي! ومن وفائه للمتنبي صار يضحِّي عنه كل سنة. أفادني بذلك أحد أصهاره وجُلَّاسه، وهو صاحبي الشاعر: أحمد بن صالح العامر.



الباب الثاني عشر:
لذة الكتب والمكتبات والكتابات العلمية



٥٧. لذة مشاهدة المكتبة، والكتب، والجلوس بينها

المتلذِّذ يعيش سعادته بين مكتبته، ويصاحِب كتبه صُحبةَ الفَرقدَين.

أتدري ما لسان حال العاشق إذا رأى مكتبته؟! كأني به يتغنى فيقول:

لا يرجعُ الطرْف عنها حين يَنظُرها ... حتى يعودَ إليها الطرفُ مُشتاقا

وإذا اضطره شغل أو سفر عن المكث بين جنباتها، فكأنه يُعاتب نفسه قائلًا:

ويسوؤني أن ينقضي يوم وما ... متَّعت من أعطاف عَزَّة ناظري(١)

فالغياب عن رؤية مكتبته ومحبوبته يُحْدِث في نفسه قَلَقًا، ويثير في جوانحه رهَقًا. وليس في صنائع البشر منظر بَهيج، تنصرف إليه وجوههم كمنظر الكتب وقطوفها، ولا نفحة لطيفة ترتاح إليها أرواحهم، كنفحات أوراق الكتب في صفوفها، ولا ثمار منضودة كنَضْدِ تلك الكتب في رفوفها. ولسان حاله كأنه يتغزل بمكتبته فيقول:

والعلم يَنشر ما انطوى في جَوفها ... فيكاد يَسمع ما يقول ويُسمعُ

فكأنها جسم يحرك شخصَهُ ... روحٌ يموت وحين تفتح يرجع(٢)

وتفكَّر في كلام الجاحظ وهو يصِفُ حاله مع الكتاب، فيقول متسائلًا: متى رأيت بستانًا يُحمل في رُدْن، أو روضة تنقلب في حجر؟ الكتاب هو الذي؛ إن نظرت فيه عرفت به في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر(٣).

بل إن من هؤلاء المتلذذين مَن جعلوا كتبهم في مقام أولادهم فلذات أكبادهم.

قال عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ): فتنة الحديث أشد من فتنة المال، وفتنة الولد تشبه فتنته(٤).

---

(١) الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي (ت ٧١٠هـ) (٢٤١/٨).

(٢) مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار (ص: ١٢١).

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤٧/٤).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/٩).

وقال أبو الفضل عبد الرحمن الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٤هـ): إن هذه الأوراق تَحُلُّ منا مَحَلَّ الأولاد[١].

فيضِنّ بكتابه، ويخشى عليه كأنه ابنُه! وأعرف طالبَ علم يشُمُّ كتبَه، كما يشُم أحدُنا أطفاله!

تقول طالبة علم عن لذة جَدِّها: جَدي يتأمّل مكتبته، ويُحدّق في رَفَّين نائيَين، ويلتفت إليَّ قائلًا: إذا كفّ بصري تماما عِدِيني أن تقرئي عليَّ ما في ذَينك الرفَّين، وإن فنيَ عمري قبل إتمامهما عِدِيني أن تقرئيهما على قبري!

والمتلذذون بالكتب لهم شؤون وشجون، وهم شَغُوفون بهنَّ حتى وهم يَمشون، وبين كتبهم يَمكثون؛ ليقضوا سحابةَ يومهم، وربما تراكَمَت فلا يرتِّبون، ولا ينظِّمون، وحينها تضيق عليهم مكتباتهم، وربما تنوء رفوفها بما حملت فتنحني، وأهلها برغم ذلك مستمتعون بنواظرهم.

إنهم يدلِّلون كل كتاب بما يحتويه، ويقبضون عليه بين أكفهم بحُنُوٍّ وحُب، ويفاخِرون به عند الحِجاج بابتهاج:

لله إخوان أفادوا مفاخرا ... فبِوَصْلهم ووفائهم أتكثّرُ
خطباء أن أبغ الخطابة يرتقوا ... كَفِّي وكفي للدفاتر منبرُ[٢]

ومن عجائب الرؤى أن الحافظ سليمان الشاذَكوني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٤هـ) رئي في المنام، فقيل: ما فعل الله بك يا أبا أيوب؟ قال: غَفر لي. قيل: بماذا؟ قال: كنت في طريق، فأخذتني مَطْرة، وكان معي كُتُب، فانكببتُ على كُتبي حتى هدأ المطر، فغفر الله ﷻ لي بذلك[٣].

إن المتلذذ ربما ينتقي من مكتبته كتابًا للقراءة، فيشعر أن الكتاب الذي بجانبه

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/١٩٨).
(٢) الفهرست لابن النديم (ص: ٢٣).
(٣) حديث أبي نعيم عن أبي علي الصواف لأبي نعيم الأصبهاني (ص: ٤٣).

يناديه، فيأخذه جابرًا لخاطره، ثم الثالث يغار، فلا يُخْلِي الثلاثة من نظر وعدل وحنوٍ. فمن شدة لذة الواحد منهم، أن جعل جمادات الكتب كأنها شخوص يناجيها.

يناجيك بالأسرار أسرار وجهِهِ فتفهمُها ما دمتَ بالعين تنظرُ(١)

حتى إن أحد هؤلاء المُدْمِنين -جعلك الله مُدْمِنًا مثلهم- يقول: إذا جاء العيد عايَدْتُ كُتُبي! لأن بعض الكتب يستحق مني المعايدة كلما عاد العيد!

وأنت أيها القارئ المتلذذ؛ سَلْ نفسك، واسبح بالاستذكار الذهني: ما الكتاب الذي يستحق مني المعايدة؟!

ومن طريف الإهداءات إهداء أحد المؤلفين كتابه إلى مكتبته! فهل سبق أن وجدت مؤلِّفًا يُهدي مؤلَّفًا إلى مكتبته؟!

ومن الغرائب أن أحد مصممي العطور أنتجَ عطرًا برائحة الكتب لعُشّاقها!

وما أكثر الكارهين لهذا العطر، وأما المُشترون له فقليل ما هم! فاللّٰهُمَّ كثِّرهم!

يقول أحد المتلذذين برؤية الكتب: تفُوح الكُتب برائحَة الأدويَة، التي تُعالجنا من الأمرَاض. فالكتاب دواء، بل وطبيب.

ألا إن عالم الكتب عالمٌ يفوح عليك من عبق التاريخ برائحته المميزة، وعشاق الكتب يُفتنون برؤيتها أكثر من غادة حسناء، متى ماتملَّكهم حب الكتب لايفارقهم، ويكاد أحدهم يتذوق الكتاب ويلتهمُه، وكأن كل كتاب يتنفس معه.

إن هؤلاء المتلذذين يَعتبرون مجرد جلوسهم بمكتباتهم، هو أُنس ولذة بحدِّ ذاتها.

كان بعض العلماء إذا وَجَد أحدًا جالسًا بين الكتب يقول: هم القوم لا يَشقَى بهم جليسهم.

وفي هذا يقول شاعر قارئ معًا، واصفًا حاله مع مكتبته:

الليلُ إنْ طافَ يُلْفِيني بمكتبتي حتى يميلَ كَرَى رأسي وأحداقي
وأسبق الديكَ صحوًا كي أعود لها حتى الصبَاح فأسعى بين آفاقي(٢)

---

(١) معجم الأدباء (١٤٩٦/٤).

(٢) رباعيات بيرم التونسي (ص٤٩) عن كتاب: عشاق الكتب - عبد الرحمن الفرحان.

أرأيتَ كيف يسابق الديك؛ ليسعى إلى تمتيع ناظريه لهذه الروضة الغَنَّاء، حتى إن واحدهم ليَقدم من سفر شاقٍ، أو من عمل مُضنٍ، أو مشوار مُرهِق، ومع ذلك فتجِدُه يبدأ بغرفة معشوقته، ألا وهي مكتبته، وليست غرفة نومه! ولسان حاله يتغزل بمعشوقته قائلًا:

ألذّ من النُّعمى وأحلى من المُنى ... وأحسن من وجه الحبيب المواصلِ
أطالعها في كلّ وقت فأجتلي ... عقائلَ يُغلي مهرَها كلّ عاقلِ
وأمنعها الجهال فهي حبيبةٌ ... «جرى حبُّها مجرى دمي في مفاصلي»[(١)]

فيا طالب العلم: اعلم أن مكتبتك تكبر معك، وتنمو بنمو قراءاتك لا بنمو مالك، حتى وإن صغُرت مساحتها، فعلاقتك بها حميمية أكثر من أي مكتبة أخرى كبيرة؛ لأنها تعبر عنك، وعن مراحل حياتك، وكل كتاب له قصة عندك.

ولئن كان التاجر يفرح بتزايُد رصيده، فإن طالب العلم يفرح بتوسُّع مكتبته، وكما قيل: التاجر مَجدُه في كِيسه، والعالِم مَجده في كراريسه[(٢)].

والكتب الحديثة الطبع تستهوي بعض طلبة العلم، تصفحًا وقراءةً، مع أن في رفوف مكتبته نفائس تفوقها في نفس الباب، ولكن قد علاها الغبار، فللجديد لذة!

لكن المسألة ليس بكتب مصفوفة، خالية من أيدٍ تفحص أوراقه وحروفه؛ فإن من بطّأتْ به قراءَتُه؛ لم تُسرِعْ به مكتبَتُه.

ولننطلق الآن في رحلة ممتعة؛ لنخوض غمار مكتبات، عكف فيها وعليها عاشقوها، ولنَعِش ولننتعش مع شيء من مشاعرهم نحو معشوقتهم:

١. حضر ثلة من أئمة الحديث عند الإمام أبي زرعة -رحمه الله تعالى- (ت ٢١١هـ) فجرى بينهم مذاكرة، فقال لابن أخيه: اذهب، فادخل بيت الكُتُب، فدَعِ القِمَطْر الأول، والقِمطر الثاني، والقمطر الثالث، وعَدِّ ستة عشر جزءًا، وائتني بالجزء السابع عشر[(٣)].

---

(١) معجم الأدباء (١٣/١).
(٢) الكلم النوابغ للزمخشري (ص: ٣٠).
(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٣٧/١) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤/٣٨).

٢. دخل رجل على أبي تمام الشاعر -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٨هـ) وحَوَاليه من الدفاتر ما غرق فيه، فما يكاد يُرى، فقال له: يا أبا تمام! إنك لتنظر إلى الكتب كثيرًا، وتُدمِن الدرس، فما أصبرك عليها! فقال: واللهِ ما ليَ إلْفٌ غيرُها، ولا لذة سواها[١].

٣. إمام اللغة ابن الأعرابي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ) صاحب «الغريب» بعث له الأمير غلامًا من غلمانه يسأله المجيء إليه لمجالسته، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته في ذلك، فقال: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيت أرَبي منهم أتيتُ. قال الغلام: وما رأيتُ عنده أحدًا، إلا أن بين يديه كتبًا، ينظر في هذا مرة، وفي هذا مرة[٢].

٤. قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): ما رأيت في بيت بَهْزٍ شيئًا أحسن من كتبه، وكان في بيته قماش لو رَميت به في الطريق لعله لم يكن يؤخذ، من الفقر الذي كان به[٣].

٥. قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) عن الأمير إسحاق بن سليمان بن هشام الأموي -رحمه الله تعالى-: ولقد دخلتُ عليه، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الأسفاط والرّقوق، والقَماطر والدفاتر، والمساطر والمحابر، فما رأيته قطّ أفخم ولا أنبل، ولا أهيَبَ ولا أجزل منه في ذلك اليوم؛ لأنّه جمع مع الفخامة الحلاوة، ومع السّؤدد الحكمة[٤].

٦. من الطرائف المضحكة أن أبا خليفة القاضي الضرير -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٥هـ) دخل عليه داخل في داره، فظنَّه لصًا، فقال: أيها اللص مالَك ولنا؟ إن أردتَ المال فعليك بفلان وفلان، إنما عندنا قِمَطران: قِمَطرٌ فيه أحاديث وقِمَطرٌ فيه أخبار، إن أردتَ الحديث حدَّثناك، وإن أردتَ الأخبار أخبرناك. فقال له غلامه: يا مولايَ ليس إلا الخير، إنما هو سنور، فقال أبو خليفة: الحمد لله الذي مسخه هرًّا، وكفانا شرًّا[٥].

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ٢٨٣).
(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص: ١٣٧).
(٣) الجامع لعلوم الإمام أحمد - الرجال (٣٣٧/١٦).
(٤) الحيوان (٤٥/١).
(٥) معجم الأدباء (٢١٧٤/٥).

٧. اللغوي الفقيه الأديب المعافَى بن زكريا الجريري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٩هـ) حضر في دار بعض الرؤساء، وعنده جماعة من أهل العلم والأدب، فقالوا له: في أي نوعٍ من العلوم نتذاكر؟ فقال المعافى لذلك الرئيس: خزانتك قد جمعت أنواع العلوم، وأصناف الأدب، فإن رأيت أن تبعث بالغلام إليها، وتأمره أن يفتح بابها، فيضربَ بيده على أي كتاب قرب منها، فيحمله، ثم نفتحه، فنتذاكره ونتجارى فيه[1].

٨. وابن شنبوذ -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) دخل عليه المعافَى وهو جالس، بين يديه خزانة الكتب، فقال لي: يا معافى! افتح الخزانة. ففتحتُها، وفيها رفوف عليها كتب، وكل رف في فن من العلم، فما كنت آخذ مجلدًا وأفتحه إلا وابن شنبوذ يهذُّه كما يقرأ الفاتحة، ثم قال: يا معافى! واللهِ ما أغلقتُها حتى دخلَتْ معي إلى الحمام والسوق[2].

٩. الطبيب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٠هـ) قيل له أيسرك أن لك ولدًا؟ قال: أما إذا صار لي «كتاب الحميات» فلا! ومعنى كلامه: أن بقاء ذِكره بكتاب الحميات أكثر من بقاء ذِكره بالولد[3].

١٠. كان للإخباري الأديب أبي بكر الصولي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٥هـ) بيت عظيم مملوء بالكتب؛ وهي مصفوفة، وجلودها مختلفة الألوان؛ كل صنف من الكتب لون. وكان يقول: كل هذه الكتب سماعي[4].

١١. ابن الكوفي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٨هـ) كانت كتبه؛ لكثرتها يعيِّن لكل نوعٍ منها موضعًا مخصوصًا من خزائنه، ويكتبه على أول الكتاب؛ ليجِده إذا طلبه[5].

١٢. الأديب أبو منصور البغوي -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٠٠هـ) جمع كتابًا، يشتمل

---

(١) المصدر السابق (٢٧٠٢/٦) والحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ١٠٢).
(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (٥٥/٢).
(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٤٧٩).
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢٣٥/٣) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٦٨/١٤).
(٥) المصدر السابق (٣٠٦/٢).

على ما تشتهي الأنفس، وتلَذُّ الأعين، من محاسن الأخبار والأشعار، ويقع في ثلاثين مجلدة بخطه، وقسمها على أيام شهره، فكان لا يكاد يُفارقه في سفره وحضره(١).

١٣. شيخ فقهاء الأندلس في وقته ابن المَكْوِيِّ -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠١هـ) كان مما أعانه على سعة المطالعة، أنه تخير هو وقوم من الفقهاء؛ لامتحان وتنسيق خزانة العلم، وتفتيش ما يعرض فيها من آلاته، وردِّها الى مواضعها، مرتَّبة الى أشكالها، وتصنيف فنونها(٢).

١٤. القاضي أبو المطرف ابن فطيس -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٢هـ) كان بحرًا من بحور العلم، وكان له بداره مجلس عجيب الصنعة، حسن الآلة، ملبَّس كله بالخضرة، جدرانه، وأبوابه، وسقفه، وفرشه، وستوره، ونمارقه، وكل ذلك متشاكل الصفات، قد ملأه بدفاتر العلم، ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويُخرج منها؛ وبهذا المجلس كان أُنسه وخلوته(٣).

١٥. أبو بكر البَرقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٥هـ) انتقل بمكتبته إلى بلد آخر، وسأل أحد أصحابه أن يُشرف على حمَّالي كتبه، وقال: إن سئلتَ عنها فعرِّفهم أنها دفاتر؛ لئلا يظن أنها إبريسم، وكانت ثلاثة وستين سفَطًا(٤) وصندوقين، كل ذلك مملوء كتبًا. وأنشد البرقاني لنفسه:

أعلل نفسي بكتْب الحديـ ... ـث واحمل فيه لها الموعدا
وما ليَ فيه سوى أنني ... أراه هوى صادَف المقصدا
وأرجو الثواب بكَتْب الصلا ... ة على السيد المصطفى أحمدا(٥)

---

(١) يتيمة الدهر (١٦٢/٤).
(٢) انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٢٨/٧).
(٣) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا = تاريخ قضاة الأندلس (ص: ٨٧).
(٤) الإبريسم هو قماش الحرير. والسفط سلَّة من خشب تُوضَع فيها الأشياء، كالفاكهة ونحوها. انظر المعجم الوسيط (٤٣٣/١).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٩/٥).

١٦. قال الحافظ المفسر أبو عثمان الصابوني النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ): ما دخلت بيت الكتب قط إلا على طهارة[١].

١٧. قال أبو عبد الله الحَميدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ):

كم من كتاب تعبتُ في طلبهْ ... وكنت من أبخل الخلائق بهْ

حتى إذا مِتُّ وانقضى سببي ... عاد لغيري فصار من كُتُبهْ

١٨. الفقيه الحنفي أبو بكر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٣هـ) كان يقعد في داره مستقبل القبلة، وكتبه بين يديه، وهو في وسطها، لا يلتذُّ بسواها[٢].

١٩. المفسر المشهور ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) يقول عنه أحد طلابه: كنا نبِيتُ معه في منزله بقرطبة، فكانت الكتب عن يمينه وعن شماله[٣].

٢٠. مدح ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) مدينة مرو فقال: فارقتُها وفيها عشر خزائن للوقف، لم أرَ في الدنيا مثلها كثرة وجودة.. فكنت أرتَع فيها، وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبُّها كل بلد، وألهاني عن الأهل والولد، وأكثر فوائد هذا الكتاب [معجم البلدان] وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن[٤].

٢١. أغرم الوزير جمال الدين القِفْطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ) بالكتب إغراما شديدًا، ونافَس في اقتنائها، وبذل النفيس في شرائها، وأنفق وقته في حفظها وترتيبها، وأصبحت داره في حلب قِبلة الورَّاقين والنَّسَّاخين. وكانت تساوي خمسين ألف دينار، وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم تكن له دار ولا زوجة[٥].

٢٢. زين الدين الآمدي الحنبلي الضرير -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٤هـ) هو أول من وضع الحروف البارزة[٦]، فكان كلما اشترى كتابًا أخذ ورقة وفتَلَها، فصنعها حرفًا من

---

(١) المصدر السابق (٩/٩).

(٢) طبقات المفسرين للداوودي (٥١/٢).

(٣) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص: ٩٤) والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص: ٢٤).

(٤) معجم البلدان (١١٤/٥).

(٥) الوافي بالوفيات (٢١١/٢٢) وإنباه الرواة على أنباه النحاة (٢٠/١).

(٦) يعني أنه سبق (برايل) في طريقته. فلماذا هضمْنا حقَّ مَفاخرنا من علمائنا، وبجَّلنا من بجَّله الغرب؟!.

حروف الهجاء، لثمن الكتاب بحساب الجمل، ثم يلصقها على طرف جلد الكتاب، فإذا مسَّ الحروف الورقية عرفه[١].

٢٣. قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) وهو محبوس:..ونحن - ولله الحمد والشكر- في نِعَمٍ عظيمةٍ، تتزايَد كلَّ يوم، ويجدِّد الله -تعالى- من نِعَمه نِعَمًا أخرى. وخروجُ الكُتُب كان من أعظم النِّعم؛ فإني كنتُ حريصًا على خروج شيء منها؛ لتقِفوا عليه[٢].

٢٤. الفقيه الشافعي ابن ناجية الطائي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٣هـ) كان يخرج من بيته إلى بيت الكتب، من ثلث الليل الآخر، فيطالع إلى صلاة الصبح، ثم الضحى، فإن جاء أحد محدِّثيه فلا يتكلم معه إلا كلمة أو كلمتين، ثم يُقبل على المطالعة، حتى العصر، ثم يتذاكر إلى قرب المغرب، ثم المغرب يدخل بيت الكتب إلى بعد العشاء بزمان، ثم يدخل إلى حريمه[٣].

٢٥. الحافظ مُغَلْطاي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٢هـ) كان أمينَ مكتبة، فكانت معرفته بالكُتُب واسعة،، وقد صرح هو بذلك بقوله: ولو أردنا استيعابَ أخبار الحسين بن علي ﷺ وقصة مقتله لأَرْبَينا على ما كتبه ابن عساكر؛ فإن عندنا -بحمد الله- من أخباره المفردة التي لم ينقل ابن عساكر منها شيئًا[٤].

٢٦. بدر الدين الزركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) كان منقطعًا في منزله، لا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، وإذا حضره لا يشتري شيئًا، وإنما يطالع في حانوت الكُتُبي طولَ نهاره، ومعه ظهور أوراق، يُعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع، فينقله إلى تصانيفه[٥].

---

(١) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٢/٩٥٧).
(٢) العقود الدرية لابن عبد الهادي (ص: ٣٨٢).
(٣) كنوز الذهب في تاريخ حلب (٢/١٤٦ و١٤٨).
(٤) التراجم الساقطة من كتاب إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (ص: ١٥٨).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/١٣٤).

٢٧. كان السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) يلقب بابن الكتب؛ لأن أباه كان من أهل العلم، واحتاج إلى مطالعة كتاب، فأمر أمه أن تأتيه بالكتاب من بين كتبه، فذهبت لتأتي به، فجاءها المخاض وهي بين الكتب(١). فأبو السيوطي متلذذ، وأمه برغم الحمل والطلق تبادر بتمتيع زوجها في لذته، فكان أن رزقهما الله عالِمًا ملأ الدنيا بمؤلفاته، التي قيل: إنها بلغت ألفًا.

٢٨. القاضي المقرئ عبيد الله بن يعقوب -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣٦هـ) كان له شغف بجمع الكتب، سمينها وغَثِّها، جديدها ورثها، حتى جمع منها ما يناهز تسعة آلاف مجلد، وجعل فهرستها مجلدًا مستقلًا؛ يذكر فيه الكتاب ومؤلفه، ولم يعرف مؤلفي عدة منها، فكتب أسماءها، وفرَّقها على علماء؛ لعلهم يعرفونها(٢).

٢٩. درويش الأرتقي الدمشقي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٤هـ) من العَجَب أنه كان يصُفُّ كتبه، ويرتبها، وينظر فيها، ويقلِّبها، وهو ينشد هذا البيت:

أُقلِّبها حفظًا لها وصيانةً ... فيا ليت شعري من يقلِّبها بعدي

فمات بعد ذلك بعشرين يومًا(٣).

٣٠. الشيخ عبد الله بن إبراهيم آل سيف -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٠هـ) من علماء محافظة «المجمعة»، سكن المدينة، وأخذ عنه بها الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٦هـ). قال الشيخ محمد: قال لي يومًا: تريد أن أريَك سلاحًا أعددتُه للمجمعة؟ قلت: نعم. فأدخلَني منزلًا فيه كتب كثيرة، وقال: هذا الذي أعددنا لها(٤).

٣١. حكى الفقيه محمد البرتلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢١٩هـ): أنه كان يومًا مع

---

(١) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٥١).
(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١٨٧/٢) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٠٣/١٠).
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٤٩/٢).
(٤) عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر (٦/١).

أصحابه، فكلهم قال: مُنْيَتي كذا وكذا، فقال هو: مُنيتي كثير من الكتب، فأكون بينها، تارة أنظر، وتارة أقرأ[١].

٣٢. من أعظم عشاق الكتب في أواخر القرن السالف: العلامة أحمد تيمور -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٨هـ) ماتت زوجته وعمره تسع وعشرون سنة، فانقطع إلى مكتبته نحو أربعين سنة!

٣٣. كان الأديب الرافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٦هـ) يمكث بمكتبته ثماني ساعات يوميًا، وإذا زاره زائر في مكتبته جلس قليلًا يحييه، ويستمع لما يقوله، ثم لا يلبث أن يتناول كتابًا، ويقول لمحدثه: تعال نقرأ. فلا يكفُّ عن القراءة، حتى يرى في عيني ضيفه النعاس، أو الملل[٢].

٣٤. يقول الأديب أحمد أمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) بعد منعه من القراءة؛ لمرض في عينه: وأدخل المكتبة؛ لذكرى الماضي، فيزيد ألمي! غذاء شهي، وجوع مفرط، وقد حِيل بين الجائع وغذائه! وأتساءل: هل يعود نظري فأستفيد منها كما كنت أستفيد؟ وهذه الآلاف من الكتب، من الأصدقاء، لكل صديق طعمه ولونه وطرافة حديثه، وقد كان كلٌّ يُمِدني بالحديث الذي يحسن حين أشير إليه، فاليوم أراهم ولا أسمع حديثهم، ويَمُدُّون إليَّ أيديهم، ولا أستطيع أن أمد إليهم يدي[٣].

٣٥. الأديب السعودي محمد الصديقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٠هـ) غادَر الدنيا، وترك آلاف الكتب: جمَعها وقلَّبها ورتَّبها، وهمَّش على أكثرها، ونقلها من بلد إلى بلد، ومن منزل إلى منزل، وكان لا يأمَن عليها أحدًا إلا تحت إشرافه، وكان يردد في صوت متأثر حزين:

أقلِّب كُتْبًا طالما قد جمعْتُها ... وأفنيتُ فيها العمر حتى تبـدَّدا
وأعـلـم حقًّا أنني لست باقيا ... فيا ليت شعري من يقلِّبها غـدا[٤]

---

(١) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور - البرتلي الولاتي (ص١٣١).
(٢) حياة الرافعي للعريان (ص٤٠).
(٣) حياتي، لأحمد أمين (ص ٣٩).
(٤) تكملة معجم المؤلفين - محمد خير رمضان (ص: ٥١٠). والأبيات في الوافي بالوفيات (٤٦/٢٧).

٣٦. الشيخ حماد الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) يسافر مرارًا من مكة إلى جدة؛ لأجل المكوث في مكتبة، والعكوف على كُتُبها. قال: كنت أذهب إلى الشيخ عبد الله نصيف وهو في جدة؛ من أجل أن عنده مكتبة كبيرة، فيها المطبوع والمخطوط، وكنت أدخل المكتبة أَقِيلُ فيها، ثم أرجع إلى مكة(١).

٣٧. المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) كتب رسالة شخصية بتاريخ ١٣٨٢/١٠/٢٧ هـ. ومما ورد فيها قوله: عزمت على شراء أو بناء دار خارج المدينة قريبًا منها للرخص؛ وذلك لأتخلص من مشاكل النقل في كل عام، والتي منها تعريض الكتب للتمزيق والضياع.

٣٨. قال المؤرخ حمد الجاسر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): أتردد على المكتبات.. فأَحضر في الصباح مبكرًا، وأبقى إلى الظهيرة، وقد أتناول أكلًا خفيفًا، ثم أعود حتى الساعة الثالثة. وقال: إن طالب العلم الذي لم يخْتَطَّ لسَيره منهجًا يبلغه، هو بين الكتب التي يهوى مطالعتها كالجائع النهِم، الذي يرى أمامه أنواعًا كثيرة من الطعام الطيب، فيحاول الْتهامها كلها، دون أن يعرف ما يلائم طبيعته منها، وهكذا أنا(٢).

٣٩. الأديب أحمد سحنون الجزائري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٤هـ) يقول عن نفسه: قال لي أحد الأصدقاء، عندما زارني إلى منزلي، ورأى المكتبة تشغل الجزء الأكبر من المنزل: أظن أن هذه الكتب الكثيرة لا تتركك تنام إلا قليلًا. فقلت هذه الأبيات:

فكيف أنام وحوليَ كُتْبي؟ وفي النوم أفقد دنيا الكتاب

وهل أطمئن لنوم به وتمر حياتي مر السحاب؟

وإن الحياة بجانب كتْبي! تجدد فيَّ حياة الشباب!

وبيت بغير كتاب به تطيب الإقامة بيت خراب(٣)

---

(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٥٩١/٢).
(٢) من سوانح الذكريات - حمد الجاسر - الجزء الأول.
(٣) ديوان الشيخ أحمد سحنون (٣٢٨/١).

٤٠. محمد سالم ولد عَدُّود الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٠هـ) إذا اقتنى كتابًا جديدًا لا يضعه في المكتبة، إلا بعد الانتهاء من قراءته، مع التعليق على هوامشه! ومن الطريف أنه يقول: «الكتاب الذي لم يُقرأ لا يجوز وضعه بين الكتب؛ لأنه ليس بمَحْرَمٍ لها».

٤١. زهير الشاويش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٤هـ) يمكث أكثر نهاره في مكتبته الخاصة، وهي من أغنى المكتبات المعاصرة، وتحتوي على أكثر من عشرة الآف مخطوط، وتساوي قيمتها الملايين، وله في جمعها غرائب وعجائب.

٤٢. المفسر وهبة الزحيلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٦هـ) من أسرار ثراء نتاجه العلمي، أنه كان حبيس مكتبته، فقد ذكر العارفون به أنه مكث أربعين سنة، يجلس بمكتبته من الرابعة صباحًا إلى الثامنة مساءً! ولو مكث طالب الدراسات العليا نصف هذا الوقت لأنجز، بل لأتقن بحثه في سنة واحدة.

٤٣. يقول أبو عبدالرحمن الظاهري -حفظه الله تعالى- في مقابلة معه: كانت تفر مني الساعات الطوال بلا قراءة، وإنما كنت أقلِّب كل مجلد وأقبِّله، وأمسح الكتب وأعيد ترتيبها، ثم أصعد إلى مرقدي، ثم يبدو لي، فأنزل أخرى؛ من أجل الالتذاذ بتقليب الكتب، وتقبِيلها![1].

٤٤. مؤلف كتاب «شغف القراءة» الذي نفِد في اليوم الرابع من معرض الكتاب. يقول: لما كنتُ في الصف الأول الثانوي بمصر، كنت أتوجه عقب خروجي من المدرسة، إلى مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وهناك أقضي أوقاتًا؛ أنسى فيها الدنيا وما فيها، أستمتع بملمَس الكتب، وأغلفتها ورائحتها المميزة، وكانت هي كَوني المصغر[2].

٤٥. يقول أحد النهِمين، وهو يصور الكتب كأشخاص يناجيهم، ويحبهم: بعض الكتب في مكتبتي، أشعر تجاهها بحرج شديد؛ اشتريتها ولم أُفضِ إليها بالحديث، فأُسارِقها النظر ولا أُحِدُّه، لكي لا تقع عيني على عينه! الكتب -أيها السادة- لها مشاعر

---

(١) شيء من التباريح لأبي عقيل الظاهري (ص٦١).

(٢) شغف القراءة - إيهاب الملاح (ص٢٤٨).

وأحاسيس! أتسكع في دروب الكلام، لكني أعود بلا شعور إلى حديث الكتب! وأي شيء أحلى وألذ وأمتع وآنس منها؟![١]

٤٦. هذا مؤلِف معاصر أراد أن يُهدي على طُرَّة كتابه، فقال: الإهداء إلى شريكة صباحاتي، و(ونيسة) لياليَّ، ورفيقة ظُهرياتي: إلى مكتبتي - أمدَّ الله عمري في أحضانك-[٢].

٤٧. هذا مُستَهام بمكتبته يقول: مطالعة الكتب يزيل أنواع الأمراض..وبدلًا من أن يكون مكتوبًا على الرفوف: لغة. علوم طبيعية ونحو ذلك؛ أشير باستبدال هذه الكلمات بأسماء الأمراض، التي تنتاب الجسم والروح، مما يمكن مداواته بالمؤلفات. فالنزلات يصلح لها قراءة الكتب الهزلية مع منقوع الشعير في قليل من اللبن الحليب[٣].

٤٨. متلذذ عبر «تويتر» يقول: مكانان أنسى نفسي بهما تمامًا؛ إن دخلت مكتبة، وإن جلست أمام البحر، هذان المكانان بالذات، لا أدري كيف يمر الوقت، ولا أريد أن يمر، كأنني في جنة لا أريد لها انتهاء، ولله در هذه اللذات في الدنيا! فكيف بلذة القرب من الجليل، وما أعده لنا؟!

٤٩. آخر شغوف -وأشباهه مئات- يقول: ابتدأتُ مكتبتي بكتاب «تيسير العلام» وانتهيتُ بها إلى هذه المكتبة الكبيرة -بفضل الله-. كل كتاب فيها لي معه حكاية، وأعامله كصديق كريم؛ لأنه يُمدني بالفائدة دون مقابل، ويحدثني عن كلِ شيء أريده دون ملل، ولو في منتصف الليل، وحين أجلس معه لا يغتاب أحدًا! لذا أفضِّلها على كل أصدقائي إلا واحدًا!

٥٠. من جميل المحاورات التخييلية بين أمهات الكتب، تلك المحاورة الجميلة، والمنافسة الشريفة بين الكتب، وكلٌ يمدح نفسه لقارئه: كم تهادَتْ نظَرَه كتبُ العلم، حتى قال «كتاب الأم»: نعم الولد النجيب، وقال «كتاب الروضة»: نعم أخو الغائث الصائب

---

(١) اقرأ وارق (ص٦٣).
(٢) مقدمة في أحضان الكتب - بلال فضل.
(٣) انظر: مجلة المقتبس (٤٣/٥٣).

على رياض القول المصيب، وقال «الشامل» من فضله: هذا لطلبته «نهاية المطلب»، وقال «التنبيه» على محاسنه: ليت «النابغة» رآه، فدرى أي الرجال «المهذب»[١]

وبعد: فهذه مواقفُ كلها عَجَبٌ، لخمسين من المتلذذين مع كتبهم، وبين جنبات مكتباتهم.

أتطمعُ أن أزيد؟! أم يكفيك؟! بل هل تعلم أن تلكم اللذة، يشترك فيها المتلذذون من المسلمين وغيرهم؟! وخذ مثالًا واحدًا:

كان الأديب النصراني عيسى المعلوف (ت ١٣٧٦هـ) عاشقًا للكتب كلِفًا بها، ضَنينًا بنوادرها، وله أبيات لطيفة عبر فيها عن هذا العشق، فيقول:-

اجعلوا إن متُّ يوما كفَني ... ورق الكتْب وقبري المكتبةْ
وادفنوني وادفنوا الكتْب معي ... وانثروا الأوراق حول المَرْتبة[٢]

وقد تقول: ولماذا كل هذا؟!

فيقال: القراءة متعة كبرى، لكن لذة «اقتناء» الكتاب، واكتنازه، وتصفحه، والمحافظة عليه شيء آخر، لا يعرفه سوى عشاق الكتب، المدمنين على جمعها، والاستئناس بصحبتها، وتأمُّل بهاء منظرها.

إن عشاق الكتب والمكتبات يقولون: قد نعيش بلا أصدقاء، وقد نعيش بدون طُهاة، لكننا لا نستطيع العيش بدون كتب. ألا ما أجمل منظر الكتب! فهي عندنا كشجر الحدائق والبساتين كلما رأيناها مجتمعة زاد انشراح صدورنا.

عندي إذا ما الروض أصبح ذابلا ... تُحَفٌ أَغَضُّ من الرياض شمائلا
رَوض تُزخرفه العقول وروضة ... باتت تزخرفها الغُيوث هواطلا
وإذا خلوتَ بهن ظمآنَ الحشا ... منحتْك من صُوَب العقول مناهلا
فإذا مددتَ لها يمينك فاتحًا ... عبقت يمينك راحة وأناملا[٣]

---

(١) صبح الأعشى صناعة الإنشاء (٣٧٦/١٢).
(٢) مجلة البيدر العددان ٤٧٦ و٤٧٧ ص٦ لعام ١٣٩٣هـ.
(٣) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة (٥٨/١).

وهؤلاء المتلذِّذون على كتبهم عاكفون، وبما يقرؤون متأثرون. ومن عاش على شيء مات عليه، وسيأتيك بعد صفحات نبأ علماء ماتوا بين مكتباتهم وكتبهم.

• **استراحة متلذذ:**

إنما يستريح المُتعَب، وما أنت إلا متلذِّذ، فيا عجبًا حتى في مُستراحك تتلذذ؟!

استخرِج الكتب من الأبيات:

في الأبيات الأولى تسعة عناوين كتب، وفي الثانية سبعة عشر كتابًا، وفي الثالثة أربعة كتُب.

فهذه ثلاثون كتابًا. فأحضر قلمك، وضع خطًا على العناوين. واختبر نفسك بنفسك:

قال مورّيًا بالكتب:

(أمالي) الشّوق تملأ لي الدّفاتر ... أقول هي (الصّحاح) هي (النّوادر)

ومن حبّي (خلاصة) كلّ حب ... ومن صبري (معونة) كل صابر

ومن قلبي (المخلّص) و(الموطّا) ... ومن دمعي (المفصّل) و(الجواهر)[1]

جَعَلْتُكِ فِي حِرْزٍ فَإِنَّكِ دُرَّةٌ ... وَإِنَّكِ كَنْزٌ لابْنِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنَا

حَدِيثُكِ إِقْنَاعٌ وَقُرْبُكِ غَايَةٌ ... وَنُصْحُكِ إِرْشَادٌ لِمَنْ قَد تَمَعَّنَا

وِصَالُكِ كَافِيهِ وَهَادِيهِ لِلتُّقى ... وَتَذْكِرَةٌ أَنَّ النَّعِيمَ لَهُ هُنَا

وَتَبْصِرَةٌ لِلْمُسْتَنِيرِ عُيُونُكُمْ ... بِلَيْلٍ إِذَا المِصْبَاحُ أُطْفِئَ أَوْ وَنَى

فَقَدْ نُلْتِهِ رَوْضًا نَضِيرًا وَرَوْضَةً ... مُطَيَّبَةَ الأَعْرَافِ دَانِيَةَ الجَنَى

جَلَبْتِ لَهُ التَّيْسِيرَ فِي عَيْشِهِ فَلَمْ ... يُثَقَّلْ بِأَعْبَاءٍ وَلا ظَهْرُهُ انْحَنَى

وَعُذْرًا لِتَحْبِيرِي لِنَظْمٍ وَمِدْحَتِي ... عَقِيلَةَ أَتْرَابِ النِّسَاءِ تَفَنُّنَا

---

(١) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (ص: ١٦٩).

يا من تحفظ في هواه عن الورى ... ليس الفصيح كفاية المتحفظ[١]

خفت لحنًا في شرح مجمل حبي ... فلهذا قد حفظت الفصيحا[٢]



هِمَمٌ تناطح الجبال .. الشوكاني يتحدث عن برنامجه اليومي

وَلما كَانَ سنة ١٢٠٩ كنت مشتغلاً بالتدريس فِي عُلُوم الِاجْتِهَاد والإفتاء والتصنيف. وَلم يكن لي رَغْبَة فى سوى الْعُلُوم، وَكنت أدرِّس الطّلبَة فِي الْيَوْم الْوَاحِد نَحْو ثَلَاثَة عشر درساً في التَّفْسِير.. وَفي الْأُصُول.. وَفي الْمعَانِي وَالْبَيَان وَفِي النَّحْو.. وَفِي الْفِقْه.. وَفي الحَدِيث.. مَعَ مَا يعرض من تَحْرِير الْفَتَاوَى وَالتصنيف ومُبَاشرَة الْخُصُومَات. فاستغرقت فِي ذَلِك جَمِيع الأوقات إلَّا لحظات يسيرَة قد أفرغتها للنَّظَر في شيء من كتب الْعلم، أَو لشيء من التَّحْصِيل، وتتميم مَا قد كنت شرعت فِيهِ. البدر الطالع (١/ ٤٦٥)

(١) أعيان العصر وأعوان النصر (٣/ ١٠٨).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٠٨).

٥٨. لذة التشوق لمعارض الكتاب وحضورها، ولذة التردد على المكتبات

هذه اللذة لا تقتصر على زمان إقامة المعرض، بل تسبقه بزمن يحوطه الترقب والتشوق، وتتبع مستجدات المطبوعات، وإعلانات دور النشر والمكتبات، وبعد انتهاء المعرض تلحقه لذة أخرى، بما يذكره القراء من مشترياتهم وانطباعاتهم.

ومما يَسبِق المعرض ذلك التواصيَ والتواعدَ في المعارض من لدُن طلبة العلم، لا سيما المغتربين، وما يُصاحبه من برنامج زيارات للعلماء والمؤلفين.

أما الأسفار لأجلها؛ فإنهم يستسهلونها لأجل محبوبهم الكتاب.

والناس يزورون بيروت والقاهرة واستانبول للسياحة، أما المتلذذون فللكتب.

حقًا، معارض الكتاب أشبه ما تكون بمواسم الحج، التي يتخلُلها مواقع، وتنقلات، وتطورات، بل ومفاجآت.

واقرأ ما يكتبه ذلك الوالِه المُدنَف، وقد وصف المعرض بالحدث الكبير، حيث يقول: يَحمل شهر يناير من كل عام، ببرده القارس، وشمسه الشحيحة، بحرًا من الذكريات لكل من ارتبط عمره بمعرض الكتاب. وقد مرَّ عليَّ الآن أكثر من خمسة وثلاثين معرضًا، وتعاملي معه كـ«حدث كبير». ما دام يناير يعود فالحالة مستمرة.. قبل حوالي عشرين عامًا، كنت أنفق في معرض القاهرة للكتاب -المتوسط- حوالي ثلاثة آلاف جنية؛ أنفقها كلها في شراء الكتب!..أصدقائي في الجامعة يتعاملون معي على أنني مجنون على الحقيقة لا المجاز! ولا أتصور أن يكون هناك من اتصلت الأسباب بينه وبين الكتاب، ولا يُمثل المعرض قطعة عزيزة من حياته وذكرياته، وتاريخه الشخصي[١].

(١) شغف القراءة - إيهاب الملاح (ص١٢ و١٧).

معاهد أفراحي ديار سعادتي مواسم أرباحي أُوَيْقات لذّتي(١)

ثم أتظن أن مصطلح «معارض الكتاب» مصطلح حادث، لا بل لدى الغابرين الأولين ما يشابهه، بما يسمى «سوق الكتب والكُتْبيين»، لكن الأخير دائم لا عارِض(٢).

وخذ صورًا لمُجريات تلك الأسواق العلمية الغابرة:

١. كانوا يتلذذون بالسفر إلى ما يُشبه معارض الكتب في زمننا. يقول ابن العربي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ): ولقد كنت يوما مع بعض المعلمين.. فدخل إلينا أحد السَّماسِرة وعلى يديه رُزْمة كتب، فحلَّ شِناقها، وأرسل وِثاقها.. فسمعت جميعهم يقولون: هذه كتب عظيمة، وعلوم جليلة، جلبها الباجي من المشرق، فصدَعت هذه الكلمة كبدي، وقرعت خلدي، وجعلوا يُورِدون في ذِكره ويُصدرون.. ونذرت في نفسي طيِّة؛ لئن ملكت أمري لأهاجرن إليه(٣).

٢. أُعلن عن بيع كتب نفيسة ببغداد، فسافر الحافظ أبو العلاء الهمداني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) من همدان لحضور المزاد ببغداد، والمسافة تزيد على خمس مئة كيلو، فحضر السوق، واشتراها بستين دينارًا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس. فرجع إلى همدان، ونادى على دار له، فبلغت ستين دينارًا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قال: بِيعوا. فباعوها بستين دينارًا، فقبضها. ثم رجع إلى بغداد، فدخلها يوم الخميس، فوفَّى ثمن الكتب، ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة(٤).

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٤٨١).

(٢) يعتبر أكبر معرض للكتاب في الشرق الأوسط معرض القاهرة الدولي، حيث يزور المعرضَ نحو مليوني شخص سنويًا. وقد بدأ عام ١٣٨٩هـ.

وأما أقدم وأكبر معرض عالمي؛ فهو معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، وهو أكبر تظاهرة دولية ثقافية تعنى بالكتاب، والمعرض يعد الأهم في العالم، والذي يبلغ عمره الآن أكثر من خمسة قرون. يُذكر أن المعرض عادة يقدم جائزة لأكثر عناوين الكتب طرافة وغرابة.

ومن أندر وأعجب معارض الكتاب: معرض بولونيا الإيطالية لكتاب الطفل، ويقام سنويًا لعرض المواد التعليمية للأطفال. كما يمنح المعرض أهم الجوائز للناشرين في مجال الطفل. للمزيد اقرأ/.//:/٣١٩٤١٤:.

(٣) قانون التأويل (ص: ٤٢١).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٧٧).

٣. رحلة لأجل تحصيل كتاب: العالم صالح بن مهدي المقبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠٨هـ) ارتحل إلى مكة، ولم يحج؛ حيث لم يكن مستطيعًا، وإنما خرج لطلب كتاب «البحر الزخار» للإمام المهدي، حتى ظفر بخبره(١).

٤. ينتهزون فرصة بيع مكتبة عالم راحل: النحوي الأديب ابن الخشاب (ت ٥٦٧هـ) لم يمتْ أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث، إلا وكان يشتري كتبه كلها(٢).

٥. يترددون كثيرًا على أسواق الكتب: أبو الوفاء العزازي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٠هـ) كان يلازم سوق الكتب، فيشتري منها النفائس(٣).

٦. يوصون أولادهم بأسواق الكتب: قال المهلّب -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣هـ) لبَنيه في وصيّته: يا بَنيّ لا تقوموا في الأسواق إلا على زَرّاد أو وَرّاق(٤).

٧. يجمع بين الدُّر والدراري: برهان الدين الزرعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) يكون جمعةً في دكة الجواري، وجمعة في سوق الكتب؛ ليجمع بذلك بين الدر والدراري(٥).

٨. جمّاعون للكتب: المحدث النحوي أبو عبد الله المرسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٥هـ) جمع من الكتب النفيسة كثيرًا، ومهما فُتح عليه صرَفه في ثمن الكتب. ولما مات كانوا في كل ثلاثاء يحملون منها جملة؛ ليشتريها العلماء، وبيعت في نحو من سنة(٦).

٩. لولا الفقر لما باعها: أحمد بن صدقة بن تقي العزي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٩هـ) لازَم سوق الكتب في حانوت، ثم افتقر، فصار ينادي على الكتب، وينسخ(٧).

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٢٩٠).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٥١).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/٢٩٦).
(٤) الحيوان للجاحظ (١/٤٠) والزرّاد هو بائع الدروع.
(٥) الوافي بالوفيات (٥/٢٠٤) وأعيان العصر وأعوان النصر (١/٤٥).
(٦) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٣/٣١٣ و٣١٨).
(٧) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/٣١٩).

١٠. الوجيه ابن صورة -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٧هـ) كان سمسارًا في الكتب بمصر، وكان يجلس في دهليز داره لذلك، ويجتمع عنده أعيان الرؤساء والفضلاء، ويعرض عليهم الكتب التي تباع، ولا يزالون عنده إلى انقضاء وقت السوق(١).

١١. الأديب ابن دوَّاس القنا -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٦هـ) كان كثير الملازمة لسوق الكتب، وكان اجتماعه بالأدباء يكثر بها(٢).

١٢. قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ): توجهت إلى الشام، وفي صحبتي من كتب العلم؛ أتَّجر فيها(٣)

١٣. قال الأديب النحوي القِفْطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ): قصدني بائعٌ بالكُتُب إلى حلب؛ لما شاع غرامي بها بين المتّجرين فيها.. فلم يكن فيها ما أرغب إليه، سوى كتابين ابتعتهما منه(٤).

١٤. قال الشيخ بهاء الدين ابن النحاس النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٨هـ): أحضُر سوق الكتب دائمًا، ولا بد أن يتجدد لي علم باسمِ كتاب، ما سمعت به(٥).

١٥. القاضي الشافعي جلال الدين القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٩هـ) كان لشدة حرصه، يَحضر بعض خزائن الكتب الموقوفة، وكان خازنها لا يرى إخراجها إلى عارية أحد، فكان يقنع منه بأن يجلس عنده يومه كله؛ لمطالعة ما يحتاج إليه منها، ودام على هذا سنين كثيرة(٦).

١٦. عز الدين ابن العجمي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كان يلازم سوق الكتب بالقاهرة، ويتجر فيها(٧).

---

(١) مجلة المقتبس (١٥/٢٣).
(٢) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٥٨/٣).
(٣) معجم الأدباء (٢١٨٤/٥).
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٨١/٤).
(٥) أعيان العصر وأعوان النصر (١٩٦/٤).
(٦) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٢١٣/٩).
(٧) الوافي بالوفيات (١٦٣/١٩).

١٧. النحوي المقرئ ابن المرحَّل -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٤هـ) كان يتَّجر في الكتب، فيلازم سوقها كثيرًا[١].

١٨. المطرز الكتبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) بِيعت كتبه بعد وفاته بالقِفاف! وقد اجتمع عنده نحو ألف شاطبية[٢].

١٩. قال ابن خَلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): لازمتُ سوق الكتب بقرطبة مدة؛ أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد، وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه[٣].

٢٠. علي البطراوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) تكسب بالتجارة في سوق الكتب[٤].

٢١. قال الأديب الأستاذ أحمد أمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ): بالأمس ضحك مني بائع الكتب القديمة.. وسط هذه المكتبة المغمورة بالتراب، والمغمورة بالفوضى، انغمست أبحث عن كتب نادرة أشتريها، فضحك إذ رأى غرامًا بالكتب يشبه الجنون، ورغبة في البحث والشراء تشبه الخَبَل[٥].

٢٢. عبد الحي الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٢هـ) أول وآخر من يلقاه صباحًا ومساءً باعة الكتب، في حضره وسفره.. ومن أكبر ما يحمله على الأسفار، واتباع الرحلات، تطلُّب الكتب[٦].

٢٣. محب الدين الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٩هـ) انزوى في مكتبته ومطبعته، وانكبَّ على التأليف والتحقيق. واليوم الوحيد الذي كان يخرج فيه إلى

---

(١) المصدر السابق (٨١/١٩).
(٢) غاية النهاية لابن الجزري (١٨٠/٢). والقِفاف جمع قُفَّة وهي: زبيل صغير من خوص. انظر: النهاية لابن الأثير (٩١/٤).
(٣) نفح الطيب للمقَّري (٤٦٣/١). والتسفير: التجليد.
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٠١/٥).
(٥) من مقالة: لذة الشراء وآفة الملكية - للأستاذ أحمد أمين في مجلة الرسالة (١/٤٨).
(٦) فهرس الفهارس (١٧/١).

المجتمع عصر يوم الجمعة، حيث يذهب إلى سوق الكتب القديمة والحديثة، وكان يحملها بيديه الكليلتين، وعلى كاهله أعباء الثمانين(١).

والغرام بالكتب ليس قاصرًا على الشرق أو على الغرب، بل هو عشق مستحكِم في نفوس الناس على اختلاف الأوطان والأديان والمذاهب والمَشارب. وخذ مثالين عجيبين أختم بهما:

• من عجائب الدنيا: أنه وُجد في مكتبة العاضد العُبيدي من الكتب النفيسة ما لا يُعَدُّ؛ ويقال إنها كانت ألفُ ألفٍ وست مئة ألف كتاب، منها ألفٌ ومئتان وعشرون نسخة من «تاريخ الطبري»! فباع السلطان صلاح الدين الأيوبي جميع ذلك، وقام البيع فيها عشر سنين(٢).

• شيخ الشيعة باقر التستري (ت ١٣٢٩هـ) كان إذا قُدِّم كتاب مخطوط إلى معرض الكتب في النجف، بذل النفس والنفيس في سبيله، على قلة ذات يده، وربما تملَّق لمن ينافسه في الكتاب؛ ليتركَ له طِلبتهُ. قال بعضهم: نافستُه يومًا في كتابٍ، والمنادي ينادي عليه، فسألني تركه، فما كان منه إلاَّ أن امسكني بيده قائلًا، وقد تغيرَ: أَما تخشى الله؟!(٣).

ولما طعِمتُ لـذة العلم صيرْ ... تُ سواها من اللذات عنديَ كالسمِّ
ولما عشِقتُ العلم عِشق درايةٍ ... سلوتُ عن الأوطـانِ والأهـل والخِلْمِ
رحلتُ لجمع العلم والكتْب ذاهبًا ... إلى الله أبغي بسطة العلم في جسمي
وأمعنتُ في إدراك ما رُمتُ نَيلهُ ... فأدركتُ ما أدركتُ بالصبر والحزمِ(٤)

---

(١) محب الدين الخطيب (ص: ١٤٥).

(٢) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (٣/٣٣١).

(٣) انظر مقالاً بعنوان: صرعى الكُتُب والمكتبات في العراق، ضمن مجلة لغة العرب العراقية - العدد ٢١ - بتاريخ: ١/٣/١٩١٣هـ

(٤) الإبداع العلمي - د. أحمد القرني (ص: ٤٦) والأبيات للعلامة ابن التلاميذ التركزي الشنقيطي (ت ١٣٢٢). والخِلم: الصَّدِيق.

إنذارةٌ:

إلى عشاق الكتب: احذروا أن تصيبكم آفة بعض هذا الجيل: الشغف بما صدر حديثًا، والزهد بالقديم!.

ومن حُلو دارِجِ حِكَم عصرنا: قديمُك نَديمُك، ولو جديدك أغْناك!

ومن يك في علمه هكذا ... يكن دهره القهقرى يرجع

فليس كل جديد مفيدًا، بل الغالب أن القديم أكثر فائدة، لكن التنوع مطلوب، وإنما الممنوع -كما أسلفتُ- الشغف بالجديد فحسب، ولا تغرنك مَصْيدة العُنوانات، ورَوْنق التصميمات.



٥٩. لذة جمع وشراء الكتب ولوازم كتابة العلم

جمع الكتب بمثابة جمع الكنوز. وفي قول ربنا تعالى: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] قالوا: الكنز لم يكن ذهبًا ولا فضةً، ولكنه كان كُتُبَ العِلم[١].

ومن مأثور القول: «من أحب شيئًا أكثرَ من ذِكره». وأزِيدُ: وأكثرَ مِن جَمعه، والاجتماع به.

ومجموعة فيها علوم كثيرةٌ — تَـقَـرّ بما فيها عـيـون الأفـاضـلِ
ألذّ من النّعمى وأحلى من المُنى — وأحسن من وجه الحبيب المواصلِ
أطالعها في كـلّ وقـت فأجتلِي — عقائل يُغلِي مهرَها كـلُّ عـاقـلِ[٢]

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): وهل جامع كتب العلم إلا كجامع الفضة والذهب؟! وهل المَنْهوم بها إلا كالحريص الجشِع عليهما؟ وهل المُغرم بحُبها إلا ككانزهما؟![٣].

ولذا كانوا ولا زالوا يجمعون الريال على الريال؛ ليجمعوا الكتاب على الكتاب، وها هم يتحيَّنون المَعرِض تلو المَعرض، ويترقبون أخبار المؤلفين والمحققين؛ ليشتروا ما ينزل بالأسواق قبل أن ينفَدَ، فيندموا على أن لم يشتروا.

وقديما قالوا عن كتاب «الأذكار» للنووي: بع الدار واشترِ الأذكار[٤].

وإنما مثل من يجمع كتب العلم دون مطالعة، ولا يمل من طلبها وجمعها: كمثل

(١) الكشكول (٢/٢٧٢).
(٢) معجم الأدباء (١/١٣).
(٣) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ١٦).
(٤) أبجد العلوم (ص: ٢٦٣).

من يجمع طعامًا كثيرًا، من فنون الأطعمة والأشربة والفواكه، ولا يأكل منها، ولا يشرب، وهو جائع وعطشان أو يأكل شيئًا يسيرًا منها، فلا يعتبر هذا عاقلًا.

أنا الـذي لا أزال الدهر ذا فرَحٍ ... بما أنمِّيه من علمي ومـن كُتُبي
وما سُررت بشيء قد ظفرْتُ به ... مـسـرَّتي بـكـتـاب نِـلْـتُـه عـربي
ألهو به طـولَ ليلي والنهار معًا ... مُجانبًا لهو خَـودٍ عَـذْبـة الشنَبِ
وحلو طعم معانيها على ظمأ ... أحلى من البرَد الممزوج بالضرَبِ
غِذاؤنا العلم صِرْفًا لا مِـزاج له ... من الأغاليط والتمويه والشغَبِ[1]

أحوال المكتبات بعد رحيل أصحابها:

المكتبات التي تم إهداؤها إلى مكتبة الملك فهد الوطنية:

- مكتبة الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع وتضم ٥٤٨٠ كتابًا.
- ومكتبة الشيخ الأديب عبد الله بن خميس التي يبلغ عدد كتبها نحو ٧٧٤٠ كتابًا.
- مكتبة الشيخ عثمان بن حمد الحقيل بمجموع كتب بلغ ٧٤٠٠ كتابًا.
- مكتبة الأديب محمد حسين زيدان = ٤٤٢٠ كتابًا
- الأديب محمد منصور الشقحاء =٨٩٦٠ كتابًا.

فرحمهم الله، وجعل كتبهم شاهدة وشافعة، ونافعة، ورافعة لهم بين يدي ربهم.

إنـي لما أنـا فيه من منافَستي ... فيما شُغفتُ بـه مـن هـذه الكتبِ
لقد علمتُ بأن الموتَ يُدركني ... من قبل أن ينقضي من جَمْعِها أَرَبي[2]

أكبر وأنفس المكتبات الخاصة في العالم العربي:

إليك سردًا لكبارالمكتبات الخاصة في السعودية. وهي كثيرة، منها:

(١) مجلة المنار (٨٩/٣).
(٢) مجلة المنار (٨٩/٣).

مكتبة الشيخ عبدالكريم الخضير- مكتبة الشيخ صالح آل الشيخ - مكتبة الشيخ ابن عقيل الظاهري -مكتبة الشيخ عبدالله البطاطي - مكتبة الشيخ يوسف خلاوي بجدة -مكتبة القاضي محمد الرفاعي بمكة -مكتبة الشيخ حماد الأنصاري بالمدينة- مكتبة المحقق الأفغاني الشيخ نظر الفاريابي.

ومكتبة شخصية، عُمُرها يزيد على ثمانين عامًا، وهي للشيخ الرحالة محمد العبودي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٣هـ) موزعة بين بيوته في الرياض، وبريدة، والطائف.

وفي البلدان العربية:

أ- مكتبة أحمد تيمور باشا (ت ١٣٤٨هـ) كلتاهما بمصر، لكنهما فُرِّقتا بدار الكتب المصرية. وسُمِّيَتا بـ: الخزانة التيمورية، والخزانة الزكية(١).

ب- مكتبة أحمد زكي باشا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٤هـ).

ج- مكتبة خير الدين الزركلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٦هـ) وهي ثلاث مكتبات: بسوريا، ومصر، والسعودية.

د- مكتبة عبد الفتاح الحلو -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٤هـ) بمصر.

ه- مكتبة الشيخ زهير الشاويش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٤هـ) بدمشق.

و- مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي؛ لخدمة الكتاب والمخطوطات والوثائق التراثية، حيث يضم المركز مليون مخطوطة، ومليونًا وثمان مئة ألف كتاب، ومئة وتسع عشرة مكتبة شخصية آلت إلى هذا المركز، بالشراء أو الإهداء.

ز- مكتبة خاصة لأحد وجهاء الإمارات وقيمتها ٢٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

ح- مكتبة الشيخ مشهور بن حسن سلمان بالأردن.

ط- مكتبة المحقق نظام يعقوبي بالبحرين.

ي- وفي العالم الغربي والشرقي الكثير الكبير. ومنها: في قصر باريس الفخم، مكتبة ضخمة، زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع. وقد أسست منذ نحو ستة قرون(٢).

---

(١) العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم - أحمد العلاونة (ص٢٩).

(٢) مجلة المقتبس (٤٣/٤٧).

حقًا إنها نفائس ولذائذ يسيل لها لُعاب المتلذذين بالعلم، حتى لو كانوا يملكون ملايين:

نفائسُ كُتْبٍ لو تصَدَّى لجَمْعِها ... أخو جِدَةٍ فذِّ المعارفِ أُجهِدا

غدَتْ لعلوم الشرع سِمطًا مجمَّعًا ... وفوقَ جبينِ الدِّين تاجًا مسرَّدا[1]

ثانيًا: نماذج للمُقلِّين من جمع الكتب:

وكما أن طائفةً مُكثِرين، فإن طائفة أخرى من العلماء؛ بلْهَ طلبة العلم مُقِلِّين. فليست العبرة بضخامة المكتبة، بل بقدر الانتفاع منها.

وقد تكون قِلة جمعهم للكتب بسبب العَوَز، والفقر، كشأن الشناقطة، الذين ضرب بهم المثل في الحفظ؛ والسبب في ذلك كما ذَكَر بعض علمائهم- قلة الكتب عندهم! فاضطروا إلى الحفظ، فكان من أمرهم ما اشتهر وذاع.

وقد لا يكون الفقر هو السبب، ولكن للاكتفاء بالأمهات، وقلة الجلوس بالمكتبة؛ بسبب الاشتغال بأمور أهم، كالتدريس، وقضاء مصالح المسلمين. وهذا واقِعٌ مشاهَد من أئمة أهل العلم الكبار.

قال الشيخ عبد الكريم الخضير: أدركنا بعض شيوخنا، ليس عندهم إلا دولاب أو دُولابان، وقد أتَوا على كل ما فيها، وفهموه.

- فمثلًا: المكتبة الخاصة للإمام ابن باز -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) ليست بكبيرة.

- وأما المكتبة الخاصة لشيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) فقد أظهرت الصور مدى صِغَرها، ولعلها لا تُجاوِز مئتي عنوان.

- بينما محتويات مكتبة الشيخ عبدالرحمن المعلمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٦هـ)، والتي ضُمّت إلى مكتبة الحرم (٦٤٢) كتابًا.

---

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٥/٥٨).

• ورأيت صورة لمكتبة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٤هـ) مصفوفة على جدار واحد، طوله قرابة أربعة أمتار.

ومن نماذج المقلِّين من جمع الكتب من علماء عصور مضت:

١. ابن شهاب الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ) قال عنه مالك: لم يكن عند ابن شهاب كتاب، إلا كتاب فيه نَسَب قومه(١).

٢. المفسر ابن أبي الطيب النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ) لما توفى وُجد في مكتبته أربعة كتب: واحد في الفقه، الثاني في الأدب، وكتابان في التاريخ! ولم يكن له من تركة غير ذلك(٢).

٣. أبو بكر البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ) شيوخه أكثر من مئة شيخ، وتصانيفه ألف جزء، ومع ذلك لم يقع له «جامع التِّرْمذي» ولا «سنن النسائي»، ولا «سنن ابن ماجه»(٣).

٤. الشيخ أبو الفتح ابن الصايغ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٥هـ) فقد سافر في طلب العلم سفرة طويلة، ثم رجع وليس معه غير كتبه وثيابه، فهي كتب قليلة قابلة للحمل والتنقل، ومن طول مدة غَيبته سأل عن أهله، فأخبروه أنه لم يبق منهم أحد، فجالَ مع القاضي، فتكلما في مسألة، فلما قهره أبو الفتح بالحجة قال: واللهِ لو أنك أبو الفتح ابن الصايغ ما سلَّمتُ إليك، فقال: أنا هو. فقام إليه واحترمه(٤).

وبعد سَرْد المقلِّين والمكثرين للمتأمل أن يقف وقفات، ويستوحي إيحاءات:

١- كان للعلماء من ذوي المكتبات الصغيرة، ومن لم تُسعِفْه مكتبته ببديل صالح، فقد كان لهم مع المكتبات الوقفية والالكترونية عِوَض عن عِوَز مكتبته. وإلا ففي بعض البلدان الفقيرة يحتاج طالب العلم الموظف المتوسط الدخل أن يُنفق راتبه الشهري

(١) النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات (٨/١).
(٢) معجم الأدباء (١٧٨١/٤) وتاريخ بيهق/تعريب (ص: ٣٤٩).
(٣) تاريخ الإسلام ت بشار (٩٥/١٠).
(٤) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ (١٧٣/١).

كاملًا لو أراد أن يشتري مثلًا «سير أعلام النبلاء» للذهبي، وإذا أراد شراء «مجموع فتاوى ابن تيمية» فبِثُلثي راتبه. وأما الآن فبقيمة علبة عطر، يستطيع أن يوفر آلاف الكتب وأمهاتها بأنفس طبعاتها. أليست هذه نعمة جليلة؟! فاللَّهُمَّ أوزِعنا شكر نعمتك، التي أنعمتَ علينا.

٢- لا يغِب عن بالك أن بعض العلماء والمؤلفين له عدة مكتبات، بحيث يكون له في كل بلد يطيل المقام فيه مكتبة، كالشيخ ابن باز بالرياض ومكة والطائف، والشيخ بكر أبو زيد بالرياض والمدينة والطائف، والمؤرخ الزركلي في سوريا ومصر والسعودية.

٣- ليحذر المُكثر من جمع الكتب مما حذَّر الله منه بقوله -سبحانه-: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]

قال ابن القيم: فالتكاثر في كل شيء؛ من..حديث، أو علم، ولا سيما إذا لم يَحتجْ إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف، وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها[١].

٤- من التشبُّع الذي يُنزَّه عنه أهل العلم وطلبة العلم: التزين بمنظر المكتبة في مجلسه، وحسن تصفيفها؛ فإن ذلك علامة غالبة على ندرة القراءة فيها.

ومما يُروى أن أحد أولئك المتزيِّنين دَخل عليه أحد العلماء، فرأى كتبَه مصفوفة فقال: يا مولانا قاضي القضاة، ما أحسن تصفيف هذه الكتب! ورمز إلى أنه قليل الاشتغال فيها؛ لأن كثرة الاشتغال تنافي حسن التصفيف غالبًا. ففهمها وأسَرّها في نفسه[٢].

وقد كان اقتناء الكتب عند الأندلسين من شارات الوَجاهة، وقد يجمع الغني ما شاء من كُتب وقَمَاطِر، وهو لا يعلم الفائدة المترتبة عليها[٣].

وقرطبة تحديدًا هي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشدّ الناس اعتناء بخزائن الكتب. حتى إن الرئيس منهم لا تكون عنده معرفة، فيحتفل في أن تكون في بيته

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٣٠).
(٢) انظر: رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ٢٨).
(٣) مجلة المقتبس التي يصدرها: محمد كُرْد عَلي (ت١٣٧٢هـ).

خزانة كتب، ليس إلاّ لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره(١).

❖ **ههنا سؤال افتراضي يفرِض نفسه، وهو: هل كثرة الكتب عنوان على سعة العلم؟**

والجواب أنها ليست كثرتها عنوانًا ولا دليلًا -نسأل الله أن ينفعنا بما علَّمنا-.

قال ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وقد أَوعبتِ الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابًا، فمن نوَّر الله قلبه هداه بما يَبلغه من ذلك، ومَن أعماه لم تزِدْهُ كثرة الكتب إلا حَيرة وضلالًا(٢).

وقال محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ): إن الكتب لا تفيد القلوب العُمْي(٣). وقال: لا تفيد الكتب، إلا إذا صادفت قلوبًا متيقظة، عالمة بوجه الحاجة إليها تسعى في نشرها(٤).

قد غدا مستأنسًا بالعلم من ... خالطته روعة المهابة
لا ينال العلم جسم رائح ... حفت الجنة بالمكاره(٥)

وهذا عبد الله بن مالك القرطبي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٠ هـ): كان إذا ذُكر عنده المكثرون من الكُتُب يقول: والله لأموتَنَّ وأنا أجهلُ كثيرًا مما في كتبي هذه! فماذا أصنع بالإكثار منها؟!(٦)

لا تحسبن إن بالكُتْـ ... ـب مثلنا ستصيرُ
فللدجاجة ريش ... لكنها ما تطيرُ(٧)

(١) نفح الطيب للمقّري (٤٦٢/١).
(٢) مجموع الفتاوى (٦٦٥/١٠).
(٣) تفسير المنار (١٢/١).
(٤) المصدر السابق (١٣/١).
(٥) بغية الوعاة (٥١/٢).
(٦) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٤٣٩/١).
(٧) معجم الأدباء (١٣٧٢/٣).

ويتبادر للذهن مسألة فقهية، سئل عنها الإمام ابن باز -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) وهي:

ما حكم جمع الكتب الشرعية دون قراءتها؟ فقال: ليس عليك شيء، تحفظ لمصلحتها، إذا جاء أحد يستفيد منها[١].

إذًا؛ فشراء الكتب النافعة عبادة يؤجر المشتري عليها، فليحتسب مالَه لمآلِه.

لذة جمع الكتب خير من لذة جمع الفلوس

هذه اللذة ليست حِكرًا على العلماء الأغنياء، بل حتى المقِل الذي يكدح؛ ليجمع ما يشتري به كتابًا واحدًا، وربما يكون أكثر لذة؛ حيث صاحَبَ لذتَه ألمٌ وعنَتٌ.

وبهذا نتذكر المسألة التي يتكرر طرحها بين العلماء في تفضيل العلم على المال.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٤٠هـ): العلم خير من المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة[٢].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): فلذَّة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة، يعقبها الألم، ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة، لا يلحقها ألم.

وأما غنى العلم؛ فلا يعرض له شيء من ذلك، بل كلما بذله ازداد ببذلة فرحًا سرورًا وابتهاجًا، وإن فاتته لذة أهل الغنى، وتمتعهم بأموالهم؛ فهم -أيضًا- قد فاتتهم لذة أهل العلم، وتمتعهم بعلومهم، وابتهاجهم بها[٣].

وقد خُيِّر نبي الله سليمان بين العلم والملك والمال، فاختار العلم، فأعطاه الله المال والملك والعلم[٤].

جعلتَ المال فوق العلم جهلًا لَعَمْرك في القضية ما عدلتا

(١) فتاوى نور على الدرب لابن باز (١٠٩/٢٥).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥٥/٥٠).
(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (١٣١/١).
(٤) حاشية البجيرمي على الخطيب (٤٨/١).

وبينهما بنص الوحي بَوْنٌ ... ستعلمه إذا «طه» قرأتا

لئن رفع الغني لواء مال ... لأنت لواء علمٍ قد رفعتا[١]

إذًا فإن لجمع وشراء الكتب لذةً متناهية، وعشقًا عميقًا.

قال معتمر بن سليمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٧هـ): كَتَبَ إليَّ أبي: يا بُني اشترِ الوَرَق، واكتب الحديث؛ فإن العلم يَبقى، والدنانير تَذهب[٢].

وهذا الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) يصف لك المقدار الذي يصل إليه جَمَّاع الكتب، فيقول: فالإنسان لا بدّ من أن تكون كتبه أكثر من سماعه؛ ولا يعلم، ولا يجمع العلم، ولا يُختلف إليه، حتى يكون الإنفاق عليه من ماله، ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه. ومن لم تكن نفقته التي تَخرج في الكتب ألذ عنده من إنفاق عشاق القِيان، والمستهتِرين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغًا رضِيًا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب، إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله[٣].

فالمال عندهم يَرخص في مقابل شراء الكتب، بل يزدادون بهجة مع مرور السنين أن أنفقوه في العلم والكتب، يوم أن أنفَقَه غيرهم في المباحات، أو في ضياع الأوقات، فضلًا عن المحرمات.

نماذج للمتلذذين بجمع الكتب، والمسترخِصين الأموال في سبيل تحصيل العلوم والمسائل

سأسرد الآن سبعًا وسبعين موقفًا من مواقفهم، في بذل نفيس أموالهم؛ لتحصيل العلوم والمسائل ولو عَلَتْ، وجمع وشراء الكتب ولو غَلَتْ:

١. **لا تستكثر قيمة كتاب نفيس!** كتاب «قيد الأوائل» للزاغولي، جمع فيه كل نوع من العلوم الشرعية. قال عنه السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ): ربما يبلغ أربع مئة مجلد، وشريتُه![٤].

---

(١) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقِتِهم السخيف (ص: ١٧٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٢٤٩).

(٣) الحيوان للجاحظ (١/٤١). والمستهتِر بالشيء: المُوْلَع به.

(٤) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٤٣٧).

٢. إسرائيل بن يونس -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٢هـ) قالوا عنه: ما ترك في بيته كوَّةً، ولا سَفَطًا إلا دَحَسَها كُتبًا![١].

٣. الشاعر العباسي سلم بن عمرو -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٦هـ) كان يلقَّب بالخاسر؛ لأن أباه خلّف له مالًا، فأنفقه على الأدب، فقال له بعض أهله: إنك لخاسر الصفقة![٢].

٤. قال محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ): خلَّف أبي ثلاثين ألف درهم، فأنفقتُ نصفها على النحو، وأنفقتُ الباقيَ على الفقه[٣].

٥. وكيع بن الجراح -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ) جاء رجل إليه، فقال له: إنك كنت تكتب من مِحبرتي في مجلس الأعمش. فوثَبَ وكيع، فدخل منزله، فأخرج له صرة فيها دنانير، فقال: اعذرني؛ فإني ما أملِك غيرها[٤].

٦. كان للواقديّ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) ستّ مئة قِمَطر كُتبًا، وكان كلّ قِمَطر منها حِمْلُ رَجُل[٥].

٧. همام الرازي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢١هـ) كان كثير العلم، وقد قال: أنفقتُ في طلب العلم سبع مئة ألف درهم[٦].

٨. قال خلف البزّاز -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٩هـ): أشْكَلَ عليَّ باب من النحو، فأنفقتُ ثمانين ألف درهم، حتى حَذِقْتُهُ[٧].

٩. الإمام يحيى بن معين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٣هـ) خلَّف له أبوه أكثر من مليون درهم، فأنفقها كلَّها على الحديث، حتى لم يَبْقَ له نعل يلبسه، وخلَّف من الكتب

---

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢٤/٧).

(٢) معجم الأدباء (١٣٨٢/٣).

(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٥٦١/٢).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٨٤/٦٣) وطبقات المفسرين للداوودي (٣٥٨/٢).

(٥) الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ١٢٢).

(٦) العبر في خبر من غبر (٣٠٢/١).

(٧) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي (ص ٥٤) وعنه: سير أعلام النبلاء ط. الرسالة (٥٧٨/١٠).

مئةً وأربعة عشر قِمَطرًا[١].

١٠. أبو حاتم السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) لما مات بلغت قيمة كتبه أربعة عشر ألف دينار[٢].

١١. محمد بن يحيى الذُّهلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٨هـ) قال عن نفسه: ارتحلت ثلاث رحلات، وأنفقت على العلم مئة وخمسين ألفًا[٣].

١٢. المحدث يعقوب بن شيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٢هـ) كان في منزله أربعون لِحافًا، أعدها لمن كان يَبيتُ عنده من الورّاقين الذين يُبيِّضون «المسند». وأنفق عليه عشرة آلاف دينار[٤].

١٣. أمير خراسان خالد الذهلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٠هـ) -وقد سبق أنه- أنفق على طلب الحديث مليون درهم[٥].

١٤. قال بقي بن مخلد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ): إني لأعرف رجلًا باع سراويله غير مرة، في شراء كاغِد، حتى يسوق الله عليه من حيث يَخلفها[٦]. ولعله يَقصد نفسَه.

١٥. الحافظ الزاهد أحمد بن مهدي بن رستم الأصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٧هـ) هو أحد الرحالين في طلب العلم، وكان ذا مال كثير، ومقداره ثلاث مئة ألف درهم، فأنفقه كله على تحصيل العلم[٧].

١٦. العالم النحوي ابن الكوفي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٨هـ) لما مات أبوه خلَّف له زائدًا عن خمسين ألف دينار، فصرفها كلها في طلب العلم، وتحصيل الكتب، اشتراءً

---

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٥٤٤/٣١). والقِمَطْر: خزانةٌ لحفظ الكتب تُعلَّق على الجدار؛ خوفًا من الأرْضة، وهي بقَدر ما يَحمله الرجل.

(٢) معجم الأدباء (١٤٠٦/٣) والدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ٣٨٧).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٧٢/٧٣).

(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢٨٣/١٤) وطبقات علماء الحديث (٢٧٣/٢).

(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٨٤/٢٠).

(٦) معجم الأدباء (٧٤٩/٢).

(٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٩٧/١٠) ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٠٩/١٦).

واستنساخًا وكتابة. وكان صاحب ثعلب والخَصيص به، فأنفق على ملازمة ثعلب لوحده ثلاثين ألف درهم(١).

١٧. قال أبو إسحاق المزكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٢هـ): أنفقتُ على الحديث بِدَرًا من الدنانير، وقدِمتُ بغداد ومعي خمسون ألف درهم بضاعة، ورجعت إلى نيسابور ومعي أقل من ثلثها(٢).

١٨. الخليفة المستنصر الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ) كان باذلًا للذهب في استجلاب الكتب، ويعطي من يتَّجر فيها ما شاء، حتى ضاقت بها خزائنه، لا لذة له في غير ذلك. وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالًا، ويرسل إليهم الأموال لشرائها، وكان يكتب على كتبه اسم مؤلفه، ونسبه، ومولده، ويُغْرِب ويُفيد(٣).

١٩. أبو محمد بن أبي حامد الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٢هـ) كان له ثروة ظاهرة، فأنفق أكثرها على العلم وأهل العلم(٤).

٢٠. الوزير الصاحب ابن عبَّاد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) يقول: عندي من كتب العلم ما يُحمل على أربع مئة جَمَل(٥).

٢١. الوزير المحدِّث عبد الرحمن بن فُطيس -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٢هـ) جَمع من الكُتُب ما لم يجَمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان لا يَسمع بكتاب حَسن إلا اشتراه، أو استنسَخه، وكان له ستة ورَّاقين يَنسخون له دائمًا، وكان قد رتَّب لهم على ذلك راتبًا معلومًا، ولما مات مكث ورثته عاما كاملًا، وهم يبيعون كتبه(٦).

---

(١) معجم الأدباء (١٨٦٦/٤) وإنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٠٥/٢).

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (١٠٥/٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٣٠/١٦) ونفح الطيب (٣٨٦/١) وقصة الحضارة (٢٨٥/١٣). والإغراب هو أن يجمع ويدوِّن من الروايات والفوائد والنُّكات العلمية ما ليس عند الآخرين.

(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٣٤/١١).

(٥) معجم الأدباء (٦٩٧/٢).

(٦) طبقات المفسرين للداوودي (٢٩١/١) والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٤٧٨/١).

٢٢. أبو محمد ابن الأكفاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٥هـ) أنفق على الكتب وطلب العلم مئة ألف دينار[١].

٢٣. سلمة بن سعيد بن بردٍ الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٦هـ) ساق من المشرق ثمانية عشر حِملًا، مشدودة من كتبٍ، فكلما اجتمع من ذلك مقدار صالح، نهض به إلى الأندلس، وكانت في كل فن من العلم، ولم يتم ذلك إلا بمالٍ كثير[٢].

٢٤. الأديب ابن زكريا الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٧هـ) مات وعمره ثلاثون، وكان مؤْثرًا للأدب على سائر لذَّاته، جماعًا للدفاتر، مُقتنيًا للجيّد منها، مُغاليًا فيها. وقد أثرى كثير من الورَّاقين معه فيها[٣].

٢٥. قال القاضي أبو الحسين السيرافي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٠٠هـ): بلغت كُتبي المجلدة أحد عشر ألف مجلد، ومن المنثور ما إذا عوَّلتُ على تجليده أردتُ ثلاث مئة دينار[٤].

٢٦. النحوي ابن الخشاب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ) اشترى يوما كُتُبًا بخمس مئة دينار، ولم يكن عنده شيء، فاستمْهَلَهم ثلاثة أيام، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمس مئة دينار، فباعه، ووفّى ثمن الكتب[٥].

٢٧. الرحالة مسنِد الدنيا السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) كان مُغرمًا بجمع الكتب، وما حصل له من المال يخرجه في ثمنها، وكان عنده خزائن كتب، لا يتفرغ للنظر إليها. وقد كمل له في الترحال والتجوال ٣٨سنة[٦].

٢٨. الفقيه سالم بأفضل -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) سافر في طلب العلم، وغاب أربعين سنة، حتى ظن أهله أنه قد مات، ثم بعد ذلك رئي في المنام، وكأنه وصل إلى بلده

(١) البداية والنهاية ط هجر (١٥/٥٥٩).
(٢) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٢٠).
(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة (١/٨٤) والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/٦٦٥).
(٤) معجم السفر (ص: ٢٧٨).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٥١).
(٦) فهرس الفهارس (٢/٩٩٧).

ومعه جِمال محملات ذهبًا، فوصل سالم ومعه جِمال محمَّلات بكتب العلم، فأقبل عليه الطلبة من كل مكان، وانتفع به خلق كثير(١).

٢٩. القاضي عبد الرحيم اللخمي البيساني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ) وزير صلاح الدين الأيوبي: اقتنى من الكتب نحوًا من مئة ألف كتاب. وهذا شيء لم يَفرح به قبل زمنه أحد من الوزراء، ولا العلماء، ولا الملوك، ولا الكُتَّاب(٢).

٣٠. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): لما بلغتُ دفعوا لي ألوفًا من المال، وقالوا لي: هذه التركة كلها، فأخذتُ الدنانير، واشتريت بها كتب العلم، وبعت الدارَين، وأنفقت ثمنها في طلب العلم، ولم يَبْقَ لي شيء من المال(٣).

٣١. الأمير مرهف ابن الأمير أسامة بن منقذ -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٣هـ) كان جمّاعةً للكتب، وعنده من الكتب ما لا يُعلم مقداره، حتى إنه باع منها أربعة آلاف مجلد؛ في نكبة لحِقَته، فلم يؤثِّر فيها(٤).

٣٢. القاضي عبد الكريم اللخمي البيساني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢١هـ) كان له هوَس في تحصيل الكتب، وكان عنده منها زهاء مئتي ألف كتاب، من كل كتاب نُسَخٌ(٥).

٣٣. ابن البَرَفْطِي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٥هـ) بلغه عن رجل ورث عن أبيه كتُبًا نفيسة، فمضى إليه، فجلس يفتش، حتى وقع بيده ورقة بخط ابن البواب، وقال له: بكم هذا؟ فقال: هذا الذي اخترته لا قيمة له، فخُذه هبةً مني. يقول ابن البرفطي: فأعطيته ثلاثة دنانير ذهب. فاستكثرَها، وقال: يا سيدي لا تَسْخَر بي! ولعلك قد عزمت على ردِّها، فخذها وحُطَّ الذهب. فقلت: بل هذه قيمتها. فأخذتُها وانصرفت(٦).

(١) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣١٥/٤).
(٢) البداية والنهاية ط هجر (٦٩٩/١٦).
(٣) صيد الخاطر (ص: ٥٠٩).
(٤) المصدر السابق (٥٩٣/٢).
(٥) الوافي بالوفيات (٥٦/١٩).
(٦) باختصار من معجم الأدباء (٢٣٩٣/٦).

٣٤. القاضي الأشرف اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ) كانت عدّة مكتبته ثمانية وستّين ألف مجلّدة، وكانت جِمال الكتب التي حمَلَتْها تسعة وخمسين جَمَلًا، على ثلاث دفعات[١].

٣٥. القِفْطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ) كان جمَّاعًا للكتب، تساوي مكتبته خمسين ألف دينار، لا يحب من الدنيا سواها. ولم يكن له دار ولا زوجة[٢].

٣٦. النحوي المحدث المفسر شرف الدّين المرسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٥هـ) كان له في البلاد التي يتنقل إليها من الكتب ما يحتاج إليه، بحيث إنه لا يَستصحِبُ كُتُبًا؛ اكْتِفاء بما له في البلد المسافَر إليه من الكتب. فخلَّف كُتبًا عظيمة، وبِيعت مِن كَثرتها كل ثلاثاء، مدةَ سنةٍ ونصف[٣].

٣٧. **وقع بالديون بسبب الكتب!** كان ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ) مُولَعًا بتحصيل الكتب، فجاءته تركة، فاشترى بها كتبًا أضعاف ما معه من المال، فطُولِب بالسداد، فلم يجدوا معه الثمن، فرفعوه إلى القاضي، فاستنكر منه القاضي هذه الاستدانة. فقال: ما يُوقعني فيها إلا محبة الكتب[٤].

٣٨. ناصر الدين العسقلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٣هـ) كانت مكتبته ضخمة جدًا، وكانت زوجته تعرف ثَمن كل كتاب، وبقيتْ تبيع منها ست سنين[٥].

٣٩. نقل القاضي القونوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٩هـ) مكتبته على عشْرين فرسًا، ولم يكن له في الحكم نهمة، بل هو على عادته في الإقبال على العلم[٦]

٤٠. المؤرخ ناصر الدين شافع الكناني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٠هـ) كان يحب جمع الكتب، حتى إنه لما مات ترك نحو عشرين خزانة، ملأى من الكتب النفيسة،

---

(١) المقفى الكبير (٣٠٣/١).
(٢) الأعلام للزركلي (٣٣/٥).
(٣) الوافي بالوفيات (٢٨٢/٣).
(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ٣٤٥).
(٥) فوات الوفيات (٩٣/٢).
(٦) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣٠/٤) والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤١٩/١).

وكان من شدة حبه للكتب، إذا لمس الكتاب حين كُفَّ بصره يقول: هذا الكتاب الفلاني مَلَكته في الوقت الفلاني، وإذا طُلب منه أي مجلد كان، قام إلى الخزانة، فتناوله كأنه كما وضعه فيها(١).

٤١. ابن قاسم المذحجي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٤هـ) كان شديد العناية بالكتب، كثير المغالاة في قِيَمِها وأثمانها، حتى صار له من أعلاقها وذخائرها ما عجز عن تحصيله كثير من أهل بلده(٢).

٤٢. الفقيه الشامي الشافعي شمس الدين البارزي الجهني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٨هـ) كان عنده من الكتب ما لا يحصَى كثرةً. وإذا سمع بتصنيف لأحد من أهل عصره جهَّز الدراهم، واستحثه، واستنسخه، وكان عنده من كل كتاب نسختان وثلاث(٣).

٤٣. الشيخ القاضي محمد بن غانم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٠هـ) كان غاويًا باقتناء الكتب، رافعًا عن البذل فيها أذيال الحُجُب، على مَسْكة كانت في يده(٤).

٤٤. ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) كان مُغرىً بجمع الكتب، فحصل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلًا، سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم(٥).

وقد وصف ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ) مكتبته، فأجادَ وقال: واقتنى من الكُتُب ما لم يَتهيأ لغيره تحصيل عُشره. ومع هذا كله يقول ابن القيم بتواضع جم لما بحث مسألة: بحسب بضاعتنا المزجاة من الكُتُب(٦).

ويقول ابن القيم نفسُه عن كتاب نادر نفيس، يتنافس العلماء في تحصيله،

(١) المصدر السابق (٣٣٤/٢).
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة (٤٦/٣).
(٣) أعيان العصر وأعوان النصر (٥٣٤/٥) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٦٨/٦).
(٤) أعيان العصر وأعوان النصر (٦٢٢/٤).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٣٨/٥).
(٦) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٣٢٩/١).

ألا وهو «فتاوى ومسائل الإمام أحمد بن حنبل» وقد جمعها الخلال في أكثر من ثلاثين سِفرًا. قال: ومنَّ الله -سبحانه- علينا بأكثرها، فلم يَفُتْنا منها إلا القليل(١).

٤٥. ملك الهند ابن طغلق شاه -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٢هـ) كان عالمًا يحفظ «الهداية» في فقه الحنفية، وأتاه ابن قاضي شيراز بكتاب «الشفاء» لابن سينا، بخط ياقوت في مجلدة، فأجازه عن ذلك جائزة عظيمة، فقد أمر له بِلَكٍّ من الذهب(٢).

٤٦. جمال الدين الإسنوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٢هـ) قال: تيسر لي -بحمد الله تعالى- من مؤلفات الشافعي والأصحاب -خصوصًا الأقدمين- ما لم يطرق اسمه بالكلية أُذن أكثر المكثرين، ولم أعلمه قد اجتمع في مدينتنا عند أحد من العصريين، هذا وهي اليوم أعظم مدن الإسلام، ومجمع العلماء وموطن الأعلام، ومحط رجال أولى المحابر والأقلام(٣).

٤٧. **شراء الكتب حتى في وقت الجوائح.** فهذا ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) حضر في الطاعون العامِّ بيع كتب شخص من المحدثين، فكان وصيُّه لا يبيع إلا بالنقد الحاضر. قال: فتوجهتُ إلى منزلي، فأخذت كيسًا من الدراهم، ودخلت الحلقة فصببتُه. وقد قال عنه تلميذه ابن حجر: لم أرَ عند أحد بالقاهرة أكثر من كتبه(٤).

٤٨. محمد الشمس المراغي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١١هـ) خلَّف كتبًا كثيرةً جدًا، تلِفَ أكثرها بالأرضة وغيرها(٥).

٤٩. النحوي علي بن سيف اللواتي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٤هـ) كان فقير النفس، وكلما حصل له شيء اشترى به كتبًا، وتفرقت كتبه شذَر مذَر(٦).

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢٣/١).
(٢) المصدران السابقان (٤٨٥/٤) و(٢٠٤/٥) واللَّكُّ عبارة عما يقارب المئتي ألف مثقال، وسبعين ألف مثقال بالمصري.
(٣) المهمات في شرح الروضة والرافعي (٩٤/١).
(٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٣٣/١) وإنباء الغمر بأبناء العمر (٢١٧/٢).
(٥) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٢٤٣/٣) والضوء اللامع (٢٧٨/٤).
(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر (٥٠٠/٢).

٥٠. الفيروزآبادي صاحب «القاموس». -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ) يقول: اشتريتُ كُتبًا بخمسين ألف مثقال ذهب[١].

٥١. الملك الظاهر جقمق الجركسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٧هـ) كان يقتني الكتب النفيسة، ويعطَى فيها الأثمان الزائدة عن ثمن المثل[٢].

٥٢. ابن الجُرَيش الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٠هـ) كان مغرمًا بتحصيل الكتب، بحيث اقتنى منها نفائس من كل نوع شراءً وانتساخًا[٣].

٥٣. ابن حجي السعدي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٨هـ) مكتبته عامرة جدًا، ميراثًا وشراءً واستكتابًا؛ لشدة شغفه بها، سيما ما يتجدد لفضلاء وقته من التصانيف[٤]

٥٤. شرف الدين زكريا الأنصاري السنيكي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٦هـ) كانت كتبه كثيرة ضَنينًا بها، شراء واستكتابًا، فكان إذا أتاه أحد بأي كتاب للبيع لا يُخرجه من بيته، ولو بزيادة على ثمن مثله. ولما مات تفرَّقت كتبه شَذَرَ مَذَرَ، وكانت تباع بالزنبيل، بعد أن كان يَشِح بورقةٍ منها[٥].

٥٥. محمد بن خليل بن قنبر -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧١هـ) سمع الحديث، وقرأه على الشيوخ، وكلِفَ بجمع الكُتُب النفيسة، وتحسين جلودها، وترميمها[٦].

٥٦. الفقيه نور الدين الباقاني الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٠٣هـ) مَلَك كتبًا كثيرة. وكان يتاجر فيها، ويكتسب من ذلك مالًا كثيرًا[٧].

٥٧. الشيخ المقرئ علي النوري -رحمه الله تعالى- (ت ١١١٨هـ) كان جماعًا للكتب،

---

(١) طبقات المفسرين للداوودي (٢/٢٧٥).
(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٥/٤٥٩).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦/١٣).
(٤) المصدر السابق (٥/١٤٤).
(٥) المصدر السابق (١/٤٥٩) .
(٦) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/٥٣).
(٧) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/١٢٤).

بحيث أطلق يد شركائه في بَرِّ المشرق، مهما رأوا كتابًا يأخذونه، ولو كان مكررًا، فيُمسك الطيب من المكرَّرَين[١].

٥٨. الشيخ المتفنن أحمد المدني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣٥هـ) كان وَلوعًا بجمع الكُتُب وتصحيحها، حتى ما دخل تحت يده كتاب إلا وصححه، وكتب على هوامشه[٢].

٥٩. محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٨هـ) كان لا يَقتني شيئًا من الأسباب الدنيوية، سوى كتب العِلْم؛ فإنه كان حريصًا على جمعها، وكثيرًا ما يقول: أنا فقير من الكُتُب العِلْمية[٣].

٦٠. الزاهد التونسي أحمد الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٣هـ) عُرضت عليه الدنيا مرارًا، فلم يقبلها، وعكف نفسه على مذاكرة العلوم مع خواص أصحابه، ومطالعة الكتب الغريبة، واجتمع عنده منها شيء كثير، وكان يرسل في كل سنة قائمة، فيُشترَى له مطلوبه[٤].

٦١. الأمير إبراهيم كتخدا البركاوى -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٨هـ) اقتنى كتبًا كثيرة جدًا في كل فن وعلم، حتى إن الكتاب المعدوم إذا احتيج إليه، لا يوجد إلا عنده، ويُعِير للطالبين ما يَرومونه من الكتب؛ للانتفاع في المطالعة والنقل[٥].

٦٢. قال المؤرخ الجبرتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٣٧هـ): ورَدَ علينا بعض الحجاج الجزائرية، وسألني عن كتب يشتريها، من جملتها زيج الراصد للسمرقندي، وأرغبني في زيادة الثمن، فلم تسمح نفسي بشيء من ذلك، ثم سافر إلى الحج، ورجع، وأتاني ومع خادمه رزمة كبيرة منها نسخة الزيج المذكورة..وقال: أيهما أحسن نسختك التي ضننْتَ بها أو هذه؟.. فرأيتها تزيد عنها في الحسن، بصغر حجمها، وكثرة التقييدات

---

(١) إرشاد السالك إلى أفعال المناسك (٧٣/١).
(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٩٥/١).
(٣) النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل (ص: ٣٠١) وعنه: تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٦١٩/٣).
(٤) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٥٤٥/١).
(٥) المصدر السابق (٥٩١/١).

بهامشها..فرأيتها المخدرة التي كشف عنها القناع، وإنما هي المعشوقة بالسماع، فقلت له: كيف وصلتَ إلى هذه اليتيمة؟ وما مقدار ما دفعتَه فيها من المهر والقيمة؟. فأخبرني أنه اشتراها بعشرين ريالًا، وكتب لا توجد في خزائن الملوك، وكلها بمثل ذلك الثمن البخس! فقضيتُ أسفًا[١].

٦٣. ابن خليفة المدني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١٣هـ) كان جمَّاعًا للكتب والدواوين بالشراء والاستنساخ، فحصل على عدة صناديق؛ ضاعت وتفرقت بموته شذَر مذَر[٢].

٦٤. الشيخ القاضي إبراهيم ابن جاسر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٨هـ) رحل في طلب العلم إلى دمشق، ومصر، والعراق، ومكة، ثم رجع إلى بريدة ومعه ثروة كبيرة، من الكتب المخطوطة والمطبوعة، الغريبة التي لا توجَدُ عند غيره[٣].

٦٥. الشيخ أبو بكر خوقير الكتبي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٩هـ) كان شغوفًا بكتب الحديث، والعكوف على مطالعتها، وكان يسافر إلى الهند؛ لجلب كتب السلف، ونشرها بمكة المكرمة[٤].

٦٦. الأديب المؤرخ الإكْراري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٨هـ) كان جمَّاعًا للكتب، ونسخ عشرات منها لنفسه بخطه[٥]

٦٧. قال الأديب أحمد أمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ): كان الشيخ المرصفي بخيلًا على نفسه في كل شيء، إلا في اقتناء الكتب، وقد شكوتُ إليه مرةً أني لا أملك نسخة من «لسان العرب»، فقال في انفعال: بِعْ ثيابك، واشترِ نسخة من اللسان[٦].

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي (١/٥٦١).
(٢) فهرس الفهارس (١/٣٨٢).
(٣) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٣/١٧٦٧).
(٤) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٣٠٠).
(٥) الأعلام للزركلي (٦/٢٣).
(٦) البدائع لأحمد زكي (ص ٧٨).

٦٨. الأديب عباس العقاد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٣هـ) كان مَصروفي في الأسبوع خمسة قروش، فلا أشتري بها مأكولًا أو فاكهة، ولا أذهب بها على ملعب «البهلوتن».. فإذا كان معي ثمن الكتاب اشتريته لساعته.. وبهذه الطريقة قرأت «العقد الفريد» و«ثمرات الأوراق» و«المستطرف» و«الكشكول» و«المِخلاة» و«مقامات الحريري» وبعض الدواوين(١).

٦٩. المحامي والمؤلف الشهير عباس العزاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩١هـ) كان يأخذ من موكِّلِيه كتبًا بدل النقود، مقابل أتعابه على بعض قضايا المحاماة(٢).

٧٠. الشيخ عبد الله الدويش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٨هـ) كان شغوفًا بجلب الكتب لمكتبته، فما حصَّل من مال اشترى به كتُبًا، في الحديث والفقه خاصةً(٣).

٧١. الفقيه المؤرخ صالح بن عبد العزيز العثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٠هـ) كان مُغرمًا بجمع الكُتُب وتحصيلها، وكان لغَرَامه بالكُتُب جَمْعًا وقراءة، ودراسة؛ يسمَّى «كشف الظنون»(٤).

٧٢. قال العلامة أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري - حفظه الله تعالى- في إحدى تباريحه: كان لي أصدقاء من المشايخ، منهم من يُهدِي عليَّ، ومنهم من يُبدلني كتابًا بكتاب، ومنهم من يبيعني نقدًا ونسيئة.. وأهلَّ عام ١٣٩٠هـوقد أرهقت ذمتي بالديون، إذ كنت خلال عشر سنوات مضت أسدِّد دينًا بدين، في سبيل الحصول على الكتاب، ولا زال هذا الطبع يلازمني حتى اليوم.. يدفعني حب العلم إلى شراء الكتاب بأغلى ثمن، وفي الذمة في أحيان كثيرة، وتدفعني الحاجة إلى بيعها بأوْكَسِ الأثمان(٥).

٧٣. الشيخ مشهور حسن سلمان -حفظه الله تعالى- يحكي عن نفسه أنه جمَّع

---

(١) (أنا) للعقاد (ص٦١).

(٢) تاريخ العقيدة الإسلامية في العراق - عباس العزاوي (ص٤٧).

(٣) المحدث الشيخ عبد الله الدويش - نواف الرعوجي (ص ٧١ - ٧٣).

(٤) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (مقدمة/٦).

(٥) تباريح التباريح (ص٢٩).

العيديات التي أعطيت له يوم العيد، واشترى بهن كتابين: «فتح الباري» و«تفسير روح المعاني»، وهذا عجيب! والأعجب أنه يوم اشتراهما كان عمره اثنا عشر عاما تقريبًا[١].

٧٤. طالب علم معاصر، يحكي لي: أنه يوم كان في آخر المرحلة الثانوية، سافَر أول سفرة في حياته لمصر، وعانَى من استخراج الجواز ما عانَى، ومن المحاولات لاستئذان والدَيه، ومِن جمْع الريال على الريال، لماذا كل هذا؟! أيريد السياحة؟! حاشاه، ولكن لأجل أن يَزُور معرض الكتاب بالقاهرة، ثم عاد للرياض، واشترى بما بقي معه من دريهمات مجلة الرسالة[٢] التي مُدِحت له كثيرًا! بقي أن تعرف ما قيمتها آنذاك، إنها بثمانية آلاف ريال، هي حصيلة ما جمعه؛ بسبب إمامته لأحد المساجد بالسعودية!.

٧٥. بلغني أن شيخًا جليلًا لا يزال حيًا، وفي شبابه أعطاه والده «عيدية» ليلة عيد؛ ليشتري ثوبًا جديدًا، فاشتري بها كتابًا جديدًا! وكانت تأتيه هدايا من أرحامه، فيبيعها ليشتريَ الكتب!

٧٦. وسمعتُ أن طالب علم نشأ بين أسرة فقيرة، فكان يبيع من ملابسه؛ كي يشتري كتابًا، ويمشي المسافات الطوال، مُدخِرًا أجرة الركوب؛ ليشتري كتابًا.

٧٧. الشيخ د. عبد الرحمن بن معاضة الشهري - حفظه الله تعالى - وقصته الطريفة مع «لسان العرب»: حيث أراد شراء الكتاب يوم كان طالبًا جامعيًا. يقول: ولم يكن معي إلا ثمنه بالضبط، وهي مئتان وخمسون ريالًا، وأبى صاحبُ المكتبة أن يساعدني بتخفيض ريال واحد. فأخذتُ أترددُ على المكتبة أقلِّب الكتابَ، ثم أُخرجُ المبلغَ فأحسبهُ! ثم أتذكر أنه لن يبقى معي شيء بقية الشهر، فأعيد المبلغ، والنسخة وحيدة، فأنصرف، ثم أعود للمكتبة، وفي المرة الرابعة لقيت أحد المشايخ في المكتبة، وطلبت منه أن يتوسط لي عند صاحب المكتبة، بأن يخفض لي من ثمن الكتاب، فوافق وشفع لي، فأعطاني الكتاب بمبلغ ٢٣٠ ريالًا، وبقي لي عشرون ريالًا، فلم أتردد لحظة، وأخذته

---

(١) من مقطع مرئي في (اليوتيوب) للشيخ مشهور نفسه.

(٢) أصدرها: الأديب أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى ١٣٨٨هـ) وعدد أعدادها ١٠٢٥ عددًا (على مدار ٢١ عامًا).

على كتفي في صندوق، وجرَيتُ إلى البيت وكأني أحمل ريشة، وبقيتُ أسبوعين آكلُ «التميس» فقط، أفطر وأتعشى ولا أتغدى.. وذات يوم لا أنساه، لم يبق معي إلا ما يقارب الخمسة ريالات، وأنا جالس في البيت، ومعي صاحبي نشرب آخر ما بقي من الشاي! إذا بجرس الشقة يرِن، فقمتُ متثاقلًا للباب، وإذا به شقيقي الأكبر عبد العزيز -حفظه الله - وهو يقول: أحببت المرور؛ للسلام عليك فقط، وقد ذبحت خروفًا، وأحب أن أعطيك وصاحبك منه. فكدت لفرحي وجوعي آكلها في الشارع! ثم أدخَلَ أخي يده في جيبه، وأعطاني مبلغ ١٢٠٠ ريال، لا أنساها ما حييتُ! وعُدت فقلت لصاحبي: قم يا عدوَ نفسه! أوقِد الفرن، فقد جاءنا الفَرَج! وكانت ليلةً من أجمل الليالي[١].

سُود الدفاتر عنده معشوقةٌ ... عشقًا تمنَّته الحِسان البِيضِ[٢]

وقفة محاسبة:

بعض المتلذذين قد طغى عليه حب الكتب، حتى صار مِتلافًا للمال في سبيل شرائها، فجنى على أهله، فصار مقصِّرًا عليهم في النفقة الواجبة، وربما انقلب مديونًا، يتكفَّف الوجهاء والأمراء، بحجة جَمعه للمكتبات، لا الكتب فحسب!.

وقد يَعُدُّ بعض طلبة العلم هذا من مناقبه، لا من مثالبه. ولكن هذا قد يدخل فيما يُعبِّر عنه الفقهاء بمن لا يُحسن التصرف بالمال، وليس من الرُّشد الذي نصَّ عليه القرآن.

وفي المقابل تجِد من طلبة العلم، من يَحرِم نفسه الكتب الأمهات، ذات الطبعات النفيسة، والتحقيقات الفريدة، بحجة توفير المال، أو اتكاءًا على توفُّر النُّسَخ الالكترونية.

وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، ومن خير ما تُصرف به الأموال الكتب العلمية، لا سيما الشرعية، مع مراعاة الحقوق الواجبة.

---

(١) المصدر: ملتقى أهل التفسير.

(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢/٣٧).

ومن طريف ما يُروى أن أبا حيان التوحيدي -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٠٠ هـ) كان يلوم على بذل الدراهم في شراء الكتب، ويقول: إذا أردتُ كتابًا استعرتُه من كتب الأوقاف، وقضيتُ حاجتي، وإذا احتجتُ إلى درهم لم أجد من يُعِيرني إياه[1].

وأما القادرون الأغنياء، أو الجهات العلمية؛ فقد يشترون النوادر بأغلى الأثمان، ولا ضَير! ولهذا المجال سوقُه وروّاده المقتدِرون، وعجائب الأمثلة في هذا يطول إيرادُها[2].





---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٦/٦٥).

(٢) ومن الأمثلة على غلاء أسعار نوادر الكتب: كتاب «رحلة الرياض» - لمؤلفه: لويس بيلي - طبع في لندن عام ١٢٨٢ هـ، وبِيع بمبلغ ٢٥ ألف دولار = قرابة تسعين ألف ريال سعودي. وكتاب: «الآثار الفرعونية في مصر والنوبة» - لمؤلفه: جوفاني بلزوني - طبع في لندن عام ١٢٣٥هـ بمبلغ ٩ آلاف دولار. وكتاب: «وصف شبه الجزيرة العربية» - للمؤلف نيبور - طبع باللغة الفرنسية عام ١١٨٨ هـ، بمبلغ ٥ آلاف دولار. انظر: «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره» (١/١٦٩).

٦٠. لذة إهداء وتهادي الكتب

هبْ أنك أَهديتَ طالب علم كتابًا، ثم أرسل لك: أعجبني الكتاب، فقرأتُه كله.

أو هبْ أنك أهديت كتابًا عن قيام الليل أو صلاة الضحى أو الأذكار، فقال لك المهدَى: ما تركت هذه العبادة منذ قرأت الكتاب.

أو تخيَّل أنك أهديت مبتدعًا كتابًا يناقش بدعته أو ضلالته، ثم إنه رجع بسببه إلى الحق والسنة، فكيف لو كان كافرًا فأسلم بسبب إهدائك؟!

أي فرحة تبلغ بهؤلاء الباذلين للعلم؟! وأي سعادة تحيط بأولئك المُهدِين الهادِين؟!

فأيّة راحة ونعيم عيشٍ ... يوازي كُتْبه أم أيّ طِيبِ[1]

من الفرحة يُعطيه كل ما يملكه:

كَتَبَ الميداني -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٨هـ) بخطه كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم، فأراد مكي بن بنجير -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٧٦هـ) أن يكون له به نسخة، فأنفَذَ إليه الميداني بنسخته على وجه الهِبة، فبعث إليه مكيٌ جميع ما كان يملكه في ذلك الوقت، من الدنانير والثياب والدقيق، والحوائج التي تكون في البيوت؛ لفرحه بالكتاب[2].

هدايا الكتب للوزراء:

قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): أردت الخروج إلى الوزير محمد بن عبد الملك، فقلت له: أردت أن أهدي لك شيئًا، ففكرت فإذا كل شيء عندك، فلم أرَ شيئًا أشرف من «كتاب سيبويه» وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال: والله ما أهديت إليّ شيئًا أحب لي منه[3].

---

(١) معجم الأدباء (١/٣٩٢).

(٢) معجم السفر (ص: ٢٧٩).

(٣) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٥٥).

وقال الجاحظ: أهديتُ كتاب «الحيوان» إلى الزيات، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديتُ كتاب «البيان والتبيين» إلى ابن أبي دواد، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديتُ كتاب «الزرع والنخل» إلى الصولي، فأعطاني خمسة آلاف دينار(١).

يُهديه دفترًا فيه مجموع فوائد:

قال الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ) عن صديق له، اشترى جملة من نفائس الكتب من بغداد: وأتحفَني بذلك في دفتر صغير الجِرم، خفيف الحجم(٢).

فرح الحفيد بكتاب جَدّه:

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) قدم علينا حفيد ابن مرزوق العجيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨١هـ)، وكان قد وقع لي شرح الشفاء بخط جده، فأتحفته [الحفيد] به، وسرَّ به سرورًا كثيرًا(٣).

وللملوك لذة بهدايا الكتب:

أهدى ابن حجر لسلطان اليمن نسخة من «خريدة القصر» للعماد الكاتب، بخط ابن الفوطي، فأثابه عليها ثوابًا جزيلًا جدًا(٤).

أحضر لي الكتاب فورًا، فلن أصبر إلى المغرب:

قال الشيخ أحمد الباتلي -وفقه الله-: طلب مني الشيخ حسن بن عبداللطيف بن محمد المانع -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٩هـ) شراء كتاب «فضائل الأوقات» للإمام البيهقي رحمه الله، فاشتريته له، واتصلت به، وقلتُ: سأحضره لك غدًا -إن شاء الله- إذا حضرت للدرس بعد المغرب، فلما جاء الصباح، اتصل بي الشيخ، وقال: أحضره لي فورًا، فلن أصبر إلى المغرب.

---

(١) معجم الأدباء للحموي (٢١١٧/٥).
(٢) يتيمة الدهر (٣٣٤/١).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٩٦/٥).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٥٢/١).

البكاء من الفرح لإهداء كتاب لم يطبع من قبل:

وقال الباتلي: لما طُبع كتاب «السنن الكبرى» للنسائي، أهديته نسخةً منه، فشهق من الفرح وبكى، وقال: رحم الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، فلقد كان يقول لنا دائمًا: ليته يطبع، فالحمد لله أنني اقتنيته.

فرحة الإهداء:

ولأن تُهدي طالب علم علمًا يقرؤه أو يسمعه، خير له من أكل يأكله، أو لبس يلبسه.

فكيف إن كان طالب العلم شغوفًا فقيرًا معًا، فالفرحة تتضاعف من كليكما.

ألا فلنتفقد أولئك المتلذذين المتعففين الأعزة؛ فإن كفايتهم أمر معيشتهم لعلمهم، وعلمهم لأمتهم لهو من أعظم الأجور، وهذا محض توفيق الله -تعالى- لمن وجدهم، فأنجدهم.

وينبغي ألا يأنَفْ المرء من إهداء الكتاب المستعمل، كما أنه لا يأنف من شرائه.

ومما يُحثُّ عليه أهل الدثور لتحصيل الأجور: طبع الكتب أو شراؤها وإهداؤها؛ فإنه كما سلف - لطلاب العلم خير من إطعامهم وإلباسهم.

ومن روائع الأمثلة أن الملك الأمجد ابن الملك الناصر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٠هـ) كان عنده من الكتب النفيسة شيء كثير، فوهب مُعْظَمَها[١].

ويدخل في ذلك مكافأة ذوي الثراء لمن يُهديهم من نفائس الكتب.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): ملكتُ بخط ابن الفوطي «خريدة القصر» للعماد الكاتب، وقدمتُها لصاحب اليمن فأثابني عليها ثوابًا جزيلًا جدًا[٢].

ومما يُذكَّر به المؤلِّفون أن يحصِّلوا من مؤلَّفاتهم -ولو بمالهم- ما يخصصونه لإهداء من ينتظرون إهداءه؛ فإن ذلك لذة على لذة.

---

(١) تاريخ الإسلام (٣٠٤/٤٩).

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٦٠/٣).

ومن توفيق الله لبعض المؤلفين أنهم - كما شهدتُه في حلقة شيخنا ابن عثيمين رحمه الله- يرسلون كمية من مؤلفاتهم لتوزع على طلاب العلم المواظبين في حلقات العلم؛ فإن هذا طريق مختصر لإيصال العلم لمستحقه.

وتأمل فقه العالِم قطب الدين النهرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٨هـ) فقد كان الأتراك يعطونه العطاء الواسع، وكان يشترى بما يحصله منهم نفائس الكتب، ويبذلها لمن يحتاجها(١).

ومن جميل الأخبار أن الشيخ عبد الرحمن الدوسري (ت ١٣٩٩هـ) كان حريصًا على توزيع الكتب على المكتبات العامة، وعلى طلبة العلم، والراغبين في القراءة بالمَجَّان، حيث يشتريها من خالص ماله، الذي يكسبه من عمله التجاري(٢).

ومما يوجَّه به المؤلفون أن ينزِّلوا في (الإنترنت) نُسخًا الكترونية لكتبهم؛ لتبقى، وليَنتفع بها القاصي والداني، ويقرأها من لا يَقدر على النُّسَخ الورقية.

في صداق الزوجة مصحف وكتاب

وهذا أمر آخر وأخير، وهو عجيب لطيف، كانوا يفعلونه زمنًا مضى، فإن متن مختصر المزني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ) في الفقه الشافعي، قد امتلأت البلاد بانتشاره، بحيث إن الفتاة البِكر إذا جُهزت؛ للدخول على زوجها، يكون في جَهازها مصحف، ونسخة من مختصر المزني(٣).

وهذا يعطيك دلالة على مقدار الميول السائد في البيئات العلمية، وأن بعض حِقَبٍ مضت هي أقوى في العلم من بعض. فالتلذذ العلمي يعلو مرة، ويهبط أخرى.



(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/٥٧).
(٢) نبذة مختصرة عن حياة الداعية الإسلامي عبد الرحمن الدوسري - أحمد الحصين (ص:٢٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٩٣) وخطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول لأبي شامة (ص: ١٣٧).

٦١. لذة الإنفاق على أهل العلم ووقف المكتبات

لذة نشر العلم ماديًا -وإن لم تُملك آلته- لذة خاصة لا يملكها إلا أصحاب الجِدَة والنجدة، فتراهم يدعمون العلماء والمتعلمين، ويقتطعون من أوقافهم لطبع الكتب، وإنشاء المكتبات العلمية، سواء الورقية أو الالكترونية. وهؤلاء العلماء وطلابهم ينبغي الالتفات لهم.

قال القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ): ينبغي لكل أحد من الملوك فمَن دونهم، أن يتواضعوا لطلبة العلم؛ اتباعًا لملائكة الله -تعالى-(١)

وقد مرَّ معك آنفًا من يشتري كتبًا ويُهديها، ومَن يتفقد فقراء أهل العلم فيرفِدهم. وأعظم منه دعم الدروس العلمية ومستلزماتها، والكتب النفيسة ونفقة طباعتها، أو الإشراف على طباعتها، أو إجراء الرواتب للعاملين عليها والمؤلِّفة لها.

وقد كان من سَنن الحضارة الإسلامية، الإكثار من خزائن الكتب، فكانت القراءة -غالبًا-ميسورة لكل طالب، في كل حي وفي كل مسجد جامع.

فيا لَفوزهم! حقًا لقد ذهب أهل الدثور بالأجور، وباللذات التي انفردوا بها والسرور. وإليك سِيَرَ لَفِيفٍ من أولئك الباذِلين:

١. محمد بن جبير بن مطعم -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ) احتسب بنشر كتبه، وجعلها في بيت، وأغلق عليها بابًا، ودفع المفتاح إلى مولاة له، وقال لها: من جاءكِ يطلب منك مما في هذا البيت شيئًا، فادفعي إليه المفتاح، ولا تُذهبي من الكُتُب شيئًا(٢).

٢. ابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) عُوتِب فيما يفرّقه من المال في علماء البلدان، ولا يفعل في أهل بلده! فقال: طلبوا الحديث، وحاجة الناس إليهم شديدة، وقد

---

(١) الذخيرة للقرافي (٤٣/١).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨٧/٥٢).

احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أغنيناهم بَثُّوا العلم لأمة محمد ﷺ، فلا أعلم بعد النبوة درجةً أفضلَ من بَثِّ العلم(١).

٣. الفقيه الأديب ابن حمدان الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٣هـ) كانت له ببلده دار علم، قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، وقفًا على كلّ طالب علم، لا يُمنع أحد من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان معسرًا أعطاه ورقًا وورِقًا، تُفتح في كل يوم، ويجلس فيها، ويجتمع إليه الناس، فيُملي عليهم من شعره وشعرِ غيره ومصنفاته(٢).

٤. الخليفة الأندلسي المستنصر -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ) بنى مكتبة ضخمة، فيها من الكتب النفيسة، في سائر أنواع العلوم، وهيأ فيها كل ما يحتاجه مرتادها شيئًا كثيرًا جدًا، ورتَّب فيها الورق والأقلام لمن يريد النسخ(٣).

٥. كانوا بالأندلس لا يقدِّمون أحدًا للفتوى حتى يطول اختباره، ويكون ذا مال؛ خوفًا أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس، فيبيع به حقوق الدين. فقال ابن السلطان شافعًا للعلماء: يا مولاي هؤلاء ما قدمْتَهم أنت، وإنما قدمهم علمهم، أوَكنت تأخذ قومًا جهالًا، فتضعهم مواضعهم؟! قال: لا، قال: فأنصِفْهم فيما تعبوا فيه من العلم؛ لينالوا به لذة الدنيا، وراحة الآخرة، فتعطيهم من مالك قَدْر ما يُغْنيهم. فصار يُجري لهم ما يُغنيهم(٤).

٦. كان السلطان عضد الدولة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٢هـ) يقرأ الأدب على أبي علي الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٧هـ) ويبالغ في إكرامه، ويحضره معه المائدة، حتى كبر وأضر، فاتفق يومًا أن الذي يصب عليه الماء كان مشغولًا، فأخذ عضد الدولة الإبريق، وصب عليه الماء، وأعطاه المنديل، فمسح يده، ورجع إلى مكانه، فقيل

---

(١) شعب الإيمان (٣/٢٦٣).
(٢) معجم الأدباء (٢/٧٩٤).
(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٥/٣١٦).
(٤) فضائل الأندلس وأهلها (ص: ٥٣).

لأبي علي: يا سيدنا تَعْلم مَن قلَب على يدك الماء؟ فقال: أنت. فقالوا: إنما كان مولانا عضد الدولة! فقام أبو علي وقال: لو لم أجد من حلاوة العلم إلا هذا لكان فضلًا كبيرًا. ثم رفع يديه نحو السماء، يدعو لعضد الدولة(١).

٧. الوزير الشهير في دولة بني بُوَيه، الملقب بكافي الكفاة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) كان يبعث في كل سنة بخمسة آلاف دينار؛ لتُفَرَّق على أهل العلم، واقتنى كتبًا كثيرة، كانت تُحمل على أربع مئة بعير(٢).

٨. الوزير الفارسي سابور بن أردشير -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٦هـ) قد وقف دارًا للعلم، وجعل فيها كتبًا كثيرة جدًا، ووقف عليها غلة كبيرة، ومكثت سبعين سنة، ثم أحرقت عند مجيء الملك طغرلبك التتاري في سنة (٤٥٠هـ)(٣).

٩. المؤرخ التاجر أبو الحسن الصابي، الملقب بغرس النعمة -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٠هـ) ابتنى دار كتب، ووقف فيها نحوًا من أربع مئة مجلد، في فنون العلوم، ورتَّب بها خازنًا، وتكرر العلماء إليها سنين كثيرة، فصرف الخازن، وحكَّ ذِكر الوقف من الكتب وباعها.

قال ابن الجوزي: فأنكرتُ ذلك عليه فقال: قد استغنى عنها بدار الكتب النظامية. فقلت: بَيع الكتب بعد وقْفها محظور. فقال: قد صرفتُ ثمنها في الصدقات(٤).

١٠. قوّام السنة الأصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩١هـ) قد أخلى دارًا من ملكه لأهل العلم، مع خفة ذات يده.

١١. ابن نبال العكبري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٨هـ) من تلاميذ أبي الوفاء بن عقيل، باع مُلكًا له، واشترى كتاب «الفنون» وكتاب «الفصول» لابن عقيل، ووقَفَهما على المسلمين(٥).

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (٥/٢٢٦٩).
(٢) البداية والنهاية ط هجر (١٥/٤٥٤).
(٣) المصدر السابق (١٢/١٩).
(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٦/٢٧٦).
(٥) المصدر السابق (١٧/٢٨٧) والمقصد الارشد (٢/٦٣) ذيل طبقات الحنابلة (١/٤١٣).

١٢. ابن حمدويه البزاز -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٩هـ) اشترى كتبًا كثيرة، فبنى خزانة الكتب في رباط بناه من خاصة ماله، باسم أصحاب الحديث وطلابه، ووقف كتبه فيه(١).

١٣. أبو المعالي الرشيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٩هـ) كان من أهل الفضل والعلم، واشترى كتبًا كثيرة، وأوقَفَها بالجامع(٢).

١٤. الملك الأيوبي العاضد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ) أوجد خزانة كتب، ليس في مدائن الإسلام لها نظير، تشتمل على مليونَين ونصف مليون كتاب، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومئتان وعشرون نسخة من «تاريخ الطبري»(٣).

١٥. ابن حوائج كش -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٤هـ) أوصى بكتبه أن تكون بمسجد(٤).

١٦. سيف السّنة أَحْمد السكْسكِي البريهي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٥هـ) وقَفَ كُتُبَه كلها على طلبة العِلْم من أهل السنة، وكتَب على كل كتاب منها:

هـذا الكتاب لوجه الله موقوفُ بتًّا إلى الطالب السُّني مصروفُ(٥)

١٧. في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٩هـ) كانت الكتب تباع في داخل قصره كل أسبوع يومان، وهي تباع لطلبة العلم بأرخص الأثمان، وخزائنها مرتبة مقسمة مفهرسة(٦).

١٨. ذكرت كتب التاريخ: أن دار الكتب في القرن السادس، كان بها ألف ومئتان وعشرون نسخة من «تاريخ الطبري»، وكانت تحتوي على ألفي ألف وست مئة ألف(٧).

---

(١) المصدر السابق (١٨/٤٠).
(٢) التحبير في المعجم الكبير (٢/٣٢٨).
(٣) البداية والنهاية ط هجر (١٦/٤٥٥) والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (٢/٢١٠).
(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٥/٢٨٥) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/٥٠).
(٥) السلوك في طبقات العلماء والملوك (١/٣١٨) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٤/٣٣٢).
(٦) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة (٢/٤٤٤).
(٧) الوافي بالوفيات (١٧/٣٦٦).

١٩. ربيع أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي -رحمهما الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ) كانت تُكرم العلماء، وهي التي بنَتْ المدرسة الحنبلية في جبل الصالحية، وجعلت لها أوقافًا، وأجْرَتِ الرواتب المالية لكل مدرس ومعِيد وطالب، وجعلت طلبة العلم في الحلقة الواحدة لا يزيدون عن عشرين[1].

٢٠. السلطان المَريني في المغرب الأقصى المنصور بالله -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٥هـ) بعث من كتب العلم التي بأيدي النصارى، منذ استيلائهم على مدن الإسلام، فجمع من أصنافها في ثلاثة عشر حِملًا، فوقفها السلطان بالمدرسة التي أسسها بفاس لطلب العلم[2].

٢١. رشيد بن عبد الله السعيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١١هـ) أحد الخُدام بالمسجد النبوي، كان يَصحب العلماء، ويشتري كتب العلم، ويُوْقِفها عليهم.. وكان مُولَعًا بشراء الكتب المليحة[3].

٢٢. الفقيه جمال الدين البريهي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٠هـ) اشترى كتبًا كثيرة، وأوقَفَها على من يقرأ بها في المسجد[4].

٢٣. عبد الكريم بن إبراهيم الحنبلي الكُتْبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٩هـ) كان يشتري الكتب الكثيرة، وخصوصًا العتيقة، ويبيع لمن رام منه الشراء من الطلبة برأس ماله، ويشترط له أنه متى رامَ بيع ذلك الكتاب يدفع له رأس ماله، فكان الطالب ينتفع بذلك الكتاب دهرًا، ثم يأتي به إلى السوق، فينادي عليه، فإن تجاوَز الثمن الذي اشتراه باعه، وإن قصر عنه أحضره، فاشتراه منه برأس ماله[5].

٢٤. تغري برمش التركماني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ) أوصى بوقف دار له بالمدينة على رجلين، يقرأ أحدهما «شرح معانى الآثار» للطحاوي، وكتاب «العاقبة»

(١) الروضة الفيحاء في أعلام النساء - ياسين بن خير الله العمري (المتوفى: بعد ١٢٣٢هـ) (ص: ٨٢).
(٢) تاريخ ابن خلدون (٧/٢٧٧).
(٣) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (١/٣٤٧).
(٤) تاريخ البريهي (ص: ٢٠١).
(٥) إنباء الغمر (ص: ٤٤١).

لعبد الحق الإشبيلي، و«التذكرة» للقرطبي، و«رياض الصالحين» و«سلاح المؤمن» وغير ذلك من الكتب التي سماها. والآخر يصلي على النبي ﷺ كل يوم ألف مرة(١).

٢٥. العلامة جمال الدين الملقب بـ«ملك المحدثين» الهندي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٦هـ) ورث من أبيه مالًا جزيلًا، فأنفقه على طلبة العلم. وكان يرسل إلى معلم الصبيان، ويقول: أيُّما صبي حسن ذكاؤه، وجيد فهمه؛ أرسله إليَّ. فيرسل إليه؛ فإن كان فقيرًا يقول له: أنا أتعهد أمرك، فاجتهد في تحصيل العلم(٢).

٢٦. الشيخ العلامة عبد الحكيم السيالكوتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٦هـ) يقضي منه العجب في استحضار المسائل، وقوة العارضة، وكثرة الدرس. وزَنَه ملك الهند مرتين بالفضة في الميزان، ومنحه ما جاء في الوزن، فعاش بها في نعيم(٣).

٢٧. السلطان الهندي أبو المظفر أورنك زيب بن شاهجهان -رحمه الله تعالى- (ت ١١١٨هـ) أمر العلماء أن يصنفوا «الفتاوي الهندية» في ستة مجلدات كبار، فعمَّ النفع بها، وصارت مرجعًا للمفتين، وأنفق على جمعها مئتي ألف من النقود(٤).

٢٨. الشيخ المحدث محمد أفضل الدهلوي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٦هـ) قد حصل له خمسة عشر ألفًا من النقود، فاشترى بها الكتب، وجعلها موقوفة في سبيل الله(٥).

٢٩. السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام المكناسي-رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٦هـ) كان يعتني بالطلبة الذين ظهرت نجابتهم، يرتِّب له مبلغًا يتقوت، وحين يزيد اجتهاده يزيده إعانة(٦).

٣٠. الشيخ إسماعيل التلمساني -رحمه الله تعالى- (بعد ١٣٠٠هـ) من دعاة العقيدة

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٣/٢٥٤).
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٣٢٣).
(٣) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٥/٥٦١).
(٤) المصدر السابق (٦/٧٣٧).
(٥) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٦/٨٠٦).
(٦) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٥/١٤٤).

السلفية، وطبع على نفقته كتبًا كثيرة، وكان يوزعها مجانًا، مثل «الصارم المنكي» لابن عبد الهادي، والكافية الشافية لابن القيم[١].

٣١. الفقيه المحدث الهندي صدِّيق حسن خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) طبع كتبًا نفيسة على نفقته، مثل «فتح الباري» لابن حجر، و«تفسير ابن كثير»، و«نيل الأوطار»؛ طبعها في مطابع الهند ومصر واستانبول، ووزعها مجانًا على العلماء وطلبة العلم، ورتب إعانات مالية للعلماء، ورغبهم في ترجمة كتب الحديث إلى اللغة الهندية[٢].

٣٢. قال جمال الدين القاسمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) حاثًا على الطبع والنشر والتأليف: ولا يخفى أن أعظم واسطة لنشر المذهب السلفي هو طبع كتبه، وأن كتابًا واحدًا تتناوله الأيدي على طبقاتها خير من مئة داعٍ وخطيب؛ لأن الكتاب يبقى أثره، ويأخذه المُوافِق والمُخالِف. وأعرف أن كثيرًا من الجامدين اهتدوا بواسطة ما طبعناه ونشرناه، اهتداء ما كان يُظن، والحمد لله على ذلك[٣].

٣٣. الملك المؤسس عبد العزيز آل سعود -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) قال عنه الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ): الحقُّ أن ابن السعود[٤] يطبع عندنا كتبًا كثيرة، منها المغني مع الشرح الكبير، وتفسير ابن كثير، مع تفسير البغوي، ولم نُقاوِله ولا أحدًا من أتباعه على شيء منها، وإنما نطبع ونقدم لجلالته عند إتمام بعضها كشفًا (فاتورة) بنفقتها[٥].

وعند زيارة الملك عبد العزيز لمصر عام ١٣٦٥هـ عَرض عليه الشيخ أحمد شاكر طباعة تحقيقه لمسند أحمد، فوافق الملك وأمر بطبعه وتوزيعه على طلبة العلم[٦].

---

(١) مشاهير علماء نجد وغيرهم (٢/٧٨).
(٢) المصدر السابق (ص: ٢٧٩).
(٣) الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي (ص٧١).
(٤) يقصد المؤسس الملك عبد العزيز آل سعود -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ).
(٥) مجلة المنار (٢٨/٤٦٥).
(٦) مقدمة تحقيق المسند- أحمد شاكر (١/١٩) .

٣٤. الملك سعود -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٨هـ) تبرع لكل من يحفظ القرآن بألفي ريال، وترفع الأسماء من قبل قاضي البلد، ويصرفها له. كما تكفّل على نفقته بطباعة مجموع فتاوى ابن تيمية بمليون ريال(١).

٣٥. فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٩هـ) في ثلاثة عشر مجلدًا، أمضَتْ طباعتها إلى عام ١٣٩٩ = ٤٢ سنة. وجامعها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم (ت ١٣٩٢هـ) ولم ترَ النور لو لم يأمر بإعدادها الملك فيصل -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٥هـ) حيث كلف الجهات الرسمية بتمكينه مما عندها، ولمعالي وزير المالية بطبعها بمطبعة الحكومة. وأمدَّه سماحة الشيخ ابن باز بناسخ على الآلة الكاتبة.

٣٦. الأمير مساعد بن عبد الرحمن الفيصل (ت ١٤٠٧هـ) أخو المؤسس الملك عبد العزيز -رحمهم الله تعالى- استدعى الشيخ عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٢هـ) وأبدى له استعداده بالتكفل بطباعة «مجموع فتاوى ابن تيمية»، ولكن الملك سعود أصر على التكفل بها(٢).

٣٧. الشيخ عبد الرحمن بن قاسم بدأ جمع فتاوى ابن تيمية من عام ١٣٤٠ حتى عام ١٣٨٩هـ فيكون مقدارها ٤٩ سنة. وقد أطاف ابن قاسم بثمان مدن وعواصم: مكة - دمشق - حماة - حلب - بيروت - بغداد - البصرة - القاهرة - باريس. وقد قرأ لأجلها مئات المجلدات. ويكفيك أن تعرف أن محمد بن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) تصفَّح وفتَّش خلال ستة أشهر، زمن مرافقته العلاجية مع والده تسع مئة مجلد مخطوط، لا مطبوع! فيا لله العجب!

وقد طُبعت الثلاثون مجلدًا الأولى عام ١٣٨١هـ، بطلب وإلحاح من الملك سعود، فطُبع منها خمسة آلاف نسخة. ثم كَمُلت الخمسة والثلاثون عام ١٣٨٩ هـ، بمتابعة وأمر من الملك فيصل -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٥هـ).

---

(١) مقدمة مجموع فتاوى ابن تيمية لمحمد بن عبد الرحمن بن قاسم (١/ن) وتذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان (١١٨/٥).

(٢) مقدمة مجموع فتاوى ابن تيمية لمحمد بن عبد الرحمن بن قاسم (١/ن).

ثم صُوِّرت في المغرب، بأمر من الملك خالد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٢هـ) ثم صُورت في عام ١٣٩٧هـ بأمر الملك فهد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٦هـ). وهي الآن لا تزال تُصوَّر في مجمع الملك فهد بالمدينة. وهكذا تلقَّاها ملوك آل سعود، لاحقًا عن سابق بالتقدير والعناية(١).

٣٨. اطلعتُ في وسائل التواصل على صورة خطاب رسمي بتاريخ ١٣٨٥هـ من الملك خالد -رحمه الله تعالى- وفيه مبادرته بشراء عشرة آلاف نسخة من كتاب «العقيدة الواسطية»؛ لتوزيعها على المكتبات وطلبة العلم.

٣٩. كثيرًا ما يوجد على طرَّة بعض الكتب الشرعية، وأمهات الكتب: طُبِعَ على نفقة الملك الفلاني، أو الأمير الفلاني، أو التاجر الفلاني. وهذا يدل منهم على تلذذ خفي، وعلى توفيق وفقه عميق، وكأن الواحد منهم ينادي على نفسه قائلًا: يوم أن فاتني إدراك العلم فلا يَفُتْنِي دعمُه.

٤٠. من مفاخر دولتنا دولة التوحيد والسنة؛ المملكة العربية السعودية: أنها كانت تستقطِب لجامعاتها رموز العلم من شتى أنحاء العالَم، وتنشر العلم الشرعي في الجامعات والمساجد، كما أنها تعتني بطباعة وتوزيع بعض الكتب الشرعية مجانًا، ومما طبعته على سبيل المثال: «مجموعة التوحيد»، و«مجموعة الحديث»، و«الإنصاف» للمرداوي، و«كشاف القناع»، و«شرح السنة» للبغوي، و«تحفة الأشراف» للمزّي، و«جامع الأصول»، ومؤلفات محمد بن عبد الوهاب وأنجاله، كما قامت الجهات المختصة بتوزع هذه الكتب بالمئات، مبذولةً بالمجان للعلماء والطلاب. وكذلك فَعَلا وأكثرا، ولا يزالان، وهما: «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف». و«الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء».



(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (٥/١).

٦٢. لذة العثور على كتاب طال البحث عنه

الكتاب محبوبهم، وإن شئتَ فقل: معشوقهم، فكيف ترى الصَّبَّ العاشق حين يغيب عنه معشوقه، أو يفقده؟! ثم كيف تراه والهًا يلقى من يهواه بعد طول غَيبة؟!

وإن أحدهم إذا حصل كتابًا يتمناه، فإنما يسهر معه ليلة كليلة العروس:

أرأيـــــــت مـعـشـوقـيـــ ـــن بـعـد الـبُـعـد يـلـتـقـيـان
أتراهما ضَجِرَين من ذا العيش لا وحـيـاةِ ربـك مـا هما ضَـجِـرَان[1]

وحتى لا يأخذ بك الخيال كل مأخذ؛ فخذ أمثلة حقيقية لهذا الضرْب، وحكايات عن مشاعرهم، ووِجدانهم عند وِجدانهم لغائبهم:

١. قال أحمد بن مهدي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٢هـ): أردتُ أن أكتب كتاب «الأموال» لأبي عبيد، فخرجتُ لأشتريَ ماء الذهب، فلقيت أبا عبيد، فقلت: يا أبا عبيد -رحمك الله- أريد أن أكتب كتاب الأموال بماء الذهب، فقال: اكتب بالحبر؛ فإنه أبقى[2].

٢. أما الفقيه ابن الإخشيد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٦هـ) فقد طال بحثه عن كتاب، حتى تطلَّبه في موسم الحج، لكنه عاد بالخَيبة! وتبقى فترة البحث لذةً بحد ذاتها. يقول عن نفسه: ذكر الجاحظ أسماء كتبه، ومرّ بي في جملتها «الفرق بين النبي والمتنبىء» فأحببت أن أرى الكتاب، ولم أقدر عليه، فهمّني ذلك، وساءني في سوء ظفري به، فلما دخلت مكة حاجًّا، أقمت مناديًا بعرفات ينادي: رحم الله من دلّنا على كتاب «الفرق بين النبي والمتنبىء» لأبي عثمان الجاحظ. فطاف المنادي في ترابيع عرفات، وعاد بالخَيبة. قال ابن الإخشيد: وإنما أردتُ بهذا أن أُبلغ نفسي عُذرها.

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ٣٤٠).
(٢) طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها (٣/٥٧).

فعلق على القصة ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) قائلًا: وحسبك بها فضيلة لأبي عثمان! أن يكون مثل ابن الأخشيد.. يُستهام بكتب الجاحظ، حتى ينادِي عليها بعرفات والبيت الحرام[١].

٣. كان أبو مروان الطبني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٧هـ) يذكر شغَفه بكتاب «العين»، وببغلة له سماها «النعامة»:

حسبي كتاب العين عِلْق مَضِنَّة ... ومن النعامة لا أريد بديلا

هذي تقرِّب كل بُعْدٍ شاسعٍ ... والعين يُهدي للعقول عقولا[٢]

٤. الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) كان يَستصحِب دائمًا كتابَ «الذريعة» للراغب، ويستحسنه لنفاسته[٣].

٥. ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) أراد الرحلة؛ لتحصيل الكتب والمهمات. فلم يمضِ إلا أيام يسيرة، حتى قدم عليه رجل بكتب مسموعة، ففرح بذلك، وكفاه الله مؤونة السفر. وكان كلما حصل له جزء منها، كأنه قد حصل على مُلك الدنيا[٤].

٦. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): وإني أخبر عن حالي؛ ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني وقعتُ على كنز[٥].

٧. كان الصغاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٠هـ) يُقرأ عليه «معالم السنن» للخطابي، وكان معجَبًا بهذا الكتاب، ويقول: إن الخطابيَّ جمع لهذا الكتاب جَرَامِيزه[٦].

٨. لما ظهر «الشرح الكبير» للرافعي؛ اشتراه ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ) بألف درهم، وصار يُصلي الفرائض فقط، ويشتغل بالمطالعة، إلى أن أنهاه[٧].

---

(١) معجم الأدباء (٥/٢١١٥).

(٢) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٣٤٥).

(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/٨٢٧).

(٤) تاريخ الإسلام ت بشار (١٢/٤٩٨).

(٥) صيد الخاطر (ص: ٤٥٤).

(٦) معجم الأدباء (٣/١٠١٥). والجَراميز: اليدان والرِجْلان، كناية عن أخذ الأُهبة والاستعداد.

(٧) المقفى الكبير (٦/٢٠٠).

٩. قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): ضاع مني كراس، فتعبتُ في التفتيش عليه بين الكتب والكراريس، فألهمني الله -تعالى- أن قلت: يا سميع يا بصير، بقدرتك على كل شيء، وبعلمك كل شيء، دُلَّني على هذا الكراس. فوجدته في الحال(١).

١٠. قال الحافظ السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ): قلت مرةً لشيخنا ابن حجر: أُحب أن أفرد من «تاريخ الإسلام» للذهبي، من ليس في «التهذيب» و«اللسان». فواللهِ رأيته فرح بذلك! وقال: وكذا احذف منه الوزراء، ونحوهم ممن لا رواية له، وأكمل ذلك سريعًا؛ حتى أتحفَك بتتمات فيه، ويكون كتابًا حافلًا، فعاقَ المقدور عن ذلك، ولو رأى الكتاب الذي جمعته بعده لقرَّ عينًا(٢).

١١. العالم اليمني صالح بن مهدي المقبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠٨هـ) ارتحل إلى مكة. فسئل عن سبب ارتحاله: هل هو قضاء فريضة الحج؟ فقال: لم أكن مستطيعًا الحج، وإنما خرجت لطلب نسخة من كتاب: «البحر الزخار» للإمام المهدي، فسألتُ عنه حتى ظفِرت بخبره.

قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ): ورأيته وهو مُكِبٌّ على نسخة من «البحر»، يطالعها مطالعة من له كمال رغبة، وقد سُرَّ بذلك غاية السرور(٣).

١٢. الشيخ علي بن محمد طامش الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٩هـ) لازَم الأمير الصنعاني، وسمعه يثنى على مؤلفات ابن حزم، فتطلب من كتبه بصنعاء، فلم يظفر منها بشيء، فسار إلى مكة، وأخرج منها «المحلى»، واشتغل به دهرًا طويلًا، وجنح إلى مذهب الظاهرية(٤).

١٣. أحمد تيمور باشا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٨هـ) كان إذا جيء إليه بمخطوط

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٢/٩٦٣).
(٢) المصدر السابق (٢/٦٩٨).
(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٢٩٠).
(٤) الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - محمد بن يحيى زبارة الصنعاني (ت ١٣٨١هـ) (٢/١٧٥).

جديد، تغيرت أسارير وجهه واستضاءت، وكأن نورًا قد سطع بمجرد إمساكه المخطوط، وتبرق عيناه، وكأنها لؤلؤة مضيئة، أو درة يتيمة[١].

لآلـــئٌ تـتـمـنـى كـل غـانـيـة لـو أنـهـا نظمتها فـي تـراقـيـهـا[٢]

١٤. قال كامل الغَزي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥١هـ): بقيت مدة طويلة، أبحث عن كتاب «كنوز الذهب» فلم أظفر به. ومضى على ذلك أعوام، وقد يئست من الظفر به، إلى أن كنت يوما من الأيام مارًا في سوق من أسواق حلب، إذ بصرت بامرأة عجوز، وفي يدها الكتاب بخط مؤلفه، فقلت لها: بكم تبيعينه؟ قالت: لا أبيعه إلا بعشرة قروش. فنقدتُها عشرة القروش، وأخذت منها الكتاب، ولو أنها طلبت مني ثمَنه ألف قرش لما استكثرتُها[٣].

١٥. قال البشير الإبراهيمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٥هـ): قرأتُ - وأنا بالمدينة المنوّرة- «تفسير المرزوقي لديوان الحماسة» وهو تفسير أي تفسير! ولما دخلت الشام بحثت عن نسخة منه، فلم أظفر بها، فذكرته في مجالس الأدباء، ونوّهت بمكانته، وشوّقتهم إليه، وتعاهدنا على أن ننسخه إذا ظفرنا به، ونروّجه حتى يقيّض الله له من يطبعه.

ولما قدِمتُ إلى تونس مُصرًّا على ذلك العهد، سألت عن الكتاب فقيل لي: إنه موجود، لكنه مستعار عند الشيخ الطاهر بن عاشور، وإنه يكاد يحتكره احتكارًا. فكان هذا الخبر -بمجرده- مزيدًا في قيمة الرجل الأدبية عندي؛ لأن حسن اختيار الكتب أول عوامل الإصلاح في نفس العالِم[٤].

١٦. يحكي المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) عن مشاعره لما طُبع كتاب «المعجم الكبير» لأول مرة، فقال: وبذلك قدم لعلماء السنة، وطلاب علم

---

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر (١٢٣٠/٢).

(٢) الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة (ص: ٢٩٩).

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب (١٤١/١).

(٤) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢٢٤/١).

الحديث كنزًا ثمينًا، طالما كانت نفوس المحبين للحديث النبوي متشوقة للوقوف عليه، والاستفادة منه، ولعلي أنا من أكثر المستفيدين منه، إن لم أكن أكثرهم على الإطلاق، وهذا هو المثال بين يديك أيها القارئ الكريم؛ فإني ما كدتُ أقِفُ عند الجملة المشار إليها آنفًا، حتى سارعتُ بالرجوع لمراجعة الحديث..إلخ[١].

١٧. قال بعضهم عن «صحاح الجوهري»: يحق لهذا المصنَّف أن يكتب بماء الذهب[٢].

وبعد: فهذا تساؤل من الشاعر يقول فيه:

ألا هل على العشاق للكُتْب من عُتْبِ ... إذا كان حب المرء فَيضًا من القلبِ
معاشيقُ ما مثل الضرائر عَيشها ... ولكنْ على سِلْمٍ حضورًا إلى غَيبِ
لهن حروف تتْبع العين رسمَها ... كمُغترب يمشي رويدًا على الدربِ
فتطلب معنى عند كل استراحة ... كعطشان يستسقي من الحر والتعْبِ[٣]

١٨. شيخ المحققين د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٦هـ) مرِض آخر حياته كثيرًا، وتتابعت عليه الجلطات، ولكن لم يدَع التحقيق، والتنقيب عن الجديد، واستقبال الضيوف من طلبة العلم. وقد زاره أحد المهتمين بالمخطوطات شاكرًا الشيخَ؛ لدلالته على نسخة مخطوط في تركيا، ففرح الشيخ، وطلب منه صورة للمخطوط، فكان العثيمين جذلان فرِحًا بالظفر بها. وقد قرأ رُبع المخطوط خلال يوم واحد! فأي جَلَدٍ هذا، وصحته لا تساعده؟! إنها لذة العلم[٤].

١٩. قال أحد تلاميذ معالي الشيخ محمد المختار الشنقيطي -حفظه الله تعالى-: من عجيب ما وقع لي معه، أني مرة أتيته فرِحًا؛ أريد إلزامه بأمرٍ ما في مسألة فقهية، فذكرتُ له وجهَهَا، فقال وهو يبتسم ابتسامة قرير العين: انظر الجواب عنها في كتاب

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٥٠٣/١٢).
(٢) تاريخ البريهي (ص: ٢٩٦).
(٣) مجلة لغة العرب العراقية (٣٥٥/٩).
(٤) انظر: الفوائد المنتقاة من تحقيقات الدكتور عبدالرحمن العثيمين لتراجم الحنابلة - الشيخ ماجد السلماني (ص٤٤).

«شرح مختصر الخرقي» للزركشي. وكان الكتاب حديثَ الطباعة! فعجبتُ من سرعة قراءة الشيخ للكتاب[١].

سؤال الاستراحة:

ماذا يقصد الشاعر بقوله:

وذي أوجُـــهٍ لكنه غير بائحٍ   بِسِـرٍ وذو الوجهين للمرء يظهرُ
تناجيك بـالأسـرار أسـرار وجههِ   فتَفهمُها ما دمـتَ بالعين تنظرُ[٢]





(١) الموقع الالكتروني: ملتقى أهل الحديث.
(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣/٢٨٧).

٦٣. تلذذ كاتبي الكتب والمخطوطات وجامعي الطبعات:

هذا المبحث على قسمين:

١- جامعو الطبعات:

أما جامعو الطبعات فمتلذذون، ما لم يكن الجمع لمجرد الجمع، أو للمباهاة والتكاثر.

وهل تعلم أن ثمت مرضًا نفسيًا اسمه «هَوَس الكتب»، لكن لماذا يصنَّف بأنه مرَض؟!

والجواب: لأن هذا الهَوَس -إن صح التعبير- إنما هو في الشراء فقط، وتجميع الكتب فحسب؛ وليس معه هَوَس في القراءة.

ويحكي ابن خَلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) عن نفسه، وقد وجد كتابًا نفيسًا بسوق الكتب بقرطبة. قال: فجعلت أَزِيدُ في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة علَيّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا! أرِني من يزيد في هذا الكتاب. فأراني شخصًا عليه لباس رياسة، فقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك. فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب؛ لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب!(١).

إذًا، ليست المسألة مُباهاةً بالجمع، واستعراضًا بالرَّصّ، دون حصيلة علمية أو عملية نجنِيها من جمع الكتب، ورصّها بالرفوف.

ولما قالت امرأة للنبي ﷺ: إن زوجي أعطاني ما لم يُعْطِنِي، فقال رسول الله ﷺ: **المُتَشَبِّعُ بما لم يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**(٢).

---

(١) نفح الطيب للمقّري (٤٦٣/١).

(٢) صحيح البخاري (٥٢١٩) وصحيح مسلم (٢١٢٩).

ومن الطرائف المؤلمة أن شخصًا من أهل زماننا اشترى كتابًا، ثم اكتشف أن عنده نسخة منه بنفس الطبعة!

وإليك طائفة من أخبار أولئك الجامعين المتلذذين، لا المتشبِّعين المُباهِين:

• القاضي عبد الرحيم اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ) طلب منه ابنه نسخة الحماسة ليقرأها، فأحضر خمسًا وثلاثين نسخة، وصار يَنفُضها نسخةً نسخةً، ويقول: هذه بخط فلان، وهذه عليها خط فلان، حتى أتى على الجميع، وقال: ليس فيها ما يَصلح للصبيان. وأمر أن يُشترى له نسخة بدينار[١]. وهذا القاضي الفاضل كان له هَوَسٌ مفرِط في تحصيل الكتب، وكان عنده من كل كتاب نُسَخ كثيرة، حتّى من «الصحاح» ثمانَ عشرة نسخة[٢].

• ابن طُرخان الملكاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠١هـ): باع نُسخة زائدة عنده من «شرح صحيح مسلم للنووي»، واشترى بقيمتها كتاب «الجواب الصحيح» لابن تيمية، فعابوا عليه فعلَه، فقال معتذِرًا: إن عندي من «شرح مسلم» نسختين؛ بِعت إحداهما، واشتريتُ كتاب «الجواب» ولو لم يكن عندي من «شرح مسلم» نسخة لم يكن بعيب؛ لأن ما في «شرح مسلم» أعرفه، وما في كتاب «الرد على النصارى» أنا محتاج إليه[٣].

• وهذا الكاتب ابن فضل الله المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٩هـ) وهو صاحب «ديوان الأمير»: كان مُغرىً بتحصيل المصاحف، وقد وُجد في تركته أربع مئة مصحف[٤].

• مفتي الشام هبة الله الجهني الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٨هـ) من كثرة الكتب التي اقتناها؛ كان عنده من كل كتاب نسختان، وثلاث[٥].

• الفقيه برهان الدين بن جماعة الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ) كان

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/٢٠٦).
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/٥٣١).
(٣) الرد الوافر (ص: ٧٨).
(٤) أعيان العصر وأعوان النصر (٥/٢٦٨).
(٥) المصدر السابق (٥/٥٣٤).

يشتري النسخة من الكتب، والتي إليها المنتهى في الحسن، ثم يقع له ذلك الكتاب بخط مصنفه، فيشتريه، ولا يترك الأولى(١).

• الشيخ أبو الغيث القشاش التونسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣١هـ) كان يميل إلى تحصيل نُسخ متعددة من «البخاري»، وكان من ملتزَماتِه أنه لا يقبل هدية من أحد، إلا إذا أهدى له «البخاري»، فكان يَقبله ويُقابِل مُهْدِيه بأنواع الإحسان..ومن جملة ما وُجد في خزانة كتبه ألف نسخة من «البخاري»(٢)

صحيح البخاري لو أنصفوهُ لما خُطَّ إلا بماء الذهبْ
أسانيد مثل نجوم السماء أمام متون كمثل الشُّهبْ(٣)

• زكريا الأنصاري السنيكي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٢هـ) كان حريصًا على تحصيل خطوط العلماء(٤). وكان عنده من «طبقات السبكي الكبرى» ثمانيَ عشرة نسخة، وثمانية وعشرين شرحًا على «البخاري»، وأربعين تفسيرًا(٥)

• يقول الأديب المازني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٩هـ): لأن أشتري نسخة جديدة من كتاب، أهون من أن أهتدي إلى موضعه، وأين اختبأ!.

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣٥٥/١).

(٢) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٤١/١).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/٥٢) والبداية والنهاية ط هجر (٥٣٤/١٤).

(٤) وثمت لفتة حول تعدد النُّسَخ للكتاب الواحد، لا سيما ما كان بخط المؤلف، فقد يتعذر إحصاء ما كتبه. ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية (ت. ٧٢٨هـ)، فهو يَصعب على الإحصاء؛ فإنه (كان كثيرًا ما يُسأل عن الشيء، فيقول: قد كتبتُ في هذا. فلا يَدري أين هو؟ فيلتفت إلى أصحابه ويقول: رُدُّوا خطي، وأظهِروه ليُنقل. فمِن حرصهم عليه لا يردُّونه، ومِن عجزهم لا ينقلونه، فيذهب، ولا يُعرف اسمه. فلهذه الأسباب وغيرها تعذر إحصاء ما كتبه، وما صنفه. وما كفى هذا، إلا أنه لما حبس تفرق أتباعه، وتفرقت كتبه، وخوفوا أصحابه من أن يُظهروا كتبه، ذهب كل أحد بما عنده وأخفاه، ولم يُظهروا كتبه، فبقي هذا يَهرب بما عنده، وهذا يبيعه، أو يهبه، وهذا يُخفيه ويُودعه، حتى إن منهم من تُسرق كتبه، أو تُجحد). نقلًا من العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٨١).

(٥) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤٥٩/١) .

٢- كاتبو الكتب والمخطوطات

وأما كاتبو الكتب وناسخو المخطوطات، ومُراجِعوها ومنسِّقوها، فهم يتلذذون، وإن كانوا بنَسخهم يتقوَّتون.

واعتبِرْ بحفاوة ذلك الورَّاق، الذي ساومه أحد الأدباء على جزء من الشعر، أن يَبيعه له بما شاء، فامتنع، وقال: هذا الجزء في دكاني، بمنزلة جارية طيبة الغناء، مليحة الوجه في القِيان(١)

وفي المعاصرين نماذج كثيرة من المؤلفين، ومن الكُتْبيين، ومصححي الكتب، ومقابلي المخطوطات، والمنسِّقين والمصممين المبدعين، والأمناء الفضلاء. فليحتسبوا أجرهم، وإن قبضوا أجرتهم؛ ليكونوا كأم موسى، تُرضع ابنها وتتقاضَى أجرًا.

فيقال لهؤلاء ولأمثالهم:

وإذا الصوارم والأسنَّة أرهفتْ ... فابن الدواةِ حسامُه وسِنانُه
وإذا ثلاثُ بَنانه ارتحلته في ... طِرْس أتى بالسحر منه بنانُه(٢)

ولقد سهل الله على أيديهم العلم، وقد كان طالب العلم قبل ظهور نعمة المطابع إذا أراد أن يحصل «فتح الباري» مثلًا، ولا يملك أموالًا؛ ليشتري الكتاب، فكان ينسخه جزءًا جزءًا، أو يستأجر من ينسخه له! وهذا يدلُّك على أن هؤلاء العلماء نالوا العلم بتعب مضاعَف. كما أن لهم النُّسَّاخ مزيد مزية وفضل؛ لأنهم أعانوا على نشر العلم.

ولا تحسبن أن قراءة الورقة الواحدة من مخطوط بالأمر السهل، بل يحتاج لتركيز، وربط، وضبط، ودَرَبة، ومعايشة للمؤلف، وما يطرحه.

يقول الشيخ حماد الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ): مكثت مرة شهرًا لا أبصر بعيني، وأظن أن السبب قراءة المخطوط(٣).

وكانوا قبل الكهرباء يتحرون الليالي القمرية؛ ليكتبوا فيها. وخذ مثالين:

---

(١) الوافي بالوفيات (٢٠٦/١٢).
(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب (٢٦٧٧/٦).
(٣) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٤٢٥/١).

• قال فتح بن شَخْرَف -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٣هـ): عندي قلم كتبت به أربعين سنة، كنت أكتب به بالنهار، وأكتب به بالليل في القمر حتى يرتفع(١).

• محمد بن قرقماس الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٢هـ) لازَم الكتابة، بحيث إن أكثرُ كتابته في الليل، حتى إنه يكتب في ضوء القمر(٢).

ثم تطوَّر الأمر، وظهرت المطابع الحديثة، التي تطبع ألف نسخة في ساعة. وقد قيل أولَ ما ظهرت الطباعة: «القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ».

وأما اليوم، وما أدراكَ ما اليوم؟! ففي بغداد يبيع المثقف مكتبته متحسرًا؛ لكي يعيش! والله المستعان.

أما في زماننا؛ فقد نشتري الكتاب بسعر مقدور عليه، ويكون مطبوعًا بطبعة منسَّقة منمَّقة، ولكن ربما يمكث الكتاب سنين دأَبًا، لم نفتح منه صفحة! وهذا هو الفارق في النهَم الحقيقي، الذي كان عليه سلفنا في قراءة الكتب.

والتجربة أثبتتْ نتيجتين:

• أنه كلما سهل الحصول على الكتاب أو على المعلومة ضعفت الإفادة. ولذلك يوصَى ألا توزع الكتب مجانًا؛ لتَقْوَى الرغبة فيها لا عنها.

• أن معاناة نسخ الكتاب بخط اليد أفضل من قراءته عشر مرات، ومن جرَّب عرَف. وهذا يحتاج لدَرَبة منذ الصغر، وجرْدٍ كبير، ولو لم يَصحبه فهم تام.

أحوال كاتبي النسخ والكتب ومقاماتهم:

من أبرك الكاتبين والناسخين ناسخو وخطاطو المصحف الشريف.

وأسبقهم إلى الفضل كُتَّاب الوحي من الصحابة، والذين أوصلهم العلماء إلى أكثر من أربعين كاتبًا.

ومن أقوى العبارات للتحفيز على كتابة العلم ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/٢٣٢).

(٢) الضوء اللامع (٤/٢٥٥).

-رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فكُتَّاب الوحي يُشْبِههم من بعض الوجوه كُتَّاب العِلم في هذا الزمان(١).

ونسخ الكتب مهنة شريفة، قد امتهنَها طائفة من العلماء، إما تقوُّتًا، أو طلبًا للإتقان والضبط.

ولذا يحكي المحقق محمود الطناحي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٩هـ) عن أحد أصدقائه، فيقول: إنه أصبح قادرًا على تمييز خطوط العلماء، وكان يفخر بنسخ الكتب، ويقول له: إنه مهنة العلماء، كياقوت الحموي(٢).

وكاتبو النسخ متنوعون: فمنهم من ينسخ؛ ليَبيعَ، ومنهم من ينسخ بأجرة. وقد أكثر السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) من عبارة: «يتكسب بالنِّساخة» في جملة من تراجم ضوئه اللامع.

ومنهم من ينسخ؛ ليمتلك فيقرأ. ومنهم عالِم مؤلف، فهو يكتب ويؤلف في آنٍ واحد.

وكل أولئك مأجورون -إن شاء الله- إنْ هم احتسبوا أجرهم في كتابة العلم؛ لقوله ﷺ: **إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به**..رواه مسلم(٣).

قال المنذري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ) تعليقًا: وناسخ العلم النافع له أجره، وأجر من قرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده، ما بقي خطه، والعمل به(٤).

تصحيح كتب العلماء والمؤلفين مشاركة في التأليف:

ومما يندرج تحت التأليف وأجوره: تصحيح كتب أهل الإسلام، ومراجعتها قبل طبعها، والإشراف على الرسائل الجامعية، ومناقشتها، ويدخل فيهم اللجان العلمية في دور النشر إذا هم احتسبوا.

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة السابعة (٢٤١/١).
(٢) مقالات الطناحي (٧٢/١).
(٣) صحيح مسلم (١٦٣١).
(٤) الترغيب والترهيب للمنذري (٦٢/١).

فلكل واحد من هؤلاء يقال: يُرجى لك أن تشارك المؤلف أجره، بل قد تفوقه؛ لسلامتك من هجوم المُراءاة والاشتهار، وخمول التنويه باسمك عند الناس. فاحتسب تصحيحك أو إشرافك، أو مناقشتك، ومراجعتك.

وكما قال أبو منصور الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ) المتصفِّح للكتاب أبصرُ بمواضع الخَلَل من مُبتدئ تأليفه[١].

وهؤلاء المصححون يُهدون المؤلفين هدايا ثمينة، ويستدركون عليهم ما لم يخطر على بال، فلو كافأهم المؤلف لم يقُمْ بذلك، فيَكِلُ جزاءهم على الله -تعالى-.

واعتبِر بما قال البرهان البقاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ): ووالله الذي جلّت قدرته، وتعالَت عظمته، لو أن لي سعة تقوم بما أريد لكنت أبذل مالًا لمن ينبِّهني على خطئي، فكلما نبهني أحد على خطأ أعطيته دينارًا. ولقد نبَّهني غير واحد على أشياء فيه فأصلحتُها، وكنت أدعو لهم، وأُثني عليهم، وأقول لهم هذا الكلام؛ ترغيبًا في المعاودة إلى الانتقاد[٢].

إذًا؛ ليُبشر أولئك الذين يراجعون كتب العلماء قبل إخراجها؛ لأجل إتقانها، وليحتسبوا أنه يشملهم أجر نشر العلم وتعليمه وتأليفه.

قال الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٢هـ): وتعليم العلم يشمل التأليف، والتدريس، والنسخ، وتصحيح كتب أهل الإسلام[٣].

ومن هؤلاء الكُتَّاب والمراجعين من يمتلك القدرة التمحيصية للمقارنة والمقابلة، إضافة إلى التمكن الكتابي، كالناسخ عبد اللطيف بن محمد السكري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥١هـ) فقد كان من أكثر الكُتُبيين كُتُبًا، وفي كُتبه الكثير من الكراريس الملفَّقة، والأجزاء المخرومة التي كان يأخذها من التُرك، ثم يسهر الليالي المتوالية على الشمع ونحوه؛ ليُكمل بعضها من بعض[٤].

---

(١) الإعجاز والإيجاز للثعالبي (ص: ١١١).
(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/١٠٤).
(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (٢/٢٧٤).
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/٣٣٨).

ومن بركات الله على هذه الأمة أن أجرى الله خيرًا كبيرًا، على يد كثير من النُّسَّاخ الضابطين الأمناء، فحفظ الله على أيديهم جملة من تراث الأمة.

ما الناس إلا الكتَبَة ... حديثهم ما أعجبه

هم حرّروا دينكم ... بقطعة من قصَبة[1]

ومن هؤلاء الأمناء الشيخ الأصولي عيسى منّون -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ)، فقد كان السبب في نشر وطبع تلك الموسوعة الفقهية «المجموع» للنووي، حيث وَجد عند بائع كتب متجول كراسات مخطوطة قديمة يبيعها، فقام مع لجنة بالتصحيح والمقابلة والتحقيق، لهذا الكنز الفقهي المذهبي الضخم، وأخرَجُوه للأمة.

ومنهم من يكتب أمهات الكتب، أو متون العلم؛ ليضبطها ويحفظها. وخذ على هذا عشرة أمثلة مشْرقة مشَرِّفة:

١. الورَّاق يحيى بن عدي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٤هـ) يقول: نسختُ بخطي نسختين من «التفسير للطبري» وحملتهما إلى ملوك الأطراف.. ولَعَهدي بنفسي، وأنا أكتب في اليوم والليلة مئة ورقة[2].

٢. أبو الفضل الصنهاجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٩هـ) كتب بخطه «موطأ مالك»، و«صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» و«سنن أبي داود»، وغيرها[3].

٣. الناسخ ابن عبد الدائم المقدسي الفندقي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٨هـ) كتب «الخرقي» في يوم وليلة[4].

٤. الفقيه الشافعي علي بن هبة الله الأسنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ) كتب «الروضة» للنووي بِخَطِّهِ، وهي في اثني عشر مجلدًا، وكان يستحضر غالبها[5].

---

(١) درة الحجال في أسماء الرجال (١٨١/٢).

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقِفطي (ص: ٢٧٠) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٣١٨).

(٣) معجم السفر (ص: ٣٦).

(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥٤/٤٩).

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٦١/٤).

٥. الفقيه ابن عمران الشهابي المنبهي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٤هـ) نَسَخَ «المهذب» بأربعة مجلدات وهو يُدرِّس القرآن! وهذا أمر غريب؛ لأن الناسخ لا يستطيع عمل شيء آخر مع النِّسَاخة[١].

٦. والكاتب أحمد بن يحيى السُّهْرَوَرْدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كتب بخطه ثمانية وسبعين مصحفًا. وكتب «إحياء العلوم» للغزالي، و«عوارف المعارف» لجد أبيه ثلاث نسخ، و«نهج البلاغة» أربع نسخ[٢].

٧. العَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٥هـ) كتابته حسنة مع السرعة، حتى استُفيض عنه أنه كتَبَ «متن القدوري» [٢٠٠ صفحة] في ليلة، وكتَبَ «الحاوي» [٥٠٠ صفحة] في ليلة[٣].

٨. ابن بريطع الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٤هـ) كتب بخطه الكثير كـ«الصحيحين» و«الاستيعاب» و«الكشاف» وأكثر من مئة مجلد[٤].

٩. حفيدٌ للسراج البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٢هـ) كَتَبَ «فتح الباري» لابن حجر مرتين[٥].

١٠. الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) انتفع بطريقة عالِم، يقول عنه: كنت أعجب من سرعة ما يتحصل له من ذلك، مع شغله بالتدريس، فسألته بعض الأيام عن هذا، فقال: إنه لا يترك النَّسْخ يومًا واحدًا، وإذا عرض ما يمنع فَعَل من النسخ شيئًا يسيرًا، ولو سطرًا أو سطرين. فلزمتُ قاعدته هذه، فرأيتُ في ذلك منفعةً عظيمة[٦].

---

(١) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (١/٣٣٩).
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (١/٤١٤).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٠/١٣١).
(٤) المصدر السابق (٧/٢٨٩).
(٥) المصدر السابق (٧/٧١).
(٦) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٤٢٠) والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٣٨٧).

تلذُّذ الأغنياء والعلماء ببذل الأموال للمساهمة في نسخ الكتب ونشر العلم:

وقد كان العلماء الأغنياء، والمؤلفون المتلذذون يبذلون أموالًا طائلة للنُسَّاخ، بل يستأجرونهم دائمًا، ليكونوا على أُهبة الاستعداد كلما أرادوهم للكتابة.

• فهذا الحافظ الفقيه ابن شِيرويه -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٥هـ) أكثَرَ الأخذ عن بُندار، قال: فقال لي: يا ابن شيرويه! أَفْلَسْتَني وأَفْلَسَك الورَّاقون[١]. أي من كثرة ما كَتب عنه.

• وهذا الأمير العالم خلف بن أحمد السِّجزي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٩هـ) حفيد ملك سجستان، جمع هو وثلة من العلماء تفسيرًا ضخمًا جدًا، يبلغ مئة مجلد، فأنفق على العلماء والنُّسَّاخ عشرين ألف دينار، مدةَ اشتغالهم بمعونته على جمعه، وتصنيفه[٢].

• والمحدث البكري المحتسب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ) أحضر العلماء والنُّسَّاخ، وقرر معهم أن يرتبوا «مسند أحمد» على الأبواب، وقرر لهم في الشهر ستين درهمًا، وبذل لهم الورق وأجرة النُساخ[٣].

• وكان عبد الغني فكري بك -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) استعار «ديوان البحتري»قبل أن يُطبع، فأحضر عدة نُساخ، ولم يمضِ يومٌ وليلةٌ حتى تمّ الكتاب، ورُدّت النسخة لصاحبها![٤].

• وقد سئل الشيخ حماد الأنصاري -رحمه الله تعالى-(ت ١٤١٨هـ) عن مخطوط «تاريخ نيسابور» للحاكم، فقال للحاضرين: من يأتِني بهذا الكتاب فسأعطِيه سيارة جديدة[٥].

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/١٩٨) وطبقات علماء الحديث (٢/٤٢٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/١١٧) .

(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٥/٢٣).

(٤) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث - أحمد تيمور باشا (ص١٣٣).

(٥) تحذير ذوي الفطن من عبث الخائضين في أشراط الساعة والملاحم والفتن - أحمد أبو العينين (حاشية ص١٥٨).

ومنهم أثرياء ليسوا بعلماء، لكنهم بالعلم متلذذون، ولأجله يبذلون، ولعقباته يذللون. وكأن الواحد منهم ينادي على نفسه قائلًا: يوم أن فاتَني إدراك العلم فلا يَفُتْنِي التلذُّذ بدعمِهِ، وتيسيره لطالبيه. وخذ على ذلك ثماني شواهد:

• فهذا الفراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) ما تمكَّن من تأليف «أصول النحو»، إلا بتوفيق الله، ثم بأمرٍ ودعمٍ من الخليفة المأمون، حيث وكَّل به جواري وخدمًا، يقومون بما يحتاج إليه، فكان يُملي والوَرَّاقون يكتبون، فانتهى منه في سنتين[١].

• وهذا الوزير محمد بن عبد الملك الزيات -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٣هـ) كان عطاؤه للنَّقَلة والنُّسَّاخ في كل شهر يقارب ألفَي دينار[٢].

• والخليفة الحكم بن عبد الرحمن المُسْتَنْصر بالله -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ) كان له وَرَّاقون بأقطار البلاد، ينتخبون له غرائب الكتب، ويُنقِّبون له نفائس التواليف[٣].

• وكان الوزير ابن خِنزابة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩١هـ) يُعمل له الكاغد بسمرقند، ويُحمل إليه إلى مصر، وكان له عدة ورَّاقين[٤].

• وأما التاجر أبو المطرِّف ابن فطيس -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٢هـ) فكان له ستة ورّاقين، يَنسخون له دائمًا، وكان قد رتَّب لهم على ذلك راتبًا معلومًا[٥].

• وملك المغرب علي بن يوسف بن تاشفين -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٧هـ) اعتنى باستدعاء النُّسَّاخ والكُتَّاب، فاجتمع له ما لم يجتمع لسلطان منهم[٦].

• وموفق الدين بن المطران -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) كان في خدمته ثلاثة نُسَّاخ يكتبون له أبدًا[٧].

---

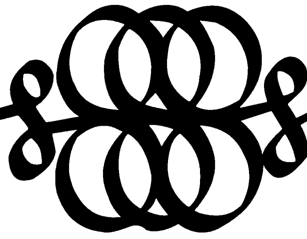
(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٤/١٥٥).
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٢٨٤).
(٣) الحلة السيراء (١/٢٠٠).
(٤) معجم الأدباء (٢/٧٨٧).
(٥) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٩٩).
(٦) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٦/٤٤٥).
(٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٥٥).

• والوزير الصاحب أمين الدولة -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٨هـ) كانت النُّسَّاخ أبدًا يكتبون له، ومن علو همته أنه استأجرهم؛ لنَسخ تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر، وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلدًا. ففرَّقه على عشرة نُسَّاخ، لكل واحد منهم ثمان مجلدات، فكتبوه في نحو سنتين، وصار الكتاب بكماله عنده[1].

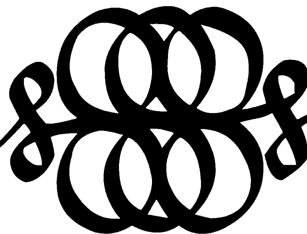
حقًا: لقد أُشربوا حُب العلم بقلوبهم، فأَرخصوا لأجله أموالهم.



(١) المصدر السابق (ص: ٧٢٥).



الباب الثالث عشر:
لذة البحث والتأليف



٦٤. لذة البحث وجمع المسائل

من انهمك بالبحث فسيجِد ما لذَّ وطاب، من أفاكيه وأرطاب، وشراب سائغ مملوء الوِطاب.

قال الكفوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٤هـ) متحدِّثا بنعمة الله عليه، في شغفه بالكتابة، وجمع الفوائد والمسائل منذ نعومة أظفاره: فمُذْ أميطت عني التمائم، ونِيطت بي العمائم، قدَّر الله لي أن ألازم الكتاب وأداوم الفنون، وأكتحل بإثمد الليالي لتنوير العيون، ملتقطًا فرائدها، ومرتبطًا بالكتابة فوائدها..والكتاب إليَّ أحب من كل حبيب، وأعجب لديَّ من كل عجيب.. ولما وفقني الله الجميل، لهذا المطلب الجليل، أردت أن أكون في رياض العلم راتعًا، وفي أفقه طالعًا.. وأطير في درَك النجاح بهذا الجَناح[1].

ومن مُتَع البحث أنه قد تكون لذة الخوض بالبحث ذاتِه ألذُّ من الوصول لنتيجة البحث.

وهذه المؤلفات الزاخرة؛ إنما هي نتاج بحوث، وجمع مسائل، ولذا تجِد العالِم إذا صنَّف كتابًا؛ فإنما يُنقِّب في بطون المراجع العلمية، ولكنهم في الإيعاب لجوانب ما يُصنِّفون بين مُقِلٍّ ومستكثر.

وخذ هذا المثال للسهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) في «الروض الأُنُف» حيث يحكي لنا فضلَ الله عليه، من خلال جُهده في كتابه، فيقول: وهو مستخرج من نيِّف على خمس مئة كتاب، سوى ما أنتجه صدري، ونتجه نظري، ولقَّنتُه عن مشيختي، من نُكت علمية لم أُسبق إليها، ولم أُزحم عليها، كل ذلك بيُمن الله[2].

(١) الكليات (ص: ١٥).
(٢) الروض الأنف ت الوكيل (١/٣٥).

ومن الوصايا الثمينة لمن يريد أن يتلذذ بالبحث: أن يبحث ابتداءً لكل مناسبة تطرأ، حتى إذا جاءت المناسبة أو الحدث المشابه لها طرح ما لديه بكل تمكُّن وثقة.

ولا تدَعْ فتْش كُتْب العلم إن بها ... ما يشحذ الفهم والأفكار والأدبا(١)

فابحث ابتداءً، وكلِّف نفسك، وليس أن تُكلَّف من غيرك ببحث، أو يدعوك الترقي لمرتبة وظيفية أن تتعنَّى فتتعانَى لتبحث. كلا! وفي كلٍ خير، ولكن لِجْ باب البحث كلما طرأت حادثة، أو قربت مناسبة دينية، أو استشكلتَ مسألة، أو ضحُلت معلوماتك عن قضية، أو عَلَم، أو زمان، أو مكان.

البحث الالكتروني:

الحمد لله أولًا وآخرًا على تقدم العلم عبر التقنية؛ فقد يسر لنا ربنا العلم بين أيدينا، فانتشرت المكتبات الرسمية، والخيرية، وظهرت لنا تقنية البحث الالكتروني، كالمكتبة الشاملة، والكتب المصورة، نحمل بها آلاف الكتب معنا بيد واحدة، ونتأبط خيرًا حيث كنا.

ولكن البحث الالكتروني يوفِّر جهدًا، ووقتًا، ومالًا، وثراءً بحثيًا، واستيعابًا. بل لا فرق أحيانًا- بيننا وبين طالب يجلس على مكتب بحثي، داخل المكتبة العامة بجامعته، وبين يديه آلاف الكتب بطبعاتها، ونوادرها، ومخطوطاتها. لا فرق بيننا وبينه إلا في شيئين؛ هما من باب التندُّر:

١. أنه يقوم واقفًا بين الوقت والآخر، ويسير خطوات للبحث عن كتاب، أو لإرجاعه، أو ليقف طويلًا منتظرًا أمين المكتبة؛ ليتفضل عليه بالمساعدة. بينما الباحث التقني ثابت ساكن، لا يتحرك إلا أصابعه، وكتب العلم كلّهن يزدلِفْنَ بين يديه، وهن يقلنَ له: هَيْتَ لك!

٢. أنه يعطِس بين الحين والآخر، بسبب تقليب الكتب، وما بها من غبار، وأما التقني -فبحمد الله- لا عطاس إلا من زكام!

(١) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقِتِهم السخيف (ص: ١٩٥).

وأما من يقول: إذا انطفأت الكهرباء أو انتهى شحن جهازه تعطل الباحث التقني! فيقال: وحتى قارئ الكتاب يتعطل! وزمن القراءة تحت ضوء القمر ولَّى - لا أعاده الله، ونسأله أن يُوزِعنا شكر نعمه-. ولكن: في كلٍ خير، وقد علم كل أناس مَشربَهم، ولا تثريبَ، ولكلٍ لذةٌ.

فيا قارئ الكتاب الورقي أو الإلكتروني؛ يقال لكليكما: بأي آلاء ربكما تكذبان؟!

مواقفهم وحكاياتهم مع جمع الفوائد، وبحث المسائل الفرائد:

أما مواقفهم وحكاياتهم مع جمع الفوائد، وبحث المسائل الفرائد فهي لذائذ مستطاَبة ومنوعة، وفيها العَجَب الذي لا ينقضي. ولْتَعُبَّ منها عَبًّا، فهي منك على طرَف الثُّمَام[1] ويمكن بسطها فيما يلي:

١) لذة لا يُفطَن لها: وهي تحصيل المعلومة، ونقلها من مصدرها الأساسي، والتنبُّه للتحريف، أو السَّقط الواقع من ناقل عن ناقل.

٢) ومن اللذائذ: الوقوف على تعيين مبهمات ومظنونات ومحتملات، وقطع الشك باليقين:[قيل - قال بعضهم - لا يعرف قائله - اختلف في قائله - سنة كذا احتمالًا - يحتمل أن المعنى كذا].

٣) من اللذائذ التي لا يُفطَن لها: ألا تظنن أنك إن أضناك البحث عن معلومة، وانتهيت فيها إلى: [لم أجده بعد طول بحث] أنك لم تبلغ درجة التلذذ. بل إنك خضتَ غمارها، بل غمرتْك بطُعُومها؛ لأنك وصلت لنتيجةٍ جاءت بعد مُعاياة، ولَغَب وتعب.

قال الشيخ عبد الرحمن المعلِّمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٦هـ) بعد أن أعياه معرفة حال راوٍ: أقول أنا: لم أظفر له بترجمة ولا خبر..لكن مثل هذا لا يسوغ لأمثالنا أن يقول: «مجهول»[2].

---

(١) قال في جمهرة الأمثال (١٤٨/٢): وفي سهولة الأمر قولهم: هو على طرف الثُّمام؛ لأن الثمام لا يطول، فلا يشق على المتناوِل.

(٢) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (٣٠٤/١).

٤) البحث والتقصي أفضل بكثير من السؤال والإجابة الجاهزة، حيث إنك ستجد أثناء بحثك الكثير من الفوائد والمباحث التي ستزيدك علمًا. ولربما تبحث عن معلومة صغيرة، ولا تجدها إلا في استعراض مرجع كبير، يخص المجال الذي تبحث فيه، مما يزيدك اطلاعًا.

ولقد سلكتُ من البحوث سَباسِبًا ومـلاجئًـا أعْـيَـتْ على الـــروادِ[1]

وهذا الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله تعالى-(ت ١٣٧٧هـ) يحكي عن انبهاره بكتاب «مفتاح كنوز السنة» للمستشرق د. فنسنك، وقد كان مُبهِرًا قبل سبعين سنة، لكنه الآن في طي النسيان، فلا يكاد أحد يرجع إليه.

يقول أحمد شاكر: فرِحتُ به كأشد ما أفرح بكتاب نفيس يقع إليَّ.. وإنه كنز من الكنوز، فأرسلتُ إلى أخي محمود خطابًا؛ أبشره فيه بهذا الكنز الطريف[2].

وقد مكث خمس سنوات يبحث عن حديث واحدٍ في سنن الترمذي! فوجده عن طريق كتاب «مفتاح كنوز السنة»[3] ونحن نحمد الله، بضغطة زر نحصله!

وأما الشيخ المحدث محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ)؛ فإنه لما قدَّم للكتاب قال: ولو وُجد بين يدي مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفَّر عليَّ أكثر من نصف عمري.. ولو وُجد من أول عهدي بالاشتغال بكتب السنة، لوَفَّر عليَّ ثلاثة أرباع عمري[4].

---

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ٤٦).

(٢) من مقدمة «مفتاح كنوز السنة» للشيخ: أحمد محمد شاكر.

(٣) كتاب «مفتاح كنوز السنة» وضعه المستشرق فنسنك أ.ي. وترجمه محمد فؤاد عبد الباقي، وقد رتبه حسب الأغراض والمعاني والموضوعات، ويشمل أربعة عشر كتابًا: الكتب الستة وموطأ مالك ومسند أحمد ومسند الطيالسي والطبقات لابن سعد والسيرة لابن هشام والمغازي للواقدي، والمسند المنسوب لزيد بن علي. والكتاب الآخر «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» الذي فهرس «الكتب الستة»، و«الموطأ»، و«مسند أحمد»، و«الدارمي». وقد رتبه حسب الحروف وتصريف الكلمات.

(٤) من مقدمة «مفتاح كنوز السنة» للشيخ: محمد رشيد رضا. وانظر كتاب: محمد فؤاد عبد الباقي شيخ المحققين - محمد حامد (ص ١١٢).

والمفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٣هـ) قال: جئت لشيخي ظُهرًا، فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشْفِ ما في نفسي على ما تعودت، ولم يروِ لي ظمئي، وقمت من عنده، فأخذت الكتب والمراجع، فطالعت حتى العصر ثم حتى المغرب، فأوقد لي خادمي أعوادًا من الحطب، أقرأ على ضوئها، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض، أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار، وقد فرغت من درسي، وزال عني لبسي، وأوصيت خادمي أن لا يوقظني لدرسي في ذلك اليوم؛ اكتفاء بما حصلت عليه، واستراحة من عناء سهر البارحة.

فقد بات مفكرًا فيها فأضحت لفهم الفَدْم خافضةَ الجَناح[١]

٥) من مُتَع الحياة تلك التجليات التي تشِعُّ في ذهن الباحث بين الفينة والأخرى، عندما يربط مجالين مَعرفيين في سياق مشترك، كتخريجِ حديث يفسِّر آية، أو غريبِ كلمةٍ في بيت شعري، أو تعيينِ بلد في ترجمة عَلَم.

٦) من الطُعوم التي لا تُقاوَم أن تعثر على فائدة في غير مظِنَّتها، قد طَمَرت التُّرب ذلك التِّبْر الخالص، فلما جلَى ذقتَ من حُلواه طعمًا لذة للشاربين.

فهذا ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) يراجع حديثًا، ظنّه في مسند أحمد، وإذا به يجده في غيره. فيقول: وراجعت «المسند» فلم أرَهُ، ثم بعد سنين كثيرة فوق العشر، ظفرت به في «صحيح أبي عوانة»[٢].

وهذا الشيخ أحمد الساعاتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٨هـ) مؤلف كتاب «الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد حنبل الشيباني» قال: وفي يوم ما؛ سألني بعض

---

(١) مقدمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (ص: بحرف ز).

(٢) البدر المنير (١٤٤/٦). والأعجب - أيها القارئ الكريم- أن هذا الحديث الذي نفى ابن الملقن وُجوده في مسند أحمد، إنما هو موجود في المسند برقم (٤٨٩٩)! وإنما جاءت به التقنية الحديثة، التي منَّ الله بها علينا وتفضّل.

العلماء عن حديث في المسند، لم يهتدِ إلى مكانه فيه، فراجعت المسودة، واستخرجته بسرعة مدهشة، فسُرَّ بذلك الرجل سرورًا عظيمًا[١].

٧) لذة الخواطر الوامضة: ففي بعض ليالي البحث، وفي هدْأة الليل البهيم، تفجؤك بلا استئذان ومضات ذهنية متلاحقة، أشبه ما تكون بتتابع لَمَعان البرق! فتمضي سريعًا. فاهتبل لمعان تلك الومضات؛ لتكتبها ولو على يدك، أو تسجلها صوتيًا بجوالك، وتلتقط ما أمطرك به ذهنك، من زخّات المعاني التي يزدحم بها فمُك. حينها يُخيَّل إليك أن تفاحات «نيوتن» تتساقط تباعًا على رأسك؛ ابتهاجًا بما توصلت إليه، وتلذذًا بما قيَّدته.

٨) من البحث المُضْني والمَرْضي لطلاب العلم: القراءة الجَرْدية الطويلة، والاشتغال بالتحقيق والتدقيق، للوصول لدقائق الحقيقة، والخفايا الدقيقة. وقد عرَّفوا التحقيق بأنه: إثبات المسائل بالأدلة، والتدقيق: إثبات تلك الأدلة بأدلة أخرى[٢].

ومن جميل النماذج على هذا الجرد البحثي:

- أبو إسماعيل الهروي الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨١هـ) يقول: إذا ذكرتُ التفسير، فإنما أذكره من مئة وسبعة تفاسير[٣].
- كان ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) يقول: ربما طالعتُ على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلِّم آدم وإبراهيم علِّمني[٤].
- الشريف أبو عبد الله التلمساني العلوني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧١هـ) يقرأ من التفسير نحو ربع حزب كل يوم، مع البحث، ويطالع كتبًا كثيرة، حتى إنه وُجد بين يديه سبعون كتابًا[٥].

---

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢٣/١).

(٢) حاشيتا قليوبي وعميرة (١٠/١). وأما في زاد في مغني المحتاج (١٠٢/١) فقال: والتعبير عنها بفائق العبارة الحلوة ترقيق، وبمراعاة علم المعاني والبديع في تركيبها تنميق، والسلامة فيها من اعتراض الشرع توفيق.

(٣) المنثور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي (ص: ٣٥).

(٤) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٤٢).

(٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٣٨).

٩) من لذائذ المجالس النقاش في مسألة، ويتلوه بحثها، ثم المطارحة في خلاصة ما حصَّله الباحثون فيها.

• فهذا الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ) كان يطالع تلميذه أحمد القصار ببعض المسائل، وذلك حين تصنيفه «الموافقات» ويباحثه فيها، وبعد ذلك يضعها في الكتاب(١).

• فهذا قاضي مراكش علي المصمودي السكتي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٤هـ) فقيه نحوي، كان ذاكرًا للنوازل، بحّاثًا عنها(٢).

• والشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) كان يُقِيم المناظرات بين طلابه المحصلين لشحذ أفكارهم. وإذا طرح مسألة غلَّط نفسه أحيانًا؛ ليعرف الفَطِن من غيره، ويناقشهم بعد يوم فيما مضى شرحه(٣).

١٠) من المريحات للباحث أن يُكفى مؤونة كماليات البحث وتنسيقاته؛ ليوفِر جهده على الصُّلب، بتكليف أهل البيت - ولو بمقابل- ليعتادوا، ويألَفوا العلم.

فهذا أحمد البجائي الآبدي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٠هـ) درَّب زوجته، فكانت تكتب له(٤).

وهذا الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) سخَّر الله له بنته البَرَّة، التي أثنَى عليها مرارًا في بعض كتبه، فمن ذلك قوله عنها: لابدّ لي من أن أشكر..ابنتي أُنيسة أم عبد الله -جزاها الله خيرًا، وبارك فيها وفي زوجها وذريتهما- فإنها ساعدتني كثيرًا في تصحيح التجارب، وكتابة بطاقات الفهارس، فوفرت عليَّ بذلك وقتًا كثيرًا، وجهدًا عظيمًا(٥).

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١١٣).
(٢) المصدر السابق (ص: ٣٤٧).
(٣) الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة (ص: ٣٤) عن روضة الناظرين للقاضي (٢٢٢/١).
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٨٠/٢).
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (مقدمة ١٥/٤).

وقال: وقد كلفتُ ابنتي أم عبد الله -بارك الله فيها وفي زوجها وذريتها- أن تتولى بيان ذلك في كلمة لها تكون ختاما لهذه المقدمة[١].

وأيضًا قال: لا يفوتني أن أقوم بواجب الشكر لابنتي الكبرى «أم عبد الله»، فإن لها الفضل في تيسير تصحيح تجاربِ هذا المجلد، ولفت النظر إلى كثير من الأمور التي قد يسهو عنها أي مؤلف؛ فضلًا عمن بلغ الثمانين من العمر.. فجزاها الله عني خير الجزاء[٢].

فهنيئًا لمن جعل الله له في أهله قرة أعين، وفي علمه راحة أنفس.

وهذه المريحات للعلماء أمر قديم متعاقب عبر القرون، فهنيئًا لأولئك الجنود المجهولين.

قال المعافَى بن زكريا -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ): وسهَّل الأمر عليَّ فيه أن بعض أصحابنا يكتبه عني إملاء في الوقت بعد الوقت[٣].

ومن حسن صنيع الله للعكبري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٦هـ) -وكان ضريرًا- أن رزقه الله زوجًا تقرأ له في الليل كتب الأدب وغيرها، وذلك إذا تفرق عنه طلابه، وأَوَوا إلى بيوتهم.

١١) مما يستلذه الباحثون أن يواصلوا البحث بلذة، ويستسهلوا الصعب؛ ليُدرِكوا المُنى، برغم المشاق والمخاوف، وسيأتيك نبأهم بعد حين.

قال بهاء الدين المقدسي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٤هـ): وكنت أحب كتابة الحديث، فلو كتبت النهار كله لم أضجر، وربما سهرت من أول الليل، فما أشعر إلا بالصباح[٤].

١٢) الاستقصاء من مظان البحث في المراجع، وتنويع صنوف البحث الفائق هي صعبة المُرتقى، بحيث يُلِمُّ بكل ما كتب عن مسألته التي يبحثها، ولا يدخل في

---

(١) المصدر السابق (٥/٥).
(٢) المصدر السابق (٨/٦).
(٣) الجليس الصالح والأنيس الناصح (ص: ١).
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٩٥/٤٥).

التأليف مضماره حتى يَسبُر أغواره. وهذا المَنحى لا يَنْحوه إلا الأفراد، ولكنهم يتمتعون، ولا يَمَلُّون.

قال الميداني -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٨هـ) وهو يحكي جهده الضخم الذي تمخض عنه كتابه الموسوعي «مجمع الأمثال»: فطالعتُ من كتب الأئمة الأعلام..حتى لقد تصفحتُ أكثر من خمسين كتابًا، ونَخَلْتُ ما فيها فصلًا فصلًا، وبابًا بابًا، مفتشًا عن ضَوَالِّها زوايا البقاع، مشذِّبًا عنها أُبَنَهَا بصارِمِي القَطَّاع، علمًا مني أني أَمَتُّ به الدينار في كف ناقد، وأجلو منه البدر لطرف غير راقد(١).

وقال جمال الدين القاسمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) بعدما دبَّج مقالة عميقة عن تاريخ الجهمية والمعتزلة: هذا ما قُدِّر جمعه على ضيق الوقت في بعض شهور، وراجعت لأجله عدة أسفار..ولم تكن موالاة البحث والتنقيب، بأشق من العناية بالتنقيح والترتيب، بيد أن التذرع للحقائق يستسهل دونه كل صعب، ولا لذة تضاهي لذة العلم والحكمة، واستنارة القلب(٢).

وهذا التنقيب هو لذة مخلوطة بمعاناة، وقد يكون نتيجة تعب ساعات بل أيام أن يَخلُص إلى عبارة أو كلمة هي محصَّلة البحث.

قال المعلمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٦هـ): قد أمللتُ القارئ ولم أملَّ، وحسبي أن يكون ما أثبتُّه نموذجًا لما يقاسيه المَعنِيون بتحقيق الكتب، وإن أحدهم ليتعب.. فيكتفي بالسكوت، أو بأن يقول: (كذا!) أو نحوها، ولا يرى موجبًا لذكر ما عاناه في البحث والتنقيب، وإما الظفر بنتيجة حاسمة، فيقدمها للقراء لقمة سائغة، ولا يَهمه أن يشرح ما قاساه حتى حصل عليها(٣).

والمحقق د. يوسف العش -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٧هـ) لما أراد تقديم رسالة الدكتوراه وموضوعها «تاريخ دُور الكتب العربية في العراق والشام ومصر عبر العصر

---

(١) مجمع الأمثال (١/١).
(٢) مجلة المنار- محمد رشيد رضا (٤٤٩/١٦).
(٣) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٣٣١/٢٥).

الوسيط وأثرها في نشأة المدارس» اطّلع لأجلها على نحوٍ من ثلاثة آلاف مخطوط، وقرأ أكثر من ثمان مئة مجلّد مطبوع[١].

١٣) من العسل المصفَّى المستلَذِّ لذة مَن يبحثون، بينما الناس يَلْهُون، وعن دقائق العلم يُنَقِّبون، حتى والناس يَتَعَيَّدون.

فهذا شيخ فقهاء الأندلس في وقته ابن المَكْوِي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠١هـ) زاره صديقه يوم عيد، فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه؛ لاشتغال بالِهِ بالكتاب، فتنبه حينئذ له، وسلَّم عليه، واعتذر إليه من احتباسه، بشَغْله بمسألة عويصة، لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه، فقال له الرجل: في أيام عيد، ووقت راحة مسنونة؟! فقال: إذا علمتَ بهذه النفس انصبَّت إلى هذه المعرفة، واللهِ ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة[٢].

إذا التصقَتْ بالبحثِ في العلمِ رُكْبَتي ... ورُكْبَـةُ نِحْريرٍ على العِلْمِ دَأَبِ
فقلْ لملوكِ الأرضِ يَلْهوا ويَلْعبوا ... فذلك لَهْوي ما حَيِيتُ ومِلْعابي[٣]

١٤) كتابة البحث، وربط مباحثه، والتعليق بما يُظهر شخصيتك، وانتخاب ما يناسب؛ هي الأخرى لذةٌ تابعة، لها مذاق متصل بمراحل البحث.

ولم تكن موالاة البحث والتنقيب بأشق من العناية بالتنقيح والترتيب، بَيْد أن التذرع للحقائق يُستسهل دونه كل صعب، ولا لذة تضاهي لذة العلم والحكمة، واستنارة القلب، والفضل لله -سبحانه- فيما هدى وألهم[٤].

وهذا البحث والجمع، ثم التنقيب والانتخاب، ثم التنسيق والترتيب، هي لذائذ قد يَنسى معها صاحبها نفسه، ونومه، وأكله:

فهذا عالِم شاعر يعقِد مقارنة بين مستلذَّات الناس، وبين لـذَّته التي لا تُقاوَم، فيقول:

---

(١) من مقالة لابنه في (الإنترنت) ترجم بها عن أبيه.
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٢٥/٧).
(٣) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٤٩٢).
(٤) مجلة المنار (٤٤٩/١٦).

ما لذةُ التمر والحُلواءِ والضَرَبِ ... ولا عِناق الغَواني الخُرْد والعُرُبِ
كلذَّتي في انتخاب العلم أجمعهُ ... من المحابر بالأقلام في الكتبِ
مِن ذا الكتابِ إلى هذا مُداولةً ... وفي المعاني وكشف الستر والحُجُبِ
عن الدقائق والأشكال أُظهرهُ ... أحلى لديَّ من الحُلوا على سغَبِ
فمُؤنِسي دفتري والعلم مُفتخَري ... وخاطري حاضري في العلم لم يغِبِ[1]

١٥) للعمل في المخطوطات لذة؛ لا يعرفها إلا من ذاقها، وهي في أيسر حالاتها تنمية لحس الرابط الزمني في وجداننا، تعيش معها الماضي كأنه الحاضر. إنها خطوط أولاء الأعلام. حتى لتكاد أحيانًا تمد يديك؛ لتصافحهم من خلال خطوطهم، وتنهمك أن تفك غامضَ ومَمْحُوَّ خطِّهم، وتشعر بلذة ونشوة فائقة، حين يشِعُّ في ذهنك معنى ولو محتمل، وتعيد الحياة لكلمة عَدَت عليها عَوادي الرطوبة، والاستحالة مدى الزمن.

قال الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) وقفت على نسخة مخطوطة من «العُجالة» في المكتبة المحمودية في المدينة المنورة، يوم كنت فيها أستاذًا لمادة الحديث في الجامعة الإسلامية، ما بين سنة ١٣٨١ إلى نهاية سنة ١٣٨٣هـ، فأعجبني جدًا غزارة علمه، وسعة اطلاعه، وكثرة فوائده، فكنت أتردد على المكتبة، كلما سنحت لي الفرصة، أنهل من علمه، وألتقط من ملاحظاته وفوائده، وأقيّد ما لا بد منها على حاشية نسختي من «الترغيب والترهيب» التي كنت ألقي الدروس منها في سورية، وبقي في النفس حسرة أن لم أتمكن من دراسة الكتاب كله، والاستزادة من غُرَره وفوائده. فلما كنت -منذ بضع سنين- في طريقي إلى العمرة أو الحج، وجدت في مكتبة الجامعة نسخة مصورة منه، عن المخطوطة المذكورة، ففرحت بها فرحًا بالغًا..فتفضّل الشيخ عبد المحسن العباد، نائب رئيس الجامعة يومئذ، فأمر بأن يقدِّموا إليَّ نسخة مصوَّرة منها، -جزاه الله خيرًا- فاستصحبتُها معي إلى دمشق؛ لدراستها من جديد[2].

---

(١) نشر طي التعريف (ص: ١٩١).
(٢) صحيح الترغيب والترهيب (٩١/١).

١٦) من لذائذ البحث التي قد لا يُؤْبَه لها: كثرة تكرار مسائل البحث لإتقانها عند المباحثة، لا سيما العويص منها، ومواضع الاشتباه فيها، وذي التفريعات لها. وإليك هذين المثالين:

- شيخ المالكية ابن التبّان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧١هـ) ألقى «كتاب الوضوء» على كبار طلبة العلم، فخالفوه في مسألة. فقال لهم: اسمعوا ما أقول: دَرَسْتُ هذا الكتاب ألف مرة. فأبَوا إلا مخالفته. فقام بهم الى داره، وأخرج الكتاب، وأراهم المسألة كما قال(١).
- قال أبو بكر الصبغي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٤هـ): كررتُ مسألة «المبادرة في القصاص»(٢) على نفسي ألف مرة، حتى تحققتُها. وقال: كنت أحفظ في كل يوم سبع عشرة ورقة، ودرَستُ في كل يوم مسألةً ألفَ مرة، بعد أن حفظتها(٣).





(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٦/٢٥٠).
(٢) لعل مقصوده: هل يبادَر إلى القصاص أو العفو، أم هو على التراخي؟.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/١٨٤) وبغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص: ٩٣).

٦٥. لذة التأليف[١]

التأليف للكتب؛ له لذةٌ لا تتناهَى، وسعادة لا تُضاهَى، برغم العناء والعكوف المصاحِب له.

وقد قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) عن شيخه ابن تيمية: كان لا لذَّة عنده تُوازي كتابة العلم وتأليفه[٢].

وقال الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) مبينًا بعض لذَّات تصنيف الكتب: التصنيف فنٌّ؛ لا يَمَلُّه من اعتاده، ولا يَلْتَذُّه إلا من اشترى له سهره، وباع فيه رقاده، ولا يأنس به في طول أسفاره إلا من وثق بما معه من الزوادة..وهو شُغل للنفس عما يعرض لها من هموم هذه الدار، ومَطْل يدافَع بصفوه ما تُحْدثه الآفات من الأكدار، وسهل يرتاح القلب إليه، إذا اضطرته إلى حَزنها الأقدار[٣].

وهذا حمدون بن مجاهد المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) يتراءى له احتساب

(١) فائدة: من اللطائف في التفريق بين المؤلِّف والمصنِّف: أن المؤلِّف مَن يجمع كلام غيره، والمصنِّف من يجمع مبتكرات أفكاره. انظر: حاشية رد المحتار (٣٢/١).

وأما المحقق؛ فمن اللفتات العميقة واللطيفة في هذا المقام؛ ما قاله الشيخ المؤرخ محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ): أنا لا أحب أن أُسَمَّى محققًا، وإنما أنا قارئ كتب، ولذلك لا أكتب على كتبي «حققه» فلان بل أكتب «قرأه» فلان؛ لأن المطلوب من نشر الكتب هو أن يكون الكتاب مقروءًا حسب موضوعه، يهتدي الإنسان في قراءته إلى المعنى الذي أراده مؤلفه. انظر جمهرة مقالات محمود شاكر (١٢٣٠/٢).

فائدة أخرى: ذكر في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٨/١): أن التأليف على سبعة أقسام، مندرج تحت سبع كلمات: اختراع، أو تتميم أو شرح أو اختصار أو جمع أو ترتيب أو إصلاح.

(٢) الدّرة اليتيميّة في السيرة التيميّة - نشرتها المستشرقة كاترين بوري في مجلة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية، المجلد (٦٧)، العدد (٣)، (٢٠٠٤ م)، ص ٣٢١ - ٣٤٨ وهي ضمن: تكملة الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (٥١/١).

(٣) الشعور بالعَوَر للصفدي (ص: ٣٩).

الأجور على نَسخِه للعلم، فيقول: كتبتُ بيدي ثلاثة آلاف كتاب ونيفًا، ولعل الكتاب الذي أدخل به الجنة ما كتبته بعدُ[١].

بل إن بعض أولئك المتلذذين يوهَب في التأليف ما لا يوهَب في التدريس أو الإلقاء.

فهذا المازُرِي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) شارح «صحيح مسلم»، وصفُوه بأن: قلمه أبلغ من لسانه، وكذا النحوي الشَّلوبيني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٥هـ) قالوا: إن قلمه في التصنيف أجود من عبارته[٢]. ومثلهما قيل في الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ).

وهي مواهب من الوهاب -سبحانه-. فمن فَتَح الله عليه بالتأليف، وحُسن السبْك للعبارات، وربط المباحث ببعضها، ونفاسة الجمع، وتوظيف المعلومة، وتلمُّس حاجة القراء؛ فهذه سعادة وتوفيق من الله، والموصوف بهذا الفتح يُعتبر حاطب نهار خبير، فسيوقِد من حطبه خير نار عندها خير مُوقِد، أما حاطبو الليل فما أكثرهم!

قال ابن عرفة المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) إنما تدخل التآليف في العلم الذي يُنتفع به، إذا اشتملت على فوائد زائدة على ما في الكتب السابقة عليه، أما إن لم يشتمل التأليف إلا على نقل ما في الكتب فهو تخسيرٌ للكاغد[٣].

ومن الحرمان أن يموت عالم متفنن، وليس له مؤلَّف يبقى من بعده.

فهذا ابن المُغْلِي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٨هـ) كان غاية في الذكاء، وسرعة الحفظ، وجودة الفهم، وله تقدُّم في العلوم، ولكنه لم يشتغل بالتصنيف. قال عنه ابن حجر: وكنت أحرِّضه على ذلك؛ لما فيه من بقاء الذِّكر، فلم يوفَّق لذلك[٤].

ومن جميل العبارات التي اقتنصْتُها -ولله الفضل وحده- ما نسبه ابن الملقِّن لأهل العلم، أنهم قالوا: التصنيف أحد طريقَي التحصيل[٥].

---

(١) نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار (٢/٢٦٢).
(٢) الغنية في شيوخ القاضي عياض (ص: ٦٥).
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٦٥) وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٣/٣٣).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/٣٥٧).
(٥) البدر المنير (١/٢٨٠).

أي: أن المؤلِّف بتأليفه يُفيد نفسَه، قبل أن يُفيد غيرَه، ويحصل له بذلك ثراء معرفي متنوِّع.

قال ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ): يَحصل العلم بثلاثة أشياء؛ أحدها: العمل به. الثاني: التعليم. الثالث: التصنيف؛ فإنه يُخرجه إلى البحث[١].

وهذا مطابق للمراد، ويصدِّقه الواقع، ومن جرَّب عرف، فلئن كان القارئ يلتذُّ ويحصِّل، فإن ثانيَ رجليه، وجاثيَ ركبتيه لدى الأشياخ هو أمكنُ من القارئ، ولكن المؤلِّف المحرِّر متمكنٌ أمكنُ.

قال لسان الدين ابن الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٦هـ): جعل الله الكتابَ لشوارد العلم قَيدًا، وجوارح اليَراع تثير في سهول الرِّقاع صَيدًا[٢].

وما أحسن قول التاج السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): العالِم وإن امتدَّ باعُه، واشتد في ميادين الجدال دفاعُه.. فنفعه قاصر على مُدة حياته، ما لم يصنِّف كتابًا يخلَّد بعده، أو يورِّق علمًا ينقله عنه تلميذ، إذا وجد الناس فَقْدَه، أو تهتدي به فئة مات عنها، وقد أَلبسها به الرشاد بُرْدَه، ولَعمري! إن التصنيف لَأرفعها مكانًا؛ لأنه أطولها زمانًا، وأدوَمُها إذا مات أحيانًا[٣].

كن للعلوم مصنِّفًا أو جامعًا ... يبقى لك الذكر الجميل مخلَّدا
يُنسى الأواخر والأوائل كلهم ... إلا أخا العلم الذي حاز المدى[٤]

فلا زالت وصايا المؤلفين المتلذذين تنادي أصحاب الأقلام الواعدة المغمَدة: أن هلموا، وسُلُّوا أقلامكم، وأسيلوا مدادكم، واستلهِموا التجربة ممن سبقكم، واقتدوا بأسلافكم.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) وهو الذي نيَّفت مؤلفاته على المئتين: رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١٥٦/٢).
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة (٤/١).
(٣) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٣١٨/٣).
(٤) معجم الأدباء (٩/١).

أُشافِهُ في عمري عددًا من المتعلمين، وأُشافِهُ بتصنيفي خلقًا لا تُحصَى ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين، أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.. وليس كل من صنّف صنّف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يُطْلِع الله ﷻ عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فُرّق، أو يُرتِّب ما شُتِّت، أو يشرح ما أُهمل، هذا هو التصنيف المفيد[١].

ومن عجيب أحوال المؤلفين: أن الواحد منهم قد يسترسل مع ما يكتب من لذة ما يجد، فيكون قلمه سيَالًا، والاستطراد مُنهالًا، فيحتاج أحيانًا لِزَمّ شَباة قلمه، بما يناسب الحال.

وأعجب الأمثلة ما جرى لابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) حيث قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوًا مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله! ماتت الهمم! فاختصره في نحو مما اختصر التفسير[٢].

وهذا أبو عبد الله الزاغولي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ) صنف كتابًا سماه «قيد الأوائل» جمع فيه كل نوع من العلوم الشرعية، وربما يبلغ أربع مئة مجلد[٣].

وهذه عجائب ومواهب ربانية، لكن أعجَبَ مِن هؤلاء من يُملي الكتاب من حفظه إملاءً، ويصنِّف من خاطره، بلا مراجع ينقل منها! وهؤلاء عباقرة نوادر في العالم. وخذ على ذلك ثلاثة أمثلة:

• نجم الدين الخبوشاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) كان يستحضر كتابه «المحيط في شرح الوسيط» حتى أنه عُدِم الكتاب، فأملاه من خاطره، وله شرح على كتابه، في ستة عشر مجلدًا[٤].

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٢٤١).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/١٩٨).
(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٤٣٧).
(٤) وفيات الأعيان (٤/٢٣٩).

• العلاء بن النفيس -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٧هـ) كان إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مَبْرِيَّة، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا انحدر، فإذا كَلَّ القلم وحفِيَ رمى به، وتناول غيره؛ لئلا يضيع عليه الزمان في بَرْي القلم(١).

• السرخسي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٣هـ) صنَّف كتابه «المبسوط» في الفقه في أربعة عشر مجلدا، وقد أملاه في السجن من خاطره، من غير مطالعة كتاب، ولا مراجعة تعليق. وكان يُملي عليهم من الجُب، وهم أعلى الجب يكتبون ما يُملي عليهم(٢).

والمؤلِّفون متفاوِتون في حفظهم واستطرادهم، وفي تحصيلهم وعلومهم. ولذا تختلف مصنفاتهم، ومقدار تأليفاتهم. فمنهم من يكتب في يوم سطورًا، ومنهم يملأ في قَعدةٍ كواغد. والله هو المتفضل.

قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): وليُعلم أنّ صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدِّب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يَعزم على خمسة أسواط، فيَضرب مئة؟!..وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثر من يَبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين، فيَكتب عشرة!..ولذلك تجد فتنة الرجل بشِعره، وفتنته بكلامه وكُتبه، فوق فتنته بجميع نعمته(٣).

لكن هل التطويل في المؤلفات مما يُحمد، أو مما لا يُحبَّذ؟

إليك وجهة نظر من الحافظ الحنبلي علي المرداوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) حيث يقول: إن الكتاب المطول في هذه الأزمنة -ولا سيما في أصول الفقه- لا يُرغب فيه ولا يُقرأ، فضلًا عن أن يُحفظ؛ فإن الهمم قد قصرت، والبواعث قد فترت(٤).

هذا الكلام يقوله المرداوي قبل ستة قرون، فماذا نحن قائلون في قرننا؟!

(١) الوافي بالوفيات (٢٠/١٨٣).
(٢) تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص: ٢٣٥).
(٣) الحيوان للجاحظ (١/٦١).
(٤) التحبير شرح التحرير (١/١٢٤).

ومن لذة بعض المؤلفين: أنه يبدأ تأليف كتاب، ثم لا يلبث أن يبدأ كتابًا آخر في نفس الوقت، وهذا المنهج -وإن كان مشتتًا، إلا أنه- علامة على قوة اللذة الكامنة، وضخامة التفنن بالعلوم، وقد يكون فعلَه؛ خوفًا من تفلُّت الهمة، وتبدُّد المعلومات.

فهذا السراج البلقيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) لم يُكمل من مصنفاته إلا القليل، يبتدئ كتابًا، فيصنف منه قطعة ثم يتركه، وقلمه لا يشبه لسانه؛ لأنه كان يَشرع في الشيء، فلِسَعَة علمه يطول عليه الأمر، حتى كتب من «شرح البخاري» على نحو من عشرين حديثًا مجلّدين[1].

ولذا تجد المتبحرين المكثرين من المؤلفات يقول قائلهم: لعلي أكتب في ذلك كتابًا، أو يقول: وهذا يستدعي سِفْرًا، لعلنا نفرده. ثم قد يَفعل، والغالب أنه لا يُمهِله الموت، فالعمر قصير.

وخذ أمثلةً لعالِم واحد فقط، وهو ابن القيم -رحمه الله تعالى- فحسب! فقد تمنى أماني علمية، لكن لم يُمهِله الأجل! ولنلتقط تلك الأماني من ثنايا كتبه. وخذ اثني عشر مثالًا:

١. قال في تحريم نكاح المحلِّل وبطلانه: يستدعي سِفْرًا ضخمًا[2].

٢. قال في آية المُدَايَنة: تستدعي سِفرًا وحدها[3].

٣. ما يخفى على الصحابة مما قضى الله ورسوله به: لو تتبعناه لجاء سِفرًا كبيرًا[4]

٤. أدلة المعاد في القرآن: وإن ساعد التوفيق كتبتُ في ذلك سِفرًا كبيرًا[5].

٥. إثبات الصفات والأفعال للرب -سبحانه-: لو أعطينا هذا الموضع حقَّه -وهيهات أن يصل إلى ذلك علمنا أو قدرتنا- لكتبنا فيه عدة أسفار[6].

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٢٤٥).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٤٤).

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٩).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/١٩٢).

(٥) الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه (ص: ٧٠).

(٦) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٩١٧).

٦. علو الرب -تعالى- واستوائه على عرشه: لو تتبعناه لكان بمقدار هذا الكتاب مرارًا[١]

٧. شبهات أهل البدع والضلال على أهل السُّنَّة: يَستدعي أسفارًا لا سِفرًا واحدًا[٢].

٨. أمثلة في قوى الأغذية والأدوية المدرَكة بالحس. قال: تزيد على الألف.. ولولا الإطالة لكتبنا منها ما يبلغ ألف مثال[٣].

٩. تفضيل هذه الأمة وخصائصها: يستدعي سِفرًا، بل أسفارًا[٤].

١٠. وقائع فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- تستدعي سِفرًا ضخمًا[٥].

١١. مسألة «سلام عليكم». قال: فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلدًا ضخمًا[٦].

١٢. مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة. قال: يستدعي مجلدًا ضخمًا[٧].

إضاءة:

أحد المكثرين من التأليف، المتفنِّنين فيه، بينما هو في غمرة الكتابة خاليًا، وأنيسه قلمه بيده قائمًا، إذ توقَّف! ونظر لقلمه نظرة عشق، فما كان منه إلا أن قبَّل القلم قُبلة بإثر قُبلة! وقال مخاطبًا نفسه: الحمد لله الذي يسَر لي تأليف هذه المؤلفات، وما تفضَّل الله بما سطَّرتُه إلا عن طريق هذا القلم، الذي أقسم الله به؛ لجلالته: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]

كفَى قلم الكُتَّاب مجدًا ورفعةً ... مدى الدّهر أنّ الله أقسم بالقلم[٨]

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٤١٦).
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٣٨).
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٠٣/٢).
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٢٩/٢).
(٥) المصدر السابق (٤٥٨/٢).
(٦) بدائع الفوائد (١٩٧/٢).
(٧) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٠٠/١).
(٨) دستور العلماء (٦٥/٣).

ولا يلام في عشقه وتقبيله، فالقلم -كما قال ابن تيمية-: إذا خاطب بالعلم نقَش العلم في القلب، وخاصيته هي التفهيم دون سائر الأفعال(١).

إذا أخذ القرطاسَ خِلتَ يمينه يُفتِّح نَورًا أو يُنظّم جوهرا(٢)

وقد قالوا: القلم أحد اللسانَين. وقالوا: كلّ من عرف النّعمة في بيان اللسان، كان بفضل النّعمة في بيان القلم أعرف(٣)

لولا التعلل بالقرطاس والقلم ما كان لي راحة في الخلق من ألمِ(٤)

فالقلم هو المخاطِب بمَعانٍ لِقاحها التفكر، ونِتاجها التدبر، بلا أصوات مسموعة.

إذا استعجلَتْه الكفّ أمطر وَبلُه بلا صوت إرعادٍ ولا ضوء بارقٍ(٥)

بهذا القلم أمسك العلماء، فجادوا وجاءوا بدُررٍ، غاصوا يستخرجونها من مكنونها:

تَساقَط في القرطاس منهم بدائعٌ كمِثل اللآلي نظمها ونُثيرها(٦)

وبهذا القلم دفعوا ودافعوا عن الشريعة، وحمَوا حِماها عمن حامُوا حولها:

ولأقلامهم زئير مهيبْ يَزدري عنده زئيرَ الأُسُودْ(٧)

وحقًا؛ إن القلم رمح الكاتب:

يُمسك الفارس رمحًا بيدٍ وأنا أُمسك فيها قَصَبَةْ
فكِلانا بَطَلٌ في حربِهِ إن الاقلامَ رماح الكَتَبَةْ(٨)

وإذا ما قُورن السيف بالقلم، فإن القلم هو المتقدم، وفي كل خير.

---

(١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (ص: ٢٨٣).
(٢) اللطائف والظرائف (ص: ٥٤).
(٣) البيان والتبيين (٨٥/١) والحيوان (٣٤/١) كلاهما للجاحظ.
(٤) معجم السفر (ص: ٤٢٣).
(٥) العقد الفريد (٢٧٣/٤).
(٦) المصدر السابق (٢٧٩/٤).
(٧) أدب الكتاب للصولي (ص: ٧٩).
(٨) تحفة القادم (ص: ٥٧).

وإليك هذا الجواب النفيس الباعث على الفخر: فهذا ابن نفيس الدين -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) يقول: رأى صلاح الدين الأيوبي دَواتي بالفضة مُحَلّاة، فأنكرَها، فقلت: أوَ ليس تَحِلُّ حِلية السلاح؟! وسلاح قلمي أجذُّ وأحدُّ وأفتَك وأقتَل.. ولا تفرقت جموع الكفر، إلا بكلْمها من جوامع كلِمي(١).

وفي الكتابة توثيق الحقوق، وتثبيت العلوم، ولذا تكرر ذكرها في القرآن الكريم.

ومن جميل النقول بشأن الكتابة قول أبي منصور الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ): قد نوّه الله باسم الكتابة، وعظم من شأنها، إذ أضافها إلى نفسه -جل ذكره- فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف: ١٤٥] ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].. ومعلوم أنه لو لم تكتب أعمال العباد، كانت محفوظة لا يتخللها خلل، ولا يَتداخلها نسيان ولا زلل، لكنه -عزَّ اسمه- .. أراد تعريف عباده فضيلة الخط والكتابة(٢).

ومن لطيف التدبرات عند قول الله -جلّ وعز-: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦-٣٧] ما قاله الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة المعدومة؛ ليعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب(٣).

هل للتأليف لذة حقًا؟

الجواب المُعاد المختصر هو أن: له لذة باهرة، وله مشقة ظاهرة.

أما لذَّته؛ فخذ الخبر اليقين ممن عالجوا التأليف حياتهم، وانتشرت مؤلفاتهم.

رُئي الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي -رحمه الله-(ت ٤٠٩هـ) في المنام بعد وفاته، فقال مُوصيًا: خرِّج وصنِّف قبل أن يُحال بينك وبينه؛ هذا أنا تراني قد حِيل بيني وبين ذلك(٤).

---

(١) حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس (ص: ٣٤٣).

(٢) اللطائف والظرائف (ص: ٥٢).

(٣) الحيوان (٦٦/١).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٨٣/٢).

قال القاسمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) يقول: طَبْعُ كتاب خير من ألف داعٍ يتفرقون في الأقطار؛ لأن الكتاب يأخذه الموافِق والمُخالِف، والداعي يجد من العوائق ما لا يُظفِره بأمنيته(١).

وهذا الذي جعل الأديب محمد كرد علي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٢هـ) يندم في آخر حياته، ويقول: ولو كنت خصصتُ أوقاتي كلها للتأليف، ولم أصرف أعواما في السياسة، لكانت مجموعة ما كتبتُ أكثر، ولو كنت أُحسن الدعاية لتآليفي، لصادفَتْ رَواجًا أكثر مما صادفت.

ثم يعزِّي نفسه قائلًا: وربما كانت شهرتها بعد مؤلفها أكثر من شهرتها في حياته، وبعد ذهاب المؤلف من الأرض يُقدَّر بقيمته الحقيقية(٢).

ولئن كان القارئ منتفعًا، فالباحث أكثر انتفاعًا، والمؤلِّف أكثر الثلاثة انتفاعًا وارتفاعًا.

وتأمل ما كتبه الشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد، والذي له من المؤلفات ما يربو على مئة وثلاثين كتابًا متنوعًا، فهو كلامُ مَن حَلَبَ التأليفَ أشطُرَه. فيقول وقد سرد خمس لذائذ: أما لذة التأليف؛ فتَكْمُن بمناجاة الفكر، واصطياد الأوابد، ومعرفة أقدار المؤلِّفين السابقين واللاحقين، والتعوُّد على طول النفس، والحرص على الوصول إلى الحقائق.

ومن أعظم لذات التأليف: استشعار نهاية البحث، والفرح بطبعه، ونشره، وإهدائه، وانتفاع الناس به.. فيكون التأليف من الباقيات الصالحات. وإن لانتظار مجيء الكتاب من المطبعة فرحة، تشبه فرحة انتظار المولود الجديد.

وتكمن لذة التأليف -كذلك- باستجماع الخواطر، والخلوة عن الناس..

هذا وإن من أعظم نِعم الله على المؤلف؛ أن يرى عند عزمه على التأليف أنه سهل ميسور، وأنه لا تمُرُّ عليه مدة وجيزة إلا أنجزه وأتمه؛ فإذا ما ابتدأ فيه تفتَّق ذهنه

(١) الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي - محمد العجمي (ص: ٥٦).
(٢) المذكرات لمحمد كرد علي (١/ ٣٢٠).

عن مسائل لم يحلم بها، وطرأت عليه أبحاث لم يكن يتخيلها، وإذ هو في واد متشعب، يرى أنه لا بد له من سلوكه[١].

أما مشَقَّته: فقد أفاض في بيانها الشيخ محمد بن طاهر الكردي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٠هـ) في كتابه «مقام إبراهيم» حيث قال: إنني لم أجد أصعبَ، ولا أتعبَ، ولا أشغلَ للإنسان من تأليف الكتب، مهما تنوعت واختلفت. ولئن كان شيء يسرع في ضعف الإنسان وهرَمه؛ فذلك الشيء إنما هو الاشتغال بالتأليف وحده.. تجده يبحث عن مسألة، إذا به يعثر على أخرى، ولما يكمل الأولى بعد، تراه يحقق في بحث إذا به يصل إلى غيره؛ لتشعُّب الكلام، وارتباط بعضه ببعض.

وإنه كثيرًا ما تطرأ عليه المسائل، وتنكشف له الدقائق وهو يأكل أو يمشي، أو يريد النوم.. تجده يبتعد عن الأهل والولد؛ خوفًا من أن يقطع أحد عليه أفكاره، ينفرد عن الناس بنفسه.. مسكين المؤلف، يشغل حواسه الخمس، ويصل يومه بالأمس؛ ليُريح طلاب العلم والفنون[٢].

فهذه اللذة والسعادة في التأليف؛ لا تحسبها تمرًا أنت آكله، بل يصحبها من الكبَد، والنصَب والوصَب الشيء الكثير، كالمراجعة، والمقابلة، والتصويب المتكرر.

حتى لقد قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) عن حجم مُعاناته في مراجعة الكتب: ولربّما أراد مؤلّف الكتاب أن يُصلح تصحيفًا، أو كلمةً ساقطةً، فيكون إنشاء عشر ورقات من حُرّ اللفظ، وشريف المعاني، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص[٣].

وبطرح طريف يقول الأديب علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): وإن سألتموني ما هي متاعب الكتابة والنشر - وأنا مبتلىً بهما من ستين سنة، أو هما المبتلَيان بي - لقلتُ لكم إنها التطبيعات.. وفيها ما يُحرَّف ويُصحَّف.. حتى تجيء كلمة جديدة لا يدري حتى كاتبها -الذي هو أنا- ماذا كان أصلها![٤].

---

(١) باختصار من كتاب: «خواطر» للشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد (ص: ١٨٠ - ١٨٤).
(٢) مقام إبراهيم (ص: ٢٦١).
(٣) الحيوان (١/٥٥).
(٤) ذكريات للطنطاوي (٨/٦٥).

وهذا الكلام بالصميم، ومن جرَّب عرف، ولكن هذا التعب يستحيل لذة، كاستحالة تعب من يَمتهن رعي النحل، إلى جَنْي العسل اللذيذ للشاربين، وكاستحالة عناء جامِعِ محصول الزيتون، إلى تحصيل عصارة زيت مبارك، وزيتون طيب.

وبرغم مشقة التأليف؛ إلا أن المؤلفين المبارَكين قد يُحدِّثون عن أنفسهم بحصول تيسيرات من الله لهم، أو كرامات خارقة للعادة أثناء الجمع، أو الطبع، أو التوزيع، ما تَهون معه تلك المشاق.

وإن من كرامات الله للنووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) أنه أضاء له أصبعه، لما فقدَ في وقت التصنيف ما يُسرجه عليه(١).

لذة لاحقة للتأليف:

وثمت لذة لاحقة للتأليف، وهي لذة انتشار الكتاب، وتلقِّي الأمة له القبول، جيلًا بعد جيل، أو على الأقل النخبة المعتنية بموضوع الكتاب.

وإذا مُدح كتابك بتغريدة، أو نُقِلَ منه أو أُحيلَ إليه؛ فهذه لذة حاضرة تذوقها، لا لأجل المدح، بل لأجل استنادهم إليه، وانتفاعهم به، ثم ترجو قبل ذلك وبعده قبول الله له، ثم إقبال الناس عليه.

وفي زمننا تحصل لذة إضافية: إذا تلقَّته إحدى الجهات الحكومية، أو المؤسسات الخيرية وتولَّت إعادة طبعه، أو تقريره كمنهج يدرَّس، أو انتقاءه كتابًا يوزَّع مجانًا، أو تنتخبه جهة؛ لتضع عليه مسابقات، أو مادة لدورات علمية.

وحينها لا تَسَل عن نشوة المؤلِّف، وحمده ربَّه أن يسَّر هذا الانتشار لكتابه.

والمعوَّل إنما هو على القبول -كما لا يخفاك أخي القارئ الكريم- وهذا القبول يتأتى بالإخلاص لله، إخلاصًا يبتدئ منذ الكتابة، ومرورًا بالطباعة، وانتهاء بالتوزيع، وإعادة الطبع، وعند ثناء القراء عليه، بل يمتد بمجاهدة النفس في طرد العُجب، ونبذ التعالي والتعالم والتفاخر بعد ذلك. وحينَها فلا تسَلْ عن عِظَم البركة.

---

(١) حاشيتا قليوبي وعميرة (١٠/١).

من رُزقوا قبولًا وسعادة في مصنفاتهم، أو العكس:

ثمَّت عبارة تدل على هذا المعنى، يتداولها بعض أهل التراجم، فيصِفُون عالِمًا بأنه: «رُزِق القبول أو السعادة في مصنفاته»، فإن كانت الأخرى فقد يقولون عكسها.

وإليك خمسةَ أمثلة على المِنوال الأول- جعلنا الله من أهله -، وهم ممن رُزقوا قبولًا وسعادة في مصنفاتهم:

١. البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ): ودائرته في الحديث ليست كبيرة، بل بورِك له في مرويّاته، وحسن تصرُّفه فيها؛ لحذقه وخبرته بالَأبواب والرِّجال(١).

٢. الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) قال ابن الجوزي عنه: من نظر في مصنَّفاته عَرف قَدْرَ الرجل، وما هُيِّئ له مما لا يتهيَّأ لمن كان أحفظَ منه، كالدارقطني(٢).

٣. القاضي عياض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٤هـ) فقد رُزقت مصنفاته من الحظوة، وحسن القَبول والتلقّي، ما لم يُرزقه مؤلف مغربي آخر. ومما يشيع على ألسنة المغاربة قولهم: «لولا عياض لما ذكر المغرب»(٣).

٤. الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) قالوا عنه: ورُزق سعادة في مصنفاته، وانتشرت في الآفاق(٤).

٥. ابن نُجَيْم الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٧هـ) مات وعمره أربع وأربعون سنة، ومع ذلك فقد رُزق السعادة في مؤلفاته، فما كتب ورقة إلا واجتهد الناس في تحصيلها بالجاه والوَرِقِ(٥).

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٠/٤٤٠).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٦/١٣٠) ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٩/٢٤٢).

(٣) مقالات الطناحي (١/٩٤).

(٤) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/٦٥) والرازي هذا؛ قيل: إنه ندم على دخوله في علم الكلام، وسمعوه مرتين يبكي ويقول: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام!.

(٥) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٢/١١٩).

ثم خذ خمسةً أخرى، لِمَن وصَفُوهم بأنهم: لم يُرزقوا سعادة في مصنفاتهم - عافاني الله وإياك من ذاك- ولكن لا يجوز القدح بنياتهم، لكنها مواهب من الوهاب:

١. محمد بن عثمان بن أبي شيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٧هـ) قال عنه الذهبي: وكان من أوعية العلم، وجمع وصنف، وله «تاريخ» كبير، ولم يرزق حظًا، بل نالوا منه[١].

٢. أبو حيان التوحيديُّ -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٤٠٠هـ) له كتاب: «مناقب الوزيرَين» ضمَّنه معايب وزيرَين في زمانه، وبالَغ في سبِّهما وسلبِهما ما استقر عنهما من الفضائل.

قال ابن خَلكان: وهذا الكتاب ما مَلَكه أحد إلا وانعكست أحوالُه. ولقد جربتُ ذلك، وجرَّبه غيري[٢].

٣. أبو حامد الموصلي الإربلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٨هـ) قال ابن خَلكان: ولم يُرزق سعادة في مصنفاته؛ فإنها ليست على قدر فضائله[٣].

٤. عز الدين ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٩هـ) قال عنه تلميذه ابن حجر -رحمه الله تعالى-: صنَّف التصانيف الكثيرة المنتشرة..ولم يُرزق سعادة في حسن التصنيف، بل بين لسانه وقلمه، كما بيْنه هو وآحاد طَلَبته[٤].

٥. وبنحو هذه العبارة عبَّر ابن حجر عن حال مؤلفات شيخه الآخر البُلقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) فقد قال: وكان -مع سعة علمه- لم يُرزق حسن ملَكة في التصنيف[٥].

معاناة المؤلفين وإنجازاتهم:

والآن إليك طرَفًا من معاناة المؤلفين، ومكابدتهم لتحقيق إنجازاتهم، والتي انقلبت إلى لذةٍ أحلى من الشّهْد، واستحالتْ سهراتهم الليلية إلى مشاعل نور بعد وفاتهم، يستضيء بها مُلتمسو أنوار الوحيين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/١٤).
(٢) وفيات الأعيان (١١٣/٥) وعنه العليمي في التاريخ المعتبر في أنباء من غبر (٢١٣/٣).
(٣) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٥٠).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١١٥/٣).
(٥) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣٠٠/٢).

ولهم في ذلك إنجازات ومغامرات، وبطولات أشبه ما تكون ببطولاتِ خائضِي غمارِ الوغى.

وإليك بيناتِ ما ادَّعيتُ في أربعة وأربعين مثالًا:

١. قال تلاميذ الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): عرَضْنا على مالك «الموطأ» في أربعين يومًا، فقال: كتاب أَلَّفتُه في أربعين سنة؛ أخذتموه في أربعين يومًا، قلَّما تفقهون فيه[١].

٢. الفقيه الكبير صاحب أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) لما أخذ في تصنيف «الجامع الكبير» خلا في سرداب، وأمر أهله أن يُراعوا وقت غدائه ووضوئه، وأن يؤخذ من شعره إذا طال، وأن يُنظَّف ثوبه إذا اتسخ، وألا يُورِدوا عليه شيئًا يشتغل به خاطره، وأقام على ماله وكيلًا، ثم أقبل على تصنيف الكتاب[٢].

٣. الفراءَ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) حين أَلَّف ما يجمع به أصول النحو، أمر الخليفة المأمون أن يُفرَد في حُجرة، ووكَّل به جواري وخدمًا، يقمْنَ بما يحتاج إليه؛ حتى لا تتشرف نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤْذِنونه بأوقات الصلاة، فكان يُملي والوَرَّاقون يكتبون، فانتهى منه في سنتين[٣].

٤. كان المحدث الفقيه أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٤هـ) يَقسم الليل أثلاثًا، فيصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويصنِّف الكتب ثلثه[٤].

٥. البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) ابتدأ تصنيف «صحيحه»، ووضَعَ تخطيطه العام في المسجد الحرام، ثم أكمله وبيَّضه في بخارَى، بدليل طول مدة تأليفه[٥].

٦. الإمام الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) له أهم كتاب في التفسير، وأهم كتاب في التاريخ، ولما حُسِبت مدة تأليفه بلغت أربعين سنة، مقابل نصف مليون

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ١٣).
(٢) العزلة للخطابي (ص٣٥).
(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٤/١٥٥).
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣/١٨).
(٥) فتح الباري لابن حجر (١/٤٨٩).

صفحة، فصار معدل كتابته اليومية أربعين صفحة! وهذا شيء هائل لا يكاد يُطاق. وقد قال عن نفسه: استخرتُ الله، وسألته العَون على ما نَوَيْته من تصنيف التفسير، قبل أن أعمله بثلاث سنين، فأعانني(١).

٧. قال ابن خزيمة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ): كنتُ إذا أردتُ أن أصنِّف الشيء دخلتُ في الصلاة مستخيرًا، حتى يقع لي فيها، ثم أبتدئ(٢).

٨. غلام ثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٥هـ) صنّف كتابه «الياقوت» في اللغة، وقد مرَّ هذا التصنيف بمراحل طويلة، طيلة خمس سنوات: الإملاء، ثم المراجعة ثم المقابلة، ثم الزيادة، ثم العرض النهائي. وقد شرع في تكرير قراءته، ويزيد فيه مرّة بعد مرّة. ثم جمع الناس على قراءته عليه مرارًا، وسمّى القراءة الثانية «الفذْلكة»؛ لكثرة مقابلة النسخ. ثم زاد فيه بعد قراءة الكتاب عليه مدة سنة وخمسة أشهر، ثم جمع الناس، ووعَدهم بعرض الكتاب، ولا يكون بعدها زيادة، وسمَّى هذه العَرْضة «المِحرابية». واجتمع الناس للإملاء والنسخ(٣).

٩. القاضي الباقلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٣هـ) كان كل ليلة إذا صلى العشاء، وقضى وِرده في عشرين تسليمة، وضع الدواة بين يديه، وكتب خمسًا وثلاثين ورقة تصنيفًا عن حفظه، وإذا صلى الفجر دفع لبعض أصحابه ما صنفه في ليلته، وأمره بقراءته عليه، وأملى عليه الزيادات فيه(٤).

١٠. قال المفسر أبو إسحاق الثعلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٧هـ) عن استخراجه الموسوعي لفوائد «تفسيره»: فاستخرت الله -تعالى- في تصنيف كتاب شامل كامل، مهذب ملخّص، مفهوم منظوم، مستخرج من نيِّف ومئة كتاب..سوى ما التقطْتُه.. وتلقّفْتُه عن أقوام من المشايخ، وهم قريب من ثلاث مئة(٥).

---

(١) معجم الأدباء (٦/٢٤٥٣).
(٢) تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (٢/٢٠٨).
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣/١٧٥).
(٤) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٢١٨).
(٥) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١/٧٥).

١١. قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) عن كتابه الفائق: «الأخلاق والسير»: أنفقتُ في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس.. وأهديته إليه هنيئًا، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد الأملاك إذا تدبره، ويسره الله -تعالى- لاستعماله[(١)].

١٢. قال الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): ينبغي أن يُفرِّغ المصنف للتصنيف قلبه، ويُجْمِع له هَمَّه، ويصرف إليه شغله، ويقطع به وقته. وكان بعض شيوخنا يقول: من أراد الفائدة فليَكسر قلم النسخ، وليأخذ قلم التخريج[(٢)]. وهذه العبارة عميقة نفيسة! تدعوك للاختراع وافتراع المعاني، لا لتكرار الجهود والمباني.

١٣. ابن بابشاذ النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٩هـ) انقطع في غرفة بجامع عمرو بن العاص بمصر، وكتب تعليقة كبيرة في النحو، لو بُيضت لقاربت خمسة عشر مجلدًا، وسماها النحاة الذين وصلت إليهم بعده بـ «تعليقه الغرفة»[(٣)].

١٤. أبو صالح المؤذن النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٠هـ) جمع بعد طول ترحال حصيلة طلبه للعلم في «الأحاديث الألف» عن ألف شيخ[(٤)].

١٥. عبد السلام القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) لَهَج بالتفاسير، حتى جمع تفسيرًا بلغ خمس مئة مجلد، وقيل: ثلاث مئة، حشا فيه العجائب، حتى لقد فسَّر في مجلد كامل آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢][(٥)].

١٦. ابن رُشد الجد -رحمه الله تعالى-(ت ٥٢٠هـ) يحكي معاناته في تأليف «البيان والتحصيل» في الفقه المالكي، والمكوَّن من تسع مجلدات. قال: فتماديتُ لا آوِي إلى راحة متى ما تفرغتُ من ليل أو نهار، فكلما أكملتُ منه كتابًا ازددتُ من التمادي

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ١١).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٨٢).
(٣) معجم الأدباء (٤/١٤٥٦).
(٤) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص: ١١٣).
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٣/٢٥٢).

على بقيته؛ حرصًا وإقبالًا، فتماديت إلى أن..شرعت في رُزمة الأقضية، امتُحنت بتولي القضاء.. فشغلتني أمور المسلمين عما كنتُ بسبيله من ذلك، ولم أقدر من التفرغ إليه على أكثر من يوم واحد، في الجمعة اعتزلت فيه عن الناس إلا فيما لم يكن منه بُد.. فأيستُ من تمامه في بقية عمري، إلا أن يُريحني الله ﷻ من ولاية القضاء..واستعفيتُ ابن تاشفين - أدام الله تأييده وتوفيقه -، وغبطته بالأجر على تفريغي لتمامه.. فواليتُ من حينئذ في إكمال الكتاب، إلى أن كمُل بحمد الله[1].

١٧. ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) لو لم يعِش إلا اثنتين وسبعين سنة، لقلتَ إنه استغرق في تصنيف تاريخ دمشق مئة سنة! فمشروعه الضخم «تاريخ دمشق» بلغ عدد مجلداته أكثر من عدد سنيّ مؤلفه. وسبب تأليفه إلحاح فقيه تركي اسمه يَغْمَر بن أَلْب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٨هـ). ويقُصُّ علينا ابن عساكر القصة، فيقول: كان يَحُثُّني على تبييض هذا الكتاب، ويَوَدُّ لو أنه تمَّ.. إلى أن يسر الله الشروع فيه بعد وفاته، والله يعين على إتمامه. ويا ليت أنه كان بقي حتى يراه، ولو كان رآه لعلم أنه أكثر مما وقع في نفسه. ولما كنا في جنازته فكرتُ في نفسي، وقلت: والله إني لأحق مِن «يَغمر» بالاهتمام بهذا التاريخ. فصرفت همتي إليه، وشرعت فيه، ويسر الله تمامه بهمة «يَغْمر»، فإنه كان يتأسف على ترك الشروع فيه، وكان شديد الاهتمام به، يكاد يبكي إذا ذكره، ويقول: لو تمَّ هذا الكتاب لا يكون في الإسلام كتاب مثله[2].

وكل أبـــيٍ بـــاســـلٌ غـيـــر أنني ... إذا عرضَتْ أولى الطرائدِ أبسَلُ[3].

١٨. ابن بَني عبد الله القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١١هـ) تكلم على مسألة عَروضية، وكان في الحاضرين مَن أحكم صناعة العروض، فجاذَبه في المباحثة، حتى أحسَّ الأستاذ من نفسه التقصير، فكفَّ عن الخوض في تلك المسألة، وهَمَّه ذلك،

(١) البيان والتحصيل (٣١/١).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٢/٧٤).
(٣) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١٠٦/٢).

واشتد عليه، فانصرف إلى منزله، وعكف سائر يومه على تصفُّح علم العروض، حتى فهِمه وهضَمه، وصنف فيه مختصرًا أبدع فيه، وجاء به الغد معجِزًا، فبُهِت الحاضرون، وقضَوا العَجَب من ذكائه، وسُمو هِمته[١].

١٩. وهذا ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) يتغزل بكتابه ومشروع عمره «معجم البلدان» فيقول ناظمًا محتفيًا به:

يُـرنِّـح أعطافي إذا مـا قـرأتُـهُ ... كما رنّـحـت شُـرَّابَـهـا ابنة الـكَـرْمِ
ولـو أنني أنصفته فـي محبّتي ... لجلَّدْتُه جِلدي وصندقْتُه عظمي
ولو أنني أسْطيع من فَـرْط حبّهِ ... لما زال من كَفّي ولا غاب عن كُمي[٢]

٢٠. لما قدِم الأصولي سيف الدين الآمدي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣١هـ) إلى حماة، بالَغ السلطان في إكرامه، وجمع في خزانته من الكُتُب ما لا مزيد عليه، وجعَلَ في خدمته ما يناهز مئتَي معمَّم، من الفقهاء والأدباء والنحاة والكَتَبة، فألَّف الآمدي لأجل تلك التسهيلات الكبيرة: «طبقات الشعراء» وكتاب «مضمار الحقائق» في التاريخ، في نحو عشرين مجلدة[٣].

٢١. من عجائب الأمير العالِم الأندلسي موسى بن سعيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٠هـ) أنه لم يُرَ يوما تخلى عن مطالعة كتاب أو كتابة، حتى في أيام الأعياد، فقال له ابنه: يا سيدي أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إليه كالمغضَب وقال: أظنك لا تفلح أبدًا، أترى الراحة في غير هذا؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولوددتُ أن الله -تعالى- يضاعِف عمري حتى أتم كتاب «المغرب» على غرضي». قال ابنه: فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله، لا ألتذّ بنعيم غير ما ألتذَّ به[٤].

٢٢. النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) عاش ستًا وأربعين سنة، وبدأ التأليف في منتصف عمره، فقدَّروا أنه يكتب بمعدل كراسين باليوم، حتى تكِلَّ يده، فيضع القلم؛

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٨٠/٢) والإحاطة في أخبار غرناطة (٣١٠/٣).
(٢) معجم الأدباء (١٣/١).
(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٧٨/٤) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٤٧/٢٢).
(٤) المغرب في حلى المغرب (١٧٠/٢).

ليستريح برهة[١]. وقال - مشيرًا إلى همته، ونهمته في التأليف المطول-: ولولا ضعف الهمم، وقلة الراغبين، وخوف عدم انتشار الكتاب؛ لقلة الطالبين للمطولات لبسطته، فبلغت به ما يزيد على مئة من المجلدات، من غير تكرار، ولا زيادات عاطلات[٢].

٢٣. ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٢هـ) كان يُدرِّس «مختصر ابن الحاجب» ويثني عليه كثيرًا، ويقول: إنه احتوى على أربعين ألف مسألة[٣].

٢٤. ابن منظور صاحب «لسان العرب» -رحمه الله تعالى- (ت ٧١١هـ): كان مغرىً باختصار الكتب المطولة. حتى قال الصفدي: لا أعرف في الأدب وغيره كتابًا مطولًا إلا وقد اختصره. وأخبرني ولده أنه ترك بخطه خمس مئة مجلدة[٤]. وكأنما هو القائل:

لخصتُ كتْب الأوّلين بجمعها ... وأتيتُ أوّلها بما قد أغفلوا

وألنْتُ حُوشيّ الكلام كأنّما ... سرْد اللغات بها لنطقي ذُلّلُ[٥]

٢٥. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) عمره سبعة وستون سنة، وقد ألَّف ٣٠٠ كتاب خلال ٣٠ سنة، بمعدل عشرة كتب سنويًا، أي كل أربعين يومًا تقريبًا يؤلف كتابًا[٦].

٢٦. استقر الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) في قرية «كفر بطنا» بدمشق، خطيبًا في مسجدها، وغدت إقامته وعزلته في تلك القرية الهادئة خمسة عشر عامًا، فكانت فرصة مواتية لإنجاز مؤلفاته[٧].

(١) المنهل العذب الروي للسخاوي (ص: ١٥).
(٢) شرح النووي على مسلم (١/٥).
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٩٣).
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٦/١٥).
فائدة: عند الإحالة إلى لسان العرب؛ لا تقل: قال ابن منظور في لسان العرب كذا، وإنما الأدق أن تقول: نقل ابن منظر في لسان العرب كذا. لأنه جمع فيه بين التهذيب، والمحكم، والصحاح، والجمهرة، والنهاية، وحاشية الصحاح.
(٥) تاريخ ابن خلدون (٧/٦٤٥).
(٦) باستثناء الفتاوى والرسائل والأجزاء والقواعد التي تبلغ بالعدد إلى الألف!.
(٧) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (المقدمة/٤١).

٢٧. وقد ألَّف الذهبي -أيضًا- كتابه العظيم «تاريخ الإسلام» وانتهى من تأليفه أول مرة سنة ٧١٤هـ، ثم أعاد النظر فيه، وبيَّض قسمًا منه سنة ٧٢٦هـ[١].

٢٨. مختصر خليل: هذا المتن المختصر هو عصارة المذهب المالكي، وقد حفظَتْه الأجيال عبر القرون، وقد جمع خليل -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) في مشروعه نحوًا من مئة ألف مسألة فقهية، خلال خمس وعشرين سنة! وهذا لا يتأتى إلا بالجرد والجهد، والجمع الطويل، وكثرة مجالسة الأشياخ. ومع ذلك فقد اخترمت المنيةُ خليلًا، فانتهى إلى باب النكاح، فأكمله اثنان من تلاميذه. وكثرت عليه التعاليق حتى فاقت المئة، ما بين شرح وحاشية ونظم[٢].

٢٩. قال التاج عبد الوهاب ابن السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): سُهِّل لكثير من العلماء من التصانيف في الزمن اليسير، بحيث وزِع زمان تصنيفهم على زمان اشتغالهم بالعلم، إلى أن ماتوا، فوجد لا يفي به نسخًا، فضلًا عن التصنيف.. واتفق النقَلة على أن عُمُر الشافعي -رحمه الله تعالى-(ت ٢٠٤هـ): لا يفِي بعُشر ما أبرزه من التصانيف مع..الأمراض التي كانت تعتَوِره، بحيث ربما اجتمع فيه ثلاثون مرضًا. فسبحان من يبارك لهم، ويطوي لهم[٣].

وقال التاج -وقد توفي وعمره أربع وأربعون سنة-: فإن العالِم وإن امتدَّ باعُه، واشتد في ميادين الجدال دفاعه، واستدَّ ساعده..فنفعه قاصر على مدة حياته، ما لم يُصنِّف كتابًا يخلد بعده، أو يورِّث علمًا ينقله عنه تلميذ..ولعمري إن التصنيف لأرفعها مكانًا؛ لأنه أطولها زمانًا، وأدومها إذا مات أحيانًا، ولذلك لا يخلو لنا وقت يمر بنا خاليًا عن التصنيف، ولا يخلو لنا زمن إلا وتقلَّد عِقْدُه جواهر التأليف، ولا يخلو علينا ساعة إلا ويُعمِل فيها القلم بالترتيب والترصيف[٤].

٣٠. بدر الدين الزركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) يقول: تصنيف كتب العلم

(١) المصدر السابق (المقدمة/٩٢).
(٢) انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٧١) ومنح الجليل شرح مختصر خليل (١٣/١) .
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٤٢/٢).
(٤) مقدمة جمع الجوامع للتاج ابن السبكي (ص٣٨).

لمن منحه الله -تعالى- فهمًا واطلاعًا. فلو تُرك التصنيف لضُيع العلم على الناس..ولن تزال هذه الأمة مع قِصَر أعمارها في ازدياد، وترَقٍ في المواهب[١].

٣١. الحافظ ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) يَحكي عن معاناته، ويحدِّث عن إنجازاته في كتاب واحد، ألا وهو «البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير» وأن مصادره في كتابه تُنَيِّف على مئة تأليف[٢].

٣٢. ابن الملقِّن -أيضًا- امتُحن، فلزم داره، وأكبّ على التصنيف، حتّى صار أكثر أهل زمانه تصنيفًا، وبلغت مصنّفاته نحو ثلاث مئة مصنّف[٣].

٣٣. قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-(ت ٨٥٢هـ) عن بعض كَدْحه؛ لأجل «فتح الباري»: حصل لي الوقوف مما لم يقف عليه من قبلي..وطالما طالعتُ المجلد بتمامه في اليوم واليومين، فلا أظفَر بشيء، وربما ظفرتُ بموضع واحد[٤].

وأما عدد المصنفات التي أفاد منها ابن حجر في هذا المشروعِ العلمي الضخم؛ فقد أحصاها بعض الباحثين المحققين، فبلغت ١٤٣٠ مصنفًا![٥]

٣٤. يوسف بن عبد الهادي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٩هـ) معظم مؤلفاته بخط يده، ولذلك قال واصفًا مقدار تأثير القلم والحِبر عليه:

لقد سوَّد الحِبر الأصابعَ من يدي ... لكثرة ما أعتاده بالكتابةِ[٦]

٣٥. قال المؤرخ طاشْكُبْري زَادَهْ -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٨هـ) وقعتْ لي عارِضة الرمَد، ودام ذلك شهورًا، وأضرَّت بذلك عيناي.. ثم إن الله -سبحانه- مَنَّ عليَّ بحل

(١) المنثور في القواعد الفقهية (٣/٣٥).
(٢) البدر المنير (١/٢٧٩).
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩/٧٢).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٢/٧١٣).
(٥) معجم المصنفات الوارد في فتح الباري - تأليف: مشهور حسن سلمان ورائد بن صبري - دار الهجرة (ص٤٤٠). ولكن بعض المحققين يناقش في ثبوت هذا العدد، ويرى أن مصادره لم تبلغ الألف؛ تفريقًا بين المصادر الأصلية وغيرها.
(٦) العقد الغالي في النظم العالي لابن طولون(ص ١٠١) ومحض الصواب في فضائل عمر بن الخطاب لابن عبد الهادي ابن المِبرد(١/٣٧).

بعض المباحث الغامضة، وتحقيق المطالب العالية، وكتبت لكل منها رسالة، ومجموعها يُنِيف على ثلاثين.. فليكن هذا آخر الكتاب، وقد أمليتُه على بعض من الأصحاب، مع كَلال البصر، وكمال الحصَر، وقلة الفِطَن، وضِيق العَطَن، ووقوعي في زاوية الخمول والنسيان، والانقطاع عن الإخوان والخِلان[١].

٣٦. الأمير الفقيه الزيدي الحسين بن القاسم اليَمَني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٠هـ) من عجيب أمره؛ أنه صنف كتبه وهو يتنقل في ميادين القتال[٢].

٣٧. أبو المعالي الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٢هـ) لما اشتغل في تفسيره «روح المعاني»، كان في نهاره يشتغل بالتدريس والإفتاء، وفي أول ليله يجتمع بالعلماء، ويتناقش معهم في المسائل العلمية، وفي آخر ليله يكتب في التفسير، ثم بعد ذلك يدفع ما كتبه إلى كتاب استأجرهم لهذه المهمة، فيبيِّضون ما كتبه في ليلته في عشر ساعات! فهذا يدل على كثرة كتابته وسرعة بديهته، وموسوعيته التفسيرية[٣].

وتأمل في وصفه لمقدار لذّته، حين يقول: فلو رأيتَني وأنا أصافح بالجبين صفحات الكتاب من السهر، وأطالع- إن أعْوَزَ الشمع يومًا - على نور القمر، في كثير من ليالي الشهر، وأمثالي إذ ذاك يَرفُلون في مَطارِف اللهو، ويَرقُلون في ميادين الزهو[٤].

٣٨. الشيخ خليل السهارنفوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) كان يتمنى ثلاث أمنيات، وكان يدعو الله بها على الملتزم، أُولاهما: أن تقوم في الحجاز حكومة إسلامية مستقرة، والثانية: إكمال كتابه «بذل المجهود في حل سنن أبي داود»، والثالثة: أن يدفن في البقيع. وقد أجاب الله كل دعواته الثلاث التي دعا بها -ولله الحمد-.

وكان الشيخ قد ملكته فكرة هذا التأليف وتغلغلت في أحشائه، وخالطت لحمه ودمه، وسيطرت على مشاعره وتفكيره وذوقه، حتى كان آخر ما يفكر فيه قبل النوم، وأول ما يهتم به عند اليقظة، وحُق له أن ينشد بلسان الشاعر:

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٣٣٠).
(٢) الأعلام للزركلي (٢/٢٥٢).
(٣) تفسير الألوسي (٦/١).
(٤) المصدر السابق (٤/١).

آخر شيء أنت في كل هَجْعَة؟ وأول شــيء أنــت عــنــد هـبـوبي

حتى إنه رأى مرة فيما يرى النائم، كأن مُنَبِّهًا يُنَبِّهَهُ على خطأٍ في هذا الشرح، ولما راجعه وجد أن فيه خطأ، فأصلحه.

يقول السهارنفوري: كنتُ لا أقدر على الكتابة، ولا على التتبع لرعشةٍ حدثت في يدي، وضعف في دماغي وبصري، فكنت أُملي على محمد زكريا الكاندهلوي.

وفي عام ١٣٤٤هـ توجه إلى الحرمين الشريفين؛ لإتمام الشرح هناك، منقطعًا إليه، لا يتخللها إلَّا الفرائض وما لابدَّ منه. وبعد عشرة أشهر من مجاورة الحرم النبوي تحققت أمنيته الكبرى، التي غَذَّاها بدم قلبه، فتمَّ الشرح في خمسة مجلدات، وقد كانت مدة تأليفه عشر سنوات ونصف، فكان له كيوم عيد، بل أشد، فعيَّن يوما لضيافة علماء المدينة وأحِبَّته وأصدقائه؛ شكرًا لله -تعالى- وإبداءً لسروره وفرحه، وصنع طعاما كثيرًا، وأخبر تلاميذه وأحِبَّته في الهند بهذا الموعد المبارك؛ ليُشاركوه في السرور والشكر. وبعد ثمانية أشهر من هذا الاحتفال البهيج يَتوفى الله المؤلفَ! ويُدفن بالبقيع -كما تمنى- في جنازة حاشدة[1].

٣٩. الشيخ سليمان بن سَحْمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٩هـ) أُقعد في آخر حياته، فصار لا يخرج من داره، ولكنه لم ينقطع عن التأليف والردود إلا قُبيل وفاته بسنتين[2].

٤٠. الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) لما كان في فترة العلاج في لبنان - طَلب الأطبَّاء منه عدم القراءة أو الكتابة؛ لأن هذا يُؤثِّرُ على صحته، فاشترى ابنه كتابًا بعنوان «دع القلق وابدأ الحياة» للمؤلف الأمريكي «ديل كارنيجي» فقَرَّر شراءَه وإهداءه للوالد، فقرأ الكتاب كاملًا، وأعجب به أيضًا وبمؤلفِه، وقال: إنه رجل مُنصِفٌ. فطلب شراء أوراقٍ وأقلامٍ، ليؤلِّف بالمستشفى رسالة على ضوء هذا الكتاب الإنجليزي الغربي، فكانت رسالته: «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة»[3].

(١) بذل المجهود في حل سنن أبي داود (١/٣٣ - ٤١).

(٢) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٢١١).

(٣) كتاب «مواقف اجتماعية من حياة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي» - تأليف ابنه محمد وسبطه مساعد (ص١٢٩).

٤١. د. محمد عبد الله درَّاز -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٨هـ) ألَّف كتابه الفذ «دستور الأخلاق في القرآن» أثناء حرب عصيبة، واضطر لتأليفه في مَخبأ تحت الأرض، وكان يجمع أوراقه، ويشتغل بالبحث وسط صوت القنابل التي تدوِّي فوقه، ولكن لذة التأليف أشغلته عن تلك المخاوف(١).

٤٢. قال الشيخ أحمد البنا الساعاتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٨هـ) عن لذته التي طرقته عند آخر حديث رتَّبه في مسند أحمد: وقع نظَري على آخر حديث في المسودة، في باب رؤية الله ﷻ يوم القيامة، وفيه: **فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ ما أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ** - وفي رواية: مِن النَّظَرِ إليهِ-. وما كدتُ أفرغ مِن قراءته حتى اعتراني غشية، تَصحَبُها لذة، أعقبها فرح وسرور، لم أرَ مثله فيما مضى مِن عمري، أتدري لم ذلك؟! لأنَّ هذا الحديث وقع خاتمة كتابي..ويؤخذ منه أعظم تبشير وأحسن فأْل، هذا سبب سروري واغتباطي، واستئنافي العمل بكل نشاط، واجتهاد لا يعرف المَلَل. وكنت كلما اعتراني مَلَل، أنظر إلى حديث الرؤية، فأَنشَطُ للعمل(٢).

يـؤلِّـف اللؤلؤ المنثور منطقه ... ويَنْظم الـدُّر بالأقلام في الكتب(٣)

٤٣. قال الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): «معجم الحديث» جمعتُه من مخطوطات المكتبة الظاهرية في نحو أربعين مجلدًا، في كل مجلد نحو أربع مئة ورقة(٤).

٤٤. جزء «زيارة النساء» للشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ) كتبه وعمره عشرون سنة، وأخرجه للطباعة وعمره أربعون سنة. وأما جزء «مسح الوجه باليدين بعد رفعهما للدعاء»، فقد انتهى من تأليفه ١٣٩٤هـ، وأعاد نَسخه في ١٤٠٣هـ.



(١) مقدمة كتاب: دستور الأخلاق في القرآن (ص٦) وقد سبق سَوق الخبر.
(٢) الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد حنبل الشيباني (١/٢٢-٢٣).
(٣) اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب (ص: ٣٠٠).
(٤) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٣٠٨/٨).

٦٦. لذة استلام المؤلف النسخة الأولى من كتابه

أما هذه فلها مذاق خاص، وهي لذة بإثْر لذة، فإن مزاوِلي العلم يتنقلون بين هذه اللذائذ، كأنما هم في جنة معجَّلة: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]

وهذه اللذة تُذكِّر بلذة فاخرة في الآخرة، ألا وهي حين ينجو العبد من الحساب، فإنه يؤتى كتابه بيمينه، فيفعل فِعلتين مُبهِجتين:

الأولى: أنه يقرأ كتاب نفسِه، كما في قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وقراءتهم كتبهم هو على سبيل التلذذ، بالاطلاع على ما تضمنتها من البشارة، وإلا فقد علموا من حيث إيتاؤهم إياها باليمين، أنهم من أهل السعادة(١).

الثانية: أنه يدعو الخلائق كلها؛ لتقرأ كتابه في رنَّة الفرح والغبطة، قائلًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] فلا تَسَعُه الفرحة، حيث تملأ جوانحه، وتغلبه على لسانه.

والمؤلف يعيش جزءًا من تلكم الفرحة الأخروية، وهذه تُذكِّر بتلك.

وانظر للسيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) لما فرغ من تأليف: «النكت على الألفية والكافية والشافية والشذور والنزهة» اختتمه بأبيات، تبين اعتداده به، والجهد الذي بذله، ومنها قوله:

ثلاثين عامًا ظلْتُ أرقُب جَمعه ... وأَجمع فيه ما تفرق في النَّقْلِ
فدونَك تأليفًا مفيدًا محررًا ... من الناس لم يَسمحْ بذا أحد قبلي(٢)

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٧/٨٧).
(٢) جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي (ص: ٣٢٧).

وهذا إمام القراء ابن الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) يقول عند ختم كتابه «نهاية القراء»:

تمَّ الكتاب تكاملَتْ ... نِعَم السرور لصاحبهْ
وعفا الإله بجودهِ ... وبفضله عن كاتبهْ[١]

وحُقَّ لمن أتمَّ تأليف كتاب أن يُصاحِبَه الفرح، ويذوق السرور دهرًا، بل إن لحظة إتمام الكتاب هي أوْجُ السعادة المعنوية، وحُقَّ له في تلك اللحظة أن يسجدَ لله شُكْرًا.

وذاك ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) لما انتهى تفسيره للقرآن في المجلس على المنبر، قال: فسجدتُ على المنبر سجدة الشكر، وقلتُ: ما عرفتُ أن واعظًا فسَّر القرآن كله في مجلس الوعظ، منذ نزل القرآن[٢].

بل إنك واجدٌ أولئك المؤلفين يبذلون من حُر أموالهم في سبيل طباعة كتبهم، ولا يرون ذلك خسارة عليهم، بل يَعُدُّونه من التجارة الرابحة، والمعاملة المستَلَذَّة.

واعتبر بحال الأديب محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ)، فإنه يوم تسلم جائزة الملك فيصل العالمية، أخذ مال الجائزة، ودفعه إلى المطبعة؛ ليطبعوا كتبه على الوجه الذي يُطمع فيه جودةً وإتقانًا[٣].

نموذج لثلاثة مؤلفين معاصرين، يعبِّرون عن لذيذ فرحتهم عند استلامهم النسخة الأولى من تأليفهم لكتاب جديد. فإليك أقوالهم، دون ذِكر أسمائهم:

١. لانتظار مجيء الكتاب من المطبعة فرحة؛ تشبه فرحة انتظار المولود الجديد.

٢. ما ألذَّ قطف ثمر الشجر بعد طول التعب في رعايته، وما أحلى رؤية الطفل عند ولادته، وقد كابد الأبوان أشهرًا، ينتظران هذه اللحظة التي تنسيهم كل تعب وسهر

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٤١٠).
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٨/٢١٣).
(٣) ظل النديم - جواد العلي (ص: ٢٨).

وألم، ولذتي وفرحتي اليوم برؤية كتبي لا تقل عن هذه اللذائذ والأفراح، كيف لا، وقد أمضيت الأعوام وأنا أُربِّيها كما أربي أبنائي!

٣. لو يعلم أهل اللذات بما أعيشه عند أول رؤية كتابي مطبوعًا، لعرفوا أن لذتهم لا شيء.

لذة رديفة:

وثمت لذة رديفة، وهي استلامك نسخة من إهداء مؤلف الكتاب، الذي كان به حفيًا، وكنتَ أنت له حظيًّا. فتُشارِكه فرحته، ويدبِّج لك على طرة النسخة إهداءً بخطه، فتبقى الذكريات ما امتدت الأيام واتصل العمر. فإذا أظهرتَ حفاوتك بكتابه كبُرتَ في عينه، وزادت محبتك في قلبه، فإذا رددتَ على عبارات إهدائه ردًا حسنًا كان نورًا إلى نور.

وإليك شاهدًا على ذلك: فهذا العلامة صِدِّيق خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) أخرج تفسيره الحافل «فتح البيان»، فراسَلَه الشيخُ النجدي الحنبلي راشد بن علي الجريسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٣هـ)[١] مُثنيًا عليه، وطالبًا كتبه. يقول الشيخ القِنَّوجي: لم أرَهُ ولم يَرَني.. فأتحفته بتفسيري «فتح البيان»، فكان ردُّ الجريسي في غاية الحفاوة بالكاتب، والفرح بالكتاب، حيث يقول: فواللهِ! إن تفسيركم الشريف جليسي، وفي الخلوات هو أنيسي، وقد تشوش فكري من سماحتكم بطبع هذا التفسير الجليل، بالمطبعة الحجرية في قرطاس ضعيف، لا يليق بجلالة هذا التفسير العظيم، فهلّا أمرتم بطبعه بمطبعة مصر القاهرة، في قرطاسها، الذي هو حرز لدواوين الإسلام..[٢].

وهناك آخرون يُشاركون المؤلف بلذة خروج الكتاب، وهم أحباؤه وطلابه والدار التي طبعته ونشرته، وطلبة العلم المتلذذون، والمنتظرون لخروج الكتاب، والراغبون بانتشاره.

---

(١) أسرته من الزلفي، شمال الرياض، ورحل بعضهم إلى (رغَبة)، ثم إلى ضرما، ثم إلى بلدة (نعام) جنوب الرياض.

(٢) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٥٢٥).

وانظر لحفاوة أحد تلاميذ ابن تيمية، واعجب له وهو يوصي نظراءه وأقرانه بعد وفاة شيخهم، فيقول: وإنَّ مما أحث هِمَمَكم الصالحة عليه: تحصيل كراريس «الرد على عقائد الفلاسفة» لأنَّهُ ليس في الوجود بهذا المؤلف نسخة كاملة، غير النسخة التي بخطي..وقد بقي من آخر نسختي أقل من ورقة.. وكمِّلوها؛ لأنه مؤلف لا نظير له، ولا يَكسر الفلاسفة مثله[1].



الأرقام عند ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ

١. فوائد قصة يوسف ١٠٠٠ لم يذكرها – الجواب الكافي

٢. رد المجاز في القرآن ٢٤١ وجهًا = الصواعق

٣. تفضيل العلم على المال ١٥٣ وجهًا = مفتاح دار السعادة

٤. أمثلة لأنواع الحِيَل ١١٧ مثالاً = الإعلام والإغاثة

٥. الإنسان روح وبدن معًا ١١٦ وجهًا = الروح

٦. فوائد المرض = شفاء العليل ١٠٠ فائدة لم يذكرها

٧. أمثلة على سد الذرائع ٩٩ مثالاً = إعلام الموقعين

٨. الاتباع ونبذ التقليد ٨٠ وجهًا = إعلام الموقعين

٩. فوائد ذكر الله ١٠٠ ذكر ٧٩ فائدة = الوابل

١٠. فضل عبادة الرضى ٦٢ وجهًا = المدارج

في هذا الاستقصاء فائدتان:

العالِم الموسوعية - الحُجة القوية



(١) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ١٥٣).

٦٧. قائمة المتلذِّذين الذين أقاموا حفلات أو ولائم لإنهاء كتبهم أو دروسهم

الاحتفاء والفرح بشيء دليل على تعظيمه ومحبته، والفرح بالعلم مقام شريف دالٌ على تعظيم مكانته وتعبيرٌ عن عِظم لذته، بل إن الفرح به خير من كل مفروح به، لا سيما علم الشريعة وما يوصل إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فإذا تمكن في القلب العلم.. أوجب له الفرح والسرور، أعظمَ من فرح كل محب بكل محبوب سواه[١].

ولا تحسبن أن اللذة بالعلم مقصورة على المشتغلين بالعلم فحسْب؛ بل إن الداعمين للعلم متلذذون، ولو لم يكونوا علماء، ولذا تجِدهم يقيمون الحفلات لإنجاز علمي فريد، ويُجْزِلون الأعطيات للمتميزين بالمؤلفات، ويضَعون للمشتغلين المنافسات والمحفِّزات، ويرأسون الاحتفاءات والاحتفالات. فبارك الله في مال كل داعم للعلم وأهله، ورزقهم لذة لا تنقطع.

ومظاهر المحافل العلمية موجودة من قديم الدهر، وهي لذة متجددة ومستمرة، ومتعددة الدوافع والمقاصد، ومتنوعة المجالات، ومن صورها في زماننا حفلات التخرج، وحفلات التكريم، وما يُصاحبها من الحوافز التشجيعية؛ للحفظ والبحث والتأليف، ونحوها.

وكان ولا يزال يعقد مجلس حافل يسمى بـ«يوم الختمة» بمناسبة انتهاء العالم أو الشيخ من تدريس فن من الفنون، ويحاط مجلس الختم بحضور العلماء والكبراء والأمراء، إلى جانب الطلبة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٩/١٦).

وعندما ينتهي الشيخ من ختمه يقوم الشعراء بإلقاء قصائدهم، وقد يُحمل عند نهاية المجلس على الأعناق والكواهل من لدن طلبته ومحبيه إلى بيته، في مهرجان وإكبار، ويقدم الطعام، وتُوْلَم وليمة، وتقدم بعض الهدايا والصِلات.

وكل هذه الفعاليات مظاهر جميلة، تعبر عن مشاعر فياضة، مليئة بالكرم، والوفاء، والاحتفاء بهذه المشاريع العلمية الجبّارة، وردِّ بعض الجميل لمن شارك في إنشائها وإنجازها، وهي علامة على شكر الله على التمام، وعلى بلوغ مرتبة من العلم، وإشادة بالعلم وأهله، وفيها رجاء نزول البركة، وحلولها، لا سيما إذا دُعي لها الفقراء والصُلحاء، وعلى رأسهم العلماء.

بعض الحفلات والولائم والجوائز لختمات التأليف أو التدريس

لذة الفوز بجائزة عن كتاب أصدره المؤلف، وتعب عليه، هو تعبير عن الشكر والتكريم، والاحتفاء والاحتفال. وإليك -الآن- خمسين وليمة واحتفالًا واحتفاءً عبر القرون:

١. الوليمة العظيمة؛ لأجل ختام تأليف «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: فقد مكث ابن حجر -رحمه الله تعالى- في تأليف الفتح خمسًا وعشرين سنة (٨٢٧ - ٨٤٢هـ) بل زاد عليها عشرة أعوام بعد صدور الكتاب، في الإضافات والتعديلات، حتى قُبيل وفاته بيسير.

وقد كان يُجهِّز لكَتَبَةِ «الشرح» وجماعة مجلس الإملاء ذهبًا، يفرَّق عليهم بحسب مراتبهم.

ولما تم عمل مؤلفه وليمةً عظيمة، وقرىء المجلس الأخير منه، وكان يومًا مشهودًا لم يعهد أهلُ العصر مثله، بمحضر من الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة، العلماء والقضاة، والرؤساء والفضلاء، وغيرهم من أرباب المناصب، ممَّن لا يحصيهم إلا الله ﷻ ونصبت هناك سوق وضربت خيام عديدة..أُنفقَ فيه مال جزيل. وفي يوم آخر بعده: قام فيه

شعراء أُخَر بمدائحهم، فأجيزوا بجوائز سنية عديدة، وفُرِّق -أيضًا- مال جَمٌّ، في جماعة كثيرة كتبوا هذا الشرح.

وكان المصروف في الوليمة المذكورة نحو خمس مئة دينار، ولم يُترَك مِنْ أنواع المآكل والمشارب، والفواكه والحلوى شيءٌ، فكان شيئًا عجبًا[١].

لكن أتدري كم تكلفة تلك الوليمة، إذا ما حسبتها بالريال السعودي؟!

بالرجوع لأحد بائعي الذهب: تبيَّن أن تكلفة وليمة «فتح الباري» تعادل في زماننا (٤٨٦٦٢٥ ريالًا) أي: قرابة نصف مليون ريال سعودي!

وحُقَّ لعالم تاجر، أمضى في مشروع عمره ربع قرن، أن يصرف على حفله نصف مليون.

فقلت لما تمَّ جمعُ الهني: «نصرٌ مِنَ الله وفتحٌ قريبْ»[٢]

٢. عالم اللغة والشعر أبو عمرو الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٦هـ) لما جمع أشعار العرب، كانت نيِّفًا وثمانين قبيلة، فكان كلما عمل منها قبيلة كتب مصحفًا، وجعله في مسجد الكوفة، حتى كتب نيِّفًا وثمانين مصحفًا بخطه. وبلغ من العمر مئة وعشرين سنة، وكان يكتب بيده إلى أن مات[٣].

٣. أبو مسلم الكُجِّي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٢هـ) لما فرغ تلاميذه من قراءة كتابه «السنن» عليه اتخذ مأدبة أنفق فيها ألف دينار، وكان نذر إذا حدَّث: أن يتصدق بعشرة آلاف درهم[٤].

---

(١) انظر: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٧٠٣/٢) والسلوك لمعرفة دول الملوك (٣٩٦/٧).

(٢) باختصار من: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٧٠٢/٢ - ٧٠٤).

ولابن حجر سيرة عطرة وحافلة في ختم الكتب، وأمهات السنة. وقد ذكر تلميذه السخي السخاوي في الجواهر والدرر (٢٨/١) جملة وافرة. فمن ذلك ختم «الصَّحيحين» و«أبي داود» و«التِّرمذي» و«النَّسائي» و«ابن ماجه» و«البيهقيّ» و«الشِّفا» لعياض، و«سيرة ابن هشام» و«سيرة ابن سيد النَّاس» و«التَّذكرة» للقُرطبي.

(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٣٢٨/٦).

(٤) المصدر السابق (١٢٠/٦) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣٥/١٣).

٤. وُجد في تذكرة السلطان عضد الدولة البويهي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٢هـ) قوله: إذا فرغنا من «كتاب أبي علي النحوي» تصدقتُ بخمسين ألف درهم(١).

٥. عالم الرياضيات الخوارزمي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٠هـ) لما صنف «القانون المسعودي» أجازه السلطان بحِمل فيلٍ من الفضة، فردَّه إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه(٢).

٦. عالم الرياضيات الخوارزمي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٠هـ) لما صنف «القانون المسعودي» أجازه السلطان بحِمل فيلٍ من الفضة، فردَّه إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه(٣).

٧. الحافظ الجُوزيّ، الملقب بقوام السُّنة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ) لما ختم إملاء كتابه «شرح مسلم» عمل مأدُبةً وحلاوةً كثيرةً(٤).

٨. العالِم الوزير ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) أنفق على كتابه «الإفصاح» مئةً وثلاثة عشر ألف دينار (١١٣٠٠٠) واجتمع الخلق العظيم؛ لأجل سماعه عليه(٥).

٩. النحوي ابن الخشاب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ) شرح «مقدمة الوزير ابن هبيرة في النحو» في أربع مجلدات، فوصله عليها بألف دينار(٦).

١٠. عز الدين ابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٠هـ) لما جمع كتابه «الكامل في التاريخ» أجازه عليه السلطان، وأحسن إليه(٧).

١١. جمال الدين الذُّهيبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٦هـ) خُتم عليه كتاب «التنبيه»، فأولَم وليمة كبيرة، وذبح كبشين، وأطعم جماعة كثيرة(٨).

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٤/٢٩٣).
(٢) معجم الأدباء (٥/٢٣٣١).
(٣) المصدر السابق (٥/٢٣٣١).
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٦/٣٦٨).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/١١٥).
(٦) المصدر السابق (٢/٢٥٠).
(٧) البداية والنهاية ط هجر (١٧/٣٨٣).
(٨) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٤/٢٣٣).

١٢. الفيروزآبادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ) أهدى للخليفة الأشرف كتابه: «الإصعاد إلى رتبة الاجتهاد» في أربعة أسفار، وأهداه له على أطباق، فملأها له دراهم(١).

١٣. ابن المهاجر الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ) يعطي قراء «صحيح البخاري» يوم ختمه عطايا(٢).

١٤. محمد بن عبد الدائم البِرماوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٠هـ) كان يشرح للطلبة في كل سنة مختصرًا من المختصرات، فيأتي على آخره، ويعمل له وليمة، فكان يُقرئ في جمادى ورجب وشعبان «الحاوي» في سَنَة، و«التنبيه» في سَنَة، و«المنهاج» في سَنَة(٣).

وهذا الأسلوب من البِرماوي أشبه ما يكون بأسلوب الدورات العلمية المكثفة في زماننا. إذًا فهذه الدورات قديمة وليست جديدة!

١٥. فاطمة بنت ابن حجر -رحمها الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) كان يُقرأ لها «البخاري» في رجب وشعبان من كلِّ سنةٍ، وتحتفل يوم الختم بأنواع من الحلوى والفاكهة، ويُهرَعُ الكبار والصغار لحضور هذا اليوم، وهو قُبَيْل رمضان، بين يدي أبيها ابن حجر(٤).

١٦. البدر بن الكمال بن الجمال -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٩٢هـ) ختم حِفظ «المنهاج في الفقه الشافعي» للنووي، فعمل إجلاسًا حافلًا بالأزهر، حضره الأكابر والمدرسون.. ثم استمر يقسم كل سنة، ويحضر في ختومه الأكابر، ويفيض على القراء الخِلَع، ويُجيز الشعراء والوعاظ(٥).

١٧. وأما الحافظ السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) فإن له ولائم معتادة عند مجالس الختم، والانتهاء من تدريس الكتب؛ يدعو إليها الأمراء والعلماء، وعِلْية القوم، وفقراءَهم، وتنشد فيها القصائد.

---

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٣/٥٠).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/١٠٦).
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/٤١٤).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/١٢١١).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٠/٣١).

يقول السّخاوي: قرئ عليَّ الكتب الستة، ومؤلفاتي.. وكان لكثير من ذلك خُتوم حافلة(١).

١٨. الأمير الصالح الفخان الحبشي -رحمه الله تعالى- خُتم عنده في عام (٩٧٤هـ) «صحيح البخاري»، وعمِل لختمه ضيافة عظيمة(٢).

١٩. أبو الضياء الغيثي المقصري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٥هـ) يُقرأ عليه «صحيح البخاري» في شهر رجب وشعبان ورمضان، بحضرة الجم الغفير من العلماء والطلبة، ويكون ختم هذا الدرس صبح اليوم التاسع والعشرين من رمضان، ويحضر الختمَ جمعٌ عظيم من الخاص والعام، وأمير البلد، وقضاة الشرع(٣).

٢٠. بدر الدين الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٤هـ) كان إذا ختم كتابًا تدريسًا، أو تصنيفًا، أوْلَمَ وجعل ختمًا حافلًا، ودعا أكابر الناس، وفقراءهم، وأضافهم، وأحسن إلى الطلبة(٤).

٢١. الشيخ خضر بن عطاء الله الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٠٧هـ) ألَّف كتابه «الإسعاف بشرح أبيات القاضي والكشاف» فأجازه الأمير عليه من المال ألف دينار(٥).

٢٢. السلطان الأندلسي المنصور -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٢هـ) كانت سيرته في شهر رمضان ختم قراءة «صحيح البخاري» مع القاضي وأعيان الفقهاء، مُجَزَّأة على خمسة وثلاثين سِفرًا، في كل يوم سِفرٌ إلا يوم العيد وتاليه، فإذا كان يوم سابع العيد ختم فيه «البخاري»، وتهيأ له السلطان أحسن تهيؤ.. ولا يزالون في المذاكرة، فإذا تعالَى النهار ختم المجلس(٦).

---

(١) وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام للسخاوي (١٠٢٩/٣).
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٦٨).
(٣) المصدر السابق (ص: ٢٧٣).
(٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٥/٣).
(٥) سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر (ص: ٢٢٢).
(٦) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١٤٥/٥).

٢٣. الشيخ أحمد المَقَّرِيُّ التلمسانيُّ -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤١هـ) صاحب «نفح الطيب» أملى «صحيح البخاري»، وحضره غالب أعيان دمشق من العلماء، وأما الطلبة، فلم يتخلف منهم أحد، وكان يوم ختمه حافلًا جدًا، اجتمع فيه الألوف من الناس، وعلت الأصوات بالبكاء(١).

٢٤. عبد القيوم بن عبد الحميد الْمعَافى -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٢هـ) لما ختم القرَاءَات، وحفظ متون علمية، عمل والده وَلِيمَة، ولكنْ لهذه الوليمة المفرحة نهاية محزنة! وهي أن الأب أركب ولده على حصان لزفافه، ليدور به على الحضور، فسقط، ومات من حينه!(٢)

٢٥. مرتضى الزبيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٥هـ) مكث أربع عشرة سنة؛ لإتمام كتابه القاموس اللغوي «تاج العروس» في أربعة عشر مجلدًا، فأوْلَمَ وليمة حافلة، جمع فيها طلاب العلم وأشياخ الوقت، وكتبوا عليه تقاريظهم(٣).

٢٦. الفقيه المقرئ بوسلهام بن علي بن المؤذن الخلطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٦٥هـ) كان من الملازمين للسلطان آنذاك، وكان يأمره بالقراءة بحرف حمزة، وهو منصِت له، وكلما ختم ختمة يجمع الأساتذة، ويهيئ لهم أنواع الأطعمة الفاخرة(٤).

٢٧. قيلت قصيدة طويلة لما خُتم كتاب الشنشوري على «الرحبية في الفرائض»، وشارحه الشيخ محمد الطاهر النيفر (ت ١٣١١هـ)(٥).

٢٨. قال العلامة صديق حسن القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ): ولما وقفتُ على هذه الحكاية [وليمة فتح الباري]، عملتُ وليمةً عظيمة على تفسيري «فتح

---

(١) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٣١٦).
(٢) انظر: الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١١٤/٢).
(٣) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي (١٠٥/٢) والإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١١٠٩/٧).
(٤) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٩٧/٢).
(٥) مسامرات الظريف بحسن التعريف (ص: ٤١٥).

البيان في مقاصد القرآن» عندما ختم، وجمعتُ علماء البلد وطلبته، وحضرتِ الرئيسةُ المعظمة تاج الهند صاحبةُ القران الثاني، وفَرَّقتْ على الجماعة الحاضرة مبالغ من الفضة كثيرة، بلغت خمسًا وعشرين ألف رُبِّية.. وإنما عملتُ هذا كلَّه تشبُّهًا بالأئمة الكبار[١].

٢٩. «مختصر خليل» ختم شرحه الشيخ أحمد بن سودة -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢١هـ)، وكان يومًا مشهودًا بفاس[٢].

٣٠. الشيخ خليل السهارنفوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) تحققت أمنيته الكبرى، التي غَذَّاها بدم قلبه، فتم كتابه «بذل المجهود في حل سنن أبي داود» وقد كانت مدة تأليفه عشر سنوات وزيادة، فكان له يوم عيد، بل ما جاء عليه يومٌ هو أكثر فرحًا وسرورًا فيه منه، فعين يومًا [الجمعة ٢٣ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ] لضيافة علماء المدينة وأحِبَّته وأصدقائه، شكرًا لله تعالى وإبداءً لسروره وفرحه، وصنع طعاما كثيرًا على طريقة أهل الحجاز، وأخبر تلاميذه وأحبته في الهند بهذا الموعد المبارك؛ ليشاركوه في السرور والشكر[٣].

٣١. محمد بن عبد السلام الحلو -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) من أكبر تجار المغرب. نسخ بخطه الجميل الكتب الستة، ونسخ خمسين مصحفًا كريمًا. وعندما أتم ذلك جعل وليمة، أظهر فيها كرمه؛ فرحًا لما حصل عليه من نسخ ذلك، ورجاء ثواب الآخرة[٤].

٣٢. ذُكر عن الشيخ عطية محمد سالم -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) أنه لما أنهى «شرح موطأ مالك»، أقام لتلاميذه وليمة كبيرة في مزرعته بالمدينة؛ احتفالًا وشكرًا لله.[٥]

---

(١) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٣٥٦).
(٢) إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع (٢٤٨/١).
(٣) بذل المجهود في حل سنن أبي داود (٤١/١).
(٤) إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع (٥٤٣/٢).
(٥) الشيخ محمد عطية سالم هو أكبر تلاميذ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمهما الله تعالى-.

٣٣. وكذا الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد -حفظه الله تعالى- لما أنهى شرحه للكتب الستة في المسجد النبوي، أقام وليمة لطلابه.

• ومما يدخل في محور الحفلات، ويدور في فَلَكها: رصد الجوائز للحافظين للمتون، أو أمهات الكتب، أو مؤلفي كتب مميزة:

٣٤. الإمام الشافعي-رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) أُسْلِمَ إلى الكُتّاب في طفولته، فجعل يتعلم، فإذا فرغ من درسه علَّم صبيان الكتاب، فنظر المعلم، فإذا ما يكفيه من أمر الصبيان وينفعه أكثر من أجرته، فلم يأخذ من أمه أجرًا. فلم يزل على ذلك حتى حَذقَ[١].

٣٥. لما عمل الفقيه الأديب أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٤هـ) كتابه «غريب الحديث»، وعرضه على الأمير ابن طاهر، فاستحسنه، وقال: إنَّ عقلًا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب، لحَقيق ألا يُحَوج إلى طلب المعاش. فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر[٢].

٣٦. قاضي دمشق أبو زرعة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٢هـ) كان يهَب لمن يحفظ «مختصر المزني» مئة دينار[٣].

٣٧. كان الخليفة الأندلسي المستنصر -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ) يقول للعلماء: مَن ضَمِن لي أن يؤلف كتابًا أعفيته من الغزاة. حتى إنه قال لأحد علماء عصره: إن شاء أن يكون تأليفه له في منزله فذلك إليه، وإن شاء في دار الملك، المطلة على النهر فذلك له[٤].

٣٨. الفقيه الفرضي إسحاق الصروفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٠هـ) لما صنّف كتابه «الكافي في الفرائض» وظهر في بعض البلاد الشاسعة ابتاعوه بوزنه فضة[٥].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٩٤/١). وهذه الطريقة لا زال يمارسها معلمو القرآن خاصة، مع الحاذقين والمتقدمين بالحفظ.

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٦/٣).

(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٠٣/٢٣) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٣٩).

(٤) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (ص: ٢٥٣).

(٥) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١٢٧/٣).

٣٩. أمير دولة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ) أمر بجمع الحديث من المصنفات العشرة: «الصحيحين، والترمذي، والموطأ، وأبي داود، والنسائي، والبزار، وابن شيبة، وسنن الدارقطني، والبيهقي». فكان يُمْلِيه بنفسه على الناس، ويأخذهم بحفظه. وانتشر هذا المجموع فى بلاد المغرب، وحَفِظَه العوام والخواص. وكان يجعل لمَن حَفِظه الجوائز السَّنية(١).

٤٠. ابن الحداد الحنبلي الناسخ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٣هـ) سأله أحد الوزراء عن مسألة، فكتب له جوابًا شافيًا، فصار يُجري له راتبًا بسببها، وصارت أم الخليفة تتفقده بأنواع الأطعمة والحلواء(٢).

٤١. ابن خروف الأندلسي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٩هـ) شرح «سيبويه»، فأعطاه الأمير ألف دينار(٣).

٤٢. الملك الأيوبي الفقيه النحوي شرف الدين عيسى -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٤هـ) جعل - كما مر - لِمَن يحفظ «المفصل» للزمخشري مئة دينار، ولمن يحفظ «الجامع الكبير» مئتي دينار، ولمن يحفظ «الإيضاح» ثلاثين دينارًا، فحفظ الكتابَين جماعة، ووفَى لهم بما شَرَط(٤). قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٠هـ): ونَفَقَ العلم في سُوقه، وقصَده العلماء من الآفاق، فأكرمهم، وأجرى عليهم الجِرايات الوافرة(٥).

٤٣. قال المؤرخ ابن العديم -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ): قال لي والدي: احفظ «اللُّمَع» حتى أعطيك كذا وكذا. فحفظتُه. ثم قال لي: احفظ «القدُّوري» حتى أهبَ لك كذا وكذا- لدراهم كثيرة أيضًا. فحفظتُه في مدة يسيرة(٦)

٤٤. صنَّف أبو الخطاب بن دحية -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٣هـ) مجلدًا في المولد

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٢٠٣) ونهاية الأرب في فنون الأدب (٣٢١/٢٤).
(٢) لسان الميزان لابن حجر (٣١٠/٤).
(٣) البداية والنهاية ط هجر (٧/١٧).
(٤) الدارس في تاريخ المدارس (٤٤٨/١) وتاج التراجم لابن قطلوبغا (ص: ٢٢٥).
(٥) الكامل في التاريخ (٤٢٥/١٠) ومرآة الزمان (٢١٠/٢٢).
(٦) معجم الأدباء (٢٠٨٥/٥). وكتاب اللمع متن في العربية لابن جني (المتوفى: ٣٩٢هـ). ومختصر القدوري متن في الفقه الحنفي.

النبوي، سماه «التنوير في مولد السراج المنير» وأهداه لأحد الأمراء، فأجازه على ذلك بألف دينار(١).

٤٥. المؤرخ ابن الساعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) له تآليف، وكان يَحصل له من الدولة ذهب جيد، على عمل هذه التَوَاليف. وله كتاب «غزَل الظِّراف» في مجلدين، أجيزَ عليه بمئتَي دينار، وكتاب «نزهة الأبصار في أخبار ابني المستعصم الشهيد» بمئة دينار. وقد أُنفق على الكتابين أموال ومآكل وملابس ومدائح(٢).

٤٦. السلطان ابن طغلق شاه -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٢هـ) يحضر مجلسَه الفقهاء؛ للمناظرة بين يديه، ويُجيز الجوائز السنية(٣).

٤٧. جمال الدّين الحُثيِّثي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٢هـ) صنّف «شرح التّنبيه» في أربعة وعشرين سِفرًا، فأثابه الملك الأشرف على إهدائه إليه أربعة وعشرين ألف دينار(٤).

٤٨. ابن الغزي الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٥هـ) صاحب «التفسير المنظوم» في مئتي ألف بيت وزيادة، واختصره أيضًا نظمًا، وقدمه إلى السلطان العثماني سليمان بن سليم، فقابله بالإجلال والقبول، وعرضه على العلماء؛ ليراجعوه. فتأملوه حرفًا حرفًا، فقضَوا من ذلك العجب، وأخبروا السلطان، فأعظَمَ جائزته بمال عظيم(٥).

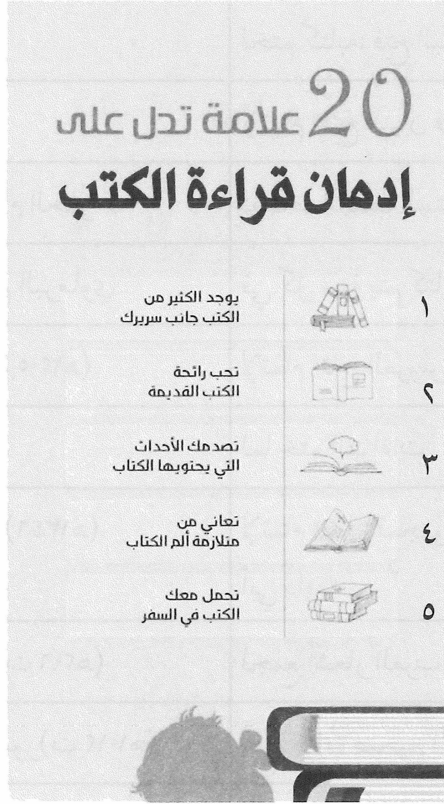
٤٩. المؤرخ جميل المدوَّر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٤هـ) في كتابه «حضارة الإسلام في دار السلام» كافأه عليه حينئذ السلطان عبد الحميد بجائزة مالية؛ تنشيطًا له على خدمة العلم. وأثنى أحد الأدباء على الكتاب ثناء عاطرًا، فقال فيه إنه: كتابٌ لو وُزِن بالدُّرَر لرجَحها!(٦).

---

(١) البداية والنهاية ط هجر (٢٠٥/١٧ و٢٢٥).
(٢) الوافي بالوفيات للصفدي (١٥٩/٢٠) وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٧٣/٤).
(٣) أعيان العصر وأعوان النصر (٤٨٤/٤).
(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٥٥/٨).
(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢٥٢/٢).
(٦) مجلة الرسالة (٢٧/٤٣٦).

٥٠. ابن سعدي -رحمه الله تعالى-(ت ١٣٧٦هـ) جعل لمن يحفظ «بلوغ المرام» مئة ريال سعودي(١).

هذه خمسون سيرة للجوائز، والبذل للتلذذ بالعلم. وأما أن تتولى جهة رسمية إقامة مسابقة في التأليف، ثم تكريم الفائزين؛ فهذا كثير جدًا، ومتكرر(٢).



(١) سبق ذكر القصة. وهي منقولة من مقطع مرئي في (اليوتيوب).

(٢) ومن الأمثلة على ذلك كتاب: الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٧هـ) فقد فاز بجائزة المركز الأول، لمسابقة السيرة النبوية، التي نظّمتها رابطة العالم الإسلامي عام ١٣٩٩ هـ وقد أقامت بمقرها بمكة حفلًا كبيرًا آنذاك.

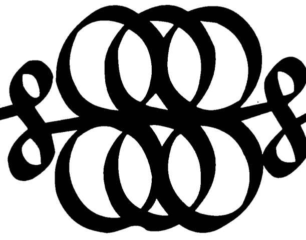
كما أقامت رابطة العالم الإسلامي مسابقة عالمية للتعريف بالإسلام عام ١٤٣٣هـ بعنوان: (هذا هو الإسلام)، وقد فاز بحث الشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد بجائزة المركز الأول، وقد أقامت الرابطة حفلًا تكريميًا، فنشرت وكالة الأنباء السعودية خبره حينئذ.

ملخص بأبرز من أقاموا حفلات أو ولائم لإنهاء كتبهم أو دروسهم

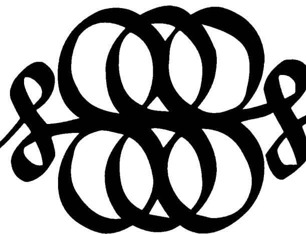
اسم العالِم	سبب الحفلة
١. ابن حجر	لختم كتابه: فتح الباري
٢. صديق حسن خان	لإتمام «فتح البيان في مقاصد القرآن»
٣. محمد بن عبد السلام الحلو	لنسخه الكتب الستة وخمسين مصحفًا
٤. محمد بن عبد الدائم البرماوي	في كل سنة يتم كتابًا ويعمل له وليمة
٥. مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)	لإتمام «تاج العروس»
٦. عبدالقيوم الْمعَافى	لما ختم القرَاءَات
٧. خليل السهارنفوري (١٣٤٦هـ)	لإتمام «بذل المجهود في حل سنن أبي داود»
٨. أبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦هـ)	لجمع أشعار العرب من ثمانين قبيلة
٩. ملك الأندلس المنصور(ت ١٠١٢هـ)	ختم قراءة صحيح البخاري في رمضان
١٠. أحمد بن سودة (ت ١٣٢١هـ)	ختم تدريس مختصر خليل
١١. البدر بن الكمال (بعد ٨٩٢هـ)	لختم حفظ المنهاج في الفقه للنووي
١٢. المَقَّرِيُّ التلمسانيُّ (ت ١٠٤١هـ)	لختم إملاء صحيح البخاري
١٣. الأمير الصالح الفخان الحبشي	لختم إملاء صحيح البخاري عام (٩٧٤هـ)

اسم العالِم	سبب الحفلة
١٤. الوزير ابن هبيرة (ت ٥٦٠هـ)	بعد الفراغ من تأليف كتابه (الإفصاح)
١٥. بدر الدين الغزي (ت ٩٨٤هـ)	كلما ختم كتابًا تدريسًا، أو تصنيفًا
١٦. أبو مسلم الكُجِّي (ت ٢٩٢هـ)	لما فرغ من قراءة كتابه السنن
١٧. قوّام السُّنة (ت ٥٣٥هـ)	ختم «شرح مسلم».
١٨. الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)	لما أهدى للخليفة: الإصعاد إلى رتبة الاجتهاد
١٩. ابن المهاجر الحلبي (ت ٨١٧هـ)	يعطي قراء صحيح البخاري كل يوم ختمته
٢٠. جمال الدين الذهيبي (ت ٧٤٦هـ)	خُتم عليه «التنبيه» فأولم وليمة كبيرة
٢١. السخاوي (ت ٩٠٢هـ)	ولائم معتادة لختم تأليف تدريس والكتب
٢٢. الشيخ عطية سالم (ت ١٤٢٠هـ)	لما أنهى شرح موطأ مالك
٢٣. عبدالمحسن العباد حفظه الله	لما أنهى شرحه للكتب الستة بالمسجد النبوي
٢٤. المقرئ بوسلهام الخلطي(١٢٦٥هـ)	كلما ختم بقراءة حمزة أولَمَ له السلطان





الباب الرابع عشر:
لذّات علمية مشترَكة بين الآباء وأولادهم،
والعلماء وطلابهم



٦٨. لذة الأبوين وفرحهم بإقبال أولادهم على العلم

كيف لا يلتذ ويفرح الوالدان بذلك الحلم الكبير، وهما يبتهلان الله منذ ولد إلى أن يشِبَّ، بل إلى أن يشيب، فتراهما يدعوان بصلاحه، وأعظم الصلاح أن يكون عالِمًا، وهذا هو تحقيق وصف عباد الرحمن، الذين: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال ابن الصلاح -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ): ولم يزالوا قديما وحديثًا، يُحضرون الصبيان مجالس التحديث والسماع.. وينبغي أن يبكّر بإسماع الصغير، في أول زمانٍ يصح فيه بسماعه(١).

ومن لطائف الأسانيد أن أحد عشر رجلًا؛ كلهم يقول في روايته: سمعت أبي يقول..سمعت أبي يقول.. وينتهي إسنادهم عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه (ت ٤٠هـ) أنه قال: هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل(٢).

إن لذة رؤية ابنك أو ابنتك طالب علم أمنية لا يشعر بها -حقًا- إلا من يعيشها.

فكيف شعور الوالدَين إذا نشأ ابنهما عالِمًا، أو مؤلفًا مكثِرًا، وقد هيؤوا له أسباب العلم؟!

وقد قال المفسرون عند قوله -تعالى-: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥-٦] قالوا: إنه سأله نسلًا يورّثه علمه لا ماله؛ فأعراض الدنيا أهون عند الأنبياء من أن يشفِقوا عليها(٣).

وقد كان علي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ) يفتخر بعِلم ابنه أحمد، ويُثني على دروسه، ويقول:

---

(١) مقدمة ابن الصلاح (ص: ١٢٨).

(٢) ذم من لا يعمل بعلمه لابن عساكر (ص: ٣٨).

(٣) الذريعة الى مكارم الشريعة (ص: ١٧٨).

دروس أحمد خير من دروس علي وذاك عند علي غاية الأملِ[١]

وقال أحد الوزراء في ولده الذي صار عالِمًا:

أرى ولدي قد زاده الله بهجة وكمّله في الخَلْق والخُلْق مُذ نَشَا

سأشكر ربّي حيث أوتيتُ مثلهُ وذلك فضل الله يؤتيه مَن يَشَا[٢]

فما ظنك لو تعيش بهجة ذلك العالِم، الذي ذريته كلهم علماء، كعبد الرحيم الكتامي المعروف بـ«ابن العجوز» -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٣هـ) فإن له عَقِبًا نجباء في العلم، بلغوا الخمسة[٣].

ولذلك كان السلف والخَلَف تتراءى لهم هذه الأمنية، فيبذِلون لأجلها أوقاتهم، وأموالهم، ومحفِّزاتهم، ويُنوِّعون في وسائلهم.

فلم يزل بي أبي مولاي ذا لطف كيما يبين لي القرآن تبيينا

ويطلب الملطفين في التعلم لي عناية منه بي حفظا وتحصينا

والله يجزي أبي عني ووالدتي ومن يعلمني بالخلد آمينا

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا[٤]

ولا تحسبن أن تلك الوسائل الحديثة، التي يسمونها بـ: «الاستراتيجيات والأساليب التربوية» إنما هي من مولَّدات هذا العصر! كلا، بل السلف سبقوا فيها زمنًا، وفنًا. وسترى الشواهد في الصفحات التالية.

وإليك خمسين موقفًا نموذجًا أبَوِيًا؛ تُجلِّي لك مقدار حَدَبِهم وفرحهم بإقبال أولادهم على العلم[٥]:

---

(١) بغية الوعاة (٣٤٣/١).

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٥٨/١٤).

(٣) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٤/٢).

(٤) معجم السفر (ص: ٣٣٣).

(٥) أما قصة فرُّوخ مع ولده الإمام ربيعة بن أبي عبد الرحمن - رحمهما الله تعالى -(ت ١٣٦هـ) فقد ذكرها الخطيب في تاريخ بغداد (٤١٤/٩). ولكن الذهبي قد كذَّبها في «تاريخ الإسلام» (٤١٩/٨) حيث قال: (حكاية مكذوبة؛ لوجوه). وذكر أربعة وجوه قوية في تكذيبها.

١. حَذِق غلام لأبي مسعود ﷺ (ت ٤٠هـ) فاشترى للصبيان جوزًا[١].

والحِذاق هو: الطعام الذي يُتخذ عند حِذق الصبي لمحفوظ، أو عند ختم القرآن[٢].

٢. قال سعد بن هشام بن عامر -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠هـ): كنت رجلًا أتتبع السلطان، فأخذني أبي فحبسني، وقيّدني، وقال لي: واللهِ لا تخرج حتى تَستظهِر كتاب الله، فاستظهرتُ كتاب الله، فنفعني الله به[٣].

٣. قدم عكرمة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥هـ) فأهدى له طاوس نجيبًا بستين دينارًا، فقيل لطاوس: ما يصنع هذا العبد بنجيب بستين دينارًا؟ قال أترَوْني لا أشتري علم ابن عباس لعبد الله بن طاوس بستين دينارًا[٤].

٤. قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ): كان الغلام إذا حذق قبل اليوم نحروا جزورًا، وصنعوا طعامًا للناس[٥]

٥. حَذِق ابنٌ لأيوب السختياني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١هـ) فجمع أيوب الصبيان، فوَضع له منبرًا، فخَطب عليه، ونهبوا الجوز، وأيوب قائم على الباب، يقول لنا: ادخلوا. وهو خاص لنا[٦].

٦. أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) حين حذِق حماد ابنه سورة (الحمد) وهبَ للمعلم خمس مئة درهم[٧].

٧. كان سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) وراءه أمٌّ صالحة، تكفلت بتربيته والإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها، ونعمت الثمرة!

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٤٦٨/٧).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٢٤١/٩) والشافي في شرح مسند الشافعي (٤١٢/٤).

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٠٧/١٠).

(٤) العلم لزهير بن حرب (ص: ٣٠).

(٥) المصدر السابق (٤٨٩/١).

(٦) المصدر السابق (٤٨٥/١) وفيه: (٥٣٠/١) أن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ) كَتَبَ ينهى المعلمين أن يحملوا الصبيان على الدواب إذا حذِقوا. ولعله خشي عليهم؛ إما الإصابة بالعين، أو السقوط على الأرض؛ لعدم مهارة الصبي للركوب.

(٧) تاريخ بغداد وذيوله (٣٥٩/١٣) وأخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ٥٨).

يصوِّر ذلك بنفسه فيقول: لما أردتُ أن أطلب العلم قالت لي أمي: يا بُنَيّ! اطلب العلم وأنا أكفيك بمِغزلي[١].

فكانت تقدم لولدها نفقة الكتب والتعلُّم؛ وكانت كثيرًا ما تتخوله بالموعظة والنصيحة، ومما قالته له ذات مرة: يا بُنيّ، إذا كتبتَ عشرة أحرف فانظرْ؛ هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك، وحلمك، ووقارك، فإن لم تَرَ ذلك فاعلم أنها تضرك، ولا تنفعك[٢].

٨. محمد بن عبد الرحمن الأوقص -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٩هـ) كان قصيرًا دميمًا، عنقه داخلٌ بين منكبيه، فقالت له أمه: يا بُني لا تكون في قوم إلا كنتَ المضحوك منه، المسخور به، فعليك بطلب العلم؛ فإنه يرفعك. قال: فنفَعَني الله بقولها، فتعلمتُ الفقه، فصرتُ قاضيًا. فكان الخصم إذا جلس بين يديه يَرْعُد حتى يقوم[٣].

٩. عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) كان أبوه تاجرًا، فجعل له إذا حفظ قصيدة فله درهم[٤]. ولما بلغ دفع إليه خمسين ألف درهم؛ يتجر بها، فطلب العلم حتى أفقدها، فلما انصرف لقيه أبوه، فقال: ما جئت به؟ فأخرج إليه الدفاتر، فقال هذه تجارتي. فدخل أبوه المنزل، فأخرج له ثلاثين ألف درهم أخرى، وقال: هذه تمِّم بها تجارتك، فأنفِقها[٥].

١٠. إسماعيل بن عُلَيَّة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٣هـ) أتت به أُمه «عُلَيَّة» إلى عبد الوارث بن سعيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٠هـ) فقالت: هذا ابني يكون معك، ويأخذ بأخلاقك. فما مضت سنوات إلا صار أعلم من شيخه عبد الوارث[٦].

١١. إسحاق بن يوسف الأزرق -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٥هـ) قالت له أمه: يا بُني! إن بالكوفة رجلًا يستخِفُّ بأصحاب الحديث [تقصد الأعمش رحمه الله] وأنت على

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣٧٠/٦) وتاريخ جرجان (ص: ٤٩٢).
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١٨٩/٣).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠٦/٥٤).
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (١٩١/١٦).
(٥) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣٨/٣).
(٦) تاريخ بغداد ت بشار (١٩٦/٧).

الحج، فأسألك بحقي عليك ألا تسمع منه شيئًا. قال إسحاق: فدخلت الكوفة، فإذا الأعمش قاعد وحده بالمسجد، فقلت: أمي أو الأعمش؟! فلما رأيت أصحاب الحديث، حمَلَني حُب العلم على أن صرت إليه. فقلت: يا أبا محمد! حدِّثني؛ فإني رجل غريب. قال: فما اسمك؟ قلت: إسحاق الأزرق. قال: فلا حُيِّيْتَ، ولا حُيِّيَتْ أمك! أليس حرَّجت عليك ألا تسمع مني شيئًا؟! وقد بلغني ذلك. قلت: ليس كل ما بلغك يكون حقًا. فقال: لأحدِّثنك بحديث ما حدثتُه أحدًا قبلك. فحدَّثَني(١).

١٢. قال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): خافت أمي عليَّ الضَيعة، فجهزتني إلى مكة، فقدِمتُها وأنا ابن عشر، فصِرُت إلى نَسيب لي، وجعلت أطلب العلم، فيقول لي: لا تَعجل بهذا، وأقبِل على ما ينفعك. فجعلت لذَّتي في هذا العلم وطلبه، حتى رزق الله منه ما رزق(٢).

١٣. قال إبراهيم بن المنذر الحزامي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٦هـ): قالت لي أمي: يا بني! قد خُلِقْتَ خِلقة لا تَصلح معها لمجامَعة الناس، ولا تكون في مجلس إلا لحظتْك العيون؛ فعليك بالدِّين؛ فإنه يرفع الخسيسة، ويتم النقيصة. قال: فنفعني الله بكلامها، الذي قالت لي منذ ذلك اليوم، فتعلمت الفقه والعلم والأدب، حتى ولِيْت القضاء(٣).

١٤. نشأ البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) يتيمًا في حَجْر أمه، لتقوم هي على تربيته أفضل تربية، بل وترحل به وهو في سن السادسة عشرة إلى مكة للحج، ثم تتركه هناك وترجع، ليرجع ويكون هو البخاري، ولتُعلِّم أمهات المسلمين -والأرامل منهن خاصة- كيف تكون تربية الأبناء!

١٥. الحافظ محمد الذُّهلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٨هـ) حدَّث عن ابنه الحافظ يحيى -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٧هـ)، وكانا قد اختلفا في مسألة، فحكَّما ابن خزيمة، فحكَم للابن على أبيه(٤).

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٣٢٤/٧) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣١٢/٨).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٨٢/٥١) وتاريخ بغداد للخطيب (٣٩٦/٢).
(٣) المجالسة وجواهر العلم (٢٧٧/٥).
(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢١٦/١٢) وسير أعلام النبلاء ط الحديث (١٧/١٠).

١٦. قال حجاج ابن الشاعر -رحمه الله تعالى-(ت ٢٥٩هـ): جمعَتْ لي أمي مئة رغيف، فجعلتُها في جِراب، وانحدرت إلى شبابة بالمدائن، فأقمتُ ببابه مئة يوم، كل يوم أجيء برغيف، فأغمسه في دجلة، فآكله، فلما نفِدَت خرجتُ(١).

١٧. أبو العباس السراج -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٣هـ) وُلد وأبوه ابن ثلاث وثمانين سنة، وكان الابن إذا دخل مسجد أبيه، يقول الأب للناس ممازحًا: عملتُ هذا بعد ثمانين سنة في ليلة!(٢).

١٨. قال حسان بن محمد القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٩هـ): قالت لي والدتي: كنتُ حاملًا بك، وكان للعباس بن حمزة مجلس، فاستأذنتُ أباك أن أحضر مجلسه في أيام العشر، فأذِن لي، فلما كان في آخر المجلس أخذ العباس يدعو، فقلت: اللَّهمّ هب لي ابنًا عالمًا، ثم رجعت إلى المنزل، فبِتُّ تلك الليلة، فرأيتُ فيما يرى النائم كأن رجلًا أتاني، فقال: أبشري! فإن الله قد استجاب دعوتك، ووهب لكِ ولدًا ذكرًا، وجعله عالمًا(٣).

١٩. قال ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) عن رعاية والده له: يَتعاقَب عليَّ هؤلاء المعلمون من صلاة الصبح إلى أذان العصر، ثم ينصرفون عني، وآخذ في الراحة إلى صبح اليوم الثاني، فلا تتركني نفسي فارغًا من مطالعة، أو مذاكرة، أو تعليق فائدة. ولقد كنت مع نضَارة الشبيبة، أحرص على طلب العلم في الآفاق..وأرى أن التمكن من ذلك في جنب ذهاب الجاه والمال، وبُعد الأهل بتغير الحال، ربحٌ في التجارة، ونُجْحٌ في المطلب.. فلم يأتِ عليَّ ابتداء الأشُد في العام السادس عشر، إلا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحوًا من عشرة(٤).

٢٠. شمس الأئمة الحَلْواني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) كان والده فقيرًا يبيع الحلواء، وكان الأب يعطي الفقهاء من الحلواء، ويقول: ادعوا لابني(٥).

---

(١) تاريخ بغداد (١٤٦/٩) وطبقات الحنابلة (١٤٨/١).
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٥٣/١٣).
(٣) المصدر السابق (١٢٨/١٤).
(٤) قانون التأويل (ص: ٤١٦ و٤١٩ و٤٢٠).
(٥) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ٩٦).

٢١. كان فتىً من أهل خراسان، يَدرس على أبي إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) وكان أبو الفتى يوجّه إليه في كل سنة مع الحاج قدر نفقة السنة(١).

٢٢. عبد الواحد الشيرازي المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٦هـ) له كتاب «الجواهر في التفسير» وهو ثلاثون مجلدة. وكانت بنته أم ابن نجا الواعظ تَحفظه(٢).

٢٣. أبو البركات ابن دوست دادا -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤١هـ) قال: كنت صبيًا صغيرًا، فسمعت بعض الصبيان يقول: طاب نبيذ الدّقل، فحكيته لوالدي بالليل، فقال لي: يا بني لا تقل هذا، بل قل: طاب طريق الطلب(٣).

٢٤. ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) كان لهُ ابنٌ بارٌّ؛ وهو المُحَدّث القاسمُ بهاء الدين؛ ومن إحسانه لأبيه أنه بيّضَ لهُ بخطِّ يمينه «تاريخ دمشق»؛ وضبط ما فيه من المشكل؛ وقد حلف أبوه عليه أنه لايكلمه حتى يكتب «تاريخ دمشق»، فكتبه. ولذلك كان ابن عساكر يُثني على ابنه بهذا الصنيع؛ ويقول: [جزاه الله عني خيرًا، فلولاه ما تم التاريخ](٤).

٢٥. الفقيه ابن أبي الحجر الحراني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٠هـ) كان إذا غاب ولده عن الدرس -يومًا- لا يعطيه خبزه، ويقول: هو كالمستأجِر(٥).

٢٦. النحوي ابن برّي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٢هـ) أنشدوا عليه البيت التالي:

تكادُ يدي تَنْدَى إذا ما لمستُها ... ويَنبُت في أطرافها الـوَرَق الخُضْرُ

فتبسّم. فسئل عن سبب تبسّمه، فقال: هذا البيت كان سبب اشتغالي بالنحو، واختصاصي به، وذلك أنّ والدي كان يجلس إليه وجوه الفضلاء، فأنشد أبي هذا البيت

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٤/٣٤٥).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (١/١٦١).
(٣) بغية الطلب فى تاريخ حلب (٤/١٦٢٦).
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/٤١١) ومن الفوائد: أنه لما عمل كتاب (الجهاد) سمعه منه كله السلطان صلاح الدين سنة (٥٧٦ هـ). قال: فدعوتُ في أوله وآخره بفتح بيت المقدس، فاستجاب الله ذلك، وله الحمد، وفتح بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ) وأنا حاضر فتحه.
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٨٨).

وقال فيه: الورِق الخضر! بكسر الراء، فضحكوا منه، وانصرفوا وأبي خَجْلان. وجئته وهو على تلك الحال من الانقباض والخجل، فسألتُه عن خبره، فأخبرني بالقصّة.

قال ابن برّي: فوجدتُ في نفسي نشاطًا وقوّة، وحدث لي في الحال محبّة العلم، فقلت: أيّ العلوم تؤثر أن أشتغل به؟ فقال: يا بُنيّ، أوّل ما أريد أن تشتغل به النحو، وفائدتي فيه أنّك تتعلّمُه وتعلّمَنيه؛ فقد استحييتُ مما جرى عليّ اليوم[١].

٢٧. قال النحوي ابن المأمون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٦هـ): وكان والِدي يؤثِرني من دون إخواني؛ لما يراه من اشتغالي بالعلم[٢].

٢٨. ابن الحاج الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٥هـ) كان في أول طلبه ألزمه أبوه موضعًا من داره، وبناه عليه، ولم يترك منه إلا موضع يدخل منه الطعام والشراب إليه، وأقسم ألا يُخرجه منه حتى يستظهر كتاب «حيلة البرء» لجالينوس، فلم يمر عليه إلا أمد قليل، حتى فرغ من حفظه، وشفَعه بـ«تشريح جالينوس الكبير». وقد حفظ قبله «البخاري» إسنادًا ومتنًا[٣].

٢٩. ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) طلب علم القراءات وهو في عشر الثمانين، مع ابنه الصغير يوسف! ولم يكن كِبَرُ عُمُره، وسبق رسوخه في العلم، حائلًا بينه وبين طلب العلم[٤].

٣٠. الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) كان له ولد اسمه محمد، وكان يحبه كثيرًا، وأكثر تصانيفه صنفها لأجله، وقد مات محمد في عنفوان شبابه[٥].

٣١. قال المؤرخ ابن العديم -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ): كان والدي -رحمه الله- بارًا بي، لم يكن يلْتَذّ بشيء من الدنيا التذاذه بالنظر في مصالحي. ولقد قال له رجل

---

(١) المقفى الكبير (٤/٢٥١).

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي(١/٤٤٩).

(٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤/٤٣٥).

(٤) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ٣٢٨).

(٥) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ١٠٠).

يومًا: أراكه الله قاضيًا، كما كان آباؤه. فقال: ما أريد له ذلك، ولكني أشتهيته أن يكون مدرّسًا. فبلّغه الله ذلك[١].

٣٢. ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٢هـ) كان والده متوجهًا إلى مكة للحج في البحر، فوُلِد له بقرب ينبع، ثم أخذه والده على يده، وطاف به بالكعبة، وجعل يدعو الله أن يجعله عالمًا عاملًا. قال الأب: دعوت فاستجيب لي[٢].

٣٣. أبو الوليد ابن خلف التُّجِيبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٨هـ) كتب بيده نحوًا من مئة مجلد؛ إعانة لولديه على اشتغالهما بالعلم[٣].

٣٤. أم الحسن ابنة الإمام علم الدين البرزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣١هـ). عدد الشيوخ الذين سمعَتْ منهم مئة وخمس وثمانون نفسًا. كتبتْ كتاب «الأحكام» لابن تيمية، و«صحيح البخاري»، وكملت «البخاري» قبل موتها بأيام قليلة. وقد كتبتْه في ثلاثة عشر مجلدًا، فقابله لها، حتى صارت نسختُها أصلًا معتمدًا، يكتب منها الناس.

قال أبوها: وإذا رأيتها تصلي أفرح وأقول: أرجو الله أن ينفعني بها؛ فإنها كانت تصلي صلاة مكملة، وتجتهد في الدعاء.. وانتفعتُ بها في الدنيا، وأرجو أن ينفعني الله بها في الآخرة[٤].

٣٥. عبد الله ابن الإمام ابن قيم الجوزية -رحمهما الله- (ت ٧٥٦هـ) اعتنى به أبوه، فجعله يصلي إمامًا وعمره سبع! وكان مفرط الذكاء، حفظ سورة الأعراف في يومين![٥].

٣٦. ابن عرفة المالكي التونسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) كان والده يدعو له في صباه آخر الليل كل ليلة. ولذا يقول ابن عرفة ممتنًا:

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي(٢٠٨٥/٥).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢١٠/٩) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٧٥).

(٣) البداية والنهاية ط هجر (١٨٧/١٨).

(٤) أعيان العصر وأعوان النصر (٣٠/٤) والبداية والنهاية ط هجر (٤١٣/١٨).

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٧١/٣).

وكانــت حياتي بلطف جميل لسبقِ دعـــاءِ أبــي فــي الــمـقـــام[١]

٣٧. قال شيخ الإقراء ابن الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) سلمى ابنتي.. حفظَتِ القرآن، وعرضته حفظًا بالقراءات العشر.. وهي في ازدياد -إن شاء الله تعالى- وقرأت بنفسها الحديث، وسمعت مني وعليّ كثيرًا، بحيث صار لها فيه أهلية وافرة، فالله يسعدها، ويوفقها لخير في الدنيا والآخرة[٢].

٣٨. وأيضًا- ابن الجزري يقول عن كتابه الحافل «غاية النهاية في طبقات القراء»: سمع أكثرَه من لفظِي ابني أبو الخير محمد، وابني أبو بكر أحمد، وأبو الفتح محمد.. وأجزتُ لأولادي: فاطمة وعائشة روايته عني، وكذلك أجزتُ لفاطمة وزينب، بنتي ابني أبي الفتح..وكتبه ابن الجزري[٣]

٣٩. تحدث ابن الوَزِير -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) عن تنشئة والديه له، فقال: ولم أزَلْ منذ عَرفتُ شمالي من يميني، مشمِّرًا في طلب معرفة ديني، أنتقِل في رتبة الشيوخ من قدوة إلى قدوة، وأتوقَّل[٤] في مدارس العلم من ربوة إلى ربوة، ولم يزل يَراعي بلطائف الفوائد نَواطِف، وبَناني لِلُطْفِ المعارف قَواطف[٥].

٤٠. ابن معطي العَبْدوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٩هـ) حفظ «مختصر مسلم» للقرطبي، في كل خميس خمسة أحاديث، وكان أبوه يعطيه عليها دراهم[٦].

٤١. ابن المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٧هـ) عُرف بفرط الذكاء، بحيث أنه كان يحفظ في كل يوم مئة سطر، وأما «البردة» و«بانت سعاد» فحفظهما في ثلاثة أيام، وأعطاه والده لذلك جوائز ذهبًا[٧].

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٧٠).
(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (١/١٣٦) وقد مرت سيرة سلمى عرَضًا.
(٣) المصدر السابق (٢/٤٠٩).
(٤) أي: أتنقَّل.
(٥) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ﷺ (١/٦).
(٦) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٢٣٢).
(٧) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥/١٦٩).

٤٢. ابن عطيف اليماني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٦هـ) قرأ على أبيه «الكافي» للصردفي نحو ثمانين مرة[١].

٤٣. قال الشيخ عبد الله العيدروس -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٧هـ): كنت كثير الدعاء في سجودي، أن يرزقني الله ولدًا عالمًا سُنيًا، وأرجو أن يكون هو الحسين ابني[٢].

٤٤. أبو الوفاء ابن خليفة الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٨هـ) حمله والده على طلب العلم، واشترى له نفائس الكتب، فلزم كثيرًا من العلماء[٣].

٤٥. الشيخ مصطفى الزرقا -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) لما بلغ من العلم والتفقه مبلغًا حسنًا، تعلق به قلب والده الشيخ أحمد للمدارسة كثيرًا، حتى إنه قد يأمره أن ينام بقربه في الليل، ويطلب من والدته أن تنام في غرفة أخرى؛ ليتسنّى له مذاكرته في دقائق المسائل الفقهية. وبهذا زقّه الفقه والعلم زقًّا.

٤٦. ذكر الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) أنه لم يكن راغبًا في دراسة العلوم الشرعية في الأزهر، ولكن والده هو الذي دفعه، فقرر الشيخ أن يجبره على العدول عن هذا الرأي، فذهب إلى مكتبة تبيع الكتب، واشترى جملة كبيرة مما يخص كبار طلاب العلم، فأخبره صاحب المكتبة أن هذه الكتب لا تناسبه الآن، ولكنه لم يَعبأ بكلامه، واتصل على والده؛ ليَحضُر من قريتهم للقاهرة، فيدفع ثمن هذه الكتب، لعله إن رأى قيمتها المرتفعة أن يتركه لما يريد، فحضر الوالد؛ تلبية لطلب ابنه، وكانت المفاجأة أن الأب دفع الثمن، ولم يُظهر اعتراضًا أو ممانعة! ثم لما أراد الرجوع إلى قريته همس في أذن ابنه قائلًا: يا بني! لا تظن أن والدك مغفل! ثم ركب القطار راجعًا، وترك ابنه في حيرة من أمره.

فكان موقفه هذا مع أبيه نقطة التحول في حياته، فقرر أن يَلْتهم هذه الكتب الْتهامًا، قراءة وبحثًا ومراجعة، وأقبل على دراسته بنهَم؛ ليحقق أمنية أبيه فيه.

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦/٤).
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٨٩).
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٣٩٣).

وحين بدأت الإجازة عاد إلى قريته، فدعا والده قضاة ومشايخ البلد إلى بيته، فأخبرهم والد الشيخ، أنه اشترى لابنه جملة من الكتب الشرعية المتخصصة، فصاروا يسألون الابن بعض الأسئلة عن محتوى هذه الكتب، فأجابهم بما أدهَشَهم وأدهَش أباه. ثم سلك الشيخ مجال التفسير، حتى صار عَلَمًا من أعلامه(١).

٤٧. كان الآباء يهيئون أولادهم الأطفال، للرحلة في طلب العلم مع الأبناء، وكان ذلك النمط من التربية العلمية جادَّة مطروقة، يُرضِعونهم لَبان العلم منذ نعومة أظفارهم:

• علّامة الأندلس الحميدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) رحل به والده طفلًا على كتفه؛ لسماع الحديث(٢).

• أبو سعد السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ): حملني والدي -رحمه الله- إلى نيسابور، وكان يُحضرني وأخي مجلسه عِنده، وسمعنا منه الكثير، وكنت ابن ثلاث سنين ونصف، وكان بيني وبين أخي عشرون شهرًا(٣).

• اللغوي النحوي القارئ أبو اليمن الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) رحل به والده ليحفظ القرآن، فختمه وله تسع سنين، وقرأ بالروايات وله عشر سنين(٤).

٤٨. بل كانوا يشتركون مع أبنائهم في الخروج لطلب العلم، ابتداءً من الصحابة، حيث يَصحبون معهم أولادهم للنبي ﷺ فيتعلم الأب والابن معًا من الهدي والوحي. والتابعون ينطلقون بأولادهم لمن بقي من الصحابة، وهكذا وإليك جِلّة من جملة أمثلة:

أ- فهذا ابن عمر يَحضر مع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ويسمعون سؤال الإثارة من رسول الله ﷺ حين قال: **أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم...** فعرف ابن عمر لوحده الجواب، لكنه لم يُجِبْ حياءً. قال ابن عمر: فلما خرجتُ مع أبي قلتُ: يا أبتاه، وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تقولها، لو كنتَ قلتَها كان أحبَّ إليَّ من كذا وكذا(٥).

---

(١) من مقطع مرئي للشيخ نفسه، وهو موجود في الـ(يوتيوب).
(٢) نفح الطيب للمِقَّري (١١٣/٢).
(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٠٩٢).
(٤) بغية الطلب فى تاريخ حلب (٤٠٠٢/٩).
(٥) صحيح البخاري (٦١٤٤).

ب- عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصّامت ﷺ قال: خرجتُ أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيّ من الأنصار، قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبو اليسر، صاحب النبي ﷺ[١].

وفي حديث آخر قال: خرجتُ أنا وأبي، نطلب العلم حتى أتينا جابر بن عبد الله في مسجده[٢].

ج- قال أبو المنهال -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٩هـ): دخلتُ أنا وأبي على أبي برزة الأسلمي ﷺ..فجلسنا إليه، فأنشأ أبي يستطعمه الحديث، فقال له أبي: كيف كان رسول الله ﷺ يصلي المكتوبة؟[٣].

د- الصحابي أبو رمثة ﷺ قال: انطلقتُ مع أبي نحو النبي ﷺ ثم إن رسول الله ﷺ قال لأبي: **ابنك هذا؟** قال: إيْ وربِّ الكعبة، قال: **حقًّا؟** قال: أشهد به، قال: فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا مِن ثَبْت شبهي في أبي، ومِن حلف أبي علَيَّ[٤].

هـ- عن عبد الله بن عبيد بن عمير -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣هـ) قال: كنتُ مع أبي في زمان ابن الزبير، إلى جنب عبد الله بن عمر ﷺ فقال: عباد بن عبد الله بن الزبير: إنا سمعنا أنه يُبدأ بالعَشاء قبل الصلاة، فقال ابن عمر: ويحك! ما كان عشاؤهم؟! أتراه كان مثل عشاء أبيك؟![٥].

و- عن ابن معقل -رحمه الله تعالى- قال: دخلتُ مع أبي علَى عبد الله، فسمعته يقول:.. الحديث[٦].

ز- علي بن أحمد السعدي ابن البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٠هـ) خُرِّج له

---

(١) صحيح مسلم (٣٠٠٦).
(٢) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/١٧٧).
(٣) صحيح البخاري (٥٤٧) و(٧١١٢).
(٤) سنن أبي داود (٤٤٩٥) وقال الألباني: صحيح.
(٥) سنن أبي داود (٣٧٥٩) وحسنه الألباني.
(٦) سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط (٤٢٥٢).

مشيخة بمصر، فجُمع لها صبيان كثير، وانتُدب لقراءتها في ثلاثة مجالس، واجتمع لها في المجلس الأخير ألف نفَر أو أكثر، ولم يُعهد في هذه الأزمان مثل ذلك[١].

٤٩. كان العالِم يحرص على مصاحبة ابنه في رَوحاته وجَيئاته، وسفراته، وزياراته:

أ- عن الحسين بن علي رضي الله عنهما (ت ٦١هـ) قال: أفضتُ مع أبي من المزدلفة، فلم أزل أسمعه يلبي..[٢].

ب- قال المنذر بن جرير البجلي -رحمه الله تعالى-:كنتُ مع أبي فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:..إلخ[٣].

ج- قال إبراهيم التيمي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢هـ): كنتُ أنا وأبي نجلس في الطريق، فيَعرِض علَيَّ القرآن وأعرِض عليه..[٤].

د- قال شبَّة بن عقال -رحمه الله تعالى- (بعد ١٣٦هـ): كنتُ رديف أبي، فلقيَه الشاعر الشهير جرير، فحيَّاه أبي وسلَّم عليه، وسأله عن حاله وألطفَه، فلما مضى؛ قلت له: يا أبتِ! تَفعل به مثل هذا وقد هجَاك؟! فقال لي: يا بني! أفأوسِّع جُرحي؟![٥]

هـ- عن سهيل بن أبي صالح -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠هـ) قال: خرجتُ مع أبي إلى الشام..[٦].

و- وابن أبي حاتم أكثر ما حصَّله من العلم؛ إنما هو من ملازمة أبيه، وكذا عبد الله بن الإمام أحمد، في آخرين يَطول سَرْدُهم -رحمهم الله تعالى-.

٥٠. من جَنة الدنيا المعجَّلة، والنعمة السابغة المجلَّلة: أن تكون أُسرتك أسرة علمية، أو أن تنال العلم أبًا عن جد. والأمثلة كثيرة على هذه الأسر العلمية؛ منها:

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢٤١/٤).
(٢) مسند أحمد ت شاكر (٩١٥).
(٣) السنن الكبرى للنسائي (٥٧٦٨) قال الألباني: صحيح لغيره.
(٤) صحيح ابن خزيمة (١٢٩٠).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١١٤/٧٣) والمجالسة وجواهر العلم (٤٨١/٣).
(٦) سنن أبي داود ت الأرنؤوط (٥٢٠٥).

• عمرو بن شعيب يروي عن أبيه، وأبوه عن جده[١].

• (بنو مَنْدَة) فإنهم أعلام الحُفَّاظ في الدنيا لعقود متتالية. فهذا أبو عبد الله بن مَنْدَة -رحمه الله تعالى- (ت ٥١١هـ) روى عن أبيه عن جده، وروى عنه أولاده، وعن أولاده أحفاده، واتصلت رواية بعضهم عن بعض، ولم يتفق مثل ذلك إلا نادرًا[٢].

• المَقادِسة من آل قُدامة، الذين بلغت عِدتهم خمسين عالِمًا.

• آل ابن تيمية: جده ثم أبوه، وبعض إخوته.

• آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٦هـ) ففيهم أكثر من ستين عالِمًا.

• وأما آل الألوسي؛ فأسرة عراقية شريفة، وقد اشتهر منها علماء منهم:

أ- محمود شكري الألوسي، أبو الثناء -رحمه الله تعالى- (ت١٢٧٠هـ) له تفسير «روح المعاني».

ب- ابنه نعمان خير الدين الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١٧هـ) صاحب «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين».

ج- محمود بن نعمان الألوسي، أبو المعالي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٢هـ) حفيد أبي الثناء، وهو صاحب «غاية الأماني في الرد على النبهاني». وهو مستقيم المعتقد.

وبعد: فإن رواية العلم من الأبناء عن الآباء، صلة رحم عالية، وبركة ممتدة، وتربية فذة، وشرفٌ أيُّ شرف!

وفي قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] قال مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): هو قول الرجل: حدّثني أبي عن جدي. وقال غيره: قول الرجل: حدثني أبي عن جدي، من المعالي[٣].

---

(١) كان يروي من صحيفة تسمى «الصادقة». قال عنها ابن القيم في زاد المعاد (٤٠٢/٣): هي من أصح الأحاديث، وكان بعض أئمة أهل الحديث يجعلها في درجة أيوب عن نافع عن ابن عمر، والأئمة الأربعة وغيرهم احتجوا بها.

(٢) طبقات علماء الحديث (٢٣٢/٣).

(٣) الغاية في شرح الهداية في علم الرواية (ص: ٢٢٠).

آباء وأمهات يُعيقون أو يَمنعون أولادهم من لذة العلم:

وبالرغم من هذه القصص الحانية، الحافلة بالحدَب الأبوي؛ ليُقبِل الأولاد على العلم، إلا أنك واجِدٌ ثلةَ آباء وأمهات لا يَهُمُّهم أن يتوجَّه ولدهم النابِهُ للعلم، بل ربما صرفوه عنه، ولربما نهَروه لو اشترى كتُبًا أو حضر درسًا، أو لازَم عالِمًا. وقد يُفلح الابن في إقناع أبيه عن رأيه. وإليك هذه الأمثلة الاثني عشر:

١. قال أبو يوسف -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ): كنتُ يتيمًا في حَجْر أمي، وكان أبو حنيفة يُعنَى بي؛ لِما يرى من حضوري وحرصي على التعلم، فقالت أمي لأبي حنيفة: ما لِهذا الصبي فسادٌ غيرك، هذا صبي يتيم لا شيءَ له، وإنما أُطعمه من مِغزلي. فقال لها أبو حنيفة: مُرِّي يا رَعْناء! هذا هو ذا يتعلم أكل الفالُوذَج بدُهن الفُستق. فانصرفتُ عنه، وقالت له: أنت شيخٌ قد خرَّفتَ وذهب عقلك، ثم لزمته فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى كنت أجالس الرشيد، وآكُلُ معه على مائدته الفالوذَج بدهن الفستق. فخبَّرتُ الرشيد بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك، وقال: لَعَمري! إن العلم لَيرفعُ وينفع دِينًا ودُنيا[1]. أقول: ولعل أبا حنيفة يقصد بأكل الفالوذج التلذذَ بالعلم!

٢. هُشيم بن بشير -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٣هـ) كان أبوه طباخًا، يبيع كواميخ[2]، وكان يمنع ابنه من طلب العلم؛ ليساعده على شغله. فاتفق أن هشيمًا مرض، فجاءه شيخه قاضي واسط؛ عائدًا له، ومعه خَلْق من الناس، فلما رآه بشير فَرِح بذلك، وقال: يا بُنيّ، أبلَغَ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي؟! لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث[3].

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٣٦٢/١٦). والفالُوذَج: حلوى فاخرة من الدقيق والعسل والسمن، لا يُحصلها إلا عِلْية القوم.

(٢) الكواميخ: ما يقدَّم قبل الغذاء لتفتيق الشهوة. انظر: المعجم الوسيط (٧٩٨/٢) وتكملة المعاجم العربية (١٦/٨).

(٣) تاريخ بغداد ت بشار (١٣٠/١٦) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٨٩/٩) والبداية والنهاية لابن كثير (١٩٨/١٠).

٣. الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٠هـ) كان أبوه عبد الملك يبيع الزيت، وكان محمد من صغره متولّعًا بالاشتغال. وكان أبوه يدعه في حانوته ليبيع عنه، فيترك محمد الحانوت، ويأتي حلقة يونس وحلقة الكسائي، فيأتي أبوه إليه، ويعيده إلى حانوته. فأتى ذات يوم وهو في حلقة الكسائي، فضربه وأقامه، والشيخ ينظر إليه! فقال لأبيه: إن رأيت -أيّها الرجل- أن تخلّي عن ولدك، وأنا أدفع إليك أجرته، فسيكون له شأن! فقال أبوه: معاذ الله! فكان محمد إذا أتى أباه وأمّه يَسخران منه![1].

٤. أبو الحسين النوري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٥هـ) لما قرأ القرآن ألزمه أبوه أن يكون معه في حانوته، فكان إذا أصبح أخذ لوحًا له ودواة، وذهب يطلب العلم، ثم يأتي أباه، فيزجره عن الغَيبة ويتهدّده. فقال له يومًا: يا ليت شعري يا بني! ما تريد بعلمك؟ قال: أريد أن أعرف الله، وأتعرّف إليه! قال: وكيف تعرفه؟ قال: أعرفه بفهم كلامه، وفقه أمره ونهيه! قال: وكيف تتعرف إليه؟ قال: أتعرّف إليه بالعمل بما علّمني! فقال له أبوه -بعدما انبهر من حسن جوابه: لا أعرِض لك بعدُ في أمرك هذا ما بقيتُ[2].

٥. أبو العرب التميمي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٣هـ) كان من أبناء السلاطين، يحكي عن نفسه أنه أتى يومًا إلى دار محمد بن يحيى بن سلام، فاختلف إليه أيامًا، فقال رجل: لا تتزيًّا بهذا الزيّ، فليس بزي طلبة العلم. قال: فرجعتُ فذكرتُ ذلك لأمي، فأبَتْ عليَّ وقالت: إنما تكون مثل آبائك السلاطين. فاشتريت ثيابًا ورداء، وجعلتهن عند صبَّاغ. فإذا أتيتُ لبستُ تلك الثياب، ومضيتُ الى ابن سلام، فإذا رجعت إلى أمي لبست ثيابي التي جئت بها. فقال لي رجل: أراك تُلازم وتسمع، ولا تكتب. فقلت له: والديَّ لم يُمَكّناني من شيء. فقال: أعطيك جِلْدًا تكتبه لنفسك، وتكتب لي آخر. فرضيتُ بذلك، إلى أن يسّر الله لي ما اشتريت به الرَّق، وقوِيْتُ به على طلب العلم[3].

---

(١) انظر: كنز الدرر وجامع الغرر (٥/٢١١).
(٢) كنز الدرر وجامع الغرر (٥/٥١).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٥/٣٢٤).

٦. قال تاج الدين أبو اليمن الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): كنتُ وقت اشتغالي بالعلم أبغض إخوتي إلى أبي؛ لأنه كان يريدني أشتغل بالمتجر، وكنت أنا أشتغل بالعلم.. فاستغنيت عن حقوقي المالية لهم؛ ليتركوني أطلب العلم، حتى إن الدار التي أنا مقيم فيها كتبتُها لهم(١).

٧. ذكر خليل بن أيبك الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) عن نفسه: أن أباه لم يُمَكِّنه من الاشتغال بالعلم، حتى استوفى عشرين سنة، فطلب العلم بنفسه(٢).

٨. قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي، وأمْره الذي أوجبه الله عليه فهو عاصٍ، ولا ولاية له عليه. ثم روى قصة فقال: تَنازَع أبوَان صبيًا عند بعض الحكام، فخيَّره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: سلْهُ لأي شيء يختار أباه؟! فسأله، فقال: أمي تبعثني كل يوم للكُتَّاب، والفقيه يضربني، وأبي يتركني لِلَّعِب مع الصبيان! فقضى به للأم(٣).

٩. ابن رسلان الرملي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٤هـ) كان أبوه تاجرًا، فأجلسه في حانوت؛ ليبيع البزَّ فيها، وكان يُقبِل على المطالعة، ويهمِل أمرها، فظهرت فيها الخسارة، فلامَه والده على ذلك، فقال: أنا لا أصلح إلا للمطالعة. فأسلمَ إليه قيادَه، ولازَمَ الاشتغال(٤).

١٠. الشّيخ أبو عبد الله محمّد الغراب -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣٥هـ) كان أبوه من التّجّار، فجهّز له مالًا وافرًا لحجّ بيت الله الحرام، وأمره أن يتّجر ببقيته، فلما حجّ اشترى بما معه من الأموال كُتبًا، فلما قدم على والده قال له: يا بني أين تجارتك؟ قال له: هذه الكتب، فغضب عليه وقال: أفقرتَني وأتلفتَ علي أموالي، فاشتكى لشيخه من والده، فاستحضر الوالد وقال: لِمَ غضبت من التّجارة الرّابحة الباقية؟ طيّب قلبك وابشر بالغنى؛

(١) انظر: معجم الأدباء (١٣٣٣/٣) وقد سبق سياق تلك القصة.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٠٨/٢) وقد سبق -أيضًا- سياق تلك القصة.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤٢٤/٥).

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٨٢/١).

فإن شراء الكتب يورث الغنى، فهذه تجارة الآخرة. وبقيت الكتب إلى الآن يَنتفع بها الخلق(١).

١١. الشيخ علي الدَّقْر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٢هـ) كان محبًا للعلم، شغوفًا به شغفًا جعل أباه التاجر الكبير يأسَى لحاله، ويشكو إلى بقَّالٍ صديقٍ ما قد يؤول إليه مصير ولده علي، الذي ترك التجارة، ولحِق المشايخ ودروسَهم في المساجد. وشاء الله أن يمتد العمر بذلك البقَّال، ليرى ما وصل إليه الشيخ علي من العز، فيهتف بأعلى صوته: أين أنت يا أبا صادق؟! لترى العز الحقيقي لابنك الشيخ علي(٢).

١٢. الأديب عباس العقاد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٣هـ) يقول: كانت والدتي لا تنكر من شؤوني إلا الورق الذي لا ينتهي، فهو الذي يمرضني، ويصرفني عن الزواج، وهذا الورق الذي لا ينتهي هو سبب الشهرة. ووالدتي - أيها القارئ من أعداء الشهرة!(٣).



(١) نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار (٣٧٠/٢).
(٢) مشاهير أعلام المسلمين (ص: ١٠٢).
(٣) أنا (سيرة ذاتية بقلم العقاد) (ص ٦٠).

٦٩. مَن ألَّف كتابًا لولده

من حَدَبهم على أولادهم يؤلفون مؤلفات؛ إنما قصدهم فيها ابتداءً أولادهم! ليُذيقوهم لذةً ذاقوها، وليمنحوا أحب ما يجدون لأحب من يملكون. أبعد هذا الحَدَب حَدَبٌ؟!

وإن في قلب الوالد لرحمة وحرصًا، فكيف إذا كان عالِمًا يُقتدَى به في التعليم وفي التربية؟!

وإذا كان الله قد دعانا للنفقة مما نحب، من المطعوم، أو الملبوس، أو المسكون، كما قال -تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران ٩٢] فكيف بالعِلم الذي هو أحب من أولئكم؟! وكيف بأولادنا الذين هم أحب إلينا من أولاد الناس؟!

وربنا يوصينا نحو أولادنا، فيقول: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النساء: ١١] وأعظم من الوصية بالمال الوصية بالتربية على العلم والقرآن.

وهذا معنى الوقاية في قول ربنا الذي يربينا: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] قال علي رضي الله عنه (ت ٤٠هـ): علِّموهم وأدِّبوهم[١].

وإنما هذه أسباب، وقد تتخلف الأسباب، بل قد لا يكون ابن العالِم مهتديًا، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

ولكن لا يُصِبْك الإحباط إذا قرأت قول الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): قلَّ أن يجتمع الحظُّ لامرئٍ في نَسله، وتصانيفه معًا[٢].

وهذا الكلام؛ وإن كان عند الاستقراء له حظ كبير من النظر، إلا أن المرء عليه السعي لعله يكون من القليل، والله لا يُخيِّبُ السعي الجميل، كما قيل:

---

(١) النفقة على العيال لابن أبي الدنيا (٤٩٥/١).

(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٢٢٢/٣).

وعـــلـــيَّ أن أســعــى ولـيــ س عــلــيَّ إدراك الـــنـجـــاحْ(١)

ولله الحكمة البالغة، فقد يجتهد العالِم في تنشئة ابنه، ولكن لا يكتب الله للابن ما تمناه الأب لابنه.

ويامن فعل الأسباب؛ ليكون ابنه عالمًا، لكن الله ما أراد له ذلك، خذ هذه القصة التي تُعزِّي وتُسلِّي من اجتهد في تربية ابنه، ولكن لم يكن كما أراد، فيعوضه الله ببناته! وتَتِمَّة الخبر: أن للإمام مالك ولدًا اسمه محمد؛ يجيء للبيت وأبوه يحدِّث، وعلى يده باشق -طائر صيد، يشبه الصقر- وقد أرخى سراويله، ويدخل الابن ويخرج ولا يجلس للعلم، فيلتفت مالك إلى أصحابه، ويقول: إنما الأدب مع الله: هذا ابني وهذه ابنتي. ويقول: إن مما يهون عليَّ أن هذا الشأن لا يورَّث!(٢)

وثَمَّت نماذج لمن كتبوا؛ ليذيقوا أولادهم لذة العلم، فسعَوا وأدركوا بعض النجاح، أو جُلَّه، وأما من مات وهو لم يُدْرِكه، فقد هيَّأ الله له عبر القرون خلائق من وِلدان المسلمين، من ينتفعون بعلمه، ليكون الواحد من أولئك الأبعدين نسبًا كولده المخلَّد، وليس الفاني.

وإليك الآن ستين نموذجًا لمن سعَوا لأولادهم من صُلبهم؛ لينفعوهم، وليدفعوهم لطلب العلم، فألَّفوا كتُبًا لأولادهم، أو نظموا قصائد يخاطبونهم(٣).

١. «وصية» الإمام أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) لابنه حماد(٤).

٢. «وصية» ابن قتيبة الدينوري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ) لولده(٥).

٣. ابن غالب الأصبهاني الملقب بـ: باح -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) أَلَّف لولده كتابًا في «الرسائل»(٦).

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٣٥/١).

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١١٦/١).

(٣) أما رسالة: أيها الولد للغزالي؛ فقد بعثها لابن صديقه، وأما لامية ابن الوردي؛ فليس في ترجمته ما يدل على أنه نظمها لابنه.

(٤) معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم -- علي بلوط - أحمد بلوط (١٩٦٢/٣).

(٥) المصدر السابق (١٤٦٧/٢).

(٦) توضيح المشتبه (٧/٢).

٤. الحافظ الطبراني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٠هـ) انتخب لابنه أبي ذر «جزءًا»[١].

٥. أبو الحسين أحمد بن ميمون -رحمه الله تعالى- (نحو ٣٥٠هـ) انتخب لابنه أبي بكر عن الشيوخ «ألف جزء» وشاركه في الانتخاب أخوه الأصغر[٢].

٦. قصيدة فائقة مشهورة، لأبي إسحاق الإلبيري -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٥٩هـ) كتبها إلى ابنه أبي بكر؛ حاثًا له على طلب العلم، وفيها عتاب لاذع! ومما قال فيها -وقد مرَّ ذِكرها-:

أَبَا بكر دعوتُك لَو أجبتا ... إِلَى ما فِيهِ حظك إِن عقلتا

إِلَى عِلم تكون بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِن نهيتَ وَإِن أمرتا[٣]

٧. الطبيب الخطيب ابن بختويه -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٦٤هـ) ألَّف «كنز الأطباء» لولده[٤].

٨. «النصيحة الولَدية» وصية أبي الوليد الباجي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٤هـ) لولدَيه الاثنين، وقد مات أحد الولدين، وبقي الآخر، واسمه أحمد، ونفعت الوصية والنصيحة -بحمد الله-، فأخذ العلم عن أبيه كثيرًا وخلفه في حلقته، وله تواليف. وتوفي أحمد -رحمه الله- (ت ٤٩٣هـ) بجدة بعد الحج[٥].

٩. معين الدين أبو الحسن النيسابوري -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٤٧هـ) صاحب «غريب القرآن» كتبه لأجل ولده محمود[٦].

١٠. الحافظ ابن السمعاني (ت ٥٦٢هـ) جمعَ لابنه عبد الرحيم «معجمًا» لمشايخه، في ثمانية عشر جزءًا، و«عوالي» في مجلدين ضخمين[٧].

---

(١) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ٣١٤).
(٢) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٢/٧٠٩).
(٣) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف (ص: ١٧٣).
(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٣٤٠) والوافي بالوفيات (١٧/٢١٥).
(٥) النصيحة الولدية (ص: ٣٨).
(٦) بحوث ومقالات في اللغة والأدب وتقويم النصوص (مقالات محمد أجمل الإصلاحي) (ص: ٣٣).
(٧) وفيات الأعيان (٣/٢١٢).

١١. الأمير الأديب أسامة بن منقذ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٤هـ) ألَّف لابنه كتاب «الشيب والشباب»[١].

١٢. وكذلك النسخة الأصلية لكتاب «لباب الآداب» التي كتبت للمؤلف سنة ٥٧٩ للهجرة، قد وهبها لابنه، وكتب ابنه عليها بيده، أن أباه وهبه إياها[٢].

١٣. النحوي أحمد بن علي بن المأمون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٦هـ) ألَّف لأولاده - وهو محبوس - «شرح الفصيح»، و«أسرار الحروف»[٣].

١٤. كتيب «لفتة الكبد في نصيحة الولد» لابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ). قال في مقدمته عن سبب تأليفه: ختمتُ ختمةً، وسألتُ الله -تعالى- أن يرزقني عشرةَ أولاد، فرَزَقنيهم، فكانوا خمسة ذكور، وخمس إناث، فمات من الإناث اثنتان، ومن الذكور أربعة، فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم، فسألتُ الله -تعالى- أن يجعل فيه الخلف الصالح.. ثم رأيت منه نوع توانٍ عن الجد في طلب العلم، فكتبتُ له هذه الرسالة[٤].

١٥. «المجالس اليوسفية في الوعظ» لابن الجوزي -أيضًا- كتبها لابنه يوسف[٥].

١٦. كتاب «ألف با» للعلامة أبي الحجاج البلوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٤هـ) ألَّفه لابنه عبد الرحيم.

١٧. «الأربعين في أصول الدين» للفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) ألفه لولده محمد[٦].

١٨. النحوي ناصر المُطرِّزي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٠هـ) لما فرغ ولده من حفظ

(١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ (المقدمة/٧).
(٢) المصدر السابق (المقدمة/٧).
(٣) معجم الأدباء (٤٥١/١).
(٤) لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي (ص: ٣).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٤٩٦/٢).
(٦) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/١).

القرآن، ألّف له كتابًا؛ ليحفظه، وهو «الإقناع لما حوى تحت القناع»، وأيضًا: «المصباح» في النحو[١].

١٩. العلامة موفق الدين عبد اللطيف ابن اللباد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٩هـ) ألّف لابنه يوسف كتاب «تاريخ» يتضمن سيرته[٢].

٢٠. الفقيه نجم الدين عبد الغفار القزويني الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٨هـ) له كتاب «الحاوي الصغير» في الفقه الشافعي، وقد صنفه لولده جلال الدين، فحفظه الولد، وبرع -أيضًا- في الفقه، ودرّس وصنّف[٣].

٢١. «الأَسَدية» في النحو لابن مالك -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ) صنفها لولده محمد، المعروف بالأسد[٤].

٢٢. «وقاية الرواية في مسائل الهداية» متن حنفي مشهور، للإمام برهان الشريعة عبيد الله المحبوبي -رحمه الله تعالى- (قبل ٧٠٠هـ) صنفه لابن بنته صدر الشريعة[٥].

٢٣. النحوي ابن شرفشاه العلوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٥هـ) كَتب لولده النصير شرحًا على قواعد العقائد[٦].

٢٤. ابن آجُرُّوم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٣هـ) صاحب متن «الآجرومية» وقد صنفه لولده[٧].

٢٥. الحافظ ابن جُزَي الكلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) ألّف لابنه أحمد «الأنوار السَّنية في الألفاظ السُّنية».

---

(١) المصدر السابق (٨١/١).

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٩٤).

(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١٢٧/٤) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٦٨).

(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٨١/١).

(٥) شرح المصابيح لابن الملك (مقدمة/١٣)وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢٠٢٠/٢) وهذا المتن شرحه عبد اللطيف ابن ملك. لكن سُرقت النسخة التي بيَّضها بعدما مات! فتأسفوا عليها، فكتب ابنه محمد من مسودتها، مع بعض الإلحاقات.

(٦) بغية الوعاة (٥٢٢/١).

(٧) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١٨/٧).

٢٦. وألَّف -أيضًا- لابنه محمد «تقريب الوصول إلى علم الأصول»(١).

٢٧. سبب تأليف «تحفة المودود» لابن القيم؛ أن الله رزق ابن المصنف برهانَ الدين مولودًا، ولم يكن عنده هدية يقدمها لابنه، فصنَّف هذا الكتاب وأعطاه إياه، وقال له: «أتحفتُك هذا الكتاب، إذ لم يكن عندي شيء من الدنيا أعطيك»(٢).

٢٨. سعد الدين التفتازاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٢هـ) له «شرح التصريف» للزنجاني، وهو أول تآليفه، ألَّفه لابنه(٣).

٢٩. «التذكرة في الفروع» على مذهب الشافعي للسراج ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) جمعها لولده(٤).

٣٠. «التأديب في اختصار التدريب» للبلقيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) اختصره لولده صالح(٥).

٣١. ابن الشحنة -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٥هـ) له «مختصر في الفقه» ألفه لأجل ولده(٦).

٣٢. «الرسالة الولدية» في المنطق للشريف الجرجاني -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٦هـ) ألَّفها لولده بالفارسية(٧).

٣٣. صفي الدين الردولوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٩هـ) له «دستور المبتدئ في الصرف» صنفه لأجل ولده(٨).

---

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (١٨٧/٣).
(٢) وُجِد مكتوبًا بنسخة الظاهرية المخطوطة، ومُصدَّرًا بعبارة: (قال من نثق بعلمه: سبب تأليف.). وقد ذكره الأرناؤوط في مقدمة: (تحفة المودود).
(٣) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ١٣٥).
(٤) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٣٩٢/١).
(٥) المصدر السابق (٣٨٢/١).
(٦) درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة (ص: ٢٨).
(٧) معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (٢١٩٧/٣).
(٨) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٢٥٦/٣).

٣٤. كتاب: «تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» للحافظ زين الدين العراقي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٦هـ) ألَّفه لابنه، حيث يقول في مقدمته: فقد أردت أن أجمع لابني أبي زرعة مختصرًا في أحاديث الأحكام، يكون متصل الأسانيد بالأئمة الأعلام، فإنه يَقبح بطالب الحديث، بل بطالب العلم ألا يحفظ بإسناده عِدةً من الأخبار[١].

٣٥. عبد اللطيف السعدي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) له منظومة، عمِلها لولده وسماها بـ«العقد النظيم».[٢]

٣٦. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) صنَّف «بلوغ المرام» لأجل ابنه الأكبر محمد.. لكنه ما تيسَّر له إلا حفظ يسير منه، وكتَبَ عن والده كثيرًا من مجالس الإملاء. قال السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): وحرصت كل الحرص أن يُقبِل بعد موتِ أبيه على المطالعة والاشتغال على بعض جماعةِ أبيه.. لكنه ما تمَّ[٣].

بل قال ابن تَغرِي بَرَدى -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٤هـ): ولم يكن فيه ما يُعاب، إلا تقريبه لولده؛ لجهلٍ كان فى ولده، وسوء سيرته، وما عساه كان يفعل معه، وهو ولده لصلبه، ولم يكن له غيره؟![٤].

٣٧. المحدِّث رضوان العقبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) خرَّج لابنه «الأربعين المتباينات»[٥].

٣٨. ابن الشماع الأيوبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٣هـ) أعرب جميع «ألفية ابن مالك»؛ لأجل ولده أبي الطاهر[٦].

---

(١) تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد (ص: ٢) ومن اللطائف أن عدد أحاديثه ينتهي برقم مميز! وهو ١١١١ حديثًا.

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٢٨/٤).

(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٢٢٠/٣).

(٤) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٥٣٣/١٥).

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٢٨/٣).

(٦) المصدر السابق (١٤٣/٩).

فائدة: أفرد ابن الشماع عقيدته بالتأليف، وتبرأ فيها من كل ما يخالف السنة والجماعة، ولم يزل على جلالته، إلى أن وقع بحلب فَناء عظيم، توفي فيه غالب من عنده، من ولد وأهل وخدم، فأسِف، وتوجه وهو متوعك إلى المدينة؛ عازما على المجاورة بها، فمات بها -رحمه الله-.

٣٩. المحب ابن الإمام -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٠هـ) قد شرع في تصنيف كتاب في «أحاديث الأحكام»؛ لأجل ابنه[١].

٤٠. ابن المَلَك -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) له «شرح الوقاية» صنفه لولده جعفر[٢].

٤١. الشيخ محمد المحلي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٦هـ) شرح لابنه «غاية تهذيب الكلام في تحرير المنطق والكلام» للتفتازاني[٣].

٤٢. «حسم الخلاف في المسح على الخفاف» رسالة للعمادي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٣هـ) كتبها لولده[٤].

٤٣. الشيخ حسين الخلخالي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٤هـ) ألَّف لابنه برهان الدين محمد «حاشية على شرح تهذيب المنطق والكلام» للدواني[٥].

٤٤. للعلامة أحمد بن محمد الشلبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٢٠هـ) حاشية على «الآجرومية» جمعها لولده[٦].

٤٥. الشيخ أبو البركة عيسى السندي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣١هـ) ألَّف لابنه عبد الستار «حاشية على الفوائد الضيائية» للجامي[٧].

٤٦. وألّف السندي -أيضًا- لابنه محمد «الفتح المحمدي» في التفسير[٨].

٤٧. التمرتاشي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٥هـ) شرَح «الألفية» لولده محمد في النحو[٩].

٤٨. «مفتاح النجوم» بالفارسية، لعبد العزيز التبريزي -رحمه الله تعالى- (نحو ١٠٦٧هـ) ذكر مؤلفه أنه صنفه لولده عبد اللطيف[١٠].

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨٦/٢).
(٢) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٣٠٠/٢).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١٣/٩).
(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٦٦٥/١).
(٥) المصدر السابق (٥١٦/١).
(٦) المصدر السابق (١٧٩٧/٢).
(٧) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٥٩٧/٥).
(٨) المصدر السابق (٥٩٧/٥).
(٩) هدية العارفين (٤٢٣/١).
(١٠) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١٧٧١/٢).

٤٩. الفقيه الحنفي ساجقلي زاده -رحمه الله تعالى- (ت ١١٥٠هـ) له رسالة «الولدية» في آداب المناظرة، كتبها لولده[١].

٥٠. الخادمى محمد بن مصطفى الحسينى -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٦هـ) له «رسالة الوصية والنصيحة» لولده محمد سعيد[٢].

٥١. قائمي البوسنة وي العثماني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩١هـ) له كتاب «المسائل المنثورة» على أسئلة لابنه محمد[٣].

٥٢. «المردف في العروض» للشيخ غلام البلكرامي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٠هـ) صنفه لحفيده الأمير حيدر بن نور الحسين[٤].

٥٣. القاضي خليل الرحمن الرامبوري -رحمه الله تعالى- (نحو ١٢٠٠هـ) له «مئة عامل» صنفه لابنه عبد العزيز[٥].

٥٤. «أسلاك الجوهر في نظم مجدّد القرن الثالث عشر» نظمه الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) وكتبه لولده أحمد[٦].

٥٥. ابن ملوكة التونسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٦هـ) له «رسالة في النحو»، وضعها لولده حمدان[٧].

٥٦. الشيخ محمد عاقل البخاري -رحمه الله تعالى- (قبل ١٣٠٠هـ) ألّف لابنه «إرشاد الولد لما يلزم لكل أحد»[٨].

٥٧. كتاب «عون الباري؛ لحل أدلة البخاري» للعلامة صديق حسن خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) ألّفه أولًا؛ لأجل ابنه الصغير الطاهر[٩].

---

(١) معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم - علي بلوط - أحمد بلوط (٢٤٨٠/٤).
(٢) هدية العارفين (٣٣٤/٢).
(٣) معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (٢٣٦٧/٣).
(٤) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٧٧٢/٦).
(٥) المصدر السابق (٩٦٤/٧).
(٦) معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (٢٩٧٦/٤).
(٧) تراجم المؤلفين التونسيين (٣٧٧/٤).
(٨) معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (٣٤٧٨/٥).
(٩) ومن عجائب اللطائف أن عنوانه يدل بالأبجدي على تاريخ تأليفه: ١٢٩٩هـ

٥٨. وكتابه في التفسير -وهو المقدَّم عنده-: «فتح البيان في مقاصد القرآن». ألفه أولًا؛ لأجل ابنه الأكبر الطيب[١].

٥٩. كتيب «إلى ولدي» للأديب المؤرخ أحمد أمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) قال في أوله: كان لي ابنٌ يُتِمُّ تعليمه في إنجلترا، فاستحضرتُه في ذهني عند كتابتها[٢].

٦٠. رسالة: «هديتي لابنتي عند زفافها» للشيخ محمد بن رزق الطرهوني، أهداه إلى بناته: عائشة وجويرية وحفصة ورملة وسودة وميمونة وخديجة وصفية وهند. وقال: وعلى وجه الخصوص: إلى من اقترب زفافها[٣].

لفتة لابد منها:

أولاد طلاب العلم، وأولاد العلماء يَلْقَون من الناس نظرات لاذِعة، وعُتبى موجِعة، وذلك إذا رأَوهم كسائر أولاد البشر لم يتميزوا عليهم بشيء، ويُلاقون منهم نقدًا لاذعًا إذا واجهوا منهم هَنَّة أو زلة! وقد يرميهم الناس بأبصارهم قائلين: أتفعل هذا وأنت ابن الشيخ فلان؟! أو بنت المؤلف الدكتور فلان؟!

وكأنهم يُريدون منهم أن يكونوا نُسَخًا من آبائهم! أو كأنهم يتهكَّمون من آبائهم أن لم يُربُّوهم كما نشأ الآباء -زعموا-.

وهذه الأسلوب في التعامل منفِّر، لا يُطاق من الآباء أنفسهم، فضلًا عن أولادهم، حتى لربما نطق الصبي لأحدهم متذمِّرًا وقائلًا: ليت أبي لم يكن شيخًا، ولا مؤلفًا!

فيا أيها المجتمع أجمَعُ: ارفقوا بأولاد طلاب العلم والعلماء، واحذروا النظرات والامتعاضات؛ فإنها لنفوسهم مهلِكات. ولربما صار هذا العتاب نوعًا من الشماتة المحرمة، والتي -ربما - ترتدُّ على ذرية الشامت! فلنحفظ ألسنتنا، ولنحافظ على مشاعر الآخرين.

---

(١) السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج (٨٤٣/١١) وهذا الكتاب كسابقه، عنوانه يدل بالأبجدي على تاريخ تأليفه١٣٢٢هـ

(٢) مقدمة «إلى ولدي» - أحمد أمين (ص: ٦).

(٣) هديتي لابنتي عند زفافها (ص: ٤).

٧٠. لذة العلماء برؤية طلابهم والاعتناء بهم

العالِم الموفق المسدد هو من يعتني بطلابه تربويًا، كما يعتني بهم تعليميًا.

والجمع بين التربية والتعليم هو الكمال، وصاحبه يُدعى عالِمًا ربانيًا، وقد كانت العرب تقول للعالِم العامل المعلِّم: الشارع الرباني(١).

وطلاب العالِم هم خير من يَحمل ويبلِّغ عنه علمه، وهم لذَّته وأُنسه ورَوحه، وهم مكسبه، بل رأس ماله. قال حكيم: تصفَّحْ طلاب حِكَمِك، كما تتصفح طلاب حُرَمِك(٢).

قال ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ): واعلم أن الطالب الصالح أعْوَد على العالِم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه، وأقرب أهله إليه. ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يُلْقُون شَبَك الاجتهاد؛ لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم، ومن بعدهم، ولو لم يكن للعالِم إلا طالب واحد، ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده؛ لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى(٣).

وثمت لفتة عميقة من العبقري القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ)، لا أظنه سُبق إليها، إذ يقول بهذا الصدد: ينبغي لطالب العلم إذا تعلم مسألة، أن ينوي تعليمها كل من هو من أهلها، وكذلك إذا علَّمها أن ينويَ التوسل إلى تعليم كلِ من يتعلم ممن علَّمه، فيكون المنْوِي في الحالين عددًا لا يُعَدُّ ولا يحصَى، وله بكل واحد من ذلك العدد حسنة، فإن وقع مَنْوِيُّه كان له عشر؛ لقوله ﷺ: **مَن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، وإنْ عمِلها كُتبت له عشر حسنات**. وهذا متجر لا غاية لربحه، أعاننا الله -تعالى- على الخير كله(٤).

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٢٧/٤).

(٢) المصدر السابق (٢٢/٤).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٦٣).

(٤) الذخيرة للقرافي (٥٣/١).

وما دام ذلك كذلك؛ فليَعْتنِ شيخُهم بهم، وليحْتَفِ بمَقدمهم، بناء على ضوء الإضاءات التالية:

١- الاعتناء بالنجباء منهم، بمزيد من التعليم والتقديم. والطالب الموهوب هبة من الله، فينبغي للعالم أن يحوطه بمزيد من العناية والرعاية، وأن يُنمِّي مواهبه، ويتعاهدها بالسقي والتحفيز والإشادة. وخذ على هذا خمسة شواهد:

• قال أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) مُوصيًا تلميذه أبا يوسف: وأَقبِلْ على متفقِّهِيك، كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنًا وولدًا؛ لتزيدهم رغبة في العلم[١].

• مطيَّن الحضرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٧هـ) كان سبب إقباله على العلم كلمة من عالم ناصح، فقد قيل لمطيَّن: لم لُقِّبتَ بهذا؟ فقال: كنت صبيًا ألعب مع الصبيان، وكنت أطولهم، فنسبح ونخوض، فيطيِّنون ظهري، فبصُر بي يومًا أبو نعيم، فقال لي: يا مطيَّن! لِمَ لا تحضر مجلس العلم؟ فلما طلبت الحديث مات أبو نعيم، وكتبت عن أكثر من خمس مئة شيخ[٢].

• اعتبر بمثل الموهوب حقًا ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) حيث يقول: السبب في إثارة العزم لتصنيف هذا الكتاب، أن جماعة من إخواني ومشايخي في الفقه، كانوا يسألوني في زمن الصبا، جمع أحاديث التعليق، وبيان ما صح منها وما طعن فيه..[٣].

أفطِنتَ لما تحته خط؟! يا لله العجب!. أمثل هذه النوادر بالتاريخ؛ يُمِرُّها مَن وَجَدها؟!

• عز الدين ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) استدعى الحافظ زين الدين العراقي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٦هـ) وحبَّب إليه الاشتغال، فأكبَّ عليه، ولم يلتفت إلا إليه[٤].

---

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ٣٦٩).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٤/٤٢).

(٣) التحقيق في مسائل الخلاف (١/٢٢).

(٤) بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ٥٢).

• الأديب عباس العقاد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٣هـ) يحكي قصته حين كان صبيًا، فيقول: زارنا الإمام الشيخ محمد عبده، فتصفح كرّاستي، ثم التفتَ إلى الأستاذ وقال ما أذكره بحروفه: «ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعدُ».. فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمعت من كلمات التشجيع، وكانت حافزًا قويًا إلى الكتابة(١).

فيا معلمي المدارس: تجدون من بين ألف طالب طالبًا آتاه الله ذكاءً وزكاءً خارقًا وفائقًا، فدونكم؛ فإن هذا كنز نفيس فريد، فانتقوا وارتقوا بهذه العقول الاستثنائية الموهوبة، وارعَوها، فرعايتها هي رأس المال والربح معًا.

لقد كانوا يُوْلُون الموهوبين عنايةً خاصة، فكانوا يضمُّونهم إليهم ليُلازموهم، ومن حرصهم أنهم يَمحضونهم النصح، ويتابعونهم علميًا وتربويًا، حتى كأنهم أولادهم من النسب، بل أشد، ومن ذلك أنهم لا يدَعونهم يرتحلون إلا لما لابد منه، وإليك بضعة شواهد:

• قال أبو يوسف -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ): تأخرتُ عن مجلس أبي حنيفة، فقال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش. فدفع لي صُرة وقال: الْزمِ الحلقة، وإذا نفِدت هذه فأعلمني. ثم كان يتعاهدني، حتى استغنيتُ وتموّلْتُ(٢).

• وهذا الإمام الشافعي-رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) أُسْلِمَ إلى الكُتّاب في طفولته، فجعل يتعلم، فإذا فرغ من درسِه علَّم صبيان الكُتَّاب، فنظر المعلم فإذا هو يكفيه من أمر الصبيان وينفعه أكثر من أجرته، فلم يأخذ من أمه أجرًا(٣).

• أبو علي الحافظ النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٩هـ) قال: استأذنت أبا بكر بن خزيمة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ) فقال: تُوحِشنا مفارقتك يا أبا علي، وقد رحلت وأدركت الأسانيد العالية، وتقدمت في حفظ الحديث، ولنا فيك فائدة وأُنس، فلو أقمتَ! فما زلتُ به حتى أَذن لي، فخرجت(٤).

---

(١) «أنا» للعقاد (ص٧٠).
(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ٩٩).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٩٤/١).
(٤) الروض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم (٤٥٥/١).

• الشيخ أبو حامد الإسفراييني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٦هـ) حضر درسَه لأول مرة، أحد طلبة العلم النابهين، فألقى أبو حامد عليه ستين مسألة، فأجابه عن الجميع، غير مكترِث ولا مخيب.. فقال للتلميذ النابِه: ما أنت إلا ذكي فطِن فاهم، تصلح لطلب العلم، فهل لك أن تكون معي، وأجعلك أعزَّ أصحابي عندي؟ فلم يَزِدِ التلميذ على شكره؛ إجلالًا للعلم وأهله، واعتذر بأنه لم يخرج عن بلده بهذه النية(١).

• أبو الحسن الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ) قال عن شيخه النحوي أبي الحسن الضرير: استأثرني بأفْلاذِه، وسعدتُ به أفضل ما سعد تلميذ بأستاذه.. وعلقت عنه قريبًا من مئة جزء في المسائل المشكلة(٢).

• قال أبو سعد السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ) عن شيخه التفتازاني النسائي الذي كان به حفيًا: كنت عزمت على الخروج إلى قريته، فقدم علينا «نَسَا» لكيلا نتحمل المشقة للخروج إليه(٣).

• الفقيه علي بن محمد المالكي نسبًا، والشافعي مذهبًا -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٢هـ) سأله شيخه عما قرأ من الكُتُب، فقال له: قرأتُ «منهاج النووي»، فزجره، وقال له: عليك بـ «الروضة»(٤). يريد أن نَهْمَتَك وهِمَّتَك لا تقِفُ عند متن المنهاج، بل ترقَّ لشرح مطوَّل كالروضة.

• في ترجمة أبي حيان الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) أنه كان له إقبال على أذكياء الطلبة، يُعظِّمهم، وينوِّه بقدرهم(٥).

• أما الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) فكان حفيًا بتلميذه الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) حفاوة ظاهرة، حتى إن السعدي استأذن والد العثيمين أن يمكث عنده ببلده عنيزة، وذلك لما سافر الأب سنوات للرياض للتجارة.

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢٣١/١).
(٢) التفسير البسيط (٤٢٠/١).
(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ٩٦٢).
(٤) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣٩٤/٦).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥٨/٦).

ومن مؤشرات اعتنائه به أن التلميذ قال: كنا ليلة مع الشيخ عبد الرحمن، وجاءت بومة، تسقط على العصافير وتأكلهم، فالتفت التفاتةً يسيرة إليها، فانتقدني، وقال: صيد العلم أولى من صيد الطيور[١].

٢- وكانوا يَرصُدون لهم الجوائز، ويُهيئون لهم الحوافز:

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يكافئ تلميذه أبا جَمرة الضُّبَعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧هـ).
قال التلميذ: تمتعتُ، فنهاني ناسٌ، فسألت ابن عباس رضي الله عنهما فأمرني، فرأيت في المنام كأن رجلا يقول لي: حج مبرور، وعمرة متقبلة، فأخبرت ابن عباس فقال: سنة النبي ﷺ، فقال لي: أقم عندي، فأجعلْ لك سهمًا من مالي؛ للرؤيا التي رأيتُ[٢]. أي: إكراما له على الرؤيا المبشِّرة، والمؤيِّدة والمعزِّزة لمَذهبه، في أفضلية نسك المتعة.

أتدري كم أقام عند ابن عباس؟! أقام شهرين إقامة مجانية، ليس مع الإفطار فحسب -كالفنادق-، بل مع المجالسة والمصاحبة والمؤاكلة، بل معها جائزة مالية عباسية جَزْلة.

وسيرة ابن عباس فخمة، وعلاقته وثيقة مع طلابه، وهي تستدعي مؤلفًا لوحده.

وخذ مثالًا له آخر في جزالته لطلابه: فقد قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] فقال: لم أدْرِ أنجا القوم أم هلكوا؟ قال تلميذه عكرمة: فما زلتُ أبيِّن له أُبِّصره، حتى عرف أنهم قد نجَوا، فكسَاني حُلَّة[٣].

وهذا الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) ربما ألقى على تلاميذه وعلى ابنه عثمان المسألة، فيقول: أيكم أصاب فله دينار[٤].

وهذا المفسِّر البيضاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٥هـ) دخل تبريز، وصادف دخوله إليها مجلس درس، فجلس في أُخرَيَات القوم، بحيث لم يعلم به أحد، فذكر المدرس

---

(١) درس مقدمة المجموع للنووي - للشيخ محمد بن صالح العثيمين (ص١٨٥).
(٢) صحيح البخاري (١٥٦٧).
(٣) الطبقات الكبرى ط العلمية (٥/٢٢٠).
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/١١٩).

نكتة زعم أنه لا يقدر على جوابها أحد، وطلب من القوم حلها، فإن لم يقدروا فإعادتها. فقال له البيضاوي: أخيّرك بين إعادتها بلفظها أو معناها. فبُهت المدرس، وقال: أعِدْها بلفظها، فأعادها ثم حلها، وبيَّن أن في تركيبه إياها خللًا، ثم أجاب عنها، وقابَلها في الحال بمثلها، ودعا المدرس إلى حلها، فتعذر عليه ذلك. فأكبرَ الناس مَقامَه حينئذ، وأكرمه الوزير، وخلع عليه في يومه(١).

وذاك عالِم ثريٌّ يقول مخاطِبًا لعاملِه: والطلبة الذين ظهرت نَجابتهم، فمن كان مجتهدًا في القراءة، وظهرت نجابته فرُدَّ له ما كان يقبضه قبل من الإعانة، ومن كان مجتهدًا في القراءة مثابرًا عليها فاجعل له ما ينتعش به ويتقوَّت، وحين يزيد اجتهاده نزيده إعانة(٢).

وابن سعدي كافأ أحد طلابه، لما حفظ «بلوغ المرام» بمئة ريال سعودي، وكانت تعادل عشرات الآلاف في زماننا، والتلميذ هو معالي أمين مدينة الرياض م. عبد الله بن علي النعيم -حفظه الله-(٣).

٣- من حبهم للمتعلمين في الدرس؛ أنهم يسهِّلون لهم ويترفّقون بهم، ويرغِّبونهم، ويقرِّبونهم، بل يَدْعون لهم. وإليك شواهد ثَمانَ سِمان:

أ- رسولنا وقدوتنا ﷺ. ففي «صحيح البخاري»: باب قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ علِّمْه الكتاب**». يقول العلماء: في هذه الترجمة تنبيه للمعلِّم أن يدعو للطالبين بعلم الكتاب(٤).

ب- كان عروة -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤هـ) يتألف الناس على حديثه(٥)

ج- كان مطرف بن عبد الله بن الشخير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥هـ) يقول لتلاميذه: واللهِ لأنتم أحب إليَّ من أهلي(٦).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٥٨/٨).
(٢) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (١٤٤/٥).
(٣) من مقطع مرئي في (اليوتيوب) لمعالي الشيخ النعيم، وهو يقص القصة بنفسه.
(٤) نبراس الساري (٣٣٠/١).
(٥) العلم لزهير بن حرب (ص: ١٠).
(٦) الطبقات الكبرى ط دار صادر (٣٤٦/٦).

د- وإليك هذه المحاورة التي تقطر أدبًا، وتنضح عِلمًا: فقد كان المزني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ) إذا فاتته صلاة صلى خمسًا وعشرين صلاةً تطوعًا، فقال له ابن خزيمة (ت ٣١١هـ) جلوسك مع أصحابك أفضل منها؛ لأن صلاتك لا تعدوك، وتعليمك يعدوك إليهم، فتعم بركاته، وتثمر عاقبته، قال: صدقت، ولكني أجمع بين الأمرين، ألقي عليهم المسألة فيُعمِلون فِكْرهم فيها، وأنا آخذ في تطوعي. قال: ولكنك لو ألقيتَ عليهم المسألة، وأقبلتَ بوجهك إليهم لكنتَ مُعينًا لهم على استخراجها. قال: هو كما قلت[1].

ه- قال العلامة الأديب أبي بكر الصولي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٥هـ) عن تلميذه القاضي عمر الخمسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ): كنت أنا كالمربي له، ولا أشك أنه قرأ علي من كتب اللغة والأخبار، وكتبي المصنفة، ما يقارب عشرة آلاف ورقة[2].

و- القاضي أبو علي العكبري البرزبيني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٦هـ) كان له تلامذة غلمان كثيرون، وكان مبارك التعليم، لم يَدرس عليه أحد إلا أفلح، وصار فقيهًا[3].

ز- الفقيه الزاهد شيخ الحنابلة ابن المَنّي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٣هـ) قال -متحدثًا بنعمة الله عليه -: ما أذكر أحدًا سمع درسي الفقه إلا انتفع. ثم قال: هذا حظي من الدنيا[4].

ح- ابن مرزوق العجيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨١هـ) كان كثير التودد، ممزوج الدعابة بالوقار، غاصُّ المنزل بالطلبة[5]

ط- ومن الحِكم المُحكَمة قولهم عمَّن يَنهر سائل العلم: إن لم تُدْنِه من مَبارِك مَبارّك، فأبعده عن معارِك معارّك[6].

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٢٣/٤).
(٢) تاريخ الدولة العباسية للصولي (ص: ١٤١).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (١٦٧/١).
(٤) المصدر السابق (٣٥٧/٢).
(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة (٧٥/٣) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٦٨/٨).
(٦) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٠٤/٢٢).

٤- كانوا يقدِّمونهم ويُهيئونهم للتدريس من بعدهم، ويتفرَّسون فيهم التمكن العلمي:

ومن المواقف المعبِّرة أن أحد العلماء نظر يوما في حُجرات الطلبة خُفية، فرأى أحدهم متكئًا، ينظر في الكتاب، ونظر إلى آخر، فرآه جاثيًا على ركبتيه، يطالع الكتب، ويكتب الحواشي عليها، فقال في حق الأول: إنه لا يبلغ درجة الفضل. وقال في حق الثاني: إنه سيكون له شأن في العلم. فكان كما قال[1].

وهذا ابن نجية الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٩هـ) قال: حفَّظني خالي مجلس وعظ، وعمري يومئذ عشر سنين، ثم نصب لي كرسيًا في داره، وأحضر لي جماعته، وقال: تكلم. فتكلمت، فبكى. وكان يذكر ذلك المجلس وهو ابن تسعين[2].

وقد رئي أحد المحدثين يكتب عن حدث، فقيل: تكتب عن مثل هذا؟! فقال: نعم؛ أُذيقه حلاوة الرئاسة[3].

وكانوا لا يُقدِّمون على طلابهم أحدًا.

كان الفقيه القاضي ابن إبراهيم الأصولي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ) يَنتابُه مَن له رتبة عند الناس، وليس بطالب علم، فيَجلس بإزائه، فإذا جاء طالب أفسح له بينه وبينه، حتى يعود صاحب الرتبة أبعدَ الناس مجلسًا منه[4].

والأب العالِم يُهيئ أولاده للأخذ عنه، ويراعي الوقت لسائر الآخذين:

قال هشام بن عروة بن الزبير -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٥هـ): كان أبي يدعوني، وإخوتي، فيقول: لا تَغْشَوني مع الناس، إذا خلوتُ فاسألوني[5].

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٣).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥٢٩/٢).
(٣) الفوائد المنتخبة لابن بشكوال (٦١٠/٢).
(٤) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية (ص: ٢١٠).
(٥) الزهد لأبي داود (ص: ٢٨٢).

٥- كانوا يُفيدون من طلابهم، ولا يأنَفُون من الاحتفاء بفوائدهم، ونسبتها لهم، ويرجعون عن الخطأ الذي صححه لهم أحد تلاميذهم:

• قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ الذي قرأ على أُبَي بن كعب رضي الله عنه وقال: أمرني الله أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١] ويستفاد منها: ألا يَمتنع الفاضل من الأخذ عن المفضول(١).

• كان الخليل بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) إذا استفاد من أحد شيئًا أَراه بأنه استفاد منه، وإذا أفاد إنسانًا شيئًا لم يُرِهِ بأن أفاده شيئًا(٢).

• قال الحميدي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٩هـ) وهو تلميذ الشافعي: صحبتُ الشافعي من مكة إلى مصر، فكنت أستفيد منه المسائل، وكان يستفيد مني الحديث.

• قال ابن الوَرْدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ): اجتمعتُ بشيخنا ابن تيمية -رحمه الله تعالى-بمسجده، وبحثتُ بين يديه، في فقه وتفسير ونحو، فأعجبه كلامي، وقبَّل وجهي(٣).

• قال المؤرخ ابن تَغري بردي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٤هـ): قرأتُ على المقريزي كثيرًا من مصنفاته، وكان يَرجع إلى قولي فيما أَذكره له من الصواب، ويغير ما كتبه أولًا في مصنفاته(٤).

• وهذا الرملي، الشهير بالشافعي الصغير -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٠٤هـ) تتلمذ عليه شيخ له معمر، والرملي في مقام أبنائه، فلامُوا العالِم على ذلك، فقال: لا حرج أني أستفيد منه، ما لم يكن لي به علم(٥).

• قال الشيخ ابن عثيمين (ت ١٤٢١هـ): وما أكثر ما يستفيد العالِم من طلابه الذين عنده؛ فإنهم -أحيانًا- يأتون له بمَعانٍ ليست له على بال(٦).

---

(١) آداب العلماء والمتعلمين (ص: ٥) والحديث رواه البخاري (٣٨٠٩) ومسلم (٧٩٩).
(٢) شعب الإيمان (٣/٢٥٨).
(٣) تاريخ ابن الوردي (٢/٢٧٦).
(٤) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (١/٤١٧).
(٥) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/٣٤٣).
(٦) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١٧٦).

بل قد يُخطئ الشيخ، فيستدرِك عليه الطالب بلطف، وحينها ترى العجَب العُجاب من طريقة اعتراف الشيخ بالخطأ.

• قال محمد بن قاسم العثماني -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٠٣هـ): جئت مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهري، فكان مما قال: إن النبي ﷺ طلَّق وظاهَرَ وآلَى! فلما خرج تبعته حتى بلغت معه إلى منزله.. فقلت له: حضرت المجلس اليوم، وسمعتك تقول: ظاهَرَ رسول الله ﷺ! وهذا لم يكن، ولا يصح أن يكون؛ لأن الظِّهار منكر من القول وزور؛ وذلك لا يجوز أن يقع من النبي ﷺ. فضمني إلى نفسه، وقبل رأسي، وقال لي: أنا تائب من ذلك، جزاك الله عني من معلم خيرًا.. وفي اليوم الثاني نادى بأعلى صوته: مرحبًا بمعلمي؛ أفسحوا لمعلمي. فتطاولت الأعناق إلي، وحدقت الأبصار نحوي.. وأنا - لعِظَم الحياء- لا أعرف في أي بقعة أنا من الأرض، والجامع غاصٌّ بأهله..وأقبل الشيخ على الخلق، فقال لهم: أنا معلمكم، وهذا معلمي، وأنا تائب عن قولي بالأمس.. وأعاد ما جرى بيني وبينه.. وجعل يحفل في الدعاء، والخلق يؤمِّنون.

قال ابن العربي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) معلِّقًا على القصة: فانظروا -رحمكم الله- إلى الاعتراف بالعلم لأهله على رؤوس الملأ، من رجل ظهرت رياسته، واشتهرت نَفاسته، لغريب مجهول العين، لا يُعرف من، ولا من أين! فاقتدُوا به ترشُدوا[1].

فمن أيِّهما تَعجَب؛ أمِنْ جَمال القصة، أم من جمال التعليق؟!

• وقصة أخرى جميلة، وقعت لابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) مع الوزير ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ). قال ابن الجوزي: عرض له يومًا حديث وهو: «**من فاته حِزبه بالليل فصلّاه قبل الزوال، كان كأنه صلّاه بالليل**». فقال: ما أدري ما معنى هذا! فقلت له: هذا ظاهر في اللغة والفقه، أما اللغة؛ فإن العرب تقول: كنت الليلة إلى وقت الزوال، وأما الفقه؛ فإن أبا حنيفة يصحِّح الصوم بنية قبل الزوال، فقد جعل ذلك الوقت في حكم الليل. فأعجبه هذا القول، وكان يقول بين الجَمع الكثير: ما كنتُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢٤٨/١).

أعرف ما معنى هذا الحديث، حتى عرَّفنيه فلان! فكنتُ استحيي من الجماعة. وجعل لي مجلسًا في داره كل جمعة، يَحضره، ويطلق العوام في الحضور(١).

• وقصة ثالثة عجيبة، تبيّن لك أن العالِم قد يغيب عنه الجواب الذي يعرفه أصاغر طلابه: فهذا الماوَردي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٠هـ) قال: صنفت في البيوع كتابًا، جمعت له ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي، وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذب واستكمل، وكدت أعجب به، وتصورت أنني أشد الناس اطلاعًا بعلمه، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان، فسألاني عن بيع عقداه في البادية، على شروط تضمنت أربع مسائل، لم أعرف لشيء منها جوابًا، فأطرقت مفكِرًا، وبحالي وحالهما معتبِرًا، فقالا: أما عندك فيما سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟! قلت: لا. فقالا: إيهًا لك! وانصرفا، ثم أتَيا مَن قد يتقدمه في العلم كثير من أصحابي، فسألاه فأجابهما مسرعًا بما أقنعهما، فأنصرفا عنه راضيين بجوابه، مادحَينِ لعلمه! فكان ذلك لي زاجر نصيحة، ونذير عظة، تذلل لهما قياد النفس، وانخفض لهما جناح العُجب(٢).

وعِش لذة ذلك التلميذ الذي بذل الفائدة لمن هو أعلم منه، ثم عِش لذة الشيخ في ظَفَره بالفائدة وقد أعيَته.

• قال أبو بكر الهذلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٥هـ): نشأت غلامًا أشتهي العلم، فخرجتُ إلى ابن شهاب بالمدينة، فكنت أختلف إليه، فقدِم ابنٌ لهشام بن عبد الملك على الحج، فلما قدم المدينة وردَّ عليه كتاب أبيه هشام أن: قف بالناس على «أَلال» فقرأه، فلم يدرِ ما أَلال! فبعث إلى الزهري يسأله. فقال: ما أدري ما ألال، وإن فتى من العراق قد قدم عليَّ يطلب العلم، فلعل عنده من هذا علمًا. فأرسل إليَّ الزهري، فجئت، فدخلني ما يدخل الفتيان من الحصر، فسكن من جأشي حتى سكنت. ثم قال: عندك في ألال عِلم؟ قلت: نعم؛ جبل عرفة الذي يقف الناس عليه. قال: فعندك على هذا شاهد؟ قلت: نعم؛ قول النابغة الذبياني:

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٦٨/١٨).

(٢) فتاوى ابن الصلاح (١٦/١) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٦٩/٥).

بمصطحِباتٍ من لَصافٍ وثبرةٍ يُـــرِدْن ألالًا سَـيـرُهـن الـتـدافـعُ

فأَعجَب ذلك ابنَ شهاب، فدعا لي، ووهب لي وكسَاني(١).

٦- يبذلون لهم العلم، ويُشوِّقونهم له، وإن لم يبتدئوا بطلبه، فإن طلبوه فرحوا بذلك:

• المحدث يحيى بن أيوب العلّاف -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٩هـ) كان إذا رأى المؤرخ ابن يونس المصري يضمُّه إليه، ويقبِّل رأسه، ويدعو له -وكان ابن يونس قد بلغ الثامنة(٢).

• قال مالك بن دينار -رحمه الله تعالى- (ت ١٣١هـ) لتلاميذه: زمَرْنا لكم فلم ترقصوا(٣). أي وعظناكم فلم تتعظوا، ولم تَحْتَفُوا بما عَلَّمناكم.

• كان سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) إذا حدَّث بعسقلان وصُوْر يقول: انفجرَتِ العيون، انفجرَتِ العيون! يُرغِّبهم، متحدّثًا بنعمة الله عليه. وربما يقول مشجِّعًا لأحد تلاميذه: هذا خير لك من ولايتك عسقلان وصُوْر(٤).

• قال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) لتلميذه الربيع بن سليمان: لوددتُ أني حشَوتُك العِلْم حَشْوًا(٥).

• كان عند أبي عاصم النبيل -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٢هـ) طلاب الحديث، فضحك بعضهم، فقال ممازحًا ومحفزًا: والله لأحدثَّنكم حتى ترقُصوا(٦). أي تَطرَبوا؛ تلذُّذًا بالعلم.

• عباس الدوري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧١هـ) جاء إلى شيخه أبي عاصم النبيل يستعِيده حديثًا، فقال أبو عاصم مشجِّعًا له: ويْلَكَ! هذه بُكَيرة حارس(٧).

---

(١) أخبار مكة للفاكهي (٣٠٧/٤).

(٢) تاريخ ابن يونس المصرى (٥٠٧/١).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٥٨/٢).

(٤) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٢٨).

(٥) تاريخ بغداد ت بشار (٤٣٩/١٦) وجامع بيان العلم وفضله (٤٧٣/١).

(٦) الفوائد المنتخبة لابن بشكوال (٢٦٠/١).

(٧) المصدر السابق (٢٥٩/١). والمعنى يبدو منه أن تبكيره كبُكور حُرَّاس القصور والمتاجر.

• قال النحوي ثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ): إنما يتسع علم العالِم بحسب حِذْق من يسأله؛ لأنه إذا طالَبَه بحقائق الكلام احتاج إلى البحث(١).

• إمام اللغة والأدب ابن دريد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) قال مرة لأحد تلاميذه -وقد سأله عن بيت شعر: لئن طفِئتْ شَحمتا عَيني، لم تجِد من يَشفيك من العلم(٢).

والتلاميذ النابهون يكونون بركة كبيرة على شيوخهم؛ لأنهم يستثيرون أرض الخِصب والنماء، فتُنبِت من كل زوج بهيج.

٧- كانوا يجالسونهم، ويؤانسونهم، ويكرمونهم، ويشاركونهم طعامهم، ويتفقدون احتياجاتهم. وإليك سبعة عشر مثالًا مَسرودًا:

• عن عطاء -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤هـ) قال: كنّا نأتي ابن عبّاس ﵄ فيؤتَى بغدائه، فأقول: إنّي صائم. فما يزال يُقسِم عليّ، حتّى أدنو فأتغدّى معه(٣).

• أبو السمح درَّاج بن سمعان -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٦هـ) كان إذا أتاه من يطلب العلم لم يُحدِّثه، حتى يَطعَم عنده(٤).

قد طالما كان يَقرينا ويُقرئنا … في حالتيه بوجه منه مبتهج(٥)

• كان إسماعيل بن عياش -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ) إذا أتاه تلاميذه؛ لا يرضى لهم إلا بالخروف والحلواء(٦).

• قال الأصمعي -رحمه الله تعالى-(ت ٢١٦هـ): كان أبو عمرو بن العلاء يوسّع لي، وربما حلف ألَّا يُخبِرَني بحرف حتى آكل(٧).

• كان تلاميذ الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) يأتون إليه، فيسمعون منه، فيجلسون على باب داره، ويأتي محمد عبد الحكم، فيصعد به، ويطيل المكث، وربما

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٢/٦٩٧).
(٢) وفيات الأعيان (٤/٣٢٧).
(٣) المقفى الكبير (٤/٢٨٦).
(٤) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٨/٤٨٠).
(٥) بغية الوعاة (١/١١٩).
(٦) تذكرة الحفاظ للذهبي (١/١٨٦).
(٧) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٣٧).

تغذى معه، ثم ينزل، فيقرأ الشافعي على الباقين، فإذا فرغ من قراءته، قرب إلى محمد دابته فركبها، وأتبعه الشافعي بصره، فإذا غاب شخصه قال: وددتُ لو أن لي ولدًا مثله[١].

• قال خالد بن خداش -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٣هـ): ربما غِبْتُ عن حماد بن زيد، فإذا جئتُ بعث إليَّ فأتيتُه، وقد خبّأ لي الشيء من الفاكهة والحلواء، فيطعمني[٢].

• أبو نعيم الإسفراييني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ) كان عمره سبع سنين، يسمع من خال أبيه؛ أبي عوانة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٦هـ) مع القوم، ووحده ليلًا ونهارًا، ويُلاعِبه أبو عوانة، ويطعمه الحلوى؛ ترغيبًا له[٣].

• ابن هذيل البلنسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٤هـ) إذا خرج لضَيعته تبِعَه الطلبة، من قارئ وسامع الحديث، وهو منشرح الصدر، منطلق الوجه، طويل الاحتمال، لا يضجر ولا يسأم مع كبره، وقد أقرأ وأسمع ببلنسية نيفًا وستين سنة[٤].

• بهاء الدين المقدسي الحنبلي -رحمه الله تعالى-(ت ٦٢٤هـ) كان يأتي من بعيد؛ قاصدًا لمن يُسمِّع عليه، وربما أُتي بغدائه، فيُطعمه لمن يَقرأ عليه[٥].

• الشيخ نجم الدين ابن الرفعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٠هـ) كثير الإحسان إلى الطلبة بماله وجاهه، مساعدٌ لهم بما اتصل إليه قدرته[٦]

• عمر بن نجم البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ) كان يَكفي الذين يقرؤون عنده[٧].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٣/٣٥٩).

فائدة: للأسف! أن التلميذ محمد بن عبد الحكم -عفا الله عنه- لم يقدر الإمام الشافعي بعد موته! بل قام بالطعن في شيخه، فألَّف «بيان ما خالف فيه الشافعي السنة» و«بيان خطأ الشافعي» ثم ترك المذهب الشافعي، وانتقل للمالكي.

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٩/٢٤٤).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٧/٧٢).

(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣١٢).

(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٥/١٩٦).

(٦) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١/٣٣٨).

(٧) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/٤٦٢).

• ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) كان الطلبة الغرباء الوافدون إليه على مراتب؛ منهم مَنْ يقررُ له شيئًا ينفقُه كل يوم، ومنهم مَنْ يتفقده عند قدُومه وعند سفره، ومنهم مَنْ يعلمُ عدمَ حَاجَتِهِ، لكنه يحبُّ إكرامه، فيهدي إليه مِنْ تصانيفه، وهذا عند المُهدى إليه أعظمُ مِنْ مفروحٍ به. ولقد مكث ابن حجر مدة في مرض موته، وبعض من يقرأ عليه لم يعلم بذلك، ولم يُشعره الحافظ أيضًا، مراعاة لخاطره، إلى أن أَعْيَا![1].

• جمال الدّين محمد طاهر الهندي، الملقب بملك المحدّثين -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٦هـ) ورث عن أبيه مالًا جزيلًا، فأنفقه على طلبة العلم[2].

• الشيخ سعد الدين العديني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٢هـ) كان ينزل كل يوم إلى مجمع، به حملة كتاب الله، فيدارسهم، وبين يديه صندوق مملوء مالًا، فلا يقوم عن المجلس حتى ينفق ما فيه[3].

• الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٦هـ) كان - لشدة شغفه بنشر العلم وتعليمه- يؤوي طلاب العلم، وفقراء التلاميذ في داره، وينفق عليهم من خالص ماله[4].

• ومن أعجب ما يُروى من عطايا العالِم لتلاميذه، أن القاضي المحدث ابن طنجا القاياتي (ت ٨٠٨هـ) أوصى بثياب بدنه لطلبة العلم، ففُرّقت فيهم[5].

• وأَعجَبُ منها ذلك الذي ربَّى الأديب المؤرخ ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) فقد مَلَكَه رجل تاجر أميٌ من «حماة»، وعلمه الكتابة، واتخذه مأخذ الولد، وحَبَّب العلم إليه، فمنذ كان عمره سبع سنين، إلى أن توفي ما خَلَتْ يده من كتاب يستفيد منه، أو يطالعه، أو يكتب منه شيئًا، أو ينسخه[6].

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٠١٢/٣و١٠١٨).
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦٠١/١٠).
(٣) الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٩٥/٢).
(٤) أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني لمحمد الفقي (ص: ٣٤).
(٥) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣٤٧/٢).
(٦) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (١٩٧/٧) وتاريخ إربل (٥٢٧/٢).

٨- كانوا يُراعون مشاعر مَن ضعُف فهمه، أو تباطأَ في حفظه، أو طرأ عليه ملل، ويُفَرِّغون له وقتًا إضافيًا، ويسهِّلون له العلم ولا يُملِّونه؛ لأنهم يؤمِّلونه عالِمًا يُشار له بالبنان.

• ألقى ابن أبي ليلى -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣هـ) مسألة، فلم يفهمها سفيان الثوري، ثم أعادها فلم يفهمها، ثم أعادها فلم يفهمها، ثم أعادها عليه ففهمها، فجعل سفيان يحمد الله، ويقول: إنه يريد وجه الله[١].

• أبو يوسف -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ) صاحب أبي حنيفة، كرَّر على الحسن بن زياد المسألة ست عشرة مرة. ثم قال الحسن: لعلِّي لم أفهمها[٢].

• كان الربيع -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٠هـ) بطيئ الفهم، فكرَّر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة، فلم يَفهم، وقام من المجلس حياء، فدعاه الشافعي في خلوة، وكرر عليه حتى فهِم. وقال له يومًا: يا ربيع! لو أَمْكنني أن أُطعمك العلم لأطعمتك[٣].

• شيخ فقهاء الأندلس ابن المَكْوِيّ الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠١هـ) كان شيخه أبو إبراهيم يتفرَّس فيه النجابة، فحرَّضه واعتنى به، وكان قد حُبب إليه الدرس مدة من عمره، لا يَفتُر عنه ليله ونهاره، فرجعت فيه لذته، وكان أول أمره ضعيف الحفظ، قليل العلم، فلم يزَل أبو إبراهيم عليه بالدَّرَبة، والتحريض على المطالعة، وإقامة الدرس، حتى فتح عليه[٤].

• محمد بن عياض اليحصبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٥هـ) جَدُّ أبيه القاضي عياض المشهور: محبٌ في العلم وأهله، مقرِّبٌ لأصاغر الطلبة، ومكرِمٌ لهم، ومعتنٍ بهم[٥].

---

(١) الثقات للعجلي ط الباز (ص: ١٩٣).

(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢/٥٢٥).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/١٣٤).

(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٧/١٢٣).

(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة (٢/١٤٤).

• الفقيه التهامي أبو الحسن البجلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٥هـ) قال عنه أحد تلاميذه: لما جئت إليه أريد أن أقرأ عليه، وأنا على حال متبلبِل، أريد أن أجمع قلبي على تحصيل العلم، فأول درس قرأته عليه، قمت وأنا بخلاف ما أنا عليه من الرغبة. فما عرضت مسألة في خاطري إلا زال إشكالها، وتبين لي خطؤها من صوابها، وما أشك أن ذلك من بركته[1].

• ابن توزت التلمساني -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٠٠ هـ) كان أحد تلاميذه يَحضر مع شُبان لهم فهمٌ ثاقب في الفرائض، فلم يفهم شيئًا، فتخلف عن مجلسه أيامًا، ففقده وقال له: تأتيني وحدك، وتقرأ عليَّ بعد صلاة العشاء إلى جُلِّ الليل، حتى فهم وانطلق[2].

٩- يُظهرون محبتهم لتلاميذهم، ويَبُثون لهم مشاعرهم القلبية، بل ويدعون لهم بوجوههم وبظهر الغيب، ويُراسلونهم إذا بَعُدوا، ويتعاهدونهم بالوصية، حتى وإن فرَّقتهم الأشغال والديار، فهذا من حسن العهد، ومن تعاهد الزرع بالسقي، حتى يكون العالِم:

أبًا كان للطلاب لطفًا ورأفةً ... وأوصاف برٍ ليس يُلفَى مثالها[3]

فهذا أنس بن مالك ﷺ (ت ٩٣هـ) إذا جاءه تلاميذه قال: واللهِ لأنتم أحب إليَّ من عِدَّة ولدي، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، وإني لأدعو لكم بالأسحار[4].

وقال مجاهد -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ) لتلميذه الأعمش: لو كنت أطيقُ المشي لجئتُك[5].

وقال مطرف بن طريف -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١هـ) لتلاميذه: واللهِ لأنتم أحب إليَّ من أهلي[6].

---

(١) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (٣٤٠/١) وقلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٨٦/٦).
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٥٣).
(٣) بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ٢١٠).
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٨١/٢).
(٥) العلم لزهير بن حرب (ص: ٢٣).
(٦) الطبقات الكبرى ط العلمية (٣٣٤/٦).

وقال -أيضًا- العوام بن حوشب -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٨هـ) لتلاميذه: لأنتم أحب إليَّ من معانقة الأبكار[١].

فيا لجمال قلوب أولئك العلماء الأعلام، ويا لتواضعهم لتلاميذهم، ويالصدق مودتهم!

وهذا شيخ أبي حنيفة، الحافظ حماد بن أبي سليمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠هـ) قال عنه ابنه إسماعيل: غاب أبي غَيبة في سفر له، ثم قدم، فقلت له: يا أبَةُ، إلى أي شيء كنت أشْوَق؟ قال: وأنا أرى أنه يقول: إلى ابني. فقال: إلى أبي حنيفة، ولو أمكَنَني ألَّا أرفع طَرْفي عنه فعلتُ[٢].

ولذا عمل أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) بهذا مع بعض تلاميذه، فقال مُوصيًا تلميذه أبا يوسف: وأَقبِلْ على متفقهيك، كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنًا وولدًا؛ لتزيدهم رغبة في العلم[٣].

وأنْ تجد تلميذًا يدعو لشيخه؛ فهذا وفاء ليس بمستغرب، لكن أن تجد عالِمًا يدعو لتلاميذه فهذا الأعجب المستغرب!

وقد ذكروا عبد الوهاب الوراق -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٠هـ) لشيخه أحمد بن حنبل، فقال: إني لأدعو الله له[٤].

وتأمل ما قاله العالم الأديب أبو القاسم بن خلصون -رحمه الله تعالى- (نحو ٧٠٠هـ) في رسالته لأحد تلاميذه: لتعلم -أيها الحبيب- أن جَناني ينطوي لك أكثر مما يَنشره لساني، وإني أحمد الله -تعالى- إليك على تشويقه إيّاك إلى مطالعة كتب المعارف، وتعطّشك للورود على بحر اللّطائف[٥].

---

(١) الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة لابن بشكوال (٧٤/١).
(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ٢٠).
(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ٣٦٩).
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٢٨٣/١٢).
(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة (٢٠٠/٣).

وأما الآن فإليك رسائلَ تَقطر عذوبة، وتَفيض حرصًا من شيخ كبير إلى تلميذه اليافع، البالغ ثلاثة وعشرين سنة، حيث عُيِّن التلميذ قاضيًا في أبي عريش بجازان، فكانت المراسلات من الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) لتلميذه ابن عقيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٢هـ) والتي تدور على نقطتين:

أ- المشاعر القلبية بالمحبة واللطف والفرح.

ب- الوصايا المؤكدة بتحصيل العلم ونشره.

وقد اخترتُ من عشرات رسائله سطورًا، فإلى تلك السطور المليئة بالمشاعر والوصايا:

- وصيتي لك- ولابد- من جهة الجد، والاجتهاد في مطالعة الكتب الفقهية في كل فرصة تغتنمها، خصوصًا حين دعت الضرورة [لمنصب القضاء].
- ولابد وصيَّتُنا على بالِكُم، وهي جدك واجتهادك في كل ما تقدر عليه من الإصلاح، لا سيما الإصلاح العلمي؛ فإنه أعلى فضيلة حصَّلها العبد.. وهذا أكبر أمنيتي.
- أخذني من السرور والاغتباط ما الله به عليم؛ لما اشتمل عليه كتابك من الرغبة التامة في العناية بالعلم، والحرص على تحصيله بكل طريق، وترتيبكم للدروس النافعة.
- الأمل أنك ما تدَّخر من الجد والاجتهاد، وفي نفع مَن تظن فيه أهليته للطلب، فهذا هو المكسب الرابح.
- ولنا مدة طويلة جدًا عن كُتُبك السارة، شاكرًا ما أبديتَه من اللطف والشفقة، وما بسطته من أخباركم السارّة، لازلتَ موفقًا.
- ولا يحتاج مَن يحثك على ملازمة مطالعة كتب الفقه، خصوصًا شرح الزاد؛ لأنها أعظم عَون لك على ما أنت بصدَده.

○ خطابك تلوتُه مسرورًا بصحتك، قابلًا عُذرك، معجَبًا بخطابك ولُطفك، راجيًا المولى أن يقرب أيام اللقاء[١].

١٠- العالِم المربي يُرشد تلاميذه إلى العلم الأنفع، والكتاب الأنفع: ومما يدرِّبون الطلبةَ عليه بأن يتعهَّدونهم بالحفظ والبحث؛ فإنها للعِلم كالجناحين[٢].

• الزين عبد الرَّحِيم العراقي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٦هـ) انهمك بعلم القراءات، فَنَهَاه عن ذلك شيخه القاضي ابن جماعة، قائلًا له: عِلمتُ أنه كثير التعب قليل الجدوى. وأشار اليه بالاشتغال بعلم الحديث؛ لِما رأى من قوة ذكائه[٣].

• أبو الضياء الغيثي المقصري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٥هـ) كان يحث تلاميذه على مطالعة الكتب المبسوطة، ولا يرضى لهم بالاقتصار على المختصرات، ويستعين بهم على المشكلات المدلهمة، والفتاوى المعضلية المهمة، وكل ذلك بسبب الألفة لقلوبهم، وإلا فهم لا ينكرون استغناءه عنهم.. وكان يطول مجلسه بالمشاطرة بين تلامذته في مسألة واحدة، وربما تمر أيام في تحقيق مسألة[٤].

• وكان الشيخ حماد الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) يستقبل بمكتبته أبناءه الطلاب صباح كل يوم، حتى أذان الظهر، ومن بعد صلاة العصر حتى أذان العشاء[٥].

١١- يُفاخِرون بكثرتهم، ويفرحون بتناسُلِهم جيلًا بعد جيل:

• شمس الدّين جدّ الشيخ تقي الدّين ابن قاضي شهبة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٢هـ) كان غالب علماء البلد تلاميذه، وتلاميذ تلاميذه[٦].

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة للشيخ السعدي (ص ٣٥ و٣٩ و٥٤ و٩١ و٩٦ و١٠٥ و١٠٦).
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٣٣٤/٢).
(٣) مقدمة أمالي العراقي (ص ٢٤).
(٤) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٧٥ و٢٧٩).
(٥) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (١٣١/١).
(٦) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (١٧٥/٣).

• السراج البلقيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) كثُرَتْ طلبته، وصاروا شيوخ بلادهم وهو حيّ(١).

• زكريا الأنصاري السُّنيكي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٦هـ) أعطي الحظ في مصنفاته وتلاميذه، فرأى تلاميذه وتلاميذ تلاميذه شيوخَ الإسلام حتى لم يَبقَ بمصر إلا طلبته، وطلبة طلبته، وقرَّت عينه بهم في محافل العلم، ومجالس الأحكام(٢).

١٢- ومن بركات التلاميذ على أشياخهم أنهم يكونون سببًا في ابتداء بعض تآليفهم، إما لسؤال طرحوه، أو لنازلة طرقوها، أو لمعاونة بنسخ وجمع. بل قد يكونون مرجعًا لمن بعدهم فيما يُشكل أو يلتبس. فالطلبة الحريصون المبارَكون هم مَن يستخرجون كنوز العلم من شيخهم، ويعينونه على التدريس والتصنيف.

وخذ مثالًا واحدًا لإمام دار الهجرة، الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) وانظر مقدار حفاوة تلاميذه، بجمع وتدوين مسائله التي يطرحها:

• أخرج معن بن عيسى -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) أربعين ألف مسألة، سمعها من مالك(٣).

• سحنون المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) روى عنه أكثر من ثلاثين ألف مسألة(٤).

• أشار أبو العباس السراج -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٣هـ) إلى كُتُب على مِنْضَدة عنده فقال: هذه سبعون ألف مسألة لمالكٍ، ما نفضتُ التراب عنها منذ كتبتُها(٥).

ومِن شدة انهماك الطالب، وتشرُّبه بعلم شيخه، أنه قد يكون أعرف بعلمه من الشيخ نفسه.

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٢٤٧).
(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/١٩٨).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/١٤٩) وطبقات الفقهاء (ص: ١٤٩).
(٤) الثقات لابن حبان (٨/٢٩٩).
(٥) المصدر السابق (٢/٥٦).

وقد كان ابن رشيّق -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) أبصر بخط الشيخ ابن تيمية منه، إذا عَزَب شيء منه على الشيخ استخرجه[١].

ومن اللطائف أن الشاعر المتنبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) يقول: ابن جِنّي أعرف بشِعري مني[٢].

أما أن يؤلِّف عالِم كتابًا بسبب سؤالٍ طرحه تلميذه فكثيرٌ، ولْأذكرْ على ذلك سبعة أمثلة:

- في «مقدمة صحيح مسلم» يقول رحمه الله -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦١هـ) أما بعد: فإنك -يرحمك الله-..سألتني أن ألخصها لك في التأليف، بلا تكرار يَكثر..
- سبب تأليف الدار قطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) لكتابه «العلل» أن صاحبه وتلميذه ابن الكرخي؛ كان يريد أن يصنِّف مسندًا معلِّلًا، وكان يدفع أصوله إلى الدارقطني، فيُعلِّم له على الأَحاديث المعللة، ولكن اخترمته المنية قبل استتمامه[٣].
- ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) ألَّف «الأجوبة عن المسائل المستغربة من كتاب البخاري»، يقول مخاطبًا أحد تلاميذه:.. وسألتني شرحها وبسطها بما حضرني.. ولكنّي مع ذلك لم أرَ أن أُخليَك من الجواب بما أمكن وحضر.
- وقال ابن عبد البر -أيضًا- في مقدمة كتابه «جامع بيان العلم وفضله»: فإنك سألتني -رحمك الله- عن معنى العلم، وفضل طلبه..فأجبتُك إلى ما رغبتَ، وسارعتُ فيما طلبتَ.
- قال الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ) عن سبب تصنيفه «التفسير البسيط»: شدّدَ عليّ خِناقَ التقاضي قومٌ لهم في العلم سابقة، وفي التحقيق هِمم صادقة؛ فسَمَحتْ قَرُونتي بعد الإباء، وذَلّتْ صعوبتي بعد النُفرة والالتواء[٤].

---

(١) البداية والنهاية (١٨/٥١٠).
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤/٤٩٤).
(٣) علل الدارقطني (١/٦٧).
(٤) التفسير البسيط (١/٣٩٣).

○ قال أبو الوليد الباجي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٤هـ) في كتابه «التعديل والتجريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصحيح»: فإنك سألتني أن أصنف لك كتابًا..فأجبتك إلى ذلك.

○ في «الترغيب والترهيب» لقوّام السنة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ) قال: إنكم معشر طلبة العلم -أحسن الله توفيقكم- أكثرتم مسألتكم إياي أن أجمع لكم كتابًا، يشتمل على الترغيب..

○ قال عضد الدين الإيجي في مقدمة «شرحه لمختصر المنتهى» -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ):..حتى صار فعالي مظنة للضِّنَّة أو الكسل، فعيَّت بي العِلل، وضاقت بي الحيل، فأسعفتُهم بذلك، وأمليتُ عليهم شرحًا، لم أدّخر فيه نصحًا[١].

○ محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ) هو الذي اقترح على شيخه الأستاذ محمد عبده -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٣هـ) أن يكتب «تفسيرًا للقرآن»، ويلقي درسًا للتفسير بالأزهر. قال: فما كان إلا أن شرح الله صدره، وعزم على أن يكتب، فنطبع ما يكتب كراسًا بعد آخر. التدريس يتبع الطبع، والطبع يتبع التأليف[٢].

○ في مقدمة «أحكام الجنائز» للألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) يقول عن سبب تأليفه: طلب مني بعض الأعزاء، بمناسبة وفاة إحدى قريباته.. فاستخرت الله تعالى، وانكببت على الدراسة، والمراجعة، قرابة ثلاثة أشهر، أعمل فيها ليلًا نهارًا[٣].

❖ وكما أن التلميذ سبب لتأليف شيخه، فكذلك العكس؛ فقد يوجِّه الشيخ أو المربي بكلمات يسيرة، تكون سببًا في طباعة أثر، أو صناعة بشر.

فهذا البخاري ألَّف «صحيحه»؛ بسبب توجيه شيخه ابن راهويه -رحمهما الله تعالى-.

وفي زمننا هذا الشيخ عبد الله البسام -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٣هـ) يَذكر أن

---

(١) شرح العضد على مختصر المنتهى الأصولي (١/١٦).
(٢) تفسير المنار (١/١٢).
(٣) أحكام الجنائز للألباني (ص٥).

السبب الأول الذي دفعه لتأليف كتابه: [علماء نجد خلال ثمانية قرون] كلمات يسيرة، قالها له شيخه، الشيخ عبدالرحمن بن سعدي -رحمه الله تعالى-.

١٣- يتواضعون لتلاميذهم، ويُلاطفونهم ويمازحونهم:

○ فهذا أنس رضي الله عنه التلميذ النجيب في مدرسة النبوة، قال: أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، قال: فسلَّم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأتُ على أمي، فلما جئتُ قالت: ما حبَسك؟ قلتُ: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سِرٌّ، قالت: لا تُحَدِّثن بسِرِّ رسول الله ﷺ أحدًا. قال أنس لتلميذه ثابت البُناني: والله لو حدثتُ به أحدًا لحدثتك يا ثابت[1].

○ وهذا عبد الله بن داود الخُريبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٣هـ) أتاه أبو العيناء، فقال: ما جاء بك؟ قال: قلت: الحديث. قال: اذهب فتحفَّظ القرآن. قلت: قد حفظت القرآن. قال: اقرأ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١] فقرأت العَشر حتى أنفَدْتُه. فقال: اذهب الآن فتعلم الفرائض. قلت: قد تعلمتُ الفرائض، الصُّلب والجَدّ والكُبْر. قال: فأيهما أقرب إليك؛ ابن أخيك أو ابن عمك؟ قلت: ابن أخي. قال: ولِمَ؟ قلت: لأن أخي من أبي، وعمّي من جدي. قال: اذهب الآن فتعلم العربية. قلت: قد عُلِّمْتُها قبل هذين. قال: فلِمَ قال عُمر حين طُعِن: يا لَلّهِ! يا لِلمسلمين! قلت: فَتَحَ تلك على الدعاء، وكسرَ هذه على الاستغاثة والاستنصار. فقال: لو حدّثتُ أحدًا لحدّثتُك[2].

○ ومن طرائف الخُريبي هذا مع طلابه: أنهم قد مضَوا إليه في منزله؛ ليُحدِّثهم، فلم يجدوه، فقيل لهم: هو في بُسَيْتِيْنَة له، فقصدوه، فإذا هو فيها، فسألوه أن يحدثهم، فقال: مُتِّعْتُ بكم- أنا في شغل عن هذا؛ هذه البُسيتينة ليس لي من يَسقيها، فقالوا: نحن نُدير الدولاب ونَسقيها، فقال: إن حضرَتْكم نية فافعلوا. فتشلَّحوا وأدَاروا الدولاب، حتى سَقَوا البستان، ثم قالوا له: حدِّثنا الآن. قال: مُتِّعتُ بكم- ليس لي نية في أن أحدثكم، وأنتم كانت لكم نية تؤجرون عليها[3].

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٨٢).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٩/٢٨) وتاريخ بغداد ت بشار (١١/١٥).
(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١١٩/٦).

١٤- وتهيج الذكرى للعالم وطالب العلم إذا حانت لحظة الفراق للارتحال، ويتوجد إذا تذكر شيوخه الراحلين.

○ قال البزَّارُ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) متوجِّدًا على فراق شيخه ابن تيمية: وكنتُ مدة إقامتي بدمشق مُلازِمَه جُلَّ النهار وكثيرًا من الليل، وكان يُدنيني منه، حتى يُجلِسني إلى جانبه.. فسبحان الله! ما أقصرَ ما كانت، يا ليتَها كانت طالَتْ، ولا واللهِ ما مرَّ علي عمري إلى الآن زمان كان أحب إليَّ من ذلك الحين، ولا رأيتُني في وقت أحسن حالًا مني حينئذ(١).

○ وابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) يُترجِم لأحد طلابه النجباء، ويتحسر لوفاته، فيقول: لازَمَني نحو أربعين سنة، وقرأ عليَّ جميع فتح الباري.. فلقد كان لي به سرور، وانتفاع في الغَيبة والحضور، فعند الله أحتسب مصيبتي فيه، وأسأله خير العوض(٢).

○ قال العلامة المالكي القَلْصادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩١هـ) في رحلاته عن أحد شيوخه: وكنت ملازمًا له إلى حين سفري، فودعته والدموع تنسكب، ونار الأحشاء تلتهب، والقلب للفراق يضطرب(٣).

○ وقال القَلْصادي عن شيخ له آخر: فودَّعتُه والجوانح ملتهبة، والدموع منسكبة.. فأكببْتُ على يديه مودِّعًا، وفؤادي من الفراق متوجعًا..(٤).

○ وأيضًا الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) لما أراد أحد تلاميذه النجباء الذهاب للحج عام ١٣٦٣هـ، وهو الشيخ محمد بن سليمان البسام -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣١هـ) فناوَلَه الشيخ رسالة مختومة، وقال له: لا تفتحها حتى تسير مسافة كذا وكذا، فلما فتحها وجدها أبياتًا من الشعر، يتوجد فيها الشيخ عبد الرحمن على فراق تلميذه، ويقول:

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٣٨).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤٦/١).
(٣) رحلة القلصادي - ت. محمد أبو الأجفان (ص ٩١).
(٤) المصدر السابق (ص ٩٥).

أذكَـرْتَ رَبْعًا من خليطك أقفرا ... وأسـلـت دمـعًـا ذا رذاذ قُـطَّـرا
أم هاجك الغادُون عنك عشيةً ... لـمـا مـشـوا وتـيـمـمـوا أم الـقـرى
لزموا المواتر واغتدوا في سيرهم ... لله دمـعـي خلفهم يـا مـا جـرى

في قصيدة طويلة مؤثرة، حتى إن التلميذ ندم، وقال: ليتني لم أسافر للحج إلا وأنا معه[1].

إسراجة:

١. اتصل ابن القيم بشيخه ابن تيمية قبل وفاته بـ ١٦ سنة.
بينما سبقه فطاحلة العلماء بالتتلمذ قبل أن يولد ابن القيم!
٢. اتصل السخاوي بشيخه ابن حجر قبل وفاته بـ ١٤ سنة.
بينما سبقه فطاحلة العلماء بالتتلمذ، قبل أن يولد السخاوي!
٣. اتصل ابن عثيمين بشيخه ابن سعدي قبل وفاته بـ ١٣ سنة.
بينما سبقه فطاحلة العلماء بالتتلمذ قبل أن يولد ابن عثيمين!

الخلاصة المستنتجة:

قد يكون أخصُّ طلابِك - أيها العالِم - لم يولَد بعْدُ!



(١) مواقف اجتماعية من حياة الشيخ عبد الرحمن السعدي - ابنه محمد وحفيده مساعد (ص١٩١).

٧١. لذة الطلاب بلُقيا العلماء ومُصاحَبتهم وسؤالاتِهم مسائل علمية:

إنهم بُدور المَجالس، وأهلَّة المَحامد، وأقمار المَشاهد، ولُقياهم شرف، وسؤالهم مكسب، ومرافقتهم عز، وخدمتهم غُنم. فكيف -إذًا- لا تكون لُقياهم؛ لأجل علمهم لذة لا تُضاهَى؟!

وذات مرة؛ مشى أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) مع بغلة الشافعي وهو يسأله، فبعث إليه يحيى بن معين، فقال: أما رضيت إلا أن تمشي مع بغلته؟! فقال له أحمد مذكِّرًا بأهمية ملازمة العالم الراسخ: يا أبا زكريا، لو مشيت إلى جانبها الآخر، لكان أنفع لك(١).

بل إن هذه اللذة تمتد للعالم الذي غادر الدنيا منذ عقود أو قرون، فإن قراءتك لكتب بعض العلماء تجعلك تعيش وكأنك معه حاضرًا درسه، وجالسًا معه، متشوقًا للقياه، حتى إذا دخل الجنة جمعه الله به، فكانت اللذة أتم، والنعيم أكمل! ألم يقُل النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فما فرِحنا بشيء، فرحنا بقول النبي ﷺ: **أنت مع من أحببت**؟!(٢)

ومن عجائب السيَر في ذلك، ما ذُكر في سيرة ابن المكوى -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠١هـ) أنه كان يحب التابعي سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى- ويحرص على اقتفاء أثره وسيرته، لا يزال يذكره، ويحفظ أخباره، ويثني عليه. فلما احتُضر رُئي يتبسم، ويسلم ويشير بإصبعه، ويقول: انزل يا سيدي -رضي الله عنك- إليَّ الساعة أقوم معك. فسئل فقال: هذا سعيد بن المسيب معي جاءني. ثم قُبض(٣).

(١) طبقات الشافعيين (ص: ١٠٩).
(٢) صحيح البخاري (٣٦٨٨) وصحيح مسلم (٢٦٣٩).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٣٤/٧).

وإن حاجة الناس للعلماء ومحبتهم لهم لا تنقضي بانقضاء هذه الدنيا، بل تمتد إلى الآخرة، حين يدخل أهل الجنة الجنة. وخذ هذه القصة المحفزة:

جاء تلاميذ صفوان بن صالح (ت ٢٣٧هـ) إلى صاحبه سليمان التيمي (ت ٢٣٣هـ) -رحمهم الله تعالى- فقالوا: إن صفوان يأبَى أن يحدِّثنا. فقال له سليمان: بلغني أنك تأبَى أن تحدِّث. قال: يا أبا أيوب؛ منعَنا السلطان. قال: ويحكَ! حدِّث؛ فإنه بلغني أن أهل الجنة يحتاجون إلى العلماء في الجنة، كما يحتاجون إليهم في الدنيا. فحدِّث لعلَّك أن تكون منهم. فأتَوْا صفوان بعدها، فحدَّثهم[١].

قال ابن جماعة الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ) مُوصيًا لك بملازمة شيخك: ولا تشبعْ من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة، تنتظر متى يسقط عليك منها شيء[٢].

وإن إطلالة العالِم على بلد أو مجلس كإطلالة هلال رمضان أو شوال، تبتهج النفوس لمَرآهما.

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ): الدنيا كلها ظُلمة، إلا مجالس العلماء[٣].

وسيعرف التلميذ مقدار لذة مجالسة شيخه إذا فرَّق بينهما الموت.

ولذا قال أبو يوسف -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ) مُمْتنًا لشيخه: ما كان في الدنيا أحب إليّ، من مجلس أجلسه مع أبي حنيفة[٤].

وقال الفقيه العابد هياج بن عبيد الحطيني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٢هـ): يومٌ لا أرى فيه سعد بن علي الزنجاني، لا أعتدُّ أني عملتُ خيرًا. وكان هياج يعتمر كل يوم ثلاث عمرٍ، ويواصل الصوم ثلاثة أيام، ومع هذا كله؛ كان يعتقد أن نظَرَه إلى الشيخ سعد، والجلوسَ بين يديه، أجلُّ من سائر عمله[٥].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٤١/٢٤).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص١٤٢).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢٣٦/١).
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٣٦٢/١٦).
(٥) المنثور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي (ص: ٣٠).

وهذا الاحتفاء ليس مقصورًا على علماء الشريعة فحسب؛ بل يدخل فيهم علماء الآلة، وكل من تعلمتَ منه حرفًا، أو حتى حِرفةً.

قال ابن الوزير -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) وما أجمل وأجلَّ ما قال: لأهل كُلِّ فنٍّ من العلوم الإسلامية منَّةٌ على كل مسلم، تُوجِبُ توقير أهل ذلك الفن، وشكرهم، والدعاء لهم؛ لما مهَّدوا من قواعد العلم، وذلَّلوا من صعوبته، وكثَّروا من فوائده، وقيَّدوا من شوارده، وقرَّبوا من أوابِدِه، لا سيما من انتفع بعلومهم، ونظر في حوافِلِ تآليفهم.. ومن آداب العلماء والمتعلمين أن يبتدئوا القراءة في كل مجلس بالدعاء لمشايخهم ومعلميهم، وأهلُ كل فنٍّ هم مشايخ العالم فيه[1].

وهذا أبو الربيع الإربليُّ -رحمه الله تعالى- (ت القرن ٧هـ) قال عنه تلميذه المؤرخ ابن الشعار الموصلي: هو أستاذي الذي علَّمني الخط، وله عليَّ حق الوالد على ولده[2].

ولقد كان النِّهمون من المتعلمين قديمًا وحديثًا يتحرُّون مواسم؛ ليَلقَوا فيها علماء، فيَنهَلوا من علمهم، ومن تلك المواسم:

١. لقياهم بموسم الحج والعمرة، حيث يفِدون من كل فج عميق ليَشهدوا أعظم منافع لهم.

٢. السفر أو النزهة معهم، والنهَل من عِلمهم وسَمتهم.

٣. حضور الدورات العلمية، فإما عن قُربٍ، وإلا فعَن بُعدٍ إلكترونيًا.

٤. إجابة الدعوة للولائم، والمناسبات الاجتماعية التي يحضرونها.

٥. إذا زار العالِم بلدًا، ثم التقى وألقى علمًا، لا سيما ما كان لخاصة طلبة العلم.

٦. زيارة العالِم في منزله ومكتبته، ما لم يكن إثقالًا.

٧. استضافتهم في مَجمع أو مَحفل أو مَنشط.

٨. المبارَكة له فيما يُسعِدهم، أو فيما يُنجزونه من كتاب أو درس.

٩. الاتصال عليهم؛ للسؤال عن العلم أو الحال.

---

(١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٢٠/٤).

(٢) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (٧٩/٢).

١٠. مكاتبتهم، إن لم تُمكن مقابلتهم.

ألـم تـر أن العلم يُـذكـر أهلُه ... بكل جميل فيه والـعـظـم ناخرُ
سقى الله أجداثًا أجنَّت معاشرًا ... لهم أبـحُـرٌ مـن كـل علم زواخــر(١)

وطرح الأسئلة قد يكون فضولًا، لكن من الفضول ما يكون حسنة ونعمة، حين يوضعُ في موضعهِ، كسؤال التعلم، وعشق العلم، والوصول للحقائق. كما يكون نقمة، وسذاجة، ومرضًا عُضالًا حين يوضع في مواضع التطفّل، والأسئلة التي لا منفعة حقيقية تُرجى وراءَها.

فيا أيها القارئ الكريم: لا تستهِن بلُقيا العالِم، ولا تعتبرها كلُقيا سائر الناس، وإن العالِم لَضَنين بوقته، شحيح بخروجه من بيته، فاغتنم فرصة اللُّقيا بالاقتناص، وإلا ستندم كما ندم من لم يلقَ الشيخ وهو بين أظهره، حتى مات:

فدَتْكَ نفوس قصَّرت عنك لم تجِدْ ... لهم في فنون العلم إن سئلوا عزما(٢)

قال أبو الدرداء ﷺ (ت ٣٢هـ): مِن فِقه الرجل ممشاه، ومدخله، ومخرجه، ومجلسه مع أهل العلم(٣).

وقال شعبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٠هـ): وأيُّ شيء ألذ من أن تلقَى شيخًا في فَيءٍ، قد لقي الناس، وأنت تستثيره، وتُخرج منه العلم، قد خلوت به(٤).

فأما إن سنحت لك فرصة السفر مع شيخك لحج أو عمرة أو رحلة علمية، فذلك الخصب والرِّي الذي لا يفرط فيه إلا محروم.

ومن السير الجميلة أن معاوية ﷺ (ت ٦٠هـ) خرج حاجًا، معه ابن عباس ﷺ، فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم(٥).

واستشعِر حال طالب العلم النهِم إذا شطَّت به الديار عن شيخه؛ لسفر أو مرض،

(١) دمية القصر وعصرة أهل العصر (٦٧٠/١).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٥٧/٥).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢١١/١).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١٣٩/٢).
(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٩٣٥/٣).

أو طلب معيشة. فالوفي يَعُد الليالي ليلةً بعد ليلة؛ ليَلقَى شيخه، ويَنهل من علمه، فإن وجد فرصة اتصال أو تواصل عن بُعْد كان أول المنفِّذين.

يَطِيبُ العيشُ أن تَلْقَى حكيمًا غِـذَاه العلمُ والـنـظَـرُ المُصيبُ[1]

ومن السِيَر الحافلة بين الشيخ وتلميذه ما كان بين ابن حجر وتلميذه السخاوي، حتى لقد ترجم لشيخه كتابًا ضخمًا في ثلاث مجلدات. ومن العجائب المُبْهِرة أن عدد المواضع التي قال فيها السخاوي في الكتاب عبارةَ: (شيخنا) بلغت ٤٥٥٠ موضعًا.

وأعجب منه: سيرة عبد الرحمن بن أبي عمر بن قدامة المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٢هـ) فقد جمع أحدُ تلاميذه ترجمتَه وأخبارَه في مئة وخمسين جزءًا[2].

قال الحافظ الذهبي: ما رأيتُ سيرة عالم أطول منها أبدًا. وكان النووي يقول عنه:هو أجلّ شيوخي[3].

علماء محدِّثون سُمُّوا بشيوخهم المحدثين:

من العجائب الرائعة أنهم يلقِّبون العالِم بشيخه؛ لشدة ملازمته له.

وتأمل هذا الجدول المقتضب، في تسمية علماء بشيوخهم المحدثين؛ وذلك لشدة تلذذهم بهذا العلم وأئمته، وأنهم جمعوا حديثهم:

اسم العالم	سبب تسميته بهذا الاسم
١. محمد بن حمويه الطهماني	لجمعة حديث إبراهيم بن طهمان[4]

(١) الطيوريات (٢/٥٩٦).

(٢) لكن قال ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (٤/١٧٥): وبالَغَ، وبقي كلما أثنى عليه بنعتٍ من الفقه، أو الزهد، أو التواضع سرد ما ورد في ذلك بأسانيده الطويلة الثقيلة! ثم تحول إلى ذِكر الإمام أحمد! فأورد سيرته ومحنته كلها! كما أوردها ابن الجوزي، ثم أورد السيرة النبوية؛ لكونه من أمة النبي ﷺ!.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٧/٦٥٧).

(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢/٢٩٢).

اسم العالم	سبب تسميته بهذا الاسم
٢. محمد بن يحيى الذُّهلي الزهري	لجمعه حديث الزهري(٥)
٣. أحمد بن حمدون الأعمشي	لجمعه حديث الأعمش كله وحفظه(٦)
٤. الطريثيني(٢٢٩هـ)=دار أم سلمة	لأنه جمع حديث أم سلمة (٧) رضي الله عنها
٥. محمد الطرسوسي الوكيعي	لتتبُّعه حديث وكيع(٨)
٦. مِقسم مولى ابن عباس	لم يكن مولاه؛ وإنما لملازمته له(٩)
٧. سعيد بن وَهْب = القُراد	لشدة ملازمته لعلي (١٠) رضي الله عنه
٨. علي بن سهل العفَّاني	لملازمته عفان بن مسلم(١١)
٩. أبو علي اللؤلؤي =ورّاق أبي داود	لملازمته له، وكتابته سُنَنَه بإتقان(١٢)
١٠. عبد الله الهمذاني الدُّحيمي	لكثرة روايته عن دُحيم(١٣)

(٥) تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٧٨/١١).
(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠٤/٤).
(٧) طبقات علماء الحديث (١١٥/٢) وإكمال تهذيب الكمال (٣٧/١).
(٨) نزهة الألباب في الألقاب (٣١٣/٢).
(٩) العبر في خبر من غبر (٩١/١).
(١٠) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٣٦٨/٩).
(١١) ضبط من غبر فيمن قيده ابن حجر (ص: ٢١١).
(١٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٠٧/١٥)والورّاق في لغة أهل البصرة: القارئ للناس.
(١٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/٢٧) ونزهة الألباب في الألقاب (٢٩١/٢).

اسم العالم	سبب تسميته بهذا الاسم
١١. محمد بن زياد اليشكري الميموني	لكثرة روايته عن ميمون بن مهران[١٤]
١٢. ابن دِيْزِيلَ= دَابَّةُ عَفَّانَ	لملازمته لشيخه عفان[١٥]
١٣. أبو بكر العسكري = مبَرْمان	لكثرة سؤاله وملازمته للمبرّد[١٦]

وأما الآن؛ فخذ مثالًا رائقًا رائعًا لشيخ الحنابلة في هذا العصر، ألا وهو الشيخ عبد الله بن عقيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٢هـ) حيث عُيِّن قاضيًا بجازان في مقتبل شبابه، فانقطع عن النهْل من معين شيخه المقدَّم، الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) فأرسل التلميذ رسالة إشفاق ونصح لزملائه في الدرس، يحثهم على المواصلة، ويحضُّهم على الازدياد، ومما قاله: فإني أغبِطكم الآن على قُربكم من شيخنا، وتلقِّيكم عنه شتى أنواع العلوم، والمعارف، والأخلاق الطيبة، وأتمنى أني معكم، وأُفضِّل حالتكم على حالتي، ولعل بعض الناس يعُدُّني بذلك مُغاليًا، أو يفضِّل ما أنا فيه، أو يظنُّني مغتبطًا به، فإن كان كذلك؛ فأفيدكم بأني أرى هذا مخطئًا، وإني - واللهِ- متندِّم ومتأسِّف على ما فاتني من المشاركة معكم في الدروس طيلة هذه المدة، فاللهَ اللهَ يا إخواني!، احرصوا وحرّصوا على الازدياد من فوائده.. وما يُلقي عليها من التقريرات النافعة، التي لعلكم لا تجِدونها ع+ند غيره[١٧].

وحتى تدرك مقدار نَفاسة هذه الفرصة؛ فإليك طائفة من **المقالات والمواقف والوصايا في الحفاوة بلُقِيّ العلماء**، ومنها كما يلي:

- قال أبو الدرداء رضي الله عنه (ت ٣٢هـ): وما نحن لولا كلمات العلماء؟[١٨].

---

(١٤) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٦٣/٣٥) وتهذيب التهذيب (٣٦١/١٢).

(١٥) العبر في خبر من غبر (٤٠٣/١) وطبقات علماء الحديث (٣٠٨/٢).

(١٦) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٨٩/٣) وتاريخ الإسلام (١٩٦/٢٤).

(١٧) كتاب: الشيخ العلامة عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل (٤٦٨/١).

(١٨) سنن الدارمي (٤٠٤).

• قال التابعي ميمون بن مهران -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧هـ): وجدتُ صلاح قلبي في مجالسة العلماء[١].

• قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخ تُوُدِّع من العيش[٢].

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): الشيخ والمعلم أبُ الروحِ، والوالد أبُ الجسم[٣].

وصايا بشأن لُقيا العلماء ومُصاحَبتهم وسؤالاتِهم:

١. **اعمل بهذه الوصية بشأن أسلوب مجالسة العلماء**: إذا جالست العلماء، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع، كما تعلم حسن القول؛ فإن غُلبت على حسن القول، فلا تُغلبن على حسن الصمت[٤]

كل امرئ أسدى إليك صنيعةً مِن عِلمه فكأنها من مالِهِ[٥]

٢. **انتهز كل فرصة ولو قصُرت تَلقى بها العلماء:**

• العالِم النحوي قُطْرُب -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٦هـ) لقَّبه شيخه سيبويه بهذا؛ لمباكرته إياه في الأسحار، فيقول: أنت قُطربُ ليل. والقُطرب دُوَيبَّة تدِبُّ ولا تَفتُرُ[٦]

• قال المزني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ): خرجت مع الشافعي ليلة عيد من المسجد، وأنا أُذاكره في مسألة، حتى أتيت باب داره[٧].

• العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ) يقرأ عليه تلاميذه ساعة خروجه من عند السلطان، فإذا خرج قرؤوا عليه[٨].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/٢٢١).
(٢) طبقات الحنابلة (١/٢٧٤).
(٣) مدارج السالكين(٣/٧٠).
(٤) بغية الطلب في تاريخ حلب (١٠/٤٧٧٦).
(٥) البيت لأبي تمام بلفظ (جاهه)، ولكن التغيير من ابن فندمة في تاريخ بيهق (ص: ٩٥).
(٦) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٧٧).
(٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/١٣٢).
(٨) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٠٩).

٣. لا تمَلَّ من سؤال العلماء عن قُرب وعن بُعد:

• وافعل كفِعل الإمام أحمد بن نصر الخزاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ) مع شيخه سفيان بن عيينة، فقد قال: كنتُ في منزله بعد العتمة، فجعلتُ أُلحُّ عليه في المسألة، فقال: دعني أتنفَّس! فقلت له: يا أبا محمد! إني أريد أن أسألك عن شيء. فقال: لا تسأل. فقلت: لابد من أن أسألك، إذا لم أسألك فمن أسأل؟! فقال: هاتِ سَلْ(١).

• وكفعل يونس الألواحي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) الذي كان شيخه يكنيه بأبي الفتاوى؛ لأنه كان شديد الحرص على الاستفتاء في الحوادث، بحيث اجتمع عنده من ذلك جملة، وصار فيه عديم المثل(٢).

• حتى إن العلماء يوصونك أن تتحايل بالحق، وبالسحر الحلال؛ ليتجاوَب معك شيخك، ويفتح لك ما وهبه الله، فقالوا: إذا كان المحدث ممن يتمنع بالرواية، ويتعسر في التحديث، فينبغي للطالب أن يلاطِفه في المسألة، ويرفق به ويخاطبه بالسؤدد، والتفدية، ويديم الدعاء له؛ فإن ذلك سبيل إلى بلوغ أغراضه منه(٣).

• وقد كان الناس يسألون التابعي الكبير، الشعبي-رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ) من صلاة العصر إلى المغرب، فيقول: لو كنتم تُلقِموني الخَبيص لكرهْتُه(٤).

• قال آدم بن سعيد -رحمه الله تعالى- (بعد ١٩٧هـ): دخلت على وكيع بن الجراح في الطواف، فسألته عن أربع مئة مسألة، وحفظت عنه أجوبتها(٥).

• قال زِر بن حُبيش -رحمه الله تعالى- (ت ٨١هـ): خرجتُ في وفد من أهل الكوفة، وأيْمُ اللهِ! إلا للقاء أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين والأنصار. فلما قدمتُ المدينة أتيتُ أُبي بن كعب، وعبد الرحمن بن عوف، فكانا جليسَيَّ وصاحبَيَّ. فقال أُبي: يا زِر! ما

---

(١) الصفات للدارقطني ت الغنيمان (ص: ٤١).

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٠/٣٤٢).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١/٢٠٨).

(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٢/٢٢٤). والخبيص هو: الحلواء المعمول من التمر والسمن. انظر: القاموس المحيط (ص: ٦١٦).

(٥) تاريخ أصبهان = أخبار أصبهان (١/٢٠٧).

تريد أن تدعَ من القرآن آية إلا سألتني عنها، فقلت: يا أبا المنذر -رحمك الله- اخفض لي جناحك؛ فإنما أتمتع منك تمتعًا[١].

ولكن لا تكن مثل ذاك العَجلان، الذي يريد العلم خفيفًا سريعًا، كعلبة ماء، يأخذها مستوفزًا. ومن الطرائف أنه جاء رجل مستعجل إلى يحيى بن معين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٣هـ) فقال: يا أبا زكريا، حدثني بشيء أذكرْك به. فأراد يحيى أن يوجِّهه ممازحًا، فقال: اذكرني أنك سألتني أن أحدِّثك، فلم أفعل[٢].

٤. لا تتشاغل عن شيخك في مجلسه، ولا تضيع الدقائق؛ لئلا تقطع الدرس:
المحدث الفقيه العراقي عبد الوهاب ابن سكينة -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٧هـ) كان إذا دخل عليه الطلبة يقول: لاتزيدوا على «سلام عليكم»؛ من حرصه على المباحثة وتقرير الأحكام[٣].

٥. اكتشف بالسؤالات والمباحَثات كنوزًا من العلوم الأخرى من علم شيخك:

قال الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): العلم خزائن، وتفتحها المسألة[٤].

وقد كان العلامة النحوي أحمد بن حزم الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٠هـ) يُلقَّب بـ: زقيق النحو؛ لكثرة مُباحثته، وحِدَّة أسئلته وعُمقها[٥].

وبالمقابل فهذا النحوي الأديب ابن الخشاب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ) يقول: إني متقِن في ثمانية علوم، ما يسألني أحد عن علم منها، ولا أجد لها أهلًا[٦].

ما كان بِكْر علومي قطّ يخطبها ... إلا ذوو جِـدَة بالفضل أكـفـاءُ[٧]

٦. ارحل إليه ولو بَعُد، وإلا فعَنْ بُعْد.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٧/١٩).
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨٧/١١).
(٣) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٥٩/٢).
(٤) مسند الدارمي (٤٥٨/١) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٦٣/٣).
(٥) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٥٨٠/١).
(٦) ذيل طبقات الحنابلة (٢٤٧/٢).
(٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٩٤/١٠).

ألم تعلم انهم كانوا يرحلون للحج للقيا كبار العلماء[١]: وقد اجتمعوا في مجلس سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) فضجِر فقام، فقام إليه رجل من أقصى المجلس، فقال: يا أبا محمد، أتضجر؟! والله إن أحدنا ليَهِمُّ بالحج من أقصى خراسان، ولولاك ما حجَّ، وما يَنشَطُ إلا لِلِقائك، فجلس، وأنشأ يقول:

خَلَتِ الديار فسِدْتُ غيرَ مسوَّدِ ... ومن الشقاءِ تَفرُّدي بالسؤددِ[٢]

٧. بجِّل شيخك لدى الناس بما فيه، ورغِّب نُظَراءك للتتلمُذ عليه:

يقول تلاميذ إمام الحرمين الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ): ما رأينًا عاشقًا للعلم مثل هذا الإمام؛ فإنه يطلب العلم للعلم[٣].

ويقول تلاميذ ربيعة الرأي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦هـ) عن شيخهم: هو صاحب مُعْضلاتنا[٤].

ومثلهم قال الذهبي في شيخه المِزِّي: صَاحب مُعْضلاتنا، ومُوضِح مُشْكلاتنا[٥].

٨. اخدم مشايخك، وأكرمهم، وادعُهم لبيتك ومحلِّك:

• الأديب الإخباري ابن المرزبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٤هـ) كان أشياخه يحضرون عنده في داره، فيُسمعهم ويَسمع منهم، وكان عنده خمسون؛ ما بين لحاف ودواج، معدة لأهل العلم الذين يبيتون عنده[٦].

• قال يحيى بن معين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٣هـ): لي حانوت بباب الطاق، وددت أن عفان قرأ عليَّ كتب حماد بن سلمة، فأبيعه، وأدفع ثمنه إليه[٧].

---

(١) انظر حديثًا شائقًا عن رحلتهم للحج لأجل لُقيا العلماء، وذلك ضمن آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٤١٩/١٥) -وقد مرّ نَقْل بعضه آنفًا-.

(٢) الفوائد المنتخبة لابن بشكوال (٥٩٩/٢) وبغية الطلب في تاريخ حلب (٢٥٢٥/٦).

(٣) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٢٨٣) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٧٩/٥).

(٤) المعرفة والتاريخ (٦٦٨/١).

(٥) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام - للذهبي ت. محمد العجمي (ص: ٥٠).

(٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣٧٢/١٤) والدواج هو غطاء السرير.

(٧) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٧٢/٢٠).

• وجاء يحيى بن معين عند عفان، فقال عفان: ليس هنا اليوم حديث؛ لأن الباب مقفل، والجارية ليست هنا. فقال يحيى: أنا أفتح. ففتح القفل بشيء. فقال عفان: أَتَفُشُّ القُفل أيضًا؟! وحدَّثهم[١].

٩. اقدُر لهم قَدْرهم؛ فإنهم مِلحُ البلد الذي يسكنونه، بل حياته:

وتأمل قصة العالم عبد الله بن عضيب-رحمه الله تعالى- (ت ١١٦١هـ) حين رغِب أمير عنيزة وكبار أهلها في استجلابه إلى بلدهم، فركبوا إليه، وأتوا به، فأوقَفَ أحد الرّاغبين في الخير بيته؛ ليُدَرّس فيه الشّيخ، فنشر العلم في عنيزة، وأعان الطّلبة بماله وبكتبه، حتى لقد قال له الأمير وأكابرُ بلده: كنّا أمواتًا، فأحيانا الله بك[٢].

١٠. تعاهَد شيخك بالزيارة بما لا يُثقِلُه، ولا يكن حضورك له للدرس فحسب:

قال أبو الحسن الكرخي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٠هـ): كنتُ أَحضر مجلس أبي حازم يوم الجمعة بالغداة، من غير أن يكون درس؛ لئلا أنقُضَ عادتي من الحضور[٣].

١١. إن كنت شاعرًا فانظم لشيخك مشاعرك، أو ناثرًا فدبّج عباراتِ تحفيزٍ وشكرٍ لشيخك:

وهذا تلميذ لابن حجر يقول مخاطبًا له:

قصدت حضرتك العلياء من وطني ... هجرتُ صحبة إخواني والأَّلافي
حرصًا على العلم والتحصيل مجتهدا ... لعلّني أغترفْ من بحرك الصافي
يا ملجأً لذوي الآمال قاطبة ... انظر لمغترب للعلم طوَّافِ
واجبره ثم أَعِنه في تطلُّبهِ ... فأنت معدن ألطاف وأعطافِ[٤]

---

(١) رياضة المتعلمين لابن السني - تحقيق نظام يعقوبي (ص٣٤٤).
(٢) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٢/٦٠٦).
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه للعسكري (ص: ٧٨).
(٤) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣/٣٥٨).

١٢. موت العلماء مصيبة، يَنْفطِر لها القلب، فاعرف لهم قدرهم بعد موتهم:

قال أحد تلاميذ ابن تيمية -رحمهما الله تعالى- وهو عبد الله بن حامد الشافعي[١]: لما عزمتُ على المهاجَرة إلى لُقِيِّه، وصلني خبر اعتقاله، وأصابني لذلك المقيم المقعَد، ولما حججتُ سنة ثمان وعشرين وسبع مئة، صممتُ العزم على السفر إلى دمشق؛ لأتوصل إلى ملاقاته، ببذل ما أمكن من النفس والمال؛ للتفريج عنه، فوافاني خبر وفاته..فوجدتُ عليه ما لا يجده الأخ على شقيقه، -وأستغفر الله- بل ولا الوالد الثاكل على ولده، وما دخل على قلبي من الحزن؛ لموت أحد كما وجدتُه عليه، ولا تخيَّلته قط في نفسي، ولا تمثلتُه في قلبي إلا ويتجدد لي حزن جديد، كأنه مُحْدَث، ووالله ما كتبتُها إلا وأدمعي تتساقط عند ذِكره؛ أسفًا على فراقه وعدم ملاقاته، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢].

تساؤل:

هل من الأدب مع شيخك أن تُفتيَ بحضوره سائلًا، أو أن تُحيلَ السائل على شيخك؟

الجواب: بكلٍ قد فَعَلَ السلف الصالح، ولا يمكن الجواب عن هذا التساؤل بجواب موحَّد، ولكن المقامات تختلف، بحسب الأحوال والأشخاص، والزمان والمكان.

ولكن الأصل جواز الإفتاء بحضرة شيخك، ولا يُعَدُّ ذلك من قلة الأدب، وإليك على هذا الأصل دليلين:

١. ابن عمر ومولاه سالم ﷺ ، كانا حاجَّين، فسأل الحَجاج بن يوسف -وكان أميرَ مكة-: كيف تصنع في الموقف يوم عرفة؟ فأجابه سالم، فقال ابن عمر: صدق[٣].

---

(١) لم أعثر لهذا الوفي على ترجمة! لكن لا يَضُرُّه أنا لا نَعلمه، ويكفيه أن الله يَعلمه، وعلى مشاعره الجيّاشة نحو هذا الجبل الأشم، وسيَجزيه ربه الجزاء الأوفى.

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٥١٩).

(٣) صحيح البخاري (١٦٦٢).

ففيه فتوى التلميذ بحضرة معلمه عند السلطان وغيره(١).

٢. سألت امرأةٌ النبيَّ ﷺ عن غُسلها من المحيض، فقالت عائشة ﵂: فاجتبَذْتُها إليَّ، فقلت: تتبَّعي بها أثَرَ الدم(٢). ففيه: الأخذ عن المفضول، مع وجود الفاضل وحضرَتِه(٣).

مسألة في لُقيا الشيوخ عبر الأثير أو التسجيل:

من نعم الله الجُلَّى هذه التقنية العلمية التي يسر لقيا الأشياخ، والتتلمُذ عليهم، وأخذ الإجازات عنهم. فيا ربَّنا لا يَجزي بآلائك أحد.

وبعض طلبة العلم يكتفون بسماع سلسلة دروس العلماء، من خلال دروسهم في الشبكة التقنية، فهل تكفي في تَلَقِّي العلم؟

وقد سئل شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) هذا السؤال، فأجاب فضيلته بقوله: لا شك أن هذه الأشرطة تكفيهم عن الحضور إلى أهل العلم، إذا كان لا يمكنهم الحضور، وإلا فإن الحضور إلى العلماء أفضل، وأقرب للفهم والمناقشة(٤).

وقال: أنا لا أقول إنه لا يدرَك العلم إلا بالتلقي من المشايخ، فقد يدرك الإنسان بالقراءة، لكن دراستك على الشيخ تُنوِّرُ لك الطريق، وتختصره.

وأما قولهم: «مَن كان دليله كتابَه فخطؤه أكثر من صوابِه»، فهذا ليس صحيحًا على إطلاقه، ولا فاسدًا على إطلاقه..(٥).



(١) فتح الباري لابن حجر (٥١٢/٣).
(٢) صحيح البخاري (٣١٤).
(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٨٧/٣).
(٤) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١٥٠).
(٥) المصدر السابق (ص: ٣٨ و٨٤ و٩٧) وتوجيه العبارة مرَّ في أول الكتاب. فانظره هناك تحت عنوان: (عبارات مثبِّطات.).

٧٢. نماذج للأوفياء ممن لازم الدعاء لشيخه أو ضحّى أو حجَّ عنه أو عمن أفادوا منه علمًا

ما أجمل صفة الوفاء من أهلها، وإن أهل العلم كانوا أحق بها وأهلها.

ويبلغ الوفاء مبتغاه، ويصل منتهاه حين يكون بعد الوفاة، فيتصل سند البر من الحياة إلى الممات، وأوّل ذلك وأَولاه الدعاء ثم الدعاء. وليس هو أن تقول: «رحمه الله» عَرَضًا عند ذكر اسمه حينًا من الدهر؛ بل تتقصد ذلك عند ساعات الإجابة، وتنشر ذكره وعِلمه؛ ليُدعَى له.

وإذا كان الكبراء والشعراء يخلِّد ذكراهم مريدُوهم، فكيف بالعلماء الأجلاء؟!

وهذا الشاعر أبو العلاء المعري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٩هـ) لما توفي كان على رأس قبره ثمانون شاعرًا يرثونه، وختم في أسبوع على رأس قبره مئتا ختمةٍ[١].

وإن هؤلاء العلماء قد قدموا للأمة خدمات جليلة، وأناروا طريقهم، وبصَّروهم في سيرهم إلى ربهم. أفلا يستحقون منا الدعاء، وإهداء ثواب الأعمال.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنما مَثَل العالِم، كمَثَل رجل حمل سراجًا في طريق مُظلم، يستضيء به مَن مرَّ به، وكلٌ يدعو له بالخير[٢].

وإذا كان العجماوات، كالحوت والنملة تدعو للعالِم، فإن تلميذ العالِم أو المنتفِع منه عبر القرون أولى من الحوت والنملة.

قال الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ): وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدة منافع، كالولد الصالح العالم الذي سعى أبوه في تعليمه[٣].

---

(١) حديث السلفي عن الأبهريين (ص: ٥٤).

(٢) سنن الدارمي (٥٧٦).

(٣) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار (ص: ١٠٤).

خمسة نماذج لمن ترجموا لمشايخهم؛ امتنانًا ودعاءً لهم:

١. السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) قال عن شيخه الذهبي: هو على الخصوص سيدي ومعتمدي، وله عليَّ من الجميل ما أخجل وجهي، وملأ يدي- جزاه الله عني أفضل الجزاء، وجعل حظه من غرفات الجنان موفر الإجزاء-[١].

٢. قال الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): لقيت يوما شيخنا الأستاذ المشاور أبا سعيد بن لب، أكرمه الله.. وكنت قبل هذا المجلس تترادف عليّ وجوه الإشكال، في أقوال مالك وأصحابه، فبعد ذلك المجلس شرح الله بنور ذلك الكلام صدري، فارتفعت ظلمات تلك الاشكالات دفعة واحدة -لله الحمد، وجزاه الله عني خيرًا وجميع معلمينا-[٢].

٣. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) قال عن شيخه الهيثمي: وكان يَوَدُّني كثيرًا، ويشهد لي بالتقدم في الفن -جزاه الله عني خيرًا-، وكنت قد تتبعتُ أوهامه في كتابه «مجمع الزوائد» فبلغني أن ذلك شقَّ عليه، فتركته رعايةً له[٣].

٤. ابن الدِّيْبَع -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٤هـ) قال عن شيخه السخاوي: كان يجلُّني، ويقدمني على سائر الطلبة، ويؤثرني، وأحسن إليَّ كثيرًا -جزاه الله عني خيرًا-[٤].

٥. ابن عبد الباقي الحنبلي البعلي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٢٦هـ) مُمتنًا لشيخه ابن بركات الكوافي: ولم يكن أحد أمهر منه في تعليم البلداء مثلي، أدبني آدابًا كثيرة، ونصحني ونفعني ووعظني مواعظ كثيرة، ونصحني نصائح عظيمة، وأجازني بسائر مروياته -فجزاه الله عني خيرًا-[٥].

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٣/٥٧).
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٥٩).
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/٣١٠).
(٤) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ١٩٣).
(٥) مشيخة أبي المواهب الحنبلي (ص: ٤).

نماذج مشرقة لمن لازموا الدعاء لمن أفادوا منه علمًا:

وإني سائلك سؤالًا أفجَؤُك فيه: هل تخصُّ وتنصُّ بالدعاء للأئمة الأعلام، الذين أفدْتَ من كتبهم أو دروسهم، أو لمعلِّميك الذين كان لهم أثر إيجابي في مسيرتك التعليمية أو التربوية؟!

لقد حَفِظَتْ لنا كتب التراجم جانبًا كبيرًا من دعوات الشيوخ لشيوخهم، جيلًا بعد جيل، وإليك ستة عشر مثالًا جليلًا جميلًا، متسلسلًا متناسلًا:

١. قال أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) عن شيخه حماد بن أبي سليمان: إني لأدعو الله لحماد، فأبدأ به قبل أبوَيَّ، وإني لأستغفر لمن تعلمتُ منه علمًا، أو علمتُه علمًا[1].

٢. قال أبو يوسف -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ) عن شيخه أبي حنيفة: إني لأدعو له قبل أبوي[2].

٣. قال عبد الله بن داود الخريبي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٣هـ): ينبغي للناس أن يدْعوا في صلاتهم لأبي حنيفة؛ لحفظه الفقه والسنن عليهم[3].

٤. قال الليث -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٤هـ) إني لأدعو الله لمالك في صلاتي. وذكر حاجة الناس إليه في الفتوى[4].

٥. قال عبد الله بن وهب -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ): جعلت على نفسي ألا أحضر جنازة إلا وقفت على قبر الليث بن سعد؛ أدعو له[5].

٦. قال يحيى بن سعيد القطان -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٤هـ): إني لأدعو الله -تعالى- للشافعي في كل صلاة. يعني لما فتح الله ﷻ عليه من العلم، ووفقه للسداد فيه[6].

---

(١) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ٢١) وتاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٣/٣٣٤).

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (١٥/٤٦٦).

(٣) البداية والنهاية ط هجر (١٣/٤١٩).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٠/٢٦١).

(٥) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/١٠٤).

(٦) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/٢٠٢).

٧. قال عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) بعدما انبَهَر من كتاب «الرسالة»: ما أصلي صلاة إلا وأنا أدعو للشافعي فيها[١].

٨. قال أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): إني لأدعو الله للشافعي في سجودي منذ أربعين سنة أكثر مما أدعو الله لأبَوَيَّ. وقال لولد الشافعي: أبوك أحد الستة الذين أدعو لهم سَحَرًا[٢].

٩. قال أسد بن الفرات -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٣هـ): إني لأدعو في أدبار صلاتي لمعلمِيَّ، وابدأ بعلي بن زياد؛ لأنه أول من تعلمتُ منه العلم[٣].

١٠. قال إسحاق بن راهويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٧هـ): قَلَّ ليلة، إلا وأنا أدعو لمن كتب عنا، ولمن كتبنا عنه[٤].

١١. قال ابن المقرئ الأصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨١هـ) عن شيخه أبي علي النيسابوري: إني لأدعو له في أدبار الصلوات[٥].

١٢. كان للمقرئ العابد أبي حمدون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٠هـ) صحيفة فيها مكتوب ثلاث مئة من أصدقائه. يدعو لهم كل ليلة، فترَكهم ليلة واحدة، فقيل له في نومه: يا أبا حمدون! لمْ تُسرِجْ مصابيحَك الليلة![٦].

١٣. أبو جعفر الكاغدي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٥هـ) رئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غَفر لي ولم يحاسبني. قيل: بماذا؟ قال: أما المغفرة؛ فإني كنت أقول في رواياتي لمشايخي: أخبرك -رضي الله عنك- فلان، ثم أقول: حدثني فلان -رحمه الله-. وأما ترك المحاسبة؛ لأني كنت أقول في كل حديث: ﷺ[٧].

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٢/٤٠٤).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/٣٣٣ و٣٣٩) ولمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح (١٠/٢٥٦).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/٨٢) وطبقات علماء إفريقية (ص: ٢٥١).
(٤) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١١٥).
(٥) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٣/٨٤٣).
(٦) تاريخ بغداد ت بشار (١٠/٤٩٣).
(٧) أدب الإملاء والاستملاء (ص: ١٠٠) والمنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١١٦) .

١٤. وهذا محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) إذا روى عن مشايخه لفظًا أو كتابةً لم يُخْلِ ذكرهم عن صالح الدعاء، ومَن كانت استفادته منه أكثر كان تعظيمه له أوفر(١).

١٥. وهذا جمال الدين القاسمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) يقول: وإني لأدعو من صميم فؤادي عقب الصلوات، وخوتم الدروس، ومظان الإجابات، لكل من أفادني وعلمني وأرشدني(٢).

١٦. يَذكر أحد أقارب الشيخ الزاهد صالح الرشيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٦هـ) أنه يدعو في قيام الليل لمشايخه وأقاربه، ولكثرتهم؛ فقد كتب أسماءهم بدفتر.

لفتة جميلة:

ما أجمل ما قاله بدر الدين ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ) عند الحديث الصحيح الذي رواه مسلم، أن النبي ﷺ قال: **إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**(٣).

قال ابن جماعة: إذا نظرتَ وجدتَ معانيَ الثلاثة موجودة في معلم العلم؛ أما الصدقة فإقراؤه إياه العلم وإفادته إياه، ألا ترى إلى قوله ﷺ في المصلي وحده: **من يتصدَّق على هذا؟** أي بالصلاة معه؛ لتحصل له فضيلة الجماعة، ومعلم العلم يحصل للطالب فضيلة العلم، التي هي أفضل من صلاة في جماعة، وينال بها شرف الدنيا والآخرة، وأما العلم المنتفع به فظاهر؛ لأنه كان سببًا لإيصال ذلك العلم، إلى كل من انتفع به.

وأما الدعاء الصالح له؛ فالمعتاد المستقرأ على ألسنة أهل العلم والحديث قاطبة من الدعاء لمشايخهم وأئمتهم، وبعض أهل العلم يَدعون لكل من يُذكر عنه شيء من العلم، وربما يقرأ بعضهم الحديث بسنده، فيدعو لجميع رجال السند! فسبحان من اختص من شاء من عباده بما شاء من جزيل عطائه(٤).

---

(١) التدوين في أخبار قزوين (٣٨١/١).
(٢) الإجازة للقاسمي (ص١).
(٣) صحيح مسلم (١٦٣١).
(٤) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص: ٣٣).

وحريٌّ بمن أُسدي له معروف أن يكافئ عليه، وإلا فالدعاء فهو خير موهوب. فكيف بمن أُسديَ له معروف يتمثل بتعليم وتربية؟! فهذا المقام أجدر بالوفاء، وأحق بالدعاء.

ومن وصايا أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) لتلميذه أبي يوسف: واستغفر للأستاذ، ومن أخذت عنهم العلم(١).

وقال أبو محمد التميمي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) لتلاميذه: يَقْبُح بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا، فلا تترحموا علينا(٢).

الأوفياء الذين حَجُّوا أو ضحَّوا أو تصدقُوا عمَّن لهم فضل عليهم:

ثمت أهل وفاء مبارَكون، لم يكتفوا بالدعاء لمن أفادوا منهم -والدعاء خير مكافأة- ولكن زادوا عليه، فحجُّوا، وضحَّوا عنهم، أو عمَّن لم يحجَّ منهم. وهذه مكافأة تدل على سخاء نفوس، وبر ممتد.

وأما النماذج المشرفة فيمن يُضحّي عمّن أسدى له معروفًا؛ فهو باب يطول ويَجمل. ومن جميل أمثلته: ما بلغني أثناء إعداد الكتاب، بإفادة أخي الأستاذ الكريم/ عبد الله بن عبد العزيز الحمين، أن الشيخ محمد الدرويش (ت١٤٠٦هـ) -وكلاهما من أهل الزلفي- كان يُضحِي مدة ثلاثين عامًا، عن مدير الديوان الملكي أ. يوسف ياسين (ت ١٣٨١هـ) وعن مديره المباشر أ. رشدي ملحس؛ وذلك وفاء منه، لحسن تعاملهما معه ومع الموظفين. فرحم الله المضحِّي والمضحَّى عنهما.

وقد تَواتَر عن بعض طلاب العلم والصالحين وعوام نجد، أنهم يضحُّون خصوصًا عن المجدد محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٦هـ)، وقد يكتبونه في وصاياهم.

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص: ٥٣).

(٢) الغنية في شيوخ القاضي عياض (ص: ١٣٦).

وإليك الآن نماذج من أولئك الأوفياء الذين حَجُّوا أو ضحُّوا أو تصدقوا عمن له فضل عليهم، لا لِرَحِمِ القرابة بينهم، وإنما لِرَحِمِ العلم - والعلم أقوى-(١):

١. أحد الطلاب الأوفياء المجهولين عند أهل التراجم قد حَجَّ عن شيخه الحافظ إسماعيل بن توبة القزويني-رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٩هـ)(٢).

٢. أحمد بن عبد الرزاق المنيعي (ت ٥١٢هـ) حَجَّ عن جَدِّه، وعن شيخه الفقيه أبي الحسن الشيزري، وعن شيخه القاضي الإمام أبي علي المرووذي -رحمهم الله تعالى-(٣).

٣. الفقيه الزاهد أبو الحسين الحلبي الشافعي (ت ٥٩٠هـ) حَجَّ عن ابن ياسر الجياني -رحمهما الله تعالى-(٤).

٤. مرَّ آنفًا أن الطوفي الصرصري -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٦هـ) يقول: إذا رأيتُ فائدة مستغربة، أو حَلِّ أمر مشكل، أقرأ لمصنف الكتاب شيئًا من القرآن، وأجعل له ثوابه(٥).

---

(١) من الغرائب والنوادر في إهداء ثواب الأعمال أن العابد علي بن الموفق-رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٥هـ) يقول: حَجَجْتُ عن رسول الله ﷺ ثلاثين حَجة! فقال تلميذ له: فأنا أقتدي بعلي بن الموفق؛ حججتُ عن رسول الله ﷺ سبع حِجج، وضحيت عن رسول الله ﷺ مئة وسبعين أضحية، وقرأت القرآن عن رسول الله ﷺ اثني عشر ألف مرة!! وقال تلميذ التلميذ: إني اقتديت بأبي العباس؛ حججتُ عن النبي ﷺ سبع حِجج، وختمت عنه سبع مئة ختمة!! ولكن يبقى سؤال عند هذا، فيقال: هل يشرع مثل هذا؟! والجواب خذه من كلام شيخِ الإسلامِ ابنِ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) حيث يقول في مواضع متعددة عن هذه القضية: ما سمعتُ أن أحدًا كان يُهدِيْ إلى النبي ﷺ إلاَّ ما بَلَغَني عن علي بن الموفَّق ونحوه.
والاقتداءُ بالصحابة والتابعين وتابعيهم أولى. والصواب المقطوعُ به أنه بدعةٌ.فإن هذا عمل مبتدع لم يقم على استحبابه دليل شرعي. وإنا لم نعلم أحدًا من القرون الثلاثة المفضلة فعلَ مثلَ هذا. والمجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر، لكن إذا تبين الحق وجبَ اتباعُه. والله أعلم.
انظر: تاريخ بغداد ت بشار (٥٩٨/١٣) وجامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة الرابعة (ص: ٢١٢ و٢٥٥ و٢٩٩).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٨٠/١٣).

(٣) الوافي بالوفيات (٣٨/٧).

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (٣٨٢/٤١).

(٥) شرح مختصر الروضة للطوفي (١٠٩/١).

٥. من لطائف السِيَر أن تلميذًا للحافظ ابن حجر، واسمه عبد العزيز المنهاجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٩هـ) قد كتب أربع نُسَخ من «فتح الباري»، وكان كلما ختم نسخة يتصدق عن مؤلفه بشيء، وينوي عند شروعه فيها أن يحج عنه، ومع ذلك فلم يتهيَّأ له[١].

٦. الوجيه الشيخ عبد الرزاق الجويعي (بعد ١٣٤١هـ) وهو من أهل الزلفي، أوصى في وصيته المكتوبة عام ١٢٩٩هـ، بأضحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب وما تسلسل من ذريته، وأخرى للإمام محمد بن سعود، وابنه عبد العزيز -رحمهم الله تعالى- وما تسلسل من ذريته[٢]. ولا زال أحفاده بعد أولاده ينفذون الوصية، بعد مضي مئة وستة وأربعين سنة.

٧. الشيخ صِدِّيق حسن القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـ) حج عن الشوكاني -رحمهما الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ).

٨. الشيخ علي بن شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٣هـ) كان معلمًا ومربيًا للمليونير الشيخ سليمان الراجحي -حفظه الله تعالى-، فكان يضحي عنه كل سنة، منذ ثمانين سنة، وأوصى من يحج عنه ويعتمر[٣].

٩. الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد (ت ١٤٠٢هـ) دوَّن في وصيته: أن يضحَّى لشيخه حمد بن فارس -رحمهما الله تعالى-. قال: لأنه هو الذي فتح لي طريق العلم الشرعي، وشجَّعني عليه.

١٠. الشيخ الزاهد فهد بن عبيد (ت ١٤٢٢هـ) كان يضحِّي كلِ سنة عن الإمام أحمد، وابن تيمية، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، والإمام محمد بن سعود، والملك عبد العزيز، وعن زوجة الملك -رحمهم الله تعالى-.

١١. الشيخ عثمان الدبيخي (ت ١٤٢٨هـ) كان يضحي عن أستاذه الشيخ صالح المحمد الصقعبي -رحمهما الله تعالى- فاستمرت الأضحية بعد وفاته.

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٣٧/٤).
(٢) علماء وأعلام وأعيان الزلفي - فهد الكليب (ص: ١٩٩).
(٣) ضمن لقاء مرئي مطول مع الراجحي.

١٢. الشيخ أحمد بن عبد الله آل عمران (؟هـ) من رأس الخيمة بالإمارات، كان يضحِّي طيلة حياته عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمهما الله تعالى-(١).

١٣. التاجر الشيخ موسى بن حمد العليان -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣١هـ) كان يُضحِّي كل عام عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وعن عدد من أهل العلم(٢).

١٤. مؤسِّس بنك البلاد، الشيخ محمد السبيعي (ت ١٤٣٨هـ) كان يضحي أربع أضاحٍ كل عام عن: الإمام محمد بن عبد الوهاب، والملك عبد العزيز، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ ابن باز-رحمهم الله تعالى-(٣).

١٥. سماحة مفتي المملكة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله تعالى- حجَّ عن خمسة علماء لم يَحجوا: ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) وابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) والمنذري (ت ٦٥٦هـ) والنووي (ت ٦٧٦هـ) وابن رجب (ت ٧٩٥هـ) -رحمهم الله تعالى-(٤).

١٦. وجدتُ صورة وصية، حُررت عام ١٢٧٤هـ، والموصية: شويهة بنت عبد الله، وقد جعلتْ أضحيتين على الدوام لوالديها، وللشيخ محمد بن عبد الوهاب وذريته.

١٧. الشيخ عبد الله بن مشاري -رحمه الله تعالى- (بعد ١٣٢٨هـ) وهو إمام مسجد الداخلة، يوصي - كما في صورة الوصية عندي- بأضحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وآل الشيخ، وآل سعود.

١٨. محمد نَصِيف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩١هـ) عالم «جدة» وتاجرها ومِضيافها حجَّ عن ابن تيمية(٥).

١٩. الشيخ إبراهيم بن عبد الله بن حمود الطريقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٧هـ) من أهل الزلفي، فقد أخبرني حفيده الأستاذ محمد -حفظه الله- أن جَدَّهُ كان يضحي

---

(١) عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان - عبد الله المطوع (ت ١٣٧٩هـ) .

(٢) أخبار الأخيار- عبد السلام العييري (ص١٩٠).

(٣) من كتاب: رحلة الفقر والغنى في سيرة السبيعي (ص١٢٧).

(٤) في مقابلة مرئية مع سماحته.

(٥) الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي د. محمد العجمي (ص: ٦٦). علما أن ابن تيمية قد حجّ مرة واحدة، وعمره إحدى وثلاثون سنة. .

عن ستة أشخاص، ولكل واحد منهم أضحية مستقلة، ثم كتب ذلك في وصيته، والستة هم: شيخه عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ، والملك عبد العزيز، وعن ابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله تعالى-. وقد واصل تنفيذ وصيته ابنه الشيخ سليمان الطريقي، ثم بعض أحفاده -حفظهم الله تعالى-.

٢٠. مفتي اليمن محمد بن إسماعيل العمراني (ت ١٤٤٢هـ) حجَّ عن الإمام الشوكاني -رحمهما الله تعالى-[1].

٢١. جارنا العابد الزاهد رومي بن عبد الرحمن الرومي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤١هـ) من أهل الزلفي، كان يضحي عن الإمامين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود -رحمهما الله تعالى-. حدثني بذلك ابنه د. عبد الرحمن -حفظه الله-.

٢٢. أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري -حفظه الله تعالى- حجَّ عن ابن حزم.

٢٣. الشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد، حجَّ -مرة- عن الشيخ محمد الخضر حسين، وأخرى عن الشيخ الطاهر ابن عاشور.

٢٤. أحد المشايخ المعاصرين بمكة حجَّ عن ابن حزم.

٢٥. أحد المشايخ المعاصرين بالكويت حجَّ -أيضًا- عن ابن حزم.

٢٦. وهذا الشيخ الكويتي -أيضًا- حجَّ عن ابن الحدَّاد[2].

٢٧. دكتور في جامعة أم القرى حجَّ عن الفقيه الأصولي الشافعي أبي إسحاق الشيرازي.

٢٨. غرَّد أحد كبار النحاة في عصرنا بأنه اعتمر عن إمام النحو سيبويه.

مسألة: ما حكم الحج عن الميت؟

قال سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ): إذا مات الرجل ولم يَحج..فإن

(١) من تغريدة للشيخ أحمد بن غانم الأسدي، وهو تلميذ للشيخ العمراني.
(٢) وسيأتي ذِكر ابن الحداد فيمن لم يحج.

أحجُّوا عنه رجلًا تطوعًا فلا بأس. وقال ابن أبي ليلى والأوزاعي والشافعي: يُحَج عن الميت، وإن لم يوصِ به، ويُجزيه[١].

مَسْرَد لبعض من لم يحُجَّ من العلماء، لعل أحدًا يَحج عنهم:

لا نشك أن تركهم للحج ليس كسلًا، بل ما استطاعوا إليه سبيلًا، إما عجزًا ماليًا أو بدنيًا، أو خوفًا من الطريق.

وتجِد كثيرًا من هؤلاء العلماء لا يُتقِنون كتاب المناسك؛ لأنهم لم يمارسوا الحج عمليًا.

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): مِن أهل العلم مَن أخطأ في كثير من أحكام المناسك؛ لأنه لم يَحُجَّ[٢].

وإليك مَسْردًا بأسمائهم، فيما يلي:

١- التابعي عمارة بن غراب اليحصبي -رحمه الله تعالى- (بعد ٦٠هـ): قالت له عائشة: شيخ مثلك لم يحج؟! ما كان يؤمِّنك أن يدركك الموت؟! فقال لها: إنا كنا بإفريقية نجاهد عدونا، ولا نجِدُ إلى الحج سبيلًا. فقالت: إن كنتَ كذلك؛ فإن الله -تعالى- يَعذر بالمعذرة[٣].

٢- شيخ البخاري حفص بن عمر الحوضي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٥هـ) مات وقد أتى عليه نيِّف وتسعون سنة، ولم يحجَّ قط[٤].

٣- أبو يعقوب الصنعاني الدَّبَري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٥هـ) وقد كان تلاميذه يدعون له، ويعِدونه بأنهم يطوفون عنه، إذا أتوا مكة، ويعتمرون عنه، فيُسَرُّ بذلك[٥].

٤- شيخ المالكية ابن الحداد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٤هـ) كان يتقوَّت باليسير، ولم يحجَّ[٦].

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر (١٦٧/٤).
(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص١٤).
(٣) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (١٢٨/١).
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٣٩/١٦).
(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧/١٧).
(٦) سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٢٦/١١).

٥- اللغوي المعروف بـ«ابن سِيده» -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ) مصنف «المحكم». قال في الجِمار: هي التي تُرمى بعرفة!. فعلق ابن حجر على ذلك بقوله: يُعذر؛ لكونه لم يكن فقيهًا، ولم يحجَّ[١].

٦- ابن حزم الظاهري -رحمه الله تعالى- (ت هـ) قرر مشروعية الرمل في السعي! ولم يقله، ولا نقله غيره. قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): وسألت شيخنا عنه، فقال: هذا من أغلاطه، وهو لم يحجَّ[٢].

٧- شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) لم يحجَّ، ولا وجب عليه؛ لأنه فقير[٣].

٨- أبو عبد الله الدامغاني الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) لم يحجَّ[٤].

٩- ابن أبي العصافير الخزرجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٤هـ) لم يحجَّ، وكان ذا حظٍّ من علم الأصول والأدب[٥].

١٠- المحدث المفسر ابن الفراء الحسين البغوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٦هـ) لم يحجَّ، وقد جاوز الثمانين[٦].

١١- القاضي عياض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٤هـ) قال: يطوف الحاج للوداع مرتين. فعلق ابن حجر -رحمه الله تعالى- قائلًا: والقاضي في هذا معذور؛ لأنه لم يشاهد تلك الأماكن[٧].

١٢- محمد بن إبراهيم المهري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ): كان علَم وقته علما

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٤٨/٣٠) ولسان الميزان (٢٠٥/٤).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢١٣/٢).

(٣) العبر في خبر من غبر (٣٣٤/٢).

(٤) طبقات الفقهاء الشافعية (٣٠٦/١) وقالوا عن الشيرازي والدامغاني: أما الشيرازي فما كانت له استطاعة الزاد والراحلة، ولكن لو أراد الحج لحملوه على الأحداق إلى مكة، والدامغاني لو اراد أن يحج على السندس والإستبرق أمكنه؛ ومع ذلك ما حجًّا.

(٥) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٥٣٧).

(٦) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢٨١/١) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٧٩/٦).

(٧) فتح الباري (٦١٣/٣).

وتفننًا.. ورحل قاصدًا الحج، ولما وصل مصر مرض، واستزاره سلطانها يومئذ، ثم رجع وما حجَّ[١].

١٣- الخطيب جمال الدين الدولعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٥هـ) كان حريصًا على الخطابة؛ حتى إنه لم يحجَّ حجة الإسلام؛ خوفًا على المحراب أن يَخرج عنه[٢].

١٤- العالم المتفنن ابن الصفار الأنصاري الضرير القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٩هـ) كانت له رحلة إلى المشرق، وأسمع الحديث، وقفَل بعد ذلك إلى المغرب، ولم يحجَّ[٣].

١٥- أحمد بن عبد الله الأنصاري المالقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٢هـ) توفي ولم يحجَّ[٤].

١٦- الفقيه الأصولي عبد العزيز الربعي التونسي المعروف بالدروال -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ) قدم القاهرة، فأقام بها، ولم يحجَّ[٥].

١٧- عز الدين ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) لم يحجَّ، ولم يتزوج[٦].

١٨- الشيخ شهاب الدين ابن نشوان الحواري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٩هـ) كان عاقلًا ذكيًا، يتكلم في العلم كلاما حسنًا.. ومات ولم يحجَّ، وخلَّف تركة جيدة[٧].

١٩- الفقيه الشاب عبد الرحمن البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٦هـ) جده الأعلى السراج. مات بمرض السِّلِ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، قبل أن يَحج، ولم يُحج عنه[٨].

٢٠- الفقيه عبد الرحمن بن عنبر البوتيجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٤هـ) تصدّر

---

(١) التكملة لكتاب الصلة (٢/١٦٣).

(٢) نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام (ص: ١٠٠).

(٣) التكملة لكتاب الصلة (٢/١٤٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤/٣١٤).

(٤) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١/٣٢٣).

(٥) المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٢/٢٤).

(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩/٢٠٤).

(٧) الدارس في تاريخ المدارس (١/٢٤٢) وبهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ١٤٣).

(٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/١٠٢).

للإقراء بجامع الأزهر مدة طويلة، وما حجّ حجة الإسلام- عفا الله تعالى عنه-(١).

وهؤلاء العشرون الذين لم يَحُجُّوا؛ أبرزهم وأشهرهم أربعة: أبو إسحاق الشيرازي، وابن سِيدة، والقاضي عياض، والبغوي.

فلعل أحدًا يقرأ هذه السطور، فيَنتِدْب للحج عن أولئك الأربعة خصوصًا، أو عن بعضهم.

أما ابن حزم؛ فقد رأيتَ كيف أن عددًا قد حَجُّوا عنه؛ لجلالة قدره في نفوسهم، وكبير أثره عليهم.



قال الإمام ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ) -رحمه الله تعالى-:

"لذة العلم أعظم اللذات، واللذة التي تبقى بعد الموت وتنفع في الآخرة: هي لذة العلم بالله والعمل له". اهـ.

["مجموع الفتاوى" / (١٤/١٦٢)]



---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٢١٧/١٦).

٧٣. نماذج لمن زوَّجوا بناتِهم لتلاميذِهم، أو لشيوخَهم:

لو لم يكن من فائدةِ تزويجِ طالبة العلم بطالب العلم في بيت العلم إلا هذه، لكفى بها جمالًا وجلالًا؛ ليتناسل العلم من الأولاد للأحفاد، ولتتكون لَبِنة أسرة علمية:

أنكحت حُرَّتك الكريـ ... ـمة عامدًا إجلالها
ما كنت إلا مُنْكِحًا ... شمس السماء هلالها
ستَقَرُّ عينك عن قريـ ... ـب إذ ترى أشبالها[(١)]

ولتتبين فتأمل جمال هذه: «الجلسة العائلية العلمية المنزلية»:

الشيخ المُتصدِّر: هو الحافظ جمال الدين المِزّي -رحمه الله تعالى- (ت٧٤٢هـ) -.

القارئ: ابنه عبد الرحمن.

الكاتب: حفيده عمر.

السامع: ابنته زينب، وزوجها المفسِّر الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت٧٧٤هـ).

ولكن هذا المبتغَى قد لا يتسنى لكل من تمنى، لكن على أقل الأحوال أن يكون البيت محبًا للعلم، مبغضًا للجهل، متبعًا للسنة، مفارقًا للبدعة.

قال الفضيل -رحمه الله تعالى-(ت ١٨٧هـ): من زوَّج ابْنَته من مُبْتَدِع فقد قطع رَحمهَا[(٢)].

وبالعموم؛ فإن زوج بنتك وأختك كريم عليك، فينبغي أن يُجَلَّ ويُكرَم.

ولذا كان التابعي حصين بن المنذر -رحمه الله تعالى- (ت نحو ٩٧هـ): إذا رأى زوج ابنته أو أخته زال عن مجلسه، وقال: مرحبًا بمن ستر العورة، وكفى المؤونة[(٣)].

---

(١) يتيمة الدهر (٢٤٨/٥).

(٢) الثقات لابن حبان (٤١٥/٨).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٠٣/١٤). وحصين هذا له حديث واحد في صحيح مسلم (١٧٠٧) يرويه عن عثمان في الحدود.

ويحكي السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) عبارة متداوَلة، لما ترجم لوجيهٍ أنه صاهَر وجيهًا على ابنته؛ فقال: وشِبْهُ الشيء مُنجذِبٌ إليه(١).

نعم؛ فالتاجر -كثيرًا ما - يزوِّج ابنته مِن ابن تاجر، والأمير مِن أميرة، وأما العالِم فمِن طالب علم، فإن فاتَه فمِن أسرة علم.

وإليك الآن هؤلاء الأربعين نموذجًا، لعلماء درَسوا على شيوخهم وتزوَّجوا بناتهم:

١. سعيد بن المسيِّب -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤هـ) زوَّجه أبو هريرة ابنته، فصار أعلم الناس بحديثه(٢).

٢. عبد الله بن كيسان -رحمه الله تعالى- (ت ١١١هـ) مولى أسماء بنت أبي بكر روى عنه صِهْرُه عطاء بن أبي رباح، وهو من أقرانه(٣).

٣. إسماعيل بن أبي أويس الأصبحي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٦هـ) ابن أخت الإمام مالك وتلميذه، وقد زوّجه ابنته(٤).

٤. مؤمل بن هشام اليشكري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٣هـ) روى عن زوج بنته، إسماعيل بن عُليَّة(٥).

٥. أحمد بن يحيى ثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) زوَّج ابنته أبا علي الدينوري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٩هـ) وكان يتخطَّى ثعلب؛ ليقرأ على المبرّد، فعاتبه على ذلك، فلم يكن يلتفتُ إلى قوله(٦).

٦. من عجائب القصص ما قاله أبو الوليد الباجي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٤هـ): كان أبي من تجار القيروان، وكان يجلس إلى فقيه بها، فكان يقول: ترى أرى لي ابنًا مثلك؟ فلما أكثر من ذلك القول قال: إن أحببتَ ذلك فاسكن قرطبة، والْزَم أبا بكر

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٤٤/٦).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣٢١/٦) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٧٣/٦) والبداية والنهاية ط هجر (٤٧١/١٢).

(٣) تهذيب التهذيب (٣٧١/٥) والصِّهْرُ قال عنه ابن الأعرابي: هو زوج بنت الرجل. انظر لسان العرب (٤٧١/٤).

(٤) جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (٣٢٧/١).

(٥) تهذيب التهذيب (٣٨٣/١٠).

(٦) طبقات النحويين واللغويين (ص: ١٤١) و(ص: ٢١٥).

القبري، وتزوَّجْ بنته، عسى أن ترزق ولدًا مثلي. ففعل ذلك، فجاءه أبو الوليد، وآخر صار صاحب صلاة، وثالث كان من الغزاة[١].

٧. الكمال الضرير شيخ القراء -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٥هـ) تلميذ الشاطبي، وزوْجُ ابنته[٢].

٨. فخر الدين ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٠هـ): عمُّه صاحب «تاريخ دمشق» كان إمام وقته، وتفقه على أبي المعالي النيسابوري، وتزوج ابنته[٣].

٩. محمد بن تميم بن حَنُّون البَهْرَاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٢هـ) روى عنه صِهره ابن سيِّد الناس[٤].

١٠. الفقيه تقي الدين العرَّاف -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٨هـ) تفقَّه بابن النحوي وتزوَّج ابنته. ولما احتضر ابن النحوي أوصى إليه في قضاء دينه، فقام بذلك أتم قيام. ثم خلفهُ في تدريسه[٥].

١١. أحمد السَّرُوجِي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٠هـ) تفقَّه على مذهب أحمد، فحفظ بعض «المقِنع». ثم تحوَّل حنفيًا، فحفظ «الهداية». وأخذ عن نجم الدين ابن يحيى، وزوَّجه ابنته[٦].

١٢. محمد بن جعفر بن حجون القنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ) تزوج أُخْت ابن دقيق العيد، ورزق منها بابْنَيْنِ عالِمَين[٧].

١٣. أبو حَيَّان ابن المسلاتي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) ابن أخي القاضي جمال الدين وَزوجُ ابنته. حفظ «التنبيه»، وناب فِي الحكم عَن عَمه[٨].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (١١٨/٣٢).
(٢) العبر في خبر من غبر (٣٠٣/٣).
(٣) وفيات الأعيان (١٣٥/٣).
(٤) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٥٩/٤).
(٥) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (٨٦/٢).
(٦) رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ٤١).
(٧) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٥٤/٥).
(٨) المصدر السابق (٢٦٥/٥).

١٤. محمد بن سليمان الجعفري -رحمه الله تعالى- (نحو ٧٦٥هـ) سمع من المِزِّي وتزوج بنته[١].

١٥. ابن مفلح الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٣هـ) زوَّج ابنته القاضي جمال الدين المرداوي المقدسي[٢].

١٦. ابن التُّرْكُمَاني الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٩هـ) كان يسرد في دروسه «البداية» في الفقه حفظًا، وصاهَر عز الدين ابن جماعة، وكان معه كالروح في الجسد، لا يخالفه[٣].

١٧. يحيى بن زعيب الرحبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) أخذ عن كثير من أصحاب ابن تيمية، وكان تاجرًا، وصاهره البرهان ابن جماعة، فكان له بذلك جاه كبير[٤].

١٨. سراج الدين البُلْقيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) لازم البهاء ابن عقيل وانتفع به كثيرًا، وتزوج ابنته[٥].

١٩. أبو المعالي ابن خطيب داريا -رحمه الله تعالى- (ت ٨١١هـ) كان قد صاهَر المجد اللغوي فلازمه[٦].

٢٠. الفقيه جمال الدين الحجاري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٠هـ) قرأ بالعلوم على الإمام ابن نور الدين وتزوج ابنته العابدة، مما يعجز عنه كثير من الرجال[٧].

٢١. نور الدين الهيثمي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ) صحب الشيخ زين الدين العراقي، وهو صغير، ولازمه أشد ملازمة، وتزوج ابنته، ورحل معه جميع رحلاته وحج معه جميع حجاته ولم يكن يفارقه حضرًا ولا سفرًا. وأشار عليه بجمع ما في «مسند

---

(١) المصدر السابق (١٩١/٥).
(٢) البداية والنهاية ط هجر (٥١٨/١٨).
(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ١٩١).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٤٩/١).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨٥/٦).
(٦) المصدر السابق (٣١٠/٦).
(٧) طبقات صلحاء اليمن = تاريخ البريهي (ص: ٢٧٣).

الإمام أحمد»، من الأحاديث الزائدة على الكتب الستة، فأعانه بكتبه، وأرشده إلى التصرف في ذلك[١].

٢٢. شهاب الدين أحمد بن مكنون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٩هـ) حفظ «الحاوي»، وتزوج رابعة ابنة شيخه ابن حجر، ودخل بها بِكرًا ابنة خمس عشرة سنة، فولدت منه بنتًا، ثم مات عنها[٢].

٢٣. أحمد ابن الكلوتاتي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٥هـ) حُبب إليه طلب الحديث، وصاهَر شيخه العراقي[٣].

٢٤. محمد ابن النيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٧هـ).. كان أبوه تاجرًا، فنشأ هو محبًا للعلم، وصاهر شيخه العراقي[٤].

٢٥. شمس الدّين محمد البالسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٥هـ) سمع الكثير من ابن الملقّن، وصاهره على ابنته[٥].

٢٦. ابن سيد الدار السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) حفظ «المنهاج» و«ألفية ابن مالك» ولازَم الأبناسي وكانت بينهما مصاهَرة، ولازَمه في التفقه به فلم ينفكَّ عنه حتى مات[٦].

٢٧. ابن الأشقر الكرادي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٣هـ) لازَم ابن حجر وصاهَره على ابنتيه واحدة بعد أخرى. وترجم له ابن حجر، ووصفه بـ«أخي في الله تعالى القاضي»[٧].

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣٠٩/٢) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ١٥٦).
(٢) المصدر السابق (٣٧٣/٣).
(٣) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٥٠/٣ و٥٢).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (٥٣١/٣).
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٧٥/٩).
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٧٦/١٠).
(٧) المصدر السابق (١٤٣/٨).

٢٨. عبد الغني الزين القمني الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) لازَم ابن حجر، وكتب عنه «فتح الباري»، وصاهَر شيخه الرشيدي[١].

٢٩. أحمد بن الحسن الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٣هـ) من شيوخه الشمني، وقد عقد له على ابنته، فلم يلبث أن مات قبل دخوله عليها؛ لصغرها[٢].

٣٠. علي ابن معاني الهوريني التلواني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٣هـ) تزوج بنت ابن المجدي، وقرأ عليه في الفرائض والحساب وغيرهما، فلما مات درَّس مكانه[٣].

٣١. ابن كتيلة الدميري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٧هـ) تفقه بالفقيه محمد الحنفي، وصاهَره على ابنته[٤].

٣٢. عمر بن خليل ابن الغرس -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٨هـ) ويقال له أيضًا ربيب الجلال البُلْقَيني؛ لكونه كان زوجًا لأمه. وصاهَر البُلْقَينيَ على أكبر بناته[٥].

٣٣. عبد السلام البهوتي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٦هـ) اختص بشيخه الديمي؛ لمصاهَرة بينهما[٦].

٣٤. محمد الرّعيني، ويعرف بالحطّاب -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٠هـ) صاهَر ابن عزمٍ على ابنته[٧].

٣٥. الفقيه حَمد بن إبراهيم بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٤هـ) قرأ على الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٦هـ) وتزوج ابنته، وسَكَن الدرعية عنده، وتولى قضاء بلدة مَرَات[٨].

---

(١) المصدر السابق (٤/٢٥٤).
(٢) المصدر السابق (١/٢٧١).
(٣) المصدر السابق (٥/٢٢٨).
(٤) المصدر السابق (٨/٢٤٨).
(٥) المصدر السابق (٦/٨٤).
(٦) المصدر السابق (٤/٢٠٨).
(٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٤٠٨).
(٨) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٣/١٦٢٨).

٣٦. العلامة محمد بن عبد الله بن مانع -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٩١هـ) لازَم الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بُطين، وأخذ عنه وتزوج ابنته، وكان لا يفارقه إلا وقت النوم[١].

٣٧. الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٨هـ) زوَّج ابنته لتلميذه العلامة حافظ حكمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ)

٣٨. محمد بن راشد بن رقيبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩١هـ) قد صاهَر الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، وتتلمذ عليه[٢].

٣٩. محمد تقي الدين الهلالي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٧هـ) توجه إلى العراق، حيث الْتَقى العالم الموريتاني الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وتزوج ابنته[٣].

٤٠. أما تمام الأربعين؛ فشيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) فقد زوَّج بناته المباركات لتلاميذه الأفذاذ، الذين حَلُّوا محلَّه في التدريس بالجامع: الشيخ د. سامي الصقير - الشيخ د. خالد المصلح - الشيخ د. عبد الرحمن الدهش.

أما الآن فإليك نماذج على العكس، بأن يزوِّج التلميذ بنتَه لشيخِه، وهذا أَعجَبُ وألطَفُ:

١. العباس بن محمد بن معاوية -رحمه الله تعالى- (ت نحو ٤٠٠هـ): صِهرُ وشيخ الحاكم، صاحب «المستدرك»[٤].

٢. موسى بن سعادة المرسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٤هـ) كانت بنته عند ابن سكّرة الصدفي، فلازَم ابن سكّرة، وانتسخ «الصحيحين» للبخاري ومسلم بخطه، وسمعهما على صِهْره نحو ستين مرة[٥].

---

(١) تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان (٢٣٠/١).
(٢) المصدر السابق (١٨٧/٦).
(٣) مقالات الشيخ تقي الدين الهلالي (٢/١).
(٤) تاريخ نيسابور للحاكم (ص: ١١٦) وانظر: الروض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم- نايف المنصوري (٣٣/١).
(٥) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٣١٣) ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب =

٣. ابن القحّ البَلَنْسيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٥هـ) سمع من صِهره أبي الحسن بن هُذَيل، وصحِبَه ثلاثين سنة(١).

٤. علي بن جابر اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ) تلا بالسبع على صِهره أبي الحسن نجبة(٢).

٥. علي الميورقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٠هـ) كان يُفسر القرآن كل جمعة، وأَخذ عن صِهره ابن مقاتل الشاطبي(٣).

٦. أمين الدّين الحنفي الآدمي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ) أخذ عن زوج ابنته الفخر بن الفصيح(٤).

٧. محمد بن مصباح اللامي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٤هـ) لازَم صِهره البرهان بن حجاج الأبناسي(٥).

٨. محمد ابن السقاء الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) قرأ على صهره البدر العيني شرحه للشواهد(٦).



= ت إحسان عباس (٢/٢٢١).

(١) تاريخ الإسلام ت بشار (١٣/١٢١) والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٣/٥٦٨).

(٢) السفر الخامس من كتاب الذيل (١/١٩٨).

(٣) بغية الوعاة (٢/١٩٤).

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨/٥٨٣).

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨/٢١٩).

(٦) المصدر السابق (٨/١٧٩).

٧٤. أعاجيب في من تزوج من أجل الكتب أو العلم:

نعم! لا ألذَّ من العلم؛ لأن منظره يَروق ويَشوق، فكيف إذا اجتمعا لنفس حرةٍ؟! بأن تزوج طالب العلم طالبة علم؛ فإن شبيه الشيء منجذِبٌ إليه، والطيور على أشكالها تقع. ولذلك لا تستغرب أن يتزوج رجل بامرأة من أجل الكتب أو العلم؛ ليَصدُق عليه قول القائل: تُنكح المرأة لكُتُبها! وكُتُبها مِن دِينها.

بل قد يكون العكس! بأن تتزوج امرأة متلذذة بالعلم برجل؛ من أجل الكتب أو العلم[1].

وهذه من نوادر المواقف وعجائبها، لكن لا عجب؛ فمنظر العلم يَروق ويَشوق، وشبيه الشيء منجذب إليه، والطيور على أشكالها تقع.

يا رُبَّ مفترقَينِ قد جَمعتْ قَلْبَيْهما الأقلام والصحفُ[2]

وليُقسم هذا المبحث إلى شطرين:

• من تزوج بامرأة من أجل الكتب أو العلم:

١. تزوج إسحاق بن راهويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٧هـ) بامرأة رجل كان عنده كتب الشافعي، ولم يتزوج بها إلا لأجل كتب الشافعي[3].

إذًا؛ لقائل أن يقول: تُنكح المرأة لكُتُبها! وكتبها من دينها

٢. أكثر كتب الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) مستفاد من كتب الصوريّ، فقد بدأ بها ومات ولم يتمها، وخلَّفها عند أخته، فحصَّل الخطيب من كتبه ما

---

(١) انظر هذا مبسوطًا في كتابي الآخر: «إبداعات العلماء والمؤلفين». ففيه أمثلة ماتعة، وإشارات نافعة.

(٢) وفيات الأعيان (٣/٣٢٧).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/٣٦٩).

صنف منها كتبه، ولكنه لم يتزوج أخت الصوري، وإنما كسِب ثقة أخته العاقلة الباذلة- رحمها الله- فوهبته الكتب، فأكمل نقصها.

فعلَّق ابن الجوزي على نَهمة الخطيب قائلًا: وقد يضع الإنسان طريقًا، فتُسلَك(١).

٣. المؤرخ الشيخ إبراهيم بن عيسى -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٣هـ) ذكر أن من أقوى الأسباب في اتجاهه للعناية بالتاريخ: أنه في أول عهده كان كاتبًا لقاضي القطيف الشيخ عبد الرحمن بن مانع -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٨٧هـ)، فلما توفي ابن مانع تزوج امرأتَه، وآلَتْ إليه كتبه، وكان كثير من هذه الكتب في التاريخ والأنساب(٢).

• **من تزوجت برجل من أجل الكتب أو العلم:**

١. تزوَّج السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) بالإسكندرية امرأة ذات يسَار، فسلَّمتْ إليه مالها، وحصلَتْ له ثروةٌ بعد فقرٍ، وصارت له وَجاهَة(٣).

٢. الشيخة فاطمة بنت قريمزان الحنفية -رحمها الله تعالى- (ت ٩٦٦هـ) تزوجها الشيخ كمال الدّين الأردبيلي، وكان يقول: ملّكني الله -تعالى- ستةً وثلاثين علمًا.. قالت: وعن زوجي أخذتُ العلم. ولما توفيتْ أوصَتْ أن تُدفن معها سجادتها(٤).

٣. السيد الحسين الديلمي الذماري -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٥٠هـ) كان فقيرًا، فتزوج بامرأة لها ثروة، ثم اشتغل بالتجارة، وكان ينوب عنه غيره، وهو مُكِبٌّ على العلم. قال الشوكاني: ورافقَني في القراءة في «صحيح مسلم»، وأقرأ الطلبة في الفقه..وهو من جملة من رغَّبني في شرح المنتقى(٥).

٤. كانت ملكة الهند في القرن الماضي تريد الزواج من رجل شريف، من أهل الديانة والعلم، فاختارت المترجَم له، السيد صِدِّيق حسن خان القِنَّوْجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) ورغبتْ في الزواج به، فقبِل ذلك، وتزوجها سنة ١٢٨٨هـ ومن ذلك

---

(١) معجم الأدباء (٣٨٨/١).

(٢) علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (ص٢٨٦).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٩/٥) وطبقات علماء الحديث (٧٥/٤).

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٠٦/١٠).

(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢٣٢/١).

الوقت أصبح حاكما للإمارة، نيابة عنها، ثم وُشِيَ به إلى الحكومة الإنجليزية، فأمرتها بأن تعزله، فرضخت؛ خوفًا على نفسها وإمارتها، ولكنها مع ذلك بقيت في عصمته، وبقي هو في قصرها معزّزًا مكرّمًا، مشتغلًا بالتأليف، والمطالعة ليلًا ونهارًا، فبلغت مؤلفاته أكثر من مئتي كتاب، في اللغة العربية، والفارسية، والهندية. وكان يطبعها ويوزعها مجانًا(١).

• حالة مشتركة:

١. الشريفة صفية بنت المرتضى بن المفضل -رحمها الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) كانت عالمة فاضلة لها مؤلفات وتزوجت بالسيد محمد القاسمي؛ لأنه كان عالمًا في علم الكلام، فرغبت فيه؛ لقصورها في ذلك الفن، فانتفعت به وانتفع بها في علم العربية(٢).

٢. المفكر الإسلامي مالك بن نبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٣هـ) تعرفتْ عليه زوجه بالصدفة، في مكتبة للمطالعة بباريس، فقد كان كلما طلب كتابًا قيل له: إن قارئةً أخذته، وكلما طلبتْ هي كتابًا قيل لها: إن قارئًا أخذه، فاهتما معًا بمعرفة هذا الثاني المستعير للكتاب، فكانت قصةً انتهت بزواج، دام قرابة الأربعين سنة، إلى أن توفيا في عام واحد، بعد عِشْرةٍ علمية مشتركة، بمُرِّها وحُلوها.

وصية أديبٍ للمخطوبة:

يقول أحمد أمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) مخاطِبًا المرأة المخطوبة: تزوجي رجلًا يقرأ؛ لأنه سيراك كتابًا نادرًا، يملك وحده مخطوطته الضائعة. يقلب صفحاته بحذر؛ خشية أن تتمزق.

تزوجي رجلًا يقرأ؛ لأنه سيسافر بك إلى مدن لم يَزُرْها، وأزمنة لم يَشهدها.

تزوجي رجلًا يقرأ؛ فإنه يمتلك في رصيده من كلام الغزل ما يكفيك عمرًا.

---

(١) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص ٢٧٥ - ٢٧٩).

(٢) الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١٠٤/٢).

تزوجي رجلًا يقرأ، ولا تستغربي إن كان يحمل كتابًا، ثم رفعه قليلًا؛ ليغطيَ به وجهه، واعلمي حينها أن دمعة ترقرقت في عينه؛ لأن مقطعًا ما قد لَمِس أوتار قلبه.

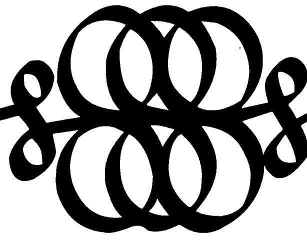
إن تزوجتِ رجلًا يقرأ لا تستغربي إن كانت مكتبة بيتكما مليئة، والثلاجة فارغة(١).



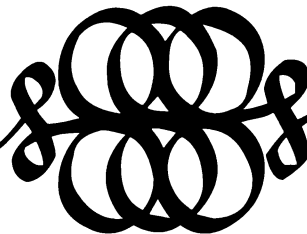
لذة العلم!

العلم بحث وخبرة وجهد وأمل
يتطلع إليه، و[illegible] وفي كلمة
مختصرة
هو مصدر
سامٍ بأعلى
في هذه
نفسه، ويصبح
أو فنانًا، ومن هنا
تلقائي بين ما يكتشـ
لنفسه وبين ما يكتشفه

(١) من مقالة تزوجي رجلاً - للأديب أحمد أمين.



الباب الخامس عشر:
لذّاتهم وهم في إدبار من الدنيا
وإقبال إلى الآخرة



٧٥- التلذذ بالعلم أثناء النوم عن طريق المنامات والرؤى

النوم أخو الموت، فيا عجبًا لكم يا عاشقي العلم! ما اكتفيتم به في اليقظة، حتى وصلتم معه أحلامكم في نومكم؟! أوَ قد صار العلم أنيسَكم حتى حين الموتة الصغرى؟

نعم! أكثر الناس أموات في يقَظتهم، وأنتم أحياء حتى في رقدتكم؟!

يقيسون حالي في الغرام بحالهم　　　وكل إناء بالذي فيه ينضحُ

وهذا ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) يحكي عن همومه وتفكيره بمسائل العلم، وهو يريد أن يَخلد إلى النوم، فيقول: ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام[١].

إنها هموم العلم في اليقظة وفي المنام. والمثل المتداوَل يقول: «همُّك ما أهمَّك». فيمتدُّ هذا الهم من اليقظة إلى الأحلام. ولذا يقول النبي ﷺ: **إِنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ؛ مِنْهَا ما يَهُمُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقَظَتِهِ فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ..**[٢].

قال ابن خلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): وإنّما هذه الحالومات تُحدِث استعدادًا في النّفس، فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يُستعَدّ له[٣].

ولقد استولت لذة العلم على اهتماماتهم وهمومهم، فصارت كما قال الشاعر:

وآخِرُ شيء أنت في كل هَجْعةٍ　　　وأول شيء أنت عند هَبوبي[٤]

(١) الوافي بالوفيات (١٢/٢٤٤) إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص: ٣٠٥).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٩٠٧).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١/١٣٢).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٠٩).

وهذه الرؤى التي يراها النائم أو تُرى له؛ هن امتداد لِلَذائذ اليقظة، وهن تبشير صادق من الله، بل هن جزء من النبوة، وعبارة عن تكليم من الله. قال عبادة بن الصامت: «رؤيا المؤمن من كلامٍ يُكلِّم به العبدُ ربَّه -تبارك وتعالى- في المنام»[1].

ولذا قد تكون رؤيا مبشرة سببًا في انصراف إنسان إلى العلم، وإقباله بقلبه عليه.

فهذا شيخ ابن حجر، وهو ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٩هـ) قال في رسالته «ضوء الشمس»: سبب ما فُتح به علَيّ من العلوم منامٌ رأيته[2].

وسأذكر الآن بضعًا وثمانين رؤيا، من عجائب الرؤى والمنامات، اللاتي هن مبشرات لذيذات، خلاصتهن في تحصيل ما في العلم من اللذَّات، فإما قد بشَّرنَ نَهِما بعِلمه، أو بمصنَّفه، أو دلَلْنَه على فائدة، أو أجبْنَ عن إشكال له، أو استفتى فيها عالِمًا فأجابه.

وفيهن فرائد وشرائد من الفوائد، وسأَذكرهن لا على المتشاكلات، وإنما على تواريخ الوفيات، كما هو آت:

١. **ارتواء بالعلم**: قال رسول الله ﷺ: **بينا أنا نائم أُتيت بقدح لبن، فشربتُ منه، حتى إني لأرى الرِّيَّ يجري، ثم أعطيتُ فَضْلَه عمر. قالوا: فما أَوَّلته يا رسول الله؟ قال: العلم**[3].

٢. **أعلمُ من الملائكة**: امرأة عابدة زمان الحسن البصري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ) قالت: رأيت فيما يرى النائم، كأني أستفتي ملأً من الملائكة في المستحاضة، فقالوا: أتستفتينا وفيكم الحسن البصري؟![4].

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/٢١٣) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/٣٩٠) والدولابي في الكنى والأسماء (٢/٨٧٣) واختاره الضياء في الأحاديث المختارة (٨/٢٧٦) وصححه السيوطي كما في التنوير للمناوي (٦/٢١٩). وأما الشيخان ابن تيمية وابن القيم فقد وقفاه على الصحابي عبادة في أكثر من موضع. وانظر: جامع المسائل لابن تيمية - المجموعة الخامسة (ص: ٢٨٥) ومدارج السالكين (١/٧٦).

(٢) طبقات المفسرين للداوودي (٢/٩٧).

(٣) صحيح البخاري (٧٠٢٧).

(٤) المنامات لابن أبي الدنيا (ص: ٧٦) وعنه: حسن التنبه لما ورد في التشبه (١/٣٧٨).

٣. أحاديث مردودة: حمزة الزيات -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٦هـ) سمع من أبان بن أبي عياش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠هـ) نحوًا من ألف حديث، فرأى النبي ﷺ في المنام، فعرض عليه ما سمع من أبان، فما عرف منها إلا خمسة أو ستة[١].

٤. يُبكي الإمام مالك: قال رجل للإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): واللهِ لقد رأيتُ البارحة رسول الله ﷺ جالسًا، فقال: هاتوا مالكًا. فأُتي بك تَرعد فرائصُك، فقال: ليس عليك بأس يا أبا عبد الله. وكَّناك، وقال: اجلس. فجلستَ فقال: افتح حِجْرك. ففتحتَ فملأه مِسكًا. وقال: ضُمَّه إليك، وبُثَّه في أمتي. فبكى مالك طويلًا وقال: الرؤيا تسرُّ ولا تغرُّ، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله[٢].

٥. أكل البقل: قال سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام، فسألته عن أكل البقل النَّيْ. فقال: إن الملائكة تتأذى منها[٣].

٦. تزكية أبي حنيفة في الحكم: أبو مُعاذ البلخي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٩هـ) قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في علم أبي حنيفة؟ فقال: ذلك عِلم يحتاج إليه الناس عند الحُكم[٤].

٧. جوهر العلم: قال الفريابي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٠هـ): رأيت في منامي كأني دخلت كَرْمًا، فيه من أصناف العنب، فأكلت من عِنَبه كله غير الأبيض، فلم آكُلْ منه شيئًا، فقصصتُها على الثوري، فقال: تُصيب من العلم كله غير الفرائض؛ فإنها جوهر العلم، كما أن العنب الأبيض جوهر العنب. فكان الفريابي كذلك، لم يُجِدِ النظر في الفرائض[٥].

٨. صبي سيكون إمامًا في العلم: قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): كنت صَبيًّا بمكة، فرأيت في المنام رجلًا ذَا هَيْبة يَؤُم الناس في المسجد الحرام، فلما فرغ

---

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/١٢).
(٢) شرح الزرقاني على الموطأ (١/٥٦).
(٣) المصدر السابق (٨/٤٧٣).
(٤) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص: ٤٦).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٦/٣٢٦).

من صلاته أقبل على الناس يُعَلِّمهم. قال: فدنوت منه، فقلت: علمِّني. فأخرج ميزانًا من كُمِّه، فأعطاني، فقال: هذا لك. فَعَرضْتُ على المعبِّر، فقال: إنك تَبْلُغ وتصير إمامًا في العلم، وتكون على السبيل والسُّنَّة؛ لأن إمام المسجد الحرام أفضل الأئمة كلهم وفوقهم. وأما الميزان فإنك تَعْلَمُ حقيقة الشَّيْءِ في نفسه(١).

٩. **أكون فقيهًا أم محدثًا**: قال سعيد بن منصور -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٧هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول، ألزمُ أبا يوسف أو هُشيمًا؟ قال: الْزَمْ هشيمًا(٢).

١٠. **تعريف الإيمان**: قال إسماعيل الشالنجي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٠هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام، فسألته عن الإيمان. فقال: قول وعمل، يزيد وينقص(٣).

١١. **عليك بأحمد**: قال أحمد بن نصر الخزاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله! بمن نقتدي في عصرنا هذا؟ قال: عليك بأحمد بن حنبل(٤).

١٢. **تقديم مالك**: قال محمد بن رمح -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٢هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت له: يا رسول الله! إن مالكًا والليث يختلفان، فبأيهما نأخذ؟ قال: مالكٌ مالكٌ، مالك ورِث جدي. يعني إبراهيم ﷺ(٥).

١٣. **مرحوم من حدث بهذا الحديث**: قال محمد الأسفاطي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥١هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام جالسًا مع عمر بن الخطاب رحمه الله، فقلت: يا رسول الله، إن عبد الله بن مسعود، حدث بحديث الصادق المصدوق **[إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا]** فذكر الحديث. فقال: أنا واللهِ الذي لا إله إلا هو حدثته، أعادها ثلاثًا، غفر الله للأعمش كما حدث به، وغفر الله لمن حدث به قبل

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٩٩/١).
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (١٣٠/١٦).
(٣) الثقات لابن حبان (٩٨/٨).
(٤) طبقات الحنابلة (٨٠/١).
(٥) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢٨/١).

الأعمش، وغفر الله لمن حدث به بعد الأعمش. وقال: رحم الله كلّ من حدث به إلى يوم القيامة(١).

١٤. **يُذاكر الإمام أحمد:** قال أبو حاتم السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): رأيت أحمد في المنام، فرأيته أضخم مما كان، وأحسن وجهًا وسُحنةً، فجعلت أسأله الحديث وأُذاكره(٢).

١٥. **تكلَّم بالعلم بالجامع:** قال الجنيد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٩هـ): قيل لي: تكلم على الناس. وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس؛ فإني كنت أَتَّهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت في المنام رسول الله ﷺ. فقال لي: تكلمْ على الناس. فقعدت في غد للناس بالجامع(٣).

١٦. **ضبط إشكال:** أبو القاسم الحسني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٧هـ) أشكل عليه ضبط كلمة «بدنت» في حديث: «**لا تُبادِروني برُكوعٍ ولا بسُجودٍ.. إنّي قد بَدَّنتُ**» قال: فرأيت النبي ﷺ في المنام، فسألته بدِنت، أو بدَّنت؟ فقال: بدَّنت. وأشار بيده إلى التشديد(٤).

١٧. **أُشرِبوا حب علم الرجال:** قال أبو بكر الباغندي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٢هـ): حُبِّب إليَّ الحديث، حتى رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فلم أقل: ادعُ الله لي، وإنما قلت: يا رسول الله، أيُّما أثبت في الحديث، منصور أو الأعمش؟ فقال: منصور، منصور(٥).

١٨. **صحيح البخاري وحْيٌ:** قال الفِرَبْري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٠هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال:إلى متى تَدْرُس الفقه، ولا تَدْرُس كتابي؟ قلت: وما كتابك يا رسول الله؟ قال: جامع محمد بن إسماعيل(٦).

---

(١) السنة لأبي بكر بن الخلال (٥٣٨/٣) وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٨٠/٧١).
(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣١١/١).
(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١٧٣/٢).
(٤) التدوين في أخبار قزوين (٤٢٤/٢) والحديث في سنن أبي داود ت الأرنؤوط (٦١٩).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٩/٥٥).
(٦) تهذيب الأسماء واللغات (٧٥/١).

١٩. التأليف في فضائل الصحابة: قال ابن إسحاق الصبغي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٢هـ): لما فرغتُ من تصنيف كتاب الفضائل، رأيت في المنام كأني خارج من منزل، واستقبلني النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، أو عليٌ ﷺ، فإني شككتُ، ولم أشكَّ في أنهم كانوا أربعة، فتقدمْتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ، فرد عليَّ السلام، ثم تقدم إليَّ أبو بكر، فقبَّل بين عينيَّ، وقال: جزاك الله عن نبيه خيرًا، وعنا خيرًا. فأخرجت خاتمي هذا من أصبعي، وجعلته في أصبع رسول الله ﷺ، ثم نزعته، فجعلته في أصبع أبي بكر، ثم إلى آخر الأربعة. ثم قلت: يا رسول الله؛ قد عظُمتْ بركة هذا الخاتم، إذْ دخل أصابعكم. ثم انتبهتُ. وقد كان الشيخ أوصى أن يُدفن ذلك الخاتم معه[١].

٢٠. تعريف التوحيد: جعفر بن محمد الخلدي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٨هـ) قال: في نفسي مسألة في التوحيد، فسألت عنها جماعة من أهل العلم، فما شفى أحد فؤادي، فرأيت النبي ﷺ في المنام فسألته: ما التوحيد؟ فقال: كل ما حدَّه فكرك، أو أحاط به علمك، وأدرك وهْمُك، أو أصبتَه بحواسك، فالله -تعالى- بخلاف ذلك[٢].

٢١. تصحيح الحديث: حمزة الكناني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٧هـ) رأى النبي ﷺ في المنام، فقال له: يا رسول الله، قد أكثر الناس في الحديث، وأُحبُّ لو عرضتُ عليك بعض ما حفظتُ عنك. فكان يتلو حديثًا بعد حديث، إلى تمام سبعين حديثًا. ففي كلها يقول له: ليس هذا عني، وما قلتُ هذا[٣].

٢٢. ألهاكم التكاثر: قال حمزة الكناني: خرَّجتُ حديثًا واحدًا عن النبي ﷺ من مئتي طريق، فداخَلَني من ذلك من الفرح غير قليل، وأعجبتُ بذلك. قال: فرأيتُ ليلة من الليالي يحيى بن معين في المنام، فقلت له: يا أبا زكريا خرَّجتُ حديثًا واحدًا عن النبي ﷺ من مئتي طريق. فسكت عني ساعة، ثم قال: أخشى أن يدخل هذا تحت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١][٤].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠/٣).
(٢) التدوين في أخبار قزوين (٧٣/٣) ذيل مرآة الزمان (٦٦/٢).
(٣) الفوائد المنتخبة لابن بشكوال (٦٣٧/٢).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٠٣٤/٢).

٢٣. مجلس حديثي مع النبي ﷺ: قال أبو القاسم الطبراني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٠هـ): رأيتُ النبي ﷺ في المنام.. فقبّلت ما بين عينيه وعاتقيه، ثم جلستُ بين يديه، فرفعت يدي، فدعوتُ لنفسي وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، دعاء كثيرًا، ورسول الله ﷺ مقبل عليَّ بوجهه، مبتسم لم يَفْتَرَّ عن أنيابه، فقلتُ: يا رسول الله أخبرني عن حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد، عنك أنك قلتَ: المؤمن مألَفٌ، ولا خير فيمن لا يألَفُ ولا يؤلَفُ. فأوما بيده، كأنه ضعفه، فقلتُ: يا رسول الله؛ أخبرني عن حديث الشعبي، عن النعمان بن بشير، أنك قلتَ: **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ، [وَتَوَاصُلِهِمْ] كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ، بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**[1] فقال ﷺ بيده: صحيح، صحيح، صحيح. ثم قال لي رسول الله ﷺ: اذكر التشهد. فذكرتُ تشهد ابن مسعود إلى آخره، فقال ﷺ: اذكر التشهد. فذكرتُ حديث ابن عباس: **التحيات الطيبات المباركات**.. فقال رسول الله ﷺ: هذا هو التشهد، هذا هو التشهد، هذا هو التشهد..

فعلَّق ابن مندة (ت ٥١١هـ) على الرؤيا قائلًا: ومن نِعم الله ﷻ على الإمام أبي القاسم.. رؤيته المصطفى -صلوات الله عليه-.. وعرْضه الحديث عليه، وإشارته ﷺ بالصحيح والمعلول، حسب ما أوردناه، ومن ينكر الرؤيا، ويزعم أنها ليست بحقيقة فهو من الجاحدين للنبوة، فنسأل الله تعالى الإيمان بالغيب، ونعوذ به من الشك والريب[2].

٢٤. فضل أصحاب الحديث: أبو سهل الصعلوكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٩هـ) رآه أحد تلاميذه في المنام، وكان مريضًا، وأن النبي ﷺ في عيادته، وقعد التلميذ بين يدي النَّبِيّ ﷺ متفكرًا فقال: هذا إمام أصحاب الحديث، وإن مات أخشى أن يقع الخلل فيهم. فقال: لا تفكر في ذلك؛ إن الله لا يُضيع عصابةً؛ أنا سيدُها[3].

---

(١) رواه بهذا اللفظ البيهقي في شعب الإيمان (٨٥/١٠). وبزيادة:[وَتَوَاصُلِهِمْ] وأما في صحيح البخاري (٦٠١١) وصحيح مسلم (٢٥٨٦) فإن بَدَلها بلفظ: وَتَعَاطُفِهِمْ.

(٢) جزء فيه ذكر أبي القاسم الطبراني (ص: ٣٤٠ - ٣٤٢).

(٣) التدوين في أخبار قزوين (١١٦/٣).

٢٥. تصديق لعِلم الحاكم: حكى شيخ من الصالحين -رحمه الله تعالى- (نحو ٤٠٠هـ) أنه رأى النبي ﷺ في المنام، فقال: يا رسول الله بلَغني أنك وُلدتَ في زمن الملك العادل، وإني سألتُ الحاكم أبا عبد الله الحافظ عن هذا، فقال: هذا كذب! فقال النبي ﷺ: صدق أبو عبد الله(١).

٢٦. يفسر له النبي ﷺ: عبد الوهاب بن عنبسة العدَني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٠هـ) رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: يا رسول الله؛ قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وروَينا عنك أنك قلت: ادخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فإذا سامحَنا الله في الصغيرة، وشفعتَ أنت لنا في الكبيرة.. فنحن إذًا نرجو من الله الرحمة، فقال له ﷺ: هو كذلك(٢).

٢٧. الإخلاص في التأليف: رئي القاضي عبد الوهاب بن علي المالكي البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٢هـ) في المنام، فقيل له: بم نفعك الله؟ قال: بكل ما ألَّفته إلا بكتاب «التلقين»؛ فإني ما أردت وجه الله!. وكان قد ألفه في مقابلة كتاب صنفه بعض الفقهاء(٣).

٢٨. حُق له أن يفرح! أبو الطيب الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٠هـ) رأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: يا فقيه. فكان يفرح بذلك ويقول: سمّاني رسول الله ﷺ فقيهًا(٤).

٢٩. يستشير في العلم: رأى رجل النبيَّ ﷺ في المنام، فسأله: أي موضع أقيمُ به؟ فقال: مكة، فقال: لمن أذاكر بها؟ قال: الهياج (ت ٤٧٢هـ)؛ فإنه رجل صالح(٥).

٣٠. حُق له أن يفخَر! الشيخ أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) رأى رسول الله- ﷺ- في منامه، فقال له: يا شيخ! فكان يفرح، ويقول: سمّاني رسول الله ﷺ شيخًا(٦).

---

(١) المقاصد الحسنة (ص: ٧٠٧).
(٢) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣/٣٤١).
(٣) معجم السفر (ص: ١٦٨).
(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥/١٥) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥/٢١٥).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/١٠١).
(٦) طبقات الشافعيين (ص: ٤٢٧) والنور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٨٥).

٣١. ثلاث وصايا نبوية: العابد أبو الحسن الهكّاري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٦هـ) يقول: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، أوصني. فقال: عليك باعتقاد مذهب أحمد بن حنبل، ومذهب الشافعي، وإياك ومجالسة أهل البدع(١).

٣٢. سؤال في ولوغ القط: أبو الحسن الخلعي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٢هـ) يقول: رأيت النبي ﷺ في النوم، وفي حجري قِطٌّ، فقلت: يا رسول الله! أيُغسل الإناء من ولوغ هذا؟ فقال لي: **إنها من الطوافين عليكم والطوافات**(٢).

٣٣. لا تَمَلَّ منه: يقول الفراوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٠هـ): قرأ عليَّ ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) ثلاثة أيام، فأكثرَ، وأضجرني، وآليتُ على نفسي أن أغلق بابي، فلما أصبحنا قدم عليَّ شخص، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ قلت: مرحبًا بك. فقال: قال لي في النوم: امض إلى الفراوي، وقل له: قدِمَ بلدَكم رجل شامي، أسمر اللون، يطلب حديثي، فلا تملَّ منه. فما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ ابن عساكر(٣).

٣٤. الانقطاع عن مجلس الحديث: قال نصر بن بركات -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٦٣هـ): آلَمَتْني رِجلي، وانقطعتُ عن مجالس الحديث أيامًا، وضاق صدري لذلك، فأتاني آت في المنام، وقال: مالَك يا أبا القاسم؛ انقطعتَ عن مجالس الحديث؟ فقلتُ: رِجلي تؤلمني. فقال: قد فاقَتْ. فانتبهتُ، وقمتُ -واللهِ- كأن لم يكن بي ألمٌ قط(٤).

٣٥. حل إشكالاتهم بمناماتهم: الفقيه عبد الله الجبائي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٥هـ) رأى النبي ﷺ في المنام: فقال يا رسول الله، أيُثاب الرجل على قراءة القرآن، بفَهْم وغير فهم؟ فقال: بفهم وغير فهم(٥).

٣٦. نقل من كتاب: الفقيه إبراهيم الشويري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) رأى النبي ﷺ في المنام، وقد سُئِلَ عن مسألة، فاستدعى بالثاني من «المُهَذّب»، وفتحه

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧/١٧).
(٢) المنثور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي (ص: ٢٧).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١/١٧).
(٤) معجم السفر (ص: ٣٩٣).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٣/٩٢) والتاج المكلل (ص: ٢٠٩) وشذرات من كتب مفقودة في التاريخ (١/١٨٧).

ووضعه بين يديه، وأخذ ورقة، ووضعها على ركبتيه، وَجعل يستملي الجواب من «المهذب» ويكتبه في الورقة(١).

٣٧. بسبب رؤيا يحفظ ٤٠٠ صفحة: العلامة ابن قاضي تل باشر الآمدي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣١هـ) قال: رأيت في النوم كأن قائلًا يقول لي: هذا البيت للإمام الغزالي. فدخلت، فوجدت تابوتًا فكشفته، فوجدت الغزالي فيه، وعليه كفنه وهو في القطن، فكشفت عن وجهه وقبَّلته، فلما انتبهت قلت في نفسي: يليق أن أحفظ كلام الغزالي. فأخذت كتابه «المستصفى في أصول الفقه» فحفظته في مدة يسيرة(٢).

٣٨. يستفتي النبي ﷺ: حكى الصغاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٠هـ) أنه رأى النبي ﷺ في منامه، وسأله عن صحة حديث: إذا وُضع العَشاء، وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعَشاء، فقال: نعم، هو صحيح(٣).

٣٩. يطلب العلم من النبي ﷺ: أبو عبد الله الموصلي الحنبلي، الملقب بـ«شعلة» -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ) رأى في منامه بياض النبي ﷺ فطلب منه العلم، فأطعمه تمرات. ومن ذلك الوقت فُتح عليه بالعلم(٤).

٤٠. يرى الموفق ابن قدامة مرارًا: قال أبو عبد الله اليونيني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٨هـ): ما أعلم أنه أشكل عليَّ موضع في أصول الدين وفروعه، إلا رأيت الموفق ابن قدامة في المنام، ورفع عني الإشكال. مرةً جاءتني فُتيا مشكلة في الفروع، فتحيّرت في الجواب، فرأيته في المنام، فقال لي الجواب(٥).

٤١. بشارة للمجتهد: الفقيه المحدث الحسن بن علي الحميري (ت ٦٦٧هـ): رأى النبي ﷺ قد أتاه في جماعة، منهم الإمام الشافعي، فاستحيا وقال: يا رسول الله؛ بِمَ استحققتُ هذه الزيارة؟! فقال: باجتهادك في طلب العلم، وتتبعك الأسانيد العالية(٦).

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٤١١/١) وقلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣١/٥).
(٢) الوافي بالوفيات (٢٢٦/٢١).
(٣) المقاصد الحسنة (ص: ٨٥).
(٤) غاية النهاية في طبقات القراء (٨١/٢).
(٥) ذيل مرآة الزمان (٦٥/٢).
(٦) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣٢٠/٥).

٤٢. **والحي قد يغلب ألف ميْت**: ما أحسن ما حكي عن ابن مالك صاحب «الألفية» -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ) فإنه لما ذكر بأن ألفيته:

.... فـائـقـة ألـفـيّـة ابـن معطي

فقال بعدها:

فـائـقـةً مـنـهـا بـألـف بيت ....

فتوقف في هذا المصراع، ولم يُفتح عليه، فرأى رجلًا في المنام توسم منه العلم فقال له الرجل: أفتح عليك، فقل: «والحي قد يغلب ألف ميْتِ»[1].

٤٣. **حتى في دقائق المسائل**: ابن مخلوف المالكي (ت ٦٨٦هـ) رأى النبي ﷺ في المنام، فقال له: يا رسول الله؛ كيف رجعتَ في قضية ذي اليدين هل جالسًا أو قائمًا؟ قال: فالتفت إليَّ متبسمًا، بعد أن جذبته من ثوبه، فقال لي: بل قائمًا[2].

٤٤. **تناديه الملائكة «يا فقيه»**: العلّامة أبو محمد الفائشي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٥هـ) قال: رأيت البارحة أن سقف بيتي كُشف، حتى رأيت السماء، ونُوديت منها: أقدِمْ يا فقيه! مرحبا بك! ونوديت باسمي واسم أبي[3].

٤٥. **فضل علم الفرائض**: عبد الله المغربي الجِدْمِيوي الجزولي -رحمه الله تعالى- (بعد ٦٩٩هـ) انتهى إليه علم الفرائض، وصنف فيه كُتبًا. فرأى النبي ﷺ في المنام، وهو في تأليف كتاب، فقال له: لِمَ لَمْ تَنَمْ إلى هذا الوقت؟! فقال له: أنا في شغل؛ أنسخ الفرائض فقال له: حَسَنٌ أو جيّد. ثم دعا له ﷺ[4].

٤٦. **لم أقُلْه**: أبو عبد الله الفاسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ) قال: وقع في نفسي حديث «مَن أكل مع مغفور له غُفر له» فرأيت النبيّ ﷺ في المنام، فسألته عنه، فقال: لم أقُلْه، وأرجو أن يكون كذلك[5].

---

(١) تاريخ الزواوة (ص: ١٠٣). تنبيه: هذان البيتان ليسا موجودين في المطبوع من تلك الألفية.
(٢) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية (ص: ٦٣).
(٣) السلوك في طبقات العلماء والملوك (١٧٨/٢).
(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٢١٧).
(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة (١٣٩/٢).

٤٧. شغف بالمناظرة حتى في النوم: قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وعندي من الرغبة في طلب العلم..ما أوجب أني كنت أرى في منامي ابن سينا وأنا أناظره(١).

٤٨. اثنا عشر قولًا بالنوم: قال الشرف البارزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٨هـ): رأيت النووي في النوم، فسألته عن صوم الدهر، فقال: فيه اثنا عشر قولًا للعلماء. قال: فأقمت حولًا حتى اجتمعت لي، ولم أجدها مجموعةً في كتاب(٢).

٤٩. بركة المشكاة: الطِّيِّبي، صاحب «شرح المشكاة» -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٣هـ) قُبيل شُروعه في أحد شروحه رأى النبي ﷺ في النّوم، وقد نَاوَلَهُ قدحًا من اللبن، فشرب منه(٣).

٥٠. يسأل شيخه بعد موته: قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- في المنام، وكأني ذكرت له شيئًا من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - فقال: أما أنا فطريقتي: الفرح بالله، والسرور به(٤).

٥١. وقال -أيضًا-: وقد حدثني غير واحد، ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه رآه بعد موته، وسأله عن شيء كان يُشكِل عليه، من مسائل الفرائض وغيرها، فأجابه بالصواب(٥).

٥٢. جرَتْ بين بعض فقهاء الشافعية مسألة النظر إلى الأمرد، وأن الرافعي يُحرِّمه بشرط الشهوة، والنووي يقول: يَحرم مطلقًا. فقال الشيخ فرج الصفدِي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: الحقُّ في هذه المسألة مع النووي. فقال

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢٦٣/٥).
(٢) المنهل العذب الروي (ص: ٢٧).
(٣) بغية الوعاة (٥٢٣/١).
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١٧٤/٢).
(٥) الروح (ص: ٣٤).

أحد الحضور: صار الفقه بالمنامات! فخضع الشيخ فرج، وقال: أستغفر الله! أنا حكيتُ ما رأيتُ، والبحث له طريق[١].

٥٣. الفائدة تأكل معهم وتشرب: قال عفيف الدين اليافعي (ت ٧٦٨هـ): ذكر المبرد في «الكامل» أبياتًا، نسب أبا نواس فيها إلى الغلطِ، والغلطُ من المبرد. فلما كان بعد ليال من وقوفي على هذه الفائدة، رأيت في المنام المبرد، فسلمتُ عليه، وقلت له: رأيتُ كتابك «الكامل». فقال: قمْ حتى أريَك إياه، وصعد بي إلى بيته، فرأيتُ فيه كتبًا كثيرة، فقعد يفتشُ عليه. فقلت: إنك نسبتَ أبا نواس إلى الغلط في البيت الفلاني.. فعضَّ على رأس سبابته، وهو في صورته خجلان. ثم استيقظت من منامي، وهو على تلك الحال[٢].

٥٤. القول بوصول الثواب للميت: عثمان بن عمر الجيلي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٨هـ) رأى ابن جملة في المنام، فسأله عن ثواب القراءة إلى الميت؛ هل يصل إليه؟ قال: نعم[٣].

٥٥. مسائل الفقه في نومهم: الشيخ محمد الزوكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٢هـ) رأى النبي ﷺ في المنام، وسأله عن وقوع الطلاق المُنَجَّز، في مسألة: كلما وقع عليك طلاقي، فأنتِ طالق قبله ثلاثًا، فقال النبي ﷺ: يقع الطلاق المنَجَّز[٤].

٥٦. المفاضلة بين القرآن والذكر: قال ابن لب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٣هـ): خطرَ لي خاطر خير، فأردت أن أجعل على نفسي وظيفة من ذكر وتلاوة، وترددت: أيهما أفضل؟! فأُنشدت في النوم:

إذا الأحبـاب فـاتهـمُ التلاقي ... فـمـا صـلـةٌ بـأفـضـل مـن كـتـابِ

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٦٨/٤).

(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١٥٧/٢).

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (١٤١/١).

(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (١٢٢/٢). وهذه المسألة مقررة في كتب الفقه، وتعرف بالسُّريجية؛ لأن ابن سريج الشافعي هو أول من قال بعدم هذا الطلاق المنجز.

فلما استيقظتُ علمت أن قراءة القرآن أفضل(١).

٥٧. موافقات في الموافقات: قال الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): لقيت يومًا بعض الشيوخ، الذين أحللتهم مني محل الإفادة.. وقد شرعتُ في ترتيب كتاب «الموافقات» وتصنيفه، فقال لي: رأيتك البارحة في النوم، وفي يدك كتاب ألَّفتَه، فسألتك عنه، فأخبرتني أنه كتاب: «الموافقات».. فقلت له: لقد أخذتم من المبشرات النبوية بجزء صالح ونصيب؛ فإني شرعت في تأليفه! فعجب الشيخ من غرابة هذا الاتفاق(٢).

٥٨. هذه مسألة نبوية: الفقيه جمال الدين الحرازي -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٠٦هـ) حدثت له في الجبر والمقابلة مسألة أشكلت عليه، فنام، فرأى النبي ﷺ وعلَّمه وجه العمل بها، فكان يقول لمن قرأها عليه بعد ذلك: هذه المسألة مسألة نبوية(٣).

٥٩. يسهر ليلة كاملة لأجل مسألة: ابن الخياط الجِبْلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١١هـ) سأله أحد تلاميذه عن الإقالة في النكاح؛ هل تصبح كالفسخ؟ فقال له: المسألة في «الوسيط». فأحضره إليه، فلم يجِدها، فأخذ في التفتيش عليها، حتى مضى معظم الليل ولم يجدها، فلما كان في السحَر غلبته عيناه، فرأى شيخًا له، فعيَّن له موضعها، فلما استيقظ وجدها في المكان المعيَّن(٤).

٦٠. ضبط الأسماء المبهمة: العلّامة صفي الدين أحمد البريهي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٥هـ) رأى النبي ﷺ وسأله عن أبي سعيد الْخُدْرِيّ: أهو مَنْسُوب إلى خُدرة؟فقال له: نعم(٥).

٦١. ينام وما وجد الجواب: شمس الدين البساطي الطائي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) سئل بحضرة السلطان عن قول يعقوب -عليه السلام- لأولاده: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ٨٣] ما الذي سولته أنفسهم لهم، مع أنه لم يكن لهم

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٦٠).
(٢) باختصار من الموافقات للشاطبي (١/٩ - ١٣) ومنجد المقرئين ومرشد الطالبين (ص: ٨٧).
(٣) تاريخ البريهي (ص: ٢٢٨).
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١/٧٨).
(٥) تاريخ البريهي (ص: ٩٨).

تسبُّب في أخذ أخيهم منهم، بل جهدوا على أن يأخذوا بدَلَه، فلم يجابوا لذلك؟ فأكثر العلماء الحاضرون الخبط، وما تحصَّل من جوابهم شيء! قال البساطي: فنمت تلك الليلة، فرأيت قائلًا يقول: هل تعرف جواب السؤال الذي سألته؟ فقلت: لا. فأجابني بالجواب(١).

٦٢. متلذذون بأداء القرآن: عمر بن يوسف العفيفي البسلقوني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٤هـ) رأى النبي ﷺ في المنام، وقرأ معه الفاتحة، وأنه قصَر مَد المستقيم في الوقف، فردَّها ﷺ بمد طويل(٢).

٦٣. تراجم رجال الحديث: رأى ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) في المنام الدارَقطني، فسأله عن الأسئلة التي جمعها ابن طاهر، عن أحوال الرجال وجوابه، فذكر له أن أسئلة الحاكم له مستقيمة، وأن الأسئلة التي للبرقاني مختلة(٣).

٦٤. الحديث أم الفقه؟ المؤرخ المحدث شهاب الدين ابن حجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦١هـ) قال: رأيت أبي في النوم، فقلت: كيف أنتم؟ فتبسم وقال: طيب، فسألته: أيهما أفضل الاشتغال بالفقه أو الحديث؟ فقال: الحديث بكثير.. فقال: إنهم يشكرونك، فقلت: من؟ قال: الملائكة، فقلت: بالله! قال: نعم، قال: فاستيقظتُ مسرورًا(٤).

٦٥. مراجعة كتاب في المنام: جلال الدين المحلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٤هـ) رآه أخوه في النوم، وهو يقول لجلال الدين السيوطي: أيهما أحسن وضعي أو وضعك؟ [يقصد تفسير الجلالين] فقال: وضعي. فعرض عليه بلطف مواضع فيها اعتراض، والسيوطي كلما أورد عليه شيئًا يُجيبه، فيبتسم المحلي ويضحك.

فقال السيوطي في اليقظة عن هذه الرؤيا العجيبة: الذي أعتقده وأجزم به أن الوضع الذي وضعه الشيخ المحلى -رحمه الله تعالى-في قطعته أحسن من وضعي أنا

(١) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٣٤٧/١).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٤٤/٦).
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٦٤/١).
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١٩/٣).

بطبقات كثيرة! كيف وغالب ما وضعته هنا مقتبس من وضعه، ومستفاد منه؟! لا مِرية عندي في ذلك، وأما الذي رئي في المنام المكتوب أعلاه، فلعل الشيخ أشار به إلى المواضع القليلة، التي خالفت وضعه فيها لنكتة، وهي يسيرة جدًا(١).

٦٦. تقيأ العِلم: المفسر أبو زيد الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٥هـ) قال: رأيت النبي ﷺ وأنا في تأليف هذا «التفسير»(٢) وقراءة «البخاري»، وأنا في موضع عالٍ مع أناس كثيرين، وهو يفرق طعاما في يده الكريمة، وطمعت في نيل شيء منه، وخشيت نفاده قبل وصوله إليّ؛ لكثرة الناس، فما كمل الخاطر إلا وهو ﷺ واقف مقبل عليّ مسرور، فسألته أن يطعمني من الطعام، فناولني من يده، وأكلت منه ﷺ ونظر إليّ قائلًا: أليس إذا أطعم النبي أحدًا شيئًا يتقيَّؤه؟! فقلت له: أفأتقيؤه؟ وتهيأتُ للقيء. فقال لي: ليس هذا أريد. ففهمت أنه لم يُرِد القيء بظاهره، وأوّلته على نشر العلم وبثِّه، وفرحت(٣).

٦٧. بشرى لمجالس الحديث: القاضي شهاب الدين اللدِّي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٠هـ) كان يقرأ «صحيح البخاري» كل سنة، ويختمه بالجامع الأقصى، أواخر شهر رمضان.. وكان بالمجلس رجل، فأخذته سِنة من النوم وقت الختم، فرأى النبي ﷺ وهو حاضر في المجلس، فاستيقظ الرجل، وقصَّ الرؤيا على من حضر -وكان مجلسًا حافلًا- فحصل للقاضي اللدي السرور بذلك، وبكى هو ومن حضر(٤).

٦٨. التحذير من المبتدعة: المقرىء العلامة يوسف الجبئي الجابري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٣هـ) اجتمع ببعض فقهاء الزيدية، فسألوه أن يقرئهم كتابًا من النحو، فأجابهم إلى ذلك، فشرع بقراءته، فرأى النبي ﷺ في المنام وعنده الشافعي وجماعة، فقال الشافعي للنبي ﷺ: هذا يُقرىء العلمَ المبتدعة. فنهاه النبي ﷺ فلما استيقظ، وجاء الزيدي؛ ليقرأ عليه اعتذره، فلم يقرئه(٥).

---

(١) تفسير الجلالين (ص ٣٧٩ و٣٨٠).
(٢) يقصد تفسيره الجواهر الحسان في غاية الحسن، قال: وجمعته في سنين كثيرة.
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٢٦١).
(٤) الأنس الجليل (٢/١٩٦).
(٥) طبقات صلحاء اليمن = تاريخ البريهي (ص: ٢٤٦).

٦٩. أعالي مروياته: أحمد بن زهرة -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠١هـ) قال: من أعالي مرويّاتي ما أرويه عن جدّي، أنّه رأى النّبيّ ﷺ في المنام وقال: أأنت قلت: الحياء من الإيمان؟ فقال: نعم[١].

٧٠. يا شيخ الحديث: السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) قال: رأيت في المنام كأني بين يدي النبي ﷺ فذكرت له كتابًا، شرعت في تأليفه في الحديث، وهو «جمع الجوامع»، فقلت له: أقرأُ عليكم شيئًا منه؟ فقال لي: هات يا شيخ الحديث. قال: هذه البشرى عندي أعظم من الدنيا بحذافيرها[٢].

٧١. يطلب العلم بالمنام: قال بعض العلماء: رأيت في منامي كأني جالس بالعلم على عادتي، وحولي كتبي، وإذا بخطاب فوق رأسي، وقائل يقول لي: اكتب. فأخذت القلم وورقة، وقلت: ما الذي أكتب؟ فقال: اكتب:

تعلم ما استطعت لقصد وجهي ... فإن العلم من سفن النجاةِ

ومن طلب العلوم لغير وجهي ... بعيد أن تراه من الهداةِ[٣]

٧٢. يؤلِّف تفسيرًا بسبب رؤيا: قال الخطيب الشربيني الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٧هـ) عن تفسيره «السراج المنير»، وقد مكث في تأليفه سبع سنين دأبًا: استخرتُ الله -تعالى-..بعد أن صليت ركعتين في [روضة المسجد النبوي] وسألته أن ييسر لي أمري..فلما رجعت من سفري..قال لي شخص من أصحابي: رأيت في منامي، إما النبيّ ﷺ أو الشافعيّ، يقول لي: قل لفلان يعمل تفسيرًا على القرآن..ثم سألني بعد ذلك جماعة من أصحابي..أن أجعل لهم تفسيرًا..فأجبتهم[٤].

٧٣. بشرى لشراح الحديث: رأى راءٍ النبي ﷺ في المنام، وهو يعطي الناس عطايا،

(١) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٢٤١/١).

(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٥٢).

(٣) المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ﷺ من صحيح الإمام البخاري - السفيري الشافعي (المتوفى: ٩٥٦هـ).

(٤) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/١).

فقيل له: يا رسول الله؛ وابن علان الصديقي (ت ١٠٥٧هـ)؟ فأخذ يحثو له بيده الشريفة حثيات[١].

٧٤. يكسوه ﷺ: عثمان الكماخي (ت ١١٧١هـ) شارح «الموطأ» يقول: لما بدأتُ بتحديثه رأيت في المنام أني أغتسل، وأنا عَارٍ من الثوب، فإذا رجال قد اجتمعوا، وقرُب إليَّ رجل وفي يده إزار بيضاء، فقال: هذا عطاء لك من رسول الله ﷺ، فأخذته واشتملته بجسدي كله[٢].

٧٥. حفظها بالمنام: قال أبو البركات السويدي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٤هـ): ومما وقع لي أيام الطلب في الابتداء أني ما حفظتُ الأوجه الخمسة في «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فنمت فرأيت رجلًا يُلَقِّنُني إياها، فانتبهت وأنا أحفظها على الإتقان[٣].

٧٦. الإمام مالك يفرح بشرحه: أبو الحسنات اللكنوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٤هـ) قال: رأيت في المنام كأنّي دخلت في المسجد النبوي، فإذا أنا بالإمام مالك جالسًا فيه، فحضرت عنده، وصافحته، وقلت له: كتابكم «الموطأ» لي فيه اختلاجات وشكوك، أرجو أن أقرأه عليكم لتحل تلك الشكوك، فقال فرحًا ومسرورًا: هات به واقرأه عندي، فقمت من هناك لآتي به من بيتي، فاستيقظتُ، وحمدت الله على هذه الرؤيا الصالحة، وشكرته. فكأنّ في هذه الرؤيا إشارة من الإمام مالك، إلى توجُّهي إلى «موطئه»، والاشتغال بدرسه وتدريسه، وشرحه[٤].

٧٧. دقِّق الإسناد: كان صدِّيق حسن خان القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) يُلقي درسًا في شرح وقراءة «البخاري»، وكان يَحضره جماعة من العلماء، ويجتمع من العوام عالَم لا يُحْصَون. قال: فكنت في بعض الأوقات أفسر الألفاظ الحديثية، بما يفهمه أولئك العوام الحاضرون. وقد رأيت الأمير الصنعاني في المنام، فدار بيني وبينه

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٨٤/٤).
(٢) المهيأ في كشف أسرار الموطأ (٢٨/١).
(٣) النفحة المسكية في الرحلة المكية (ص: ٧٢).
(٤) التعليق الممجد على موطأ محمد (٥٩/١).

كلام حفظت منه، قال لي: دقِّق الإسناد، وتأنَّق في تفسير كلام رسول الله ﷺ. فأردت أن أقول: إنه يحضر جماعة لا يفهمون بعض الألفاظ العربية، فبادرني، وقال قبل أن أتكلم: قد علمتُ أنه يقرأ عليك جماعة، وفيهم عامة، ولكن دقق الإسناد، وتأنق في تفسير كلام رسول الله ﷺ[١].

٧٨. ورأى القِنَّوجي -أيضًا- رسول الله ﷺ في الرؤيا. قال: ورأيت أن وراء ظهره قُلَّةً من رمان، فأخذ رمانتين منها، وجاء إليَّ، وأعطانيهما بيده الشريفة، فتناولتهما..ثم تأملت في التأويل، فوجدت أن الرمانتين عبارة عن: العمل بالكتاب والسنة، أو السفر إلى الحرمين الشريفين. وقد وقع ما أولتُ - ولله الحمد -[٢].

٧٩. يحلم بتفسير القرآن: قال الألوسي-رحمه الله تعالى-(ت ١٣٤٢هـ): رأيتُ رؤية، لا أعدها أضغاث أحلام، أن الله -جل شأنه - أمرني بطَيِّ السماوات والأرض، ورتْق فَتْقِهما، فرفعت يدًا إلى السماء وخفضت الأخرى إلى مستقر الماء. ثم انتبهت من نومتي، وأنا مستعظِم رؤيتي، فجعلت أفتِّش لها عن تعبير، فرأيت في بعض الكتب، أنها إشارة إلى تأليف تفسير[٣].

ثم قال في آخر تفسيره: فهذا -والحمد لله- تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربي حقًا[٤].

٨٠. العلم أحسن مستفاد: العلامة ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) رأى زميلَه وصاحبَه الشيخ عثمان الصالح القاضي في المنام. فسأله عن أحسن ما يستفيده العبد في آخرته؟ فقال له الشيخ القاضي: أحسن ما يستفيده العبد في آخرته طلب العلم وتعليمه[٥].

---

(١) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٤٠٨).

(٢) أبجد العلوم (ص: ٧٢٥).

(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (١/٥). وتعبير الرؤيا يشير لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(٤) المصدر السابق (١٥/٥٢٧).

(٥) مقطع من مقابلة من قناة المجد مع الشيخ عبد الله بن عقيل -رحمه الله-.

٨١. مَتْنٌ لم يَتِمَّ: الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) رأى في منامه أنه يأكل حلوى لذيذة، ولم يُتمها، فأصبح وطعمها في فمه. فطلب تعبير الرؤيا، فقيل له: هذا مَتنُ علم لم تُتمه! فكان شرحًا لشيخه ابن باز في «الآجرومية»، ولم يكملوه[1].

٨٢. تيسير لأهل القرآن: محمَّد تميم الزُّعبي - حفظه الله تعالى- سافر من المدينة النبوية إلى مصر؛ ليقرأ على الشيخ المعمر أحمد الزيات -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٤هـ) ختمة كاملة بالقراءات العشر، وذلك عام ١٤٠١هـ وسبب سفره إليه؛ أنه رأى في المنام شيخه الزيات قبل أن يعرفه، واستقبله في المنام استقبالًا حافلًا، قائلًا له: سوف تقرأ في اليوم جزءًا وأكثر -إن شاء الله-.

ولما قدم إليه في القاهرة، وقص عليه الرؤيا فقال: إن هذا من المستحيلات! فقرأ في اليوم الأول الفاتحة، وخمس آيات من البقرة، فلما أتى في اليوم الثاني أخبره، بأنه إذا فرَّغ نفسه للقراءة صباحًا ومساءً، فلابد من اثنين وأربعين يومًا على أقل تقدير، ثم تَقاصرَت المدة، حتى انتهى في اليوم الخامس والعشرين، وبذلك أصبح الحلم حقيقة[2].

٨٣. تَوَافُق عجيب: قال شيخنا الحافظ يحيى بن عبد العزيز اليحيى -حفظه الله تعالى-: حين فرغتُ مِن درَاسة حديث: «**مَن رآني في المنام فسَيرَاني في اليقظة**»، أراني الله في الليلة نفسِها رسولَ الله ﷺ بأوصافه الثابتة، وكأنه الشمس، وهو يقول -وقد أخذته قَشعريرة من برْد -: غطِّني[3].



(١) العالِم العابد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم - ابنه الشيخ عبد الملك (ص٢٨).
(٢) إمتاع الفضلاء بتراجم القراء فيما بعد القرن الثامن الهجري (٢٨٥/١).
(٣) انظر: مقدمة كتابه الحافل الذي حفظه أكثر من عشرين ألفًا: (الجمع بين الصحيحين للحفاظ).

٧٦. لذة العلم عند الاحتضار

يا لله العجب! حتى في لحظة الانتقال من الدنيا يتنسَّمون من شَميم عَرار العلم؟!

ذلك أنهم عقدوا العزم ألا يُفارقوا العلم، حتى تنقطع أنفاسهم. ومَن شابَ على شيء مات عليه. وقد قيل لبعضهم: مِن متى التعلم، وإلى متى؟ فقال: من المَهْد إلى اللَّحْد[١].

قال عبد الله بن بشر الطالقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٥هـ): أرجو أن يأتيني أمر الله والمحبرة بين يدي، ولم يفارقني القلم والمحبرة[٢].

وقد قيل للإمام عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ): إلى متى تطلب العلم؟ فقال: أرجو أن تَرَوني فيه حتى أموت. وقال: أليس يُقال: يَستغفر لطالب العلم كلُّ شيء، حتى الحيتان في الماء؟! أفلهذا مَتْرَك؟![٣].

وا لَهْفَ نفسيْ على شيئين لو جُمعا ... عندي لكنتُ امرأ من أسعد البشرِ
كفاف عيش كفَاني ذلَّ مسألةٍ ... وخدمة العلم حتى ينقضي عُمُري[٤]

وقد غلب على كل ذوي فنّ التلذذ بفنِّهم، والتحدث بعلمهم عند لحظات الرحيل، فالنحوي في نحوه، والمحدث بتحديثه. وهلم جرّا.

بل حتى إن الوراقين والنُّسَّاخ قد شاركوا المتلذذين بالعلم وهم يغادرون الدنيا، فصار حديثهم عن وسائل كتابة العلم.

ولما قيل لورَّاق وهو في النزْع: ما تشتهي؟ قال: قلمًا مشاقًا، وحبرًا براقًا، وجلودًا رقاقًا[٥].

---

(١) نشر طي التعريف للوَصَابي الشافعي (ت ٧٨٦هـ) (ص: ٢١٤).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٨/٢٧).
(٣) المصدر السابق (٤٠٩/٣٢).
(٤) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٦٥/٤).
(٥) أدب الإملاء والاستملاء (ص: ١٦٣).

وإليك الآن بضعة وأربعين نموذجًا، لأحوال المتلذِّذين بالعلم عند احتضارهم، وبين يدي موتهم، وكيف أنهم كانوا يتلذذون بالعلم، بالرغم من شدة سكرات الموت وكُرَبِهِ:

١. عمر بن الخطاب ﵁ (ت ٢٣هـ) حين طُعن استشارهم في ميراث الجد(١).

٢. زيد بن صوحان ﵁ (ت ٣٦هـ) أوصى أن يُدفن معه مصحفه(٢).

٣. دخلوا على زُفَرُ -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٨هـ) وهو يجود بنفسه، وهو يقول: لها ثلاثة أرباع الصداق، لها خمسة أسداس الصداق(٣).

٤. رئي محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) في المنام بعد وفاته، فقيل له: كيف كنت في حال النزع؟ فقال: كنتُ متأملًا في مسألة من مسائل المُكاتَب، فلم أشعر بخروج روحي(٤).

٥. إمام العربية الفراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) دخلوا عليه في مرضه، وقد زال عقله، وهو يقول: إنْ نَصْبًا فنصْبًا، وإنْ رَفْعًا فرَفْعًا(٥).

٦. أبو زرعة -رحمه الله تعالى- (ت ٢١١هـ) بينما هو في النزع وهو ساكت، فأرادوا أن يلهج بـ: لا إله إلا الله، فعرفوا المدخل الذي يَدخلون به عليه، ألا وهو المذاكرة في أسانيد الحديث، فقال أبو حاتم الرازي لمحمد بن مسلم: ما تحفظ في تلقين الموتى «لا إله إلا الله»؟ فقال محمد: يروى عن معاذ. فمِن قبل أن يستتم رفع أبو زرعة رأسه، وهو في النزع، فقال: روى عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ، عن النبي ﷺ قال: **من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة.** ثم قضى(٦).

---

(١) مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٩٠٥١).

(٢) الطبقات الكبرى ط العلمية (١٧٨/٦).

(٣) المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٨).

(٤) تعليم المتعلم طريق التعلم (ص: ٥٠).

(٥) طبقات المفسرين للداوودي (٣٦٧/٢).

(٦) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٤٥/١) والحديث رواه أبو داود (٣١١٦) وصححه الحاكم والذهبي (٣٥١/١) وحسنه الألباني في الإرواء (٦٨٧).

٧. قال الفقيه الحنفي إبراهيم بن الجراح -رحمه الله تعالى-(ت ٢١٧هـ): دخلتُ على أبي يوسف يومًا، فوجدته مغمى عليه، ففتح عينيه فرآني، فقال: يا إبراهيم! أيما أفضل للحاج أن يرمي راجلًا أو راكبًا؟ فقلت: راجلًا. فخطَّأني، ثم قلت: راكبًا. فخطَّأني، فقلت: فما يقول الإمام؟ قال: كلُّ رمي بعده رمي يرميها الرامي ماشيًا، وكلُّ لُبْسٍ بعده رمي يرميها الرامي راكبًا. فخرجتُ من عنده، فسمعت بكاء النساء في داره، فقيل: قُبض أبو يوسف!

فلو كان شيء أفضل من مذاكرة العلم لاشتغل به في هذه الحالة؛ لأن هذه الحالة حالة الندامة[١].

٨. كان أحمد بن خضرويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٠هـ) وهو في النزع، وقد أتى عليه خمس وتسعون سنة، فسئل عن مسألة، فدمعت عيناه وقال: يا بُني، بابٌ كنت أدقُّه خمسًا وتسعين سنة، هو ذا يفتح لي الساعة، لا أدري أيُفتح لي بالسعادة أو بالشقاوة، أنَّى لي أوَان الجواب[٢].

يَقصد: أن ذهنه ذاهِلٌ، من الكِبَر، ومن ألم الاحتضار، ومع ذلك؛ فإنك تَعْجَبُ من حُسن ردِّه، ومِن حفاوة تلميذه بالعلم.

٩. ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) ذُكر له عند موته دعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدَعَ اقتباس العلم، حتى الممات. وتوفي بعد ساعة[٣].

١٠. أبو القاسم البغوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٧هـ) كانوا يقرؤون عليه جزءًا، وقد وضع رأسه بين ركبتيه، فرفع رأسه وقال: كأني بهم إذا متُّ يقولون: مات البغوي، ولا يقولون: مات جبل العلم! ثم وضع رأسه بين ركبتيه واستند، فلما فرغوا من قراءة الجزء حرَّكوه، فإذا به قد مات[٤].

---

(١) المهيأ في كشف أسرار الموطأ (٤٧٥/٢).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤٢/١٠).
(٣) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ٥٢٧).
(٤) المنثور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي (ص: ٣٨).

١١. قال ابن أبي حاتم -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٧هـ): حضرتُ أبي -رحمه الله- وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عقبة بن عبد الغافر؛ يَروي عن النبي ﷺ له صُحبة؟ فقال برأسه: لا. فلم أقنعْ منه. فقلتُ: فهمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي. قال الابن عن أبيه: فكان سيدُ عمله معرفةَ الحديث، وناقِلَةِ الآثار، فكان في عمره يُقتبس منه ذلك، فأراد الله أن يُظهِر عند وفاته ما كان عليه في حياته[١].

١٢. محمد بن وسيم بن سعدون -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٢هـ) كان أعمى بصيرًا بالحديث. دخل عليه بعض أصحابه وهو في النزع، فناداه فلم يجبه. فقال الآخر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] فقال له ابن وسيم حين ذلك: نزلت في الكفار وقتَها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ [سبأ: ٥٤][٢].

١٣. ابن السني الدينوري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٤هـ) صاحب «عمل اليوم والليلة» مات وهو يكتب[٣].

١٤. قيل لأبي بكر الخوارزمي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٣هـ) عند موته: ما تشتهي؟ قال: النظر في حواشي الكتب[٤].

١٥. سأل بعضهم أبا طاهر الزياديّ -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٠هـ) وهو في النزع عن مسألة ضمان الدَرَك، فأجابه[٥].

١٦. عالم الرياضيات الخوارزمي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٠هـ) دخلوا عليه وهو يَجود بنفسه، قد حشرج نفَسُه، فقال في تلك الحال: كيف حساب الجدَّات الفاسدة؟ فقيل له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟ فقال: أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، خير من أن أخلّيها وأنا جاهل بها؟ فأعادوا ذلك عليه وحَفِظه، وخرجوا من عنده، فسمعوا الصراخ عليه[٦].

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٦٧/١).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٧٥/٦).
(٣) الأعلام للزركلي (٢٠٩/١).
(٤) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤١/٤).
(٥) معيد النعم ومبيد النقم (ص: ٧٥).
(٦) بغية الوعاة (٥١/١) ومعجم الأدباء (٢٣٣١/٥).

١٧. الماوَردي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٠هـ) لم يُظهِر شيئًا من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلما دَنَتْ وفاته، قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أُظهرها؛ لأني لم أجد نيةً خالصةً، فإذا عاينْتُ الموت، ووقعت في النَّزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها، فاعلم أنه لم يُقبل مني شيء منها، فاعمَدْ إلى الكتب، وألقِها في دجلة، وإن بسطتُ يدي، فاعلم أنها قُبلت. قال الرجل: فلما احتضر، وضعتُ يدي في يده، فبسطها، فأظهرتُ كتبه[1].

١٨. الفقيه أبو الحسين بن السوادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٢هـ) كان يُلقي الدرس، فتوفي فجأة![2].

١٩. أبو المحاسن الرُّوياني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٢هـ) أملى في درسه مسائل، وبعد فراغه من الإملاء، قتلته الملاحدة مع جماعة من العلماء، فماتوا شهداء -بإذن الله-[3].

٢٠. ابن أبي كدية التميمي القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٢هـ) أغمي عليه عند وفاته، ثم أفاق، فقال لمن حوله ممن يقرأ عليه: داوِموا على ما أنتم عليه، فما لقيتُ إلا خيرًا. ثم مات[4].

٢١. ابن زُريق -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ) شيخ ابن الجوزي، قرئ عليه الحديث قبل وفاته بأيام[5].

٢٢. الحافظ علي الفضلي العرشاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٧هـ) كان يُقرأ عليه في مرض موته كتاب «الشريعة» للآجرّي، فكان قد يُغشى عليه، ثم يُفيق، فيأمر القارئ بإعادة ما قرأه[6].

---

(١) وفيات الأعيان (٣/٢٨٢).
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٤/١٣٣).
(٣) المصدر السابق (٣/١٩٩).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٤/١٩٠).
(٥) الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (٦/٢٩٨).
(٦) السلوك في طبقات العلماء والملوك (١/٣٠٤).

٢٣. قال أبو سعد السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ): سألتُ عن منزل أبي المعالي عشائر المغري، ودخلت عليه، فرأيت شيخًا بهي المنظر. وسألني: من أين أنت؟ ولأي شيء جئتَ؟ فذكرت له: جئتُ لأسمع الحديث. فبكى، وقال: كنت أفكر أني سمعتُ حديث رسول الله ﷺ ولقيتُ أهل العلم، وكبُرتُ ولم يَسمع مني أحد، وربما أموت عن قريب، وينقطع ذِكري، فبلغت أمنيتي، وقيّض الله -تعالى- حضورك عندي، وقراءتك علَيَّ؛ لتسمع مني، ويبقى ذِكري مخلدًا. فقرأت عليه، وتوفي عن قريب بعد كتابتي عنه، والقراءة عليه(١).

٢٤. حدَّث السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) ليلةَ موتِهِ، وكان يردُّ اللحن الخفيَّ على القارئ(٢).

٢٥. النحوي أبو بكر الخِدَبُّ الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) اختلط في آخر حياته.. وربما ثاب إليه عقله أحيانًا، فيتكلم في مسائل مشكلة من النحو، ويبيِّنُها أحسن بيان، وعندما تختلف عليه المسألة يَبكي(٣).

٢٦. أبو العز المظفر بن أبي طالب الصفار -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٨هـ) حدَّث قبل وفاته بأربعة أيام عن ابن عساكر بجزء واحد(٤).

٢٧. المقرئ علي الأبْلَه -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ) كان يقرأ عليه إنسان، فحرَّكه فوجده ميتًا(٥).

٢٨. ابن مالك صاحب «ألفية النحو» -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ) حفظ يوم موته ثمانية أبيات. وهذا مما يَصدق ما قيل: بقدر ما تتعنَّى، تنال ما تتمنَّى(٦).

---

(١) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٢٩٣).
(٢) طبقات علماء الحديث (٧٦/٤).
(٣) التكملة لكتاب الصلة (٥٦/٢) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣١٣/٤٠).
(٤) تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب (ص: ٩٧).
(٥) الوافي بالوفيات (١٧٩/٢٠) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٣٨/٤٦).
(٦) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٢٢٩/٢).

٢٩. الدِّمْيَاطيُّ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٥هـ) أغمي عليه بمجلس درس الحديث، ثم توفِّيَ بعده بساعة[١].

٣٠. يونس بن أحمد الأنصاري الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ) مات فجأة، وقد حدَّث في اليوم الذي مات فيه[٢].

٣١. سليمان بْن حمزة بن قدامة، المقدسيُّ -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٥هـ) أفتى نيفًا وخمسين سنة، وشيوخه بالسماع نحو مئة شيخ، ولم يزل يُقرأ عليه إلى قبل وفاته بيوم واحد[٣].

٣٢. يعقوب بن سليمان -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٢١هـ) سئل عن مسألةٍ وهو في النزْع، فأجاب وهو غافل، ثم توفي فرآه بعض أصحابه، بعد دفنه بيوم أو يومين وهو يقول: يا فلان رُحْ إلى الرجل الذي سألني في محضرك، عن كذا وكذا وأنا في النزع، وقل له: إني أجبته في حال شغل، والأصح أن جوابه كذا وكذا[٤].

٣٣. الحجَّار ابن الشحنة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٠هـ) في يوم موته قرئ عليه ميعاد من «البخاري»، وتوفي بعد الفراغ من القراءة بقليل[٥].

٣٤. الطِّيْبي، صاحب «شرح المشكاة» -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٣هـ) كان يشتغل في التفسير من الشروق إلى الزوال، ومن ثم إلى العصر في «صحيح البخاري» إلى ساعة موته، فإنه فرغ من وظيفة التفسير، وتوجه إلى مجلس الحديث، فصلى النافلة، وجلس ينتظر الإقامة للفريضة، فقضى نحبه، متوجهًا إلى القبلة[٦].

٣٥. التقي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) قرأ على شيخه المعمَّر ابن جامع الحنفي، فمات الشيخ من الغد[٧].

---

(١) طبقات علماء الحديث (٤/٢٦٣).
(٢) معجم الشيوخ الكبير للذهبي (٢/٣٩٩).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٤٠٠) وعنه: تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٢/٩٥٨).
(٤) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/٣٤٧).
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١/١٦٥) ومعجم الشيوخ للسبكي (ص: ٦٤).
(٦) طبقات المفسرين للداوودي (١/١٤٧).
(٧) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٦/٢٦٠).

٣٦. جمال الدين الإسنوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٢هـ) انتصب للإقراء والتدريس والإفادة خمسًا وخمسين سَنة، واستمر لا ينقطع إلى قبل وفاته بيومين[١].

٣٧. ابن أبي حجلة التلمساني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٦هـ) كان كثير الحط على الاتحادية، وصنف كتابًا عارض به قصائد ابن الفارض، وأمر عند موته أن يوضع كتابه في نعشه، ويدفن معه في قبره. ففُعل به ذلك[٢].

٣٨. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) قال في وصيته التي نفذت بعد موته: وقد أوصيتُ لكلٍّ مِنْ طلبة الحديث النَّبويِّ بمئتي دينار.. وهم: (ثم عدَّ عشرة من طلابه) تُقسم بينهم بالسَّويَّة. ولسِبطي يوسف ثلاث مئة دينار، يشتري بها مِنْ كتبي ما يختار.. ليَقِفَه على طلبة العلم الشَّريف مِنْ أهل الحديث النبوي، ويكون مقرُّ ذلك تحت يده في طُول حياته، ثمَّ مِنْ بعده[٣].

٣٩. الشيخ العلامة الهندي أحمد بن أبي سعيد الأميتهوي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣٠هـ) لم يترك الدرس والإفادة، حتى درس عشية موته[٤].

٤٠. محمد الولاتي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣٧هـ) لما عجز في مرض وفاته عن إمساك الكتاب، صارت تمسكه له زوجته، فإذا أكمل وجه الورقة قلَبَتْها له[٥].

٤١. العلامة الحسن بن رحال التدلاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٠هـ) توفي وهو يقرأ كتاب «الشفا» للقاضي عياض، وقد ابتدأ قراءته وهو مريض، والطلبة يدخلون عليه للقراءة بداره[٦].

٤٢. الأديب الرافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٦هـ) قرأ جملة من الكتب والمجلات قبل وفاته بسويعات[٧].

(١) بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ٢٠١).
(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر (٨١/١).
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٢٠٤/٣).
(٤) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٦٩١/٦).
(٥) فتح الشكور (ص ١١٩).
(٦) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (١٧/٣).
(٧) حياة الرافعي - محمد العريان (ص٢٤٠).

٤٣. الشيخ عبد العزيز آل مبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٩هـ) عندما أحسَّ بدنوِّ أجَله قال: ما أسِفْتُ على شيء، أسفي على علم بين جنبيَّ؛ لم أستطع أن أورِّثه لأحد بعدي[١].

٤٤. الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) في آخر ساعاته وهو بالمستشفى، أفاق إفاقة، فطلب أن يُقرأ عليه معاملات الطلاق وفتاوى أخرى، فأنهى منها ثلاثًا وثلاثين قبل وفاته بعشرين ساعة. يقول مدير مكتبه بمنزله الشيخ محمد الموسى -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٢هـ): وفي تلك الليلة عِشنا أسعد ليلة مرَّت بنا في الطائف، بعد أن رأينا سماحة الشيخ على هذه الحال[٢].

٤٥. جاري الكريم الراحل، الشيخ د. المفسر: سليمان بن عبد العزيز السليمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٩هـ) أصيب بجلطة ليلة السابع والعشرين من رمضان، وهو قائم يصلي في المسجد، فرُقِّد في المستشفى ببريدة، وفي الخامس من شوال بدأ يَتعافَى شيئًا، فيَشتاق للعلم، وإذ به يقول للطبيب: متى ستسمح لي بالبحث والقراءة؟! ثم مكث يتحدث عن العلم والكتب، مع ابنه الأكبر الأديب الأستاذ هشام، فيَتمنى كتابًا أن يقرأه، ألا وهو كتاب: «قواعد الترجيح عند ابن عاشور في التفسير». ويروي ابنه هشام أنه ذهب للمكتبة، فاشتراه له، فقرأ منه مقدارًا، حتى إذا تعب أغلقه، ناويًا أن يُكمله إذا قام من الموتة الصغرى، ولكنه لم يَقُم من الموتة الكبرى! ونِعم الختام خِتامه -رحمه الله تعالى-[٣].



(١) علماء نجد للبسام (٣/٢٦٩).
(٢) جوانب من سيرة ابن باز للشيخ د. محمد الحمد (ص: ٥٨٥).
(٣) مستخلصة من تغريدات ابنه الأستاذ الأديب/هشام.

٧٧. من مات في مكتبته، أو عند كتاب يقرؤه أو يصنِّفه[١]:

يا ربَّنا يا سِتِّير[٢]! لماذا ماتوا؟! أيكونون شهداء الكتب والمكتبات؟!

قال النبي ﷺ: **الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ**:..[ومنهم] **صَاحِبُ الْهَدْمِ**[٣].

ويَصحَبُ الهدمَ روعٌ وفزَع، فهو قسطٌ من أهوال الدنيا المكفرة عن أهوال الآخرة.

لكن كيف استعاذ ﷺ من الهدم مع وَعْد الشهادة عليها؟

والجواب: لأنها لا يَكاد أحد أن يَصبر عليها، أو يَذكر عند حُلولها شيئًا مما يجب عليه في وقته[٤].

والموت بالهدم وسائر المصائب على ثلاث أنحاء: إما شهادة، وإما كفارة، وإما عقوبة. وهذا أمره إلى الله، لا يملك المرء توزيع خواتيم المسلمين على هذا التقسيم، لكنها على الكافر والفاجر عقوبة بلا ريب.

وهذا الباب يعطيك مؤشرًا بيِّنًا أنهم عليها عاكفون، وأنهم بما يقرؤون متأثرون. ولكن لا يلزم أن يكون سبب وفاتهم مكتباتهم، بل قد تكون وفاته في مكتبته، ولم تجْنِ عليه المكتبة شيئًا. أتجْني الخليلة على خليلها؟!

فإليك نبأهم، مشمولًا بأسباب وفياتهم بمكتباتهم أو بين مكتوباتهم:

---

(١) ذكرتُ هذا المبحث بشيء من البسط في كتابي المطبوع: الاعتبار بعاقبة أعلام ماتوا بحوادث مرعبة أو مستغربة.

(٢) على وزن «سِكِّيت» بكسر وتشديد، ويجوز فتحه والتخفيف على وزن «رَحِيم». انظر: مجمع بحار الأنوار (٣/٣١).

(٣) صحيح البخاري (٦٥٣) وصحيح مسلم (٥٠٤٩).

(٤) شرح المصابيح لابن الملك (٣/٢١٨).

١. عبد الله بن وهب -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ) تلميذ الإمام مالك. وسبب موته: أنه قُرِئ عليه كتاب «الأهوال» من تصنيفه، فأخذه شيء كالغَشِيّ، فحُمل إلى داره، فلم يزل كذلك، إلى أن قضَى نَحْبه(١).

٢. إمام الأدب الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) لازَم منزلَه الذي أصبح مثوى الأدب، ومات والكتابُ على صدره، قتلتَه مجلدات من الكتب؛ وقعتْ عليه(٢).

٣. إمام النحو ثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) سبب موته أنه كان يطالع كتابًا في الطريق، فصدمته فرس، فأوقعته في بئر فاختلط، وأخرج منها، فمات في اليوم الثاني(٣).

٤. الحاكم الشهيد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ) تلميذ صاحب «المستدرك»: قُتل والكتب بين يديه، وهو يصنف بضوء الشمع(٤).

٥. الحافظ ابن السني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٤هـ) قال ابنه: كان أبي يكتب الحديث، فوضع قلمه في أنبوبة محبرته، ورفع يديه يدعو، فمات!(٥)

٦. شرف الدين اليُونِينِيُّ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠١هـ) صاحب نُسخة «صحيح البخاري» المشهورة: كان جالسًا في خزانة الكتب، فدخل إليه شخص مُختلٌّ، فضربه بعصا، وجرحه بسكين، فتوفي بعدها بأيام(٦).

٧. المفتي ابن عدلان -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) توفي وهو يصنف «تفسير القرآن»(٧).

(١) الثقات لابن حبان (٣٤٦/٨) والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر (ص: ٤٩).
(٢) تاريخ بغداد وذيوله (٢١٤/١٢) والمنتظم (٩٣/١٢) والأعلام للزركلي (٧٤/٥).
(٣) وفيات الأعيان (١٠٤/١) وإرشاد القاصي والداني إلى تراجم شيوخ الطبراني (ص: ١٩٦).
(٤) الأنساب للسمعاني (١٩١/٨).
(٥) التذكرة (٣/١٠١).
(٦) المعجم المختص بالمحدثين (ص: ١٦٩) ومعجم الشيوخ الكبير للذهبي (٤٠/٢)وطبقات الأولياء (ص: ٥١٣).
(٧) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٢٤٩/٤).

٨. الشيخ الفقيه محمد بن الفتوح التلمساني -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٨هـ) أصابه الطاعون وهو يقرأ «البخاري» في خزانة الكتب، فحُمل لبيته في المدرسة، فمات[١].

٩. الملك همايون التيموري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٣هـ) فوجئ بالوقوع من مكتبته التي كان يطالع فيها، ومات بعد بضعة أيام[٢].

ومن تغريدات طلبة العلم في «تويتر» قالوا عن هو العلماء الأربعة:

١٠. الشيخ عبد الرحمن المعلمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٦هـ) كان إذا أراد النوم يضع عن يمينه «ألفية ابن مالك» وعن يساره «منتهى الإرادات» ويترك الأنوار مضاءة، فيغفو ثم يقرأ في أحدهما، حتى يغلبه النوم! وقد مات بين المحابر والدفاتر! حيث وُجد صريعًا بين أوراقه وكتبه، في مكتبة الحرم المكي، حيث كان ينام!

١١. الشيخ مصطفى الزرقا -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) استفتاه جماعة في مسألة مالية، فأجاب، ثم بقي بعد مغادرة المستفتين ينقب ويبحثها، فوافته المنية وهو على حاله.

وكم من مقيم على لذةٍ ... دهَتْهُ الحوادث في لذتِهْ[٣]

١٢. الشيخ الفقيه إبراهيم الصبيحي -رحمه الله تعالى-(ت ١٤٣٧هـ) كان يقوم في ساعة من آناء الليل، ويصلي ما كتب الله له، ثم يلِجُ مكتبته في جلسة بحثية طويلة متصلة، وربما لم يخرج منها إلا قبل الظهر، وقد مات في مكتبته سَحَرًا.

١٣. قاضي مكة الشيخ محمد بن هديهد الرفاعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ) صاحب المكتبة الشخصية الضخمة، التي هي من أكبر المكتبات في العالم العربي. أوصى ألا تُخرج جنازته إلا من مكتبته! فكان له ما أراد!



(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٩٨).
(٢) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٤/٤٤٤).
(٣) المجالسة وجواهر العلم (٢/٢٥٧).

٧٨. لذة العلم بعد الموت

هذا العنوان قد يثير في نفسك - أيها القارئ الكريم - إثارة وإشكالًا.

فقد تقول: يا عجبًا! أموات ويتلذذون؟! فكيف نعلم عن لذَّتهم في أمر خفي؟! فإن حياة البرزخ أعجب وأخفى، فكيف كان الخفي ظاهرًا لنا؟ وكيف شعُرنا بلذتهم فيه؟!

فيقال: قد ظهرت لنا لذتهم من خلال مضامين أقوالهم، أو من شريف أفعالهم التي باحوا بها عند مِيتاتهم، أو منامات مبشرات رؤيَتْ لهم. والرؤى يُستأنس بها، ولا يُعتمد عليها، كما قال محمد بن واسع (ت ١٢٣هـ) والإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) -رحمهما الله تعالى-: الرؤيا تَسُرُّ المؤمن ولا تَغُرّه[1].

فيا لَفضل العلماء، ويا لروعة أثرهم، وتعلق القلوب بهم، وتعلقهم بالعلم.

وهذا علامة وثيقة، على تلذذهم الحقيقي بالعلم، حتى بعد انقطاع الأنفاس.

وإنما بلغت لذتهم هذا المبلغ؛ لأنهم كانوا يُفكِّرون كثيرًا في أن يكون عِلمُهم نفعُه متعدِّيًا؟! ألم يقُل نبيُّك ﷺ: **إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: علمٍ يُنتفع به..**؟! رواه مسلم[2].

فلذَّة العلم -إذًا- ممتد مَذاقُها إلى ما بعد الموت. فَيَالَهَا من مرتبة ما أعلاها! ومنقبة ما أجلَّها وأسناها! أن يكون المرءُ فى حياته مشغولًا ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة، وأوصالًا متفرقة، وصحف حسناته متزايدة تُملأ فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مُهداة إليه من حيث لا يحتسب! تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون. و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١][3].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٥٠٨/٤) ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ٣٧٩).

(٢) صحيح مسلم (١٦٣١).

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٥٣).

فاللذة الباقية بعد الموت هي لذة العلم النافع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): اللذة التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله، والعمل له[١].

وقال تلميذه ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): وسائر اللذات تَبطل بمفارقة الروح البدن، إلا لذة العلم والايمان؛ فإنها تكمل بعد المفارقة[٢].

ومن لطائف الاستنباطات ما قاله ابن القيم عند خبر النبي ﷺ أن لابنه إبراهيم مرضعًا، تُتِمُّ رضاعه في الجنة[٣] قال: وهذا يدل على أن الله -تعالى- يُكمِّل لأهل السعادة من عباده بعد موتهم، النقصَ الذي كان في الدنيا..حتى قيل: إن من مات وهو طالب للعلم كُمِّل له حصوله بعد موته، وكذلك من مات وهو يتعلم القرآن[٤].

وهذا النص الآنِفُ الذِّكر؛ فيه بشارة معجَّلة في الدنيا، ومؤجَّلة في الآخرة.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ): إذا انقطعت الأعمال بالموت، وطُوِيَت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتهم تتزايَد؛ كلما انتُفِع بإرشادهم.. فحقيق بالعاقل الموفق أن يُنفِق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن يُعِدَّه ليوم فقره وفاقته[٥].

أما الآن؛ أفترُيد أخبارهم في ذلك؟ إذًا فخُذ بضعة عشر خبرًا، كلها عجيبة مُبْهِرة:

١. رُئِي يعقوب الفَسَوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) في النوم، فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وأمرني أن أحدِّث في السماء، كما كنت أحدث في الأرض! فحدَّثتُ في السماء الرابعة، فاجتمع علَيّ الملائكة، واستملى علَيّ جبريل، وكتبوا بأقلام من ذهب[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦٢/١٤).
(٢) مفتاح دار السعادة (١٤٢/١).
(٣) الحديث رواه البخاري (١٣٨٢) وغيره.
(٤) تحفة المودود بأحكام المولود (ص: ١٠٩).
(٥) الفتاوى السعدية (١١٣/١).
(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٥/٧٤).

٢. قال أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ): رأيت أحمد بن حنبل في المنام، أحسن وجهًا وسُحنة مما كان، فجعلت أسأله الحديث وأُذاكره[١].

٣. أبو بكر بن مجاهد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٤هـ) رئي في النوم كأنه يقرأ، فقيل له: يا سيدي أنت ميت وتقرأ؟ فقال: كنت أدعو في دبر كل صلاة، وعند ختم القرآن، أن يجعلني ممن يقرأ في قبره، فأنا ممن يقرأ في قبره[٢].

٤. أبو الفضل الممسي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٣هـ) رئي بعد موته، وقال: قد جمعنا الله وأصحابنا من أهل العلم، فنحن نتناظر في العلوم عند مالك بن أنس[٣].

٥. قال يوسف بن خليل الحافظ -رحمه الله تعالى- (بعد ٣٦٩هـ): رأيت في النوم، كأني دخلت مسجد الكوفة، فرأيت شيخًا طِوالًا، لم أرَ شيخًا أحسن منه، فتبعتُه، وقلت: أنت أبو الشيخ الأصبهاني؟ قال: نعم. قلت: أليس قدْ مِتَّ؟ قال: بلى؛ قلت: فبالله ما فعل الله بك؟! قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] فقلت: أنا يوسف بن خليل! جئت لأسمع حديثك، وأحصل كتبك. فقال: سلمك الله، وفقك الله. ثم صافحته، فلم أر شيئًا قط ألْيَنَ من كفه، فقبَّلتها، ووضعتها على عيني[٤].

٦. قصة سبقت للقاضي عبد الوهاب المالكي البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٢هـ) حيث رئي في المنام. وفيها.. فقيل له: بِمَ نفعك الله؟ فقال: أكثر ما نفعني بكتاب «المعونة»[٥].

٧. رُئي الشيخ أبو منصور الخياط -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٩هـ) في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غُفر لي بتعليمي الصبيان فاتحة الكتاب[٦].

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣١١/١).
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٣٥٣/٦).
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣٠٧/٥).
(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٠٥/٣).
(٥) معجم السفر (ص: ١٦٨).
(٦) ذيل طبقات الحنابلة (٢٢٨/١).

٨. ومن الطريف أن أبا نزار الحسن بن صافي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٨هـ) الملقب بملك النحاة، بعد أن أنفق عمره كله في تعلم النحو وتعليمه، يستشكل عشر مسائل، وتستعصى عليه فيسميها «المسائل العشر المتعبات إلى الحشر» ويأمر أن توضع معه في قبره، ليَحُلها عند ربه![1].

٩. المحدث الأديب أبو العلاء الهمداني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) رُئِي في المنام في مدينةٍ؛ جميعُ جدرانها من الكُتُب، وحوله كُتب لا تُحَدُّ، وهو مشتغل بمطالعتها، فقيل له: ما هذه الكُتُب؟ قال: سألتُ الله -تعالى- أن يُشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا، فأعطاني[2].

١٠. فعلَّق على هذا الخبرِ الشيخُ صِدِّيق خان القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) بقوله: وهذه مسألتي من الله -تعالى -أيضًا في عالم البرزخ؛ فإن وَلَعي بالكُتُب، وشغَفي بالعِلْم مما لا يُنكر[3].

١١. فخر الدين محمد بن الخضر بن تيمية الحراني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٢هـ) رآه رجل في المنام، ويده في يد رَجل آخر. وقال له: يا سيدي! من هذا الذي يده في يدك؟ فقال: هذا الموفق المقدسي. فقلت: وإلى أين تروحون؟ قال: نروح نُفتيهم في قضية. فدخلوا مسجدًا[4].

١٢. الفقيه يعقوب بن محمد الخَرِب -رحمه الله تعالى- (بعد ٧١٠هـ) سئل وهو في النزع عن مسألة، فأجاب وهو غافل، ثم توفي، فرآه بعض أصحابه بعد دفنه بيوم أو يومين، فقال: يا فلان، رُح إلى الرجل الذي سألني في محضرك، عن كذا وكذا، وأنا في النزع، وقل له: إني أجبته في حال شغل، والأصح أن جوابه كذا وكذا. وهذا من حسن توفيقه حيًا وميتًا[5].

---

(١) بغية الوعاة (٥٠٥/١) وانظر: مجلة الرسالة (١٧/٧٩).
(٢) المصدر السابق (٢٧٨/٢).
(٣) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ١٩٦).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٣٣٤/٣).
(٥) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٣٤٧/٢).

١٣. قال الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ): رأيت شيخنا ابن تيمية بعد موته -رحمه الله تعالى- في المنام، كأنه في جامع بني أمية، وأنا في يدي صورة عقيدة ابن حزم الظاهري، التي ذكرها في أول المحلى، وقد كتبتُها بخطي، وكتبتُ في آخرها:

وهــذا نـص ديـنـي واعـتـقـادي   وغـيــري مــا يــرى هــذا يـجـوزُ

وقد أوقفتُه على ذلك، فتأملها ورآها، ولم يتكلم بشيء[١].

١٤. قال الشاطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٠هـ): لما توفي شيخنا ابن الفخار، سألت الله ﷻ أن يُرِيَنيه في النوم، فيوصيني بوصية؛ أنتفع بها في الحالة التي أنا عليها من طلب العلم، فلما نمت تلك الليلة، رأيت كأني داخل عليه في داره التي كان يسكن بها، فقلت له: يا سيدي! أوصني، فقال لي: لا تعترض على أحد. ثم سألني -بعد ذلك- في مسألة من مسائل العربية، كالمؤانِس لي، فأجبته عنها[٢].

١٥. العَيْزَري الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) تتلمذ على ابن كثير وابن القيم. رُئِي بعد موته وهو يكتب على عادته، فقيل له: وكتابةٌ بعد الموت؟! فقال: ألم تعلم أن المرء يُحشر على ما مات عليه؟![٣].

١٦. محمد منلا دران التركماني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٠هـ) رُئِي في المنام، فسئل: ما فعل الله بك؟ فقال: عاتَبني عتابًا كثيرًا، ثم غفر لي بما في صدري من العلم[٤].

١٧. الأديب والمؤرخ عبد الله كنون -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٩هـ) يتمنى ويقول: أنا أدعو الله القادر الذي لا يعجزه شيء، أن يمتعني في الحياة الأخرى بغرفة مطالعة، تُجبى إليها ثمرات العقول؛ من كتب، ومجلات، وصحف أدبية، ودواوين شعرية قديمة وحديثة؛ حتى أكون على اتصال تام بالحياة الفكرية، في الدار الدنيا قبل فنائها، وأمتِّع نفسي في الجنة بعد فناء هذه الدار، بأعظم لذة روحية في نظري[٥].

---

(١) الوافي بالوفيات (١٦/٧).
(٢) الإفادات والإنشادات للشاطبي (ص: ٤).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢١٩/٩).
(٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٨٥/١).
(٥) واحة الفكر - عبد الله كنون (ص: ١٨٥.

فيا لله العجب! كيف أنهم يتمتعون بالعِلم، حتى وهم يُعانُون النزْع، ويُعايِنون الآخرة!

إذا متُّ فانعِيني إلى العلم والنُّهَى ... وما حبَّرتْ كفِّي بما في المحابرِ(١)

وبعد: فإن لذة العلم تَبلغ بصاحبها أن يشتغل بالعلم، وهو في إقبال من الآخرة، أو يتمناها بعد ما يكون في إدبار من الدنيا، لهي لذة جديرة بأن يَتنافَس فيها المتنافِسون، ويبذل لأجلها نفائس الأوقات، فضلاً عن نفائس الأموال.



(١) بغية الوعاة (١/٣٤٩).

٧٩. لذة العلم في الجنة

يا عجبًا من لذة العلم، الممتدة من لذة الدنيا إلى لذة الآخرة!

قال الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ): من اشتغل بالعلم فقد خاض في جنة حاضرة، فكل من اختار العلم يقال له: تعوَّدتَ المقام في الجنة، فادخل الجنة(١).

ولقد كانوا يُشبِّهون ما هم فيه من لذةِ نعيمِ العلم بلذةِ نعيمِ الجنة:

لي همة في العلم ما من مثلها ... وهي التي جنَتْ النحول هيَ التي
خلقت من العلَقِ العظيم إلى المُنى ... دعيتُ إلى نيل الكمال فلبتِ
كم كان لي من مجلس لو شبِّـ ... ـهت حالاته لتشبهت بالجنةِ(٢)

وهذا آخر يُصبِّر من سار أول طريق اللذة العلمية، ويذكِّره باجتماع نعيمين في الجنة:

يا غريبًا يطلب العلم اصطبر ... إن مبدأ العلم من قبل غرَبْ
ما سعى في الربح ساعٍ سعيَكم ... بل سواكم سعيه جِدٌّ نصَبْ
فكأني بذوي العلم غدًا ... في نعيم وحُبور وطربْ
يحمدون الله أن عنهم جلا ... كل حزن وعناء وتعب(٣)

قالت العلامة شُهْدة الإبري -رحمها الله تعالى- (ت ٥٧٤هـ): من أفنَى بالعلم نفسه، وأحيا بالعلم روحه؛ كان مع المتقين في جنات ونهَر(٤).

---

(١) تفسير الرازي (٢/٤٠٥).

(٢) القائل هو أبو الفرج ابن الجوزي. انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/٥٠٧) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/٣٧٩) وتاريخ الإسلام (٤٢/٢٩٧).

(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٣١٦).

(٤) العمدة من الفوائد والآثار الصحاح والغرائب في مشيخة شهدة.

ومن لطائف الألقاب أن النابلسي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٧هـ) كان يُلقَّب بالجنة؛ لأن عنده ما تشتهي أنفُس الطلبة، كالجنة فيها ما تشتهيه الأنفس(١).

والسؤال الغريب العجيب المهيب: هل يتلذَّذ أهل العلم بالعلم في الجنة؟

والجواب خذه من مثل قول ربنا -تعالى- عن أهل الجنة وقد دخلوها: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ [الذاريات: ١٦] قالوا: وهو -سبحانه- لا يدَع لهم لذة إلا أتحفَهم بها، فيَقبلونها بغاية الرغبة؛ لأنها في غاية النفاسة(٢).

أرأيت الناس كانوا يتلذَّذون بحسب همَمِهم بأنواع اللذات؟ أفرأيت لو طلبوها من ربهم في الجنة؛ أفتُراه يَرُدُّهم؟! كلا، وهو أكرم الأكرمين، القائل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزخرف: ٧١]

كما أن أهل العلم أولى بالإجابة، وقد كانوا يتلذذون بأعلى اللذات.

والغريب أن للحافظ الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) كلامًا مفاده أن علوم أهل الجنة تُسلب عنهم في الجنة، ولا يبقى لهم شعور بشيء منها!

فردَّ عليه الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) ردًا قويًا، فقال في رسالة مفردة: اقشعر جلدي عند الاطلاع على هذا الكلام من مثل هذا الحافظ..وكيف يُسْلَبون ما هو عندهم من أعظم النعم، وأوفر القِسَم! وهم في دار فيها ما تشتهيه الأنفس، وتَلَذ به الأعين، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكأن هذا القائل لم يقرأ تحاوُر أهل الجنة وأهل النار، وتخاصُمهم بتلك الحجج، التي لا تصدر إلا عن أكمل الناس عقلًا، وأوفر الخلائق فهمًا!(٣).

واختيار الذهبي مأخوذ من كلام بعض المتكلمين، بل شطحوا أكثر، فقالوا بذهاب عقول أهل الجنة، وخالفهم أبو هاشم في ذلك، وأوجب بقاء العلوم مطلقًا(٤).

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٩٦/٨).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٥٤/١٨).
(٣) الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (٦٧٥/٢).
(٤) أبجد العلوم (ص: ٢٥).

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٤هـ): مذهب أهل السنة وكافة المسلمين: أن نعيم أهل الجنة وملاذَّها بالمحسوسات، وغيرها من الملاذ العقليات.. خلافًا للفلاسفة وغلاة الباطنية، من أن نعيم الجنة إنما هو لذات عقلية(١).

وقال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فإن أهل الجنة يتنعمون بالنظر إلى الله، ويتنعمون بذكره وتسبيحه، ويتنعمون بقراءة القرآن.. ويتنعمون بمخاطبتهم لربهم ومناجاته، وإن كانت هذه الأمور في الدنيا أعمالًا يترتب عليها الثواب؛ فهي في الآخرة أعمال يتنعم بها صاحبها، أعظم من أكله وشربه ونكاحه(٢).

ومن المحاورات العجيبة ما جرى بين عالم وصبي عبقري صار عالمًا، فهذا الشريف أبو عبد الله التلمساني العلوني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧١هـ) حضر يوما وهو صبي مجلس أحد العلماء، فذكر نعيم الجنة، فقال له الشريف: هل يُقرأ فيها العلم؟ قال له: نعم؛ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين. فقال له: لو قلتَ: لا لقلتُ لك: لا لذة فيها! فعجِب منه الشيخ(٣).

ومِن بعده بقرون؛ سئل العلامة التونسي سالم بو حاجب -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٢هـ): هل في الجنة درْسٌ للعلم؟! فقال: نعم. فقال السائل: وما الدليل؟ فقال الشيخ: قول الله عن الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١] والنفس تشتهي العلم وتَلَذُّه(٤).

فهم متوافرون متضافرون على امتداد اللذة العلمية بين الدنيا والآخرة.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): ليس في الدنيا من اللذات أعظم من لذة العلم بالله، وذِكره، وعبادته(٥).

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣٦٧/٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٣٠/٤).
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٣٣).
(٤) النهضة الإسلامية - محمد رجب البيومي (١٤٩/٥).
(٥) الصفدية (٢٧٢/٢).

وقال أيضًا: ولا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، و«اللذة» التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة، هي لذة العلم بالله، والعمل له[(١)].

بل جعل العلماء أن المتلذذين بالعلم نالوا منزلة الصدِّيقين، الذين أنعم الله عليهم.

قال الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): لذة معرفة الله -تعالى-، ومعرفة صفاته، وأفعاله؛ هذه رتبة الصديقين[(٢)].

والعلم -أصلًا- هو الذي أوصل صاحبه لذة الآخرة، فكيف لا يكون هو بذاتِه لذة؟!

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ): أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة..فأعظمها وأكملها ما أوصَلَ لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتمَّ ثواب[(٣)].

وابن القيم يَطرق مسألة الباب ببعض البسط والتشويق، وهي هل يتذاكر أهل العلم في الجنة مسائل العلم؟

فيقول -رحمه الله تعالى-: وإذا تذاكَروا ما كان بينهم، فتذاكرهم فيما كان يُشكِل عليهم في الدنيا من مسائل العلم، وفهم القرآن والسنة، وصحةِ الأحاديث أولى وأحرى؛ فإن المذاكرة في الدنيا في ذلك ألذ من الطعام والشراب والجماع، فتَذاكُرٌ في الجنة أعظم لذة، وهذه لذة يختص بها أهل العلم، ويتميزون بها على من عداهم[(٤)].

ولعلك لاحظتَ هذا القَيد الذي يحفِّزك على العلم تعلُّما وتعليمًا:وهذه لذة يختص بها أهل العلم.

ويقرِّب الشيخ ابن سعدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٦هـ) مقدار هذه اللذة العلمية في الجنة. فيقول عند قوله -تعالى-: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠]:

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦٢/١٤).
(٢) إحياء علوم الدين (١٠٢/٤).
(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٢٣٤).
(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٤٠٥).

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم، والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه(١).

وبقيَتْ مسألة فرضية، وهي: بما أن الحق واحدٌ؛ فهل يصِلُ أهل العلم إلى الراجح من المسائل المختلف فيها؟ وهل يتنعمون بطرح مسائل العلم، كما يتنعمون.

ولعل الجواب يمكن انتزاعه من مثل الآيات الآتيات الأربع في قوله -تعالى-:

١. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

٢. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٤-٢٥].

٣. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧].

٤. ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

بل يمكن أن يقال: إن من تَلذَّذ بمباح في الدنيا، وتمناه في الجنة، فإن الله يعطيه سُؤْله، كما قال ربنا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ﴾ [الزخرف: ٧١]. والعلم أعلى وأسمى، وألذ من كل مستلَذٍّ.

وليس الأمر قاصرًا على العلم، بل قد يكون أوسع، فقد يكون موهوب مُولَع بموهبته المتصلة بالعلم، فيتلذذ بها حياته، بل ربما عاشها بعد مماته، واعتبِر بهذا المثال العجيب:

لما توفي الخطاط حليم أفندي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٤هـ) رآه صديقه الحميم الخطاط حامد الآمدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٢هـ) رآه في المنام يكتب الثلُث بسرعة

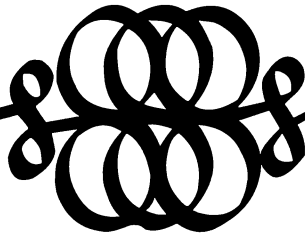
(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٧٠٤).

كبيرة، فسأله: كيف تكتب الثلث بهذه الطريقة، وبهذه السرعة؟ فقال حليمٌ: هم علّمونا في الجنة أن نكتب بهذا الشكل!

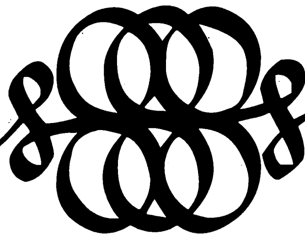
ومن بعد هذه الرؤيا كان الخطاط حامد دومًا يردِّد: ما دام في الجنة قصَبٌ وأوراق فلا أبالي بالموت(١).



(١) موقع ويكيبيدا.



الباب السادس عشر:
حسرات تعكِّر صفْوَ اللذَّات



حَسَرات تُعكِّر صفْوَ اللذَّات

لا تسلم اللذات من معكرات، فالدنيا:

طُبعت على كدَر وأنت تريدها صَفوًا من الأقذاءِ والأكدارِ[1]

لكن مما يهوِّن الأمر أن هذه الأكدار لا تدوم - بحمد الله- ولا تُذهب أثر اللذات.

ومن غرائب الأسئلة ههنا هذا السؤال الغريب: أيهما أسعد العالِم أم الجاهل؟

والجواب خذه من الأديب الأستاذ أحمد أمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) حينما قرأ قول المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقلِهِ وأخو الجهالة في الشقاوة يَنعم

يقول: فتساءلت:..هل العلم يسبب الشقاء، والجهل يسبب السعادة؟

إن كان هذا صحيحًا.. فالنتيجة المنطقية لهذا أنه: يجب علينا محاربة العلم، ونشر الجهل! والناس يكادون يُجْمِعون على فضل العلم، وأنه وسيلة من وسائل السعادة. فوجب أن يكون الرأي الأول باطلًا[2].

لكن السعادة بالعلم لا تتأتَّى بالراحة، كتمرٍ أنت آكلُه، بل لا بد من الألم، وربما الألم المُمِضّ أحيانًا. ومن لم يحتمل ألم التعلم، لم يذُق لذة العلم[3].

---

(١) دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي (المتوفى ٤٧٦هـ) (١/١٤٠).

فائدة: هذا البيت المشهور لأبي الحسن التهامي (المتوفى ٤١٦هـ) والعجيب أني وجدت البيت في ص٢٦٢ من كتاب «مفيد العلوم ومبيد الهموم» المنسوب لأبي بكر الخوارزمي (المتوفى عام ٣٨٣هـ) أي قبل وفاة الشاعر بثلاثين سنة! لكن الكتاب منسوب، واحتمال المعاصَرة وارد.

(٢) من مقالة: المثقفون والسعادة للأستاذ أحمد أمين. انظر: مقالات لكبار كتاب العربية - المجموعة ٣ (ص: ١٨) جمع د. محمد بن إبراهيم الحمد.

(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٥٦/٤٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٣٣/٧).

ولذا يقول أحمد أمين في مقالة أخرى: يخيَّل إليَّ إنا مَدينون للألم بأكثر مما نحن مَدينون للذَّة، وإن فضل الألم على العالَم أكبر من فضل اللذة[١].

وبقدر قوة اللذات يكون قدر الحسرة عند الفوات. فأما حسرة فقدان شيء من لذة العلم؛ فإنها حسرة شديدة جدًا، وخسارة فادحة حقًا.

وإليك الآن صُنوفًا من الحسرات المعكِّرات، في مقابل ما مرَّ من لذّات العلم اللذيذات:

- حسرتهم على عُزوف الناس عن العلم.
- حَمِيَّتهم وغَيرتُهم وغَضْبتهم لأجل العلم.
- حسرة من باعوا كتبهم بسبب فقرهم.
- حسرة من احترقت أو غرقت مكتبته أو تلِفَت.
- حسرة من سُرقت مكتبته.
- حسرة من أعارَ كتابًا فلم يرجع.



(١) مقال: نعمة الألم - للأستاذ أحمد أمين في مجلة الرسالة (٩/٤٠).

٨٠. حسرتهم على عزوف الناس عن العلم

لا يُقال هذا تشاؤمًا، كلا؛ وليس هو من باب: «هَلَكَ الناس» حاشاهم!

ولكنه من باب «حكاية الحال»، والدافعُ له استنهاض الهمم، وطرد الكسل، ويريدون أن يذيقوا الناس لذةً كما ذاقوها!

فهل بلغك عن سنوات حسرات على الأمة، مرَّت واستمرت ثلاث سنين -لا أعادها الله-؟

ففي سنة سبع وستين ومئتين، صدر من ممالك ظالمين باطشين، بمنع حِلق العلم، حتى إنه رُفضت مجالس الحديث! وخُبئت المحابر! حتى لم يقدر أحد في البلد أن يمشي ومعه محبرة، ولا في كمه كراريس الحديث إلى سنة سبعين[١].

وأما الآن؛ فالكلأ المنوع الملوَّن متاح ومباح، فأين الراتعون؟ وأبواب العلم مُشرَعة، وجِفانها كالجواب مُترَعة، فأين الطاعمون الطامعون؟!

فاللَّهُمَّ اجعلنا من عبادك الشاكرين المشاركين.

والعلم-كغيره - يمر بفترات فتور، ويكسَد سوقه، حتى يكون كما قال قائل في زمنه:

لا سوق أكسَدُ فيه من ... سوق المحابر والدفاتر[٢]

وقد يَنْفَق سوق العلم في بلد، وفي الوقت ذاته يكسَد في بلد مجاور أو مُباعِد. فلا صِيتَ للكتب، ولا صوتَ لمفاتيحها الرجال.

قال محمد بن سالم مخلوف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٠هـ): التعب أشد، والصبر أطول على مَن كان في بلد خالٍ من الكُتُب، ومِن المرشِد المعِين[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/٢٨٨).

(٢) السلسبيل النقي في تراجم شيوخ البيهقي (ص: ٤١٤).

(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/٦٣٠).

وإليك عبارات خلْفَها عبراتٌ، وزفرات حرَّى، مما يَجيش في صدور الذين أوتوا العلم، تحسرًا على تركه، وعزوف الملأ عنه. يريدونهم أن يعودوا للمَشرب الهني، والمورِد الروِي:

١. كيف بـ «فلان» لو أدرك من نحن بين ظهرانيه؟!: هذه عبارة تسلسل العلماء يردِّدونها، خالفًا عن سالف، فصارت حديثًا مسلسلًا![1]

فما الخبر؟ وما القصة والأثر؟! إليك البيان:

كانت عائشة ﵂ (ت ٥٨هـ) تتمثل هذا البيت من قول لبيد:

ذهـبَ الذين يُعاش في أكنافهم ... وبقيتُ في خَلَف كجِلْد الأجـربِ

ثم تقول: كيف بلبيد؛ لو أدرك من نحن بين ظهرانَيه؟!

قال عروة: كيف بعائشة؛ لو أدركت من نحن بين ظهرانيه؟!

قال هشام: كيف بعروة لو أدرك من نحن بين ظهرانيه؟![2].

وهكذا تردد ثلاثة عشر عالِمًا يُردِّدونها:

١- وكيع ٢-علي ٣-أبو بشر ٤-ابن خشنام ٥- الآبنوسي ٦-ابن بدران ٧-السلفي ٨-جعفر ٩-سليمان بن حمزة ١٠-العلائي ١١-ابن ظهيرة ١٢-أم هانئ ١٣-السيوطي[3]

كل هؤلاء الثلاثة عشر عالمًا -رحمهم الله تعالى- يقول عمن روى عنه قبله: كيف بـ (فلان) لو أدرك من نحن بين ظهرانيه؟!

ولا شك أن لبيدًا وعائشة وعروة، فمَن بعدهم: لا يَعنون جميع الناس الذين كانوا بين ظهرانيهم، بل يعنون الكثير منهم، والغالب على أحوالهم، وقد كانت عائشة وسط صحابة أجلاء مشهود لهم بالجنة ﵃ متنزِّهين عن السوء والشبهات. فما قال أحد أنها تطعن في سائر الناس، وترميهم جميعًا بسوء العِشرة.

٢. قال أبو الدرداء ﵁ (ت ٣٢هـ): ما لي أرى علماءكم يموتون، وجهالكم

---

(١) الحديث المسلسل: عبارة عن تتابُع رجال الإسناد، وتوارُدهم فيه، واحدًا بعد واحد على صفة، أو حالة واحدة. انظر: الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح للأبناسي(٢/٤٥٦).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦٠٤٠) والزهد لأبي داود (ص: ٢٧٨) وقال العلائي: صحيح التسلسل.

(٣) سلسلة الرجال تبدأ من: مشيخة الآبنوسي (٢/١٠٦) وتمتد إلى: جياد المسلسلات للسيوطي (ص: ٢٦٣).

لا يتعلمون؟! لقد خشيت أن يذهب الأول ولا يتعلم الآخر.. ما لي أراكم شِباعًا من الطعام، جيًّاعا من العلم؟![١]

٣. ابنُ عمر ﵄ (ت ٧٣هـ): ما ذَكَرَ رسولَ الله ﷺ إلا بكى، وما مر على رَبعهم إلا غمَّض عينيه[٢]

تهيمُ بمَغناهمْ وتَنـدُب رَبعهم وأي فـؤاد بعدهم غير هـائـم؟[٣]

٤. وقد حذر الفقيه الجليل الإمام أبو حازم -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١هـ) من حدوث هذا الأمر؛ فقال منكِرًا على أهل زمانه استخفافَهم بالعلماء: صار الناس في زماننا يعيب الرجل مَن هو فوقه في العلم؛ ليُري الناس أنه ليس به حاجة إليه، ولا يذاكر من هو مثله، ويزهو على من هو دونه، فذهب العلم، وهلك الناس[٤].

٥. قال الفتح بن خاقان -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٧هـ): فأضحتْ المعالي قد أقفرَ رَبعها، وتفرق جَمعها، وعادت المعارف قد طَفِئَ سراجها، واستبْهَمَ انفراجها، وأعْيا على الناس علاجها[٥].

٦. قال ابن قتيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ): وقد كنا زمانًا نعتذر من الجهل، فصرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم.. وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا ينكر مع تغير الزمان، وفي الله خلف وهو المستعان[٦]

٧. وقال ابن قتيبة -أيضًا- يشكو أهل زمانه ويقول: وقد كان هذا الشأن عزيزًا، والمعنيون به قليلًا، والأدب غض والزمان زمان. فكيف به اليوم مع دثور العلم، وموت الخواطر، وإعراض الناس؟![٧]

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٢٢٥/٢).
(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص: ١٤٨).
(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة (٢١٧/٣).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٢٢٥/٢).
(٥) قلائد العقيان (ص: ٢٠١).
(٦) مقدمة كتابه: إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث (ص ٤٦-٤٧).
(٧) الأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة الدينوري (المقدمة/٤١).

٨. وقال -أيضًا-: فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ومن اسمه متطيرين ولأهله كارهين..فالعلماء مغمورون، وبِكَرَّة الجهل مَقمُوعُون[١]

٩. قال ابن خزيمة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ) أكثر أهل زماننا لا يَفهمون هذه الصناعة، ولا يميزون بين الخبر المتقصَّى وغيره، وربما خفي عليهم الخبر المتقصَّى. فيحتجون بالخبر المختصر، يترأسون قبل التعلم، قد حرموا الصبر على طلب العلم، ولا يصبروا حتى يستحقوا الرئاسة، فيبلغوا منازل العلماء[٢].

١٠. قال التنوخي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٤هـ): وحقًا أقول: لو عاش حكيم من أهل تلك الأزمنة، حتى يرى ما حصلنا عليه، ودفعنا إليه ما شك في قيام الساعة، أو أن الناس بدلوا بهائم مهملة، أو جعلوا آلات غير مستعملة.. ونسأل الله العظيم، فرجًا عاجلًا، وصلاحًا للعالم شاملًا[٣].

١١. قال ابن بطة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٧هـ) وهو الذي مات قبل ألف سنة وخمسين عامًا ونيِّف: فيا ليت شعري! كيف حال المؤمن في هذا الزمان، وأي عيش له مع أهله؟! وهو لو عاد عليلًا لعايَن عنده، وفي منزله، وما أعده هو وأهله للعلة والمرض، من صنوف البدع ومخالفة السنن، والمضاهاة للفرس والروم، وأهل الجاهلية، ما لا يجوز له معه عيادة المرضى..فإنا لله وإنا إليه راجعون! ما أعظم مصائب المسلمين في الدين! وأقل في ذلك المفكرين![٤].

١٢. وقال ابن بطّة -أيضًا-: فنسأل الله صفحًا جميلًا وعفوًا كبيرًا. فيا طوبى لنا إن كانت موجبات أفعالنا أن نوجَع ضربًا، فإني أحسب كثيرًا ممن يتصدر لهذا الشأن، يرى نفسه فوق الذي قد مضى وصفهم، ويرى أنهم لو أدركوه لاحتاجوا إليه وأمَّوه. الله المستعان، فلقد عشنا لشر زمان[٥].

---

(١) أدب الكاتب (ص: ١).
(٢) التوحيد لابن خزيمة (ص: ٤٣١).
(٣) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (٨/٣).
(٤) الإبانة الكبرى (٥٧٥/٢).
(٥) إبطال الحيل لابن بطة (ص: ٣٤).

١٣. قال المعافى بن زكريا -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ): وقد فشا هذا الأمر المنكر المذموم في زماننا، وصار الجاهل فيه مقدمًا متبوعًا، والعالم المتقدم في علمه مقصيًا، حتى يتسرع إلى الفتيا في الدين، والحكم بين المسلمين، من لم يُعَنْ بدراسة الفقه، ولم يُعرف بمجالسة أهله(١).

١٤. قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): مستصغرًا لنفسي وباكيًا عليها، إذا الأيام أحوجَتْ إليها، ولعمري إنه لموضع البكاء؛ لإغفال أهل الطلب ما كان عليه سلفهم(٢).

١٥. قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) وقد كان العلم في وقت البخاري غضًا طريًا.. فكيف نقول في هذا الزمان، مع عدم الطالب، وقلة الراغب،؟! وكان الشاعر وصف قلة المتخصصين من أهل زماننا في قوله:

وقد كنا نعدهمُ قليلًا ... فقد صاروا أقل من القليل(٣)

١٦. ولقد صور الخطيب البغدادي حالة أهل الحديث في عصره، بما يبين سوء مستواهم العلمي، فقال: وأكثر كَتَبَة الحديث في هذا الزمان بعيد من حفظه، خالٍ من معرفة فقهه، لا يفرقون بين معلَّل وصحيح.. مع أنهم قد أذهبوا في كُتْبِه أعمارهم، وبعُدت في الرحلة لسماعه أسفارهم.. وضربوا لهم المثل، بقول الشاعر:

زَوامِلُ للأسفار لا علمَ عندهم ... بجَيِّدها إلا كعلم الأباعرِ

لَعمرك ما يدري البعير إذا غدا ... بأحماله أو راح ما في الغرائرِ(٤)

١٧. قال الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ): فيما سلف من الأيام، وخلا من الشهور والأعوام، كانت الهمم إلى العلوم مصروفة، والرغبات عليها موقوفة، يتوفر عليها طلاب المراتب في الدنيا، والراغبون في مثوبة العقبى، ثم لم تزل على مر الليالي

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ٦٢٢).
(٢) الأجوبة المستوعبة عن المسايل المستغربة من صحيح البخاري للحافظ ابن عبد البر (ص: ٢).
(٣) الجامع لأخلاق الراوي (١/١١٣).
(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/١٤٠).

تنخفض الهمم وتتراجع، حتى عاد وابلها قطرة، ولم نشاهد مما كانت عليه ذرة، ذلك قضاء الله مبرم، ووعد من الرسول ﷺ محكم، بانتزاع العلم، وقبضه فيما قال: **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**(١). صدق رسول الله ﷺ فقد قبضت الفحول، وهلكت الوعول، وانقرض زمان العلم، وخمدت جمرته، وهزمته كرة الجهل، وعلت دولته، ولم يبق إلا صبابة نتجرعها، وأطمار نجتابها ونتدرعها(٢).

١٨. قال أبو سعد السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ) متحسِّرًا على حال أهل زمانه: فرحِم الله السلف الماضين، كان العلم مطلوبًا في زمانهم، والرغبات متوافرة، والجموع متكاثرة. فالآن خمد ناره، وقلَّ شراره، وكسد سوقه، حتى إنهم لما فرغوا من إملاء أحد الشيوخ، فطلبوا محبرةً؛ ليكتبوا أسامي من حضر، فما وَجَدوا(٣).

١٩. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): ولما رأيت الكسل مستوليًا على المتشاغلين بالعلم، وضعت هذا الكتاب محرِّضًا لهم على الاجتهاد، ومدخلًا على الكسل(٤).

٢٠. قال المؤرخ الدمشقي أبو شامة المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٥هـ): هذه الأزمة قد غلب على أهلها الكسل والملل، وحب الدنيا، فالمشتغل منهم عليها يحوم، ولها يعقد ويقوم، فإذا حصلت فترتْ هِمته، واشتغل بها، وطلب الزيادة منها. ومنهم من تَفتر همته؛ لعدم حصولها له، ولا سيما إذا حصلت لغيره، ممن يراه دون درجته(٥).

٢١. قال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ): ولقد كان أكثر اشتغال العلماء بالحديث في الأعصار الخاليات، حتى لقد كان يجتمع في مجلس الحديث من

(١) صحيح البخاري (١٠٠) وصحيح مسلم (٢٦٧٣).
(٢) الوجيز للواحدي (ص: ٨٥).
(٣) أدب الاملاء والاستملاء للسمعاني (ص: ١٨).
(٤) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٣٢).
(٥) خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول (ص: ٩٣).

الطالبِين ألوف متكاثرات، فتناقص ذلك، وضعفت الهمم، فلم يَبقَ إلا آثار من آثارهم قليلات، والله المستعان على هذه المصيبة، وغيرها من البليات(١).

٢٢. قال الإمامُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-(ت ٧٥١هـ): وغلب الشرك على أكثر النفوس؛ لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء وغلب السفهاء(٢).

٢٣. قال المرداوي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ): الكتاب المطول في هذه الأزمنة -ولا سيما في أصول الفقه- لا يُرغب فيه ولا يُقرأ، فضلًا عن أن يُحفظ؛ فإن الهمم قد قصرت، والبواعث قد فترت(٣).

٢٤. قال المؤرخ طاشَكُبرِي زادَهْ -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٨هـ): اعلم أن قُصارَى نظر أبناء هذا الزمان في علم الحديث، النظر في «مشارق الأنوار» [مجلدان]، فإن ترفَّعت إلى «مصابيح البغوي» [٤ مجلدات] ظنَّت أنها تصل إلى درجة المحدِّثين، وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث! بل لو حفظهما عن ظهر قلب، وضم إليهما من المتون مثليهما؛ لم يكن محدثًا حتى يلِج الجَمَل في سَمِّ الخياط(٤).

٢٥. قال المَقَّري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤١هـ) وقد عظم الأمر في هذا الأوان، وكثر المُزْرِي والساخر، مع أن أسواق الدفاتر كاسدة، وأمزجة المحابر فاسدة.. والمنسوب للعلم في هذا الزمَن زمِن:

والدهر دهر الجاهلين ... وأمر أهل العلم فاتر(٥)

٢٦. قال ابن بلبان -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٣هـ) في مقدمة كتابه «مختصر

---

(١) شرح النووي على مسلم (٤/١).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤٤٣/٣).
(٣) التحبير شرح التحرير (١٢٤/١).
(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٦٣٥/١).
(٥) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٧٢/١).

الإفادات»: فلما رأيت همم العباد عن العلوم قد قصرت، واشتغالهم باللهو والشهوات قد كثرت..استخرت الله..لتأليف كتاب مختصر جامع للفقه..[١].

٢٧. قال عبد الرحمن البَعلي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٢هـ): فاستخرت الله گ أن أشرحه شرحًا لطيفًا، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، إذ الهمم قد قصرت، والرغبة في طلب العلم قد فترت[٢].

٢٨. قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) وهذا شأن هذه الديار وأهلها، والعالم المصنف في غربة، لا يزال يكابد شدائد، ويجاهد واحدًا بعد واحد، ولله الأمر من قبل ومن بعد[٣].

٢٩. وقال الشوكاني-أيضًا-: ومَلَكتي قاصرة عن القدر المعتبر في هذا العلم، الذي قد درس رسمه، وذهب أهله منذ أزمان قد تصرمت، فلم يبق بأيدي المتأخرين إلا اسمه[٤].

٣٠. قال صديق خان القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) لكن الذي أهمَّني أني رأيت أبناء هذا الزمان لا تتوجه طبائعهم إلى إدراك العلوم ومبانيها واقتباس فوائد الفنون ولو بِفهم بعض معانيها. فضلًا عن أن يحيطوا بجميع المقاصد والغايات، ويبلغوا من معرفتها وضبطها إلى النهايات. إلا واحدًا من الألوف المؤلفة وفردًا من الأحزاب المتحزِّبة.. فكأن الناس كلهم قد صاروا أجناسًا بلا فصول، أو إناثًا بلا فحول[٥].

٣١. قال كامل الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥١هـ) فترتْ الهِمم في طلب العلم؛ لأن ثمراته الدنيوية أصبحت قاصرة عن النهوض بالعالم، إلى مستوى ينال فيه عيشة راضية[٦].

---

(١) مختصر الإفادات في الفقه الحنبلي (ص٢٦).
(٢) كشف المخدرات (٣٤/١).
(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٣٩٥/١).
(٤) نيل الأوطار (١/١).
(٥) أبجد العلوم (ص: ١٨).
(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب (١٣٥/١).

٣٢. قال محمد كُرْد عَلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٢هـ): فَتَرَتِ الهمم، وانصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين؛ لأن الجاهل والعالم سواء، ومن يحسن المصانعة والرشوة، ويمت إليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة[١].

فأما حسراتهم الشِعرية في أبياتهم؛ فخُذ ثمانية أمثلة متفرقة:

٣٣. فهذا اغتراب الدين لا شيء غيره ... فبالله هل عين على الدين تذرفُ
ولم يبقَ إلا منهم اليوم شعرة ... من البُلْقِ بيضًا في سواد محرفُ[٢]

٣٤. وهذا عالم يصف حاله وزمانه وأهل بلده:

إلى الله أشكو وحشتي من مجالسٍ ... أراجعه فيما يَلَذُ به فهمِي
لأني غريب بين «سَيْرٍ» وأهلها ... وإن كان فيها أسرتي وبنو عمي
وليس اغترابي عنهم بيد النوى ... ولكن لما أبدَوْه من جفوة العلم[٣]

٣٥. قال الإمامُ ابنُ القيِّم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ):

وأي اغتراب فوق غُربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّمُ[٤]

وقال آخرون متفرقون عبر القرون:

٣٦. لقد أقفرتْ منه المدارس وانقضت ... مجالسُ منها للحديث شجون[٥]
٣٧. وأضحت ربوع العلم قَفْرًا دَوَارسًا ... من العلم للطلاب بين الخلائقِ[٦]
٣٨. فما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعرف[٧]
خلت الديار فسدت غير مسوَّد ... ومن العناء تفرُّدي بالسؤدد[٨]

---

(١) خطط الشام (٤/٧١).
(٢) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٥٢٨).
(٣) السلوك في طبقات العلماء والملوك (١/٢٩٩).
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/١٩٠).
(٥) ذيل مرآة الزمان (١/٢٥٢).
(٦) تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان (٢/١١٩).
(٧) البدء والتاريخ لابن طاهر المقدسي (٢/١٠٣٢).
(٨) الوافي بالوفيات (١/٢١١).

٣٩. ذهب الرجل المقتدَى بفِعالهم والـمـنـكـرون لـكـل أمـر منكرِ
وبقيت في خلَف يزين بعضهم بعضًا ليدفع مِـعْـور عـن مِـعْـورِ[١]

٤٠. وأما رِباع العلم فهي دَوارسٌ تـحِـنُّ إلـى أربـابـهـا والـمُـذاكـر[٢]

وبعد: فهذه أربعون حسرة تضطرم اضطرامًا، قد بثَّتْهَا أقلامٌ من الأئمة أعلامًا؛ غَيرة على العلم الشريف، وجَنابه المُنيف، استنهاضًا للهمم الفاترة، وتجديدًا للعهود الفائتة.

وقفة مهمة:

أما علماؤنا؛ فنحسَب أنهم اجتهدوا، وبذلوا برغم عزوف أهل زمانهم، وفتْرتهم على حين فَترة من أهل العلم.

لكن التحسر لوحده ليس يُجدي على أهله شيئًا، وإنما لابد أن يكون وَقودًا يُشعل في النفوس الحماس، وروحًا ينفخ فيها الحياة من جديد، وإيقاد شمعة في الظلام أحسن مِن سب الزمان آمادًا وأعدادًا.

وقد يجد طالب العلم لنفسه العذر في عدم مجابهة أهل الباطل والفساد. لكن ما عذره إن قصَّر في المقدور عليه من نشر العلم والوعي، ورفع الجهل عن عامة الناس؟!

ومن الخطأ ظنُّ بعضنا أن الذي يعتزل الناس، ولم يصبر على أذاهم، أنه أفضل من ذلك الذي يخوض الإصلاح في جميع نواحي الحياة، ومناصحة المؤمنين، وتعليم الناس العلم.

كلا؛ فلا مقارنة بين عابد معتزل، وقائد يقود الناس بالكتاب الهادي، والحق الناصر.

لذا قال النبي ﷺ: **المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم**[٣].

---

(١) فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب (ص: ٢٦).
(٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٣/٢٥٧).
(٣) سنن الترمذي (٢٥٠٧).

وأنت تستطيع أن تعمل، وتحاول أن تصلح وتغرس، فتحيي الموتى في حياتهم، وتستنهض همم الباقين. فانهض ودعِ الدَّعَة؛ فقد طلع الصباح، ولاح مُحْمَرُّ الأديم! وقد مضى عصر الكسل والنوم، ولا بد من تحقيق التمكُّن العلمي الحقيقي لا الشكلي، سواء كنتَ عالِمًا أو متعلِّمًا.

قال الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ): اجتمعتُ بعدد من طلاب العلم، يزيدون على الثلاثين، فأراد كل واحد منهم أن يسأل، فطلبت منهم أن يسألوا جميعًا، ثم بعد انتهاء الأسئلة أجيب، فبدأ كل واحد يطرح سؤالًا، وكانت الأسئلة في مسائل من العلم معضلة، وشائكة، لكنها لا تخرج عن أبواب العبادات، وأكثرها حديثي، وكأنني أمام محاكمة علمية، أو اختبار تحصيلي، ليس الغرض الفائدة، هكذا ظننت، ثم أردت أن أختبر قدراتهم العلمية في غير ما طرحوه من العلوم والمعارف، فطرحت مسائل من أبواب البيوع والحدود، والتعازير، ومقاصد الشريعة، ونحوها، فوجدتُ ضعفًا علميًا لا يحتمل من أصحاب تلك الأسئلة، فتكلمتُ معهم فيما هو مفيد، فيما يتعلق بالتحصيل وطلب العلم[1].

وثمت حقيقة لا بد أن تتنبَّه إليها، وهي أن أكثر الناس وقوفًا على الفوائد وظفَرًا بها، ليس بأكثرهم علمًا ولا تأصيلًا، لكنه ذلك القناص الذي يصيد النفيس، وذلكم النهِمُ الذي لا يُشبِعُ نفسَه دهرَه، وتأبَّى بها عنِ المُلْهيات، على حدِّ قول القائل:

لقد حملَتْني مُذْ ثلاثون حِجة ... مطيةُ صدق لستُ عنه بنازلِ

فلا أنا في الروض الأنيق سرحتها ... حفاظًا ولا قرَّبتُها للمَناهل[2]

أما من يَجْرُد الكتب قراءةً، والمتون حفظًا؛ فهذه نفوسٌ التَقَطَتْ خيرًا من لُقَطَة الإبل، فـ«**ما لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا**»[3].

---

(١) من مقالة: (العلامة المفكر أبو عبد الله بكر أبو زيد) كتبها د. يحيى الثمالي.

(٢) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٨٥/٥).

(٣) صحيح البخاري (٩١) وصحيح مسلم (١٧٢٢).

٨١. حسرة من باعوا كتبهم أو مكتباتهم بسبب فقرهم

الكتب أغلى عند النهِمِين بالعلم من المال، ولذلك ربما أرهقوا أنفسهم بالديون في سبيل هذه اللذة، بل ربما حَرَموا أولادهم لذيذ المباح؛ ليجمعوا ريالًا على ريال في شراء نوادر مطبوعات، أو نفيس مخطوطات.

إنها اللذة تُعمي وتُصِمُّ عن حظ نفس المتلذذ، فضلًا عن حظ ذويه! ولذا إذا وفق العالِم الراحل بأهلٍ يعرفون قدر العلم والكتب ساروا سيرة راحلهم، فضنُّوا ببيعها، ولو بالملايين.

ومن القصص المشرِّفة في ذلك: أنه بعد وفاة الأديب محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) جاء أحد المعتنين بالكتب من أثرياء الخليج، يطلب شراء مكتبته، ومعه شيك على بياض؛ ليكتبوا فيه الرقم الذي يريدون، فأبَتْ زوجته أن تبيع المكتبة، وقالت: إن ذهاب المكتبة عندي أعظم على قلبي من ذهاب صاحبها(١).

نعم! لجمع الكتب، ورعاية نمو المكتبة لذة كبرى، لكن هذه اللذة منغَّصة بالفقر الذي لا يرحم، وبالدائنين الذين يُقِضُّون المضجع وينقضُّون؛ طلبًا لحقوقهم، ولا يُلامون!

وهنا تنقلب اللذة إلى حسرات -عافانا الله وإياك أيها القارئ الكريم-. وبقدر قوة اللذات يكون قدر الحسرة عند الفوات.

قال الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ): كلما كانت اللذة أقوى وأكمل، كان التأسف والتحسر عند فواتها أشد وأعظم(٢).

---

(١) ظل النديم - جواد العلي (ص: ٥١).
(٢) تفسير الرازي = التفسير الكبير (٤٠٤/٩).

ولما احتاج بعض النجَّارين إلى بيع فأسه ومِنشاره باعهما، ثم ندم على بيعهما، إلى أن رأى جارًا له من أهل العلم في سوق الورَّاقين وهو يبيع كتبه، فقال: إذا باع العالِم آلَتَه فالصانع أعذر منه![1].

بِعتُ الدفاتر وهي آ خر ما يباع من المتاعْ[2]

وضعْ نفسك مكان عالِم يُمضي شطْر عُمره جَمعًا للكتب، وكأنها بعض أولاده، ثم تَجري عليه أقدار الله، فيفتقر، أو تتراكم عليه ديون، فيضطر إلى بيع فلذات كبده المرصوصة، واحدًا تلو الآخر، وكأنما يقتطع من لحم جسمه!

وهو بين أمرين أحلاهما مر؛ فأما أن يموت، فيبيعُ أولادُه الجهالُ مكتبتَه بأبخس الأثمان، فتلك حسرة، لكنْ لطُفَ الله به ولم يتلظَّ بنارها، وتلك شَكاة ظاهر عنه عارها.

قال العلماء: وللدهر عادة في تفريق الكتب، وحبسها بيد الجهال[3].

وخذِ الآن ثلاثين حالة حزينة كئيبة، تحكي لك بعض حسراتهم، عندما يبيعون كتبهم مضطرِّين، كاضطرار الجائع لأكل الميتة، حتى إن منهم من يمرَض تأثُّرًا، بل منهم من قد يفقِد عقله، ولا يلبث أن يموت!

١. ابن مالك القطيعي -رحمه الله تعالى- (بعد ٣٩٦هـ) مرت به حالة عظيمة من الفقر والفاقة، وعرض شيئًا من كُتُبه لتُشترَى[4].

٢. أبو الحسن الفالي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٨هـ) افتقر، فباع نسخة من «كتاب الجمهرة» لابن دريد بخمسة دنانير، فوجدوا في بعض المجلدات رقعة بخط الفالي فيها:

أَنِسْتُ بها عشرين حولًا وبعتُها فقد طال شوقي بَعدها وحَنيني
وما كان ظنّي أنني سأبيعها ولو خلّدَتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبيةٍ صغارٍ عليهم تستهلّ شؤوني

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٣٧).
(٢) معجم السفر (ص: ٢٤٠).
(٣) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٨٧/٣).
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٥١٥/٤).

فتوجَّع مشتريها وقال: لو رأيتُها قبل هذا لرددتُها عليه! وكان الفالي قد مات[١].

٣. قال بعض العلماء: بعتُ في بعض الأيام كتابًا؛ ظننتُ أني لا أحتاج إليه، فلما كان ذات يوم هجس في صدري شيء كان في ذلك الكتاب، فطلبتُه في جميع كُتبي فلم أجِده، فاعتمدت أن أسأل عنه عالمًا عند الصباح، فما زلتُ قائمًا على رِجلي إلى الصباح، قيل: فهلا قعدت؟ قال: لطول أرَقي، وشدة قَلَقِي[٢].

٤. نصرون الخرزي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٦٠هـ) يقول: مرضتُ مَرْضةً أشفيتُ منها على الموت، وبعتُ فيها كتبًا، ومن جملتها «صحيح البخاري وصحيح مسلم»، فذكرتُ ذلك بعد إفاقتي من مَرَضي لأبي القاسم بن القطاع، فغضب عليَّ غضبًا شديدًا وقال: كنتَ تقنع ببيع كتب الأدب، فعنها عوض، وتترك عندك الصحيحين، هل رأيتَ مسلمًا يخرج الصحيحين من داره؟! هل رأيتَ مسلمًا يخرج الصحيحين من داره؟! ولم يزل يُردِّدُ ذلك، حتى استحييتُ من نفسي ومن الحاضرين، وندمتُ غاية الندم[٣].

٥. القاضي أبو القاسم بن القاضي أبي يعلى الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) حمله بذل يده، على أن استدان ما لا يمكنه الوفاء، حتى باع معظم كتبه، واختفى في بيته؛ لِما فَدَحَه من الديون[٤].

٦. ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) ابتلي بعقوق ابنه علي، الذي أخذ مصنفات والده، وباعها بيع العبيد، ولمن يزيد، ولما أحدر والده إلى واسط، تحيَّل على الكتب بالليل، وأخذ منها ما أراد، وباعها ولا بثمن المداد، وكان أبوه قد هجره منذ سنين[٥].

٧. الأمير الحسن بن حمدون -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٨هـ) لما بطل عن العمل افتقر، فكان يُخرِج كتبه، ويبيعها، وعيناه تذرفان الدموع عليها، كالمفارق لأهله

(١) معجم الأدباء (١٦٤٦/٤).
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٣٦).
(٣) معجم السفر (ص: ٤٠٣).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٣٣٨/٢).
(٥) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١١٧/٢٢).

الأعزاء، والمفجوع بأحبابه الأوِدَّاء.. وقال وهو يبيعها: هذه نتيجة خمسين سنة من العمر؛ أنفقتها في تحصيلها(١).

٨. الأمير مرهف بن أسامة بن منقذ -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٣هـ): عنده من الكتب ما لا يعلم مقداره، إلا أنه باع منها أربعة آلاف مجلد في نكبة لحِقته، فأقعدته عن الحركة(٢).

٩. ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٢هـ) كان مغرىً بتحصيل الكتب، حتى كان قبل أن يلي القضاء يركبه الدَّين بسبب ذلك. ويقال: إنه اشترى كتبًا من تَرِكة ليتيم، وليس عنده ما يوفى به، فاعتذر بمحبة الكتب(٣).

١٠. الحافظ المِزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ) صبر على فقره طوال حياته، حتى أفلس، فاضطر إلى بيع أصل كتابه «تهذيب الكمال» الذي بخطِّه، ولم يكن له مركوب، فظل يتوجَّه إلى الصالحية ماشيًا على قدميه، وهو في عَشْر التسعين(٤).

١١. عليان بن أيوب المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) كان يحب كلام ابن تيمية، ونسخ منه الكثير، وحصل له في أواخر عمره مبادىء اختلاط، فكان يلهج بذكر الجن، وأنهم وعَدُوه أن يُجْرُوا له نهرًا من النيل إلى منزله! فأخذوا على يده، وباعوا كتبه في حياته، وتغالَى الناس في أثمانها؛ رغبةً في صحتها، وكان يستحضر العلم جيدًا، وكان إذا سُمع عليه في حال اختلاطه يَحضره ذهنه، ثم استمر إلى أن مات فقيرًا مدقعًا(٥).

١٢. عمر بن مسلَّم القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٢هـ) مَلَك من الكتب النفيسة شيئًا كثيرًا، فلما امتُحن بالمصادرة رَهَن أكثرَها، ومات في الاعتقال(٦).

---

(١) معجم الأدباء (١٠١٣/٣).

(٢) معجم الأدباء (٢٥٤٧/٦).

(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ٣٩٦).

(٤) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام للذهبي (ص: ٥٣) وعنه: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر (٢٣٠/٦).

(٥) المصدر السابق (٣٦/٤).

(٦) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٢٨/٤).

١٣. البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) صار عيشه في ضيق، وبدنه في تناقص، مع استمرار تكدره من جهة زوجه وأولاده، بحيث باع ما كان عنده من كتب، ومعظم داره، وجل ثياب بدنه، كل هذا مع عدم انفكاكه عن الاشتغال والمطالعة والكتابة(١).

١٤. اللغوي المتفنن الفيروزآبادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ) حصَّل دنيا طائلة، وكتبًا نفيسة، وكان لا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكُتُب، ويُخرِج أكثرَها في كل منزلة، يَنظر فيها، ويُعيدها إذا رحل، وكان إذا أملقَ باعها(٢).

١٥. ابن عُليم البساطي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) تجرع الفاقة، بحيث يضطر أحيانًا لبيع بعض نفائس كتبه(٣).

١٦. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) قبل وفاته بسنة واحدة، ضاع له مِن كتبه ما ينيفُ على مئة وخمسين مجلدة بسبب إعارته لها، وربما بِيعت في السوق ويشتريها(٤).

١٧. قطب الدين الخيضري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ) كان له ابن عاق، وكان يدعو عليه ولم يزل على حاله حتى بلغ الابن توعك أبيه فبادر إلى المجيء فوضع يده على كتبه فباعها، ولم يلبث أن جُنَّ(٥).

١٨. يحيى القباني -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٩٤هـ) تضعضع حاله جدًا بعد الثروة من التجارة، وباع أكثر ما كان حازه من كتب العلم سيما الحديث، مما لم يكن يسمح برؤيته، فضلًا عن عاريته(٦).

١٩. سِبط ابن حجر العسقلاني، المؤرخ الفقيه ابن شاهين -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٩هـ) أمْلَقَ، وباع كتبه(٧).

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٨١/٥).
(٢) بغية الوعاة (٢٧٤/١) والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ٢٨).
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥/٧).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٠٢٠/٣).
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٨٤/٢).
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٤٧/١٠).
(٧) الأعلام للزركلي (٢٣٤/٨).

٢٠. الفتح ابن العلاء القلقشندي -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٩٩هـ) امتُحن بالترسيم، فباع كتبه أو جُلها، وقاسَى ما لا يُعبَّر عنه[١].

٢١. ابن المحوجب الشافعي -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٩٩هـ) تعرَّض لمرافَعةِ مَن لم يراقب الله فيه، وباع كتبه وغيرها[٢].

٢٢. تقي الدين ابن قاضي عجلون -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٨هـ) انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية ببلاد الإسلام، وغرم أموالًا كثيرة، حتى باع أكثر كتبه[٣].

٢٣. عبد الله بن عضيب النّاصريّ -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦١هـ) كان كثير الإدمان على نسخ وشراء الكتب الكبار، وكثير الإرسال في طلبها من البلدان، وإن كان الطّريق مخوفًا أرسل فارسًا من فرسان الأمير يأتي بها له، وصار المسافرون يتقصّدون شراء الكتب له، ويُهدونها إليه، فلا يكون عنده تحفة أعظم منها. ولكن تفرّقت كتبه شذَرَ مذَرَ، على كثرتها وضبطها[٤].

٢٤. الفرَضي الإخباري عبد الله البصروي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٦هـ) كان عنده كتب كثيرة، جعلها للعارية، وتفرقت كتبه أيْديَ سبأ[٥]

٢٥. مكتبة العلامة أحمد بن إبراهيم بن عيسى النجدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٧هـ) بِيعت بعد وفاته؛ لسداد دينه.

٢٦. الشيخ طاهر الجزائري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٨هـ) جمع كثيرًا من الكتب المخطوطة النادرة، ثم اضطر إلى بيع بعضها للحاجة إلى الدراهم، ولو كان يقبل من أحد مواساة مالية، لكان له من صديقه الوفي المخلص أحمد تيمور ما يكفيه وفوق ما يكفيه مع الإخفاء والكتمان؛ ولكن كان له من عزة النفس بالعلم والعفة والقناعة ما يربأ به عن ذلك[٦].

---

(١) المصدر السابق (٧٨/١). والترسيم هو: «الإقامة الجبرية».

(٢) المصدر السابق (٣٣٦/١).

(٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١١٧/١).

(٤) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٦٠٣/٢ - ٦٠٩).

(٥) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٨٧/٣).

(٦) بتصرف من: مجلة المنار (٧٨٤/٣٠).

٢٧. الأديب إبراهيم المازني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٨هـ) لقي عنتًا وشقاءً في بعض أيامه الأولى، حتى اضطر إلى بيع الكتب التي تحويها مكتبته.. وكان يضطر إلى كثرة الكتابة ليواجه تبعاته، حتى كان يكتب بعدة صحف ومجلات في وقت واحد.. وظل يكافح ويستنبط رزقه بقلمه، حتى أسلم الروح(١).

٢٨. الأديب عباس محمود العقاد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٣هـ) رفض بيع مكتبته مدةً، ثم اضطر لبيع جملة كبيرة منها. وبعد وفاته وقعت بقية مكتبته في يد امرأة تجهل قيمة هذا الميراث، فرمَتها في الشارع!

٢٩. البحاثة سعد محمد حسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٨هـ) أُولِع بالكتب، وقد عرضت له ديون في آخر حياته، اضطرته إلى بيع قسم كبير من مكتبته، فلما توفي باعت زوجته الباقي!(٢).

٣٠. اضطرت الظروف التي عاشها ورثة الأديب الراحل أبو تراب الظاهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٣هـ) لعرض مكتبته للبيع(٣).



(١) مجلة الرسالة (٣٦/٨٤٢).

(٢) تكملة معجم المؤلفين (ص: ٢٠٤).

(٣) الأربعة الأخيرة من: مقال: (مصير المكتبات الخاصة) في مجلة القافلة، الصادرة عن شركة أرامكو السعودية.

٨٢. حسرة من سُرِقَتْ أو تلِفَتْ مكتبته

أسلافنا العلماء قد تركوا وراءهم معارف شتى، ولهم سهم في كل ضرب من ضروب الحكمة والعلم، حتى لقد عجزت جهالة أعدائهم عن تبديدها في مياه دجلة، ونيران طرابلس، والقدس، ومحاكم التفتيش؛ فبقيت من بقاياها أثارة لا تزال مطابع المستشرقين في أوربا، وهمم الشرقيين تجِدُّ في نشر الألوف منها في أكثر من مئة عام، وكل ما نشر منها لا يساوي قطرة من بحر علم العرب، الذي لا يزال مطويًا في مخطوطات دور الكتب الشرقية والغربية(١).

وحسبنا في تقدير التالِف والضائع من تراثنا، أننا نفتقد اليوم أسامي قدر كبير من المؤلفات القيمة في تراجم العِلْماء، وفي المصادر المفهرِسة لعناوين الكُتُب: كالفهرست لابن النديم، وكشف الظنون، حيث لا نجد لهذه الكُتُب أثرًا إلا عناوينها فحسب.

وعلى الرغم من ذلك؛ فما بقي من هذا التراث يعد مفخرة لأمتنا، ويعتبر الناجي منه أمانة بين أيدي الأمة الآن.

نعم؛ ضاعت نفائس ضخمة من كتب العلم، وفارقت ديارَنا نفائسه؛ فإذا أردت أن تحصل على نسخة من كتاب نادر، أو مؤلف فاخر، أو تبحث في مصنف مفقود، أو أثر مفيد، فاذهب إلى خزائن بلاد أوربا، تجد ذلك فيها. أما بلادنا فقلَّما تجد فيها إلا ما ترك الأوربيون، وقد تجد بعض النُّسَخ من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلًا(٢).

لقد اعتلَّت كتب العلم، فقالت وعيون سطورها باكية:

لعل إلمامة بالجَزْع ثانيةً ... يدِبُّ منها نسيم البُرء في عِلَلي(٣)

---

(١) انظر: مقالة: قوة العرب المعطلة للعلامة محب الدين الخطيب. انظر: مقالات لكبار كتاب العربية - المجموعة الأولى (ص: ٦٧).

(٢) مجلة المنار (٣٤/٧).

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي (٤٢٣/٢).

وخذ خمسة أمثلة فحسب؛ يبعث تذكُّرها على الحسرة، والشجَى يبعث الشجَى:

١. في عام ٤٥١هـ احترقت خزانة الكتب ببغداد، ونُهبت بعض كتبها، وكان بها عشرة آلاف وأربع مئة مجلد، من أصناف العلوم، منها مئة مصحف بخطوط بني مُقلة، وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق(١).

٢. ومن الأمثلة المؤسفة السالفة: أنه قد خربت بغداد الخراب العظيم سنة ٦٥٦هـ، وأُحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون، التي ما كانت في الدنيا، حتى قيل: إنّهم بنوا بها جسرًا من الطين والماء عوضًا عن الآجرّ(٢).

٣. في عام ٧٤٩هـ وقع طاعون عارِم، كان فيه هلاك عام، وكساد في السلع، حتى صارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال، فيباع الحمل منها بأرخص ثمن(٣).

٤. في سنة ٩٧٧هـ وقع القتال بين المسلمين والنصارى بتونس، وعاثتْ عساكر الأسبان في الأرض، وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة، واستباحوا ما به وبالمدارس من الكتب العلمية، وألقَوها في الطرقات، يدوسها العسكر بخيولهم! وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول من هذا القُطر؛ فإنها ذهبت شذَر مذَر(٤).

٥. في سنة ١٠٢١هـ غنِمت السفن الإسبانية مركبًا شُحنَ بالتحف، وبه ثلاث آلاف سِفْر من كتب الدين والأدب، وحُملت هذه الكتب إلى أسبانيا(٥).

٦. في سنة ١٢٧٨هـ نزل على الحجاز سيل عظيم، فدخل المسجد الحرام، وتعطلت صلاة الجماعة خمسة أوقات.. ودخل السيل في خزانة كتب نفيسة، تحتوي على ثلاث آلاف وست مئة وثلاثة وخمسين كتابًا، فغرق كثير من الكتب التي فيها؛ لأن شبابيكها قريبة من الأرض(٦).

---

(١) الكامل في التاريخ (١٦٦/٨).
(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥١/٧).
(٣) المصدر السابق(٢١٠/١٠).
(٤) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١٧٦/٢).
(٥) دولة الإسلام في الأندلس (٣٩٢/٥).
(٦) تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان (١٤٨/١).

حسرات أصحاب الكتب والمكتبات:

أما الحسرات على المستوى الشخصي؛ ففي كل واد بنو سعد، والعلم كما هو لذة لا تضاهَى، فحسرة فقدانه حسرة لا تتناهى، وألمٌ لا يقاوَم. وما احتراق الكتب بأهون من بيعها:

وأما سرقة جهدك العلمي؛ فهو أشد وقعًا على القلب من وقع الحسام المهند، وهو أشد من تلفه، أو ضياعه. وتزيد الحسرة أن ترى جهدك قد انتحله السارق لنفسه متبجِّحًا، وأنت تراه يباع بالأسواق. ولوقلت: للناس هذا جهدي لربما ما صدَّقوك!

إذا فجع الدهر امرأً بخليلهِ تَسلّى ولا يسْلَى لفقد الدفاترِ[١]

فإليكَ سِيَرَ المتحسِّرين -كفاني الله وإياك حسرة اليوم ويوم الحسرة-، ودونَك بضعًا وسبعين سيرة حسيرة:

١. عروة بن الزبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣هـ) احترقت كتبه يوم الحَرَّة، وكان يقول: وددتُ لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي[٢].

٢. اللغوي النحوي الليث بن المظفر -رحمه الله تعالى- (بعد ١٧٠هـ) اشترى جارية نفيسة، فغارتِ زوجته، وقالت: والله لأغيظنّه، وإن غِظته في المال لا يبالي، ولكني أراه مُكبًا ليله ونهاره على هذا الكتاب (كتاب العين للخليل)، واللهِ لأفجعنَّه به. فأحرقته! فلما علم اشتد أسفه؛ ولم يكن عند غيره منه نسخة. فأملى النصف من حفظه، وجمع علماء عصره، وأمرهم أن يكملوه على نمطه[٣].

٣. عبد الله بن لهيعة -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٤هـ) احترقت كتبه قبل موته بأربع سنين. قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): عبد الله بن لهيعة من أكابر علماء

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤١/٤).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٣٢٦/١).
(٣) بغية الوعاة (٥٦٠/١).

المسلمين، وكان قاضيًا بمصر، كثير الحديث، لكن احترقت كتبه، فصار يُحدِّث من حفظه، فوقع في حديثه غلط كثير، مع أن الغالب على حديثه الصحة(١).

٤. قال الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): كانت عندي صناديق من كُتُب ذهبت، لو بقيَتْ لكان أحلى إليَّ من أهلي ومالي(٢).

٥. عبد الرزاق بن عمر الثقفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٠هـ) ذهبت كتبه حينما خرج إلى بيت المقدس، فقد جعل كتبه في خِرج جديد، وثيابه في خِرج خَلِق، فجاء اللصوص فأخذوا الخِرج الجديد، فذهبت كتبه(٣).

٦. عبد الرحمن بن موسى الهوّاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٠هـ) لما صدر عن سفره كاد أن يغرق بالبحر، وغرقت كتبه. وقصده الشيوخ يهنئونه بقدومه، ويُعَزُّونه بذهاب كتبه، فقال لهم مُسَليًا نفسه: ذهب الخِرْج، وبقي ما في الدُّرْج؛ أنا شعبيُّ زماني، فليسألني من شاء(٤).

٧. إبراهيم بن مُنْقِذ الخَوْلاني العُصْفُري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٩هـ) احترقت كتبه قديمًا، وكان يحدِّث بما بقي من كتبه(٥).

٨. الخِرَقي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ) صاحب «مختصر الخرقي» خرج عن بغداد، لما ظهر سبُّ الصحابة، وأَودَعَ كتبه، فأحرقوا الكتب، ومنها أصل «مختصر الخرقي»(٦).

٩. أبو عبدالله ابن المقَّري -رحمه الله تعالى- (بعد ٣٤٠هـ) ضربه بنو عبيد وآذوه، وأحرقوا كتبه(٧).

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٤٧/٥) والمجروحين لابن حبان (١١/٢) ومجموع الفتاوى (٢٦/١٨).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٣٧/١).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٥٤/٣٦).
(٤) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٢٥٣) وتاريخ علماء الأندلس (٣٠٠/١) والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ٢٩٩).
(٥) الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (٢٥٢/٢).
(٦) مناقب الإمام أحمد (ص: ٦٨٦) ووفيات الأعيان (٤٤١/٣).
(٧) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٩٠/٧).

١٠. الوزير أبو بكر الماذرائي الكاتب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٥هـ) سبب احتراق كتبه: أن الجند شغَّب عليه في طلب، وأحرقوا دُوره، ودُور أهله[١].

١١. ابن الحجّاج التُجيبي -رحمه الله تعالى-(ت ٣٤٦هـ) لما اشتد به المرض قال له أصحابه: نخشى أن يأخذ السلطان كتُبَك، فأوقِفها على المسلمين، واجعلها أثلاثًا في ثلاثة مواضع. فقبِلَ ذلك، فلما كان من الغد قال: لم أنَم البارحة لما فقدتُ كُتبي! رُدُّوها علي. فرَدوا الثلثين، وتركوا الثلث. فلما وصل إليه الثلثان مات، فاستولى السلطان على ذلك، وسلِم الثلث[٢].

١٢. أبو بكر بن الجعابي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٥هـ) يقول: كان لي قِمَطْران كتبًا، فجاء غلامي مغمومًا فقال: ضاعت الكُتُب. فقلتُ مصبِّرًا نفسي: يا بني! لا تغتمَّ؛ فإن فيها مئتي ألف حديث، لا يُشكل عليَّ منها حديث، لا إسنادًا ولا مَتْنًا[٣].

١٣. أبو علي الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٧هـ) قال لما احترقت مكتبته ببغداد: بقيتُ شهرين لا أكلِّم أحدًا؛ حزنًا وهمًّا، وانحدرت إلى البصرة؛ لغلبة الفكر عليّ، وأقمت مدة ذاهلًا متحيرًا[٤].

١٤. جمع اللغوي أبو العلاء صاعد الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٧هـ) للخليفة الأندلسي كتابًا سمّاه «الفصوص في الآداب والأشعار» فدفعه لغلام له، يحمله بين يديه، وعبر نهر قرطبة، فزلَّت قدم الغلام، فسقط في النهر هو والكتاب، فقال في ذلك أحد أقرانه -وكان بينه وبين أبي العلاء شحناء ومناظرات-:

قد غاص في البحر كتاب الـ ... فصوص وهكذا كلّ ثقيل يغوصُ

فضحك المنصور والحاضرون، فلم يَرُعْ ذلك صاعدًا، وقال على البديهة مجيبًا لابن العريف:

---

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢٩٣/٣) وتاريخ ابن يونس المصري (٢١٨/٢) وتاريخ الإسلام (٣٣٧/٢٥).
(٢) المصدر السابق (٣٣١/٥) وتراجم المؤلفين التونسيين (٩٥/٢).
(٣) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢٣٨/٣).
(٤) معجم الأدباء (٨١٩/٢).

عـــادَ إلـــى مَـعـدنـه إنـمــا تو   جـد فـي قَعر البحار الـفـصـوصُ[١]

١٥. عبد الوهاب الميداني -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٨هـ) كان لا يبخل بإعارة شيء من كتبه، سوى كتاب واحد؛ كان يَضن بإعارته، فلما احترقت كتبه استجدَّ جميعها من النُّسخ التي كُتبت منها، غير ذلك الكتاب الذي ضنَّ بإعارته؛ فإنه لم يَقدر على نُسخته، وآلى على نفسه ألا يبخل بإعارة كتاب[٢].

١٦. القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٢هـ) عمل كتابًا، وسماهُ «الجموع والفروق»، فتلِف! ولم يعمل غيره[٣].

١٧. ابن حسكان الحذاء -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٣هـ) ضاعت كتبه في حجته الأولى[٤].

١٨. أبو بكر ابن الأسود -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٦هـ) قال: كان أبي قد سمَّعني كتبًا كثيرة، وكَتَبَ حِمْلَ جَمَلَ كُتُبًا، ولكن احترقت! ولم يَبْقَ لي إلا ما وجد فيه سماعي مع الناس[٥].

١٩. أبو الفتح محمد المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٠هـ) احترقت كتبه دفعات[٦].

٢٠. الحافظ ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) كان بعض الفقهاء يُزهِّدون طلاب العِلْم في مصنفاته؛ لصلافته، حتى أُحرق بعضها، ومُزّقت علانية. فقال يخاطبهم مسليًا ومثبِّتًا لنفسه:

فإن تُحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي   تضمَّنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلَّت ركائبي   وينزل إنْ أنــزل ويُـدفـن في قبري

(١) المصدر السابق (١٤٤٠/٤).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١٤/٣٧).
(٣) الفروق الفقهية للدمشقي (ص: ٨٧).
(٤) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص: ٨٩).
(٥) ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم (ص: ١٧٢).
(٦) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٣٧١/١).

دعــونيَ من إحــراق رَقٍّ وكاغِــدٍ وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري(١)

٢١. ثابت بن أسلم الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٠هـ) فقيه نحوي شيعي، وقد تولى خزانة الكتب بحلب، وله مصنف في كشف عَوار الإسماعيلية، فصلَبه المستنصر! وأُحرقت لذلك خزانة الكتب بحلب، وكان فيها عشرة آلاف مجلدة، قال الذهبي: فلا رضي الله عمن قتله، ورحم الله هذا المبتدع الذي ذبَّ عن الملة، والأمر لله(٢).

٢٢. الحافظ أبو إسحاق الحبال -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٢هـ) لم يزَلِ العطارون والقلانسيون سنين بعد موته، يستعملون من كتبه ما يشدُّون فيه الأدوية، ويبطِّنون بها القلانس(٣).

٢٣. عبد الواحد بن علي العلَّاف -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٦هـ) ذهبت كتبه حريقًا ونهبًا(٤).

٢٤. الأمير المبشر بن فاتك -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٠هـ) له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة، فلما توفي نهضت زوجته وجَوارٍ معها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب شيء، وأنه كان يشتغل بها عنها، فجعلت تندُبه، وترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار، هي وجواريها(٥)

٢٥. النحوي محمد بن ظفر الصّقليّ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٥هـ) نُهِبت كُتُبه، حين جَرَتْ فتنة بين الشيعة والسنة، فلم يزَلْ يُكابِد الفقر حتى مات(٦).

٢٦. الضرير النحوي حبشي الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٥هـ) سُرقت كتبه، والمصيبة أن سارقها جاره، الذي يقوده في كل ليلة لحاجته!(٧).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠٥/١٨) ومعجم الأدباء (١٦٥٥/٤).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٧٦/١٨) والوافي بالوفيات (٢٩١/١٠).
(٣) معجم السفر (ص: ٣٣٢).
(٤) الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (٤٩٥/٦).
(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٥٦٠).
(٦) معجم الأدباء (٢٦٤٣/٦) وبغية الوعاة (١٤٢/١).
(٧) انظر: بغية الوعاة (٤٩٣/١).

٢٧. النحوي البغدادي سعيد بن الدهان -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كانت كتبه قد أتعب فيها خاطره وناظره، وبلغه أن الغرق قد استولى على بغداد، فسيَّر من يحضر كتبه، فوجدها قد غرقت فيما غرق، وزادها على الغرق أنَّ خلْف مسكنه مِدْبغة، فاض الماء منها إلى منزله، فلما أحضرت إليه أخذ في تأملها، على نَتَنِها وتغيُّر لونها. فأشير عليه بأن يبخِّر ما سَلِم منها، بشيء مما يغير الرائحة، فشرع في تبخيرها باللَّاذِن[١] بما يزيد على ثلاثين رطلًا، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه، فأحدث له العمى[٢].

٢٨. أبو العباس بن الصقر الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) اقتنى من الكتب جملة وافرة.. وامتُحن فيها مرات، بضروب من الجوائح كالغرق والنهب.. فنُهب ما كان بداره من كتب وغيرها، وحين صار الحال ضيقًا، والسعر شديدًا كان يخرج بالدرهم؛ ليشتري به قوتًا لنفسه ولعياله، فربما صادف في طريقه كتابًا بيد إنسان، فيشتريه منه بذلك الدرهم، ويرجع دون قوت، ويبقى هو وعياله طاويًا، إلى أن ييسر الله غيره[٣].

٢٩. كان السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) مُغرىً بجمع الكتب والاستكثار منها، ولا يتفرغ للنظر فيها، فلما مات وجدوا معظم الكتب في الخزائن قد عفَّنت، والْتصق بعضها في بعض؛ لنَداوة الإسكندرية. وكانوا يستخلصونها بالفأس! فتلِف أكثرها[٤].

ويتوجد السِّلَفي في حياته وَجدًا يقطِّع القلب، ويكرر هذا في ثنايا معجمه، فقد قال: مَثلي مِثل شجاع ليس عنده سلاح وعُدة، فقد ضاعت كتبي، والحمد لله على كل حال.

وقال في موضع آخر: وضاعت أصول كتبي في الصعيد.

---

(١) قال في المعجم الوسيط(٨٢٢/٢): اللَّاذِن يُستعمل عطرًا ودواءً. وقال ابن سيده في المخصص(٢٧٩/٣): وإذا قُطِر في عين منه قطرة مات صاحبها وجَعًا.

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٤٨/٢).

(٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤١٠/١).

(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٠٥/٤٠) وتذكرة الحفاظ للذهبي (٦٦/٤).

وقال -أيضًا-: وهي كلها في جملة الأجزاء المودعة بسلماس -جمعها الله عَلَيَّ قبل الممات بفضله وكرمه-(١).

٣٠. عبد الحق الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) أَلَّف كتابين: «جامع الكُتُب الستة»، وكتاب «بيان الحديث المعتل»، وهو قدْرُ «صحيح مسلم»، فنُهبا منه في فتنةٍ وقعت بالبلد(٢).

٣١. الأمير العالِم أسامة بن منقذ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٤هـ) اعترض له الإفرنج، ونهبوه في البحر، وأغرقوا كتبه، فقال متحسِّرًا أشد التحسر: ذهب لي من الكتب أربعة آلاف مجلد، من الكتب الفاخرة؛ فإن ذهابها حَزازة في قلبي ما عشت. فهذه نكبات تُزعزع الجبال، وتُفني الأموال، والله -سبحانه- يعوض برحمته، ويختم بلطفه ومغفرته(٣).

٣٢. الرئيس الحافظ ابن هبة الله الصصري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٦هـ) احترقت خزانة كتبه، فوقف خزانة أخرى(٤).

٣٣. المقرئ حمزة بن علي القبيطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٢هـ) كتب وتعب، وحصل الأصول، لكن احترقت كتبه(٥).

٣٤. الأمير العلامة أبو سعد ابن حمدون -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٨هـ) - قد مرَّ - أنه حين كبر، وبطل عن العمل، كان يبيع بعض كتبه، وعيناه تذرفان الدموع عليها، كالمفارق لأهله الأعزّاء! وهو يقول متحسرًا: هذه نتيجة خمسين سنة من العمر، أنفقتها في تحصيلها!(٦).

٣٥. ابن حوط الله الأنصاري الحارثي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ) كان إمامًا في

---

(١) معجم السفر (ص: ٢٤٨) و(ص: ٣٤٠) و(ص: ١٤٦).
(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٢/٦١).
(٣) الاعتبار لأسامة بن منقذ (ص: ٣٥).
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/٢٦٤).
(٥) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٥/١٧٥) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/٤٤١).
(٦) معجم الأدباء (٧/٢٨٨٧).

صناعة الحديث، وامتحن بالتجول، فذهبت أصوله، وضاعت كتبه في بعض أسفاره، ولو فرَغ للتأليف والتحقيق لعظم الانتفاع بمعلوماته بعده[(١)].

٣٦. المقرئ، النحويّ أبو المجد خزعل الشنائيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٣هـ) عند رجوعه من بغداد قُطع عليه الطريق، وأُخذ ما كان معه من الكُتُب[(٢)].

٣٧. الفقيه عبد المحسن الحصني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٥هـ) من تلاميذ الموفق ابن قدامة. حصل كتبًا، وَتوجه إلى الحج، فغرق جميع ما معه في البحر، ثم عاد إلى مصر مُجَردًا[(٣)].

٣٨. الحافظ المفيد أبو رشيد الغزال -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣١هـ) سكن بخارى مدةً، إلى أن دخلها العدو واستباحوها، فأحرقت كتبه، وراحت أمواله[(٤)].

٣٩. العلامة النحوي القِفْطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ) اقتنى نسخة من كتاب «الأنساب» للسمعاني، محررة بيد المؤلف؛ إلا أن فيها نقص أوراق، فبلغه أن قلانسيًا قد استعملها قوالب لقَلانِسِه[(٥)]، فضاعت، فتأسَّف غاية الأسف على هذا الضياع؛ حتى كاد يمرَض، ويزورونه تعزية له، كأنه قد مات أحد أقاربه[(٦)].

٤٠. المحدث أبو الحجاج ابن قراجا الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٨هـ) وقف كتبه، لكنها تفرقت بعده، ونُهبت في فتنة بحلب[(٧)].

٤١. محمد بن غلبون الأنصاري الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٠هـ) نُكِبَ هو وابنه، واختل، وكانت له خزانة مملوءة أصولًا عتيقة، ودفاتر أنيقة، ضاعت لاختلاله، وبِيع أكثرها وهو لا يشعر[(٨)].

---

(١) التكملة لكتاب الصلة (٢/٢٨٨).
(٢) المقفى الكبير (٣/٤٤٧).
(٣) المقصد الارشد (٢/١٥٩).
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٦/٨٠).
(٥) القَلانِس كالطواقي في عُرفنا.
(٦) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١/٢٠).
(٧) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٣/١٥٣).
(٨) التكملة لكتاب الصلة (٢/١٥٣).

٤٢. الشيخ عبدالصمد القطفتيُّ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) فقدَ كُتبه وابنه، في وقعة بغداد، فكان يقول: في قلبي حسرتان؛ ولدي وكتبي(١).

٤٣. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) لما حُبس تفرق أتباعه، وتفرقت كتبه، وخوَّفوا أصحابه من أن يُظهروا كتبه.. فبقي هذا يَهرب بما عنده، وهذا يبيعه أو يهَبه، وهذا يخفيه ويُودِعه، حتى إن منهم من تُسرق كتبه أو تُجحد، فلا يستطيع أن يطلبها، ولا يقدر على تخليصها. وأيضًا- أُخرج ما كان عند الشيخ من الكتب، والأوراق، والدواة، والقلم، ومُنع من الكتب والمطالعة، وحُملت كتبه إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة، وكانت نحو ستين مجلدًا، فنظر القضاة والفقهاء فيها، وتفرقوها بينهم، ولكن ابن تيمية لم يحزن، بل جعل من المحنة منحة، ولذا فقد وجدوه قد كتب عَقيب ذلك بفحمٍ يقول: وخروج الكتب كان من أعظم النعم، فإني كنت حريصًا على خروج شيء منها؛ لتقِفوا عليه(٢).

٤٤. عبد المهيمن الحضرمي السبتي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) يحمل العلم عن ألفِ شيخ، ذكرهم في «مشيخته»، لكن ضاعت من يده، فضاع بضياعها علم كثير(٣).

٤٥. ابن الفردة الواسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) سُرق له من الكتب بقدر ألفَي مجلدة، وباعها جماعة من التجار بدمشق، فلم يجد من يشهد له، ولا من ينصره، فازداد تألمه لذلك، وتمكن اختلاطه، وكان لا يَقبل من أحد شيئًا، بل من أعطاه شيئًا؛ لما يَرى من سوء حاله يقول له: أنت ممن سرق كتبي(٤).

٤٦. برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) تلِفَتْ غالب تصانيفه في فتنة تَيمور، أي قبل وفاته بسنة(٥).

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١٣٩/٤).
(٢) البداية والنهاية (٢٩٣/١٨) والعقود الدرية من (ص: ٨١ و٣٨٢). وانظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٢٦١).
(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٣١٧/١) ودرة الحجال في أسماء الرجال (١٧٣/٣).
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٨/٤).
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٠/٩).

٤٧. الحافظ سراج الدين ابن المُلقِّن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) عنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر. ثم إنها احترقت مع كثير من مصنفاته، مع أكثر مسوداته، وذلك في أواخر عمره، فحزن عليها، وتغير حاله بعدها، فحجَبه ولده إلى أن مات، وكان قبل احتراق كتبه مستقيم الذهن. فقال فيه تلميذه ابن حجر مُسليًا:

لا يزعجْك يا سراج الدين أن ... لعبَتْ بكتْبُك ألسُنُ النيرانِ
لله قد قربتَها فتُقُبلت ... والنار مسرعة إلى القربان[1]

٤٨. قاسم بن علي الفاسي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١١هـ) خرَّج له الأقفهسي مشيخة، وحدَّث بها، فسُرقت منه بعد رجوعه من الحج، وكان يُكثر التأسف عليها[2].

٤٩. محمد الشمس المراغي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١١هـ) خلف كتبًا كثيرةً جدًا، تلِفَ أكثرها بالأرضة وغيرها[3].

٥٠. النحوي ابن سيف اللواتي الإبياري -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٤هـ) ولي خزانة الكتب بالسميساطية، وكان كلما حصل له شيء اشترى به كتبًا، ولكن تفرقت كتبه شَذَرَ مَذَرَ في فتنة اللنك[4].

٥١. محمد بن عبد القادر السكاكيني -رحمه الله تعالى-(ت ٨٣٨هـ) لما أغار تيمورلَنك المغولي على العراق أُخِذت كتبُه جميعها، مع مسموعاته، وإجازاته، ولم يَبق له شيء منها[5].

٥٢. الحافظ جمال الدين ابن الخياط -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٩هـ) تفرقت بعد وفاته كتبه التي جمعها، واجتهد بتحصيلها، وكانت أكثر من سبع مئة مجلد[6].

---

(١) انظر: المجمع المؤسس لابن حجر (٣١١/٢) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٠٥/٦)وبهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ٢٢١) وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (٤١٨/٢) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٩) ونيل الأمل في ذيل الدول (٧٠/٣).

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤١٢/٢).

(٣) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٢٤٣/٣) والضوء اللامع (٢٧٨/٤).

(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (٥٠٠/٢) وبغية الوعاة (١٦٩/٢).

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦٨/٨) والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٥٢٦/٢).

(٦) تاريخ البريهي (ص: ٢٣١).

٥٣. الفقيه عبد الله العمودي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) أحيا الله به السنة، وأطفأ البدعة، لكن لم يوافق هوى مبتدعة أهل بلده، فأخرجوه، وأحرقوا كتبه(١).

٥٤. سافر ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) إلى اليمن، فانكسر المركب الذي كان فيه، فغرق جميع ما معه من الأمتعة والنقد والكتب، ثم يسر الله -تعالى- بطلوع أكثرها، بعد أن أقام ببعض الجزائر هناك أيامًا.. وكان من جملة الكتب التي غرقت، خمسة مما هو بخطه: «أطراف المزي»، و«أطراف مسند أحمد»، و«أطراف المختارة»، وكذا «ترتيب» كل من «مسندي الطيالسي» و«عبد بن حميد»(٢).

٥٥. محمد بْن خطيب الفخرية -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٣هـ) من تلاميذ ابن حجر. نُهِبَ وذهب له من الكُتُب جملَة، وتألم لذلك، سِيما فِي كثير من حَوَاشِيه ومفاداته(٣).

٥٦. أحمد بن علي الشعراوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٧هـ) صنف عدة مؤلفات في علم الحديث، والنحو، والأصول، والمعاني والبيان، فنُهبت مؤلفاته كلها، فصبَّر نفسه، ولم يتغير، وقال: قد ألَّفناها لله، فلا علينا أن ينسبها الناس إلينا أم لا(٤).

٥٧. قال السمهودي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ): احترق المسجد النبوي في رمضان عام ٨٨٦هـ فسقطت صاعقة لها لهب كالنار، وأنشق رأس المنارة.. وعظُمت النار جدًا، واستولت على سائر سقف المسجد، وما فيه من خزائن الكتب والربعات والمصاحف.. قال: ولم أشهد ذلك؛ لأني سافرت إلى مكة، للاعتمار مستهل رمضان المذكور، وتركت كتبي بخلوة، كنت أقيم بها بمؤخر المسجد، فاحترقت(٥).

٥٨. الونشريسي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٤هـ) له كتاب «عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق» فنَهَبَه بعض الهمَج، ممن له جرأة وتسلط على الأموال

---

(١) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣٩٩/٦).
(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٥١/١).
(٣) المصدر السابق (٢٥/٩).
(٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١٤١/١).
(٥) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (١٨٧/٢).

والمُهَج. قال مؤلفه: «فأدركني من ذلك غاية المشقة والحرج، فلجأت إلى الله -تعالى- في تجويده، وقرعت باب الفرج، ففتح الله ﷻ بابه الكريم لإعادته وتجديده»[١].

٥٩. عبد الرحمن الأخضري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٣هـ) بدأ «مختصر الأخضري في العبادات على مذهب الإمام مالك» ثم سرقت منه النسخة، لكن أعيدت له بعد مدة[٢].

٦٠. الفقيه المؤرخ أحمد بابا التنبكتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٦هـ) قال: أنا أقل عشيرتي كتبًا؛ نُهِبَ لي ألف وست مئة مجلد[٣].

وقد تشرد التنبكتي بسبب الحرب، فقال متحزنًا ومتحسرًا: ثم وقعت علينا محنة، وشُتِّت شملنا، وذهبت نفائس كتبنا -جعلها الله تعالى كفارة وتمحيصًا-. ومن شدة المحنة التي ذاقها كان يقول: لا ردَّني الله إلى هذا المعاد، ولا رجَّعني إلى هذه البلاد[٤].

٦١. سليمان بن مشرّف التميمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٩هـ) جدُّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب. شرَحَ «الإقناع»، فلما علم أن منصور البهوتي شرحه أتلف شرحه[٥]. وليته لم يفعل!.

٦٢. الإمام يوسف الزغواني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٧هـ) سافر عن طريق البحر، فأغار قرصان النصارى على السفينة التي هو بها، ونُهبت كتبه ومكاسبه[٦].

٦٣. كان بمدرسة سليمان باشا خزانة كتب، فسُرق منها كتب، فاتَّهموا بها شيخ القراء بدمشق إبراهيم بن عباس الخلوتي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٦هـ)، فأخرجوه من المدرسة ظلمًا، ولم يكن له علم بذلك، ثم إن الذي أخذها ظهر بعد ذلك[٧].

---

(١) عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق (ص: ٧٩).
(٢) هدية العارفين (١/٥٤٧).
(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/٤٣٣) ونيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٧).
(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٧١) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٥/١٣١).
(٥) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٣/١٥٦٦).
(٦) تراجم المؤلفين التونسيين (١/٨٤).
(٧) انظر: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١/٨).

٦٤. عبد النصير القورصاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٢٧هـ) فقيه سلفي، له مصنفات. زار بخارى، فلقي فيها من متعصبي المذاهب أذى كبيرًا، فأحرقوا بعض كتبه، وأفتَوْا بقتله(١).

٦٥. تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، من تأليف ابنه محمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣١هـ) وحين انتهى من تأليفه هذا في سيرة أبيه سُرقت منه النسخة! ثم رجع يكتبها من جديد(٢).

٦٦. علي بن محمد السناني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٩هـ) جمع مكتبة ضخمة، أغلبها من المخطوطات. ودمَّر السيل معظم ما في هذه المكتبة عام ١٣٢٢هـ عندما اجتاحت السيول محافظة عنيزة، وهدمت منزله. وكان يقول: واللهِ إن تلَف هذه الكتب النفيسة، معادِلٌ عندي ما تلِف من الأموال وغيرها(٣).

٦٧. بدر الدين الحَسَنِي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ) يقول مَن قرؤوا عليه مدة طويلة: إنه ألَّف نحو أربعين كتابًا، قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، ولا يُعلم أين ذهبت(٤). ولعل الاحتلال الفرنسي على سوريا هو الجاني.

٦٨. أحمد بن حسن الزيات -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٨هـ) صاحب «مجلة الرسالة» صنف كتابه: «العراق كما عرفته»، ولكن احترق الكتاب قبل نشره(٥).

وتأمل حسرة الزيات، وهو يحكي الموقف بأسلوب أدبي مؤثر، حيث يقول: وُلد لي ولدان في يوم واحد: طفل وكتاب. وكان طفلي وكتابي أعز شيء علَيّ؛ لأن ابن نفسي كان نتيجة أربعين سنة من خير عمري، وابن فكري كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي. أجل! قضيتُ ثلاث سنين في تأليف «العراق كما رأيته»! فهيأتُه للطبع..

---

(١) الأعلام للزركلي (١٧١/٤).

(٢) كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي - د. علي الصلابي (ص٥٥٠).

(٣) انظر: مقال (مصير المكتبات الخاصة) في مجلة القافلة، الصادرة عن شركة أرامكو السعودية.

(٤) انظر: الأعلام للزركلي (١٥٧/٧).

(٥) الأعلام للزِّرِكلي (١١٣/١).

ولكن؛ وا لَهْفَتاه على ولدِي الذي أبدعه الله! وعلى أخيه الذي أبدعتُه!.. دَبَّ للطفل الموت.. ومشى للكتاب القدر المحتوم! لأترك هذا الورق المهمَل لخادم البيت تَكنِسه، ثم تطرحه على عادتها في صندوق الكُناسة، ويأتي الزبَّال، فيأخذ ما تجمَّع إلى المستوقِد!(١)

٦٩. القاصُّ السوري فؤاد الشايب -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٠هـ) ألقى وهو في الأرجنتين محاضرات عن خطر الصهيونية، فأحرق اليهود منزله، وفيه مكتبته ومدوّناته، فمات بعد يومين؛ حسرةً عليها(٢).

٧٠. لما غرقت مكتبة الشيخ علي بن صالح البنيان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٩هـ) تأثّر تأثُرًا بالغًا، ولزم على إثره الفراش؛ وكان يقول: لو كانت هذه الكارثة بأحد أبنائي لكان أهون علي!

٧١. المؤرخ إبراهيم العياشي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٠هـ) مكث سنة يحقق كتابًا عن «الحجرات التي كان يسكنها رسول الله ﷺ» فاغتاضت زوجته؛ من كثرة إعراضه عنها وعن أولادها، فسوَّلت لها نفسها أن تُحرق كتابه؛ ليتفرغ لهم -بزعمها- ففعلت فَعلتها، فاشتد حزنه، حتى أصيب بالشلل متأثرًا(٣).

٧٢. المؤرِّخ النسَّابة حمد الجاسر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) احترقت كتبه في بيروت، وتزامن معها وفاة ابنه محمد في حادث سقوط طائرة. فقال الجاسر كلمة مؤثرة، تَدُلُّك على حجم مصائبهم في فَقْد كُتبهم! قال: لَفَقْدُ كُتبي أشدُّ على نفسي مِن فقْدِ وَلَدي!(٤).

٧٣. وفي (تويتر): عزاء لأحد طلبة العلم البحرينيين، واسمه الشيخ خالد الأنصاري، فقد أفادوا أنه غرق ٨٠٪ من مكتبته من المطر، بما فيها تحقيقاته ومؤلفاته! أخلف عليه خيرًا.

---

(١) باختصار من مجلة الرسالة (رقم العدد ٣٤١).
(٢) مقال في صحيفة الثورة السورية عام ٢٠٠٦ (نقلاً عن الشبكة الالكترونية).
(٣) انظر كتاب: كل معاني الحب - أنيس منصور (ص١٣).
(٤) مجلة اليمامة (عدد ١٣٩٢ تاريخ ١٤١٦/٩/٤هـ).

٧٤. وفي (تويتر) أيضًا: احترقت أقدم مكتبة في الأردن، واسمها مكتبة الجاحظ، ويبلغ عمرها أكثر من ٢٠٠ عام، والْتهمتِ النيران أكثرها، ومن جراء ذلك رحل بعدها بأيام أمينُها «هشام المعايطة» -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٩هـ) إثر حادث سير! وكأن هذا الورّاق ما احتمل البقاء بعد فراق مكتبته!



بعد لقياكم المترعة بالعلقس القول

رَعَى اللهُ ساعاتٍ تقضّت بقربكم ... قصارًا وحيّاها الحيا وسقاها

فما قُلْت إيهٍ بعدها لمسامرٍ ... مِنَ الناس إلّا قال قلبي آها

٨٣. حسرة من أعارَ كتابًا فلم يرجع

هذه الحسرة ليست لأجل قيمة الكتاب، أو شُحّ وجوده، بل بنفاسة التعليقات الشخصية عليه، أو بنوع طبعته النادرة، أو أن صاحبه لا يبالي بردِّ الأمانات إلى أهلها.

أجـود بـجُـلِّ مـالـي لا أبـالـي وأبـخـل عـنـد مـسـألـة الـكـتـابِ
وذاك لأنـنـي أنـفـقـت حـرصًـا على تحصيله شـرْخ الـشـبـابِ[١]

كان ابن رزين الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٣هـ) يقول: ما أعرتُ كتابًا إلا ظننتُ أنه لا يرجع إليَّ، فإذا عاد عددتُ ذلك نعمة جديدة[٢].

قال ابن شهاب: إياك وغلول الكتب! قيل: وما غُلولها قال: حبسها[٣].

ويدور حال العلماء وأهل الكتب، في باب إعارة الكتب على ثلاثة أَضرُب:

أ- من يبذل كتابه لكل مستعير وطالب، بلا شرط ولا قيد، حتى إن بعض العلماء يرى أن ترك الإعارة من الغلول. وقد كان ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) ينكر إنكارًا شديدًا، على من يُسأل شيئًا من كتب العلم التي يملكها، ويمنعها من السائل، ويقول: ما ينبغي أن يُمنع العلم ممن يطلبه[٤].

وفي هذا يقول شاعر على هذا المنحى:

ألا يـا مـالـكًـا لـلكُتْب عِـزْهـا فـمـا بـإعـارةٍ لـلـكـتْـب عـارُ
لئن أحـبـبـتَ مـن دنـيـا كـتابًا فـمـحـبـوب الأحـبـة قـد يُـزارُ[٥]

وآخر يؤكد هذا المعنى بجزالة وكرم، فيقول:

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٩).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٥٥).
(٣) الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع (ص: ٢٢٤).
(٤) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٦٦).
(٥) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٤/٣٢١).

كُتْبي لأهل العِلْم مبذولةٌ ... يدي مثل أيديهمُ فيها
أعارَنا أشياخُنا كُتْبهمْ ... وسنة الأشياخ نُمضيها[(١)]

فأما إمام في العلم يستعير كتابًا؛ فتلك هي الغنيمة للمُعِير.

وقد كان ابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) إذا قدم على زُفَرَ يُعِيره كُتُبه عن أبي حنيفة، فيكتبها، حتى كتبها مرارًا[(٢)].

لكن هذا التوسع له ضريبته، وهي ضياع جملة من الكتب؛ إهمالًا، أو نسيانًا، أو حياءً.

ولقد ضاع لابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) -بسبب سماحته بإعارة كتبه- شيءٌ كثير جدًّا، بحيث فُقِد منها ما يُنيفُ على مئة وخمسين مجلدةً، وربما بيعت في السُّوق ويشتريها[(٣)].

ب- من يمنعه ألبتَّة؛ لأنه جرَّب وعانى ويلات، وتجرَّع غُصَصًا، من كتبٍ جُحِدت، ومن كتب أتلفت، وكتب عادت ناقصة، أو جريحة أو كسيرة! ولهذا قال شاعرهم ومُناصرهم:

إذا فُقِدَ الكتاب فذاك خطب ... عظيم قد يجِل عن العظيم
وكم قد مات من أسَفٍ عليها ... أناس في الحديث وفي القديم[(٤)]

وقد كان العلامة محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) إذا طُلب منه إعارة كتاب يعتذر منه، ويدعوه للاطلاع داخل المكتبة[(٥)].

لا تُعِيرَنَّ كتابًا ... واجعلِ العُذر جوابا
من أعارنَّ كتابًا ... فلَعَمري ما أصابا[(٦)]

---

(١) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية (ص: ٧٠).
(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ١٤٢).
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٠١٨/٣).
(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٥٠).
(٥) ظل النديم - جواد العلي (ص: ٩٨).
(٦) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٣٢١/٤).

ج- ولعل التوسطَ أن يُعيرَ ولو وِقْرَ بعيرٍ، لكن لو يقيَّد بثلاثة قيود:

١. أن يُعيرَه من يُعيدُه على غلبة الظن.

٢. ألا يُعيرَ النفيس والنادر والمخطوط، وما جرى مجراه.

٣. ألا تكون حاجته له قائمة، كبحث حاضر يزاوِله، ومن مراجعه هذا الكتاب.

وأما الكتُب المكررة؛ فالسخاء بَذْلُها لطالب علم فقير، إلا الطبعات النادرة، والنادر لا حكم له، ولا إعارة له.

ولذا ترى سِمة هؤلاء الطائفة المانعين الباذلين، أنهم يتنازعهم مادّتان: بين المنع خوفَ الإهمال، وبين البذل خوفَ منع الماعون. فتراهم قد سلكوا في ذلك مسالك تأديبية حازمة، وتهديدات تلميحية لاذعة، وإليك بعض تهديداتهم وتأديباتهم - ولا يُلامون:

١. كان بعض أهل العلم يلوِّح، فيكتب على ظهور كتبه التي يُعيرها: يا رب من حفظ كتابي فاحفظه، ومن أضاعه فلا تحفظه.

٢. وكتب آخر: كتابي أعز شيء عليَّ وإحسانك إليه إحسانك إليَّ(١).

٣. والآخر يضع الرهن الغالي؛ لأن كتابه عنده أغلى، فيقول:

لن أُعير الكتاب إلا برهنٍ ... من نفيس الرُّهون تِبْرًا ودُرّا(٢)

٤. كان بعضهم إذا سأله إنسان أن يعيره كتابًا قال: أرِني كتبك. فإن وجدها مَصونة مكنونة أعاره، وإن رآها مُغبّرة مُتغيرة منعه(٣).

٥. ابن مقلد الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٣هـ) أعارَ كتابًا لشخص، فعُدم، فألزمه باستكتاب نسخة منه، وبالخزانة لهذا الكتاب قريب عشر نسخ(٤).

٦. عبد الرحمن بن فطيس -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٢هـ) كان لا يُعير كتابًا من أصوله البتَّة، وكان إذا سأله أحد ذلك، وألحفَ عليه أعطاه للناسخ، فنسخه وقابله، ودفعه إلى المستعير، فإن صرفه وإلا تركه عنده(٥).

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٨).

(٢) أدب الإملاء والاستملاء (ص: ١٧٨).

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٧).

(٤) ذيل مرآة الزمان (٤/٢١٠).

(٥) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٩٨).

٧. الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) عقد بابًا عنوانه: «من سلك في إعارة الكتاب طريق البخل، وضنَّ به عمن ليس له بأهل». وحكى عن بعض أهل العلم أنه إذا أتاه رجل يستعير منه كتابًا امتحنه؛ ووعده وردَّده، فإن عاد إليه ولم يَضجر أعاره، وإن لم يعد إليه كُفي أمره، وعلم أنها شهوة كاذبة عرضت[1].



(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٦).

٨٤. حسرة من ارتحل؛ ليَلقى شيخًا، فمات الشيخ قبل أن يلقاه تلميذه:

تهيج الذكرى بالتلاميذ إذا شابت لحاهم، وقد غادرَهم شيخهم للدار الآخرة، فتجِدُ الواحد منهم يدافع عبراته، كلما سمع اسم شيخه المقدم، وإذا مرّت به مسألة معضلة، فلسان حاله يقول: معضلةٌ ولا شيخي لها!

وأما إذا استعاد ذكرياته عن مجلس شيخه، وطريقته في طرحه للمسائل، فإنك واجده قد بلغ الوَجْد منه مبلغًا بالغًا.

خذ ثلاثة أمثلة من التوجد:

• قال مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ): ذهبت حلاوة الفقه، منذ مات ربيعة بن أبي عبد الرحمن[١].

• وقال علي بن المديني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٤هـ): كان عِلم عبد الرحمن بن مهدي في الحديث كالسِّحر[٢].

• وقال الوليد بن مزيد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٣هـ): ما سمعت كلام متكلم، إلا وإذا كررته خَلِقَ، غير كلام الأوزاعي؛ فإنك كلما كررت النظر فيه زاد حلاوة[٣].

ثم سَلْ نفسك - أيها القارئ الكريم- إن كنتَ لم تلْقَ العلماء الأعلام في عصرك، كالإمام ابن باز، وكابن عثيمين والألباني وابن جبرين -رحمهم الله تعالى-.

ما شعورك، وأنت قد قَدِرت على لُقيا أولئك الفَطاحلة؟! ولكنك لم تتعنَّ للُقياهم، فماتوا ففاتوا! وكأني بك تقول: لا تهيِّج الذكرى، فتُحزِنَني!

(١) الطبقات الكبرى ط العلمية (٤١٦/٥).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/٩).
(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٨٥/١).

ولكن هوِّن عليك: فلكَ سلَفٌ بأئمة أصابتهم الحسرة، لما قطعوا الفَيافي؛ لِلُقْيا قمر من الأقمار ليلة البدر، ثم يُفجَؤون فيُفجعون بأن القمر خَسَف! بأن مات قبل وصولهم إليه!

وإن من فضل الله -تعالى- الكبير أن الله يأجُر العبدِ على نيته، وإن لم يبلغ بذلك عمله! وهذا خير عوض، وأحسن عزاءٍ لمن فُجع بموت من أُنشِئَ السفر إليه؛ لأخذ العلم عنه.

ألم يقُلِ النبي ﷺ: **وإنما لكل امرئٍ ما نوَى**؟![1]

فهذه العبارة النبوية مبشِّرة؛ لأنها -كما قال ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ): تقتضي أن من نوى شيئًا يَحصل له، إذا حال دون عمله له، ما يُعذر شرعًا بعدم عمله[2].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): من كان عازمًا على الفعل عزمًا جازمًا، وفَعَل ما يَقدر عليه منه، كان بمنزلة الفاعل[3].

ودونَك الآن أربعة عشر مثالًا لمن سافر؛ ليَلقَى شيخًا ما لقيه، فمات الشيخ قبل اللُّقِي:

١. قال حماد بن سلمة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٧هـ): قدمتُ مكة، وعطاء بن أبي رباح حي، فقلت: إذا أنا أفطرتُ دخلتُ عليه [أي بعد عيد الفطر] فمات عطاءٌ في رمضان![4].

٢. قال ابن وهب -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٧هـ): دخلت المسجد، فإذا الناس مزدحمون على ابن سمعان، وإذا هشام بن عروة جالس، فقلت: أسمع من هذا، وأصير إليه، فلما فرغت قام، فأتيت منزله، فقالوا: هو راقد، فقلت: أحجُّ وأرجع. فرجعت وقد مات![5].

---

(١) صحيح البخاري (١).
(٢) فتح الباري لابن حجر (١/١٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/٢٣٦).
(٤) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٧١).
(٥) المصدر السابق (ص: ١٧٥).

٣. قال علي بن عاصم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠١هـ): خرجت من واسط إلى الكوفة (١٨٠ كلم) فدخل هُشيم الكوفة بالغداة، ودخلتُها بالعَشي، فذهب هشيم، فسمع من منصور بن المعتمر أربعين حديثًا، ودخلت أنا الحمام، فلما أصبحتُ مضيتُ، فأتيتُ باب منصور، فإذا جنازة فقلت: ما هذه؟ قالوا: جنازة منصور! فقعدتُ أبكي![1].

٤. سافر الحميدي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٩هـ) ليسمع حديثًا واحدًا، من الوليد بن جريج، فلقيَ في الطريق ابن عم له، فقال: يرحم الله أبا العباس! مات أمس، فقال الحميدي: هذه حسرة![2].

٥. رحل أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) من بغداد إلى قيسارية بسورية [١٠٠٠ كلم] قاصدًا محمد الفريابي، فلما قرب من قيسارية نُعي إليه! فعدل إلى حمص[3].

٦. رحل ابن رزين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) إلى الفريابي، من سوسة بتونس، إلى قيسارية بسورية [مسافة ٣٥٠٠ كلم]، فوجده يُقبر! وكان ابن رزين يقول: ما نزلت فيَّ حسرة ما نزلت فيَّ بمحمد الفريابي[4].

٧. رحل ابن مزين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٠هـ) واثنان من العلماء معه مسافة ٦٨٠ كلم من قرطبة [إسبانيا] إلى مكة للُقيا شيخ فيها، فوجداه قد مات قبل لقائهما بأيام![5].

٨. أحمد بن عبد الله العجلي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦١هـ) قال: رحلت إلى أبي داود الطيالسي، فأصبته قد مات قبل قدومي بأيام[6].

٩. أحمد الأبَّار -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٠هـ) استأذن أمه، في الرحلة إلى قتيبة بن سعيد[7] فلم تأذن. ثم ماتت، فخرج من بغداد، فلما وصل إلى بلخ (بأفغانستان) فإذا قتيبة قد مات!. يالهما من حسرتين!

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٧٣).
(٢) المصدر السابق (ص: ١٨٤).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥٣/٥) والكامل في ضعفاء الرجال (٤٦٩/٧).
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٩١/٤).
(٥) المصدر السابق (٢٤٩/٤).
(٦) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٨٠).
(٧) قتيبة هذا؛ قد رحل إليه النسائي، ومكث عنده سنة كاملة!.

فجعلوا يعزُّونه على هذا، فقال مسلِّيًا نفسه، وراضيًا بهذه المصيبة: هذا ثمرة العلم؛ لأني اخترت رِضى الوالدة[١].

١٠. أبو علي الحسن بن نصر السّوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤١هـ) عزم على الرحلة الى محمد بن عبد الحكم، فبلغه وفاته! فقال: ما اغتممتُ لشيء مثل غمّي لذلك![٢].

١١. أبو بكر الإسماعيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧١هـ) يقول: لما ورد نعي محمد بن أيوب الرازي، بكيتُ، وصرخت، ومزَّقت القميص، ووضعت التراب على رأسي! فاجتمع عليَّ أهلي وقالوا: ما أصابك؟ قلت: نُعيَ إليَّ محمد بن أيوب، مَنَعْتُموني الارتحال إليه؟! قال: فسلَّوني وأذنِوا لي في الخروج[٣].

وقد يُعذر لهذه التصرفات؛ لصغر سنه، فقد كان يبلغ سبع عشرة سنة، ولأن أهله منعوه من لذته الكبرى!

١٢. أبو الطيب الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٠هـ) يقول: خرجت من آمُل إلى جرجان (٢٠٠ كلم - كلتهما في إيران) للقاء أبي بكر الإسماعيلي، والسماع منه، فوصلت الخميس، فاشتغلتُ بدخول الحمام، ولما كان من الغد رأيت ابن الإسماعيلي، فأخبرني أن أباه قد شرب دواء؛ لمرض كان به، وقال لي: تجيء في صبيحة غد؛ لتسمع منه. فلما كان في بكرة يوم السبت غدوت للموعد، وإذا الناس يقولون: مات أبو بكر الإسماعيلي![٤].

١٣. قال الأديب النحوي القِفْطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ) متحسرًا لفراق أحد شيوخه: وقد كنتُ لقُرب داره أستفيد من مذاكرته، إلى أن انتقلتُ عن جواره، ففاتَتْني فوائده. ثم يَستدرِك القِفْطي، فيقول مُعزيًا نفسه: ومع هذا فإنني أسمع فوائده من تلاميذه، فتقوم عندي مقام شخصه وإن غاب[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٧٤/٢١).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣٤/٦).
(٣) تاريخ جرجان (ص: ١٠٩).
(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٣٦٤/٩).
(٥) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٥٠/٤).

ولو لاحظتَ في الأمثلة الآنفة الذِّكر، لوجدتَ أن منها ما يكون فارِق التأجيل ساعة، أو ليلة، فكما أن القدَر سابق، والأجر محفوظ، إلا إن الحزم مطلوب، والله يقضي ما يشاء، والله -بفضله- يعوضه خيرًا مما فقدَ، على قدر نيته وهمته:

وقَلَّ مَن جَدَّ في أمر يحاوله ... واستصحَبَ الصبر إلا فاز بالظفَرِ[1]

١٤. أما أشد الحسرات؛ فهي واقعة شنيعة، وهي من أعظم الدواهي التي أصيب بها المغرب الأقصى، حيث غرقت سفن على ساحل تونس سنة ٧٥٠هـ، وكان فيها نحو أربع مئة عالم، من أكابر علماء المغرب![2].



(١) العقد الفريد (٢٠١/١).
(٢) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٦٧٢/٣).

٨٥. حميَّتهم وغَيرتُهم بل وغَضْبتهم لأجل العلم

عشقوا العلم، فدافعوا عنه، وغضبوا لأجله، ولأجل من جاء به إليهم، ألا وهو نبينا ﷺ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، فحمَوا حِمى إرثهم الثمين. وإليك ثلاثةَ عشر موقفًا:

١. ابن عمر رضي الله عنهما (ت ٧٨هـ) من غَيرته على اللغة العربية؛ كان يضرب بَنيه على اللحن(١).

٢. وهذا ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) يُفصِح عن مكنونه نحو الجهلاء، فيقول - وما أجمل ما يقول-: غاظَني أهل الجهل مرتين من عمري: إحداهما بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي، والثانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتي.. وسرني أهل العلم مرتين من عمري: إحداهما بتعليمي أيام جهلي، والثانية بمذاكرتي أيام علمي(٢)

٣. الشاعر أبو العلاء المعري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٩هـ) يصف ضَعف طلبة العلم في زمانه، برغم توفره، فيقول: وجدتُ العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة، وأرخص من الصَّيحاني بالجابرة.. وأقرب من الجريد باليمامة. ولكن على كل خير مانع، ودون كل دُرة خرساء(٣).

٤. المستظهري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٧هـ) من كبارعلماء الشافعية؛ يوم أكمل درسًا لمن مات قبله، وضع منديله على عينيه وبكى كثيرًا، وأنشد:

خلَتِ الديار فسِدْتُ غير مسوَّدِ ... ومن العناء تفرُّدي بالسؤددِ

وجعل يردد هذا البيت، ويبكي.

قال ابن خَلكان -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨١هـ): وهذا إنصاف منه، واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه(٤).

---

(١) النفقة على العيال لابن أبي الدنيا (٥٠٨/١).

(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ٢٤).

(٣) معجم الأدباء (٣١٣/١) الجابرة: اسم للمدينة، والصيحاني: نوع من تمرها، والخرساء: الحية، يقال إن الدُّرَّة تحرسها حية.

(٤) وفيات الأعيان (٢٢٠/٤).

٥. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): والعَجَب لمن شرُفت نفسه، حتى طلب العلم -إذ لا تطلبه إلا ذو نفس شريفة، كيف يذِل لبذل من لا عزه إلا بالدنانير، ولا فخره إلا بالمُكْنة؟!(١)

٦. أوصى الحافظ عبدالغني المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ) ابنه عند موته فقال: لا تضيعوا هذا العلم الذي تعبنا عليه - يعني الحديث -(٢).

٧. من مَواقف شيخِ الإسلامِ ابنِ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) الجليلة العظيمة في الانتصار للعلم والدين: انتصاره لمقام النبي ﷺ فقد سَبَّ رجل النبي ﷺ فدخل ابن تيمية على نائب السلطنة، فكلمه في أمره، -وكان عمُر ابنِ تيمية آنذاك اثنتان وثلاثون سنة- فأجابه النائب إلى ذلك، فرأى الناس النصراني، فرجموه بالحجارة، فأرسل النائب، فطلب الشيخ ابن تيمية، فضربه بين يديه، وصنف ابن تيمية من ذاكرته وهو محبوس كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول»؛ غضبة لله ورسوله(٣)

٨. وعلي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) يقول في مطلع كتابه «السيف المسلول على من سبَّ الرسول ﷺ» عن سبب تصنيفه: كان الداعي إليه أن فُتيا رُفعت إليّ في نصراني سبّ النبي ﷺ ولم يُسْلم، فكتبتُ عليها: يُقتل النصراني المذكور كما قَتَل النبي ﷺ كعبَ بن الأشرف، ويُطهّر الجناب الرفيع من ولوغ الكلب.. وليس لي قدرة أن أنتقم بيدي من هذا الساب الملعون، والله يعلم أن قلبي كارِهٌ منكر، ولكن لا يكفي الإنكار بالقلب ها هنا، فأجاهد بما أقدر عليه من اللسان والقلم، وأسأل الله عدم المؤاخذة بما تقصر يدي عنه، وأن ينجِّيني كما أنجى الذين ينهون عن السوء، إنه عفوّ غفور(٤).

٩. رأى بعض العلماء رجلًا قد جلس على كتاب، فغضب وقال: سبحان الله! يصون ثيابه ولا يصون كتابه! لَصَوْن الكتاب أولى من صَون الثياب(٥).

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٤٥٨).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (١/١٩٣).
(٣) الوافي بالوفيات (٢٠/٧٣) والأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٢٢) والبداية والنهاية (١٧/٦٦٦).
(٤) السيف المسلول على من سب الرسول (ص: ١١٤).
(٥) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٤٧).

نعم؛ تأخذهم الحمية للعلم، ولو كان من علوم الآلة؛ لأنها وسيلة لفهم الشريعة، وطريق لتدبر القرآن.

١٠. فهذا أبو عثمان المازني النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٨هـ) قصده بعض أهل الذمة؛ ليقرأ عليه كتاب سيبويه، ويعطيه مئة دينار على تدريسه إياه، فامتنع من ذلك، فقيل له: أترد هذه النفقة مع فاقتك وشدة حاجتك؟! فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاث مئة وكذا وكذا آية، من كتاب الله ﷻ، ولستُ أرى أن أمكِّن منها ذِمِّيًا؛ غيرةً على كتاب الله ﷻ وحمية له![1]

١١. وهذا علي بن عيسى الربعي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٠هـ) شرَح كتاب سيبويه، ثم غسله؛ وسبب ذلك أن أحد أولاد التجار، سأله يومًا في مجلسه عن مسألة فأجابه، فنازَعه في الجواب، فقام من فَوره مغضبًا، ودخل البيت، وأخذ الشرح، وجعل يصب عليه الماء، ويقطعه ويلطم به الحيطان، ويقول: أجُعِلَ أولاد البقَّالين نحاة؟![2]

بل تراهُم يذهبون لأبعد من ذلك؛ حيث يُحامُون عن علم الأبدان، كما يُحامُون عن علم الأديان، وتطمح هِمَمُهم لتعلُّمه؛ لأنه عِزَّة للمسلمين، وغُنْية عن احتياج الكافرين:

١٢. كان الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) يتلهَّف على ما ضيع المسلمون من الطب، ويقول: ضيعوا ثلث العلم، ووكَلوه إلى اليهود والنصارى[3].

١٣. العلامة المازري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) صاحب «المُعْلِم بفوائد شرح مسلم» مرِض مَرْضةً، فلم يجِدْ من يُعالجه إلا يهودي، فلما عوفي على يده، قال: لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدمتك![4] فأثَّر هذا عند المازري، فأقبل على تعلم الطب، حتى فاق فيه، وكان يُفتي فيه كما يفتي في الفقه[5].

---

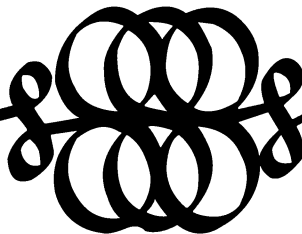
(١) المنتظم (١٢/١٢) ومرآة الجنان وعبرة اليقظان (٨٢/٢) والبداية والنهاية (٤٥٨/١٤) وثمرات الأوراق في المحاضرات (٣/١).

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٤٩).

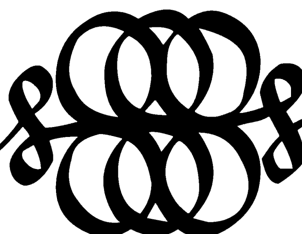
(٣) سير أعلام النبلاء (٥٧/١٠).

(٤) لا يَغِبْ عن بالِك قول ربك: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

(٥) سير أعلام النبلاء (١٠٤/٢٠).



الباب السابع عشر:
مقولات وتوصيات



٨٦. مقولات متلذِّذين بالقراءة، من مفكري الشرق والغرب:

المجتمع الغربي -خصوصًا- مجتمع شغوف بالقراءة، ومحفز على التأليف والنشر.

حدثني أحد الإخوة من طلبة العلم أنه: سافر في الحر الشديد لمدريد؛ لسياحة علمية، فتعطلت حافلتهم، فنزل الركاب الأسبان، وجلسوا على الأرض؛ ينتظرون إصلاحها، وفتح كل واحد منهم حقيبته، وأخرج كتابه يقرأ تحت حر الشمس، وفي لهيب الصيف!

فهم مجتمعات تعتبر القراءة وجبة كالأكل والشرب.

ومن طرائف المواقف: أن صاحب مكتبة في إنجلترا، طلب المساعدة؛ بسبب تغيير مكان مكتبته، ويرغب في نقل الكتب. ويَتفاجأ الرجل بحضور أكثر من مئتي شخص، مكوِّنين سلسلة بشرية؛ ليتناولوا آلاف الكتب، وينقلوها يدًا بيد، من المكان القديم للجديد! بمسافة (١٥٠ مترًا) في ساعة واحدة! حقًا إنها شعوب تعرف قيمة الكتاب!

قال الشيخ صديق حسن القِنَّوجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ): ويالله العجب! من أهل ملة الإسلام! إنهم قعدوا عن إدراك العلوم والفنون، وتركوا قواعد التأليف والتحقيق مع حدودها والرسوم. والذين ليسوا من أهل جلدتنا، ولا من أصحاب ملتنا، قد اعتنوا بجميع الكمالات، وفاقوا فيها غالب أهل الصناعات؛ بحيث لا يَلحق شأوَهم أحدٌ من العُصبة الحاضرة[١].

والمجتمع الغربي -خصوصًا- سَبقونا في مجال طباعة وقراءة الكتب، سَبقًا بعيدًا. ومن جراء هذا السبْق منهم؛ فقد كثرت مقالاتهم الحاثَّة والحاضَّة على القراءة،

(١) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٨٠).

وعلى القراءة فحسب؛ لأنهم ليسوا كالمسلمين، يجِدون مصادر للتلذذ بالعلم تفوق العشرين -كما بيَّنته أول الكتاب.

وإليك دليلًا على أن مقالاتهم تنصَبُّ على التلذذ بمجال القراءة فحسب، من خلال طائفة منتقاة من أقوالهم، وهي مبثوثة في وسائل التواصل التقني. ومنها ما يلي:

١. لا أعيش إلا عندما أكتب (تينس ويلمز).

٢. الكتاب العظيم الذي يَصدر عن مفكر عظيم، هو سفينة للفكر، محملة بالحقيقة والجمال (تيودر باركر).

٣. عندما تقرأ كتابًا، فترتفع معنوياتك، وتحس بأنك ملهم بأفكار نبيلة؛ فذلك شهادة بجودة الكتاب، وصدوره عن عقل عارف ومُجيد (لا برديري).

٤. الكتب والمؤلفات في الشريعة الإسلامية كنز لا يفنى، ومَعين لا يَنضَب، أمدّت المدنية المسيحية الحاضرة بقسط وافر من الأصول العامة (لامبير الفرنسي).

٥. القراءة هي الفأس الذي نحفر به أفكارنا (مالرو).

٦. سئل: مَن سيقود جنس البشر؟ فأجاب: الذين يعرفون كيف يقرؤون (الفرنسي فولتير).

٧. بعض الكتب يمكن تذوقها، وبعضها يمكن ابتلاعها، والقليل منها تُمضغ وتُهضم (فرانسيس بيكون).

٨. قراءة الكتب الجيدة كمحادثة أفضل الرجال في القرون الماضية (رينيه ديكارت).

٩. البيت دون كتب كالجسد بلا روح (ماركوس توليوس).

١٠. الدماغ أفضل (سينما) في العالم، وستعرف ذلك عند قراءة كتاب جيد (ريدلي سكوت).

١١. يموت ببطء من لا يقرأ (بابلو نيرودا).

١٢. لا أحد يمكن أن يقرأ بفائدة ما لا يستطيع أن يقرأه بمتعة (بورنز).

١٣. كن صديقًا للقراءة، فبيتُها غني، وعطاياها سخية، وجناتها وارِفة (حمزتوف).

١٤. لو أنك تملك حديقة ومكتبة فقد ملكت كل شيء (سيسرو).

١٥. الحياة تستحق أن تُعاش؛ إذ يكفي أن ندرك أننا لن نقدر على القراءة، إن لم تكن هناك حياة[١] (ماريو برغاس).

١٦. إنني عصارة كتبي (فيدياذار).

١٧. حدثني صديقي عن: قرية لم يأكل أهلها منذ ثلاثة أيام، لكنهم ما زالوا يتحدثون عن الكتب والتعلم (دوريس ليسينغ).

١٨. ما حلَّ بي جيش الهموم، إلا بدَّدْتُه بساعة واحدة من القراءة (الفرنسي مونتسكيو).

١٩. زمن القراءة كزمن العشق؛ يزيد من طول العيش (الفرنسي دانيال بناك).

٢٠. لم تَعُد القراءة وسيلة لغاية، بل أصبحت هي الغاية (مانغويل)[٢].

٢١. إن الكتاب وهو ملقًى على الرف، أشبه بالجسم الميت، تدِب فيه الحياة إذا ما امتدت إليه يد القارئ (جان بول سارتر).

٢٢. هناك من لا يستطيع تخيّل العالم بلا طيور، وهناك من لا يتخيّل العالم بلا ماء، أما بالنسبة إليّ، فأنا غير قادر على تخيّل العالم بلا كتب! (بورخيس).

٢٣. أنا أقرأ كي أستدعي روحي (والت ويتمان).

٢٤. هناك فرق عظيم بين شخص متشوِّق، يريد أن يقرأ كتابًا، وشخص متعَب يريد كتابًا؛ ليقرأه (جلبرث كيث).

إنباهَةٌ:

لا يذهب وَهْلُك أن هؤلاء القُراء المتلذذين نالوا عِلما كبيرًا، ولا تظنَّ أنهم فاقُونا بمقروءاتهم. كلا، بل نَيل اللذة الكاملة الكامنة إنما هو في العلم الإلهي، والموروث النبوي، بل أمتنا الإسلامية فاقَتْ في مقروءاتها ومؤلفاتها الدنيوية جميع مقروءات ومؤلفات الأمم الأخرى! فلنفتخر، ولا نستأخِر، ولا نَنْخَذِل.

---

(١) محاضرات الحائزين على جائزة نوبل للأدب - ترجمة عبد الودود العمراني (ص٣٠).

(٢) تاريخ القراءة: ألبرتو مانغويل.

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): أمة محمد ﷺ أكمل من طائفتَي أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى وأعدَل.. فليس عند أهل الكتاب فضيلة عِلمية وعَملية، إلا وأمة محمد أكمل منهم فيها. فأما العلوم؛ فهم أحذَقُ في جميعٍ العلوم من جميع الأمم، حتى العلوم التي ليست بنبوية ولا أخروية، كعلم الطب -مثلًا- والحساب ونحو ذلك؛ هم أحذَقُ فيها من الأُمَّتَين، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأُمَّتَين[1].



(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٢٢/٦).

٨٧. توصيات للمتلذذين بالعلم وبالقراءة

فما دام العلم رحِما بين أهله -نسأل الله أن يجعلنا من أهله- فلنتواصَ بالوصايا التالية:

١. احذر طغيان العلم عليك، وعالِج دسائس إبليس بسببه، كالعُجب بالنفس، أو الغرور بالعلم، أو التكبر على الناس:

قال وهب بن مُنبِّه -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤هـ): إن للعلم طغيانًا كطغيان المال[١]:

للعلم طغيان كما للغِنى والعلم بالطغيان لا ينفع[٢]

فما وهبك الله من علم؛ فاحمد الله عليه، وبلِّغه بتواضع. فالكِبر داء طلاب العلم الدَّوِيّ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وكثير من المنتسبين إلى العلم يُبتلى بالكِبْر، كما يُبتلى كثيرٌ من أهل العبادة بالشرك، ولهذا؛ فإن آفة العلم الكِبْر، وآفة العبادة الرياء، وهؤلاء يُحْرَمون حقيقة العلم، كما قال -تعالى- ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦][٣].

٢. عليك بالتأصيل، ثم التأصيل، ثم الإبحار في إتقان ردِّ الإشكالات، وضبط الجواب عند الإيرادات:

أما القراءة كيفما اتفق؛ فهي خيرٌ، لكنها لا تُنتِج عالِمًا.

---

(١) العلم لزهير بن حرب (ص: ٢٦) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥٥/٤).

(٢) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٩٤/٤).

(٣) الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق (ص: ٢٠٧).

الفقيه عيسى بن مطير الحكمي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٠هـ) سأله الأمير عما قرأ من الكُتُب، فأعلمه، فقال له الأمير: لِمَ لا قرأت شيئًا من كتب أصول الدين؟ فقال له: قد قرأتُ ما عرفتُ به ربي، وصفاته، وحُرمة نبيي، ومَبدئي، ومَعادي. فقال: صدقتَ، ونِعْمَ ما علمتَ، ولكن لو ظهر عليكم خارجيٌّ؛ بماذا كنتم تُقابلونه؟ فقال له الفقيه: بسيفك المسلول، فقال الأمير: أحسنتَ، هكذا كان الصدر الأول من السلف[1].

كلّ السيوف تراب كان عنصرها ... بالعِلْم صار لها حدّ لمنتدبِ[2]

٣. الوقت لا يكفي لقراءة الكتب الجيدة المفيدة، فلا تُهدره في قراءة الضعيف والهزيل:

فانتقِ كتابك المقروء كما تنتقِي غذاءك المطعوم. وإياك وفُتات السطور، فمن استبدل قراءة السطور عبر التقنية بالقراءة في مفيد الكتب، فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

٤. إذا أمسكتَ بالكتاب فخذه بقوة، حتى يشعر بقوة حبك له، فيسلم لك فوائده:

يقول أحدهم: أحيانًا لا يكون لديَّ برنامجُ قراءةٍ محدد، فأقف أمام رفوف كتبي؛ لأختار منها، فأشعر أن كل كتاب يناديني: أن هلمَّ! ويكاد يُدْلي بحجته؛ ليقطع تردُدي. وبعض الكتب ألحَنُ بحجته من بعض!.

٥. التلذذ بالعلم - كما سلف - درجات، وهو كالإيمان يزيد وينقص، فراعِه عند النقصان، واهتَبِلْه عن الفيَضان:

وقد مرَّ معك كلام الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) لما قيل له: كيف شهوتك للأدب؟ فقال: أسمع الحرف منه لم أسمعه، فتودُّ أعضائي أن لها أسماعًا تتنعم،

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٣٤٤/٢) وقلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣٧٥/٥).
(٢) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٢٠٩/٤).

مثلما تنعمت الآذان؛ قيل: وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المُضِلَّة ولدَها، وليس لها غيره؛ قيل: وكيف حرصك عليه؟ قال: حِرص الجَموع المَنوع على بلوغ لذته في المال[١].

٦. لا يثْنِيَنَّك عن العلم أن كنتَ قاصرًا في موهبةٍ، كالإلقاء - مثلًا- أو أن ليس لك هِمَّة في التأليف:

فهذا المحدث المؤرخ الأندلسي أحمد الخزرجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ) كان مع تقدمه وتَبريزِه في العلوم بَكِيءَ اللسان، لا يكاد يؤلِّف بين كلمتين؛ لفَرْط حياء كان قد غلب عليه، حتى ملَكه، فإذا خلا بنفسه؛ لإنشاء أو تصنيف، أو فاوَض مَن عادته التبسط معه، والتأنُّس به، تفجَّرتْ منه بحور علم لا يكدِّرها الدِّلاء[٢].

٧. اهتبِلْ أَوْجَ النشاط، ألا وهو زمن الشبوبية والفُتوَّة:

وهـلْ جُـلُّ عُـمـرِكَ إلا الشَّبـا ... بُ فَخُذْ منه حَظًا ولا تُـهْـدِرَنَّـهْ[٣]

٨. افتح خزائن العلم بالسؤالات:

واعتبِر بكتب الفتاوى، كيف تزايَدَ نفعها، وإنما أصلها سؤالات واستفتاءات.

قال الحافظ التابعي الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ): العلم خزائن، وتفتحها المسألة[٤].

وفي «صحيح البخاري»، قال ابن عباس ﷺ: مكثتُ سنة، أريد أن أسأل عمر بن الخطاب ﷺ عن آية، فما أستطيع أن أسأله؛ هيبة له، حتى خرج حاجًا، فلما رجعنا قلت: يا أمير المؤمنين! من اللتان تَظاهَرَتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال مُعاتِبًا له: واعجبًا لك يا ابنَ عباس! ما ظننتَ أن عندي من عِلم فاسألني، فإن كان لي علم خبَّرتك به[٥].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١٤٤/٢). ومثله قاله منذر بن واصل، كما في معجم الأدباء (٢٢/١).
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤١١/١) ومعجم المؤلفين (٢٦٨/١).
(٣) السلوك في طبقات العلماء والملوك للمقريزي (٢٥٢/١).
(٤) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (٤٢٩).
(٥) برقم (٥١٩١).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): فيه شدة حرص ابن عباس على الاطلاع على فنون التفسير، وفيه البحث في العلم في الطرق، والخلوات، وفي حال القعود والمشي(١).

٩. احفظ قاموس العلم والمشيخة:

كان النحوي الأديب ابن الخشَّاب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ) قليل المبالاة بحفظ قاموس العلم والمشيخة، بحيث إنه كان يلعب بالشطرنج على قارعة الطريق مع العوام، ويمازح السفهاء، ويقف في الشوارع على أصحاب اللهو، واللعَّابين بالقرود، من غير مبالاة. وإذا عوتب على ذلك يقول: إنه يَندر منهم نوادر، لا يكون أحسن ولا ألطف منها، ومع ذلك؛ فكان لا يخلو كُمُّه من كتب العلم(٢).

١٠. في المقابل: لا تَتَزَمَّتْ بوقتك، بل أجِمَّ النفس وأحّمِض للناس:

وقد بوَّب الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) «باب ختم المجلس بالحكايات، ومستحسن النوادر والإنشادات»(٣).

وهذه سُنَّة متَّبعة؛ للإيناس، وطرد الملل، وتجديد النشاط، والتنويع في المعلومات:

أ- كان عمر رضي الله عنه (ت ٢٣هـ) يحدِّث الناس، فإذا رآهم قد تثاءبوا وملُّوا، أخذ بهم في غراس الشجر(٤).

ب- قال علي رضي الله عنه(ت ٤٠هـ): أجِمُّوا هذه القلوب، واطلبوا لها طرائف الحكمة؛ فإنها تَمَلُّ كما تمَل الأبدان(٥).

ج- قال أبو الدّرداء رضي الله عنه (ت ٣٢هـ): إني لأستجمُّ قلبي بشيءٍ من اللهو؛ ليكون أقوى لي على الحقّ(٦).

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢٩١/٩).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢٥٢/٢).
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١٢٩/٢).
(٤) أدب الإملاء والاستملاء (ص: ٦٩).
(٥) جامع بيان العلم وفضله (٤٣٣/١).
(٦) بهجة المجالس وأنس المُجالس (ص: ٢٠).

د- كان ابن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ) إذا أفاض مَن عنده في الحديث والقرآن والتفسير يقول: أَحمِضُوا. أي: خذوا في الأشعار وأخبار العرب؛ لتروِّحوا قلوبكم(١).

هـ- كان الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ) يحدِّث، ثم يقول: هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم؛ فإن الأُذن مجَّاجة، والنفس حَمِضة، فأَفِيضوا في بعض ما يَخِفُّ علينا(٢).

وذكَّرني حلوُ الزمان وطيبُه مَجالسَ قوم يملؤون المُجالسا
حديثًا وأشعارًا وفقهًا وحكمةً وبرًّا ومعروفًا وإلفًا مؤانِسا(٣)



(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/٣٦٦).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٤٣٢).
(٣) معجم الأدباء (١/٣٢).

الخاتمة

ها قد ألقيتَ عصا التِّسْيار، واستقر بك النوَى، بعد أن طوَّفت في جولة حافلة، بين ما يربو على ثلاثة آلاف عالم وطالب علم، فكن أنت الرقم التالي لهذه الألوف.

وتذكَّرْ -يا طالب العلم- أن طلب العلم يرفعك، وأن له لذة تدفعك، ولكن عجز عن وصف مقدارها العلماء، وإنما تبيَّنتَ فَحْواها بأقوالهم حين يَنطقونها علمًا، وبأحوالهم حين يُترجِمونها عملًا.

فإن ذُقت من ذلك الشراب اللذيذ المختلف ألوانه، فاحمد الله، واعلم أنك لستَ وحدك! بل سبقك كل هؤلاء الرَّكْب السَّراة المتشاكلون لا المتشاكسون.

فقد شربوا من لذة العلم أفاوِيق، واتفقتْ مَشاربهم، وإن اختلفتْ أمشاجُهم، فمنهم مخلوق من نور، ومخلوق من نار، ومخلوق من ماء مَهين.

فاشرب من كأسهم، وتلذَّذْ كما كانوا يتلذَّذُون، وأعدَّ لهذه اللذة العُدة، ولا تكن ممن ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] ولكن انطلق، وقُم مع القائمين.

وحينها ستعيش مع العلم، وتسوسُ به، وتَؤُوسُ منه - بفضل الله ورحمته- تلذذًا ووئامًا، وإذا هجرتَ العوائد فستجد عُقباها سرورًا مضاعَفًا، وستَحمد عند صباحك المنير السُّرى.

سَلَكَك الله في سِلك أوليائه، وورثة أنبيائه، وبارَك في وقتك وعلمك، وشفَّعك بعده بالعمل الخالص الموافق.

أخوك: راشد